عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

فاروق الأول

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام يحتفل به فى الأزهر

احتفلت الأمة المصرية على بكرة أبيها يوم ١١ فبراير الراهن بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، احتفالا يستوقف النظر من أشراق الوجوه ، وافترار الثغور ، وشمول السرور ، فكان يوما مشهودا من أيام الأعياد الملكية ، تجلت فيه المملكة المصرية وعلى رأسها القاهرة فى حلة بديعة من الزينات ، تحتضنها الرايات والشارات ، والأهلون يتدافعون فى الشوارع تدافع السيل ، تعبيرا عما يخالج قلوبهم من الحبور بدخول ملكهم المحبوب فى السنة العشرين من حياته الطويلة الحافلة بجلائل الأعمال إن شاء الله .

وقد قام رجال الأزهر بواجبهم من الاحتفال بهذا العيد الكريم ، تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فاحتشد فيه بعد صلاة العشاء أعلام العلماء والطلاب ، وكبار موظفى المعاهد ، وحضر الاحتفال حضرة صاحب السعادة محمد كامل باشا البندارى . وما وافت الساعة الثامنة حتى نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فألقى خطبة جمعت فأوعت من مناقب حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، فانتظمها عقدا من كرائم الألفاظ ، وعقائل المعانى ، على أسلوبه الشائق من الاعجاز فى الايجاز ، وشفعها كعادته بكلمة فى الحالة العامة كشف بها من نفسية الاجتماع الراهن ما استكن بها من الداء الدوى ، ووصف من علاجه الشافى ما يصفه النطاسى الراشد من صميم العلم الالهى ، فكان لهذه الخطابة الرائعة من الوقع فى نفوس السامعين ما لا سبيل الى وصفه ، فجزى الله الأستاذ الامام عن العلم وأهله ، ما يجزى به أولياءه الصالحين ، وأئمة دينه العاملين .

وقد ختم الاحتفال بقصيدة عصماء أنشأها وأنشدها الشاعر المطبوع ، صاحب الفضيلة الشيخ محمد الاسمر ، انتظمت من شمائل الفاروق ، ومآثره على العلم والعلماء ، ومصر والمصريين . فى ألفاظ موفقة ، وصياغة مؤنقة ، ما يعتبر من حسنات الأدب العصرى .

حبا الله حضرة صاحب الجلالة عمرا طويلا يحقق فيه لمصر وأهلها ، وللاسلام وذويه ، ما هو له أهل من اليمن والاقبال ، والسؤدد والجلال ، بفضل الله وكرمه .

فكل شيء من شأنه أن يجعل العامة أو يجعل النشء غير مستمسكين بدينهم ، يقاومه الأزهر بكل ما يستطيع من قوة .

أما الآراء العلمية ، فى حدود العلم وفى دائرته ، فإنها تدرس فى المعاهد الكبرى ، دون أن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها ، أو يكون حجرة عثرة فى سبيلها .

مسئولية الأزهر فى الحياة الاجتماعية :

وأما الحياة الاجتماعية ، فالله تعالى يقول : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » .

هذا هو الذى يدخل فيه الأزهر ، فهو يقاوم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويقاوم الذين يقولون على الله بغير علم ، والفواحش ليست من الكثرة بحيث إذا انعدمت من أمة ضاع هناؤها وترفها وسعادتها ، وفى المباحات من الكثرة ما يجعل الحياة سعيدة مشرقة ، بل من المباحات ما يجعل الحياة سعيدة مترفة ناعمة ، فالدائرة التى يقاومها الأزهر لا يمكن أن تجعل الأمة عديمة الهناءة .

واجب الأزهريين :

إن للناس فيكم ، أيها الأزهريون ، آمالا فى مصر وفى غير مصر ، والحياة الاسلامية تنتعش فى هذا الوقت فى الأمة المصرية وغيرها ، وهذا الانتعاش يحتاج الى عناية ورقابة وتدبر وتبصر .

إن الذى يجب عليكم هو أن تفهموا دينكم حق الفهم ، وأن تعرضوه على الناس عرضا صحيحا ، وأن لا تبقوا فيه تلك الاضافات التى أضيفت إليه وكرهت بعض الناس فيه .

جردوا دينكم من كل ما غشيه ، وخذوه من الينابيع الصحيحة ، خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة ، واتركوا بعد ذلك ما جد وما عرض ، فاذا فعلتم ذلك اهتديتم واهتدى الناس بكم ، وحققتم أمل أمتكم والعالم الاسلامى فيكم . وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى لنا السعادة جميعا ، كما أسأله أن يطيل حياة صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، وأن يجعله دائما وأبدا عونا للدين ، وعونا للاسلام والمسلمين ؟

خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائما على الناس ولا تغـير ، وأعلن عن ذلك ، فجاءنا خمسمائة خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول إنها صالحة ، أما الآن فقد وجد فى الأزهر خطباء ووعاظ ومرشدون ، يمكنهم أن يرتجلوا الخطب ، وأن يكتبوها ، وأن يؤلفوا طائفة منها أحسن بكثير من تلك الخطب القديمة ، ويتضح من ذلك بلا شك ، أن النفع بالأزهر الحديث أوفى بكثير من النفع بالأزهر القديم .

أثر الرعاية الملكية :

هذا الذى قلته لكم من المقارنة ، أقصد به شيئا واحدا ، هو أن رعاية صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد ، ورعاية صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، للأزهر ، هى التى أوصلت الأزهر الى ما نحن عليه اليوم .

الأزهر والحياة العامة :

هناك شىء ينبغى أن أذكره ، وهو أن الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة ، فهم يقولون إن الأزهر إذا قوى واشتدت عزيمته ، يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، إذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلمية الحرة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يحرم الناس ملاذهم وشهواتهم ، والحياة لا تحتمل ولا تطاق إذا سيطر الأزهر عليها بسلطان الدين .

احترام الأزهر لحرية الفكر :

هذا شىء يقوله الناس ، أحببت أن أذكره لكم . أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها ، لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء ، ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة التى نقرؤها فى كتب الكلام ، وفى كتب الفقه ، والتى ننقدها ونختار منها ما هو صالح ، ونترك ما ليس بصالح .

والاسلام بطبيعته دين تسامح ، ومبادئه لم تعترف بالاكراه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه ، وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة ، واجتهدوا فى أن يردوا عليها بالدليل ، وبقيت هذه المذاهب حية عائشة فى كتبنا التى نقرؤها فى الأزهر ، فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى والآراء العلمية ، لكن الأزهر يكره شيئا واحدا ، هو تعمد الاستهزاء بالدين ، وتعمد الاستهزاء بالأنبياء ، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين .

يكره هذا ، ويكره أيضا أن يشكك العامة فى دينهم ، وأن يشكك النشء فى عقائدهم ،

استقرت فى البلاد كأنها شأن من الشئون القومية ، والتى يطالب الأزهر الحديث الآن بإزالتها ، فالأزهر مكبل بآثار الماضى ، وهو يعانى فى سبيل إزالة تلك الآثار ما يعانى ، ولا أظن أن هذه الأشياء المنكرة كانت تستطيع أن توجد فى هذا العهد الحديث .

لقد اتصل الأزهر الحديث بالناس بالوعظ والارشاد ، وعلى صفحات الجرائد ، ليفهمهم دينهم ، فاستفادت الأمة منه ، واستفاد العالم الاسلامى كذلك . أما الأزهر القديم فكان قابعا بين الجدران ، لا أثر له فى الخارج ، ولا يعرفه الناس إلا بطريق السماع ، كأنه تاريخ من التواريخ .

اتصال الأزهر بالحياة العملية :

هذا شأن من شئون الأزهر . والشأن الثانى هو أن الأزهر الحديث لامس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها .

لقد كاد الأزهر يحتضر منذ عشر سنوات ، ففى سنة ١٩٢٨ أرادت وزارة الأوقاف أن تنشىء مدرسة للوعظ والارشاد ، ووضعت فى ميزانيتها مبلغا من المال لانشاء هذه المدرسة ، وفى ذلك التاريخ كانت هناك مدرسة للقضاء ، وكانت هناك مدارس للغة العربيـة ، فلو أن مدرسة الوعظ والارشاد أنشئت فى وزارة الأوقاف لكان علماء الأزهر الآن بين جدران الأزهر كأنهم من الآثار القـديمة التى يجىء السائحون للنظر اليها ولا صلة لهم بالحياة العامة فى بلادهم .

لـكن الأزهر الحديث استطاع أن يتصل بالعالم ، وأن ينفرد بشئون القضاء والوعظ والارشاد ، واستطاع أيضا أن يشارك فى شئون أخرى .

نظم الدراسة فى الماضى والحاضر :

يمكننى أيضا أن أقارن بين الحياة العلمية فى الأزهر الآن وفيما مضى . فقد كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبارات الـكتب ، وكان هذا هو كل شىء اشتهروا به فى العلم ، وما كان يوجد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع علمى ، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها ، بل كانوا يعنون بالألفاظ ، فلم تـكن الدراسة شهية مثمرة .

لـكن الأزهر الحـديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائما ، وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلا حقيقيا ، وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها . ولا شك عندى فى أنه من هذه الناحية يفضل الأزهر القديم .

منذ ثلاثين سنة كنت مفتشا فى وزارة الأوقاف ، وقد فكرنا فى ذلك الوقت فى إيجاد

احتفال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك

وقال فضيلته فى خطبته بهذا الاحتفال بعد البسملة :

يسر الأزهر دائما فى المناسبات السعيدة الخاصة بمليك البلاد ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أن يقدم ولاءه وإجلاله وإخلاصه لمليك مصر المحبوب ، لما يعلمه الأزهر عن جلالته من العطف عليه ، والرعاية التامة الدائمة لأموره وشئونه .

وإنى فى هذه الليلة ، أرفع باسمكم جميعا خالص الولاء ، وخالص التحية والاجلال ، إلى صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الأول ، داعيا الله سبحانه وتعالى ، أن يعزه بالدين ، ويعز الدين به ، وأن يطيل حياته فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وفى خدمة الوطن العزيز .

لقد ورث صاحب الجلالة الملك فاروق الأول عن المغفور له والده ، العطف والحدب على الأزهر ، وإذا رجعتم الى الماضى وجدتم أن ما استفاده الأزهر من عناية المغفور له الملك فؤاد ، وما استفاده من عناية شبله صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروق الاول ، وجدتم أن ما استفاده من هذه العناية لا يقدر قدره إلا من عرف التاريخ معرفة صحيحة . لذلك أريد أن أرجع بكم قليلا الى الوراء ، وأريد أن أقارن بين الأزهر الآن ، وبينه فى الماضى من جهات مختلفة .

وسيتبين لكم من هذه المقارنة أن الوهم القائم بأذهان الناس الآن ، وهو أن الأزهر فى الماضى كان خيرا من الأزهر فى الحاضر ، هو وهم باطل ، وأن الأزهر الحديث ، خير من الأزهر القديم .

الأزهر فى ماضيه وحاضره :

وأبدأ بالكلام فى هذا من ناحية قد يكون غريبا أن تكون هى الأولى فى المقارنة ، وأعنى ناحية التدين ، فمن الناس من يقولون : إن الأزهر القديم كان متمسكا بدينه أكثر من الأزهر الجديد ، وأنا أقول لهؤلاء : لا ، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم .

كل المفاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها ، إلا أنه يطلب إزالتها ، فقد نظم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه ، وأبيح الخمر فى البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها ، ووجدت البدع فى الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل فى وجودها .

كل هذا وجد فى عهد الأزهر القديم ، ولم يرفع صوته طالبا إزالة هذه المنكرات التى

عليه أن يجاهد بماله ، فان لم يستطع لا هذا ولا ذاك كان عليه أن يجاهد فى بيان أحكام الدين الاسلامى للأمة ، والقواعد التى وضعها علماؤنا للجهاد عند اعتداء أحد على قطعة من أرض المسلمين .

ويغلب على ظنى أن كلا منكم يحفظ القرآن ، وخاصة سورة التوبة وسورة الأنفال ، فكرروا هاتين السورتين ، واعلموا أنه « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » .

إن الأمم لا تحيا إلا إذا ماتت ، والقرآن هو الذى يقرر ذلك ، وليس موت الأمة أن تبيد حتى لا يبقى أحد منها ، ولكن أن تجاهد فيفنى منها من يفنى ، والذين يبقون بعد حصد السيوف هم الناجحون فى الحياة ، وهم الذين يصلحون للبقاء . وأنتم تعلمون أن فى الأمة عددا وفيرا لا يعرفون واجباتهم عند النوازل ، فعليكم أن تعرفوا هؤلاء بهذه الواجبات ، وأن تدعوهم الى الصبر والطمأنينة والسكينة وقت الشدة ، فان الأمة لا تنال مجدها ولا تنتصر إلا إذا كان الصبر فى مجموع أفرادها ، والسكينة عند حلول المصائب شيمة أبنائها .

واعلموا أن كل خدمة تؤدى فى أثناء النكبات هى جهاد فى سبيل الله ، فالزارع الذى يتقن زرعه ويقدم القوت الى المجاهدين مجاهد ، والذى ينقل القوت والماء اليهم مجاهد ، والذى يرشد الناس الى واجباتهم وقت المحنة مجاهد ، وكل هذه الواجبات التى تخرج عن دائرة القتال ، أنتم ياعلماء الأزهر وطلبته ، مسئولون عنها أمام الله وأمام الوطن ، فتذكروا هذا ولا تفرطوا فيه ، ولا تكونوا كبعض أسلافكم : يقرءون البخارى فى المساجد وينتظرون النصر

كان ذلك فى بلد من بلاد المسلمين تابعة لروسيا ، غزاها جيش ، وأراد أهلها الدفاع عن وطنهم وأنفسهم ، فقال لهم العلماء : لا تفعلوا ، ودعونا نقرأ لكم البخارى فينهزم الأعداء ، ثم جعلوا يقرءونه وينفثون فى ناحية العدو المهاجم ، فلم يغن عنهم ذلك ، ودخل العدو عليهم من كل باب !

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يعتمد إلا على القوة ، التى قال الله تعالى فيها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون » .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل السلم سائدا ، وأن يقينا شر عوادى الزمن ، وأن يباعد بيننا وبين الحرب ، وأن يعيد عليكم هذا اليوم المبارك فى العام المقبل وأنتم آمنون فى أوطانكم ، مطمئنون الى دينكم ، وأن يجعل هذا العام عام سعادة على الاسلام والمسلمين

قال حفظه الله فى أولاهما بعد البسملة :

فى الدفاع عن الوطن إذا نشبت الحرب :

كان المقدر عندى فى هذه الليلة أن أكتفى بحضرات الخطباء من علماء الأزهر فلم أحضر شيئا أقوله لكم فى هذا الحفل المبارك ، لكنى رأيت واجبا على ، وفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفاء لكم ، أن أقول كلمة فى هذه الليلة المباركة ، وقد سنحت لى فرصة أردت اغتنامها ، كى أسمعكم صوت أمير البيان ، صاحب العطوفة الأمير شكيب أرسلان — وهو ضيفكم الليلة — لكن هذه الفرصة أفلتت من يدى ، فقد اعتذر من عدم تلبية طلبي .

أما موضوع الليلة ، وهو ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنتم فى غنى عن أن تسمعوا فيه شيئا ، فقد قرأتم سيرته مرات متعددة ، وهو غنى عن أن أقول فيه ، ولله در البوصيرى حيث يقول :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

لكن الرسول كما تعلمون هو أمين الله على وحيه ، وهو سيد العلماء ، وسيد الساسة الحكماء ، وأكبر قائد فى الجهاد من قواد الاسلام ، وأنتم تعلمون أنه كان يجاهد بنفسه ، وقد صادفته أوقات عصيبة فى غزوات أصيب فيها ، وناضل عنه أصحابه ، وفر الكثيرون منهم ، وبقى هو ثابتا صابرا مصابرا محتسبا فى سبيل الله .

والعالم يموج الآن بأخبار الحرب ، ومعدات الهلاك ، وفى هذا الوقت يعتز أصحاب وسائل الدمار بقوتهم ، وتضعف نفوس الأمم الضعيفة أمام تلك الأمم التى أعدت نفسها طول أيامها للجهاد والقوة . وقد تكون مصر يوما من الأيام معرضة لنكبة الحرب ، ومصر لا شأن لها قط فى هذه المطامع التى تتنازع نفوس الأمم ، لكن وضعها الذى قدر لها ، هو الذى جعلها فى مكان لا تأمن فيه إذا نشبت الحرب بين أمم لا شأن لها بها ، لا فى الدين ، ولا فى اللغة ، ولا فى الجنس .

هذا الوضع الذى أراده الله لهذه البلاد قد يكون سببا يؤدى الى تدخلها فى الحرب ، فاذا دخلت مصر الحرب فلا تظنوا أيها الاخوان من العلماء ، وأيها الأبناء من الطلبة، أن واجب الجند فى جبهة القتال أكبر من واجبكم أنتم ، بل إن على العلماء وعلى الطلبة فى هذه الحالة أكبر واجب دينى وطنى اجتماعى . فالذين يستطيعون منكم أن يكونوا فى صف القتال يقضى عليهم واجبهم الدينى بأن يكونوا فى صف القتال ، أما الذين لا يستطيعون ذلك فواجبهم نحو أهلهم وعشيرتهم وأمتهم يقضى عليهم بأن يكونوا أمناء فى أداء النصح لله ولرسوله .

فاذا اعتدى على مصر ، صار واجبا شرعيا على كل واحد من المسلمين أن يدفع عنها هذا الاعتداء ، فالذى يستطيع أن يجاهد بنفسه يجب أن يجاهد بنفسه ، فان لم يستطع ذلك فواجب

خطبتاه

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

فى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وعيد جلوس

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

حفل الأزهر بالعلماء الأعلام ، وكبار الموظفين ، والأعيان ، والطلاب ، دفعتين فى أسبوع واحد من شهر ربيع الأول الماضي كان من أيمن أسابيع هذا العام وأكثرها عظمة وجلالا : أولاهما احتفاء بليلة ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم فى مساء اليوم الحادى عشر منه ، وثانيتهما فى مساء اليوم الخامس عشر منه احتفالا بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول على أريكة المملكة المصرية . وقد رأس الاحتفالين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وألقى فيهما خطبتين طنانتين حيا فى أولاهما روح خاتم المرسلين بما هى أهله ، وذكر من مهام رسول الله وخصوصياته ما يستحيل اجتماعه فى فرد واحد .

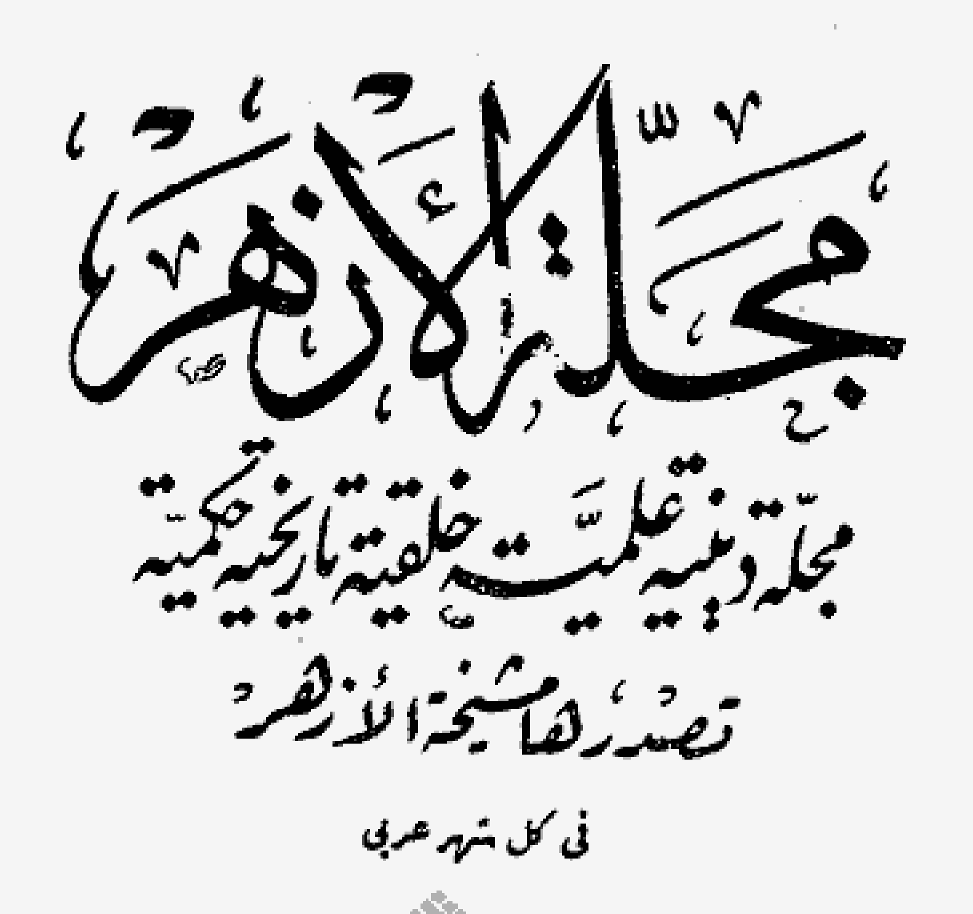
ثم استطرد فضيلته الى ذكر ما يتردد على الألسنة اليوم من أمر الحرب ، وبين وصايا الاسلام فيما يجب على كل فرد من الاستعداد لها ، والتهيؤ للقيام بها على الوجه الذى يضمن الفوز ، وييسر الغلب ، فقرر فضيلته أن كل عمل أيا كان نوعه يقوم به عامل وتفضى نتيجته إلى تقوية الجماعة وسد حاجاتها فى إبان نشوب الحرب يعتبر فى الاسلام جهادا فى سبيل الله يؤجر عليه القائم أجر المجاهدين ، واستشهد فضيلته على قوله هذا بآيات من الذكر الحكيم .

ومن أجلّ ما يؤثر فى هذه الخطبة ، وهو من العبارات النابغة ذات الدلالات العالية التى يكثر ورودها فى خطب فضيلته ويحفظها الناس عنه ، قوله : « إن الأمم لا تحيا إلا إذا ماتت »

وألم فضيلة الأستاذ الامام فى خطبته الثانية بعيد جلوس جلالة الملك ، ونوه من شمائله الكريمة ، ومآثره الجليلة ، بما يجب أن ينوه به فى هذا اليوم الميمون ، يوم تبوؤ جلالته عرش المملكة المصرية .

ثم استطرد فضيلته الى ذكر الأزهر وما وصل اليه من الرقى حسا ومعنى بفضل المغفور له والده العظيم ، وفضل جلالته ، حتى أصبح يقطع طريقه الى الكمال وثبا .

ولقد أبدع الأستاذ الامام فى الخطبتين ما شاء له الابداع ، فجاءنا خير ما يمكن أن يؤثر عن الأزهر المعمور فى هذه الظروف ، وسيكون لصداها فى أربعة أرجاء المعمور ما كان لصدى جميع خطب فضيلته ، حياة للنفوس ، وغذاء للارواح ، وبعث للهمم .



الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٨	المجلد العاشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	مليم
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ...	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٣٩)

أوسع من أفق البلاد ، ويشعر بفطرته السليمة الطاهرة ، أن أعمال الخير يجب أن تكون عامة شاملة ، وعاطفة البر ينبغى أن تكون حدودها حدود الإنسانية عامة ، لا الوطن ولا الجنس خاصة

واتساع الآفاق فى الخير والتعاون والتعاضد فى البر نظرية من نظريات الإسلام منبثة فى تعاليمه جميعها ، وفى قواعده السامية التى ترمى الى أن يكون الفرد للجماعة لا لنفسه ، وأن يكون خيره للناس لا لشخصه .

وأنتم أيها السادة العلماء وأيها الأبناء من الطلبة ، حراس قواعد الإسلام ، والأمناء على شرح ما فيه من نظم وأحكام ، ورسل الدعوة إليه ، والترغيب فيه ، والألسن الصادقة فى شرحه وبيان جماله ، وأنتم الأساة فى مداواة أمراض النفوس وأدواء القلوب ، وأنتم الذين يجب قبل كل شيء أن تتحقق فيكم أخلاق النبوة ، وتتحقق فيكم تعاليم الكتاب ، وقد تعلمون ما يجرى فى العالم من أحداث جسام ، وعلمتم من قبل ما جرى فيه من خطوب جسام .

ففتشوا عن الأسباب ، وابحثوا عن العلل ، وتحروا وجوه الصواب تجدوها لا تعدو حب الغنائم والأسلاب ، وحب الاستمتاع بثمرات كد الناس وكدحهم ، وحب الأمر والنهى فيهم .

وتجدوها خلف دريئة من المبادئ ، لم تحب إلا لأنها موصلة الى غاية فيها متاع ، ولم يدافع عنها إلا لأن فى زوالها خطرا على أشخاص ممن يدافعون عنها .

على هذه الأسس المادية قامت الحياة العامة واستقرت نظمها بين الأمم والشعوب ، وعلى هذا جرى الأفراد فى تعاملهم واتبعوا تلك السنن .

حياة مادية لا أثر للروح فيها ، أبعدت عن الله وباعدت عن أوامر الله . حياة إن ظن فيها الحمق خيرا وسعادة فقد اعترف العقلاء بأنها شر وشقاء . حياة رفهت عن الأجسام ووفرت حظوظها وشهواتها ، لكنها سلبتها أعز الأشياء : سلبتها الطمأنينة ، وسلبتها الهناء بالرضا ، وسلبتها لذة الصلة بالله ، ولذة الاعتماد عليه ، وسلبتها السلوى بالقضاء والقدر . وعقيدة القضاء والقدر هى السلوى الوحيدة للجمهور من بنى الانسان .

الحياة المادية ليس فى استطاعتها أن تسع الناس جميعهم ، لكن الحياة الروحية السعيدة تقدر على جمعهم .

انظروا الى ما يعده الانسان لفناء الانسان ، ويفتن فيه من الوسائل المدمرة المهلكة الخبيثة فى الأرض وفى البحر وفى الهواء . تلك الوسائل التى لا تذر الطفل الرضيع ولا الأم المرضع ولا تدع الشيخ الفانى ولا العالم الناسك ، بل تعم هؤلاء وتشمل العجزة والمقعدين واليتامى والمساكين . وتأتى على من له رأى ومن لا رأى له .

هل أعد هذا كله فى تأييد حق وهدم باطل ، ونصر مظلوم ورد ظالم ، وفى سبيل الفضيلة والخلق والعلم والدين ؟ أم أعد لسلب الضعفاء ما بأيديهم ، ولإذلال من لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولإشباع البطون والاستمتاع بالملذات ؟

ما هذا كله إلا وحشية الإنسان قبل أن تهذبه الشرائع ، وتلين قسوته تجارب العلماء والحكماء ، لكنها وحشية فيها طلاء من مدنية كاذبة غرارة تحمل فى طياتها أسباب الفناء ، وتهوى بالإنسان الى دركات الشقاء ، لاتعتمد على خلق ولا ترتكن الى دين .

مدنية سلبت الهناءة النفسية ، ولم تقدر أن تحل محلها هناءة مادية ، تخرج الناس الى مذاهب جعلت الإنسان قطيعا ضالا يتردى فى المهالك ، حيث لا وازع ولا رادع ، وجعلته يشعر بآلام الحياة وقساوتها ، ويشعر بشقاء لا يجد منه مخلصا .

على حملة الأديان أن يسعوا الى رد الطمأنينة النفسية الى الناس ، والى إيجاد السعادة النفسية عند الجماهير بردهم الى الله ، وتوجيه قلوبهم الى الله ، وبتحقير هذه الحياة المادية والإشادة بذكر الآخرة وما فيها من نعيم يعوض مافات ، لا يدركه المترفون وإنما يحصله المؤمنون المخلصون . وقد فعل المؤمنون هذا من قبل وكانوا حكماء فيه مخلصين ، وكانوا فلاسفة مرشدين جزاهم الله خير ما يجازى به مؤمن أسعد الناس بعلمه ، وهداهم بإرشاده .

يجب أن يفعل هذا ، وأن يذكر أهل الثراء بحقوق الفقراء التى أوجبها الله ليخرجوا عن شىء مما آتاهم الله يرفه عن هذه الطبقات الفقيرة بعض الترفيه .

ومن ظلم الانسان للانسان أن يبيت شخص طاوى البطن يعصبها من الجوع ، عارى الجسد يتحمل الزمهرير ، ويبيت شخص متخما بأنواع الطعام وأنواع الشراب على فراش وثير ، وفى دفء هنىء .

عودوا أيها الناس الى ما فرضه الله من الحق فى أموال الأغنياء ، والى ما حبب فيه من الصدقات ، ونظموا هذه الحقوق وتوسعوا فيها ، ثم احبوا الفقراء والمحتاجين واليتامى بما يخفف آلامهم ويزيل أحزانهم .

أيها السادة : أسأل الله أن يسبغ على مولانا جلالة الملك صحة كاملة ، وعافية شاملة ، ويديم عمره ، ويطيل أجله فى طاعة الله وفى سبيل الوطن والدين .

فاتحة السنة العاشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل نعمائه ، حمدا يرشحنا للمزيد من حبائه ، ويؤهلنا للجم من آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، وصفوة أصفيائه ، محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه .

وبعد: فقد أتمت مجلة الأزهر تسع حجج من حياتها ، ودخلت بهذا العدد فى عاشرتها ، متجردة لخدمة الاسلام وأمته ، مشمرة فى الذياد عن حوضه والدفاع عن حقيقته ، بكل ما أوتينا وأوتى محرروها من حول وقوة ، فإن كنا قد أحسنا فبفضل الله وتوفيقه ، وإن كنا قد قصرنا فليس ذلك عن عمد ، والله فى عون العبد والأخذ بيده ما أخلص النية ، وطهر الطوية ، وتحرى سبل الاتقان ، وتلمس طريق الاحسان ، وهذا ما جعلناه نصب أعيننا ، وغاية وجهتنا « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

لقد عرفنا منذ أن عالجنا الكلام فى الاسلام ، أن أشد ما يعترض طريقه ، ويثبط من توثباته ، شبهات صبغها المتسرعون بصبغة العلم ، وأشاعوها بين المتعلمين فى ثنايا أصوله ، وأطواء نظرياته ، وتلقفها الناس عنهم تقليدا ، وقد نقشوا فى روعهم أن هذه الشبهات تدحض تعاليم الدين ، وتزعزع من آساسه ، وأنها حين صاولته فى بلاد المدنية الحديثة ، تصدى لها عدد من الاعلام المقدمين ، ليفلوا من شباتها ، ويقفوا من هجماتها ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، وانتهى أمرهم بالاستسلام لها ، فلم تبق من الدين هنالك ولم تذر .

هذه الشبهات تبذر بذورها اليوم لدينا ، وتتعهد بالعناية لتنمو بين ظهرانينا ، وتفعل بنا ما فعلته بسوانا ، توهما من الذين يدبرون هذه الفتنة أن التجرد من العقائد شرط للنهوض الأدبى ، والاستقلال الفكرى .

هذا ضلال بعيد منهم ، فليس فى الاسلام أصل يعطل النهوض الأدبى ، أو يصد عن التحرر الفكرى ، بل الاسلام نفسه أقوى عامل عرفته البشرية للاستنهاض والتجديد ، وقد دل على ذلك بالعمل ، فأخرج أمة من العدم ، وأمتعها بكل الوسائل التى جعلتها فى مقدمة الأمم .

فمجلة الأزهر تبذل جهدها لتصيد هذه الشبهات المدسوسة على العلم وتحليلها ، وتبيين وجوه القوة والضعف منها ، والتدليل على أنها لا تعدو على الاسلام ، ولا تمس جوهره ، ولكنها تصدُقه وتؤيده ، وتجعل منه الدين العالمى الذى لا محيد عنه .

والى جانب هذا تنشر مقالات ممتعة فى التفسير والسنة، يقوم بهما عالمان عظيمان من أعلام الأزهر ، وبحوثا أخرى فى الفلسفة والأدب والتاريخ والعلم يكتبها رجال إخصائيون فى هذه المواضيع .

ومما يميز هذه المجلة أنها تعنى بنشر طائفة من الفتاوى على المذاهب الأربعة إجابة على استفتاءات تقدم اليها . وقد تداركت الادارة العامة ما كان أصاب هذا الباب من الضعف فأصبح كفيلا بإيتاء حاجات الناس من هذه الناحية التى تهمهم كثيرا .

ومتى تكلمنا عن مجلة الأزهر وجب علينا أن نذكر ما لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق من الأيادى الخالدة فى رفع منار الاسلام ، وإعزاز كلمته ، بما يحييه من سنن السلف الصالح ، ويجدده من آثارهم . وقد أصبحت أعماله الجليلة فى هذه الناحية مُثُلا عليا للناشئة يترسمون خطواته لتحقيقها ، ويأتمون بجلالته لتأييدها .

ولا نستطيع أن ننسى ما لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر من عناية بهذه المجلة شجعتنا على المضى فى عملنا بهمة لا يعروها ملال ، وعزيمة لا يتحيفها كلال ، شأن القائد الحكيم يبث فى معاونيه روح النشاط بقوله وعمله .

فالله أسأل أن يوفقنا فيما تصدينا له حتى ننال الموعود به من تأييده ، وأن يلهمنا الصواب حتى نستحق المزيد من توفيقه وتسديده ؟

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

الدرس الثانى

الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ
محمد مصطفى المراغى فى مسجد البوصيرى بالاسكندرية
فى حضرة صاحب الجلالة الملك

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » :

الاستجابة : هى الاجابة ، ومنه : فلم يستجبه عند ذاك مجيب . أو هى الاجابة بعناية وقوة ، فتكون السين والتاء للمبالغة ، والأصل فيها أنها التحرى والتهيؤ للجواب ، وعبر بها عما سبق ، لأن التحرى للاجابة قل أن ينفك عن الاجابة بعناية .

والحول بين الشىء والشىء : الحجز بينهما . والدعاء : الطلب مع البعث والتحريض . وما به الحياة هو العلم بالله ، والعلم بسننه فى الخلق ، وبأحكامه الشرعية ، والتربى بالحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التى تكمل بها الفطرة الانسانية ، وتسعد بها فى الآخرة ، فهو يشمل جميع ما فى القرآن الكريم من حكم وأحكام وعقائد وأخلاق وآداب ، ويشمل ما فيه من نظام الحرب والسلم وقواعد الاجتماع ، ويعم كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى القولى والعملى . كل ذلك يحيي من عمل به حياة طيبة ، يعزه فى الدنيا ويسعده برغد من العيش ، ويعلى قدره ، ويرفع ذكره ، ويجعله فى الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

بعد أن طلب الله إجابة دعائه ودعاء الرسول ، نبه الى أمرين عظيمى القدر يبعث التنبه لهما الى الانقياد والطاعة والاقبال عليها بالجد والعزم : (أحدهما) أن الله سبحانه قريب من العبد مطلع على مكنونات صدره ، يعلم منه ما قد يخفى عليه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . و (الثانى) أن العباد يحشرون اليه وحده ، وبيده الجزاء على الأعمال « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فقوله : « يحول بين المرء وقلبه » نظير قوله « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » ، وقوله : « فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . والغرض منه الحث على الاخلاص وتصفية القلوب . ويمكن أن يراد به أن الانسان عرضة لتغير الأحوال ، من أمن الى خوف ، ومن ذكر الى نسيان ، وما أشبه ذلك مما يشوش عليه قلبه ، ويقلق نفسه ، ويفوت عليه الطاعة .

ولما كانت هذه الأسباب صادرة عن الله جل شأنه صح أن ينسب الحول اليها ، وأن ينسب اليه . فالآية لا تدل على أن الانسان مجبور فى عمله ، وحاشا لله أن يكلف عاجزا غير مستطيع ، يحول بينه وبين الايمان أو الطاعة ، ولو كان الله يفعل ذلك لكان القرآن حجة للمشركين على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن حجة له عليهم .

وطاعة الرسول واجبة فى حياته وبعد مماته ، فيما علم أنه دعا اليه دعوة عامة : من السنن العملية المبينة للكتاب ، ومن السنن القولية القطعية فى الرواية والدلالة . أما غير ذلك مما هو محل الاجتهاد فعلى كل مجتهد أن يعمل بما صح عنده وبما ترجح عنده . أما العادات من اللباس والطعام والشراب والنوم وما أشبه ذلك فلم يعده أحد من السلف من أمور الدين . وكما يجب أن نهتدى بالهدى النبوى ، ينبغى أن نهتدى بهدى الخلفاء الراشدين والصحابة وعلماء الأمة فى اجتهادهم وأدبهم ، مع مراعاة أصول الدين العامة ومصالح المسلمين ، لكن ذلك لا يسمى دينا إلا إذا كان ثابتا فى كتاب أو سنة .

« واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » :

الفتن فى اللغة : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الانسان النار فى الآخرة ، ومنه : « ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون » أى ذوقوا عذابكم . وتطلق الفتنة على ما يحصل العذاب بسببه نحو قوله تعالى : « ألا فى الفتنة سقطوا » . وتطلق على الابتلاء والاختبار ، ومنه : « وفتنّاك فتونا » . وتستعمل الفتنة والبلاء فيما يُدفع اليه الانسان من شدة ، ومنه قوله تعالى : « واحذرهم أن يَفتنوك » أى يوقعوك فى بلاء وشدة بسبب صرفهم إياك عن الوحى . و « فتنتم أنفسكم » أوقعتموها فى بلية وعذاب . وعلى ذلك قوله فى الآية : « واتقوا فتنة » أى بلاء وعذابا .

والمعنى : احذروا ابتلاء واختبارا من الله سبحانه يبتليكم به فلا يخص المذنب الذى ركب المعصية واقترف الذنب بل يعم غيره .

من المعاصى ما هو خفى بين العبد وربه يحاسبه عليه وليس للعباد أن يبحثوا عنه ، وقد نهى الله سبحانه عن التجسس بقوله : « ولا تجسسوا » . ومنها ما يظهر ويفشو ، وهو على أنواع : بدعة فى العقيدة والرأى ، وبدعة فى الأعمال ، وفرقة عن الجماعة لمحض الهوى لا لدليل من كتاب وسنة . وأشد هذه الأنواع الفتن الملية والقومية التى تقع بين الأمم عند التنازع على المصالح العامة من السيادة والملك ، وعند التنازع فى السياسة على الحكم ، وقد تحصل تبعا لذلك فرقة فى الدين والشريعة حيث يتخذ الدين وسيلة للفوز والغلب . وقد طالب الله سبحانه المؤمنين أن يحذروا هذه المعاصى الظاهرة ، وبخاصة ما كان عاما منها ، وما يوجد الفرقة بين الأمة ، ويصدع وحدة الجماعة سواء أكانت الوحدة فى العقيدة أو العمل ، أو فى السياسة وقواعد

الاجتماع ، لأن الفرقة فى ذلك كله تضيع الجهود ، وتذهب القوة ، وتطمع الأعداء فى المسلمين حتى ينتهى أمرهم الى الضعف والوهن ، وينتهى أمرهم بتسلط الأعداء عليهم .

على كل فرد وعلى الجماعة الحذر من هـذه الفتن ، طالبهم الله بهذا وبقطع دابرها وعدم تركها تبيض وتفرخ وتعشش ، ومن أجل هذا أوجب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وشدد فى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه . من ذلك : « ولتكن منكم أمة يَدعُون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، فقد جعل الأمر بالمعروف فرضا إذا تركه المسلمون أثموا جميعهم ، وركبهم الحرج . وقد علق الله سبحانه الفلاح على ذلك وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « لُعِن الذين كفروا من بنى إسراءيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . فقد استحق هؤلاء اللعنة لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « فلما نَسُوا ما ذُكروا به أنجينا الذين ينهَون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئيس بما كانوا يفسقون » وقال : « الذين إنْ مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهوْا عن المنكر » .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة الأنبياء وخلفائهم ، ووظيفة ولاة الأمور جميعهم ، وإذا تعطل فشت الضلالة ، وشاعت البدعة ، وسرى الفساد ، واسترسل الناس فى الشهوات ، وقلت مراقبة الخالق ، واستولت على النفوس مداهنة الخلْق . ومن واجب الحكومات الضرب على أيدى المفسدين ، وسن القوانين الصارمة ، وخلق حياة اجتماعية للروح فيها نصيب ولله نصيب . وما انحطت أمة الى الدرك الأسفل إلا بتهاون الجماعة وتهاون أصحاب السلطان فى تقويم الأفراد والجماعات .

ولن يبسط سلطان ولن ترفرف سعادة وعزة ومجد حيث يعلو سلطان الشهوة ويسود سلطان الشيطان .

وعقاب الأمم على الذنوب العامة والمعاصى الظاهرة لازم فى الدنيا ، وهو أثر من آثارها الطبيعية كما هو مشاهد ومعروف فى التاريخ ، وعقابه فى الآخرة شديد يعاقب من يعصى أمره ، ويركب رأسه ، ويطيع شيطانه ، ويخالف نظام الله فى خلقه ، وسنن الكون ، وهدى الاجتماع .

وقد بدأت الفتن السياسية أيام على ومعاوية ولبست ثوبا دينيا أوجد فى الأمة فرقا ، ثم تبعتها فتن أخرى أضاعت مجد الاسلام وعزه . ولا علاج إلا باتباع القرآن والرد الى الله ورسوله ، ومحاولة التوحد فى جميع الشئون الاسلامية . وهذا ما ندعو اليه ، ونطلب من الله تحقيقه . وفى الحديث الشريف : « ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر

عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » . وقيل : يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : « نعم ، بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله » .

وقد قال الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعَفون فى الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » :

بعد أن طلب الله سبحانه طاعة الله وطاعة رسوله ، وبيّن أن حياة العباد فى هذه الطاعة ، وطلب اتقاء الفتن ، وعدم التفرق الذى يذهب ريح القوة ويورث الذلة والضعف ، ذكّرهم بأنهم كانوا قلة مستضعفة فى الأرض ، ينالهم الناس بالمكروه ويفتنونهم عن دينهم ، لا يهابهم أحد ، ولا يدفعون عن أنفسهم إذا تخطفهم الناس ، وذكرهم بأنه أعزهم بالاسلام وجعلهم فى منعة ، وجعل لهم قوة هى الحصن الذى يركنون اليه عند الشدائد ، ونصرهم على الأعداء ، وفتح عليهم بلادا وممالك درّت الخير ، فصاروا فى عيش رغيد ، وفى أمن بعد الخوف ، وعز بعد الذل ، ومن شأن هذا كله أن يقوموا بشكر الله ، ويقيموا حدوده ، وينقادوا لأمره بالطاعة .

هذا التذكير كانه دليل على صحة الطلب ، وعلى وجوب الطاعة ، لأنهم لم ينالوا كل هذا الخير إلا بالطاعة والوحدة وعدم الفرقة . وعن قتادة : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطنا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ، ومن مات ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . فبالاسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فانه منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله تبارك وتعالى .

« يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » :

معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام ، ومنه تخوّنه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه .

والمعنى : لا تعطلوا فرائض الله وما جاء به رسوله ، ولا تضيعوا الأمانات فيما بينكم وأنتم على علم بأن ما تعملونه خيانة ، أى لا تفعلوا ذلك عن عمد . أما الخطأ والنسيان فهذا مما اغتفره الله لعباده . وكما تكون الخيانة بترك الطاعة ، تكون بعدم بيان الأحكام . وخيانة الأمانة تكون بين الرعية والراعى ، وبين الأفراد بعضهم مع بعض . والأمانة من الصفات الدينية

التى قام عليها بناء المجتمع ، وأسس عليها العمران والمدنية ، ولا صلاح لأمة ولا بقاء لدولة إلا بها ، وعليها مدار الثقة فى جميع المعاملات . ومن الأمانة إقامة العدل بين الناس ، وأن يقوم كل فرد بما هو موكول اليه بجد واجتهاد وإخلاص . ولا إيمان لمن لا عهد له ، ولا دين لمن لا عهد له ، وآية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

ومن الخيانة إفشاء سر الدولة ، وإخراجه للأعداء ، سواء فى ذلك السلم والحرب ، والاستعانة على المسلمين بغيرهم . ومن الخيانة أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم التحرى فى إنفاق أموال الدولة فى المرافق العامة . ومن الخيانة عدم تولية الأكفاء ، وعدم النصح لأولياء الأمور . كل ذلك خيانة ، والله يطلب أن يكون المسلم ناصحا أمينا ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . ومن الخيانة إهمال الدفاع عن البلاد . ومن الخيانة أن لا يُعدّ كل مسلم نفسه ليكون جنديا يدافع عن دينه وعن وطنه .

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية : أن بعض الناس سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أشياء فألقاها الى المشركين . ورووا أيضا أنه لما علم النبى صلى الله عليه وسلم بخروج أبى سفيان عزم على الذهاب اليه ، فكتب رجل من المنافقين الى أبى سفيان يعلمه الخبر ويحذره . ورووا أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حاصر بنى قريظة طلبوا اليه أن يتركهم يذهبون الى الشام كما فعل مع بنى النضير ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد ، فذهب إليهم أبو لبابة وأشار الى حلقه ، يعنى أن حكم سعد هو الذبح ، وشعر أبو لبابة أنه خان الله ورسوله فتاب ، ولذلك قصة طويلة . وقد كان لأبى لبابة عندهم أموال وأولاد .

يصح أن يكون هذا أو غيره سبب نزول الآية ، لكن الآية عامة تشمل كل خيانة لله ورسوله .

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » :

الأموال محبوبة للنفس ركز فى طبيعة الانسان الحرص عليها ، فهى الوقاية ، وهى العدة عند الشدة ، بها الحياة ، وبها الاستمتاع بما تنازع اليه النفس وتتقاضاه الطبيعة من اللذات والشهوات ، وبها يدرك العز ، وينال الفخر والجاه .

والأولاد عزيزة على النفس يرى الانسان فيها صورتها ويحتفظ به ، كما يحتفظ بنفسه أو أشد ، ويدرك أن فى بقائها بقاءه . وقد جبل الانسان بل الحيوان على الحرص عليها ، والضن بها ، والدفاع عنها ، وقد يضيع الحيوان حياته دفاعا عن حياة ولده . المال والولد كلاهما فتنة ، وقد يكون سببا من أسباب عدم الطاعة ، ومن أسباب الخيانة ، فلا يتحرى العبد مورد الرزق والكسب ، ولا يقوم بحق الله فى المال ليوفر لنفسه لذته ، ويدخر لأولاده بعد موته

مايقيم أودهم ، ويسهل عليهم العيش ويقيهم الفاقة وذل السؤال . من أجل ذلك نبه الله سبحانه الى أن ما ادخره لعباده من الأجر عظيم ، فـلا يليق بالعاقل أن يتركه ويفتن بالعاجل ، فليس مما يرضاه العقل أن يُترك نعيم مقيم ، وعز دائم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان الله من أجل متاع قليل فى هذه الحياة الفانية .

« يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعلْ لـكم فُرقانا ، ويكـفرْ عنكم سيئاتِـكم ، ويغفرْ لـكم ، والله ذو الفضل العظيم » :

الفرقان : الفارق بين الحق والباطل ، فيشمل كل ما خص الله به عباده المؤمنين من المعرفة والهداية ، وشرح الصدر ، والأخلاق الفاضلة ، من الشجاعة والصبر والـكرم والحلم ، والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وعدم موالاة الأعداء ، وترك الغل والحقد والحسد وكل الأخلاق الذميمة . ويشمل أيضا إعلاء كلمة الله ، والظهور على الأعداء ، والثواب فى الدنيا والآخرة . بتقوى الله يحصل هذا كله ، ويستر الله السيئات ويمحوها فلا يؤاخذ عليها ، ويغفر الذنوب ، ويضاعف الأجر ، فهو ذو الفضل العظيم .

ومعنى الآية : أن العمل على مقتضى الدين والشرع وسنن الله فى الخلق ونظام الاجتماع يورث ملـكة العـلم والحـكمة ، وبذلك يفرق الانسان بين الحـق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يرزقه الله النصر على الأعداء بما يعز به المؤمن ، ويكبت به العدو .

والتقوى تشمل اتقاء الذنوب ، واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الـكمال والسعادة حسبما ترشد اليه السنن الـكونية ، وذلك يتوقف على عـلم بسنن الله فى الانسان منفردا ومجتمعا ، وعلى معرفة ما ينبغى أن يفعل ، وينبغى أن يترك .

توّجه النداء فى هذه الآية الى المؤمنين ، وقد طلب الله منهم فى آيات قبلها تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وهى رابطة الاسلام ، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون ، والمواساة ، وترك الأثرة . ووصف الله المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قـلوبهم ، أى شعرت بالخشية والخوف من الله ، وبأنه إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا : أى سعة فى العرفان ، وقوة فى طمأنينة النفس ، كما فعل ابراهيم حيث طلب الاطمئنان بعد أن كان مؤمنا ، وبأنهم متوكلون على الله يفوضون أمرهم اليه وحده بعد الأخذ بالأسباب ، ويفوضون اليه الأمر ليهديهم الى الأسباب فيما لا يعلمون له أسبابا ، وبأنهم يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله ، كل هذا تضمنه قوله سبحانه : « فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ بَيْـنِكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبُهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وطلب منهم أيضا الثبات فى القتال ، وحرم عليهم الفرار ، وقال : « ومن يولهم يومئذ دُبره إلا متحرِّفاً لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . ومعناه أنه لا يجوز أن يولى المسلم ظهره للاعداء إلا إذا رأى الانتقال الى مكان آخر هو أصلح للقتال ، أو رأى أن ينضم الى فئة أخرى من المؤمنين .

وطلب اليهم ترك النزاع وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وطلب اليهم التمسك بالعهد والسلم ، وإعداد القوة للدفاع عن الدين والوطن ، كما طلب نبذ العهد عند الخيانة : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانْبِذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفَّ اليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

هذا بعض ما تضمنته هذه السورة الكريمة من العظات والبر والأحكام والحكم ، نسأل الله الهداية ، ونستلهمه الرشد ، إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

السيرة المحمدية

تحت ضـوء العلم والفلسـفة

مقـــــدمة

[illegible] اليوم فاتحة العام الهجرى الحافل بالذكريات الخالدة عن الدعوة الإسلامية فى دورها الحاسم ، نبدأ فى نشر دراسات متتابعة فى حياة خاتم المرسلين محمد صـلى الله عليه وسلم على أسلوب جديد تحت ضوء العلم والفلسفة .

كانت هذه أمنيتى منذ سنين ، ولـكنى كنت أرجئ تحقيقها ، لا إيثارا لغيرها عليها ، ولـكن لما كنت أشعر به من المشقة العظيمة فى توفيتها حقها من الناحيتين العلمية والفلسفية على ما ينبغى أن تكون عليه فى بيئة أصبحت مطامعها العلمية لا تقف عند حد . فالناس اليوم وخاصة متعلميهم لا يقنعهم سرد الحوادث التاريخية دون معرفة عللها الأولية ، سواء أكانت من طبيعة البيئة ، أم من مقتضيات الاجتماع ، أم من مستلزمات العاطفة الدينية التى جبلت عليها النفوس البشرية . ولا يكفيهم سرد أطـوار النبوة وحالاتها دون معرفة ماهية النبوة فى ذاتها ، وهل هى حاجة من حاجات الروح الانسانية كما يقول الدينيون ، أم هى مجرد ظواهر اجتماعية ، تولدها ضرورات الاجتماع ، وتستدعيها أمانى النفوس ، مثلها كمثل جميع الظواهر التى تتولد فى أدوار التطورات الأدبية للامم ثم تزول وتحل محلها ظواهر أخرى أكثر مناسبة ، وأوثق صلة بضروب الثقافات التى تتعاقب على الجماعات فى مراحل حياتها العقلية ؟

والميـل الى تأييد أحد هـذين التيارين الفكريين يستدعى إقامة الأدلة القاطعة عليه ، ولا يمكن أن يؤخذ كقضية مسلمة ، وخاصة فى هذا الدور من تنازع المذاهب الفلسفية .

ثم إن الـكلام عن الوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحانية بالمـلأ الأعلى ، وإمـكان استمداد العلم عن العالم العلوى مباشرة بواسطة الملك ، خلافا للسنة المعروفة بين البشر ، كل هذا لا يتأتى للعقل الراهن أن يسلمه بغـير أدلة تناسب خطورته الاعتقادية ، فالتزام كتابة السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة يوجب إيراد هـذه الأدلة ، ويوجب أن تـكون من القوة ، وصحة الدلالة بحيث تصلح أن تثلج عليها الصدور ، وتطمئن اليها العقول ، لا أن تـكون مسلمات تحكمية فى صورة أدلة علمية .

لا أنـكر أن هذا كله من أشق الأعمال الـكتابية ، وأن المتكلف له بسبيل فتح طرائق جديدة للتدليل على أمور روحية يعتبرها أكثر الناس أجنبية عن المحاولات العلمية .

وليست تنحصر صعوبة هذا البحث فى هـذه الناحية الروحية ، ولـكنها تمتد الى نواح أخرى علمية باحتة يصعب تعليلها بالأسباب المادية على مقتضى الدستـور العلمى ، وسنضطر الى تلمس علل لها من عالم ما فوق الطبيعة ، وهذا موضوع نزاع سيكون بيننا وبين العلم الاجتماعى نفسه ، لأنه لا يعـترف بذلك العالم العلوى ، ويهون عليه أن يتلمس للحوادث عللا واهية أو يتركها بدون تعليل تحاشيا من نسبتها الى علل غير طبيعية . مثال ذلك قيام محمد صلى الله عليه وسلم وحده بدعوة أمة برمتها الى ترك دين توارثته عن أسلافها أجيالا كثيرة ، والأخذ بدين مناقض له فى جملته وتفصيله ، ونجاحه فيما تصدى له نجاحا محـيرا للعقل لم يسبق له شبيه فى تاريخ النفسية الانسانية . فالباحث العلمى يجد نفسه إزاء هذا الحادث الجلل مضطرا لأن يتلمس له العلل الطبيعية ، فيدعى أن الأمة العربية قبيل البعثة المحمدية كانت تتطلب دينا جديدا ، وتتطلع الى تأليف كتلة اجتماعية تجتمع فيها كلمتها ، وتتوحد وجهتها ، وتتعين بها غايتها ، فلما ظهر محمد ودعا الى الدين الجديد والاجتماع عليه ، تسارع العرب الى تلبية ندائه ، فقام الاسلام وقامت جماعته ، وتم لها ما تم من الفتوحات الضخمة ، والمدنية الفخمة ، ثم اعترى هذه الوحدة التراخى ، وانتهى حال المسلمين الى ما انتهى اليه اليوم !

يدعى الباحث العلمى هـذه الدعوى تخلصا من ورطات الحيرة ، متعمدا فى هذه السبيل الاستناد الى علل باطلة ، يعـلم هو قبل غيره عراقتها فى البطلان . فان الأمة العربية لم تـكن قبيل البعثة المحمدية تتطلب دينا جديدا ، وكيف يعقل ذلك وقد رفضت دعوة النبى رفضا باتا وعدته كاذبا ، وعجبت من جرأته على الزراية بآلهتها ، واعتبرت التوحيد فرية لم يقـل بها أحد غيره ، فقالوا كما ذكره الله عنهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الـكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتـكم إنّ هـذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إنْ هـذا إلا اختلاق » . فأمة تقول مثل هذا القول ، وتنابذ الداعى الى الدين الحق ، وتتقصده بالقتل حتى يختفى ويخرج من بلده فى جنح الظلام ، ويعتصم الى غار تفاديا من الطلب الذى أرسل وراءه ، كل هذا منها لا يدل على أنها كانت تتلمس دينا جـديدا أصلح من دينها الأول . وإنى أسأل القائلين بهـذا القول : أى أمة فى الأرض من أهل القرون الماضية طلبت أن تتبدل دينا جديدا بدينها الذى ورثته عن آبائها ، وسعت الى ذلك سـعيه ، فتم لها ما أرادت أو كادت ؟ ليس فى تاريخ البشر كله ما يدل على هـذا . وفى الأرض اليوم أمم لو انتقد الباحث أديانها لعجب كيف يسيغ قوم لهم عقول أن يدينوا بها فى عصر بلغ فيه العلم الى حد التحدث فى الصعود الى القمر، ولم يكفهم المنظار الفلـكى ولا آلة تحليل الأشعة المنعكسة منه لمعرفة تركيبه المادى ؟

أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تتهيأ لجمع شتيتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبى

صلى الله عليه وسلم ، فهى دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإن أمة تدب فيها هـذه الروح ولا تؤثر عنها كلمة فيها أو بيت من الشعر أو أية حركة تنم عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاؤا أن يختلقوه ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفى أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير اليه . وما حفز أصحاب التعليل الى هـذه الاختلاقات إلا حيرتهم فى تعليل حـدوث انقلاب خطير كالذى حـدث على يدى النبى صلى الله عليه وسـلم طفرة ، بدون أسباب مادية مهدت له آمادا طويلة .

ومما نسوقه من قبيل الاطراف فى هذا الباب أن الأستاذ مونتيه ، المدرس بجامعة جنيف ومترجم القرآن الكريم ، قدم لترجمته بمقدمة قال فيها : إن هذا الكتاب يحوى كثيرا من الأصول القيمة ، والتعاليم الصالحة ، وعبارته فى أعلى درجات البلاغة ، فلا يعقل أن يكون محمد والحالة هذه أميا ، لأن الأمى لا يستطيع بحال من الأحوال أن يأتى بمثل هذا العمل الأدبى الضخم !

فانظر كيف يتعسف الأستاذ مونتيه فى حكمه ، وينسب الكذب لأعظم رجل أنجبته الأسرة الآدمية ، ويعزو الغفلة لأمة برمتها ، لمجرد أن الكتاب الذى هو بسبيل الكلام عليه لا يمكن صدوره من أمى ! ذلك لرسوخه فى عقيدته من أن العلم والحكمة لا مصدر لهما إلا العقل البشرى ، وأنهما لا يمكن أن يأتيا من طريق الروح ، لأن الروح عنده لا وجـود لها ، والعالم الروحانى خيال بحت . ثم هو لا يريد أن يدع أمر صدور هذا الكتاب من رجل أمى أعجوبة خارقة للعادة ، يجب أن تتلمس أسبابها الحقيقية ، فرمى القول على عواهنه وعلله على النحو الذى رأيت !

وأرانى من ناحية مضطرا لأن أقول : إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية ، والأفانين البيانية ، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة على التشكك والتثبت ، فأسرفوا فى إهمال الناحية الاقناعية ، وتهافتوا على الناحية التسليمية ، فجرهم هذا الموقف الى قبول كل ما وضعه الخراصون من المبالغات التى ضاهأوا بها ماورد من أمثالها عن الأمم المختلفة ، معاصين بذلك كل ماورد فى الكتاب من وجوب مجانبة الغلو فى القول ، وضرورة التثبت فى النقل ، والتمحيص فى الرواية ، فجاءت السيرة المحمدية زاخرة بالأقاصيص الخرافية ، والروايات الموضوعة ، والأشعار المصنوعة . فان تكن هذه الكتب المؤلفة فى السيرة المحمدية قد راجت لدى العامة ومن يجرى مجراهم ، فقد أهملها الخاصة ، وكان يجب أن تكون أول ما تتجه اليه عقولهم ، وتهوى اليه أفئدتهم . وقد تناول التأليف فى السيرة فى العهد الأخير رجال من أهل الثقافة الحـديثة ، فوفوا بحاجات فى نفوس الناس ، وبقيت حاجات أخرى لا تزال غـير موفاة ، بل بقيت نواح لفتت العـلوم الراهنة الأنظار اليها ، ولم يطرقها قلم كاتب الى اليوم ، ولا يجوز أن تكون سيرة النبى صلى الله عليه وسلم على هذا

النحو من النقص ، وخاصة فى هذا العهد الذى بلغت الشكوك فيه أبعد مدى يمكن أن تصل اليه ، ووصل الاستخفاف فيه بأمر النبوات الى حد لم يبلغه حتى فى أظلم عهود الجاهلية .

لقد أصبح القول الفصل اليوم للعلم ، العلم الذى اتفق قادة الفكر الانسانى على تسميته بهذا الاسم ، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سُرِّيت عليه أصول الدستور العلمى ، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشى أسلوبه ، ويترسم حدوده ، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التى يراد أن تكون له . وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين حتى العقائد التى بادت فى سبيل الدفاع عنها أمم برمتها ، وهذا العلم اليوم واقف لنا بالمرصاد ، ليفعل بعقائدنا مثل مافعل بعقائد الذين سبقونا اليه ، والأمم الاسلامية اليوم محفوزة اليه بحكم التربية العصرية ، فوجب على القادرين منا على حمايته من الخطر العلمى أن يعملوا على شاكلتهم فى هذه السبيل .

***

ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمى ، أن جانب الاعجاز فيها سيكابد نقصا عظيما ، إن لم يغفل إغفالا تاما ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمرا طبيعيا ، فتفقد النبوة صفتها المميزة ، وتصبح سيرة النبى كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

نقول : لا ، فاننا إن سرنا على شرط العلم فى إثبات الحوادث ، وعزوها الى عللها القريبة ، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائرا ، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد ، وسيكون مضطرا بأن يعترف بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان عبقريا من طراز خاص فاق به جميع العباقرة ، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته ، لأن العبقرية فى العلم لا تعنى ما تعنيه فى عرف العامة . هى فى العلم ما يُلقَى فى روع العبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذا لا سابقة له ، يتخذ مثالا لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمى تقرِّب معنى النبوة الى العقل ، وتسوغها فى العلم ، كما سنفصل ذلك تفصيلا فى الأعداد المقبلة .

إن ما تم على يد محمد صلى الله عليه وسلم أمور لا يسلم بها العقل ، لولا أنها حوادث لا يمكن نكرانها ، ولا الغض من جلالتها بوجه من الوجوه . فقد تم على يده : (١) توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ، ولا تعطفها على عناصرها عاطفة . (٢) قضاؤه فى أمة برمتها على وثنية كانت متوارثة فيها منذ آماد طويلة . (٣) وإحلاله محلها دينا ينافى ما كانت تدين به من كل وجه . (٤) وإحداثه إصلاحا اجتماعيا قلب طبيعتها من جاهلية مظلمة ، وإباحة متحكمة ، وغفلة متغلبة ، الى إنسانية متلألئة ، وفضيلة متوثبة ، ويقظة لا تدع فرصة الى الأغراض الشريفة ، والمقاصد النبيلة إلا انتهزتها ، حتى وصلت الى زعامة

البشرية فى سنين معدودة . (٥) وتأسيسه دستورا حكيما وحملها على اتباعه ، فتأدت الى أكمل ما تتوق إليه جماعة من ترابط بين أجزائها ، وتكافل بين آحادها ، وتضافر بين جميع قواها المعنوية ، للوصول الى غاية مايمكن الوصول إليه من مكانة بين الأمم . (٦) ووضعه آساس أمة عالمية لا يكون فيها للفروق القومية واللغوية واللونية أثر ، تقوم على دين واحد هو الدين الفطرى الأول ، وعلى شريعة واحدة تبنى على أصول الحق الطبيعى والعدل المطلق ، وتنشد غرضا واحدا هو الوصول الى أقصى ما قدر للانسان من كمال صورى ومعنوى معا .

هذه الأعمال كل واحدة منها ترفع مقيم صرحها الى درجة ممتازة من العبقرية تخلد له اسما خالدا بين أسماء عظماء النوع البشرى ، فما ظنك لو تمت كلها على يد رجل واحد ؟

وليس هذا كل ما فى هذا الموضوع ، فإن العبقريات التى تم لها توحيد الأمم أو إنشاؤها بدين جديد أو بدستور الخ ، إنما سلكت طريق السنة التدريجية للانتقالات الاجتماعية ، فأوجدت ما أوجدته من التجديد بواسطة أنقاض من الحالات السابقة ، لا تقوى على البقاء إلا زمنا محدودا ، ريثما تتهيأ الأسباب للامة الى الدخول فى دور انتقال جديد تمر به الى حالة أرقى من التى كانت فيها ، ولكن الرسالة المحمدية لم تسلك طريق تلك السنة الطبيعية ، ولم تستخدم أنقاض الحالات السابقة لبناء الحالات التى أوجدتها ، ولكنها جاءت بالمثل العليا التى ليس وراءها مذهب ، وأقامت صروحها فى بيئات طهرتها أولا من جميع البقايا الأثرية ، فجاءت أبنيتها قائمة على أسس لا تتزعزع ، حافظة لجدتها وروائها ما بقى الدهر .

مثال ذلك : يحدثنا التاريخ عن عبقريات وحدت بين قبائل كثيرة فجعلتها أمة ، ولكنها لم تجعلها أمة مثالية خالصة من جميع عيوب الجماعات البشرية ، فإنك تصادف فيها طبقات ذوات امتيازات مختلفة ، وطوائف متوزعة مرافق الأمة على قاعدة استبدادية تحكمية ، وتجد عامتها همـلا رعاعا لا حق لهم فى الوجود إلا بقدر الخدم التى يؤدونها للخاصة ، فهم مستعبدون ومحرومون من أكثر الحقوق التى يتمتع بها من فوقهم من منتحلى حق الوصاية عليهم ، فالأمة المؤلفة على هذه الشاكلة تسمى فى العرف أمة ، ولكنها فى حاجة الى تطورات متعاقبة ليخلص فيها الاجتماع من آفاته المنذرة بالفتن الداخلية .

أين هذا من المجتمع الذى دعا اليه الاسلام خالصا من جميع هذه العيوب ، وقائما على أكمل الأصول العمرانية ، فهو مجتمع متجانس التركيب ليس فيه طوائف مختارة ، ولا طبقات ممتازة ، ولا حوائل تمنع أى عقل عال ، أو فكر ناضج ، أو نظر ثاقب من إظهار نشاطه ، وإبراز مكنوناته لخدمة الجماعة ، ووصوله بجهوده الخاصة الى أرفع مكانة ؟ فكم تولى مناصب الحكم ، وزعامة الدين ، ورياسة العلم ، وقيادة الجند ، وتدبير الثروة العامة ، رجال من أجناس مختلفة ، وألوان متباينة ، وطبقات شتى ، لم يمنع أحدا منهم أصله أو جنسه أو لونه أو فقره

عن الوصول الى المرتبة التى عينتها له مواهبه . هذا هو المجتمع المثالى الذى دعا اليه محمد صلى الله عليه وسلم وأوجده بالفعل .

وقل مثل ذلك فى الدين الذى أتى به ، والدستور الذى أسسه ، والتمدن الذى أقامه ، والاصلاح الذى بثه ، والمجتمع الذى ألفه ، فقد جاء فى كل هذه الشئون بالمثل العليا نفسها ، لابحالات ساذجة أو متوسطة تحتاج لأن ترق وتتطور على مدى الأزمان ، كما سنبين ذلك بالأدلة المحسوسة عند كلامنا عليها فى هذه السيرة . فهذه الأعمال منفردة أو مجتمعة لايستطيع العلم أن يسلم بامكان وجودها فى عهد من العهود السابقة ، ولا بامكان اجتماع عبقرياتها جميعا فى رجل واحد . فهذا العجز من العلم يكفينا فى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند كلامنا عن حقيقة النبوة والوحى ، وأدلة ذلك من العلم نفسه ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

الحلم عند القدرة

قال حكيم : الكريم أوسع ما يكون مغفرة ، إذا ضاقت بالمسىء المعذرة . قال شاعر فى هذا المعنى :

إذا اعتذر المسىء اليك يوما من التقصير عذرفتى مقر
فصنه عن عتابك واعف عنه فإن العفو شيمة كل حر

وقال غيره وقد أبدى وجها صحيحا لقبول المعذرة ، وهو الوجه الذى يتناساه كثير من الناس ويعجزون عن الانتصاف من خصومهم ، فيسجلون على أنفسهم القصور والتقصير معا ، قال :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وقال أديب : ما أذنب من اعتذر ، ولا أساء من استغفر .

وقال محمد بن شيرذاذ : الأصاغر يهفون ، والأكابر يعفون .

وكتب بعضهم الى رئيس يعتذر اليه :

اغتفر زلتى لتحرز فضلى واعف عنى ولا يفوتك اجرى
لا تكلنى الى التوسل بالعذ ر لعلى أن لا أقوم بعذرى

وقال حكيم : إياك وما يسبق الى القلوب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره ، فما كل من أسمعته نكرا ، يطيق أن توسعه منك عذرا .

جلالة الملك يفتتح معهد أسيوط

ويفتتح مؤسسات حكومية أخرى هناك

كان يوم الثلاثاء الرابع من شهر ذى الحجة موعدا لافتتاح « معهد فؤاد الأول الدينى بأسيوط » رسميا ، فرأى حضرة صاحب الجلالة الملك رعاية للعلم وأهله ، وإكبارا للدين وأعلامه ، أن يشرف حفلة الافتتاح بشخصه ، فامتطى جلالته فى منتصف الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم متن طائرة حربية تحرسها إحدى عشرة طائرة أخرى ، فوصل الى منقباد ، وهى على بعد اثنى عشر كيلو مترا من أسيوط ، قبيل الساعة العاشرة . فكان فى استقبال جلالته رئيس أركان حرب الجيش وضباط حامية أسيوط . وبعد زيارة جلالته للمطار وثكنات الجيش قصد أسيوط فوصلها بعد الساعة العاشرة ، ببضع دقائق . فكان فى استقباله فيها صاحب المجد النبيل عباس حليم ، وأصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى والسعادة محمد طاهر باشا ورئيس الوزراء والوزراء وكبار رجال السراى ووكلاء الوزارات ومدير السكك الحديدية ومدير أسيوط وشيوخ المديرية ونوابها وكبار الضباط والأعيان فيها . وبعد أن افتتح جلالته محطتها شرف دار الاسعاف الجديدة وافتتحها . ثم قصد جلالته معهد فؤاد الأول فكان فى استقبال جلالته حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الفحام وكيل الأزهر ، وأصحاب الفضيلة شيوخ الكليات وأعضاء مجلس الأزهر الأعلى والمفتشون وفى طليعتهم سعادة الأستاذ الكبير خالد حسنين بك ، فتقدم جلالة الملك بين صفين من الطلبة فى مدخل المعهد فاستقبلوه هاتفين داعين . ثم تفضل فتصدر السرادق الفخم الذى أعدته مشيخة الأزهر فى متنزه المعهد .

عند ذاك نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى بين يدى جلالته خطبة عالية الكعب فى البلاغة ، سامية القدر فى البيان ، أوجزت داء المسلمين ودواءهم فى أسطر معدودة ، وبعبارات متخيرة خلابة ، ونظم مؤثر رائع . قال حفظه الله :

مولاى صاحب الجلالة :

لهذا المعهد المبارك قصة فيها عبرة ، فقد حدثنا الرواة أن والدكم العظيم صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول زار مدينة أسيوط وشاهد ماشاهد من قصورها الفخمة ومعاهدها الضخمة ، ولم ير بينها دارا لتعليم علوم الدين الاسلامى تناسب جلال المدينة وسكان عاصمة الصعيد ، وتليق بما يدرس فيها من علوم القرآن الكريم وآثار السلف من المسلمين ، فلم ترض نفسه الكريمة إلا بأن يكون لهذه المدينة مبنى للعلوم الدينية يطاول بشامخ أركانه ماراق جلالته من عمائرها العالية

ومعاهدها العظيمة ، ويتمائل فى جلاله الى ماتتناوله تلك الدراسات الدينية العالية ، فأمر بأن تشاد هذه الدار ، وصدع أولو الشأن بأمره ، وقام هـذا المعهد الرفيع العماد الذى تشرفونه اليوم يا صاحب الجلالة بالزيارة الكريمة ، وتفتتحونه رسميا للدرس والبحث .

مولاى :

كان فى حياة والدكم العظيم عبرة للناس عامة ، وللعلماء والملوك خاصة . فقد كان ، وهو ملك عظيم يدبر الملك ويسوس الدولة ، ويقف بنفسه على جلائل الأمور ودقائقها ، يعنى بالدراسة والبحث فى كل ما تتجدد به الحياة العلمية من آثار المؤلفين وآراء المصلحين ، ويعنى بإنهاض العلم وترفيه حياة العلماء . وكان شديد الايمان بالله ، قوى التوكل عليه ، عظيم الصبر على ما كان يضطلع به من أعباء جسام ، حريصا على تقاليد الاسلام وعلى مكارم الأخلاق . ذلك الى نفاذ بصيرته ورجحان عقله وصحة رأيه . وانطباع نفسه العلية على خلال الخير ، هو السر فى حرصه على إقامة دور العلم ، وحرصه على إصلاح نظم التعليم وإعلاء شأن علماء الدين ، ورفعهم الى مراتبهم اللائقة بهم . وهو السر فى إنشاء هذا المعهد ، وما فكر فى إنشائه قبله من كليات الأزهر ودور كتبه ومعاهده وغيرها من دور العلم التى يخطئها العد ، والتى هى حسنات ستوضع فى ميزانه عند الله يوم القيامة ، يوم توزن الأعمال وتوفى كل نفس ما عملت ، وسترفعه عند ربه بفضله ورحمته الى منازل من رضى الله عنهم ورضوا عنه إن شاء الله .

حسبى هـذا الآن ، غير أن حسنة من حسنات المغفور له والدكم العظيم لا يجوز لى أن أمضى فى القول دون الاشارة اليها والاشادة بذكرها : تلك هى تنشئته ولده العظيم صاحب الجلالة الملك المحبوب فاروقا الأول — أعزه الله ورفع ذكره — على ذلك المثال الرفيع من الثقافة الدينية والمدنية ...

مولاى :

ورثت عن والدك عزمه ومضاءه ، وإيمانه بالله ووفاءه ، وورثت عنه خلال الخير ومقومات البر ، وورثت عرش مصر التى تفديك بالنفوس ، وتقيك بكل عزيز . وشعبها الشجاع الخير له فيك آمال كبار أن تنهض به الى الحق والعدل ، والى العلم والدين ، والى الخلق والعمل ، والى العزة والمجد . ولك من قوة الشباب ومن واضح الرأى ومضاء العزم ، ومما تبادله شعبك الأمين من صادق الولاء والحب ، ماهو كفيل بحسن التوجيه الى السداد ، والتوفيق الى مواطن الرقى ، بفضل من الله وعون منه .

مولاى :

فى شباب أمتك حياة متوثبة متطلعة الى المجد ، نزاعة الى المعالى ، ولكن هذه الحياة تشبه

حياة نهر فياض لم توضع له السدود، ولم تشق منه الجداول، ولم تحكم بعدُ طرق استثماره، فهو فى حاجة الى هذا كله، وفى حاجة الى الرفق والحزم، وأنت خير من يرجى لهذا، أعانك الله وسدد خطاك، وأسعد بك رعيتك !

مولاى :

فُتنت بعض شعوب الشرق بمظاهر الغرب ونظمه، وأسرفت فى انتهاج كثير من أساليب الحياة فيه، واستعارت الرث الخلق من ثيابه مع قليل من جديده، ولفقت من زيها الأول ومن هذه الرقاع المستعارة لباسا مشوها لا هو شرقى ولا هو غربى، وأصبحت حياتها الاجتماعية أيضا ملفقة لا هى دينية ولا هى غير دينية، وكلما هبت الريح طارت رقعة من هذا الزى، والناس فى هم مقعد مقيم من ضم هذه الرقاع بعضها الى بعض.

ألم يأن لهذا البلد الطيب أن تجتمع فيه قوى الخير فتنسج للحياة المصرية ثوبا تؤخذ خيوطه من مقومات الشعب ومزاجه ودينه وتاريخه وتقاليده الصحيحة، ثم يخاط هذا الثوب على قده ليستطيع السير فيه والنهوض بأعباء الحياة المريرة الثقيلة فى هذا العصر المادى الملىء بجموح الشهوات ؟

شىء من عناية مولانا الملك الكريم وعزمه، وشىء من حب الرعية للوطن، وشىء من الحكمة والخوف من الله، وشىء من الإيثار وطرح الأنانية، كل أولئك كفيل بالخير موصل الى السعادة إذا خلصت النيات واتجهت القلوب الى الله، واعترف الناس بالمصير فى الآخرة وما أعد الله فيها من عذاب أليم للأشرار، ونعيم مقيم للأخيار.

مولاى :

نحتفل اليوم بدار للعلم والدين بناها والدك العظيم، وهناك معهدان جديران بالذكر أنشئا فى عهدك الزاهر، وأقيما بأمرك الكريم : أحدهما فى شبين الكوم عاصمة مديرية المنوفية، والثانى فى عاصمة مديرية قنا، وهما الآن عامران بذكر الله، مليئان بالدرس والبحث، تشرق منهما شموس الهداية والعلم والدين. وإنى لأرجو أن يكون يوم الاحتفال بافتتاحهما على يد جلالتك الطاهرة قريبا، بفضل الله وعونه.

مولاى :

كان الله لك وأعانك ووفقك، وكان معك فى سرك وعلنك، وفتح لك باب الخير، ويسر لك طريق الرشد، إنه نعم المولى ونعم النصير !

والآن أرجو أن يسمح مولانا — أدام الله توفيقه — فيتفضل بزيارة معهد فؤاد الأول الدينى العلمى، ويفتتحه على بركة الله، وباسم الله، وعون الله.

بعد أن أتم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام إلقاء خطبته ، تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فتفقد المعهد ، ودخل الى حجرات الطلبة واستمع لبعض المدرسين ، وأنصت لتحية طالبين من طلبة المعهد ، وأصغى جلالته الى مناقشة فضيلة الأستاذ الامام لبعض الطلاب فى قواعد اللغة .

وبعد زيارة جلالته لحجرات التدريس ، تفضل بتفقد قاعة المحاضرات والسينما ، والمعامل العلمية ، ومساكن الطلاب .

ثم تلطف جلالته فزار حجرة شيخ المعهد ، فألقى فضيلته بين يديه هذه الكلمة :

مولاى صاحب الجلالة :

تفضلتم فى هذه الرحلة الميمونة ، بافتتاح المعهد العظيم « معهد فؤاد الأول » فأضفتم بذلك الى مبراتكم المتوالية ، وحسناتكم المترادفة ، حسنة كبرى ، يتوارث ذكرها الأبناء عن الآباء ، ونسجلها على صفحات قلوبنا المفعمة بالحب والاخلاص .

ياصاحب الجلالة :

قد رفعتم بتشريفكم هذا شأن العلم والعلماء ، وأذكيتم عوامل النشاط فى أساتذة المعهد وطلابه ، ليصلوا الى الحلية العلمية التى ترضى جلالتكم ، والتى حرصتم على أن تتحلى بها رعيتكم ، المتفانية فى حبكم ، الصادقة فى التعلق بسدتكم ، المخلصة فى التمسك بعرشكم المفدى .

ياصاحب الجلالة :

يكون لنا الشرف السامى ، إذا تفضلتم جلالتكم ، فتقبلتم منى ومن أساتذة المعهد وموظفيه ، وطلابه — شعائر الإخلاص والولاء ، وجميل الشكران والثناء .

نسأل الله تعالى أن يحفظ ذاتكم الكريمة ، وأن يحرسكم بعين عنايته وعظيم رعايته ، وأن يشرح صدركم ببلوغ أمانيكم فى شأن أمتكم السعيدة ، وبلادكم العزيزة ، إنه سميع مجيب الدعاء !

وإنى بهذه المناسبة الكريمة ، أتقدم الى حضرة صاحب الجلالة مولاى الملك المعظم ، ملتمسا من جلالته أن يتفضل بالتوقيع بامضائه الكريم ، على سجل الزيارة والاحتفال ، ليتم لنا بذلك الشرف الأسمى .



سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

سبق الكلام على الجملة الأولى ، أما قوله تعالى : « الله الصمد » فهو مبتدأ وخبر . وقيل : الصمد نعت والخبر مابعده . وليس بشيء . والصمد فى تفسيره عبارات كثيرة : قال ابن الأنبارى: لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذى ليس فوقه أحد ، وهو من يصمد اليه الناس فى حوائجهم وأمورهم . وقال الزجاج : هو الذى ينتهى اليه السؤدد ويقصده كل شىء ، وأنشد :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكذاك قول الآخر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها خزيت فأنت السيد الصمد

وهو تهكم من ذلك القائل .

ويقول ابن عباس : إنه السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه ، والعظيم الذى كمل فى عظمته ، والحكيم الذى كمل فى حكمته . وعن أبى هريرة أنه المستغنى عن كل أحد ، المحتاج اليه كل أحد وعن ابن جبير : هو الكامل فى صفاته وأفعاله . وعن الربيع : هو الذى لا تعتريه الآفات . وعن مقاتل بن حيان : هو الذى لا عيب فيه . وعن قتادة : هو الباقى بعد خلقه . ونحوه قول معمر : هو الدائم . وقال مرة الهمدانى : هو الذى لا يبلى ولا يفنى . وعنه أيضا : هو الذى يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . وعن الحسن البصرى ومجاهد وغيرهما أنه : الذى لا جوف له . وعن ابن مسعود : الصمد : الذى ليس له أحشاء . وهو رواية عن ابن عباس .

وليس يخفى عليك أن أكثر هذه التفاسير منظور فيها لما جاء فى القرآن من وصف الله تعالى بالصمد ، وإلا فهو فى لغة العرب لا يفسر بهذه الأوصاف التى لا تنطبق إلا على الله عز وجل كما عرفته من الشعر السابق .

والخلاصة : أن المختار من تلك الأقوال التي ذكرناها والتي لم نذكرها أنه السيد الذي يصمد اليه الخلق ، وهو بمعنى المفعول : أي المصمود اليه ، يقال : صمده وصمد اليه : أي قصده والتجأ اليه . وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لا خلاف فيه ، وإن كان في السيد نفسه خلاف ، والصحيح إطلاقه عليه عز وجل .

هذا وقصد المخلوقات إياه تعالى بالحوائج أعم من القصد الارادي ، والقصد الطبيعي ، وهو القصد بحسب الاستعداد الأصلي الثابت لجميع الماهيات ، إذ هي كلها متوجهة اليه تعالى في طلب كمالاتها منه عز وجل .

وتعريف «الصمد» دون «أحد» في الجملة السابقة ، قيل لعلمهم بصمديته تعالى دون أحديته . والأولى أن يقال : إن التعريف لإفادة الحصر ، كقولك : زيد الرجل . ولا حاجة اليه في الجملة السابقة ، فان مفهوم أحد يقتضي التنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقا ، الى آخر ما بيناه سابقا ، مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى ولا يعترفون بها ، فلا محل للتعريف .

ولك أن تقول : إن أحدا في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتج الى تعريفه ، بخلاف الصمد فانه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل ، أي كما في البيتين السابقين .

وتكرار الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير ، قيل : للإشعار بأن من لم يتصف بالصمدية لم يستحق الألوهية ، وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين الحصر ، فإذا قلت : السلطان العادل ، أشعر بأن من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة . وإذا كانت الصمدية لازمة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها . ولم يكتف بمسند واحد بأن يقال : الله الأحد الصمد ، للتنبيه على أن كلا من الوصفين مستقل في تعيين الذات والاختصاص بها .

وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل على ما قبلها ، فإن من كان غنيا لذاته محتاجا اليه جميع ماسواه ، لا يكون إلا واحدا ، وما سواه لا يكون إلا ممكنا محتاجا اليه .

والقرآن له عناية بالغة بذكر الأدلة في باب التوحيد تلويحا وتصريحا كما لا يخفى على المتأمل البصير .

وبهذه المناسبة نقول : إن قول ذلك الفيلسوف الذي نقلته مجلة الأزهر في عددها الثامن من السنة الماضية : « إن أدلة القرآن على توحيد الله تعالى إجمالية» غير صحيح ، وكأنه اغتر بما يراه في كتب المتكلمين من العبارات الطويلة والأسئلة والأجوبة ، الى آخر ماتعرفه من كلامهم . ولو تبصر قليلا لعرف أن طريقة القرآن أصح وأوضح وأقرب من تلك الطرق كلها ، وهي نافعة للخاصة والعامة ، بخلاف طريقة المتكلمين والمتفلسفين .

والقرآن يبين فى وضوح أن كل شىء آية من آياته ، ودليل على وجوده وعظيم صفاته . وكان بودى أن أبسط الكلام على مافى القرآن من البراهين والآيات التى لم يصل إليها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون ، ويعلم الله أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع .

وإن شئت فانظر الى الاستدلال البديع الذى فى نهاية الايجاز والاعجاز فى قوله تعالى : « أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » وقوله : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » .

وقد أذكرنى هـذا ماقاله بعض فلاسفة المتكلمين ، وأظنه ابن سينا : « كنت أشتهى أن يرى أرسطو ذلك الدليل البديع على البعث فى قوله : « قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

أما الاستدلال على قـدرته وحكمته فى القـرآن الشريف فأكثر من أن يحصى ، وأكثر من أن يستقصى ، فى مثل قوله « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » ، ويقول : « فى أى صورة ماشاء ركبك » « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين » « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » ، ويقـول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعـل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقـوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » الى آخر تلك الآيات التى اختتمها بقوله « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » . وقد قال بعض الفلاسفة : « يكفينى فى الاستدلال على الله وجود الأنثى بجانب الذكر » . ويقول تعالى « أأنتم أشد خلقا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لـكم ولأنعامكم » . ويقول : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غـير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة مَن إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لـكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون » . ويقول مخـبرا عن الانسان مستلفتا نظـره الى تلك الآيات البينات : « ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعـل منه الزوجين الذكر والأنثى » . ويقـول : « أمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لـكم من السماء ماء فأنبتنا به حـدائق ذات بهجة ما كان لـكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » الى آخر الآيات التى جاءت فى تلك السورة .

ومن عجيب تصرف القرآن فى الاسـتدلال على الله ما يسلـكه فى كثير من السور من تلك

الطريقة البديعة ، فيقسم بأشياء تستلفت الأنظار ، وتستهوى الأفكار ، لدى من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فيقول : « فلا أقسم بالخنّس ، الجوار الكنّس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس » . ويقول : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاّها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سوّاها » ويقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » .

ولعله لايغيب عنك ما ذكره فى الاستدلال على البعث ، وهو استدلال على وجوده تعالى وقدرته ورحمته : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقرُّ فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » . ويقول : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » ويقول : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

ولتعلم أن من عادة القرآن التفنن فى ذكر الآيات ، علما منه بما جبلت عليه النفوس من الجهل والغلظة ، كما قال فى حق الانسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، ويقول : « قتل الانسان ما أكفره . من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسّره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره . فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . ويقول : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خَضِرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجناتٍ من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . الى آخر ما جاء فى القرآن الشريف من ذلك وهو كثير « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » .

وما أجدرنا أن يقول كل منا كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي » ! فقل لي بأبيك أين هـذا من تلك العبارات المظلمات التي تراها مختلطة بتلك الشبهات وهاتيك التشكيكات من التهافت وتهافت التهافت مما يثير الأوهام ويفسد الأحلام ؟ ! « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » ؟

يوسف الدجوي
عضو جماعة كبار العلماء

أحسن ما قيل في وصف الجنود

اليوم وحكومتنا تعمل جاهدة لا يجاد جيش يصلح للذياد عن البلاد ، وحمايتها ممن يقصدها بسوء ، يشوقنا أن نقرأ ما جادت قرائح شعرائنا القدماء في وصف جيوشهم ، لنعيد بذلك الى الأذهان صفحة من تاريخ مجدنا السابق ، راجين أن نسترده بجهودنا في العصر الراهن .

قال ابن عبد ربه صاحب العقد :

وجيش كظهر اليم ينفحـه الصبا يعب عبابا من قنا وقنابل
فيـنزل أولاه وليس بنازل ويرحـل أخراه وليس براحـل

وقال أبو الفرج الببغا :

فاذا الجياد الى الجياد عوابسا شعثا ولولا بأسـه لم تنقـد
في جحفل كالسيل أو كالليل أو كالقطر طـافح قطر بحر مزبد
متوقـد الجنبات تعتنق القنـا فيـه اعتناق تواصـل وتودد
متعنجر بضيا الصوارم مـبرق تحت العجاج وبالصواهل مرعد
رد الظلام على الضحى واسترجع الـ إصباح من ليـل الغبار الأربد
وكأنما نقشت حوافر خيـله للنـاظرين أهـلة في الجلمـد
وكأن طرف الشمس مطروف وقد جعـل الغبار لهـا مكان الإثمد

وقال غـيره :

خميس إذا أخفى سنا الشمس نطقه أضاء وأبداه الحـديد المسرد
تواجهه هـوج الرياح فينثني وتحمله الأرض الوقور فيرعـد



الربا

عن جابر رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء » . رواه مسلم وغيره .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان أقسام الربا وتعريف كل قسم . (٢) حكم ربا النسيئة ودليله وحكمة مشروعيته . (٣) حكم ربا الفضل ودليله . (٤) تفصيل الأشياء التى تصح فيها المبادلة والتى لاتصح فى المذاهب . (٥) هل يجوز لكاتب مسلم أن ينكر الأحاديث المتفق على صحتها بدون أن يفهم معناها فهما صحيحا ثم يدعى أنها من وضع اليهود والمجوس ؟

(١) إن موضوع الربا قد كتب فيه كثير من علماء المسلمين ، وأبانوا ما قاله فيه أئمتهم بيانا وافيا ، ولعلى قد وفيته بعض حقه فى الجزء الثانى من كتابى (الفقه على المذاهب الأربعة) . ومع هذا كله فقد قرأت فى الجزء التاسع من مجلة الأزهر مقالا لأحد (الأندونسيين) ذهب فيه الى حل ربا الفضل والنسيئة إذا لم تكن أضعافا مضاعفة . ومن الأسف أنه فهم الأحاديث فهما معكوسا ثم حكم بأنها موضوعة ، فبعثنى ذلك الى أن أجعل مقالى هذا فى موضوع الربا . والى القراء البيان :

(١) قسم جمهور الفقهاء الربا الى قسمين : ربا الفضل ، وربا النسيئة . فأما ربا الفضل فهو زيادة أحد البدلين المتجانسين بدون أن تقابل هذه الزيادة بعوض ، مع التقابض . مثال ذلك : أن يبيع شخص أردبا من القمح بأردب وكيلة من القمح المماثل لقمحه ويقبض كل واحد من البائع والمشترى ما يخصه بدون تأجيل ما . ومثل ذلك ما إذا اشترى شخص عشرة مثاقيل من الذهب المصوغ بذهب مصوغ مثله ، قدره اثنا عشر مثقالا . فاذا أجل البائع القبض كان من ربا النسيئة الآتى بيانه . ويسمى الشافعية مثل هذا بربا اليد .

وأما ربا النسيئة فهو زيادة أحد البدلين سواء أ كانا متحدى الجنس أم لا ، بدون أن تقابل هذه الزيادة بعوض سوى تأخير الدفع . ولذا سمى ربا النسيئة ، فان النسيئة معناها التأخير . مثال ما اختلف فيه الثمن والمبيع : أن يشترى أردبا من القمح بجنيهين على أن يدفعهما له

جنيهين ونصفا إذا أجل له دفع الثمن مدة معلومة . ومثال ما اتحد فيه الثمن والمبيع : أن يشترى منه أردبا على أن يدفعه له أردبا ونصف أردب بعد مدة معينة . ومثل ذلك ما إذا أقرضه عشرين جنيها على أن يأخذها منه ثلاثة وعشرين بعد مدة . فالزيادة التى زادت على ثمن القمح ربا محرم لأنها لم تقابل بعوض مالى . ولا يصح أن يقال : إن العوض هو تأخير الدفع ، لأن تأخير الدفع ليس بعوض فى نظر الشريعة الاسلامية المبنية على إغاثة المكروب وتوثيق صلات المودة بين أفراد المجتمع . فذلك هو حد ربا الفضل وربا النسيئة . وقد يقال : إن الشافعية يشترطون فى عقد البيع وغيره من العقود أن يكون بإيجاب وقبول لفظا ، سواء كان ذلك اللفظ صريحا فى البيع أو كان كناية ، فلا يتحقق عقد الربا إلا بلفظ من الألفاظ الدالة على البيع : كأن يصرح البائع بلفظ البيع ونحوه ، والمشترى بلفظ يدل على القبول ، فيقول مثلا : بعتك هذا الأردب من القمح بمائة وخمسين قرشا على أن آخذها بعد ستة أشهر مائتين ، فيقول له : قبلت أو اشتريت أو نحو ذلك . ومثله ما إذا قال الآخذ : أقرضنى عشرين جنيها على أن أدفعها لك خمسة وعشرين بعد حول ، فيقول له المعطى : قبلت . فهذا مثال الصريح . وأما الكناية فكأن يقول له : أعطيتك هذا بذاك ، فانه ينعقد بها البيع وإن لم يصرح بالالفظ الدال على البيع أو الشراء أو القرض .

ومما لا ريب فيه أن معظم الذين يتعاملون الآن مع المصارف المالية وغيرها لا يصرحون بلفظ الايجاب والقبول ، بل هم يكتفون بالتعاطى وبالامضاء بدون نطق . وعلى هذا فلا تحقق ماهية الربا أصلا عند الشافعية . وهذا حسن ، ولكن الشافعية الذين صرحوا بذلك قالوا فى كتبهم أيضا : إن المعاملة على هذا النحو أشد إثما من أكل الربا الصريح ، فقد ذكروا أن مثل هذا النوع من المعاملة من باب أكل أموال الناس بالباطل . فالمسألة شكلية . والشافعية مع غيرهم فى فساد هذا النوع من المعاملة .

(٢) حكم ربا النسيئة ودليله وحكمة مشروعيته : فأما حكمه فقد عرفت أنه من الجرائم المحرمة ، ولم يقل أحد من المسلمين بحله ، بل هو من أكبر الكبائر التى جزاؤها الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . وأما دليل تحريمه فهو الكتاب والسنة والاجماع . فأما الكتاب فقد حرمه الله فى غير موضع من القرآن الكريم ، وحذر الناس من شره تحذيرا شديدا ، وأخافهم مما يترتب عليه من سوء المصير ، قال تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » . « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . فكل مؤمن له قلب يخشى ربه



ويخاف عقابه ويرجو رحمته ، يقدر ما اشتملت عليه هذه الآية من الزجر الشديد والوعيد الذى تقشعر منه جلود المؤمنين . وكفى بذلك زجرا ووعيدا . وأما السنة الصحيحة فيكفى منها الحديث الذى معنا ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد لعن آكل الربا وهو صاحب المال الذى يسلفه بفائدة ، ولعن موكله وهو المدين الذى يستدين بفائدة يعطيها لصاحب رأس المال فيوكله إياها ، بل لعن الكاتب والشاهد لأنهما أعانا على ما نهى الله عنه . وفى ذلك من الوعيد ما لا يخفى . وعلى ذلك فقد أجمع أئمة المسلمين وأولو الرأى على ذلك التحريم ، ولم يشذ منهم أحد .

ثم إن الآية الكريمة قد صرحت ببيان معنى ربا النسيئة المحرم ، فقد قال تعالى : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وهذا نص صريح على أن الذى يستحقه صاحب الدين إنما هو رأس المال بدون زيادة ما ، وكل زيادة عليه ظلم . ولم تترك الآية الكريمة المدين المماطل إذا كان قادرا على سداد دينه ، بل حذرته من ذلك ووصفته بالظلم كما وصفت آكل الربا . فاذا حاول المدين القادر عدم السداد أو حاول سداد بعض الدين وأكل بعضه استحق عقوبة آكل الربا فى الدنيا والآخرة . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « مطل الغنى ظلم » . وقال : « لىّ الواجد يُحل عرضه وعقوبته » . ومعنى لى الواجد : مطل الغنى الذى يجد ما يسد به دينه ، فمتى كان قادرا على سداد رأس المال فانه يجب عليه أن يفعل ، وإلا استوى فى الظلم مع آكل الربا . وهذا المعنى مجمع عليه من أئمة الدين . فربا النسيئة محرم عندهم قليلا كان أو كثيرا ، ولكن طغيان الشهوات على الناس دفعهم الى التورط فى الربا وهم لا يشعرون ، فأفضى ذلك ببعض المتعلمين الى تلمس باب ينفذون منه الى جواز حل الربا اليسير ، فمع تسليم جميع الباحثين بتحريم ربا النسيئة بالنص فان بعضهم يقول إن القليل منه لا يحرم دينا . واستدلوا لذلك بقوله تعالى فى سورة آل عمران : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » فان هذه الآية تفيد أن المحرم إنما هو الربا المضاعف ، فاذا كان غير مضاعف فانه يكون حلالا . ولكن فهم هذه الآية على هذا الوجه خطأ صريح ، وذلك لأنها بيان لحالة خاصة كانوا عليها قبل التحريم ، وفيها معنى التوبيخ والزجر . فقد ورد أن صاحب الدين كان يقول للمدين الذى حل أجل دينه : إما أن تقضى حقى أو تربى وأزيد فى الأجل ، فيرضى المدين بالزيادة التى يفرضها عليه فى نظير تأخير الدين ، وبذلك يضاعف الربا . وهذه حالة من أسوأ حالات الربا المحرم . ولهذا زجر الله المؤمنين عن هذه الحالة زجرا شديدا ، فقد قال بعد ذلك : « واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين » . وفى ذلك تسوية للمؤمنين المرابين بالكافرين فى دخول النار . ولذا كان أبو حنيفة رضى الله عنه يقول : هذه أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه من اجتناب ما حرمه .

وبهذا تعلم أن الآية الأولى بيان لحكم الربا وأنه لا يحل أكله قليلا كان أو كثيرا ، وآية آل عمران حكاية لحالة خاصة كانوا عليها . ولو كان الغرض منها تقييد الحكم كما فهمه بعض الباحثين لجاز أن يؤكل منه ما كان أقل من الأضعاف ولو زاد على رأس المال . ولنفرض أن أقل الجمع ثلاثة ، فعلى هذا الرأى المضحك المبكى يجوز للمرابين أن يأخذوا فوائد مضاعفة ثلاث مرات إلا قليلا . وهل هذا كلام يقوله باحث بعد قوله تعالى : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم » ، وبعد إجماع أصحاب رسول الله ومن نقل عنهم الدين من مجتهدى هذه الأمة على أن قليل ربا النسيئة حرام ككثيره بلاخلاف ، فضلا عما فى ذلك من إرهاق المدين إرهاقا حرمته الشرائع الوضعية نفسها ؟

ومن الأسف أن الكاتب الأندنوسى لم يكفه الحكم بوضع الأحاديث المتفق على صحتها وقال إنها من وضع اليهود والمجوس، وهوغافل عن فهمها تمام الغفلة كما ستعرفه ، بل تجاوزها الى تفسير كتاب الله تعالى بما يشتهى فقال : « إن المحرم هو الربا المضاعف أضعافا » ، فكأن الله تعالى يداعب مرابى العرب ويشجعهم على الربا الذى يستنزف أموال الناس بشرط أن لا يصل الى الأضعاف المضاعفة ! وأغرب من هذا أن يستدل على ذلك بأن الربا المقيد بالأضعاف هو المراد من الحكم لأن القاعدة عند علماء الأصول أن المطلق يحمل على المقيد ويقيد بقيده ، فآية البقرة التى ورد فيها تحريم الربا مطلقا يجب تقييدها بآية آل عمران فلا يحرم الربا إلا إذا كان أضعافا مضاعفة .

وإنى أختصر الكلام فى هذا الموضوع تسهيلا لحضرات القراء فأقول له : على فرض أن ها هنا « مطلق ومقيد » فإن الذين يقولون بحمل المطلق على المقيد هم السادة الشافعية ، وهؤلاء قد أجمعوا على أن عقد ربا النسيئة حرام ، وأنه كبيرة من الكبائر سواء كان بفائدة كبيرة أو يسيرة . أما الحنفية فانهم يقولون : لا يصح حمل المطلق على المقيد ، بل يجب العمل بالمطلق وبالمقيد متى كان ممكنا كما فى هذا المقام ، فان الله سبحانه قد حرم الربا فى آية البقرة تحريما مطلقا سواء كان قليلا أو كثيرا ، أما فى آية آل عمران فقد نص على تحريم الربا المضاعف ، فتحصل من هذا تحريم الربا بجميع أحواله . وفى ذلك من الزجر الشديد ما لا يخفى .

على أنك قد عرفت أن آية آل عمران إنما هى بيان لحالة واقعة كان عليها العرب فى الجاهلية ، فلم يقصد منها التقييد مطلقا ، ولذا لم يفهم منها أحد من أئمة الشافعية الذين قالوا بالتقييد سوى هذا المعنى . ولكن يظهر أن حضرة الكاتب الأندنوسى مشبع بضرورة استعمال الربا لأن الظرف المحيط به يقضى عليه بذلك . وإذا كان كذلك فان المسألة تخرج من باب الجرأة على كتاب الله وأحاديث رسوله الصحيحة ، ومحاولة تطبيق نصوص الدين بالباطل ، الى باب آخر وهو أن الضرورة الملحة قد قضت بهذا النوع من المعاملة الفاسدة ، وحينئذ يمكنه أن

يجد له مخرجا . أما إذا لم تكن ضرورة تتوقف عليها حياة الأمم كما تتوقف حياة الأفراد على سد رمقهم بما لا يحل ، فمن المحال أن يوجد نص فى الدين يبيح أكل ربا النسيئة قليلا كان أو كثيرا .

أما حكمة تحريم ربا النسيئة فيمكن أن يسأل عنها أرباب الأملاك الذين أضاعوا ثروتهم وأصبحوا عالة على المجتمع الانسانى هم وذرياتهم ، فانهم مثل قائم لمن تحدثه نفسه بالتورط فى هذا النوع الفاسد من المعاملة . على أن الدين الاسلامى كغيره من الأديان الإلهية قد فرض على النوع الانسانى أن يعين بعضه بعضا عند الحاجة ، ونهى عن إرهاق المضطرين وانتهاز فرصة احتياجهم للقضاء عليهم . فلذا شرع القرض للمحتاج بدون فائدة ، ووعد الذين يغيثون المضطرين وينقذونهم من بلوائهم وعدا كريما وأجرا عظيما . فاذا فقد هذا المعنى من أنفس الناس وأصبحوا ماديين من جميع جهاتهم ، كان فى ذلك القضاء على عوامل الرفق والرحمة بالإنسان ، وإماتة روح التعاون والتناصر فى هذه الحياة الدنيا ، وذلك شر وبيل . فالانسان من حيث هو إنسان له قلب يدرك به معنى الحاجة والاضطرار ، يجب عليه أن يكون ذا عاطفة كريمة تأبى عليه أن يستغل فرصة احتياج أخيه فيوقعه فى شرك الربا فيقضى على ما بقى فيه من حياة مادية . على أن فى الربا فتح أبواب الشهوات الكمالية لضعاف الارادة والعقول ، فتدفعهم شهواتهم الى الدخول فى باب الربا ليحصلوا على أكبر قسط ممكن من اللذات التى تأكل ما بأيديهم من رءوس أموالهم كما تأكل النار الحطب ، فلا يفيقون إلا بعد أن يلتهم الربا كل ما بأيديهم وهم لاهون .

قد يقال : إن الربا اليسير لا يقضى على الثروة ، ولذا حرمت الشرائع الوضعية نفسها فى بعض الأقطار الزيادة المرهقة ، وأوقفت المرابين عند حد معقول لا يقضى على الثروة ، فما بال الأديان قد حرمت كثيره وقليله ؟

والجواب عن ذلك يمكن معرفته لمن وقف على حقيقة هذا النوع من المعاملة ، فإننا شاهدنا معظم الذين يتعاملون بهذه المعاملة قد أفضت بهم الفوائد اليسيرة الى ضياع كل ما يمتلكون ، وذلك لأن اليسير من الربا يتضاعف بمرور الزمن ، فهم يستسهلون الفائدة فى أول الأمر فتتضاعف بمرور الزمن وتتضاعف فائدتها ، وهلم جرا ، فلا ينتبهون إلا وهم مثقلون بالدين وفوائده ، عاجزون عن السداد ، وعند ذلك تضيع أملاكهم وهم لا يشعرون . وهاهنا نسائل الذين تعاملوا بالربا اليسير الذى أباحته لهم القوانين الوضعية : لماذا فقدوا ثروتهم بديون الربا ؟ ولماذا عجزوا عن سداد ديونهم وأصبحوا بؤساء لا ينتفع بهم المجتمع ؟ على أنك قد عرفت أن الأديان الإلهية تحتم على الناس أن يعين بعضهم بعضا ، وأن يتعففوا عن إرهاق المضطرين فلا يأخذوا على إغاثتهم ربا سواء كان قليلا أو كثيرا .

ومع هذا كله فإن الشريعة الاسلامية فرضت على كل فرد من المسلمين أن يعمل فى هذه

الحياة الدنيا ، فـكل عاطل لا عمل له مذموم فى نظر الإسلام ؛ وحتمت على الناس أن ينفقوا بقدر ما يتاح لهم ، فلا يبذروا ولا يقتروا ، قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقـتروا وكان بين ذلك قواما » ، وقال : « إن المبـذرين كانوا إخوان الشياطين » . فلو أن المسلمين اتبعوا هذه القواعد وعملوا بها بدقة لما احتاجوا يوما من الأيام الى الربا ، بل كان لـكل واحد منهم وفر من ماله يستعمله فى مهنته التى أتيحت له . ولـكنهم من الأسف الشديد فتحوا على أنفسهم باب الشهوات على مصراعيه ، فزينت لهم الحصول على الأموال التى يسدون بها هذه الشهوات ، وكثير منهم تزين له شهواته الحصول على المال من أى باب ، فيقدمون على الربا والميسر وغـير ذلك من الموبقات بدون مبالاة ، فتـكون النتيجة الإفلاس العاجل والعذاب الآجل . فمن أجل هذا كله حرم الله الربا على الناس كى لا يخرجوا عن دائرة الأعمال المشروعة ويستكينوا الى مايذهب بأموالهم ويصرفهم عن هذه الأعمال التى بها قوام النوع الانسانى وحياته حياة سعيدة .

(٣) وأما ربا الفضل فقد بينا تعريفه فيما مضى ، وهو مبادلة عين بعين مع زيادة يأخذها أحد المتبادلين بدون تأجيل . ولا يخفى أن هـذا النوع من المعاملة قليل الوقوع فى زماننا ، فليس له كبير الأثر فى المعاملات ، إذ ليس من مقاصد العقلاء أن يستبدل أحد سلعة بأخرى إلا إذا كان فى إحدى السلعتين معنى يحتاج إليه ، وفى هذه الحالة يمكن تقويم إحدى السلعتين بالثمن المناسب لها ، فيبيع أحدهما سلعته للآخر بذلك الثمن ، ويشترى منه سلعته كذلك بدون غبن ، أما أن يأخذ أحدهما سلعة جيدة ويعطى الآخر سلعة رديئة ، فذلك غبن لا يرضى به أحد من خلق الله ، لأنه يدل دلالة واضحـة على نقص فى تصرف المغبون ، وحرام على الناس أن يتغابنوا . ولا أدرى كيف فهم الـكاتب الأندونسى معنى ربا الفضل فحصر همه فيه وأساء فهم الأحاديث الصحيحة الى أبعد مدى ؟ !

ولنوضح للقراء معنى ربا الفضل المحرم مرة أخرى فنقول : إن الشريعة الإسلامية قـد نصت على تحريم ذلك الربا فى ستة أعيان ، وهى : الذهب ، والفضة ، والـبر « القمح » ، والشعير ، والتمر ، والملح . فهذه الأصناف الستة قد اتفق المسلمون جميعا على تحريم الربا فيها عند اتحاد الجنس ، فلا يحل لأحد أن يبيع ذهبا بذهب مثله مع زيادة ، ولا فضة بفضة كذلك ، ولا قمحا بقمح ، ولا شعيرا بشعير ، ولا تمرا بتمر ، ولا ملحا بملح . أما غير هذه الستة كالحديد والنحاس والخشب والقماش وغير ذلك من سائر أصناف التجارة فقد اختلفوا فيها ، فقال بعض المجتهدين : إنه يجوز التبادل فيها مطلقا لأن النص قد قصر المنع على هـذه الأصناف الستة . وبعضهم قاس على هـذه الأشياء غيرها . فالحنفية والحنابلة قالوا : إن كل شىء يباع بالـكيل أو الوزن لا يجوز استبداله بمثله مع زيادة فى أحد البدلين سواء كان من هـذه الأصناف

المذكورة فى الحديث أولا . والشافعية قالوا: يقاس على هذه الأصناف كل طعام سواء كان برا أو شعيرا أو فاكهة أو خضرا أو غير ذلك . والمالكية قاسوا جميع الأقوات على ما ذكر فى الحديث ، فكل ما يؤكل يعطى هذا الحكم كالذرة والأرز ونحو ذلك . ورجح بعض العلماء هذا الرأى ، لأن غرض الشارع إنما هو الضرب على أيدى العابثين بأقوات الناس .

وعلى كل حال فليس فى منع ربا الفضل ما يتخيله الكاتب من وقوف التجارة أو تعطيل حركة المعاملة ، فإن الذى يقول ذلك لم يفهم معنى ربا الفضل ، ولم يدر ما هو واقع فى الأمم الآن من الربا ، إذ كل معاملات المصارف والمرابين الآن إنما هى فى ربا النسيئة . ولذا نقل بعضهم عن ابن عباس أنه قال بحله ، ولكن المحققين قالوا : إن ابن عباس رجع عن هذا القول . ومن ها هنا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا فى النسيئة » فإن الغرض منه لفت النظر الى المهم من أنواع الربا ، كما سنوضحه لك بعد .

وإذ قد عرفت أن ربا الفضل هو مبادلة عين بعين مثلها ، تعلم أنه إذا اختلفت العين كان بيعا لا ربا ، كما إذا باع قمحا بشعير ، أو باع تمرا بقمح ، أو باع ذهبا بفضة وهكذا . وهذا المعنى لا نزاع فيه بين العلماء .

ولكن اسمع لما يقوله حضرة الكاتب الأندونسى : إنه نقل عن سبل السلام ونيل الأوطار ما نصه : « إن العلماء قد أجمعوا على جواز المعاملة بالأشياء الستة المذكورة بالتفاضل وبالأجل دينا إذا اختلف الجنس كالذهب بالفضة والتمر بالملح الخ » ثم قال : لماذا أجمعوا عليه والأحاديث نصت على خلافه ؟ ثم ذكر ستة أحاديث صحيحة كلها صريحة صراحة لا تخفى على أحد تنص على ما أجمعوا عليه وليس فيها شبهة ما تجعل لأقل الناس فهما ، العذر فى ذلك . وإليك البيان :

١ — « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منهما غائبا بناجز » رواه البخارى ومسلم وأحمد . وتشفوا بضم التاء وكسر الشين معناه تزيدوا . فهذا الحديث صريح لا لبس فيه . وهو يدل على تحريم مبادلة عين بمثلها مع زيادة فى أحد البدلين . فحرام على الناس أن يستبدل أحدهم من الآخر قطعة ذهب بقطعة ذهب مع زيادة فى أحدها . ومثل الذهب الفضة كما يحرم أن يبيع ذهبا حاضرا بفضة غائبة كما هو الحال فى الصرف ، فإنه لا يحل أن يصرف الشخص جنيها بفضة على أن يأخذها بعد مدة . فكيف يخالف هذا الحديث ما أجمع عليه أئمة الدين ؟ إن هذا لشىء عجيب !

٢ — وقال فى رواية البخارى وأحمد : « لا تبيعوا الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح إلا مثلا بمثل ، يدا بيد ، فمن زاد واستزاد فقد أربى ، والآخذ والمعطى فيه سواء » . وهذا الحديث كالحديث السابق فى تأييد

إجماع العلماء ، لأنه نهى عن مبادلة أحد المثلين بالآخر مع زيادة فى أحد البدلين أو تأجيل . ولا أظن أحدا من خلق الله يفهم منه سوى ذلك . ولولا أنه كتب فى مجلة الأزهر ما سمحت لنفسى بتجشم الرد .

٣ — وقال فى رواية البخارى ومسلم وأحمد أيضا : « الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلاهاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلاهاء وهاء » . وهذا الحديث نص على ضرورة التقابض عند مبادلة النوعين المختلفين كالذهب والفضة ولو بزيادة ، ونص على مبادلة الأنواع المتحدة عند التساوى مع التقابض كمبادلة أردب من الشعير بمثله . ومعنى هاء بالكسر : هات ، يعنى إذا باع أحد نوعا من هذه الأنواع بنوع مثله فانه يجب أن يقول كل من البائع والمشترى للآخر : هاء . وهذا كناية عن التقابض فى المجلس .

٤ — وقال فى رواية مسلم والنسائى وأحمد وابن ماجه : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد ، فإذا اختلفت هذه الأشياء فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد » . وهذا الحديث أكثر صراحة من الأحاديث التى تقدمت ، لأنه اشتمل على نهى صريح عن ربا الفضل ، وأبان الأشياء التى لا تجوز مبادلة بعضها ببعض مع اتحاد الجنس . ومتى اختلف الجنس جازت المبادلة مع التقابض .

ومثل ذلك ما نقله بعد ذلك من رواية مسلم وابن ماجه ، وبعد أن نقل هذه الأحاديث قال ما نصه : « فما معنى هذا الإجماع أيهما أحق أن يتبع : الإجماع أو الأحاديث المذكورة ؟ من من العلماء يستطيع أن يجيب ؟ عجبا والله لماذا أجمع هؤلاء العلماء على ذلك وقالوا فى الوقت نفسه بصحة هذه الأحاديث المنافية له ؟ ولماذا لم يردوا تلك الأحاديث وهى مناقضة للأحاديث الأخرى الصحيحة الموافقة للعقل كحديث أسامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الربا فى النسيئة » رواه البخارى ومسلم .

أما أنا فقد أسفت لمثل هذا الإدراك وتلك الجرأة أسفا شديدا ، بل أقسم أننى حزنت ، لأنه يسرنى أن تكون الأقطار الإسلامية الناهضة عامرة بالعلماء المفكرين والمؤلفين الذين يستطيعون فهم الأمور فهما صحيحا فلا تطيش أقلامهم هذا الطيش . وإننى أرجو أن تكون ترجمة هذا المقال قد اختلت فصورت الحقائق معكوسة . أما أننى أتصور أن يوجد رجل فى مركز اجتماعى يكتب فى مسألة دينية مشهورة ثم يخلط فيها الى هذا الحد فذلك ما يحزننى ! والله يهدى المسلمين الى سواء السبيل .

للكلام بقية

عبد الرحمن الجزيرى

للدين والدنيا معا

حضرة صاحب الجلالة الملك يعيد عهد السلف الصالح

منذ أن تولى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الملك ، اتجهت ميوله الكريمة الى إحياء سنن السلف الصالح واحدة بعد أخرى ، فبدأ باعطاء صلاة الجمعة ما كان لها فى سالف العهد من المظاهر الجليلة ، ثم أتبعها باقامة الدروس الدينية فى الأسابيع الأربعة من شهر رمضان ، وكلف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وهو فارس هذه الحلبة غير مدافع ، أن يلقى هذه الدروس فى حضرة جلالته . فكان لها أثر كبير فى لفت الناس الى أسرار الاسلام ، وسمو أصوله ، وفعل بليغ فى إيقاظ العاطفة الدينية فى قلوب النابتة المثقفة ، مما رأينا ثمراته ماثلة أمام أعيننا تبشرنا بعود دولة الفضائل الاسلامية التى أحدثت فى العالم أكبر الانقلابات الأدبية ، والانتقالات الاجتماعية لخير المجموعة البشرية .

واليوم نرى جلالة الملك يخطو فى تحقيق هذه السنن الكريمة خطوة واسعة ، فيعيد سنة كان يُظن أن عهدها قد انقضى ، وأنها مما لا يمكن إعادته لبعد العهد بزواله ، ولعدم تفكير أحد فى إحيائه ، ألا وهى الصلاة بالناس فى مسجد حافل بالمصلين من كل طبقة . أنا لست أستطيع تقدير مبلغ تأثير هذا الحادث الجلل فى الرأى العام العالمى ، ولكنى أعلم أنه سيكون عظيما الى حد أنه سيكون سببا للفت نظره الى دراسة تركيب الاسلام تحت ضوء المقررات الاجتماعية . ولا نشك فى أن هذه الدراسة ستؤدى به الى فهم كثير من الأصول الاسلامية التى كانت سببا فى تطور الأمة التى أخذت بها ، واطراد تقدمها حتى وصلت الى زعامة الانسانية فى جميع باحات النشاط العقلى والروحى والسياسى ، فى مدة لا تكفى عادة للايصال اليها . وسيكون من ثمرات هذه الدراسة الوقوف على كثير مما اختص به الاسلام من عوامل البعث والانهاض للجماعات ، وفواعل التضام والترابط بين آحاد الأمة وطبقاتها ، دون أن تصادف من التقاليد والأوضاع ما يثبط من حركاتها الى الغايات البعيدة ، تلك التقاليد والأوضاع التى قضت بالجمود والوقوف على أمم كثيرة . وليس فى وسع أحد أن يتصور وسيلة لتنبيه العالم كله الى هذه الدراسة الخطيرة أوقع فى النفس ، وأفعل فى الهمم ، مما وفق جلالة الملك فاروق لعمله فى الآونة الأخيرة .

إن الاسلام حافل بالأصول التى تعتبر بحق عوامل مؤدية للحياة الفاضلة ، فاذا تنبه العالم لدراستها تحت ضوء العلم اليوم كان ذلك فاتحة انتشار له لا يقف عند حد .

منصب الخلافة والديموقراطية

دحض شبهات على سلطة الأمة فى الاسلام

أثارت الجرائد الغربية مسألة الخلافة وزعمت وشك إعادة إقامتها ، ونحن لا يعنينا هـذا الأمر من الناحية الاخبارية ، ولـكن يعنينا دحض مايحيط به الغربيون هـذا المنصب من المعلومات الخاطئة ، وقد خاضوا فيها اليوم ، وأقل مافيها أنها تنافى الديموقراطية التى يفخر المسلمون بأن دينهم أول ما أقام صرحها فى العالم ، فنقول :

تولدت فى أوروبا بحكم الأوضاع الموروثة سلطتان : إحداهما روحية ، والأخرى دنيوية ، نشأتا متفقتين متكافلتين ، وكانت مهمة الأولى تنحصر فى القيام على الدين والعمل على نشره ، وتتويج الملوك واستنزال البركات عليهم . ولـكن لم يمر على هذا الوضع زمان حتى انتحلت هذه السلطة لنفسها ، اعتمادا على مشايعة الناس لها ، حقوقا لم تزل تزيد فيها حتى أصبحت معها قيِّـمة على السلطة الدنيوية ، بحيث لا تستطيع هـذه أن تبرم أمرا أو تحله دون استشارتها ، مما دعا الـكثيرين من الملوك الى مقاومة هذا التدخل بالقوة المساحة ، ولـكن تلك السلطة الروحية كانت قد استعدت لهذه الطوارىء ، فاتخذت لها جيوشا وأساطيل خاصة بها تقاوم القوة بمثلها .

فـكان من أثر هذا التدخل الـكنسى فى أعمال الدولة أن تحزب كثير من الملوك مع دعاة البروتستانتية حين نشوئها فى القرن الخامس عشر ، وتمكنوا من رفع يد السلطة الروحية عنهم بعد حروب لم يشهد تاريخ البشرية أشد هولا منها . ومن ذلك العهد ما فتئت السلطة الدنيوية التى بقيت موالية للـكنيسة تنازعها استقلالها ، حتى تم لها الغلب نهائيا بحـدوث الوحدة الايطالية سنة ١٨٧٠ ودخول جنودها ظافرة الى المملـكة البابوية .

مثل هـذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة لم تحـدث فى العالم الاسلامى ، وليس فى طبيعته ما يسمح بحدوثها ، فالاسـلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ، ولم يـكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف ، بل ترك السلطة كلها للأمة تهبها للرجل الذى تراه صالحا لحـكومتها ، وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها ، وأن تعطى لحـكومتها الشكل الذى تجده أصلح لجمع كلمتها ، والقيام على مصلحتها . وهذا الوضع أرقى وضع وصل اليه البشر فى أمر السلطة الاجتماعية ، شأن الاسلام فى كل الشئون الانسانية : يقرر المُثل العليا ويكلف الأمة تحقيقها بجهودها الذاتية .

وعليه فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين الروحية والدنيوية ، وقد أوتوا أصولا مراعى فيها المزج بينهما ، تفاديا من تنازعهما ، بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ، وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ،

ولا يخشى عليهم ، وقد انتهوا الى هذا العهد ، أن ينتحلوا شيئا من ذلك . فالقائم بالأمر فى نظرهم يمثل النزعتين الانسانيتين ، ومكلف بأن يقوم على حاجاتهما بما تستدعيه من علم وعمل .

أما الفرق بين الخلافة والبابوية ، فبعيد جدا الى حد أنهما لا يلتقيان أبدا فى نقطة .

فالبابا ينتخبه الكرادلة وعددهم سبعون ، والكاردينالية أرفع الرتب الكهنوتية بعد رتبة البابوية . وأمير المؤمنين يعتبر رجلا عاديا تنتخبه الأمة ، وهى التى تهبه السلطة ، ولها أن تستردها منه وأن تمنحها غيره ، إذا رأت أن مصلحتها تقضى عليها بذلك .

والبابا بيده النقض والإبرام ، والغفران والحرمان ، وأمير المؤمنين ليس بيده شىء من ذلك .

والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب ، ووضع حدود للتفكير فيه والاستنباط منه ، وليس لأمير المؤمنين شىء من ذلك يتجاوز به ما لأى رجل من المسلمين . فكل مسلم له حق التفسير والتفكير والاستنباط . وآية ذلك أن كل ما وضع للمسلمين من التفاسير والشروح ، والنظم العبادية ، والأصول المستنبطة من الكتاب ، والمذاهب الفقهية ، كلها من عمل الأفراد ، وقد رضيها أمراء المؤمنين كما رضيها الناس ، وعملوا بها فى عباداتهم ، وحكموا بها فى محاكمهم . وهذه الحقوق الشعبية العامة التى لا تحلم بمثلها أرقى أمة فى الأرض من الناحية الدينية ، قد نشأت فى الاسلام من الجرى على سننه ، والقيام على أصوله .

على أن الجمع بين السلطتين الروحية والدنيوية لم يصبح مستنكرا فى أوروبا بعد قيام البروتستانتية ، التى تخلصت من ربقة الكنيسة الرومانية بعد حروب طاحنة ساحقة . وقد ثبت فى العهد الأخير أنه لا ينافى قيام الأمة على الديموقراطية الكاملة . والمثل الذى نقدمه للدلالة على ما نقول اجتماع تينك السلطتين فى ملك الانجليز ، فهو يعتبر الرئيس الروحى والدنيوى معا للشعب الانجلوساكسونى ، وهذا ما خول انجلترة منذ عدة قرون أن تعد حامية للبروتستانتية فى العالم كله .

الذى يحدونا الى إيراد هذه التفصيلات كلها ، أن جمهرة كتاب أوروبا يرون فى إمارة المؤمنين منصبا يشبه البابوية ، وليس هذا من الحق فى شىء كما رأيت ، فديموقراطية المسلمين لم تمس بسوء فى أى عهد من عهود الخلافة الاسلامية ، حتى فى العهد القريب جدا من النبوة . فأبو بكر تولى أمر الأمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم بالانتخاب المباشر ، فبايعه المسلمون يدا بيد ، وهذا فى العرف السياسى معناه أن الأمة منحته السلطة ليباشر بها مهمة القيام بشئون الدولة فى ناحيتيها الروحية والدنيوية على الأسلوب الاسلامى ، والدستور القرآنى .

فكان إذا أعضلت عنده مسألة ، سأل عنها أولى العلم فى مجلس عام ، وأمضاها على ما يستقر عليه اجتهادهم . ولم يتخذ له بطانة يكل اليها البت فى الأمور ، ولا بت هو فيما لم يرد فيه نص

صريح دون أن يعرضه على الكافة ، معطيا الحق للأفراد على السواء فى إبداء الرأى ، غير متقيد بقوم معينين ، أو بطائفة بعينها .

وقد تجلى المبدأ الديموقراطى إزاء الخلافة على عهد عمر الفاروق كل التجلى ، فلم تبق منه جهة خافية يمكن أن يتقحم منها خصم لاتهام الاسلام بالعدوان على سلطة الأمة . فقد روى أن عمر رضى الله عنه رأى أن الناس قد أخذوا يتبارون فى زيادة مهور النساء ، فأراد أن يضع لها حدا لا تتجاوزه ، وهو ما مُهرت به بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا الناس لاجتماع عام وخطبهم فى هذا الشأن ، وطلب اليهم رأيهم ، فقامت امرأة وقالت : أوحىٌ بعد رسول الله ؟ قال الله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ، وقوله قنطارا يدل على إباحة التوسع فى المهور ، فكيف تضعون لها الآن حدا ؟

فأدرك عمر وجاهة اعتراضها ، ورجع عن رأيه الى رأيها ، وترك الأمر على حاله .

فهذه إن دلت دلالة قاطعة على مهمة أمير المؤمنين من الوجهة التقنينية ، فهى تدل أيضا على أوسع شكل للديموقراطية ليس وراءه مذهب .

وأدل منها على ذلك ما روى من أن عمر رأى رجلا وامرأة على فاحشة ، فلم يدر أيحل له الاكتفاء برؤيته فى إقامة الحد ، أم تجب إقامة الدعوى العمومية عليهما ، والسير فيها على مقتضى الأصول المرعية ؟ فجمع الناس وكاشفهم بما هو بصدده ، وطلب إليهم آراءهم ، فقام إليه على ابن أبى طالب رضى الله عنه وقال له : الحكم أن يأتى أمير المؤمنين على ما يقوله بأربعة شهداء ، وإلا اعتبر قاذفا وأقيم عليه الحد .

لا جرم إن هذه الدرجة الرفيعة من الديموقراطية يجب أن تسجل فى تاريخها ، ليعلم أئمتها أن قد سبقهم المسلمون الى أرقى ما تؤدى إليه من احترام الأوضاع القانونية ، ومراعاة الضمانات القضائية فى تطبيق العقوبات البدنية .

وتاريخ المسلمين حافل بأخبار دعاوى أقامها الأفراد على الخلفاء وصدور أحكام المحاكم عليهم ، وخضوعهم لأحكامها ، ولا نظن أنه توجد ديموقراطية فى العالم تبلغ هذا الحد . ولقد قلنا فى موطن آخر ونكرره هنا : إن لفت الأنظار الى دراسة أصول الاسلام تحت ضوء العلم اليوم قد يكون فاتحة انتشار له لا يقف عند حد ، فتاريخ تكوّن الأمة الاسلامية فى القرن الأول حافل بالحوادث التى تتجلى فيها حقائق هذا الدين ، وتتبين مُثله العليا فى كل ناحية من نواحى النشوء الاجتماعى ، والتطور الأدبى ، مما لو درس دراسة علمية لظهر أنه أكبر الآيات الالهية فى هذا العالم . وهو ما سنبذل جهدنا للقيام به هنا إن شاء الله .

محمد فريد وجدى

الكناية والمجاز فى كتاب الله

كتبنا فيما مضى تحت هـذا العنوان بيان آيات من القرآن الـكريم ، ولما كنا عازمين على الاستمرار فى الـكتابة تحت هـذا العنوان حتى نعرض لـكل ما نرى فيه حاجة الى مثل ما بينا ، فقد أردنا أن نـكتب اليوم لبيان تلك الآية الشريفة :

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ فى أمنيّـتِه فينسخُ الله ما يُلقى الشيطانُ ، ثم يُحكم اللهُ آياته ، والله عليم حكيم » .

يذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية وجهين :

أحدهما : أن رسول الله كان يهيئ فى نفسه شئونا أخروية فيخطر الشيطان بنفسه خواطر دنيوية ، ويسوقون للاستشهاد على ذلك حديث « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله سبعين مرة » فنزلت الآية تعزية للرسول ، ويكون معناها على هـذا : إنه ما من نبى ولا رسول إلا كان إذا اتجه بنفسه الى شئون الآخرة أراح الشيطان الى نفسه خواطر الدنيا .

وثانى الوجهين : أن الرسول كان قد تمنى ألا ينزل عليه من الوحى ما ينفر قومه من تحقير معبوداتهم ، وتسفيه أحلامهم ، ثم كان أول ما نزل بعـد تردد هذه الأمنية بنفس الرسول سورة « والنجم اذا هوى » فلما بلغ فى قراءتها « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى . فنزل جبريل فأخبره الخبر ، فاغتم لذلك ، فنزلت « وما أرسلنا من قبلك من رسول » الآية ، ويكون معناها على هذا : ما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألا يكون من الوحى ما ينفر منه قومه ألقى الشيطان فى أمنيته : أى أجـرى الشيطان على لسانه كلاما من تأليف الشيطان كالذى أجـراه على لسان الرسول من قوله : تلك الغرانيق الخ . هذا ما يقوله المفسرون فى سبب نزولها ، وفى تفسيرها .

وإنا قبل أن نناقشهم فيما يمس صميم الدين وأصوله من جراء هـذا التأويل ، نناقشهم فى أمور دون ذلك .

وأول ما نناقشهم فيه من هـذا هو أن ذلك التأويل يقتضى أن كل نبى قد تمنى ألا يكون فيما يوحى اليه من ربه ما ينفر قومه ، كما يقتضى أن كل نبى أجـرى الشيطان على لسانه غير ما أنزل اليه من الله ، فهل يمكن لأحـد من الناس أن يثبت ذلك إثباتا صحيحا أو قريبا من الصحيح ؟ إنا موقنون أن لا جواب لذلك سوى النفى البات .

وثانى ما نناقشهم فيه : أنه بناء على هذا التأويل فان النسبة تنقطع كل الانقطاع بين الآية

وبين ما سبقها من آيات ، إذ الآيات السابقة كلها عزاء للرسول صلى الله عليه وسلم بذكر ما كان من تكذيب الأمم السابقة لرسلهم ، وكما ترى ليس بين أن كل رسول قد سلط عليه الشيطان ، وملك عليه لسانه فأجرى به ما شاء لا ماشاء الله ، وبين تكذيب الأمم لرسلهم مناسبة ما .

وثالث ذلك : أنه إذا كانت أمنية رسولنا الكريم هي ألا يكون في الوحي ما ينفر قومه لا يكون إجراء « تلك الغرانيق العلا » على لسان الرسول من قبيل الإلقاء فى الأمنية ، بل هو تيسير لسبيلها ، ومحاولة لتحقيقها .

أما ما نريد أن نناقشهم فيه مما يمس صميم الدين ويهدم أسسه وأصوله .

فأول ذلك : أنا نعلم أن أساس الرسالة هو دعوة الناس الى توحيد الله بالإعظام والتقديس والرجاء ، وإفراده بالعبادة والدعاء ، فلا مناص والأمر كذلك عن حجاجهم فى معبوداتهم ، وبناء الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله ، ليخلصوا دينهم لله ، فلو جاز أن يكون مثل هذا متمنى نبي أو رسول لكان معناه أننا نجيز على الأنبياء أن يجاملوا فى دينهم ويلاينوا فى رسالاتهم ، وذلك الذى طالما عبناه على عادى الناس فضلا عن الرسل والأنبياء .

وثانى ذلك : ما يستلزمه حديث الغرانيق من أن يكون للشياطين من السلطان المادى ما يصل فى قوته وهيمنته الى حد أن يملكوا على الأنبياء ألسنتهم ، فيجروا عليها الكفر الصراح ، والشرك الهادم . واللازم البيّن لذلك أن يكون ما يملكون على الناس من غير الرسل والأنبياء أكبر من هذا وأفظع ، وذلك ما ينكره الدين وينكره الواقع ، فانه ليس للشياطين من صلة بالناس إلا أن يوسوسوا لهم بالكفر والفسوق والعصيان ، وحتى هذا أيضا ترى الله قد استثنى منه عباده المخلصين ، وليس من ريب فى أن الأنبياء والرسل هم صفوة المخلصين .

وثالث ذلك : مايستلزمه حديث الغرانيق من اقتلاع الثقة من النفوس بكل ماجاء به رسول الله من أصول وأحكام ، فما من أصل ولا حكم إلا ويجيز مجيز أن يكون مما أجراه الشيطان على لسان النبى إن كان قولا ، وعلى جوارحه إن كان فعلا .

من هذا يتبين للقارئ أنه يجب وجوبا لامراء فيه أن يسلك فى تفسير الآية الكريمة وجه غير هذا الوجه ، وسبيل غير هذا السبيل . وإليكم ذلك :

إننا نعلم أنه ليس للرسل والأنبياء من غاية فى هذه الحياة يحاولون تحقيقها ، ولا من أمل منها يتحملون من أجله أهول المشاق وأعظمها ، إلا شىء واحد هو : أن يستجيب لهم قومهم ويؤمنوا برسالاتهم . فتلك مهمتهم فى هذه الحياة ، وأمنيتهم التى لا يرجون سواها ، ولا يمكن أن يخطر ببالهم غيرها . ونعلم الى ذلك أيضا أنه ما من أمة دعيت على لسان رسول الى خير ورشاد ، وإصلاح ونظام ، إلا صدهم الشيطان ووسوس إليهم ، وزين لهم الشر والكفر ، وقبح فى نظرهم الخير والايمان ، وأثار حول أدلة الرسول وإرشاداته شبهات وشكوكا مختلفة

الألوان والاتجاهات ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا الصد وتلك الوسوسة هو إلقاء الشيطان فى أمانى الرسل ، فانه بالصد والوسوسة وإثارة الشبه والشكوك كأنما يلقى الأشواك والصخور فى طريق الأنبياء الى غاياتهم التى هى استجابة قومهم لهم ، وإيمانهم بهم . فيكون معنى الآية على هذا : إنه ما من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى إيمان قومه واستجابتهم للخير والرشاد ، صدهم الشيطان عن الايمان ، وعاق الرسل عن أمانيهم بما يثير من شبه وشكوك حول آيات الرسل وحججهم ، وحول ماجاءوا به من أصول وأحكام ، ثم ما هو إلا قليل حتى تنطفئ شقشقة الباطل ، وينقشع دخان الشكوك والشبه التى أوحت بها الشياطين الى نفوس المدعوين ، ثم يبدو الحق محكم البنيان ، راسخ الأركان ، باسق الفروع .

هذا هو التأويل الصحيح ، والمعنى الحق الذى يجب أن تحمل عليه الآية .

أما أولا : فلأننا نتحامى به باطلا لا يدانيه باطل ، وفسادا لا يساويه فساد ، ألا وهو مجاملة الأنبياء فى دينهم ، وهيمنة الشيطان على ألسنتهم .

وأما ثانيا : فلأن الآيات السابقة قد ذكر فيها تكذيب الأمم الماضية لأنبيائهم مما يدل على أنهم جميعا قد عاقهم الشيطان عن غاياتهم بما زين للقوم ، وأوحى إليهم من شبهات . وبذلك ترى بين الآية وبين الآيات السابقة صلة تامة واضحة .

وثالثا : ما تراه من العدول عن سلوك سبيل الحقيقة فيما أسنده الى الشيطان ، إذ لم يقل بدل « ألقى الشيطان فى أمنيته » : عاق الشيطان أمانيهم بالوسوسة الى قومهم . بل سلك سبيل المجاز فكان ما ترى من إيجاز هو أكثر شمولا وفائدة مما فى أسلوب الحقيقة من تفصيل ، ثم هو الى ذلك الإيجاز قد أبرز وساوس الشيطان وما يوحى من شبهات فى صورة الأشواك والصخور تلقى فى الطريق المعبد فتقف بالسائرين عن مواصلة السير الى غاياتهم : ذلك أن الإلقاء من خصائص الماديات ، فلما أسند الإلقاء الى الشيطان والشيطان لا يكون منه إلا الوسوسة والتخييل ، كان ذلك مصورا الوساوس الى السامعين بالأشواك والصخور والسدود ، مما يزيد فى نفور الناس من الشياطين ويضاعف الحذر منهم .

وهنا يقف بى بين مواكب الجلال والجمال مايتجلى من روائع القرآن ، ويلتمع فى ثنايا الأسلوب من دقائق تختلب القلوب ، وتملك النفوس . فإنه تعالى لما أراد تعزية رسوله بما قص عليه من تفصيل ما كان للأنبياء والرسل مع أقوامهم ، وكان مهما أطال بذكر رسل وأنبياء فإنه يبقى احتمال أن يكون هناك رسل وأنبياء لم تذكر أسماؤهم تكون قد تحققت لهم أمانيهم واستجابت لهم أممهم دون أن يعوقهم الشيطان عن سرعة تحققها فلا تتم التعزية مع هذا الاحتمال ، لما كان كذلك تراه قد أجمل التسلية فى أسلوب شامل، مستقص فى الأفراد ، ومستقص فى الأزمان ، حتى إذا أفلت واحد من عموم الأفراد فى قوله « من رسول ولا نبى » لا يفلت

من عموم فى الأزمان قوله « من قبلك » لأن «من» الأولى فى الآية لاستقصاء الأزمان ، والثانية لاستقصاء الأفراد ، وبذلك لايبقى هذا الاحتمال ، فتتم تسلية الرسول حين يعلم أنه لم يشذ عما بينه وبين قومه نبى من الأنبياء . وتراه ثانيا لم يذكر مفعول « تمنى » فلم يقل : إلا إذا تمنى هداية قومه ، لأن المفعول مشعر دائما بأنه قيد فى فعله وأن الفعل متعلق به هو دون غيره مما يصلح أن يتعلق به ذلك الفعل ، فذِكرُه مفهم لا محالة أنه للاحتياط عما عداه من المفعولات ، فلو ذكر مفعول « تمنى » الذى هو هـداية القوم ، لأشعر أن للرسل متمنيات غير هـداية قومهم . وعلى هذا يكون إنما ترك للإيذان بانحصار تمنيهم فى ذلك المطلب العالى وتلك الغاية النبيلة ، وفى ذلك من التنويه بشأن الأنبياء ما فيه .

وكذلك الشأن فى قوله : « ألقى الشيطان فى أمنيته » إذ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألقى الشيطان فى أمنيته العوائق من شبهات ووساوس ، لأن ذكر المفعول وهو — كما قلنا — قيد فى فعله ، يفهم أنه للاحتياط عن مفعول آخر ، وهذا يشعر بصحة تعلقه بذلك الآخر ، فيفيد أن الشيطان يصح أن يأتى غير الشر الذى هو الشبهات والوساوس ؛ وعليه فيكون عدم ذكر المتعلق للإيذان بانحصار ما تلقيه الشياطين فى الشر ، وأنه لا يكون عن طريقهم خير ، فمجرد ذكر الالقاء مسندا إليهم مفهم نوع ما يلقون الى النـاس ، وفى ذلك من تقبيح أمر الشيطان ما فيه .

والى هنا أستميح القارئ عـذرا فى أن شغلت بروائع القرآن عما أنا بصدده . والآن سأعود ثانية الى موضوعنا الأصلى فأقول :

إنى بعد أن اهتديت فى تأويل الآية الى ذلك المعنى راجعت تفسير الإمام الألوسى فوجدته بحمد الله قد أغفل حديث الغرانيق إغفالا ، فلم يعرض له من قرب ولا من بعد ، غير أنه فسر قوله تعالى « تمنى » بقرأ ، وفسر ما يلقيه الشيطان بما يشبه المغالطات ، ولـكنى على أى حال قد سرنى كثيرا سلوك الأستاذ الألوسى هذا المسلك المشعر بأنه يرى بطلان حديث الغرانيق ، والمشعر بوجوب صيانة القرآن الـكريم عن الترهات والأباطيل ، وما يخـدش قدس الرسل والأنبياء . ولقـد أيد لدىّ ما اهتديت إليه من تأويل فى الآية ما أخبرنى به أحـد شيوخنا الأجلاء أن الأستاذ الشيخ عبد العزيز الدباغ رحمه الله قد أول الآية بنحو ما أولت به أو قريبا منه ، نسأل الله تعالى التوفيق والهداية الى الرشاد ؟

حامد محيسن
وكيل كلية اللغة العربية

التجديد فى الاسلام

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »
حديث نبوى شريف

(١) ما أصول التجديد فى الاسلام ؟ (٢) ما حكمة التجديد فى الدين ؟
(٣) ما عوائق التجديد ، وما علاجها ؟ (٤) المستقبل للاسلام .

١ — ما أصول التجديد فى الاسلام ؟

(١) من أصول الشريعة الاسلامية الغراء ، وقواعدها العامة ، التجديد فى الدين ، والدعوة اليه ، والترغيب فيه ، وسنّ الأمور الحسنة ، وتحريم سن الأمور السيئة ، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها الى يوم القيامة ، ومن دعا الى هدى كان له مثل أجور متابعيه ، أو الى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه .

(٢) ولا أدل على هذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وقد اتفق الحفاظ على أن هذا حديث صحيح ؛ وقال الامام الزبيدى المرتضى ، فى شرح الإحياء : إن هذا الحديث استنبط العلماء منه التجديد . وقال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عقيب ذكره لهذا الحديث : نظرت فى سنة مائة فاذا المجدد فيها رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عمر بن عبد العزيز ؛ ونظرت فى رأس المائة الثانية فاذا مجدد الدين فيها رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الامام الشافعى رضى الله عنه . وسنوفى البحث حقه فى حديث التجديد هذا إن شاء الله تعالى .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شىء » (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من

(١) صحيح مسلم وشروحه .

تبعه ، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (١) .

(٣) فمن هذه الأحاديث الشريفة وأمثالها يتبين أن التجديد فى الدين ، وفى التشريع ، وفى غيره — والاسلام دين ودولة — ليس بغريب عن الاسلام ، وليس هو من مبتكرات هذا العصر ، وإنما هو من أصول الشريعة وقواعدها ، أتت به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قبل أن يعرف العالم ما هو التجديد ؛ ويتبين أن الاسلام ليس بدين جمود كما افترى بعضهم ، وليس فيه سبب من أسباب تأخر الأفراد أوالأمم ، ولا عامل من عوامل الانحطاط ؛ ولكنه دين النهضة والتقدم والرقى ، والتجديد الصحيح النافع ، والسير الدائم الى الأمام ، الى المثل الأعلى ، الى ذرا المجد والرفعة والخير والسعادة للمجتمع الانسانى كله ، لا الاسلامى فحسب . وأى نظام فيه صلاح ونفع للوجود ، وأى جديد فيه خير للعالم ، وأى حسن فى الكون ، لم يدع اليه الاسلام ويحث عليه ؟

وكفى دليلا على هذا ماذكرناه من الأحاديث النبوية الشريفة ، فهى صريحة فى التجديد ، والترغيب فيه ، بسن كل شىء حسن ، وبتحريم كل شىء سيىء . وما ظنك بالآثار التى يحدثها هذا التجديد فى الأخلاق ، والعمران ، والأمم ؟

فتجديد الاسلام إذاً مبنى على قواعد منظمة ، هى قواعد المثل العليا ، قواعد الفضيلة التامة ، والأخلاق الكاملة ، والخير المطلق ، والعمل النافع لإصلاح المجتمع ، والنهوض به الى أسمى درجات الكمال ، وجلب السعادة لبنيه فى الدنيا والآخرة .

(٤) ولم تكن السنة النبوية وحدها هى التى حملت لواء التجديد ودعت اليه ، بل إن القرآن الكريم نفسه جاء مجددا مصلحا ، فنسجت السنة على منواله ، وسارت على منهاجه ، فكان كتاب الله تعالى منبع التجديد ، والمصدر الأول للإصلاح . ومما يدل على هذا أنه نسخ ما قبله من الشرائع ، وغيّر من النظم القديمة ما غيّر ، وبدّل من أحوال الجاهلية وعاداتها ما بدّل ، وسن من التجديد الحسن الصالح لكل زمان ومكان ما يطول شرحه .

من ذلك : أنه حد عدد الزوجات ، وقرر حقوق المرأة ، وغيّر كثيرا من عادات الجاهلية فى زواجهم وطلاقهم ، وأتى بنظام عادل للإرث يخالف النظام الجاهلى ؛ فقد كانوا فى الجاهلية لا يورّثون النساء ، ولا الصغار من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاقى العدو ، ويقاتل فى الحروب ؛ فشرع الاسلام توريث المرأة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الميراث ، وكان ذلك شديدا على النفوس ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين ، كرهها الناس أو بعضهم ، وقالوا : تعطى

(١) صحيح مسلم وشروحه .

المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة ؟ ... وسأل بعضهم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله : أنعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم ، ونعطى الصبى الميراث ، وليس يغنى شيئا ؟ !

ومن أجل هذا أكد القرآن الكريم إعطاء المرأة نصيبها ، وكرر ذلك فى أكثر من موضع ، كما أكد إعطاء كل وارث نصيبه على ما هو مفصل فى آياته البينات (١) . وليس فى الامكان أن نذكر هنا جميع تجديد القرآن وإصلاحه ؛ ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه بتفسير الآيات القانونية المعبر عنها بآيات الأحكام ، كالتفسيرات الأحمدية فى الآيات الشرعية لملاجيون ، وكتفسير آيات الأحكام : للجصاص ، وابن العربى ، وعلى بن محمد الطبرى ، وأبى بكر الرازى ، والقرطبى ، وبالتفاسير المعتبرة : كتفسير الطبرى والنيسابورى ، وكتب أسباب النزول ، وغير ذلك ، فانه يجد فيها ما يشفى ويكفى .

(٥) ولقد حمل راية التجديد فى الدين علماء الأمة وأئمتها فى كل عصر ، على ما سنفصله بحول الله وقوته بعد ، فتعهدوا شجرة الشريعة المطهرة ، وغذوها بتجديدهم باجتهادهم فزاد نمو تلك الشجرة ، وتضاعف ازدهارها وثمراتها والانتفاع بها ، وأصبح المستظلون بظلها ، المنتفعون بثمارها فى بقاع الأرض ، يزيدون عن أربعمائة مليون من المسلمين ، ولو سار الخلف منا فى التجديد ، والعمل لخدمة الشريعة على منوال السلف ، لبلغنا من سمو المكانة ، وعزة السلطان ، مالم تبلغه أمة من الأمم .

٢ — ما حكمة التجديد فى الدين ؟

(١) مما لاريب فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولا نبى بعده بنص الكتاب والسنة . ومما لا شك فيه أن حوادث الأيام -- كما هو مشاهد ، وكما قال العلماء — تتجدد ، وهى خارجة عن الإحصاء والتعداد ؛ ومعرفة الدين وأحكام الشريعة لازمة الى يوم التناد ، وظواهر النصوص لا تفى ببيانها ، ولا بد من طريق واف بشأنها ، ولا طريق لذلك سوى التجديد باستنباط الأحكام التى تسد حاجات الناس فى التشريع ، وتوافق كل عصر ؛ لهذا اقتضت حكمة الله تعالى ، وقد وعد بحفظ كتابه وشريعته ، أن يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها ، كما أخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) إن الشريعة الاسلامية عامة لكافة الأمم ، وهى مستمرة لا تنسخ ، ولا يعقل استمرارها إلا إذا كان يتغير الكثير من أحكامها الاجتهادية بتغير العصور والأزمان والأحوال ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، ولا يكون هذا التغيير إلا بالتجديد باستنباط

(١) تفسير الطبرى ، والنيسابورى ، وكتاب فجر الاسلام .

الأحكام الشرعية من الأصول الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ؛ ومن أجل هذا يرسل الله المجددين على رأس كل قرن لاحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاها ، ولتبقى للشريعة جدتها ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ؛ وهل تخدم شريعة الله بأفضل من هذا ؟

(٣) ومن القواعد المقررة شرعا أن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، نص على هذا العلماء فى كثير من الكتب المعتبرة ، ومنها مجلة الأحكام العدلية ، فقد جاء فى مادتها التاسعة والثلاثين ما نصه : « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » . وعلق عليها حيدر افندى وزير العدلية السابق فى الدولة العثمانية ، وهو من أعلام علماء الاسلام فى هذا الزمان ، وأبو حنيفة هذا الأوان ، وكان مدرس المجلة بمدرسة الحقوق ، فقال : إن الأحكام التى تتغير بتغير الأزمان هى المستندة على العرف والعادة ، لأنه بتغير الأزمان تتغير احتياجات الناس ؛ وبناء على هذا التغير يتبدل أيضا العرف والعادة ، وبتغير العرف والعادة تتغير الأحكام حسبما أوضحنا آنفا ، بخلاف الأحكام المستندة على الأدلة الشرعية التى لم تبن على العرف والعادة فانها لا تتغير .

مثال ذلك : جزاء القاتل العمد القتل ؛ فهذا الحكم الشرعى الذى لم يستند على العرف والعادة لا يتغير بتغير الأزمان ؛ أما الذى يتغير بتغير الأزمان من الأحكام ، فانما هى المبنية على العرف والعادة . وإليك الأمثلة :

كان عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشترى أحد دارا ، اكتفى برؤية بعض غرفها ، وعند المتأخرين لابد من رؤية كل غرفة منها على حدتها ؛ وهذا الاختلاف ليس مستندا الى دليل ، بل هو ناشئ عن اختلاف العرف والعادة فى أمر الانشاء والبناء ؛ وذلك أن العادة قديما فى إنشاء الدور وبنائها أن تكون جميع غرفها متساوية ، وعلى طراز واحد ؛ وبناء على هذا كانت رؤية بعض الغرف تغنى عن رؤية سائرها . وأما فى هذا العصر فقد جرت العادة بأن الدار الواحدة تكون غرفها مختلفة فى الشكل والحجم والنظام ، لذلك لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد ؛ وفى الحقيقة اللازم فى هذه المسألة وأمثالها حصول علم كاف بالمبيع عند المشترى ؛ ومن ثم لم يكن الاختلاف الواقع فى مثل هذه المسألة المذكورة تغييرا للقاعدة الشرعية ؛ وإنما تغير الحكم فيها بتغير أحوال الزمان فقط .

وكذا تزكية الشهود سرا وعلنا ، ولزوم الضمان غاصب مال اليتيم ومال الوقف : مبنيان على هذه القاعدة ، وقد رأى الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه عدم لزوم تزكية الشهود فى دعوى المال ، مالم يطعن الخصم فيهم ، وسبب ذلك صلاح الناس فى زمانه ، أما الصاحبان : أبو يوسف ، ومحمد ، وقد شهدا زمنا غير زمنه تفشت فيه الأخلاق الفاسدة ، فرأيا لزوم تزكية الشهود سرا وعلنا ، والمجلة قد أخذت بقولهما ، وأوجبت تزكية الشهود ، ولا تزال المجلة

هى القانون المدنى لكثير من البلاد الاسلامية . وكذا من القواعد أن لا يجتمع أجر وضمان ، إلا أن المتأخرين من الفقهاء لما وجدوا أن الناس فى عصرهم لا يبالون باغتصاب مال اليتيم والأوقاف ، والتعدى عليها كلما سنحت لهم فرصة ، أوجبوا ضمان منافع المال المغصوب العائد للوقف واليتيم قطعا للأطماع اه

فقد تبين من هذا كيف تتغير الأحكام بتغير الأزمان ، وكيف استنبط الامام أبو حنيفة والصاحبان والفقهاء المتأخرون الأحكام المناسبة للزمان والمكان .

٣ — ما عوائق التجديد وما علاجها ؟

من العوامل التى تقف حجر عثرة فى سبيل التجديد ، وتعوق ظهور المجددين ، الجبن وعدم الإنصاف ، والجرح ، والحسد ، وما الى ذلك .

(١) فأما الجبن ، فقد قال الامام العز بن جماعة : إحالة أهل زماننا وجود المجددين والمجتهدين ، يصدر عن جبن ، وإلا فكثيرا ما يكون القائلون لذلك من المجددين والمجتهدين ، وما المانع من فضل الله ، واختصاص بعض الفيض والوهب والعطاء ببعض أهل الصفوة ؟

(٢) وأما عدم الانصاف ، فهل رأيت مجددا أنصف من نظرائه ومعاصريه ، أو شجع وقدر ، أوهم يعلنون عليه حرب التحامل والانتقاص من قدره والوقوف فى سبيله ، مع أنه فى الحقيقة ، كما قال بعض الفضلاء ، لا يوجد لأهل العلم حلية كالانصاف ، والاعتراف بالفضل لذويه ، وبما عليه الانسان ؟ ولذا ينبغى ألا يتهجم الانسان على ذوى الفضل بغير حق ، وألا يسمع قول أعدائهم فيهم ، وإن كانوا من الفضلاء ، إلا ببرهان واضح . ولله درّ القائل :

وما عبر الانسان عن فضل نفسه ... بمثل اعتقاد الفضل فى كل فاضل
وليس من الانصاف أن يدفع الفتى ... يد النقص عنه بانتقاص الأفاضل

(٣) وأما الجرح ، فقد قال الامامان : ابن عبد البر ، وابن السبكى صاحب جمع الجوامع : من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه والتحامل عليه : من جهل ، أو اعتماد على نقل لا يوثق به ، أو هوى ، أو تعصب ، أو منافسة دنيوية ، كما يحصل بين النظراء ، أو غير ذلك . فلا يقبل جرحه ، ويعمل بالعدالة فيه ، وإلا لو فتح باب تقديم الجرح على التعديل ، وأخذ بتقديم الجرح على إطلاقه لما سلم أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون ، فكلام النظير فى النظير ، والعلماء بعضهم فى بعض ، مردود ، ولا يلتفت الى جرح إلا أن يصححه الجارح ببينة عادلة على طريق الشهادات .

(٤) وأما الحسد ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دب اليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضاء » .

وأما سببه : فمن المقرر فى علم النفس أن الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم ، وإن كان النبوغ آتيا من بينهم ، لذلك ذهب عظماء المفكرين والعلماء ، والمصلحين ، والمكتشفين ضحية غضب قومهم فى غالب الأحيان ، كما قال العلامة جوستاف لوبون . وإنى أدع الكلام عنه للامام الحافظ الجلال السيوطى ليحدثنا عما أصابه حينما صرح بأنه مجدد القرن التاسع الهجرى ، وها هو يخاطب من شدد عليه النكير من الحساد ، ممن حملتهم المعاصرة ، وعدم الانصاف ، وما الى ذلك ، على الخصام واللداد ، فيقول :

« إنك من إنكار التجديد والاجتهاد على مكان ، وتزعم أنه فى حيز الاحالة وعدم الامكان ، وهذا كلام من خلا عن العلم صدره والفؤاد ، ومن بينه وبينه ألف واد ، فان نصوص العلماء بالتجديد وبفريضة الاجتهاد فى كل عصر طافحة ، وبتأثيم أهل العصر إذا قصروا فى القيام به لائحة . فان قلت : إن أحدا لن يناله ، فقد نسبت كل من فى الأرض الى المعصية لا محاله ، والأمة منزهة عن ذلك ، للحديث الصحيح : « إن الله عصم هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة » . ثم أين أنت من قول سيد المرسلين ، وخاتم النبيين : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ؟

« وفسر العلماء هذا المبعوث برجل يقوم بالتجديد بالاجتهاد ، ويحيي ما خفى دثوره بين العباد ، فان آمنت بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلف خبره ، وأنه لابد لكل قرن من مجدد يعمره ، فقد لزمتك الحجة ، وسكنت منك هذه الضجة ، وعرفت خصوصية هذه الأمة الشريفة حيث لم تفرط فى هذا الواجب ، ولا حجبها عنه حاجب ، بخلاف غيرها من الأمم فانهم قصروا فيه حتى انقرض منهم المجددون ، وخلا زمانهم عن إمام به يقتدون ويهتدون .

« ثم إذا اعترفت بوجود التجديد والاجتهاد فيما مضى ، وأنكرته الآن وقلت : إنه قد انقضى ، فمالك إلا جواب أبى الحسن الشاذلى إذ قيل له : هنا قوم بكرامات الأولياء السابقين معترفون ، وينكرونها لمن هو موجود ولا ينصفون ، فقال : إنما هم إسرائيلية ، فإن بنى إسرائيل صدقوا بنبوة موسى ومن تقدم من الأنبياء قبل أوانهم ، وكذبوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه موجودا فى زمانهم » اه .

هذا شيء مما رد به السيوطى على حاسديه . وقال الشهاب ابن حجر : لما صرح الجلال السيوطى بأنه مجدد القرن التاسع ، قام عليه معاصروه ورموه عن قوس

واحد ، وهـذا من قبيل الغض منه والطعن عليه ، مع اعتقاد أقطاب العلماء ،زيد جلالته ، وفرط سعة اطلاعه ، ورسوخ قدمه ، وتمكنه فى العلوم الشرعية وآلاتها .

ولا يمكن ، كما قال أحـد الأفاضل ، إرضاء جميع الناس ، والتخلص من لومهم وذمهم بحال من الأحوال ، لاختلاف عقـولهم ، وتضارب آرائهم ، واختـلاف تصوراتهم ؛ فإنك إن أرضيت زيدا فى أمر أسخطت عمرا فيه ، وإن وافقت هـذا خالفت ذاك ؛ فما على العاقل إلا أن يجهد نفسه فى إتمام واجباته على وجه الـكمال ، من غير أن يبالى بقيل وقال ، وإلا فلا يتهيأ له الأقدام على عمل من الأعمال . ولله در القائل :

ولقد طلبت رضا البرية جاهدا   فاذا رضاهم غاية لا تدرك

والقائل :

فرضا البعض فيه للبعض سخط   ورضا الـكل غاية لا تنـال

والقائل :

ومن فى الناس يرضى كل نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيد

٤ — المستقبل للاسـلام :

يمتاز الاسلام بأنه دين ودولة ، وبأنه يحمل معه عوامل التجديد والاصلاح ، والصلاحية لـكل زمان ومكان ، وبأنه يضمن لذويه العاملين بتعاليمه الرفعة والعـزة وسعادة الدنيا والآخرة ، ودين هـذا شأنه لا ريب فى أن المستقبل له ، وسيدخل الناس فيه أفواجا بحول الله وقوته .

السيد عفيفى

أحسن ما قيل فى فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » وقال : « وبشر الصابرين » .

ومما ينسب لعلى رضى الله عنه :

إنى رأيت وفى الأيام تجـربة   للصـبر عاقبـة محـمودة الأثر
وقل من جد فى أمر يحاوله   واستصحب الصـبر إلا فاز بالظفر

وقال أبو اسحاق الصابى : حظ الطالبين من الدرك ، بحسب ما استصحبوه من الصبر .

وقال شاعر :

ما أحسن الصبر فى مواطـنه   والصبر فى كل موطن حسن
حسبك من حسنه عواقبه   عواقب الصبر ما لها ثمن

هل توصف الطبيعة باللؤم والتضليل

حضرة الأستاذ :

سلاماً وإجلالا ، وبعد فنرجو مكارمك أن لا تضن على شبيبة تؤمل الخير فيك أن تخرجها من الشبهات التى أثارتها قصيدة (نشيد الخلود) ، المنشورة فى جريدة كثيرة الانتشار ، لأحد أساطين الشعر العربى . فقد جاء منها قوله :

ويح الطبيعة كيف تمزج برها … باللؤم تسخر منك كالمجان
تتلقف الفضلات ثم تدسها … لك فى الطعام شهية الألوان

وقال ينحى باللوم على الطبيعة :

تركتك أعزل بين مشتجر الأذى … فتخطفتك طوارق الحدثان
ترد المياه وكل سائل قطرة … سيل من الحشرات والحيوان
خفيت عليك ورفهت عنك الجوى … فنأيت عن حتف لحتف دان
إن ضللتك وأوبقتك فإنها … طبعت على التمويه والعدوان
فسل الحياة الى م يصرع بعضها … بعضاً فجنى عليه وجان
تبنى وتهدم مابنته ملولة … تتبدل البنيان بالبنيان
لله كم للجهل عندك من يد … أزرت بكل يد من العرفان
عبرت بك الأوهام تؤنس عندها … برد اليقين ونعمة الرضوان
فشفيت بعض أحاح نفسك بالذى … نفض الخيال عليك من ألوان
تلك السعادة فى الحياة وإن تكن … عبث الوليد وضحكة الأزمان
ولقد وثبت من الخمول فلم تذق … فى العلم غير مرارة الخذلان
وعبرت تهلع من مصيرك فى غد … أن يستبد به « الزوال الثانى »
تنفض منتثر الهباء ممزقا … بين العناصر طامس العنوان

الى أن قال :

حمل الغواة عليك فى نزغاتهم … فضللت بين الحس والوجدان
إنى كفرت بما يقول غويهم … ورضيت بالتوحيد والايمان
الوحى أصدق والخليقة آية … لله تنطق عنه بالبرهان

ج : ١ حضرة الشاعر : الويل للطبيعة فانها تهينك إذ تحللك المواد البرازية والقاذورات

فى بطن الأرض ، وتخرجها لك فاكهة وخضرا لنا كلها . وقد قذفت بك الى الحياة بغير سلاح ، فتخطفتك المعاطب . ورمتك بالميكروبات فى المياه لتسلبك وجودك وأنت تتخيل بتناولها أنك ترفه عن نفسك . ولقد طبعت الطبيعة على التضليل والتعدى فصارت لك قدوة فى المكر والاحتيال . فاسأل الحياة لأى غرض يهلك بعضها بعضا ؟

ثم قال : إن الجهل أفضل من العلم ، فانه يؤاتيك برد الايمان ونعمة الرضى بما أنت فيه ، إذ يوهمك أن العوالم كلها خلقت لك فيشفى بعض ظمأ نفسك بما يجلبه لك من أنواع الخيال . فهذه هى سعادة الحياة وإن كانت فى حقيقتها من ألاعيب الصبيان وأضاحيك الأزمان !

أما العلم فقد أثبت لك أن عالمك ذرة فى جملة الكواكب المتكدسة ، فارتددت على عقبك منزجرا مرتعداً من روعة الملكوت .

هنالك أطرقت مخلوع الفؤاد يائساً من مصيرك الشخصى ، إذ تموت فتنحل أجزاء جسمك ويذهب كل منها الى عنصره ليس له وجود مستقل .

ثم قال : هذه هجمة من الغواة عليك فضلات بين العلم المحسوس وبين خيال الوجدان ، أما أنا فقد كفرت بما يقول هؤلاء الغواة ورضيت بالتوحيد والإيمان ، ملتجئا الى ما أوحاه الله فى كتبه .

فيأيها الأستاذ : هل يصح وصف الطبيعة باللؤم ؟ وهل هى تضلله لتوبقه وهو أعزل ، وتسقيه السم الزعاف وهو يتوهم أنها ترفه عنه ؟

وهل الحياة تبنى وتهدم على غير هدى ، كأنها نشوى لا تعى ما تفعل ؟

وهل الجهل هو الذى يوهم الإنسان أنه سلطان الخليقة ، والعلم يزيل عنه هذا الوهم ويثبت له أنه لا شىء فى هذا الوجود العظيم ؟

وهل الوحى عدو للعلم ؟ سعيد رفقى

جوابنا على هذه المسائل :

لا يصح وصف العلم باللؤم ولا بالتضليل ، وهو عتاد الانسان فى هذه الحياة ، والكاشف له مساتير الوجود ، والمبتكر له من الوسائل ما يستطيع معه أن يغالب المبيدات التى تحدق به من كل مكان .

والحياة طُبعت على البناء والتقويم ، فان تَهدِم فلأجل أن تبنى ما هو أكمل وأقوم ، وهذا الأثر منها ظاهر لا يحتاج لبيان ، فهل الأرض يوم انفصلت عن جرم الشمس كتلة ملتهبة ، ثم بردت قشرتها جرداء موحشة ، كانت على ما هى عليه اليوم عامرة بالأحياء ؟ وهل

الانسان وهو يهيم على وجهه كبعض الهامجات ، لا ينال العيش إلا تبلغا ، ولا البقاء إلا لياذا في الكهوف والغيران ، كان على ما هو عليه اليوم من العلم والمدنية ، والخصب وتوفر الوسائل الحيوية ؟ فهل هذه الأعمال المحيرة للعقل تصدر عن قوة نشوى ، لا يحدث منها غير الهذيان والعربدة ؟

وليس الجهل بخير من العلم . فإذا كان العلم قد كشف للانسان أن أرضه ذرة في الفضاء ، وأنه هو يكاد يكون بجسمه لا شيء فيها ، فإنه قد أثبت له أنه بروحه وعقله عالم كبير ، عظيم الحول والطول ، متصل بعالم الروح اتصال الجزء بكله ، والفرع بأصله ، وأنه بانتمائه الى هذا الأصل سلطان على العالم المادى بحق ، وقد كشف عن سلطته عليه بما أحيا من مواته ، وأقام من عمرانه ، وسخر من نواميسه ، واستخدم من فواعله . فإن شئت أن تعرف مدى سلطانه عليه فجُل فيما لا يسكنه من بقاعه ، فهل تصادف غير موامٍ موحشة ، ومعامٍ قاحلة ، وفيافٍ ماحلة ؟

وكيف يسوغ لإنسان أن يدعى أن الوحى عدو للعلم ، وهو يدعو إليه ، ويشيد به ، ويقرر بأنه سبيل الايمان ، ووسيلة الفهم والاذعان ؟ ألم يجىء في الوحى الأخير قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقوله : « إن في ذلك لآيات للعالمين » وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » .

أما القول بأن الطبيعة تتلقف الفضلات والأقذار ، وتجعل منها لك طعاما شهيا ، قاصدة بذلك إهانتك والسخر منك ، فقول ليس عليه عبقة من العلم . فإن ما تعتبره أنت فضلات وأقذارا ، لا يفترق في تركيبه الكيمائى عن أى شيء تعتبره أنت نفسك أطهر ما في الكون . والعفونة التى لا تستطيع أن تقرب منها ، من سوء وقعها على حاسة شمك ، لا تفترق في طهارة عناصرها عن الطيب الذى يستهويك عرفه فتضمخ به رأسك ، وتمسح به وجهك . فإن كانت حاسة الشم وحدها هى التى تفرق لك بين ما هو طيب وما هو قذر ، فقد حكمت على نفسك غير حكيم ، وأوقعتها في خطأ عظيم . فان خلاصة جذور نبات الفاليريانا لا يفترق في ريحه عن ريح المادة الفضلية ، وهو علاج جليل القدر ومن الطهر بمكان مكين . فإن كان الانسان أسير حواسه واعتباراته ، فان العلم الحق لا يتقيد بشيء من ذلك ، فهو يعتبر الشيء من حيث هو في حقيقته لا من حيث تأثيره في الحواس البشرية ، ولا من حيث قيمته من الأمور الاعتبارية والرجل الحكيم مع احترامه للأمور الاعتبارية الخاصة بنوعه وعُرفه ، يجب أن يكون من سلامة الادراك بحيث لا يسرى تلك الاعتبارات على الوجود في إطلاقه . فلا يجوز له ، وهو مكبل في القيود الاعتبارية والعرفية ، أن ينخدع بها فيقول إن الطبيعة

مشعوذة لئيمة ، تتاقف المواد البرازية ، وتحولها الى ثمرات شهية ، وتضطرني الى أكلها ، مريدة بذلك إهانتي والسخر مني ، ولكن يجب عليه أن يعرف الى أي مدى هو مخدوع بأموره الاعتبارية وبعرفه ، حتى يخيل اليه أنه يعود فيأكل القذر الذى خرج من بطنه !

على أن الطبيعة عند ما آتت الانسان ثمراتها الشهية ، لم تكن قد كونتها له من مواده الفضلية ، ولكنه هو الذى وضع بيده تلك الفضلات حيث تسبح جذور النباتات لتغتذى بها ، وكان يستطيع أن يضع بدلها مواد نباتية مما يغطى سطح الأرض ولا فائدة له عنده ، فإن عد تحليل الأرض المواد الفضلية وإعادتها اليه ثمرات شهية ، جناية عليه ، فهو الذى فعل ذلك بنفسه ، فلا يأخذن الطبيعة بذنبه .

أما أن الطبيعة قد تركت الانسان أعزل بين ملتطم العوادى ، ودست له المكاريب الفتاكة فى المياه لتهلكه الخ الخ ، فكلام ليس فيه مسكة من العدل ، ولا ظل من التحقيق ، فإنها قد نحلت الانسان من قوة العقل ، ونور البصيرة ما استطاع معه أن يتغلب به على جميع تلك العوادى ، ما ظهر منها وما بطن ، فخضعت لسلطانه ، وما برح يستثمر تلك القوة ليصل الى حيث لا يبلغه وهمه من الغلب والسلطان على ما يحيط به . فمن لا يريد أن يرى هذا الأمر الجلل ، فليندب حظه ما شاء فليس ذلك بضائر أحدا غيره .

أما قول الشاعر : إن الموت سينقض عليك ، فيفض وجودك ، وينثر عناصرك فى الأرض فتصبح طامس العنوان : أى فانيا ليس لك وجود ، فقول لو صح على الجثمان المادى فلا يصح على الروح ، وهى ما بها الانسان إنسان . وقد أثبت علم القرن العشرين بأنها ستبقى بعد فناء هذا الجثمان ، فى عالم أرفع من هذا العالم ، أثبته بأدلة لا يمكن دحضها على أسلوبه الذى لا عوج فيه ، فاذا أنكر ذلك منكر لا يريد أن يتابع العلم فى تطوره ، مشايعة للنظريات العتيقة البائدة ، فان عار ذلك لا يلحق بالعلم ولكن يلحق بالمقصرين فيه . وقد أتينا فى هذه المجلة على كثير من ثمرات بحوث العلماء فى هذا الباب ، وسنتبعها بأمثالها فى كل فرصة .

فان كان الشاعر يعنى بالغواة هؤلاء فقد أصاب ، ولكنه أطلق القول حتى عم كل رجال العلم ، كما يؤخذ من لجوئه الى الوحى مباشرة ، توهما منه بأن ما يقوله هو رأى العلم نفسه ، لا رأى طائفة من شذاذه ، وهو خطأ عظيم كان يجب أن لا يقع فيه ، فانه بجعله الوحى مناقضا لمقررات العلم ، قد سجل عليه أنه لا يصلح أن يجتمع هو والعلم فى رأس ، وأنه لا يلجأ اليه إلا المستكينون الذين يهون عليهم أن يتركوا العلم لأهله ، مكتفين بما يمده العلم وهما مقضيا عليه بالزوال . ولكنه كان يجب عليه أن يقول :

حمل الغواة عليك فى نزغاتهم والغى لا يخفى على يقظان
فالجأ الى العلم الصحيح فانه يحميك من إفك ومن بطلان

وإلى الفتوح تجاربا حتى غدا للوحى ردأ دامغ البرهان

لو كان قال هذا لكان ممثلا للواقع ، فان العلم بتجاربه وفتوحاته العظيمة قد أقام الأدلة المحسوسة على خلود الروح ، وعلى وجود العالم الروحانى ، وقضى قضاء نهائيا على المتلاعبين بقصوره ، الذين جعلوا من ذلك القصور حججا لالحادهم ، ومتى صح فى عقل أن يكون القصور حجة على نفى شىء أو إثباته ؟ ولو انتظروا به فلعله يفتح عليه ما يزيل عنه القصور كما فتح عليه من قبل ، ولكنهم لا يصبرون ولا يعترفون بقصوره !

فان كان يوجد من تحدثه نفسه بأنه ذو عقل جبار كما يقولون ، وأن الجبروت لا يكون إلا بالتمرد على الحقائق الخالدة ، التى تضافرت الحجج المحسوسة على وجودها ، فان جبروته هذا يعتبر ضعفا يرثى له منه ، وحسبه ما وصفه به الشاعر من أنه يعيش مطرقا منخلع الفؤاد من الهلع .

وعلى ذكر العقول الجبارة التى أكثر من ذكرها كتاب العربية اليوم ، نقول إن المعايير التى يزنون بها هذه العقول ليست لها قيمة حقيقية ، فهم يحسبون الجرأة على إنكار ما اتفق الحكماء على إثباته ، والاقدام على هدم ما تواضعوا على بنائه ، دون مبالاة ولا اكتراث ، ولا الرجوع الى علم أو هدى أو كتاب منير ، هى المعايير التى تقدر بها قوة العقول . والحقيقة أن قوة العقول تقدر بما تستكشفه من المجاهيل ، وما تستخرجه من المساتير ، وما تصل إليه مما خفى على الأكثرين ، فان كان الذين يدعوهم الناس بجبارى العقول على شىء من هذه الصفة ، وجب أن يبينوا للناس بالأدلة أن ما هم عليه عريق فى البطلان ، وأنهم قائمون منه على عقائد موروثة لا أصل لها فى العلم ، ولا أساس فى المنطق . فان وقفوا هذا الموقف أمام ما اتفق الناس على الاذعان له ، وأثبتوا لهم بما ألقوه عليهم من النور صحة اتهومهم به اليه ، ولم يخشوا فى الحق لومة لائم ، أمكن اعتبارهم من جبارى العقول ، ولكن اكتفاءهم بتكذيب ما عليه الناس ، والاستهزاء به ، وهم يعجزون عن إقامة أى دليل على ما يذهبون اليه ، فلا ينيلهم شرف هذا اللقب العظيم .

وإننا لنأسف أن أكثر من يطلقون عليهم هذا اللقب الضخم فى الشرق هم من هذا القبيل الأخير . وما دام يستطيع أى مفلس أن يحصل على مثل هذا اللقب بانكار العقائد ، والحط من قيمة التقاليد ، فلا عجب أن يكون فى الشرق من جبابرة العقول بقدر ما يكون فيها من المفلسين المستهزئين ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

مكبر الصوت

فى المساجد الكبيرة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

ما قولكم فى نصب الآلة المكبرة للصوت فى المساجد وقت صلاة الجمعة والعيدين ليتمكن المصلون من سماع الخطبة وتتبع قراءة الإمام أثناء الصلاة ، هل يجوز اتخاذ هذه الآلة شرعا للغرض المذكور أو لا يجوز ؟

محمد حكمة الله خان

رئيس جمعية سيرات . جهانس الهند

الجواب :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم . وبعد : فإن اتخاذ هذه الآلة (مكبر الصوت) فى المسجد الكبير من المستحسن شرعا ، لأنه يحقق الغرض المقصود من الخطبة ، وهو الاتعاظ والتعلم . وكذلك يعين المأمومين على العلم بأفعال الإمام فى الصلاة . والله أعلم ؟

معنى حديث

وجاء أيضا :

رجل يقول : إنى ذو حظ وافر ، إذ أن ذنوبى لا تكتب علىّ ، وذنوبى المتقدمة والمتأخرة مغفورة ، لأنى قد واجهت الظالمين بكلمة حق ، وعرضت نفسى للهلاك . ويستدل لرأيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » كما فى الجامع الصغير للسيوطى . فهل فى هذا الحديث أو فى غيره ما يوافق رأى هذا الرجل فى غفران ذنوبه المتقدمة والمتأخرة ؟ وإذا كان هناك ما يوافقه فهل يصح له أن يرتكب الجرائم ولا يبالى اعتمادا على غفران ذنوبه كما يقول ؟

الجواب :

الحديث المذكور فى الاستفتاء روى من طرق عدة نبينها فيما يلى :

(١) « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » : عزاه بهذا اللفظ الجلال السيوطى الى الإمام أحمد فى مسنده ، وابن ماجه والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى الكبير عن أبى أمامة ، وعزاه أيضا الى أحمد فى مسنده ، والنسائى والبيهقى عن طارق بن شهاب ، والى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى ، وقال المناوى : إنه صحيح الإسناد . وخرجه النسائى جوابا عمن قال : أى الجهاد أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « كلمة حق عند سلطان جائر » .

(٢) وأخرجه الترمذى بلفظ « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

(٣) وخرجه ابن ماجه بلفظ « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

(٤) وفى رواية لابن ماجه أيضا بلفظ « كلمة حق عند ذى سلطان جائر » .

وهذه طرق متعددة يقوى بعضها بعضا فى معنى الحديث وصحته ، والحديث الشريف يرشدنا الى أن من جهر بالحق ولم يخش فى سبيله لومة لائم ولا بطش جبار يكون عند الله فى درجة تسامى درجة المجاهدين .

وليس فى الحديث ما يؤخذ منه أن كلمة الحق عند السلطان الجائر تكفر لقائلها جميع سيئاته ما تقدم منها وما تأخر ، ولا أنها تبيح له أن يرتكب ما شاء من الجرائم اعتمادا على ما يظنه من هذه المغفرة الشاملة العامة ، بل النصوص الشرعية قائمة كلها على تحريم الجرائم وعدم إباحتها لكائن من كان . والله أعلم ؟

فى الرضاع

وجاء أيضا :

لى ابنة رضعت من إحدى النساء رضعات لا تزيد عن ثلاث أو أربع ، وقد كبرت البنت وخطبها شاب ليتزوج بها ، وهو شقيق المرأة التى أرضعت البنت ، أى أنه يكون شبه خال . فهل يجوز له التزوج بها أو لا يجوز ؟ وعلى أى مذهب يكون عقد الزواج ؟ وهل يجوز فى جميع المذاهب أو فى مذهب بعضهم ؟

الجواب :

يجوز عند الشافعية والحنابلة أن يتزوج الشاب المذكور هذه البنت ، لأن المحرم من الرضاع فى المذهبين ما كان خمس رضعات متفرقات فأكثر ، وإذا أريد العقد عليهما فينبغى أن يراعى فيه شروط عقد الزواج فى مذهب الشافعية أو الحنابلة . والله أعلم ؟

فى الطلاق

وجاء أيضا :

شخص تما حلف يمينا بالطلاق ، وكان نص اليمين هكذا : « علىّ الطلاق بالثلاثة بأننى لن أدخل المنزل الفلانى طيلة حياتى » مع العلم بأن اليمين لم يقع لغاية الآن ، وأن هذا المنزل غير المنزل الذى يقطن فيه ، وأن هذا الشخص لا يمكنه الاستغناء بأى حال من الأحوال عن دخول المنزل الذى حلف اليمين بخصوصه . فما العمل فى تحليل هذا اليمين ؟ وهل يعتبر بائنا لا يمكن حله ، أو يعتبر طلاقا واحدا ؟ وما العمل فى تحليله فى كلتا الحالتين ليمكنه دخول المنزل ؟

الجواب :

هذه اليمين فى معنى الطلاق المعلق الذى يقصد به الحمل على ترك المحلوف عليه ، فكأنه قال: إن دخلت المنزل الفلانى فامرأتى تكون طالقا ثلاثا ، يقصد بذلك منع نفسه من دخول المنزل .

ويرى الامام على رضى الله عنه وطاوس وشريح وداود وأصحابه عدم وقوع الطلاق فى مثل هـذه الصورة ولو حصل المحلوف عليه . ووافقهم على ذلك كثير من فقهاء الأمصار . وقد صدر مرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ باختيار هذا المذهب للعمل به فى المحاكم الشرعية .

وعلى هذا لا يقع الطلاق فى هذه الحادثة ولو دخل الحالف المنزل . والله أعلم ؟

***

وجاء أيضا :

رجل قال لزوجته الغائبة عن المجلس : « فلانة طالقة بالثلاث ، طالقة بالثلاث ، طالقة بالثلاث » بموجب وثيقة رسمية على يد أحد مأذونى الشرع وموقع عليها بامضائه وشهادة اثنين . فهل تحل له بعد ذلك على أى مذهب من المذاهب الأربعة أو لا تحل ؟ وقد أنكر الزوج ذلك على زوجته وعاشرها بعد ذلك .

الجواب :

يرى كثير من فقهاء الأمصار أن قول الرجل لزوجته : « أنت طالق ثلاثا » يقع به طلقة واحـدة . وقد اختير هـذا المذهب للعمل به فى المحاكم الشرعية بمقتضى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ . وإعادته اللفظ « أنت طالق ثلاثا » مرتين عقب المرة الأولى يعتبر تأكيدا للمرة الأولى فلا يقع به طلاق آخر غير الطلقة الأولى الرجعية .

أما معاشرته إياها بعد ذلك الطلاق فهى غير جائزة إلا بمراجعتها إذا كانت عدتها باقية ، أو بعقد جديد إذا كانت عدتها قد انتهت .

وجاء أيضا :

وقعت مشاحنة بيني وبين زوجتي قلت لها أثناءها : « أنت طالق بالثلاث ، ومحـرمة عليّ زي أمي وأختي » وهو الطلاق الثاني ، وأريد إرجاعها الى عصمتي . فهل يحل لي ذلك على مذهب الامام الشافعي أو لا يحل ؟

الجواب :

قول الرجل لزوجته : « أنت طالق بالثلاث » صريح في الطلاق الثلاث على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ، فيقع فيه الطلاق ثلاثا ، ولا تحل الزوجة لزوجها حتى تنكح زوجا غيره . ولا تأثير لقوله بعد ذلك : « أنت محرمة عليّ زي أمي وأختي » لأن هذا القول يعتبر لغوا بعد وقوع الطلاق الثلاث . والله أعلم .

***

وجاء أيضا :

رجل قال : « عليّ الطـلاق بالثلاثة ما أنا إلا معزول من إخوتي ولا أقعد معهم في عيشة واحدة » ثم قال : « عليّ الطلاق بالثلاثة إني عدو لإخوتي وهم أعداء لي » وكان حال صدور هذا منه في غضب لا يعي معه ما يقول ، وغرضه من القول الأول مجرد حمل نفسه على أن ينفصل من إخوته وأن يترك معاشرتهم ، ومن الثاني مجرد حمل نفسه على الاستمرار في ترك معاشرتهم وأنه لا يعود إليهم ، شأن كل عدو مع عدوه ، وهو الى الآن لم ينفصل من إخوته ، ويريد البقـاء معهم والاستمرار في معاشرتهم ، كما أنه لم يدخـل بزوجته التي حلف منها . فهل يقع الطلاق بهاتين الصيغتين أو لا يقع ؟

الجواب :

هذه الصيغة من قبيل الطلاق غير المنجز الذي يقصد به الحمـل على فعل المحلوف عليـه . ويرى الامام علي وطاوس وشريح وداود وأصحابه عـدم وقوع الطلاق بمثل هـذه الصيغة ولو حصل المحلوف عليه ، ووافقهم على ذلك كثير من فقهاء المذاهب . وقد اختير هذا المذهب للعمل به في المحاكم الشرعية ، وقد صدر بذلك مرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩

وعلى هذا لا يقع الطلاق في هـذه الحادثة ولو لم ينفصل الحالف من إخوته ، ولو استمر في معاشرتهم . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف الفحام

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

توطئة وتمهيد

هذه فصول من البحث لم أقصد بها الى التاريخ ، ولا حاولت أن أمسك لها براعة المؤرخ الذى يسجل ما يشهد فى مسرح الحياة ، ويكتب ما يروى عن الغابرين ، وهى ليست من التاريخ ببعيد ، بل هى منه فى الصميم ، ولم أقصد بها الى ترجمة بعض الشخصيات العظيمة فى تاريخ الاسلام وإن كانت حول هـذه الترجمة تدور ، وليس من همها أن تسجل يوم ولادة زيد ، ولا عام وفاة عمرو ، وليس من همها أن تحدثك عن البطولة والأبطال فى ساحة الوغى والنضال ، وليس من همها أن تفتح بين يدى القارىء صفحة من قصص الوقائع وسرد الأحاديث ، فتلك سبيل ميسرة للسالكين ، ومنهج معبد للعابرين ، وطريق مألوف للباحثين من القدماء والمحدثين ، وفى الأخـير ، هو وجه من الدراسة تكفلت به كتب التاريخ التى لا يبلغها العد ، يعثر عليه من أراده فى غـير إجهاد ومعاناة أينما وقعت يده على أحـدها ، ويستشفه بصره حيثما حل فى صفحاتها .

وإنما قصدت بها الى ناحية خاصة فى سجل التاريخ الاسلامى ، هى أضوأ نواحيه وأجدرها بالعناية الدارسة والتأمل الباحث ، تلك هى ناحية تأريخ الفكر الاسلامى على ضوء ترجمة أشهر رجاله وقادته من علماء الملة ومفكريها ، والوقـوف عند آرائهم ونظرياتهم فى شتى الفنون ومختلف العلوم وفنون المعارف ، وما أفاده الاسلام من تلك النظريات ، وما كسبته الانسانية من ورائها ، لنكشف بها عن آيات الجلال الفكرى فى حياة الاسلام المباركة ، وآية التاريخ فى الاعتبار بتقلباته ، والإفادة من أحداثه ، وسر العبرة فى التأسى ، وطريق التأسى التحليل والتعليل ، ورد النتائج الى مقدماتها ، وربط الأسباب بمسبباتها ، فذلك أبلغ فى تصوير البواعث النفسية لتكوين التاريخ الفكرى على ضوء الظواهر الاجتماعية .

والتاريخ الاسـلامى أحفل التواريخ بمواطن العبر ، والمسلمون اليوم أحوج ما يكونون الى بعث ماضيهم واستثارة دفائن تاريخهم الذى يضم بين جنباته ثروة فكرية لا تفنى ، وكنوزا علمية لا تنفد ، لا يقتضيهم بعثها سوى عزيمة صارمة ، وصبر على لأواء البحث وجهاد التفكير .

وتاريخ الفكر الاسلامى واسع المدى ، مترامى الأرجاء ، متعدد المناحى ، عميق الغور ، لأنه تاريخ التشريع وتعرف أطواره واتجاه مذاهب الفقهاء فى فهمه وتدوينه ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية ومنشؤها وصلتها بالفلسفات القديمة والحديثة ، وتاريخ العلوم العربية على اختلاف فنونها ، وليس يكفى فى القيام بحق هذا التاريخ وبسطه كتابة فصول محدودة الغاية ، فما تبلغ

من بدايته أول سطورها حتى تكون قد أنافت على ذروة نهايتها ، ولم تقض من لبنات الباحث أدناها ، وإذا لم يكن فى طوق البحث أن يعتمد على التفصيل فقد يكون فى الإجمال بعض الغناء لأنه لا يخلو من تنبيه الى مشارف الآراء ومعاقد الأفكار ، وهذا وإن لم ينقع غلة الصادى فيه مقنع للشادى ، وحسبك أن تقف على باب الصحراء لتهدى السابلة الى فجاجها ، وهم مع إدمان السير واصلون الى النهاية آمنين .

وسأحاول فى هذه الفصول أن أتحدث عن قيادة الفكر فى تاريخ الاسلام فى إجمال لا يحجب وراءه معنى يقتضيه البحث ، جاعلا أشهر شخصيات قادة الفكر موضوع هذا الحديث ، موجها عناية البحث الى مناحيهم الفكرية وآثارهم العلمية ، عارضا ذلك فى شىء من التحليل بقدر مايصل اليه جهدى على ضوء ما ثبت عنهم من النقل فى مصادره الوثيقة الصادقة ، غير متعرض لشىء من حياتهم إلا بقدر ما يتصل بأفكارهم ، ومن ثم كانت هذه الفصول ترجمة علمية لمن نوفق لعرض حياته الفكرية فى مرآتها .

يحاول أنصار مذهب النشوء والترقى أن يقيموا دعائم نظريتهم على أساس افتراض « التطور » الطبيعى لتكوين الإنسان المادى فى حيز الكائنات الأولية ، بعيدا أشد البعد عن عوالم الحيوانية ، بله العقل والتفكير ، ثم الى السذاجة الفكرية المطلقة منذ أول عهده بالحياة بشرا سويا الى أحقاب متطاولة وأعصر متعاقبة ، تدرج فى مدارجها ، وترقى فى مراقيها من حالة الحيوانية الوحشية الى حالة الإنسانية العاقلة المفكرة ، فالتفكير فى نظرهم لم يولد مع الإنسان ، وإنما هو شىء اكتسبه اكتسابا من طريق « التطور » فى طبيعته وتكوينه المادى بمرور الأحقاب . وهذا مذهب قد تولت الأبحاث الحديثة فيما وراء المادة مناضلته بسلاحه العلمى ، وهو نفسه يقرر أن البقاء للاصلح ، وسواء أكان الإنسان خلق مفكرا كما تثبته حياته الدينية فى أطوارها المختلفة ، واستشعاره قوة غيبية تسيطر عليه وعلى جميع ما يشهد من كائنات ، يصورها فى كل ما يتخيل فيه القوة القاهرة تبعا لتأثراته الفكرية وبعده عن الهداية الإلهية ، وكما تقرره الكتب السماوية ، وكما تشهد به الأبحاث الروحية الحديثة ، أم خلق عريا عن التفكير إطلاقا كما يزعمه الماديون من أتباع النشوئيين ، فإن التاريخ أثبت للإنسان منذ أقدم العصور تفكيرا يسمو على مضائق المادة فى مواطن متعددة من الكرة الأرضية ، وأجناس مختلفة ، فقد عرف التاريخ منذ آلاف السنين حضارة قدامى المصريين العلمية ، وعرف أنها ثمرة من ثمرات حياتهم الفكرية التى تركت آثارها الناطقة لتدل على مكانتها ، وقبل ذلك بعصور سحيقة عرف التاريخ مدنية الصينيين ومن جاورهم من الأجناس الآرية ، وعرف فلسفتهم وصناعاتهم الدقيقة ، وعرف أنها صدى لما وصلوا إليه من التفكير الناضج والعقل الكامل ، ثم عرف عن الآشوريين والفينيقيين والبابليين والحورابيين حياتهم فكرية خصبة تراءت فى تلك القوانين والشرائع

التى سجلتها آثارهم، وعرف الى جانبها شيئا عن حياة المعينيين فى جنوب الجزيرة العربية، وعن خلفائهم السبئيين ونهضتهم التجارية والصناعية وآثارهم الهندسية، وعرف غيرهم كثيرا من الأمم التى بلغت فى الحضارة والحياة الفكرية مبلغا أعدها لأن تضع فى بناء المجتمع البشرى لبنة من تاريخها، ولا يزال فى غيب التاريخ كثير من الأمم المتقادمة والأجيال البائدة ممن طواهم الزمن فى ضميره، وأسدل عليهم حجابا كثيفا من الجهالة والنسيان.

وإذا اقترب الزمن بالحياة عرفت من نفسها ما كانت تجهل، فقيّدته غضا طريا، وسجلته ناضرا نديا، فأدركه التاريخ جديدا زكيا، وتنقل به فى مراحل الحياة صورة لجيل من الناس وهو فى حقيقته مرآة للمجتمع الانسانى المتحدر مع الزمن فى أجيال لا يأخذها الإحصاء.

هذه الحضارة الاغريقية والفلسفة اليونانية التى وضعها التاريخ تحت هذه العنونة الخاصة، وتناقلها الناس على أنها صورة للفكر اليونانى، ليست إلا سلسلة من الحلقات المتصلة من مجموع حضارات الأمم التى سبقت اليونان فى الوجود المادى والوجود الفكرى، أظهرها فلاسفة اليونان فى صورة من عقليتهم وتفكيرهم، ومن بعدهم أخذها وارثوهم من الرومان والفرس أولا، ومن العرب ثانيا، فاتسمت بسمهم، وتسمت باسمهم، فقد حدثنا التاريخ عن رحلة فيثاغورث الى المدارس المصرية القديمة، وحدثنا عن رحلات أفلاطون أسيرا ومفكرا الى بلاد كان للفكر فيها حظ عظيم حتى عاد منها الى وطنه فيلسوفا ومعلما، وحدثنا عن تلك الحروب الهائلة التى قاد جيوشها الشاب الفيلسوف الاسكندر المقدونى، يكتنف حفافيه علماء أمته وفلاسفتها، وتخطى بها المعمور من الأرض، وجاس معها خلال أقطار تتوطنها أجناس من الناس مختلفة الألسنة والألوان والأخلاق والتفكير، فمزجت شعوبها مزجا وحّد تفكيرها وزاوج بين عناصرها، وحدثنا عن تجاذب الأفكار بين العلماء والفلاسفة تجاذبا قرب اتجاهها، وحدثنا عن تآخى كثير من الحضارات تحت راية واحدة.

وهكذا يجد من يدرس تاريخ الفكر الانسانى صورة مجملة على ما بها من غموض، فإنها تعطى أن التفكير ثمرة الانسانية فى أجناسها المختلفة، وليس وقفا على أمة من الأمم أو جنس من الأجناس، وإنما تمتاز فيه أمة على أمة بما تضفيه على الحياة الفكرية من طابع بيئتها وحياتها الاجتماعية، وبما تصبها فيه من أسلوب خاص يطبعها بطابع عقلية تلك الأمة، وبما تضيفه اليها من صور الفكر الموضعية، وبما تمدها به من الشواهد العملية مما يقربها الى نواميس الوجود، وبما ينفى عنها التحريف والتضليل، ويصفيها من الخرافات والأباطيل.

وقد أخذت تلك الصورة تتضح فى ظل العقل اليونانى حتى اكتملت قوية باهرة فى عهد عقول الفلسفة الثلاثة: سقراط الحكيم، وأفلاطون العظيم، وتلميذه أرسطو الذى أكسب الفلسفة شخصية علمية تمثلت فى مؤلفاته ومؤلفات أستاذه أفلاطون، ومؤلفات تلاميذها،

ومن تفلسف بعدهم ، وقد أضفى أرسطو على الفلسفة من طابع شخصيته وبيئته وحياته الاجتماعية وخصائص أمته ما جعلها خصيصة به وبها ، وصبها فى أسلوب منطقى ابتدعه لها ابتداعا ، وأمدها بكثير من الشواهد العملية والتجارب الواقعية ، وقربها الى سنن الوجود ، وصفاها من خيالات أستاذه أفلاطون المثالية ، ورد نظرياتها الى الواقع فى كثير من جوانبها .

بقى الفكر الانسانى عيالا على فلاسفة اليونان فى نظرياتهم التى أسسوا عليها أكثر فنون الفلسفة ، وفى مكان القيادة منهم أرسطو الذى كان بحق كما لقبه تلاميذ عقله من فلاسفة العرب « المعلم الأول » . وإذا كان لسقراط الفضل الأول فى توجيه العقل الانسانى الى السمو بنفسه عن مضائق المادة وهتك حجبها والنفاذ الى ماوراء سجفها من عوالم روحانية سامية ، فإن أرسطو هو صاحب الطريقة الانشائية فى ترتيب الموجودات ترتيبا علميا يعتمد على قوانين ثابتة منتزعة من طبائعها وخصائصها ، وهو الذى كشف عن الصلة بين عالم المادة وعالم الروح وربط بينهما بقابلية الانفعال لتأثير روح أزلى قاهر محيط بكل موجود إحاطة رعاية وتدبير .

عندئذ كان الفكر الانسانى قد وصل من طريق الفلسفة الى القمة ، ولكنه لم يستطع أن يثبت فى عليائه ، بل انحدر من طريق البيئة الاجتماعية الى حضيض الوثنية ، فان أولئك الحكماء الذين ارتقوا به الى الذروة هم أنفسهم — إذا استثنينا سقراط الذى قدم حياته قربانا فدى به عقله وروحانيته — الذين انحدروا به الى الحضيض مسايرة للدهماء ، ففى الوقت الذى كان يقرر فيه أرسطو ومن قبله أستاذه أفلاطون نظرياتهم الالهية كانت الوثنية الحمقاء تجرفهم أمامها فى غمار الدهماء من عامة الشعب وخاصته ، وكانت معابد أثينا ومحافلها تعج بتماثيل آلهتهم وأصنامهم التى كانوا لها عاكفين ، وقد كان لخيال شعرائهم وروائيهم من أحاديث تلك الآلهة فى تخاصمها وتصالحها مادة خصبة أكسبت آدابهم لونا من التصوير الخرافى يدفعك الى الابتسام والسخرية دفعا لا اختيار لك فيه ، ولا شك أن هذه كبوة من كبوات الفكر التى أظلمته فلم يستطع معها أن ينهض وحده ، وبقى مغلولا بغلها حتى افتكته الديانات السماوية ، وكشفت عنه حجاب الضلالة وهدته الى أقوم طريق .

كان طبيعيا بعد إذ وصل الفكر الانسانى الى هذا الطور الفلسفى أن يتحرك فى سمت جديد ليبدأ طورا جديدا فى بيئة جديدة ، فانتقل بتراثه الفلسفى الى الرومان وارثى ثورة اليونان العلمية ، وهؤلاء الرومان لم تكن لهم العقلية الفلسفية المعقدة التى كانت عند اليونان ، وإنما كانت لهم عقلية اجتماعية اتخذها الفكر مراحا لجولاته ، وقنع فى ظلها من الفلسفة بالشرح والتلخيص والاستنباط ، واتجه الى تنظيم الجماعة تنظيما قانونيا ، كان من أثره إخراج الفقه الرومانى الذى اعتبرته الأمم دستورا تستمد منه شرائعها الوضعية ، وهنا يظهر فيصل ما بين التفكير الفلسفى والتفكير الاجتماعى ، لأن الفكر فى الأول يكون قائدا ذا سلطان لا يحد ،

وفى الثانى يكون قائدا مقيدا بالبيئة الاجتماعية التى يشرع لها ، وفى هـذا ما يكشف لنا عن أخطاء الشرائع الوضعية ، ولا سيما التى لم تتأثر بشىء من الشرائع السماوية ، فى تكييفها للجماعة البشرية ، وتقسيمها الى طبقات بينها من التفاوت ما بين العجماوات وأرقى طبقات الانسان .
وقد عنيت الشرائع الالهية أشد العناية بتصحيح خطأ الفكر الاجتماعى فى التشريع ، كما عنيت بتصحيح خطئه الفلسفى فى العقائد ، وكان النضال بينهما على أشده ، فلم يقف عند حد الصراع الفكرى ، بل اتخذ فى كثير من الأحوال شكل التناحر المادىّ ، وقد أنبأنا التاريخ أن المسيحية لم تستقر فى روما إلا بعـد أن صليت بنار الخصومة الوثنية ، وجرت دماء شهدائها دفاعا عن عقيدتها الدينية ، ولم يقف الفكر الفلسفى أمام هذا الانتصار الذى أحرزته الفكرة الدينية عاجزا مستسلما ، ولـكنه واثبها فى ميـدان آخر ، فذهب مع أنصاره المشردين الى مدرسة الاسكندرية حيث وجد هناك كنفا موطأ ، وجناحا مخفوضا ، وامتزج رجال الفكر من الفلاسـفة برجال الدين من الـكهنة ، وتآخت الفلسفة مع الدين على ما بينهما من فوارق طبيعية وكسبية ، واستخدم رجال الدين أساليب الفلسفة المعماة فى تصوير بعض العقائد الدينية ، وحاول الفلاسفة تطبيق نظرياتهم الفلسفية على قواعد الدين ، وقام على هذا الأساس مذهب الأفلاطونية الحديثة مزيجا من الفلسفة وعقائد الدين ، وانتهى به الصراع المحتدم بين المذهبين الى التسليم والاستسلام من الجانبين ، وركن العالم الى هدنة على دخن كانت سببا فى الاضطراب الاجتماعى الذى ساد الأمم فى ذلك الحين ، وتطلعت النفوس الى منقذ ينقذها ، وكره الفكر الانسانى الجمود الذى أصابه فى ظل المهادنة البليدة ، واشرأب الى أفق جديد يسطع منه أكمل نورا ، وأوضح حجة ، وأعمق أثرا ، وأعم نفعا ، وأصدق قيلا ، وأخلد قبيلا ، فـكان ذلك الأفق هو الاسلام ، وفيه بدأ الفـكر الانسانى طورا جديدا بلغ به نهاية عظمته ، وتبوأ عرش الخلود فى ظل القرآن الـكريم .

كان الفكر قبل الإسلام فلسفيا فى كنف الفلسفة ، وتشريعيا فى كنف الفقه والتشريع ، وسياسيا فى بيئة السياسة ، واجتماعيا فى ظل الاجتماع ، وكانت له فى مرحلة من أولئك عـثرة ترجف منها قوائمـه ، فلما جاء الإسلام احتضنه ، وأعظم شأنه ، ونشر لواءه ، وأعلى كلمته ، وجعله المهيمن على منافذ الحياة كلها ، والإسلام دين تشريع وفلسفة واجتماع وأخـلاق ، يسمو بالفرد والجماعة من طريق تكميل خصائصهما الطبيعية ، وتوجيه رغائبهما وجهة الخير والإصلاح ، فـكان مجال الفكر فيه أرحب ساحة ، وأوسع مدى ، وأحكم غاية ، وأسد طريقا ، وأقرب غرضا ، وأحمد عاقبة ، وأجمع لمناحى الوجود ، فهو فى ظل الإسلام سياسى تشريعى ، واجتماعى خلقى ، وفلسفى علمى ، لا تطغى به ناحية على ناحية ، غير أن حيوية الإسلام القاهرة جعلت من روحه قوة مسيطرة على الفـكر تسدده فى سيره ، فأخذته بالتربية المتدرجة بعد أن أحاطته علما بسمو حقيقته .

وكان طبيعيا أن تكون أول جولاته فى مضمار التشريع وتنظيم الجماعة الإسلامية تنظيما اجتماعيا وسياسيا ، فإنها كانت أول أمرها أحوج ما تكون الى هذا التنظيم ، ثم اتجه الى ساحة العلوم والفنون فأحكم أمرها ، ومنها أخذ سمته الى الفلسفة حتى استولى فيها على الأمد ، وذا هو يعمل الآن فى تحقيق ما ابتدع من نظريات وما رتب من حقائق ، وإبرازها فى صورة عملية حية ولكن فى أفق آخر جديد .

وسأحاول أن أصور مراحله الإسلامية فى أشخاص قادته فى تاريخ الاسلام ، غير متقيد بترتيب زمنى ، ولكن بقدر ما يتسع له جهدى ويسعفنى به الاطلاع ، عسى أن يبعث ذلك فى نفوس المسلمين عامة وشباب الإسلام خاصة ، روحا من الحمية تدفعهم الى النهوض الفكرى حتى يكون لهم من العز والسؤدد ما كان لأسلافهم الاولين ؟

صادق ابراهيم عرجون

شجعان العصر الاول

قيل لم يكن فى الجاهلية ولا فى الاسلام أشجع من خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ولشجاعته سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيف الله . ذلك أنه لم ينهزم فى معركة قط ، ومات على فراشه. يقال : إنه سمع عند موته يقول « ما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو جرح بسهم ، وها أنا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ! »

ومن شجعان العصر الأول : البراء بن مالك ، روى عنه أنه نازل مائة مبارز وقتلهم .

وكتب عمر بن الخطاب الى ولاته يحذرهم أن يسندوا رياسة عسكر الى البراء بن مالك ، فانه يحملهم ما تدعوه اليه شجاعته فيهلكهم . وكان هذا من الفاروق رحمة منه بالمؤمنين .

ومن شجعان الصحابة : طلحة بن عبيد الله ، وحارثة بن حذيفة ، والزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود .

يروى أن عمرو بن العاص طلب الى عمر بن الخطاب أن يمده ، وهو بصدد فتح مصر ، بثلاثة آلاف ، فأرسل اليه بالزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وحارثة بن حذيفة ، عاداً كلا منهم بألف .

ومن الشجعان : الأشتر النخعى ، واسمه مالك بن الحويرث ، وهو الذى قيل فيه إن حياته هدمت أهل الشام ، وموته هدم أهل العراق .

المسيحية فى الاسلام

وعدنا أن نأتى على ملحق لمقال حضرة الفاضل تادرس مسيحه أفندى ، فننجز وعدنا اليوم وننشره هنا مع التعقيب عليه . قال حضرته :

سيدى العزيز : إلحاقا برسالتى السابقة أرفع لعزتكم كلمتى هذه إتماما للفائدة فيما يختص بردكم على كتاب المسيحية فى الاسلام ، فأقول : تتهموننا بأننا قد أخذنا عقيدتنا التى تشبه عقيدة الوثنيين السابقين من طريق الوراثة ، وأنه يجب علينا أن نرفضها الخ ، فنقول :

إننا ياسيدى لم نفتر على الله الكذب ، ولم نقل شيئا يخالف ما أنزله الله فى كتبه المقدسة ، لذلك لا يمكن أن نرفض عقيدتنا المثبوتة فى كتب الله ، لأننا سمعنا عن أمم كانت قبلنا تقول وتعتقد بمثل ما نقول ونعتقد ، وإلا فإنى أدعوك بأن تكذب القرآن فى أن عيسى المسيح قد ولد من عذراء اسمها مريم ، لأن ذلك يشابه ما اعتقده الهنود البراهمة من قبل .

هذا ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نورد لكم المقارنات الكثيرة بين أكثر عقائد الاسلام وعقائد الوثنيين أيضا كالرمى بالجمار والطواف والاعتمار مما كان من عادات الوثنية العربية ، ومن تلقين الميت قبل دفنه وتقديس القرآن وعدم السماح بلمسه أو تفسيره إلا من فئة خاصة ، كما كان عند الهنود القدماء كتاب يقدسونه بذات الطريقة ، بل نقول لكم ما قاله الأستاذ غلاب مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين ردا على ما قاله المستشرقون من أن أكثر العقائد الاسلامية مأخوذ من الوثنيات القديمة فقال : « إن هذا لايقلل من شأن الأديان السماوية المنزلة ولا يغض من كرامتها »

هذا فضلا عن أننا نستطيع أن نقول بأن العقل البشرى حتى فى زمن سذاجته لم يكن متروكا مهملا بل كان الله يقوده ويلهمه ، بما سيأتى به كتب الله المنزلة ، لذا فليس ببعيد على الوثنيين القدماء من مصريين وبرهميين وغيرهم أن يكون الله قد ألهمهم الى ذلك التثليث الاعتبارى للذات الواحدة الجوهر ، ولا نقول إنها بداهة عقلية بدليل اتفاقهم جميعا على هذا التثليث ، وهى ظاهرة غريبة تدل على أن عناية الله مع الجميع تتولاهم فى أعمق جاهليتهم بالهداية والارشاد ، وإلا فما معنى الاتفاق على التثليث ولم يقل بعضهم بتربيع أو تخميس .

« أما من جهة التقليد الأعمى الذى لا يستند على نصوص من الكتب المعتبرة بأنها منزلة فلا نظن أننا موضع التهمة به ، ولكننا نسأل بتواضع حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر فنقول : على أى نص من القرآن تستندون فى إثبات الحقيقة المحمدية أو النور المحمدى الذى منه اشتق نور الأنبياء ولم يصرح القرآن بأكثر من أنه أمر نبيكم بقوله : « قل إنما أنا بشر

مثلكم يوحى الى»؟ أما من جهة التقليد والأخذ عن الآباء بغير نظر والجمود على المعتقدات الموروثة فلا نظن أنه قد قام فى المسيحيين من رماهم بالجمود العام الشامل والأخذ عن السلف على الطريقة العمياء حتى فيما يخالف نصوص الكتاب المنزل كما قام الامام محمد عبده الذى وصف المسلمين بهذا الجمود حيث قال: «ولو أن أحدا أخذ مسلما من شاطىء الاطلنطيقى وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» فكلاهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار».

تادرس مسيحه بأخطاب

حاشية :

تقولون عزتكم: إن لفظة (روح) قليلة جدا على الخالق لأنها مما خطر على بالك والله بخلاف ذلك، أو ليست لفظة (ذات) على هذا القياس قليلة أيضا لأنها مما يخطر على البال؟ إذن فليس لله ذات فيكون غير موجود لأن الذات هى خاصية الوجود وكل ماليس بذات هو غير موجود، فكيف لا يكون لله روح كما جاء بالانجيل الشريف (الله روح) والروح هو خاصية الحياة كما أن الذات هى خاصية الوجود. ألم يقل البيضاوى: الروح القدس هو اسم الله الأعظم الذى كان يلازم عيسى ويحيي به الموتى؟

ملاحظاتنا على هذه الشبهات:

نكرر القول هنا بأننا لم نثر هذا الجدل الدينى الذى نعتقد أن لا فائدة ترجى من ورائه، ولكن الذى أثاره هو أحد رجال الكنيسة المسيحية بكتاب ألفه بقصد التدليل على أن القرآن يؤيد القول بألوهية عيسى عليه السلام.

يقول حضرة الكاتب: «إننا لم نقل شيئا يخالف ما أنزله الله فى كتبه المقدسة التوراة والانجيل» الخ.

نقول: أما قوله إنه لم يدن فى عقيدة التثليث إلا وفاقا لما ورد عنها فى التوراة والإنجيل، فهو غير صحيح. فأما التوراة فهى تدعو لإله واحد، لا ولد له ولا والد، وقد أخذ بها الإسرائيليون وكلهم موحدون متشددون فى توحيدهم.

وأما الأناجيل فلا يوجد فيها ما يدل على ألوهية عيسى ولا ألوهية الروح القدس.

ونحن لم نقل بوجوب رفض هذه العقيدة لأن أمما قديمة وثنية كانت تقول بها، ولكن مع مخالفتها للكتب السماوية السابقة ليست بمعقولة، ولا يمكن الدفاع عنها بحجة أو بشبه أما ما هو معقول وليس فيه ما ينافى توحيد الله وتنزيهه فلا حرج من القول به، ولو قال الوثنيين. والأصول الاعتقادية التى يشترك فيها الكتابيون والوثنيون كثيرة جدا.

يقول حضرة تادرس افندى : « ويطول بنا المقام إذ أردنا أن نورد لكم المقارنات الكثيرة بين أكثر (عقائد) الإسلام وعقائد الوثنيين كالرمى بالجمار الخ » .

ونحن نقول : إن كل ماذكره ليس من باب (العقائد) ، ولكن من باب العبادات ، ولايضير المسلمين ولا المسيحيين أن يتفقوا فى بعض عباداتهم والوثنيين ، ففى جميع الأديان حتى أعرقها فى الوثنية صوم وصلاة وركوع وسجود وحج واعتمار ، وإنما يضيرهم أن ينزلوا الى حضيض الوثنيين فى تناول ذات الخالق بالتحليل والتركيب ، وأن يشركوا به ، أو يدَّعوا البنوة له .

وأما ماذكره تادرس افندى من عدم السماح بلمس القرآن أو تفسيره إلا لطائفة خاصة الخ فنحن نأسف لورود مثل هذا على لسان رجل عاشر المسلمين طول حياته ، وعرف كثيرا مما هم عليه . ألم ير القرآن متداولا بين أيدى الناس كافة كباراً وصغاراً حتى أطفال المدارس الالزامية ، ومعروضا فى المكتبات يقتنيه من شاء من الناس دون أن يسأل عن مذهبه .

كل مافى هذه المسألة أن بعض العلماء فسر قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون » ، بأن المراد بالمطهرين أى الأطهار من الأحداث الجسدية ، فحرموا أن يمسه غيرمتطهر، وقال البعض الآخر : المراد بالمطهرين الملائكة المجردين من الكدورات الجثمانية ، بدليل قوله تعالى (فى كتاب مكنون) وهو اللوح المحفوظ فى العالم العلوى .

أما قوله : « عدم السماح بتفسير القرآن إلا لطائفة خاصة » فهذا عجيب كسابقه لأنه لا أثر له فى العالم الاسلامى ، وقد تناول الكتاب الكريم بالتفسير العرب والترك والفرس والديلم والسودان والحبشان الخ الخ .

أما ما أورده حضرة الكاتب من أن المستشرقين قالوا بأن أكثر العقائد الاسلامية مأخوذة من الوثنيات القديمة ، فلو كان فى العالم من قال هذا القول فقد دل على جهله المطبق بالاسلام ، فان هذا الدين الذى قال للوثنيين : « أنتم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم » ، ونصب العقل فيصلا بين الحق والباطل ، ودعا الى العلم وجعل منزلة أهله فوق منزلة الشهداء ، هذا الدين لا يعقل أن يأخذ عقائده من الوثنيات القديمة ، وهل هذه الوثنيات غير إشراك بالله ، وتشبيه له بخالقه ، ورفع بعض الناس الى مرتبة الألوهية ، والطاعة المطلقة لرؤساء الأديان ، والتقليد الأعمى للآباء والأجداد ، والأخذ بكل ما يقال بدون تمحيص ولا تدليل ، فأين هذا كله من الاسلام فى سمو عقائده ، وخلوص توحيده ، واعتماده على العقل والعلم فى جميع تعاليمه ، واعتضاده بالدليل فى كل أموره ؟ وإذا كان هذا يقال فى الاسلام وهو ألد أعداء الوثنية ، فماذا يقال فى غيره مما لا يحكم العقل ، ولا يعتمد على المنطق ، ولايأبه للدليل ، ولا يقف من تخيلات أهله عند حد ؟

يقول حضرة الكاتب : إن اتفاق الأقدمين من الهنود وغيرهم على التثليث قد يكون من عناية الله بهم إذ هداهم اليه ، وإلا فلم لم يقل بعضهم بتربيع أو تخميس الخ .

ونحن نقول : إن مايدلى به حضرة الكاتب ينم عن نقص فى البحث ، فإن من الأمم من قال بإلهين فقط أرموزد وأهريمان ، ومنهم من قال بأكثر من ثلاثة حتى بلغوا بهم كاليونانيين والرومانيين والعرب وغيرهم ، عشرات . فالتعديد كما ترى ليس بمقصور على التثليث .

أما قوله : « على أى نص تستندون فى إثبات الحقيقة المحمدية ، والنور المحمدى الخ »

فنرد عليه بأن هذا ليس من (عقائد) المسلمين ، ولا له أصل فى الكتاب ولا فى السنة الصحيحة ، وإنما هو من مبالغات بعض الغلاة ، وليس يلزم الاسلام منه شىء . وهؤلاء الغلاة يصادَفون فى كل مجال حتى فى العلم والفلسفة وفى الالحاد أيضا . وقد جاء الاسلام لابطاله والتعفية على أثره ، فقال الله تعالى : « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو فى الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

وليس فى الاسلام قُدْمة ولا أولية لأحد من المرسلين ، فالكل فى نظره مربوبون له ، من أول آدم الى موسى وعيسى ومحمد ، وقد أمر المسلمون أن يؤمنوا بهم بغير تفرقة بينهم .

وقال حضرة الكاتب : « أما التقليد والأخذ عن الآباء بغير نظر والجمود على المعتقدات الموروثة فلم يرم بها أحد المسيحيين ، كما رمى بها الامام الشيخ محمد عبده المسلمين الخ » .

فنقول : ليس الخطر فى أن يتصف الآحاد والجهال بالتقليد والجمود ، ولكن الخطر فى أن يتصف بهذا الوصف القائمون على العقائد ، والمؤتمنون على الحقائق . فقول الامام الشيخ محمد عبده مشهد من أروع المشاهد امتاز به هذا الدين ، ودل على مبلغ ماخصه الله به من الحفظ والرعاية باعتبار أنه الدين الخالد . ذلك أن أركان التقليد والجمود على الموروثات فى جميع الملل هم رجال الدين ، وإنهم ليعتبرون ذلك مفخرة لهم ، ولم يذكر تاريخهم أنه ارتفع لهم صوت فى عهد من عهودهم باتهام أممهم بتقليد الآباء والجمود على ما ورثوه عنهم ، بل يؤثر عنهم أنهم تشددوا فى دعوتهم اليهما ، والعض بالنواجذ عليهما .

ولكن التقليد فى الاسلام بغير نظر ولا تقدير لايجوز ، فالمسلم مطالب بأن يُعمل فكره ، ويجهد عقله فى تمحيص ما يقدم اليه من عقائد وأصول ، وما يكون قد نشأ عليه من عادات وتقاليد ، ليقر ما يتفق والعقل والمنطق ، ويبطل مالا يتفق وإياهما ، لأنه مسئول عن عمله ، وموكول الى نفسه « كل نفس بما كسبت رهينة » .

أليس من الظواهر التى توجب الإعجاب بهذا الدين أن إماما من المسلمين يقوم بعد مضى نحو

أربعة عشر قرنا على وجوده فيدعوهم الى عدم تقليد الآباء باسم هذا الدين نفسه ، مستشهدا لهم بآية من آيات كتابه ، ألا يدل هذا على أن هذا الدين يبقى ما بقى الدهر ينبوع حياة للشعوب ، ومشرق نور وهداية للقلوب ؟

ملاحظاتنا على ما جاء فى الحاشية :

يقول تدرس أفندى مسيحه : « إذا كانت لفظة (روح) كما تقولون قليلة جدا على الخالق أفليست تجرى هذا المجرى لفظة (ذات) الخ ؟ »

نقول : ليس فى إطلاق أسماء وصفات كريمة على الله من حرج ، ولكن الحرج فى عدم استشعار التنزيه فى إطلاقها عليه ، تفاديا من الوقوع فى فتنة التشبيه التى طمت فى الديانات كلها ما خلا الاسلام ، وأدت الى ضروب شتى من الضلالات التى تناقض العقل والعلم معا .

وإنما كان لا بد من أصل التنزيه فى الكلام عن الخالق لسبب لا يختلف فيه عاقلان ، ذلك أن الانسان كائن محدود فى كون محدود ، فهو لا يفكر ولا يتعقل إلا فى دائرة هذه الحدود ، والله مطلق لا يحصره شىء ، والمحدود إذا حاول إدراك المطلق وقع فى التحديد لا محالة ، فيكون كل ما يسمّى به الخالق أو يدركه عليه من الصفات ، موصوما بتلك الحدود .

هذا هو الفرق الجوهرى بين المسلم وغيره من ناحية العقيدة بالخالق جل وعز ، فهو إن أطلق عليه كلمة (ذات) ، والذات لغة هى ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه ، سرى عليها قاعدة التنزيه فلم يعتبرها من نوع الذوات المعروفة ، واكتفى أن يقول إنها تعنى الموجود الأزلى الأبدى الواجب الوجود الذى لا يحد بحد ولا يدرك بعقل .

ولا يستطيع أن يطلق عليه لفظ (روح) بالمعنى المحدود المعروف له الذى ينتزعه من المحسوسات والمعقولات ، لأن الله خالق الروح ، وخالق الشىء يكون أرفع منه بما لا يقدر .

أما البيضاوى فلم يقل إن روح القدس فى قوله تعالى : « وأيدناه بروح القدس » اسم الله الأعظم ، بل قال إنه جبريل . ثم قال : وقيل إن روح القدس اسم الله الأعظم . ولا يخفى أنه أسند هذا القول لغيره ولم يرضه ، بدليل إيثاره للتفسير الأول الذى عليه جميع المفسرين .

والمسلم إن اضطر أن يقول إن روح القدس اسم الله تعالى ، لم يفهمه على ما يدل عليه لفظه ، لأنه يعتبر ذلك تشبيها له بخلقه ، فيقدر له مضافا ويقول : إن معناه (خالق روح القدس) .

فالتنزيه كما ترى سياج لا يمكن تخطيه يحول بين العقل البشرى وبين الخلط والخبط فى الكلام عن العزة الالهية ، فيحتمى به من الوقوع فى الضلالات البعيدة التى تخيلها الناس قديما وحديثا ، وأوقعتهم فى الخلافات الشنيعة ، وجعلت من أديانهم ميتولوجيات لا تحتمل النقد ، ولا تثبت على التمحيص ؟

محمد فريد وجدى

المدرسة الاشعرية

تمهيد :

كانت لفظة المتكلمين فى عصرها الأول تشمل جميع من يشتغلون بالنظر لا فرق فيهم بين صفاتى ومعتزلى وجبرى ، بل إن المعتزلة قد أخذت تقوى وتتغلب على ما عداها من الفرق حتى كادت تحتكر لفظة « المتكلمين » محتجة بأن الكلام هو النظر العقلى . وبما أن المعتزلة وحدهم هم الذين يحكمون العقل فهم الجديرون باسم المتكلمين دون غيرهم من المتقيدين بعوامل أخرى خارجة عن العقل . وقد تم لهم ما أرادوا من إحراز النصر على الفرق الأخرى بفضل ما ترجم الى اللغة العربية من منتجات الأجانب التى أيدتهم فى أكثر ما ذهبوا إليه . وظل هذا شأنهم حتى أعلن أبو الحسن الأشعرى مذهبه الذى كان شبه ثورة قوية فى تاريخ الحركة العقلية العربية ، وكاد يقضى على كل الفرق التى حادت عن الشريعة النقية ، وقهرها على الانزواء والخفوت . وإليك هذه الحركة فى شىء من التفصيل :

أبو الحسن الأشعرى — حياته :

ولد أبو الحسن بالبصرة فى سنة ٢٦٠ هـ — ٨٧٣ م من أسرة يمنية نبيلة معروفة بالشرف والاستقامة منذ عهد بعيد ، إذ كان جده أبو موسى الأشعرى من الصحابة الأجلاء ، وقد فتح أصبهان وجزءا عظيما من بلاد فارس .

شب أبو الحسن فى بغداد حاضرة الملك والعلم ، وكعبة الشباب المتعطش الى الثقافة فى تلك العصور ، ثم أخذ يتلقى دروسه العقلية على الجبائى ، وكان رفيقا لابنه أبى هاشم اللذين كانا رئيسى فرقتين من فرق المعتزلة ، فكان من الطبيعى أن ينشأ فتانا معتزليا ، وهذا هو الذى حدث : فاعتنق آراء أستاذه ، وظل يؤمن بها ويناضل عنها فى حماس حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان أستاذه ينيبه عنه كثيرا فى المحاورات العلنية حتى حاز بين معاصريه شهرة فائقة .

وفى هذه الآونة لا يدرى إلا الله ما الذى كان يدور بخلده ويحول مجرى تفكيره بطريقة غامضة خفية ، إذ لم يلبث الناس أن شاهدوا عليه تغييرا فجائيا حيث اعتكف فى منزله بضعة أيام لا يرى أحدا ، ثم خرج على أثر ذلك فصعد المنبر فى وسط جموع حاشدة من الناس وطلب إليهم أن يصغوا إليه ، فلما فعلوا نزع عباءته ومزقها ثم قال : إنى كما خرجت من هذه العباءة أعلن براءتى من كل أخطائى السابقة ، وأصرح بأن جميع آرائى الماضية باطلة .

ومنذ ذلك الحين أخذ يصنف المؤلفات المسهبة يحمل فيها على المعتزلة والاعتزال ، ويناقش

آراءه القديمة وآراء أستاذه فى شىء من العنف . ولقد كان له مع هذا الأستاذ محاورات جدية فى المجامع العامة كان من آثارها أن انضم إليه جمهور كبير من التلاميذ والمريدين . وأخيرا توفى فى سنة ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م تاركا وراءه تلك المدرسة القوية التى سحقت فرق المعتزلة ، وجذبت الحركة العقلية فى ذلك العصر نحو دائرة الكتاب والسنة ، وظلت تناضل الفلاسفة مناضلة شديدة ، ثم أنجبت فخر الأمة الإسلامية منذ القرن الخامس وهو الإمام الغزالى الذى رأينا فيما بعد ذلك العصر ردوده القيمة على الفلاسفة .

غير أن خصوم أبى الحسن الأشعرى كالحنفية والحنبلية والماتريدية قد طعنوا فى إخلاصه ، فبينما كان المحايدون الأبرياء معجبين به الى حد الافتنان ، كان خصومه يعلنون أن الذى حمله على سلوك هـذا الطريق الجديد ليس هو الإخلاص للشريعة ، وإنما هو الأغراض الشخصية والرغبة فى لفت الأنظار إليه ، واجتماع كثير من التلاميذ حوله ، وفوزه بمكانة سامية فى عصره ، لأنه لوظل معتزليا لما استطاع أن يتفوق على أساتذته ورفاقه زعماء الفرقتين : الجبائية والبهشمية ، فحول تيار حياته الى الجهة التى يستطيع أن يظهر فيها . وقد قطعوا فى هذا الاتهام شوطا بعيدا ، فنسبوا إليه كتباً سرية زعموا أنه خالف فيها آراءه العلنية ، ولـكن لم يعثر أحـد على شىء من هذه الـكتب .

منتجاته :

يروى المؤرخون أن منتجات أبى الحسن الأشعرى قد بلغت نحو مائتى مؤلف ، ولـكنها فقـدت إلا القليل منها . وقد حدثنا الأستاذ « كريمير » أنه قد اطلع من هـذه المؤلفات على كتاب « اللمع » وأنه كتاب قيم على الرغم من أنه ألف للتلاميذ ، لا للبحوث المسهبة . أما ابن عساكر فيصف لنا كتاب « الإبانة » الذى هو — فيما يظهر — أهم بكثير من كتاب « اللمع » . وقد ذكر ابن عساكر لنا شيئا من نصوص هذا الـكتاب ، ولـكن « البارون كارادى فو » يرى أن ماذكره ابن عساكر من هذا الـكتاب هو أقل أجزائه أهمية ، إذ أنه لم يعرض فيما استأنس به لتلك المعركة العقلية التى حمى وطيسها فى هـذا الـكتاب القيم بين الأشعرى والنظام . ويعتقد البارون أن نسخة مخطوطة كاملة من هذا الـكتاب فى المكتبة الفتحية فى القسطنطينية .

لم يكد هـذا الامام يعلن أن مهمته هى قبل كل شىء هدم جميع فرق المعتزلة حتى تلقى رسائل الأسئلة من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية كخراسان وجرجان ودمشق يستفسر فيها أصحابها عن حلول بعض المشاكل الاسلامية ، فأخذ يجيب عليها بعلم غزير وأسلوب فياض . غير أن أكثر نتائج هذا المجهود العظيم قد فقد . ولولا مؤلفات ابن عساكر والشهرستانى ، والأستاذين المستشرقين : « ميربين » و« اسبيتا » لجهل العالم الحديث جانبا هاما من جوانب

التفكير الاسلامى ، أو لأساء فهمه على الأقل ، لأن التلاميذ — وهم المعتمد إذا فقدت كتب الأستاذ — ليس لهم إلا كتب قليلة يروى الأستاذ « كارادى فو » أنه اطلع على بعض مخطوطات منها فى مكتبتى باريس وبرلين للباقلانى وإمام الحرمين .

مذهبه :

يمتاز مذهب الأشعرى عن مذهب المعتزلة بميزات هامة ، منها أن الأول يتجه نحو الشريعة ويجعلها غايته المقصودة ، على حين يتلاعب الثانى بألفاظها ، ويتلهى بتأويل عباراتها الى ما يؤيده فى غرضه ويحقق له هواه . ومنها أن الأول مؤسس على إخضاع العقل للسمعيات على عكس مايرى الثانى من منح العقل أقصى آواج الحرية فى التفكير . ومنها كذلك أن الأول خاضع للمبادئ الأخلاقية التى نص عليها الاسلام ، على حين يكل الثانى الأمر الى حكم العقل فى تحديد هذه المبادئ وفى الاذعان لها . ومنها أن الأول كان يريد أن يؤسس حديثه على قديم السلف الصالح من أعلام الأمة الاسلامية ؛ أما الثانى فكان يود التخلص من هذا السلف والتحرر نهائيا من كل قديم . ولذلك حين ألف الجبائى تفسيره للقرآن لم يراع فيه الأسلوب العربى الصحيح ، ولم يأبه لأى مأثور من مأثورات السلف ، حتى قال فيه أبو الحسن ما معناه : إنه ألف تفسيرا للقرآن ، هو فى معناه معارض متعارض مع الوحى الالهى ، أما ألفاظه فهى بلغة قرية جباء البعيدة كل البعد عن لغة القرآن المقدسة ، وهو لم يشر فيه الى أى أثر من آثار السلف ، وإنما اعتمد فيه على وحيه الخاص وعلى وحى الشيطان .

ولا ريب أن هذه العبارات توضح تماما الفروق الجوهرية بين المذهبين ، لافى الموضوع فحسب ، بل وفى الشكل أيضا .

أما المشاكل التى كانت قائمة بين المدرستين فأهمها ما يأتى :

(١) إثبات صفات الله أو نفيها . (٢) حرية الفرد أو جبره ، والى أى حد تلك الحرية أو ذلك الجبر . (٣) إمكان رؤية الله فى الآخرة أو استحالتها . (٤) وجوب فعل الصلاح أو الأصلح أو اللطف على البارى أو عدم وجوبها . (٥) معرفة الحسن والقبح بالعقل أو بالشرع . (٦) استيجاب الطاعة للثواب والمعصية للعقاب . (٧) الحكم على فاعل الكبيرة الذى لم يتب منها . (٨) تركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ، أو من أجزاء قابلة للتجزؤ قبولا غير متناه ، وفيها الخلاف حول الجوهر والعرض .

هذه أهم نقط الخلاف بين الأشعرية الأولى وخصومها من أهل الاعتزال . وإليك رأى أبى الحسن فى المشكلة الأولى ، وهى مشكلة إثبات الصفات أو نفيها ، قال أبو الحسن : « البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر » . وله فى البقاء اختلاف رأى ، قال : « وهذه صفات أزلية قائمة بذاته ، لا يقال : هى

هو ولا غيره ، ولا لاهو ولا غيره . والدليل على أنه متكلم بكلام قديم ومريد بإرادة قديمة »
قال : « قام الدليل على أنه تعالى ملك ، والملك من له الأمر والنهي ، فهو آمر وناه ، فلا يخلو إما أن يكون آمرا بأمر قديم أو بأمر محدث ، فان كان محدثا فلا يخلو إما أن يحدثه فى ذاته أو فى محل ، أو لا فى محل ، فيستحيل أن يحدثه فى ذاته ، لأنه يؤدى الى أن يكون محلا للحوادث ، وذلك محال . ويستحيل أن يكون فى محل ، لأنه يوجب أن يكون المحل به موصوفا ، ويستحيل أن يحدثه لا فى محل ، لأن ذلك غير معقول . فتعين أنه قديم قائم به ، صفة له ، وكذلك التقسيم فى الارادة والسمع والبصر » ، قال : « وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات : المستحيل ، والجائز ، والواجب ، والموجود ، والمعدوم . وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده من الجائزات . وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الصفات . وكلامه واحد ، هو : أمر ونهى ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد . وهذه الوجوه ترجع الى اعتبارات فى كلامه ، لا إلى عدد فى نفس الكلام والعبارات ، إذ الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة الى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلى . والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو ، كالفرق بين الذكر والمذكور . فالذكر محدث والمذكور قديم » .

أما رأيه فى المشكلة الثانية وهى حرية الفرد والى أى حد ، فهو يتلخص فيما يلى : قال : « والعبد قادر على أفعال العباد ، إذ الانسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة ، وبين حركات الاختيار والارادة . والتفرقة راجعة الى أن الحركات الاختيارية حاصلة بحيث إن القدرة تكون متوقفة على اختيار القادر ، ولهذا فالمكتسب هو المقدور بالقدرة الحادثة ، والحاصل تحت القدرة الحادثة » . ويحدثنا الشهرستانى أن أبا الحسن يرى أنه : « لا تأثير للقدرة الحادثة فى الإحداث ، لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة الى الجوهر والعرض . فلو أثرت فى قضية الحدوث ، لأثرت فى قضية حدوث كل محدث حتى تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدى الى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة ، غير أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقب القدرة الحادثة أو تحتها ومعها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، وسمى هذا الفعل كسبا ، فيكون خلقا من الله تعالى إبداعا واحداثا ، وكسبا من العبد مجعولا تحت قدرته » .

أما مشكلة إمكان رؤية الله واستحالتها فى الآخرة ، فهاك ما أثر عنه فيها :

« إن كل موجود يصح أن يرى ، فإن المصحح للرؤية إنما هو الوجود ، والبارى تعالى موجود فيصح أن يرى ، وقد ورد فى السمع أن المؤمنين يرونه فى الآخرة ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » الى غير ذلك من الآيات والأخبار . ولا يجوز أن تتعلق به الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع أو على سبيل الانطباع ، فإن

ذلك مستحيل . وله قولان فى ماهية الرؤية : أحدهما أنه علم مخصوص ، ويعنى بالمخصوص أنه يتعلق بالوجود دون العدم ؛ والثانى أنه إدراك وراء العلم لا يقتضى تأثيرا فى المدرك ولا تأثرا عنه » .

وقال فى نقطة وجوب الصلاح على الله أو عدمه مانصه : « لا يجب على الله تعالى شىء ما بالعقل : لا الصلاح ولا الأصلح ، ولا اللطف ، وكل ما يقتضيه العقل من الحكمة الموجبة فيقتضى نقيضه من وجه آخر . وأصل التكاليف لم يكن واجبا على الله تعالى ، إذ لم يرجع اليه نفع ، ولا اندفع به عنه ضرر ، وهو قادر على مجازاة العبيد ثوابا وعقابا ، وقادر على الافضال عليهم ابتداء تكرما وتفضلا ، والثواب والتفضل والنعيم واللطف كله منه فضل ، والعقاب والعذاب كله عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وانبعاث الرسل من القضايا الجائزة لا الواجبة ولا المستحيلة » .

وقال أيضا فى مشكلة الحسن والقبح : « والعقل ليس يوجب شيئا ، ولا يقتضى تحسينا وتقبيحا ، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب ، قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وكذلك شكر المنعم وإثابة المطيع وعقاب العاصى يجب بالسمع دون العقل » .

وقال فى نقطة استيجاب الطاعة والمعصية للثواب والعقاب : « وهو المالك فى خلقه يفعل ما يشاء ويحكم مايريد فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا ، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب اليه جور » . وقال فى الحكم على فاعل الكبيرة مانصه : « الايمان هو التصديق بالقلب ، وأما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه ، فمن صدق بالقلب أى أقر بوحدانية الله تعالى واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب ، صح إيمانه حتى لو مات فى الحال لكان مؤمنا ناجيا ، ولا يخرج من الايمان إلا بانكار شىء من ذلك . وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه الى الله تعالى : إما أن يغفر له برحمته ، وإما أن يشفع فيه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار ، لما ورد به السمع من إخراج من كان فى قلبه ذرة من الايمان » .

أما نظرية الجوهر الفرد ، فقد استعارها المتكلمون من « ديموكريت » الذى وصل إليهم مذهبه عن طريق مؤلفات أرسطو ، غير أن ديموكريت كان يرى أن هذه الجواهر الفردة أو الذرات أزلية لا خالق لها ، وأبدية لا تدثر . فأخذوا منه أصل النظرية ، وأنكروا عليه قوله

بأزليتها وأبديتها ، مستدلين على بطلان رأيه بما احتج به عليه خصومه من فلاسفة الإغريق : كاستحالة قبول الأزلى للأعراض الحائلة والصور الزائلة على نحو ما هو مشاهـد من تشكل تلك الجواهر الفردة بصور أخرى بعد تركبها ، وغـير ذلك من البراهين التى ليس هنا محل الإفاضة فيها .

قال الأشعرية إذاً ، بوجود الجزء الذى لا يتجزأ ، وجزموا بحدوثه بعد العدم عن خالق أزلى ليس جسما ولا هو فى جسم . وعندهم أن هذه الذرات لا تتجزأ ، لأنها لا كم لها ، وأن الأجسام توجد وتنعدم باجتماع وتفرق هـذه الذرات ، وأن البارى لم يكف عن خلقها ، بل لا يزال يخلق منها كلما عنّ له أن يفعل . وهذا الاجتماع وذلك التفرق مسببان عندهم عن الحركة الناشئة من تحريك البارى لها . وهم يقولون كما قال ديموكريت بالفراغ الذى لا تستطيع الذرات التحرك بدونه .

وكما أن الأجسام مؤلفة من الجواهر الفردة ، كذلك الزمان مؤلف من لحظات فردة غير قابلة للقسمة يفصل بينها خلاء من الزمن كالخلاء الموجود فى المكان .

وعندهم أن الجواهر محل للأعراض ، وأن العرض لا يدوم لحظتين أو جوهرين فردين من جواهر الزمن ، وأن البارى لكى يديمه يجدده فى كل لحظة . وليس هـذا التعاقب خاصا بالأمور الايجابية لا يتعداها الى ما يظهر فى الخارج سلبيا كأن يتصور مثلا أن السكون هو انعدام عرض الحركة ، أو الجهل انعدام عرض العلم ، أو الموت انعدام عرض الحياة ، كلا ، فان السكون والجهل والموت أعراض إيجابية يخلقها البارى ، لتعقب أعراض الحركة والعلم والحياة .

ومن أهم ما يلفت نظر الباحث فى فلسفة المتكلمين هو إنكارهم البات لضرورة الأسباب والمسببات ، وجزمهم بأن البارى يفعل ما يشاء بمحض اختياره ، إن بسبب وإن مباشرة دون أن يتميز الأول عن الثانى بأية ميزة . ويترتب على هذه النظرية شيئان : أولهما هدم القانون الطبيعى من أساسه ، وثانيهما إمكان أن يتحقق فى الخارج كل ما يخطر بخيلاتنا من الممكنات الذهنية كإمكان أن تكون النار مثلا مبردة والثلج محرقا . وقد سخر الفلاسفة من هذه النظرية سخرية لا ذعة ظهرت آثارها فى ذلك الأسلوب القاسى الذى حمل به إخوان الصفاء على المتكلمين ، ورموهم بالجهل المطبق فى علم الطبيعة ، وسلقوهم بألسنة حداد ، لأنهم فى نظرهم كانوا يتعرضون لما لا يحسنون ، ويهرفون بما لا يعرفون . وليس إخوان الصفاء وحدهم هم الذين هاجموا المتكلمين فى هـذه النقطة ، بل ابن رشد أيضا قد وجه اليهم من سهام النقد أحدّها وأقساها ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الاراء العالمية فى الاسلام والمسلمين

الاسلام فى العالم ، الحركة السياسية ومكانة أوربا وفرنسا

نشر المسيو أرتور بيللوجران (Arthur Pellegrin) العضو بالمجلس الاستشارى الكبير فى تونس ، كتاب أسماه (الاسلام فى العالم) أتى فيه على آرائه فى الاسلام وما يؤدى اليه ، وحالات المسلمين الاجتماعية والأدبية والسياسية ، ونريد أن ننقل بعض هذه الآراء هنا للتعقيب عليها بما نراه مناسبا لها تأييدا أو تفنيدا ، لأن الكتاب الأجانب لجهلهم اللغة العربية وحقيقة الاسلام ونفسية المسلمين ، كثيرا مايخطئون فى أحكامهم عليهم . فمن الآراء التى أبداها المسيو أرتور بيللوجران فى كتابه المذكور قوله .

« من العدل أن نقول بأن الفتح الفرنسى قد أفاد فى اتساع نطاق الديانة المحمدية فى أفريقية (يريد تونس) ومراكش والجزائر ، أكثر مما فعل على منع تقدمها . وبفضل السلام والسكينة التى نشرها فى تلك الأقطار زاد تبادل الآراء بزيادة المعاوضات التجارية ، وسهولة انتقالات الناس » .

ثم شرع المسيو أرتور يعلل حركة انتشار الاسلام فى أفريقا فقال :

« إن العامل النفسانى (البسيكولوجى) الهام فى انتشار الاسلام ، هو أن هذا الدين يعتبر لدى الرجل الأفريقى مخالفا لديانة الرجل الأبيض المستولى على بلاده ، وهى المسيحية . وقد شوهد أن القبائل الشديدة التهيج هى التى ترحب أكثر من سواها بالعقائد الاسلامية ، على حين أن الجماعات ذوات الطبيعة الهادئة السلمية تبقى كثيرة التشبث بديانتها الوثنية » .

وقد تناول الأستاذ جورج جويو أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى هذا الكتاب بالتحليل فى جريدة (التاريخ الاستعمارى) فقال :

« إن المسيو أرتور بيللوجران يضع أمام أعيننا الوجوه المختلفة لمسألة هى غاية فى التعقد والدقة . فيرينا من ناحية ثقافة اسلامية تقوم على رُبُط اجتماعية قديمة جدا امتزجت بالعواطف الدينية ، وهذه الثقافة لا ينبعث منها إلا نور ضئيل . ويرينا من ناحية أخرى ثقافة أوربية يعتبرها المسلمون كافرة . ولما كان المسلم يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية ووقتية تراه لا يرتاح الى ما يسميه المسيو أرتور بيللوجران بالمذهب البشرى ولا الى مظهره النهائى وهو تطلب القدرة للحصول على الأغراض الأرضية .

« ولكن فى الوقت نفسه تولدت فى عقول عدد من المسلمين رغبة ملحة فى الأخذ ببعض

عناصر الثقافة الغربية كالعلوم المقررة والمعارف السياسية ، لا باعتبار أن هـذه الثقافة غاية ولـكن باعتبار أنها وسيلة وأداة . « فقد ظن هؤلاء المسلمون ، كما يقول المسيو أرتور بيللوجران ، أن لهذه الأداة خاصة ذاتية ، وكما نجحت فى أيدى الأوربيين فقد وجب أن يتوقع لها مثل هذا النجاح فى الشرق » . ولـكنهم سرعان ما علموا أنهم كانوا واهمين . فإن الاسلام عند ما آنس إن هـذه الحوافظ الروحية والاجتماعية قـد تحللت على أثر ما حدث من التسامح بين الثقافتين تنبه للخطر وشمر واستعد للمقاومة » .

« ولا يغيب عن الأذهان أن إيطـاليا منحت مسلمى طرابلس وبرقة فى سنة ١٩١٩ قانونا يعتبر مثلا يضرب فى حب الحرية ، مقتضاه اعتبارهم إيطاليين مواطنين فى داخل بلادهم ، وسمح لهم بشروط معينة أن ينتقلوا من هـذه الحالة الى أرقى منها ، فيصبحون مواطنين فى عاصمة المملـكة دون أن يتنازلوا عن قوانينهم الشخصية الخاصة ومسألة الوراثة . ولـكن لم يلبث هذا القانون أن ألغى بسبب مجافاة المسلمين له . ففيم يهمهم هذا البرلمان المحلى الذى يسمح لهم هذا القانون بدخوله ؟ إن عرب الخيام كعرب القصور ، كما يقول المسيو ارتور بيللوجران ، لا يعرفون لهم سلطة غير التى تـكون لرؤسائهم السياسيين والدينيين . وهؤلاء فى حاجة لأن يشعروا بوجود إرادة قوية تزعهم عن الوقوع فى منافساتهم الموروثة عن أسلافهم . يضاف الى هذا أن رؤساء القبائل وأئمة الزوايا يعارضون ، حرصا على فائدتهم الشخصية ، قيام أى نظام ديموقراطى لديهم لأنه يلاشى الامتيازات التى يتمتعون بها . ولما كان الشعب لا يرى الأشياء إلا من خلال رؤسائه ، كان من المحتم أن يصادف هذا القانون حقد جميع المسلمين الليبيين عليه .

وقد حدثت هذه الظاهرة عينها فى تونس ، فان سياسة التسامح فى منح التونسيين حقوق الوطنية الفرنسية التى أقرتها فرنسا حيالهم ، رفضها الدستوريون باعتبار أنها تخالف الاسلام ، وتهيىء الوسائل لتنصير المسلمين . وبالغوا حتى فى عـدم جواز دفن جثث من يقبلها منهم فى مقابرهم ، فاضطرت الادارة الفرنسية لأن تنشىء لهم مقابر خاصة .

« ولم تَـعْـدُ الجزائر هذه السيرة عينها فان العلماء هنالك وإن كانوا من أنصار هذا التطور السياسى لإخوانهم فى الدين ، ويؤيدون الذين يرجون للجزائريين الدخول فى الوطنية الفرنسية ، فان المرابطين وهيأة الدينيين يرجون كما يقول المسيو ارتور بيللوجران أن يحتفظوا بالقانون الاسلامى كاملا ، ولا يأبهوا بالحقوق السياسية التى يكتسبونها بهـذه الوسيلة بل يعتبرونها أحابيل أعدت لهم لإبعاد المسلمين عن تقاليدهم الدينية »

***

(مجلة الأزهر) إن المسائل التى يعالجها المسيو ارتور بيللوجران والمسيو جورج جويو سياسية محضة لأنها تتعلق بالاستعمار وحقوق الأمم ، ولـكنهما أقحما فيها الاسلام إقحاما لا نرى له

مبررا . فلو كانت الشعوب التي استولى الفرنسيون على بلادها ليست مسلمة لوجد ما يجده الآن منها . ونحن إذا تكلمنا عما أبديناه من الآراء فانما نفعل ذلك بعد حذف الناحية السياسية منها .

ذكر المسيو بيللوجران أن الاحتلال الفرنسي قد أفاد في اتساع نطاق الديانة الاسلامية في تونس والجزائر ومراكش ، ولا ندري كيف تجاهل أن الاسلام ينتشر بهذه القوة نفسها حيث لايوجد الفرنسيون من القارة الافريقية ، ومن سائر القارات العالمية . ذلك لأن للاسلام قوة انتشار ذاتية لا تقف به عند حد . فهو دائم الحركة كالسيل الأتيّ لا يصده عن بلوغ مداه شيء . فليس الفضل في انتشاره لأي ضرب من ضروب الاستعمار الأوربي .

ويقول إن المسلم يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية وقتية فلا يرتاح للمذهب البشري الذي مؤداه تطلب القدرة للحصول على الأغراض الأرضية .

وهذا القول فيه نظر فان المسلم وإن كان يعتبر الأشياء الأرضية ثانوية بجانب الأغراض العلوية ، فلا يعني ذلك أنه محمول على احتقارها وعدم الاشتغال بها . ولا إخال المسيو أرتور بيللوجران إلا عارفا بأن المسلمين الأولين بجانب كلفهم بالأمور العلوية ، عنوا بالأمور الأرضية عناية أوجبت لهم زعامة العالم في سنين معدودة . وهم لم يعنوا بذلك من ناحية حربية فحسب ، ولكن من جميع النواحي التي يستدعيها العمران البشري ، من علم وصناعة وفنون ، حتى أصبحوا أئمتها دون سواهم . فاذا كانت توجد جماعات إسلامية اليوم لا تهب للامور الأرضية مثل عناية أسلافهم ، فلا يكون لذلك معنى غير أنهم ليسوا على الطريق السوي من دينهم .

ويقول المسيو أرتور بيللوجران أن طائفة من المسلمين لما أخذت بالثقافة الغربية ، ورأى الاسلام أن الحوافظ الروحية والاجتماعية لأهله قد تحللت بسببها ، تنبه للخطر واستعد للمقاومة . ونحن نعجب من تظاهر المسيو أرتور بأنه لايفهم السبب في ذلك . السبب أن الثقافة الغربية تعطى لهؤلاء الأقوام بلغة غير لغتهم ، ويدس لهم فيها ما يوهن من قوميتهم ، ويشكك في عقيدتهم ، ويحلل من حوافظهم الأدبية . فلذلك يهيب بهم الاسلام الى حظيرته ضنا بهم على التحلل والتلاشي . وبقاؤهم وحدة اجتماعية متميزة متأخرة في معارفها ، خير لها من الفناء في وحدات أخرى باسم الثقافة والمدنية .

هذه ميزة عظيمة للديانة الاسلامية فانها بما تحيط به أهلها من الحوافظ ، لاتسمح بأن تعدو عليهم المحللات الأجنبية من أي نوع كانت . ويرجى لكل الجماعات الاسلامية بفضل هذه الحوافظ أن تسترد وجودها الاجتماعي ومجدها التالد ، وتعود الى ما كانت عليه جماعات فتية قوية تشاطر الأمم الحياة الراقية ، وتأخذ حظها من تكميل المدنية .

محمد فريد وجدي

ضيق المجال في هذا العدد لم يمكننا من إعطاء هذا الباب حقه من الاستيعاب .

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا فى مقالنا السابق طرفا مما يدخل فى حدود الناظر من تصرفات .

فنذكر اليوم أن العلماء قد وضعوا لذلك ضابطا كليا ، فنقل صاحب البحر أن الضابط الكلى لما يجوز للناظر من التصرفات أن يعمل كل ما فيه فائدة للوقف ومنفعة للموقوف عليهم مع ملاحظة شرط الواقف إن كان معتبرا شرعا . وتحت هذا الضابط الكلى تندرج أجزاء كثيرة يأتى الكلام عنها تبعا لذكر مناسباتها ، وقد أتينا على حالات كثيرة يملكها الناظر وتقع فى اختصاصه فى المقال السابق ، فليس بنا من حاجة الى ترديدها مرة أخرى .

أما ما لا يجوز للناظر من التصرفات فقد نوعه العلماء على أنواع كثيرة ، وفى حالات كثيرة ، من ذلك أنه لا يجوز له أن يخرج أحدا من الموقوف عليهم ولا أن يدخل معهم أحدا ، ولا أن يخصص واحداً منهم بالغلة ، ولا أن يستبدل عقارات الوقف ، ولا أن يفضل بعض الموقوف عليهم على بعض إن كانوا محصورين إلا إذا شرط الواقف له ذلك فى كتاب وقفه ، فلو كانوا غير محصورين جاز التفضيل . ومثال ذلك أن الواقف لو جعل وقفه على فقراء قرابته وفقراء الجيزة مثلا ثم من بعدهم المساكين ، كان للأمر وجهان : فإن كانت أفراد كل من النوعين محصورة قسمت الغلة كلها على عدد رءوسهم بدون تفاضل ، ولا يملك ناظر الوقف فى هذه الحالة نوعا من التفاضل ضرورة أن الوقف عليهم فى هذه الحالة بمنزلة الوصية والوصية تنفذ حسبما نص عليه الموصى للموصى له ، وإن كانت أفراد كل من النوعين غير محصورة قسمت الغلة نصفين لكل نوع نصفها ، فما خص كل نوع جاز للناظر فيه أن يفضل بعض الأفراد على بعض ، كما جاز له أن يعطى البعض ويحرم البعض الآخر لأن المقصود من الوقف القربة الى الله ، والقربة تتحقق باعطاء البعض كالصدقة سواء بسواء ، أما إذا كانت أفراد أحد النوعين محصورة دون أفراد النوع الآخر قسمت الغلة بين الفريقين على أن يجعل للفريق المحصور أسهم بعدد أفراده ، وأن يجعل للفريق غير المحصور سهم واحد . فمثلا لو كان عدد أفراد الفريق الأول تسعة قسمت غلة الوقف على عشرة ووزعت تسعة أسهم على عدد أفراده وكان لناظر الوقف حق التفضيل فى السهم الذى خص الفريق الذى لا ينحصر ، لأن ما ينحصر قد حدده الواقف فى كتاب وقفه ، أما ما لا ينحصر فقد أطلقه الواقف من الحصر ابتغاء القربة والتصدق ، فكان للناظر أن يملك هذا الحق فيمن لا ينحصر من الأفراد الموقوف عليهم ، وألا يملك الحق فى المنحصر كما هو ظاهر .

ولا يجوز للناظر أن يرهن عقار الوقف بسبب دين على جهته أو على المستحقين له أو عليه ،

لأن ذلك الرهن يؤدى الى بطلان جهة الوقف عند العجز عن الوفاء بالدين وبيع الرهن لسداده ، وكم كان هذا التصرف ولايزال سببا من الأسباب المباشرة لإلغاء أعيان كثيرة موقوفة عجز المستحقون أو ناظر عين الوقف المرهونة عن الوفاء بما عليها من الديون ، فقضت المحاكم المختلطة ببيعها وبنقض الوقف ، وضاعت على المستحقين حقوقهم ، وفقد منها وجه البر والاحسان من هذا التصرف البغيض . ولذلك أطبق علماء الفروع على أن الوقف لاينعقد فى عين مستغرقة بديون الدائنين ، ومنع العلامة صاحب الفتاوى المهدية انعقاد الوقف لعين عليها جزء من الدين وفيها احتمال أن هـذا الدين لا يوفى إلا بعد طول وقت ومشقة ، فالأوقاف المرهونة معرضة أبداً الى ضياع العين . من أجل ذلك منع الناظر من هذا التصرف المتعلق بها .

وليس له أن يودع مال الوقف عند غير عياله ، ولا أن يقرضه إلا إذا كان ذلك أحرز له وأحفظ من إمساكه عنده ، فإن أودعه عند غير أمين فضاع فعليه الضمان ، وكذلك إن أقرضه فضاع بموت المستقرض مفلسا ، ما لم يكن الإقراض بأمر القاضى ، فان كان بأمره فلا ضمان على المتولى .

وليس له أن يؤجر الوقف لنفسه ضرورة أن الشخص لا يكون مؤجرا ومستأجراً فى آن واحد . ونقل صاحب العناية أن عينا موقوفة على وقفها ناظران ففى هذه الحالة لا يجوز لأحد الناظرين أن يستأجر العين الموقوفة من الناظر الآخر على رأى أبى حنيفة ومحمد ، إذ لا يجوز انفراد أحد الناظرين عن الآخر بالتصرف ، ولا يمكن أن ينفرد أحدهما بشىء دون الآخر . فالتصرف من أحدهما تصرف من الآخر كما هو ظاهر .

وليس له أن يعمل فى عمارة الوقف ما يعمله النجار أو البناء فى مقابل أجر ، إذ لا يمكن أن يكون أجيرا ومستأجراً فى شخص واحد . وروى العلامة الميدانى لو أذنه القاضى كان مستحقا للأجر . وعلل روايته بأن القاضى فى هـذه الحالة يعتبر مستأجراً والناظر يعتبر أجيراً .

وليس له أن يزيد فى عمارة الوقف عن الحالة التى كان عليها عند ضبط الاشهاد إلا إذا نص عليـه الواقف أو رضى المستحقون بتلك الزيادة ، ولا أن يزيد فى مرتبات أرباب الشعائر وأصحاب الوظائف المعينة لهم من قبل الواقف أو من قبل القاضى .

وليس له أن يزرع فى أرض الوقف أو يبنى فيها أو يغرس لنفسه أشجاراً ، كما ليس له أن يبيع أنقاض الوقف أو شجره أوما يحيط به من ملحقاته إلا باذن من القاضى . وليس للقاضى أن يأذن إلا فى أحـوال مخصوصة كشفنا عنها فى بحوثنا السابقة . وسنعود الى بقية البحث فى الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟

عباس طه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام الملك ملك الكلام

إن التجديدات العظيمة الشأن التى يقوم بها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فى علاقته بالأمة فى الناحيتين الدينية والدنيوية ، تعتبر بحق تمشيا نحو العهد الذهبى للدولة الاسلامية أيام زعامتها العالمية .

من هذه التجديدات الجليلة الشأن ، البعيدة الشأو ، ما يتفضل به جلالته من التحدث الى الأمة فى أيام أعيادها الدينية ، وذكرياتها التاريخية ، مما لا نستطيع ، مهما بالغنا ، أن نصور حسن وقعه فى قلوب الناس ، وما يحدثه فيهم من النزوع الصادق الى العمل بنصائح جلالته وإرشاداته القيمة .

وإن ما أبداه جلالته من ذكر ما حباه الله من الارادة القوية ، والتصميم الصارم ، فى تنفيذ ما يعتقد أنه نافع للامة بعد إطالة الروية فيه ، وتقليبه على جميع وجوهه ومحتملاته ، والاستماع الى آراء رجال دولته ، وأركان مملكته ، لتصريح من جلالته خطير الشأن تقابله الأمة بالشكر والدعاء ، وتود لو كان كل مسئول عن عمل يأتسى بجلالته فى دائرة عمله ، فيكون للامة من وراء ذلك مجموع من القوى العاملة تبلغ بها أرفع مكانة فى سنين معدودة .

ثم إن ما أسداه جلالته من العطف على الشبيبة المصرية ، وما أسند اليها من عهدة العمل لإعلاء كلمة الوطن ، وما بينه من النواحى التى تبذل فيه نشاطها ، لما لا يزول أثره من أذهان الشبان ، وسيكون له من الثمرات ما لا سبيل الى تحديده بحد .

وإننا لنحقق رغبات جميع قرائنا فى تدوين الحديث الكريم الذى تفضل به جلالته فى مستهل هذا العام الهجرى ، جعله الله فاتحة إقبال ويمن على جلالته ، وجميع المسلمين . وإليك الخطاب الملكى الكريم :

شعبى العزيز :

أحببت ونحن نستقبل العام الهجرى الجديد ، أن أهنئكم والعالم الاسلامى بهذا العيد السعيد ، مبتهلا الى الله أن يجعله عام خير وسلام وإقبال على الجميع ، وأن يقرنه بتوفيق الجد ، وبلوغ القصد .

إن هـذا اليوم الذى يتمثل فيه أمامنا حادث الهجرة العظيم ، بما فيه من العظمة البالغة والمعانى السامية ، وبما كان له من الأثر الخالد فى بث روح الفضيلة والإخاء ، والمغامرة فى سبيل الحق ، ليستحق منا تمجيده بالعمل الصالح ، والتوجيه النافع لخير الانسانية .

وإنى ليطيب لى أن أشير الى ما سيتم باذن الله وجميل رعايته ، فى مستهل هذا العام المبارك ، من عقد أواصر المصاهرة ، بين الأسرتين الـكريمتين فى إيران ومصر ، مما يزيد فى إحكام روابط الإِخاء والمودة بين الشعبين ، فوق ما يربطهما من الصلات الأدبية والثقافية منذ القدم .

شعبى العزيز :

لم أتحدث إليكم قبل اليوم عن نفسى ، وكنت أعد ذلك من سبق الحوادث ، ولـكن هذه الفرصة قد أتاحت لى أن أتحدث اليكم قليلا فى ذلك ، فتزدادوا معرفة بى ، وركونا الىّ .

إن سر النجاح هو الثقة والايمان ، ومن لاثقة به ولا إيمان له لا رجاء فيه . فعلى الذين وثقوا بى أن يعتمدوا علىّ ، إذ فى ذلك كل الخير لهم .

إننى مع إعجابى العظيم بوالدى — طيب الله ثراه ، وتغمده برحمته — قـد أكون خالفته فى بعض طباعه ، ولـكننى أؤكد أننى قد احتفظت بأبرز هذه الطباع : فأنا مثله لا يستطيع أن يؤثر فىّ أحـد ، إذا تبينت صواب أمر واعتقدت — بعد تقليب وجوه الرأى — أنه فى صالح شعبى أفرادا وجماعات .

وإن ثقتى بنفسى ، وتوكلى على الله ، هو الذى يلهمنى تصريف الأمور ، ويوجهنى الوجهة التى أختارها .

بيد أن هـذا لا يمنع أن أستمع لآراء ذوى الخبرة من الرجال ، شأن كل إنسان يتحرى وجوه الصواب .

إننى أومن — ومَرُّ الأيام يؤيد إيمانى — أن شباب مصر المتوثبة للمجد ، سيكتبون صحيفة خالدة فى تاريخ الوطن ، وفى استطاعتهم أن يصنعوا من هذا الوطن العزيز ، مصر العظيمة المتحدة التى هى آمالنا وأحلامنا جميعا ، وعلى الشباب وحده تحقيق هذا الحلم .

ولـكن انتبهوا ، فالطريقة التى تتبعونها لا تحقق أملنا هذا ، ولابد من العمل المتواصل ، فى جو يسوده الهدوء ، والإِفادة من الرءوس الناضجة ، واحترام النظام .

وليكن هدفكم : سـعادة المجتمع ، ومصر القوية ، القوية فى نفسها ، وفى أبنائها ، والمستعدة لإِعلاء كلمتها ، وفرض احترامها على من يعبث بعزتها .

شعبي المحبوب :

كم كنت أحب أنكم بعد أن سمعتم هذه الـكلمات تذكرونها ، ليرجع إليها كل منكم بين الوقت والآخر ، حتى لا تأتى عليها يد النسيان !

ونصيحتى التى أسديها الى كل مصرى ، مخلص لوطنه ومليكه : أن يكون ذا ثقة بالله ، وبنفسه ، وبمليكه .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟



خطبة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

فى الجامع الأزهر احتفالا بفاتحة العام الهجرى

احتفلت مشيخة الأزهر الجليلة بفاتحة السنة الهجرية الجديدة، فاحتشد فى الجامع ألوف مؤلفة من أعلام العلماء والوجهاء وكبار الموظفين والطلبة، وكلهم أنظار شاخصة الى المنضدة التى عليها الميكروفون، ترقبا لسماع كلمة من كلمات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر، من التى عودهم سماعها فى أيام الاسلام المعدودة. فما وافت الساعة الثامنة حتى نهض فضيلته تحوطه السكينة والوقار، وألقى الخطبة التى يراها القراء عقب هذه الأسطر. فكانت كلماتها تنفذ من الأسماع الى القلوب فتمدها بما تتطلع اليه من بصيرة فى الدين، ونزوع الى العمل، وتوفر على الفضيلة، مما أوقر فى نفوس سامعيه أن العالم الاسلامى لو رزق خطباء كثيرين من هذا الطراز، الجامع بين التالد والطريف من روائع العلم والحكمة، والقديم والجديد من عوامل التأثير فى النفوس، لقضوا على ما يُنقض ظهورهم من البدع، ويثقل خطاهم من التقاليد الضارة، ولتم تجردهم للدين الحق بأسرع مما يقدره لهم أرجى المتفائلين. وإنا ننشرها هنا لتخلد مع الكلمات الخالدة للكرام الخالدين.

قال حفظه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، وصلوات الله عليك وعلى إخوانك الأنبياء، وآلك الأصفياء، وصحبك الأتقياء، ومتبعيك الأوفياء.

أى سيدى محمد بن عبد الله: ليس أتباعك فحسب هم المدينين لك بالهدى والرشد، والعلم والنور، والحرية العقلية، والحرية الاجتماعية؛ وليس أتباعك فحسب هم الذين قبسوا من نارك واستضاءوا بنورك، فلقد جاء الغيث من سحبك فتلقاه أقوام تطهروا به، وبردوا غلة الظمأ، وسلك الله بعضه ينابيع فى الأرض، تفجرت عند أقوام انتفعوا بها ولم يعلموا أنها من غيثك وأنها من سحبك. فكم لك من يد على من أحبك ومن لم يحبك، على من عرفك وعلى من لم يعرفك، وكم لك من نعمة، وكم لك من فضل.

قد علم الله طيب عنصرك، ونقاء جوهرك، وصفاء سريرتك، ومضاء عزيمتك، وقوة إرادتك، وشدة أمانتك، وطول أناتك وصبرك، وبعدك عن الدنيا، وقربك منه، وشدة اتصالك به، فاختارك أمينا على وحيه، مؤديا لرسالته، فصبرت وصابرت، واحتملت وجاهدت، وكان الله لك معينا، وكان الله لك نصيرا، وكان الله لك هاديا ومرشدا.

ولقد تولاك الله إذ وجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى؛ وشرح

صدرك ، ورفع ذكرك ، وأعلى قدرك . ولقـد ثبتك فى مواضع تزل فيها الأقدام وتحار فيها الأفهام ، فصمدت أمام الباطل رافعا راية الحـق ، واعتصمت بحبل الله فى مواطن تزيغ فيها الأبصار ، وكان الله مولاك ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائـكة بعد ذلك ظهير .

لقد وصفك الله فى كتابه — وذلك حسبك — بأنك على خلق عظيم ، وقلت وأنت أصدق قائل من الخلق : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » فماذا نقول فيك بعد هذا ؟

ولقد كان من حسن الأدب أن نكف عن القول ، وأن نردد قول الله فيك ، لـكننا نحبك وقد امتزج حبك بدمائنا ، وخالط قلوبنا ، فلنا العذر ، والله عليم ، والله غفور رحيم .

سـيدى رسول الله : كل جانب من جوانبك مشرق مضىء ، وكل ناحية من نواحيك بعيدة المدى مترامية الأطراف ، بعيدة الغور ؛ وليس من السهل على القائل أن يقول ، فـكل حديث مع هذا الجلال حقير ، لـكننا محبون ، يقبل منا ماتقدم ، والله هو المطلع على السرائر.

سيدى إمام الأنبياء : نبا بك الموطن ، ولم يطق الباطل صبرا على ما أنت عليه من الشدة فى الحق ، وأدار أهلك الرأى فيك فلم يقنعوا إلا بالخلاص منك ، وإهراق ذلك الدم الزكى ، ونقض ذلك الهيكل المقدس ، وإطفاء ذلك النور . لـكن لك عقلا راجحا ، ورأيا واضحا ، وفراسة تصل بها الى أعماق القلوب ، وخفيات الضمائر ، ولك صديق كريم عند ذى العرش مكين ، لايكلك الى نفسك ، ولا يخلى بينك وبين الأعداء ؛ ولك رب عزيز رحيم ، اختارك لوحيه ، واصطفاك لرسالته ، وأراد أن تكون خاتم الأنبياء ، وأن يكون هدى العالم على يدك ، فـكانت الهجرة ، وبها وقى الله عبده وحبيبه وصفيه وخليله ، وبها انساح الإسلام فى الأرض ، يحيي مواتها ويخرج نباتها ، ويورق أشجارها ، ويطلع ثمارها ؛ وبها بلغت الإنسانية آخر طور من أطوارها ، وبرئ الإنسان من معبودات كثيرة الى معبود واحد ، ومن أرباب متعددة الى رب واحد ، يناجيه فى كل صلاة : إياك نعبد وإياك نستعين . خرجت عن وطنك ، ورحلت عن أماكن محببة إليك ، فيها تراث عزيز ، وفيها ذكريات الصبا والـكهولة ، وفيها عشيرة وأحباب ، وفيها مثوى الآباء .

فارقت هذا لأن الحق أحق بك ، وأحب إليك من أولئك . ولقد كنت فيهم لولا ما جئتهم به من دين ودعوتهم إليـه من حق ، حبيبا الى نفوسهم ، لا حقاً بقلوبهم ، يفدونك بالآباء والأمهات ، وبالطارف والتليد ، لصفات ميزتك عن لداتك ، وخصصت بها من بين أهلك . لـكن الله أحب إليك من الآباء والعشيرة ، ومن الأهل ، ومن الولد ، بل ما كنت ترى فى الوجود غيره ، ولا يقع نظرك إلا عليه ، ولا تفكر إلا فيه ، صلوات الله وسلامه عليك .

أى رسول الله : تركت فينا كتاب الله واعظا ، وتركت فينا سنتك إماما ودليلا . لـكننا أعرضنا فلم نتعظ ، وعمينا فلم نهتد ، واتخذنا غيرك مرشدا ، واتخذنا الهوى دليلا ، وخلنا غيرك

أهدى وأقوم ، وأعلم وأسلم ، تخبطنا فى الفتنة ، وأوضعنا فى الغواية ، وضللنا الطريق القويم وهو أمام الأعين .

ألا نفحة من نفحاتك الطاهرة ، ونسمة تهب من جانبك ، تروح عن قلوب المكروبين ، وتغيث الملهوفين ، فتحيي ميت القلوب ، وتعيد شباب الدين ومجد الأولين .

رب إن الهدى هداك ، وآيات من الله تهدى بها من تشاء
وإذا حلت الهداية قلبا نشطت فى حلولها الأعضاء

هذه أمتك تنتسب اليك بالقول وأنت لا ترضاها إلا عاملة مخلصة ، وتقرأ كتابك لا يجاوز حناجرها ، ولا يصل الى قلبها ، وأنت لا ترضاها إلا متحققة به ناصحة .

تركتها أمة واحدة فتفرقت ، وتركتها جسما واحدا فتمزقت ، وتركتها عزيزة فذلت ، وقوية فضعفت ، شعبتها الأهواء ، وتعددت فيها الأدواء ، متخاذلة عن الحق ، قوية فى الباطل ، يكيد بعضها لبعض ، ويخذل بعضها بعضا ، ولو أنك اليوم بيننا لنكرتنا ، ولو أنك اليوم بيننا لما عرفتنا :

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائهم

ولقد كان المسلمون قلة مستضعفة فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم الله وأمدهم بنصره ، ومكن لهم فى الأرض واستخلفهم فيها ، وصاروا ملوكا وساسة للامم ، وولاة وأمراء ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، فرفعوا رايته عالية ، وباعوا أنفسهم فى سبيله ، فعز بهم وعزوا به ، ثم تبدل الحال فأصبحوا كثرة لا غناء فيها ، سلب الله من أعدائهم الرعب منهم ، وسكن قلوبهم الفرق والخوف من أعدائهم . كل هذا والاسلام هو الاسلام ، لكنه لا يعمل إلا فى يدى بطل ، ولا يصلح إلا إذا كان فى يد شجاع مؤمن به .

لا يصلح أمر هذه الأمة فى آخرتها إلا بما صلح به أولها : رجوع الى الله وهديه ، وتحكيم كتابه عند الاختلاف . وإنى يا مولاى الرسول الكريم ، مؤمن بالله ومؤمن بك ، ومؤمن بأن حوادث الزمان أكبر مؤدب وأعظم مرشد ، وأهدى ناصح ، وبأن أمواج البغى ستنكسر على الصخور التى وضعتها للنجاة ، وبأن العالم سيلجأ اليك طالبا إنقاذه مرة أخرى ، وإخراجه من الغى والضلال ، الى الهدى والرشاد ، وبأنك ستمد يدك اليه مستعينا بالله ، والله المستعان .

وإنى أغتنم هذه الليلة المباركة فأسأل الله جلت قدرته وعظمت نعمته ، لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الاول ، رعاية دائمة ، وعناية شاملة ، وتوفيقا الى الخير والسعادة ، كما أسأله للمسلمين عامة ولهذا البلد خاصة ، هديا ورشادا ، وعونا وإسعادا ، والله سميع الدعاء !

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

يصلى الجمعة بمسجد محمد على بعد ترميمه

وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام يقوم بالخطبة فيه

أتمت وزارة الأوقاف ترميم مسجد المغفور له محمد على باشا موجد مصر الحديثة بالقلعة ، فصحت عزيمة حضرة صاحب الجلالة الملك على تأدية صلاة الجمعة فيه فى الخامس من المحرم لسنة ١٣٥٨ . وحضر الصلاة مع جلالته أركان الدولة وكبار العلماء والموظفين العسكريين والمدنيين ، فكانت صلاة جامعة فى أعظم مساجد العاصمة . ولما أذن المؤذن نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى وألقى خطبة الجمعة ، وصل بها ما انفصم من عرا الخطب المنبرية المغلغلة لعهد القوة الاجتماعية والاستقلال الصحيح ، فذكر الأمة بمجدها التالد ، وعظمتها التاريخية ، ونبهها الى أن ذلك لاينال إلا بعلم وعمل ، وإيمان وإخلاص ، وجد ومثابرة ، وأخذ بالأهب للذياد عن الحوزة ، والدفاع عن البيضة ، فحرك من القلوب ، واستنهض من العزائم ، وبعث من الهمم ما الأمة فى أشد الحاجة إليه فى العهد الراهن ، فكان لهذه الخطبة البالغة فى مسجد موجد مصر الحديثة ، وبحضرة أنجب ملك رأته هذه البلاد ، وعلى لسان أكبر أئمة المسلمين فى هذا العصر ، أعمق تأثير فى النفوس وأفعاله . وإنا لنحرص على تسجيل هذه الخطبة الكريمة ، راجين أن تكون دستورا لكل سالك الى الحق ، متوفر على خدمة الوطن .

قال أيده الله :

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير .

وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالربوبية ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأكمل الدين وأتم النعمة ، ونصب للهداية أعلاما ، وبعث خاتم النبيين محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا وإماما . صلى الله عليه وعلى آله المصطفين الأخيار ، وصحبه المجاهدين الأبرار .

عباد الله : لقد ضل من طرح العمل ، وتلهى بالبطالة والأمل ، واهتدى من عرف أن الحياة جهاد ، يفوز فيه من له عدة وعتاد ، ومن كان قلبه عامراً بالإيمان ، مليئا بالعرفان ، لا يداخله اليأس من روح الله ، ولا تثنيه الصعاب والعقبات ، عن السعى لبلوغ أقصى الرغبات وأعلى الدرجات ، متجها الى الله بقلب سليم مع إخلاص النيات وصدق العزمات . قال الله تبارك وتعالى :

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فعماد النجاة ، ومناط السعادة ، وطريق الجنة : الايمان بالله والعمل الصالح .

ألا وإن من أحق الأعمال الصالحة بالرعاية ، وأولاها بالعناية ، إعداد العدة ، وأخذ الأهبة ، لاتقاء الأحداث ، وملافاة الأخطار .

فلا شرف لأمة لا اعتزاز لها بقوة ، ولا اعتزاز لأمة لا تعرف لها منعة ، وفى قلوب الرجال خير الحصون ، وفى العدة خير معوان على تجنب الضمة والهون .

ولنا ماض عزيز كريم ، وتاريخ حافل بالمجد والشرف العميم ، وفى اقتداء الأبناء بالآباء فى الخير عرفان بالجميل ، ووصل للشرف الحديث بالشرف القديم .

أفلح من ثابر على نشر العلم ، وعلى إحياء الأخلاق الفاضلة ، والشيم العالية ، وأغاث الملهوفين وفرج عن المكروبين ، وأعان الضعفاء ، ورفه عن البؤساء ، ووحد الجهود ووثق الإخاء ، وأزال الشحناء والبغضاء من نفوس العباد ، وضرب على أيدى السفهاء ، وعمل على وقاية المجتمع مما يهدده من الأخطار فى دينه أو عرضه ، وفى جسمه أو عقله أو ماله . ومن واجب الأفراد والجماعات والهيئات والحكومات أن تعنى بهذا وأن تخلص النية فيه لله ، فإن الله لا يقبل عملا خاليا من الإخلاص « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما » .

الحياة فى الدين والدنيا فى حاجة الى الجد والعزم ، والى السعى والحزم ، والى الحق والعدل ، والى الصدق واليقين ، والى محاسبة النفس ومراقبة الله ، والى علم نافع ، وخلق قويم ، وصبر على المكروه والبلوى ، وطرح للهوى وملازمة للتقوى . وقد قيل :

لا كنز أنفع من علم ، ولا مال أربح من حلم ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء أنجع من الرفق ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة .

ألا من سبيل الى عزمة صادقة ، ونية خالصة ، وقلوب متوحدة ، وحياة جادة ، واعتماد على الله ، وتفكير فى الحاضر والمآل ، يقرب الآمال ويسعد الحال ، ويعز البلاد وترفرف به [illegible]ادة على العباد !

ألا وإن الله عليم حسيب ، ومطلع رقيب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، أعد لكل واحد كتابا ، وسيطلب عما قدمه جوابا ، ويحاسبه عليه حسابا .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا »

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

أيها المؤمنون :

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا قبل أن توزنوا ، ولتنظر كل نفس ما قدمت لغدها من خير في سبيل إعلاء مجد بلادها ، وإعزاز دينها ، ورفع شأن وطنها .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه « قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله . قالوا : ثم من ؟ قال : مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره . »

وعنه صلى الله عليه وسلم « لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب »

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

— ٢ —

ماهى النبوة وماهى الرسالة ، والأدلة العلمية على إمكان الوحى

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى : إما إلقاء فى الروع ، أو بتوسط ملك يتمثل فى صورة بشرية ، أوفى أثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غير ذلك من الحالات الروحية التى لايدركها غير نبى ، ويسمى هذا الأسلوب التعليمى المخالف للسنن العادية وحيا .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبيا ، وقد تكون مقترنة بتكاليف تقويم أود جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويُدْعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر أسماء عدد كبير من الأنبياء ، ومثله من المرسلين فى جميع أدوار الانسانية .

وقد أجمع هؤلاء الأنبياء والمرسلون على أنهم يتلقون معارفهم من طريق الوحى ، وأنهم إنما يُدْلون الى الناس بما أمروا أن يدلوا به اليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وإن غضب الناس منهم ، وتألبوا على اضطهادهم . وقد أوذى وقتل منهم عدد كبير ، وبُلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا إلا إقداما ومضيا .

الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحى كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها ، فان الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحانى ، وادعت أن كل مايقال فيه ، ويسند اليه ، من أوهام الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تسربت هذه الفلسفة الى عقول الناس من مصادر عدة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحى ، أن يعدل عن الاستناد على الأدلة المنطقية الى الأدلة العلمية ، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية سُرِّى على بحثها الأسلوب العلمى . وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيرا من الجهد يبذل فى سبيل جمعها وترتيبها ، وتهيئتها للدفاع عن النبوة من طريق مباشر يوفر للأدلة كل قوتها الإقناعية ، وهيبتها الأدبية .

ونحن وقد انتدبنا لخوض غمار هذه المسألة ، نرى أن نتوجه الى تحقيقها من ثلاث نواح :

(أولاها) هل فى الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات ، نفثا فى الروع من غير طريق الحواس ، ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟

(ثانيتها) هل توجد حوادث إنسانية يقرها العلم نفسه ، تثبت وجود اتصال باطنى بين النفس وبين عالم أرقى منها ؟

(ثالثها) هل يمكن أن يعترف العلم بوجود عالم روحانى فوق عالم المادة ، يُسوِّغ اعتبار النبوة والوحى أمرا ممكنا ؟

فلنعالج هذه المسائل الثلاث على الأسلوب العلمى فنقول :

١ — هل فى الوجود ما يدل على حدوث معرفة من غير طريق العقل والحواس ؟

الجواب : نعم ، إلهام الحيوانات ، والعبقرية .

فأما إلهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون فى حياة الحيوانات من لدن أقدم عهود العلم أن للحيوانات ، وخاصة الحقيرة الساذجة منها ، أعمالا فى تطلب أغذيتها ، وبناء أكنتها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر إدراكاتها القاصرة عن الاهتداء إليها لو تركت وشأنها . وإنا عارضون على قرائنا بعضا منها :

الفراش متى وصل الى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أمّاتها (أى أمهاتها) قد ماتت ، أى أنها لا تراها . فمن الذى علم إناث الفراش أن صغارها متى خرجت احتاجت الى التغذى بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها الى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلق بها فى أى مكان آخر ؟ هل هدتها الى ذلك أمهاتها ؟ لا ، لأنها لم ترها فى حياتها . هل هديت إليها بعقولها ؟ هذا مما لا يتصوره عقل لأن إدراكاتها قاصرة . ولو أخذت بويضاتها وأفقستها فى بقاع ليس فيها فراش ، لخرجت تلك الديدان وعاشت عيشها الذى يعيشه نوعها ، حتى إذا تطورت وصارت فراشا عملت العمل عينه الذى يعمله جميع إناث الفراش فى كل بقاع الأرض ، مسوقة إليه بدوافع قاهرة لا تتكلفها . فلم يبق إلا القول بأنها ألهمت هذه الأعمال من القدرة العليا التى أبدعتها .

والحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى أنها لم تر لها ذرية قط . ولكنها قبل أن تبيض تعنى كل العناية بوضع جثث حيوانية ، تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت . فمن الذى أدرى هذه الحشرات أن فى بيضها صغارا ، وأن تلك الصغار ستخرج فى حاجة الى الغذاء ، وأن ما تحتاج إليه هى تلك الجثث الحيوانية ؟

ومن أعجب المشاهدات العلمية أن الحيوانات المسماة (بومبيل) من أكالة الحشائش ، ولكن صغارها تولد من أكالة الحيوانات الى أمد محدود . فترى الأمات تعمد الى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت وجدت ماتغتذى به . فمن الذى أدراها أن صغارها ستخرج من أكالة الحيوانات ؟

والحيوانات المسماة أوديتير و (سفكس) تخرج صغارها من بويضاتها محتاجة الى التغذى بأجساد حيوانات (حية) . فترى أماتها تعمد الى اصطياد حيوانات لا تقتلها ، ولكن تضربها فى مجمع أعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فإذا خرج صغارها وجدت أمامها غذاءها الضرورى لها .

ومن المحيرات للفكر ما ذكره الأستاذ (ميلن إدوار) المدرس فى جامعة (السوربون) بفرنسا فقد قال : إن الحيوانات المسماة (إكسيكاوب) تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض إناثها مباشرة ، تخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل وفى هدوء تام وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فإذا أتمته أخذت فى جلب ذخيرة اليه تكفى صغيرا واحدا مدة سنة . تلك الذخيرة هى طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ، فتحشوها فى قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنشارة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلم جرا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة هذه الصناعة المحيرة للعقل ؟ ومن أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها فى حاجة الى البقاء سنة فى حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟

هذه الإلهامات دليل محسوس على أن قيم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غيرطريق الحواس التى لاتستطيع أن تكتسبه بها ، وإذا صح هذا فى عالم الحيوان فهو أولى بأن يصح فى عالم الانسان ، حيث اتصالاته بالأفق الأعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها أكبر .

ولكن الماديين لما شعروا بالخطر الذى يتهدد مذهبهم من هذه الناحية تألبوا على القول بأن هذا الإلهام عادة موروثة ، أى أن الجماعات الأولى من الحيوانات اكتشفت وسائل حياتها فأورثتها أخلافها ، فصارت فيها غريزة . ولكن كيف اهتدت تلك الكائنات الساذجة الى هذه الوسائل ولم تمهد قبل أن تجدها ؟ وكيف اتفق أن جميع جماعاتها فى مختلف القارات الأرضية تهتدى الى وسائل من نوع واحد وليس بينها اتصال ؟ وكيف يعقل أن تورثها لأخلافها وقد ثبت أن الوراثة للصفات والعادات غير ممكنة ، كما قرر ذلك أخص تلاميذ داروين الأستاذ (وسمن) وتبعه أكثر الداروينيين ؟

وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف الفطرية لدى الكائنات الحية ، هى إلهامات إلهية

لاشك فيها . قال الأستاذ (بواراك) مدرس الفلسفة فى كلية (كوندرسيه) بفرنسا ورئيس المجمع العلمى فى ديجون فى كتابه الفلسفة صفحة ١٥٨ :

« إن الغريزة عند دارون وهربرت سبنسر أصلها عادة موروثة ، بمعنى أن الحيوان حصل بالتعلم على كل ما يعمله ، وعلمه إذا كان واحدا عند جميع أفراد النوع الواحد ، فذلك فى رأيهم لأن احتياجات وأعضاء هذه الحيوانات متشابهة . إن تفسيرا كهذا يكون نقصه واضحا إذا قوبل بالغرائز المحدودة والكثيرة التركب لدى أكثر الحشرات . فلا التجربة ولا الذكاء الشخصى يستطيع أن يعلم الحيوان المسمى (اموفيل) الصناعة الجراحية التى تسمح له بشل حركات الديدان الخضراء بدون أن يقتلها ليجعل منها غذاء لصغاره متى خرجت من بويضاتها »

وقال الأستاذ (ميلن ادوار) المدرس بجامعة السوربون :

« إن التخيل بأن غرائز النمل مثل أسمى مدركات القوة العقلية للانسان ، ليست إلا نتيجة عمل الفواعل الطبيعية أو الكيمائية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأحجار ، إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضا ، والطبيعى لا يستطيع أن يعقلها أبدا » .

يرى القارئ مما مر أن العلم الطبيعى نفسه يعترف بحدوث إرشاد وتعليم من جانب القدرة الالهية للعالم الحيوانى الذى يعجز عن تدبير نفسه والشعور بما يصلحه من المحاولات الضرورية له ، فانكار حدوث هذا الارشاد للنوع الانسانى ، وجماعاته فى أثناء تكوّنها فى حاجة ماسة اليه ، تحكم لا مسوغ له .

على أن هذا ليس بالاعتراف الوحيد للعلم بحدوث الهداية والارشاد من غير طريق الحواس أو العقل العادى ، فان له اعترافا آخر لا يقل عن هذا خطورة ، وهو فى هذه الدفعة خاص بالنوع الانسانى ، وذلك من ناحية ما اصطلح على تسميته بالعبقرية .

فما هى العبقرية ؟

شوهد فى تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية فى أرفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها أتتهم عفوا بدون إجالة نظر فيها ، ولا أقل محاولة منهم لإحداثها بل لم تكن تخطر لهم على بال . وهى تظهر شذوذا وبدون تمهيد . وقد تمر أجيال دون أن يظهر فى أى بقعة من الأرض عبقرى واحد . وأصحاب العبقرية فى مجموع تاريخ النوع الانسانى يعدون على الأصابع . وقد اعتبرها الفلاسفة الأقدمون حالا علوية لا شأن للعقل فيها . فقد قال أفلاطون :

« العبقرية حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية » .

وليس المعاصرون لنا بأقل من الأقدمين إكبارا للعبقرية ، وجنوحا الى نسبتها الى الذات الإلهية . فقد قال فولتير وهو الفيلسوف النقادة الكبير :

« من شروط العبقرية أن يكون فيها ابتكار ، فهذه الخاصة الابتكار هي التي تعتبر منحة إلهية » يريد أن لا عمل للعقل فيها كما ستراه هنا .

وقال العبقري المشهور فيكتور هوجو :

« لندع ما هو من عمل المخ للمخ ، ولنشهد بأن عمل العبقرية نفحة فوق القدرة الانسانية ، تستخدم في بروزها للعيان الانسان نفسه » .

هذا رأي الفلاسفة والعباقرة أنفسهم ، والعلم الطبيعي يؤيدهم فيما ذهبوا اليه ، ويقرر بأن العبقرية منحة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة ، ولا يوجدها تفكير . جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« إن الالهام العبقري لا يأتي من طريق التحريض ولا بالإرادة ، ولا باطالة الروية » .
وجاء فيها : « إن كل ابتكار في يصحبه عنصر (موهوب) من الطبيعة نفسها . وهذا العنصر لا يستطيع الانسان أن يوجده بجهوده الذاتية » .

وقال الفيلسوف الكبير (تين) : « Taine »

« العبقرية هبة لا تستطيع أن توجدها أية دراسة ولا أية مثابرة ، فإذا عدمت هذه الهبة استحال العاملون الى مقلدين وعملة » الى أن قال : « فإن تحط هذا العامل الخفي بالأسماء الجميلة فتسمه وحيا أو تدّعه عبقرية كنت محسنا ومصيبا فيما تفعل » .

وقال الفيلسوف الألماني (هيجل) في كتابه (علم الجمال) :

« أعمال العبقرية تحدث بذاتها من طريق الالهام المفاجئ ، فالعمل العبقري لا يتحصل عليه بالتعلم ولا يقبل التوريث ، فهو هبة من العبقرية وكفى » .

وقال الأستاذ الكبير الدكتور (بييرجانيه) المدرس بجامعة السوربون :

« العبقرية قبل كل شيء إلهامات ، وأعني بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطني ولا الذات نفسها أن تدعي أنها تملكها ، فهي تحدث على غير علم منا بها ، ولا تستطيع إرادتنا أن توجدها » .

هذا ويشهد العلم بأن العبقرية أمر خارق للعادة . جاء في دائرة المعارف الانجليزية الكبرى (بريتانيكا) في الطبعة الأخيرة لسنة ١٩٢٩ قولها :

« العبقرية شيء خارق للعادة على وجه الاطلاق ، وأرقى حتى من القوة العلمية الفائقة » .
الى أن قالت : « وهي موهبة فذة لا تقبل التفسير محصورة في كلمة العبقرية » .

وقرر العلم أيضا أنها مما لا يمكن تعليله بالقوانين الأدبية المعروفة ، فقالت دائرة معارف لاروس للقرن العشرين : « إن جميع النظريات تخيب وتفشل إن أريد فهم حقيقة العبقرية » . وقالت : « العبقرية لا يمكن أن تعلل بقوانين » .

وأثبت العلم أيضا أن العبقرية غير إرادية ، جاء فى المعجم العصرى للغة والعلم المطبوع بنيويورك قول الأستاذ (هازات) :

« تختلف الألمعية عن العبقرية كما تختلف المقدرة الارادية عن المقدرة غير الارادية » .

ونص العلم كذلك على أن الإنسان يملك الألمعية ولـكنه لا يستطيع أن يملك العبقرية ، فهى التى تملكه وتسخره فيما تريد إظهاره بوساطته ، جاء فى المعجم العلمى المتقدم ذكره بقلم الأستاذ (لوويل) :

« الرجل الألمعى يكون مالـكا للألمعية كما يملك الـكثير من الأدوات ويستخدمها فى تأدية ما يريد صنعه ، ولها حد تقف عنده ، ولـكن الرجل العبقرى يكون مملوكا للعبقرية ، وهى تحوله الى كتاب أو الى حياة على ما يشاء هواها » .

نقول : إن مذهب العلم فى العبقرية ، وحيرته فى تعليلها ، وتصريحه بأنها خارقة للعادة ، وأنها مما لا يعلل بالنظريات ، ولا يمكن التحصل عليها بالدراسة ولا بالتفكير ، وأنها تملك صاحبها وتسخره لأغراضها ، كل هذا يعتبر اعترافا صريحا بأن أرقى مظهر للإبداع الأدبى والمادى يعطاه الإنسان من غير طريق العقل ومنافذ الحواس الجثمانية ، ولا يمكن الحصول عليه بالوسائل العلمية والعملية المعروفة .

ويجب أن يضاف الى هـذا ما شاهده العلم نفسه من الخوارق للعادة فى المجالات العقلية والنفسية ، فان ذلك يساعدنا على تذليل العقبات التى تقف فى سبيل التدليل على وجود مرتبة النبوة ، وتقرب الى عقولنا إمكان الوحى .

للاستاذ العلامة البسيكولوجى الانجليزى (ميرس) (Myers) مدرس علم النفس بجامعة كامبردج كتاب كبير أسماه (الشخصية الانسانية) (Human Personality) ، ترجم الى الفرنسية وغيرها ، نقتطف منه بعض ما أورده ، فان فيه مايدل على وجود خصائص نفسية عند بعض الناس تكشف عن حقائق خطيرة ، لا يجوز لمن يعالج مسألة النبوة والوحى جهلها .

قال الأستاذ (ميرس) : « كان المستر بيدلر خاصة تـكاد تلتحق بالمعجزات ، فانه كان يعيِّن على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عددا مؤلفا من سبعة أو ثمانية أرقام . فاذا سئل مثلا : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدهما فى الآخر أنتج العدد ١٧٨٦١ ؟ أجابك

على الفور بأنهما ٣٣٧ و ٥٣ ، وهو يقول إنه لا يدرى على أية حال يأتى بهذا الجواب ، فكانت الاجابة عنده كأنها غريزة طبيعية »

وقال الأستاذ ميرس : « كان المستر (فان دوتيكا) وهو فى السادسة من عمره خاصة فى الحساب العقلى ممتازة زالت بعد سنتين ، ولم يكن يدرى على أى أسلوب تسير فى نفسه هذه الأعمال الحسابية » .

وقال : « كان (بوكستود) يحل مسائله وهو يتكلم حرا فيما يريد الكلام فيه ، مما هو خارج عن الحساب الذى ألقى اليه »

ونقل عن العالم البسيكولوجى والشاعر الكبير (سوللى برودوم) الفرنسى أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كنت أجد فجأة برهان نظرية هندسية ألقيت الى منذ سنة وذلك بدون أن أعيرها أقل التفات »

وقال نقلا عن العلامة الرياضى المشهور (أراغو) : « اعتـدت أنى بدل أن أجهد نفسى فى فهم مسألة فى الجلسة التى ألقيت الى فيها ، كنت أسلم موقتا بأنها صحيحة ، فاذا جاء اليوم التالى دهشت من فهمى كل الفهم ما كان قد ظهر لى معضلا فى اليوم السابق »

وقال نقلا عن الفيلسوف الكبير (كوندياك) : « إنه كان غالبا يجد أن عملا لم يتم بالأمس قد تم اليوم فى عقله بدون جهد منه » .

وقال : « إن المسيو رينه الشاعر ذكر للدكتور (شابانيكس) بأنه ينام غالبا وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة » .

وقال راويا ما قاله الموسيقى (فنسان دندى) المشهور عن نفسه : « بأنه يرى غالبا وهو فى حالة اليقظة التامة خاطرا سريعا لموضوع موسيقى ، فيحاول بجهد عظيم من العقل أن يضبطه ، كما يفعل الانسان إذا أراد أن يتذكر مناما »

قال الأستاذ ميرس : « وقد كتب الشاعر المشهور (موسيه) الفرنسى عن نفسه يقول : « أنا لا أعمل شيئا ، ولكن أسمع ما يلقى الىّ فأنقله ، فكان إنسانا مجهولا يناجينى فى أذنى » .

ونقل ميرس أيضا عن الوزير الشاعر الكبير (لامارتين) قوله : « لست أنا الذى يفكر ، ولكن هى أفكارى التى تفكر لى » . يريد أنه لادخل لعقله الواعى فى الشعر الذى يعمله .

قال : « وكان (سانت سانس) مثل سقراط يسمع ما تلقيه الروح الملازمة له اليه »

قال : « وقد ذكر المسيو (دوكوريل) وهو القصصى الفرنسى المشهور الى الأستاذ (بينيه) بأن أشخاص أقاصيصه بعد أن تظهر فى عقله بعد جهد منه عظيم ، تصير مستقلة عنه فتتكلم ضد إرادته ، وعلى الرغم من التفاته اليها ، وتتوالى أمامه عند ذلك أدوار قصته بدون

جهد يبذله ولا حركة إرادة ، ولا يكون عليه إلا كتابة أقوال تلك الشخصيات وجمع ما يرى . وإذا حدث أن انقطع عن النظر الى تلك الشخصيات لسبب كعمل آخر أو نوم ، استيقظ فوجد روايته تامة في عقله ، وكان إذا تشاغل عن النظر الى الرواية التي تمثل أمامه سمع بأذنيه حديث الشخصيات .

ونقل الأستاذ (ميرس) ما كتبه القصصي الانجليزي المشهور (وردستورث) في كتابه (الفاتحة أو تطور عقل شاعر) قال :

« أشعر بضباب باطني يتحول الى إعصار ، فاشهد أن قوة بالغة الحد تخترع القطعة وتميل بها هكذا وهكذا الى كل جهة . هذه القوة الهائلة تنبع من صميم روحي على هيئة البخار الكثيف الذي يغطي السائح المنفرد فجأة . فأشعر إذ ذاك بأني هلكت ، فأقف ولا أستطيع أن آتي بأقل جهد يخلصني مما أنا فيه » .

هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (ه . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطني في الانسان له اتصالات روحانية في عالم فوق هذا العالم ، لا يشعر به الانسان العادي ، ولكن يشعر به بعض ذوي الاستعداد لذلك الشعور ، وقد أثبت أنهم من كبار العلماء وأجلاء الفنانين ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أنقله أن النبوة عبقرية ، وهي من نوع الخوارق التي سردناها هنا ، ولكننا سقنا ما سقناه للتدليل على أمرين عظيمين :

(أولهما) وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادي والحواس كما تدل عليه حياة الحيوان بجماعاتها وتفصيلها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التي لم يهد اليها عقل ، ولم يحم حولها فكر ، على حال خارقة للعادة .

(ثانيهما) وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الانسان بعلم ، وتسعفه بهداية ، من غير طريق العقل العادي ، ولا من منافذ الحواس الخمس ، تقريبا للوحي من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه الى حد أن كذبوا بالنبوات وهي أعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الانساني ، وقد ابتنت عليها أكبر الأحداث التي غيرت مجرى الشئون العالمية في جميع الأدوار الانقلابية . وليس مما يعقل أو يناسب كرامة النوع البشري أن تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الأثر في حياته ، قد قامت على أكاذيب متعمدة ، أو أوهام فكرية .

ومن العبث المحض أن يثبت الباحث الطبيعي إلهاما تبعثه القدرة الالهية في أحقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشري ، وهو في أشد الحاجة اليه في أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفي أثناء تطوراته في أدوار تلك الحياة المتعاقبة .

وإننى أظن بأنى بما أثبته هنا قد قربت للعقول حدوث الوحى لمن صرحوا للناس بأنهم أنبياء أو مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا اليه وحذروا منه .

وليس هذا كل ما نستطيع أن نقدمه للعقلية العصرية من المقررات العلمية المقربة للوحى من العقول ، فان لدنيا مقررات علمية أخرى نرجو أن ندلى بها فى العدد المقبل إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

حفظ اللسان من الخطل

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تكلم بخير وإلا فاسكت »

وقال حكيم كلام الرجل بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصره على الجميل ، واقتصر منه على القليل ، وإياك وما يسخط سلطانك ، ويوحش إخوانك ، فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية ، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية .

وقال شاعر :

يدل على جهل الفتى فضل نطقه ونطق أخى العقل الرصين قليل
وإن لسان المرء مالم يكن له حصاة على عوراته لذليل

قال حكيم :

رب كلمة جلبت مقدورا ، وخربت دورا ، وعمرت قبورا .

وقال شاعر :

احفظ لسانك واحتفظ من شره إن اللسان هو العدو الكاشح
وزن الكلام إذا نطقت بمجلس فبه يلوح لك الصواب اللائح

وقال غيره :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

وقال آخر :

وزن الكلام إذا نطقت فانما يبدى الرجال من الستور المنطق

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الانسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه كانت تخاف لسانه الأقران



سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » :

سبق لك فى تفسير الصمد آراء كثيرة ، ومنها أنه هو الذى لا جوف له ، ومنها أنه الذى لا يخرج منه شيء ، ومنها أنه الذى لم يلد ولم يولد ، فعلى هـذا يـكون قوله : « لم يلد ولم يولد » لازما لـكونه صمدا ، أو تفسيرا له . وعلى كل حال فمعلوم أن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يقتضى التركيب المنافى للصمدية والأحدية الحقيقية ، على ما سبق بيانه ، لأن الولد من جنس أبيه ، والأحد لا يجانسه أحد .

أما نفى المولودية عنه تعالى فواضح جدا ، لاقتضائها أنه مادى منفصل عن غيره ، ولا شك أن هذا يقتضى التركيب ، والتجزى ، وسبق العدم ، والمجانسة المستحيلة على واجب الوجود .

وقدم نفى الولادة على نفى المولودية ، لأن فريقا كبيرا من البشر توهموا أن له ولدا . وكأنه سبحانه يريد أن يسوى بينهما فيقول : إن نفى الوالدية ونفى المولودية متساويان لدى العقل الصحيح ، واستحالتهما عليه أظهر من الشمس وأوضح من الحس .

ولا يمكننا أن نعقل ما يقوله المسيحيون فى هذا المقام من أن هناك ثلاثة هى : الأب ، والابن ، وروح القدس ، وهى جواهر ثلاثة يستقل كل واحد منها عن أخويه ، ومع ذلك فهى إله واحد ، كما يقول قائلهم فى المسيح عليه السلام :

فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة هى واحـد لم تقسم

ولا ندرى كيف تـكون الثلاثة واحدا والواحـد ثلاثا ! وإن قلنا تبعا لما تفيده بعض عباراتهم : إن الابن وروح القدس صفتان للأب وهما عبارة عن العلم والحياة ، عجزنا عن فهم كون الصفة إلها ، ولم يمكننا أن نفهم الاستقلال الذى يزعمونه . ومع هذا وأضعافه وأضعاف أضعافه يقولون : كل ذلك مما يجب الإيمان به ولو كان فوق طور العقل . وليت شعرى كيف

يؤمن الإنسان بما يعتقد استحالته ، والديانات يصح أن تجيء بما لا يفهم العقل كنهه وحقيقته أو يجهل تفصيله ، ولكنها لا تجيء بما تحيله العقول وتعتقد عدم إمكانه ! « فإن كنت ترى فيها شيئا من المحارات ، فلست ترى فيها شيئا من المحالات » . وليس الأمر عندهم قاصرا على هذا ، فكم لهم من أشياء غير معقولة ولا مقبولة ، مثل قولهم : « إن المسيح أطعم يوما الحواريين خبزا وسقاهم خمرا ثم قال لهم : أكلتم لحمي وشربتم دمي فاتحدتم معي وأنا متحد مع الأب » . والى الآن يعمل القسيس مثل هذا العمل ويسميه « العشاء الرباني ! » . والقوم يعتقدون أنه دم المسيح ولحمه .

وإن شئت فانظر الى رنات أخرى لا تقل غرابة عما سمعت ، وذلك مثل قولهم : « إن الله غضب على آدم وذريته من أجل ثمرة أخذها من الشجرة أشد الغضب ، وإنه يلحق بهم كل هوان وعذاب في الآخرة من أجل تلك الثمرة التي تناولها من الشجرة ، ثم سعى إليه أو الى ابنه الساعون من اليهود بالقتل (وهي جريمة فوق الأكل من الشجرة مليون مرة) غفر لهم ما تقدم من ذنبهم ورضي عنهم » . وليت شعري كيف ذهب عند القتل ما يجب للإله من القوة القاهرة والجبروت والبطش الشديد ؟ ! هذا لعمري من منطق المجانين الذين لا يفقهون ما يقولون !

ومما يذكر في هذا المقام أن بعض المسلمين قال لبعض القسوس : إن بعض الناس أخبرني أن رئيس الملائكة قد مات ، فقال له القسيس : إن ذلك كذب لأن الملائكة خالدون لا يموتون ، فقال له المسلم : وكيف وأنت تقول الآن في وعظك : إن الإله قد مات على خشبة الصليب ، فكيف يموت الإله وتخلد الملائكة ؟ ! فبهت القسيس ولم يحر جوابا .

ولا نزال نقول : إذا كان الإله يقتل على خشبة الصليب فلمن تكون القوة والجبروت ؟ ومن هو ذلك القاهر فوق عباده الذي بيده أرواح اليهود وغير اليهود ، ومن يحيي ويميت ، ومن يجيب المضطر إذا دعاه ، ومن ينشئ السحاب الثقال ، وتندك من هيبته الجبال كما اندك جبل موسى عند تجليه تعالى له كما في التوراة التي بين أيديهم ؟ ! فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

ولله در القائل :

عجبا للمسيح بين النصارى ... والى الله والداً نسبوه
أسلموه الى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه
فلئن كان ما يقولون حقا ... فسلوهم فأين كان أبوه
فاذا كان راضيا بأذاهم ... فاشكروهم لأجل ما صنعوه
وإذا كان ساخطا غير راض ... فاعبدوهم لأنهم غلبوه

ثم نقول : إذا حلت ذات الإله في المسيح أفلا تكون معها الصفات ؟ وهل يمكن أن تفارق الصفات الذات الموصوفة بها ؟ وإذاً فما معنى أقنوم العلم وأقنوم الحياة ؟ وما معنى حلول

مستقلين ؟ وليت شعرى لماذا خصوا العلم والحياة ؟ أليست الصفات كلها يجب أن تكون مع موصوفها ، أم الملازم له المنتقل الى المسيح إنما هو العلم والحياة فقط ، وأما بقية الصفات فلم تنتقل اليه ؟ ولا أدرى كيف بقيت بعد انتقال الذات والعلم والحياة ؟ وهل قامت بنفسها فتكون صفات بلا موصوف ، أو قامت بذات أخرى غير الذات المقدسة ؟ وما أدرى كيف تسيغ عقولهم أن الصفة تقوم بنفسها كالجواهر مع فرضها صفة ؟ (هذا خلف !) فالصفة صفة والجوهر جوهر لدى كل إنسان عنده مسكة من العقل .

ولعمر العقل والرشد إننا لو لم نبصرهم باعيننا ونسمعهم بآذاننا لم نصدق أن من العقلاء من يعتقد تلك العقيدة التى يردها الأطفال ، ولا يساعدها إلا الخيال أو الخبال ! ولو تجرد المبشرون من التعصب وتبرءوا من التقليد الذى صار حجابا على عقولهم ، لخجلوا غاية الخجل من معتقدهم الذى لا يكاد يتصور ، فضلا عن أن يصدق به أو يقام عليه البرهان . وكثيرا ما رده أطفال المسلمين فى مدارسهم عند ما رأوه يناقض الفطرة وينافى الضرورة . وقد أخبرنى بعض أصحابى أن بنته كانت ببعض المدارس الأمريكانية فقيل لها : إن الإله يسوع المسيح قد أخذه اليهود وصلبوه وألبسوه تاجا من الشوك وصاروا يبصقون فى وجهه ، الى آخره الى آخره ، فقالت عند ما سمعت ذلك على البديهة : إن إلهنا يميت الناس ، وإلهكم تقتله اليهود ويبصقون فى وجهه ! ولله در البوصيرى حيث يقول فى لاميته :

جاء المسيح من الإله رسولا	فابى أقل العالمين عقولا
أسمعتم أن الإله لحاجة	يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذى لم يستطع	صرفا له عنه ولا تحويلا
ياليت شعرى حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه	وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قول منزه لإلهه	سبحان قاتل نفسه فأقولا
أو جل من جعل اليهود بزعمكم	شوك القتاد لرأسه إكليلا
ومضى لحبل صليبه مستسلما	للموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا	لا يهتدون الى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهتدوا	لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر	وأضلهم رأوا القبيح جميلا

ولوشئنا لأطلنا ، فليعلم المبشرون ذلك ، وليكفوا عن إرسال الرسائل إلينا . وإذا نظرت فيها لم تجد إلا السفاهة والجهالة . وكنا نود أن ينصفوا من أنفسهم ، وينظروا بعقولهم الى

مايقولون ، ولا يغشوا الناس بتلك الترهات وهاتيك الخرافات . وعار والله على أبناء القرن العشرين الذين يزعمون حرية التفكير أن يعتنقوا دينا وضعه رهبان الكنائس ، كي يستعبدوا به البشر ، ويذلوا به النفوس لسلطانهم الذى امتد الى الجنة والنار ، حتى صاروا يبيعونهما لمن شاءوا بما شاءوا (ولا غرو فبيدهم غفران الذنوب وزمام القلوب) ! « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » .

ولا بأس أن نذكر هنا ما جاء فى بعض المجلات ، وهذه عبارة المجلة : « قبل الحرب الكبرى كان موسولينى يعد كتابا عن « جون هوس » المفكر البوهيمى المعروف الذى أحرقه رجال الكنيسة عقابا له على ما أذاع من آراء اعتبرت إذ ذاك إلحادا وخروجا على الدين ، فقال فى مقدمته : « وإننى لأرجو وأنا أتقدم بهذا الكتاب الى جمهور القارئين أن أثير فى نفوسهم كل عواطف الكراهية والاحتقار للاستبداد والمستبدين ... »

ويقول اللورد هدلى : « عجبا للأوربيين يبحثون عن أحسن المآكل والمشارب والملابس والمساكن ولا يبحثون عن أحسن الأديان » ! وكم للإسلام من شهادات عالية من كبار فلاسفة أوربا وأمريكا . ونلفت نظر إخواننا المسيحيين الى ما كتبه « جوستاف لوبون » الفرنسى ، ودرابر الأمريكى ، وتوماس كرليل الإنكليزى ، وغيرهم . وفى اعتقادى أنهم لو قرءوا ذلك بإمعان ، أو قارنوا بين الاسلام والنصرانية بتبصر وإنصاف ، لاعتنقوا الاسلام فرحين مستبشرين ، ولأصبح الدين كله لله ، ولأمسى الناس كلهم عبيد الله لا عبيد المسيح ولا خلفائه الكاذبين من الأحبار والرهبان .

نقول هذا نصيحة لإخواننا فى الانسانية ، وإخلاصا لهم ، وحبا لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وليعلموا أنهم مسئولون ومحاسبون ، وأن العالم لم يخلق سدى ولم يترك هملا « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أسأل الله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ، والباطل باطلا وأن يرزقنا اجتنابه ، حتى نكون من عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء



الربا

– ٢ –

« لَعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم آكلَ الربا ، وموكلَه ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » :

موضوع مقالنا هذا هو تكملة الكلام فى الربا ، ويشتمل على :

(١) بيان حكمة تحريم ربا الفضل . (٢) بيان كل نوع من الأنواع التى ذكرت فى حديث « لا تبيعوا الذهب بالذهب والفضة بالفضة الخ إلا مثلا بمثل يدا بيد » وبيان ما يحل وما لا يحل من هذه الأنواع . (٣) بيان خطأ منكرى الأحاديث الصحيحة وهم جاهلون بمعانيها . والى القراء البيان :

(١) قد ذكرنا فى مقالنا السابق معنى ربا الفضل ، وقلنا : إن النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التبادل فى ستة أنواع ، وهى : الذهب ، الفضة ، القمح ، الشعير ، التمر ، الملح . فلا يجوز لأحد أن يستبدل نوعا من هذه الأنواع بمثله مع زيادة يأخذها أحد المتبادلين .

أما حكمة تحريم هذا النوع من المعاملة فقد ذكرها صاحب أعلام الموقعين ، فقال : إن تحريمه من باب سد الذرائع كما صرح به فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فإنى أخاف عليكم الرما » . والرما : هو الربا . فهذا الحديث صريح فى بيان حكمة تحريم ربا الفضل ، وهى الخوف من أن يجر الى ربا النسيئة ، ويوقع الناس فيه وهم غافلون . وذلك لأنك قد عرفت مما ذكرناه لك فى المقال السابق أن ربا الفضل ليس له كبير الأثر فى العالم ، لأنه عبارة عن مبادلة عين بعين ، وهذه المبادلة لا يخلو حالها : إما أن تكون لمعنى زائد فى أحد البدلين ، كأن يبيعه جنيها مضروبا فى الزمن الماضى بجنيه مثله مضروب فى هذا الزمن ، حبا فى اقتناء الأثر القديم ، أو يبيعه قطعة من الذهب بمثلها فى الوزن بزيادة يأخذها البائع أو المشترى ، لما فى إحدى القطعتين من نقش طبيعى ، أما النقش الصناعى فسيأتى أنه يجوز أخذ الزيادة عليه عند بعض الأئمة . وإما أن يكون أحد البدلين مساويا

للآخر من جميع الوجوه ، كأن يبيعه جنيها مصريا بجنيه مصرى مثله فى الوزن والقيمة والصناعة والزمن مع زيادة يدفعها البائع أو المشترى ، وهذه الحالة لا تصدر إلا من رجل غير أهل للتصرف . ولا يخفى أن هذا النوع من المعاملة نادر الوقوع بين الناس فى الحالتين ، بل قد لا تدعو اليه ضرورة ما إلا عند الغواة المولعين بالخيال ، وهؤلاء لا يقام لهم وزن . فلذا حرمت الشريعة الاسلامية هذا النوع من المعاملة كى لا يكون للمحتالين سبيل الى سلب أموال ضعاف العقول بالباطل من جهة ، وسداً لباب أخذ زيادة من أحد المتبايعين بدون مقابل . وذلك لأن بعض الغواة قد تزين له شهوته ملك سلعة من السلع ويأبى مالكها أن يبيعها ، فيضطر الآخر الى استبدالها بمثلها مع تاجيل دفع البدل فى نظير زيادة خمسة جنيهات مثلا ، وذلك هو ربا النسيئة بعينه ، لأنه قد أجل قبض البدل فى نظير الزيادة . ومن هذا يتضح أن ربا الفضل قد جر الى ربا النسيئة .

ومع هذا فقد نص الحديث على أن القمح والشعير ، من الأصناف التى يقع فيها ربا الفضل ، فإذا أبيح للناس أن يستبدلوا القمح بالقمح مع زيادة كأن يستبدل كيلة من القمح بكيلة ونصف من قمح مثله ، فإن ذلك يجر الى احتكار الصنف وقلته فى الأسواق ، لأن كل واحد يطمع فى الزيادة فيدخر ما بيده ، وفى ذلك من الضرر على العامة ما لا يخفى . ومع هذا كله فإنك قد عرفت أن ذلك من باب الاحتياط . فالتشريع هاهنا مقصور على ما عساه أن يقع ، سواء كان قليلا أو كثيرا . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الربا فى النسيئة » . ومعنى هذا ظاهر ، وهو أن الربا الذى قد يكثر وقوعه بين الناس وتترتب عليه الآثار الضارة التى ذكرناها ، هو ربا النسيئة . قال صاحب أعلام الموقعين فى بيان معنى هذا الحديث مانصه : « إن مثل هذا يراد به حصر الكمال ، بمعنى أن الربا الكامل إنما هو فى النسيئة ، كما قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون » الى قوله : « أولئك هم المؤمنون حقا » ، وكقول ابن مسعود : « إنما العالم الذى يخشى الله » . وهذا وجيه لأن الحصر للكمال معروف فى اللغة .

وبذلك تعلم أن الكاتب الأندنوسى لم يفهم معنى ربا الفضل أصلا ، ولم يفهم معنى حديث : « إنما الربا فى النسيئة » ولا الغرض منه مطلقا ، لأنه على فرض أن الحصر فى هذا الحديث حقيقى ، وأن ربا الفضل جائز ، فماذا يترتب عليه من الفائدة ؟ ومن هم الذين يحتاجون الى ربا الفضل ؟ وما هى المعاملات التى تتوقف عليه ؟ ألا يخجل من قوله : لماذا لم يرد العلماء الأحاديث المناقضة لحديث إنما الربا فى النسيئة مع موافقته للعقل دونها ؟ ! اللهم فقه المسلمين فى دينهم ، وعلمهم الأدب فيما يقولون ويكتبون ، إنك سميع الدعاء !

(٢) أما الكلام فى الأنواع التى تصح مبادلة بعضها ببعض مع زيادة ، والتى لا تصح ، فاليك بيانه :

قد عرفت أن الحديث الصحيح نهى عن المبادلة مع زيادة فى الأنواع الستة ، وأن بعض المجتهدين قصر النهى عليها ، فيجوز التبادل فى غيرها من السلع بزيادة وغير زيادة ، وبعضهم قاس على هذه الأنواع غيرها ، فلنبين للقراء معنى النهى فى كل نوع من هذه الأنوع ، ثم نذكر لهم ما لا تصح فيه المبادلة مع زيادة وما تصح :

فأول هذه الأنواع : الذهب والفضة . وجمهور الأئمة على أنه لا يصح لشخص أن يستبدل قطعة من الذهب أو الفضة بمثلها إلا إذا تساوت القطعتان فى القيمة والوزن ، بدون زيادة ما ، وبشرط أن يقبض كل من المتبادلين مايخصه فى المجلس ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون القطعتان مضروبتين كالجنيه والريال ونحوهما من العملة المأخوذة من الذهب والفضة كما ذكرنا ، أو تكونا مصوغتين كالأسورة والخلخال والقرط (الحلق) والقلادة (الكردان) ونحو ذلك ، أو تكون إحداهما مصوغة والأخرى غير مصوغة . ومعنى هذا أن الصياغة لا قيمة لها فى المبادلة . ولكن بعض المجتهدين يرى أن الصياغة المباحة ينبغى أن يكون لها قيمة ، فإذا صنع الصائغ قلادة من ذهب زنتها عشرون جنيها ، فإنه يصح شراؤها بخمسة وعشرين جنيها مثلا ، وتجعل الزيادة فى نظير الصياغة ، إذ ليس من المعقول أن يبيعها بزنتها فقط بدون أن يكون لصناعته قيمة .

نعم إذا كانت الصياغة محرمة فى نظر الشريعة الإسلامية : كصياغة التماثيل المحرمة ، وآلات اللهو ، فإنها لا يكون لها قيمة فى نظر الشريعة . وعلى هذا فلا يحل شراء مصوغ محرم مطلقا فضلا عن شرائه بزيادة ما ، فان فعل الحرام لا ثمن له .

ومثل الصياغة المحرمة النقش الطبيعى ، فإذا وجد شخص قطعة من الحلى عليها نقوش طبيعية وأراد استبدالها بقطعة مثلها لا نقش عليها ، فإنه لا يجوز أن يدفع زيادة فى مقابل ذلك النقش الطبيعى . وقد يقال : إن النقش الطبيعى قد تكون له قيمة أغلى من النقش الصناعى كما هو الحال فى الآثار . والجواب : أن عشاق النقوش الطبيعية يمكنهم تقويم كل من السلعتين بالثمن المناسب وشراؤها على أن يكون الثمن فضة إذا كانت العين ذهبا ، وبالعكس . على أن الحنابلة يقولون : إن الأوراق المالية ليست معتبرة من النقدين : الذهب والفضة . وهذا الرأى حسن ، وفيه سعة على الناس ، لأن الصناع الذين يبذلون مجهودا فى صنع الحلى لا ينبغى أن يحرموا من أجورهم على عملهم ، وليس من العدل والإنصاف أن يقال لهم : إن مجهودكم قد ذهب أدراج الرياح . قال فى أعلام الموقعين : « فالمصوغ والحلية إن كانت صياغته محرمة حرم بيعه بجنسه وبغير جنسه ، وأما إن كانت الصياغة مباحة كخاتم الفضة وحلية النساء وما أبيع من حلية السلاح وغيرها ، فالعاقل لا يبيع هذه بوزنها من جنسها ، فإنه سفه وإضاعة للصنعة ، والشارع أحكم من أن يلزم الأمة بذلك ، فالشريعة لا تأتى به ، ولا تأتى بالمنع من

بيع ذلك وشرائه لحاجة الناس إليه الخ » . وهـذا هو الذى ينبغى التعويل عليه فى زماننا ، إذ ليس من قواعد الدين تحريم صناعة الصياغة ، أو النهى عن استعمال المصوغ ، فالصائغ قد احترف بحرفة تقرها الشريعة ، والصياغة عمل دقيق قد يستلزم مجهودا عظيما ، فمن العدل والحق أن لا يقال للصائغ : قد ضاعت عليك صناعتك ولا قيمة لها ؛ ومن الحرج أن يقال له : يجب أن تبيعها بغير جنسها من القمح أو الشعير ، لأن هـذا قد يتعذر ، فالحلية المصوغة صارت بالصنعة المباحة من جنس الثياب والسلع لا من جنس الأثمان ، فليس فيها مبادلة ثمن بثمن ، وإنما فيها مبادلة سلعة بثمن . ذلك هو الذى ينبغى التعويل عليه .

بقى ها هنا شىء آخر ، وهو أن يقال : قد فهمنا مما تقـدم تحريم ربا الفضل وتحريم ربا النسيئة فى الذهب والفضة ، ولـكن نحن فى زمن مادى غلبت فيه المادة على الأثرياء الذين يمتلـكون المال ، ولم نجد منهم أحدا تسمح نفسه بإخراج زكاة ماله ، أو ترضى أن تقرض العامل المضطر بدون فائدة ، فماذا يصنع العمال الذين لا يجدون قوتهم ولا يملـكون رأس مال يستعملونه فى بيع أو شراء ؟

والجواب عن هذا : أن فى المذاهب لأمثال هؤلاء سعة ، فقد اتفق الشافعية والحنابلة على أن القروش المأخوذة من معادن غـير الذهب والفضة : كالنيكل ، والبرنز ، والنحاس ، ويسمونها فلوسا ، لا يقع فيها الربا . وعلى هذا يجوز للشخص أن يشترى مائة قرش من العملة المصرية الصاغ بمائتين وخمسين قرشا من القروش التعريفة مثلا ، يدفعها بعد شهر أو أكثر أو أقل . وفى هذا سعة للباعة والعمال الذين لا يجدون من يقرضهم إلا بمثل هذا . على أن المالـكية يقولون : إن النقود المتخذة من النحاس أو النيكل أو البرنز كعروض التجارة تماما ، فيجوز شراؤها بالذهب والفضة مع زيادة أو نقص الى أجـل ، فلو فرض واحتاج عامل من العمال الى عشرة جنيهات ولم يجـد من يقرضه إياها إلا بفائدة ، فله أن يشترى من شـخص قروشا صاغا (ألف قرش) ويدفعها له أحـد عشر جنيها أو أكثر إن وجد الجنيه ، فان لم يوجد يقوم مقامه (ورق البنكنوت) . ولا يخفى ما فى ذلك من السعة . والحنفية يوافقون على شراء القروش الصاغ بقروش من التعريفة أكثر منها لأجل ، إلا أنهم يشترطون أن يقبض القروش الصاغ فى المجلس .

وحاصل ذلك : أن الأئمة الأربعـة اتفقوا على أن النيكل والبرنز والنحاس لا يدخل فيها الربا ، فتباع وتشرى كما يباع غيرها من السلع . فمن ابتلى من المسلمين بالحاجة الى القرض بفائدة فليكن فى هذه الأصناف . ومن هذا تعلم أن النحاس والحديد والرصاص ونحوها من المعادن لا يدخلها ربا أصلا .

الثالث والرابع من الأنواع الواردة فى الحديث : القمح والشعير ، فلا يحل لشخص أن . . .

أردبا من القمح بأردب وكيلة من قمح مثله ، وإنما يحل فقط أن يستبدل أردبا بأردب بدون زيادة ولا نقص ، بشرط أن يقبض كل منهما حقه فى المجلس . أما غير القمح والشعير كالذرة والأرز والفول والحمص والترمس والدخن المعروف وحب البرسيم والحلبة والجلبان والبسلة وغير ذلك من أصناف الحبوب التى تباع بالكيل ، فقد اختلف فيها الأئمة المجتهدون ، فنهم من قال : إنها لايقع فيها الربا أصلا ، فيصح بيعها بجنسها وبغير جنسها من الأصناف المذكورة ، مع زيادة وتأجيل القبض . وقد عرفت أن هذا رأى لبعض أئمة الحنابلة والظاهرية . أما المذاهب الأربعة المعروفة فقد اتفقوا على أن جميع الأصناف المذكورة يدخلها ربا الفضل ، فلا يجوز استبدال جنس منها ببعضه مع زيادة ما ، إلا البرسيم ، فقد قال الشافعية والمالكية : إنه لا يدخله ربا الفضل ، وذلك لأن علة التحريم فى ربا الفضل عند الشافعية هى كونه طعاما للآدمى غالبا ، وحب البرسيم ليس طعاما للآدمى ، وعلة التحريم عند المالكية هى كونه صالحا للقوت والادخار ، والبرسيم ليس كذلك . فهذه الأشياء لا يصح بيع جنس منها ببعضه إلا مثلا بمثل بدون زيادة ولا تأجيل ، ويصح أن يستبدل جنسا منها بجنس آخر مع زيادة ، بشرط التقابض فى المجلس ، وذلك كأن يستبدل أردبا من القمح بأردبين مع الشعير ، أو أردب ونصف من الفول بذلك الشرط ، إلا عند المالكية ، فانهم يقولون : إن الشعير والقمح جنس واحد ، فلا يصح أن يستبدل أردبا من القمح بأردب وكيلة من الشعير لأن منفعتهما واحدة عندهم . ولكن الظاهر يؤيد الأئمة المخالفين . على أن بعض المالكية يوافق الأئمة الذين قالوا إنهما جنسان مختلفان . ثم إن المالكية قالوا : إن الحلبة لايدخلها ربا الفضل أصلا سواء كانت يابسة أو خضراء ، بل قال بعضهم : لا يدخلها ربا النسيئة أيضا لأنها من باب الأدوية لا من باب الأطعمة . وقد اتفقوا على أن الدقيق المأخوذ من كل جنس من هذه الأجناس هو كغلته ، فلا يصح استبدال أردب من الدقيق المأخوذ من القمح بأردب وكيلة من دقيق مأخوذ من القمح ، ولا عبرة باختلاف النوع فى الجودة والرداءة . ويجوز استبدال الدقيق المأخوذ من القمح بدقيق مأخوذ من الشعير مع زيادة ، بشرط التقابض فى المجلس .

وهل يصح استبدال الدقيق بالحب المأخوذ منه : كأن يستبدل أردبا مطحونا بأردب غير مطحون ؟

والجواب : أن بعض الأئمة يقولون : إنه يصح لأن الطحن لا يخرج الشيء عن جنسه ؛ وبعضهم يقول : إنه لا يصح لأن المماثلة فى الدقيق متعذرة . والأمر فى ذلك سهل . ويصح بيع الدقيق والحنطة بالخبز ، فإذا أعطى شخص أردبا من القمح لأحد الخبازين على أن يأخذ منه مائة وخمسين أقة من الخبز ، فإنه يصح ، وذلك لأن الخبز أصبح جنسا مغايرا للقمح ، ولا يشترط فيه القبض فى المجلس ، بل يصح أن يأخذ منه كل يوم (أقة) أو (أقتين) .

الخامس من الأنواع الواردة فى الحديث : التمر . فالتمر من الأصناف التى يدخلها الربا بنص الحديث ، فلا يصح استبداله بجنسه إلا مثلا بمثل يدا بيد . ثم إن تمر النخيل جميعه جنس واحد وإن تعددت أصنافه ، لا فرق فى ذلك بين جيده ورديئه ، فالتمر المعروف بالسمان أو الزغلول أو الاسيوطى أو الواحى أو المغربى كلها واحـد ، فلا يجوز استبدال بعضها ببعض إلا مثلا بمثل ، فإذا أراد شخص أن يستبدل عشرة أرطال من التمر الزغلول بأحد عشر رطلا من التمر المغربى فانه لا يجوز . وكذلك إذا أراد أن يستبدل عشرة أرطال منه بعشرة من الآخر يدفعها بعد مدّة فانه لا يجوز ، بل لا بد فى استبدال التمر من المماثلة والقبض فى المجلس . ومثل التمر الزبيب فانه جنس واحد ، لا فرق بين الزبيب البناتى وغيره ، فـلا يصح أن يستبدل (أقة) من الزبيب البناتى بأقتين من الزبيب المرزوقى أو أكثر أو أقل ، بل لا بد من أن يستبـدل مثلا بمثل ، وأن يقبض كل منهما ما يخصه . على أن الحنفية يقولون إن التقابض فيما يؤكل ليس معناه الاستلام بالفعل ، بل معناه أن يعين كل منهما البدل بحيث يقول : أعطنى رطلين مثلا من هـذا التمر وخذ بدلهما رطلين من هـذا التمر . وهذا التعيين يكفى وإن لم يستلم كل منهما ما يخصه .

أما غير التمر من الفواكه ، فان كان يباع بالعد كالمنجو والبرتقال والبطيخ والحرش والشمام فانه لا يدخله ربا الفضل عند الحنفية ، فيجوز أن يستبدل البطيخة الواحدة باثنين وهكذا ، سواء قبض أو لم يقبض . أما الفواكه التى تباع بالوزن كالموز والبرقوق فانها يدخلها ربا الفضل ، ويعتبر كل جنس منها على حدة ، فلا يصح أن يستبدل أقة من الموز الجيد مثلا بأقتين من غيره . وبديهى أن هذا مما لا حاجة اليه فى المعاملة ، إذ من الممكن تقويم كل صنف بالسعر المناسب له . على أن المالـكية يقولون : إن الفواكه الرطبة جميعها لا يدخلها ربا الفضل مثل الخضر كالمشمش والموز والخوخ والتفاح والبطيخ والقثاء والليمون والجزر والـكرفس والنارنج وغير ذلك من الفواكه والخضر التى لا يمـكن ادخارها ، فيصح أن يستبدل كل جنس منها ببعضه وبجنس آخر بزيادة ونقص ومماثلة . ولـكنهم يشترطون التقابض فى المجلس ، فـلا يصح أن يستبدل خمس بطيخات بعشر منها يأخذها بعد شهر ، لأنه فى هذه الحالة يكون من ربا النسيئة .

أما الملح فلعل الناس لا يحتاجون الى أن يستبدلوا بعضه ببعض مثلا بمثل يدا بيد . نعم قد يتصور احتياج الناس اليه فى الأسفار ونحوها ، وفى هذه الحالة لا يضن به أحد على صاحبه ، ومع ذلك فهو من الأصناف التى لا يجوز استبدال بعضها ببعض إلا مثلا بمثل يدا بيد .

فهذا بيان موجز لربا الفضل فى الأصناف الواردة فى الحديث ، ذكرناها لما فيها من فوائد نافعة . ومع هـذا فقد عرفت أن بعض الأئمة يقـول : إن ماعدا هـذه الأصناف المذكورة فى الحديث لا يدخله ربا الفضل .

أما الذهب والفضة فقد عرفت أن الاتفاق فيما عداهما من حديد ونحاس ورصاص وغير ذلك عام ، فلا ربا فى شىء منها .

وأما الحبوب فربا الفضل مقصور على القمح والشعير ، وما عداهما من ذرة وأرز ودخن وبرسيم وحلبة وغير ذلك من أنواع الحبوب لا يدخلها ربا الفضل على هذا القول .

وأما الفاكهة فربا الفضل لا يدخل فى شىء منها سوى التمر ، وما عداه فانه يجوز استبدال بعضه ببعض مع زيادة ونقص الى أجل ، لأنها غير محل للربا على هذا القول .

وأما الملح فقد عرفت مافيه . وهذا رأى لبعض مجتهدى الحنابلة ، ويجوز العمل به بلا كلام . فمن كانت له حاجة الى استبدال شىء من غير هذه الأشياء المذكورة فى الحديث فله أن يفعل ويقلد هذا الرأى . وقد عرفت أن الحاجة لا تكاد تضطر أحدا الى استبدال جنس من الأجناس المذكورة فى الحديث بشىء من جنسه ، وإذا وجدت فيمكن تقويم السلعتين وشراء كل منهما بالثمن .

هذا وسنتكلم فى مقالنا الآتى على السلم ، وهو نوع من أنواع المعاملة الضرورية ، إن شاء الله

(٣) وبعد : فهل لأخينا الأندنوسى أن يرجع الى ما كتبناه وغيره ، فيفهم معنى ربا الفضل جيدا ، ويعلم معنى ربا النسيئة ، ويعرف ما قاله أئمة المسلمين فى هذا الموضوع والغرض من التحريم ، قبل أن يقف موقف الحكم الجرىء على أحاديث رسول الله الصحيحة ويقول : إنها من وضع اليهود والمجوس ! على أنه من الأسف قد فهم هذه النظرية فهما معكوسا أيضا ، لأننا إن فرضنا أن أحاديث الربا موضوعة ، فلا يعقل أن تكون من وضع اليهود مطلقا ، لأنهم هم الذين امتازوا بالربا ، ولا سوق لهم يجدون فيه فريستهم إلا سوق المسلمين الذين يحرضهم أمثال أخينا الأندنوسى ، فكيف يعقل أن ينهى اليهود المسلمين عن الربا فتبور تجارتهم فيه ويقف دولابها ؟ ! إن المعقول أن يضعوا لهم ما يرغبهم فى الربا كى يقدموا عليه . ألا يرى ذلك الكاتب وأمثاله أن يتئدوا فيما يقولون ويكتبون !

إن الدين الاسلامى قد امتاز بحرية الرأى ، وقد قيض الله له من أولى العلم والرأى من أبان للناس قضاياه وقواعده ، وكلها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة ، وقد أخذت أحكامه من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، ولا ريب فى أن السنة الصحيحة ركن من أركان الاجتهاد بنص القرآن ، قال تعالى : « لتبين للناس » فبيان الرسول لابد منه ، وقد أباح للعلماء من بعده أن يبينوا للناس . ومن حسن الحظ أن المسلمين قد بالغوا فى نقد الحديث ونقد رجاله ، فلم يتركوا شيئا يتعلق برجال الحديث إلا قالوه صريحا ، فوصفوا رواة الأحاديث الموضوعة بالكذب والتدليس ، وضعفوا بعضها لما وجدوا فى بعض رواتها ، ولم يعملوا إلا بالأحاديث الصحيحة المطابقة للعقل . ومع هذا فإن الأئمة قد يسلمون بالحديث الصحيح ويختلفون فى فهم

معناه فيعمل كل منهم بما يراه . وهذا مما تقره قواعد الدين وترضاه ، لأن الدين الاسلامى دين اجتهاد وإدراك ، فإذا وجد حديث صحيح ، وكان معناه مخالفا لقواعد الدين العامة ، فإنه يجب إرجاعه اليها إن أمكن ، وإلا حكم بعدم صحته مهما كان راويه ، لأن من شروط الصحيح أن يكون مطابقا لقواعد الدين العامة ، وهى مطابقة للعقل ، فما كان مخالفا لذلك فإنه لا يكون صحيحا فى الواقع . وظاهر أن الأحاديث التى معنا مطابقة لقواعد الدين والعقل ، فلا يجوز لكاتب أن يقول إنها غير صحيحة ، وهو جاهل بها تمام الجهل . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ؟

عبد الرحمن الجزيرى

احتفظ بسرك لنفسك

قال عمرو بن العاص : ما وضعت سرى عند أحد وأفشاه فلمته ، لأنى كنت أضيق صدرا منه حين استودعته إياه .

أخذ شاعر هذا المعنى فنظمه وأجاد فقال :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يستودع السر أضيق
إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق

وقال معاوية بن أبى سفيان : الحازم من كتم سره عن صديقه مخافة أن تنتقل صداقته فيذيع سره .

وقال شاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعلم بالمضرة

وكان يقال : الكاتم سره بين إحدى فضيلتين : الظفر بحاجته ، أو السلامة من شر إذاعته .

وقيل : أصبر الناس من صبر على كتمان سره ، فلم يبده لصديقه .

وقيل أيضا : كتمانك سرك يعقبك السلامة ، وإفشاؤه يعقبك الندامة ، والصبر على كتمان السر ، أيسر من الندامة على إفشائه .

وقال شاعر :

تبوح بسرك ضيقا به وتحسب كل أخ يكتم
وكتمانك السر ممن تخاف ومن لا تخافهم أحزم
إذا ذاع سرك من مخبر فأنت إذا لمته ألوم

وأحل الله البيع وحرم الربا

يقول الاستاذ « شارل جيد » العالم الاقتصادى الشهير : « إن تحريم الربا كان من الضروريات فى العصور الغابرة ، وإن إباحته فى هـذا العصر من الضروريات أيضاً ، لأن الدين فيما مضى كان للاستهلاك ، وأما الآن فهو للانتاج » هل هذا صحيح ؟

لقد قال الأستاذ الافرنسى « شارل جيد » أعظم علماء العصر الحاضر فى علم الاقتصاد السياسى فى الطبعة العاشرة فى كتابه المسمى « الاقتصاد السياسى » المطبوع باللغة الافرنسية سنة ١٩٣١ صفحة (٢٥٨) من الجزء الثانى عن مشروعية الربا ما معناه :

« إن موسى ، وأرسطو و . . . . قد حرموا الربا ، وإن جميع الأديان أيضاً قد حكمت بعدم مشروعيته ، فإن الكنيسة قد حرمته بصراحة فى القانون المدنى والقانون الكنسى « Droit Canonique » وإن الشريعة المحمدية قد اتبعت الطريق نفسه ، فقد جاء فى القرآن الكريم : « وأحل الله البيع وحرم الربا » حتى إن المسلم الحقيقى فى وقتنا الحاضر (ويقول ذلك متعجبا) لا يأخذ فائدة على دراهمه المودعة فى البنوك حتى ولو كان أصحاب البنوك ممن يدينون بالنصرانية » ! !

ثم قال : « لقد أوضحنا فى الجزء الأول بأن الدَّين منذ بدأت الخليقة الى وقت قريب لم يكن له أى صفة من صفات الانتاج ، بل إن الدَّين كان لا يستعمل إلا للاستهلاك ، وهكذا فإن الأقدمين ورجال الدين والرهبان لم يكونوا مخدوعين كما يخيل إلينا حينما حرّموا الربا ، بل إن تحريمهم له برهان قاطع على إحاطتهم بأحوال بلادهم الاقتصادية

« وإذا ما بحثنا عن الدواعى التى حملتهم على تحريم الربا ألفينا أن المدين كان فى جميع العصور الغابرة حتى فى روما ، وفى أوربا إبان القرون الوسطى ، من عداد الفقراء المعوزين ومن عامة الشعب ، على أن الدائن كان من طبقة الأغنياء ومن اليهود الممولين ، والباعث على ذلك الدين فى الحالات كلها هو شراء الأقوات والدروع والرماح وما الى ذلك من الأمور التى تعلم أنها غير منتجة اقتصاديا بل إنها للاستهلاك المحض » .

ثم قال : « ومن البدهى إذا حل أجل الدين ألفيت أن المدين لا يستطيع أن يدفع للدائن لا الفائدة فحسب ، بل إنه لا يقوى على دفع المال نفسه ، ولذلك يجب عليه أن يدفع قيمة ذلك من حريته وجسمه وتعبه . فقد جاء فى القانون الرومانى المسمى : قانون الألواح الاثنى عشر : « إن المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرّق إن كان حراً ، ويحكم عليه بالحبس أو بالقتل

إن كان رقيقا . وعلى ذلك فإن الربا يتراءى لنا كأنه وسيلة للاستثمار ولإفلاس المدينين ، وإن هذين الأمرين يكفيان لتحريمه تحريما باتا » . ثم قال : « وبعد سنة ١٧٨٧ نرى أن الاقتصاديين قد أجمعوا على مشروعيته ، وكانوا بذلك محقين ومتبعين جادة الصواب ، فإذا بحثنا عن سبب ذلك ألفينا أن الأمور قد تغيرت فى هذا العصر » .

(١) « ليس الفقراء والمعوزون وعامة الشعب هم الذين يستدينون من الأغنياء والأشراف فى أيامنا هذه ، بل الأمر على عكس ذلك ، فان الأغنياء وكبار التجار والشركات ذات الصيت البعيد ، وأصحاب البنوك والحكومات العظمى ، وملاك مناجم الذهب ، هم الذين يستدينون فى أغلب الأحوال من عامة الشعب ، من الأفراد البسيطين من العمال العاديين : أى بالإيجاز « من المذخور الشعبى » فإنهم يأخذون من الصريرة ما وفره الفرد من قوته ومسكنه وملبسه ، وإذا صح ماقلته فإن الذى سيثير حناننا وشفقتنا الآن ليس هو حالة المدين ، بل الذى سيثيرها هو حال الدائن . وهكذا فليس ما يجب أن يحافظ عليه الرأى العام والقانون هو المدين الضعيف المجرد عن السلاح من شراهة الدائن كما كان عليه الأمر فى العصور الغابرة ، بل بالعكس يجب على القانون والرأى العام أن يحافظ على حقوق الدائنين الجهلاء من استثمار كبار المدينين الممولين لهم . ولنا فى التاريخ المالى فى عصرنا هذا أمثلة وافرة مما توجب الأسف العميق .

(٢) ثم قال : « ومن جهة أخرى إن المقصد الأصلى من عقد الدين قد تغير ، فسوف لا يستدان لشراء الأقوات ، وماتقوم به مادة الحياة ، ولكن يستدان فى هذا العصر طلبا للإثراء والإنتاج ، وأصبح بعد أن كان المتوخى من الدين الاستهلاك أصبح المراد منه الإنتاج بالمعنى الاقتصادى » . ثم قال : « لقد ذكرنا فى الجزء الاول أن المنتج « L'entrepreneur » هو العامل الأساسى فى الانتاج ، فهو الذى يستأجر رءوس الأموال ، ويدفع الفائدة من الأرباح . فإن أسعار الحاجيات التى ينتجها تساوى قيمة المواد الأولية وأجرة العمال واستهلاك الأدوات ، وأجرته وأجرة بناء معمله . وكذلك فائدة رأس ماله وفائدة رءوس الأموال المستدانة من الآخرين ، فيكون من الحمق والجنون أن نعفى هذا « المنتج » من دفع الفائدة وندعى أن ذلك هو من باب المواساة للبشرية ، لأن ذلك الإعفاء يزيد ربحه ربحاً جديداً بدون مبرر » .

هذا ما قاله الأستاذ « شارل جيد » وحكم بموجبه بأن الربا هو من الضروريات فى هذا العصر : عصر النهضة التجارية ، والصناعة . وإننى سوف أسعى لأن أرد عليه لا بالنصوص الدينية والشرعية من الكتاب والسنة ، بل بردود اقتصادية دامغة ، وذلك لأنه قد آمن بالنصوص الدينية وبمشروعيتها ، ولكنه رأى أنها لا تصلح لوقتنا هذا فقط . فاذا ما أثبتّ بقاء ما اعترف بأنه كان فى الزمان الغابر باعثا على تحريم الربا ، وبرهنت على عدم ضرورة الربا

فى هذا العصر ، ودللتُ على أن إباحته هى المسببة للأزمات الحاضرة ، أكون قد حكمت بأن ديننا الاسلامى يصلح لـكل زمان ومكان . لذلك أقول :

(١) لقـد قسم الأستاذ « شارل جيد » الدَّين كما رأينا الى قسمين : دين للاستهلاك ، ودين للانتاج ، وأثبت بحجج دامغة عقم الأول وضرره ، وعلى الأخص فى العصور القديمة ، ثم أثبت منفعة الثانى فى عصرنا هذا ، وحـكم بعد ذلك بمشروعية الربا فى القسمين دون أن يلاحظ التقسيم عند الحـكم ، فأقول : إنه قد أثبت بذلك جزء الدعوى وترك الجزء الآخر دون إثبات ، فهل من الصواب والرشاد أن يفتح باب الربا على مصراعيه بمجرد ادعائه أن دَين الانتاج مفيد ؟ كلا ثم كلا ، بل يجب إن كان ما زعمه صحيحاً أن يباح دين الانتاج دون سواه ، ويحرم دين الاستهلاك ، لأنه لم يدلل على عدم مشروعيته الآن ، ولأنه لم يبرهن أن هذا النوع غير مستعمل فى وقتنا هذا .

(٢) لنسلم جدلا أن ما زعمه الأستاذ « شارل جيد » صحيح : أى أن دين الانتاج مفيد ، ثم هب بعد ذلك أن حكومة من حكومات العالم حللت دين الانتاج ، وحرمت كل دين معد للاستهلاك أخذاً برأيه ، فانى أرى بل أجزم أن هذا التشريع غير قابل للتطبيق ، لأنه لا يمكن التحقق قبل الدين من أن المدين سوف يُعد حتما هـذه الدراهم للانتاج دون غيره ، وباب الاحتيال كما تعلم فى هذا الأمر واسع ، وإذا علمنا أن الخير والشر كله فى هذا العالم نسبى حتى إن الأكل إذا أكثر منه الانسان قـد يودى بحياته ، أرى أنه وإن سلم بصحة ادعائه يجب الحـكم بل الجزم بعـدم مشروعية الربا ، لأننا لم نستطع الوصـول الى الفائدة المزعومة من إباحته ، ويكون على ذلك أضراره أكثر من فوائده .

(٣) إن الأزمات الاقتصادية فى عصرنا الحاضر هى أزمات من زيادة الانتاج لا من نقصه « Suprodu Atiou » فـكم من مرة أحرقت الحـكومات ما زاد عما يستهلـكه العالم من البن ، وأتلفت القطن كى لا ترخص أسعارها ، وكذلك اليابان قد اكتسحت العالم بمنتجاتها ، وكل الحـكومات تشتكى قلة الأسواق لتصريف البضائع المتـكدسة ، فهل وجدوا من دواء لهذا المرض العضال غير شن الحروب طلباً للمستعمرات والأسواق ؟

لا ورب الـكعبة ! فانى أرى وايم الحق فى تحريم الربا والرجوع الى أوامر الله عز وجل فى جميع كتبه المنزلة الدواء الشافى لهـذه الأزمات ، فهاك التجار والمنتجين يشتغل كل واحد منهم بعشرة أضعاف رأس ماله وينتج أكثر مما يطلبه زبائنه منه ، وهو يشتكى فى آخر الأمر من الأزمة ، ومن قلة البيع ، ويقول إن أرباحى لا تكفى لدفع الفوائد التى علىّ ، وتراه وكان به مسا من الجنون يركض ويستدين ويختلس ويغش ، وكل ذلك خوفا من تقصيره عن دفع الديون وفائدتها ، وخوفا من العار الفاضح المسمى عند التجار بالافلاس ، فقد قال تعالى فى محكم كتابه :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . ألا ترى معى أيها القارئ الكريم أنه لو اشتغل برأس ماله فقط وربح ما يسد عوزه ، وأنتج ما يطلب منه دون أن يتعب نفسه على غير جدوى سعيا وراء الطمع ، لو كان فعل ذلك لما كان هناك أى سبب لإصابته بهذه العوارض .

(٤) إن أكثر أموال العالم فى وقتنا هذا هى إما ثمن لأسهم أو لسندات مالية . فالأسهم هى عبارة عن الأموال التى يدفعها الأغنياء عادة لتأسيس الشركات العظيمة ، وهى شرعية بكل معنى الكلمة ، لأن الربح فيها حاصل من طريق الانتاج والعمل . وأما السندات فهى ماتستدينه الشركات العظيمة من الأموال عند نجاحها من الأفراد العاديين لتوسيع أعمالها ، وتعطيهم فائدة ٣٪ أو ٤٪ فى السنة على ذلك ، وتأخذ الشركة بقية أرباح أموال هذه السندات ، فترى أن السهم يربح ٢٥٪ أو ٥٠٪ وأن السند لا يأخذ إلا ٣٪ أو ٤٪ حتى إنه قيل بأن شركة فى القطر المصرى يربح كل مليم من رأس مالها (١٣) مليما فى كل سنة . فهل تعلم ما هو نصيب المليم الواحد الذى استدانته الشركة ؟ هو ٣/١ من المليم فى السنة .

ومما هو معلوم أن المؤسسين للشركات هم أكابر الأغنياء ، وتكون الأسهم موزعة عليهم بكميات وافرة للحصول على الانتخاب والتصويت والكفالة والإدارة الخ . وأما السندات فهى موزعة بكثرة على الطبقات الوسطى والفقيرة ، فهل من الصواب والرشاد أن يربح جنيه واحد جنيها أو خمسة جنيهات فى السنة مع أن الجنيه الآخر فى نفس الشركة يربح أربعة أو ثلاثة قروش ؟ لا وايم الحق ! فاننى أرى فى تحريم الربا نشرا للعدالة والفضيلة .

ليوقن علماء الاقتصاد السياسى بأن تحريم الربا سوف لا يؤثر على المؤسسات الاقتصادية قط ، بل إن الشركات سوف تجبر عوضا عن الاستدانة بفائدة معينة إذا لزمها المال وتكللت أعمالها بالنجاح الى تكبير رأس مالها وإصدار أسهم أخرى لها من الأرباح ما للأسهم الأولى ، ويتساوى بذلك فى الربح كل الحاملين لهذه القراطيس المالية ؟

فخر الدين الصاحب

خير البر عاجله

قال شاعر فى هذا المعنى :

جود الكرام إذا ما كان عن عدة ... وقد تأخر لم يسلم من الكدر
إن السحائب لا تجدى بوارقها ... نفعا إذا هى لم تمطر على الأثر
وماطل الوعد مذموم وإن سمحت ... يداه من بعد طول المطل بالبدر

الاسلام كما يراه الاوربيون

بسط الاسلام فى مبدأ شبابه سلطانه على قارتى آسيا وأفريقا وجزء عظيم من قارة أوربا من الناحيتين : النظرية والعملية ، ثم اخترق صليل صولته أسماع الشعوب التى لم تدن به ، ودوى فى رءوسها صوت جلاله القوى ، فكان من الطبيعى أن يروع الساسة ، ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه فى تلك الشعوب التى لم تكن تطمئن على مصيرها بازاء هذا التيار الجارف ، وكان من الطبيعى أيضا أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المخلصين منهم الى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراستها للوقوف على مافيها من فكر وآراء نظرية ، وطقوس وتقاليد عملية . وقد كان ذلك بالفعل ، فنظر أولئك وهؤلاء فى نصوص القرآن والحديث والسيرة النبوية نظرة ادعوا أنها نظرة نقد حر ، وتمحيص برىء ، وأنهم لم يتخذوا خلالها كنبراس هاد إلا الحقيقة وحدها ، وإن كان ذلك لا يتفق مع الواقع إلا فى بعض الأحوال ، بل إننا نستطيع أن نجزم — استنادا الى مابين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء — بأن الدراسة الجدية لنصوص الاسلام وتعاليمه ، والبحث الدقيق النزيه فى أسراره ومزاياه ، لم يبدآ إلا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية فى أوربا وأخذ المستشرقون يجدون فى فتح مغالق الشرق وكشف مافيه من كنوز بعد حملة (نابليون) التى فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية .

أما قبل ذلك العهد ، فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الاسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء أكثر منها مبعثا للجدل والنقاش ، لأن أكثرها كان مفعما بالجهل المطبق ، والسطحية والتعصب ، وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التى هى الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها وغاياتها . ونحن حين نقرر هذا لا نتجنى على أولئك المؤلفين ، ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التى فى كتبهم وفى كتب الباحثين المحدثين الأكثر نزاهة وعلما من بين الأوربيين أنفسهم . وإليك شيئا من هذه الحقائق :

(١) قال الأستاذ « دير منجم » : « حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون ، اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل منهما فهم الآخر . ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين . وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزانتيون الاسلام بمساوىء واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته ، هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجماتهم إياهم إلا تهما باطلة ، بل متناقضة » (١)

---

(١) انظر صفحة ١٣٥ من كتاب « حياة محمد » لاميل دير منجم طبعة باريس سنة ١٩٢٩

(٢) قال الأستاذ « كارادى فو » : « إن محمدا ظل وقتا طويلا معروفا فى الغرب معرفة سيئة ، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها اليه » (٢) .

ولما كنا قد اعتزمنا أن نقصر عنايتنا فى هذه البحوث على الكتب التى تستحق أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية ، مثبتين ما احتوته من حقائق معلية لشأن الاسلام ، هادمين ما اشتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل طفيف ، أو شطط فى الفهم ، أو ابتعاد عن المنطق السليم ، مبرهنين على رأينا بأنصع الأدلة وأسطع البراهين . ولما كانت هذه الخطة التى اعتزمناها تستتبع الإغضاء عن الأكثرية الغالبة من المؤلفات التى كتبت قبل القرن التاسع عشر ، فقد آثرنا أن نكتفى فى جانب هذه المؤلفات القديمة بإشارة عاجلة الى كل واحد منها . واليك هذه الاشارات :

(ا) تحدثنا قصيدة « رولان » وهى أهم منتجات العصور الوسطى الغربية على الاطلاق ، أن فرسان شارلمانى قد أسقطوا الأصنام الاسلامية ، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من : محمد و « أبولون » و « تيرفاجان » .

ولا أحسب أن التاريخ قد عرف سخفا أحط من هذا السخف ، أو ضلالا أسقط من هذا الضلال ، وأنا لا أستطيع أن أعزو هذه الأضلولة الوضيعة الى الجهل وحده بل الى سوء النية أيضا ، لأن انحصار غاية الاسلام المثلى فى التوحيد ، وإلحاح القرآن على إثبات انفراد الله بالعبادة الحقة ، ومحاربة الوثنية ، وإزالة النبى إياها من فوق جدران الكعبة ، كل ذلك يوضح رأى الاسلام فى التوحيد ، بل إن كلمة الاسلام التى لا يثبت إلا بها ، وهى كلمة (لا إله إلا الله) هى نفسها حملة قاسية على الأوثان والوثنية .

أما الثالوث الذى زعم مؤلف القصيدة أن المسلمين يعبدونه ، فهو لايخرج عن كونه من باب « رمتنى بدائها وانسلت » لأن المسلمين موحدون توحيدا خالصا نقيا لا يعرف المواربة ولا الهوادة ، ولا التعبيرات المبهمة ذوات المعانى المختلفة والمرامى المتباينة ، وإنما غيرهم هو الذى يرمى بمثل هذه التهمة .

على أنى لست أدرى كيف يعد مؤلف هذه القصيدة الثالوث مغمزا يطعن به على الإسلام مع أنه ارتضاه فى المسيحية ولم يعترض عليه ، ولكن أنصار هذا المؤلف المتعصب قد أجابوا عنه بأن ثالوث المسيحية يرجع الى واحد ، فى حين أن ثالوث غيرهم مؤلف من كائنات متعددة . وهنا يهوى المدافع فى ظلام الجمل الغامضة المعقدة التى خلا منها التوحيد الإسلامى خلوا تاما .

(ب) يشاهد القارئ فى قصيدة « أورشليم » وصفا دقيقا لتمثال زعم مؤلفها أنه صنع

(٢) انظر صفحة ٢٠ من كتاب « المحمدية » للبارون كارادى فو طبعة باريس سنة ١٨٩٧

للنبي من الذهب والفضة الخالصين ، وأن قاعدته هي تمثال فيل أصعد فوقه كأنه يمثل النبي وهو راكب .

وقد وصلت الجرأة على الحق والتجني على التاريخ بهذا الشاعر الى حد أسقطه من صفوف المؤرخين الذين يسجلون الحوادث على حقيقتها إسقاطا تاما ، لأن أولئك الغربيين المحدثين أنفسهم اقتنعوا بعد الدرس والبحث أن مهمة الإسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها ، والحكم بالإعدام على جميع ماءمت إليها بصلة من قريب أو من بعيد ، بل إن المحدثين يأخذون على المسلمين مغالاتهم فى هذا التشديد ويقولون : إن المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير . وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة بردود مختلفة ليس هذا المجال موضع ذكرها ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق ، ولا يعززها المنطق ، ولا يسندها التاريخ .

(ج) هناك رواية سخيفة ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها أن الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا . وليست هذه الأكذوبة الساقطة فى حاجة الى الرد ، لأن نناً أنها تهوى بها عن أدنى درجات الجدل والنقاش .

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الإسلام بالطعن والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة أو على الأهواء والأغراض (١) . ولم نشأ أن نفيض فى سرد هذه الآراء الباطلة ، أو أن نذكر عددا من الكتب أكثر مما ذكرنا ، لأننا ألفينا العلماء المحدثين قد أنزلوها المنزلة الجديرة بها من الإغفال والإهمال ، فرأينا أن مهاجمتها غير مجدية . ولهذا آثرنا أن نتخطاها الى الكتب الجدية التى يصح أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية ، ليكون البحث قيما مفيدا .

ليست العصور الوسطى وحدها هى المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة ، بل إن عصرى الانتقال والنهضة ، والقرنين : السابع عشر والثامن عشر ، قد احتوت من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير . فكما سقط كتاب القرون الوسطى وشعراؤها فى الأخطاء المرعبة التى أبنّا لك طرفا منها آنفا ، كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة الأخيرة . فمثلا : « باسكال » و « مالبرانش » فى القرن السابع عشر ، و « مونتسكيو » و « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، و «رينان» فى القرن التاسع عشر ، و «كازانوفا» و « ديرمنجم » فى القرن العشرين ، كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسيمة نحو الإسلام ، وهووا فى مخالفات جدية للعلم

(١) اكتفينا من كتب القرون الوسطى بما تقدم . ومن أراد الاستزادة فعليه بالقوائم التى وردت فى كتب المحدثين حاوية أسماء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة كالقائمة التى أوردها العالم الكبير الكونت دى كاسترى فى كتابه « الاسلام » .

والتاريخ ، كما أن لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال كارادى‌فو ، وديزيريه بلانشيه ، وكليمان هوار وأضرابهم ، عن الإسلام آراء قيمة جديرة بالاحترام .

وسنعرض لأهم كتب أولئك العلماء فى شىء من البسط فى الفصول المقبلة ، ولكننا نكتفى اليوم بأن نشير الى أن « فولتير » فى هجومه على الإسلام كان قد أراد فيما يظهر أن يتخذه رمزا لجميع الديانات ، لأنه كان يطعن عليها كلها من غير استثناء . ولكنه لما خشى اضطهاد الكنيسة والحكومة ، اتخذ نبى المسلمين ستارا يحتمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان . وقد وصل فى النفاق الى حد أن أهدى هذا الكتاب الى البابا ، لينال رضاه ، أو ليتقى غضبه على أقل تقدير .

ومما اعتمد عليه العلماء فى الحكم بأن الاسلام فى كتاب « فولتير » صورة رمزية ، هو أن آراءه فى كتبه الأخرى عن الإسلام تختلف عن رأيه فى هذا الكتاب ، وأن طريقته فى كتابته كلها كانت دائما تشتمل على هذا النوع من المداورة والمراوغة . اللهم إلا أن يكون « فولتير » قد قصد بهذه الصورة الضالة التى صور بها نبى المسلمين فى روايته أن يرضى البابا ، وضحى فى سبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة ، ولكنه لم يفز منه بهذا الرضى المنشود ، فخسر الصفقة وثمنها .

أما « رينان » فقد تناول الاسلام فى كثير من مؤلفاته بالقدح ، ولاسيما فى كتابه « الاسلام والعلم » الذى طعن فيه على العرب والاسلام طعونا دفعت المغفور له السيد جمال الدين الأفغانى الى الرد عليه بما أفحمه وألزمه الحجة والاعتراف بضعف كثير من المصادر التى استقى منها معلوماته . وسنمر فى الكلمات الآتية بهذا كله فى شىء من التفصيل ، معقبين على الباطل منه بما يدحضه دحضا تاما ، مثبتين الحق مع الثناء على نزاهة أصحابه ورجاحة عقلياتهم ، ولكننا رأينا أن نبدأ هذه الفصول بذكر الآراء الصحيحة التى هى الى جانب الاسلام والحق ، فإذا انتهينا منها ، مررنا بالآراء الأخرى المخالفة مرور الناقد بالحجة والبرهان ، لا بتأثير العاطفة ، أو بدافع التعصب والهوى .

أما اليوم فسنكتفى بأن نختم هذه الكلمة ببعض عبارات موجزة قيمة شهد فيها أصحابها للنبى صلى الله عليه وسلم بشىء مما كان عليه من العظمة والجلال . وهاك هذه العبارات :

(١) قال الأستاذ « كازا نوفا » : « إن كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود . إنه حتى حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق عرف كيف يستمع آراء الغير ويعترف بهفواته ويصلحها . إن محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وإدراكاته للحياة الواقعية من جهة ، وبين تعاليم السماء من جهة أخرى . وقد ظلت هذه الفروق خالدة

فى الاسلام الذى لا يخلط بين القران والسنة ، بل إنه فى السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الموحى به ، وما هو شخصى لمحمد (١) » .

(٢) قال الأستاذ « كارادى فو » : « إن محمدا أتم طفولته فى الهدوء ، ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود ..... وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره ، وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة (٢) » .

(٣) وقال أيضا : « إن محمدا كان هو النبى والملهم والمؤسس ، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا ، ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر ، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . إن شعور المساواة والاخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبى نفسه » (٣)

(٤) قال « ديزيريه بلانشيه » : « إن النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى : أنه أحيا شعبا ، وأنشأ امبراطورية ، وأسس دينا » (٤)

(٥) قال « لامارتين » : « إن محمدا أقل من إله ، وأعظم من إنسان عادى ، : أى إنه نبى » .

(٦) قال الاستاذ على (٥) أسير الدين : « صريح ذلك الراعى ، قوى العزم ، نقى القلب ، طاهر النفس ، دعاه قومه بالأمين ، وحقا إنه لأمين . أحبه جده وأوصى بذلك الصبى الجميل خيرا ، فهو خير ثمرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش ، وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين » .

(٧) قال الاستاذ « جارسان دى تاسى » : « إن محمدا ولد فى حضن الوثنية ، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية هائلة انزعاجا عظيما من الرذيلة ، وحبا حادا للفضيلة ، وإخلاصا ونية حسنة غير عاديين الى درجة أن أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم الأمين » (٦)

الدكتور محمد غلاب
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر صفحة ٥ من الجزء الاول من كتاب « محمد ونهاية العالم » للاستاذ كزانوفا . وليعلم القارىء أن هذا الكتاب كما اشتمل على آراء صحيحة ، احتوى على أخرى فاسدة سنعرض لنقدها فيما بعد . (٢) انظر صفحتى ٢٢ و ٢٣ من كتاب « المحمدية » للاستاذ كارادى فو . ٣) انظر صفحة ٦٣ من الكتاب المذكور (٤) انظر كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » . (٥) هو شاب استرالى اعتنق الاسلام وقد ألف كتابا قيما عن الدين الاسلامى وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم (٦) انظر صفحة ٦ من مقدمة كتاب « الاسلام » لجارسان دى تاسى .

فى بلاغة القرآن

رأى جـديد فى بعض مناحيها

يطيب لنفسى أن أتعمد مادبة الله كلما استطعت الى ذلك سبيلا ، فألتهم من طعامها الشائق ، وأحتسى من شرابهـا الرائق ، ما أعتقد أن فيه غذاء لروحى الساغبة وريا ، وما أكاد أنفتل عنها حتى أحس برغبة جامحة فى العودة ، فأعاود الـكرة ابتغاء الافترار وإزالة العطاش ، ولـكن هيهات ، فـكلما ازددت منها ازددت شوقا اليها ، وحرصا عليها :

إذا ازددت منها زاد وجدى بقربها فـكيف احتراسى من هوى متجدد

هيهات هيهـات أن تقنع روحى من مأدبة الله ، وطعامها شفاء للنفس ، وشرابها طهور للحس ، وغشيانها جلاء للقلب وصقـال للضمير . كيف أقنع من القرآن مأدبة الله ، كما سماه رسول الله فـكانت تسمية فذة بارعة ، أصاب بها عليه السلام شواكل المراد ، وطبق مفاصل السداد ، بإيجاز وإعجاز لم نر لهما ضريبا إلا فى القرآن الـكريم . والقرآن كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وفضله على سائر الـكلام « معروف غير مجهول ، وظـاهر غير خفى ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ، ووهن المتـكلفين ، وتحير الـكاذبين ؛ وهو المبلغ الذى لا يمل ، الجـديد الذى لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والمـاحى لظـلم الضلال ، ولسان الصدق النافى للـكذب ، ونذير قدمته الرحمـة قبل الهـلاك ، وناعى الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة ؛ إن أوجز كان كافيا ، وإن أكثر كان مذكرا ، وإن أومأ كان مقنعا ، وإن أطـال كان مفهما ، وإن أمر فناصحا ، وإن حكم فعادلا ، وإن أخبر فصادقا ، وإن بين فشافيا ؛ سهل على الفهم ، صعب على المتعاطى ، قريب المأخذ ، بعيد المرام » لا تستشفه النظرة الأولى ، وقد تـكون الثانية مبعث توهيم . وإذا ما هجس التوهيم فى نفس لا يقر لها قرار أو تـكون على بينة من أمره ، فتبحث وتنقب ما وسعها البحث والتنقيب ، وترهف الذهن وتحد الخاطر ، ولاتزال تدير الرأى ، وتجيل عيون الفرض لتعلم سر توهمها ، ولا سيما إذا كان هذا التوهيم فى كتاب أحكمت آياته وأعجزت ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكثيرا ما نظرت فى آيات منه فتوهمت ، فبحثت فأسفر البحث عن حقائق تجعل القلب خاشعا متصدعا من خشية الله ، مؤمنا إيمـانا قويا صادقا لم تشبه شائبة من شوائب التقليد بأنه معجز حقا ، تتعاقب عليه الأيام وتتعاور الأفهام فـا تزيده الأيام إلا جـدة ونضارة ، وتنحسر عنه العقول ظـالعة حسيرة وما تنفد كلماته ، ولا تفرغ أسرار بلاغتها « قل لو كان البحر مدادا لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » .

من تلك الآيات التى نظرت فيها فتوهمت ، قوله تعالى : « فقلنا يا آدم إن هـذا عدولك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » فلقد خيل الى أنه لوقيل : « لا تجوع ولا تظما ، ولا تضحى ولا تعرى » لـكان ذلك جاريا على ما تقتضيه البلاغة من الملاءمة بين الأشباه والنظائر ، ولـكنها لم تجىء كذلك فلا بد لهذا من سر بل من أسرار ، لأن الـكلمة فى القرآن ليست كما تكون فى غيره « بل السمو فيها على الـكلام أنها تحمل معنى ، وتومىء الى معنى ، وتستتبع معنى ، وهذا ما ليس فى طاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت » فما سر مجيئها هكذا ؟

نظرت فى كتب التفسير التى بين يدى ، وهى الـكشاف والطبرى والنسفى والجلالين والبحر المحيط ، فما ألفيت كتابا منها حاول أن يكشف عن سر نظم الآية ، بيد أنى وجدت فيما كتبه الصاوى على الجلالين كلاما ليس له ضحى ، فهو يقول : « قابل بين الجوع والعرى ، والظمأ والضحو ؛ وإن كان الجوع يقابل بالعطش ، والعرى يقابل بالضحو ، لأن الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن والضحو حر الظاهر ، فنفى عن ساكن الجنة ذل الظاهر والباطن ، وحر الظاهر والباطن » . ووجدت ابن المنير يقول فى كتاب الانتصاف : « والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة . على أن فى الآية سرا زائدا على ذلك وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظما بالجوع لانتثرسلك رءوس الآى ، وأحسن به منتظما » . وهذا الـكلام ليس له نصيب كبير من الوجاهة والرجاحة ، ولذلك لم ترتح اليه نفسى ولم تقنع به ، وإنما قنعت برأى حلو جميل انساب فى أعطافها ، ودب فى ثناياها دبيب الـكرى فى المفاصل ، ففرحت به وآثرته ، وصارت به حفية ، وله وامقة ، ولنشره تائقة ؛ ويتخلص هذا الرأى فى أنه لو جاء النظم هـكذا : وأنك لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لوجب أن يقال : وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى ؛ ولو كان ذلك كذلك لفسد المعنى ، لأن التضحى هو البروز للشمس بغير سترة كما فى اللسان وغـيره ؛ وإذا كان التضحى هو البروز للشمس بغير سترة كان معناه العرى ، فيصير معنى الـكلام : « وأنك لا تعرى فيها ولا تعرى » ، وهو فساد بين ؛ ولما كان هذا الفساد فى النظم مرجعه ضم الأشباه والنظائر ، فرقها وجاء بها على هذا النسق البديع : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ، وضم سبحانه لنفى الجوع نفى العرى لتطمئن النفس بسد الجـوع وستر العورة اللذين تدعو اليهما ضرورة الحياة ونحيزة الانسانية . ولما كان الجوع مقـدما على العطش كتقديم الأكل على الشراب ، كان من مقتضى البلاغـة أن يتأخر ذكر الظمأ عن الجوع ، وأن يتقـدم على التضحى لأنه مهم يجب أن يتقدم الوعد بنفيه كما تقدم الوعد بنفى الجوع ، وأن يتأخر ذكر التضحى كما تأخر ذكر العرى عن الجوع ، لأن التضحى من جنس العرى والظما من جنس الجوع .

ولعلك إذا بلغت هذا الموضع من مقالى تسائلنى فيما بينك وبين نفسك ، أو فيما بينك وبين غيرك ،

وتقول : إذا كان الأمر كما بينت، وكان سر التفريق بين الأجناس كما جلوت ، فلم ذكر التضحى وهو عرى كما أثبت ، وقد أغنى عنه ذكر العرى ؟ ولعلى أبلغ الغاية من إقناعك ومرضاتك ، أو لعلى أوفر عليك مؤنة السؤال أو التساؤل إذا قلت لك : فى ذكر التضحى فائدة كبيرة ، وهى وصف الجنة بأنها لا شمس فيها « لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » فإن التضحى عرى مخصوص مشروط بالبروز للشمس وقت الضحى ، ولذلك سمى تضحيا ، وسميت الشمس ضحى لظهورها فى ذلك الوقت ، والانتقال من الأعم الى الأخص بلاغة ، لاختصاص الأخص بما لايوجد فى الأعم كما يقولون .

وفى القرآن الكريم آية أخرى تشبه هذه الآية فى التوهيم كل المشابهة ، وهى قوله تعالى: « مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والسميع والبصير، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون » خيل الى أن هذه الآية قد أتت على غير طريق البلاغة ، فان طريق البلاغة أن يقال : « كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع » لتلتئم الألفاظ وتأتلف بمعانيها ، وليكون فى كل جملة من الجملتين طباق لفظى . وأخيرا تبين لى أن مجيئها على النظم الذى توهمته وزينه لى الطباق المزدوج : يفسد المعنى الذى جاءت الآية لتقريره . وبيان ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال : « مثل الفريقين » فاقتضى ذكر الفريقين تفسيرهما ، فقال : « كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع » ليكون المشبه به قسمين ، والمشبه وفق عدد الفريقين ؛ أحد القسمين مبتلى والآخر معافى ، للتضاد بين القسمين حتى يصح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما . ولو قيل : « كالأعمى والبصير » لكانت هذه الجملة فريقين ، ثم يعود فيقول : « والأصم والسميع » فيكون فى الجملة الأخرى فريقان آخران ، فيكون قد فسر الفريقين بأربعة ، وهذا فساد واضح ، فلذلك عدل الملاءمة فى ظاهر الكلام الى ما هو أهم منها ، وهو تصحيح المعنى المراد . ولقد أذكرتنى هذه الآية والتى قبلها — والشىء بالشىء يذكر، والحديث شجون — بقصة طريفة جرت بين سيف الدولة والمتنبى ، توهم فيها سيف الدولة عدم المناسبة بين أبيات ، فكشف له المتنبى عن المناسبة وأبان له سرها : روى البكرى أن المتنبى وقف ينشد سيف الدولة قصيدته التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

حتى وصل الى قوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فأنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجز البيتين على صدريهما ، وقال له : ينبغى أن تطبق عجز الأول على الثانى ، وعجز الثانى على الأول . ثم قال له : وأنت فى هذا مثل امرئ القيس فى قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ووجه الكلام فى البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر: أن يكون عجز الأول على الثانى والثانى على الأول ليستقيم الكلام، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، وسباء الخمر مع تبطن الكاعب. فقال له المتنبى: أدام الله عز مولانا، إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب مثل معرفة الحائك، لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفصيله، لأنه أخرجه من الغزلية الى الثوبية. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء؛ وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا، وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهك وضاح لأجمع بين الأضداد فى المعنى. فأعجب سيف الدولة ووصله بخمسمائة دينار. قال أبو الفتح بن جنى — فيما نقله الواحدى: وليس الملك والشجاعة فى شىء من صناعة الشعر، ولا يمكن أن يكون فى ملاءمة العجز الصدر مثل هذين البيتين، لأن قوله: كأنك فى جفن الردى، هو معنى قوله: وقفت، فلا معدل لهذا العجز عن هذا الصدر، لأن النائم إذا أطبق جفنه أحاط بما تحته، فكأن الموت قد أظله من كل مكان كما يحدق الجفن بما يتضمن من جميع جهاتها، فهذا هو حقيقة الموت. وقوله: تمر بك الأبطال، هو النهاية فى التطابق المكان الذى تكلم فيه الأبطال فتكلح وتعبس، وهذا كلام رائق معجب يدل على حصافة وتفطن، وبصر بدقائق المعانى ومنازع الكلام ؟

السيد أحمد صقر

لا تكلمك العباءة

روى أن معاوية بن أبى سفيان نظر يوما الى النجار بن أوس العدوى ولم يكن قد خبره، وكان خطيبا مفوها وعالما بالأنساب، فاذدرته عينه، وكان فى ناحية من مجلسه وعليه عباءة. فأوهم تنحيه معاوية أنه من العامة، فأدرك النجار ذلك فى وجه معاوية، فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك ولكن يكلمك من فيها، وكمال الرجل آدابه، لا ثيابه. وأنشد:

إنى وإن كنت أثوابى ملفقة ليست بخز ولا من نسج كتان
فإن فى المجد هماتى وفى لغتى فصاحة ولسانى غير لحان

فأكبره معاوية ورفع منزلته.

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٢ —

عمر بن الخطاب

ألمعنا فى مقالنا السابق الذى جعلناه تمهيدا لأحاديثنا عن « قادة الفكر فى تاريخ الاسلام » الى أطوار الفكر الانسانى التى مرّ بها فى مراحل من الحياة لم يجد فيها سلطانا غير سلطانه ، فاندفع مغامرا فى خضم الوجود ، يطفو مرة سابحا ، ويغوص أحيانا راسبا ، فاذا عصفت به عواصف التقاليد الاجتماعية ، وغلبته أوضاع الأمم الساذجة على طبيعته ، وتلاعبت به أمواج الحياة ، هوى الى حضيض الجماعة فى حمأة أساطيرها يستوحيها الخرافات والأباطيل ، يجرى وراءها حينا من الدهر حتى يعود الى حقيقته من السمو فيأخذ فى اتجاه من النظر العلمى يشرف به على نظام الحياة وسير الوجود ، وإذا صفت له الآفاق وضعفت أمامه العقد الاجتماعية التى تربط بين الجماعات الساذجة ، مرّ على سيسائه فى تفكير مرتب وحقائق سامية ، ونظريات فلسفية تكشف عن وجه الكون ، وتعمل عملها الطبيعى فى ترقية الجماعة ، ووضعها فى وضع جديد لتستقبل به حياة جديدة ، وهكذا ظل الفكر الانسانى دائم الاضطراب يعدو هنا وهناك فى غير استواء غرض مرموق أو هدف مقصود .

فلما جاء الله تعالى بالاسلام هداية للانسانية ، وتقويما لتفكيرها ، وتسكينا لاضطرابها ، استقبل الفكر طورا جديدا من أطواره ، أخرجه من فوضى جامحة جاهلة الى حرية مهذبة فاضلة ، وأخذ بعنانه الى مسالك عبّدها ، ووقف منه موقف المرشد الناصح ، والقائد القوى الأمين ، يسدده ويهديه ، وكان طبيعيا أن يبدأ الفكر الانسانى حياته الجديدة فى ظل الاسلام فطريا بريئا من شوائب التعقيد الفلسفى والتقنين العلمى ، وقد انطبعت الحياة الفكرية الاسلامية بهذا الطابع الفطرى فى مدى القرنين الأولين لمجىء الاسلام تقريبا ، وهى مرحلة من تاريخه جديرة بالتسجيل ، لأنها تمثل الفكر الانسانى وليدا فى مهد الاسلام ، عنه يتلقى الحكمة ، ومنه يتفهم أسرار الوجود . والعجيب المدهش حقا أن هذا الفكر الفطرى استطاع أن يضع للحياة الاسلامية الزاخرة أسس حضارة خاصة قامت عليها ، وتميزت فى التاريخ بها ، واستطاع أن يقيم دعائم المدنية الاسلامية على قواعد الايمان بالوحدة الانسانية التى لا تعرف هذه العروق الوطنية ولا الفواصل العنصرية ، وهو أول من همس فى أذن الانسانية جمعاء بهذا المبدأ السامى : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » فأيقظ فيها روح الثورة للتخلص من الاستعباد الاجتماعى والفكرى ،

من وضع أساس تحقيق غاية الاجتماع الانسانى وسعادته بربط الانسانية المؤمنة برباط الأخوة المتعاطفة ، ففى القرآن الحكيم « إنما المؤمنون إخوة » وفى الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » مما لم يستطع الفكر الانسانى أن يقرره فى ظل الفلسفة قبل أن يأخذ الاسلام بزمامه ، وقد استطاع المسلمون الأولون أن يحققوا هذا الحلم الجميل للانسانية يوم أن كان الفكر إسلاميا خالصا قبل أن تتقاذفه أعاصير الفلسفات النظرية وتتجه به فى تيارات انحرفت عن ناموس الاسلام قليلا أو كثيرا ولكنها لم تفارقه ، وهذا الاتجاه كان بدء مرحلة أخرى للفكر الاسلامى كان فيها فكرا إسلاميا فلسفيا ، وعندئذ تجلت عظمة الروح الاسلامى ، وظهرت حيوية الشريعة الغراء فى قيادتها لهذا الفكر المعقد ، وسيطرتها عليه سيطرة كانت تلاحقه أينما توجه فى أودية البحث العلمى .

ومما يستوقف نظر الباحث فى تاريخ الفكر الاسلامى أن خصيصة هذا الفكر فى مرحلته الأولى الفطرية ، أنه كان فكرا عمليا ، لا يقف عند حدود تقرير النظريات تقريرا علميا فحسب ، بل كان أسرع الى تكييف الشخصيات الاسلامية تكييفا ماديا بما يقرره من الحقائق ، وكانت تلك الشخصيات أطوع لعوامل التكييف العملى حتى أصبحت مثلا عاليا لمظاهر التطبيق الواقعى لمقررات الفكر ، ومنشأ ذلك فى رأينا تحرير الفكر من ربقة الأوضاع الاجتماعية التى كان يخضع لها فى ماضيه ، وتجاوب صوته مع صوت العاطفة فى آفاق النفس الانسانية بما أصله الاسلام فى شرائعه الحكيمة التى اعتمدت على قاعدتى الرحمة والعدل ، والرحمة صدى العاطفة القلبية ، والعدل صدى الفكر المنطقى المستقيم ، فلم تعد مجالات الفكر فى الاسلام تلك النظريات الفلسفية الجافة ، ولا تلك الخيالات الواهنة ، ولكنها أصبحت حقائق تنبع من معين القلب الخفاق ترفده روافد العقل الزميت ، وبذلك امتاز الاسلام باعتباره شريعة عامة خالدة ، فهو إذ يخاطب الفكر بمنطق القصاص العادل فيقرر قانون الجزاء المحكم استصلاحا للمجتمع « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يلتفت الى القلب فيخاطبه بمنطق العاطفة ، إثارة لشعور الأخوة ، وتهذيبا للنفوس « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

على هذا الأساس قام بناء الفكر الاسلامى ، وظهرت معالمه شامخة فى شخصيات أخذت شرائع الاسلام مشافهة فى آيات بينات من فم النبوة ، اندفعت الى قلوبهم اندفاع الغيث فى أخصب الأودية ، وكونت جيلا من الأمة كان أسوة لمن بعده من قادة الفكر فى تاريخ الاسلام . ولا يتسع المقام للحديث عن جمهرة الذين أعدتهم طبيعتهم للتميز عن جيلهم فقادوا الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة ، ولكنا نجرى الحديث عمن نختاره مجرى المثل المضروب للتأسى والاعتبار .

وليس من شك فى أن أبرع شخصية قادت الفكر الاسلامى فى مشرق شمسه شخصية

« عمر بن الخطاب » ثانى خلفاء المسلمين وأول أمراء المؤمنين ، فإن سيرته قائدا من قادة الفكر فى تاريخ الاسلام كالشمس فى الكواكب ، إذا طلعت فليس لكوكب منها فى الأفق مكان . ونحن إذا تحدثنا عن سيرته فى قادة الفكر فلسنا نطمع فى أن نحدد شخصيته تحديدا يرسم له صورة تحيط بأطراف حياته ، ولكننا نحاول أن نلم بصورة منها تكون مثلا لتعرف ألوان العظمة الفكرية حيث لا مدارس نظامية ولا جامعات علمية ، وإنما هى الفطرة الطاهرة الزكية إذا تكشفت لها طبيعة الحياة عن جانب من جوانبها المضيئة التقطته التقاط المرآة الصقيلة للصور النيرة ليس دونها حجاب .

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها : « من رأى ابن الخطاب علم أنه خلق غنى للاسلام ، كان والله أحوذيا نسيج وحده ، قد أعد للأمور أقرانها » . وهذا كلام من أحكم القول وأسده ، وأصدق الرأى وأرشده ، لأن الناظر فى سيرة « ابن الخطاب » يرى أن الله تعالى خلقه ليكون أحد زعماء الدنيا الذين يسوسونها ، وأعده قائدا من قادة الفكر الذين يرسمون للانسانية طريق سعادتها ، فالتاريخ يروى أنه كان فى جاهليته سفير قريش فى حربها وسلمها ، وصاحب كلمتها فى منافراتها ، ولسانها الناطق فى مفاخراتها ، وقريش سيدة العرب ، وحاملة لواء الزعامة فى قبائلها ، فهى إذا وسدت أعظم أمورها فى جاهليتها لابن الخطاب فذلك لأنها وزنته بأرجح رجالاتها أحلاما فرجح بهم ، فرمت العرب عن قوسه فى منافراتها ، ورضيت بيانه لمفاخراتها ، وعقله لسفاراتها ، وهذه أمور ثلاثة مما تواضع عليه العرب تمثل أوضح جوانب الفكر فى حياتهم الاجتماعية ، فهى أحوج ما يكون الى بصر نافذ ، وعقل قوى ناضج ، وعلم بمصادر الأمور ومواردها ، ولم تكن قريش — وهى ما هى فى مكانها من العزة والسؤدد — لترضى عمر سفيرها والمنافح عنها وهى تعلم أن فى رجالاتها أبرع منه حكمة وسداد رأى ، وفصاحة منطق ، ونصاعة بيان وسياسة تدبير ، فهو لم يتبوأ منها هذه المنزلة لتميزه بشرف جاهلى ، أو لسعة فى ثراء مالى ، بل لنبل نفسى وذكاء فطرى ، ظهرت عليه مخايله وهو فى إهاب الشباب وسن الفتوة ، فهو يحدثنا عن نفسه أنه ولد قبل الفجار الأعظم بأربع سنين ، وهذا الفجار يوم من أيام العرب ووقائعها ، أدركه النبى صلى الله عليه وسلم يافعا ، وكان ينبل فيه على عمومته ، ويحدثنا أيضا أنه أسلم وعمره ست وعشرون سنة ، فإذا نظمنا الحوادث فى سلكها رأينا أن قريشا قد وضعت فى يده معاقد ثقتها ، وجعلته مدره شرفها ، والذائد عن مناقبها ، والناشر لمفاخرها ، فى مطلع شبابه وفجر فتوته ، وفيها من صناديد مشيختها الذين عركوا الدهر ، وحنكتهم الأيام ، وساستهم التجارب ، عدد عديد .

جاء الاسلام ولفتى الخطاب هذا الشرف الخطير فى الجاهلية ، فكان — كما حدث عن نفسه — من أشد الناس على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين الذين انزووا بدينهم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يعبدون الله سرا وفرارا من أمثال « ابن الخطاب » الذين كانوا يلقون

منهم أشد التنكيل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتشوق الى إسلام « عمر » ليعز الله به الإسلام وأهله ، لما يعلم من قوة نفسه وشجاعته ومكانته فى قريش ، وكثيرا ما كان يسمعه أصحابه يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ! » وقد استجاب الله دعوة نبيه ، وصدق كلمته ، وأسرع فى تحقيق ما تشوق إليه ، فأسلم « عمر » وكان إسلامه عزا للمسلمين وفتحا للاسلام ، حتى كان عبد الله بن مسعود يقول فيما أخرجه البخارى : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقد صدق ابن مسعود ، فابن الخطاب هو الذى أخرج المسلمين من مخبئهم ، وأعلن كلمة الإسلام مدوية فى أرجاء مكة ، حتى تجاوبت بها آفاق أنديتهم ، ووجمت لها قريش ، واكتأبت باسلام « عمر » كآبة لم تر مثلها ، لأنها تعرف فيه الشخصية القوية القاهرة .

يحدثنا أنس بن مالك — فيما تضافرت بروايته السير — قال : خرج عمر متقلدا سيفه فلقيه رجل من بنى زهرة فقال : أين تعمد ياعمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمدا ، قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى كنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب ياعمر ! إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه ، فمشى عمر ذا أمر — أى يلوم نفسه على ما فاته — حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له : خباب بن الأرت ، فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت ، فدخل عليهما فقال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرءون « طه » فقالا : ما عدا حديثا تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما ، فقال له ختنه : ياعمر ! أرأيت إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها ، فنفحها نفحة بيده وفى وجهها ، فقالت وهى غضبى : ياعمر إن كان الحق فى غير دينك أتشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فلما يئس عمر قال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم لأقرأه — وكان عمر يقرأ الكتاب — فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل وتوضأ ! فقام فتوضا ، ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » حتى انتهى الى قوله : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » فقال عمر : دلونى على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال : أبشر ياعمر ، فانى أرجو أن تكون دعوة رسول الله لك ليلة الخميس « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار التى فى أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار ، وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخاف القوم منه ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة : نعم فهذا عمر ، فان يرد الله بعمر خيرا يسلم ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى داخل البيت يوحى إليه ، قال عمر فى إحدى الروايات : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثيابى ثم نثرنى نثرة فما تمالكت أن وقعت على ركبتى ، ثم قال :

ما أنت بمنته يا عمر ؟ قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قال : فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد ، قال عمر : فقلت يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى ، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ! قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن ! فأخرجناه فى صفين ، حمزة فى أحدهما ، وأنا فى الآخر ، له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد ، فنظرت الى قريش والى حمزة فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم « الفاروق » يومئذ .

هذا أول موقف إسلامى لابن الخطاب ، يمثل حالة من حالات انتقال النفوس من حضيض الحمية الجاهلية الى بهاء الايمان وسكينته ، ثم الى رسوخه وقوته ، كان عزة للاسلام والمسلمين ، وخزيا للشرك والمشركين . وللفكر فى تحليله مجالات تكشف عن مواطن العظمة فى نفس « عمر » وتبين لنا مطالع آيات العزة التى كسبها المسلمون باسلام « عمر » . ونحن نجيل القلم قليلا حول هذا الموقف لنجلو ما فيه من عبرة نرجو خيرها ونفعها لحاضر المسلمين :

أبت على ابن الخطاب نفسه العظيمة أن يرى البلد الحرام الذى جعله الله منذ القدم أمنا وسلاما للناس ، يضطرب بأعظم حادث يحاول به أحد بنى هاشم تغيير وجه التاريخ بدعوته الى دين جديد لا يعرفه العرب ، بل يهدم كيانهم الاجتماعى ، ويهدر شرفهم الجاهلى ، يسفّه أحلامهم ، ويحقر آلهتهم ، ويزرى بتقاليدهم ، ويفرق كلمتهم ، ويشتت جماعاتهم ، ويصدع قلوبهم بالشناءة فيما بينهم ، فاخترط سيفه ومشى فى عزيمة الأبطال لا يثنيه شىء ، ليفتك بصاحب هذا الدين الذى زلزل على العرب حياتهم ، ولكنه صدم بصخرة فى بيته ، فإذا أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد اعتنقا هذا الدين الجديد ، وآمنا بمحمد بن عبد الله ، وتحدث الناس بهذا الايمان ، وهو لا يعلم من علمه شيئا ، فثارت نفسه فوق ثورتها ، واضطرمت نيران الحمية فى رأسه ، وذهب لا يلوى على أحد تاركا محمدا وأصحابه حتى يبلو خبر بيته ، فدخل على أخته وختنه وصاحب لهما لم يقو على لقاء « عمر » فانزوى فى كن من البيت يرعد رهبة أن يبطش به « عمر » وإذا بهم يقرءون شيئا من القرآن فى سورة (طه) لم يتبينه « عمر » فسألهما عما سمع منهما ، فعرضا اليه لعله يقنع ، فأبى ولج فى إبائه ، وصارحهما بما بلغه من اتباعهما لمحمد فى دينه ، فأبى الإيمان إلا أن يتفجر منهما صريحا قويا ، فهم بهما تنكيلا ، فلم يفل ذلك من عزيمتهما ، بل زادها الإعنات إيمانا ويقينا ، وهنا تطفر الى الوجود معجزة الايمان وسحر اليقين !

فهذا « عمر » فى اكتمال فتوته وقوة شبابه وبطشه ، وعظم منزلته فى قومه ، خرج من بيته يغلى مرجل غيظه على هذه الدعوة الجديدة وأصحابها فتغافصه فى أقرب قرباه ، وبين يديه

فى عشيرته وهو لا يدرى بها ، وإذا به من غير تمهيد يهدأ ويمعن فى الهدوء ، ويذهب من نفسه ذلك الغضب الحانق الثائر ، ويبدل به اطمئنانا ورضا ، فيطلب الى أخته التى ضربها فأدماها وإلى ختنه الذى وطئه أشد الوطء ، أن يقرآه أو يسمعاه شيئا مما فى صحيفتهما ، فيأبيا عليه إلا أن يتطهر لأنه رجس وكتابهما طاهر مطهر لا يمسه إلا المطهرون ، فيطيع راضيا مختارا ، بل راغبا مشوقا ، ثم يقرأ فيما يقرأ « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » فتغمره موجة من نور الايمان ، ويسأل : أين محمد ؟ ! فيثبت ذلك الخائف المنزوى فى ستر البيت ليبشر « عمر » وقد رأى نفحة الايمان مست قلبه ، بأنه يرجو أن تكون دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بعزة الاسلام له لا لأبى جهل ، ويعلمه بمكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيأخذ « عمر » إليه طريقه ، وإذا بفتى الفتيان حمزة بن عبد المطلب — وكان قد سبقه الى الاسلام بثلاثة أيام — آخذ بالباب يحمى المؤمنين ، ويسمع الناس حسّ « عمر » فتزيغ منهم الأبصار هلعا ، وتنخلع من بين جنوبهم الأفئدة فرقا ، ويشتد خفق قلوبهم جزعا أن يمسهم « عمر » بسوء ، ولكنهم لم يلبثوا أن يسمعوا صوت الإيمان يدوى على لسان « عمر » فيكبروا تكبير الفرح والسرور بإسلام « عمر » ، وقد سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الاسلام بعمر بن الخطاب .

هنا يعجز أبرع الأقلام عن تصوير شخصية « عمر » فى تلك اللحظات التى تخللت خروجه من بيته متقلدا سيفه ظمآن الى الدماء يريد قتل « محمد » وجثوه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمنا أصدق الإيمان ، محبا للنبى صلى الله عليه وسلم أشد الحب ، حتى فاضت نفسه بهذا الحب العظيم فقال : فما فى الأرض نسمة أحب الى من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لم يرض « عمر » فى فتوته ، ورسوخ يقينه ، واعتداده بنفسه ، وقوة إيمانه ، أن يعبد ربه متخفيا ، والشرك يمشى فى طرقات مكة تياها جهير الصوت ، فاستأذن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن استمد من روحه قوة اليقين بتلك المسألة التى يقول فيها « عمر » : ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ فى أن يخرج معلنا دعوته فى وجه قريش وصناديدها ، فيجيبه النبى صلى الله عليه وسلم الى ما طلب ، ويخرج يحيط به أصحابه فى صفين على أحدهما « عمر » وعلى الآخر حمزة معلنين كلمة الحق جهيرة مدوية ، فتؤخذ بهذا المنظر الباهر قريش ، وتذهل عن نفسها وكأنما أصابتها قارعة ، أو نزلت عليها صاعقة ، لأن « عمر » بن الخطاب ذلك الفتى الذى كانت تدخره لأخطر أحداثها ، والذى تعرف له شجاعته وصلابته ، قد أصبح عليها لا لها ، ترك دينها ، وآمن مع هؤلاء المؤمنين بمحمد ودعوته ، وأعلن هذه الدعوة بعد استسرارها ، وجهر بها بعد خفوتها ، وصلى محمد فى الكعبة بعد أن حيل بينه وبينها ، ورد المؤمنون على الكافرين بعض كيدهم ، لاشتداد ساعدهم بهذا البطل الجديد الذى انضم الى صفوفهم .

بدأ الاسلام منذ اليوم حياة جديدة ، هى حياة الجهاد بين الحق والباطل ، والصراع بين الهدى والضلال ، فكان ذلك أعز موقف للاسلام وأول نصر فى تاريخه ، حتى قال صهيب وهو أحد السابقين : لما أسلم عمر ظهر الاسلام ودعى اليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن أغلظ علينا ، ورددنا بعض ما يأتى به . وقد تحدث عمر عن ذلك ـ فيما أخبرتنا به السير ـ قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال فيضربونه ويضربهم فجئت الى خالى فأعلمته إسلامى فدخل البيت ، وذهبت الى رجل من كبراء قريش فأعلمته فدخل البيت ، فقلت فى نفسى : ما هذا بشىء ؟ الناس يضربون وأنا لا يضربنى أحد ، فقال رجل : أتحب أن يعلم باسلامك ؟ فقلت : نعم ، قال : فاذا جلس الناس فى الحجر فأت فلانا فقل له : قد صبوت فإنه قلما يكتم سرا ، فجئته فقلت : تعلم أنى قد صبوت ، فنادى بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبا ، فمازالوا يضربونى وأضربهم ، فقال خالى : ياقوم إنى أجرت ابن أختى فلا يمسه أحد ، فانكشفوا عنى ، فكنت لا أشاء أن أرى أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيته ، فقلت : الناس يضربون ولا أضرب ، فلما جلس الناس فى الحجر أتيت خالى فقلت : تسمع ؟ قال : ما أسمع ؟ قلت : جوارك مردود عليك ، قال : لا تفعل ، فأبيت ، قال : فما شئت ، فما زلت أضرب وأضرب حتى أظهر الله الاسلام .

وبحق ما سماه النبى صلى الله عليه وسلم « الفاروق » ، فقد فرق الله به بين الحق والباطل ، وأظهر به الدين ، وثبت اليقين ؟

صادق ابراهيم عرجون

فضيلة الاقتصاد

قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فنهى سبحانه عن التقتير كما نهى عن التبذير ، ثم بين سبحانه وتعالى سبيل الاقتصاد فقال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ثم ذم المسرفين كما ذم الباخلين فقال تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » ولا إخال أنه يوجد أبلغ من هذا فى ذم التبذير .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من اقتصد .

وقال أمير المؤمنين عمر : « إن الله يحب القصد والتقدير ، ويكره السرف والتبذير »

وقال معاوية بن أبى سفيان : « حسن التقدير نصف الكسب وهو قوام المعيشة » .

سمو ولى عهد الدولة الايرانية

يزور الجامع الأزهر وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء قصد حضرة صاحب السمو الأمبراطورى الأمير محمد رضا بهلوى الجامع الأزهر ، فاستقبله هنالك حضرات أصحاب الفضيلة الأستاذ الامام ومفتى الدولة المصرية ، وشيوخ الكليات ، وأصحاب السعادة وكلاء وزارات المال والعدل والأوقاف ، وخالد حسنين بك كبير مفتشى العلوم الحديثة ، ومحافظ مصر بالنيابة ، ومدير المساجد .

وكان يرافق صاحب السمو الأمير صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا ، وسعادة محمد طاهر باشا ، ومحمد يسن بك .

فبدأ سمو الأمير بزيارة المبانى الأثرية فى داخل الأزهر ، وكان سعادة خالد حسنين بك يترجم لسموه بالفرنسية ما يقوله صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . ثم زار القبة الجوهرية ومكتبة الأزهر ، واطلع على بعض كتبها الخطية ، ثم زار قبة المدرسة الطبرسية وهى التى بها ضريح الأمير طبرس وزير الملك الناصر قلاوون ، وقد أنشئت سنة ٦٨٠ هجرية . ثم زار قبة الاقبغاوية وشاهد مصاحفها الأثرية وغيرها .

ثم انتقل سمو الأمير من المسجد الى الادارة العامة ، لزيارة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام زيارة خاصة فى مكتبه حيث تناول بعض المرطبات ، وكان يصحبه رفعة شريف صبرى باشا .

وقبل انتهاء الزيارة نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام وألقى كلمة من كلماته القيمة قام بترجمتها رفعة شريف صبرى باشا .

وكانت جماهير الناس والطلبة محتشدة فى ميدان الأزهر تهتف لسمو الأمير ، فدعا فضيلة الأستاذ الامام سمو الأمير للاطلال على الميدان ليرى مبلغ احتفاء أبناء الأزهر به ، فلبى الدعوة وأومأ بيده محييا جموعهم الغفيرة .

ثم غادر سمو الأمير إدارة الأزهر مودعا كما استقبل بأكبر مظاهر الإجلال ، فى وسط هتاف يشق عنان السماء ، من طلبة الأزهر وجموع الشعب الزاخرة فى حى الأزهر .

ولا بدلنا هنا من نشر كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، فانها فوق ما احتوت من عبارات التحية والاحتفاء بالزائر العظيم ، اشتملت على نبذة تاريخية جليلة القدر فى مبلغ ما عمله الايرانيون فى مجال العلوم الاسلامية ، وما خلفوه من ثمرات عقولهم فيها .

قال حفظه الله :

حضرة صاحب السمو الامبراطورى :

إن من دواعى الغبطة والسرور أن أرحب بسموكم باسم الأزهر الشريف ، أقدم جامعة فى العالم ، وأكبر معهد إسلامى .

يرحب الأزهر بسموكم لما اشتهرتم به وعرف عنكم من الثقافة العالية ، والآداب الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، والشخصية المحبوبة ، ولأنكم ولى عهد مملكة من كبريات الممالك الاسلامية وأعرقها فى الحضارة والمدنية ، ولأن لبلادكم الخالدة فى المجد ذكرا مجددا كل يوم فى الدراسات الأزهرية ، فما من علم من العلوم الاسلامية إلا ولرجال بلادكم فيه أثر مشكور وعمل محمود .

ولا يزال علماء الأزهر وطلابه يذكرون لهؤلاء الرجال فضلهم كلما اقتبسوا من آرائهم القيمة ما يضىء لهم السبل فى البحوث العلمية .

فصلتنا ببلادكم ياصاحب السمو ليست حديثة العهد ، وإنما هى صلة قديمة يعرفها علماء الاسلام منذ فجر الاسلام ، ولكن الله سبحانه أراد أن يحكم الروابط بين البلدين ، ويزيد فى وثاقة الصلة بين الشعبين ، فكانت هذه الرابطة الكريمة — رابطة المصاهرة السعيدة ، التى شرفتم ياصاحب السمو بلادنا من أجلها — خير ماتوثق به أواصر المحبة ، وتتم به دواعى الألفة والمودة .

ياصاحب السمو الامبراطورى :

فى الوقت الذى تنبه فيه المسلمون الى ضرورة إحكام الروابط والصلات بين الشعوب الاسلامية ، نبتت هذه الفكرة السامية : فكرة المصاهرة الميمونة إن شاء الله ، فتوثقت بها الصلات بين أمتين عظيمتين من أمم الاسلام ، وقربت الوصول الى وحدة إسلامية لامناص من رجوع المسلمين اليها .

وإذا كان القرآن هو إمام الجميع ، وكان بيت الله فى البلد الأمين هو قبلة الجميع ، وجب أن يكون المسلمون فى جميع الأمم إخوة فى دين الله ، لايفرق بينهم تعدد المذاهب واختلاف الآراء . على أن نفسى تحدثنى بأنه كلما زاد العرفان وقوى الايمان ، وخلصت النيات لله سبحانه ، ضاقت مسافة الخلف فى الرأى ، ورجع المسلمون الى القرآن يستهدونه ويتلقون عنه عقائدهم وشرائعهم ، وإذ ذاك يلمس المسلمون السعادة كاملة ، ويستمتعون بلذة الأخوة فى الله وفى دين الله .

وإنى ياصاحب السمو الامبراطورى : أشكر لكم تكرمكم بزيارة الأزهر الشريف ، وتفضلكم بزيارة هذه الدار المعدة لادارته . ولقد يطيب لسموكم أن تعلموا أن هذه الدار واحدة من دور عظيمة فكر فى بنائها المغفور له الملك فؤاد الأول رحمه الله ، وسيتم بناؤها بفضل الله فى عهد حضرة صاحب الجلالة صهركم العظيم مليكنا المحبوب فاروق الأول ، أعزه الله بنصره ، وأيده بروح من عنده !

وإنى لأرجو لسموكم إقامة طيبة فى بلاد مصر العزيزة ، وسعادة دائمة فى ظل والدكم العظيم صاحب الجلالة الامبراطورية الشاهنشاه ، أدامه الله ، وأيد ملكه ، وأعز به بلاده !

ما جنته الداروينية على الانسانية

مبدأ التناحر بين الأفراد والجماعات

ظهرت الداروينية فى سنة ١٨٥٩ حاملة اسم مؤسسها شارل داروين المؤرخ الطبيعى الانجليزى ، قائمة على نواميس أربعة لتعليل وجود الأنواع الحية على سطح الأرض سواء أكانت نباتية أم حيوانية ، من أول الأحياء ذات الخلية الواحدة الى الانسان نفسه ، وهذه النواميس هى : ناموس التناحر بين الأحياء ، وناموس الانتخاب الطبيعى ، وناموس المطابقة ، وناموس الوراثة ، فالأول مؤداه أن بين الأحياء من نوع واحد أو أنواع مختلفة كفاحا على وسائل الحياة ، يهلك فيه الضعفاء ويبقى الأقوياء ، ثم يستمر الكفاح بين الأقوياء فيبقى المتفوقون فى القوة وهلم جرا ، فتكون نتيجة ذلك بقاء الأصلح للبقاء ، وهذا مؤداه أن الطبيعة تعمل على استصفاء الأكمل ، كأنها تنتخب من كائناتها ما كان أصبر على الكفاح ، وأجمع لوسائل البقاء ، وقد اعتبر هذا العمل الدائم ناموسا طبيعيا أطلق عليه اسم ناموس الانتخاب الطبيعى ، تفرقة بينه وبين ناموس الانتخاب الصناعى ، وهو ما يفعله الانسان من اختيار أحسن البذور للاستنبات ، أو أكمل آحاد الحيوانات للاستيلاد ، للحصول على آحاد جيدة فى أنواعها .

أما ناموس المطابقة فمعناه أن للبيئة وانقلاباتها ، ولنوع الأغذية وطرق الوصول اليها ، دخلا كبيرا فى أحدث الاختلافات بين الأنواع .

وأما ناموس الوراثة فمؤداه أن الصفات الجديدة التى يكتسبها الأفراد تحت تأثير الكفاح ، يورثها كل جيل لأخلافه ، فتبقى ثابتة فيهم مع قبولها للارتقاء ، ولما تبلغ حدا بعيدا فى طائفة من طوائف أحد الأنواع تصبح تلك الطائفة مباينة لجميعها ، فتعتبر نوعا مستقلا عنها . وعلى هذا النحو تكثرت الأنواع وباين بعضها بعضاً ، وبعدت شقة الخلاف بينها حتى يصعب على من يراها أن يحسبها كلها متولدة من نوع واحد ، من شدة ما باينت وجوه الخلاف بينها وبين أصولها فى الشكل والحجم والغرائز . فمن الذى يستطيع أن يتخيل أن الانسان والبرغوث والثعبان والفيل والنقاعيات والطيور والسلاحف والميكروبات ، كلها نشأت من خلية أو خلايا معدودة ، وإنما نوّعها تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، واكتساب الصفات الجديدة ، وناموس المطابقة والوراثة ؟ يعد هذا من المحالات العقلية ، ولكنه فى نظر الداروينيين من المرجحات العلمية .

لما نشر داروين مذهبه هذا قابله العلماء والناس بعاصفة من الانتقادات ، ولكنه صمد لها ودحضها كلها ، فصبأ اليه جمهور العلماء فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وامتدت أصوله على العلوم الأخرى حتى الآداب والشرائع . ولكن ماعتم الناس أن أفاقوا من اغترارهم به

بسبب ظهور اكتشافات جديدة فى العلوم ، فبات العلماء يعتقدون أن مثله كمثل غيره من التعليلات التى سبقته ، ثم قضى عليه نهائيا باكتشاف العلامة الهولاندى (دوفريس) للتطورات الفجائية فى عالم الأحياء ، فبطل سحره الذى كان آخذا بأكظام العقول ، وأصبح الناس تحت ضوء هذا الاكتشاف الجديد يعتبرون مسألة تنوع الأنواع سرا من أسرار الخليقة ، لا يحل إلا تبعا لحل مسألة الوجود برمتها .

قلنا : إن النقد العلمى أسقط مذهب دارون قبل أن يسقطه تجريبيا مذهب دوفريس ، مكتشف التطورات الفجائية التى رأى فيها بالتجربة أن نوعا جديدا قد يتولد مفاجأة من نوع موجود ، حاصلا على جميع مقوماته وغرائزه ، بحيث يخيل للناظر اليه أنه نشأ نشوءا تدريجيا فى آماد طويلة جدا ، فما هى تلك الانتقادات العلمية ؟

أولها : ما ثبت من أن التناحر الذى تخيله دارون ، لا وجود له بين آحاد النوع الواحد ، ولكنه موجود بين الأنواع المتباينة . فقد ثبت أن بين أفراد النوع الواحد تعاونا وترافدا عظيمين يمكنانه من البقاء والاستمرار . فسقط بذلك ناموس الانتخاب الطبيعى الذى يعلل به دارون نشوء الأنواع الجديدة فى الآماد الطويلة ، وجاءت تجارب (دوفريس) فى نشوء الأنواع مفاجأة مجهزة على هذه النظرية .

ونبغ الأستاذ الألمانى (وِسْمَن) « Weismann » تلميذ دارون فأثبت بالمشاهدات أن الصفات التى يكتسبها الآحاد لا تنتقل الى أخلافها بالوراثة ، وتبعه جمهور الداروُنيين حتى قال العلامة البيولوجى الكبير لودانتك أحد أساتذة جامعة السوربون فى كتابه (أزمة مذهب التطور) : إن أكثر الداروُنيين أصبحوا وسمنيين .

وجاء أخيرا الأستاذ (دوفريس) مثبتا بالتجربة أن الأنواع التى تتولد مفاجأة تكون حاصلة على جميع مقومات النوع الجديد وغرائزه (بدون كسب) . فأجهزت هذه التجربة على مسألة اكتساب الصفات الجديدة وتوريثها إجهازا لا هوادة فيه .

فأصبح مذهب داروُن والحالة هذه ليس له إلا قيمة تاريخية ، ولكن لأجل أن يتعدى هذا الاعتبار حيز أهل العلم الى حيز الدهماء ، يجب أن يمر وقت طويل ، لأن هؤلاء متى نشبت فيهم عقيدة صعب تخليصهم منها ، فلا يزال فريق كبير من الكتاب ومن الذين يتحككون فى العلم والعلماء ، يعتقدون أنه لا يزال لمذهب داروُن السلطان الذى كان له على العقول ، وأفظع ما بقى لهم منه ، وأشده ضررا بالمجموع الانسانى ، اعتقادهم الراسخ فى أن الحياة لا تقوم إلا على الكفاح بين الأفراد والجماعات ، وهى عقيدة أفسدت قلوب كثير من الشعوب ، وجملتها تعتقد أن لا حق إلا مع القوة ، وأن الحرب لابد منها لحل المشكلات ، وفض الخلافات ، وأن

التبسط فى الأرض ، وتدويخ الأمم ، حق للأقوياء على الضعفاء ، بل إنه لا يمكن أن تترقى الأفراد ، وأن تزدهر الصناعات والمدنيات ، إلا بتغلب القوى على الضعيف وإبادته وأخذ ما بيده !

نعم : ليست هذه المزاعم من بنات المذهب الداروني ، فقد كانت موجودة منذ وجدت الجماعات الأولى على سطح الأرض ، ولكن جاء المذهب الداروني فجعل لها مستندا علميا . قال الأستاذ (هربرت سبنسر) فى المجلد الثالث من كتابه أصول الاجتماع :

« إن ذيوع مبدأ الكفاح لأجل البقاء فى جميع العالم الحيوانى ، كان وسيلة ضرورية لتطوره . فإننا نرى أن تزاحم أفراد النوع الواحد على مواد الحياة ، وبقاء الأصلح منها ، قد ساعد على إيجاد الطبقات الراقية منها . ونرى أيضا أن الحروب المستمرة بين الأنواع هى السبب الرئيسى فى نمائها وفى نظامها أيضا . فبدون التناحر العام لا يمكن أن يحدث تطور للخصائص الفعالة . فمن ناحية الحيوانات المفترسة رأينا أن موت بعض آحادها جوعا ، ومن ناحية أخرى الحيوانات التى تصلح لأن تكون فرائس لغيرها ألفينا أن موتها بواسطة الاجتياح ، قد أبادا الآحاد والأنواع الأقل كمالا فى التسلح » .

هذا فى عالم الحيوان ، أما فى عالم الانسان فإن التناحر على قول الداروينيين هو الوسيلة الوحيدة لنمائها وترقيها ، وحصولها على جميع مقومات الحياة والمدنية ، فقد قال سبنسر فى كتابه المتقدم ذكره صفحة ٢٢٧ :

« يجب علينا أن نعترف بأن التناحر لأجل البقاء بين الجماعات البشرية كان الأداة فى ترقيها وتطورها . فلا تحوّل الطوائف الصغيرة الى طائفة واحدة كبيرة ، ولا انتظام الجماعات المتآلفة وتضاعفها ، ولا ازدياد عوامل الوجود فى حالة أوسع وأرقى ، كل ذلك لم يكن ممكنا بدون الحروب التى حصلت بين قبيلة وقبيلة ثم بين أمة وأمة . ذلك أن مصدر التعاون الاجتماعى هو العمل المركب الناتج من الحاجة الى الهجوم والدفاع . فمن هذا الضرب من التعاون نتجت جميع ضروبه الأخرى . مما لا مشاحة فيه أنه من المحال تبرير الفظاعات التى تتسبب من جراء هذا التناحر العام الذى ابتدأ منذ عشرة آلاف سنة بين الجماعات الصغيرة ، وانتهى الى المعارك الكبرى بين الأمم العظيمة ، ولكن يجب الاعتراف بأنه لولا هذه الفظاعات كانت الأرض لا تزال مسكونة بأناسى من صنف ضعيف لا مطمع له إلا البحث عن موئل يلجأ اليه فى الكهوف والمغار ، والقناعة بالأغذية الغليظة . فالتناحر بين الجماعات لأجل البقاء كان شرطا ضروريا لترقى تلك الجماعات . ونحن نعترف بأننا مدينون للتناحر بقيام الأمم العظيمة ، وبترقى أدواتها فى الحياة » .

وقد تأثر الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) الفرنسى بهذه الآراء فقال فى كتابه : (الاصلاح العقلى والأدبى) (La Réforme intellectuelle et morale) :

« إذا لم يكن الحمق والإهمال والكسل وعدم التبصر دافعة بالممالك الى الحروب لكان

من الصعب أن يتخيل الانسان الى أى دركة من الانحطاط يسقط النوع البشرى . فالحرب والحالة هذه عاملة من عوامل الترقى ، وهى السوط الذى يلهب الأمة ويمنعها النوم ، ويضطر الحالة الراكدة المخلدة الى الجمود للخروج من جمودها . فالانسان لايسنده فى الحياة إلا الجهد الجاهد والكفاح . فاليوم الذى تصبح فيه البشرية أشبه بدولة رومانية رائعة فى بحبوحة السلام ، وليس لها أعداء يتربصون بها الدوائرمن الخارج ، فذلك يكون اليوم الذى فيه تتعرض فيه أخلاقها وعقولها الى أشد الأخطار » .

هذا رأى الفيلسوف إرنست رينان ، وليس هو الوحيد فى هذا المذهب ، فيكون الساعون لنشر السلام العام عاملين فى نظرهم على هدم العوامل التى ترقى البشرية . بخ بخ !

على أن الدارونية قد تحطمت أصولها ، وخرت على نفسها ، بظهور مذهب دوفريس الذى سبق ذكره ، وهى إذا أظهرت الحرص على مبدأ التناحر فذلك لأنه الأصل الأصيل فيها . ولكن تسرية الأصول الى هذا الحد يكون فيه القضاء عليها ، فإن جمهرة علماء النفس والاجتماع قد حقروا من شأن هذا الأصل حتى جعلوه طابعا للغباوة لايمحى أثره فى قسمات الدارونيين .

قال الأستاذ الاجتماعى الكبير (نوفيكو) فى كتابه (نقد الدارونية فى ناحيتها الاجتماعية) (La critique du darwinisme social) :

« أدرك الناس الطريق الملتوى الذى سلكه الدارونيون لترويج سفسطتهم هذه (يريد مبدأ التناحر) . فانهم لم يستطيعوا أن يؤكدوا أن القتل الجلى هو السبب المباشر للترقى . فان فى مساء يوم معركة ، عندما يكون مائة ألف رجل مجدّلين على الأرض ، بعضهم قتيل وبعضهم فى سكرات الموت ، يكون من الصعب الزعم بأن هذه المجازر وهذه الآلام يمكن أن تثمر التقدم للانسانية . لذلك لا يتجرأ أى داروني أن يؤيد أية قضية مضادة للعقل الى هذا الحد . ولكنهم يزعمون أن التهيؤ لارتكاب هذه الوحشيات ، هو الذى يبعث على الترقى ، باعتبار أن الشعب الأحسن استعدادا للحرب هو الذى ينال الغلب فيها . وقد علمت أن التهيؤ للحرب يستدعى أعمالا متتابعة تشحذ العقلية البشرية ، ومن هنا استنتجوا أن التناحر الجلى يؤدى الى التقدم فى المدنية . وهذا القول مما يكاد لا يشعر الانسان بضرورة دحضه لوضوح ضعفه . فأولا القضية الرئيسية باقية كما هى ، وهى : أن كل شىء يتبع ما سيفعله الغالب بعد انتصاره . فإذا أحدث أحسن النظم ، فان الترقى يكون ثمرة هذه النظم لا ثمرة الحرب . وثانيا توجد هناك قضية أكثر تحتما فى هذا الموضوع ، وهى : إذا كان مبلغ الجهود العقلية التى بذلت للاستعداد للمعركة ، بذلت لتحسين حال الناس مباشرة ، كان الترقى الانسانى سار بخطوات أسرع .

الى أن قال :

« إن التناحر الفردى والجلى هادم للبناء الاجتماعى ، لأنه يقف سير الظواهر الاجتماعية ،

ويضطرها لأن تعـود الى متابعة سـيرها بعد الحرب . وأن تطبيق الوسائل البيولوجية على الجماعات البشرية فضلا عن أنه لا يسرع بها الى الترقى ، يحط من درجة النوع البشرى فى سلم الـكائنات الأرضية . هذا أمر واضح لأن الترقى البشرى يتأتى من إصلاح النظم الاجتماعية ، وهذا الاصلاح يقف مدة حصول تلك المجازر على الأقل . ولم تصدر القرارات الخاصة بالعمل وحماية الطفولة فى ساحات القتال ، ولـكن داخل قاعات البرلمانات . ولست أفيض فى ذكر الحروب التى جرت حوادث السوء على النظم المقررة لدى الغالب والمغلوب معا . وسـيادة الروح العسكرية تفضى غالبا الى قيام حكومة استبدادية . وقد شوهدت ممالك كانت حرة ، بمعنى أنه كانت فيها ضمانات كافية للافراد ، أصبحت بعـد الحرب مستعبدة ، أى ليس فيها ضمانات كافية للأفراد » .

هذا رأى عالم اجتماعى من أكبر أعلام هذا العلم فى الغرب اليوم ، ويوافقه جمهور الاجتماعيين ، ولـكن المبادىء مهما كانت بعيدة عن التثبت العلمى تجد لها دائما أنصارا لدى الأمم التى تلائم تلك المبادىء هواها واستعدادها الفطرى ، فتتخذ هذه المقررات مسوغا لها للظهور بمظهر الأمة الحربية التى ترى فى الحرب سعادتها ومثلها الأعلى .

وقـد شهد الناس ما حدث من أمر الحرب العظمى ، فانها بعد أن أبادت ملايين من خيرة شبان الأمم ، وأتت على ثروات لا تقدر بقيمة ، عادت بشر لا حد له على البشرية ، فقد أيقظت فى نفوس الجماعات التى تناحرت ميلا للثأر . فما كادت تضع الحرب أوزارها حتى عاد الاستعداد للحرب سيرته الأولى بل أشد ، وسفلت الآداب الاجتماعية ، وطغت الطبيعة الحيوانية الى حد أن رجال الحرب أصبحوا يتحدثون لا فى سحق الجيـوش فى ميادين الوغى فحسب ، ولـكن فى تحطيم المدن ، وتسميم سكانها بالغازات المهلكة ! فاذا كان فى العالم من يرى أن ما تأدى إليه الناس فى العشرين السنة التى تلت الحرب هو من الترقى الذى يجب أن تتطلبه الانسانية ، فذلك الانسان يكون فذا ، ولا يجد من يوافقه إلا الأفذاذ من أمثاله !

والذى دعا قدماء الهنديين والصينيين والمصريين والآشوريين والفرس الى التأمل فى الوجود والتدبر فى كائناته ، ودراسة النفس والعقل ، وبناء أصول الحـكمة وإقامة صرح العلم ، ورفع عَلَم العمران ، ليست هى حالة التناحر التى يتغنى بها الداروئيون ، ولـكنها حالة السلام التى كانت ضاربة أطنابها فى تلك الأقطار ، وكانت تأتى الحروب فتفسد من تلك الأعمال الجليلة وتعطلها حينا ، ثم تزدهر متى عاد السلام .

ربمـا يقول الداروئيون : إن ما تذكره من توفر تلك الأمم على الأعمال المدنية والعمرانية ، كان بسبب ما انتابها من حـوادث التناحر ، فأيقظت من عقولها ، ولطفت من نفوسها ، ودفعت بها الى باحات الابداع .

فنرد عليهم بأنه لو كان الأمر كما يقولون لكانت تلك الثمرات العقلية الجنية مطبوعة بطابع حربي أو عليها عبقة منها ، أو متجهة الى ناحيتها ، والواقع أن الانسان اتجه بتلك الثمرات الى نواح تدابر مبدأ التناحر من كل وجه ، فقرر أصول الفضائل النفسية ، والآداب الخلقية ، وأشاد بالتواضع ، وندد بالكبرياء ، ونوه بالقناعة ، وشنع على الطمع ، وعظم من شأن العطف على الضعفاء ، والعفو عن الجناة ، ومقابلة الاساءة بالصفح ، وهذه أكثر مايدل على شرف محتد الانسان ، وعراقته فى السمو عن الحيوانية ، فهل كانت هذه الثمرات من توليدات مبدأ التناحر وهى لا تدعو الى شىء مما يناسبها من إيثار السيطرة والغشمرة والكبرياء والخيلاء ؟

ربما قال الدارونيون : إن هذه الثمرات التى تصفونها بالسمو والكرامة ، هى التى حطت مستوى القوة عند كثير من الجماعات السابقة ، وجعلتها فرائس لغيرها من الأمم التى تقول بما يناقضها ، وهى التى تحط الى اليوم من أقدار الأمم التى تعول عليها أو تتخذها مُثلا عليا .

نقول : إذا كنتم تصدرون فى مذهبكم عن العلم ، فقفوا فى المجال العلمى ، ولا تتسللوا منه الى مجالات الخيال . إنكم تعلمون أن الأمم من أقدم عهودها اشتغلت بتوليد هذه الثمرات التى نصفها بالعراقة فى السمو عن الحيوانية ، وهى التى دعت الناس الى الترامى فى أحضان الأديان التى تأمر بها ، وتحض عليها . فكيف تنبت فى بيئة أول ما أحست به فيها الحاجة الى التناحر ؟ وكيف تغلبت على سائر الأصول الداعية الى الكبرياء والغطرسة والعنف ، وسادت حتى جعلت من ليس من أهلها يتظاهر بأنه من أخص أهلها لينال الحظوة من الناس ؟

لو فكر الدارونيون فى هذه المسألة لأدركوا أن الطبيعة البشرية العالية وإن التاثت بالصفات الحيوانية أحقابا طويلة مضطرة ، فانها عادت فتغلبت على النواميس الفولاذية المحيطة بها ، وأنشأت لنفسها جوا ملائما لشعورها الصميم ، وحقيقتها العلوية ، فغلبت مبادىء العدل والمساواة والتواضع والايثار ، على الصفات الحيوانية من الضراوة والبطش والأثرة والغلب . وإذا كانت المبادى الدارونية قد عجزت فى خلال ثمانين سنة أن تقنع الأمم بصحة مذهبها فى هذه الناحية ، فهى ستكون أعجز بعد اليوم ، وقد اتضح للناس كافة بكل دليل ، أن الحرب شر مستطير ، وأنها لو وقعت لأبادت خضراء الأمم ، وحطمت ما أقامه السلام من صروح العلم والمدنية .

وإنى أؤكد للقراء أن دارون وأركان حزبه لو كانوا عاشوا حتى رأوا الحرب العامة وماجرته على الانسانية من شرور ونوازل ، لغيروا من رأيهم ، ولانضموا الى شيعة السلام العام . ولو كانوا بقوا الى عهدنا هذا ورأوا أن الأمم تتبارى فى الاستعداد لإهلاك الناس بوساطة الغازات الخانقة والمحرقة ، لقالوا إن الحرب أصبحت جريمة ، وأصبح من يفكر فى إيقاد نارها مجرما ؟

محمد فريد وجدى

الشافعى رضى الله عنه

واضع علم أصول الفقه

الشافعى هو : محمد بن إدريس القرشى من جهة الأب ، الأزدى من جهة الأم ، يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف . ولد فى بلاد الشام بغزة أو عسقلان سنة ١٥٠ ه ولما مات أبوه حملته أمه الى مكة وهو ابن سنتين .

نشأ رضى الله عنه فقيرا حتى إنه قال عن نفسه :

« كنت يتيما فى حجر أمى ولم يكن لها مال ، وكان المعلم يرضى من أمى أن أخلفه إذا نام ، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة ، وكانت دارنا فى شعب الخيف ، فكنت أكتب فى العظم فاذا كثر طرحته فى جرة عظيمة » الى أن قال : « خرجت من مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة ، وكانت أفصح العرب » . ولا شك أن إقامة الشافعى بالبادية هذبت لسانه ، ومعرفته باللغة والشعر أعانته على فهم معانى القرآن والسنة ، وطبعت أسلوبه بطابع الرصانة ، وأوصلته الى الذوق السليم ، حتى لقد قرأ عليه رجل فلحن فقال له الشافعى : أضرستنى ! وحكى عن مصعب الزبيرى قوله :

« كان أبى والشافعى يتناشدان ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا وقال : لا يعلم بهذا أحد من أهل الحديث فانهم لا يحتملون هذا » معجم الأدباء ص ٣٨٠

وقد روى أن الأصمعى أخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنفرى ، ولما انقادت له اللغة والشعر اتجه الى مكة وأخذ عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى الحديث والفقه وحفظ الموطأ ، ثم رحل الى مالك فى المدينة وسمع منه الموطأ وأخذ عنه فقهه ، ولازمه الى أن مات مالك سنة ١٧٩ ه

عقب هذا توجه الشافعى الى اليمن لأنه كان نهما بطبعه فى العلم يلتمس كل ما يجده من فنونه . وقد ذكر من ترجموا له أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب الى اليمن ، وعالج الفلك والطب .

قدم الشافعى بغداد وأقام بها سنتين ، ثم قفل راجعا الى مكة ، ثم قدم بغداد ثانية سنة ١٩٨ه وأقام بها أشهرا ، ثم خرج منها الى مصر سنة ١٩٩ ه وظل بها الى أن مات سنة ٢٠٤ ه

وأثناء إقامة الشافعى بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين ، وهنا قال ابن حجر :

« انتهت رياسة الفقه بالمدينة الى مالك بن أنس ، ثم رحل إليه الشافعى ولازمه وأخذ عنه .

وانتهت رياسة الفقه بالعراق الى أبى حنيفة فأخذ الشافعى عن صاحبه محمد بن الحسن . وعلى ذلك اجتمع للشافعى علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث ، فتصرف فى ذلك حتى أصل الأصول وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره وعلا ذكره ، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار » توالى التأسيس ص ٥٤

وأما صفات الشافعى العقلية واللسانية ، فأجمع المؤرخون على حسن بيانه وقوة عارضته ، وقدرته الفائقة على الجدل ، ومهارته الممتازة فى الاستنباط ، وأن ثقافة الشافعى فى اللغة والأدب واسعة شاملة .

ولعل اتصال الشافعى بأصحاب أبى حنيفة والاستفادة من كتب محمد ، ثم علمه بطريقة أهل العراق ، جعله يرى طريقتهم لا يحسن الأخذ بها كما لا يحسن تركها . فالقياس عندهم منهاج صحيح ولكنه فى نظره ليس على إطلاقه بل لا بد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة ، ثم عندهم طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها ، وعندهم الجدل والاستدلال بالعدل والمصلحة وإلحاق الشبيه بالشبيه ، وما بين الإسناد من فروق ثم من موافقات . فرأى الشافعى أن يضيف كل هذه الثروة العراقية الى ثروته الحجازية من اللغة والأدب أولا ، ومن الاستنباط أخيرا ، فهاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعى وألف بينهما شخصيته ، فأخرج مذهبا جديدا دعا إليه فى العراق سنة ١٩٥ هـ وتبعه عليه من أصحابه البغداديين أمثال أبى على الحسين بن على الكرابيسى وهو من مشاهير أهل العراق ، ومثل أبى ثور الكلبى وكأبى على الزعفرانى . ثم رأى رضى الله عنه أن يرحل الى مصر فوصل إليها وأقام بها أربع سنوات ، أملى فيها كثيرا من كتبه .

مسلك الشافعى فى الاجتهاد :

قال : « الأصل قرآن وسنة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر المفرد والحديث على ظاهره ، وإذا احتمل معانى فما أشبه منها ظاهره أولاها به ، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها ، وليس المنقطع بشىء ماعدا منقطع ابن المسيب ، ولايقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لمَ وكيف ، وإنما يقال للفرع لِمَ ؟ فاذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة » وقال أيضا :

« إذا حدّث ثقة عن ثقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن هناك حديث يخالفه عمل به ، فإذا كانت هناك أحاديث مختلفة نظر هل فيها ناسخ ومنسوخ ؟ فإن لم يكن هناك ناسخ ومنسوخ نظر فى أوثق الروايات وأمعنها فى الصحة فعمل بها ، فإن تكافأت عرضها على أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الأحاديث أقرب الى ذلك ، وإذا ثبت الحديث عن رسول الله لايترك هذا الحديث لأى قياس ولا لأى رأى ولا لأى أثر يروى عن صاحبه كائنا من كان ، أو تابعى كائنا من كان » ضحى الإسلام الجزء ٢

موقف الشافعي من القياس :

وقف الشافعي من القياس موقفا وسطا : لم يتشدد فيه تشدد مالك ، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة ، فهو يقول :

« إن جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار ثم القياس عليها ، ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها ، وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأدبه ، وناسخه ومنسوخه ، وعامه وخاصه . ولا يجوز لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف ، وإجماع الناس واختلافهم ، ولسان العرب . ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل ، وحتى يفرق بين المشتبه . ولا يعمل بالقول به دون التثبت . ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ، ويزداد به تثبتا فيما اعتقد من الصواب ، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك » (رسالة الشافعي في الأصول ص ٧٠) . ومن هنا ترى الشافعي يهاجم مالكا في قوله بالمصالح المرسلة ، ويهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان .

من هذه الآراء العلمية التي أوردها الشافعي ، استطاع تحديد موقفه بقواعد فقهية لم يسبق أن فكر فيها مشرع . ولا يخفى كما سبق أن بينّا أن رحلته الى المدينة واليمن ومكة والعراق ومصر كان لها أثرها المحسوس في ثقافته في الحديث ، وأنه بالرغم من هذه الثقافة لم يتعصب لأهل بلد من هذه البلدان . ولهذا كان المحدثون أميل بطبعهم الى الشافعي ، لأنه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة ، وحدّ من الرأي والقياس وضيق سلطتهما كذلك . وكان من أنصاره أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وغيرهما من كبار المحدثين .

ونظرا لأن الشافعي قرّب وجهة النظر بين المدرستين : مدرسة الحجاز ، ومدرسة العراق ، وانتخابه ما رأى الحق في كلتيهما ، فقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب أبي حنيفة الى مذهبه الجديد .

وقال فخر الدين الرازي ص ٢٤٣ :

« إن الناس كانوا قبل الشافعي فريقين : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي . أما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة ، عاجزين عن تزييف طريق أصحاب الرأي ، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة الكتاب والسنة . وأما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفا الى تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم . فجاء الشافعي ، وكان عارفا بأصول الفقه وشرائط الاستدلال ، وكان قويا في المناظرة والمجادلة ، فرجع عن قول أصحاب الرأي أكثر أنصارهم وأتباعهم » .

وقال فى موضع آخر : « اعلم أن نسبة الشافعى الى أصول الفقه كنسبة ارسطاليس الى علم المنطق ، وكنسبة الخليل ابن أحمد الى علم العروض ، وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطو يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ، لكن ما كان عندهم قانون مخلص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين . فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة ، فان مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى قلما أفلح . فلما رأى ارسطاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة من الزمن واستخرج علم المنطق ، ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة ترتيب الحدود والبراهين . وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن احمد ينظمون أشعاراً ، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع ، فاستخرج الخليل علم العروض ، فكان ذلك قانونا كليا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده ، فكذلك هاهنا الناس كانوا قبل الامام الشافعى رضى الله عنه يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة ، وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى رحمه الله علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع . فثبت أن نسبة الشافعى الى علم الشرع كنسبة ارسطو الى علم العقل . واعلم فوق ذلك أن الشافعى صنف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، وفى كل واحد منهما علم كثير . والناس وإن أطنبوا بعد ذلك فى علم أصول الفقه إلا أن كلهم عيال الشافعى فيه ، لأنه هو الذى فتح هذا الباب ، والسبق لمن سبق » الرازى ص ١٠٠ وما بعدها .

كتاب الأم :

كتاب وضعه الشافعى ، وهو مجموع أمال أملاها فى حلقته ، كتبها عنه تلاميذه وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم . والكتاب فصيح العبارة ، حسن الأداء ، محكم الوضع ، عليه مسحة من كلام البادية وفصاحتها . وفى الكتاب تتجلى براعة الجدل المنطقى . والكتاب مبوب على أبواب الفقه كما فعل مالك فى الموطأ ، وقد أمليت هذه الأبواب فى مصر . والكتاب يعطينا صورة وضاءة قوية لمناحى الشافعى فى الاجتهاد ؛ وعلى مذهبه الجديد .

لماذا وضع الشافعى علم أصول الفقه ؟

أهل الحديث كانوا يعيبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن . فأصحاب أبى حنيفة يقدمون القياس على خبر الواحد ، وهم يقبلون الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى الى النبى صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث ، ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفا للقياس ، ولا يقبلونه فى الواقعة التى تعم فيها البلوى ـ الرازى ص ٣٥٠ و ٣٥١

لما ذهب الشافعى الى العراق أول مرة استرعى نظره تحامل أهل الرأى على أستاذه مالك

وعلى مذهبه ، وكان أهل الرأى أقوى سندا وأعظم جاها بما لهم من المكانة عند الخلفاء ، وبتوليهم شئون القضاء . ذلك الى أنهم أوسع حيلة فى الجدل من أهل الحديث وأنفذ بيانا . ويمثل حال الفريقين ماروى عن إمامى أهل الرأى وأهل الحديث : أبى حنيفة ، ومالك .

لهذا كان طبيعيا أن يجادل الشافعى عن أستاذه وعن مذهبه ، وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبه .

وقد روى أبو عبد الله الصغانى يحدث عن يحيى بن أكثم قال : « كنا عند محمد بن الحسن فى المناظرة ، وكان الشافعى رجلا قرشى العقل والفهم صافى الذهن سريع الاصابة ، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء » ابن حجر ص ٥٩

وعن محمد بن الحكم قال : « سمعت الشافعى يقول : قال لى محمد بن الحسن : صاحبنا أعلم من صاحبكم (يعنى أبا حنيفة ومالكا) وما كان على صاحبكم أن يتكلم وما كان لصاحبنا أن يسكت . قال : فغضبت وقلت : نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك أو أبو حنيفة ؟ قال : مالك ولكن صاحبنا أقيس ، فقلت : نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى حنيفة ، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام » الانتقاء ص ٢٤ .

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك فى قدوم الشافعى الى العراق أول مرة . وأقام الشافعى فى العراق زمنا غير قصير ، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأى فيما درس فى العراق ، ولازم محمد بن الحسن ورد على بعض أقواله وآرائه مناصرا لأهل الحديث .

لما عاد الشافعى الى بغداد فى سنة ١٩٥ هـ — ٨١٠ — ٨١١ م ليقيم فيها سنتين ، اشتغل بالتدريس والتأليف . روى البغدادى فى كتاب تاريخ بغداد :

عن أبى الفضل الزجاج يقول : لما قدم الشافعى الى بغداد ، وكان فى الجامع إما نيف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة ، فلما دخل بغداد ما زال يقعد فى حلقة حلقة ويقول لهم : قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون : قال أصحابنا ، حتى مابقى فى المسجد حلقة غيره (ص ٦٨ و ٦٩) واختلف الى دروس الشافعى جماعة من كبار أهل الرأى كأحمد بن حنبل وأبى ثور فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى الى مذهبه . ويروى عن أحمد بن حنبل أنه قال : « ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلا وللشافعى عليه منة » فقلنا : يا أبا محمد كيف ذلك ؟ قال « إن أصحاب الرأى كانوا يهزءون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعى وأقام الحجة عليهم » الانتقاء ص ٧٦

وفى أثناء إقامة الشافعى فى بغداد صنف كتاب الحجة . وقد روى ابن حجر عن البويطى أن الشافعى قال : اجتمع علىّ أصحاب الحديث فسألونى أن أضع على كتاب أبى حنيفة ، فقلت :

لأعرف قولهم حتى أنظر فى كتبهم ، فكتبت الى محمد بن الحسن ، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ، ثم وضعت الكتاب البغدادى ، يعنى الحجة — ص ٧٦

يظهر من ذلك أن مذهب الشافعى القديم الذى وضعه فى بغداد كان فى جل أمره ردا على مذهب أهل الرأى ، وكان قريبا الى مذهب أهل الحديث .

ولما انتهى الشافعى الى مصر وضع مذهبه الجديد ، وأخذ نفسه بتأليف الكتب ردا على مالك ، وكان يقول : مالك بشر يخطئ ، فدعاه ذلك الى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه ، وكان يقول : استخرت الله تعالى فى ذلك — ابن حجر ص ٧٦

وسئل أحمد بن حنبل : ماترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين : أهى أحب إليك أم التى بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر ، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع الى مصر فأحكم تلك ، كما يرويه الذهبى فى تاريخه الكبير (يراجع هامش الانتقاء ص ٧٧) .

مذهب الشافعى الجديد :

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعى الى جمع المسائل وترتيبها وردها الى أدلتها التفصيلية عند ما تكون دلائلها نصوصا .

وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضا لذكر الدلائل من أهل الرأى ، فلما جاء الشافعى بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين ولاحظ مافيهما من نقص بدا له أن يكمله ، وذلك يشعرنا باتجاه الشافعى فى الفقه اتجاها جديدا هو اتجاه العقل العلمى الذى لا يعنى كثيرا بالجزئيات والفروع . يدل على ذلك ما قاله احمد بن حنبل رضى الله عنه . ومما يدل على أن اتجاه الشافعى لم يكن الى تمحيص الفروع ، ما نقله ابن عبد البر فى الانتقاء قال : قال الشافعى لنا : أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال منى ، فإذا كان الحديث صحيحا فأعلمونى أن يكون كوفيا أو بصريا أو شاميا أذهب اليه إذا كان صحيحا — ص ٧٥

فالشافعى فى أبحاثه العلمية يعنى قبل كل شىء بضبط الاستدلالات التفصيلية باصول يجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفى . وهو من هذه الناحية يتبع مذهب الفيلسوف ابن سينا فى الاستدلال والبحث الفقهى ، حيث يقول ابن سينا فى كتابه الشفاء :

« أنا لا أشتغل بالنظر فى الجزئيات لكونها لا تتناهى وأحوالها لا تثبت ، وليس علمنا بها من حيث هى جزئية تفيدنا كمالا حكميا أو تبلغنا غاية حكمية ، بل الذى يهمنا هو النظر فى الكليات » .

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه :

قال الرازي :

« اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم أى علم أصول الفقه ، الشافعى ، فهو الذى رتب أبوابه ، وميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها فى القوة والضعف » .

ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ سنة ١٣٩٢ م فى كتابه فى أصول الفقه المسمى بالبحر المحيط :

« الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب أحكام القرآن واختلاف الحديث وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم » .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته :

« كان أول من كتب فيه أى علم أصول الفقه الشافعى رضى الله عنه ، أملى فيه رسالته المشهورة ، تكلم فيها فى الأوامر والنواهى ، والبيان والخبر ، والنسخ ، وحكم العلة المنصوصة من القياس » .

عبد الحميد سامى بيومى

اياكم والبخل

قال الله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » سيطوقون ما بخلوا به : أى سيلزمون بأداء حقه لزوم الطوق فى الأعناق ، أى أنهم لن يفلتوا من المحاسبة عليه .

وسأل النبى صلى الله عليه وسلم بعض الأنصار فقال : من سيدكم ؟ فقالوا : الجد بن قيس على بخل فيه . فقال رسول الله : « وأى داء أدوأ من البخل ! »

وقد حد أديب البخل فقال : « هو منع المسترفد مع القدرة على رفده »

وكان الامام أبو حنيفة لا يرى قبول شهادة البخيل ويقول : بخله يحمله على أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن ، فمن هذه حاله لا يكون مأمونا .

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى :

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى   بخيلا له فى العالمين خليل
وإنى رأيت البخل يزرى بأهله   فأكرمت نفسى أن يقال بخيل

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

للمعقولات أداة يقال لها المنطق، تعصم الفكر عن الخطأ، وهو مؤسس على القوانين العقلية؛ وللمعلومات أداة أيضا يقال لها المنطق العلمى، تحمى الباحث فيها من الانخداع بالظواهر، والخلط بين ما هو علم يقينى، وما هو رأى مرجح، وما هو افتراض مؤقت، وتدله على ما يجب الجرى عليه فى جمع المشاهدات وترتيبها، والتأمل فيها وتمحيصها؛ كل ذلك ليأمن العقل بالأول من الخبط على غير هدى، والتادى الى أوهام يظنها معقولات وليست بها؛ ويتقى الباحث بالثانى رفع الأمور الظنية، الى مرتبة العلوم اليقينية، فيقع بسبب ذلك فيما كان عليه السابقون من اعتبار الآراء والافتراضات معارف مقررة وهى ليست منها، ويكون وجودها معطلا له عن الوصول الى الحقائق الثابتة.

وضع المنطق أرسطو فى القرن الرابع قبل المسيح، وأكمله من جاء بعده من كبار الفلاسفة، ووضع الثانى العلامة (بيكون) الانجليزى فى القرن السابع عشر، وأنا أرى أن الدين يجب أن يكون له منطق يحفظ من يريد الاهتداء الى صحيحه من الخلط بينه وبين فاسده، وفيما وصل اليه العلم العصرى والفلسفة الحديثة من المعلومات المحققة، والنظرات الصادقة، ينبوع لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق. وإذا كان عهد يُعتبر أكثر عهود العقلية الانسانية صلاحية لهذا العمل الدينى الخطير، فهو هذا العهد الذى نعيش فيه، وذلك لعدة وجوه:

(أولها) أن العلم قد وصل الى حد بلغ فيه سن الرشد، لا من ناحية أنه انتهى الى حدود ما يمكن معرفته، ولكن من ناحية أنه أدرك أنه يستحيل أن يعين ما يمكن معرفته من المجهولات، وما لا يمكن معرفته منها، وأن أفق المعرفة انفرج أمامه الى ما لا حد له، وأصبح من كثرة ما منى بالمفاجآت، يتوقع أن يباغت بشىء منها يقلب جميع مقرراته رأسا على عقب، حتى قال العلامة الكبير هنرى بوانكاريه أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (العلم والافتراض) « La Science et l'hypothèse »:

« لما تروى العلماء قليلا (فى العهد الأخير)، لاحظوا مكان الافتراض من العلوم، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك. حينذاك سأل بعضهم بعضا: هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة والرسوخ، وتحققوا أن نفحة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها ».

(ثانيها) إفاقة العقلية العلمية من غرورها القديم ، وهذه الإفاقة ثمرة الرشد الذى بلغه العلم ، وبيناه فى الوجه السابق ، فقد كانت الخيلاء العلمية قد انتهت فى القرنين الثامن والتاسع عشر الى حد لا يطاق ، حتى ظنوا بأنفسهم ما لا يصح أن يظنه عاقل بنفسه ، وترفعوا فى سبيل ذلك عن قبول أى قول يخالف ما كانوا عليه . حتى إنه لما حلل العلامة (لافوازييه) الهواء الى أوكسيجين وأزوت فى القرن الثامن عشر ، وأعلن ذلك للعلماء ، كذبوه أشنع تكذيب وعارضوه بأن الهواء من العناصر الاربعة ، وأنه لا يعقل أن يكون مركبا . فأخذ يلفت نظرهم الى أنه إنما يحدثهم عن تجربة علمية يمكن شهودها عمليا ، لا عن رأى يقبل الأخذ والرد . فلم يرفعوا باكتشافه رأسا خمسا وعشرين سنة ، ثم قبلوه كارهين وكادوا لا يفعلون .

ولما اكتشف العلامة باستور أن الحى لا يمكن أن يتولد تولدا ذاتيا ، وكانت هذه عقيدة راسخة عند العلماء ، قابلوا اكتشافه بالازدراء والسخرية . فقال لهم : إنى لا أدعوكم الى مسألة فلسفية ، ولكن الى تجربة علمية ، فلم يقيموا لكلامه وزنا ، غرورا بما كانوا عليه ، فظل ينافح عن اكتشافه عشرين سنة حتى قبلوه مضطرين .

(ثالثها) بلوغ الدراسات الدينية ممن وقفوا أنفسهم لهذه الناحية التاريخية من النفسية البشرية ، الى حد النضج ، فعرفت أصول الأديان ، وظهر تسلسل بعضها من بعض ، وعرف أن أصلها جميعا التوحيد الخالص لا التعدد فى الآلهة ، قرر ذلك كبار المستشرقين وعلى رأسهم الأستاذ الألمانى الكبير (ماكس موالر) . ودُرست الكتب السماوية دراسات تحليلية ، وضُبطت سنو تدوينها ، وعُرف ضياع أصول أكثرها ، وضياع تراجمها أيضا التى أخذت عنها النسخ الموجودة الآن ، واكتشفت أمكنة التحريف من بعضها ، وحللت شخصيات رجالاتها ، وحُررت أقوالهم وآراؤهم ، وعُلم مبلغ تأثير كل منها فيما عليه أصحاب تلك الأديان الآن . فأصبح من يريد التبحر فى هذه الموضوعات ، حيال ذخر جليل القدر من مؤلفات توصله الى ما يريد كشفه منها ساعة طلبه ، لا يبذل فيه جهدا ، ولا يكد له عقلا .

(رابعها) إكباب العلماء والفلاسفة وقادة الأفكار منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث خارقة للعادة ، على دراسة النفس الانسانية على أسلوب عملى تجريبى ، من ناحيتى التنويم المغناطيسى والوساطة بين العالمين . وقد أفضت هذه الدراسات العملية الى تجارب حاسمة تثبت وجود روح فى الجسم الانسانى مستقلة عنه ، يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تجسدا خفيفا مستعيرة جسدا من مادته ، يمكن تعيين وزنها ، بما نقص من جسم المنوَّم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته ، وكل مميزاته ظهورا يلمس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع فى النفس شبهة . ثبت كل هذا ثبوتا علميا ، ولا عبرة بمن يجهله ممن لا يعنيهم أمره .

هذه الثمرات العلمية التى تقررت على مقتضى الدستور العلمى الصارم ، قد أتت على جميع شبهات الماديين ، وقضت على مذهبهم قضاء لا أمل فى قيامه بعدها . تخلصت بذلك العقول من المآزق التى كانت دفعتها فيها الفلسفة المادية ، واتجهت الى آفاق جديدة من الدراسات العالمية متبعة أصول الدستور العلمى ، لا سابحة فى جو الخيال الذى لا يؤمن معه الشطط ، ولا يرجى به الوصول الى الحقيقة الطبيعية . هذا حدث جلل خص الله به أهل القرن العشرين الذى طغت فيه الفلسفة المادية طغيانا كادت معه تلحق الانسان بالحيوان الأعجم .

(خامسها) كل هـذه الفتوحات العلمية نبهت فى القلوب العاطفةَ الدينية ، وأيقظت مطالبها الروحية ، وفتحت للعقول آفاقا عليا تاقت معها الى البحث عن نظام دينى يتفق ومقررات العلوم ، ويصلح لأن يرقى بالروح فى عالمها خالصة من وساوس الأساطير القديمة ، حرة من قيود التقاليد الميتولوجية البائدة . وقد دفعت هذه النزعة الشريفة رجالا من أكبر مفكرى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر ، الى وضع دين علمى سموه الدين الطبيعى ، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وبخلود الروح ، وتعاليمه الآداب العالية ، والأخلاق الصالحة ، والسيرة القويمة ، مما يشير اليه العلم بجملته وتفصيله . هـذه الديانة التى قام بها أكبر فلاسفة العصر من أمثال جول سمون وكارو ، لقيت إقبالا عظيما من كبار العقول ، وأصبح أشياعها لا يحصون كثرة وإن كان لا يشعر بهم أحد .

هذه الحالة العلمية والنفسية الراهنة ، تسمح لمثلى أن يستفيد منها فى وضع منطق دينى ، مستمد مما تقرر من ثمرات المعارف الممحصة ، بحيث لا يخرج فى أصـل من أصوله عما ثبت بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عرف من اتجاهات النفسيات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح العصرية قد نضجت لظهور مثل هـذا العمل العلمى ، فإن المقررات التى يجب أن يستمد منها مادته ليست مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغ إن قلت إنها أصبحت بدهيات علمية تـكاد تـكون فى مستوى المعلومات الضرورية للانسان .

الآن يسوغ لنا أن نبدأ فيما نحن بسبيله من بناء هذا المنطق الخاص فنقول :

الأصل الأول :

النّاس كلهم إخـوان متساوون فى الحقوق ، لا يتفاضلون بأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم وألوانهم ، ولـكن بمزاياهم الأدبيـة ، وقواهم العقلية ، وقـد خلقوا ليترافدوا على تذليل مصاعب الحياة ويتحابوا ، لا ليتناكروا ويتناحروا .

تفصيل هذا الاجمال :

"العلم المحسوس أن النـاس جميعا نشأوا من أبوين اثنين ، فألفوا فى أول أمرهم جماعة

واحدة ، قامت من الأرض على بقعة واحدة ، فلما كثروا وضاقت بهم بيئتهم ، نزحت طوائف منهم الى بقاع جديدة ، ثم تكاثروا وتفرقوا ، وتكاثروا وتفرقوا ، وفى كل مرة يزداد بعدهم عن بيئتهم الأولى ، حتى ملأوا الأرض على رحبها . هذا هو السبب الطبيعى فى وجود القبائل والشعوب والأمم وتفرقها فى الأرض .

ولما كانت حياة الإنسان فى أول أمره ساذجة ، لم يضطر من اللغة إلا لما يدل على حاجاته الضرورية ، وكلما اضطر لشىء وأوجده بما مُنحه من قوة العقل ، أطلق عليه اسما جديدا . وبما أن هذا التوسع فى إطلاق الأسماء نشأ وجماعاته متفرقة فى الأرض ، جاءت هذه الأسماء متخالفة ، وكان هذا سبب تخالف لغات البشر فى بقاع المعمور .

أما اختلاف الألوان ، فنشأ من تفاوت درجات الحرارة والرطوبة فى الأصقاع الأرضية ، فمن سكن البقاع التى تقرب من القطبين ، جاءت ألوانهم ناصعة البياض لضعف تأثير الأشعة الشمسية فى تلوين بشرتهم ، وكلما بعدوا عنهما واقتربوا من خط الاستواء ، اشتد فعل الشمس على خلايا أجسادهم فبعدت عن البياض الناصع يسيرا يسيرا ، حتى انتهت فى المناطق المحرقة الى السواد الفاحم ، وكان هذا مصدر اختلاف الألوان فى النوع الإنسانى . ولو كان له مصدر غير هذا لوجدت فى المناطق المختلفة ، ألوان متخالفة لأهلها الأصليين ، وهذا لا وجود له ألبتة .

هذه هى الأسباب الطبيعية للفوارق الرئيسية بين طوائف الأسرة الآدمية .

ولسنا نشك فى أنه كان للبيئات المختلفة ، ومالقيته الجماعات فى رحلاتها الشاسعة ، ولاختلافات الجواء وانقلاباتها الكثيرة ، ولما اضطرت اليه من ضروب الجهود ، ولما دُفعت الى التعويل عليه من المواد الغذائية ، والتواء طرق الوصول اليها ، قلنا : لسنا نشك فى أنه كان لكل ذلك تأثير فى إحداث الاختلافات فى أشكال جماجمها ، وصفات وجوهها ، وقابلياتها للتعقل والترقى ، مما لا يجوز نكرانه أو تجاهل تأثيره .

هؤلاء الأقوام رغما عن تباعد بيئاتهم ، وتباين أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، يعتبرون إخوانا بحكم النسب الطبيعى الذى لا خلاف فيه . وهم وإن اختلفوا فى بعض التفاصيل الصورية إلا أن لجميعهم نفوسا وعقولا وميولا متشابهة فى أصلها ، وإن تنوعت بسبب العوامل التى احتوشتها ولكن هذه الاختلافات لم تَعْدُ على فطرتهم الانسانية ، ولا تصلح أن تكون سببا لحرمانهم من الحقوق الطبيعية . فلا يوجد شعب فى الأرض يشذ عن الألفة والانضمام للجماعة ، لو آنس فى القائمين بهذه الدعوة روح الانصاف والرحمة وشرف النفس ، ورأى أن نصيبه من العمل لمصلحة المجموع يحمل اليه كاملا موفورا . ولكنه يشذ وينفر ويفضل الموت على الحياة دفاعا عن حوزته ، لورأى أن قواه تستغل كما يستغل قوى الحيوان ، ولا يناله من وراء كده ما يقيم أوده ، ويصلح من شأنه .

فأساس الفرقة و التناحر ، الظلم والأثرة والغشمرة . وما دام الأقوياء المتعلمون يتصفون بها ، ويعامل بعضهم بعضا على موجبها ، فلا يزالون يتناحرون حتى تسفك آخر قطرة من دم الجاهلية فيهم . وهذا لا يمنع أن المثل الأعلى الذى قرره العلم هو أن جميع الناس إخوان ، وأنه يجدر بهم أن يتعارفوا ويتعاونوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا . أما مسألة : هل هذا ممكن أو غير ممكن فى هذه الحياة ، فلا تقدح فى أصالة هذا الأصل ، ولا فى كونه المثل الأعلى .

نعم لا تقدح فى أنها المثل الأعلى للحياة الاجتماعيـة ، لأنها إن كانت غير ممكنة فى عصر الانسانية الراهن فذلك بسبب ما لا يزال موجودا فى النفسية البشرية من أدران الجاهليـة ، وبقايا الصفات الحيوانية ، من الأثرة والعدوان على الغير وحب الذات وخمود العاطفة ، وقد أجمع علماء الأخلاق أن هذه كلها أدواء نفسية يمـكن معالجتها وزوالها ، ولو بعد آماد طويلة تمضى فى التطورات الأدبية . وما كان من هذا النوع من الصفات فسواء أبقى ملازما للبشرية أم زايلها ، فلا يقدح وجوده فى وجود المثل الأعلى لحياة اجتماعية أفضل مما هى عليه .

على أن فى العالم الانسانى أفرادا كثيرين حصلوا على درجة ممتازة من السمو الخلقى يقومون على هذا المثل الأعلى ، وهم لو وُكل اليهم تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض ، لما جروا إلا على هذه الشاكلة . وما جاز على هؤلاء الأفراد الكثيرين يجوز على غيرهم من بقية الناس ، ولو بعد آماد طويلة ، إن قدر للانسانية أن تصل الى الدرجة التى تتصورها من السمو الأدبى . وليس من شروط صحة المثل العليا أن تكون ممكنة فى عهد من العهود المنحطة للانسانية ، ولـكن يكفى أن تكون معقولة لديها ، ومبنية على أصول تقوم عليها الحياة على أكمل وجه .

تطبيق هـذا الأصل على الاسلام :

قبل أن ننتقل الى الأصل الثانى من المنطق الدينى ، يحسن بنا أن ننبه الى أن هذا الأصل الأول ينطبق على أول أساس وضعه الاسلام ليقيم عليه صرح الدين العام ، الذى أعلن أنه دين البشرية كافة ، فقد قال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . أنزلت هذه الآية إيذانا للناس كافة بأنهم إخوان أبوهم جميعا واحد وأمهم واحدة ، وأنهم وإن تفرقوا فى البلاد ، واختلفوا فى الأجناس واللغات والألوان ، فان تلك الخـلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة بل توجب عليهم أن يتعارفوا ، والتعارف يدعو الى التعاون والترافد ، والى التكاتف والتساند على تذليل عقبات الحياة .

ولما كان شر ما خلفه تباعد البيئات ، وانقطاع الصلات ، وتباين اللغات ، وهماً استولى على نفوس كل جماعة بأنهم خـير ممن سواهم ، وأنهم أحق برغد العيش ، والسيطرة على الخلق من كل من عداهم ، صرح الحق بأن هذا الوهم لا يجوز أن يقام له وزن ، وأن المعيار الصحيح

للتفاضل هو تقوى الله ، والقيام بمحابه ، والابتعاد عن مكارهه . فلا الأبيض بأفضل من الأسود ، ولا العربي بأمثل من الأعجمى ، إلا بعمل طيب ، وبتقوى باعثة على الصلاح . وللنبى صلى الله عليه وسلم تفصيل لهذا الإجمال ، فقد قال : « ليس لأبيض على أسود ، ولا لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

وروى أن أباذر الغفارى وهو من كبار رجالات الاسلام ، قاول عبدا أسود فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء ! فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ونظر الى أبى ذر وقال له : « إنك امرؤ فيه جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » الى آخر الحديث السابق .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يفرق فى الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين حر ومولى ، فقد روى أنه ولى بلالا المدينة وفيها كبار الصحابة ، وأصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى صلى الله عليه وسلم باذان الفارسى على اليمن ، ولما مات ولى ابنه مكانه .

وكان لسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهما حظ كغيرهم فى التقلب فى المهام الاجتماعية .

عامل المسلمون جميع الشعوب التى دخلت فى دينهم معاملة الاخوان بدون التفات الى لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، وعاملوا من عاهدهم أو خضع لحكمهم بأدق أصول العدل ، فساووهم بأنفسهم أمام المحاكم ، وراعوا فى معاشرتهم ما راعوه مع أبناء ملتهم من حقوق الجوار . وقد أمر الاسلام بمراعاة حقوق هذه الأخوة الانسانية العامة حتى فى الحرب ، فأمر أن لا تحرق دور المحاربين ، ولا تباد زروعهم ، ولا تعطل مرافقهم ، وأن لا يجهز على جريحهم ، ولا يعتدى على أسيرهم ، بل أن يكرم ويحسن إليه . وبالغ فى وجوب مراعاة هذه العواطف النبيلة ، حتى أمر أن لا يمس خدم جيوشهم بسوء ، وأن لا يقتل الشيوخ والزمنى ورجال الدين ، وأن لا يصادروا فى حريتهم الدينية . وهذا شىء لم تعرفه الانسانية حتى فى العصر الراهن .

فالاسلام فى كل محاولاته قد رمى الى تأليف أمة عالمية ، تمثل فيها جميع الأجناس والأقوام والألوان تقربا من المثل الأعلى . وهذا أول ما حدث من نوعه فى الأرض .

فى المقالات التالية ندرس جميع أصول منطق الدين تباعا إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

فى الميراث

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

توفى رجل عن أخت شقيقة ، وأولاد عم شقيق لوالد المتوفى ذكور وإناث . فمن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

الذى يرث من المذكورين : الأخت الشقيقة ، وأولاد العم الذكور . ولا شىء لأولاد العم الإناث لأنهن من ذوى الأرحام .

وأما توزيع التركة بين الوارثين : فللأخت الشقيقة : النصف ، ولأولاد العم الذكور : الباقى وهو النصف ، يقسم بينهم بالتساوى . والله أعلم

***

وجاء أيضا :

مات الميت عن أمه ، وأخته لأمه ، وأخته لأبيه ، وعمه الشقيق ، وعمتيه الشقيقتين . فمن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

الذى يرث من هؤلاء هم : الأم ، والأخت لأم ، والأخت لأب ، والعم الشقيق . أما العمتان فلا ترثان .

ونصيب الأم فى هذه المسألة : السدس ، ونصيب الأخت لأم : السدس كذلك ، ونصيب الأخت لأب : النصف ، والباقى للعم الشقيق . والله أعلم

***

وجاء أيضا :

اثنان أولاد عم ، أحدهما خلف بنتين وولدا ، وإحدى البنتين توفيت عن ولد ، ثم توفى الولد عن جدة لأبيه : أى أم أبيه ، وخال ، وخالتين ، وعمين ، وعمة ، وابن عم الجد . فما الحكم ؟

الجواب :

هذا السؤال يتضمن سؤالين : الأول : لمن تؤول تركة امرأة توفيت عن ولدها ؟ الثانى : لمن تؤول تركة رجل توفى عن جدة لأبيه وخال وخالتين وعمين وعمة وابن عم الجد ؟

والجواب : أن التركة فى السؤال الأول تؤول الى ولد المرأة ، إذ لم يتبين فى السؤال وجود ورثة آخرين غيره .

وفى السؤال الثانى تؤول التركة للجدة والعمين لا غير ، فتعطى الجدة السدس ، ويعطى العمان الباقى بالتساوى بينهما ، فيكون لكل منهما نصف الباقى . ولا شىء للخال والخالتين والعمة لأنهم من ذوى الأرحام ، وذوو الأرحام لا يرثون مع وجود عصبة الميت . وكذلك لا شىء لابن عم الجد لأنه أبعد من العمين فيحجب بهما . والله أعلم

***

وجاء أيضا :

امرأة توفيت وتركت زوجا ، وأختا شقيقة ، وأختا لأب ، وإخوة لأم وهم خمسة ذكور . فمن يرث من هؤلاء ومن لا يرث ، وما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع المذكورين فى السؤال يرثون ، فللزوج النصف ، وللاخت الشقيقة النصف أيضا ، وللأخت للأب السدس ، وللأخوة للأم الثلث .

وبما أن مجموع الأنصباء قد زاد على الواحد الصحيح ، وجب تقسيم التركة تقسيما تناسبيا . وبمقتضى قواعد التقسيم التناسبى تكون التركة تسعة أجزاء : ثلاثة منها للزوج ، وثلاثة للأخت الشقيقة ، وجزء واحد للأخت للأب ، وجزءان اثنان للأخوة للام يقسمان بينهم بالسوية . والله أعلم

***

وجاء أيضا :

مات الميت عن ثلاث زوجات ، وخمسة أولاد ذكور ، وثمانى بنات . فما نصيب كل وارث على حدة ؟

الجواب :

نصيب الزوجات الثلاث : الثمن « ثلاثة قراريط » لكل واحدة منهن قيراط ، والباقى يقسم بين أولاد المتوفى الذكور الخمسة والاناث الثمان ، للذكر منهم مثل حظ الانثيين ، فيخص الواحد من الذكور قيراطان وثمانية أسهم من القيراط ، ويخص الواحدة من الإناث قيراط واحد وأربعة أسهم من القيراط . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

التضييق على المبشرين

جاء فى جريدة (الكريستيانسم) التى تصدر فى باريز ما يأتى :

« نشرت جريدة البعثة الانجيلية لدى المسلمين فى موضوع العالم الاسلامى ما نصه :

« تعلن جريدة (البيونييه) أنه قد قدم الى مجلس الشيوخ المصرى مشروع قانون يفضى الى تثبيط كبير من نشاط هذه البعثة إذا قبل هذا المشروع . فسينتج عنه أن دعوة البعثة يجب أن لا تذاع بين الشبان الذين تقل سنهم عن ست عشرة سنة ما دام القصد تحويلهم عن دينهم . ومخالفة هذا القانون تجر الى الغرامة أو الحبس . نعم إن المشروع لم يصبح قانونا بعد ، ولكن الإسلام من العزة والمناعة بحيث يستطيع صد الدعوة عن الشبيبة ، ومنعها من الاستفادة من مواعظ الانجيل . فلاجرم أن هذا الموقف يشغل بال الكنيسة التبشيرية ويقلقها كثيرا جدا » .

(مجلة الأزهر) : إننا لا نرى موجبا لاهتمام المبشرين بالمسلمين ، فإن لهم دينا شهد له من درسه من الأجانب عنه بأنه أقوم الأديان كلها ، وشهدوا بأن الناحية الخلقية منه قائمة على أسمى ما عُرف عن الناموس الأدبى العام ، والمسلمون من الناحية الاعتقادية يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين لا يفرقون بين أحد منهم . فإذا كان يراد منهم بعد ذلك أن يؤمنوا ببنوة المسيح فذلك من المحالات التى لا يصح أن تطوف برءوس المشتغلين بالأمور الدينية ، وقد ثبتت هذه الاستحالة بفشل المبشرين فى بلاد المسلمين فشلا لا يدع محلا لأقل أمل .

وعلى فرض أن هذه المحاولات غير مستحيلة ، وأن لديهم حقيقة يمكن التدليل عليها ، فما الذى يزعجهم من قصر التبشير على من جاوز السادسة عشرة من عمره ، وهم يعلمون أن ما قبل هذه السن دور طفولة لايهتم فيها صاحبها بغير اللعب والتلهى ؟ ولست أحب أن أفهم من قلقهم هذا أنهم يعرفون أن دعوتهم تصادف من ناضجى القوة العقلية مقاومة عنيفة ، ولا يمكن ترويجها إلا عند من هم فى سن الطفولة .

مارمديوك يترجم القرآن ويسلم

جاء فى جريدة المانشستر جوارديان تحت عنوان (داخل فى الاسلام) نقداً لكتاب وضع فى تاريخ حياة (مارمديوك بكتهول) وهو أحد مترجمى القرآن الى الانجليزية . قالت :

« اعتنق مارمديوك الاسلام . وهو شاب كان مدرسا باحدى مدارس حيدر آباد ثم استخدم فى القصر . وكان يقضى معظم وقته بين زيارة الشرق الأدنى والاطلاع على الآداب فى مقاهنا . وكان سبب قلقه قلة موارده المالية .

«وهو يختلف كل الاختلاف عن ولفرد بلانت ، لأن هذا اكتفى بالاطلاع على مزايا الاسلام ولكن بكتهول دخل فيه فعلا ، وكان يجد فيه عزاءه فى وحدته . وكان يضع نفسه فى خدمة الخلافة والامبراطورية التركية . وكان يعتقد أن الحكومة البريطانية أضاعت فرصة جعل تركيا حليفة لها . وربما كان فى هذا شيء من الحقيقة » .

***

(مجلة الأزهر) : ليس بعجيب على من يفهم القرآن ويترجمه أن يدخل فيه ، ولكن العجيب أن يفهمه إنسان ويترجمه ثم ينقلب عليه ويضع منه ، كما فعل (سيل) صاحب الترجمة المشهورة .

لا جرم أن للوراثة الدينية تأثيرا مثل تأثير السحر بل أشد ، فان من يكون نال قسطا من العلوم الاجتماعية والنفسية ، وأخذ بحظ من الفاسفة ، يستحيل عليه أن يشهد آيات القرآن البالغة ذروة الاعجاز فى جميع هذه المواطن ، ثم ينقلب عليه . إن فى هذا أدل دليل على أن من يجرؤ على مثل هذا العمل تكون ثقافته واقفة عند حد ، والوراثة الدينية آخذة منه بالكَظَم .

الخطأ فى معنى الخلافة

أتت جريدة جلاسنجو سيتيز الانجليزية بتاريخ الخلافة منذ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثم قالت :

« والانسان يعجب من اهتمام العالم الاسلامى بها ولن يكون لها من السلطة ما يذكر عنها فى أغلب تاريخها . ولكن النظريين يعتقدون أنها ضرورية للدفاع عن الدين ، ولسياسة الدولة ، ومعنى هذا أن الخليفة يجب أن يكون له من القوة ما يجعله ذا نفوذ فى العالم ، فيكون جديرا بما يحيط بمركزه من العظمة بصفته وكيلا لله فى الأرض .

الى أن قالت الجريدة :

«ولقد استمرت الخلافة قائمة فى أوقات لم يكن للخليفة فيها سلطة ما ، فلما كان الخليفة تحت إشراف السلاطين كان هؤلاء يستمدون سلطتهم من يديه وإن كانت فى يدهم فعلا ، ويؤمنون بقيمة هذا ! وكان الولاة يطلبون من الخليفة الاعتراف بسلطتهم ، وهذا يدل على أن فى الخلافة شيئا غير القوة التى للرجل التى يشغلها . فهى محوطة بالقداسة عند كثير من المسلمين . فلا عجب إذا شعر المسلمون بالحيرة وهم بغير خليفة ، وإذا أبوا أن يدعوها تزول ، فالخليفة رمز للوحدة الاسلامية » .

(مجلة الأزهر) : لايعنينا من نشر هذه الكلمة ماذكره كاتبها من اهتمام العالم الاسلامى بالخلافة ، ورأى النظريين فى نفعها ، ولكن يعنينا ما ذكرته من أن الخليفة يعتبر وكيلا لله فى الأرض . هذا بعيد عن روح الاسلام ، وعن معنى الخلافة الاسلامية ، فان المسلمين لا يعترفون بوجود وكيل لله فى الأرض يحل ويبرم ، ويحلل ويحرم ، ولا ينظرون الى الخليفة إلا نظرهم لكل فرد من أفراد المسلمين حتى جوزوا خلعه إن ثبت خروجه عن حدود الدستور الاسلامى ، وهو القرآن . فسلطة الأمة لم يعترها وهن فى نظر المسلمين ، حتى فى أشد أيام ضعفهم . ولكن كتاب الفرنجة ياخذون علم الاسلام عن الأحوال التى يشاهدونها فى أهله . فهم إن تكلموا عن قيمة المرأة فى الاسلام عند زوجها وفى المجتمع ، نظروا الى ما هى عليه لدى أحقر طبقات الشعوب الاسلامية ، وقرروا أنها أسيرة مستعبدة ، ومجردة عن جميع الحقوق الانسانية. وإن تكلموا عن دين المسلمين نظروا الى مساجدهم وما فيها من بدع ، والى المسلمين وما يعملونه فى موالد أوليائهم ، من الذكر وقوفا وبالصنوج والدفوف والطبول ، وقرروا أن كل ذلك من صميم الاسلام . فان قلت لهم : إنه مما يحرمه الدين ، قالوا لو كان كذلك لأبطله أئمة الدين على الأقل من المساجد ، أما وهم يقرونه فى كل بلد إسلامى فهو منه !

هذه حجة كتاب الفرنجة ، وهى من المسكتات عند الأكثرين !

الاسلام فى أفريقا السوداء

جاء تحت هذا العنوان فى جريدة (لا فرانس اكستريور إى كولونيال) أى فرنسا الخارجية والاستعمارية :

« إن انتشار الإسلام فى أفريقا السوداء تقلق من عدة نواح بال الكثيرين ممن يعنيهم مركز فرنسا الأدبى فى ممتلكاتها السوداء . وبدون أن يُعبأ بمعرفة هل ديانة محمد تحمل للكائنات البشرية نظاما اجتماعيا ، وقانونا أدبيا ، يفوقان ما تحمله الوثنية وما يحيط بها أو يشتق منها من النحل المختلفة ؟ فالواقع أن كثيرين من الناس يكافحون انتشار الإسلام فى مستعمراتنا السوداء ، معتبرين أنهم إذا عجزوا عن القيام بعمل حاسم ضد تقلب الرجل البدوى أوجبه للاطلاع فى الناحية الدينية ، فإن الحد الطبيعى ضد انتشار الإسلام فى مستعمراتنا يجب أن يكون نهر النيجر .

« ولكن تيار الاسلام لم يقتصر على غمر النيجر والسودان فحسب ، ولكنه ينساح اليوم الى نواحى بحيرة تشاد . ولا ندرى الى أية درجة يشعرون أو لا يشعرون جماعة الهاووس بهذا النجاح بنيجريا وهم أولئك الدعاة العجيبون .

« وإننا نرى أنه مما يفيد فى هذا الباب نقل الرأى الآتى للاب فريدريك دوبيلينيه ، القس الملحق بالجيش الفرنسى بجهة تشاد ، وقد نشر هذا الرأى فى مجلة المعلومات الاستعمارية لشعبة أفريقا الفرنسية ، قال :

« أنا لست أول قسيس دخل الى تشاد (١٩٣٥) فحسب ، ولكننى لا أزال القسيس الوحيد فيها . والحالة الراهنة هنا يمكن أن تدوم طويلا لأن الاتفاق بين المسيو لافال والسنيور موسولينى لا يزال باقيا بدون تصديق . والدعوة الدينية لا يمكن أن تعدل حدودها ما دامت الحدود السياسية غير معينة .

« والتصميم الواجب اتباعه هو أن يجعل مجرى نهر (شارى) خطا دفاعيا تؤسس فيه سلسلة مراكز تبشيرية تقوم سدا ضد التسرب الاسلامى الآتى من الشمال .

« الرجل الأسود يشعر بانحطاط ديانته الوثنية ، وروحه المتأصل فيها حب التدين متعطشة لعقيدة أرقى من عقيدته . وهو لا يقبل الاسلام إلا لأنه لا يعرف ما هو أفضل منه ، ولأن الفقهاء ، وهم المنفردون بادارة المدارس دون سواهم ، يقيدون أسماء التلامذة لحساب محمد .

« ومما تجب معرفته أيضا أن الموجة الاسلامية التى تنتهى الى هنا ، قد فقدت كثيرا من اندفاعها . فقد نصرتُ مسلما أمه عربية ، ويوجد بين الذين أعدهم للتنصير مسلمون من أهل فزان ، وهم من أكثر المسلمين تعلقا بالسنوسية . وعليه فهناك أمل عظيم فى النجاح حيال المسلمين » .

***

(مجلة الأزهر) : لا عبرة بما يتوقعه الأب فريدريك دوبيلينيه من نجاح التبشير عند المسلمين ، فقد مضى قرنان بُلى المسلمون فيها بالدعاة من كل نحلة ، فلم يزدادوا إلا حبا فى دينهم ، وقد فشل التبشير حتى فى البقاع التى أهلها جاهلون ، بل فشل حتى لدى الأمم الوثنية فى أفريقيا وآسيا ، وفاز الاسلام فيها بعشرات الملايين بشهادة أولئك الدعاة أنفسهم ، ولكننا ننقل مثل هذه الأقوال لنثبت للمسلمين أنهم جد مقصرين حيال دينهم القويم . فانهم لا يفكرون فى أمر نشره كما يفكر أصحاب الأديان الأخرى ، مكتفين بما يقوم به المسترزقة من أصحاب الطرق الذين يجوبون تلك الأصقاع البعيدة ، ولكنهم لا ينشرون من الاسلام هناك إلا تعاليم مشوبة بكثير من الخرافات التى ليست منه .

نعم : إن الأزهر يقوم بعمل مشكور من هذه الناحية ، ولكن وسائله المالية لا تمكنه من عمل جدى يستلزمه هذا الأمر الجلل ، فهو بحاجة الى مال كثير يقوم به الأفراد . فإن تمويل جماعات التبشير فى البلاد الغربية يحصل من تبرعات الغيورين على دينهم ، ولا دخل للحكومة

فيه . وقد عهدنا محسنى المسلمين يتبرعون لكل شىء إلا للدعوة الاسلامية ، لأنهم لم يألفوا هذا الضرب من العمل الصالح ، ولكن حفظ دينهم ونشره فى هذا العصر يستدعى أن يجعلوا من أموالهم نصيبا للقيام بهذه المهمة الخطيرة ، وخير مستودع لهذه التبرعات خزانة الأزهر لتضمه الى الاعتماد المالى الخاص فى ميزانيتها بالدعوة والارشاد . فاذا آنس الأزهر اتجاه النفوس لأداء هذا الواجب عرف كيف ينفقه فى وجوهه المنتجة ، لا بارسال علماء الى الجهات النائية فحسب ، ولكن بتعليم اللغات الأفريقية والأسيوية لمن يعدهم للدعوة هنالك ، فلا يمضى وقت طويل حتى يكون لنا أداة صالحة للعمل من هذه الناحية ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

برناردشو والاسلام

حدثت ضجة حول قصة ألفها الكاتب الفيلسوف الارلندى برناردشو تدرس فى كلية الآداب ، قيل إن فيها طعنا فى الاسلام ، فعجبنا من ذلك لعلمنا أن ابرنارد شو شهادة قيمة فى الاسلام ، حتى إنه يرى أن أدواء أوروبا لا تشفى إلا إذا تولتها مبادىء محمدية ، وقال : إنه لن يمضى قرن من الزمان حتى يرى الانجليز أن الاسلام جدير بالاتباع ، وأن أوروبا قد بدأت تعرف ماهية الاسلام ، ولن يمر عليها قرنان حتى تصبح من أهله . فرأينا أن نستحضر نسخة من هذه الرواية ، فألفينا أن برناردشو يبسط فيها تاريخ جان دارك محررة فرنسا من الانجليز فى القرن الخامس عشر ، ويأتى بحديث تخيله قد دار بين أشخاص عن جان دارك ، أبدى فيه كل منهم رأيه عنها ، فقرر بعضهم أنه من الخطر التساهل فى أمرها ، حتى لا تجرؤ فتيات غيرها أن يدعين مثل دعواها ؛ كما يكون من الخطر أن يدعى رجال أنهم مثل محمد . وهذا الفريق يشبه الوحى الذى نزل عليها بالوحى الذى نزل على محمد ، واستطرد الى التحامل على رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم . ولكن فريقا آخر دافع عن وجهة نظر أخرى وقرر أن المسلمين من الناحية الخلقية لا يفترقون عن المسيحيين ، وبرهن على ذلك بما شاهده بنفسه حينما سافر الى فلسطين لأداء فريضة الحج .

والمعروف فى وضع الروايات أن واحداً من أشخاص الرواية لا يمكن أن يعتبر معبرا عن رأى مؤلفها إلا إذا كانت هناك قرينة تدل على ذلك ، ولا قرينة هنا عليه ، بدليل أن المؤلف أقام فريقا آخر يناقض هذا الفريق ويدلى على ذلك بحجة عيانية ، وهذا يدل على أنه إنما ينقل آراء فريقين مختلفين . وقد كذب برناردشو نفسه ما اتهم به فى جريدة النيوز كرونكل وقال إن خصومه لم يفهموا روايته ، وقد نقلت هذا التكذيب جريدة المقطم .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

مما لا مراء فيه أن الموقوف عليه لا بد أن يكون معروفا معينا بالتسمية أو الصفات المميزة للموصوف وقت إنشاء الوقف ، من أجل ذلك نحب أن نعرض لهذا النوع من التسمية أو التعيين بالوصف حتى تتسق البحوث فى الوقف على وتيرة واحدة ، وتجرى على سنن مستساغ ، فإذا ذكر الواقف فى إشهاد وقفه الموقوف عليه ، وهو لا بد منه فى إشهاد الوقف وإلا وقع إشهاد الوقف باطلا ، فإما أن يذكره باسمه أو بوصفه : فإن كان مذكوراً باسمه الذى لا ينفك عنه وبقى ملازما له حتى يوم ظهور غلة الوقف ، كان الوقف صحيحا ، وكان على الناظر أن يعتبر استحقاقه مستندا الى سبب شرعى صحيح . أما إذا سمى الواقف الموقوف عليه فى إشهاد وقفه وتبين بعد أن هـذا الموقوف عليه لم يكن موجودا وقت صدور إشهاد الوقف ، وإن سمى بهذا الاسم الذى عناه الواقف فى إشهاده ، وقع الوقف فى هذه الحالة غير صحيح .

وتوضيح ذلك : أن الواقف حين وقف على شخص معين باسمه فقد قصد إيصال غلة الوقف عليه ، وهو لا يكون يومئذ إلا موجودا ، فلو وقف على ميت وقد سماه فى إشهاد وقفه وهو يجهل صفته ، وقع الوقف باطلا قطعا ، حتى وإن وجد هذا الاسم المعنى للواقف علما على الموقوف عليه ، وفى هذه الحالة يذهب نصيبه الى الفقراء لأنهم أصل المشروعية للوقف . ويشبه هذه الحالة حالة ما إذا وقف الواقف على موقوف عليه بوصفه العنوانى . وهنا يفصل العلامة صاحب كتاب أنفع الوسائل فيقول : « إن كان هذا الوصف مما لا يزول كالعمى والخرس ، فالعبرة باستحقاق الموصوف وقت ظهور الغلة أو وقت إنشاء الوقف ، وإن كان مما يزول كالصغر والفقر فمناط الاستحقاق يوم ظهور غلة الوقف وصيرورتها صالحة للاستثمار » . وقد تعقب العلامة ابن عابدين هـذا الكلام على إطلاقه فقال : « هل إذا قال الواقف فى إشهاد وقفه : وقفت هذه الضيعة على ولدى فلان الذى سأسميه بهذا الاسم ، ولا يزال حملا مستكنا . ثم مات الواقف فى أثناء الحمل وأتت أمه للمدة الشرعية وسمته بالاسم الذى اختاره له الواقف سواء كان الواقف أباً له أم غير أب ، فما الذى يمنع الناظر من اعتباره فى هذه الحالة مستحقا إذا جاءت التسمية متمشية مع تسمية الواقف ؟ » وهو تعقيب متجه وإن كان للخروج منه مندوحة . وبدهى أن نوايا الواقفين الخير المطلق لبنى الانسان ، فليس من الرخصة المفترضة فى مثل هذا النظام النبيل فى سماويته وحكم مشروعيته أن يضيق فى مرامى هؤلاء الواقفين .

وجملة القول : أن الواقف إذا وقف على أسماء أو صفات للموقوف عليهم وكانوا غير موجودين أو كانت صفاتهم مما يزول كالفقر أو العته الخفيف ، وقع الوقف غير صحيح . ويتفرع على ذلك

أن الواقف لو وقف عينا على أولاده العمى أو البكم فـلا ينعقد لهم استحقاق إلا منذ ظهور غلة الوقف .

لـكن حقق العلامة صاحب البحر أن الواقف إذا وقف على فقراء ، انعقد الوقف صحيحا حتى ولو وجد هذا الوصف بعد إنشاء كتاب الوقف لا وقته فحسب .

لـكن حقق غير واحد من علماء الفروع أن حبس الواقف للعـين على أصحاب الأوصاف الزائلة أو الدائمة غـير مطرد بطلانه ، فقد ضربوا مثلا فيما إذا وقف الواقف على بناته الثيبات أو الأبكار ففى كل من الحالتين ينعقد الوقف لمجرد ظهور الغلة ، على حين أن الثيوبة مما لا تزول عادة ، والبكورة مما لا تدوم عادة .

وغنى عن البيان أن علماء الفروع لم يغفلوا شأن استحقاق الحمل ، فقد نصوا على أن كل من ولد بعد ظهور غلة الوقف ووجودها مقومة صالحة للاستثمار لأقل من ستة أشهر ، يدخل فى عداد المستحقين ، لتحقق وجوده فى بطن أمه وقت خروج تلك الغلة ، لأنهم اعتبروا وقت خروجها مناطا للاستحقاق ، فهو يشارك المستحقين فى هذه الغلة ما دام ظهورها معتبرا مناط استحقاقه حتى لو مات قبل توزيع تلك الغلة كان نصيبه موروثا .

أما إذا ولد الحمـل لستة أشهر فأكثر من وقت خروج غلة الوقف ، فلا يشارك الموقوف عليهم فى هذه الغلة ، إلا إذا تبين أن وطء أمه كان حراما شرعا أو غير ممكن عادة من وقت خروج غلة الوقف الى حين الولادة : كأن تكون أمه مبانة أو متوفى عنها زوجها وقد جاءت بالولد لستة أشهر فأكثر من وقت ظهور غـلة الوقف ، ولأقل من سنتين من وقت الطلاق أو الوفاة . وهذا واجب الاتباع بناء على حكم الشارع فى هذه الحالة .

ولو كان الوطء حلالا وقت خروج الغلة : كأن تكون زوجة أو معتدة من طلاق رجعى ثم جاء الولد لستة أشهر فأكثر من وقت ظهور غلة الوقف فلا يشارك الولد فى هـذه الحـالة المستحقين فى تلك الغلة ، لعدم تحقق وجوده وقت ظهورها . وهذا هو الظاهر من كلام صاحب تنقيح الحميدية .

ولهذا البحث تفريعات وتعقيبات تحتاج الى عدد آخر ، فالى الغد القريب ؟

عباس طه

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الشكوك فى إمكان الوحى وعلاجها بالفتوحات العلمية الحديثة

الشك من الصفات العقلية التى نشأت فى الانسان مع العقل نفسه ، وهو ككل صفاته الأدبية نشأ ساذجا ، ثم تطور بتطور الانسان فى النظر والتفكير . ولما ولدت الفلسفة أصبح أساسا للبحث فيها ، ولكنه لم يكتسب كل قوته إلا على عهد الفلسفة اليونانية ، حيث تكاثرت المعقولات ، وتداخلت مناهج البحث فيها ، فكان ذلك داعيا لعلَم من أعلامها وهو أرسطو أن يضع أداة للتدليل وهو المنطق .

ولكن صفة الشك لم تبلغ أوج سلطانها الا على يد (رُنيه ديكارت) الفيلسوف الفرنسى ، فقد جعله أساس مذهبه ، واعتبر بذلك مجددا فى أسلوب البحث عن الحقيقة فى القرن السابع عشر .

فى أثناء هذه التطورات العقلية تولدت فى النفس الانسانية نزعة جديدة أساسها زيادة التثبت ، بوضع المعقولات على قرار مكين من الأدلة المحسوسة ، وما دفع بالنفس الى هذا الموقف الخشن إلا ما ظهر للباحثين فى العلوم من أن كثيرا من المسلمات المنطقية تحكمات فرضها على المعقول الجهل بالكون ونواميسه ، وعمدوا الى وضع منطق دعوه بالعلمى ، جعلوا أساسه أن كل معقول لا يؤيده شاهد من الوجود المحسوس لا يجوز وضعه فى المدركات اليقينية . فان كان مما يقتضيه العمل العلمى فلا بأس من تسميته افتراضا علميا ليمثل بجانب افتراضات أخرى ، حتى إذا حظى بشهادة محسوسة رفع الى درجة المسلمات العلمية . وضع هذه القاعدة (فرنسوا بيكون) الفيلسوف الانجليزى المتوفى سنة (١٧٢٦) وهو صاحب الدستور العلمى الذى يعتبر سدا منيعا فى وجه الأهواء والأوهام التى قد تتسرب الى العلوم اليقينية فتفسد كيانها وتلحقها بالأساطير .

ولقد غلا حفظة هذا الدستور كما غلا جميع حفظة النظم ، فجعلوا من الدرجة التى وصل اليها العلم فى القرن التاسع عشر نهايةً لا محل وراءها لجديد ، وحملهم الغلو فى تقديس ما وصلوا اليه الى اعتبار ظنيات أعلامهم أصولا يقينية . فلما ظهر مذهب لامارك فى تسلسل الأنواع الحية ، وتألق نجمه فى أوائل القرن التاسع عشر ، اعتبره علماء ذلك العهد الكلمة النهائية للعلم لكشف

سر أكبر مسألة بيولوجية ، وصاروا يستجهلون كل من يجرؤ على التشكيك فيه . فلما ظهر مذهب داروين بعده بنحو ستين سنة ، افتتن به العلماء ودخلوا فيه وتركوا مذهب لامارك من أجله ، وغلوا فيه غلوا عظيما حتى عـدوا كل من لا يقول به غبيا . ولكن لم تمض عليه ثلاثون سنة حتى تبين لكثير من كبار العلماء وَهْنُ أصـوله الأولية ، فتسللوا منه وعاد كثير منهم الى مذهب لامارك ، ومنـذ عشرين سنة تركوا المذهبين وتمسكوا بمذهب (دوفريس) العالم الهولاندى ، وهو يشايع إيمان الالهيين ، فانه أثبت بالتجربة أن الأنواع تنشأ طفرة متولدة من أنواع قديمة ، حاصلةً على جميع مقوماتها بدون تطور تدريجى فى آماد طويلة ، ولا بسبب تأثير البيئة فيها . وفى الوقت نفسه أدركوا أن العلم الذى وصفوا أصوله باليقينيات قرنين متواليين لا تقوم كثير من أصوله إلا على افتراضات حتى فى العلوم الرياضية . ارجع الى ما كتبناه فى مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، وما ألممنا به فى مقالة (منطق الدين) فى العدد السابق .

هذه التطورات المتتابعة فى المقررات العلمية أثرت أعمق تأثير فى عقلية المشتغلين بالعلوم الكونية ، وأورثتهم أدبا عاليا حيال الوجـود المحسوس ، وما عسى أن يكون فى ثناياه من القوى المجهولة . فبعد أن كانوا يتعصبون لأصوله المقررة عندهم تعصبا يأباه العلم نفسه حتى عارضوا أصحاب المكتشفات الحـديثة معارضة عنيفة انتصارا لتلك المقـررات ، أصبحوا يرحبون بالمجددين فى العلم ، بل يرجون أن يكثر عديدهم ليستطيعوا سد الثلم التى أحـدثتها الانقلابات المتوالية فيـه ، حتى لم يأنفوا عنـد ما حدثت حادثة خارقة للعادة فى أمريكا (١) أن يحققوها ، وأن يعلنوا صحتها وصحة أمثالها ، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا بوجود شىء فى الكون غـير المادة وقوتها ، ويرمون من يقول غـير هذا بالبله أو بالوقوع تحت تأثير العقائد الموروثة .

إن موقف العلم والذين يعبون من منهله كان قبل الخمسين السنة الأخيرة موقف خصومة لكل معقول لا يمت الى المادة بسبب . فكانت مسألة الوحى من المسائل التى يدحضها العلم بكل شدة ، ويعدها من أبعد المحالات العلمية ، ثقة منه أن ليس وراء المادة عالم أرقى منها ، بل ليست الروح البشرية التى تعتبر آية الخلق ، إلا مظهرا من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من أعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الانسانية وعلاقتها بعالم علوى وراء الحس ، واستمدادها منه قوة وسلطانا لا تحصل عليهما فى عالم المادة مهما توسعت فى علاقتها به . وكان الباعث لهؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، إكبابهم منذ نحو تسعين سنة على البحث فى النفس الانسانية من طريق التنويم المغناطيسى والذهول الذى يقع فيه بعض الناس فيصيرون به أداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

---

(١) حادثة ظهور أمور روحانية محققة فى منزل بمدينة هيدسفيل .

فالتنويم المغناطيسي الذي كشفه الدكتور مسمر الألماني (١٧٣٣ — ١٨١٥)، واعترف بوجوده علميا بعد جهاد مائة سنة للحصول على هـذا الاعتراف، قد أثبت أن للانسان عقلا باطنيا أرقى من عقـله العادي كثيرا، وأنه وهو فى تلك الحالة يرى ويسمع من بعـد شاسع ما يحدث وما يقال، ويقرأ من وراء حجب، ويخبر عما سيحدث، مما لا توجد فى عالم الحس أقل علامـة لحدوثه. شاهد هـذه الأحوال ملايين من الناس حتى أصبحت أمرا لا يمكن المراء فيه.

ولـكن علماء كثيرين لم يقفوا عند هذا الحد، فلم يكتفوا بالدرجة الأولى أو الثانية لهذا التنويم بل تجاوزوها الى حدود بعيدة منه، فشاهدوا أن العقل الباطن يزداد سموا عما شوهد عليه فى درجات النوم الأولى، ولا يستمر خاضعا لارادة المنوِّم. وبالتوغل فى درجات التنويم توصل المجربون الى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده، وتمثُل الى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسد فى حالة موت حقيقي لولا علاقة خفية بينه وبين الروح. وقد توصل هؤلاء العلماء الى تحقيق أمور روحانية — والمنوَّم فى تلك الحالة — أثبتت لهم أن الروح مستقلة عن الجسد كل الاستقلال، وأنها لا تنحل بانحلاله، وتتصل وهى متجردة عن المادة بالأرواح التى سبقتها الى ذلك العالم.

وقـد علم من هـذا أن الروح، عندما يعترى صاحبها نوم طبيعي أو صناعي، تتصل فى عالمها الروحانى بأمثالها من الأرواح، ولما تستيقظ لا تذكر شيئا من ذلك لعـدم تدخل المخ الجثمانى فى هذا الاتصال.

أما حالة الذهول التى يقع فيها بعض الناس، فيصحبها حدوث ظواهر روحانية تعتبر من الخوارق التى لم يـكن ليحلم بحدوثها العلماء، استعصت على كل تعليل مستند الى عوامـل مادية، وقد استحضر لشهودها أكبر مشعوذى الأرض، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شيء، ولـكنها حوادث روحانية، لا أثر فيها للمهارة اليدوية.

إنى بالمامى هنا بهذا الفتح العلمى لا أقصد الدعوة له بالذات، ولـكنى أقصد منه أن جمهورا كبيرا من أكبر علماء الأرض أصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحانى، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الانسانية، وأن ذلك يظهر بوضوح فى حالة النوم المغناطيسى وحالة الذهول الذى يقع فيه بعض النـاس بسبب مرض أو بسبب استعداد عصبي فيهم. ولو كانت هـذه التأكيدات من هؤلاء العلماء كلامية فلسفية، لما سمحت لنفسى بالاستناد اليها فى بحث أخذت على نفسى أن أعتمد فيه على العلوم اليقينية. نعم إن هذا الفتح العلمى لم يعم جميع علماء الأرض ولم يصبح فرعا من العلم الرسمى، ولـكن الجم الغفير الذى بحثه منهم واعترفوا به فى مدى تسعين سنة، وفى كل أمة متمدنة، ينفت فى عضد المادية، ويطأمن من كبريائها، ويشكك المشايعين لها.

على أن من لم يقل به من العلماء لم يتسن له نحصه . وليس فيمن وفق لفحصه واحد أعلن احتقاره له أو استند الى علم فى دحضه . قال العلامة الطبيعى الكبير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى كدارون فى كتابه : (الآيات والمذهب الروحانى فى العصر الراهن) : « أنا على اتصال بتاريخ هذه البحوث وكل ما يكتب فيها ، وقد زججت بنفسى فيها منذ عشرين سنة فلم يتفق مرة واحدة أن رأيت رجلا بحثها بحثا جديا واقتنع بصحة الظواهر الروحية ، ثم عاد ففقد ثقته بها وأعلن أنها مبنية على الخداع والتدليس » .

ونحن لأجل إحاطة هذه البحوث بالاحترام الواجب لها فى نظر القارئين ، ننقل لهم فذلكة من تاريخ اشتغال العلماء بدراسة المساتير النفسية على أسلوب العلم الحديث فنقول :

تاريخ تأسيس جمعية المباحث النفسية فى انجلتره سنة ١٨٨٢ .

جاء فى كتاب الشخصية الانسانية « The Human Personality » للعلامة الاستاذ (هـ . و . ميرس) « H . W . Myers » مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كامبردج ما يأتى :

«حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادى قد أوغل فى البلاد حتى وصل الينا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلة من الزملاء فى كمبردج وأجمعوا رأيا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع فيها ، (يريد المباحث الروحية) ، تستحق التفاتا وجهدا جديا أكثر مما عولجت بهما الى ذلك الحين . وكنت أرى أنا أن محاولة جديرة بهذا الاسم لم تعمل الى ذلك الوقت للبت فى هل نحن أهل أو غير أهل للالمام بشىء يتعلق بالعالم غير المرئى ؟ وكنت مقتنعا بأنه لو أمكن معرفة شىء من ذلك العالم على أسلوب يمكن العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب فى الأساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتطبيقنا على الظواهر التى تحدث فينا أساليب المباحث المضبوطة نفسها ، فإنها منزهة عن الهوى ، ومتروى فيها ، أقصد بها تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئى المحسوس .

« فالمباحث التى يجب علينا عملها لا يمكن أن تقتصر على تحليل ساذج للاسانيد التاريخية ، أو التى صدرت عن هذا الوحى أو ذاك مما حدث فى الزمان الماضى ، ولكن يجب أن تؤسس قبل كل شىء — ككل بحث علمى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة — على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن تزيد عليها غدا ، فلا يمكن أن تكون إلا مباحث مؤسسة على هذه القضية وهى : « إذا كان يوجد عالم روحانى ، وكان هذا العالم الروحانى موجودا فى أى عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويستكشف ، فيجب أن يكون كذلك فى أيامنا هذه » .

« فمن هذه الوجهة وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التى أنا عضو منها هذه المسألة » .

ثم أخذ الاستاذ ميرس يسرد التجارب التى عملها وعملها غيره مما لا سبيل الى نشره هنا ، ثم قال :

« ماهى الأدلة التى تحملنى على الاعتقاد بأن كل هـذا ليس بصحيح ؟ هذا سؤال يجب أن يضعه كل إنسان نصب عينه إذا توصل الى التحقق ، بغير طريق التأمل ، من الجهل المطلق الذى هو عليه بماهية الوجود الحقيقية .

« إنى أعترف فى كل حال بأن معارفى فيما هو مرجح أو غير مرجح فى الوجود لم تظهر لى كافية لرفض مشاهدات يظهر لى بحق أنها حقيقية ، وأنها مع ذلك ليست مناقضة لمشاهدات وأصول عامة أكثر منها تأسسا . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسـعا فانه — حتى باعتراف ممثلى العلم الرسمى — ليس إلا نظرة عجلى فى العالم المجهول وغـير المتناهى للنواميس الطبيعية » انتهى .

هـذا هو تاريخ تكوُّن جمعية المباحث النفسية بلوندرة سنة ١٨٨٢ ، من أقطاب العـلم فى انجلترة ، ولا تزال باقية للآن ، وقد جمعت من التجارب النفسية ما وقع فى نحو أربعـة وخمسين مجلدا ، وهو ذخر علمى لم يوجد له مثيل قط فى أى عهد من عهود العقلية الانسانية . فاذا أراد قراؤنا أن يدركوا مقام هذه الجمعية فى نظر رجال العلم ، فليقرءوا ما كتبه عنها الاستاذ الـكبير وليم جمس فى كتابه إرادة الاعتقاد « La Volonté de Croire » ، وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، قال فى الصفحة ٣١٣ :

« إن جمعية المباحث النفسية التى يمتد عملها فى انجلترة وأمريكا ، قد سمحت بأن يتلاقى العالمان العلمى والروحانى فى مجال واحد . وإنى أعتبر أن هـذه الجمعيـة مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الانسانية . فلهذا أستحسن أن أفضى الى القارئ بنتائج أعمالها بايجاز فأقول :

« إذا صدقنا الجرائد وأوهام الصالونات ، خيل الينا أن الضعف العقلى وسرعة التصديق هما الرباط المعنوى الجامع بين أعضاء هـذه الجمعية ، وأن حب العجائب هو الأصل المحرك لها . والواقع أنه يكفى أن نلقى نظرة واحدة على أعضائها لدحض هذه التهمة . فان رئيس هذه الجمعية هو الأستاذ سدجويك « Sidgwick » المعروف بأنه أشد الناس شكيمة فى النقد ، وأعصاهم قيادا فى الشك بجميع البـلاد الانجليزية . ووكيـلاها المستر ارثر بلفور والأستاذ ج . ب . لنجلى ، سكرتير المجمع العلمى . ويمـكن التنويه من أعضائها العاملين بالأستاذ ريشيه الفيزيولوجى الفرنسى الخطير . وتشمل قائمة أعضائها رجالا آخرين كفاياتهم العلمية أشهر من نار على علم . فاذا طلب الىّ أن أعين جريدة علمية تكون مصادر أغلاطها منتقاة بأدق أساليب التمحيص ، فانى أنوه بمحاضر جمعيـة المباحث النفسية . فان الفصول الفيزيولوجية التى تنشرها الجـرائد

الخاصة بهذا العلم ، لا تبلغ فى دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة ، حتى أن صرامة الأساليب الكشافة التى طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء ، كانت بحيث توجد اختلاف الآراء فى باطن الجمعية نفسها » انتهى .

وقبل أن تتألف هذه الجمعية حمل الرأى العام المجمع العلمى الانجليزى على تأليف لجنة لفحص الظواهر النفسية وتمحيصها ، فندبت ثلاثا وثلاثين علما من أعلامها للقيام بهذه المهمة العلمية . فبذلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ، ثم حرروا تقريراً إجماعيا وقع فى ٥١٤ صفحة ، وطبع فى أكثر اللغات الحية . جاء فى آخره ما نصه :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها فى البيوت الخاصة بالأعضاء لأجل نفى كل احتمال فى إعداد آلات لاحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة ، أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا ، لأن واسطتنا كان أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار فى الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له من غرض مالى يرمى اليه ، ولا أية مصلحة فى غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن تتخيله من التحوطات ، عملت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب فى أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا ، وإبعاد كل احتمال لتزوير أو توهم .

« وقد اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس أعضاء اللجنة تجاربهم وهم فى أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها كانت إما نتيجة التدليس أو التوهم ، أو أنها تحدث بحركة غير اعتيادية للعضلات ، ولم يتنازل هؤلاء الأعضاء المنكرون للغاية عن افتراضاتهم هذه إلا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا يمكن مقاومته فى شروط تنفى كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التى حدثت فى خلال هذا البحث الطويل هى مشاهدات حقة لا غبار عليها الخ » .

هـذا ما ورد فى ذيل ذلك التقرير الضخم ولسنا فى حاجة لأن نقول إن هذا أكبر حدث سُجل فى تاريخ العلم . ومن العبث المحض أن يتوهم متوهم أن الحقيقة تضيع أو أن التدليس يروج بين يدى ثلاثة وثلاثين رجلا من أعلام العلم المتمرسين على النظر والتمحيص وتمييز الغث من السمين فى كل ضروب البحوث البشرية .

ولقد كان لهذا التقرير أثر عالمى عام ، فهب ألوف من العلماء والفهماء فى جميع ممالك الأرض لبحث هذه الخوارق ، وألفوا لها مئات من الجمعيات ، ونشروا مثلها من المجلات ، ووضعوا فيها ألوفا من الكتب ، ولا تزال هذه المؤسسات قائمة الى اليوم ، والاهتمام بها يزداد على نسبة كثيرة ما يعمل فيها من التجارب والبحوث ، وقد أقيمت لها خمس مؤتمرات عالمية فى لوندرة وباريس وغيرهما ، أصدرت تقارير ضافية ترجمت الى اللغات الحية .

هذا ولو أردنا أن ننقل شهادات أعضاء المجامع العلمية ، ورؤساء الجامعات ومدرسيها ، والفلاسفة والصحفيين والمحامين ، وجميع من لخصوها من كبار العقول ، لا قتضى ذلك منا مجلدا ضخما ، ولكننا نكتفى بما تقدم فان فيه بلاغا للمنكرين .

غرضنا من الالمام بهذه المسألة :

لسنا نقصد بما نشرناه فى هذا الموضوع أن ندعو اليه ، ولكننا نقصد منه أن نثبت للذين غرتهم الفلسفة المادية فوقفوا عند حدودها فيما يقررون ، والذين يظنون أنه ليس فى الوجود شىء فوق ما يعرفون ، أنهم مخدوعون ، فاذا لم نظفر إلا بتشكيكهم ، وتشكيك من يتأثرون بكتاباتهم فيما هم جامدون عليه ، فهذا كسب لنا عظيم .

على أننا نرجو أن يحملهم هذا الشك على ترك خيلائهم بالقليل من المعرفة التى حصلوها ، وعلى التأسى بأقطاب العلم المعاصرين فى التواضع وفى الامتناع عن نفى مالم يحيطوا بعلمه . وإن لهم فى مثل العلامة الكبير السير وليم كروكس أسوة حسنة ، فان هذا الرجل الفذ حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من ألقاب الشرف العلمية ، وتولى رئاسة المجمع العلمى البريطانى ، وقد قال فى خطبة له فيه ، كما ورد فى مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التى عاونتنى فى مباحثى النفسية ، وذللت لى طرق اكتشافاتى الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادى الراسخ الصحيح بجهلى . وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا أو آجلا الى إهمالهم الكلى لجانب عظيم من رأس مالهم العلمى المزعوم .

الى أن قال : « ولست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، بل إنى اعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا وليس أحد سواى أهلا لأن نحكم بأن شيئا بعينه ليس بموجود فى الكون (تأمل) » .

كذلك لهم أسوة بمثل الأستاذ الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى ومدرس الفيزيولوجيا فى جامعة الطب الفرنسية ، فقد قال فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية) تأليف الدكتور (ماكسويل) النائب العام فى بوردو من فرنسا : قال :

« يجب على الانسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم العصرى مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا .

ثم قال : « لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن هذا العلم الذى نفخر به الى هذا الحد ، ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟

الى أن قال : « فالأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، متواضعا لأن علومنا ضئيلة ، وجريئا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » .

نتيجة ما تقدم :

يرى قراؤنا مما قدمناه أن العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات ، قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، أن حدود العلم لا تزال بعيدة عنهم ، وأن كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات الموجودة بين بعض ما يقع تحت حسهم من الموجودات . أما كنه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التى تدبرها ، فلا يزال أمرها مجهولا . وقد تجلى لهم أن من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا أيضا أن طائفة من أماثل هؤلاء العلماء ، قد وفقوا منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العالم المحسوس ، الى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على أسلوبهم العلمى من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على أمور لم يكن يدور فى خلد أحد أن أقطاب العلم المادى يعودون فيثبتون وجودها وقد سبق لهم نفيها ، والتشنيع على القائلين بها من الشئون الروحانية .

ولسنا نريد أن نثبت إمكان الوحى بالاستناد الى اكتشافات هؤلاء العلماء فى عالم ما وراء الطبيعة ، فقد أثبتنا وجوده بالحس من الغرائز التى طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريات ، ولكننا نستأنس بها فى بحثنا هذا ، إدلالا على أن الانسانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل الى عهد من الحياة تتفق فيها فتوحات الروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتستقيم على الجادة التى توصلها الى كمالها المرجو لها ، خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشكوك المحيرة للعقول ؟

محمد فريد وجدى



سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنا بك أيها القارئ الكريم من سورة الإخلاص الى قوله : « ولم يكن له كفوا أحد » . ونقول اليوم فى الكلام على هذه الآية الشريفة : إنه تعالى لما بين أنه المصمود اليه فى قضاء الحوائج ، ونفى الوسايط من البين بقوله : « لم يلد ولم يولد » على ما بيناه ، ختم السورة بأنه ليس هناك شيء من الموجودات مساو له فى شيء من صفات الجلال والعظمة .

وبيان ذلك : أن وجوده تعالى من مقتضيات حقيقته ، فانه واجب لذاته لا بشيء خارج عنه ، لأن حقيقته غير قابلة للعدم ، وأما صفاته فلا مناسبة بينها وبين صفات المخلوقين ولا اشتراك بينهما إلا فى الأسماء . وانظر الى علمه مثلا تجده لا يتصور فيه مساواة أصلا ، لأنه ليس بضرورى ولا استدلالى ، فليس مستفادا من الحس ولا من الروية بترتيب المقدمات والنظر فى شرائط الانتاج ، ولا من مخبر أو معلم ، ويستحيل عليه أن يكون فى معرض الغلط أو الزوال ، الى آخر ما يرشدك اليه العقل السليم والفهم المستقيم ، بخلاف علوم المحدثات فانها ليست كذلك فى كل ذلك ، وهو بعد ذلك لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وأما القدرة التى أبدعت السموات والأرضين فأمرها أوضح من الشمس وأجلى من الحس ، وكذا بقية صفاته جل وعز ، من الرحمة ، والجود ، والعدل ، والفضل ، والاحسان ، والحكمة التى أتقن بها جميع العوالم العلوية والسفلية ، وقد بهرت الناظرين فيها والمتتبعين لخوافيها : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرّتين ينقلبْ اليك البصر خاسئا وهو حسير » الى آخر صفاته التى لا تحد ، ولا يأتى عليها العد ، فسبحان من لا تتناهى كمالاته العليا ، وأسماؤه الحسنى .

هذا وأما تقديم الخبر وما يتعلق به من الجار والمجرور ، فلكون هذا الكلام سيق لنفى المكافأة عن ذات الله ، فتقديم ما يفيد ذلك المقصود المسوق له الكلام أولى . والكفء : المثيل والنظير . قال عطاء فى تفسير الآية : لم يكن له مثيل ولا عديل . وقال مجاهد : لم يكن له

صاحبة . وكأنه تعالى يقول : لم يكن أحد كفؤا له فيصاهره ، ردا على من حكى الله عنهم أنهم قالوا : ولد الله ، وأن الملائكة بنات الله ، وأن المسيح ابن الله . فكأنها دليل لقوله : « لم يلد » ولكننا لا نخصصها بهذا وإن كان ما قاله مجاهد داخلا فى ذلك دخولا أوليا .

والخلاصة : أن هذه السورة الشريفة يستفاد منها تلك المطالب العالية المبينة لكمال الله وعظمة شأنه ؛ فقوله : « قل هو الله أحد » يدل على أنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ؛ وقوله : « الله الصمد » يدل على أنه كريم رحيم ، لأنه لا يصمد اليه فى جميع الحوائج إلا إذا كان محسنا غاية الاحسان ، جوادا لاحد لجوده ؛ وقوله : « لم يلد ولم يولد » يدل على أنه الغنى على الإطلاق ، وأنه منزه عن التغيرات ، ويلزم ذلك أنه لا يبخل بشىء أصلا ، ولا يمكن أن يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر ، بل بمحض الإحسان وإلا لم يكن الغنى المطلق ؛ وقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » إشارة إلى نفى ما لا يجوز عليه من الصفات ، وما يستحيل فى حقه من المشاركات .

وإجمال القول : أنه نفى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله « أحد » ، ونفى النقص والبخل والعجز بلفظ « الصمد » ، ونفى العلية والمعلولية بقوله : « لم يلد ولم يولد » ، ونفى الأضداد والأنداد بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » .

ثم نقول بعد ذلك : إنها أبطلت مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، كما أبطلت مذهب الصابئين فى الأفلاك والكواكب التى يعبدونها ويعتقدون أنها المؤثرة فى هذا العالم . وليس يخفى عليك أن كونه صمدا يبطل مذهب من أثبت خالقا سوى الله ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان مصمودا اليه فى جميع الحاجات ، على ما تقدم فى تفسير الصمد . وقوله : « لم يلد ولم يولد » يبطل مذهب بعض اليهود فى عزير ، والنصارى فى المسيح ، والمشركين فى أن الملائكة بنات الله . وقوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد » يبطل مذهب الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى . فسبحان من أودع فى كلامه ما يدهش الأنظار ، ويملأ الأفكار من عظمة الواحد القهار .

واعلم أن للقرآن عناية كبرى ببيان عظمة الله وتوحيده ، وإن كان معنيا بالترغيب والترهيب وغيرهما من المقامات التى أفاض فيها القرآن ، إلا أنه يمزج ذلك كله ببيان العظمة والجلال ، وكأن ذلك هو العنصر السارى فى كل شىء ، والأس الذى يبنى عليه كل شىء ، فإن من امتلأ قلبه بعظمة الله لم يفرط فى شىء من أوامر الله . ولنعلم أن القرآن يرى أن كل شىء آية يجب التفكر فيها ، وحقا هى آية ، فإن كل شىء يوصل الى الله تعالى . « ومن البدهى أن كل صنعة تدل على صانعها وما هو عليه من علم وحكمة » ولا شك أن كل ما فى الوجود أثر من آثاره ، وفائض من أشعة أنواره ، فالوجود كله مرآة يتجلى فيها جمال مبدعه الذى يبهر

العقول ويملأ النفوس . فإن شئت فاقرأ فى كتاب الكائنات التى خلقها الله بديع صفاته وعظيم آياته ، فليست تخلو صحيفة من صحائفه ولا ذرة من ذراته إلا وفيها آية من آياته ، ودليل ساطع على وحدانية ذاته :

ورق الغصون لدى الرياض صحائف مشحونة بأدلة التوحيد

بل كل شىء فى الوجود فيه تلك الأدلة على مبدعه الحكيم وصانعه القديم .

ومن عجيب أمر القرآن فوق ذلك ، أنه كثيرا ماينبه على أمور مستقبلة تحقق وقوعها بعد ، مثل قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » ، وقد خلق ما نشاهده من المخترعات التى هى آيات بينات على ما أودعه رب الأرض والسموات من الأسرار فى جميع الكائنات .

ولنذكر لك بعض تلك الإشارات التى بينتها العلوم الحديثة والاكتشافات الجديدة فكانت آية من آيات القرآن ، ومعجزة لسيد ولد عدنان ، فمنها ما اكتشفوه من أن فى كل نبات ذكراً وأنثى ، فلنحمل عليه قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » ولنجعله فى تفسيره ؛ ومن ذلك ما اكتشفوه من أن الرياح تلقح الأشجار ، فلنجعله فى تفسير قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » ؛ ومن ذلك ما ذكرناه فى كتابنا « رسائل السلام » من أن المفسرين ذكروا فى قوله : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » ما ينبو عنه الذوق السليم والفهم المستقيم من أن المراد بالفلك المشحون هو سفينة نوح عليه السلام ، وأن المراد بذريتهم آباؤهم الذين كانوا فى السفينة ، وأن المراد بمثله فى قوله « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » هو الإبل ، وقلنا : إنه سبحانه وتعالى أشار بتلك الآيات وما يماثلها الى ما سيوجد من تلك المحدثات والمخترعات ، فنبه سبحانه وتعالى الى أنه سيخلق فى المستقبل ما لم يخطر لنا على بال ، علما منه تعالى بما سيوجد من بواخر تمخر عباب الماء ، ومناطيد تخترق الهواء ، وتذهب سابحة فى جو السماء ، وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى تلك البواخر بأشكالها الأنيقة كما فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى حين قام يضحك من النوم فقيل له : ما يضحكك يا رسول الله ؟ فقال ما معناه : « عرضت علىّ طائفة من أمتى يركبون ثبج البحر على الأسرة كأنهم ملوك » .

ولماذا لا نفهم من قوله : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » أن ذلك المثل إنما هو تلك المناطيد التى تسبح فى الهواء كما يسبح الفلك المشحون فى الماء ، ويكون الضمير فى قوله « لهم » عائدا على الذرية باقية على معناها الظاهر منها ، غير معدول بها الى ما يذكره المفسرون من تلك التأويلات البعيدة . أو ليس هذا أولى من جعل مثل الفلك المشحون هو تلك الإبل التى من عادة القرآن أن يعبر عنها بلفظها ؟ وسيأتى التنبيه عليها فى السورة نفسها فى قوله : «أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما

فهم لها مالـكون ، وذللناها لهم فنها رَكوبهم ومنها يأكلون » . أليس شبه مراكب الهواء بمراكب الماء طيرانا فى ذلك الفاز السهل ، وجولانا فى ذلك السيال النهل، أتم من شبه الابل بالسفن ، مع أنه لا داعى الى العـدول عن ذكرهـا بأسمائها ، ولا لصرف الذرية عن معناهـا الظاهر منها ، ويكون ذلك آية من آيات القرآن المستقبلة ؟ اللهم إن ذلك سديد ، وليس ببعيد .

وعندى أن العقل يوجب أن يكون فى القرآن متشابهات تحت طى أستارها رموز وكنوز ، ولا تزال يتجلى منها الشىء بعد الشىء على ممر الأعصار وكر الليل والنهار ، ولا يتم اتضاحها إلا بالدخول فى عالم الآخرة ومشاهدة ما سيكون فيه .

ولا يسهل علينا أن نلقى القلم قبل أن نلفت نظر القارىء الى أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار الى كثير مما سيحدث بعده ، وهى من معجزاته الباقية التى تتجدد شيئا فشيئا الى يوم القيامة . وقد جاء عنه فى هذا الباب شىء كثير أفرده العلماء بالتآليف ، ومن ذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أن الساعة لا تقوم حتى يكلم الرجل سوطه . ولماذا لا نطبق هذا على المذياع « الراديو » الذى أصبح يكلم الناس فى كل مكان حتى فى السيارات والطرق ؟

ولنقف هنا اليوم منتظرين الفرص التى تمكننا من اقتحام تلك الموضـوعات التى تبين عظمة القرآن ، وفضل سيد الأكوان ، صلى الله عليه وسلم ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

مجذوبونا ومجذوبوهم

لنا مجاذيب يرمون الناس بالحجارة ، فاذا رموا بها صاحوا وأعولوا وأغروا الصغار بالتمادى فى معاكستهم . وكان لآبائنا مجاذيب ولـكن يظهر أنهم كانوا من نوع يناسب آدابهم . فمن مجاذيبهم عليان وبهلول وغـيرهما . قال الحسن بن سهل بن منصور : رأيت الصبيان يرمون عليان بالحجارة فأدماه حجر منهم فقال :

حسبى الله توكلت عليـه ... مَن نواصى الخلق طراً فى يديه
ليس للهارب فى مهربه ... أبدا من راحة إلا اليـه
رب رام لى بأحجار الأذى ... لم أجد بدا من العطف عليه

فقال له رجل : تعطف عليهم وهم يرمونك بالحجارة ؟ فقال له : اسكت لعل الله يطلع على غمى ووجعى وشدتى فيفرِّح هؤلاء ، ويهب بعضا لبعض .

اللهم إن هذه غاية فى نـكران الذات .



السلم

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين ، فقال : « من أسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم ، ووزن معلوم ، الى أجل معلوم » رواه الخمسة .

يتعلق بشرح هذا الحديث مباحث : (١) بيان معنى السلم ، وهل هو مرادف للسلف ؟ (٢) بيان شروط السلم (٣) حكمة إباحة هذا النوع من المعاملة مع أنه قد يضر المحتاجين أكثر مما يضرهم الربا (٤) هل السلم موافق للقياس أو هو على خلاف القياس ؟

(١) السلف والسلم بمعنى واحد فى اللغة ، فقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن السلم بالسلف فى الحديث الذى معنا ، فقال : « من أسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم الخ » . على أن السلف قد يطلق على القرض بدون منفعة . فاذا أسلف شخص آخر عشرين جنيها مثلا الى أجل بدون أن يأخذ منه سلعة ينتفع بها ، فانه يقال لذلك : سلف ، ولا يقال له سلم . وظاهر أن المراد بالسلف فى الحديث إنما هو السلم ، لأنه قال : من أراد أن يسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم . وهذا بيان لشروط البدل الآتى بيانها . وقد عرفت أن القرض لا بدل له وإنما يرد المقترض رأس المال بدون زيادة .

أما معنى السلم فى اصطلاح الفقهاء : فهو عقد على شيء اجتمعت فيه ثلاثة أمور : (أحدها) أن يكون ذلك الشيء من الأشياء التى يصح بيعها ، فلا يجوز السلم فى الخمر والخنزير ونحوها . (ثانيها) أن يكون ذلك الشيء وهو المبيع موصوفا بما يرفع عنه الجهالة التى تؤدى الى النزاع . (ثالثها) أن يكون ذلك المبيع مؤجلا . فهاهنا أربعة أمور : أحدها : المشترى الذى يملك النقدين من ذهب أو فضة ونحوها ، ويسمى هذا (مسلِما) أو مسلفا أو رب السلم . ثانيها : بائع السلعة المؤجلة ، ويقال له مسلم اليه . ثالثها : السلعة المبيعة كالسمن والزبد والقمح ، ويقال له مسلَم فيه . رابعها : الثمن الذى يدفعه المسلِم ، ويقال له رأس مال السلم .

وبهذا يتضح لك أن السلم هو عقد بيع لا بد فيه من بائع ، ومشتر ، وسلعة تباع ، وثمن لهذه السلعة ، إلا أنه يفارق البيع فى أن السلعة فى البيع تكون حاضرة بخلاف السلم ، فان السلعة فيه تكون مؤجلة بحيث لو لم تكن السلعة مؤجلة فانه لا يسمى سلما بل يكون بيعا إذا استكمل شرائط البيع . وقد خالف فى ذلك الشافعية وقالوا : لا يشترط فى المسلم فيه (المبيع) أن يكون مؤجلا بل يصح أن يكون حالا . فالمدار عندهم فى تحقق السلم هو أن يبيع شخص لآخر سلعة موصوفة وصفا يرفع عنها الجهالة بلفظ سلم ، كان يقول له : أسلمت اليك عشرين جنيها مصريا فى عشرين أردبا من الذرة الصفراء أو الشامى أو نحو ذلك على أن أقبضها فى زمن كذا . فاذا كان المبيع حاضرا وقال له : أسلمت اليك عشرين جنيها مصريا فى عشرين أردبا من الذرة الحاضرة ، فانه ينعقد سلما عندهم . ولا بد من أن تشتمل الصيغة على لفظ السلم عند الشافعية على المعتمد ، بخلاف غيرهم من الأئمة فانهم يشترطون تأجيل المسلم فيه (المبيع) ، ولا يشترطون أن تكون الصيغة بلفظ السلم ، بل تصح بلفظ البيع والشراء وغير ذلك من الألفاظ التى ينعقد بها البيع . أما الذين اشترطوا تأجيل السلعة فقد اختلفوا فى أقل الأجل ، فقال المالكية : أقل الأجل أن يزيد على خمسة عشر يوما ولو بلحظات . وقال الحنابلة والحنفية : إن أقل الأجل فى السلم هو شهر كامل .

هذا والسلم معروف عند العامة (بالتسليف) على القطن أو القمح أو المسلى أو غير ذلك من السلع ، بمعنى أن صاحب السلعة يبيعها بثمن معين ويأخذ ثمنها على أن يسلمها فى وقت معين . وهذا غير السلف المعروف فى المصارف المالية ، فانه من باب رهن العين ، وهو جائز إذا لم يكن فيه فوائد ربوية . فالفرق بين السلم والسلف المعروف فى المصارف أن السلم لا يلزم أن تكون العين موجودة عند بيعها ، ويلزم أن يقبض البائع ثمنها حالا . أما السلف المعروف فى المصارف فان العين تكون موجودة وتودع فى مخزن البنك ويسلف عليها مايتفقان عليه ، وهذا هو الرهن .

(٢) أما شروط السلم فهى شروط البيع مع زيادة يسيرة اقتضاها تأجيل المبيع ، وهى ضبط المبيع ضبطا تاما يرفع النزاع عند تسليم السلعة . فمن الشروط المشتركة بين البيع والسلم أن يكون العقد واقعا بين عاقلين ، فإذا وقع من مجنون أو صغير غير مميز فإنه لا ينعقد رأسا . أما الصبى المميز الذى يعرف معنى البيع والشراء وما يترتب عليهما من فوائد ومضار ، فان بيعه أو سلمه ينعقد موقوفا على إجازة الولى أو الوصى ، فإذا أقره فإنه ينفذ وإلا فلا . ولم يخالف فى ذلك إلا الشافعية ، فانهم قالوا : إن البيع لا ينعقد إلا إذا وقع من بالغ ، أما الصبى فإن بيعه لا ينعقد ولو كان مميزا ، ومثله الأعمى ولو كان بالغا عاقلا ، لأنه يكون عرضة للغبن لسبب عدم رؤية السلعة. وظاهر أن السلم مثل البيع فى ذلك بلا فرق .

ومنها : أن يكون العاقد مختارا ، فلا ينعقد بيع المكره ولا شراؤه .

ومنها : أن يكون المبيع أو المسلم فيه طاهرا ، فلا يصح أن يكون النجس بحسب ذاته كالخنزير أو الذى عرضت له نجاسة يتعذر إزالتها ، مبيعا ولا ثمنا . ولا يخفى أن هذا من محاسن الشريعة ، لأن قواعدها دائما تشتمل على ما فيه مصلحة النوع الانسانى ، فإن قواعدها تشتمل على تحريم ما يضر الانسان فى بدنه أو فى كرامته وخلقه ، ولم تحظر على الناس إلا الخبائث الضارة القذرة ، فأباحت لهم الطيبات وحرمت عليهم الخبائث . وعلى هذا يكون تحريم بيع النجس وشرائه إنما هو لفائدة المجتمع . على أن بعض المجتهدين الذين أدركوا أغراض الشريعة الاسلامية وعرفوا ما تقصده من فائدة الناس ، أباحوا بيع الأشياء النجسة التى يمكن الانتفاع بها فى غير الأكل ، وفى غير الأماكن التى ينبغى أن تكون دائما نظيفة ، بشرط أن لا يترتب على استعمالها ضرر أو أذى . ومنها الدهن المتنجس ، والعذرة المخلوطة بالتراب (السباخ) و (الزبل) النجس الذى ينتفع به ، فإن كل ذلك يصح بيعه وشراؤه عند الحنفية . إنما الذى لا يصح بيعه بالإجماع ، هو : الميتة ، والخنزير ، والخمر ، والدم . على أن الأئمة قالوا : إذا كانت هذه الأشياء مملوكة لشخص غير مسلم ويبيحها له دينه فإن له أن يبيعها لأهل ذلك الدين خاصة ، بحيث لو باعها لمسلم فإن بيعه يكون باطلا .

ومنها : أن يكون المبيع (أو المسلم فيه) مقدورا على تسليمه ، فلو باع شخص لآخر سلعة لا يقدر على تسليمها فإن بيعه لا ينعقد ، وعليه أن يرد ثمنها إذا كان قد قبضه . ولا يشترط فى السلم أن يكون المبيع مملوكا عند قبض الثمن ، بل يجوز أن يبيع عينا سيملكها فيما بعد ، بشرط أن يكون قادرا على أن يملكها فى الوقت المحدد لدفعها ، كالقطن والذرة ، والقمح ، والسمن ، والعسل ونحو ذلك من الأشياء التى توجد فى أزمنة معينة من السنة . ولهذا قيل : إن السلم على خلاف القياس كما سنبينه بعد . وذلك لأنه يشترط فى المبيع أن يكون مملوكا للبائع وقت البيع ، فإذا لم يكن مملوكا فإن البيع لا يصح ، والسلم ليس كذلك ، فإن المبيع فيه مؤجل غير مملوك للبائع وقت العقد . فمقتضى هذا الشرط أنه لا يصح ، ولكن الشارع قال إنه صحيح .

ومنها : أن يكون المبيع معلوما والثمن معلوما علما يرفع النزاع بين المتعاقدين ، فاذا باع شخص لآخر حيوانا أو غلة أو فاكهة أو غير ذلك بدون أن يبينها بيانا وافيا ، أو يراها المشترى بنفسه أو بمن يثق به ، فان البيع يقع باطلا ، لأنه اشترى شيئا مجهولا قد يفضى الى النزاع والخصام . ومن ذلك ما إذا قال شخص لآخر : اشتر ناقتى بالثمن الذى يحكم به فلان ، أو اشتر شاة من قطيع الغنم التى أملكها .

ومنها : أن لا يكون العقد مؤقتا كأن يقول له : بعتك هذا البعير بكذا لمدة سنة ، فان

هذا البيع يكون باطلا . ومنها غير ذلك من الشروط التى ذكرناها موضحة فى الجزء الثانى من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

وحاصل ما ذكر فى باب السلم من الشروط التى لم تذكر قبل : هى بيان جنس المسلم فيه (المبيع) ، وبيان رأس المال ، وبيان نوع المبيع ، وبيان صفته وقدره ، بالكيل فى الأشياء التى تباع كيلا ، والوزن فيما يباع بالوزن ، والعد فيما يباع بالعد . مثال ذلك أن يقول شخص لآخر : أسلمت إليك جنيهين مصريين فى أردب من القمح البعلى أو المسقى الجيد أو المتوسط على أن أستلمه فى وقت كذا . فهذا هو عقد السلم فى أردب من القمح ، لأنه قد اشتمل على بيان جنس المبيع وهو القمح ، وقدره وهو أردب ، ونوعه وهو كونه بعليا أو مسقيا ، ووصفه وهو كونه رديئا أوجيدا أومتوسطا ، وبيان رأس المال وهو الجنيهان الخ . على أن الشافعية لا يشترطون ذكر الوصف بل يقولون : المدار فى ذلك على ضبط المبيع بأى عبارة كانت . وعلى هذا القياس فيما يباع بالعد أو الوزن كالبطيخ والعجوة ونحوهما .

ويشترط أن يكون رأس المال وهو الثمن حالا ، فلا يجوز تأجيله باتفاق المذاهب ، وإن اختلفت آراؤهم فى بعض أمور لايترتب عليها كبير فائدة فى موضوع القبض . فالحنفية يقولون : يشترط أن يكون رأس مال السلم وهو الثمن مقبوضا فى مجلس التعاقد ، سواء كان ذهبا أو فضة ، أو كان سلعة معينة أو غير ذلك من العملة . والمالكية يقولون : إذا تأخر قبض الثمن عن المجلس ، فإن كان ذلك بشرط ، بطل العقد ، وإن لم يكن بشرط فبعضهم يقول بجوازه وبعضهم يقول ببطلانه . وعلى كل حال فلا يصح السلم إلا إذا قبض البائع الثمن فى مجلس العقد عند جمهور الأئمة .

ويشترط أيضا أن يكون الصنف المبيع فى السلم موجودا فى الأسواق ، بمعنى أن يكون كثير التداول كالحبوب والفواكه والزبد والسمن والقماش المعتاد ونحو ذلك ، فان لم يكن كثير الوجود كالجواهر النفيسة التى لا وجود لها فى الأسواق فإنه لا يصح شراؤها سلما ، لأن المشترى قد يدفع ثمنها والبائع قد لا يستطيع الحصول عليها ، فيقع بينهما النزاع والشريعة الاسلامية دائما تحث الناس على المودة والإخاء ، والتمسك بكل ما يزيد الروابط ، ويقوى وسائل التعاون والتناصر .

هذا ويصح السلم فى كل شىء يباع بالكيل أو الوزن أو العد ، أو يباع بالذراع كالقماش والبسط والحصر . أما الحيوان فانه يصح السلم فيه عند الأئمة الثلاثة ما عدا الحنفية فانهم يقولون : لا يصح السلم فى الحيوان مطلقا ، فاذا باع شخص لآخر خروفا صفته كذا ونوعه كذا وسنه كذا بثمن يقبضه حالا على أن يدفع الخروف بعد ذلك بشهرين مثلا عند حلول عيد الأضحى ، فانه جائز عند الأئمة الثلاثة خلافا للحنفية . على أن الحنفية يقولون بصحة السلم

فى السمك استثناء من الحيوان ، ثم إن كان السمك طريا وكان لا ينقطع عادة كسمك نهر النيل ونحوه فانه يصح السلم فيه فى كل الأوقات ، وإن كان ينقطع فى بعض الأزمنة كالسمك الموجود فى البحيرات التى يمنع منها الصيد فى أوقات معينة فانه لا يصح تعيين مدة القبض فى هذه المدة . ومثله السمك الجاف المملح (البكلاه) . ولا من التعيين بالوزن أو العد ، وتعين الصنف بما هو متعارف بين الناس .

(٣) أما حكمة تشريع السلم وإباحته فهى ظاهرة ، لأن الناس قد يحتاجون الى المال الذى يستعينون به على العمل فى مزارعهم وتربية ما يملكونه من حيوانات أو نحو ذلك فلا يجدونه ، فيقف دولاب عملهم ، وتتعطل مزارعهم ، ويحرمون من نتاجها ونتائج حيواناتهم ، وفى ذلك ضرر شديد يلحق الناس ، والشريعة الاسلامية إنما هى شريعة رحمة وعطف ، فليس من أغراضها سد باب العمل فى وجوه الناس ، وليس من عاداتها أن تغلق الأبواب فى وجوه المحتاجين فتمنعهم من قضاء حاجاتهم بحجة أن ذلك يتنافى مع قواعدها العامة ، بل هى فى الواقع لم تشرع شيئا إلا وهو مطابق لمصلحة المجتمع الانسانى ، وموافق لما تقره الفطرة السليمة والعقول الصحيحة . فإنها ما حرمت الربا إلا خوفا على المحتاجين من قسوة المرابين ومطامعهم التى قد خربت بيوتا عامرة ، فضلا عما فى الربا من قسوة تنافى الرحمة الانسانية التى أودعها الله تعالى فى قلب الإنسان من حيث هو إنسان كامل ، وهى بذلك لم تسد باب المعاملة التى فيها ربح مشروع ، بشرط أن لا يترتب على ذلك غبن فاحش أو إرهاق للمحتاجين . والسلم هو بيع وشراء ، غاية ما هناك أن السلعة المبيعة لا تكون موجودة وقت البيع ، فهى مؤجلة كتأجيل الثمن وتعجيل السلعة ، فإذا باع شخص مثلا لآخر ثوبا من القماش بجنيه وأجل قبض الجنيه شهرين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل ، فإنه جائز بلا خلاف . والسلم هو عكس ذلك ، فإنه كما عرفت دفع الثمن وتأجيل الثوب ، فإذا اشترى ثوبا بجنيه وأعطى التاجر الجنيه على أن يحضر له الثوب بعد شهر مثلا ، فإنه جائز متى كان الثوب معينا . فأى فرق بين الحالتين ؟

قد يقول بعض الناس : إن السلم بالصورة المتبعة فى البلاد الاسلامية قد يكون أشد ضررا وأعظم أذى للفقراء الذين يضطرون الى المال الذى يسد حاجاتهم الضرورية ، فيذهبون الى أرباب الأموال ويبيعونهم السلعة التى تساوى عشرة بخمسة ، وذلك شر من الربا ، فإن فوائده لا تصل الى العشر .

والجواب عن ذلك : هو أن الشريعة الاسلامية قد حرمت الربا لما فيه من أخذ مال بدون عوض ، وحرمت كل ما يترتب عليه ضرر وإجحاف بالأفراد أو الجماعات ، فهذا النوع من المعاملة ، وهو السلم ، إذا تحقق فيه ضرر أحد المتعاقدين حال التعاقد ، فإنه يكون حراما مثل الربا بلا فرق . أما إذا كان التعامل به كالتعامل بغيره يحتمل أن ينتفع به البائع والمشترى ،

بصرف النظر عن العوارض الأخرى التى قد يترتب عليها خسارة أحد الفريقين ، فانه يكون جائزا بلا كلام . مثلا : إذا اشترى شخص من آخر قنطارا من السمن بسعر الرطل ثلاثة قروش على أن يستلمه منه فى وقت يساوى الرطل فيه أربعة قروش أو نحوها ، فان ذلك يكون بيعا مقبولا ، فان البائع قد استلم الثمن وعمل فيه بما يسد حاجته ، وبما قد ينمى محصوله ، فيتضاعف بذلك ربحه ، والمشترى قد ربح ربحا معقولا ينتفع به أيضا ، فتتبادل المنفعة بين الناس كتبادل السلع المبيعة بلا فرق . أما إذا استغل المشترى حاجة البائع المضطر فاشترى منه الرطل بقرشين أو أقل فانه يكون قد غبنه غبنا فاحشا يترتب عليه من الآثام ما يترتب على الربا بدون فرق .

(٤) ومن هذا تعلم أن السلم إنما وافقت الشريعة الاسلامية عليه لما فيه من تبادل المنافع بين الناس كالبيع بلافرق ما ، إلا أن البيع قد يكون الثمن فيه حالا ومؤجلا ، والسلم يجب أن يكون الثمن فيه حالا والسلعة مؤجلة . وقد عرفت أن بعض الأئمة يقول : إن السلعة فى السلم لا يجب تأجيلها ، وعلى كل حال فمن قال : إن السلم على خلاف القياس ، فقد فهم أنه داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تبع ماليس عندك » والسلعة التى لا يملكها الشخص الآن قد لايقدر على ملكها عند حلول الأجل ، فلهذا كان السلم على خلاف القياس . ولكن قد يجاب عن ذلك بأن السلم يشترط فيه أن يكون المبيع موصوفا معينا مقدورا على تسليمه غالباً ، فلا يجوز السلم فى غير ذلك ، فاذا وجد عارض يمنع من القدرة على تسليمه فذلك لاينافى صحته ، كالبيع بثمن مؤجل الى أجل معلوم فانه قد يعرض للشخص مانع يمنعه من الدفع عند حلول الأجل . فهل هذا الفرض يبطل البيع أو يحرمه ؟ كلا ، فإذا كان الشخص على ثقة من قدرته على تسليم العين عند الأجل المحدود ، لم يكن فرق بين تأجيل الثمن وتأجيل العين المشتراة ، فلم يدخل السلم تحت هذا الحديث ، لأن المراد به النهى عن بيع ما ليس مقدورا للانسان : كان يبيع جوهرة نفيسة غير موجودة فى الأسواق أو نحو ذلك . وهذا المعنى لازم لأن الأحاديث التى وردت فى إباحة السلم صحيحة متفق عليها . وحديث : « لاتبع ما ليس عندك » يمكن حمله عليها بدون حاجة الى استثناء . ومما لاريب فيه أن تأويله على هذا الوجه ظاهر لا تعسف فيه .

عبد الرحمن الجزيرى

أى شهر مولد النبى

أىُّ شهر ربيع الأول ! بماذا طالعت الانسانية قبل أربعة عشر قرنا وأحد عشر عاما ؟ وماذا حملت الى الناس بين جوانح ذلك المولود اليتيم، الذى ألقيته بين أحضان والدته آمنة بنت خويلد وأسمته محمدا ؟

من الذى كان يستطيع أن يتخيل أن هذا الطفل الذى لم يعبأ بميلاده غير أمه فى كسر دارها ، سيكون شغل العالم كله بعد سنين معدودة ، وسيبقى ذكره خالدا خلود الانسانية ، وتعاليمه حية مع حياتها الأبدية ؟

إن محمدا صلى الله عليه وسلم أعظم آية من آيات الله فى الخلق ، يزداد وقعها فى قلوب الناس ، ويشتد تأثيرها فى عقولهم ، كلما ارتقت المعارف الانسانية ، وأدرك الناس مبلغ قوى الفرد ، إزاء الطبيعة والمجتمع ، وغاية ما تستطيع أن تحدثه قواه المحدودة فيهما .

نعم إن محمدا كان رسولا يعمل بوحى من الله ، ويعتمد فى محاولاته على تأييده ، وقد وعده الحق بالنصر والعاقبة المحمودة ، فمن اعتقد هذه العقيدة لم يعجب أن يبلغ محمد ما بلغه فى ظلال هذه الرعاية الإلهية ، ولكن الذى يعجب من أمره ، ولا يكاد يصدق ما يراه من آثاره بعينه ، أولئك الذين لا يعتقدون برسالته ويعدونه عبقريا ، بل أولئك الذين يظنونه كاذبا فيما ادعاه من وحى الله اليه واتصاله به .

نعم هؤلاء هم الذين يحق لهم أن يعجبوا ، وأن يحاروا فى تعيين المكان الذى يضعون فيه محمدا من المراتب الانسانية المحضة .

يشهد تاريخ الانقلابات الاجتماعية أن جميع الرجال الذين قاموا بالأحداث الخطيرة فى الأمم ، رجال ولدوا فى جماعات محكمة الروابط ، مستحصدة العرى ، فدفعوا بها الى ضروب من الحركات الجريئة ، عدوا معها — مع صرف النظر عن المظالم التى ارتكبوها — من رجالات التاريخ . فبختنصر البابلى ، وقيروش الفارسى ، والاسكندر المقدونى ، وجنكيز خان المغولى وغيرهم ، كل هؤلاء كانوا عياهل فى أقوامهم ، وقد ولدوا فى شعوب متماسكة الآحاد ، لا يعوزها غير التوجيه الى الغايات البعيدة مصحوبة بحنكة فى القيادة .

ولا نستثنى من هذا الحكم الرسالات الدينية نفسها ، فإن موسى الذى أرسل الى بنى اسرائيل فى مصر ، استُقبل منهم كمنقذ ، ولم يَبذل فى استمالتهم الى تعاليمه جهدا كبيرا ، واضطر أن يقف فى التيه ، ولم يزحف بنو اسرايل الى فلسطين إلا بعد وفاته . وعيسى عليه السلام

نشأ فى أمة مستكملة شرائط الاجتماع ، ومع ذلك لم تثمر تعاليمه الثمرة التى تَطَلبها أتباعه إلا بعد أن اختمرت فى مدى نحو أربعة قرون .

ولكن محمدا الذى كان أكبر آيات الله فى الخلق وُلد فى أمة كانت لا تزال على الحالة القبيلية ، فلم يجد معينا له حتى من القبيلة التى هو منها ، ودُفع لأن يلتمس المعونة على أداء مهمته من جماعة ينشئها إنشاء ، فتم له ذلك فى بنى الأوس وبنى الخزرج سكان يثرب .

إن كانت هذه عجيبة ، فكل ماحدث بعدها عجائب ، تلا بعضها بعضا ، اتسعت لها الأيام القليلة اتساعا محيرا للعقل ، حتى تم له فى ثلاث وعشرين سنة ما لا يعقل أن يتم إلا فى قرون عديدة !

لما آنس صلى الله عليه وسلم خذلان القبائل كلها له ، كما تبين له ذلك من عرض نفسه عليها فى مواسم الحج ، شرع يبتنى أمة جديدة ، نعم أمة جديدة !

أمة فى بيئة لم تقم فيها أمة ، وليس فيها مقومات الأمم ؟

نعم وأمة عالمية ، على ما يشاؤه المثل الأعلى ، لا تقوم على وحدة الجنس ، ولا وحدة اللغة ، ولا الحاجات الجسدانية الملحة ، ولكن على مايصلح أن تجتمع عليه البشرية كافة ، من الأصول الأدبية العالية ، والمبادئ الانسانية الخالدة .

فإن تعجب فأعجب منه أن يتم تأليف هذه الأمة ، فيصبح فيها الصناديد من قريش وخزاعة ، واللهاميم من تميم وأسد وهوازن ، هم والفرس والديلم والروم والسود والحبشان ، ومن لا يعرف له ضِئْضِئ من جاليات الجماعات المختلفة ، فى مستوى واحد من الحقوق والواجبات الاجتماعية .

أوَ تقوم مثل هذه الأمة فى مثل تلك البيئة ، وقد عجز الفلاسفة والقادة فى العصور الأخيرة عن تأليف أمة عالمية ، وهى مما لا يمترى رجلان فى أنها المثل الأعلى للاجتماع ؟

إن تعجب فأعجب منه أنها قامت فى تلك البيئة الجدبة ، وأنتجت من الثمرات ما لم تنتجه أمة فى الأرض من أول عهد البشر الى اليوم ، وفى مدى لا يذكر الى جانب أعمار الأمم .

ولا تنس أن تسجل الى جانب هذا أن محمدا غيَّر ديانة القبائل العربية قاطبة ، وأبدلها منها دينا لا نسبة بينه وبين وثنيتها ، والدين أعلق الأشياء بالنفوس ، وأقواها سلطانا على القلوب . وحوّل أخلاقها من جفوة البداوة ، وعُنجُهية الجاهلية ، الى لطافة الحضارة ، ورقة المدنية . وقلب مبادئها من تأليه الأقوياء ، وتسخير الضعفاء ، والتقلب مع الأهواء ، الى العمل بمبدأ المساواة ، وتقرير الحق لصاحبه بصرف النظر عن جميع الاعتبارات ، والثبات على إقامة الأصول مهما اعتورت المكلف باقامتها ، المصانعات ، وتجاذبته المسولات .

لعلك تقول : وصل الى كل ذلك بفضل الحديد والنار . . .

فهل قيل لك : إنه أرسل بالجيوش الجرارة تَقْدُمه حيث سار ، أو بالجلاوزة تلقى كل من

يعصيه فى النار ؟ ألم يبلغك أنه بعث وليس له قوة ولا ناصر ، حتى اضطر أن يدعو الى دينه سرا ، فلما أعلن الدعوة عودى وأوذى ، واضطر من آمنوا به الى الهجرة الى الحبشة دفعتين ، ثم اضطر هو نفسه ـ وقد تحالف قومه على قتله ـ أن يهاجر الى المدينة فى جنح الظلام ، وأنه لما أشرق الصبح وهو فى الطريق اضطر أن يختبئ هو وصاحبه فى غار ؟

لو كان الأمر كما تقول قد استقر له بالاجبار ، فهل سمعت أن أخلاقا تفرض على قوم فرضا ، تدوم بعد وفاة فارضها، وتؤتى ثمراتها ناضجة يانعة ، وتمتد ثم تمتد حتى تجعل لأهلها ملكا لم ينبغ لأمة فى هذه الأرض ؟

إنى أشفق على الذين يدعون أن ما عمله محمد أثر من آثار العبقرية ، ويؤلمنى أن الذى يلفظ كلمة العبقرية يجهل معناها العلمى ، فيظن أنها تعنى درجة رفيعة من الذكاء . والحقيقة أن العبقرية إلهام يتنزل على صاحبه لا يعرف مصدره ، فيندفع لعمل من الأعمال ، فيجىء مثلا أعلى لا يمكن تقليده . فان كان محمد عبقريا ، فهل يعقل أن يكون مع عبقريته كاذبا يدعى للناس أنه رسول قد أوحى اليه من عند الله ولم يوح اليه ، وهو نفسه يقول : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال أوحى الىّ ولم يوح اليه شىء ؟ »

بقى أنه كان ذكيا بالغ الذكاء ولم يكن رسولا ، فلو سلمنا أنه مع ذكائه هذا كان من عدم الاعتداد بالذات فى درجة ينكر معها صفاته العالية ويقول : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ » مساويا نفسه ببقية الخلق ، كل ذلك توسلا الى إنقاذ قومه من شرور الجاهلية التى كانوا عليها ، فهل غاب عنه مع هذا الذكاء الفذ أنه لو كان جاءهم من الناحية البشرية لما صادفه من المقاومات العنيفة ، والمصادمات الشاقة ، شىء مما أثارته دعواه النبوة ؟

لعلك تقول : إن حبه لأن يرفع الى مقاوم المرسلين ، و يحشر فى زمرة الرجال العلويين ، هو الذى دفعه الى سلوك هذه السبيل . فهل عهد فى تاريخ البشر أن رجلا يبلغ من فساد القلب الى حيث يجرؤ على مثل هذه الدعوى، يصدقه الله فى كل ما ادعاه من الظهور على أعداء دينه ، ومن النجاح فى دعوته حتى يتأهل أتباعه لخلافة الله فى الأرض ؟ ألم يقل : «من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ » أى فليمدد بحبل الى سقف بيته وليشنق به نفسه . أولم يقل أيضا : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ؟ أو لم يقل أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» ؟ أو لم يقل أيضا : «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز» ؟

قلت : إنى أشفق على الذين يدعون أن أعمال محمد صلى الله عليه وسلم تفسر بالعبقرية ،

أو بدرجة راقية من الألمعية ! كيف لا أشفق عليهم وهم يضطرون أن يفترضوا أن أعظم عباقرة العالم ، أو أذكى أذكيائهم ، وهو محمد ، كان كاذبا مفتريا ؟ فما الذى يمنعهم بعد ذلك أن يقرروا بأن جميع الأنبياء كذبة مفترون ، فتكون أكبر الانقلابات الأدبية والاجتماعية حدثت على أيدى كذبة مفترين ، وتكون مجموعة البشرية مدينة بعقائدها وآدابها لكذبة مفترين ؟

إنهم يضطرون الى هذا الحل اضطرارا لأنهم لا يعرفون النبوة ، فلا يسلمون بوجود رتبة روحية تصل الانسان بعالم أرقى من عالم الطبيعة .

ولكن أيستدعى الجهل بشيء عدم التسليم بوجوده ، أم يقتضى الإحفاء فى البحث عنه ، والتحسس منه ، فى كل المظان التى يتوقع أن تؤديهم اليه ؟

فى العالم اليوم أقطاب من العلماء يدعون أن الوحى حق ، ولهم على ذلك أدلة قاطعة محسوسة ، فهل بحث المكذبون فى هذه الأدلة وأثبتوا للناس بعلم أنها معلولة ؟

ألم يبلغهم أن الناس كانوا يجهلون وجود العناصر الكيماوية ويتشددون فى نكرانها ، عند ما تصدى بعضهم لإثباتها عمليا ، وأنهم كانوا لا يعرفون الميكروبات وبالغوا فى جحدها حين اكتشفها المكتشفون ، وأنهم هزءوا بمن بشروهم بوجود قوة فى الكون تسمى الكهرباء ، وبامكان نقل المسافرين على خطوط حديدية بدل العربات ، وبامكان عمل حنفيات فى البيوت تؤتى أهلها بالماء من مواسير تدفن فى الشوارع . و و و . . مما لو شئت لملأت منه مجلدا ضخما ؟

إن أمثال الذين كانوا يكذبون بامكان نقل الناس على قضبان حديدية بواسطة الآلة البخارية ، وهو ما يسمونه الآن بالوابور ، وبامكان عمل حنفيات فى البيوت تمدهم بالمياه وتغنيهم عن السقائين ، وكان هؤلاء من العلماء الأكاذيميين ، هم الذين يكذبون اليوم بامكان الوحى ، ويجحدون النبوات ، حتى فى الوقت الذى يهيب بهم علماء طبيعيون أن هلموا إلينا فقد فُتح علينا من طريق البحوث التجريبية ما يثبت النبوات بدليل محسوس ، ويذكرونهم بمواقف أسلافهم من الفتوحات العلمية ، والمستكشفات الفنية ، مهيبين بهم الى عدم اتباع مثالهم فيُعتبرون معطلين .

مما يسر المسلمين أن جميع العلماء الذين تجردوا لبحث المسائل النفسية منذ تسعين سنة ، وانتهوا بالأدلة المحسوسة الى التسليم بوجود روح فى الجسد الانسانى مستقلة عنه وتبقى بعد انحلاله فى عالم الروح ، قد اعترفوا الآن بأن من ادعوا النبوة من أمثال موسى وعيسى ومحمد كانوا صادقين فيما يقولون ، وزادوا على تأكيدهم هذا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكبرهم شأنا ، وأعظمهم اتصالا بالملأ الأعلى ، وأن دينه أرقى الأديان على الاطلاق . أليس هذا مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟ .

محمد فريد وجدى

قادة الفكر في تاريخ الاسلام

عمر بن الخطاب

(٢)

أصبح أحلاس الكفر من صناديد قريش وقد أخذوا مجالسهم فى حفافى البيت الحرام ، ونظر بعضهم الى بعض نظرات أبلغ فى التعبير عن خلجات أفئدتهم حيال هذا الحدث الجديد الذى أقض مضاجعهم وأدار رءوسهم ، من زلافة ألسنة أبنائهم ، وكأنما يسأل كل واحد منهم صاحبه ـ وهو فى دخيلة أمره يسائل نفسه التى بين جنبيه ـ فى كثير من الدهش والحيرة المضطربة يستوحى ما عنده فى استكشاف خبر مكة ودعوة « ابن عبد المطلب » ، وإذا بهم يصعقون من هول ما يسمعون ، فشخصت أبصارهم ، وأسرعت بهم أنفاسهم ، وأحسوا بقلوبهم تثب من صدورهم ، وأن الأرض تميد بهم ، وأن السماء آذنتهم بصوت الحق يدوّى بكلمة الله فى آفاق البلد الأمين ، وإذا بدار « الأرقم » فى أسفل الصفا تمشى إليهم شامخة قوية جهيرة الصوت ، وعهدهم بها هادئة وادعة تهمس الى نفسها همسا ، يأخذها الفرَق من سطوة العتو الفاجر ، فتتجمع فى بعضها لتستمد من تجمعها حيوية الايمان فى ظل العزلة المستضعفة .

مَهْ ! مَهْ ! تسمع ؟ تسمع ؟ نعم ، نعم . هذا « محمد » فى أرقائنا وضعفائنا يخرج من تلك الدار التى انطوت على أتباعه ، وانطووا على أنفسهم فى جوفها فلم نسمع لهم ركزا ، ساعيا الى « بنية » ابراهيم واسماعيل ليعلن ، ونحن نسمع ونبصر ، دعوته التى تريد أن تجعل من هؤلاء العبيد سادة ، ومن الضعفاء أقوياء ، ومن الأذلة أعزة ، لا كانت حياتنا إن نحن تركنا محمدا فى جموعه يصل الى هذا البيت الذى جعله الله مناط العزة القرشية فى قبائل العرب !

مَهْ ! لا يعجلنكم الغضب عن الجد فى التفكير وأخذ الحذر ، فبالأمس من ثلاثة أيام صبأ الى محمد عمه « حمزة » ونحن نعلم من هو « حمزة » فى فتوته وحميته ، أعز فتى فى قريش وأشدها شكيمة ، وقد شهد من كان معنا فى مجلسنا هذا غداة عاد « حمزة » من متصيده وقد حدثته « فاختة » مولاة عبد الله بن جدعان بما صنع أبو الحكم سيد بنى مخزوم بابن أخيه ، فلم يرض عن نفسه إلا بعد أن علاه بقوسه فشجه شجة أسال بها دمه ، ونحن وفينا بنو مخزوم ننظر فلم نستطع أن نرد على أبى عمارة صاعه ، أفتعدون « حمزة » فى الضعفاء ؟ كلا ، ولكن فينا أقرانه وأترابه من عبد شمس ومخزوم ، صه ! انظروا واحذروا ، أهؤلاء أرقاؤنا وضعفاء الأمس يكتنفون صاحبهم ؟ أم أولئك قوم من سادات العرب وغطارفتها

استجابوا لدعوة «محمد» فى غفلة منا ؟ هذا أزبز المراجل نسمعه من صدورهم ، فمن أين لهم هذه الحيوية الصائلة ، والقوة الجائلة ، يهجمون بها علينا ونحن سادة الوادى ؟ ! كذبتك نفسك ياقريش ، وخدعتك أوهامك ، فقد وقع ما كنا نخافه ! هذا فتى بنى عدى وبطلها ، وسفير قريش ومنطيقها « عمر بن الخطاب » تهدر شقاشقه ، قائدا أصحاب « محمد » الى جانب « حمزة » يريدون البيت ونحن فى ظله قعود ، فويل لقريش إن لم تأخذ على يد « محمد » وتئد دعوته فى مهدها قبل استفحال أمرها ، وقد جذبت إليها أرجى فتيان قريش للنضال عن دينها !

سقط فى يد قريش ، وأحاطت بها الحيرة من كل جانب بعد أن رأت فى صفوف أصحاب « محمد » روح القوة والتضحية تسرى إليهم فى إهاب « ابن الخطاب » وهم كانوا أوثق به حمية لدينهم من أنفسهم ، وأعلم بما تنطوى عليه نفسه من الشجاعة ورجاحة الرأى ، وقوة المخاصمة فى سبيل ما يعتقد . ألم يكن أشدهم على « محمد » قبل أن تتفتح لدعوته شعاب قلبه ؟ فما يمنعه أن يكون على مثل ذلك أو أعظم فى سبيل عقيدته الجديدة ، وقد ملأ الايمان بها حواسه ومشاعره ؟

فكروا ، وقدروا ، فليس الأمر أمر الأرقاء والضعفاء الذين كانوا يتهامسون بدعوتهم فى دار الأرقم ، بل هو أمر السر الذى اشتمل عليه « محمد » فسرى فيمن تبعه سريان الحياة فى الأجسام ، حتى انتزع فتيان قريش وشجعانها من بين أحضانها واحدا فواحدا ، وحتى دخلت دعوته فى بيوتاتها فغنمت من رجالاتها من لا يصبر على تركهم ينضوون تحت لوائه ، أليس قد استظل بظله واستجاب لدعوته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وغيرهم ممن لا يقل شرفا فينا عنهم ؟ أداروا رأيهم فيما بينهم وانتهوا الى أخذ هذه العصابة بالشدة القاسية ، فليعذب هذا الحبشى بلال الذى كان أسرع الناس فألقى بقلبه بين يدى « محمد » غير عابئ بما عليه من سلطان ، ولينكل بعامر بن فهيرة ، ولتشتد الوطأة على آل ياسر ، وليضيق الخناق على « زنيرة » وليصنع بفلان وفلان ما يردهم الى بدء أمرهم ، ولكن أنى لهم أن يصلوا الى معقل الايمان من أرواح المؤمنين ؟ فلتعذب الأجسام ، ولينكل بها ، فما شيء من ذلك براد مؤمنا عن إيمانه ، فان الايمان إذا خالطت بشاشته القلوب تعلق بشغافها .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر الغفارى : « كان أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم فى الشمس ، وإن بلالا هانت عليه نفسه فى الله عز وجل ، وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد ، أحد » .

اشتدت وطأة العتو على الضعفاء من المؤمنين ، وأصاب سواهم من الأذى شيء كثير ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى الحبشة « لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » فهاجر إليها جمهرة من السابقين ، فيهم عثمان بن عفان ومعه زوجه « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعفر ابن أبى طالب وعثمان بن مظعون ، وعزم على الهجرة أبو بكر الصديق رضى الله عنه فرده ابن الدغنة سيد القارة مجيرا له من قريش ، وكان الصديق رجلا بكاء بالقرآن ، فخشيت منه قريش على شبابها ونسائها أن يجتذبهم الى حظيرة قدس الاسلام ، فكلموا ابن الدغنه فى شأن جواره حتى رده عليه الصديق ورضى بجوار رب العالمين .

وهكذا ضاقت مكة على المسلمين أشرافا ومستضعفين ، واشتد بهم البلاء حتى هدى الله الى الاسلام « عمر بن الخطاب » فعز به النبى صلى الله عليه وسلم ، واشتد به ساعد الاسلام وظهرت كلمته ، وقويت نفوس المسلمين ، وصعقت لإسلامه قريش وبطل تدبيرها ، وأيقنت أنها أمام قوة جديدة وشخصيات لا تستطيع أن تصل إليها بمثل ما وصلت به الى أولئكم الذين ألجأتهم الى الهجرة مستخفين تحت جنح الظلام كما دخلوا فى الاسلام ، أليست هى أمام « حمزة ابن عبد المطلب » الذى أسلم وقوسه التى شج بها أبا جهل فى يده يتحدى جبروت قريش؟ أو ليست هى أمام « ابن الخطاب » الذى لم يرضه أن يظهر على ملأ قريش إسلامه حتى أخرج النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى مظاهرة تعلن كلمة الله مدوية فى الآفاق ، وذهب الى رأس الكفر أبى جهل فقرع عليه بابه فى مثل صاعقة السماء ليخبره أنه أسلم ، فلم يسع أبا جهل فى عتوه وجبروته إلا أن يغلق بابه دونه حيلة العاجز المكبوت ! !

رأت قريش أن المسلمين ، وإن قلّ عددهم ، قد أصبحوا قوة خطيرة بمن انضموا إليهم من فتيانها ورجالاتها ، وأنهم باسلام « ابن الخطاب » تظاهروا بدعوتهم بعد استسرارها ، وأن « محمدا » أخذ يتصل بقبائل العرب ممن جاوروا مكة يفشى فيهم دعوته ، فتنادت الى دار ندوتها لتقرر عملا حاسما يقف دون تيار هذا الانقلاب التاريخى الذى لم تشهد جزيرة العرب له مثيلا ، فماذا هم فاعلون ؟ لقد عذبوا أصحاب « محمد » ونكلوا بهم أشد التنكيل ، وآذوا « محمدا » أشد الايذاء ، وأمعنوا فى فنون الشر ، وتفننوا فى طرق الايلام ، فلم يفل ذلك من عزيمة « محمد » ولا نال من عقيدة أصحابه ، بل لقد ازدادوا بهذا العذاب وذلك التنكيل قوة إيمان وصدق عقيدة ، فلم يبق أمام قريش إلا أن تقف فى وجه بنى هاشم وقفة دموية يتحاكمون فيها الى السيف أو تستكين بنو هاشم وتسلم إليهم « أمينها » ، وقهقهت شياطين الجن سخرية من شياطين الانس :

تقفون والفلك المحرك دائر   وتقدرون فتضحك الأقدار

وكان الله تعالى قد أمد رسوله بقلوب أنصاره من فتيان يثرب وساداتها فى حرم مكة وغفلة قريش ، فوعدوه النصر والتأييد إن هو قدم الى بلدهم ، وأشار على أصحابه بالهجرة الى أولئك الغر الميامين ، فتسللوا لواذا يكنفهم الليل ، وتكنهم الكهوف والمغاور ، وأبت على « ابن الخطاب » شجاعته أن تكون هجرته مستخفية ، وكما عالن قريشا بإسلامه وتحداها بإيمانه ، فلا بد له أن ينذرها بهجرته ، فواعد صاحبه « عياش بن أبى ربيعة » واخترط سيفه وطاف بالبيت مودعا ، وصاح بجبابرة قريش وهم فى ظل الكعبة يتجاذبون أطراف الحديث فيما يشغلهم من هذا الحدث العظيم : ألا إنى مهاجر ، فمن أراد حتفه فليلقنى وراء هذا الوادى ! فما طرفت منهم عين تنظر اليه . روى ابن إسحاق أن أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، ثم قدم بلال ، وسعد ، وعمار ابن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استقر المقام بالفاروق فى المدينة يرتقب وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أذن الله لرسوله بالهجرة فهاجر إليها ، وبدأت حياة الجهاد والنضال والتشريع والاستقرار وتكوين المجتمع الاسلامى بشخصيته المعنوية التى صورها القرآن الكريم ، ومن يومئذ بدأ فى حياة « عمر بن الخطاب » طور جديد هو صورة من أروع صور البطولة الاسلامية ، ومنها نتبين شخصية الفاروق الفكرية ، وأنها كانت متساوقة مع طبيعته الحازمة ، وأنها تمثل روح التشريع الاسلامى أصدق تمثيل ، وبهذا كان « ابن الخطاب » زعيم قادة الفكر فى تاريخ الاسلام .

وتصويرنا لبطولة « عمر » وشجاعته فى الحق ، وصراحته ، وحزمه وعزمه وشدته ، قصدنا به الى أن نتبين طبيعته الخلقية لنتعرف على ضوئها شخصيته الفكرية لما نعتقد من وثيق الصلة بينهما ، فان مثل « عمر » لم تكن شخصيته الفكرية نتيجة دراسة فنية ، وإنما هى صورة لفطرته مشربة بروح التعاليم الاسلامية . لقد اتخذه النبى صلى الله عليه وسلم وزيرا الى جانب أبى بكر ، يستشيره ويقدمه على سائر أصحابه ، حتى قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فيما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما يرثى « عمر » وهو على سرير موته : « ماخلفت أحدا أحب الى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت أكثر أن أسمع رسول الله يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، كنت لأظن ليجعلنك الله معهما » .

وقد كانت الحوادث مرآة لعقلية « عمر » الفذة ، وصورة لسداد رأيه ورجاحة فكره وعبقريته الملهمة ، وهذا ماحدثنا به النبى صلى الله عليه وسلم عن شخصية « عمر » الفكرية فقال فيما رواه البخارى ومسلم : « إنه قد كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناس مُحدَّثون ، وإنه إن كان فى أمتى منهم أحد فانه عمر بن الخطاب » . وأول موقف إسلامى نتمثل به سياسة « عمر » الحازمة التى لا تعرف اللين والهوادة ، وتفكيره الملهم ، ورأيه المسدد ، موقفه

فى غزوة بدر ، ومذهبه فى أسراها ، فلقد كانت هذه الغزوة المباركة أول فتح للاسلام ، أيد الله فيها نبيه بالنصر المؤزر ، ومكنه من أعدائه ، فكان رأى « عمر » أن يجعل هؤلاء الأسرى أنشودة لسطوة الاسلام وسلطانه ، وأن يشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، وهو يحدثنا عن هذا الموقف حديثا يصور لنا روحه وفطرته وسياسته :

روى الامام مسلم عنه أنه قال : « لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبو بكر : يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ماقلت ، فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ابك للذى عرض على أصحابك من الفداء ، لقد عرض علىّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة — فأنزل الله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

وهذه القصة تصور لنا جانبا مهما من حياة « عمر » الفكرية ، ظهرت آثاره فيما بعد فى سياسته وفهمه للتشريع الاسلامى ، فهى توضح لنا الى جانب مكانته من النبى صلى الله عليه وسلم أن الرحمة على أهل الباطل لا تعرف سبيلا الى قلبه ، وأن مظهر القوة للأمة يجب أن يشعر به أعداؤها . وإذا تأملنا فيما ذكره سببا لرأيه من قوله : حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين ، تبينا روحه القوية فى معاملة أعداء دين الله . ومن ألطاف الله بهذه الأمة الكريمة أن جعل وزيرى نبيها أبا بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فأبو بكر صاحب سياسة الرفق والرحمة بالأمة ، وعمر صاحب سياسة الحزم والصراحة ، ولكل منهما جانب تطلبه الحياة ، ولذلك ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم شبه أبا بكر بخليل الله ابراهيم ، وشبه عمر بنبى الله نوح . وقد سدد الله « عمر » فى سياسته على ما فيها من شدة ، وفيه يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »

صادق ابراهيم عرجون

بيننا وبين المستشرقين

مستقبل اللغة العربية فى أيدينا

هذا موضوع لا أقصد منه أن أرد المستشرقين عن رأيهم ، فهم أجانب عن العربية لا يبالون بقيت العربيـة سليمة أم تحيفتها صروف الزمن ، ولـكنى أحاول أن أكشف الحقيقة لقوم من أبناء الضاد يطمئنون لـكلام المستشرقين اطمئنانا لا يحترمون فيه عقولهم ، ولا ينصفون به لغتهم ، بل إنهم ليعتبرون كلامهم فى ذلك حقيقة علمـية ثابتة ، لا تقبل الرد ، ولا يعتريها النقص ، كأن هؤلاء المستشرقين من المعصومين المنزهين ، فهم فوق الهوى وفوق الغلط ، وكأنهم لما صار لهم الذراع الرحب والباع الطويل فى العلوم الـكونية والعمرانية ، أصبحوا يفهمون من أمر لغتنا ونحوها وصرفها ومقوماتها وآدابها فوق ما نفهم ، وصار قولهم فيها وحكمهم عليها هو الحـكم النافذ الذى لا ينقض ولا يبرم ، وإن تجـرد من الدليل وتعطل من البرهان !

ورأى المستشرقين فى العربية رأى خاطىء لا يستقيم ، فهم يتنبأون لها بالسقوط ، ويتوقعون لها الموت ، لأنها ـ كما يقولون ـ لغة جامدة هامدة ، لا تساير التطور ، ولا تجرى مع الزمن فى نهوضه ، ولا تتسع مادتها للأوضاع التى تجد كل يوم ، سواء فى العلوم والفنون ، أم فى مناحى الحياة المـادية . . . وهم يحتجون لذلك بأن اللغة كائن حى يدركه من أطوار النماء ما يدرك كل كائن آخر ، يقولون : وقد أخـذت العربية حظها من الحياة ، ونالت نصيبها من الشباب والفتوة والنفوذ فى الصدر الأول من حكم العباسيين ، ولـكنها ابتدأت تنحدر ، وستظل فى انحدارها لأن اللغات الغربية تجرفها بمـا لها من القوة والسلطـان ، ولا شك أن الـكلمة اليوم للغرب فى العلوم والاختراعات ، وفى القوة والبطش ، والاستعباد والاستعمار ، ولا شك أن الغرب حريص على نشر لغاته ، يسندها بالجاه والمـال ، ويحرص على تمـكينها فى الألسن وإذاعتها بين النـاس ، وليس من المعقول أن تناهض العربية — وهى العزلاء العجفاء فى وهمهم — تلك اللغات القوية المؤيدة ، ولا طاقة لها أن تقف فى عرض هذا التيار الجارف الذى يهدم كيانها ويقضى على حياتها !

وهـذا كلام كان يصح فى العقل ، لو كانت العربية فى مهمتها قاصرة على صلة التخاطب بين الناس فحسب ، ولـكنها لغة تؤدى رسالة دين عام خالد ، يمحق القرون ، ويهتك الحوائل ، وتحمل تعاليم شريعة قويمة ، تمد فى أسبابها الى القلوب ، وتسمو بها الى النفوس ، ولها كتاب فصيح معجز ، يخلدها على الدهر ، ويثبتها على المحن ، ويعينها على مدافعة الأحداث والنوازل ،

ومن ثم تنزلت هذه اللغة الكريمة عند أهلها منزلة العقيدة ، وجرت فى نفوسهم مجرى الفطرة ، فاليوم الذى تنعدم فيه من ألسنتهم ، هو اليوم الذى تخرج فيه العقيدة من قلوبهم ، وتنعكس الفطرة فى طباعهم ، وهيهات هيهات !

وكأنى بهم يقولون اعتراضا على هذا الكلام : إن القرآن لا يقدر على تخليد لغته كما لم يقدر الانجيل على تخليد لغته القديمة ، وكما لم تقدر التوراة على حفظ لغتها ، وهما كتابان إلهيان دانت بهما أمم وشعوب كالتى دانت بالقرآن ، وامتد نفوذهما فى كثير من الأقطار كما امتد نفوذه واتسع . وهذا فى الواقع تنظير لم تتم وجوهه ، وقياس ولكن مع الفارق كما يقول المناطقة ، ذلك لأن القرآن كتاب ممـيز فى رسالته وفى أسلوبه ، أما فى رسالته فهى كما نعلم رسالة عامة جاءت للناس جميعا ، فيستوى فى معناها الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر . ثم هى رسالة خالدة تعتد بنفسها فى كل عصر وجيل ، فلن تنسخها شريعة بعد ، ولن تأتى من ورائها رسالة قط . ثم لا ننسى بعد هذا أن القرآن لا يقف فى هذه الرسالة عند الحد الدينى ، ولا تقتصر تعاليمه على أحكام العبادة ، ولكنه يحمل فى أطوائه كثيرا من فلسفة الحياة ، وقواعد العمران ، ونظريات الأخلاق ونظم الاجتماع ، وهو فى كل هذا نافع للناس فى كل عصر ومصر ، ينالون منه حظهم ومبتغاهم ، ويجـدون فيه هاديهم ومرشدهم ، مهما تطور الزمن ، وتغيرت أوضاع المجتمع ، ومهما ابتدع الانسان من نظريات وقـوانين ، ووضع من نظام وتشريع ، ومن هذه الناحية كان القرآن موردا ومعينا لكل باحث فى الشئون الانسانية وإن بعد دينه ، واختلفت نحلته ، وعلى هذا الاعتبار سيظل كتاب العالم الخالد ، لن يزول حتى يتأذن الله لهذا الكون بالفناء .

وأما فى أسلوبه : فقد جاء على نمط بديع لا يطاول ، انقطع عن تحديه فحول البيان ، وعجز عن إدراكه قروم الفصاحة ، ولا جرم أن القرآن بأسلوبه هذا قد خلق العربية خلقا جديدا ، ونحا بها نحو الكمال طفرة ، فجمعها فى لغة واحدة وكانت من قبل لهجات تتوزعها ألسنة القبائل ، وأنشأ لها ما أثر عن العرب من الثقافة الأدبية والعلوم اللسانية ، ذلك لأنه اقتضى — كما يقول الرافعى رحمه الله — ما أحدثه العلماء من تتبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدها والتحمل لها ، فكان صنيعهم صلة بين اللغة وبين العلوم التى أفرغت عليها من بعد ، ومعلوم أن لغة لا تحيا ولا تمـوت إلا بحسب اتصالها بمادة العلم الذى به حياة أهلها وموتهم ، وهى لا يلبسها العلم إلا إذا كانت قشيبة محكمة لا تضيق عن ألواحه وفروعه ، ولا يخلقها الاستعمال ، وإنما شباب هذه الحياة اللغوية أن تكون اللغة لينة شديدة كما يكون كمال الانسان بقوة الخلق والخلق ، وهذا وجه لو لم يقم القرآن عليه العربية لما استقامت أبدا، ولا وقعت على طريقه ، ولا تلاقى فيه آخرها بأولها ... نقول : وتلك ميزة لا يلتقى فيها مع القرآن كتاب آخر ، ومن الواضح

فى العقل أن هذا الكتاب الذى جاء معجزة فى لغته، وخلقها هذا الخلق المبين، وأنشأ لها هذه الثقافة الواسعة الضافية، وكان لها مادة مواتية فى كل مادون علماؤها، قمين وزعيم بأن يؤكد أواخيها على الزمن، ويثبت دعائمها على المحن، ويقف بها فى وجه تلك اللغات المزاحمة بما له من السطوة الروحية على النفوس، والسلطة النافذة على القلوب.

هذا كلام لانقوله فرضاً، ولانقرره وهما، ولكنه كلام أقرته الحوادث فى الماضى، وشهد به التاريخ من قبل، فقد سقطت الدولة العباسية بسقوط بغداد على يد التتار، وورث ملك العرب العظيم شعوب أجنبية، أخذت لغاتهم تدافع العربية وتحد من نفوذها، ففرض الأتراك العثمانيون لغتهم رسميا فى الدواوين، وجعلوها لسان الحواضر والأمصار، وكادت الفارسية والكردية تحلان محل العربية فى أعالى الجزيرة وشرق العراق، وأيد المماليك العامية فى مصر فدونت بها بعض الكتب، ولا أكتمك أن كل هذه الأحداث كانت طعنات دامية فى إهاب العربية الشريف، ولكنها لا ريب قد فشلت فى النيل منها، وعجزت فى القضاء عليها، وبقيت تلك اللغة الكريمة بفضل القرآن، يحفظها فى أسلوبه المعجز، وفى تعاليمه القويمة، وفى رسالته الخالدة، فلو كان شأنه شأن التوراة والإنجيل لما عاشت العربية الى اليوم، ولما صبرت على كل هذه الأغيار تلك القرون الطويلة بعد سقوط بغداد وقد انفض عنها الجاه والسلطان!

على أن العربية لو كانت تحيا فى ألفاظ معدودة، وتعيش فى أوضاع محدودة، وتجرى على نهج عقيم منقطع، لكنا عند رأى هؤلاء المستشرقين ومن يشايعهم، فرأينا فيها التخلف والضعف، وقدرنا لها الفناء، أو على الأكثر: البقاء فى الدائرة التى قد يحفظها فيها القرآن، وهى دائرة محدودة قاصرة، لا تنى بالغرض، ولا تتسع لكل ما يجد، لكنها لغة وافية كافية، لها من المقومات، مايهيىء لها الرقى المطلوب، والنهوض المرغوب، ويصلها بالعلم والفن صلة وثيقة مستقلة استقلالا إن لم يكن كاملا فهو أقرب الى الكمال منه فى أية لغة أخرى. ولقد وقع هذا وتحقق فى تاريخ تلك اللغة الكريمة، فإن العرب لما رغبوا فى النقل والترجمة عن الفارسية واليونانية والسريانية أيام العباسيين، لم تخذلهم العربية فى ذلك، ولم يضق صدرها بما جلبوا من المعارف الأجنبية والأوضاع الأعجمية، بل طاوعتهم الى حد بعيد، حتى لقد استطاع القوم أن يقرروا حدود العلوم المترجمة، وأن يؤدوا مصطلحاتها بألفاظ عربية خالصة فى غير صعوبة ولا لبس، فقالوا فى المنطق: موضوع ومحمول، وقياس واستنتاج، ومقدمة ونتيجة، وتصور وتصديق، وكلى وجزئى، وقضية مسورة وقضية مهملة، كما قالوا فى الفلسفة: موجود ومعدوم، وعرض وجوهر، وكسر وانكسار، وأثر وتأثر، وماهية وهوية، ومقتض ومانع، وكذلك صنعوا فى كل العلوم التى نقلوها كالكيمياء والطب والهندسة، والفلك والنبات والحيوان، مع أن علماء الغرب لما نقلوا هذه العلوم الى لغاتهم أخذوا ألفاظ الحدود والمصطلحات كما هى فى اللغات المنقولة عنها، على ما يعرفه علماء اللغات، ويقف على حقيقته المطلعون.

إن الاستعارة تجرى فى كل اللغات ، وليست هناك لغة ما قد تجردت عن الاقتباس من غيرها مهما كان خطرها ، ومهما كانت ثروتها ، ولست أقول : إن العربية قد شذت فى هذه الناحية فتنزهت عن الأخذ ، وتحررت من الحاجة ، فإن القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربى مبين ، قد جاء فيه السندس والإستبرق والأباريق والزنجبيل وغيرها من الألفاظ التى استعربت وجرت مجرى الأصيل فى اللسان العربى ، ولكن أستطيع أن أقول : إنها أقل اللغات استعارة ، وأدونها اقتباسا ، ذلك لأن القدماء رضى الله عنهم قد رأوا أن التغالى فى الاستعارة ، والتهافت على الاقتباس ، ربما يفقد اللغة شخصيتها ، أو على الأقل قد يخرجها عن شخصيتها كما وقع لكثير من اللغات التى اندفعت فى ذلك الطريق ، فتحرجوا من الاستطراد فى ذلك ، وكل ما أخذوه من اللغات الأخرى ألفاظ معدودة جمعها السيوطى أوجمع أكثرها المزهر ، وربما كان فى حُرّ العربية ما يغنى عن بعضها ويفيد معناه ، وإنما استطاع أسلافنا أن يترفعوا كل هذا الترفع ، وأن يلتزموا القناعة الى هذا الحد ، لأنهم وجدوا فى مقومات العربية ما يغنيهم ويكفيهم ، فكانوا يستعملون النقل (١) يستخدمون القياس ، ويبادرون الى الاشتقاق ، وكثيرا ما عمدوا الى التضمين والمجاز ، وبذلك ارتفعت اللغة ، فنمت مادتها ، وربت مفرداتها وتكونت عباراتها ، ووفت بحاجة القوم فى كل غرض من أغراض الكلام والعلم ، وفى كل ناحية من مناحى الحياة والعيش

هذا كلام أحسبه من المعلوم المشهور ، ولعل من المعلوم أيضا أن هذه المقومات التى قامت بها العربية من قبل لم يفرضها القوم على رغم اللغة ، ولم يتكلف وضعها العلماء لحاجة طارئة حتى نقول إنها مقومات قد تتبدل بتبدل الزمن ، وإنها إن أغنت وأفادت بالأمس فربما لا تفيد ولا تغنى اليوم ، بل إنها طبيعة العربية وفطرتها التى فطرت عليها ، وقواعدها الثابتة التى هى منها فى كل طور من أطوارها مكان الروح من الجسد ، وستظل هذه المقومات فى كل زمن ، وعلى كل حال : القوة العاملة فى نماء العربية ، تشد أزرها ، وتبسط نفوذها ، وتدفعها الى مجاراة الزمن ، وتكفل لها الصلة الوثيقة بالعلم والحياة ، وتتيح لها تقبل الأوضاع المخترعة ، والمعانى الحديثة ، وتغنيها عن الاستعارة والاقتباس ، وهى خاصة لا تطاول العربية فيها لغة أخرى . وفى المنصفين من المستشرقين من أعلن هذه الحقيقة صراحة فى غير مواربة ، ونطق بها شهادة حققت الفضل كما يقول المثل (٢) . وأنا أكتب هذا وبين يدى فصل كتبه الدكتور جرمانبوس المستشرق المجرى فى شأن إصلاح العربية يقول فيه :

(١) هو عبارة عن نقل الكلمة من معناها الى معنى آخر ، كنقلهم كلمة الادب من معناها الاخلاقى الى معناها الثقافى ، والشرط أن تكون هناك علاقة

(٢) إشارة الى قولهم : الفضل ما شهدت به الاعداء .

« إن الاشتقاق مصدر ثروة كبيرة للغة العربية لا مثيل له فى غيرها من اللغات الأجنبية التى كثيرا ما تضطر الى الاقتباس من غـيرها للدلالة على معان حديثة ، وهى تدخل تلك الألفاظ فى معجم لغتها ، فيجب أن ننتفع بهذه الميزة الفريدة التى تمتاز بها العربيـة ، وأن نلجأ اليها كلما أردنا التعبير عن معانى الاختراعات الجديدة ، فنشتق ألفاظا من كلمات معروفة فى اللغة للدلالة على تلك المعانى ! (١) »

وقد أيد الدكتور الباحث كلامه بالأمثلة والشواهد ، وما أريد أن أعقب على هذا الـكلام بتعليق أو شرح ، وحسبنا أن نقدمه لأولئك الذين يرمون العربيـة بالعجز والقصور ، وهم فى الواقع العاجزون عن إدراك أسرارها ، المتعصبون عليها . وعند هذا الحد فلنقف اليوم ، وقد بقى فى الموضوع بقية موعدنا بها المقال الآتى إن شاء الله ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

كيف يترضى الكبراء

جرى بين الحسين بن على و بين أخيه محمد بن الحنفية رضى الله عنهما كلام وافترقا متغاضبين . فلما وصل محمد الى داره كتب الى الحسين ما نصه :

من محمد بن على الى أخيه الحسين بن على ، أما بعد : فإن لك شرفا لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، فإن أمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ما وفين بأمك . فإذا قرأت رقعتى هذه ، فالبس رداءك ونعليك وسر الىّ لترضينى ، وإياك أن أسبقك الى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى ، والسلام .

فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء اليه وترضاه .

ومن جميل ما قيل فى قبول العذر .

أقل ذا الود عثرته وقفـه ... على سـنن الطريق المستقيمه
ولا تسرع بمعتبـة اليـه ... فقـد يهفو ونيتـه سليمه

(١) مجلة الهلال العدد الخامس لسنة ١٩٣٤

باب الأسئلة والفتاوى

نكاح المتعة — الصلاة بالأحذية ودخول المساجد بها
الاستجمار بالورق الخشن

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاسئلة الآتية :

(الأول) ماحكم نكاح المتعة الآن مع العلم بأنه كان مباحا فى أول الاسلام ؟

(الثانى) ماحكم الصلاة بالأحذية ودخول المساجد بها ؟

(الثالث) ماحكم الاستجمار بالورق الخشن ؟

الجواب عن الأول :

إن نكاح المتعة هو أن يتزوج الرجل المرأة الى أجل ينتهى بانتهائه عقد الزواج .

وقد روى الثقات من المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فى نكاح المتعة فى بعض غزواته . وروى الثقات من المحدثين أيضا أنه عليه الصلاة والسلام حرم نكاح المتعة آخر الأمر تحريما باتا الى يوم القيامة .

ويرجع الأمر فى إباحتها الى أسباب وعوامل لم توجد إلا فى بدء الاسلام :

(ا) ذلك أن العرب فى أول الاسلام كانوا قوما حديثى عهد بجاهلية لم يألفوا فيها الخضوع للتكاليف التى تحدّ من حرياتهم ، وتقيدهم فى معاملاتهم ، وتلزمهم أنواعا من العبادات لا عهد لهم بها من قبل . فالانتقال بهم من الفوضى والإباحية المطلقة الى النظام والتزام الأحكام ، لا بد فيه من التدرج فى التشريع باتخاذ أحكام وقتية تدعو اليها مصلحة الانتقال من دور الى دور ، وعلى ذلك تكون إباحة المتعة فى وقت الضرورة من باب التدرج فى تحريم الزنا .

(ب) أذن الله للنبى ومن معه فى الجهاد لتأمين الدعوة الى الاسلام ، ولدفع عدوان المشركين الذين فتنوا المؤمنين وصدوا عن سبيل الله ، فاستحالت حياة المسلمين بعد هذا الاذن الى حياة كلها جهاد وكفاح . ومعلوم أن معظم المسلمين كانوا من المهاجرين الذين تركوا بلادهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم وخرجوا يلتمسون الدين الجديد ، ويقتبسون من النور الإلهى الذى أفاض الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا فقراء لا يملكون أهبة النكاح ، وكانوا

كما قلنا فى جهاد مستمر وكفاح دائم ، وليس معهم نساؤهم ، ولم يألفوا بعدُ طول الصبر عنهن ، حتى هم بعضهم أن يختصى ، فنهاهم الرسول الأكرم عن ذلك . فمن هنا اقتضت الحكمة — مراعاة لهذه الحالة الاستثنائية — أن تباح المتعة لهم فى أسفارهم للغزو ، وعند ضروراتهم القصوى .

فلما استتب الأمر للدين الاسلامى فى جزيرة العرب ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، واجتمع شمل الرجال بأولادهم ونسائهم ، لم تعد هناك حاجة لهذا التشريع الوقتى الاستثنائى .

هنالك أحكم الله الدين ، ونهى عن المتعة على لسان نبيه الكريم ، وحرمها تحريما باتا الى يوم القيامة .

على هذا انعقد إجماع من يعتد به من أئمة الدين وفقهاء الأمصار .

وهاك طائفة من الأحاديث الصحيحة التى استند إليها العلماء فى إجماعهم على تحريم المتعة :

روى مسلم وغيره من حديث سبرة بن معبد الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يأيها الناس : إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك الى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » .

وروى مسلم أيضا عن سلمة بن الأكوع قال : « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس فى المتعة ثلاثا ثم نهى عن ذلك » .

وأخرج ابن ماجه عن ابن عمر باسناد صحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لنا فى المتعة ثلاثا ثم حرمها ، والله لا أعلم أحدا تمتع وهو محصن إلا رجمته بالحجارة » .

وروى مسلم وأحمد رضى الله عنهما عن سبرة الجهنى : « أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة قال : فأقمنا بها خمسة عشر فأذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى متعة النساء » وذكر الحديث ، الى أن قال : « فلم أخرج حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الجواب عن الثانى :

إن الصلاة بالأحذية جائزة ولابأس بها متى كانت الأحذية طاهرة . وقد جاءت فى ذلك أحاديث صحيحة مذكورة فى صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما ، فكل مصل تأكد أن نعله طاهرة ، سواء أكانت طهارتها بالحك أم بغيره ، فلا جناح عليه أن يصلى بها .

وأما دخول المساجد بالأحذية فإن العرف العام يعتبره الآن امتهانا للمساجد وانتهاكا لحرمتها ، وقد أمرنا بتعظيم المساجد وصيانتها عن الامتهان ، قال تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » قال العلماء : المراد من رفعها تعظيم شأنها ، وتوفير حرمتها ، وصيانتها عن الأنجاس والأقذار .

وأخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى قبلة المسجد نخامة فقام إليها وحكها بيده الشريفة ثم دعا بخلوق فلطخ مكانها » .

وعن أنس بن مالك مرفوعا : «التفل فى المسجد خطيئة» . وعن زيد بن أسلم قال : « كان المسجد يرش ويقم فى عهد رسول الله » . وأخرج ابن أبى شيبة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتتبع غبار المسجد بجريدة » . وأخرج ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ، وضعوا على أبوابها المطاهر » . الى غير ذلك من الأحاديث والآثار التى تفيد حرص الشريعة على صيانة المساجد وتنزيهها عما يلوثها أو يمتهن حرمتها ، ولو كان طاهرا .

وإذ قد جرى عرف الناس الآن بأن دخول المساجد بالأحذية ، ولو كانت طاهرة ، يعد امتهانا لها ، فضلا عما يترتب عليه من تساهل العامة الذين يغلب على نعالهم تلوثها بالنجاسة ، ومن المعلوم شرعا أن العرف معتبر فى مثل هذا — يكون دخول المساجد بالأحذية حراما .

الجواب عن الثالث :

إن الاستجمار جائز بالورق الخشن إذا كان الورق طاهرا مزيلا لعين النجاسة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

أحسن ما قيل فى الرأى

قال شاعر :

وذى يقظات مستمر مريرها ... إذا الدهر لاقاها اضمحلت نوائبه
بصير بأعقاب الأمور كأنما ... يخاطبه من كل أمر عواقبه
وأين يفر الحزم منه وإنما ... مرائى الأمور المشكلات تجاربه

وقال أبو عبادة البحترى فى سليمان بن عبد الله :

يريك بالظن ما فاق اليقين به ... إذا تلبس دون الظن إيقان
كأن آراءه والحزم يتبعها ... تريه كل خفى وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلأه ... وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وقال شاعر غيره :

ذهب الصواب برأيه فكأنما ... آراؤه خلقت من التأييد
وإذا دجا خطب تبلج رأيه ... صبحا من التوفيق والتسديد

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٢ —

أسلفنا فى المقال السابق أن الأوربيين قد اختلفوا فى فهمهم للاسلام وحكمهم عليه اختلافات شتى ، وأن القدماء منهم قد أسسوا آراءهم فيه على الجهل أو على التعصب وسوء النية ، وأن المحدثين كانوا أحسن حالا من القدماء ، فدرسوا وبحثوا ثم بنوا أحكامهم على هذا الدرس وذلك البحث . وقلنا إن آراء أولئك المحدثين — على ما فيها من حيطة ودقة — لم تخل من مآخذ وهفوات . وقد أتينا فى الكلمة الأولى من هذه السلسلة بأمثلة من سخافات أفكار القدماء ، واستقامة آراء المحدثين ، ووعدنا القراء بأننا سنغضى عن الأولى ، لخفة قيمتها فى ميزان العلم الصحيح ، وسنعنى بالثانية عناية الباحث بمواجهة آراء العلماء ، لايضاح غامضها ، والاشادة بما فيها من حق وخير ، وإزهاق ما فيها من باطل وشر ، بأسطع الأدلة وأنصع البراهين . وقد اخترنا أن نبدأ هذه البحوث بعرض آراء الأستاذ « البارون كارادى فو » وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين الذين سطعت أسماؤهم فى أوائل هذا القرن :

تلألأ نجم هذا الأستاذ بين المستشرقين بسبب مؤلفاته فى الفلسفة الاسلامية التى كانت ولا تزال ذات شأن عظيم فى البيئات العلمية والتى نذكر أهمها فيما يلى :

(١) « مفكرو الاسلام » ، وهو كتاب ضخم فى خمسة مجلدات تناول فيه مؤلفه الحركة العقلية الاسلامية فى بسط وإسهاب (٢) « ابن سينا » . (٣) « الغزالى » ، وهما كتابان عظيمان درس فيهما المؤلف حياة هذين المفكرين الجليلين وفلسفتيهما دراسة دقيقة قيمة ، بعد أن ألم بعصريهما إلماما وافيا بالغرض المراد . (٤) « المحمدية » وقد عرض فيه لكثير من الفرق الاسلامية عرضا جديرا بالعناية والاحترام .

وهذا عدا بحوثه التى كتبها عن عظماء الاسلام فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، والكتب العربية التى ترجمها الى الفرنسية ، مثل كتاب « التنبيه والاشراف » للمسعودى وغير ذلك .

وإليك أهم آراء هذا المستشرق بعد أن نشير الى دعوى « رينان » الباطلة التى ستكون آراء الاستاذ « كارادى فو » بمثابة دحض لها :

الاسلام والفلسفة :

ذاعت بين الأوربيين فى القرن الماضى فكرة خطرة على الحقيقة والتاريخ ، مؤداها

أن الاسلام كان حربا ضروسا على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة ، وحظر على معتنقيه التأمل والنظر ، وأن العرب مدينون بالمناصر الأولى من أفكارهم للاغريق ، إذ أنه لم يظهر لديهم قبل عصر الترجمة شيء من التفكير .

وكان « إرنست رينان » أبرز دعاة هذه الفكرة الخاطئة ، فأفسح لها أمكنة واسعة فى عدة كتب من مؤلفاته ، وأفرد لها سفرا خاصا عنوانه : « الاسلام والعلم » ، فانتشرت بسبب هذه الدعاية فى جميع الأوساط الأوربية المثقفة على مابها من عداء للحق وافتيات على التاريخ . وقد نشرت هذه الفكرة فى مصر بدون رد عليها منذ نحو ستة عشر عاما ، فكان ذلك مثارا الجدل شغل الصحف أكثر من ثلاثة أسابيع . وها نحن أولاء اليوم نعود إليها ، ولكن الفرق بيننا وبين غيرنا هو أننا سندحضها بأدلة علمية قاطعة ، مستقاة من أصدق النظريات الفلسفية العصرية المتمشية مع المنطق المستقيم . وهاك دحض هذه الفكرة الخاطئة .

يجب أن نبدأ هدم هذه الفكرة بذكر رأى « البارون كارادى فو » باعتباره باحثا فنيا خصص نفسه للفلسفة الاسلامية ودرسها دراسة عميقة تسمح له بأن يرى منها مالم يره الأستاذ « رينان » ، وتبيح له أن يحكم عليها الحكم الذى له قيمته فى نظر الباحثين .

على أن لهذا الأستاذ أيضا هفوات لانقره عليها ، وسنلفت اليها نظر القارئ ، مشيرين الى مخالفتها للحقيقة . قال الأستاذ « كارادى فو » : « ليس القرآن كتابا فلسفيا ، وليس محمد فيلسوفا بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، ولكنه ، كنبى ، التقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فمنحها حلولا إلهامية ، مصوغة فى أسلوب أدبى ، ومجموعة هذه الحلول هى التى كونت العقيدة الاسلامية ، وهى التى صارت فيما بعد نقطا محددة فى النظر الفلسفى عند العرب . وإذاً ، فلم تكن المشكلة العامة عند العرب هى البحث عن الحقيقة مادام أن هذه الحقيقة قد قُدمت اليهم فى عدة من هذه النقط الجوهرية ، وإنما كانت هى التدليل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقيقة التى بسطت بطريقة إلهامية ، واستبدال الصورة الأدبية التى صيغت فيها بصورة تتفق مع مناهج الفلسفة القديمة ، وذلك هو ما يمكن أن يطلق عليه اسم : المشكلة المذهبية .

نعم إن بعض العقول قد أضاعت الغاية المرادة من هذه المشكلة وأخذت تعنى بالفلسفة أكثر من عنايتها بالعقيدة التى كان ينبغى أن لا تكون الفلسفة إلا منهجا لها . بل إن هذه العقول قد استخدمت الفلسفة فى تشويه العقيدة ، ولكن هذه الحركات لم تكن إلا الخطوة الثانية فى تاريخ الفكر العربى ؛ أما الخطوة الأولى فهى حركة البحوث المذهبية .

وإذاً ، فمن المهم أن نعرض هنا المباحث العقيدية التى عنها صدرت هذه الحركة ونمت . وهذا هو الذى سنفعله حين نبسط إلهيات القرآن .

إن معرفة محمد الالهامية المباشرة لربه هى قبل كل شىء معرفة لإله واحد قادر . إن فكرة الوحدة الالهية المتعارضة مع عقيدة التعدد العربية قد استولت على النبي أثناء اعتكافه فى غار حراء ، أما فكرة القدرة الإلهية ، فقد أخذت تعظم فى نفسه بمقدار ما كانت مقاومة العرب الجاحدين تتجسم ثم تنهزم أمام دعوته » .

لسنا ندرى ماذا يقصد الأستاذ « كارادى فو » بهذه العبارة . فاذا أراد بها أن فؤاد النبي كان يزيد قوة وثباتا بقدر ما يرى من انهزام خصومه وتقهقرهم أمام دعوته فنحن نقره على ذلك . أما إذا كان يريد أن يقول : إن إلهام الوحدانية سبق إلهام القدرة الى نفس النبي ، وإن عقيدة القدرة لم تستول على نفسه إلا بعد أن جرب أثرها فى انهزام خصومه فذلك خطأ ، لأن الفطرة السليمة لا تتمثل إلها واحدا عاجزا البتة ، بل بالعكس إن أثر القدرة أظهر فى الشعور الانسانى العادى من أثر الوحدانية ، إذ أن الأولى تدرك بالاحساس ، بينما تدرك الثانية بالتفكير . وقد اتفق الفلاسفة الإلهيون على أن القدرة هى أثبت دعائم الوحدانية ، وأن أصح أدلة الثانية هو ما أقيم على أساس الأولى ، فقال أفلاطون : إنه لو لم يكن واحدا ، لحد الشريك سلطته التى لا يثبت الكمال الذى هو أول شروط الألوهية إلا بأن تكون لاحد لها .

والآن لنعد الى النصوص التى كنا بصددها . قال البارون بعد ما تقدم :

« إن وحدة الإله قد أكدت بدون برهان فى نصوص القرآن كما هى فى صيغة العقيدة الاسلامية : لا إله إلا الله » .

ولا أحب أن أعلق على هذه الجملة بأكثر من أن ألفت نظر هذا الأستاذ المستشرق ، الذى لا بد أن يكون قد قرأ القرآن مرارا ، الى أنه ما كان يليق به أن يغفل عن مثل قول القرآن : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . تلك الآية التى هى قضية شرطية بارعة يمكن أن تبقى على حالها ، أو أن تحول للتفنن فى الرد ، الى قضية حملية كما كان مناطقة الأغريق يفعلون . وفى كلتا الحالتين تنتج الجزم بالوحدانية ، لانتفاء الفساد الذى ينتج من التعدد بثبوت أدق أنواع النظام .

تابع « البارون كارادى فو » بحوثه عن القرآن فقال : « إن هذا الإله الواحد هو إله التوراة وإله إبراهيم وهو الذى ظهر (لموسى) من خلال الهيش الملتهب « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك ، فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا » . (١)

« إن محمدا حين أعلن أن الإله لا يلد أدان بضربة واحدة عقيدة الثالوث المسيحية وبعض

(١) انظر سورة طه من آية ٨ الى آية ١٤ .

عقائد شعبية أخرى مختلفة كالعقيدة التى كانت تقول بأن « إدراس » هو ابن الإله ، أو التى كانت تحاول أن ترى فى الملائكة بنات للإله » ،

ولعل « البارون » يقصد بـ « إدراس » هذا : « العزير » . « وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » (١)

ثم قال البارون : «قرر محمد إذاً ، أن الإله كائن واحد مخالف للعالم مخالفة مطلقة » .

لا يخفى على من له دراية بالفلسفة أن أسمى نظريات الفلاسفة التى قرروها فى الالهيات هى مخالفة الإله الكاملة لكل من عداه بحيث لا يماثله أى موجود أدنى مماثلة ، وأن كل الفلاسفة الذين لهم مذاهب محترمة فيما وراء الطبيعة قد اتفقوا على أن المماثلة بين الإله وغيره منعدمة ، وأن ما فى بنى الانسان من سمو وإدراك ليس إلا أشعة بسيطة من فيضه على البشر ، ليستطيعوا الاتصال به لا أكثر . ثم قال الأستاذ :

« إن المواضع التى تتعلق بالقدرة الالهية كثيرة العدد فى القرآن ، وهى أكثر إسهابا من المواضع المتعلقة بالوحدانية . وقيمة هذه الآيات تظهر فيما تحتوى عليه من ثناء . إن الإله عند المسلمين كما هو عند اليهود يستدل على وجوده بقدرته ، وإن هذه القدرة نفسها واضحة ، وهى تظهر بثلاث كيفيات : الأولى فى الطبيعة ، والثانية فى التاريخ العام ، والثالثة فى المعجزات ، وهذه المظاهر الثلاثة توراتية »(٢)

وهاك هذه الكيفيات الثلاث :

(١) مظهر القدرة الالهية فى الطبيعة .

« إن الإله الذى يراه محمد فى الطبيعة هو ذلك الخالق ، ذلك الحاكم للعالم الذى كان حسبه أن يقول فى سفر التكوين : ليكن النور فكان ، والذى أمامه ــ كما قالت المزامير ــ : هربت البحار ، وقفزت الجبال ، والذى تسبح بحمده السماوات والأرض والشمس والكواكب والضباب » .

هذه هى عبارة المزامير ، والآن استمع ما قاله القرآن : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » (٣) « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٤)

(١) سورة التوبة . (٢) توراتية نسبة الى التوراة . (٣) سورة النور آية ٤١ .
(٤) سورة البقرة آية ١٥٩ .

(٢) مظهر القـدرة فى التاريخ :

قال الأستاذ « كارادى فو » : « إن برهان قدرة الإله عن طريق تاريخ الشعب العبرى مذكور بوفرة فى التوراة التى يصلصل فيها صدى صوت الإله بدون انقطاع قائلا : أنا الذى أخرجت آباءكم من أرض مصر وفتحت البحر أمامهم وأرشدتهم بالسحاب » . والقرآن يتخذ هذا البرهان نفسه ، ولـكنه لايمنحه من القوة والفصاحة المقدار الذى منحه البراهين السابقة » (أى براهين ظهور القدرة الالهية فى الطبيعة) ، الى أن يقول : « من الممكن أن يلاحظ أن القرآن قد اختار للاستدلال على الإله أروع ما فى الطبيعة وأرهب ما فى التاريخ » .

كتب الأستاذ « كارادىفو » قبل هـذه الجملة الأخـيرة وبعدها عبارات لا تتفق مع العقيدة الاسلامية . ونحن — وإن كنا لا نفرض على العلماء المستشرقين الايمان بالاسلام فرضا — نرى أن هذه العبارات من الناحية العلمية البحتة غير مسلمة ، بل هى ضعيفة ، لأنها مؤسسة على الفـروض والتخمينات أو على الاستنباط الخاطئ ، ولـكننا آثرنا أن نتخطاها الآن ، لنعود إليها حين نعرض لآراء القسم الثانى من المستشرقين ، وهى الآراء التى اصطدمت مع القرآن لسبب من الأسباب التى ذكرناها فى الـكلمة السابقة .

(٣) مظهر القدرة فى المعجزات :

نحن نعلم أن أهم معجزات النبى هى معجزة القرآن ، ولا نكلف الأستاذ « كارادى فو » الايمان بهذه العقيدة ، ولـكننا نكتفى منه فى هذا المقام بتلك الملاحظة القيمة التى سجلها فى العبارة الآتية : « إن القرآن قـد أبان جيدا الشروط التى يجب أن تصير البرهان المؤسس على المعجزة منتجا ، إذ اشترط وجود الاستعداد القلبى لتصديق المعجزة عند الذين يشاهدونها فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ومايشعركم أنهـا إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيـانهم يعمهون . ولو أنزلنـا إليهم الملائـكة وكلمهم المـوتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولـكن أكثرهم يجهلون (١) .

من هذا البحث الوجيز الذى قدمه إلينا الأستاذ « كارادىفو » عن القرآن ، ومن النصوص القرآنية التى أشرنا إليها آنفا يتبين جليا أن القرآن الى هنـا قـد عرض لخمس مشاكل هى من أعوص النظريات الفلسفية وأعظمها خطرا وهى : (١) الألوهية . (٢) نظرية الوحـدانية . (٣) نظرية القـدرة . (٤) نظرية التنزه عن الإنسال . (٥) نظرية مخالفة واجب الوجـود

---

(١) سورة الانعام آية ١٠٩ وما بعدها .

لكل من عداه من الموجودات . وليس هذا هو كل ما عرض له القرآن من المسائل الفلسفية بل هناك نظريات أخرى سنشير الى عرضه لها فى الفصول الآتية . ولا أحسب بعد ذلك أن كتابا يعرض لهذه المشاكل الفلسفية المعقدة ويكلف معتنقيه بالنظر فيها يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر وحارب النظر ، ولكنه الجهل أو الغرض هو الذى يحيد بصاحبه دائما عن الصراط المستقيم . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(مجلة الأزهر) إن مانقله الأستاذ الجليل الدكتور غلاب عن كارادى فو يشعر بأن هذا المؤلف متشبع بقول خصوم الاسلام إنه منقول عن اليهودية ، وهذا باطل كل البطلان ، فان فى القرآن من مناقضة اليهودية مالا يوجد فى كتاب غيره . والعقيدة بالله لم تبتكرها التوراة ولكنها كانت شائعة بين البشر حتى قبل ميلاد ابراهيم ، والكلام فى الألوهية قديم ، ولكن العبرة بالتنزيه التى تحاط بها هذه العقيدة حتى لا يقع صاحبها فى التشبيه الذى لا يفترق عن الوثنية فى شىء ، وهى من مميزات الاسلام دون سواه . والتوراة من هذه الناحية خالية من التنزيه ، فقد نصت على أن الله نزل الى الأرض ، وأمسك به يعقوب ، ولم يدعه يفلت منه حتى لقبه باسرائيل . ونصت على أنه ندم على خلق آدم ، وأنه بكى الخ . ولكن القرآن أتى من هذه الناحية بالتنزيه المطلق الذى لم يسبقه اليه كتاب . فقال : « ليس كمثله شىء » « لا تدركه الأبصار » .

أما قول المسيو كارادى فو إن القرآن أتى بالتوحيد ولم يقم عليه دليلا ، فهذا دليل على أنه لم يقرأ القرآن قراءة تدبر . ألم ير قوله تعالى : « وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق » ، وهذا أقوى برهان على الوحدانية يمكن أن يتصوره العقل البشرى ؟

أما قوله إن الاسلام اضطهد الفكر وحارب النظر ، فلا أدرى من أين استدل كارادى فو عليه ؟ هل قال الاسلام لأحد (اعتقد وأنت أعمى) ، كما اتهم به الأوربيون كنيستهم ؟ لو كان ما قاله كارادى فو صحيحا لأقام الاسلام سلطة تراقب الاختلافات المذهبية ، ولعملت ما عملته محاكم التفتيش فى أوربا ، ولما كان للمسلمين غير مذهب واحد ، ولما أخذ المسلمون العلم الطبيعى والفلسفة عن الأجانب ، ولما برعوا فيها حتى بزوا أهلها ، ولما نقلوا جميع الآراء الفلسفية ، والنظريات العلمية الى لغتهم ، واشتغلوا بها علنا فى مدارسهم ، وفيها كثير مما يناقض ظاهر ألفاظ الكتاب حتى اضطروا لتأويلها جريا على أصول الاسلام نفسه . ألم يبلغ المسيو كارادى فو أن المسلمين هم الذين بذلوا جهود الجبابرة فى استخراج الكتب العلمية وترجمتها بعد أن قضت الأديان الأخرى بكفر من ينظر فيها ؟ فهل يُتهم الدين الذى يسمح لأهله بكل هذا بأنه يضطهد الفكر ويحارب النظر ؟

التجديد فى الاسلام

— ٢ —

(١) ما حديث التجديد ، وماذا قال العلماء فيه ؟ (٢ ما معنى) التجديد فى الدين ؟ (٣) لماذا يكون التجديد على رأس كل مائة سنة ؟ (٤) ماذا قال بعض العلماء فى تفسير حديث التجديد ؟

١ — ما حديث التجديد ، وما أقوال العلماء فيه ؟

١ — « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » .

هذا هو حديث التجديد فى الدين ، وقد اتفق الحفاظ من المتقدمين والمتأخرين ، على أنه حديث صحيح ، رواه كل راو معتبر ، وكل حبر حافظ للأحاديث والآثار ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم . وممن نص على صحته من المتقدمين : الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى المدخل ؛ ومن المتأخرين : الحافظ العراقى ، والحافظ ابن حجر . وقال الزبيدى فى شرحه للإحياء : إن هذا الحديث هو الذى استنبط منه العلماء التجديد .

٢ — وقال العلامة المحدث الدهلوى : « إن تفسير هذا الحديث فى حديث آخر ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » اه ، فإن الناس لما اختلفوا فى الدين ، وأفسدوا فى الارض ، قرع ذلك باب جود الحق ، فبعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأراد بذلك إقامة الملة العوجاء ؛ ثم لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، صارت تلك العناية بعينها متوجهة الى حفظ علمه ورشده فيما بينهم ، فأورثت فيهم إلهامات وتقريبات ، فنى حظيرة القدس داعية لإقامة الهداية فيهم ، مالم تقم الساعة ، فوجب لذلك أن يكون فيهم لا محالة أمة قائمة بأمر الله تعالى ، وأن لا يجتمعوا على الضلالة بأسرهم ، وأن يحفظ القرآن فيهم ، وأوجب اختلاف استعدادهم أن يلحق بما عندهم مع ذلك شىء من التغير ، فانتظرت العناية لناس مستعدين قضى لهم بالتنويه ، فأورثت فى قلوبهم الرغبة فى العلم ، ونفى تحريف الغالين . وهو إشارة الى التشدد والتعمق ، وانتحال المبطلين : وهو إشارة الى خلط ملة بأخرى ، وتأويل الجاهلين . وهو إشارة الى التهاون ، وترك المأمور به بتأويل ضعيف » .

٢ — ما معنى التجديد فى الدين ؟

(ا) لم يترك الله تعالى شريعته تندرس وتنطمس وتذهب كلما طال عليها الزمن ، أوكلما ابتعدت عن الصدر الأول ، بكر العصور ، ومر الدهور ، بل حاطها بعوامل البقاء والاستمرار والدوام والصلاحية لكل زمان ومكان الى ما شاء الله ؛ من هذه العوامل أنه تعالى يقيض لها من العلماء الأعلام من يجددونها على رأس كل مائة سنة .

(ب) ظاهر كلام العلماء أن المراد بالتجديد هو استنباط الأحكام المناسبة للزمان والمكان من نصوص القرآن الكريم ، وإشاراته ، واقتضاءاته ، ودلالاته ، ومن أدلة الشرع الأخرى ، والقيام بأعباء الحوادث والنوازل ، ورد المتشابهات الى المحكمات ، وإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ، والأمر بمقتضاها ، وما خفى من العلوم الظاهرة والباطنة ، وتأييد الدين وتعضيده وتشييد أركانه ، ونشر أحكامه بمزيد الإتقان والإحكام ، ودفع المكاره عن الناس ، ونصر الحق وأهله ، وعمل ما فيه نفع الأمة : كالتدريس ، والوعظ والإرشاد ، وتقويم الأخلاق ، ونشر الفضائل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونصر السنة ، وقمع البدعة ، الى غير ذلك مما يجعل كلمة الله هى العليا ، وشريعته هى المعول عليها ، والمعمول بها دون غيرها .

٣ — لماذا يكون التجديد على رأس كل مائة سنة ؟

(ا) صرح العلماء بأن التجديد إنما يكون على رأس كل مائة سنة لكونه مظنة انخرام علماء المائة غالبا ، واندراس السنن ، وظهور البدع والمدعين ، فيحتاج حينئذ الى تجديد الدين ، فيأتى الله من الخلف ، بعوض من السلف ، وبهذا تبقى للشريعة جدتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

(ب) وصرحوا أيضا بأن البعث على رأس القرن : أى أوله ، ليس قيدا ، بل ذكره للغالب ، وللاقتداء بالحديث الشريف ، ولدفع توهم خلو أول القرن الثانى عن المجدد ، فإذا أفرغت المائة الأولى — مثلا — كان فى أول المائة التالية من يجدد أمر الدين ، وإنما كان البعث على رأس القرن ليس قيدا ، لأن عمر بن عبد العزيز كان أول المجددين ، بإجماع العلماء ، ومع ذلك لم يوجد فى أول القرن ، فقد ولد فى سنة ٦٢ هـ وتوفى فى سنة ١٠١ هـ .

(ج) كما صرحوا بأنه قد يكون فى أثناء المائة من هو موصوف بالتجديد ؛ بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن ، وكذا قيل بتعدد المجددين ، المقيمين للحجج على تعضيد الدين ، كما سيأتى من ذلك إن شاء الله تعالى فى مقال آخر ما يشفى ويكفى .

(د) واختلفوا فى رأس المائة المذكور فى الحديث الشريف ؛ فقال العلامة المناوى : يحتمل أن يكون من المولد النبوى ، أوالبعثة ، أو الهجرة ، أوالوفاة . وصرح الامام ابن السبكى وغيره : بأن المراد اعتبار القرن من الهجرة النبوية الشريفة . وقال الامام الجلال السيوطى :

المراد ما يؤرخ بها فى مدة المائة ، ورجح بعض العلماء أن رأس المائة يعتبر من البعثة النبوية الشريفة لأن منها ابتدأ هذا الدين القويم ، ولكل وجهة هو موليها .

(هـ) والسنة والعام مترادفان ، وقيل بينهما عموم مطلق ، لأن العام من اول المحرم الى آخر ذى الحجة ، والسنة من أى يوم فى أى شهر الى أن يأتى مثله ؛ فكل عام سنة ، ولا عكس .

٤ — ماذا قال بعض العلماء فى تفسير حديث التجديد ؟

قال بعض العلماء بمناسبة حديث : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . قال هذا البعض بمناسبة هذا الحديث : بدئت بعمر ، وختمت بعمر ؛ يريد بدئت بعمر بن عبد العزيز ، مجدد القرن الأول ، وختمت بشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، مجتهد عصره ، وعالم المائة الثامنة الهجرية ومجددها ؛ فانه كان له ترجيحات فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه خلاف مارجحه النووى ، وله اختيارات خارجة عن المذهب كإفتائه بجواز إخراج النقود فى الزكاة ، وله تصانيف فى الفقه ، والتفسير ، والحديث ، منها : حواشى الروضة ، وشرح البخارى ، وشرح الترمذى ، وحواشى الكشاف ؛ وكان أحق الناس فى أهل زمانه بالتجديد وقد توفى فى سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة — على رأس القرن .

ولكن القول بأنها بدئت بعمر ، وختمت بعمر ، لا يلائم منطوق هذا الحديث الشريف فان منطوقه يؤذن بالتجديد فى كل عصر ، ويفيد تناوب دول المجددين فى كل قرن أبد الآبدين الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فلا يصح هذا القول إلا إذا حمل على أنه لايوجد بعد عمر البلقينى مثله ، وأن المجددين الخلف ، لا يصلون الى درجة السلف مثلا . ولا شك فى أن مرتبة التجديد كمرتبة الاجتهاد متفاوتة ؛ فقد ذهب جماعة من العلماء الى أن الامام شمس الدين الرملى المصرى ، الشهير (بالشافعى الصغير) ، مجدد القرن العاشر ، ووقع الاتفاق على المبالغة فى مدحه ، وأنه محيي السنة ، وعمدة الفقهاء فى الآفاق ، وفيه يقول الشهاب الخفاجى ، وهو أحد الذين أخذوا عنه :

فضائله عدّ الرّمال فمن يُطقْ ... ليحويَ معشار الذى فيه من فضل

فقل لغَبيّ رام إحصاء فضله ... تَرِبت استرح من جهد عدك الرَّمل

وعلى الجملة : فمنطوق هذا الحديث الشريف يفيد التجديد فى كل عصر ، ويدل على أن المجددين دول ، وأنهم يتناوبون التجديد فى كل زمان الى أن يأتى أمر الله . والقول بأنها بدئت بعمر وختمت بعمر يتنافى مع منطوق هذا الحديث ، ولا يتلاقى معه إلا إذا حمل على ما ذكرناه ؟

السيد عفيفى

عمر بن عبد العزيز

— ١ —

نسبه ومولده :

بينما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتفقد حال رعيته ذات ليلة ومعه أسلم ، إذ أعيا فاتكا على جدار دار ، فسمع جارية تقول لابنتها : قومى فامذقى اللبن بالماء ، فأبت فقالت لها : يا أمتاه أما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ فقالت : وما كان من عزمته يابنية ؟ قالت : إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء . فقالت لها : يابنتاه قومى فامذقى اللبن بالماء فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر . فقالت الصبية لأمها : يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ! وعمر يسمع كل ذلك ، فقال : يا أسلم علّم الباب واعرف الموضع . ثم مضى فى عسسه ، فلما أصبح قال عمر : يا أسلم امض الى ذلك الموضع فانظر مَن القائلة ومن المقول لها ؟ وهل لها من بعل ؟ فذهب أسلم الى ذلك الموضع فاذا الجارية أيم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ، وليس لها رجل . فأخبر عمر بذلك ، فدعا أولاده الثلاثة : عبد الله ، وعبد الرحمن ، وعاصم ، وقال لهم : هل منكم من يحتاج الى امرأة أزوجه ؟ فقال الأولان : إننا متزوجان ولا حاجة لنا بذلك ، وقال عاصم : يا أبتاه لا زوجة لى فزوجنى . فبعث الى الجارية فزوجها من ابنه عاصم ، فولدت بنتا سميت أم عاصم ، ولما ترعرعت وأراد عبد العزيز ابن مروان أن يتخير لنطفته تمسكا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : «تخيروا لنطفكم فان العرق دساس» . فقال لقيمه : اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى فانى أريد الزواج من أهل بيت لهم صلاح وتقوى . فذهب الى أم عاصم وبنى بها ، فأتت بعمر بن عبد العزيز سنة ٦٣ هجرية .

طلبه للعلم :

إن غصنا كعمر بن عبد العزيز قد نبت من شجرة مباركة طيبة تتصل من قرب بالفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لخليق بأن تتوق نفسه الى العلم وهو غلام ، فبعث به أبوه الى المدينة ليتأدب بها على عبيد الله بن عبد الله ، فى رقابة صالح بن كيسان ، فألزمه المثابرة على العمل والصلاة ، فأبطأ يوما عن الصلاة ، فقال له : ما حبسك عنها ؟ قال : كانت مرجلتى تسكن شعرى ، فأنبه على ذلك ، وكتب الى أبيه ، فبعث اليه رسولا لم يكلمه حتى حلق شعره .

فأكب على الدرس والتحصيل حتى جمع القرآن وهو غلام صغير ، وتعلم من العلم طيبه ونفيسه ، واصطحب خيار الناس فسمى نجيب بنى أمية .

لما أسندت اليه الخلافة :

لم يفت عمر بن عبد العزيز أن يتأسى بقول الله تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » فجمع العلماء ، وسألهم الموعظة ، وأنصت اليها وعمل بها ، منهم محمد بن كعب ، وسالم بن عبد الله ، ورجاء بن حيوة ، وقال لهم : إنى ابتليت بالخلافة فأشيروا علىّ ، فقال له سالم . إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم عندك ولدا ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

ولقد وصف له العدل محمد بن كعب بعد سؤاله عنه فقال : ياعمر سألت عن أمر حسن ، كن لصغير المسلمين أبا ، ولكبيرهم ابنا ، وللمثل منهم أخا ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا ، فتتعدى ، فتكون عند الله من العادين ، ولا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده على قدر قضاء حاجته ، فاذا انقطعت حاجته انقطعت أسباب مودته ، واصحب من الأصحاب ذا العلى فى الخيرة ، والأناة فى الحق ، يعنك على نفسك ، ويكفك مؤنته .

ولايته :

ولما علم الوليد بن عبد الملك عن عمر بن عبد العزيز أنه عالم ورع تقى شديد فى الحق ، ولا تأخذه فيه لومة لائم ، عينه واليا على المدينة ، فجعل من فقهائها مجلسا للشورى والمصالحات ، وحثهم على نصرة الحق والدين ، وأن يكونوا له عونا وألا يكتموا عليه سرا ، حتى لا يأخذ الناس بغير جرم . وصار يحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله ، ويعمل على إعزاز الضعفاء وإعانة الفقراء ، ولا ينفذ للخليفة أمرا إلا ما كان فيه طاعة الله ورسوله ، ولا يحب أن يأخذ بالشدة ولا يؤخذ بها ، فأبطأ ذات يوم عن الخروج لعمله فقال الوليد لحاجبه : ويلك ما بال عمر لم يخرج الى عمله حتى الآن ! فقال الحاجب : زعم أن له اليك ثلاث حوائج ، فاستحضره وقال له : ما بالك قد تأخرت ؟ فقال عمر : إنك استعملت من كان قبلى وأنا أحب ألا تأخذنى بعمل أهل الظلم والجور والعدوان . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا [illegible] واحدا .

جرأته فى الحق :

نشأ عمر بن عبد العزيز على الشجاعة وقول الحق ، لا تأخذه فيه لومة لائم ، ولم يبال فيه بكبير أو عظيم ، فعارض الخلفاء فى أعمالهم ، وجابهم بالحق ، وتألب على ما كانوا يفعلون ، فدخل يوما على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولى عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاءه إنسان يطلب ميراثا لبعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن فى العقار شيئا . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : ياغلام اذهب فأتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فيه ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت الى المصحف . قال أيوب : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر أن يفارقه رأسه ، فرد عليه عمر : إذا أفضى الأمر اليك والى مثلك فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا ؟ فقال سليمان لأيوب : مه ألأبى حفص تقول ذلك ؟ ! فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنه !

ولم تكن هذه أول حادثة جابه فيها العظماء بالحق ونصر كتاب الله وسنة رسوله على مذاهب أهل البدع والتحريف الذين كانوا يركبون الشطط فيها ، تاركين الكتاب والسنة وراءهم ظهريا ، بل وقف حياته كلها على قول الحق والحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، وصد نزغات الحكام وتذكيرهم بعيوبهم ، فحج مع سليمان بن عبد الملك سنة فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان الى عسكره فأعجبه ما رأى من حجره وأبنيته ، فقال : كيف ترى ما هاهنا يا عمر ؟ قال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضا أنت المسئول عنها والمأخوذ بها .

ولما راوده الوليد بن عبد الملك على خلع سليمان قال له : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك .

ورجل هذه صفاته وتلك خصاله لجدير بالتقدير والاعجاب . **محمد مصطفى شادى**

البلاغة فى الاستجداء

كتب أبو العيناء المشهور بالأدب والأجوبة المسكتة فى القرن الثالث الى أبى الوليد يستجديه :

« مسنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الود والشكر ، فان لم تعطنا فلسنا ممن يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »

وأبو العيناء سئل عنه محمد بن مكرم فقال : من زعم أن عبد الحميد اكتب من أبى العيناء إذا أحسن بكرم ، أو شرع فى طمع فقد ظلم .

نصـــائح

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ علماء الاسكندرية نصائح قيمـة فى الأدب النفسى والدينى والاجتماعى نشرها على طلبـة معهده ، رأينا أن نسجلها لفضيلته شاكرين جهاده الكريم فى تكوين نفسية طلبته على هـذه الصـورة الحكيمة ليتخرجوا علماء نافعين لأنفسهم وأمتهم ، وهى :

أقدم من أعماق قلبى هـذه النصائح الغالية لأبنائى طلبة المعهد مؤملا أن يحفظوها وأن يحرصوا عليها ، وأن يأخذوا نفوسهم بها ، فان فعلوا — وذلك ظننا فيهم — أفلحوا وكانوا من المهتدين إن شاء الله تعالى .

أى بنى :

١ — ليكن شعارك دائما : حب الله ، وحب المليك ، وحب الوطن .

٢ — التزم طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم طاعة الأستاذ ، وخذ عنه العلم مستنصحا مسترشدا ، واعـلم أن جحود الأستاذ والتجهم له والعبث بين يديه أنكى أثرا وأشأم عاقبة من عقوق الابن لأبيه ، وأخلق بمن كان ذلك شأنه ، أن ينقطع عن ربه ويفشل فى طلب العلم الذى هاجر فى سبيله ، وترك الأهل والأعزة والراحة من أجله .

٣ — لا تقصر نفسك على تحصيل دروس المنهاج الذى تدرسه ، بل تزود ما استطعت من عـلوم الحياة والاجتماع ، وتضلع من الثقافة بكل جديد نافع ، لتكون عضوا عاملا فى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولتؤدى رسالتك على صورة مثالية كاملة .

٤ — ليكن حرصك على طلب العلم الذى أنت بسبيله شديدا وقويا ، وليكن حرصك على العمل بما تعلم أشد وأقوى ، فان العلم بلا عمل ، كالشجر بلا ثمر .

٥ — لا تجعل طلب العلم وسيلة للمادة وحطام الدنيا ، فإن ذلك تحقير للعلم ، وازدراء بأفضل مكتسب ، وأعز مقتنى ، بل اطلب العلم للعلم ، واطلبه لأنه لذة للعقل ، ومتعة للنفس وذخيرة للحياة المعنوية ، وثق بأن المادة تأتى بعد ذلك طواعية واختيارا ، وثق بأن الدنيا تطلبك وتستمتع بها حلالا طيبا بغير كدادة ولا صغار .

٦ — اعرف لنفسك منزلتها فى الوجود كطالب عـلم ودين ، وثق بأنها فوق منازل

الكبراء والحكام فصنها بزينة العلم ، وجمال الأدب ، ووقار الدين ، واسم بها عن منازل المغمورين المنحمقين .

٧ — أغنى الغنى القناعة ، وأفقر الفقر الطمع ، ولكن القناعة فى طلب المجد خمود فى النفس ، وجمود فى القريحة ، والطمع فيه والمغامرة من أحله كمال لها ، وفضيلة محمودة .

٨ — حزماء الرجال وأكياسهم يمثلون لأنفسهم مخايل الكمال وسمات الفضيلة لرياضة نفوسهم عليها والأخذ بأسبابها ، فخذ لنفسك مثالا من عظماء الأيام وأبطال التاريخ واجعل أعمالهم قدوة لك تترسمها فى كل ما تعتزمه من عمل جليل .

٩ — عود نفسك الايثار ، ومواساة العفاة والمعوزين ، فإنك إن أنقذت عانيا هالكا فذلك خير لك من الدنيا بحذافيرها .

١٠ — بلغنا أنه كان من سلفنا الصالح من يؤثر العزلة ويلتزم خويصة نفسه وبلغنا أن الكبراء والحكام كانوا يتفقدونه ويلتمسون لقاءه فلا يكادون يظفرون بذلك .

هذه الحالة كانت فضيلة فى زمانهم ، لأن الدين كان سائدا بين الأقوام ، وكان سلطانه يملأ القلوب رهبة وجلالا ، أما وقد أصبح الدين غريبا فى بلاده فالعزلة جحود ومأثمة ، وصار الجهاد فى سبيله والنفاح عن شعائره واجبا حتميا فى عنق كل عالم ومتعلم فى حكمة ورفق .

١١ — اعلموا أنكم فى مدينة كبيرة يقطنها كثير من الأجانب وعلية القوم ، فاحرصوا الحرص كله على مظاهر الكمال والاحتشام فى كل مكان : فى الدرس ، وفى الطريق ، وفى كل مجتمع عام ، ولا يرى الناس فيكم ما يشين طالب العلم ويتنافى مع خلق رجل الدين .

١٢ — لا تهمل صحتك ، وحافظ على جسمك من الترهل والخمود ، وأعطه قسطه من الملاج والرياضة البدنية ، فان العقل السليم ، فى الجسم السليم ؟

شيخ علماء الاسكندريه

محمود أبو العيون

كم نجا الادب صاحبه

نقم طلحة بن جعفر بن المتوكل المنعوت بالموفق على هرون ابن عبد الملك . فأمر باحضاره إليه ، فلما وقف بين يديه ، أنشده من شعره على البديهة :

يا بنى هاشم بن عبد مناف	لكم حادثُ العلى والقديمُ
ليس عندى وإن تغيرت إلا	طاعة محضة وقلب سليم
وانتظار الرضا فان رضى السا	دات عز وعتبهم تقويم

فأعجب ببديهته وعفا عنه وأمر له بجائزة .

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

الدين غريزة عقلية

نشرنا فى العدد الماضى المقدمة والأصل الأول لهذا المنطق الدينى واليوم نورد الأصل الثانى منه :

الأصل الثانى :

الدين غريزة عقلية موهوبة لا مكتسبة :

لم ير المنقبون فى أساطير الأمم أمة مجردة من الدين ، إذا فُهم الدين بمعناه الساذج المتناهى فى البساطة ، ولكن إذا فُهم بتوابعه من عبادات وكهنة وهيا كل ، فربما انخدع الباحث بعدم وجود تلك التوابع فظن أن بعض الجماعات تعيش بغير دين . وقد خطأ كبار العلماء هؤلاء الباحثين فى اعتمادهم على الظواهر ، وقرروا عدم وجود مجتمع يخلو من الدين على أية حالة من الحالات ، حتى الجماعات اللاتى كانت عائشة فى عصر الحجر . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ روسكوف من جامعة فينا ، وماكس مولر من المانيا ، وهربرت سبنسر وتيلر من انجلترة ، وغيرهم ، وقد فندوا جميعهم قول المنكرين بالحجج الدامغة .

على أنه مما لا خلاف فيه أن الجماعات البشرية الأولية كافة قد أطبقت على القول بوجود قوة شاملة فوق العالم المادى هى مصدر كل خلق وابداع ، تمد كل كائن بالقوى والوسائل الضرورية له لحفظ شخصه ونوعه . ويمكن استمداد الحول منها بالتوجه إليها واحداث أمور خارقة للعادة . وقد سماها بعض هذه الجماعات (مانا) وبعضها (وا كان) وغيرهم (وشورنجا) و (أورندا) الخ على حسب اختلاف اللغات ولكن معناها عند الكافة واحد .

قال العلامة (ماكس مولر) الألمانى فى كتابه (أصل الدين وتطوره) :
(Origine et développement de la religion) :

« المانا فى اعتقاد البولينيزيين ترينا كيف ظهرت ، عند أحط الأجناس البشرية على صورة مبهمة وغامضة ، فكرة اللانهاية وغير المرئى ، أو كما سميناه فيما بعد بالالهى . وقد كتب المستر (كودرنجتون) وهو مبعوث مجرب ولاهوتى مفكر ، كتب من نورفولك (الولايات المتحدة) فى سنة ١٨٧٧ يقول :

« إن ديانة الميلانيزيين (بالاقيانوسية) تتألف من الاعتقاد بأن وراء هذا العالم قدرة فوق الطبيعة غير مرئية ، وعبادتهم لها تنحصر فى اتخاذ الوسائل للاستمداد منها لمصلحتهم .

وقال العلامة (ج . ن . ب هويت) (Hewitt) عند كلامه عن هذه القدرة عند الايروكيين وهم هنود أمريكا الساكنون فى الجنوب الشرق من بحيرتى أرييه وأونتاريو الآن .

قال فى مقالته : (أورندا وتعريف الدين) المنشورة فى مجلة (الانتروبولجيست) الأمريكية ، والأورندا هى إلمانا فى لغة الايروكيين ، قال :

« هى قدرة خفية يتصورها الانسان المتوحش ملازمة لكل الأجسام المكونة للبيئة التى يعيش فيها . . . فهى ملازمة للصخور وللمياه وللأعشاب والأشجار وللحيوانات وللناس وللرياح وللزوابع ، الخ .

« ويعتبر العقل الساذج للانسان هذه القدرة السبب المولد لجميع الظواهر الطبيعية ، ولكل مظاهر النشاط التى تحدث حوله » .

نقول : إن الذى قرره العلماء أن القول بوجود هذه القدرة العليا عام لدى الجماعات الأولية كافة . قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه تاريخ الروحية التجريبية . (Histoire du Spiritualisme Expérimental)

« إن ما تجب معرفته والتنبه له هو أن هذه العقيدة تكاد تكون عامة بين جميع الجماعات الأولية ، والأرجح أنها تعمها جميعا دون استثناء ، حتى لدى الذين لايعقل أن يكون قد حدث بينهم وبين غيرهم اتصال » .

ولكن الذى أوقع العلماء فى الحيرة ، وجود هذه العقيدة على الدرجة العليا من التنزيه عند الشعوب الأولية ، وهى درجة لا تسمح بها عقولهم القاصرة التى لا ترتفع كثيرا عن العقلية الحيوانية . قال الأستاذ مارسل هابرت من أساتذة جامعة بروكسل الحرة فى كتابه (الإلهى) (Le Divin) صفحة ٢٥٥

« إن فى تصور المتوحشين وجود قدرة روحية عامة وغير متحيزة ما يوجب لنا شيئا من الارتباك العقلى والحيرة . ومع هذا فقد ثبت ثبوتا قاطعا أن الجماعات الساذجة تقول بهذه العقيدة وتعيش فيها . ويجب علينا أن نلاحظ هنا أن هذه العقيدة الآن يصاحبها عقيدة فى وجود الأرواح البشرية » .

نقول : ولكن الأمر الذى حير العلماء وأدهشهم أكثر من هذا هو أن عقيدة المتوحشين هذه هى القول العلمى الذى هدى اليه العلماء فى الزمان الأخير . قال الأستاذ (فان جنيب) فى مجلة (ميركور دوفرانس) صفحة ٤٩٣ من مجلد سنة ١٩٢٤ :

« قد نبهت منذ زمان طويل ، عند ذكر خرافات وأساطير استراليا ، كيف أن عقيدة المانا التى هى أساس كل ديانة عند المتوحشين ، لا تفترق إلا من ناحية درجتها عن الأصل العلمى الراهن المسمى بالقوة الوجودية العامة » .

نقول إن هذا من الخطورة بمكان عظيم ، فإن فى ثبوت انتهاء العلم فى تحسسه من عالم الوجود ، الى قول لا يفترق عما كانت تقول به الجماعات الساذجة من المتوحشين ، ولا تزال تدين به جماعاتهم الى اليوم ، الى جانب ما كدسته من خيالاتها فى خلال العصور ، يعتبر بحق أمرا جالا يوجب التفكير .

قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه (تاريخ الروحية التجريبية) الذى تقدم ذكره فى صفحة ١٦٦ عند المامه بهذه العقيدة :

« بناء على ما تقدم نقول أنه مما يوجب الفخار العظيم أن نسجل أن العلم الحديث قد وصل الى ما يقرب من عقيدة المانا التى نشأ عليها النوع الانسانى » انتهى .

أدلة الغريزية العقلية فى هذه العقيدة الأولية :

مما لا يمكن التسليم به ، أن تتواضع جميع الجماعات الأولية منذ نشوئها ، على القول بعقيدة تعتبر اليوم غاية ما وصل اليه العلم من تعليل الوجود .

نعم إنها عقيدة ساذجة ولكنها سذاجة تنزه لا سذاجة جهالة ، وهى لا تفترق عن عقيدة أرقى فيلسوف فى القدرة العليا التى أوجدت الوجود ، فالفيلسوف يرى أن تلك القدرة مصدر كل خلق وابداع ، وأنها علة كل حركة وسكون فى عالم الكون والفساد . فان زاد على الأولين فيها قال : أنها أزلية أبدية ، لا تتأتى معرفة كنهها بالحواس ولا بالعقل ، تحيط بكل شىء ، يصدر منها كل كائن وينتهى اليها . ولا يخفى أن هذه كلها محسنات لفظية اقتضاها التبسط فى التحقيق ، ولكن كل ما يمكن أن يقال من هذا القبيل لا يزيد على عقيدة الأولين شيئا . فهم إن كانوا لا يذكرون الأزلية والأبدية ، والشمول والاحاطة ، والبداية والنهاية ، فلأنهم لم يشعروا فى أنفسهم باعتراك الشكوك ، ونزاع الشبهات ، فلم يضطروا لإحاطة عقيدتهم بالتحوطات الكلامية ضدها .

والقول بأن هذه العقيدة غريزية فى العقل لا ينافى العلم الرسمى فى شىء ، فانه يعد من مميزات الغريزة أنها تكون عامة فى النوع ، ولا يتحصل عليها من طريق التفكير . وهذا ينطبق على ما نحن بصدده من هذه العقيدة .

فأما كونها عامة ، فقد أثبتناه لك من طريق العلم نفسه ، فقد قرر كما رأيت هنا ، أنها موجودة

حتى لدى الجماعات التى لا يعقل حدوث اتصال بينها فى حين من الأحيان ، وأنها وجدت فى كل زمان الى أبعد ما وصل اليه علم الانسان .

وأما كونها لم يتحصل عليها من طريق التفكير ، فما لا يمكن التمارى فيه ، فان الافكار ، وبخاصة الساذجة منها ، إذا اتجهت لتعليل الوجود ، فلا يتصور أن تقع على معقول واحد يعتبر غاية فى السمو والتنزيه ، يفخر العلم نفسه بأنه انتهى اليه فى عهده الأخير .

وأية غرابة فى كون هذه العقيدة غريزية فى النوع الانسانى ، وقد قذف به الى هذه الأرض حاصلا على غرائز عقلية كثيرة لولاها لهلك بعد وجوده بأيام معدودة ؟

ألم يمتع الانسان بحظ كبير من الأصول العقلية التى أصبحت فيما بعد أساسا لعلم المنطق ، كعلمه بعدم اجتماع النقيضين ، وبأن الشىء الواحد لا يوجد فى مكانين الخ ، ولو كنا وجدنا فى عهد الانسان الأول لرأينا أنه قد نشأ متحليا بغرائز عقلية أخرى ضرورية لحياته مما لا يمكنه تحصيلها بجهوده الذاتية إلا بعد أمد بعيد .

على أن من لم يشأ أن يقول بغريزية تلك العقيدة ، وجب عليه أن يدعى بأنها ثمرة تأمل الانسان فى الوجود وهو خالى القلب من جميع الصور الذهنية ، لأن التحليل العلمى أثبت أن هذه العقيدة سبقت جميع الخيالات الوثنية ، والخزعبلات الميتولوجية . وهذه الثمرة التأملية فى عمومها وبساطتها وتجردها من الخزعبلات الفكرية ، تقتضى أن يكون العقل بحكم تكوينه الطبيعى مضطرا للوصول اليها ؛ والفرق بين الحالتين يكاد لا يذكر ، فسواء أفطر الانسان على أن يدين بهذه العقيدة بحكم الغريزة العقلية ، أم تأدى عقله اليها لأول تأمله فى الوجود ، وقبل تلوثه بأية صورة ذهنية ميتولوجية ، فان الأمر يرجع فى كلتا الحالتين الى الفطرة الانسانية . وكل مابين الرأيين من الفرق ينحصر فى أن هذه العقيدة لم يجدها الانسان مطبوعة فى نفسه بدون تأمل ، وإنما وصل اليها بعد أن تطلب علة الوجود فى أول عهده بالحياة فوجدها بدون كلفة .

تطبيق هذا الأصل على الاسلام :

إن من الآيات التى يجب أن تبهر الألباب فى هذا الدين ، أنه سبق العلم فى هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر قرنا . ففى الوقت الذى كان يتلو النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا (أى حائدا عن العقائد الباطلة) ، فطرةَ الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، كان الناس لا يعرفون من أسرار الفطرة الدينية شيئا ، ولا يتخيلون أن يجىء بها وحى من السماء قبل أن يهتدى اليها العلم بنحو ثلاثة عشر قرنا .

إن هذه الآية صريحة فى أن الدين الحق فطرة فى النفس تهتدى اليه بدون كلفة ، ككل

ما هو فطرى فيها ، وإنه عام فى جميع أفراد النوع البشرى . ومن العجيب أن هـذا التصريح مذيل بقوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وهو حق ، فانه لا يعلم هذا الاكتشاف إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم لتلقف فتوحات العلم .

والذى يقرأ قوله تعالى عن الدين الفطرى على بساطته : « ذلك الدين القيم » ، ويكون مطلعا على ما انتهى اليه العقل العلمى فى العهد الأخير ، يجزم بأن إدراكا بشريا لا يستطيع أن يصدر هذا الحكم قبل وجود دواعيه بنحو ثلاثة عشر قرنا . فان أى عالم يعتد برأيه اليوم لا يستطيع أن يحمّل عقله غير مؤدى هذا الدين الفطرى ، الذى اكتشف أنه كان دين الجماعات الأولية من عهدها الأقدم الى اليوم .

لا جرم أن هذا الأمر من أعظم المعجزات العلمية فى القرآن الكريم ، وآيتها محكمة لا تقبل التأويل ، وقد زادها النبى صلى الله عليه وسلم إيضاحا فقال : « كل مولود يولد على الفطرة (أى على الديانة الحقة) ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى يحوّلون فطرته عن صراطها ، بتلقين المولود تعليمات مما تواضعوا عليه وليس من الديانة الصحيحة فى شىء .

وقد بنى الله على هذه الحقيقة أن الناس كانوا فى أول أمرهم أمة واحدة على هـذه الديانة الفطرية ثم اختلفوا ، فقال : « وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاختلفوا » . وبين فى آية أخرى سبب الخلاف فقال : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » . ومعناها كان الناس أمة واحـدة متفقين على الدين الفطـرى (كما ثبت علميا) ، فاختلفوا ، فبعث الله اليهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، فحدث بينهم اختلاف فى الكتاب نفسه ، وما اختلف فيه إلا الذين أعطوه بغيا بينهم ، أى حسدا أو ظلما ، فعكسوا الأمر فأصبح ما أنزل لإزالة الخلاف سببا فى استحكامه ، فهدى الله المسلمين للحق بانزال القرآن اليهم ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

لو كشف هذا الأمر على هـذا النحو للذين اكتشفوا الديانة الانسانية العامة ، التى كانت تدين بها البشرية فى أيام سذاجتها الأولى ، خالصة من الخزعبلات التى انشأتها الأفكار البشرية فيما بعد وقد ستها ، متابعة لأوهامها وأهوائها ، لدهش أولئك العلماء ، ولكان دهشهم حافزا لهم على التنقيب فى مكنونات القرآن فى مجالات أخرى . ولا نشك فى أن هذا سيكون ، ونرجو أن يكون قريبا .

محمد فريد وجدى

كنز الفاطميين المفقود

لعلك أيها القارئ لا تذهب بخيالك بعيداً إذا سمعت كنزا ، وتعلق أمام مخيلتك بريق الفضة اللامعة والذهب المتوهج ، وإنما الكنز الذى أقدم أمامك عنه فكرة فى هذه العجالة هو ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى بانى القاهرة ومشيّد مسجدها العظيم الأزهر المعمور . وديوان الأمير تميم هو كما قدّمت اليك كنز حافل بالشعر الغزير ، والنظم المؤثر البليغ ، والقوافى الرقيقة ، والمعانى الأخاذة ، والحكم الجذابة ، والأخيلة الرائعة ، والصور الجميلة التى يتجلى فيها الفن والابتكار ، وتبدو الطبيعة من خلالها فى قالب يملك على القارئ لبه وتفكيره وتصوره . ديوان الأمير تميم يكشف صحيفة مجهولة من سجل التاريخ الأدبى بوجه عام ، والحياة الفاطمية بوجه خاص . ومن حقنا أن نقول إن الأمير تميما سيطلعنا على وجوه كثيرة من الحقائق ، ويعطى المؤرخ حياة جديدة فى آراء هذا العصر ومذاهبه وأفكاره ، وإن كان استخلاصها من الشعر يبدو صعبا فى أول الأمر ، خصوصا عند من يجهل تاريخ الفاطميين ومذهبهم . ولكنك على كل حال سترى صورة واضحة للدعوة الفاطمية وتفسيرها الصحيح .

وفى هذا الديوان مافى غيره من الدواوين من مدح وغزل ، ووصف وتشبيب ، وفيه زهد ونصح ورد على بعض الآراء . ولمصر خاصة أعظم نصيب من هذا الديوان ، فهو يطلعنا على كثير من أعيادها ومواسمها ، ويتحدث عن بعض مواطن القاهرة وأديرتها وبركتها ، ومتنزهاتها وحدائقها الغناء ، وقصورها الشامخة الباذخة ، فهو شاعر مصرى ، وللأدب المصرى فيه حياة جديرة بأن يتناولها بالبحث والتنقيب من يهمه تناول الأدب المصرى وتعرّف شخصيته الممتازة الواضحة . إنك لترى الإمارة فى ديوان تميم وقد تجلت فى عزة نفسه واعتداده بمقداره ومكانته من أبيه وأخيه الملكين ، ففيه ترى كيف يتكلم الأمراء إذا أرادوا صياغة الشعر وصناعته .

ولتميم شخصية تبدو لك فى كثير من نواحى قصائده ، فهو خفيف الروح ، رقيق الجانب ، جميل اللفظ ، وهو فوق ذلك كله صريح الى أبعد حد فى الصراحة والوضوح . وقد ترى أحيانا فى معانيه عُمقا وبُعدا ، وقد تلمس الفكاهة المصرية ولا سِيّما فى غزله الشجى الرقيق ، وقد يحلق بهذا الغزل فى أفق سام من المعانى السحرية فى عبارة تقع من السامع موقع رنين المِزهر ، ويريك فيها ابتسامة الأزهار ونضارة الأغصان .

على أنى إذا وصفت تميما وبلغت به هذه القمة من السمو فإنى لا أبرّئه من التكلف

والاعتساف أحيانا . فإنه كان فى بعض أوقاته يتعمد القصائد ويرسل فيها الغريب من اللغة ومن الوصف . ولعل ما حمله على ذلك هو الادلال بعلمه والتنويه بمكانته من اللغة والدراية بغريبها ، ولعله كان يريد أن يقول لقرائه : لا تغرنكم منى ركة ألفاظى وسهولة أسلوبى فإنى أستطيع أن أخاطبكم بما لا تعلمون ، وأتلو عليكم لا تدركون .

عند ما تقرأ قصيدة فى الصحراء ترى نفسك قد انتقلت من مصر الى مترامى البيداء من جزيرة العرب ، وأنك تسمع أصحاب المعلقات يجولون بك بين الرسوم الدارسة ، والمهامه الخاوية ، ويصفون لك ظباءها وأطلاءها ، وسباعها وأوعالها . وإنما عمد تميم الى هذا اللون من الكلام قصداً الى أن يعرف له اللغويون والعلماء قدرا . كما أنه قد يسخف بالشعر أحيانا فيرسله فى أبسط الوجوه وأقل الغايات ، فإذا أراد أن يستعير كتابا من صديق ، أو يرسل إليه بعض الأزهار استخدم الشعر ليترجم عن غرضه وإن كان غرضه هينا يسيراً . وهو فى هذا كبعض الأندلسيين الذين انتشرت بين ربوعهم لغة الشعر والنظم ، فأصبحوا يتحدثون عن جميع مطالبهم ، وما ربهم وعن أصغر حاجاتهم وأيسر أمورهم بلسان الشعر ، حتى كاد النثر عندهم يصبح أمراً ثانويا . ففى هذا النوع يقل افتنانه ويتوسط بيانه ، ولكنك تلمس فيه عبقرية الفنان ، وسحر الشاعر ، وقلم المصور عندما تحفظه نوازع الشوق ، وقوارع الآلام ، أودوافع العتاب ، فأسمعك شعره السهل الممتع ، وتلمس روحه الجياشة بأبدع المعانى وأحدث التصورات .

استطعنا أن نصل الى هـذا الديوان بعد جهد غير يسير وعناء قلّ أن يحتمل ، فلقد كان شعر تميم جوهرا مكنونا فى قصر الفاطميين ، وحمل فيما حمل من خزائنات الكتب الى جبال اليمن بعد ضعف دولتهم ونزوح كبار من رجالاتهم فراراً من سطوة الأيوبيين الذين كانوا يحسبون لها ألف حساب ، وقـد استطاع هذا الديوان أن ينجو من الإحراق الذى أصاب خزانة الفاطميين . وبقى فى جبال اليمن معتصما بمكانها البعيد عن تناول العصف والعدوان الى أن رافق البقية من الفاطميين الى بلاد الهند منذ خمسمائة سنة ، وكانت أجزاؤه مشتتة بين النسخ الخطية التى اختلفت فيها الروايات الى أن يسر الله لنا التطواف بين المراكز الفاطمية من بلاد الهنـد ، واستطعنا أن نعثر على نسخ مختلفة ، فاستخلصنا من جملتها هـذا الديوان الوحيـد ، وهو خلاصة من سبع نسخ مختلفة قـديمة وحديثة ، لنقدمه فى أعظم مناسبة هى العيد الألفى للأزهر والقاهرة . فالشاعر من صميم الأسرة التى شيدت أقـدم جامعة فى العالم وأعظم مدينة فى الشرق . ونحن إذ نقدم هذا الشعر إنما نقدم صورة من إخلاصنا وآية من حبنا لمصر ، ونرد إليها كنزا من كنوزها ، وحق الأمانة أن ترد لأهلها . وقبل أن نقدم هذا الديوان نقدم الى قراء مجلة الأزهر طائفة كبيرة من مختلف أبوابه آملين أن نجد الفرصة لإتمام بقية كتابه :

فمما قال فى الزهد :

أفنيت دهـــرك تتـقى ... فيـه الحـوادث والمصائب
ولو اتّقيتَ معاصىَ الـــرّحمن فيما أنت راكب
لأمنتَ من نار الجحيم ... وفى الحياة من النـوائب
إن لم تراقب مَن له ... حـكـم عليك فمَن تُراقِب

ومما قال فى رثاء أبيه المعز لدين الله :

كيف لا تعدم الجسومُ القلوبا ... وترى نضرة الوجوه شحوبا
من يعزّى الجياد أم من يسلّى ... مجلس الملك والسريرَ الكئيبا
فقدوا بعدك القلوب اللوانى ... شقّها واجب فشقّوا الجيوبا
واُمعزّاهُ واُمعزّاهُ حتى ... يغتدى الدمع بالدماء خضيبا
فليذق غيرىَ الحياةَ فإنّى ... لا أرى للحياة بعدك طيبا

ومما قال فى وقت عمل الشمسية لبيت الله الحرام :

يا حبّذا دهـرك الزلال إذ ... أمرّ دهـرٌ وعصرُك الشنب
وحبّذا الشمسة التى نصبت ... يقصر عنها المـديح والخطب
قايست العيـد وهى حلّته ... وأخجلت اليـومَ وهو منتصب
ينهب ياقـوتها العيونَ فما ... يكمل إلاّ من حيث ينتهب
دائرة أحـدقتْ بغرّتها ... أهلّةٌ لا تجنّها السحب
كأنما رصّعت مناقبك الغــرّ عليها وأفـرغ الحسب
حق على الشمس طول نقبتها ... منها وذات الحياء تنتقب
وقـد أراها ولا مـدام بها ... فكيف قالوا لدرّها الحبب
نظمتها للهـدى ولـبّته ... وإن سخطن الكواعبُ العربُ
فى كبد المسجد الحرام بها ... شوق وللبيت نحوها طرب
ولا تمشّى بأهله زمن ... إلا بما تشتهى وترتغب

الأمير يفتخر على بنى العباس :

أقرّوا لنا ياآل عباس بالعلى ... فلستم لها ياآل عباس أكسبا
سبقنا كم للدّين والهجرة التى ... تأخّر عنها جدّكم وتحجبا
وكنتم بنى عمّ النبي محمّد ... وكنّا بنيه وهـو كان لنا أبا
وليس بنو أعمامه فى دنوّهم ... كمثل بنيـه خطّة وتنسّبا

ولو لم نكن إلا بنى العمّ مثلكم ... لكنتم لنا وهدا وكنا لكم ربا
وما يستوى العمّان هذا مقرّب ... محبّ وهذا بَعْدَ بُعدٍ تقرّبا
نبا جدّكم عن نَصره يوم بعثه ... وجِدّ علىّ جدّنا عنه مانبا

ومما قال فى الوصف :

مضمورة تفعل بالبيداء ... فعل قراح الماء بالصهباء
قطعته مشيّع الحوباء ... بعزمة صارمة صمّاء
قطع نجوم الليل للظلماء ... حتى إذا قلت دنا التنائى
أصبح قدامى ما ورائى ... والشمس قدحلّت ذرى الجوزاء
تذيب حرًّا هامة الحرباء ... وتقدح النار من المعزاء
حتى ترى العين لدى الرمضاء ... جوائما موتى على الأطلاء
والضبّ لا يبدو من الدأماء ... خوفا من الأنفاء والاحماء
أسير فى ديمومة جرداء ... ليستْ بِعَشناة ولا شجراء
حتى وصلتُ الصبحَ بالمشاء ... لا مستدلا بسوى ذكاء الخ

وقال فى الغزل :

إن يحجبوا وصلها فما حجبوا ... عينىّ سرى طيفها وذكراها
بعيدة الدار وهى دانية ... منى على بُعدها ومنآها
فى ناظر القلب شخص مرءاها ... وفى صميم الفؤاد مثواها
أعارت الراح لون وجنتها ... وطبع ألحاظها ومعناها
فالخمر لو لم تكن كمقلتها ... فى الطبع ما أسكرت نداماها
سقتنى الراح وهى خداها ... بأكؤس اللحظ وهى عيناها
تخالها الشمس فى تلألؤها ... لا بل تخال الشموس إياها
ولست أرضى من الامور بما ... لا أجد المكرمات ترضاها
من اصطفانى بوده فله ... عندى ما كالجبال صغراها الخ

وقال فى المدح :

سعى وطال النجوم مبتديا ... بهمة يستقل مسعاها
نفس كأن السماء مسكنها ... وهمة كالزمان أدناها
لم يسع الدهر حين حل به ... صغرى علاه فكيف كبراها
لو أمه من عفاته أحد ... يقول هب لى علاك أ...

ليس بناس لوعده وإذا … جاد بنعماه فهو ينساها
فمن يطعه يفز بطاعته … ومن عصاه فقد عصى الله
مجدك يستغرق الثناء ولو … كان الورى ألسناً وأفواها

ومن أحسن ما قيل فيه قول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى … من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث يرويها السيول عن الحيا … عن البحر عن كف الأمير تميم

محمد حسن الأعظمى
المتخصص بالدراسة الفاطمية

بين العفو والمؤاخذة

لا مشاحة فى أن العفو من شيم الكرام ، والمتخلق به جدير بأن يعتبر من كبار القلوب ، ولكن إذا كان العفو يرفع من قدر صاحبه فهل يفيد المعفو عنه أدبا يردعه عن معاودة جرمه ؟

يرى الحكماء أنه يفيد الفطر الطيبة ، ويزيد الجبلات السيئة سوءا فقالوا : العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح من الكريم .

وقالوا : جنب كرامتك اللئام فانك إن أحسنت اليهم لم يشكروا ، وإن أساؤا لم يستغفروا .

وقالوا : اللئام الى رَهَبُوت ، أحوج منهم الى رَحَمُوت .

وقال أبو الطيب المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته … وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا … مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وينسب الى الامام على كرم الله وجهه ، ونحن لا نرجح ذلك ، ونثبته هنا باعتبار أنه قيل وهو حسن فى هذا الباب :

لئن كنت محتاجا الى الحلم إننى … الى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للخير بالخير ملجم … ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوَّم … ومن شاء تعويجى فانى معوج
وما كنت أرضى الجهل جدا ولا أبا … ولكننى أرضى به حين أحرج
فإن قال بعض الناس فيه سماجة … لقد صدقوا والذل بالحر أسمج

الجامعة والعقيدة

الحياة العقلية والأزهر

تحت العنوان الأول كتب الأستاذ السوادى فى جريدة البلاغ (٩ صفر سنة ١٣٥٨ — ٣٠ مارس سنة ١٩٣٩) ، وناقش فى كتابته السؤال الآتى : هل الجامعة مطالبة بحماية العقيدة والدفاع عنها ؟ ، وعلل جوابه السلبي الذى سماه صريحا بقوله : « الجامعات لا يدخل ضمن اختصاصها حماية العقائد والدفاع عنها ، بل تقوم على أساس واحد إذا انهار انهارت معه حكمة وجودها ، ووجب حتما إغلاقها أو جعلها مدارس عالية تخرج موظفين أو مدرسين أو فنيين . وهـذا الأساس هو (حرية الرأى) » . ثم اعترض على الأزهر فى تدخله فى حادث كتاب جان دارك باسم الغيرة الدينية بينما يدرس المذهب الأبيقورى فى كلية من كلياته .

وتحت العنوان الثانى كتب الأستاذ توفيق الحكيم ردا على ما وصل الى سمعه عن طريق الاشاعة الصحفية من أن الامام المراغى وجه نظر وزارة المعارف لما ورد فى مؤلف الأستاذ «يوميات نائب فى الأقاليم» ، من عبارات تمس كرامة طائفة من طوائف الأمة المحترمة ، وهى هيئة القضاة الشرعيين . وقد ذكر ضمن ما كتبه : « وقد آن الأوان لنواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخله — شيخ الأزهر — المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن نتدبر الخطر الذى يهدد (حرية الكتابة) ، وحركة التأليف ، ونهضة العلوم ، إذا سيطر على الحياة العقلية فى هذا البلد العصرى بمثل هذه الروح . فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون .. فلا شك عندى أن مستقبل مصر كله متوقف على ضمان (حرية العقول) والأفكار الحرة الضرورية لكل نهضة حقيقية » .

إن الذى يقرأ ما كتبه الأستاذ السوادى ، ثم ما كتبه الأستاذ توفيق الحكيم ، ويقرأ أيضا ما كتبه غيرهما ممن يدعون لأنفسهم زعامة الأدب أو النهضة الفكرية ، يجد كل ما كتب — ويكتب — يدور حول فكرة واحدة : حرية الرأى . وما يفهم من حرية الرأى حسبما يوحى به إليهم خيالهم ، أوحسبما يفرضونه هم من أنفسهم ، هوكما يفهم من كلمة « الديمقراطية » فى الشعوب الشرقية ، أو من كلمة « التجديد » أو من كلمة « الجامعيين » أو « البحث الجامعى » فى مصر .

فتجاوز العادات ، وتجاوز قواعد الأمة الخلقية أوحرمات الغير ، وإلزام القارئ باعتقاد

ما ينشر من آرائهم — وإن عبرت عن خيال سقيم ، أو غرور نفسى ، يدفع بهم فى كثير من الأحيان الى التغاضى عن الواقع — حرية فى الرأى ، حرية فى التفكير ، حرية فى الكتابة والتأليف ، الى غير ذلك من الألفاظ الجوفاء التى لم تحدد معانيها بعد تحديدا واضحا لشدة ماطغى عليها من طابع الدعاية والاعلان .

كما أن طلب الانصاف فى الكتابة ، ورعاية حرمة الجماعة وما يسيطر فيها من قانون خلقى أو معتقدات دينية ، أو طلب منح القارئ الفرصة لمناقشة ما يكتب وعدم الحجر عليه فى استعماله حقه من «حرية الرأى» ، ينعت فى عرفهم بالتدخل فى شئون البحث الحر ، البحث الجامعى ، ويوصف بأن فيه « هدرا لحرية العقول والأفكار الحرة الضرورية لكل نهضة حقيقية » .

الأستاذ السوادى ، كالأستاذ توفيق الحكيم وغيرهما من « دعاة حرية الرأى » ، كما تدور فكرة كل منهما حول هذا «الحق المقدس ـ والمهضوم فى مصر» للانسانية ، يسلك فى إقناع الشعب أو إقناع الجزء الذى يعرف القراءة منه مسلكا يظن ـ فى نظرهم ـ أنه مسلم الإيمان به من القارئ ، وهو : الغرب ونهضته وحوادث ثوراته . فأوربا قد فصلت سلطة الكنيسة عن الدولة ، فيجب أن تفصل « سلطة » الأزهر عن حكومة مصر المدنية ، وفى كمبردج وأكسفورد تناقش العقيدة ، فلماذا يتدخل الأزهر المحافظ فى حرية البحث الجامعى إذا ما تعرض للعقيدة ؟

الأمر يدور بين شيئين : إما استمرار الأزهر فى سلطته مع الرضا بتأخر نهضة الأمة « الحقيقية » ، وإما كبح جماحه كى تثمر هذه النهضة الفتية ؛ إما تدخله فى الشئون الجامعية وبالأخص فى أساس الجامعة وهو حرية الرأى مع الرضى بتحويلها الى مدارس عليا تخرج موظفين ، وإما صده الى حد معلوم كى تؤدى الجامعة رسالتها من خدمة العلم والانسانية . هذا هو منطق « دعاة التجديد » وإن اختلفوا فى التعبير .

ولكن من الذى قارن من غير هؤلاء مهمة الأزهر فى حياته المجيدة التى كلها فخر للشرق الاسلامى بسلطان الكنيسة فى القرون الوسطى ؟ ومن الذى حدثنا أن جامعة كمبردج أو أكسفورد تضع أمام طلابها للنقاش وأمام بحثها العلمى كتابا أو كتبا تطعن فى المسيح من مؤلف شرقى أو غربى ؟

إن الأزهر لا يطلب سلطان الكنيسة فى القرون الوسطى ، ولم يطلبه يوما ما ، وإنما يؤدى مهمته الروحية ، فوق مهمته العلمية ، وهى المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، ليس فقط فى منعه من التهجم على دينها بل فى ضمان التدين به . وشيخ الأزهر ، **الامام المراغى ، لا يحد**

من حرية البحث الجامعى إذا ماحاول أن ينزع الأمة - وبالأخص شبابها - من تحكم فئة تدعى لنفسها من الألقاب الثقافية ماتشاء ، مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمى فيه .

إن العقيدة هى الأساس الأول فى نهضات الأمم ، لأنها كفيلة بتعويد الشعب الطاعة لقيادته الصالحة . وكما أن الكفاية ركن جوهرى فى إنتاج قيادة الشعب ، كذلك طاعته المبنية على العاطفة الدينية ، لا على التشريع الوضعى ، شرط أولى لضمان هذا الانتاج . وإن من يحاول إفساد العاطفة الدينية فى شبيبة لم تلقن من مبادئ الدين شيئا — كشباب الجامعة — بالتشكيك فى معتقدات الأمة باسم البحث الجامعى ، لم يحاول فحسب أن يبنى نهضة الأمة على غير أساس ، بل هو يحاول أيضا أن يضع نقاش البحث الجامعى على غير أصل . وهل ذلك هو العمل لنهضة الأمة والحرص على إنتاج البحث الجامعى ؟

حددوا الألفاظ أولا قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة فى نهضات الأمم على أسس صحيحة وتخلوا قبل كل شىء عن عقيدة « وجوب تقليد الغرب » ، تصدقكم الأمة ، أو من يعرف القراءة فيها ، أنكم نقاد باحثون بغية الانتاج ، وأنكم أحرار فى الرأى لم تصلوا الى نتائج بحثكم عن تعصب لمبدأ وتشيع لفكرة . أما التلاعب بالألفاظ فشأن المغرر المعلن عن نفسه ، وأما الايمان أولا بوجوب تقليد الغرب ، فى خيره وشره . ثم الزام القارئ بنتائج ما يسمى « البحث » المبنى على هذا الايمان ، فذلك هو هدم حرية التفكير والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة فى القرون الوسطى .

وأما أنت أيها الأستاذ السوادى فكنت أود لك أن لا تتبع فى مذهب أبيقور ما يشيع على لسان « الموظف » أو « المدرس » أو « الفنان » بل ما يحب أن يدرسه « الباحث الجامعى » ويحققه .

محمد البهى

دكتوراه فى الفلسة وعلم النفس

المعروف معروف

قال ابن عباس رضى الله عنه : لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره ، فانه يشكرك عليه من لم تصطنعه اليه .

وقيل لعبد الله بن طاهر وكان جوادا : أنفق وأمسك بعض الامساك . فقال : إن سِمَن الكيس ، ونبل الذكر لا يجتمعان .

من رياض السيرة :

الزواج الاول للرسول

كيف نشأت فكرته ، وتمت غايته ؟

كان لنساء مكة فى الجاهلية عيد يجتمعن فيه فى الكعبة ، وبيناهنّ مجتمعات فيه يوما ، ينعمن بفرحة العيد ، ويرفلن فى أثواب الابتهاج والمسرة ، ويمرحن فى بحبوحة الصفو والأنس ، إذ طلع عليهن فجأة رجل يهودى ، وصاح بأعلى صوته قائلا : يانساء مكة ، إنه يوشك أن يظهر فيكن نبي ، فأيتكن استطاعت أن تكون زوجا له فلتفعل .

ا خذ النسوة عند سماع هذا القول ، واستنكرت آذانهن وقوع هذا الخبر المفاجئ ، وارتسم على وجوههن كثير من علامات الدهش والاستغراب ، وأخذ بعضهن ينظر الى بعض نظرات الاستنباء والاستطلاع ، ولما لم يجدن لهن مخلصا مما أوقعهن فيه ذلك اليهودى، من الحيرة والارتباك ، لم يكن منهن إلا أن أخذن يرمينه بالحصباء ، ويقبحنه ، ويغلظن له القول .

ولكن امرأة واحدة كانت بين هذا الجمع الحاشد لم تبد حراكا ، ولم تتغير سمات وقارها ولم تقع فيما وقع فيه النسوة ، وهى وإن ظلت ساكتة على قول ذلك اليهودى ، إلا أنه لم يمرّ عندها مرور اللغو من الكلام ، بل أخذت تفكر فيه ، وتتدبر أسراره ومراميه ، وأخذت تيارات تفكيرها تزخر وتصطخب ، وبحار آمالها تتسع وتمتد ، وجعلت من ذلك الوقت ترقب الحوادث عن كثب ، وتتبع ما يقع فى صمت وهدوء وكتمان .

***

نشأ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم معروفا بين قومه وعشيرته بصدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، وكمال المروءة ، وبالغ الوفاء ، ومشهودا له بالصراحة فى القول ، والشجاعة فى الحق ، والبعد عن المداراة والمماراة ، ولاشتهاره بينهم بهذه الفضائل السامية ، واتصافه بتلك الخلال الكريمة ، صارت قريش تدعوه باسم «الأمين» وتتحاكم اليه — على صغر سنه — فيما شجر بينهم من خلاف ونزاع .

***

كانت خديجة بنت خويلد صاحبة تجارة ، وذات مال ويسار ، وكانت تبعث رجالا من قومها يتجرون فى مالها ، ويصيبون منه منافع ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما بلغها ، وعلمت ما كان بينه و بين عمه أبى طالب من محاورة بشأن حثه على الذهاب الى خديجة ومحادثتها فى أن يخرج فى مال لها تاجرا — بعثت اليه ، فعرضت عليه الخروج الى الشام فى تجارة لها ، وأن تعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هذا العرض ، وفرح به ، وكذلك فرح به عمه أبو طالب ، وقال له : إن هذا الرزق ساقه الله اليك ثم خرج النبى الى الشام ، وخرج معه ميسرة غلام خديجة .

***

رجع محمد الى مكة بعد فراغه من تجارة الشام ، وأخبر ميسرة خديجة بما رآه من أحواله ، وبما شاهده فيه من حسن التدبير ، ورجاحة العقل ، وجم النشاط ، وقوة الصبر والاحتمال ، وطهارة الذمة ، وشرف النفس ، وحدثها بما سمعه من قول الراهب عنه ، وكان قد لقيه راهب فى الشام ، وذكر لميسرة أنه سيكون لمحمد شأن أى شأن .

وهنا رجعت خديجة بالذاكرة الى ما كان قاله ذلك اليهودى الذى خرج على النسوة يوم اجتماعهن فى العيد ، ورجع اليها ذلك الأثر العظيم الذى تركه كلامه فى نفسها ، فازداد فرحها ، وتضاعف سرورها ، وقويت آمالها ، وجعلت تنظر الى المستقبل بعين المتفائل المستبشر ، ولتطمئن خديجة على ما فى نفسها ، وتثق من تحقق رجائها ، وتعرف رأى أهل الذكر فيما علمته ، وفيما أخبرها به ميسرة ، ذهبت الى ابن عمها ورقة بن نوفل — وكان قد تتبع الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل — وذكرت له أمر محمد ، فقال لها : إن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر ، هذا زمانه .

جاء كلام ورقة لخديجة ناطقا بما وقر فى نفسها ، صريحا فى تحديد المعانى التى ساورتها لأول وهلة عند ما رنت فى أذنها صيحة ذلك اليهودى ، فهز ذلك منها المشاعر ، وفتح لها باب الأمل على مصراعيه .

***

أمام هذه الحوادث البارزة ، والآيات الناطقة ، ومع ما أراده الله تعالى لخديجة من الكرامة والخير ، فكرت كثيرا فى أمر الاقتران بمحمد ، وأخذت تتلمس له الأسباب ، وتنتهز له الفرص ، ولم يكن الباعث لها عليه فى الواقع فكرة التزوج وحسب ، كما تفكر فى ذلك المرأة العادية ، كلا ، فقد كانت امرأة عاقلة حازمة شريفة ، وكانت من أعرق نساء قريش نسبا ، وأكثرهن مالا ، وأحسنهن جمالا ، وكانت تدعى بينهم بالطاهرة ، كما كانت تدعى سيدة نساء قريش ، وما كان بين عشيرتها من يتأخر عن طلب يدها ، فمن غير المعقول والحالة هذه أن يدفعها الى الزواج مجرد الرغبة فى الزوج ، وحب الاقتران برجل ، وإنما دفعها اليه تلك السيرة الطاهرة

والأخلاق النادرة ، والآيات الباهرة ، والمستقبل المملوء بالفضائل والعظائم ، وهذا كله قد اجتمع له صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماذا تصنع خديجة ؟ وكيف السبيل الى مفاتحة محمد فى هذا الأمر الخطير — وهى مهما اشتدت عندها الرغبة ، وكثرت لديها الدواعى — امرأة لها حياء المرأة الشريفة وإباؤها ووقارها ، ولها فخر حسبها ، وعراقة نسبها ، ووفرة مالها ؟ وهل يليق بمن كان فى مكانتها شرفا وجاها أن تقدم على هذا الأمر — مهما كان اقتناعها به — دون أن تتخذ له من المناسبات والملابسات ما يكفل لها جلالها ، ويحفظ عليها احتشامها ؟

ومع دقة هذا الموقف ووعورة مسلكه على المرأة النبيلة ، لم تعدم خديجة من الوسائل ما تجد فيه منفذا الى رغبتها ، وطريقا الى طلبتها ، فبعثت الى نفيسة بنت منية — وهى يومئذ من أعز صويحباتها ، وأمينة سرها — وأرسلتها الى محمد ، لتتحدث معه فى أمر الزواج ، فذهبت اليه ، وكان حديثها معه فيه كياسة ولباقة ، وفيه مهارة وبراعة ، فتكلمت معه أولا فى شأن الزواج عامة ، ثم تدرجت منه الى الحديث عن زواجه بخديجة خاصة ، وتلك سياسة رشيدة فى أساليب الحديث ، لها نتيجتها ، ولها أثرها فى استطلاع الرأى ، وفى معرفة المخبوء فى النفس ؛ وتروى نفيسة هذه القصة فتقول : فقلت له يامحمد : مايمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوج به ، قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت : خديجة ، قال : وكيف لى بذلك ؟ قلت : بلى ، وأنا أفعل .

***

بعد هذه الخطوة المباركة التى تمت بسفارة نفيسة بين خديجة ومحمد ، التقت رغبتهما فى الزواج وامتزجت عواطفهما وميولها ، وأحس كل منهما أن ما يتمناه أخذ يدنو منه ويقترب ، فما كادت خديجة تعلم من نفيسة رغبة محمد فيها ، وما كادت تراه بعد ذلك حينما حضر اليها للتحدث فى أمر التجارة ، حتى قالت : ياابن عم ، إنى رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ولم تقتصر خديجة على هذا ، بل أرادت أن تبين له فى جلاء وصراحة سبب رغبتها فيه ، وسر حرصها على التزوج منه ، فأخذت بيده ، ثم قالت : بأبى أنت وأمى ، والله ما أفعل هذا لشىء ، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكنه ، فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذى سيبعثك لى ، فكان جوابه لها صلى الله عليه وسلم ، جواب الصادق الكريم والوفى الأمين ، فقال لها : والله لئن كنته ، لقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبدا ، وإن يكن غيرى ، فإن الإله الذى تصنعين هذا من أجله ، لا يضيعك أبدا .

***

كان طبيعيا بعد أن انقضى شان الخطبة أن يأتى بعده شأن عقد الزواج ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم فى عمومته من بنى هاشم ، ورؤساء مضر ، وبينهم عماه أبو طالب وحمزة ، فأتوا دار خديجة ، وفيها عمومتها وذووها ، وبينهم عمها عمرو بن أسد ، وابن عمها ورقة بن نوفل ، فقام أبو طالب وقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله بن أخى ، مَنْ لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قلّ ، فان المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ . . . . فلما أتم أبو طالب خطبته ، تكلم بعده ورقة بن نوفل ، فقال : الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ماعددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لاتنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم ، فاشهدوا علىّ يامعشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد محمد بن عبد الله ، وذكر المهر ، ثم سكت .

فقال أبو طالب ، قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : اشهدوا علىّ يامعاشر قريش أنى قد زوجت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش .

***

أصبح محمد وخديجة بعد إتمام العقد عروسين ، ولا بد أن يكون السرور قد ملأ قلوبهما والفرح قد أفعم نفوسهما ، وخصوصاً بعد زواج اشتدت الرغبة فيه ، وقوى الحرص عليه من جانب كل من العروسين ، وكان وصولهما إليه أمنية مرقوبة ، وبغية محبوبة .

وحقاً كان ذلك ، فقد ابتهج العروسان وذووهما لهذا القران ابتهاجاً عظيما ، وأخذت مظاهره تبدو فى ألوان مختلفة ، وصور منوعة .

فأما محمد ، فقد أولم وليمة عامة دعا إليها الناس ، وهى أول وليمة له صلى الله عليه وسلم ، وكذلك صنعت خديجة وليمة عظيمة أطعمت فيها الأقارب والأباعد .

وأما أبوطالب ، فقد فرح فرحا شديدا ، وجعل يحمد الله على نعمائه ، ويشكر له جزيل فضله .

***

قضت خديجة مع النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها أحدا ، ولم يشركها فيه غيرها ، وانفردت به هذه المدة الطويلة التى صانها الله فيها عن مواطن الغيرة ، ومتاعب الضرائر ، فدل ذلك على عظيم قدرها عنده ، ومزيد فضلها ، وعلى صادق الوفاء ، وأكيد الولاء بينهما ، ولقد كانت رضى الله عنها خير مؤازر له ومعين قبل البعثة وبعد البعثة ، فساعدته بمالها ، وكانت أول من أجاب الى الاسلام ، ودعا إليه ، وأعان على ثبوته بالنفس والمال ؛

وكان صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا يحزنه ، من ردّ عليه ، وتكذيب له ، إلا فرّج الله عنه بخديجة ، فكان إذا رجع إليها تثبّته ، وتخفف عنه ، وتهون عليه أمر الناس ، وتسهل عليه أذاهم ، وأنهم إن قالوا فيه ما لا يليق ، فهم يعلمون أنه برىء منه ، وإنما يقولونه حسدا .

لما جاءه الوحى ، وذهب إليها ، وأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسى قالت له : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فأى زوجة تصنع مع زوجها من ضروب المعاونة والمواساة والتشجيع ما صنعته خديجة رضى الله عنها مع محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وأى زوجة تبذل من الوفاء والإخلاص والأمانة والمروءة وحسن العشرة ما بذلته تلك الزوجة الوفية الكاملة لزوجها الوفى الكامل ؟ .

نستطيع أن نؤكد أن التاريخ على اتساع مداه ، ووفرة أخباره ، لم يحدثنا عن رابطة زوجية متينة ، كتلك الرابطة الزوجية التى كانت بين محمد وخديجة .

ولذلك لما ماتت رضى الله عنها ، حزن عليها النبى حزنا شديدا ، وسمى العام الذى ماتت فيه هى وأبو طالب عام الحزن ، وكان كثير الذكر لها ، والثناء عليها ، حتى روى عن عائشة أنها قالت : ما غِرت على أحد ما غِرت على خديجة ، وقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكاد يخرج من البيت ، حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ؛ فذكرها يوما من الأيام ، فأخذتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا ، قد أبدلك الله خيرا منها ، فغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذّبنى الناس ، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد ، وحرمته من غيرها ، قالت عائشة : فقلت فى نفسى لا أذكرها بعدها أبدا .

***

هذا عرض وجيز لتاريخ ذلك الزواج النبوى الأول ، نطالع به حضرات القراء الكرام بمناسبة إقبال العام الهجرى الجديد ، راجين أن يكون لما جاء فيه من خلق فاضل ، وسيرة حميدة ، وأدب رفيع ، وتعاون قوى ، وتضامن بين الزوجين أحسن قدوة للمسلمين ، وأبلغ عظة فى نفوسهم ، فيستقبلوا عامهم الجديد بقلوب عامرة بالخير ، وهمم صادقة فى الأخذ بمبادىء الرسول الكريم ، واتباع سننه القويمة ، والله الموفق .

فكرى يس
المدرس بكلية الشريعة

الدفاع عن القرآن الكريم

باب آخر من أبواب الاتفاق

حرق سـيدنا عثمان المصاحف :

ذكر أبو بكر الانبارى فى كتاب الردعن سويد بن غفلة قال : سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يامعشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان ، وقولـكم : حراق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمرو بن سعيد قال : قال على بن أبى طـالب رضى الله عنـه : لوكنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . اهـ

وروى ابن أبى داود معنى هذا فى كتابه قال :

حدثنا عبد الله حدثنا يونس بن حبيب قال حدثنا أبو داود ، وحدثنا محمد بن أبان الجعفى سمعه من علقمة بن مرثد قال : لما خرج المختار كنا هذا الحى من حضرموت أول من تسرع اليه ، فأتانا سويد بن غفلة الجعفى فقال : إن لـكم على حقا وإن لـكم جوارا — أو إن لـكم قرابة — والله لا أحدثكم اليوم إلا شيئا سمعته من المختار . أقبلت من مكة وإنى لأسير إذ غمزنى غامز من خلفى ، فاذا المختار ، فقال لى يا شيخ ما بقى فى قلبك من حب ذلك الرجل — يعنى عليا — ؟ قلت إنى أشهد الله أنى أحبه بسمعى وقلبى وبصرى ولسانى . قال : ولـكنى أشهد الله أنى أبغضه بقلبى وسمعى وبصرى ولسانى . قال : قلت : أبيت والله إلا تثبيطا عن آل محمد وترثيثا فى إحراق المصاحف (أو قال حراق ، هو أحدهما يشك أبو داود) فقال سويد : والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من على بن أبى طالب رضى الله عنه ، سمعته يقول : « يأيها الناس لا تغلوا فى عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا — أو قولوا له خيرا — والمصاحف وإحراق المصاحف ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا جميعا . فقال : ما تقولون فى هذه القراءة ، فقد بلغنى أن بعضهم يقول : إن قراءتى خير من قراءتك — وهذا يكاد يكون كفرا ؟ — قلنا : فما الرأى قال : نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف ، قلنا : فنعم ما رأيت — قال فقيل أى الناس أفصح ، وأى الناس أقرأ ؟ قالوا أفصح الناس سعيد بن العاص ، وأقرأهم زيد بن ثابت . فقال : ليكتب أحدهما ويملى الآخر . ففعلا . وجمع الناس على مصحف . قال : قال على : « والله لو وليت لفعلت مثل الذى فعل » (ومن طريق آخر) عن سويد بن غفلة يقول : سمعت عليا يقول : « رحم الله عثمان . لو وليته لفعلت ما فعل فى المصاحف » .

حدثنا أبو الربيع قال أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن بكيرا حدثه أن ناسا كانوا بالعراق يسأل أحدهم عن الآية ، فاذا قال فانى أكفر بهذا ، ففشا ذلك فى الناس ، واختلفوا فى القرآن ، فكلم عثمان بن عفان فى ذلك ، فأمر بجمع المصاحف وأحرقها ، ثم بثها فى الأجناد — يعنى الذى كتب — اه

فهذا يدل صراحة على أن روايات ابن أبى داود فيما يخص إحراق المصاحف موافقة تمام الموافقة لما رواه أهل السنة فى ذلك .

ومما اتفق فيه ابن أبى داود وكتب السنة . روايات عن سيدنا حذيفة نذكر هنا بعضها مع العلم بأنها فى صحيح البخارى ومسلم قال :

حدثنا عبد الله قال حدثنا بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا ابراهيم بن سعد عن الزهرى عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فرج أرمينية (قال أبو بكر يعنى الفرج الثغر) واذربيجان مع أهل العراق ، فرأى حذيفة اختلافهم فى القرآن ، فقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى ، فأرسل الى حفصة : أن أرسلى الىّ بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت حفصة الى عثمان بالصحف ، فأرسل عثمان الى زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن الزبير أن انسخوا الصحف فى المصاحف ، وقال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه نزل بلسانهم حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، بعث عثمان الى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف التى نسخوا وأمر بسوى ذلك فى صحيفة أو مصحف أن يحرق ، (وقال غيره يخرق) . ثم قال بعد أسطر تخص رواية زيد بن ثابت : قال الزهرى : واختلفوا يومئذ فى التابوت والتابوه ، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش — وروى هذه الرواية نفسها عن أنس . غير أن فيها اختلافا يسيرا . فى قول سيدنا عثمان رضى الله عنه إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش ففى هذه الرواية : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربيات القرآن فاكتبوه الخ — وفى آخرها زيادة : فذاك زمان حرقت المصاحف فى العراق بالنار — اه ثم ذكر العلامة ابن أبى داود فى هذا الموضع روايات كثيرة لا تخرج عما تقدم فى المعنى — ونحن لا نرى نقلها جميعا هنا فإن ذلك كثير لا تحتمله مقالات وضعناها للرد .

ومما اتفق فيه ابن أبى داود وكتب السنة خبر قول الله عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا » الآية قال : أخبرنا القاضى أبو الفضل الأرموى قراءة عليه وأنا أسمع : حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة المعدل قال أخبرنا أبو عمرو عثمان بن محمد المعروف بابن الآدمى . قال حدثنا

أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي قال حدثنا أبو سلمة بن شبيب ومحمد بن يحيي قالا حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال : لما كتبت المصاحف فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه — الى قوله تبديلا ». وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين . قال الزهري : وقتل مع على رضى الله عنه يوم صفين — ثم ذكر رواية أخرى عن زيد بن ثابت لا تخرج عما تقدم فى المعنى — وترجم بعد ذلك لآية أخرى فقال :

وقال حدثنا عبد الله قال حدثنا محمد بن يحيي قال حدثنا هارون بن معروف حدثنا محمد ابن سلمة قال أخبرنا ابن اسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم — الى قوله رب العرش العظيم ». أتى عمر فقال : من معك على هذا ؟ — قال : لا أدرى والله ، إلا أنى أشهد أنى سمعتهما ؟ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما. فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فالحقوهما فيها . فألحقتهما فى آخر براءة . وبسنده عن أبى العالية عن أبىّ بن كعب : أنهم جمعوا القرآن من مصحف أبى فكان رجال يكتبون يملى عليهم أبى بن كعب فلما انتهوا الى الآية التى فى سورة براءة : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) ، أثبتوا أن هذه الآية آخر ما أنزل الله تعالى . من القرآن . فقال أبى بن كعب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنى بعد هذا آيتين: « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم — الى آخر السورة ». قال : فهذا آخر ما نزل من القرآن . قال : فختم الأمر بما فتح الله به بلا إله إلا الله . يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . وبسنده عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام فى الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأتنا به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان فقتل وهو يجمع ذلك ، فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شهيدان ، فجاء خزيمة بن ثابت فقال : إنى قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما . قال : وماهما : قال تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم — الى آخر السورة » . قال عثمان : وأنا أشهد أنهما من عند

الله فاين ترى أن تجعلهما ؟ قال : أختم بهما آخر ما نزل من القرآن . اه ما رواه ابن أبي داود — وقد تقدمت هذه الروايات معظمها بالنص وهو المروى عن سيدنا زيد بن ثابت ، وبعضها بألفاظ أخرى — وهي التي نقلناها عن البخارى ومسلم والترمذى فى موضوع جمع القرآن. فابن أبي داود فى هذه الروايات موافق تمام الموافقة للبخارى ومسلم والترمذى .

وأرى هنا أن أنقل رواية (مسلم) فى قران سورة الأنفال بسورة التوبة ، ثم أنقل رواية ابن أبي داود فى هذا الباب فستجدونها هي بالنص :

فى مسلم ما نصه : ومن سورة التوبة ، حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى ابن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وابن أبي عدى ، وسهل بن يوسف قالوا : حدثنا عوف بن أبي جميلة حدثنا يزيد الفارسى حدثنا ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وإذا نزلت عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، فوضعتها فى السبع الطوال . اه ما رواه مسلم .

وقال ابن أبي داود :

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ، ومحمد بن جعفر ، وابن أبي عدى ، وسهل ابن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبي جميلة حدثنا يزيد الفارسى حدثنا ابن عباس قال : قلت لعثمان الخ وساق الرواية بنصها .

وأريد أن أنهى الكلام الى هنا على الموافقات ، فانها كثيرة فى كتاب ابن أبي داود — مثل حكم السفر بالمصاحف الى أرض الكفار ، وتعليق المصاحف ، والمصحف يجعل فى المقدمة واستبدال الصحف بالمصحف ، وبيع المصحف وشراؤه ، والاحتساب فى كتابة المصاحف ، وتناول الأجر على كتابتها وغير ذلك ، مما يوافق كتب السنة وأحكام الفقه الاسلامى مما لو شغلنا به وبمقارناته لطال الكلام ، ولخرجنا قليلا عن أصل موضوعه ، وإنما المهم هو بيان المخالفات ، أو ما يظن أنه منها ، وبيان الشبه فى ذلك والرد عليها — وهذا ماسنشتغل به الآن وسنقدم بين يدى ذلك الأسس التى سنبنى ردنا عليها — وعلى الله الاعتماد ؟

محمد حسين

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

مما تواضع عليه علماء الفروع — أن العقار هو الأرض سواء أكان عليها بناء أم لا فيدخل فى وقف العقار بطريق التبع من غير تنصيص عليه كل مايدخل فى بيعه وإجارته وهذا هو الضابط الشامل والذى وضعه الفقهاء لإلحاق مالم ينص عليه بما نص عليه فى حكم الوقف.

نقل صاحب الفتاوى الهندية أن الواقف إذا وقف أرضا مملوكة له دخل ما فيها من البناء والشجر بجميع أنواعه إذا كان الشجر من نوع يمكث فى الأرض لأكثر من عام بحيث إنه يصبح موقوفا تبعا لوقف ذلك العقار وإن لم ينص عليه الواقف فى إشهاده وعلى الجملة فان الواقف إذا وقف ضيعته لحق بها فى الوقف ما كان متصلا ببقائها واستثمارها وسببا من أسباب نمائها وتأبدها كرحى الماء والدواليب والآلات البخارية التى توصل إليها الماء — ويتفرع على ذلك الاتجاه تفريع آخر وهو أنه لايلحق بالأرض الموقوفة مابها من زرع وقت وقفها وهو مالا يمكث فى الأرض لأكثر من سنة كالقمح والشعير والقطن سواء كان ذلك الموجود قيميا أم غير قيمى. ويدخل فى ذلك الثمر الموجود على الشجر وقت الوقف سواء أكان مما يؤكل كالعنب والبرقوق أو لا يؤكل كالورد والياسمين بل يبقى كل ذلك ملكا للواقف دون الحاق بالأرض الموقوفة.

وحكم الثمار على أحد رأيين حكم المواشى والمحاريث والنوارج وما إليها من المنقولات المستعملة فى الزراعة وليست متصلة بالأرض اتصال ثبات وقرار — لكن نقل العلامة صاحب البدائع وصاحب الأسعاف أن الواقف إذا ذكر هذه الأشياء فى إشهاد وقفه — وقع وقفها عند الصاحبين صحيحا فعند أبى يوسف لأن المواشى والمحاريث والنوارج وما إليها تابعة للأرض فى إنماء ثروتها واستنبات غلتها وإعدادها للتداول بين الناس واستثمارها والانتفاع بها. وقد يصح من الأحكام تبعا ما لا يصح قصدا وهذا أولى وجوه التبعية لما تقدم وعند محمد رضى الله عنه لأن مذهبه يجيز وقف المنقول استقلالا فأولى أن يجيزه تبعا للعقار إذا كان من مقوماته وسببا أوليا فى إصلاحه وإعداده للاستغلال والانتفاع اه.

فاذا تقادم العهد بها وأصبحت غير صالحة لتداولها فيما أعدت له بيعت واشترى بثمنها ما يسد كفاية العين الموقوفة على نمط سابقتها فالم يكن ثمنها كافيا للوفاء بأعدادها كملت من غلة الوقف بحيث تصبح قادرة على أداء مهمتها حتى ولو لم يشترط الواقف ذلك لتحقق ضرورة وجودها كجزء غير منفصل عنها واستثنى العلماء من ذلك نوعا آخر وهو ما إذا جعلت الأرض

مقبرة فلا يدخل فيها الشجر والبناء ولا موضعهما بل يكون ذلك ملكا للواقف ولورثته من بعده ذلك لأن موضع الشجر والبناء يوم الوقف كان مشغولا بهما فلا يمكن وقف تلك الأرض المشغولة ضرورة أنها غير صالحة لوقفها والوقف إنما يقع صحيحا إذا تحققت شرائط صحته .

غير أن العلماء بعد ذلك حكوا عن أبى حنيفة أنه منع الوقف فى المنقول سواء كان الوقف له استقلالا أو تابعا للعقار فى بعض صوره السابقة وسواء جرى العرف بوقفه أم لا وحجة أبى حنيفة فى المنع أن الشرط فى الوقف أن يكون الموقوف متأبد البقاء والمنقول لا تأبد فيه وذلك يجرى منه مجرى القياس فبالقياس أخذ أبو حنيفة ونحى الصاحبان نحو وقوع الوقف وجوازه وصحته فى المنقول تبعا واستقلالا فأما تبعا فقد مر عن أبى يوسف ومحمد رضى الله عنهما تجويزه تبعا للارض الموقوفة فى المواشى والمحاريث والنوارج وما اليها .

وإما استقلالا فلو ورد النص بوقوعه فى السلاح والكراع فقد وقف خالد بن الوليد رضى الله عنه دروعا له فى سبيل الله وحبس طلحة رضى الله عنه سلاحه وكراعه فى سبيل الله وحين علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أجازه إجازة مطلقة . فسند الصاحبين فى ذلك التجويز النص والنص مما يترك به القياس كما لا يخفى على المطلعين .

وإذا وقف الواقف كتباً على طلبة العلم وعين لها مكانا خاصاً وضعها فيه فلكل طالب علم أن ينتفع بها فقيرا كان أو غنياً ، لكن إذا شرط الواقف ألا تخرج كتبه من ذلك المكان صح شرطه واتبع . أما إذا سكت فقد تردد بعضهم فى جواز النقل . فنقل العلامة صاحب كتاب أنفع الوسائل عدم جواز النقل . ونقل الزيلعى جوازها . وفصل صاحب ملتقى الأبحر فقال إذا أمن النقل جاز وإلا منع فان شرط واقف الكتب ألا تعار كتبه إلا بتذكرة صح شرطه واتبع ، وحكى صاحب الدر المختار لو شرط الواقف ألا تخرج كتبه إلا برهن وقع شرطه باطلا إذا أريد بالرهن مدلوله الشرعى لأنها فى يد المستعير أمانة والرهن بالأمانات باطل .

أما إذا قدم المستعير رهناً على قصد أن يكون ضامناً للكتب المستعارة كأن تكون معدومة النظير أو ثمينة القيمة أو مشرفة على العفاء فلا خطر فيه لأنه يكون رهناً لغويا لا شرعياً ، فاذا جهل قصد الواقف فى اشتراط الرهن حمل على الرهن اللغوى لا على الرهن الفقهى

وجملة القول أن شروط الواقفين قد تكون فى بعض الأحايين منافية لمصلحة الوقف أو لمصلحة المستحقين أو لا تكون منافية ، ومن هذه الناحية كغيرها جعل الاشراف للولاية القضائية ، فللقاضى تحديد مرامى الواقف وتبيين أغراضه بل له أن يلغى بعض الشروط التى قد يشرطها الواقف منافية لما بدا فى عصر من العصور أن إلغاءه أجدى على الوقف من إبقائه ؟

عباس طه
المحامى الشرعى

الاراء العالمية عن الاسلام والمسلمين

المسلمون أصبحوا مثلا أعلى للوحدة الدينية

يحسن أن نورد هنا ملخص ما ورد لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر من جناب القس (كرستيان أنطون ا . جوب) من غراندوقية لوكسمبورغ المستقلة ، وهى تحد شرقا بألمانيا وغربا بفرنسا ، فان فى هذا الكتاب وما أرفقه به من مقال نشره باللغة الألمانية نتفا تدخل فى باب الآراء العالمية .

فما ورد فى كتابه قوله :

يؤسفنى ما وصل اليه الموقف السياسى العالمى فى الوقت الحاضر ، وهو مطابق لما تنبأ تم به حينما أخبرتكم عما أبذله من الجهود فى سبيل السلام ، وفى سبيل دوام الصداقة بين أمتينا على الخصوص ، وبين الشعوب الشرقية والشعوب الغربية على العموم .

« وإنى مرسل لكم مع هذا مقالا باللغة الألمانية بينت فيه للمسيحيين المثل الأعلى الذى ضربتموه لهم جميعا ، فانكم تخدمون الإله القوى القدير نفسه الذى أخدمه أنا ، فنحن أمامه إخوان ، ولا شك فى أنه سيبارك ما بيننا من حب واحترام .

« وإن شعب النيل يسير تحت إمرة ملككم الشاب الصالح الى الرشاد ، ضاربا المثل الأعلى لكل الشعوب الاسلامية فى الاستقلال والعظمة .

« لقد درست الحروب الصليبية دراسة دقيقة فأعجبت بأبطال الاسلام ، وإن قلبى ليحزن حينما يرى اختلافا بين أمتينا . لقد عشت عامين من سنى شبابى بين ظهرانى عرب اليمن فجعلنى هذا من أخلص أصدقاء العالم العربى ، كما أن قضائى شتائين فى القاهرة قوَّى فى نفسى هذه العاطفة نحو مسلمى مصر وملكها الذى أدعو الله أن يبقى حكمه السعيد طويلا »

***

أما ما ورد فى مقالته الألمانية فقد بدأها بالنعى على حركة الانقسام فى جماعات المسيحيين وعقبها بقوله :

« أما الاسلام فليس هذا حاله اليوم . فحركة الاتحاد فيه التى منشأها القاهرة تتقدم بخطوات واسعة »

ثم قال :

إن حركة الاتحاد داخل البلاد المسيحية أمكنها أيضاً أن تعمل مثل هذه الخطوات

الواسعة ، ولكن المثل الأعلى للتضحية من تسليم الفرد حياته وماله لجماعته الدينية العليا بدون اعتراف بالذات ، متقدم فى الاسلام أكثر مما هو عندنا . وهذا الفضل ينسب إلى الجامعة التى تعتمد على نفسها ، جامعة الأزهر التى يوشك أن تتم لها ألف سنة ، وشيخها صاحب الفضيلة والرفعة الشيخ محمد مصطفى المراغى هو الحامل الرئيسى لشعلة هذه الحركة . وانه فى سفره الأخير للحج إلى مكة تقدم للملك ابن سعود ، ذلك العاهل الموحد لخريطة البلاد العربية ، طالباً اليه الاعتراف بالملك فؤاد الأول كحامل للواء الخلافة الدنيوية .

فصرح لفضيلته هذا السياسى المحنك ، والقائد الحربى ابن سعود وهو يضحك قائلا : نحن أولى بهذه المهمة . قال هذا وهو يعلم أن الملك فؤادا الأول وهو سياسى محنك مثله سيرفض الاضطلاع بهذه المهمة قطعاً . ولكن الشيخ المراغى يعمل على أن تأتى من الخارج بعثات إلى جامعته ليجهزها بكل سلاح إسلامى ، حتى إذا ما عادت إلى أوطانها أمكنها أن تؤسس بيئات تشبه الأزهر .

إلى أن قال :

لقد جرب الاسلام كما جربت المسيحية قبله ، فى عهود ازدهاره المختلفة فى تاريخه ، عاقبة التفرق الدينى والزندقة ، وتعاليم الفرق الدينية الخاطئة ، وجرب انقسام أمبراطوريته إلى دويلات ، فأفضت هذه الحال غالباً إلى صيرورة هذه الدويلات ، التى كان الخلاف المذهبى سبب تفرقها ، واقعة فى الشرك والتأليه الباطل ، على ما آلت اليه الحال فى بيزانس (اسم القسطنطينية) إذا صارت مستعبدة للدخلاء الاجانب ، ولما جلبوه اليها من لغة وعبادة ، ولما ارتكبوه من قتل طال عهده ، وإحراق امتد أجله .

وقال :

« إن السيد المسيح أشوق ما يكون الى حركة اتحاد تقوم فى المسيحية ، ولكنها تبدو لأبنائه مما يصعب تحقيقه ، على نقيض ما عليه الحال عند المسلمين . لماذا ؟ الجواب فى غاية البساطة وهو : لأن نير المسيح يثقل حمله لدى الأغنياء الممولين ، فانهم لا يريدون أن يصادفوا حواجز شهواتهم التى يرغبون إشباعها فى هذا العالم ، على حين أن المسلمين يحسنون معاملة السائل حتى المجنون . فلو جعلنا هذا محلا للمقارنة لوجدنا أن الاسلام أقرب كثيرا الى الأصول المسيحية من أكثر المسيحيين .

***

(مجلة الأزهر) أجاب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام جناب القس بما يناسب المقام ، وسلم الىّ المقالة التى نشرها بالألمانية لأقتطف ما يحسن نشره منها تحت عنوان الآراء العالمية .

فلما قرأتها وعلمت ما قاله فى شأن الخلافة رأيت أن أتحقق من صحة ما جاء فيها فسألت فضيلته

عنه . فتفضل باجابتى قائلا لك أن تصرح عن لسانى بأنى ما فاتحت جـلالة الملك ابن سعود فى أمر الخلافة ، ولم يكلفنى المغفور له الملك فؤاد بمفاتحة أحد فى ذلك ، ولم أقم فى سبيل إعادتها بأى عمل ، وكنت ممحضا سفرى الى الحجاز لأعمال خـيرية أخرى لاصلة لها بالخلافة . وقد حدثنى جلالة الملك ابن سعود فى شأن الخـلافة حديثا لا أسمح بنشره ، ولـكنه يخالف كل المخالفة ما جاء فى مقال جناب القس كرستيان .

فاكتفيت من فضيلته بهذا ، ولا مشاحة فى أن جناب القس كرستيان اعتمد فيما ذكره على الاشاعات التى راجت أيام شخوص فضيلته الى مكة والناس بمسألة الخلافة على أشد ما يكونون بها اهتماما ، وأكثر ظنونا وأوهاما .

أما ما ذكره من مسألة العمل على توحيد المسلمين فقد كان هذا ديدن أئمة المسلمين فى كل عصر ، قياما بما يفرضه عليهم الدين ، لا بقصد تأليب المسلمين على الأمم ولـكن بقصد إقامتهم على ما يجب أن تكون عليه أمة من وحـدة الوجهة والغاية ، ومن التـكافل على إنتاج أعظم ما يمكن من الخير للعالم الانسانى . وفضيلة الأستاذ الإمام أعرف الناس بما تتطلبه الحياة العالمية الراهنة من حسن الزمالة بين المسلمين وجميع الأمم على السواء ، فهو إن عمل لتوحيد المسلمين فى مقدمة العاملين ، فإنما يقصد هذه الغاية الشريفة . ولفضيلته كلام جليل القدر فى هـذا الموضوع أفضى به على صورة خطابة القيت فى مؤتمر الأديان الذى انعقد بلوندن فى سنة ١٩٣٦ فى وجوب العمل على تحسين العلاقات بين الشعوب المختلفة لايجاد زمالة عامة بين جميع البشر فى هذه الحياة . وقد نالت هذه الخطابة إعجاب علماء الملل المختلفة من أعضاء المؤتمر، وهنأوا فضيلته عليها ، وهذا الفخر يشاطره فيه كل مسلم على سطح الأرض .

شدة تمسك المسلمين بدينهم

سمحت الحـكومة الفرنسية بمنح الجزائريين الحقوق المدنية الفرنسية على شريطة أن يخضعوا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية للقانون الفرنسى ، وهو كما لا يخفى لا يبيح تعدد الزوجات ولا يذهب مذهب الشريعة الاسـلامية فى التوريث الخ ، فآثر المسلمون هنالك أن يحرموا من هـذه المنحة على أن يجروا على غير السنة القرآنية فى أحوالهم الشخصية .

فكتب المسيو (بييرميل) فى جريدة (الديبيش) الفرنسية يقول أن المسيو (موريس أجام) كتب فى هذه الجريدة عن هـذه المسألة وذكر أن اليهود وإن كان بين كتابهم وبين القوانين الأوربية خـلاف ، فانهم آثروا أن يخضعوا لتلك القوانين على أن يبقوا متمسكين بشريعتهم الدينية ، والذين يعملون بدينهم منهم ظلوا فيما عدا الأحوال الشخصية على ما كانوا عليه من تقديس السبت وتحريم لحم الخنزير واجراء الختان الخ .

قال المسيو بيبرميل عقب هذا :

« ولـكن الموطن الذى أعرب فيه المسيو موريس أجام عن حقيقة لاتقبل الجدل ، هو ماقاله من إن الأمر إذا تعلق بالقرآن تغير من هذه الناحية كل التغير . فذكر أن المؤرخين المتحلين بصفة النزاهة يدهشون كل الدهش عندما يتأملون فى العمل الذى قام به محمد . فما أجل العبقرية التى تحلى بها هذا النبي وأمكننته من النجاح فى فرض هـذا الترابط الدينى والتشريعى على المؤمنين به ، وهم يقدرون بمئات الملايين بحيث لم يستطع أى مسلم حتى فى هذا العصر أن يحطمه .

« فالقرآن قانون مدنى وكتاب دينى فى آن واحد . وقد أوجد لمتبعيه عقلية تميزهم أساسيا عن بقية النوع الانسانى . وهـو خلافا للمسيحية والبوذية لا يضع حـدا بين ما هو روحى وما هو زمنى فمزج أحدهما بالآخر » انتهى .

نقول يخيل لمن يقرأ هذا الكلام إن الكاتب يمدح الاسلام ، وليس ذلك بصحيح . فان قوله إن الاسلام أوجـد للمسلمين عقلية تميزهم عن بقية النوع الانسانى يشعر بأنهم جامدون على ما هم عليه لا يبغون عنه حولا .

ولـكن ما قوله فى أن الذى يعتبره عيبا هو مظهر من مظاهر مناعتهم الاجتماعية ، التى تحميهم من الفناء فى أجساد الملل الأخرى .

يستغرب المستعمرون من رفض المسلمين منحة تجعلهم واياهم من ناحية الحقوق المدنية فى مستوى واحد ، ويعتبرون هذا الرفض منهم أثرا من آثار عقلية لا تتفق وعقلية بقية البشر . ولو أنصف أولئك المستعمرون ووضعوا أنفسهم موضع أولئك المسلمين ، وتخيلوا أن قوماً من مستعمرى بلادهم تنزلوا أن يعتبروهم واياهم فى مستوى واحد من الحقوق الوطنية ، أ كانوا يقبلون ذلك أم يعتبرونه صرفا لهم عن حقوقهم الطبيعية فى بلادهم ؟

إن المسلمين فى بلادهم المستعمرة يعتبرون أنفسهم أصحاب تلك البلاد الشرعيين ، فان كانوا فقدوا سلطانهم فيها بسبب ضعفهم أو جهلهم ، فهم يتربصون أن يستعيدوا حقوقهم عليها ، ويصبحوا أصحابها الحقيقيين ، فـكل عرض يعرضه عليهم المستعمرون وخاصة إذا كان يقابله تنازل منهم عن نظم يدينون بالخضوع لها يعتبرونه ويقابلونه بالرفض ، وهذا موقف يشرفهم كل التشريف ، وإذا كان يعزى لدينهم فهـذا يدل على أن دينهم ينفث فيهم من روح المناعة والعزة ما لا تستطيع أسلحة الاستعمار الجهنمية كسر شوكته .

وإن الترابط الآلى الذى يقول فيه المسيو موريس أجام أنه غـير قابل للتحطيم ، لم يمسك المسلمين جامدين حيال أية غاية من غايات المجد والعلم والحكمة ، ولـكن أوجد لهم سيادة العالم كله . ولا أظن كاتب جريدة الدبيش يجهل ذلك .

* * *

الجامعة الاسلامية

والقومية الشرقية

جاء فى جريدة (الاكسيون فرانسيز) الفرنسية وهى اللسان الرسمى للحزب الملكى مامؤداه.

« إن فكرة الجامعة الاسلامية قديمة قدم الاسلام نفسه . ومصدرها الشعور الذى يربط جميع أتباع النبي بالوحدة الدينية ، على نحو ما كانت عليه الحال أيام محمد وأصحابه الأولين ضد عدم اكتراث المشركين بالدعوة الاسلامية ومجافاتهم لها .

« ولكن هذه الفكرة لم تظهر فى السياسة الأوربية إلا من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٩٠٠ فى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة وجوب إنهاض المسلمين بعد قهقرى استمرت خمسة قرون سببتها المنازعات الداخلية ، واختلافات الطوائف المذهبية . وكانت تتوالى فى هذه الآونة حملات الغرب على الشرق مما أوقر فى نفوس المسلمين المتنورين أن بلادهم على وشك الوقوع بين براثن المستعمرين . فحدث رد فعل لهذه الحركة فى البلاد العربية من ناحيتى الوهابية والسنوسية اللتين تركزت حولهما قوى المقاومة ضد الاستعمار ، حتى نبغ رجل ذو مقدرة خلابية عظيمة ، ونشاط فياض ، (يريد جمال الدين الأفغانى) ، نصبه سلطان فذ الذكاء ، متقد المطامع لخدمة قضية الاسلام ، والعمل على جمع كلمة جميع المسلمين أولا ، ثم دفعهم بعد ذلك ضد المدنية الغربية .

« فجمال الدين يعتبر بحق محيي فكرة الجامعة الاسلامية ، جعله السلطان عبد الحميد على رأس دعاته الكثيرين ، ولكنه إذا كان فشل فى محاولاته فذلك لضعف الجانب الذى كان يعتصم به — وهو الأمبراطورية العثمانية — التى أضعفتها الأحكام الجائرة والاضطرابات مدة قرون متوالية الخ » .

نقول : الذى يدهشنا أن يسيء الأوربيون فهم نهضة المسلمين الى حد أن لا يجعلوها موجهة الى الاستعمار ومايلاقون منه من ويلات ، ولكن الى المدنية الغربية نفسها ، غير مبالين بتكذيب الحوادث إياهم . وغرضهم من ذلك أن يشوهوا حركاتهم فى نظر الشعوب الأوربية ليحملوهم على زيادة الكلب على اخضاعهم وإذلالهم . لأنهم لو قالوا أنهم اضطروا الى توحيد كلمتهم ، وتقويم صفوفهم ، للذياد عن بيضة بلادهم ، لأحس الضمير البشرى بالعطف عليهم ، والعذر لهم ، باعتبار أن الدفاع عن الحوزة غريزة طبيعية فى كل نفس حتى الحيوانية .

وهذا التجنى فضلا عن كونه عيبا عظيما لايليق بالمنصفين ، فانه يفضى الى توسيع شقة الخلاف بين الغربيين والشرقيين ، وقد حدث ذلك وأثمر أسوأ الثمرات على الجانبين . ومن العجيب أنهم لا يزالون يجرون على هذه السنة من التجنى والتجرم وسوء الظن .

لم يكن المسلمون بأعداء المدنية فى أى عهد من عهودهم ، بل هم الذين أعادوا بناءها بعد أن قد تزعزعت قواعدها ، وتأكلت وطائدها ، وهم اليوم يتدافعون بالمناكب لينهلوا من حياضها ، ويعبوا من ينبوعها ، فلو كانوا يتحفزون لتحطيمها لما ربوا نابتتهم عليها ، ولما غلوا فى ذلك حتى بزوا أهلها فى الاعتداد بها .

***

رواية جان دارك و برنارد شو

رأيت وأنا أعرض الآراء العالمية فى الشهر الماضى عن الإسلام والمسلمين ، لأعقب على ما يجب التعقيب عليه منها فى مجلة الأزهر ، أن ضجة قامت ضد الكاتب الارلندى المشهور (برناردشو) بسبب قصة جان دارك التى قيل أنها اشتملت على طعن فى الاسلام . فعجبت من ذلك لأنى أعرف أن هذا الكاتب من المعجبين بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالدين الذى جاء به ، وله فى ذلك أقوال طنانة تناقلتها المجلات الاسلامية فى جميع بلاد المسلمين ، فاستحضرت نسخة منها فرأيت أن الطعن الذى هاج النفوس ضد مؤلفها محصور فى الناحية التى أراد بها الكاتب تصوير رأى الكنيسة فى القرون الوسطى فى جان دارك ، بلسان « بيير كوشون » أسقف بوفيز ، فاستطرد هذا الشخص الخيالى الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وسبه على أسلوب ذلك العصر . ولكن مؤلف القصة تخيل شخصا دعاه (اللورد وارك) اعترض الاسقف ورد عليه وأثنى على المسلمين بقدر ما يسمح به فى تلك الأيام .

لما وقفت على هذا كتبت ما ينبغى أن يكتب فى هذا الشأن ، لا تسويغا لتدريس مثل هذه القصة ، ولكن تبريئا لبرنارد شو من تهمة الطعن ، وضعا للحق فى نصابه ، وحرصا على مودة كاتب عالمى يرجى منه أن يقف موقفا محمودا فى دفع المطاعن عن الاسلام .

وقد جاء فى عدد ١٤ مارس من جريدة النيوز كرونكل الانجليزية ما يؤيد رأينا هذا نقتطف منه ما يأتى :

« أخبرت النيوز كرونيكل أمس المستر شو بالقرار الذى اتخذه الطلبة المصريون حيال كتابه . فعقل الغضب لسانه عن الكلام وهو أفصح رجال العهد الحديث . ولما هدأت سورة غضبه قال :

« إن ما كتب ليس رأيى أنا ولكنه رأى الكنيسة فى القرون الوسطى . .

« ولماذا لم يقرأوا رأى الشريف الانجليزى (وهو أحد أشخاص القصة) ، الذى كان من المحاربين ضد الجيوش الاسلامية ، وهو اللورد وارك فانه اعترض الاسقف الطاعن وتحداه ؟

« وكيف غاب عنهم أن الذى طعن ليس أنا ولـكن أسقف مذهب غـير مذهبى ، رجل عاش فى القرن الخامس عشر وليس فى وقتنا هذا » الخ .

وبعد فإن ما كتبته لا يعنى أنى أرى الاستمرار على تدريس هـذه القصة فى بلاد تدين بالاسلام ، فان فى الأدب الانجليزى معينا لا ينضب من الاقاصيص البرئية ، بل فى مؤلفات برنارد شو نفسه ما هو أولى من هـذه القصة بالعناية . وأنى لم أخالف رأى مشيخة الأزهر الجليلة فى وجوب إبعاد هذه القصة وأمثالها من معاهد العلم المصرية ، فـكل أمة تحترم نفسها تعمل على هذه الشا كلة .

ومهما قيل فى أن هذا الأسلوب فى تصوير الآراء العتيقة سائغ لدى الأوربيين ، فانه يعتبر نابيا عن ذوقنا ، مستهجنا فى عرفنا .

وإذا كان هـذا ما يقال فى كتاب برنارد شو ، فماذا عسى أن يقال فى محادثات لاندور ، وفيها فصل ، وإن لم يكن مقررا للتدريس ، فانه يشتمل على أمور لا أقول يجب أن لا توضع بين أيدى طلبة مسلمين ولـكنى أقول يجب ألا توضع بين أيدى طلبة على الاطلاق ، لأنها خيالات مبنية على أكاذيب صريحة ، ومصـوغة فى قالب استهزائى بعيد عن روح الأدب الصحيح . ولقد أحسنت الجامعة المصرية صنعا فى إلغاء تدريس هذين الـكتابين ؟

محمد فريد وجدى

« التهذيب فى الفقه »

جرى صاحب الفضيلة الأستاذ النابه الشيخ احمد كامل الخضرى المدرس بـكلية الشريعة على سنة نعتبرها أمنية محبى العلم الدينى فى هـذا العصر ، تلك هى وضع مادة الفقه التى عليه تدريسها فى وضع جديد ، وترتيب جميل ، وتقريبه من الأذهان بحيث لايلتوى فهمه على أحد ، فجنى طلبته منه ثمرتين أولاهما سرعة فهمهم للمقرر عليهم ، وثانيتهما اكتساب ملـكة التعبير عن الفقه بلهجة أهل العصر الحاضر .

وقـد تم طبع الجزء الثالث من كتاب التهذيب ، وهـو مقرر السنة الرابعة فجاء كاللذين تقدماه كفاية واتقانا وحسن ترتيب .

فحبذا لو شجعت إدارة الأزهر أمثال فضيلة الأستاذ الخضرى من المؤلفين المجددين ، وذلك بتقرير كتبهم للتدريس بعد النظر فى كفايتها ، فهذا يبث فى روع المدرسين روح العمل ويكون لنا من ورائه ذخر علمى عظيم .

الاشتراكات المقسطة

حضرات المشتركين من دفعوا ربع قيمة الاشتراك فنلفت نظرهم إلى دفع قسط جديد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

— ٤ —

حظ الأمم من النبوة قديما وحديثا

يحيط بتاريخ النبوات كثير من الغموض ، فان من اشتهر منهم فى التاريخ العام ، وعُرفت سيرهم ، وضُبطت تواريخهم ، عدد لا يذكر بجانب من لم تُعرف أسماؤهم ، ولم تصلنا أخبارهم . وقد دلت العلوم الاجتماعية على أن الجماعات البشرية فى جميع أدوار وجودها صدرت فى حياتها الدينية عن تعاليم مقررة أفضى بها إليها رجال منها ، أطلقت عليهم ألقابا مختلفة من كهنة و بطارقة وموابذة وملهمين ، بل وآلهة وأنصاف آلهة ظاهرين بأجساد بشرية الخ ، ولكن بسبب الظلمات المخيمة على تواريخ تلك الأمم لم تعرف أسماء أكثرهم ، ولم يمكن نقد ما أتوا به من التعاليم ، وتقدير قدرها من الناحية الفلسفية ، وتمييز من يصح أن يحشر منهم فى زمرة الأنبياء ، لسلامة تعاليمهم من ضلالات الوثنية ، ومن يتعين الزج بهم فى قبيل الدجاجلة والمشعوذين ، وطلاب السلطان والمال باستغلال جهل الجاهلين .

ليس هذا موطن تحقيق تاريخى لتمييز الأنبياء الصادقين من الأنبياء الكذبة ، ولكننا نلفت نظر القارئين الى حقيقة ذات دلالة بعيدة المدى فى فهم مرمى العاطفة الدينية ، وهى أن العالم كله متمدنه ومتوحشه ملتف حول النبوة فى جميع مظاهرها ، لا تشذ منه جماعة فى أى عهد من عهود التاريخ ، فأينما أجلت بصرك شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا الى القرن العشرين ، وفيما قبل التاريخ ، فلا تصادف غير أمم وشعوب وقبائل معوّلة فى توفية أخص حاجاتها الروحية على النبوة . فهل هذا التعلق الشديد بالنبوة أثر من آثار السذاجة الانسانية الأولى توارثتها الأجيال فأصبحت حاجة نفسية لا بد من توفيتها على حال من الأحوال ؟

يقول الماديون : نعم ، ويقول الاعتقاديون : لا . فأى الفريقين أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ؟

الماديون بحكم أصولهم مضطرون لإنكار النبوة واعتبارها شعوذة وتدليسا وخداعا ، ولحسبان الملتفين حولها سذجا مخدوعين ، وغفلا مأفونين .

هذا تعليل قليل الكلفة ، سائغ فى نظر الذين لا يهمهم تحقيق الأمور ، ولكن الذى أوتى نعمة التثبت يصعب عليه أن يتحلل من النظر فى أمر جلل كأمر النبوة بكلمة يلفظها لا يعرف مبلغها من الصحة .

كل الأنبياء مشعوذون مزورون ، وجميع الخلق سذج مأفونون ! لو صح هذا لكان أفظع طعن يمكن توجيهه الى الجبلة الانسانية ، والى الطبيعة التى كونتها فى رأيهم على هذه الشاكلة . فان كائنا تستوعب حياته نفسية من هذا الطراز ، ويتسلط عليه وهم بهذا القدر من الخطر ، ويستمر مئات الألوف من السنين فى هذا الضلال العقلى ، يعتبر وجوده شؤما على الأرض التى يعيش عليها ، و يعد أفضل منه الحيوان الأعجم بما لا يقدر .

هنا يمكن أن يقول لنا واحد من أنصار هذا الرأى : رويدك قليلا ! أليست القبائل والجماعات قد تناحرت ولا تزال تتناحر لنصرة صنم من الأصنام ، أو لتأييد وهم من الأوهام ، فهل الأصنام والأوهام مما يجب أن يتعصب له الى هذا الحد ؟ وهل تاريخ الحروب الدينية إلا سلسلة من هذه الاندفاعات الجنونية ، وراء الأوهام النفسية ؟ فان شئت أن تنظم الدرارى مدحا فى تقديس هذه النفسية البشرية ، فافعل ، ولكن لا تنتظر أن يخفف النقد العلمى من شدته لأى اعتبار من الاعتبارات .

فأجيبه بقولى : لقد قربت لى البعيد ، وكفيتنى مؤنة سرد الأسانيد الدالة على سمو النفسية الانسانية ، واسترخاصها حياتها الأرضية فى سبيل غرض لا يمت الى المتع الجسدية بسبب . إنك نظرت الى السبب المباشر للتناحر ، فوجدته ماثلا فى نصرة صنم من الأصنام ، أو وهم من الأوهام ، ولكنك لم ترتفع عن هذا الحضيض لتشرف على الدوافع الحقيقية الباعثة على تأييد الأصنام أو الأوهام . إنك لو فعلت لرأيت أن الباعث همّ بعيد الشأو ، عالى القدر ، سام السمو كله ، وهو اختراق الحجب الأرضية ، الوصول الى عالم الروح المحض ، والخير البحت .

لا يعيب هذا الاندفاع الانسانى أن يكون باعثه المباشر صنم أو وهم ، فقد يكون منشؤهما جهلا أو سذاجة ، وهما عرضان يزولان وتحل محلهما عقائد صحيحة ، وقد تعود فتتحرف تلك العقائد الصحيحة ، وهلم جرا ، ولكن الباعث الذى يهيب بالانسانية الى الجهاد فى سبيل الروح دائب على العمل ، لا يمل ولا ينى فى دور من الأدوار .

يجب أن يجرد هذا الباعث الروحانى من كل مايلابسه من عقائد باطلة ، وضلالات عارضة ليمكن رؤيته على حقيقته ، وتقدير طبيعته ، ومعرفة مدى تأثيره فى ترقية النوع البشرى وتحريره من بهيميته .

[illegible] أيت فى خلال تاريخ النوع البشرى أن هذا الباعث العالى حمله على تقييد [illegible]

وتهذيب أخلاقه ، فعد العدل فضيلة ، والظلم رذيلة ، واعتبر البذل محمدة ، والامساك مذمة ، وعد التواضع مكرمة ، والتكبر مأثمة ، وحسب المساواة مفخرة ، والتميز معرة ؟

فان قلت : كل هذا أوجبه على قول الداروينيين ما غرس فى طبيعة الانسان من غريزة الاجتماع ، فهى التى دفعته قهرا للتخلق بما يحفظ وجود الجماعة من الأخلاق الفاضلة ، فتخلق بها قهرا ، وبالإدمان عليها ، كما تقتضيه حاجة الاجتماع ، انطبعت فى ضميره ، فاذا نظر إليها المتأمل السطحى ظنها صفات فطرية علوية ، وما هى فى حقيقتها إلا ضرورات اجتماعية اقتضتها الطبيعة الأرضية ولا أثر للروح فيها .

نقول : كل هذا الكلام معلول ، فان الاجتماع ليس بحاجة من الأخلاق إلا للقدر الذى عليه النمل والنحل والذئاب والفيران ، وهذه الأنواع كلها ولدت منطورة على ما يحفظ وجودها الشخصى والنوعى بدون كسب ، فكان يكفى الانسان أن يولد مفطورا على مثلها ويقف منها حيث وقفت ، أما وهو لم يقف منها عند حد مايستدعيه الاجتماع ، فتراه يزيدها كل يوم تهذيبا ، عاملا على إنشاء جو أدبى حوله يباين به مادية الطبيعة ، حتى إنه ليحاول أن يخرج نوعه من سلطانها ليعيش فى ظلال آدابه وأخلاقه ومدنيته ، بمعزل عن خشونتها وصرامتها ، فان هذا كله لايستدعيه قيام الاجتماع ، ولا هو بحاجة اليه . ألست ترى ألوفا مؤلفة من الجماعات قائمة فى الأرض على أخلاق السباع والذئاب والدببة ؟ فأى عامل دفع الانسان لما وراء حاجة الاجتماع ، فدرس الأصول حتى قتلها خبرا ، وسرى فى سرائر المبادئ حتى لم يدع جنوا من إحنائها يمكن أن تنزوى فيه حقيقة حتى مد مسباره اليها ، وسلط عليها من تدبره نورا كشافا فأدركها ، ولم يأل فى إضافة مايجده من أسرار العدل والانصاف ، وخفايا الآداب والأخلاق ، الى ماسبق له تسجيله منها ، حتى أصبح لديه كنز منها اتخذه مثلا أعلى لا يزال يحن اليه ، ويود أن يصيبه تطور أدبى جديد فيضطره الى التعويل عليه .

ماهذا الحنين من الانسان إلى المثل الأعلى من الاجتماع ، وفيه تقييد للحرية ، وتحديد للحقوق ، وتكاليف على الأقوياء ، وواجبات على الممتازين ، وحقوق للضعفاء ؟

ما هو العامل النفسانى السامى الذى يجعل الانسان يتمنى أن لو أصبح الناس كلهم متساوين فى الحقوق والواجبات ، فى مجتمع لا أثر فيه للاعتبارات والامتيازات ، بل ماهو ذلك العامل السماوى الذى يحبب بعض النفوس فى الايثار ، فينزلون لإخوانهم عما يملكون ، وليس فى القانون ولا فى حاجات الاجتماع مايدعو اليه ؟

إن قلت : إن كل هذا دعا إليه التوسع فى توفية حاجات الاجتماع ، قلت لك : فان كثيرا من الناس فكروا فى الزهد حتى كان أحدهم يكتفى من الغذاء ببضع تمرات أو تينات ، ومن اللباس بعباءة يجمع حافتيها بخلال ، وآخرين آثروا اعتزال الجماعة ضنا بأنفسهم على موبقات

الاجتماع ، وغيرهم شغلوا أنفسهم بالعبادة حتى قد لا تصادف الواحد منهم إلا راكعا أوساجدا ، فهل كان هـذا كله من توليدات غريزة الاجتماع التى يقول بهـا الدارونيون وهى لا تمت إلى الاجتماع بأدنى سبب ، بل تنافيه فى نظر الـكثيرين من العلماء ؟

تأييد الفطرة الانسانية لتعاليم الأنبياء :

ماذا حمل الأنبياء للأمم من التعاليم ، وأى شىء أفادوه المجتمعات المختلفة فى خلال العصور ؟ إن بضاعة الأنبياء معروفة فى كل زمان ومكان ، وهى تلطيف خشونة الطبيعة البشرية ، وقهر ميولها البهيمية ، وإدخالهـا فى حدود الاعتـدال ، وتوجيه الشخصية الانسانية وجهة الخير والسمو والصلاح ، وذلك بلفت نظر الناس إلى أن للـكون صانعاً قديرا حكيما ، وأن لهم روحا قدِّر لها الخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وأن العدوان الذى يرتكبه الانسان فى حياته الأرضية ، ضد الآداب والحقوق الخاصة والعامة ، يحاسب عليه فى تلك الحياة ، وقد دان الناس كلهم لهذه العقائد حتى لم يصادف قديماً ولا حديثاً أمة بغير دين ، فعلام يدل هـذا العموم والشمول ، حتى والانسانية فى أحط الأدوار ؟

ألا تدل على أنها مطبوعة على الانعطاف اليها ؟ وهل فى الدين إلا واجبات وتـكاليف وإيثارات وتضحيات ؟ فلو كان الانسان طينا محضا لما هوى الى هـذه التعاليم ، وللفظها كما يلفظ كل ما لا يشعر بميل فطرى اليه .

وقد بلغ نحو ألف وخمسمائة مليون نفس اليوم من المدنية شأوا لم تكن تحلم به الجماعات التى سبقتها فى الوجود ، ومع هذا فهى لا تزال تدين بنبوة أربعة أو خمسة رجال مضى على أقربهم عهدا نحو أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أنبه الماديين ، رغما عما كتبوا فى صرف الناس عن هذه النبوات ، أن يحولوا عنهم غير عدد محصور من القارئين . مع أن فى تعاليم بعض هؤلاء الأنبياء ما يكرِّه الى النفوس الحياة الأرضـية ، ويَعُد المتع الجسدية رجسا من الأرجاس ، فإن فيهم ، وليس من أقلهم أتباعا ، من يقول إن جميع المطالب البدنية أقذار لا تليق بكرامة الانسان ، وأن ليس ينجيه منها إلا الفناء فى الله . وفيهم من يقول ، ولا يقل عن سابقه فى عدد الأشياع : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن سرقك رداءك فأعطه قميصك .

فما السر فى بقاء هذه الأديان الى اليوم سائدة على الأمم المتمدنة رغما عما أصيب به أكثرها من التحريف والتصحيف والتأويل ؟ السر غلبة عاطفـة علوية على الفطرة البشرية الأرضية ، فهى تدين بهذه الأديان على ما فيها لأنها تتنسم من خلال تعاليمها عَرف الوحى السماوى الذى تولاها فى طفولتها ، وقومها فى شبيبتها ، وعزَّاها فى شيخوختها ، ولا يزال ينفحها فى سويداء فؤادها بما يربِّها ويكملها .

العوامل النفسية الخفية فى حياة النبوات :

يشتد الكتاب الماديون فى ضرورة إبعاد فكرة النبوات من العقلية الانسانية ، بحجة منافاتها للعلم من ناحية ، وعدم حاجة الاجتماع اليها من ناحية أخرى . ويغفلون عن أن العلم اليوم قد أثبت النبوات بأدلة لا تقبل النقض ، وماحيلتنا فيمن جمدوا على ماهم عليه ، ولم يبالوا بما جد فى العلم من الفتوحات التى أقامت ألوفا من العلماء وأقعدتهم فى أربعة أرجاء المعمور ، ولا تزال تفعل فى النفسية الفلسفية الأفاعيل ؟

وأما زعمهم بعدم حاجة الاجتماع الى النبوات فينم عن جهل عظيم بطبائع الاجتماع ، فإن المجتمع كالجسم الحى ينفى بقواه الذاتية كل ما ليس به حاجة إليه . أما وهو لم ينف التعلق بالنبوات رغما عن جميع الصوارف التى تستخدم لصرفه عنها ، فذلك يدل على أنه لايزال به حاجة إليها . فيجب على كل باحث فى أطوار الانسان أن يدرك سر تمسكه بها رغما عن جميع الشبهات التى أثيرت حولها . وإذا شئت أن نفضى إليك بما انتهى إليه علمنا فى هذا الشأن فاليك :

لا جدال فى أن العلوم والفنون قد آتت الانسان بكل ما هو فى حاجة إليه من مقومات الحياة ، وهى دائبة على إيتائه منها بما لا يدع له معها حاجة الى المزيد ، ولكنها قد عجزت الى اليوم عن إيتائه بأعز مطلوب لديه ، وهو (العزاء) الذى لا بد منه حيال ما ينتابه من صروف الأيام ، وكوارث الحدثان فى الأهل والنفس والمال .

ماذا يغنى الانسان أن يحاط من طُرَف الصنائع ، وتُحَف الفنون ، وبدائع المخترعات بما يجعل حياته طيبة هنيئة ، وبما يحببه فى استبقائها واستدامتها ، ويزيده تشبثا فيها ، وولوعا بها ، وهو لا يلبث أن يصاب له عزيز عليه بمرض فيعجز عن علاجه نطس الأطباء ، ثم يختطفه الموت من جانبه فلا تقوى قوى العالم كله على تخليصه من أنيابه ! فإذا شيعه الى مثواه فى الأرض ، وعاد يبكيه ويندبه أياما وشهورا ، وبدأ يعاود حياته العادية فى وسط هذا النعيم المدنى العظيم ، بوغت بكارثة أخرى من هذا النوع فى عضو آخر من أعضاء أسرته ، أو أصيب هو بمرض خطير يفقده لذة العيش ، ويجعله حيا كميت ، لا يستطيع حراكا ولا همسا ، ويتراءى له الموت كاشرا عن أنيابه بين لحظة وأخرى ، ويدخل إليه الأساة ويخرجون فلا يستطيعون إسعافه بما يعيده الى حالته الأولى أو ما يقاربها ، وقد يكون فى عنفوان شبابه ، وريِّق صباه !

هبه قد عمر حتى بلغ من السن عتيا ، فما الذى يعزيه عن شبابه الذى تصوحت زهرته ، وأخلقت ديباجته ، وعن قواه التى خارت حتى أصبح لا يستطيع النهوض ، وطالعه وجه الموت شاحبا مزعجا فى كل لحظة من وجوده المتعب المثقل بالهموم ؟

إن هذا العزاء للانسان حاجة لا تعدلها حاجة عنده ، وقد حاول أن يجدها فى كل ماتسمح له به العلوم والصناعة فعجزت ، وعمد الى صرف عقله عنها بالصهباء والمزاهر والدفوف ففشلت ، بل زادته إيغالا فى الهموم !

هذه الحاجة الماسة الى العزاء وجدها الانسان فى تعاليم النبوات ، فهى التى تتولاه وهو أشد ما يكون احتياجا الى كلمة طيبة توجه اليه ، وأمل — ولو ضعيفا — يعتمد عليه ، فاضطر أن يبقى على هذه التعاليم ، متربصا بالعلم أن يفتح عليه بما يؤيدها ، وقد ظهرت بوادر هذا الفتح بما اتفق له من بحوث تجريبية فى عالم الروح ، فاكتسبت بذلك تعاليم النبوة سلطانا جديدا على العقول ، وكلما تقدمت تلك البحوث ازدادت مرتبة النبوة إشراقا ، مصداقا لقوله تعالى : « لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز »

محمد فريد وجدى

كيف كان مجاذيبهم

يحفظ تاريخ الأدب العربى أخبارا لبعض المجاذيب فى زمان ازدهار الدولة الاسلامية ، منهم بهلول وعليان وسعدون وسمنون وشقران وغيرهم وقد عزيت اليهم أشعار ، وأقوال ، ونحن وإن كنا نشك فى صحة نسبتها اليهم إلا أننا نوردها على سبيل الفكاهة .

من ذلك من رواه عيسى بن على قال : رأيت سعدونا والصبيان يرمونه بالحجارة فصرفتهم عنه . فقال لى بعض الصبيان : أنه يزعم أنه يرى ربه . فقلت له ما تسمع مقالة الصبيان . فقال يا أخى مذ عرفت الله ما فقدته ثم قال :

زعم الناس أننى مجنون ... كيف أسلو ولى فؤاد مصون
علق القلب بالبكا فى الدياجى ... وهو بالله مغرم محزون

وقال اسماعيل بن عطاء مررت بسعدون فلم أسلم عليه فنظر الى وقال :

يا ذا الذى ترك السلام تعمدا ... ليس السلام بضائر من سلما
إن السلام تحية مبرورة ... ليست تحمل قائليها مغرما

ومن شعر سعدون أيضا :

لئن أمسيت فى ثوبى عديم ... لقد بليا على حر كريم
فلا يحزنك ان أبصرت حالا ... مغيرة عن الحال القديم



سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » :

رأينا بعد تفسير هذه السورة الشريفة بما يسرّه الله تعالى أن نجيب داعى المقام وننتهز هذه الفرصة فنذكر للقارئ الكريم بعض ما جاء عن فلاسفة أوربا مما يناسب ما نحن فيه ، علما بأن كثيرا من أبناء هذا العصر يتأثرون بذلك فضل تأثر . وعلى كل حال فقد قالوا قديما : « والفضل ما شهدت به الأعداء » :

ذكرنا لك فى بعض ما كتبناه أن العقيدة بالله فطرية ضرورية ، لا يلهيك عنها إلا الغفلات المتراكمة ، أو الجهل الذى يفوق جهل الحيوان ، فان الحمار مثلا إذا ضرب التفت ليعرف الضارب ، لأنه لا يتصور أن هناك ضربا بلا ضارب أو أثرا بلا مؤثر . فمن رأى هذا الوجود وما اشتمل عليه من حكم وأسرار وآيات تدهش الأنظار وتحير الأفكار ، ثم لم ينتقل منها الى الإحساس بعظمة الواحد القهار المتكبر الجبار ، فهو أجهل من ذلك الحمار ، بل أحط رتبة من الأحجار التى تسبح خالق الليل والنهار : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فسبحانه من إله عظيم ، ورب حكيم .

وبالجملة فمن يتأمل فى هذا العالم وما هو عليه من الوضع المنظم والترتيب المحكم الذى وضعه البارئ الحكيم لكيفية التوالد وتكاثر الأجناس مع تباينها ، وتشابه أفراد الأنواع مع مزيد كثرتها ، وتضامن جميع المخلوقات علويها وسفليها وصغيرها وكبيرها مع مافيها من الحكم المدهشات ، وترتيب أنواع الكائنات ، وارتباط العلل بالمعلولات ، وضرورة خدمة بعضها لبعض وما أودع فيها من القوى المختلفة والأسباب المتباينة ، وما تشاهده كل وقت من إخراج الحى من الميت والميت من الحى - من نظر فى ذلك كله علم أن جميع الكائنات معجزات إلهية تفوق المدارك البشرية ، وتنطق بعظمة الله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير « إنّ فى خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت » « فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » الى آخر ما جاء فى القرآن وقام عليه البرهان . ولندع ذلك فهو معلوم للقارئين أو لجميع المؤمنين .

ولنتل عليك من كلام الفلاسفة الأوربيين فى تعظيم الله وبيان كبريائه فنقول :

قال الفيلسوف باسكال : « إذا أردنا أن نقرب لك امر الخالق عز وجل فتصور كرة لا نهاية لها مركزها فى كل مكان ومحيطها ليس له مكان » . وهنا يحسن أن تقرأ قوله تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » . « فأينما تولوا فثم وجه الله » . « وهو معكم أينما كنتم » « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » . وقال الفيلسوف اليونانى أبيكتيت : « العقيدة بالله باستحضار عظمته يجب أن تكون مستمرة كاستمرار التنفس » . وقال شوتا نريان : « لم يتجرأ على نكران الله غير الانسان » . وقال ش . جوتييه : « الله هو الكائن الذى لا يدرك ولا يوصف ومع هذا فهو ضرورى » ويقول : « إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا » . وقال لامارتين : « إن ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضى » . أقول : وأكثر المحاكم الآن خالية من ذلك القاضى . وقد أذكرنى هذا قول القائل

عندى ضمير لست أرضى بيعه بجميع ما فى الأرض من أموال
وهنا ضمائر لو أردت شراءها لأخذت أغلاها بربع ريال

وقال بيلوتان : « الله هو الحياة العامة فهى الأصل والمرجع لكل حياة »

وبعد : فيحسن أن نورد براهين أشهر الفلاسفة من القدماء والمحدثين على وجود الخالق عز وجل فنقول :

قال المسيو بوستيت فى كتابه المسمى « التذكرة » فى تاريخ البرهان على وجود الخالق :

« اعتقاد الأفراد والنوع الانسانى بأسره فى الخالق اعتقاد اضطرارى قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الانسان بذاكرته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يجد الساعة التى [illegible] فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التى نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار فى [illegible] ; فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، [illegible]

الحالة الأولى يرينا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجـود قدرة خالقة وحافظة للعالم وحاكمة بين الناس بالعـدل تـكافئ على الحسنة والسيئة سواء فى هـذه الدنيا أو فى الحياة المستقبلة » . وقد قرأنا بحثا كتبه الفيلسوف الـكبير « مومنيه » يثبت بهوجود الخالق ، قال :

« إن افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الـكون خلق بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت الى تكوين رجل ، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكوّن كائنا آخر مماثلا له تماما فى الشكل الظاهرى ومباينا له فى التركيب الداخلى وهو المرأة ، لأجل عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها » ثم قال : « أليس يدل هذا وحده على أن فى الوجود خالقا مريدا مختـارا أبدع الـكائنات ونوّع بينها ، وغرز فى كل نوع غرائز ، ومتعه بمواهب يقوم بها أمره ويرتقى عليها نوعه » ؟

أقول : أشار القرآن الى ذلك بما يملو تلك البراهين المنطقية والأساليب الجدلية ، فذكر ذلك البرهان فى قالب يستهوى المدارك والأرواح معا ، فهو أملك للوجدان من كل برهان ، وبيّن أنها آية تسترعى الأنظار ، وتستهوى العقول والأفـكار ، فقال : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ولا تنس أن للقرآن فى الاستدلال على وجود الله تعالى ما يفوق كل دليل ، وله فى ذلك سبيل هو أوضح من كل سبيل ، مثل قوله تعالى : « أم خلقوا من غـير شىء أم هم الخالقون » وكقوله « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » الى غير ذلك مما لا يخفى عليك . وقد قلنا : إن القرآن ينطوى على شىء كثير مما يعمل فى النفوس أكثر مما تعمل البراهين المنطقية والمحاولات الجدلية .

ويحسن بنا وقد تصدينا للنقل عن الفلاسفة أن نذكر لك هنا المحادثة التى حادث بها سقراط أرستوديم بخصوص الألوهية ، وذلك أنه علم أن أرستوديم هذا ينكر الألوهية إنـكارا باتا وقد غلا فى ذلك ، فقال له :

قل لى يا أرستوديم : أيوجد رجال تعجب بهم لمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أرستوديم : نعم

سـقراط : أخبرنى عن أسمائهم

أرستوديم : أعجب فى الشعر الروائى « بهومير » وفى صناعة التماثيل ببوليكتيت ، وفى التصوير بزوكسيس

سـقراط : أى الصناع فى نظرك أولى بالإعجاب : الذى يصور صورا بلا عقل ولا حراك ، أم الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أرستوديم : وحق « جوبتير » يريد الزهرة ـ أن أولاهما بالاعجاب هو الذى يبدع الـكائنات المتمتعة بعقل وحياة إذا لم تكن هذه الـكائنات من نتائج الاتفاق

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج الاتفاق أو من نتائج الادراك : التى غايتها ظاهرة ، أم التى منافعها مشكوك فيها ؟

أرستوديم : من العدل أن أقول : إن الكائنات ذات النفع هى أولى بأن تنسب الى عمل الإدراك

سقراط : ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم ما لديهم من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر ، والآذان للسمع ؟ وماذا كانت تجدينا الروائح إن لم تكن لنا أنوف ؟ وهل كنا نشعر بمرارة المر وحلاوة الحلو إن لم تكن لنا ألسنة تميز بين هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيطة أن تكون الأعين لرقتها وسهولة تأثيرها قد متعت بالأجفان التى تقفل وتفتح بالارادة وتنسدل على العينين وقت النعاس ، وقد حليت أطرافها بأشبه شىء بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب قد وضعت لتمنع تساقط العرق إليها ، وأن الآذان خلقت قابلة لتمييز جميع الأصوات بدون أن تمتلىء قط – الى أن قال : كل هذه الأعمال تدل على تبصر واحتياط ، الى أى شىء تعزوها : للاتفاق أم للادراك ؟

أرستوديم : لا وحق « جوبتير » يريد الزهرة – هذه الأعمال إذا نظر إليها الانسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول فى الميل المودع فى النفوس للتناسل ، وفى الحنان المخلوق فى قلوب الأمهات للهيمنة على فلذات أكبادهن ، وفى الخوف الموجود فى تلك الكائنات من العطب ؟

أرستوديم : لاشك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن قرر خلق الحيوان على ما تقتضيه الحكمة .

سقراط : ألعقل أنك قد تحليت بعقل وإدراك وأنت كما تعلم لا تقارن بشىء من الوجود وأن هذه المخلوقات كلها المتمتعة بادراك مثلك لا تحتاج لعقل يرتب علاقاتها ويقيم أمرها على قاعدة النظام ؟

أرستوديم : أنا أنكر ذلك وحق « جوبتير » ، فانى لا أرى ذلك الصانع كما أرى الصناع من الناس .

سقراط : إنك لا ترى كذلك روحك التى تتسلط على أعضائك ، فهل تستطيع أن تقول إن جميع أفعالك صادرة بلا عقل ولا إدراك ولكن بالاتفاق ؟ !

كانت نتيجة هذه المجادلة اعتراف أرستوديم بوجود الصانع .

ولنقف هنا اليوم وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء



الرهن

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرهن يركب بنفقته إذا كان مرهونا، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة» وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهودى طعاما ورهنه درعه» رواهما البخارى.

يتعلق بشرح هذين الحديثين أمور: (١) بيان معنى الرهن (٢) شروطه (٣) حكم الانتفاع بالمرهون سواء كان أرضا أو دارا للسكنى أو حيوانا أو غير ذلك (٤) لماذا رهن النبى صلى الله عليه وسلم درعه عند اليهودى مع أن المسلمين كانوا يومئذ كثيرين وهو كان سيدهم بدون منازع؟

(١) يطلق الرهن فى اللغة على الثبوت والدوام، ومن ذلك قولهم: نعمة راهنة بمعنى دائمة وثابتة، كما يطلق على الحبس، ومنه قوله تعالى: «كل نفس بما كسبت رهينة» أى رهن وحبس بكسبها بحيث لا ينفك عنها عند الله تعالى سواء كان خيرا أو شرا. والمراد المبالغة فكأن النفس هى عين الرهن، وقد يطلق على نفس العين المرهونة، فاذا وضع شخص عينا عند شخص آخر لتنوب مناب ما أخذه منه من مال أو غيره فانه يقال لتلك العين رهن، مثلا إذا اقترض شخص من آخر مائة جنيه ووضع عنده دارا لتنوب مناب الجنيهات فانه يقال لهذه الدار رهن. وكذا إذا أخذ منه ناقة ووضع عنده ثورا لينوب مناب ناقته، فانه يقال لهذا الثور رهن. وأما معنى الرهن فى الشرع فهو: «جعل عين لها قيمة مالية فى نظر الشرع وثيقة بدين بحيث يمكن أخذ ذلك الدين أو أخذ بعضه من تلك العين». وهذه العبارة معناها ظاهر معروف عند الناس، وإن كان فى بعض ألفاظها خفاء يفهمه طلبة العلم، وذلك لأن الغرض منها أن يستدين شخص من آخر دينا ويجعل له فى نظير ذلك الدين عقارا من أرض أو نحوها، أو حيوانا محبوسا تحت يده حتى يقضيه دينه، ذلك هو المعنى المراد، فمعنى قولهم: وثيقة: شيء متوثق به، مأخوذ من وثق كظرف إذا صار وثيقا محكما، وذلك لأن الدين أصبح بحبس هذه

العين محكما لا يسع المدين إلا سداده أو تضيع عليه هـذه العين كلها أو بعضها بحسب ذلك الدين . هذا وقد اصطلح الفقهاء على تسمية مالك العين (راهن) ، وتسمية صاحب الدين الذى يأخذ الرهن فى نظير دينه (مرتهن) ، ومن هذا تعلم أن العين المرهونة قد تسمى رهنا وصاحبها الذى رهنها يسمى راهنا ، وصاحب الدين يسمى مرتهنا .

(٢) أما شروط صحة الرهن ، فمنها العقل ، فـلا يصح أن يكون أحـد المتعاقدين (الراهن أو المرتهن) مجنونا ، وهذا الشرط متفق عليه طبعاً ، ولا بد منه فى جميع العقود . ومنها البلوغ ، فلا يصح أن يكون أحدهما صبيا غير مميز ، لأنه فى حكم المجنون باتفاق أيضاً . أما الصبى المميز فانه يصح أن يكون راهنا أو مرتهنا لأنه يعرف معنى المعاملة ويدرك ما يترتب عليها من منافع ومضار ، ومع هذا فان عقده لا ينفذ إلا إذا أقره الولى ، وفى ذلك من الحيطة ما لا يجعل بين عقد وليه وعقده فرقا مادام المرجع فى النهاية للولى ، ولذا اتفق الأئمة على هذا ما عدا الشافعية ، فانهم هم الذين قالوا : إن رهن الصبى لا يصح ولو كان مميزا ولو أذنه وليه . وعلى كل حال فالخلاف فى هذه المسألة هين . ومنها أن لا تكون العين المرهونة غـير معينة بحدودها ، فلا يصح رهن المشاع سواء كان عقارا أو عروض تجارة ، أو حيوانا ، أو غير ذلك ، وهذا الشرط انفرد به الحنفية ، وخالفهم غيرهم ، فقالوا إنه يصح رهن المشاع . مثلا إذا كان لشخص دين على آخر ، فله أن يرهن له بدينه جزءا من داره المملوكة له مقابل ذلك الدين سواء كان شريكا له فى هذه الدار أو لا ، فاذا ملك شخصان دارا فان لأحدهما أن يرهن نصيبه المشاع لشريكه كما إذا كان يملكها وحده ، وكذا إذا كان يملك شخص تجارة من قمح أو عسل أو نحو ذلك ، فان له أن يرهن جزءاً مشاعا منها ، مثـلا إذا كان لشخص محل تجارة (دكان) به بضاعة من قماش أو غيره ، فله أن يرهن بعض هذه البضاعة كنصفها أو ثلثها مشاعا ، ومثل ذلك ما إذا كان يملك جملا أو حمارا ، فان له أن يرهن بعضه مشاعا ، وقد عرفت أن هذا الحـكم لم يخالف فيه سوى الحنفية ، فانهم قالوا أنه يجب أن يـكون المرهون متميزا ، فلا يصح رهن المشاع سواء كان يحتمل القسمة أو لا ، وسواء رهنه لأجنبى أو لشريكه ، فلو كان لشخص دين على آخر ، وكان شريكا له فى داره أو فى أرض زراعية ، فانه لا يصح له رهن نصيبه لشريكه إلا بعد القسمة وفرز نصيب كل منهما ، ومنها أن تكون العين التى يراد رهنها موجودة وقت العقد ، فلا يصح رهن الثمرة التى لم توجد ، فاذا رهن شخص ثمر حديقته قبل وجوده فانه لا يصح لأن مالـكه لا يقدر على تسليمه وقت العقد ، وهذا متفق عليه بين ثلاثة من الأئمة ، وخالف المالـكية ، فقالوا إن رهن غير الموجود فعلا جائز ، وإن كان لا يجوز بيعه ، على أنهم اختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم إذا كان المرهون معـدوماً وقت العقد بالـكلية فانه لا يجوز رهنه ، وذلك كثمر الحديقة قبل بروزه (طرحه) ، أما إذا برز ولو كان صغيرا فانه يجوز رهنه .

وبعضهم قال يجوز رهن المعدوم بالكلية . فلو رهن شخص ثمر حديقته سنين كثيرة ، فان الرهن يصح ، وكذلك إذا رهن ولد الناقة وهو فى بطنها فانه يصح . ومحل هذا الخلاف عندهم ماإذا علق الرهن على عقد آخر من عقود البيع أو القرض . مثلا أن يقول شخص لآخر بعتك هذه الناقة بثمن كذا الى أجل كذا بشرط أن ترهن لى ثمر حديقتك سنتين أو أكثر أو أقل أو يقول له أقرضتك عشرين جنيها بشرط أن ترهن لى ما تنتجه غنمك سنة أو سنتين ، فهذا الرهن هو المختلف فى صحته عند المالكية . أما إذارهن ثمرالحديقة ، أو ولد الناقة التى فى بطنها بدون أن يعلقه على شيء آخر فانه يجوز بلا خلاف عندهم . فاذا رهن ثمر الحديقة قبل أن يظهر صلاحه فانه يصح ، وينتظرحتى ينضج ، ثم يأخذه إن لم يرد له دين الرهن .

وقد يقول بعض الناس : ما حكم بيع ثمار الحدائق والنخيل قبل بروزه (طرحه) ، فإن هذا الحكم كثير الوقوع بين الناس ، وقد اعتاد المسلمون أن يتبعوا فى معاملاتهم القوانين الوضعية بدون نظر الى ما نقله أئمة الدين من القواعد والأحكام ، وفى ذلك من الجراءة على هجر قواعد الاسلام ما لا يخفى؟ والجواب : أنه يجب على المسلمين أن يستمسكوا فى جميع معاملاتهم بقواعد دينهم ، ويصرفوا أنظارهم عن القوانين الوضعية التى قد تضرهم أكثر مما تنفعهم . أما حكم بيع الثمار قبل أن يظهر صلاحها أو قبل (طرحها) فاليك بيانه :

اتفق أئمة المذاهب على أنه لا يصح بيع الثمار قبل أن تبرز ويظهر صلاحها ، وظهور الصلاح يكون بأمور قد فصلها علماء المذاهب . منها اللون وهو علامة لصلاح البلح والعناب ، ومنها الطعم كحلاوة القصب وحموضة الرمان ، ومنها النضج ويظهر فى البطيخ والتين فتى نضج فإنه يظهرصلاحه ، ومنها الاشتداد كالقمح والشعير ، فمتى قوى حبه واشتد فقد ظهرصلاحه . ومنها الطول والامتلاء كالملوخية والفصولياء واللوبياء . ومنها انشقاق الغلاف كالقطن والجوز . فهذه الأوصاف علامة ظهور الصلاح عند الشافعية . وقد وافقهم المالكية فى كثير منها فقالوا إن ظهور صلاح البلح والعناب باصفراره أو احمراره ، ويلحق به القاوون والحرش والعجور (العبد اللاوى) والدميرى (الشهد) ، وبعضهم يقول إن هذه الأنواع لا يلزم فيها الاصفرار بالفعل بل يكفى أن تقرب من الاصفرار ، والأمر فى ذلك سهل ، أما البطيخ فظهور صلاحه يكون بتلون لبه بالأحمرار أو الاصفرار ، وعلى هذا فلا يصح بيع البطيخ الذى لونه أبيض إلا إذا كان ذلك اللون طبيعيا له فلا ينافى فى حلاوته. وبالجملة فظهور صلاح الفاكهة عند المالكية مداره على إمكان الانتفاع بها ، ولو بعد قطعها بزمن كالموز فإنه يصح بيعه وهو أخضر لم يستو لأنه يمكن وضعه فى تبن أو نخالة أو نحو ذلك فيستوى ، وما ذكروه من تفاصيل العلامات الدالة على ظهور الصلاح فانما يقصدون منها ذلك . مثلا القمح والحبوب فإنهم يقولون إن ظهور صلاحه بيبسه وانقطاع سقيه بالماء بحيث لوسقى بالماء لاينتفع به ، وهذا معنى إمكان الانتفاع به

لأنه فى هذه الحالة يكون (فريكا) إذا كان قمحا ، ويكون حبا ينتفع به إذا كان غير قمح . أما الحنفية فإنهم يقولون إن ظهور صلاح الثمرة هو أن يؤمن عليها من العاهات والفساد ، فمتى اجتازت الثمرة الأدوار التى تكون فيها عرضة للفساد بسبب الآفات الجوية وغيرها فقد ظهر صلاحها وصح بيعها منفردة عن غيرها ، أما إذا لم يظهر صلاحها بهذه الحالة فإنه لا يصح بيعها منفردة مطلقا . والحنابلة يقولون ظهور الصلاح فى الثمر هو أن ينضج ويطيب أكله ، وفى الحب هو أن يشتد أو يبيض ، وإذا اشترى ثمرة لم يتوفر فيها هذان الشرطان فانه لا يصح شراؤها إلا إذا اشترط قطعها فى الحال .

ومن هذا تعلم أن أئمة المذاهب قد أجمعوا على أنه لا يصح بيع الثمار والفواكه قبل أن تبرز على أشجارها ويظهر صلاحها بحيث يمكن الانتفاع بها . ومن الأسف أن هذا الحكم مهمل تمام الاهمال فاننا نرى أرباب الأملاك يبيعون ثمار حدائقهم ونخيلهم قبل بروزها ولا يبالون بأحكام شريعتهم مع أنها مطابقة للعقل وموافقة للمصلحة من جميع جهاتها ، إذ من الواضح الجلى أن الشجر قد لا يثمر أو قد تتسلط عليه آفة تعدم ثمره قبل أن يشتد وفى ذلك من الضرر على المشترى ما لا يخفى . أما المالك فانه مكلف عقلا وشرعا بأن يبيع سلعة ينتفع بها المشترى ، فليس من قواعد التعامل بين الناس أن يبيع المالك شيئا معدوما أو يبيع شيئا محتمل الوجود والعدم . ولا يقال إن البائع لم يجبر المشترى على الشراء فهو الذى قذف بنفسه فى هذا المضيق ، لأنا نقول إن الشريعة الاسلامية فرضت على البائع أن يتعفف عن التغرير والاجحاف ، فاذا وجد شخص مجازف يريد أن يشترى منه ما لا يحل له بيعه فانه يجب عليه ألا يوافقه على هذا ، وبذلك تتوثق صلات المودة بين الناس ، وتزيد وسائل الثقة بينهم .

(٣) أما حكم الانتفاع بالمرهون فينبغى أن يكون محل عناية ونظر دقيقين . وذلك لأن علاقته بالربا ظاهرة ، فان الذى يقرض شخصا مقدارا من النقدين بفائدة كالذى يرهن عقارا أو نحوه فى نظير مبلغ ثم ينتفع بهذا العقار ، لأن الانتفاع بالعقار هو الفائدة التى يأخذها رب المال على قرض المال . ولهذا منع الشافعية الانتفاع بالمرهون بتاتا ، فليس للراهن أن ينتفع عندهم بالمرهون على أى وجه . وفائدة الرهن فى هذه الحالة هى توثيق الدين وضمانه بحيث إذا لم يؤده الراهن فى الموعد المحدد فانه يجبر على سداده . أما بعض الأئمة فانهم رأوا أن الانتفاع بالرهن يمكن أن يفارق الفوائد الربوية ، فيصح الانتفاع بالمرهون متى أمكن أن يفارق عقد الربا ، وذلك بأن يرهن له العين ويأذن له فى الانتفاع بها بشرط أن لا يذكر ذلك فى عقد الرهن . ومتى أذنه بالانتفاع فانه لا يصح له الرجوع بعد ذلك . وهذا هو رأى أكثر الحنفية ، وقالوا إن لذلك نظيرا ، وهو ما إذا اقترض من شخص قرضا ثم أهدى له هدية ، فانها إذا لم تكن مشروطة فى العقد كانت جائزة . أما إذا اشترطها فى العقد فانها تكون مكروهة فقط . وأظن أن فى هذا الرأى سعة ، لأن الناس يصعب عليهم أن يتركوا أموالهم بدون استثمار خصوصا

فى هذا الزمن الذى غلبت فيه المادة ، وقد تقف مصلحة الشخص المالية إذا لم يرهن جزءا من ملكه يسد به حاجته الضرورية . فرأى جمهور الحنفية فى ذلك مناسب لهذا الزمان بدون نزاع . أما المالكية فانهم أجازوا الانتفاع بثمرة المرهون ونتاجه بثلاثة شروط :

(أحدها) أن يكون الدين بسبب البيع لا بسبب القرض . مثال ذلك أن يبيع شخص لآخر دارا أو أرضا زراعية أو عروض تجارة أو نحو ذلك بثمن مؤجل فيرهن له فى نظير ذلك الدين عينا لها فائدة فإن لصاحب الدين وهو المرتهن فى هذه الحالة أن ينتفع بفائدة هذه العين المرهونة . (ثانيها) أن يشترط المرتهن (صاحب الدين) أن تكون منفعة العين المرهونة له ، فان تطوع له بها الراهن فإنه لا يصح . (ثالثها) أن تكون مدة المنفعة التى يشترطها معينة . وغرض المالكية من ذلك إنما هو الفرار من الربا ، وذلك لأنه إذا أقرضه مائة جنيه مثلا ، ورهن لهبها فدانا وانتفع بغلته ، كان ذلك فائدة ربوية لأن الفائدة فى هذه الحالة تكون فى نظير القرض . أما إذا باع له فدانا بمائة جنيه مؤجلة فقد أصبحت المائة جنيه دين بيع لا قرضا . فإذا رهن منه دارا فى نظير ذلك الدين وانتفع به فإنه يكون جائزا لأن المنفعة ليست مقابلة للقرض ، وإنما هى مقابلة لدين البيع . وقد وافق الحنابلة المالكية على هذا الحكم ، فقالوا إن كان سبب دين الرهن قرضا فانه لا يصح الانتفاع بالمرهون ، وإلا فإنه يصح .

هذا وقد أجاز الأئمة الانتفاع بالحيوان المرهون من لبن وركوب ونحو ذلك فى نظير أكله كما هو منصوص عليه فى الحديث الذى معنا .

(٤) أما كون الرهن جائزا فذلك مما لا خلاف فيه ، فقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع. فقد عرفت فى الحديث الثانى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد رهن درعه عند اليهودى . ومما لا ريب فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قادرا على الحصول على كل ما يمكنه من زخارف الحياة الدنيا وزينتها ، وكان قادرا أن يختص بكل ما فيه مظاهر الملك وأبهة السلطان ، ولكنه رسول الله حقا ، فقد عرف الدنيا حق معرفتها ، وقدر ما يترتب على شهواتها وملاذها حق قدره ، فرفض من نعيمها الزائل وشهواتها المغرية ما لا فائدة فيه للمجتمع الإنسانى . ولهذا كانت تأتيه الأموال أكواما فيوزعها على مستحقيها بدون أن يأخذ منها كثيرا أو قليلا . ولقد روت زوجه السيدة عائشة رضى الله عنها أنهم كانوا يمكثون الشهر والشهرين بدون أن يوقدوا فى بيتهم نارا ، وكانوا يعيشون على الماء والتمر ، فلا عجب أن يرهن رسول الله درعه عند اليهودى لغرضين : أحدهما أنه صلى الله عليه وسلم قد انصرف عن مظاهر هذه الحياة الدنيا وزخارفها مع أنه هو الذى كانت تهتز لذكره عروش القياصرة ، وكانت تجبى إليه الأموال أكداسا مكدسة . ثانيهما للاشارة الى ما عليه الدين الاسلامى من سماحة وتساهل مع أهل ذمته من الكتابيين ، فإنه لا يفرق فى المعاملة بينهم وبين غيرهم حتى فى الأمور الشخصية التى يصح أن تكون مقصورة على المقربين من المسلمين ، ولكنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون قدوة للناس فى قوله وفعله . فعليه الصلاة وعليه السلام ؟

عبد الرحمن الجزيرى

ذكرى
ميلاد الرسول الأكبر
صلى الله عليه وسلم

جعلت الذكرى رمزاً على الأحداث الجسام، ودليلا على التطور فى حياة الأفراد أو الجماعات أو الأمم، أو العالم بأجمعه : كحادث الطوفان الذى عم ماؤه الأرض . وما هذه الحوادث الخطيرة فى التاريخ إلا بمنزلة البوتقة للذهب، فهى تعجم عود الفرد، أو الجماعة، أو الأمة، أو العالم، ليتبين غثه من ثمينه، وخيره من شره، ونفعه من ضره، وعند ذلك تجرى سنة الله فى الوجود، فيقضى على الفساد، ويبقى النافع «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض». وما حادث الطوفان، ومناداة نوح لابنه، وطلب الشفاعة له من الله تعالى وجواب الله تعالى له إلا تمحيصاً لهذا العالم، وتصفية له من عناصر الفساد التى يضطرب بها نظامه، وينقوض بنيانه . ولعمرى لتلك هى المذاهب الحديثة القائلة ببقاء الأصلح، وفناء غيره من مادة هذا الوجود الذى خلقه الله غاية فى الكمال والابداع .

« فتبارك الله أحسن الخالقين »

ونحن إذا تمثلنا من نريد إحياء ذكرى مولده فى هذا اليوم، تواردت علينا آثاره وفضائله على النوع البشرى، آخذة بعضها بحجز بعض . فقد كان بين الناس سادة وكبراء، وعبيد وضعفاء، ومقلدون وزعماء، وكان هذا التفاوت سائدا فى كل شىء من مظاهر الانسانية حتى فى العقيدة نفسها، فقد حرم الانسان من استعمال عقله، والسير فى العقيدة على مقتضى فطرته، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينطق بالحق، ويهدم هذه التقاليد المنافية لطبيعة الكون، والمعطلة لمواهب البشر . قال تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير ». فلم يجعل الاسلام فارقا بين الناس عند الله إلا بالتقوى التى هى القسطاس المستقيم بين المرء وربه، وبينه وبين غيره من بنى نوعه . فمن اتقى الله حق تقواه، راقب حدوده واتبع أوامره، واجتنب منهياته، فسلمت الناس من شره، ومن موبقات جوارحه، فحفظ لسانه عن نهش الأعراض، والسعى بين الناس بالنميمة والافساد، والتقول عليهم مالم يقولوه، وحفظ أذنه من سماع المنكر، وغض بصره عن النظر إلى المحرم، وبالجملة فالمتقى من استعمل مواهبه وحواسه فيما

خلقت لأجله من الأعمال ، والأقوال النافعـة التي تجعل النوع الانساني يفيض بالسعادة ، ويهنأ بالعيش الرغد . وبذلك يفضل الشخص على غيره ، ويحظى بالرفعة عند الله الذي امتحنه بالشهوات ، وزخرف الحياة ومتاعها ، فكان أداة صالحة في البيئة التي مكن له فيها ، وينبوعا يفيض الخير على من بجواره .

ولئن تأملنا أصول القوانين الحديثة ، وما يفتخر به المشرعون ، لوجدنا أسسها ضاربة بقدم ثابتة في شرعة محمد صلى الله عليه وسلم . فمذاهب المسئولية الشخصية ، وما تفرع منها من أحكام ، وما تطبق عليها من حوادث ، قد جمعها القرآن الكريم في آيات محكمة قليلة العدد كبيرة الفائدة قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » ، وقال : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » ، وقال : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » الى كثير من آى الذكر الحكيم التي بينت حدود المسئولية الشخصية في غير خفاء ، وأوضحتها في غير لبس ولا إبهام .

دعا الاسلام الى حرية العقل والتفكير في ظواهر الكون ، وعناصر هذا الوجود رغبة في استخراج خواصه ، وتسخيرها في تدعيم أسس الحضارة الصحيحة التي تحفظ للحياة سعادتها ، وللنفوس طمأنينتها ، قال تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الانسان لظلوم كفار » . ولكن الانسان لظلمه وطمعه في إشباع غريزة التغلب والانتصار وإذلال الضعفاء بقوته ، واخضاعهم لسلطانه ، ما لبث أن عرف بعض أسرار الكون وخواصه ، حتى جعل منها المهلكات والفواجع ، فقد صير البر والبحر والهواء مبعث شرور ، وينبوع فناء ، في أبشع حالة تشيب الولدان وتذهل كل مرضعة عما أرضعت من شدة هولها وعظيم أثرها .

ولو نظر العقلاء الى أمهات الفضائل ، وجماع المكارم ، من مروءة وشجاعة ، ورباطة جأش لوجدوا صاحب هذه الذكرى قد جمعها في أقواله وأفعاله : فقد حبب الفضيلة ودعا اليها ، وحث على مكارم الأخلاق واشتهر بها قبل أن يأتيه الوحي ، أو يرسل الى الناس كافة ، حتى عرف بين أهل مكة بالأمين : لأمن الناس منه في مالهم ، وأعراضهم ، ودمائهم . وإن شئت الدليل القاطع على ذلك فاتل قوله تعالى لنبيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ولقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم حسن الخلق حينما سأله رجل عنه بقوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » ، وأى أخلاق تسمو بالانسانية وتعلو بها من أن يطالب المرء غيره بما سهل عليه في المعاملة بدون تكلف ولا إرهاق ، ويأمر غيره بالمعروف

الذى يجلب الخير ويدفع الشر ، ولا يخوض مع الجاهلين فى لغوهم وثرثرتهم ، دون وصول الى حق . وقد روى عن عكرمة أنه قال لما نزلت هذه الآية : قال صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا ؟ قال يا محمد إن ربك يقول : هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . ثم هو بعد ذلك كله لم يترك أمته دون أن يضع لها أسس التشريع فى معاملاتها حتى لقد روى عنه : « الدين المعاملة » . وقد بين لها العقوبات التى يجازى بها كل من تعدى على غيره فى نفسه أو ماله أو عرضه — وبالجملة : فقد نزل عليه القرآن الذى وصفه الله تعالى بقوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » . وقد بين مجملات آى الذكر الحكيم بسننه القويمة . وروى عنه أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتى » . وقد جاء بجوار هذين الأصلين فى التشريع أصلان آخران ، أولهما : إجماع خواص علماء المسلمين من بعده على رأى فى مسألة لم يسبق الفصل فيها عن طريق الكتاب أوالسنة ، وثانيهما : ثبوت الحكم فى مسألة سبق الفصل فى نظيراتها عن طريق الكتاب أو السنة ، أو الاجماع . وقد اصطلح على تسمية هذا الأصل بالقياس .

وهذان الأصلان هما عماد نمو التشريع ، وصيرورته صالحا للحكم فيما يجد فى هذا العالم من حوادث ، وما يطرأ عليه من تغيير ، تبعا لما يقتضيه نظام الرقى والعمران ، وما تدعو اليه الحضارة والتقدم . وبهذه الأصول التشريعية صلحت الشريعة لكل زمان ومكان .

وقد كانت له مواقع حربية كثيرة ، وغزوات مشهورة وعاها التاريخ ، وحفظ صورها نماذج يهتدى بها القائدون ويقتدى بها المجاهدون ، كغزوة بدر وأحد وغيرهما من الغزوات التى دلت على الشجاعة فى أرقى درجاتها ، والاقدام فى أسمى معانيه — فعزيمة محمد صلى الله عليه وسلم صلبة قوية فى حال انتصاره وهزيمته ويسره وعسره . فاقدامه يوم انتصاره ببدر لا يفوق إقدامه يوم هزيمته بأحد : ففى كلا الحالين كان مجاهدا باسلا يوجه جميع حواسه الى غرضه الأسمى ومقصده الأشرف من التفانى فى سبيل دعوته ، وحراسة رسالته التى بها السعادة لمن تمسك بها ، وأخلص بقلبه لها ، وكانت أعماله الظاهرة صورة صادقة لما تنطوى عليه نفسه دون نفاق أو خداع أو مماراة .

ولقد كان لنفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وما طبعت عليه من أخلاق عالية وصفات طيبة ، أثر فى أصحابه الذين وصفهم بقوله : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فلو قلبنا صفحات تاريخ هؤلاء الأصحاب لوجدنا كل واحد منهم يجمع صفات لو انتظمت لأمة لسمت بها وسيرتها على الصراط المستقيم ، والمنهج القويم . فخلفاؤه الراشدون ما وهنت عزائمهم ، ولا ضعفت قواهم بعد موته . فأبو بكر رضى الله عنه حينما وكل إليه أمر الأمة الاسلامية

وكانت حديثة العهد بالاسلام ، ارتد بعض قبائل العرب ، ومنعوا الزكاة ، وأرادوا الايمان ببعض أحكام الكتاب دون بعض ، فما لبث أن قال : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليها » وجرد لذلك جنودا مخلصين رخصت نفوسهم فى سبيل حماية أسس الدين الذى ائتمنهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم واستطاع أبو بكر أن يحمل العرب على العمل بقواعد هذا الدين كما تركها النبى صلى الله عليه وسلم بدون تغيير ولا تبديل .

ولم يكن حرص عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم بأقل من حرص أبى بكر . فالكل يعمل لله ، وفى سبيل الله ، لايبغى من وراء عمله إلا ابتغاء رضوان الله ، والفوز بجنة عرضها السموات والأرض ، ولم يستأثروا بشىء مما أفاء الله عليهم من هذه الأموال والنفائس ، بل جعلوا كل همهم العمل على نصرة الدين وحمايته ، فمكن لهم فى الأرض: « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

عبد الله مصطفى المراغى
وكيل قسم المساجد

المزاح المرذول

إذا مزح الانسان فليكن مزاحه هينا لينا لا يؤلم نفس الذى يوجه إليه ، ولا يستدعى منه ردا جارحا ، كما هى العادة .

وقد قال الحكماء : المزاح يضع قدر الشريف ، ويذهب هيئة الجليل .

وقال شاعر :

إياك إياك المزاح فإنه　　يطمع فيك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه　　ويورث أبعد العز صاحبه ذلا

وقيل : أوكد أسباب القطيعة المزاح .

وقال أبو جعفر الطبرى :

لى صاحب ليس يخلو　　لسانه من جراح
يجيد تمزيق عرضى　　على سبيل المزاح

نقول : ليس يستسهل لذع الناس بلسانه على سبيل المزاح إلا رجل هانت عليه نفسه ، لأنه يتعرض بما يفعل إلى أن يسب ويسترذل .

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٣ —

تتمة البحث فى إلهية القرآن :

عرضنا فى الكلمة السالفة لتلك الفكرة الخاطئة التى أذاعها « رينان » عن الاسلام ، والتى مؤداها أنه حارب العلم واضطهد الفلسفة ، وأبنا أنها بعيدة عن الحقيقة ، وذكرنا فى معرض الرد عليها طرفا من آراء الأستاذ « كارادى فو » التى أثبت فيها أن القرآن عرض لعدد عظيم من كبريات المشاكل الفلسفية ، وسردنا منها مشاكل : الألوهية والوحدانية والقدرة والتنزه عن الانسان ومخالفة الحوادث . واليوم نتابع بحثنا فيما بقى من هذه المشاكل الفلسفية التى ألم بها القرآن ، ثم قال كلمته الحاسمة فى حلولها المختلفة قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية الى العربية . وهاك أهم ما بقى من هذه المشاكل : قال الأستاذ كارادى فو : « إن علم الله يظهر فى القرآن كشرط أساسى لقدرته ، أو كناحية من نواحيها ، وهو وارد فى ذلك الكتاب بطريقة أكيدة بحيث لا يقل فى ثبوته عن القدرة نفسها ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (١) »

« إن القرآن يؤكد فى وضوح روحانية الإله (٢) التى يلاحظ صلتها الوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال . إن الله عنده هو الذى يحيط بكل شىء ، ولا يمكن أن يحاط به ، وهو المنزه عن كل ما يلحق الأبدان ، وهو أسمى من طبيعة الانسان ، ومن طبائع جميع الكائنات الأخرى ، وهو أرفع من كل ما عداه رفعة تجعل حتى رؤيته مستحيلة « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »

« من هذه النقطة ، وهى نقطة الجلال الإلهى ، نشأت بين المسلمين مشكلة كبرى احتدم حولها الجدل فى عصورهم الفكرية الأولى ، كما احتدم بين المسيحيين من قبل ، وهى مشكلة إمكان رؤية الإله فى حالة الغيبوبة أو فى مقام الشهود

« من الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية فيما يرى القرآن أمر شديد العسر . ففى السور التى تحوى القصص التوراتية يرى القارىء هذا العسر جليا ، إذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كلمه ،

(١) سورة الانعام آية ٥٩ (٢) معنى هذه الجملة ان الألوهية فى الاسلام ليست مشوبة بشوائب المادة كما فى بعض الديانات الاخرى .

وأن نوحا لم يفز بهذه الرؤية بعد نجاته من الطوفان ، وأن إبراهيم — مع أنه خليل الله — لم ير إلا ملائكته ، وأن موسى حين طلب أن يراه أجابه بقوله : « لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك » (١) ، وهذا معناه أنه ندم على هذه الجرأة . وأن محمدا نفسه — وهو خاتم النبيين — لم ير إلا الروح الأمين : الملك جبرائيل ، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن المختارين يستمتعون بمرأى مساكن جميلة ، وحدائق ومخلوقات من الجنسين ، ولكنها لم تنص على أنهم يستمتعون بمرأى الإله . أما فى حالة الحكم بينهم ، فهم سيحشرون فى حضرة الإله ، ولكن بدون أن يفهم أحد الكيفية التى سيكون بها هذا الحضور ، أو الطريقة التى سينحقق عليها .

« نعم إن فى القرآن آيات غريبة فى بابها ، إذ يقول بعضها : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (٢) والبعض الآخر يقول : «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم (٣) » وإذا فتشنا فى كتب التفسير ألفيناها لا ترى فى هذه الآيات إلا تشبيها وتمثيلا » انتهى

لا ريب أن الأستاذ كارادى فو لم يفهم هذه الآيات على حقيقتها ، فتوهم أن الذى يسعى بين أيدى المؤمنين وبأيمانهم فى الآخرة إنما هو الله نفسه ، لأن القرآن أطلق على هذا الساعى اسم النور . وقال فى آية أخرى : الله نور . ولعل الرجل معذور فى هذا الفهم ، لأنه أجنبى مهما كانت درايته باللغة فانه قاصر عن فهم أسرارها ، ولا سيما أسرار القرآن ، ولكن الذى نأخذه عليه هنا هو أنه اتخذ هذا الفهم الملتوى أساسا لنقد تخبط فيه تخبطا لا يليق بالعلماء . وقد نفند هذا النقد حين نعرض لقسم الآراء الباطلة من منتجات المستشرقين .

أثبت الأستاذ « كارادى فو » بعد هذه النقطة أن القرآن عرض لمشاكل أزلية البارى وثباته وبدء الخلق ومصير العالم فى الحياة الأخرى ، فقال فى الأولى : إن أزلية الإله مثبتة فى القرآن ، وإن لم يكن قد ألح عليها كثيرا . وقال فى الثانية : إن ثبات الإله يتجاوب فى القرآن مع أزليته وأبديته وعلمه ، أوهو نتيجة لها ، وهذا الثبات الإلهى يتضح على الأخص فى إدارته للكون : « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا (٤) » .

غير أن الثبات الإلهى الوارد فى القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والأخلاقية . أما عن الثبات الميتافيزيكى فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بينه وبين إيجابية الإله وتأثيره فى الكون ؟

---

(١) سورة الاعراف . (٢) سورة الحديد . (٣) سورة النور (٤) سورة الفتح .

ولست أدرى كيف يعتبر الأستاذ « كارادىفو » القول بثبات الإله مع القول بإيجابيته فى القرآن أمرا غريبا ، مع أن أرسطو — وهو الذى أسرهم بفلسفته — قرر أن الإله ثابت وأنه هو المحرك الأول لجميع المتحركات ، مع أن الاجماع منعقد على أن التغير دليل الحدوث ، والتحرك دليل التأثر بالمحرك ، والثبات لا يتعارض مع الايجابية ، وأن الفرق جلى بين من يفقد الحركة لعجزه عنها ، وبين من يتجرد منها لتنزهه عنها . وقال فى المشكلة الثالثة : إن فكرة بدء الخلق ليست محددة فى القرآن تحديدا تاما ، لأن نصوصه كنصوص التوراة لم ترفض وجود « الكاؤس » (١) الذى صنع منه العالم .

وقال فى المشكلة الرابعة : إن الانسان ليدهش من العبارات الغير المحددة الواردة فى القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو انتهائه : « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ » (٢)

ويعلق الأستاذ كارادى فو على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء لم تؤخذ صراحة من القرآن ، وإنما هو يلمح الى الأبدية ولكنه لا يصرح بها ، وأن المتكلمين هم الذين قالوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الاغريقية .

ولست أدرى مم استنتج الأستاذ كارادى فو هذا الحكم ؟ إن كان قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والأرض ، فإن القرآن لا يريد السموات والأرض الموجودة الآن ، وإنما يريد تلك التى عناها بقوله : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » (٣) وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر الذى خلقت فيه ، وإن كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الالهية ، فإن هذا التقييد لا يفيد إلا إمكان الزوال إذا تعلقت المشيئة به . والأستاذ بصفته عالما يعرف أن كل ما عدا الله فى نظر الإسلام ممكن . فنص القرآن على إمكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا الزوال ، بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وإمكان الزوال .

الأخلاق الفلسفية :

بعد أن انتهى الأستاذ « كارادى فو » من بسط إلهية القرآن ، عرض لما فيه من أخلاق فلسفية ، فكانت إبانته إياها بمثابة رد قاطع على أولئك المتفيهقين والجاهلين الذين زعموا أن القرآن ليس فيه إلا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين من الأمر بالصدق والأمانة ، والنهى عن الكذب والخيانة ، وما شاكل ذلك ، فأثبت لهم أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية هى فى أسمى درجات النظر . قال :

(١) الكاؤس هو العنصر الذى خلقت منه المخلوقات ، وهو الماء عند فريق من الفلاسفة ، والهواء عند فريق ثان ، والنار عند فريق ثالث ، وشىء غير محدود عند فريق رابع ، والسماء عندفريق خامس .
(٢) سورة هود . (٣) سورة ابراهيم .

« إن علم الله وحكمته وقدرته ليست مقصورة فى القرآن على زمن إيجاد الـكائنات ، بل هى تحوطها فى مستقبلها الغابر ، لأن هـذه الـكائنات لها عند الله غاية معينة قصد اليها من إيجاد المجموعة الـكونية . وقد أبان هذه الغاية بكل بساطة فى قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (١)

« وفوق ذلك فان الباحث يلاحظ فى القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعة قد صنع لصلاح المجموع وللوصول الى الغاية القصوى منه ، ولا ريب أن هذه هى عينها نظرية التفاؤل المستنبطة من الادراك الأولى للإله ، وهو أنه عالم ، قادر ، خير ، كل ما يفعله هو بقدر ، وهو للصالح العام : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لـكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عنـدنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (٢)

« لاريب أن من لديه دراية بالفلسفة يلاحظ أن من أجل النظريات التى سمت بأرسطو الى الأوج هى نظرية الجزء للمجموع التى أعلن فيها أنه ما دام أن الـكل هو فى مجموعه خير ، فلا أهمية للجزء ، وما دامت الغاية خـيرا فلا يؤبه الى الشرور الجزئية العارضة فى الوسائل ، وذلك كالمطر فانه ضرورى للصالح العام ، فإذا أفسد حبوب فقير ، أو خرب بيت عجوز ، فإن هذا لا يخرجه عن صلاحيته ، ولا ينقله من مرتبة الخير الى دركة الشر ، فإذا ألفينا هذه النظرية فى القرآن كان ذلك برهانا على أنه واجه أعوص النظريات الأخـلاقية كما واجه أدق المشاكل الفلسفية » .

عرض الأستاذ « كارادى‌فو » بعد هذه النظرية لنظرية القضاء والقدر فى القرآن ، فقال ما مجمله : « إن القرآن قد ألح كثيرا على ذكر القدر ، ولـكن على الرغم من هذا إذا فحص الباحث بعقل هادىء وبدون تحيز ، فقرات هذا الـكتاب المتعلقة بالقدر ، تبين له أنها ليست جبرية الى الحـد الذى ظنه كثير من الناس ، وأنها على الرغم مما تحتويه من إرعاب من القـدر ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض . وهاك مجمل الأفـكار التى تحتويهـا تلك الآيات فيما أرى : إن الإله يعلم كل شىء قبل وقوعه ، وبالتالى هو يعلم كل السيئات وما يتبعها من عقوبات ، والحسنات وما تستتبعه من مكافآت ، لأن كل شىء قد كتب قبلا فى كتاب محفوظ فى السماء . ولا يعنينا أن يكون لهذا الـكتاب وجود حقيقى أو هو رمز لعلم الله بكل شىء ، وإنما المهم هنا أن هـذا التعبير يعادل من الجهة الفلسفية تأكيدا حقيقيا لسابقية علم الله بكل ما سيكون : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبـل أن نبرأها ، إن ذلك

(١) سورة الذاريات . (٢) سورة الحجر .

على الله يسير » . (١) وليس معنى هذا أن المصيبة تصيب أحدا ظلما ، فانها إما أن تصيبه عدلا وإما أن تصيبه فى سبيل صالح المجموعة ، وهو يعوض عنها جزاء فى الحياة الأخرى . وليس معناه كذلك أن القدر السابق يلغى الحرية الفردية ، كلا ، وإنما معناه أن الإله لا يجهل شيئا مما سيكون ، وأن للفرد الاختيار بين الطريقين . ولهذا لن يستند فى جزائه الى ما هو مكتوب فى الكتاب السابق ، وإنما يستند فيه الى الكتاب الذى سجلت فيه أعماله . وفى هذا برهان على أن الجزاء منوط بالعمل الفعلى ، لا بالتقدير قبل الوقوع . والى هذا يشير القرآن بقوله : « إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين» . (٢) لأن الكتاب المذكور فى الآية الأولى لم يخرج عن كونه منهج الكون الذى قدر الإله فيه سيره كله . أما الكتاب الثانى فهو سجل قيد فيه ما عمله كل فرد بدقة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٣)

« غير أن المرعب فى هذا الموضوع هو تلك الآيات الأخرى التى تقول مثلا : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (٤) « فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » (٥)

« فنحن إذا نظرنا الى هذه الآيات على حدة ، أى منفصلة عن الآيات الأخرى التى تقيدها ألفينا أنها ترمى الى أن الله قد أجبر كلا على ما فعل ، ولكننا إذا نظرنا إليها كما يجب على ضوء الآيات الأخرى ، تحققنا أنها لا تلغى الاختيار الفردى ، وأنه لم يكتب فى الضالين إلا من سيغلقون قلوبهم باختيارهم عن سماع الهدى . واليك هذه الآيات :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٦) . « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين » (٧) .

« لاشك أن ما تحتويه هاتان الآيتان الأخيرتان عظيم الأهمية ، لأنه تصريح بأن الفريق الذى عين فى كتاب القدر للجحيم ليس مؤلفا من أشخاص عاديين سيؤخذون على غرة حتى يعترض بالظلم أو الاكراه ، وإنما هو مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى ، ويغمضون أعينهم عن مشاهدته ، ويحولون قلوبهم عن تعقله ، وكل ذلك بإرادتهم الحرة واختيارهم البعيد عن كل تأثير ، إذ ليس بين المقدر عليهم وبين سلوكهم العملى أية صلة واقعية تجذبهم قسر إرادتهم الى ما قدر عليهم ».

---

(١) سورة الحديد . (٢) سورة يس . (٣) سورة الزلزلة . (٤) سورة السجدة .
(٥) سورة فاطر . (٦) سورة الاعراف . (٧) سورة ابراهيم .

هذا هو مجمل آراء الأستاذ « كارادى فو » فى المشاكل التى عرض لها القرآن ودار حولها الجـدل فى البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية ، والتى تحمل بين ثناياها أقطع الردود على فكرة « أرنست رينان » التى أسلفناها فى الكلمة السابقة . وينبغى أن نعيد هنا ما أسلفناه من أن لهـذا الأستاذ آراء لا تتفق مع روح الاسلام سنعرض للرد عليها فيما بعد . واليوم نضيف الى ذلك أنه أحيانا يعبر عن الآيات القرآنية بقوله : قال محمد ، وأحيانا أخرى بقوله : إن محمدا لا يرى كذا ويقصد القرآن . ونحن قد ضربنا صفحا عن هـذه الهفوات ، لأنها لا تعنينا فى البحوث العلمية ، ولأنه ليس فى ملـكنا أن نجعل هذا الأستاذ المستشرق مسلما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، فاكتفينا منه بما أثبته من شهادات قيمة للقرآن فيما نحن بصدده من احتوائه على النظريات الفلسفية الهامة وحلولها القويمة ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

انتهاز الفرص للاحسان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عنه »

وقال شاعر :

ليس فى كل ساعة وأوان ... تتهيا صنائع الاحسان
فاذا أمكنت فبادر اليها ... حذراً من تعذر الامكان
واغتنمها إذا قدرت عليها ... حذرا من تغير الأزمان
أحزم الناس من إذا أحسن الدهـ ... ـر تلقى الاحسان بالأحسان

وقال ابن النقيب الكنانى :

الحمد أينع ما اجتناه المجتنى ... والمجـد أرفع ما ابتناه المبتنى
فاذا وليت وكان أمرك نافذا ... فاذخر صنيعا فى الولاية وابتن
من قبل أن يسعى لها فتفوته ... ويقـول عند فواته يا ليتنى

وقال ابن هندو :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فما تدرى السكون متى يكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون

التجديد فى الاسلام

— ٣ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوى شريف

(١) من هو المبعوث ، أو المجدد لهذه الأمة أمر دينها ؟ .
(٢) بماذا يعرف أن العالم بلغ رتبة التجديد ؟ (٣) ادعاء كل قوم فى إمامهم أنه هو المقصود بحديث التجديد .
(٤) آراء علماء المذاهب فى التجديد والمجددين .

١ — من هو المبعوث ، أو المجدد .

١ — فسر العلماء ، المبعوث أو المجدد : بعالم تقى مشهور ، يقوم بالتجديد بالاجتهاد ، ويحيى ماخفى دثوره بين العباد ، له قوة استنباط الحقائق والدقائق ، النظريات — من أصول الشرع — من قلب حاضر ، وفؤاد يقظان ، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات ، وعنده قدرة على إحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وذهب من معالم السنن ؛ وعلى الدفاع عن الاسلام ، ونشره ، ونشر أحكامه ، وثقافته ومعارفه ، وأخلاقه وفضائله ، وعمل كل مافيه رفع شأنه ، وبسط نفوذه وسلطانه ؛ وأن يكون بالغاً فى العلوم الدينية متقنا ، حتى يتأتى أن يكون مجدداً ، وغير ذلك مما ألمعنا اليه من قبل .

٢ — وإنما كان المبعوث على رأس القرن مجددا ، لأنه مجتهد ، وشأن المجتهد التجديد وهل التجديد إلا ثمرة من ثمرات الاجتهاد ، وغاية من غاياته ؟ وعلى ذلك لا يكون المجدد إلا مجتهدا مطلقاً ، أو مقيداً . وقد بينا أنواع المجتهدين فيما سلف .

٣ — ولكن بعض العلماء يرى : أنه يجوز أن يكون المجدد من المجتهدين ، أو المقلدين بناء على أن المراد بالتجديد نشر الأحكام ، بمزيد الإتقان والإحكام ، والذب عن السنة ، وليس هذا مقصورا على المجتهدين ؛ وقد سبقت الاشارة إلى أن المجددين درجات ، وأن مرتبة التجديد متفاوتة ، كمرتبة الاجتهاد .

٢ — بماذا يعرَف أن العالم بلغ رتبة التجديد ؟

تضمنت أقوال العلماء أنه يعرف أن العالم بلغ رتبة التجديد : بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء ، بقرائن أحواله ، والانتفاع بعلمه .

ويعْرِف العالمُ أنه بلغ رتبة التجديد من نفسه ، بأن يعلم أنه أتقن آلاته كل الاتقان ، وأنه يجد له ملكة وقدرة على الاستنباط ، واستخراج الأحكام الخفية من الأدلة البعيدة ؛ وقيل يعرف العالم بأنه بلغ هذه الرتبة بإخباره عن نفسه ؛ والظاهر قبول قول العالم فى الاخبار عن نفسه بأنه وصل الى حدّ التجديد والاجتهاد — إذا كان عدلا — لأن عدالته تمنعه من أن يكذب ، ولا نظر الى اتهامه بكونه يدعى لنفسه رتبة عالية ؛ ويكتفى فى معرفة عدالته بقول عدلين ؛ وقيل يُعْرَف أنه بلغ رتبة التجديد بالشهرة ، بأن ظهر اسمه فى البلد ، وشاع ذكره فى ألسن الناس ؛ وقيل غير ذلك ، مما سنستوفيه فى بحث آخر إن شاء الله تعالى .

٣ — ادّعاء كلّ قوم فى إمامهم أنه المقصود بحديث التجديد :

١ — ادّعى كل قوم فى إمامهم أنه المراد بحديث التجديد ، ونشط كل لتأييد مُدعاه ولبيان المجددين من علماء مذهبه ، معرضا عن ذكر المجددين من علماء المذاهب الأخرى ، كأن الدين الذى يجدد انحصر فى مذهبه هو دون سواه ، وكأن المذاهب الأخرى لا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها ، ولا يذكر مجدّدوها وأئمتها ؛ وفى هذا من التعصب المذهبى ، ومن بخس علماء المذاهب الأخرى حقهم ما فيه ، وما لا يجمل صدوره من العلماء ؛ وقد قلنا من قبل إن التعصب المذهبىّ من عوائق التجديد وآفاته .

٢ — وسأعرض فى بحوثى هذه — بحول الله وقوته — وجهة نظر المذاهب فى التجديد والمجددين — مع التعليق عليها — عرض من لا يعرف المحاباة ، ولا التعصب لمذهب ، ولا يبغى سوى نشر الحقيقة بين الناس ، وخدمة العلم والتاريخ ؛ ومن لا يكتب إلا لشريعة الله تعالى — جميع مذاهبها — فكلها تنبع من منابع الشرع ، وتأخذ من أصول الدين .

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم

٤ — آراء علماء المذاهب فى التجديد والمجددين :

١ — يظهر من كلام العلماء من الشافعية : أن المجدد على رأس المائة الأولى : عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية : الامام الشافعى رضى الله عنه ؛ وعلى رأس المائة الثالثة : أحمد بن عمر بن سريج ؛ وعلى رأس المائة الرابعة : القاضى أبو بكر الباقلانى ؛ وعلى رأس المائة الخامسة : الإمام الغزالى ؛ وعلى رأس المائة السادسة : الإمام الفخر الرازى ؛ ويوازيه الرافعى ؛ وعلى رأس المائة السابعة : ابن دقيق العيد ؛ وعلى رأس المائة الثامنة : السراج البلقينى ؛ وعلى رأس المائة التاسعة : الإمام الجلال السيوطى ، وشيخ الاسلام زكريا الأنصارى ؛ وعلى رأس المائة العاشرة : شمس الدين الرملى . وفى البحوث الآتية أستوعب أشهر المشهورين من المجددين من جميع المذاهب الى وقتنا الحاضر ، إذا وفق الله وأعان .

٢ — وقال الامام ابن السبكى : صاحب جمع الجوامع ، وهو من أئمة الشافعية : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » وفى لفظ آخر : « يبعث الله لهذه الأمة ، فى رأس كل مائة سنة ، رجلا من أهل بيتى يجدد لهم أمر دينهم » (١) ذكره الامام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ، وقال عقيبة : نظرت فى سنة مائة ، فاذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم . عمر بن عبد العزيز ؛ ونظرت فى رأس المائة الثانية فاذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم : محمد بن إدريس الشافعى ؛ وهذا ثابت عن الامام أحمد — سقى الله عهده — ومن كلامه : إذا سئلت عن مسألة لاأعلم فيها خبرا ، قلت فيها بقول الشافعى ، لأنه عالم قريش ، وذكر الحديث وتأوله عليه .

٣ — ثم قال ابن السبكى : ولأجل مافى هذه الرواية الثانية من الزيادة لا أستطيع أن أتكلم فى المئين بعد المائة الثانية ، فانه لم يذكر فيها أحد من أهل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : وهنا دقيقة ننبهك عليها فنقول : لما لم نجد بعد المائة الثانية من أهل البيت من هو بهذه المثابة ، ووجدنا جميع من قيل إنه المبعوث فى رأس كل مائة سنة — ممن تمذهب بمذهب الإمام الشافعى وانقاد له — علمنا أنه الإمام المبعوث ، الذى استقر أمر الناس على قوله ؛ وبعث بعده فى رأس كل مائة من يقرر مذهبه ؛ وبهذا تعين عندى — أى عند ابن السبكى — تقديم ابن سريج فى الثالثة على الأشعرى ، فان أبا الحسن الأشعرى — وإن كان أيضاً شافعى المذهب — إلا أنه رجل متكلم ، كان قيامه للذب عن أصول العقائد — دون فروعها — وكان ابن سريج رجلا فقيها ، وقيامه للذب عن فروع هذا المذهب الذى ذكرنا أن الحال استقر عليه ، فكان ابن سريج أولى بهذه المرتبة ، ولا سيما ووفاة الأشعرى تأخرت عن رأس القرن إلى بعد العشرين — أى أن من مات على رأس القرن ، فهو المجدد ، ومن تأخر فلا .

٤ — وقد صح أن هذا الحديث ذكر فى مجلس أبى العباس بن سريج ، فقام شيخ من أهل العلم وقال : أبشر أيها القاضى ، فان الله تعالى بعث على رأس المائة الأولى : عمر بن عبد العزيز وعلى الثانية : الامام الشافعى ؛ وبعثك على رأس الثلاثمائة ، ثم أنشأ :

اثنان قد مضيا فبورك فيهما ... عمر الخليفة ثم حلف السودد
الشافعىّ الألمعىّ محمدٌ ... إرث النبوة وابن عمّ محمد
أرجو أبا العباس أنك ثالث ... من بعدهم سقيا لتربة أحمد

قال : فصاح أبو العباس بن سريج ، وبكى ، وقال : لقد نعى الىّ نفسى ، وروى أنه مات فى تلك السنة .

(١) يؤخذ من هذه الرواية أن المجدد يكون من اهل البيت ، وسنفصل هذا فى بحث آخر

٥ — ثم قال ابن السبكى : وقال آخرون : إنما المبعوث على رأس المائة الثالثة : أبو الحسن الأشعرى ، لأنه القائم بأصل الدين ، المناضل عن عقيدة الموحدين ، السيف المسلول على المعتزلة المارقين ، المغبر فى أوجه المبتدعة المخالفين ، وعندى — أى عند ابن السبكى — أنه لا يبعد أن يكون كل منهما مبعوثا ، هذا فى فروع الدين ، وهذا فى أصوله ، وكلاهما شافعى المذهب ، والأرجح إذا كان الأمر محصورا فى واحد أن يكون هو : ابن سريج .

٦ — وأما المائة الرابعة : فقد قيل : إن الشيخ أبا حامد الاسفراييني هو المبعوث فيها ؛ وقيل : بل الأستاذ سهل بن أبى سهل الصعلوكى ، وكلاهما من أئمة الشافعية ، وعظماء الراسخين .

٧ — قال الحاكم : لما رويت أنا هذه الرواية — يعنى حكاية ابن سريج والأبيات — كتبوها — يعنى أهل مجلسه ، وكان ممن كتبها شيخ أديب فقيه ، فلما كان فى المجلس الثانى ، قال بعض الحاضرين : إن هذا الشيخ قد زاد فى تلك الأبيات ذكر أبى الطيب : سهل ، وجعله المجدد على رأس الأربعمائة ، فقال من قصيدة :

والرابع المشهور سهل محمد أضحى عظيما عند كل موحد
لا زال فيما بيننا خير الورى للمذهب المختار خير مجدِّد

وقد كان سهل ممن لا يدفع عن هذا المقام بوجه من الوجوه ، لمشاركته للشيخ أبى حامد فى الفقه ، وقرب الوفاة ؛ ثم قال الحاكم : فلما سمعت هذه الأبيات المزيدة ، سكت ولم أنطق ، وغمنى ذلك ، الى أن قدر الله وفاته فى تلك السنة .

٨ — والخامس : الغزالى ؛ والسادس : الامام الفخر الرازى ، ويحتمل أن يكون الامام الرافعى ، إلا أن وفاته تأخرت الى بعد العشرين والستمائة ، كما تأخرت وفاة الأشعرى . ومن العجب موت ابن سريج سنة ست وثلاثمائة ؛ والاختلاف فيه وفى الأشعرى ؛ وموت الأشعرى بعد العشرين والثلاثمائة ؛ وكذلك موت الامام الفخر الرازى سنة ست وستمائة ؛ والنظر فيه وفى الرافعى ، وتأخرت وفاته هكذا — أى الى بعد العشرين — فقد توفى سنة ٦٢٣ ﻫ والسابع : الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ؛ وهؤلاء لا يحسن من أحد أن يخالف فيهم . ولم يذكر ابن السبكى أحدا من المجددين بعد هذا ؛ لأنه توفى فى سنة ٧٧١ ﻫ .

٩ — ولاحظ العلامة محمد بن الحسن الحجوى على ابن السبكى فقال :

إن ابن السبكى تَرَدَّد فيمن يعدّه من المجددين فى المائة الثالثة ، هل هو الامام الأشعرى ، أو ابن سُرَيج ؛ ثم أدّاه التعصب المذهبى الى أن قال : إن الأشعرى — وإن كان أيضا شافعىّ المذهب — إلا أنه رجل متكلم ، كان قيامه للذب عن أصول العقائد — دون فروعها — وكان ابن سُرَيج فقيها يذبّ عن الفروع ؛ فكان أولى بهذه المرتبة . . . فتأمّل قوله : وإن كان

شافعيا — كان الدين الذى يجدد هو مذهب الامام الشافعى ، رضى الله عنه ، فحسب ، وما سواه لا عبرة به — مع أن الامام الشافعى رضى الله عنه ، يحترم المذاهب ، ويعظم أربابها ، ويجل العلماء ، وهو القائل : « الناس عيال أبى حنيفة فى الفقه » وذكر بعض المتكلمين على المنهاج للإمام النووى : إن الإمام الشافعى صلى الصبح عند قبر الإمام أبى حنيفة ، ولم يقنت ، فقيل له : لمَ لمْ تقنتْ ؟ فقال : تأدبا مع صاحب هذا القبر — ثم قال العلامة الحجوى : وتأمل ما أدى إليه التعصب من تقديم الفروع على الأصول ، على عكس المعقول والمنقول ؛ على أننا لا نسلم عدم معرفة الأشعرى للفروع ؛ ففى المنح البادية ، عن عبد الله بن محمد بن طاهر الصوفى ، قال : رأيت أبا الحسن الأشعرى ، وقد أبهتَ المعتزلة فى المناظرة ، فقال له بعض الحاضرين : قد عرفنا تبحُّرك فى الكلام ، فإنا نسألك عن مسألة فى الفقه ؟ :

ما تقول فى الصلاة بغير فاتحة الكتاب ؟

فقال : حدثنا زكرياء بن يحيى ، قال السراج : حدثنا عبد الجبار ، حدثنا سفيان ، حدثنى الزهرى ، عن محمود بن الربيع ، عن عبادة بن الصامت مرفوعا : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » أخرجه أحمد ، والشيخان ، وأصحاب السُّنن . وحدثنا زكرياء ، حدثنا بندار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن جعفر بن ميمون ، حدثنى أبو عثمان ، عن أبى هريرة ، قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أنادى فى المدينة : إنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ؛ قال : فسكت السائل ؛ فهذا يدل على مقام أبى الحسن الأشعرى فى الحديث والفقه ، وعلى أنه لم يكن بالمقلد البحت ، وأنه إمام فى أصول الدين ، وبحر لا ساحل له فى الفروع ، وجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء ، فلقد ذب عن الدين ، ونصر سنة سيد المرسلين ، وكان شيخ طريقة أهل السنة والجماعة وإمام المتكلمين ، — باعتراف ابن السبكى نفسه — ولقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال له : أنصر المذاهب المروية عنى فإنها الحق ، فصدع بما أمره به الرسول ، حتى قال الثقات من العلماء : أعاد الله تعالى هذا الدين بعد ما ذهب أكثره : أعاده بأحمد بن حنبل ، وأبى الحسن الأشعرى ، وأبى نعيم الاستراباذى ؛ وسنفصل سيرة الإمام الأشعرى ، حينما نذكر حياة المجددين فى الاسلام ، إن شاء الله تعالى ؟

السيد عفيفى

من محاسن الارتجال

ما روى أن المأمون أمر محمد بن حازم أن يرتجل بيتين فقال :

أنت سماء ويدى أرضها ... والأرض قد تأمل غيث السماء
فازرع يدا عندى محمودة ... تحصد بها منى حسن الثناء

باب الأسئلة والفتاوى

جاء من بعض حضرات الجاويين الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

(الأول) ما قولكم فى أهل قرية بلغوا أربعين ممن تجب عليهم الجمعة ولا يحسن قراءة الفاتحة منهم إلا واحد ، فهل تجب عليهم الجمعة ؟ وهل يعيدونها ظهرا ؟

(الثانى) إذا لم يبلغ أهل القرية أربعين فهل تجب عليهم الجمعة ؟ وهل إذا أقاموها يعيدونها ظهرا ؟

(الثالث) إذا كان أهل الجمعة فى القرية فاسقين أولا يعرفون شروط الجمعة أو عليهم صلاة فائتة ، فهل تجب عليهم الجمعة ؟ وهل يعيدونها ظهرا ؟

(الرابع) هل يصح أداء خطبة الجمعة بغير العربية إذا كان السامعون لا يحسنون العربية ؟

(الخامس) ما حكمة جعل صلاة الجمعة ركعتين وخطبتها خطبتين ؟

(السادس) هل يجوز لوكيل ولى النكاح أن يوكل غيره بغير إذن الولى أو بإذنه ؟

وهم يرجون أن تكون الاجابة على مذهب الشافعى مع بيان المذاهب الأخرى .

الجواب

عن الأول : مذهب الشافعى رحمه الله أن قراءة الفاتحة للقادر عليها فرض فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، جمعة كانت أو غيرها ، ولا تصح الصلاة بدونها .

أما الذى لا يحسن قراءة الفاتحة ويحسن غيرها من القرآن فإنه يجب عليه أن يقرأ فى كل ركعة سبع آيات بدل الفاتحة .

فإن كان لا يحسن شيئا من القرآن وجب عليه أن يأتى بذكر بمقدار الفاتحة فى كل ركعة ، ولا تسقط الصلاة عنه بحال ، جمعة كانت أو غيرها .

وعلى هذا فأهل هذه القرية تجب عليهم صلاة الجمعة ، كما يجب عليهم غيرها من سائر الصلوات سواء أكان فيهم من يحسن قراءة الفاتحة أم لا ، فإذا أدوا صلاة الجمعة مستوفية باقى شروطها صحت منهم ولا يعيدونها ظهرا .

عن الثانى : المعول عليه عند الشافعية أنه إذا قل عدد أهل القرية عن أربعين رجلا ممن تنعقد بهم الجمعة فلا جمعة عليهم ، ولا تصح منهم إذا صلوها ، بل الواجب عليهم فى هذه الحالة صلاة الظهر ليس غير ، وكذلك عند الحنابلة .

أما المالـكية فيكفى عندهم اثنا عشر غير الامام .

وأما الحنفية فيـكفى عندهم لاقامة الجمعة ثلاثة سوى الامام على مختار المذهب ، وعلى هذا إذا أقام الجمعة عدد من أهل هذه القرية على مذهب من المذهبين السابقـين صحت جمعتهم ولا يعيدونها ظهرا .

عن الثالث : إذا كان فى القرية العدد الذى تنعقد به الجمعة طبقا للبيان السابق، فان الجمعة تـكون واجبة عليهم ، وكونهم فاسقين أو عليهم صلاة فائتة ، لايمنع وجوب الجمعة عليهم ، أما إذا كانوا لا يعرفون شيئا من شروط الجمعة فانه يجب عليهم أن يتعلموا مايعتبر شرعا لصحة صلاتهم ، فاذا لم يتعلموا كانوا آثمـين ، لأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم ما يحتاج إليه فى صحة عباداته ومعاملاته . وكل جمعة أديت على وجهها الشرعى من غير إخلال بشىء مما يلزم لصحتها شرعا فلا تعاد ظهرا .

عن الرابع : أصح القولين فى مذهب الشافعية أنه يشترط فى خطبة الجمعـة أن تـكون باللغة العربية ، فاذا لم يوجد فى أهل القرية من يحسن العربية وجب أن يتعلمها أحدهم وإلا كانوا جميعا آثمين ، ولا تنعقـد منهم جمعة ، وعليهم أن يصلوا الظهر إلى أن يوجد فيهم من يحسن اللغة العربيـة ، وإلى هذا ذهب المالـكية . وللشافعية قول آخر وهو أنه يجوز فى الخطبة أن تؤدى بغير العربية ، وإلى ذلك ذهب الحنفية .

ونحن نميل إلى هذا الرأى ، لأن المقصود من الخطبة الوعظ وهو حاصل بـكل اللغات . وعند الحنابلة إذا عجز عن اللغة العربية صح أن يخطب بغيرها ، على أن يأتى الخطيب بدل القرآن المفروض فى الخطبة بذكر من عنده .

عن الخامس : لما كانت صـلاة الجمعة فرض عين على جميع المـكلفين من المسلمين ، وكانت الجماعة شرطا لصحتها من المـكلفين وغيرهم ، وذلك مما يدعو إلى احتشاد الجمع الـكثير فى المسجد وفيه نوع من الحرج ، لذلك خفف الله عنهم ورفق بهم فجعل صلاة الجمعة ركعتين فقط ، وكذلك جعل الخطبة خطبتين رفقا بالامام وترويحا على السامعين .

عن السادس : ليس للوكيل فى النكاح أن يوكل غيره إلا باذن موكله، سواء أكان الموكل أحد الزوجين أم ولى أحدهما ، والله أعلم

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٤ —

عمر بن الخطاب

إباء العروبة ، وعز مضر ، وسؤدد قريش ، وفتوة الشباب ، وشجاعة الأبطال ، ونبل ما عرف الناس من أخلاق ، فى كمل رجولة ، وصدق عزيمة ، وإرادة حازمة ، وصراحة صارمة ، عناصره من النحائز والأخلاق أخصب ما تكون حيوية ، وأكمل ما تكون فى خصائص الانسانية ، التأمت ثم امتزجت بروح الاسلام القاهرة ، وآدابه الباهرة ، وتعاليمه السامية ، وشرائعه الفاضلة ، فكان منها متسقة شخصية « فاروق الاسلام عمر بن الخطاب » تلك الشخصية الاسلامية التى تمثلت عبقريتها الفذة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت بزمام الأمة تسوسها ، وتسلك بها مسالك المجد والسلطان يقدمها الفتح الميمون ، ويحدو بها العدل المبين ، فقال فيما يرويه البخارى : « أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن » . وهذه العبقرية هى التى غذتها النبوة بفضل ما آتاها الله من علم وحكمة ، وتمثلت فى إحدى مرائى الوحى النبوى ، وتحدث بها النبى صلى الله عليه وسلم الى أمته لتعرف لها حقها ، وتقدرها من العظمة والجلال قدرها ، فقال فيما حدث به البخارى : « بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى إنى لأرى الرى يخرج فى أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولته يارسول الله ؟ قال : العلم » وهى العبقرية الفكرية التى يتحدث عبد الله بن عمر عن منبعها من عقل الفاروق وألمعيته فيقول : ما سمعت عمر لشئ قط يقول : إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن .

ولقد كان أعرف مظاهر عبقرية عمر الاسلامية عنفه فى الحق وللحق ، حتى هابه المؤمنون توقيرا للحق فى إهابه ، وتفزعت قلوب الكافرين فرقا من سطوة الحق على يديه ، روى الطبرى فى تاريخه أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر ، فقال: أو قد قالوا ذلك ؟ فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك ، وأيم الله لأنا أشد منهم فرقا منهم منى ! وروى ابن الجوزى أن رجلا من قريش لقى عمر بن الخطاب فقال : لن لنا فقد ملأت قلوبنا مهابة ، فقال : أفى ذلك ظلم ؟

قال : لا ، قال : فزادنى الله فى صدوركم مهابة . وكان عبد الله بن عباس يحدث قال : مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

ونستطيع على ضوء هذه الخليقة فى عمر أن نستبين ناحية خفية فى جوانب النفس الانسانية ، وهى الفيصل بين الأعمال التى تصدر عن الانسان فى تكلف يشقى به صاحبه ليخفيه إمعانا فى التضليل والايهام أنه صادر عن طبيعة صادقة ، وبين الأعمال التى تصدر عن الانسان فطرية لا أثر فيها للتصنع والتعمل فصاحبها حفى بها ولو كانت قاسية مريرة ، لأنها صورة من نفسه ، فالرجل الذى يتكلف من الأعمال مالا يتجاوب صداه مع فطرته حرى أن لا يلحق بغاية ولا ينتهى إلى غرض ، وإنما يدور حول نفسه كالرحى فتسمع له عجيجا دون أن ترى أثرا ، ولو جرى لغايته شوطا لكان من الحتم أن يقصر فى الثانى أو الثالث ، فلا يقبض من سعيه إلا على قبضة من الريح .

أما الطبيعة التى تسوق صاحبها على طيتها فأعمالها صدى لصوتها يتردد فى آفاق من الحياة ملائمة أشد الملاءمة لعناصر الطبيعة التى أرسلت بصوتها على أثيرها ليبلغ مداه ويستقر فى نهايته دون أن يعوقه شىء يحجز بينه وبين تلك النهاية ، وشواهد القبيل الأول من التاريخ القديم والحديث كثيرة فيمن اغتصبوا أعنة الأمم فترات من الزمن ، وحملوا لواء زعامتها فدوى لهم صوت الطبل فى أرجاء الحياة ، ثم عادت بهم فطرتهم إلى طبيعتها فارتجفت أيديهم ، وانفلتت منهم الأعنة وسقطت الألوية ، وأبرم عليهم التاريخ حكمه فى سجل صفحاتهم ، واتخذ منهم مثلا مضروبا للعظة والاعتبار .

أما الذين تساوقت أعمالهم مع طبائعهم فقادوا أممهم إلى سؤدد المجد ونبالة الغاية وعز الحياة ، فهم فى سجل التاريخ العام قليل ، وللتاريخ الاسلامى أوفر حظ من هذه القلة الصالحة ، وقد جعل الله تعالى « فاروق الاسلام » المثل الأعلى لهذا النوع من العبقريات المؤتلفة مع طبائعها فيما يصدر عنها من أعمال وأفكار تأخذ فى سمت واحد لايتكاءدها شىء ، ولا يحول دون غايتها شىء ، فلقد وقف عمر فى وجه الدعوة الاسلامية أول أمرها قويا عنيفا ، ثم ألقى الله تعالى فى قلبه الهداية فأسلم إسلاما قويا عنيفا ، وأحب الاسلام ونصره نصرا قويا عنيفا ، وقد تجلت هذه القوة الرهيبة ، وذلك العنف الصادق فى مواقف تاريخية لم يكن لغير الفاروق أن يقفها أو يسمع له فيها صوت ، حتى لكان عمر نفسه يعجب من جرأته ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم والوحى ينزل عليه ، روى مسلم فى صحيحه عن عبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله بن أبى ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام اليه ، فلما وقف يريد الصلاة عليه تحولت حتى [illegible] صدره ، فقلت : يارسول الله على عبد الله بن أبى تصلى ، وهو القائل يوم كذا كذا

ويوم كذا كذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : أخّر عنى ياعمر ، إنى خيرت فاخترت ، وقد قيل لى : «استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر لهم لزدت ، قال : ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبا لى وجراءتى على رسول الله ، والله ورسوله أعلم ، قال : فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل .

وفى هذه القصة يتمثل جانب من صراحة عمر وشدته فى الحق وتأييد الله له وتقرير مذهبه فى خذلان أعداء الله والتنكيل بهم ، وأنه إنما كان يصدر فى مواقفه عن عقيدة راسخة وطبيعة صادقة ، وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخليقة فى عمر فندبه يوم أحد من بين أصحابه للرد على أبى سفيان ، روى البخارى وأصحاب المغازى : أنه لما كان يوم أحد جاء أبو سفيان بن حرب ، فقال : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه ، ثم قال : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، ثم قال الثالثة : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه ، قالها ثلاثا ، ثم قال : أفيكم ابن الخطاب ؟ قالها ثلاثا فلم يجيبوه ، فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت ياعدو الله ! ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وأنا أحياء ، ولك منا يوم سوء ! فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، ثم قال : اُعْلُ هُبَلْ ، فقال رسول الله لعمر بن الخطاب : قل : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله : قل : الله مولانا ولا مولى لكم .

قال الامام ابن الجوزى : واعلم أن السر فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر أن يخاطب أبا سفيان دون غيره من الصحابة من خمسة أوجه ، أحدها : أن عمر هو الذى ابتدأ بالرد على أبى سفيان بقوله : هذا رسول الله وهذا أبو بكر وأنا أحياء ، فلما رأى رسول الله من غليان قلب عمر فى نصرة الحق ما أوجب الكلام بعد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاب أبو سفيان ، أحب أن يتمم شفاء صدر عمر بتوليته الجواب . والثانى أن أبا سفيان لما قال : أعل هبل ، انتدب عمر دون غيره شاكيا من هذا القول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب ترويح قلبه بتوليته الجواب . الثالث أن عمر هو الذى غار على كتمان التوحيد فأظهره يوم إسلامه ، وسمى لذلك الفاروق ، فأحب أن يلى هذا القول لأنه من تمام ذلك النصر . الرابع أن عمر كان أكثر الصحابة مهابة وأشدهم صولة فأحب أن يكون هو المناضل لأجل ما خص به من ذلك . الخامس أن عمر كان يحب مقاومة الأعداء ، ويلتذ بما يناله فى الله من الأذى .

وموقف عمر حيال معاهدة الحديبية يمثل أعنف ثورة نفسية صادرة عن عقيدة راسخة لا تزعزعها العواصف ، حتى إذا تكشفت لها خفايا الأقدار وعلم من أمرها ما لم يكن يعلم ، طابت نفسه واستكان لأمر الله ورضى بما رضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء فى رواية البخارى : فقال عمر بن الخطاب : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : ألست نبى الله حقا ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : فانك آتيه وتطوف به ، قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : أيها الرجل ! إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق ! قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا ، فقال : فانك آتيه فتطوف به .

قال الحذاق من الراسخين فى العلم : لم يكن سؤال عمر رضى الله عنه وكلامه فى مساءلة النبى صلى الله عليه وسلم والصديق الأكبر شكا بل طلبا لكشف ما خفى عليه ، وحثا على إذلال الكفار وظهور الاسلام ، كما عرف فى خلقه وقوته فى نصرة الدين وإذلال المبطلين ، وأما جواب أبى بكر لعمر رضى الله عنهما بمثل جواب النبى صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضل الصديق وبارع علمه وزيادة عرفانه ورسوخه وزيادته فى ذلك على غيره . ومما يلفت نظر الباحث هذا الهدوء البالغ أقصى غايات الكمال فى موقف النبى صلى الله عليه وسلم وأجوبته لعمر ينبهه فى رفق وسكينة على أن سنن الله مع أنبيائه ورسله لا تخضع لومضات العقول البشرية ، وأن الله بالغ أمره ومحقق وعده لرسله . وقد أنزل الله على رسوله لما قفل بعد إبرام الصلح سورة الفتح بشرى وتسلية للمؤمنين ، فلما سمعها عمر اغتبط واستبشر ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : أو فتح هو ؟ فقال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .

إن الدعوة الاسلامية — باعتبارها دعوة الى نظام اجتماعى جديد يقلب النظم الاجتماعية الفاسدة التى توارثها الناس وألفوها ، ولا سيما الأمة العربية التى ظهرت الدعوة بين أحضانها — فى أمس الحاجة الى هذا النوع من الشخصيات القوية التى لا تعرف المداورة فى الحق ، ولا المداهنة فى الدين ، ولا تبالى بهذه العنجهيات الوراثية التى تريد الدين والنظم والقوانين على أن تكون مطية كبريائها لاستعباد البشرية والتعالى عليها ، وقد تألف الاسلام قوما من أصحاب تلك العنجهيات يوم أن كان الاسلام قليلا ، وكان عمر ينظر الى هؤلاء نظرة المتربص بهم حتى يكفكف من غربهم ويفل من حدهم ويعيدهم الى مكانهم من الحياة ، فلما أعز الله

تعالى الاسلام أرادوها ميراثا لهم فأبى عليهم « فاروق الاسلام » إلا أن يكونوا كما حاد الناس رضوا أم غضبوا ، فوضع بذلك شرعة عملية وطد بها دعائم الحياة الاجتماعية الجديدة التى أقامها الاسلام على قاعدة المساواة المطلقة بين المؤمنين ، وقد حدثنا ثقات المؤرخين أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قدما على أبى بكر فى خلافته فقالا : ياخليفة رسول الله إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلا ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها أو نزرعها ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فقال أبو بكر لمن حوله : ما ترونه فيما قالا ؟ قالوا : إن كانت أرضا سبخة لاينتفع بها فنرى أن تقطعها لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فأقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتابا وأشهد عمر وليس فى القوم ، فانطلقا الى عمر يشهدانه فوجداه قائما يهنأ بعيرا له ، فقالا : إن أبا بكر يشهدك على مافى هذا الكتاب ، فنقرؤه عليك أو تقرأ ؟ قال : أنا على الحال التى تريانى ، فان شئتما فاقرآ ، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ فأقرأ عليكما ، قالا : لا ، بل نقرأ ، فقرآه ، فلما سمع مافى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال لهما عمر : إن رسول الله كان يتألفكما والاسلام يومئذ قليل ، وإن الله عز وجل قد أعز الاسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما ، لارعى الله عليكما إن رعيتما ! ! فذهبا الى أبى بكر وهما يتذمران ، فقالا : والله ما ندرى من الخليفة أنت أم عمر ؟ ! قال أبو بكر : بل هو لو كان شاء ، فجاء عمر وهو مغضب حتى وقف على أبى بكر فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هذين ؟ أرض هى لك خاصة أم بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هى للمسلمين عامة ، قال : فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال أبو بكر : استشرت هؤلاء الذين حولى فاشاروا علىّ بذلك ، قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضى ؟ قال أبو بكر : قد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا منى ، لكنك غلبتنى .

ونحب أن نقف قليلا الى جانب هذه القصة العظيمة لنستخرج منها بعض العبر البارعة التى اشتملت عليها ، ففيها (أولا) : أن عمر واجه عيينة والأقرع — وهو يعلم مكانتهما من زعامة تميم — بما نهنه عجرفتهما وطامن حميتهما الأعرابية فى صراحة قاسية ، وأفهمهما فى غير مواربة أن الاسلام لا يعرف هذا التعاظم الجاهلى الأجوف ، وتحداهما فى تقريع قارس أن يجهدا جهدهما ، لأن الاسلام تألفهما أيام قلته ، وقد أعزه الله فلا حاجة به إلا الى قلوب عمرها الايمان واليقين .

وفيها (ثانيا) : أن عمر لم يقف عند صنيعه بالرجلين وتحديه لهما ، بل ذهب مغضبا الى أبى بكر ، وهو خليفة المسلمين وإمامهم ، يأخذ عليه فى صراحة قاسية أنه أقطع هذين الرجلين أرضا هى للمسلمين عامة ، ولم يقبل اعتذاره بأنه استشار من حضره من عظماء المؤمنين ، ولم يكن من الصديق وهو العدل الرضا المهدى الراشد إلا أن يقر عمر على نظريته فى عبارة مفعمة بالاخلاص والصدق فيقول له : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا منى ولكنك غلبتنى .

وفيها (ثالثا) : تصوير واضح لنوع الحكم الاسلامى ومجافاته للاستبداد المطلق ، وبنائه على قاعدة الشورى العامة ، لأن الخليفة الأول ، وهو من هو ، لم يستبد برأيه ، بل أشرك معه بعض ذوى الرأى ، ولكن عمر لم ير ذلك كافيا ، لأن كل مسلم له حق إبداء الرأى فى مصالح الأمة العامة ، وأن الشورى يجب أن تتسع لعامة المسلمين ورضاهم ، ولا سيما فيما يختص بمالية الدولة ومصادر إيرادها ، فهل سمع المتشدقون من دعاة الاستبداد الملثم والديمقراطيات الزائفة ، أن شريعة من الشرائع أو زعيما من زعماء الديمقراطية استطاع أن يبلغ بها من الكمال ما بلغه بها دستور الاسلام وقادته الأولون ؟

إن فى الاسلام ضمانا لسعادة الانسانية وسلامها ، وإن فى سيرة الراشدين من خلفاء الاسلام نبراسا لهداية الانسانية الى وشائج الاخاء والعدل والمساواة ، وهى أنجع دواء لأمراضها العصبية ، فهل آن للذين أغمضوا أعينهم على القذى ، وصموا آذانهم عن صوت الأخوة المنبعث من ضمير الاسلام ، أن يدرسوا دستور هذا الدين القيم ، وأن يجيلوا النظر فى سيرة عظمائه وقادة الفكر فى تاريخه باخلاص وصدق نية ؟ !

صادق ابراهيم عرجون

لا تزهد فى معروف

قال ابن عباس رضى الله عنه : لايزهدنك فى المعروف كفر من كفره ، فانه يشكرك عليه من لم تصطنعه اليه .

وقال الشاعر :

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها شكور أو كفور
ففى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما جحد الكفور

وقال وهو من أحسن مايقال فى الايثار :

أبيت خميص البطن غرثان طاويا ... وأوثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأمنحه فرشى وأفترش الثرى ... وأجعل قر الليل من دونه لبسى
حذار مخازاة الأحاديث فى غد ... إذا ضمنى وحدى الى صدره رمسى

وقال آخر فى إكرام الضيف :

يسترسل الضيف أنسا فى منازلنا ... فليس يعلم خلق أينا الضيف
والسيف إن قسته يوما بنا شبها ... لم تدر من عزمنا من ذا هو السيف

الامام البخارى

وكتابه الجامع الصحيح

الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول :

خطت الأمة الاسلامية فى هـذا العصر ، خطوة جديدة فى حياتها العقلية ، وحركتها العلمية ، وكان هـذا نتيجة لازمة لقيامها على السنة الاسلامية التى تقتضى دوام طلب العـلم والحـكمة ، والأخذ بكل نافع من الفنـون والصناعات ، ولو من طريق الاقتباس من الأمم المختلفة ، وقد اتفق للمسلمين بعد دور فتوحاتهم الأولى ، أن احتكوا بشعوب كانت على شىء كبير من العلم والمدنية ، فأخذوها عنها وزادوا عليها بجهودهم الخاصة .

فى هـذا العصر ظهر ما نسميه بالتقدم ، ومظهره القبـول والهضم لـكل ما تستحسنه الطبيعة البشرية النزاعة للـكمال مما ينسجم وحاجاتها .

وبالتقدم تسكن النفس الى الأصلح وتطمئن اليه بـكل ما فيها من قوى العقـل والعاطفة والإرادة .

والقوانين العامة لمراحل العقل البشرى فى الرقى واحدة وإن اختلفت الجزئيات ، فإذا ما اتحدت الأسباب ، وتوحدت الخطوات ، لا بد من اتحاد النتائج . فالحضارة اليونانيـة ، لم تـكن إلا أسلوبا من أساليب التقـدم ، نشأ فى الزمن الغابر من احتـكاك الاغريق بغيرهم من الشعوب . فقد اتصلوا بمدائن آسيا ، واتصل روادهم وفلاسفتهم بمصر ، وتم لهم من هذه الاتصالات اتخاذ أمور واستخلاص قـواعد للسير ، ومحاكاة نظم رأوا أنها أصلح لحياتهم . وكان من قبولهم وهضمهم لما يناسب حاجاتهم ، سواء أكان من ابتكارهم أم من ابتكار غيرهم ، ماتكونت منه حضارتهم . ولم تكن حضارة الرومان لذلك إلا أسلوبا من أساليب التقدم ، تهيأ لهم عند احتـكاكهم بالاغريق وبغيرهم من الشعوب ، ثم تقبلوه وهضموه لما رأوا الخـير فى قبوله وهضمه .

وقد دخلت النهضة العلمية للمسلمين فى طورين ، أولهما دينى بحت استوعب عهد بنى أمية ، والثانى علمى عملى بدأ من أول الدولة العباسية فى القرن الثـانى ، وكلاهما بباعث من الاسلام نفسه ، فرأينا العـلوم فى العهد العباسى والفلسفة تترجم من اليونانية والفارسية والهندية ، وتعرض بجانبها الديانات من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها . وتحولت الدعوة الدينية فى العصر الأموى من لفت الى الـكون وآثاره الى عـلم الـكلام فى العصر العباسى ، وتأثر تفسير القرآن وتفسير الحديث والتشريع بالأثر الفلسفى المؤسس على المنطق .

قال الذهبي : فى سنة ١٤٣ هـ شرع علماء الاسلام فى هذا العصر ، فى تدوين الحديث والفقه والتفسير . فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومَعمر باليمن ، وسفيان الثورى بالكوفة . وصنف ابن اسحاق المغازى ، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأى ، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وابن لهيعه ، ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب . وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة (يراجع ص ١٠١ من تاريخ الخلفاء للسيوطى) .

وفى الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر .

وأخرج أبو نعيم فى تاريخ اصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أهل الآفاق : انظروا الى حديث رسول الله فاجمعوه .

وكانت الأمة الاسلامية ، عقب نداء الخليفة عمر بن عبد العزيز ، قد مرت بطور المسائل الجزئية المبعثرة ، فكان لزاما أن يسلمها ذلك إلى الطور الآخر : طور التنظيم وتدوين العلوم وتمييزها ، كما سبق أن شرحه الذهبى ، ودونه السيوطى فى تاريخ الخلفاء . وكان أهم مظهر للحديث فى العصر العباسى مظهر التدوين ، حتى إذا كان القرن الثالث نشطت حركة الجمع والنقد ، فقد ألف البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ الجامع الصحيح ، وألف مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ صحيحه ، وفيه ألفت سنن ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ وسنن أبى داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وجامع الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وسنن النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ وهى التى تسمى الكتب الستة ، والتى عدت أصح كتب الحديث . ويلحق بهذه الكتب مسند أحمد المتوفى سنة ٢٤١ هـ والمحدثون يضعون صحيح البخارى ومسلم فى الدرجة الأولى .

البخارى :

هو محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردذبه (بردذبه كلمة فارسية معناها الزراع) . كانت أجداده فرساً على دين المجوس ، وأول من أسلم من أجداده المغيرة ، أسلم على يد اليمان الجعفى والى بخارى ، فكان ولاؤه له ، وتنقل الولاء فى أولاده ، فلذلك يقال فى البخارى إنه محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجُعْفى .

اتفق مؤرخو التاريخ الاسلامى أن البخارى ولد بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ وأنه توفى يوم السبت عند صلاة العشاء ، ودفن ليلة عيد الفطر سنة

٢٥٦ هـ وله من العمر اثنتان وستون سنة إلا ثلاثة عشر يوما ، ودفن بخرتنك ، قرية على فرسخين من سمرقند .

كان والد البخارى محدثا ، مات وهو صغير ، وترك له مالا جليلا ، فنشأ فى حجر أمه ، وأسلم إلى الكتاب ، فلما بلغ عشر سنين بدأ فى حفظ الحديث فى كتب ابن المبارك ووكيع ، وهما محدثان مشهوران .

وقد روى كتاب طبقات الشافعية ، وكتاب الخطيب البغدادى ، أن البخارى كان يحفظ فى صباه سبعين ألف حديث وأكثر ، ولا يجىء بحديث عن الصحابة والتابعين إلا ويعرف مولد أكثرهم ، ووفاتهم ومساكنهم . وكان البخارى يقول عن نفسه — كما هو مذكور فى تاريخ أبى الفدا : ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب ابن عشر سنين ، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة ، صنفت قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، وصنفت كتاب التاريخ ، عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خطا البخارى فى جمع الحديث خطوة جديدة ، فمالك بن أنس يجمع أحاديث الحجاز وخاصة اهل المدينة ، وابن جريج أحاديث الحجازيين وخاصة أهل مكة ، ولكن البخارى وسع هذه الدائرة ، وسن سنة لمن بعده من المحدثين فى الإمعان فى الرحلة لطلب العلم ، وبعبارة أخرى لطلب الحديث ، فبعد أن سمع حديث بلده ذهب إلى بلخ وسمع محدثيها ، ورحل إلى مرو ونيسابور والرى وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص ، فهو بهذا وضع له خطة أن يجمع ما تفرق من الحديث فى الأمصار ، وأقام فى هذه الرحلات نحو ستة عشر عاما ، لقى فيها عناء شديدا لا يتحمله إلا الصابرون ، وأخيرا عاد إلى موطنه ، ومات سنة ٢٥٦ هـ

كما أنه خطا بالحديث خطوة أخرى ، فى جده فى التمييز بين الحديث الصحيح وغيره ، وقد كانت الكتب قبله لا يعنى فيها بهذا الموضوع عنايته ، فكان المحدث يجمع ما وصل اليه ، تاركا البحث عن رواته ومقدار الثقة به الى القارئين أو السامعين ، حتى الموطأ نقده كثير من المحدثين من هذه الناحية .

وهذا العمل — أعنى تعرف صحيح الحديث من ضعيفه — كان يحتاج البدء فيه الى عناء لا يقدر ، فهو يحتاج الى معرفة واسعة بتاريخ رجال الحديث ، وتاريخ حياتهم ووفاتهم ، ليعرف هل التقى الراوى بمن روى عنه أولا ، ويحتاج الى معرفة دقيقة برجال الحديث من زمن البخارى الى زمن الصحابى ، ما مقدار صدقهم والثقة بهم وحفظهم ، ومن منهم صادق أمين ومن منهم مستور الحال ، ومن منهم كاذب ومن منهم صادق « تقبل دعوته ولا تقبل روايته » ، كما يحتاج الى مقارنة الأحاديث التى ترويها الأمصار المختلفة ، وما بينها من فروق وموافقات

وما فيها من علل، كما يحتاج الى معرفة مذاهب الرجال، من خارجي ومعتزلي ومرجيء وشيعي الى غير ذلك، ليتبين منها مقدار ما قد يحمله مذهبه على القول بحديث غير صحيح، أو تأويل له غير راجح، وهي مهمة في غاية العسر والمشقة، لأن كثيرا منها يتصل بالنيات والضمائر وخفايا السرائر، فكم من باطن لا يتفق والظاهر، وكم من متصنع تقوى وصلاحا وقد اتخذ ذلك سلاحا، وهكذا. (ضحى الاسلام الجزء الثاني).

كتابه الجامع الصحيح:

أراد البخاري في كتابه أن يقتصر على جمع الأحاديث الصحيحة، والحديث الصحيح في اصطلاح المحدثين: هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده — من الراوي الى النبي صلى الله عليه وسلم — ويكون كل راو من رواته عدلا ضابطا، وقد أنفق البخاري في جمع كتابه هذا ستة عشر عاما، وسماه الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد جمع فيه، على ما ذكره ابن حجر، (٧٣٩٧) حديثا، وهذا العدد تدخل فيه الأحاديث المكررة، ولا تدخل فيه المعلقات والمتابعات والموقوفات والمقطوعات. فإذا أضيفت اليه التعليقات والمتابعات بلغت (٩٠٨٢) حديثا غير الموقوف والمقطوع. وإذا حذف المكرر واقتصر على عد الأحاديث الموصولة السند غير المكررة، كانت (٢٧٦٢) حديثا.

وقد جاء في الجزء الأول من مقدمة فتح الباري، أن البخاري اشترط في جمعه للأحاديث التي يصححها شروطا تسمى «شروط البخاري»، كما اشترط مسلم شروطا تخالف بعض الشيء شروط البخاري، ويسمونها شروط مسلم، فكلاهما اشترط في الحديث أن يكون إسناده متصلا، وأن يكون كل راو من رواته مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط، متصفا بصفات العدالة، ضابطا متحفظا، سليم الذهن قليل الوهم، سليم الاعتقاد. وكان البخاري يرى أن المحدث إذا كان من أساطين المحدثين، وهم المكثرون من جمع الحديث وروايته كالزهري ونافع، فإن أصحابه الذين يروون عنه درجات تختلف في مقدار الصلة به، وفي الحفظ والإتقان، فالدرجة الأولى من كان يزامله في السفر ويلازمه في الحضر، والدرجة الثانية من لم يلازمه إلا مدة قصيرة، وكلا النوعين عُرف بالتثبت، ويلي ذلك درجات، فالبخاري يشترط في الرواة أن يكونوا من الدرجة الأولى عادة، وقد يروى عن رجال الدرجة الثانية، ولكنه في الغالب يرويه تعليقا على حديث، ويسمى ذلك أيضا شرطا من شروط البخاري، ومسلم يقبل رجال الدرجة الثانية كما يقبل الأولى، ولا يقتصر في الدرجة الثانية على التعليق، وأما غير المكثرين فاكتفى فيهم عند البخاري ومسلم بشرط الثقة والعدالة وقلة الخطأ.

أما السبب الجوهري في اتباع البخاري لشروط قيد بها الأحاديث التي جمعها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترجع الى أن أحاديث العهد الأموي أكثر من أحاديث عهد الخلفاء

الراشدين ، وأحاديث العصر العباسى أكثر من أحاديث العهد الأموى ، هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى أدخل اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الديانات الأخرى فى الأحاديث أشياء كثيرة من دياناتهم وأخبارهم ، فلثت الأحاديث بما فى التوراة وحواشيها ، وبعض أخبار النصرانية وتعاليم الشعوبية ، كالأحاديث التى تدل على فضل الفرس والروم (انظر جولد زيهير ودائرة المعارف الاسلامية فى مادة حديث) فكان هذا الخلط فى الأحاديث من أقوى الأسباب فى هجرة البخارى الى الأمصار المختلفة ، لتنقية الأحاديث ونقدها ، وتمييز الجيد والزائف منها .

وفى الحق أن ثقات المحدثين بذلوا من الجهد فى التمحيص مالا يوصف ، واجتهدوا فى وضع رواة الحديث من التابعين ومن بعدهم فى موازين دقيقة بقدر الامكان ، مع شرح تاريخهم ، ووضعوا فى ذلك قواعد للجرح والتعديل .

أما القواعد فنوعان : نوع يستند فيه على الرواية وصحتها ، والرجال ومقدار الثقة بهم ، ويسمى هـذا النوع بالنقد الخارجى ، ونوع يعتمد فيه على الحديث نفسه ، هل معناه يصح أو لا يصح ؟ وما هى أوجه الصحة وعدم الصحة ؟ الى غير ذلك من أسباب الدفاع والاتهام ، ويسمى هذا النوع بالنقد الداخلى .

ولقد جرت هذه القواعد المحدثين الى تقسيم الحديث باعتبار ذلك الى حديث صحيح وحسن وضعيف ، والى مرسل ومنقطع ، والى شاذ وغريب ، وغير ذلك .

وقد اشتهر فى هذا الباب يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن مهدى المتوفى سنة ١٩٨ هـ ثم يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ وأحمد بن حنبل سنة ٢٤١ هـ ، ومحمد بن سعد فى طبقاته سنة ٢٣٠ هـ .

وبالرجوع الى كتاب الجامع الصحيح نرى أن البخارى كان مع قدرته الفائقة فى الحديث فقيها ، ويعده السبكى شافعيا فى كتابه طبقات الشافعية ، والظاهر أن البخارى كان مجتهدا مستقلا وله استنباطات تفرد بها ، وآراء توافق أحيانا مذهب أبى حنيفة ، وأحيانا مذهب الشافعى وأحيانا تخالفهما ، وأحيانا يختار مذهب ابن عباس ، وأحيانا مذهب مجاهد وعطاء .

هذه الناحية الفقهية كان لها أثر كبير فى كتابه الجامع الصحيح ، فقد رتبه ترتيبا فقهيا كما فعل مالك فى الموطأ ، فبعد أن بدأ ببدء الوحى ، وثناه بكتاب الايمان والعلم ، ذكر كتاب الطهارة ثم كتاب الصلاة ثم كتاب الزكاة ، واختلفت فى النسخ فى الصوم والحج أيهما قبل الآخر ؟ ثم كتاب البيوع ، حتى إذا انتهى من المعاملات ذكر المرافعات ، فقال : كتاب الشهادات وكتاب الصلح ، ثم كتاب الوصية والوقف ، ثم أعقب ذلك بكتاب الجهاد ، وطفر بعد ذلك الى أبواب غير فقهية ، فذكر الكلام فى بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ، ثم

مناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار ، ثم ذكر السيرة النبوية والمغازى وما اليها ، ثم كتاب التفسير ، ثم عاد الى الفقه من نكاح وطلاق ، ثم كتاب الأطعمة والأشربة ، ثم خرج من ذلك الى كتاب الطب ثم كتاب الأدب والبر والصلة والاستئذان ، ثم كتاب النذور والكفارة ثم الحدود والاكراه ، ثم كتاب تعبير الرؤيا ، ثم كتاب الفتن وكتاب الأحكام ، وذكر فيه الأمراء والقضاة ، ثم ختم ذلك كله بكتاب التوحيد .

وقسم البخارى كل كتاب من هذه الكتب الى أبواب ، وعدة الكتب ٩٧ كتابا فيها ٣٤٥٠ بابا ، والمؤلف وهو البخارى لم يكن قد وضع كتابه فى صيغته النهائية ، فبعض الناسخين ضم بابا لم يذكر فيه حديثا الى حديث لم يذكر له بابا .

قال الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن أحمد المستملى : « انتسخت كتاب البخارى من أصله الذى كان عند صاحبه (أى صاحب البخارى) محمد بن يوسف الفِرَبْرِى ، فرأيت فيه أشياء لم تتم وأشياء مبيضة ، منها تراجم لم يثبت بعدها شيئا ، ومنها أحاديث لم يترجم لها ، فأضفنا بعض ذلك الى بعض » (يراجع كتاب هدى السارى لابن حجر ج ١ ص ٥) .

وأيا ما كان فقد عُدّ كتاب الجامع الصحيح أصح كتب الحديث ، ولم ينازع أحد فى أفضليته وعدِّه أصح كتب الحديث .

وللبخارى مصنفات غير الصحيح ، كالأدب المفرد ورفع اليدين فى الصلاة والقراءة خلف الإمام ، وله التاريخ الكبير والأوسط والصغير ، وله كتاب الضعفاء والجامع الكبير والمسند الكبير ، وكتاب أسماء الصحابة وكتاب الوجدان وكتاب المبسوط وغير ذلك .

وكان العصر العباسى الأول أكثر عصور الاسلام نشاطا فى التشريع ، وأكثر عددا من الفقهاء والمجتهدين ، وكان للمجتهد فى ذلك العصر الحرية فى استنتاج الأحكام من الكتاب والسنة ، وكما كثر الفقهاء والمشترعون وكثر اجتهادهم ، كثرت المسائل القانونية وأحكام الجزئيات كثرة لا يقاس بها ، ففرعت الفروع وفرضت الفروض ووضع لها الأحكام ، وكانت نتيجة هذه الاستنتاجات والأحكام والفروض وما يتبعها ، جمع الأحاديث الصحيحة التى كانت أساسا تفرع عنه التفسير والفقه وتاريخ السيرة وتاريخ الفتوح والطبقات ، ولما جاء البخارى ونزل ميدان هذه الحياة الفقهية فى هذا العصر الذى كان نسيجا من ألوان الزمان ، كان صاحب الاشعاع القوى ، يوقظ النفس ويحيي الروح ، حتى إذا طالعت كتابه الصحيح أضاء لك ما بين جوانبك ، ورأيت كل شىء حولك صافيا بينا .

والبخارى من أصحاب النفوس والعقول التى لها قوة تنفذ الى ما وراء الحجب ، وتستمد منه ما يستخرج العجب ، فاحساسه القوى بمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام كان إهابه

الموصول بعروق جسمه، المنسوج من لحمه ودمه، وهذا الاحساس بمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام كان الذهب المودع فى خزانة قلبه.

وقد رزق البخارى خصلتين بارزتين مكنتاه من أن يقرب من غرضه:

(١) حافظة قوية لاقطة، وخاصة فيما يتعلق بالحديث، وقد بالغ الرواة فى كثرة ما كان يحفظه عن ظهر قلبه من أحاديث بسندها، وكان يستعين على حفظه بالتقييد وكثرة الفكر، وقد رووا عنه أنه ورد مرة الى بغداد، فعمد أهل الحديث الى مائة حديث قلبوا متونها وأسانيدها، ووضعوا عشرة أنفس، فأورد واحد بعد الآخر الأحاديث المذكورة، والبخارى يقول فى كل حديث منها: لا أعرفه، فلما فرغوا قال: أما الحديث الأول فهو كذا، ورده الى حقيقته، وأما الثانى فهو كذا، حتى ذكرها عن آخرها على حقيقتها. ومن اهتمامه الشديد بالحديث ذكر عنه أنه كان يقوم فى الليل مرارا يأخذ القداحة فيورى نارا ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلّم عليها ثم يضع رأسه.

(٢) مهارته فى تعرف الرجال ونقدهم، وفى ذلك وضع كتابه التاريخ لتمييز الرجال، ورووا عنه أنه قال «قل اسم فى التاريخ إلاوله عندى قصة» (ينظر الخطيب البغدادى) فأمام هذا التفكير النادر المثال، وأمام هذه الشخصية القائمة بنفسها، نرى أننا حيال حكيم ومصور لطبيعة النفوس، وعالم بالنبات والبيولوجيا وبالتشريح، وطبائع الأحياء وفلسفة الأديان، فى كل علم من هذه العلوم كان لبحثه أثر ولرأيه قيمة، وفى جمعه للأحاديث اعتبار ومكانة قلما يعتلى الى شرفتها متسلق، فما من خاطرة جالت فى عقل محدث قبله إلا كان لها مجال فى عقله، وكان له فيها رأى العارف المختبر إن لم يكن فيها رأى المصيب المعصوم.

له نظرة التأمل والاستبانة، أو ما شئت بعد هذا من رأى نافذ فى الأخلاق والعقائد المتفشية فى أيام عظمة الخلافة العباسية، والاجتماع وسرائر النفس، فهو يفهم ماحوله عند الرحيل من قطر إلى قطر، ويشعر بما يصادفه من رجال ومتاع وسماع قصص وروايات رواة، كأنه لامحيد له عن الفهم والشعور والاستمراء، ثم يتحفز بعد ذلك لعمل له أوقاته ومحاولاته، شأن الفيلسوف الحصيف فى جمع الأحاديث، ثم يلتقى بالحديث الصحيح عن الرسول عليه الصلاة والسلام وبسنده بعد طول الجهد والجهاد فى سبيله، كأنه يتنفس أو يؤدى وظيفة من وظائف حياته له بأدائها غبطة وارتياح، لا كأنه ينهض بعبء أو يعالج مشقة مفروضة عليه.

وندرك من هذه المعالجة النفسية أن طبيعة تفكير البخارى التى واجه بها تلك الآفاق الواسعة من العلوم والمعارف التى رواها عن خاتم المرسلين وإمام المتقين محمد صلوات الله وسلامه عليه، هى طبيعة واحدة على تعدد الموضوعات التى قام بحملها مدى ستة عشر عاما، رغم نحافة جسمه (الذى ليس بالطويل ولا بالقصير) ورغم زهده المتواصل وقلة أكله حتى

الـكفاف ، هى طبيعة المتذوق لهذا الجهد المتصل ، طبيعة الصابر لهذا التذوق ، والذى منه يستمتع بتكوين عقيدته ودينه وعواطفه ومعارفه ، كما يستمتع الفنان بتكوين تمثاله .

والرجل كان جيد التفـكير إلى أبعـد الحدود ، فهو الدارس للأحياء وظواهر الطبيعة فى كل شىء ، قوى الذاكرة ، له الفراسة الطبيعية للحكم على الصحة والسقم فى تمييز الحديث .

ولما كان فكر البخارى موزعا بين جمع الحديث ، وجمع حقائق الحديث الصحيح ، دفعه هذا إلى الاستجلاء بحرص وحـذر على الدرس والمواصلة بالحب واليقين ، كالباحث المـدقق يتعلم لينفقه كيف تعيش الطبيعة فى خلائقها .

فالبخارى فى جمع أحاديث الرسول عليـه الصلاة والسلام ، كان سبيله لا مجرد اللذة فى هذا الجمع ، وإنما الشعور بما يعمله فى هـذا الوجود لأداء رسالة مكلف بتنفيذها أو يهلك دون الغاية ، والحياة عنده عبارة عن تفكير يعقبه عمل ، وعمل يعقبه تفكير .

فالمتصوف والمنطرف ، وعاشق المثل الأعلى ، وطالب الواقـع القريب ، والمحـدث الفيلسوف ، والفنان والحـكيم ، كلهم يجـد فى صحيح البخارى نعيما ، ويلمس فيه عظمة ، ويستريح فيه إلى جانب عمله المختص فيه ، ويأخذ منه بنصيب .

فهـذه ألمعية متعددة الجوانب ، يذكر صاحبها مع خلود الزمان ، وخلود عقائد بنى الانسان ؟

عبد الحميد سامى بيومى

البصيرة تغنى عن البصر

أحسن ما قيل فى دفع التعيير بالعمى قول بشار بن برد :

وعيرنى الأعـداء والعيب فيهم	وليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتـقى	فان عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة	وإنى الى تلك الثلاث فقـــير

ولعبد الله بن عباس رضى الله عنه :

إن يأخـذ الله من عينى نورهما	ففى فـؤادى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل	وفى فمى صارم بالقـول مشهور

وفوق هذا كله بلاغة وحكمة قوله تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

رأى الشريعة الاسلامية فى الخمر

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

فتوى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية .

صدرت هذه الفتوى بناء على استفتاء مقدم من إحدى الهيئات تضمن هذه الأسئلة الأربعة :

١ — ما حكم الخمر ؟

٢ — ما هو حد شارب الخمر ؟

٣ — الى أى حد يجوز لغير المسلمين الاتجار فيها وبيعها للمسلمين على رءوس الأشهاد ؟

٤ — ما هو حد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ وما القول فى مسلم ساءه الاستهتار بالدين إذ رأى الحانات تفتح أمام المساجد فدعا المسلمين الى العمل على إغلاقها وقصر بيعها على أهل الذمة فى أحيائهم ؟

وقد أجاب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية على ذلك بما يأتى :

الجواب :

اطلعنا على هذا السؤال ونفيد بما يأتى :

عن المسألة الأولى : إن حكم الخمر فى الشريعة الاسلامية هو الحرمة ، وذلك ثابت بالكتاب والسنة . أما الكتاب فقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » رواه أبو داود والامام أحمد . وروى عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه » رواه أبو داود ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة فى تحريم الخمر . قال ابن قدامة فى المغنى « وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر » .

هذا ، والخمر : كل مسكر خامر العقل وستره . فاسم الخمر يتناول كل شراب مسكر سواء أكان من العنب أم من غيره ، وهذا ماعليه جمهور الفقهاء وأهل الحديث جميعا . ويدل على

ذلك ما جاء فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « خطب عمر رضى الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه قد نزل تحريم الخمر وهى من خمسة أشياء : العنب ، والتمر والحنطة ، والشعير ، والعسل ، والخمر ماخامر العقل » ، وما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنت أسقى أبا عبيدة وطلحة وأبى بن كعب من فضيخ زهو وتمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، فقال أبو طلحة : قم يا أنس فهرقها فهرقتها » والفضيخ بوزن عظيم : اسم للبسر إذا شدخ ونبذ . والزهو بفتح الزاى وسكون الهاء بعدها واو : هو البسر الذى يحمر أو يصفر قبل أن يترطب .

وبعد أن أورد فضيلة المفتى أحاديث كثيرة وأسانيد تثبت أن كل مسكر حرام قال :

ولولا خشية الاطالة لذكرنا هـذه النصوص ، ومن شاء الاطلاع عليها فليرجع إلى كتب الحديث ، أو باب الأشربة وحد الشراب من الجزء الرابع من فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقد ذكر رحمه الله كثيرا من هذه الأحاديث .

ومما ذكرنا كله يتبين جليا أن الحق أن كل مسكر حرام ، قليله وكثيره فى ذلك سواء . ومن هذا كانت الفتوى فى مذهب أبى حنيفة على رأى محمد القائل بذلك .

عن المسألة الثانية : إن حد شارب الخمر هو الجلد ، ولـكن الفقهاء اختلفوا فى مقداره ، فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الامام الشافعى إلى أنه أربعون جلدة ، وعن الامام أحمد روايتان . قال ابن قدامة فى المغنى مانصه (الفصل الثالث) فى قدر الحـد وفيه روايتان ، إحداهما أنه ثمانون ، وبهذا قال مالك والثورى وأبو حنيفة ومن تبعهم لاجماع الصحابة ، فانه روى أن عمر استشار النـاس فى حد الخمر فقال عبد الرحمن بن عوف : اجعله كأخف الحدود ثمانين ، فضرب عمر ثمانين ، وكتب به إلى خالد وأبى عبيدة بالشام .

وروى أن عليا قال فى المشورة : إنه إذا سكر هـذى ، وإذا هذى افترى ، فحدوه حد المفترى . روى ذلك الجوزجانى والدارقطنى وغيرهم . والرواية الثانية أن الحد أربعون ، وهو اختيار أبى بكر (من الحنابلة) ومذهب الشافعى ، لأن عليا جلد الوليد بن عقبة أربعين ثم قال : « جلد النبى صلى الله عليه وسلم أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب إلى » رواه مسلم .

وعن أنس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم برجل قد شرب الخمر فضربه بالنعال نحواً من أربعين ، ثم أتى به أبو بكر فصنع مثل ذلك ، ثم أتى به عمر فاستشار الناس فى الحدود ، فقال ابن عوف : أقل الحدود ثمانون ، فضربه عمر (متفق عليه) ، وفعل النبى صلى الله عليه وسلم حجة لايجوز تركه بفعل غيره ، ولا ينعقد الاجماع على ماخالف فعل النبى وأبى بكر وعلى رضى الله عنهما ، فتحمل الزيادة من عمر على أنها تعزير يجوز فعلها إذا رآه الامام .

والظاهر لنا وجاهة القول بأن الحد أربعون ، وللامام أن يعزر مع إقامة الحد بما يراه أصلح . هذا ، ومن يقيم الحد إنما هو الامام أو من ولاه الامام ذلك .

عن المسألة الثالثة : لا يجوز تمكين غير المسلمين من بيع الخمور ظاهرا فى أمصار المسلمين ، لأن إظهار بيع الخمر إظهار للفسق ، فيمنعون من ذلك ، نعم لهم أن يبيعوا الخمر بعضهم لبعض سرا .

وعلى الجملة لا يجوز الاتجار بالخمر فى أمصار المسلمين على رءوس الاشهاد ، كما يؤخذ هذا من البدائع صفحة ١١٣ من الجزء السابع ، ومن فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية فى باب الأشربة من الجزء الرابع .

عن المسألة الرابعة : إن من أوجب الواجبات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك ثابت بالكتاب الكريم والسنة ، قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ». ومعنى التعاون على البر والتقوى الحث عليهما ، وتسهيل طرق الخير ، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الامكان .

وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان ». وروى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ». الى غير ذلك من الآيات والأحاديث المتظافرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد فصل العلماء شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبينوا حدود ذلك . وأحسن من كتب فى هذا الموضوع على ماراينا هو حجة الاسلام الغزالى فى الجزء الثانى من كتاب إحياء العلوم ، فقد أطال رحمه الله تعالى القول فى ذلك ، وشرح هذا الموضوع شرحا وافيا ، والذى يهمنا فى الاجابة عن هذا السؤال هو ماذكره من أنه : إذا كانت المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن مالم يؤد الى معصية أفحش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية .

فهذا صريح فى أن النهى عن المنكر إنما يكون إذا لم يترتب على هذا النهى منكر أعظم من هذا المنكر ، ومفسدة أشد من مفسدة فعل المنكر ، وهذا هو الذى ينبغى ألا يكون فيه خلاف . وقد قال المحقق ابن القيم فى أعلام الموقعين من الجزء الثالث فى مبحث تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد بعد كلام مانصه :

«فانكار المنكر أربع درجات : « الأولى » أن يزول ويخلفه ضده . « الثانية » أن يقل وإن لم يزل بجملته . « الثالثة » أن يخلفه ما هو مثله . « الرابعة » أن يخلفه ما هو شر منه . فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة »

وحينئذ لا يجوز الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر إذا ترتب على ذلك مفسدة أشد وشر أعظم من ترك المعروف وفعل المنكر .

ومن هذا يعلم أنه إذا كان المسلم الذى ساءه الاستهتار بالدين إذ رأى الحانات تفتح أمام المساجد الى آخره ، دعا المسلمين الى العمل على إغلاق هذه الحانات بطريقة لا يترتب عليها شر أعظم ولا فتنة أكبر : بأن دعاهم الى مطالبة أولى الأمر بمنع فتح هذه الحانات والاتجار بالخمر ، ومنع سائر المنكرات التى فشت فى الأمة فأماتت القلوب وأفسدت على العقول إدراكها ، فأصبح كثير من الناس يستحسنون القبيح ويستقبحون الحسن ، وفقدت منهم قوة التمييز بين الخير والشر والنافع والضار والحسن والقبيح — كان هذا المسلم ومن يقوم معه قد أدوا ماهو واجب على حسب استطاعتهم .

أما إذا قاموا بأنفسهم بإزالة هذا المنكر وتغييره بأيديهم ، وكان هذا مما يترتب عليه فتنة وشر بالأمة أعظم من الاتجار بالخمر ، فذلك مما لا يجوز فعله ، بل هو محظور لما يترتب عليه من المفاسد والمضار كما قدمنا .

هذا وقد ذهب أبو حنيفة رحمه الله الى أن تغيير المنكر باليد إنما هو على الأمراء والحكام ، والتغيير باللسان على العلماء ، والتغيير بالقلب على العوام ، ذهابا منه الى أن التغيير باليد يعتمد القدرة ، وأنه لا قدرة لغير الأمراء والحكام . ولكن حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده الخ » نص كما قال العلامة البركوى فى كون الواجب على هذا الترتيب على كل شخص ، وهو قول أكثر العلماء ، وهو المختار للفتوى . غير أن الأمر مقيد كما قلنا سابقا بما إذا لم يترتب على ذلك شر أعظم ومفسدة أكبر .

وخلاصة القول : أن الشريعة الاسلامية ، كما قال المحقق ابن القيم ، مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها . فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث ، فليست من الشريعة . فإذا أمرت بشىء فإنما تأمر به لما فيه من المصلحة الراجحة ، وإذا نهت عنه فإنما تنهى عنه لما فيه من المفسدة الراجحة .

فعلى المسلم حينئذ أن يتبع قواعد دينه ، فيكون حكيما فى دعوته الى الله ، وفى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

هذا ما ظهر لنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

منطق الدين

محاولة وضع أداة علمية لتمييز الدين الحق

الأصل الثالث :

الغرض من الدين ، وما يجب أن يقوم عليه من أصول :

لقى العلم من رجال الدين فى أوربا طوال عهد القرون الوسطى ، وهى تزيد عن ألف سنة ، عنتا لم يسبق له مثيل فى الشدة بين طائفتين ، فى جميع تاريخ النوع البشرى . فقد أسست محكمة خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يعده رجال الدين مخالفا لآراء الكنيسة ، وكان إذا ثبت على أحدهم شىء من ذلك استتيب ، وأخذت عليه المواثيق بأن لا يعود اليه ، فإن عاد قبض عليه وألقى حيا فى النار . فأهلك على هـذه الصورة فى مدى القرون الوسطى رجال من ذوى الألمعية العالية ، ومن العباقرة المجددين ، من نيّف عددهم على ثلاثمائة ألف نسمة . ولكن هـذه العقوبة على فظاعتها لم تردع طلاب النور ، بل زادت عددهم ، فكانوا يظهرون كالكواكب الساطعة فى تلك السماء المكفهرة ، وكلما خبا واحد منها حل محله غيره ، غير حاسب لسوء المنقلب حسابا . واستمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين ، لنشوء الشقاق العظيم بينهم ، بظهور البروتستانتية ، وصبوء ممالك برمتها اليها . والبروتستانتية اضطرت لاجتذاب النفوس اليها ، أن تطلق الحرية للعقول ، فخرج العلم منتصرا ، ولكنه من فداحة مالحقه من اضطهاد رجال الدين ، جعل أول ما فكر فيه إسقاطهم وإسقاط ما يقدسونه من العقائد ، فلم يدعوا ثغرة توصلهم الى هذه الغاية إلا اقتحموها ، وأذاعوا ذلك بين الناس ، فانتشر الالحاد بين جميع الطبقات ، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلا على الجهل .

ونحن لأجل أن نعطى القارئ مثلا مما كان يهاجم به الدين فى ظلال حرية الفكر ، ننقل له طرفا من أقوال العلماء : جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة (دين) ما يأتى :

« إن قلنا : إن الذوق الانسانى يقتضى اعتقاد الأشياء التى يمكن تعقلها ، يقولون : لا ، لا ، ثم يحاولون إذلال هـذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم تعمية عين العقل ، وتغشية باصرة البصيرة ، الى حد أن تعتبر المعجزات أمورا عادية ، وأن تتوهم الأبيض أسود ، وأن تعـد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهيب بالناس الى الطاعة . فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، أم واجباتنا الطبيعية ، أم إحساساتنا القلبية ؟ أنطيع القوانين الحقة المفيدة للانسانية ، والتى تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ أجابوك : لا ، ولكن أطع وأنت أعمى . الخ الخ »

وقال العالم فوير باخ وقد نقلته عنه دائرة المعارف السابقة : « إن الفضيلة الدينية وخاصة الفضيلة العليا ، أى فضيلة القديسين ، هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تطرح سائر الأعمال والأشياء الدنيوية ، باعتبار أنها لهو باطل ، لأجل أن تستطيع بدون ترويح لنفسك ، وبقلب منكسر ، أن تذبل فى انتظار الجنة ، وأن تقتل جميع عواطفك وميولك الطبيعية ، وتميت نفسك وتذللها » .

يرى القراء مما مر أن هؤلاء العلماء خلطوا بين الأديان وبين ماعلقه عليها زعماؤها من تعليقات وشروح وتأويلات ، ولسنا نشك فى أنهم لو جردوا كتبها من هذه التوسعات ، واكتفوا بما فيها من نصوص الوحى لأمكن اتقاء أكثر هذه الانتقادات . وقد اتبع كثير منهم هذه النزعة من الاعتدال ففصلوا بين ماهو وحى وما هو شرح أو تأويل ، ولكنهم فى النهاية أظهروا اليأس من خنوع قادتها للفصل بينها ، لما رأوا من تشددهم فى الدفاع عنها . من هؤلاء الاستاذ (بنجامان كونستان) فانه بعد أن أفاض فى كتابه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) ، فى إيراد العلل التى نهكت الجماعات البشرية من جراء المعتقدات الباطلة ، رأى وجوب تجريد الأديان منها ، ولكنه عاد فأظهر يأسه من قبول رؤسائها لهذا التجريد فقال : « بهذه الطريقة تخلص الأديان من أوهامها ، ولكننا لانخال ذلك يتحقق ، لاعتقادنا أنها لا تتنازل عن عقيدة من عقائدها . ولما كانت هذه العقائد تناقض العلم وتعارضه ، فيكون من المقرر الثابت امحاء الأديان وزوالها »

ولم يغفل الأستاذ بنجامان كونستان هذا تعليل زوال تلك الأديان فقال :

« إن كل قاعدة مهما كانت نافعة فى عهد فلا بد أن تكون محتوية على جرثومة تعطل الرقى فى عهد مستقبل . لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى مسايرته فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتهذبه . إذا حدث ذلك انفصلت العاطفة الدينية عن تلك القاعدة المتحجرة ، وتطلبت سواها من القواعد التى لاتجرحها ولا تحرجها ، ولا تزال تضطرب حتى تصادفها »

العاطفة الدينية غريزة طبيعية لا تقبل الزوال

بعد أن اشتد العلم فى أوربا ضد رجال الدين حتى تصدى للدين نفسه كراهة لهم ، عقب ذلك عهد سكينة واعتدال ، فنظر أقطابه فى الدين نظرة تثبت وتحقيق ، فظهر لهم أنه يقوم من النفسية الانسانية على غريزة طبيعية لا يمكن إزالتها ، ولا تعفية أثرها . قال الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من متع الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أيضا أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية ، والعلم ، والفنون ؛ ولكن يستحيل

أن ينمحي الدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » .

وقال العلامة (هنرى بيرانجيه) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، وهو الآن مدير لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشيوخ الفرنسي :

« إذا كان النقد التاريخي قد هدم كل الأشكال الثابتة غير القابلة للتغير في الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية ، بل قد شهد باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ، وإن كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففي كل جهة وكل زمان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في أخس الأديان الوثنية كما في أرقى المذاهب الروحية . هذه هي الشرارة النفسية التي استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المستحيل عليه أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

وقال الفيلسوف الألماني (جيبزلر) في كتابه (تاريخ المعتقدات) :

« الدين خالد مثل خلود الاحساس الذي ينتجه ، ولكن علوم الدين مثل سائر العلوم يجب أن تكون قابلة للرقي على قدر الرقي العقلي ، وذلك مثل العلاقة الموجودة بين الحقوق وعلم التشريع ، فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام » .

وقال الفيلسوف المشهور (أجوست سباتييه) في كتابه (فلسفة الأديان) :

« لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا رأيتني محفوزا للاجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأني لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنوي من لوازم ذاتي يقولون لي : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم : قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض عينه ، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وإن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية ، فهي ليست أقل تشبثا مني بأهداب الدين . الى أن قال : فالدين إذن باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك الينبوع يزداد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي ، والتجارب الحيوية المؤلمة » .

نقول : يتضح من هذا أن الرأي العلمي في الدين قد تم نضجه ، فبعد أن بدأ العلم حياته ، بسبب السخيمة التي كان يشعر بها في نفسه ضد رجال الدين ، مناوئا للدين ، عاد بعد أن عجز عن هدم الدين عقب كل مابذله من جهد وعنف ، يثبت بالدليل المحسوس أن الدين لا يمكن هدمه لأنه غريزة طبيعية في النفس البشرية . ولكنه مع هذا يرى أن كل ماحمله الدين من الشروح والتأويلات والأفكار البشرية زائل لا محالة . فلو اتفق وجود دين خال من خليط الآراء

البشرية ، ومزيج التأويلات الكلامية ، ولم يحتو إلا على أصول أولية ، ومبادىء بدهية ، فإن ذلك الدين يكون هو الحق ويتعين الاخذ به ، قال الفيلسوف الألمانى (كَـنت المشهور) :

« الديانة الحقة الوحيدة هى التى لا تحتوى إلا على قوانين ، أعنى قواعد صالحة للجرى عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » .

***

الى هنا انتهى علم العلماء الراسخين ، وفهم الفلاسفة المتثبتين ، وهى نهاية لا محيص عنها ، وهى نفسها الصفة المميزة للديانة الحقة التى يقرها العلم والفلسفة ، والتى ستكون — إن كانت موجودة — ديانة العالم أجمع يوم يتجرد من وساوسه ، ويتخلص من أوهامه ، ويلقى عن عاتقه آصار الموروثات الاعتقادية ، وأوزار الشروح الكهنوتية ، والتأويلات الكلامية .

كل الذى نأخذه على العلم والفلسفة فى هذا الموطن هو أنهما تسرعا فقررا عدم وجود هذه الديانة لدى طائفة من المتدينين فى العالم ، وأن كل ما يوجد منها لا يصلح أن يكون دينا للبشرية الراقية . قال العلامة (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره فى ذلك الموطن نفسه :

« إن حل المسألة الدينية هى أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتمدنة يتوقف على حلها . ثم قال :

« إننا لنرجو أن يتحقق هذا الحل ، لا سيما وقد تألفت الديانة القلبية ومحصت بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فإن (جان جاك روسو) و (لامرتين) و (لامُنّيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة (الجديدة) . وقريب منا (إرنست رينان) و (جيو) و (شوريه) و (ساباتييه) قد أعطوها قوة عظيمة » انتهى .

فإن سأل سائل : ما هى أصول هذه الديانة الجديدة ؟ أجبناه بما ذكره عنها الفيلسوف الفرنسى المشهور (كارو) فى كتابه : (البحوث الأدبية على العصر الراهن) فقد قال : « هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها ، وهو متميز عن عالم الكون والفساد وعن النوع الانسانى ، ووجود روح فى جسم الانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمدا لتبتلى فيه ، هذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء ، كما يمكنها أن تسفله باخلادها الى المادة العمياء ؛ والاعتقاد برفعة العقل على العواطف ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعات الموت بالزهادة ؛ وأخيرا الاعتراف بقانون الترقى ، ولكن بدون فصل رقى الانسان فى معارج السعادة المادية ، من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

وقال العلامة الكبير (جول سيمون) الفرنسى فى كتابه (الديانة الطبيعية) :

« كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شيء لا يغيره شيء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى كل وعود هذه الحياة ، وتجزى الظالم بالجزاء الأوفى » انتهى

نقول : لو كان هؤلاء العلماء أجادوا البحث فى الديانات القائمة اليوم لوجدوا طلبتهم فى إحداها مما لم تتناولها أيدى التحريف ، ولكن يجوز أن الذى صدهم عن مثل هذا التعمق فى البحث أنهم لم يصادفوا لها مظهرا ماديا من أحوال الشعوب التى تدين بها فلم يريدوا أن يتعبوا أنفسهم فى تلمسها من كتبها .

تطبيق هذا الأصل على الاسلام :

هل تتوافر الشروط التى يتطلبها العلم والفلسفة للدين الحق ، على الاسلام ، فيكون هو الدين الذى يصدق عليه أنه الدين العام للبشرية ؟

إنها تتوافر فيه ويزيد عليها إيذان من الله للناس كافة بأنه الدين العام الخالد . فلننظر الآن فى هذه الشروط وفى وجوه انطباقها على الاسلام :

يكتفى العلم والفلسفة حيال الديانة الحقة بأن يتوافر فيها شرطان اثنان : (أولهما) أن لا يكون فيها غير قوانين أى قواعد صالحة للجرى عليها تشعر النفوس بضرورتها المطلقة ؛ و (ثانيهما) أن تكون خالية من الأساطير الخرافية والتعاليم الكهنوتية .

والشرط الأول مجمل يحتاج لتفصيل ، فان القوانين أى القواعد الصالحة التى تشعر النفوس بضرورتها المطلقة تشمل ما هو خاص بالاعتقادات وما هو خاص بالمعاملات والعبادات ، وما هو متعلق بالمحللات والمحرمات ، إذ لا يعقل أن يخلو دين منها .

فهل كل ما فى الاسلام مما هو خاص بهذه الأمور يعتبر قوانين صالحة لأن يجرى الناس عليها ، بل يشعرون بضرورتها المطلقة ؟ لننظر فى ذلك :

ما هو خاص بالاعتقادات فى ديانة القرآن :

أول ما طالب القرآن الناس به من هذا الأمر الجلل : (الاسلام) ، ومعناه لغة : الاستسلام ، والمراد به شرعا : الانقياد الى إرادة الله ، وعدم التعصب للموروثات والتقاليد والعادات والأهواء والأوهام ، للتذرع بها الى مقاومة إرادة الله .

ولكن أين هى إرادة الله ، وكيف نميزها من إرادة المدعين ؟

إرادة الله ممثلة فى الطبيعة ، وفيما أنزله مصدقا ومهيمنا عليها من شريعة . فكل شريعة

تنافى الطبيعة ومافيها من العنصر العقلى ، لا تكون شريعة لله ، فان الله أجل من أن ينقض قوله فعله .

من هذا الأصل أصبح لدينا أداة مميزة ، للتفرقة بين ما هو إلهى من الشرائع وما هو مفترى على الله . فماذا دعا اليه القرآن تحت هذا الضوء القوى من التمحيص ؟

دعا الى إقامة الدين ، الدين الذى ينطبق عليه هذا الشرط ، فدعا الى دين الفطرة « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد بينا لك فى فصل سابق أن الانسان مفطور على الاعتقاد بصانع قدير حكيم ، وبوجود حياة وراء هذه الحياة ، وعلى إكبار الفضيلة ، واحتقار الرذيلة ، وعلى حب الخير وكراهة الشر الخ . وقد اهتدى كبار علماء أوربا الذين قاموا بوضع الدين الطبيعى الى هذه الأصول كما رأيت . وهذا أدل دليل على أنها فطرية أى طبيعية ، وأن النفس تشعر بضرورتها المطلقة حفظا لوجودها .

ولكن الاعتقاد بالله واليوم الآخر ، وبضرورة الأخلاق الخ ، قد جر الناس الى الاختلاف فيها ، والتناحر عليها ، فأيهما على حق وأيهما على باطل ؟

الخطب سهل ، وهو النظر أيها يوافق الطبيعة ، وهى عمل الله ، وأيها يخالفه ، والأداة الطبيعية للتمييز هو العقل ، فالذى يوافقه يكون هو الحق .

العقل لا يسلم أن يكون خالق الكون مما يمكن إدراكه بالحواس ، ولا معرفة كنهه بالفكر ، ويرى أنه يجب أن لا يشبهه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أن لا يحاط به علما : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

ويرى هذا العقل وجوب الوقوف من جميع المعتقدات عند هذه الحدود الطبيعية ، وأن لا يصار فيها الى ما تستحسنه الأهواء ، أو تصوره الأوهام ؛ وأن لا يعول فيه على التقليد ، ولا على الوراثة ، لأن هذه كلها تفضى الى الأخذ بما لم ينزل به الله سلطانا ، وتكون عرضة للاختلاف والتنابذ بين الناس ، كما هو مشاهد محسوس بين عقائد البشر ، ومراد الله أن يجمعوا على كلمة واحدة لا يتطاول إليها النقد ولا التجريح ، ولا تخالف ما وضعه الله من أداة لتمييز الحق من الباطل .

وقل مثل هذا فى كل ما يختص بسائر المعتقدات ، وهذا هو الذى قرره الاسلام ، فقد دعا الى الله ، وأقام على وجوده الدليل ، فقال : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ »

ثم أمر أن يرجع الى حكم العقل فى كل ما يندرج فى باب الاعتقادات ، وأن يقام عليه

الدليل ، وأن يتجنب فيه التقليد للآباء ، والتعويل على الأهواء ، والأخذ بالظنون ، فقال تعالى : « لعلكم تعقلون » « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، « إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » ، « ولا تقف ماليس لك به علم » « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقال تعالى فى الكافرين : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » أى يكذبون

ما هو خاص بالمعاملات :

إن ما وضعه الاسلام من الأصول للمعتقدات يسرى على المعاملات أيضا . فقد جعل أساسها العدل الطبيعى المطلق ، لا العدل الانسانى المقيد ، والفرق بينهما أن الأول لا يعتد باختلاف الأجناس والألوان واللغات والأديان والأحوال فالكل فى نظره سواء ، والعدوان فى نظره عدوان بصرف النظر عمن ارتكبه وعمن ارتكب ضده ، وجزاؤه لا يتغير بتغير الأشخاص . وأما الثانى فيفرق بين الناس اعتبارا لكل هذه الفروق .

وقد أمر الاسلام الانسان بالعدل حتى فى مواطن القتال فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم . وقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وأمر فوق ذلك أن لا يجهز على جريح ، ولا يتعقب مهزوم ، ولا يقتل خدمة المحاربين ، ولا يعتدى على الشيوخ ورجال الدين والنساء والأطفال والعبيد ، وأن لا تخرب بلادهم ، ولا تحرق ثمارهم ، وأن يحسن الى أسراهم ، بل أمر أن لا يُسَبوا ، فقد سب قوم قتلى وقعة بدر فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وقال للسابين : « لا تسبوا هؤلاء فانه لا يخلص اليهم شئ مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم »

إن دينا يأمر أهله بمعاملة أعدائهم على هذا النحو لجدير أن يعتبر مثلا أعلى فى المعاملات ، وأن تتسارع الأمم الى الدخول فيه .

ليس فى الاسلام جزئية من جزئيات المعاملات إلا وأحيطت بمثل هذه التعاليم العالية القدر ، الجديرة بالاكبار والاجلال ، وليس يتسع لنا هذا الفصل لنأتى على تفصيل لهذا الاجمال ، وحسبك أن تعرف ما وصى أهله به فى حالة الحرب لتدرك مبلغ ما وصاهم به فى الأحوال العادية ، فى جميع ضروب المعاملات ، من المساواة والانصاف ، وتجاهل جميع الاعتبارات فى نصرة الحق على القوة ، وتحرى العدل الطبيعى المطلق فى كل حال .

ما هو خاص بالعبادات :

فى كل الأديان عبادات ، وهى أعمال قصد منها تهيئة الانسان للاتصال بمبدعه فى أحوال خاصة من الركوع والسجود ، أو الامساك عن الطعام ، أو الحج إلى أماكن مقدسة الخ ، وحتى هذه العبادات فى الاسلام تجدها مدبرة تدبيرا بحيث تلائم الطبيعة ولا تشذ عن دائرة الأمور المعقولة . وقد قرر لها الاسلام دستورا عاما يتألف من أصول رئيسية لا بد من مراعاتها فيها ، وهى :

(١) التكليف بقدر الاستطاعة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »

(٢) فرضت العبادة لاصلاح الانسان لا لتسخيره ولا إعناته : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) الضرورات تبيح المحظورات : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه »

(٤) يجب الاعتداد فى العبادات بحالة الانسان من الضعف والقوة ، ومن الصحة والمرض ، وبواجباته نحو نفسه وأسرته ومعاشريه ومجتمعه . يفصل لك هذا الاجمال كله ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يبالغ فى العبادة . فقال له : ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قال : بلى يارسول الله وإنى لأطيق ذلك . فقال له : كلا ، بل قم ونم ، وصم وأفطر ، فان لبدنك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولزَوْرك عليك حقا (أى ولزائريك) . الحديث .

(٥) العبادة الروحية والعقلية خير من سائر العبادات . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « درهم من عمل القلب خير من مثل جبل أحد من عمل الجوارح » . وقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وقال : « ما تقرب أحد إلى الله بشىء أفضل من طلب العلم » . وقيل له يوما : ليس فينا يارسول الله من يشبهك فى العبادة غير فلان ، فانه منقطع لها لا يزاول عملا سواها . فقال لهم : فمن يعونه ؟ قالوا : يارسول الله كلنا نعونه . فقال لهم صلى الله عليه وسلم : « كلكم أفضل منه » الحديث .

(٦) كل الأعمال التى يقصد بها الانسان غاية شريفة لنفسه أو لأسرته أو لمجتمعه أو لبنى نوعه ، أو لأى كائن من الكائنات ، يعتبر فى الاسلام من أجل العبادات : كبدء صاحب السلام ، وقضاء حاجة لمضطر ، وتنفيس كربة لمكروب ، وكاماطة أذى عن طريق ، وصلة رحم ، وإسعاف ،

حيوان ، وسقى نبات صديان ، الخ الخ ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن المرء ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته » .

***

هذه العبادات كلها أعمال شخصية واجتماعية تعتبر من أخص ما تقتضيه الحياة المدنية ، وقد رأيت أن الاسلام يرفع قيمتها على العبادت البدنية ، ويحض عليها بكل ضروب المغريات الثوابيــة فى الدنيا والآخرة . ومن أعجب ما تقــدمه من الأمثلة على ذلك ما رتبه على تنظيف الاسنان بالسواك ، والاستحمام يوم الجمعة ، من أجل المــكافآت .

أمثال هذه العبادات يستحيل أن تصادف اعتراضا من أحد من المفكرين ، ولا أن تثير شكا فى كونها من أجل العبادات المستوجبة لأرقى الدرجات ، إن أريد بها وجه الله ، فى نظر أناسى قيل لهم إن الفضيلة هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تذبل فى انتظار الجنة ، كما رأيت ذلك فى مقدمة هذا الفصل .

خلو الاسلام من الآراء الـكهنوتية :

من الشروط التى يرى العلم والفلسفة وجوب توافرها فى الدين الحق ، خلوه من الأساطير والتعاليم الـكهنوتية . وهل شرع الاسلام إلا لتحقيق هذا الغرض نفسه أى لتخليص البشر من سلطان الأساطير القديمة ، والتعاليم التى سنتها طوائف نحلت نفسها حق الوساطة بين الله وخلقه ، فأثقلوا عواتق الشعوب بتكاليف لا تقصد بها إلا تذليلهم لعبادتهم ، وتسخيرهم لخدمتهم ؟ لذلك لم يدع الاسلام وجها من وجوه التأثير فى إسقاط مكانات الأساطير ، ومكانات المسيطرين ، إلا أتى به لاسقاط دولتها ودولتهم ، قال الله تعالى فى الأساطير : « إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس » ، وقال : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . وقال فى إسقاط المسيطرين على الأديان : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » . وليس بعد هذا استفظاع للاستسلام لمدعى الوساطة بين الله والناس . ومما يحسن إيراده فى هذا الموطن أن عدى بن حاتم ، وكان من أهل الـكتاب ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما كنا نعبدهم يارسول الله . قال : أو لم يكونوا يحلون لـكم ويحرمون ؟ قال : بلى . قال النبى صلى الله عليه : فذاك . أى هو ذاك . ومعناه أن التسليم لهم بحق التحليل والتحريم يعتبر عبادة لهم ، فان ذلك من حق الله وحده .

وقال تعالى : « إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العــذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة (أى رجعة الى الدنيا) فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار » . وقال تعالى : « وقالوا (أى يوم الحساب) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب

والعنهم لعنا كبيرا » . وقال تعالى : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » . أى أن لكل من المقلدين والمقلدين عذابا ضعفا . ولا مشاحة فى أنه يستحيل أن يؤتى بأبلغ من هذا الزجر فى إسقاط الذين يعطون أنفسهم حق السيطرة على أرواح الشعوب ، وفى ردع الذين يأخذون ما يلقونه اليهم باعتبار أنه واجب الاتباع .

وقد نهى الاسلام عن تقليد أى إنسان كائنا من كان ، إلا بعد محاكمة أقواله الى العقل ، فقال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » وفى آية أخرى : « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

وقد نبه جميع أئمة المسلمين الى خطر التقليد ، وأهابوا بالناس الى استعمال عقولهم فى كل ما يلقى إليهم . فقال الامام أبو حنيفة : « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » ، وقال : « هذا رأى أبى حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب » .

وكان الامام مالك إذا استنبط حكما قال : « انظروا فيه فانه دين ، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) .

وقال الامام الشافعى لتلميذ له : « يا أبا إسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين » .

وقال الامام احمد بن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة » .

وقد أجمع المسلمون على ذلك فى كل زمان ومكان حتى يومنا هذا .

* * *

وبعد : فقد ثبت من كل ما مر أن الدين الذى يتطلبه العلم والفلسفة هو الاسلام ، فقد توافر فيه شرطاها ، إذ ليس فيه كما رأيت إلا قوانين تشعر النفس بضرورتها المطلقة ، وهو مجرد عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية ؟

محمد فريد وجدى

فرعوں

أصل اللفظ ومعناه — أصل الفراعنة — فراعنة الأنبياء
فرعون إبراهيم — فرعون يوسف — فرعون موسى .

١ — أصل اللفظ ومعناه :

قال المسعودى : إنه لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية . وقال الراغب : فرعون اسم أعجمى ، وقد اعتبرت عرامته (شدته وتجبره وصعوبة خلقه) فقيل : تفرعن فلان ، إذا تعاطى فعل فرعون . وجاء فى اللسان والقاموس : الفرعنة : الكبر والتجبر ، والدهاء والنكر ، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وهو ذو فرعنة : أى دهاء وتكبر . ويقال : فِرعَون على وزن فِعلَون ، وفرعون (بضم الفاء وفتح العين) وفرعون (بضمهما) وهى لغة نادرة .

وهو ممنوع من الصرف فى قول بعضهم ، لأنه لا سمى له ، كإبليس فيمن أخذه من أبلس ، قال ابن سيده : وعندى أن فرعون هذا العلم أعجمى ، ولذلك لم يصرف .

وهو اسم لكل من ملك القبط ومصر فى الزمن القديم ، وقيل : هو لقب لمن ملك العمالقة ، ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وخاقان لملك الترك ، وتبع لملك اليمن ، والنجاشى لملك الحبشة . وقيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه ، وهو صاحب موسى عليه السلام .

والإطلاق الأول هو الأظهر ، لأنه يتفق وما جرى عليه العرف بين المؤرخين قديما وحديثا من تسمية العصر التاريخى الذى يبتدئ بظهور « مينا » وينتهى بانتهاء الأسرة الحادية والثلاثين بعهد الفراعنة ، وتاريخ الفراعنة ، ومن عدم إطلاقهم ذلك على أى عصر من العصور التاريخية الأخرى ، ولأن الواقع يؤيد أن الدول التى ملكت مصر بعد أيام الفراعنة كانت من سلالات أخرى غير السلالة الفرعونية ، وكانت لهم فى الحكم والملك والحضارة صبغة وطابع تخالف صبغة الفراعنة وطابعهم .

٢ — أصل الفراعنة :

هناك آراء كثيرة فى نسب الفراعنة ، وأرجح الآراء الحديثة الرأى ، الذى أخذ به معظم المؤرخين الحديثين ، وهو رأى الأستاذ « برستد » معلم التاريخ المصرى القديم ، وتاريخ المشرق بجامعة شيكاغو ، وذلك أن المصريين الأولين الذين كانوا يقطنون مصر قبل أجداد « مينا » قوم من سكان أفريقيا المعروفين باللوبيين ، أما أجداد « مينا » فقد ثبت أنهم قوم ساميو الجنس ، قدموا إلى مصر من آسيا ، وينسبون إلى سام بن نوح عليه السلام ، ويدل على ذلك أن ما وصل الينا من لغتهم يغلب فيه العنصر السامى على غيره ، وقد امتزج العنصران

الافريقى والأسيوى، واندمجت الولايات الصغيرة تدريجيا، حتى تكونت منها مملكتا الشمال والجنوب، ولما ظهر مينا تمكن من ضم المملكتين، وكون منهما مملكة مصرية عظيمة، كان هو أول الفراعنة الذين جلسوا على عرشها. ثم تتابعت الأسرات والملوك إلى أن انقرضت دولة الفراعنة سنة ٣٤٠ قبل الميلاد، بعد أن حكموا وادى النيل نحو ٤٠٠٠ سنة

٣ — فراعنة الأنبياء :

ذكر ابن الجوزى أن فراعنة الأنبياء ثلاثة : فرعون الخليل، وفرعون يوسف، وفرعون موسى، وهو فرعون هرون.

وذكر بعض المؤرخين أن سليمان بن داود عليهما السلام تزوج بنت أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين، وأتى بها إلى مدينة داود. ولعله لم يعد فى فراعنة الأنبياء، لأن الأمر لم يزد بينه وبين سليمان على حصول تلك المصاهرة، بخلاف ما كان بين ابراهيم ويوسف وموسى وهرون وبين فراعنتهم من حوادث سجلها التاريخ، وعنيت بها الكتب المنزلة.

ونحن متحدثون هنا عن فراعنة الأنبياء بما استطعنا أن نصل اليه بشأنهم، بعد البحث والاستقصاء، وبعد الرجوع إلى أهل الذكر فى هذا الموضوع الغامض الدقيق.

٤ — فرعون إبراهيم :

يغلب على ظن الجمهور من المشتغلين بتاريخ مصر القديم بحثا وتأليفا، أن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى مصر كان زمن أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويحكى بعضهم إجماع العلماء على ذلك، ولكنهم جميعا لم يستطيعوا الى الآن إقامة الدليل الكافى على تعيين الملك الذى جاء ابراهيم إلى مصر فى عهده.

فذهب بعضهم الى أنه « أسرتش الأول » ثانى ملوك الأسرة الثانية عشرة، وهو الذى أشركه معه أبوه « أمنمحعت الأول » فى الحكم، بقصد تدريبه على إدارة شئون البلاد، ومن أشهر آثاره مسلة عين شمس، وقد بقى فى الحكم من سنة ١٩٨٠ الى سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد. وذهب آخرون الى أنه « أمنمحعت الثالث » سادس ملوك الأسرة الثانية عشرة، وهو صاحب أعمال عظيمة، وآثار فخمة، واستمر فى الملك من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٠١ قبل الميلاد.

والكتب العربية تدعو فرعون ابراهيم « سنان »، وتذكر له نسبا يصل الى نوح عليه السلام، وسنتحدث عن قصته مع ابراهيم حين الكلام على ابراهيم إن شاء الله تعالى.

٥ — فرعون يوسف :

يرجح المؤرخون أن قدوم سيدنا يوسف عليه السلام الى مصر، وحدوث ما حدث له، كان ... الأسرة السادسة عشرة.

ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أنه لم يبق شك فى أن يوسف الصديق عليه السلام قد دخل مصر فى عهد الأسرة السادسة عشرة .

أما ملوك هـذه الأسرة ، فهم من قوم فاتحين ، أغاروا على مصر حوالى سنة ١٦٥٧ قبل الميلاد ، وهم الذين يدعون باليونانية « هيكسوس » أى الملوك الرعاة ، ويسمون فى الكتب العربية بالعمالقة .

ولم يعرف من ملوك هذه الأسرة الذين يبلغ عددهم اثنين وثلاثين إلا ملك واحد ، يسمى باللغة المصرية القديمة « إبابى » ، والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ، والمؤرخ مانيتون يدعوه « أبوفيس » ، وهو الذى وفدت فى أيامه السيارة التى باعت يوسف بن يعقوب الى «فوتى فارع» المذكور فى التوراة « فوطيفار » — عزيز مصر .

وقد انتهى أمر يوسف مع هذا الفرعون الى أن جعله أمينا على خزائن الأرض .

٦ — فرعون موسى :

تحدث القرآن عن فرعون موسى أكثر مما تحدث عن غيره من فراعنة الأنبياء ، فذكر قصته فى غير موضع منه ، وعرض لها فى كثير من آياته وسوره ، ولعل السر فى هذا — والله أعلم — هو تبيان ما وقع على بنى إسرائيل فى ذلك العهد من ظلم واضطهاد ، وما أصابهم من بطش وعنف ، وما قاموا به من نضال وكفاح ، وتذكير الناس بفضل الله على عباده ، ورحمته بخلقه ، وتفصيل جهود الأنبياء وما بذلوه من عناء ومشقة فى سبيل تبليغ دعوتهم ، وإيراد هذه المعانى وما يشبهها فى أساليب مختلفة ، وعبارات منوعة ، ليكون ذلك أعمل فى النفوس ، وأملك للقلوب ، وأبلغ فى التأثير .

أدرك موسى عليه السلام عهدى ملكين من ملوك الأسرة التاسعة عشرة يقال للأول منهما « فرعون الاضطهاد » لأنه اضطهد بنى إسرائيل ، وقسا فى معاملتهم ، وشدد الوطأة عليهم ، ويقال للثانى « فرعون الخروج » لأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى عهده .

فأما فرعون الاضطهاد ، فهو رمسيس الثانى ، المعروف برمسيس الأكبر ، وقد ولد موسى فى زمنه ، وتربى فى بيته ، بعد أن التقطه آل فرعون من نهر النيل الذى كان قد ألقى فيه بالهام من الله تعالى لأمه ، وكانت قـد وضعته فى سفط من البردى ، لأن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنه يقى من التماسيح وغيرها من الحيوانات الضارة .

وقـد شيد رمسيس كثيرا من المبانى فى جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها أخبار حروبه وانتصاراته ، فأكسبه ذلك شهرة فائقة فى التاريخ ، جعلت كثيرا من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر ، وبلغ من إعجاب خلفه به أن عشرة منهم سموا أنفسهم باسمه على التوالى .

وكان قد بلغه ما هو مشهور فى بنى اسرائيل يومئذ من أنه سيخرج منهم غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، كما كان يخشى أن ينضم بنو إسرائيل الى اعدائه ويمالئونهم عليه إن حدث حرب ؛ خصوصا أنهم صاروا عددا عظيما ، ونموا وتكاثروا ، فاضطهدهم ، وزاد فى تعذيبهم ، وسخرهم فى تشييد المبانى ، واستخدمهم فى أخس الصنائع ، وأدنأ الحرف ، وأمر بذبح أبنائهم ، وطرحهم فى البحر ، واستحياء نسائهم « إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » واستمر فى معاملتهم على هذا المنوال الى أن مات بعد أن حكم ٦٧ سنة .

ومما يعرف عنه أنه كان جميلا وضيئا ، وقد تزوج بكثيرات ولدن له نحو المائتين من الأولاد . وقد دفن فى مقبرة بيبان الملوك ، ثم نقل الى الأقصر ، لأسباب غير معلومة ، ثم نقل الى متحف بولاق .

وأما فرعون الخروج ، فهو « منفتاح الأول » الابن الثالث عشر لرمسيس الأكبر ، وقد أشركه معه أبوه فى الحكم قبل وفاته ، وأخذ ولاية العهد وهو مسن ، وقد عاصر موسى وهو يتربى فى بيت أبيه .

وكان منفتاح مولعا بتشييد المبانى كأبيه ، وكان يمحو أسماء الملوك من الآثار التى شيدوها وينقش اسمه مكانها ، وقد فعل ذلك بكثير من آثار أبيه نفسه ، ولولعه بتشييد المبانى ، ظل مع بنى إسرائيل على الاضطهاد الذى بدأه أبوه ، ثم أرسل الله إليه موسى وهرون لدعوته الى عبادة الله ، وأظهرا له معجزاته ، فأبى ، فخرج موسى بقومه بنى إسرائيل من مصر ، بعد استئذان منفتاح فى ذلك ، ولكن بعد خروجهم بقليل ندم فرعون على خروجهم ، فجمع فرسانه وجنوده ، وجدّ فى اللحاق بهم ، ليعيدهم الى الذل والعبودية ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر ، فضربه فانفلق ، وعبره هو وقومه حتى انتهوا الى الشاطىء الثانى ، فأتبعهم فرعون وجنوده ، فغرقوا فى الجزء الشمالى من البحر الأحمر ، وغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ، وقد أظهر الله تعالى بدن منفتاح على وجه الماء بعد الغرق ، ليصدق بنو إسرائيل أنه قد مات .

وقد بنى منفتاح لنفسه قبرا فى بيبان الملوك ، ولكنه لم يدفن فيه ، ووجدت جثته مع غيرها من الجثث فى قبر أمنتحتب الثانى بالأقصر .

ولقد جاء إظهار بدنه ، والعثور على جثته ، ووجودها الآن بالمتحف المصرى ، متفقا كل الاتفاق مع ما أخبر به القرآن الكريم فى قوله : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية »

زكى بسيونى

حاول شبهات ضد الاسلام

فى كتاب (مختصر تاريخ العالم)

يوجد كتاب باللغة الانجليزية ، متداول فى مصر وغيرها ، اسمه : (مختصر تاريخ العالم) ، (A short history of the World) لمؤلف يدعى هـ . ج . ويلز ، أتى فيه بنتف من تاريخ الأمم ورجالاتها ، ألم فيه بذكر لمعة من تاريخ الأمة العربية ، صدرها بفصل فى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فيه :

« إنه تزوج بعدد من الزوجات فى شيخوخته . وإذا قيست حياته على العموم بالمقاييس الحديثة ، كانت حياة لا تأخذ بالأبصار . ويظهر أنه كان مركبا من كثير من الغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، كما كان مخلصا فى شدة عاطفته الدينية . وقد أملى كتابا من الأوامر والقصص اسمه القرآن ، قال إنه أوحى اليه من عند الله ، إذا نظر فيه من الناحية الأدبية أو الفلسفية كان غير جدير بنسبته إلى الله » .

هذا ما قاله المستر ويلز ، وهو لغو كنا نستطيع أن نمر به مر الكرام ، لأن فى الأرض ألوفا من الكتب تحيط النبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذا السقط من الكلام ، وفيما نكتبه كل يوم دحض موجه لها جملة ، لولا أن هذا الكتاب وقع لبعض نجباء طلبة كلية الشريعة ، فرفعوه لحضرة صاحب الفضيلة شيخها الموقر ، وطلبوا اليه أن يعمل على دفع هذه الفرى حفظا لكرامة الاسلام . فكان حقا علينا ، وقد انتشر هذا اللغو بين أيدى الطلبة وغيرهم ، أن نخصه برد حاسم ، فنقول :

هل تعديد الزوجات يقدح فى النبوة ؟

يكثر خصوم الاسلام من ذكر تعديد النبى صلى الله عليه وسلم للزوجات ، ويعتبرونه دليلا على توفره على الشهوات . وقد صرح كثير منهم بأن من كان هذا شأنه لا يصلح أن يكون نبيا . ولو تأملوا لرأوا أنه تزوج أكثر هذه الزوجات لأغراض اجتماعية ، إما لإيواء ذات رحم ، أو لإحداث صلة من الصهارة تفيده فيما هو بصدده من تمكين ربط المجتمع الاسلامى الحديث ، أو لإبطال عادة جاهلية من طريق عملى مؤثر الخ .

على أننا لو جردنا زواجه من جميع هذه الأغراض الجليلة ، فإن تعدد الزوجات فى بيئة كان يربى فيها عدد الإناث على عدد الذكور ، إرباء يجر الى تعطيل عدد من النساء من الزواج ، لا يعتبر عملا شائنا . وقد كانت بلاد العرب ممنوة بالغارات والحروب ، حتى كان يكاد لا ينتهى

الرجال فيها الى عهد من السلام إلا ليستعدوا فيه لغارات أو حروب جديدة . ولا شك فى أن هذه الحالة ، التى دامت قرونا ، تكون قد جعلت عدد النساء فيها أكثر من عدد الرجال ، وهى نتيجة طبيعية لا مفر منها . (راجع كتاب علم الاجتماع للعلامة سبنسر)

على أن المؤلف يدين بالمسيحية ، ويعتد بالتـوراة ، وهى تشهد بأن من كبار الأنبياء من عدّد الزوجات حتى بلغ بعضهم بهن مائة زوجة ، فلم لم يشهّر بهم المستر ويلز كما شهّر بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ؟

الغرض من هذا التشهير ظاهر ، ولـكن المعول على شهادة الحوادث ، فهل شهدت بأن محمدا كان مشغولا بشهواته ، كما يؤثر عن الملوك الشهوانيين فى التاريخ ؟ التاريخ لا يحابى أحداً ، وقد اعـترف بأن محمدا كان يشغل ساعات طويلة من ليله متهجدا ، وكان يطيل فى ركوعه وسجوده الى ما يوازى قراءة خمسين آية من القرآن وأكثر ، وكان يستيقظ مبكرا فيصلى بالناس ، وكان ينظر فى شئونهم ومنازعاتهم معظم يومه ؛ أثر عنه كل هذا ولم يؤثر عنه ما عُرف من سيرة الشهوانيين من إهمال الشئون العامة ، وتمضية الليل فى الشرب والغناء ، وسط سرب من النساء . أين هذا من بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت فى حقيقتها محاريب للنسك والعبادات ، لا مسرحا للشهوات ؟ إن شئت دليـلا على ذلك فاتل قوله تعالى : « يانساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحـكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا » . فهل هذه بيوت رجل شهوانى ؟ وإن لم تكن البيوت التى يقر نساؤها فيها مشتغلات بالصلاة والزكاة والطاعة ، وتاليات آيات الله والحـكمة ، إن لم تكن هذا البيوت بيوت نبى فبيوت أى صنف من الناس تكون ؟

خل هذا جانبا :

خل هذا جانبا ، فالملاحاة فيه لا تساوى قيمة المداد الذى تـكتب به ، وهات قول المستر ويلز : إذا قيست حياة محمد بالمقاييس الحديثة كانت حياة لا تأخذ بالأبصار ! الخ

لا مشاحة أنه يريد بهذا القول أن حياته كانت ساذجة ، أى حياة فرد من سواد الناس ، ليس فيها ما يأخذ بالأبصار ، كما فى حياة الأفذاذ من الرجال إذا قدرت بالمعايير الحـديثة ؛ أى أنه لم يكن بالخطيب المفوّه ، ولا بالشاعر الفحل ، ولا بالـكاتب المبـدع ، ولا بالمشـترع المحيط بالأصول ، وكل ما فيه أنه كان ذا نفسية مؤلفة من خليط من صفات غير شريفـة ، كالغرور ، وخداع النفس ، ولـكنه مع ذلك كان مخلصا فى شدة عاطفته ال...

نقول : أما أن حياة محمد الشخصية قبل النبوة، كانت لاتستلفت الأنظار، فصحيح، لأنه عاش أربعين سنة فلم يشتهر بشيء أكثر من أنه كان قويم السيرة أمينا ، وهذا من أقوى أدلة المسلمين على نبوته ؛ فان رجلا يمضي زهرة الشبيبة ، وهي عهد التوثب لبلوغ المجد ، والتطلع لتحقيق المطامع ، ساكنا وادعا ، حتى إذا شارف سن الكهولة ، هب بهمة لاتعرف الملل لجمع البشرية كلها على كلمة جامعة ، مضحيا في سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله ، واجدا من جرائها من الاضطهاد وضروب الأذى مالا قبل لأحد على احتماله ، في مدة لاتقل عن ثلاث وعشرين سنة ، ثم يضطر بعدها لتمضية بقية حياته في جلاد وجهاد لتحقيق مايرمي اليه ؛ قلنا : إن رجلا يكون على هذه الشاكلة ، لايعقل أن يكون قد صدر في التحول الذي حدث في سيرته ، عن هوى في نفسه ، أوخبث في طويته ؛ ولكن عن أمر جلل ، لا يكون أقل من النبوة ، لأن ماحققه من الأمور العظيمة في كهولته وشيخوخته ، لا يمكن أن يعقل تحققه في مثل تلك المدة اليسيرة على يد رجل ملتاث بأقذاء الغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، وهي الصفات التي وصفه بها المستر ويلز مؤرخنا مذ اليوم .

ولو كان نشأ محمد على حال تلفت الأنظار من المواهب : خطيبا مصقعا ، أو شاعرا مفلقا ، أو عالما محققا ، لكان المستر ويلز أول من يشك في نبوته ، ويرفع عقيرته قائلا : لاجرم أن رجلا يسترعي الأنظار منذ نشأته ، فيقرع الأسماع بسحره ، ويستهوي النفوس بشعره ، لجدير بأن يمتلىء قلبه غرورا ، وصدره مطامع ، وخليق به أن يستخدم كل وسيلة من المكر والخداع والتزوير ليصل الى التسلط على قومه . فما أعجب حال المستر ويلز وهو يدعي أن محمدا كان مجرداً من كل مايلفت النظر اليه ، أن يسرد أعماله ، إن كان مؤرخا جديرا بهذا اللقب ، من تأليف أمة ، ووضع ديانة ، وسن قانون ، وتحطيم وثنية ، ووضع أسس اجتماعية ، تصلح لايصال أمته الى خلافة الله في الأرض في سنين معدودة !

إيه مستر ويلز ! أين تَثَبُّت المؤرخ الناقد ؟ أين تدقيق الاجتماعي المحص ؟ أين تحقيق البسيكلوجي المطلع ؟ إن نسبة كل هذه الشئون الجسام ، التي حققها محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة ، وعجز عن تحقيق واحد منها في مثل درجة الكمال التي هي عليه في الدين الاسلامي أكبر عباقرة الأرض ، الى بضع حالات نفسية خبيثة كالتي وصفت بها محمدا جزافا ، لايعتبر عملا تاريخيا يوجب الاحترام ، ولكنه يعتبر ثمرة لتعصب ديني ذميم ، أو لجهل فاضح ، لا يصح أن يدرج في صلب التاريخ .

لعل المستر ويلز يتخيل محمدا رجلا دفعته وساوسه في سن الكهولة ، أن يقوم بتأسيس دين ليعد في زمرة القديسين ، فألف مجموعا من عقائد خرافية ، وآداب سطحية ، وقام بنشرها بين ظهرانى قومه ، فاتبعه رجال منهم ، فنهض بهم لمقارعة خصومه ، وتمكن بعد عدة معارك

من إجبارهم على مشايعته! وغاب عنه ، والهوى يعمى ويصم ، أن الدين الذى أتى به محمد كله مُثُل عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن هذا الدين نفسه قد أودع فيه كل مايصلح لتطوير المجتمع الذى يقوم عليه ، ولم يزل به حتى يوصله لزعامة الأرض فى سنين معدودة . أما رأى أنه قد قامت به أمم وسقطت أمم ، وبعثت به علوم كانت دفنت فأزهرت وزيد عليها زيادات لاتزال محل إعجاب العلماء الى اليوم ، وتغيرت جغرافية العالم تغيرا لم تكابده فى عهد من العهود ، وانتعشت بما أدخل إليها من العناصر المحيية حتى صارت أما للمدنية الحديثة ، إلا ما التاثت به من قشور وبدع ؟ فإذا كان المستر ويلز يورد الى ذهنه كل ماتم على يد المسلمين بسبب الاسلام لخجل أن يصف مثير كل تلك الحركة التى لم تشهد الأمم لها شبيها ، بما وصفه به من الصفات الذميمة ، ولركز بحثه فى هذه النفسية السامية كل السمو ، وهى نفسية محمد التى حملت أعباء الوحى السماوى ، وكانت واسطة فى إيصال كل هذا الخير الى سكان الأرض .

كتاب محمد فى نظر المستر ويلز :

يقول المستر ويلز : « وقد أملى محمد كتابا من الأوامر والقصص اسمه القرآن ، زاعما أنه أوحى به اليه من عند الله ، وإذا نظرنا الى هذا القرآن ، من الناحية الأدبية والفلسفية كان غير جدير بنسبته الى الاله ! »

لا جرم أن هذا أمر يؤسف له ، ويدل إما على تعمد الاستخفاف ، وهو لا يصدر إلا عن تعصب ذميم ، أو على جهل ، وهو لا يغتفر لمؤلف فى التاريخ ، والتاريخ فى عرف أهل العصر الحاضر يقتضى درس العلل الأولية للحوادث الكبرى وآثارها المترتبة عليها ، وما أدت اليه من الانقلابات فى خلال القرون ؛ ويستدعى تحليل نفسيات الشعوب وقابلياتها ، ونفسيات قادتها ، ومكانة تعاليمهم من الأصول المقررة ، والحقائق الثابتة .

فأول ما كان يجب على المستر ويلز ، أن يدرس ما كان عليه العرب من الأحوال الاجتماعية ، وما طرأ عليهم بسبب هذا الدين ، وأن يدقق فى معرفة الغايات التى قام عليها هذا الاجتماع ، وما يحتمل أن تتأدى اليه الجماعة بالاتجاه اليها ، مع عدم إغفال عوامل التطور المودعة فى هذه التعاليم ، وما عسى أن توصل اليه ، وقيمة مافيه من الآداب والوصايا من علم البسيكولوجيا ، وما يتوقع أن تفضى اليه بالسير عليها ، ومبلغ ما انتهى اليه حالها فعلا ؛ كل هذا أغفله المستر ويلز ، ولذلك لم يتبين له من أمر القرآن إلا ما تلقاه فى المدرسة الأولية التى أمضى أول سنى حياته فيها ، وهو أنه كتاب لا قيمة له ، وضعه رجل عربى لتقوم عليه قبائل بدوية ؛ ولكن هذا الضرب من التسرع فى إصدار الأحكام ليس من الآداب العلمية فى شىء .

إذا كان القرآن متى نظر اليه من الناحية الأدبية والفلسفية ، يظهر أنه غير جدير بنسبته الى الله ، فلا يوجد كتاب فى العالم يستحق هذه النسبة . بل لو أنصف المستر ويلز لقال : ما كان

الانسان ليستطيع أن يدرك الفوارق البينة المحسوسة بين الكلام الإلهي فى روعته وسموه وروحانيته ، وبين الكلام البشرى فى نسبيته وماديته ، إلا بعد نزول القرآن .

نعم ، لأن الأناجيل كتب وضعها رجال معروفون فى سيرة عيسى عليه السلام ، والتوراة كتاب ضاع نصه العبرى وبقيت منه نسخ ، وقد قرر النقد التاريخى أن الذى وضعه كتاب متعددون فى أزمنة مختلفة . فليس فى الأرض غير القرآن حفظ النص الذى أذاعه من أنزل اليه ، باعتبار أنه الوحى الأخير للعالم بأسره .

يدعى المستر ويلز أن القرآن من الناحية الأدبية والفلسفية غير جدير بنسبته الى الله ، وإنما يصح هذا لو كانت آدابه وفلسفته تنم عن قصور لا تتنزه عنه البشرية ، وقصر نظر ملازم لها ، وخاصة فى عهد نزوله ، وفى بيئة لاعهد لها بعلم ولا فلسفة ؛ فما قولك وآداب القرآن وفلسفته قد بلغتا النهايات القصوى التى لا مذهب بعدها لسمو ولا لإطلاق ؟

ماذا عسى أن يتخيل أرفع الناس خيالا من السمو الأدبى فوق قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » ، وقوله : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

فأنت ترى أن الإسلام يُعنى كل العناية بقلب الانسان ، ويوجه اليه كل اهتمامه ، حتى لم يجد القلب فى كل تاريخ البشرية من عُنى به هذه العناية ، وهذه النزعة هى لب أرفع مذهب إصلاحى اليوم . وقد تابع الاسلام طريقته فى هذا الأمر الجلل حتى علق النجاة فى اليوم الآخر على سلامة القلب ، فقال تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » ، ومدح بسلامته أنبياءه فقال : « وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم » .

وهل يستطيع متحذ أن يأتى فى باب العدل بما هو فى درجة قوله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . ولكن أى عدل ؟ العدل المطلق الذى لا محاباة فيه للذات ، أو لأحب الناس اليها ، قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط (أى بالعدل) ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولو شئت استيعاب كل أمهات الآداب التى وردت فى القرآن ، وأريد منها نهاياتها البعيدة ، التى لم يصل لإدراكها الانسان إلا بعد أن بلغ من التطور الأدبى والعلمى الى الحد الذى وصل اليه فى هذه القرون الأخيرة ، لاستدعى ذلك منى سفرا كبيرا ؛ بله الأصول الأولية التى تعتبر

آساسا لآخر طور من أطوار الفلسفة ، وبها تم للعقل البشرى إدراك الوجود والحياة على الوجه الذى يحسب تتويجا لجهود جبارة ، بذلها العلم فى اماد طويلة ، كقوله تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، وقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقوله : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك » ، وقوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وقوله فى لا نهائية العلم : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر (أى من مداد) ، ما نفدت كلمات الله » ، وقوله : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » ، وقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقوله : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، وقوله : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » ، وقوله : « يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » ، وقوله : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » وقوله فى بر الأبوين : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » ، وقوله : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ، وقوله : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، وقوله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم (أى من أهل الملل الأخرى) ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » الخ مما يملأ ما بين دفتى كتاب ضخم .

فاذا كانت هذه الأصول التى جاءت منثورة فى القرآن ، وكان كل منها مظهراً لعبقرية أدبية أو فلسفية أو علمية قام لها الناس وقعدوا ، وهللوا فى إبان ظهورها وكبروا ، ليست فى رأى المستر ويلز ذات شأن يذكر ، فليس يوجد فى الكون كله شيء يذكر . وإذا كانت هذه الأصول ، وكلها فتوحات علمية وصل اليها الناس بعد أن كدت عقولهم بحثا وتنقيبا ، لا يصلح أن ينسب الكتاب الذى جاء بها جملةً الى الله ، فأى كتاب يصح بعد ذلك أن ينسب إليه ؟

محمد فريد وجدى

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

بزغت أقمار الاسلام ساطعة فى أرجاء الجزيرة فبدّدت منها سجوف الجهالة ، وهتكت حجب الضلالة ، ومزقت شمل الهمجية ، وأشعت شموسه مرسلةً أشعتها الذهبية على ما جاور الجزيرة من أقطار ، فغدت مبعث الحضارة ومنبع المدنية ، ومهد العلم ومباءة العرفان ، وكان طبعيا أن يمر بأوهام العرب طيف الإدلال ، وتتمثل فى نفوسهم هواجس الاعتزاز ، وتتملك وجوههم حرارة النعرة ، وتتسلط على قلوبهم كبرياء الأنفة . والقارئ يعرف سلمان الفارسى وصهيبا الرومى وبلالا الحبشى ، وثلاثتهم من أجلاء الصحابة ، وكل منهم ينتسب الى أمة عظيمة لها ماضيها الحافل بشتى العبر ، وكل منهم له مكانة عظمى ومنزلة سامية فى تشييد أركان الاسلام ، والإعلاء من كلمته ، والعمل على رفعته ، وما كان لهم من اعتزاز إلا بالاسلام . وكيف يعتز الفارسى بفارسيته ، والرومى بروميته ، والحبشى بحبشيته ، وهم بين قوم عظيمى الفخر بعربيتهم ، شديدى الأنفة على غيرهم ؟!

بالرغم من أن الدين الاسلامى قضى على هذه العصبية الجنسية الشائنة ، ولم يقم وزنا لغير المكانة الدينية ، فقد ظهرت النعرة العربية بمظاهر شتى ، واقتضت أن تنشأ أمامها مايقابلها من النعرات الجنسية المختلفة ، ولكنها لم تتجاوز مجال الأدب ، وبقى جثمان المجتمع الاسلامى سليما من التحلل بسبب التعصب للجنس .

ومن عنده إلمام بطبائع البشر وما لصق بها من غيرة متوقدة ، آمن معى بأن الشعوبية مظهر كان لابد من وجوده فى شكله الذى كان عليه أو فى شكل أشد وأعظم . والشعوبية: اسم لهذا الفريق من الناس الذين ذهبوا الى تحقير شأن العرب وتصغير أمرهم ، ورأوا أن لا فضل لهم على غيرهم ، ومنهم من سوّاهم بسواهم من الأمم والشعوب ، وهؤلاء يعتبرون من معتدليهم ، وحجتهم أقوى من حجة متطرفيهم .

منشأ تلك الشعوبية المتطرفة فيما يحدثنا التاريخ ، أن زياد بن أبيه لما استلحقه معاوية بأبى سفيان ، علم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمهم بنسبه ، فأثار ذلك مكامن الغيظ من نفسه ، وألهب نيران الحقد فى قلبه ، وأوغر من صدره فسيحا ، وأوجع من فؤاده سليما ، وصار يتلمس الطريق الى تنقيص العرب والتهوين من شأنهم ، والحط من مكانهم ، فألف كتاب المثالب وأودعه ما شاء أن يودع من عيوب العرب ونقائصها ؛ وأنت تعرف زيادا فى بلاغة قوله وذلاقة لسانه ، وأنه إذا قال أبدع ، وإذا قرص أوجع ، وإذا ابتدع بدعة لم يعدم الأنصار والشيعة

الذين يلفون لفه ، وينتهجون نهجه . لذلك ثناه الهيثم بن عدى ، وكان فى قومه دعيا ، فأراد أن يعر أهل الشرف ، ويلصق بهم الشرور ، وينحلهم الافك والبهتان ، تشفيا منهم وإشباعا لنهم الحنق والحقد اللذين أقضا مضجعه ، وأسهرا عينيه ، وآلما نفسه . وقد كان أبو عبيدة معمر ابن المثنى يهودى الأصل ، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر ، فانتمى إلى ولاء تيم ، فنزع هذا المنزع ، وسار تلك السيرة مجددا فيها وزائدا عليها . وقد أدلى ابن غرسية دلوه فى الدلاء فأنشأ رسالته الفصيحة فى تفضيل العجم على العـرب ، وقد تكفل بنقضها والرد عليها بعض علماء الأندلس فى عدة رسائل سنذكر لك طرفا منها عند المناسبة فى موضع آخر . ثم نشأ غيلان الشعوبى الوراق ، وكان متزندقا ، فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن آداب الاسـلام ، بدأ فيه بمثالب بنى هاشم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ، وألصق بهم كل نقيصة ، وأجازه طاهر عليه بثلاثين ألفا . وكان هشام بن عبد الملك قـد أمر النضر بن شميـل وخالد بن سلمة المخزومى فوضعا كتابا فى مثالب العـرب ومناقبها ، وليس لقريش فى هذا الـكتاب ذكر ، وذلك أنه قال لهما ولمن لف لفهما : « دعوا قريشا بما لها وما عليها » .

ذلك إلماع مجمل الى أطوار الشعوبية التى مرت بها ، وها أنت ذا تراها حلبة تسابق فيها بعض ذوى اللسن والبيـان ، كل يجلى عن غرضه ، وينافح عن معتقده ، ويلصق بصاحبه ما واتته به عبارات الهجر والإقذاع ، ويظهره ماحلاً من كل فضل عاريا عن كل خير ، مقفرا من كل جميل ، من ذلك ماروى عن بديع الزمان الهمذانى أنه قال : كنت عند الصاحب كافى الـكفاة أبى القاسم اسماعيل بن عباد يوما وقـد دخل عليه شاعر من شعراء العجم فأنشده قصيدة يفضل فيها قومه على العرب ويذمهم ، وهى :

غنينا بالطبول عن الطلول ... وعن عُنْسٍ عُـذافرة ذَمول

فلست بتارك إيوان كسرى ... لتوضح أو لحـومل فالدخـول

وضبٍ بالفـلا ساعٍ وذئب ... بها يعـوى وليث وسط غيل

يسلون السيوف لرأس ضب ... حراشا بالغـــداة وبالأصيل

إذا ذبحوا فذلك يوم عيـــد ... وإن نحروا فـفى عرس جليل

أما لو لم يـكن للفرس إلا ... نجار الصاحب القرم النبيـل

لـكان لهم بذلك خـير فخر ... وجيلهمُ بذلك خـــير جيل

فلما وصل الى هـذا الموضع من إنشاده أمر الصاحب : وكان من أصل فارسى ولـكنه

كان يكره هـذه النعرة الجنسية المخالفة للاسلام ، بديع الزمان الهمذانى ، وكان من أصـل فارسى مثله ، أن يرد عليه ، فالتفت للشاعر وقال :

أراك على شفا خطر مَهـول ... بما أودعت لفظك من فضـول
تريد على مـكارمهم (١) دليـلا ... متى احتاج النهار الى دليـل ؟

الى أن قال :

فخرتَ بمـلء ماضغتيك هُجْراً ... على قحطان والبيت الأصيل
وتفخر أن مأكولا ولبسا ... وذلك فخر ربات الحجول
ففاخـرهن فى خـــد أسيل ... وفـرع فى مفارقها رسيـــل
وأمجـد من أبيك إذا تزيا ... عراة كالليوث على الخيـول

ثم صرف الصاحب بن عباد ذلك الشاعر جاعلا جائزته جوازه .

احمد ابراهيم موسى البارودى

(١) فى الاصل (مكارمنا) ولا يصح ذلك لان الهمذانى نفسه كان فارسيا .

ما قيل فى الزهد

قال حكيم : ليس الزاهد فى الدنيا من زهد فيها وقد أعرضت عنه ، ولم تمـكنه من متاعها ، وضاقت عليه مع اتساعها ، وهو مضطر الى ذلك ، لظهور عسرته ، ونفود يسرته ، وإنما الزاهد فى الدنيا من أقبلت عليه ، وحشدت فوائدها اليـه ، وحسنت له فى ذاتهـا ، وأمكنته من لذاتها ، فأعرض عنها ، وزهد فيها .

ومن أحسن ما قيل فيها شعرا قول ابن عبد ربه صاحب العقد .

إلا إنما الدنيا غضارة أيـكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هى الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها وما اللذات إلا مصائب
فـكم سخنت بالأمس عين قريرة ... وقرت عيون دمعها الآن ساكب
فلا تـكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

نقول : وليس الغرض من الزهد فى الدنيـا أن يترك الانسان الجد والعمل ، ويلتحق بأهل الـكسل ، فان المرء خلق ليفيد وينفع ، فان قنع بأن يعيش غير مفيد فانما قنع بالدون ، ورضى بالهون . وإنما الغرض من الزهد أن يمرس الانسان نفسه على احتقار لذاتها وهى ممـكنة له ، ليحصل من وراء ذلك قوة روحية ترفعه الى المـكانات العلى .

معرض الاراء العالمية فى الاسلام والمسلمين

الصحراء والاسلام

نشر المسيو (دنيه بوتييه) فى جريدة (لاكروا) أى الصليب التبشيرية مقارنة بين البدوى المسلم والأوربى منها على أسباب فشل الجماعات التبشيرية . قال :

« البدوى رجل يعيش فى الشظف والخشونة ، ولا يحاول أن يمتع نفسه بأشياء لافائدة فيها . وهو لوجوده فى بيئة مناوئة له ، يعرف كيف يكتفى من الغذاء بقبصة من التمر أو قليل من الكسكسى وجرعة من الماء الأجاج . والعناية التى يتقاضاها منه قطيعه الصغير لا تشغله وقتا يذكر . وهو لأجل أن يُعمل تصوره لا يجد أمامه غير المظهر الفخم للطبيعة ، وهو مظهر ثابت ويتجدد على توالى الأيام والليالى . فاذا كان وقت القيلولة حيث يشتد قيظ الظهيرة ، والشمس ضائعة وسط لهب يأخذ بالأبصار ، والأشياء القليلة الموجودة حوله كأنها ذائبة فى لألاء تفوق قوته البصرية ، والسكون شامل فيما حوله ، فى هذه الحالة التى يسمع البدوى فيها دقات فؤاده ، بأى شيء يشتغل فكره إن لم يكن فى مبدعه وفى ديانته ، وهما الموضوعان اللذان يعطفه لسانه نحوهما على الدوام ؟

« أراد البدوى أن يكون حاصلا على هذا الوصف أو لم يرد ، فهو رجل تأمل وتدبر بضرورة الحال .

« يؤدى البدوى كل يوم خمس صلوات يكرر فيها الركوع والسجود أمام مولاه . ويؤدى فى كل سنة صوما لا يحسب صومنا إذا قوبل به شيئا مذكورا . فماذا يقول أكثرنا نسكا وتقوى إذا فرض عليهم أن لا يأكلوا شيئا ، وخاصة أن لا يشربوا جرعة ماء ، من لدن الفجر الأول الى المساء ، فى إقليم شمسه تحرق الأجسام ، ورياحه تجفف الرطوبات .

« إن لهجة البدوى نفسها تنم عن اشتغال باله بالأمور المتعلقة بما فوق الطبيعة . فهو ليس عنده مستقبل ، فكل ما يختص به متوقف على إرادة الله وإذا أراد الاعراب عن فكرة تقتضى تعيين زمان معين ، عين لها زمانا لاهو بالحاضر ولا هو بالماضى فقال : إن شاء الله .

« وهو عادة لايقول : سأفعل ذلك غدا ، ولكنه يقول : أفعله إن شاء الله .

« فما أعظم الفارق بين المسلم وبيننا ! المسلم يعيش فى الدقيقة التى هو فيها ، أما نحن فلا يكون لوجودنا معنى إن لم تكن لنا نوايا نرجو تحقيقها !

« وهناك عبارة أخرى تتردد على شفاه المسلمين كثيرا وهى : بسم الله . فلا تصادف مؤمنا يشرع فى أى عمل كان دون أن ينطق بهذه الكلمة الدالة على الصلاح .

« سكان المدن منهم يفسون على عجل الأسلوب الدينى ، ولكن اليك ما قاله لى رجل من قبيلة وادى السياح ، وقد كنت اتخذته دليلا فى رحلتى . قال :

« أنا سعيد بعودى الى البلد ، لأنى لما كنت بالصحراء كنت لا أرى الله إلا كما يرى الأعمى موقد النار ، بتأثير الحرارة التى تنبعث منه »

« وكان هذا العربى رجلا من عامة الناس لا يحفظ من القرآن إلا الآيات التى يحتاج إليها فى تأدية الصلاة .

« ليس من غرضى أن أمدح الاسلام فان سهولة الأخلاق فيه ، وغلوه فى بث الاعتماد على الله فى القلوب ، كثيرا ما يفضى الى المذهب الجبرى ويؤثر تأثيراً سيئاً فى العقول الساذجة ، ولكن أليست البيئة التى يعيش فيها البدوى هى السبب فى إكسابه روحا دينية .

« إن تحويل البدو الى مدنيين يؤدى الى تجريدهم من إيمانهم الفطرى دون أن نعوضهم منه دينا آخر ، وهذا التقصير له سببان أولهما أن الحكام لا يعنون به ، وثانيهما قلة عدد الدعاة ، ولو كثر عددهم لما تقدمت الكاثوليكية عن موقفها الحالى ، لأن الاسلام يحمل فى جوهره ، بالاستقلال عن روحه الحربى الذى يدفعه الى الجهاد ، مناعة تجعل كل دعوة تبذل ضده عادمة الجدوى . وهذا ما أحسن بيانه الكاردينال (لافيجرى) فيما بذله من النصح لأتباعه المتدينين إذ قال : « كونوا مثالا حيا لعقائدكم مائة سنة ، ثم اشرعوا فى دعوة الناس لملتكم بعد ذلك » .

***

(مجلة الأزهر) مضت على الدعوة المنظمة التى يقوم بها دعاة المسيحية فى بلاد المسلمين نحو قرن ، وقد أنفقوا فى هذه السبيل مئات الملايين من الجنيهات ، ولم يحصلوا من ورائها على طائل . ولكنهم لم يقلعوا عنها ، لا بسبب أنهم يرجون أن يصادفهم الحظ فتثمر دعوتهم فى المسلمين ، ولكن هنالك اعتمادات مالية خاصة موقوفة على بلدان معينة لا بد من إنفاقها فيها سواء أجدت مساعيهم أم لم تجد .

أنا لا أدرى والله أية حال يرجى أن يكون عليها أهل بداوة ، أفضل مما عليه البداة المسلمون . لقد وصفتهم جريدة الصليب بأنهم متحلون بروح دينية قوية ، وأن ألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله ، وقلوبهم لا تنى فى تمجيده ، وأنهم صلاب فى عقائدهم حتى لا يستطيع أن يستهويهم دعاة يلوحون لهم بالمتع الجسدية ، والمسولات المادية ؟

إذا كانت بعض البيئات من جشوبة الطبيعة ، وحمولة التربة ، بحيث لا تمكن الحياة فيها إلا فى حالة بدوية ، أيفضل أن يكون أهلها على الطريقة التى عليها بُداة المسلمين ، أم على الطريقة التى عليها بداة الوثنية ، أو أية ملة من الملل المعروفة الذين لا يعرفون الله ولا يشتغلون بغير السكر والفسق والاباحة وسفك الدماء وارتكاب المنكرات ، التى يترفع عن مثلها الحيوان الأعجم ؟

فى جميع قارات الأرض إلا أوربا بداة غير مسلمين ينقل عنهم من المنكرات والفظاعات ما تقشعر الأبدان من سماعها ، أفليس من مصلحة النوع الانسانى أن يكون جميع أهل البداوة مسلمين ، على مثال بدو بلاد الجزائر التى روت جريدة الصليب عنهم ما رأيت ؟

تدعى جريدة الصليب أن فى الاسلام روحا حربية تدفع دائما الى الجهاد ، ولا ندرى من أين استقت هذا العلم ؟ أمن قوله تعالى : « أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

أم من قوله تعالى : « فان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، وإن أرادوا أن يخدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ؟ .

لقد أكثر الأوربيون من اتهام الاسلام بالاغراء على الغزو ، وقد شهد مؤرخوهم أن الشعوب لم تر فاتحين كالمسلمين فى عطفهم على المقهورين ، ورحمتهم بالمستضعفين ، وإن البلاد التى افتتحوها حيي مواتها ، وازدهرت مدنيتها ، ودخل أهلها فى دينهم بدون دعوة منظمة ، كالتى صحبت الجيوش الأوربية فى العالم الجديد حتى أبادوا فيها أمما برمتها ؟

ألا ينظرون الى ما أحياه الاسلام من العلم ، وما أقامه من المدنية ، وما بثه فى عقول مئات الملايين من الحكمة ، ليكفوا عن دعايتهم السيئة ضده ؟ ألا إن اليوم الذى يزول فيه الاسلام من الأرض يزول كل خير فيه . وهيهات : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

تحدثنا فيما سبق عن الاستحقاق وآثاره وأسبابه ، ونعرض الآن بقدر لمسألة اختلف عليها العلماء جد اختلاف ، وهى أن يقف الواقف على نفسه ابتداء أو على غيره ابتداء ثم من بعده أو من بعد غيره يقفه على جهة بر لا تنقطع .

فلو جعل الواقف لنفسه عينا ابتداء ثم من بعده جعلها لجهة سماها فى إشهاد وقفه أو فعل بغيره مافعله بنفسه ، وقع الوقف صحيحا عند الامام أبى يوسف ، وغير صحيح عند الإمام محمد . واحتج محمد للبطلان بحجج منها أن تمليك الانسان ماتحت يده لنفسه لا ينجو من تعسف كالصدقة المنجزة ، فقد منع العلماء اتفاقا أن يتصدق الانسان بمال على نفسه وهو مملوك له ، فكيف يباح بعد هذا المنع اتفاقا فى مادة الصدقة المنجزة أن يقف الواقف مايملكه على نفسه ابتداء ؟ أليس هو فى هذه الحالة قد قطع سبيل الانتفاع على الفقراء ، وأحال لنفسه ما للفقراء والمحرومين فيه نصيب .

أما أبو يوسف رضى الله عنه فقد أجاز وقف الواقف على نفسه ابتداء ثم منع ما استدل به محمد من أن وقف الواقف على نفسه ابتداء معناه تمليك مايملكه إلى نفسه وأنه كالصدقة المنجزة ، لأن إحالة الوقف إلى الله عند أبى يوسف معناها انتقال الملكية من الله إليه فى كل غلة الوقف أو بعضها ، ولأن وقف الواقف بعض غلة العين الموقوفة أو كلها ابتداء على نفسه ليس معناه تمليك النفس ما كانت تملكه الذى هو عبارة عن تحصيل الحاصل ، بل معناه استعارة غلة الوقف على أية صورة من صورها من الله للواقف ، وهذا لاتعسف فيه بل هو واقع وجائز ، فقد نقل العلامة ابن الهمام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل من صدقته الموقوفة على المسلمين ، والأكل منها فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم أمارة جوازها ، بل قد ثبت بعد ذلك أن عمر رضى الله عنه وقف عينا ثم أكل منها طيلة حياته ، وثبت أن كثيرا من أئمة المسلمين وسراتهم انتفعوا من أموالهم الموقوفة واعتبروها مستغلا يجرى عليهم منه بر غير قليل ، وقد اتفق العلماء على أن الواقف إذا وقف سقاية أو وقف أرضا وأقام فيها مقبرة أو أقام عليها مستشفى أو معهدا ثم أراد الانتفاع بكل هذه المؤسسات فليس بممتنع عليه شرعا إذا اشترط لنفسه أن يشرب من هذه السقاية أويتعلم فى ذلك المعهد أو يدفن فى تلك المقبرة أو يتطبب بذلك المستشفى ، لأن الوقف فى معناه ومدلوله التقرب الى الله

فاشتراط الواقف حبس الموقوف على نفسه كله أو بعضه لا ينفى معنى هـذه القربة بل يزيدها توثقا عند الواقف ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نفقة الرجل على نفسه صدقة » . وأية صدقة أبلغ فى النفس أثرا وأرفع فى الناس ذكرا من صدقة يأكل منها منشؤها ويسد بها مرافقه فى ذات نفسه .

وقد فرع علماء الفروع على مذهب أبى يوسف رضى الله عنه تفاريع كثيرة ، فنقل صاحب الاسعاف : لو وقف الواقف عينا مؤبدة على جهة من جهات الخير ثم شرط لنفسه فى إشهاد وقفه أن ينفق من هذه الغلة عليه وعلى خدمه وحشمه وأولاده مدة حياته ثم انحازت اليه الغلة ووضع يده عليها لأنه هو الذى يقوم بتنفيذ شروطه ثم مات بعد تحصيل هذه الغلة فى بيته ، فالقول المفتى به أن هذه الغلة تصير بموته مما يورث عنه ، فتصبح حقا للورثة تلقوه عن مورثهم باعتباره مالكا لهذه الغلة لا واقفا ، لأنه حين وضع يده على غلة العام أو العامين أو الأكثر منهما ، فقد نفذ ما شرطه ، فكان ملكا له داخلا فى حيازته يتصرف فيه تصرف المالك ، فليس فى ميراثه عنه نبو عن الجادة الواضحة ، وخروج عما التزمه فى كتاب وقفه .

ولهـذا البحث فروع يجب استيفاؤها والكشف عنها فى صورة تحقق رغبات القارئين والباحثين ، فالى عدد تال إن شاء الله ؟

عباس طه

استدراك

فى التعليق الذى ذيلنا به مقالة الأستاذ الدكتور غلاب فى العدد السابق وجهنا النقد الى المسيو كارادى‌فو وحقه أن يوجه الى إرنست رينان ، فليصحح الاسم .

وجاء فى العدد السابق أيضا ص ١٧٩ س ٤

خويلد والصواب : وهب

حكم الشريعة الاسلاميه

فى تنظيم النسل

من الآراء المقررة عند المسلمين أن الشريعة الاسلامية يتسع صدرها لكل جديد من الانقلابات الاجتماعية ؛ وأنها مرنة الى حد أنها تساير كل تطور تدخل فيه الأمم سواء أكانت محفوزة اليه بالعوامل الطبيعية أم بتغير وجهات النظر تحت تأثير تقدم العلوم والفلسفة ؛ وأن أئمتنا الأولين قد استنبطوا أحكامها من الوحى الالهى وهم على أكمل ما يكونون من استقلال الرأى ، وحرية البحث ؛ وأن الأصول القرآنية التى أسسوا نظرهم عليها تسمح بالجولان فى كل نواحى الممكنات ، بل تدعوهم الى الجولان فيها لتقرير ما يصلح لكل الانتقالات الاجتماعية ، والتطورات الفكرية ؛ وأنه لا توجد أصول تشريعية وضعية تبلغ مبلغ الأصول القرآنية فى دفع صاغة النظم الى الاحتياط لجميع الطوارىء ؛ وأن المشترع العصرى لو اتخذ هذه الأصول مرجعا له لتمكن من وضع نظم لجميع ضروب المعاملات الفردية والدولية تبز جميع ما هو موجود منها الى اليوم .

هذه آراء اسلامية مقررة عند المسلمين تقرر العقائد الأولية ، ولكن ربما كان يضطر الذى يريد التدليل عليها ، فى مضطرب هذه الخلافات المذهبية ، الى كتاب ضخم يثقل على الناس أن يقرأوه ، فماذا كنت قائلا لو تسنى ذلك كله فى رسالة لا تزيد عن أربعين صفحة صغيرة مطبوعة بأحرف كبيرة ، وفى موضوع جديد لم تكن له دعوة إلا منذ عشر سنين ، ألا وهو مشروع تنظيم النسل .

هنا قد يدهش الكثير من القراء ويقولون : وهل بلغ جولان مشترعى المسلمين فى صميم الشئون الانسانية الى هذا الحد ؟ وهل يروى عنهم فيه كلام يستسيغه باحثو هذا الزمان الأخير ؟

لست أستطيع أن أبلغ بك من الاقتناع بالجواب ما تبلغه بقراءة هذه الرسالة ، فهى جديرة بالقراء لاعتبارات كثيرة أهمها وأعظمها عائدة ، التدليل على صحة آراء المسلمين المقررة فى شمول شريعتهم لكل الشئون الانسانية والاجتماعية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

إن صاحب هذا التوفيق هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمود شلتوت المفتش بالأزهر والمعاهد الدينية ، فقد سلك فى وضع هذه المسألة وترتيب نواحى البحث فيها ، وإيراد الآراء المختلفة عليها ، مسلك العلماء المعاصرين ، فلم يدع للقارىء حاجة الى بيان غامض ، أو كشف مستور ، أو إيضاح مبهم ، إلا أتى به مصاصة سائغة فى عبارات تعتبر غاية فى البراعة والوضوح .

وإنى إكبارا للآثار التى أتوقعها من وراء نشر هذا العمل الفخم، للاعتبارات التى ذكرتها فى مقدمة هذا الكلام أعرض على القراء عنوانات فصوله وهى : مسألة تحديد النسل قديماً وحديثاً ، من له حق الولد ؟ الرأى الأول . الرأى الثانى . الرأى الثالث . الرأى الرابع . حكم إسقاط الحمل . الفقهاء يعترفون بحياة مادة التلقيح . الفقهاء وحق الأمة فى النسل . الشريعة وحق الأمة فى النسل . الشريعة وكثرة النسل . الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة . الشريعة تطلب كثرة قوية . سبيل الكثرة القوية . واجب الأغنياء والحكومة فى مساعدة الفقراء . مسئولية الحكومة شرعا عن حوادث الفقراء . خاتمة .

من طرائف هذه الرسالة ما كتبه فضيلة المؤلف تحت عنوان : (الشريعة لا تعجبها الكثرة الهزيلة) .وانا لنتحف القارىء باطروفة منها قال الاستاذ :

« وإذا التقت الشريعة والطب فى هذه الناحية ، فهما يلتقيان مرة أخرى فى ناحية وجوب دفع الضرر الذى يلحق الزوجة أو الأمومة من جراء إطلاق الحرية فى تحصيل النسل وكثرته ، فكما أن الطب لا يقر حملا فيه إضرار بالمرأة أو بالنسل ، وتوافقه الشريعة فى هذا ، فالشريعة أيضاً لا تعجبها كثرة هزيلة ، ولا تقيم لارتفاع نسبتها فى التعداد وزنا ، ولا يتخذ منها النبى الكريم مبعثاً للمباهاة بها ، بل بالعكس مقت الشريعة هذه الكثرة وتحقرها ؛ يشير الى هذا ما صح فى دلائل النبوة عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الآكلة الى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، بل أنتم كثيرون ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » يشير الحديث الى أن الكثرة التى تملكها عوامل الضعف كثرة لا خير فيها . وكما تكون عوامل الضعف من الجانب الخِلقى ، فهى تكون فى الجانب الخُلقى . والوهن كما يبعثه الجبن والبخل يبعثه ضعف البدن ، فلا خير فى أمة ذبلت أبناؤها ، كما لا خير فى أمة حرمت فضيلة الشجاعة وحرمت فضيلة البذل والسخاء .

« إن الشريعة فى الوقت الذى حثت فيه على كثرة النسل إنماء للامة وتكوينا لقوتها ، قضت بصيانة هذه الكثرة من الضعف ، ومن أن تكون غثاء كغثاء السيل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمـــدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

نصيب العالم من رسالة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

لو كانت الحركة التى أحدثها الاسلام انحصرت فى بيئتها التى نشأت فيها ، لما ساغ لنا أن نذكر نصيب العالم منها ، ولكنها كما يعلم الناس كافة ، ما عتمت بعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، أن اجتازت حدود البلاد العربية شمالا وشرقا وغربا وجنوبا ، متخطية جميع الحـوائل التى وضعت أمامها ، وكانت سببا مباشرا لتغيير خريطة العالم فى مدة لا تزيد عن ثمانين سنة .

لو كانت هذه الحركة ذات صبغة استعمارية بحتة ، لانحسرت بعد بلوغ شوطها الأقصى ، تاركة وراءها أحاديث الفظائع التى ارتكبت لتدويخ الأمم ، ولسلبها ما بأيديها من المال والعتاد ، ككل حركة من هذا النوع حدثت فى خلال العصور ؛ ولكن هـذه الحركة لم تسكن حتى بعد وصول الفتوحات التى اقتضتها الى نهايتها التى قدرت لها ، بل حتى بعد طروء الضعف والفتور على بنية الدولة الاسلامية التى تمثلها ، ويجب أن أقول : حتى بعـد أن ضاع استقلال أكثر الممالك الاسلامية ، واشتد كلب الدعاة على أهلها فى جميع البلاد الشرقية . وهذا يدل دلالة لا تقبل النقض على أن قوامها عنصر أدبى له وقع عظيم فى النفوس ، لبقائه مؤديا مهمته فى أثناء دور الفتور الذى أصاب جماعته ، وقـد شوهد أنه اشتد وازداد سلطانا على العقول ، عندما بلغ هذا الفتور أقصى درجاته فى القرن الأخير .

هذا موضوع دراسة علمية لا يجوز إغفالها ، بل هو موطن القصد الرئيسى من الرسالة المحمدية ، إذا لم تكشف حقيقته ، وبقيت تحت حجب الاغفال ، استحالت السيرة المحمدية الى مثل سير رجال التاريخ العاديين ، وبقى معنى الاسـلام الذى استوعب كل حياة النبى صلى الله عليه وسـلم ووجوده ، مجهولا حتى عند أهـله الأقربين . ونحن لأجل إدراك هذا القصد مضطرون للرجوع الى ما كان يفهمه من الاسلام رجاله الأولون ، والجماعات التى كانت تتسارع الى الدخول فيه من أهل الملل الأخرى .

الأمر الذى كان يفهمه المسلمون الأولون من أمرهذا الدين ، أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله الى جميع رسله فى خلال القرون ، وأفسده القادة بالزيادة فيه والنقص منه ، وتناولِه بالشروح الطويلة ، وإخراجِه عن حقيقته بالتأويلات الخيالية ، ليتم لهم ما كانوا يرمون إليه من التسلط على الناس ، وتسخيرهم لمصالحهم الخاصة . ولم يكن فى الأرض دين سلمت أصوله من هـذا التحريف ، فخنع كل قبيل لما عليه الكافة ، غير متوقعين أن يكون لهم مخرج منه ، فصبروا على ما هم عليه مستسلمين .

اتفق أنه عند ما نشأ الاسلام كان بجزيرة العرب يهود ونصارى ، نزحوا إليها هربا من اضطهاد الفرس والرومانيين ، فأخذوا ، ولاسيما اليهود ، يقدحون فى الاسلام ويحرضون المشركين على مقاومته ، ويشدون أزرهم على ذلك ، ويثيرون الشبهات عليه . فكان ينزل فى الرد عليهم قرآن يدحض ما يفترون ، ويبين وَهْنَ ما إليه يستندون . استمروا على ذلك حتى بعد أن أسلم جم غفير من أعليائهم . فاجتمع من شبهاتهم والرد عليها شيء كثير من الحوار ، تجلت فيه الأصول التى يقوم عليها الاسلام ، والمبادئ التى شرع ليبثها فى القلوب ، ويحمل على احترامها العقول ، ويبين ما عليه خصومه من مجافاة المنطق ، ومخالفة الواقع ، والتعويل على الوساوس ، والجمود على الأضاليل . وهـذا كله يعتبر أكمل أسلوب للدعاية الى الحق فى أمم أحيطت بالأباطيل ، حتى كادت تختنق فيها فطرتهم الانسانية ، فتخلط بين ما هو حسن وماهو قبيح ، وبين ما هو ممكن وما هو مستحيل .

ما تبين للأمم من هذا الحوار :

تبين لها من هذا الحوار هذه الأصول :

(١) شرع الدين لتربية الانسان وتكميله ، لا لتسخيره وتذليله .

(٢) دين الله واحد لا يتعدد ، وإنما تعددت الأديان بسبب ما أدخله عليها زعماؤها من آرائهم ، وما حمّلوها من تأويلاتهم .

(٣) خُلق العالم الانسانى كله من أب وأم ، فجميع أفراده إخوان ، وقد انقسموا بسبب كثرتهم الى شعوب وقبائل ، فيجب أن يتعارفوا ويتآلفوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا .

(٤) قوام الدين العقل ، ومادته العلم ، وميزانه الدليل ، العقل المطلق من أسر الأوهام التقليدية ، والعلم القائم على الأعلام الوجودية ، والدليل الخالص من مؤثرات الأهواء النفسية .

(٥) التكاليف الدينية ، مقيسة على الاستطاعة البشرية ، وللعاجز عن أدائها المعذرة .

(٦) لا وساطة بين الله وعبده ، ولا سلطان لطائفة تنتحل لنفسها هذه الوساطة ، وليس أحد بملزم أن يتبع رأى غيره ، فهو حر لايتقيد إلا بما تتقيد به الكافة أمام الشريعة العادلة .

(٧) التقليد غير جائز لأنه كما يكون فى حق يكون فى باطل ، وفى الاتباع غنى عنه ، ولا اتباع إلا بعد النظر فى أدلة المتبوع ، ومحاكمة أقواله الى المنطق والعلم .

(٨) الدين لا يحرّم على الانسان إلا مايضره ، ولا ينهاه إلا عما يفسده ، ولا يعاقبه على الخطأ والنسيان ، ولكن على العمد والإصرار .

(٩) كل إنسان مسئول عن نفسه ، وعن أعماله ، ومطالب بالدفاع عن ذاته ، لا يغنيه فى ذلك لجوؤه الى ملك مقرب ، ولا انتسابه الى نبى مرسل ، أو ولى حميم .

(١٠) لا فضلَ لنفس على نفس ، ولا سلطانَ لضمير على ضمير ، ولا مزية لأمة على أمة ، فالكل سواء أمام الله ، وإنما التمايز بتقوى الله وطاعته .

(١١) المنح الإلهية سواء أكانت مادية أم روحية حق للكافة على السواء ، تعطى للمستحق لها بلا تمييز بين الأجناس والألوان واللغات .

(١٢) المثل الأعلى للاجتماع أن يكون الناس أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، هو دين البشرية الأول الذى نزل على أسلافهم ، ولكن بعد تجريده من زيادات المتزيدين ، وأهواء المتحكمين ، وأضاليل المؤولين ، وأن يكونوا أمة عالمية خاضعة لأحكام العقل ، ومتمشية مع فتوحات العلم ، وماضية قدُماً فى تحقيق المُثُل العليا من العدل والانصاف والمساواة والحرية والاستقلال ، والتطهر من بقايا الوحشية والصفات الحيوانية .

الفرق بين الاسلام والأديان الأخرى فى معنى الدين :

هذه بعض الأصول والمبادىء الاسلامية التى يجد الباحث فيها عشرات من الآيات القرآنية تدل عليها نصا ، وقد دونتها كتب الشريعة الاسلامية بين دفاتها ، ونبه اليها الأئمة ، وبنوا عليها استنباطهم للأحكام ، ووضْعَهم للنظم الاجتماعية . وأنت ترى أنها جملة وتفصيلا مخالفة لما كانت عليه الأمم كافة . فقد كانت الجماعات لا تفكر فى وحدة الدين ، ولا فى صحته أو تحريفه ، فان ذلك كان موكولا للقائمين به ممن نصبوا أنفسهم مهيمنين عليه . وكان الناس يعتقدون ، كما أوهمهم بذلك قادتهم ، أن الدين لا يُتناول بالعقل ، ولا يتحكم فيه بالنظر ، فانما هو إيمان تقليدى لا يجوز أن يتردد عقل فى قبوله . وكل علم يدفع بصاحبه لتحقيق الاعتقاد وتصحيحه ، وكل فلسفة تستدعى إثارة الشكوك فى النفوس ، كانت تعتبر ملعونة يستحق المشتغل بها أن يرمى فى النار حيا ليموت على أفظع حالة . أما التكاليف الدينية فكانت فى نظرهم من حق المهيمنين على الدين ، وعندهم أنه لا يلحظ فيها تربية الانسان ولا تكميله ، وإنما محض العبودية للخالق ، وكلما كانت أشق على النفس ، وأدعى للإعياء واللغوب ، كانت أفضل .

أما الوساطة بين الله وعباده ، فكانت فى نظرهم ضرورية ، لأن رؤساءهم أوهموهم أن ذلك من

وضع الخالق نفسه ، وأنهم وكلاؤه فى أرضه ، ما يحلونه فى الأرض يحل فى السماء ، وما يعقدونه فى الأرض يعقد فى السماء . والطاعة لهـؤلاء الوسطاء واجبة ، وتقليدهم أمر لابد منه بدون نظر ولا نقد ، ولا تـَطلب دليل ، فذلك كفر !

أما المسئولية الشخصية فـلم يكونوا يقولون بها ، لأن القائمين على الدين هم الذين يجيبون عنهم فى الآخرة ، وهم الذين يتولون عند الله الشفاعة لهم .

أما تفاضل النفوس فـكان من الأمور المقررة عندهم ، فالذين ينتسبون الى الطوائف الممتازة من القادة والزعماء والوسطاء ، مفضلون على من سواهم ، ويجب أن يعفوا من جميع التـكاليف الاقتصادية والقانونية ، والخدم الاجتماعية .

أما المثل الأعلى للاجتماع فـكان فى نظرهم ماهم عليه ، وإن كانوا أسرى للتقاليد ، وعُبادا للخيالات ، وصرعى للاباطيـل ، يساقون سوق الأنعـام الى حيث لا يعلمون ، أو الى حيث يعلمون ولا يريدون .

هذه الأصول التى تولى نشرها القرآن ، ويصلح كل منها أن يكون ثمرة لثورة اجتماعية ، اجتمعت بين دفتى كتاب ، فتألفت منها روح إلهية قامت بها أمة ، ثم سرت فى أربعة أرجاء المعمور لايصدها شىء ، لأنها مطلب الفطرة البشرية ، وسَكـَن النفس الانسانية ، ومنفسم العواطف القلبية ، فلا عجب أن تبقى حية قوية حتى بعد أن أصاب جماعتها الوهن ، وبَرّح بها الفتور ، فهى حظ العالم كله لاحظ أمة واحدة منه .

وإذا شوهد أن هذه الروح تزداد على مدى الأيام فتاء وقوة ، فلأن كل ترق للانسانية يظهرها ، ويجلى حقيقتها ، ويتولى إذاعتها ، فهى مما لا يعقل أن يضعف أو يزول بتمادى الأيام ، وكر الأعوام .

تعليل سرعة انتشار الاسلام :

إن السرعة التى انتشر بها الاسلام فى بيئات لا تعرف العربية ، وبدون دعوة منظمة ، قد حيرت مؤرخى العالم الغربى ، وهو حدث فى حد ذاته يوجب الحيرة ، لم يدون التاريخ له نظيرا فى حياة العالم كله . فالدين الموسوى لم يجاوز فى انتشاره أسرة إسرائيل ، ولا يزال فى الحدود التى كان عليهـا من لدن وجوده . والدين المسيحى بقى نحو ثلاثة قرون محصوراً فى طوائف مبعثرة ، لم تقم لها دولة ، الى أن تولى الامبراطورية الرومانية كونستانتين الأول ، وكانت أمه قد ربته على الديانة المسيحية ، فحمل قومه على النصرانية ، وأمر بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية (٢٧٤ — ٣٣٧) . من ذلك الحين قام النصارى بارسال بعثات تبشيرية منظمة للبلاد القصية ، استعمل فيها الاجبار أحيانا . ولما

اكتشفت أمريكا فى القرن الخامس عشر ، وجدت تلك البعثات مجالا فسيحا لدعوتها ، وخالفت فيها سماحة المسيحية مخالفة صارخة ، وقد دون مؤرخوهم كل ذلك تفصيلا مما لا موجب لنشره .

ولكن الاسلام الذى يحرم مثل هذا الاجبار فى نصوص صريحة من كتابه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « وجادلهم بالتى هى أحسن » ، ولم تكن له قط إدارة دعاية منظمة ، قد سرى الى أقصى ما يمكن أن تسرى اليه دعوة ، وبلغ عدد أتباعه فى نحو قرن واحد أكثر من مائة مليون نسمة ، ثم استمر تياره فى السرعة حتى بلغ الى ماهو عليه الآن ، مقاوما كل الدعايات السيئة التى تحاط بها سمعته ، ومتغلبا على جميع العقبات التى توضع فى طريقه ، مستمرا على ما هو عليه ، واثقا بقوته الذاتية ، ومحدثا نفسه بأن سيكون ديانة العالم كله فى يوم من الأيام : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون »

هذه الظواهر الغريبة لا يمكن تعليلها إلا بما ذكرناه ، من أن هذا الدين قد حمل الى الناس روحا إلهيا ، فيه من قوة السريان ، وعظم السلطان ، ما لجميع الحقائق الخالدة .

اعتبر ذلك فى الأمم التى كانت تخالف العرب فى لغتها ، ومنها ما كان لها السلطان عليهم كالأمة الفارسية التى كان قد خضع لها العرب آمادا طويلة فى العراق واليمن . فان هذه الأمة العريقة فى السؤدد والمدنية بعد هزيمتها فى وقعة القادسية تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، بدل أن تشتغل بدس الدسائس ، وتدبير المكائد ، وإشعال نار الفتنة فى كل مكان ، لاجلاء العرب عن بلادها إرضاء لأنفتها القومية ، أخذت تشتغل بالدخول فى الاسلام ، ونشره فى ربوعها ، وتعلم لغة المغير عليها وحذقها ، والتبحر فى علوم القرآن وفروعها ، فلم يمض عليها سنون معدودة ، حتى كان أقطاب الاسلام من رجالها ، وكانوا قد توزعوا ضروب البحوث النقلية والعقلية واللغوية ، حتى سأل السائلون : ماذا كان يحدث لو لم يتول الفرس والديلم والأجانب عن العربية هذه العلوم الاسلامية ؟

سبب تهافت الأمم على الدخول فى الاسلام :

لست أريد التوسع فى تفصيل هذا الاجمال ، فهو معروف مقرر بين أهل العلم ، ولكنى ألفت نظرهم لهذه الظاهرة النفسية المدهشة ، التى تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الأقوام تلقفوا مبادىء هذا الدين لما آنسوا فيها أنها منزلة للانسانية عامة ، لا لأمة خاصة ، وأن كتابها لم يذكر فى مخاطباته أمة باسمها القومى قط ، فلم يقل مرة واحدة : يأيها العرب ، ولكنه قال عشرات المرات : يأيها الناس ، ويأيها المؤمنون . ولما رأوا أيضا أن فى الاسلام غذاء أرواحهم ، وشفاء قلوبهم ، وسكن عقولهم ، ومطمأن نفوسهم . وإنى لا أظن أنه يمكن سياقة برهان أقوى من هذه الظواهر ، على أن أصول هذا الدين ومبادئه كانت ولا تزال حاجة الجماعات الانسانية .

ومما أعود فألفت النظر إليه ما ذكرته فى صدر هذه المقالة ، من أن أصول الاسلام ومبادئه لا تزال فيها قوة الاستمرار حتى بعد ضعف أهله ، وذبول دولته . وهذه أكثر تحييرا للعقل من سابقتها ، فان الناس قد اعتادوا أن يفتتنوا بدين القوى ومذهبه وعاداته ، حتى أهوائه وأوهامه ووساوسه وفسوقه ، بل بلاهاته وجنونياته ، واتفقوا على أن يتحولوا عن الضعيف وكل ما يتصل به من عقائد وعادات وتقاليد ، وأن يشنعوا عليها ، ويتشاءموا منها ، وأن يتوقعوا كل سوء من الأخذ بها .

ولست أحيل القارىء من ذلك الى أمر مستور ، فقد ثبت ثبوتا قاطعا حتى بشهادة دعاة الملل الأخرى ، أن دعاية الاسلام تنجح حيث تخيب جميع الدعايات الأخرى . فلو لاحظت أن البعثات التبشيرية تدعو الى أديان الأمم القوية ، ذات المدنيات الفاتنة ، وقد حكِّمت فى أموال طائلة ، تبذلها تألفا للناس وجذبا لمودتهم ، ولها دور فخمة يسكنها رجالها ، يؤوون فيها من يظهر الميل اليهم ، ويمدونه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويختصونه بالحماية بين أهله ومعشره ؛ بينما لا توجد بعثة رسمية للاسلام ، اللهم إلا نفرا من التجار ، أو أفرادا من متسولة الدراويش ، يعيشون عالة على من يدعونهم ، ومع ذلك يتسارع الناس الى الدخول فى ملتهم ، مفتونين بما يسمعونه منهم من أصول الاسلام ومبادئه . وهذه الحال كما تشاهد فى أفريقا ، تشاهد فى آسيا والاقيانوسية ، وكل مكان لا يكاف فيه الانتقال من دين الى دين تأثيرا سيئا على الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية كما هى عليه فى أوربا وأمريكا . فهذه الظاهرة ذات دلالة قوية جدا على أن أصول الاسلام ومبادئه قد جلبت للانسانية خيرا لم يجلبه دين قبله ، ولا أى نظام اجتماعى آخر . فان الأقوام التى تسكن بلاد العرب وسورية وبلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر الى الصين ، كلها خرجت من وثنية منحطة ذات أصول جاهلية ، الى دين هو أرقى ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية لا تحصى . فبعد أن كانت القبائل العربية لا تعرف الوحدة ، ولا تدين لغير القوة ، وكانت الحروب بينها دائمة التسعر ، تآخت فى دين الله ، وسادها النظام ، ورحل كثير منها الى الممالك التى فتحها الاسلام ، وساهمت فى بناء مجد المسلمين ، ورفع أعلام مدنيتهم الفاضلة .

أما الفرس فقد أعاد لهم الاسلام دولتهم وثقافتهم ووحدتهم ، فقد كانوا انتهوا فى أواخر عهدهم الى مثل العهد الإقطاعى الذى أهلك أوربا قرونا طويلة ، فكان دخولهم فى الاسلام سببا فى رجوع وحدتهم اليهم ، وزوال أسباب التناحر من بينهم . وعادوا الى أكمل مما كانوا عليه أيام مدنيتهم ، وكثر فيهم نبوغ الأئمة الدينيين ، والمؤلفين العلميين ، والكتاب والشعراء المبرزين .

أما الأمم التى وصل اليها الاسلام فى شمال بلاد الفرس وشرقها الى الصين ، فقد أخر...

الاسلام من غيابة الخمول العقلى ، وصار يدون تاريخ الأدب من رجالاتها أسماء لايزال يعترف العالم بفضلهم على العلوم والفنون والصنائع الى اليوم .

ولا أحدثك عن الأمم التى كانت لا تذكر فى تاريخ البشر ، إلا فى باب المستعمرات للأمم القوية فى الاسلام كأمم شمال أفريقا ، فقد تألفت فيها دول ، وقامت فيها مدنيات ، وسجلت لها اسما فى ديوان الجماعات التى ساهمت فى بناء المدنية .

أما مصر التى كان قد أحالها الاستعمار الرومانى الى جثة مصبرة ، كما عبر بذلك عنها الأستاذ جول لالوم ، فى مقدمة الفهرست الذى وضعه للقرآن الكريم ، فقد تنبهت من رقادها الطويل ، ونفضت عنها غبار خمولها المزمن ، وعادت أفضل مما كانت عليه فى عهد فراعنتها ، حتى كان من مؤسساتها ما بقى الى اليوم قبلة أنظار مئات الملايين من البشر ، يقتبسون منه الدين واللغة ، وهو الأزهر المعمور .

ماذا أفاد الاسلام اهل أوربا من الناحية الأدبية ؟

يخيل الىّ ، وقد انتهيت الى هذا الحد ، أنك تريد أن تسألنى : وماذا أفاد ظهور الاسلام أهل أوربا من الناحية الأدبية ؟ فأجيبك :

ظهر الاسلام فى القرن السابع للميلاد فى وقت كانت فيه أوربا فى ظلام حالك بشهادة المؤرخين الأوربيين ، فكان رجال الدين هنالك مستولين على السلطة الدنيوية فوق سلطتهم الروحية ، وقد حملهم تطرفهم فى حماية العقول من الشبهات الدينية التى تثيرها العلوم فى الصدور على إعلان أنها عدوة الدين ، فقاطعها الناس طائعين ومكرهين ، فنضبت ينابيعها ، وتصوحت أزاهيرها وأقوت مغانيها ، ولم يبق منها إلا ما تمس اليه الحاجة الساذجة .

وكان إذا سولت لإنسان نفسه أن يعيد النظر فيها ، أو أن يبنى رأيا على أصولها ، زج به فى أعماق السجون ، وعُذب واستتيب ، فان أناب أطلق سراحه ، وإن أصر ألقى حيا فى النار!

ظهر الاسلام وأوربا من أدناها وأقصاها على هذه الحال ، فقفز بعض رجاله الى أسبانيا فامتلكوها ، وكانت على مثال غيرها من الاستبداد فى الحكم ، والتضييق فى الدين ، فمضى المسلمون على سجيتهم فى تأسيس المدارس بها ، ونشر العلوم ، وبناء المستشفيات ، وإقامة المراصد ، وفتْح جامعاتهم لمن يقصدها من الطلاب ، غير ناظرين الى أجناسهم ولا أديانهم ولا ألوانهم ، فتنور كثير من أهل الأقطار الأوربية فى مواد العلوم ، وقدم اليها طلاب آخرون من بقية الممالك. وكان المسلمون قد امتلكوا أيضا جزيرة صقلية (سيسيليا) فى جنوب ايطاليا ، فجروا هنالك أيضا على عادتهم من نشر العلم ، وتشييد دوره ، فدخل اليها طلاب كثيرون من سكان تلك البقاع . فكان ذلك سببا مباشرا فى انتشار علوم المسلمين وآدابهم فى أوربا ،

واندست معها أساليبهم فى التمحيص ، وأصولهم فى التدقيق ، فتنبهت هنالك عقول ، وفكرت فى مصيرها نفوس ، وأدركت حالتها قلوب ، فكان ذلك ، على قول الأوربيين ، سببا فى نهضة أوربا الحديثة .

فهل يمكن أن يثبت لنا إنسان ، بأن دينا من الأديان ، أو نظاما من النظم ، عم خيره الأرض ، ونالت كل أمة منه نصيبا مثل ما عمها من الاسلام ، إما مباشرة وإما بواسطة ؟

هذا ولم يتم الاسلام جولته العالمية بعد ، ولا تزال أمم فى الأرض لم تبلغها منه دعوة ، وأمم قد ضللت فيه تضليلا بعيدا ، ولكنه بما أودع من قوة وحق ، سيتغلب على هذه العقبات كلها حتى يسود العالم كله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

ربما استغرب باحث أن لا تؤثر أصول الاسلام على سموها هذا فى العالم المتمدن ، كما أثرت فيما عداه ، والواقع أن العالم المتمدن الذى استعصى على الاسلام ، هو أعصى ما يكون على العلم نفسه ، الذى كان ثمرة من ثمرات رجاله ، فلا يزال الناس فيه يعيشون على الضد بما يوصى به قانون الصحة ، وما يتطلبه ناموس الاخلاق ، وما يتقاضاهم إياه علم الاجتماع ، وتصيبهم على ذلك المثلات فلا يرعوون ؛ فهل يصح أن يقال اعتمادا على هذا : إنهم سيستمرون على معاصاة الحقائق ؟ اللهم لا ، فلا بد لهم من متاب ، يوم يحدث تطور أدبى جديد ، فيتغلب العقل على الهوى ، ومتى حدث ذلك ظهرت أصول الاسلام هنالك على أكمل ماهى عليه فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتم له الأمر « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وأنا لا أقول هذا لأن الاسلام دينى ودين قومى ، ولكن لأن الأصول التى يقوم عليها ، والمبادئ التى يدعو اليها ، هى النواميس الالهية الخالدة التى اكتشفها الناس فى خلال العصور المتتابعة ، ودلت عليها العلوم اليقينية فى أدوار متوالية من الثورات الفكرية ، والانتقالات الأدبية .

إن ديننا يدعو الى المثل الأعلى من الاجتماع ، وهو أن يتعارف الناس قاطبة ، ويعيشوا إخوانا متكافلين ، لا أعداء متناحرين ؛ والى نصب العقل ميزانا لتمييز الحسن من القبيح ، والحق من الباطل ؛ والى إدمان النظر والفكر ، وإعمال الروية والبصيرة فى اكتناه المجاهيل ، وتمحيص المعالم ، والبعد عن الظنون والأوهام ، واجتناب الخيالات والوساوس ، والاستماع الى كل قول واتباع أحسنه ، وتصيد الحكمة حيث كانت ، والاحسان فى كل شىء ، وتطلب العلم من معادنه ، وعدم الوقوف منه عند حد ، وعدم التقيد بأحوال الأمم السابقة ، والسير قدما الى الغايات البعيدة ، والنهايات القاصية ، والتخلق بأخلاق الله فى سموها وإطلاقها ، والاتصاف بالمحامد والابتعاد عن السفاسف ، ومجانبة الظلم والانظلام ، والعدل المطلق حتى حيال الأعداء الألداء ، والدءوب على إصلاح العالم ، وعدم الافساد فيه الخ ، مما لا يمكن

إحصاؤه ، وقد قامت الفلسفة بتفصيله فى الزمان الأخير ؛ قلت : إن ديننا يدعو الى كل هذه الأصول على إطلاقها ، وفى غاية سموها ، لا يعقل أن يقف من انتشاره عند حد ، ولا أن يحال بينه وبين القلوب بصد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطا مستقيما » ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

محمد فريد وجدى

الكبر يؤدى الى الوضاعة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » .

وكان يقال : من جهل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل ، ومن أنف من عمل نفسه اضطر الى عمل غيره .

وقال شاعر :

رأيت الفتى يزداد نقصا وذلة — اذا كان منسوبا الى العجب والكبر
ومن ظن أن العجب من كبر همة — فانى رأيت العجب من صغر القدر

وقال معاوية بن أبى سفيان : إن التواضع مع البخل والجهل ، أزين بالرجل من الكبر مع البذل والعقل . فيالها حسنة غطت على سيئتين كبيرتين ، ويالها من سيئة غطت على حسنتين عظيمتين .

وقال حكيم : من أصاب حظا من جاه فأصاره الى كبر وترفع ، أعلم الناس أنه دون تلك المنزلة ؛ ومن أقام على حاله أعلمهم أن تلك المنزلة دونه ، وأنها دون مايستحق .

وقال بعض المتهوسين بالكبر ، وإنما نورده تفكهة :

أتيه على جن البلاد وإنسها — ولو لم أجد خلقا لتهت على نفسى
أتيه فما أدرى من التيه من أنا — سوى مايقول الناس فىّ وفى جنسى
فان زعموا أنى من الإنس مثلهم — فمالى عيب غير أنى من الانس



سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » :

ذكرنا لك فى مقالنا السابق كلام سقراط مع أرستوديم فى البرهنة على وجـوده تعالى ، واليوم نذكر لك شيئا من براهين غـيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين لما فى ذلك من الفوائد لأولئك الذين قلدوا سفهاء أوربا بلا عقل ولا روية ، فنقول :

قال أفلاطون : « من البدهى أن كل حادث له سبب أحدثه لولاه لبقى فى العدم ولم يخرج الى الوجـود ، ولا يعقل حدوث شىء بلا سبب (لأنه لا يعقل إيجاده نفسه) ومن المعـلوم بالضرورة أن العالم حادث ، لأنك تشاهد وجـود الأشياء بعد عدمها ، ولأنك تعلم أن هذا العالم ممكن وكل ممكن يجوز عليه الوجود والعدم ، فلا يتأتى إلا بمرجح يرجح وجوده على عدمه ، وهذا بدهى فى الممكن ، لأنه لو لم يكن كذلك لـكان واجبا والواجب لا يسبقه عدم ، ولا يجوز أن يطرأ عليه عدم ، فإذاً يجب أن تكون هذه الموجودات البديعة لها سبب هو أكمل الأسباب كلها » .

براهين أرسطو واضع المنطق ويلقب بالمعلم الأول :

قال : « إنا وجدنا المتحركات تتحرك ، ولا بد لـكل متحرك من محرك ، ولا يجوز أن يذهب الى غير النهاية لامتناع التسلسل ، فلا بد أن يستند الى محرك غير متحرك ، ولا يجوز أن يكون فيه معنى ما بالقوة ، فانه لوكان كذلك لاحتاج الى شىء يخرجه من القوة الى الفعل ، فالفعل إذاً سابق على ما بالقوة ، وكل جائز وجوده ففى طبيعته معنى ما بالقوة وهو الإمكان والجواز ، فيحتاج الى واجب به يجب حتى يظهر الى الوجود ، فـكل متحرك يحتاج الى محرك لا محالة ، لأن جائز الوجود ليس له فى نفسه إلا الامكان والقابلية »

وقال فى إثبات الوحدانية : « محرك العالم واحد لأن العالم واحد ، ولو كان كثيراً لحمل

على واجب الوجود ما حمل على غيره بالتواطؤ ، فيشملها جنسا وينفصل أحدهما عن الآخر نوعا ، فتتركب ذاته من جنس وفصل ، فتسبق أجزاء المركب على المركب سبقا بالذات ، فلا يكون واجبا بذاته »

ثم قال : « إن واجب الوجود لا يتغير ، لأن انتقاله عن حالته يكون الى الشر لا الى الخير ، لأن كل رتبة هي دون رتبته ، وكل شيء يناله هو دون نفسه الكاملة » .

ولنقتصر من براهين الفلاسفة الأقدمين على هذا ، ولنذكر لك من براهين فلاسفة أوربا المحدثين ما تيسر ، لما في ذلك من الفائدة التي تعود على كثير من القراء ، إن شاء الله ، فنقول :

قال الفيلسوف الشهير الصيت ديكارت الفرنسي :

« إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة ، وأراني مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهي : الله » .

ثم قال (وهو وجه آخر من وجوه الاستدلال) : « إني لم أخلق ذاتي بنفسي ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها . إذاً أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذي طبقته على نفسي » .

ثم قال : « إن عندي شعوراً بوجود ذات كاملة لا يفترق في الوضوح عن شعوري بأن مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين . إذاً فالله موجود » .

ولا بأس أن نقول لك : إن ديكارت كان ممعنا في الشك في كل شيء ، وما كان يريد بذلك الشك إلا التوصل للحقيقة ناصعة خالصة من كل تقليد ، فهو أشبه شيء بالرأي الذي يذكر عندنا في كتب الكلام من أن أول واجب هو الشك . فاعرف ذلك ، وإياك وتقليد بعض الجاهلين الملحدين !

ومما يناسب موضوعنا الذي نحن فيه قوله : « إن في هذه الشكوك كلها شيئاً لا يتناوله الشك أبدا وهو « أنا » ، وقد كنت مقتنعا بأني لست بموجود ، ولكني في الواقع كنت موجودا ، إذ استطعت أن أعتقد أو على الأقل أن أتفكر في شيء ، فاذاً أنا موجود ، ولا يوجد شيء يمكنه أن يقنعني بأني لست بموجود مادمت أتفكر . فقولي : أنا موجود إذاً ، هو حقيقة ثابتة لاشك فيها ، كلما قلتها أو تصورتها في ذهني » .

هنا تمكن ديكارت ، أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج بعقيدة صريحة واضحة

لا تقبل الجدال ، وهى أنه موجود ، ومنها تمكن من اكتشاف حقيقة أخرى جليلة القدر وهى أنه يوجد ذات متصفة بجميع صفات الكمال .

قال : « إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتى ، وقد ولدت حاملا أماناتها فى ثنايا ضميرى ، لأنه كيف يعقل أن أدرك أنى شاك وأنى راغب ؟ أى أنه ينقصنى شىء ، ولم أكن بالغا نهاية الكمال إذا لم يكن مغروزا فى طبيعتى إدراك وجود ذات أكمل من ذاتى » .

ثم قال : « إن لفظة « الله » إن لفظت بها فإنما أعنى بها هيولى لا نهاية لها ، أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شىء وقادرة على كل شىء ، وأنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها ، وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقادا بأنى لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتى وحدها ، وعليه فيجب أن أستنتج من ذلك أن لله وجودا مستقلا ، وأن شعورى بوجود هيولى غير متناهية لا يمكن أن يكون أصله من ذاتى أنا ذلك الكائن المتناهى ، بل غرست فى ذاتى تلك العقيدة من قبل هيولى غير متناهية فى الحقيقة » .

براهين فنيلون :

وهو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « لست موجودا من ذاتى ، وكل شىء من هذه العوالم كذلك ، لأنه يجب للموجود من ذاته أن يكون أزليا ثابتا ، فانه يكون حاصلا من ذاته على علة وجوده ، ولا يكون محتاجا لشىء من الخارج عنه ، فكل ما يمكن أن يأتيه من الخارج لا يعقل أن يتحد به ولا أن يكمله ، لأن الحادث المتغير لا يمكن أن يتحد مع الموجود بذاته الذى لا يقبل التغير ، فان الفرق بين هاتين الطبيعتين يجب أن يكون لانهاية له ، إذاً فلا يمكنهما أن يؤلفا مجموعا حقيقيا ، إذاً فالموجود بذاته لا يمكن أن يزاد شىء على حقيقته ، ولا على رحمته ، ولا على كماله ، فهو فى ذاته كل ما يمكن أن يكون ، ولا يجوز عليه أن يكون أقل مما هو عليه . فالوجود على هذه الصفة هو أرقى درجات الوجود » .

برهان بوسويت :

هو من كبار فلاسفة القرن السابع عشر ، قال : « ليس علينا إلا أن ننظر الى أنفسنا لنتحقق أننا صادرون من أصل رفيع ، نرى أنفسنا أهلا لأن نفهم الأشياء وندرك الموجودات ، وأننا قد نجهل بعضها فنشك فيها ، أو نرى الأحوط ألا نحكم عليها بحكم حتى نصل منها الى حقيقة ما ، وما ذلك إلا لأننا نعتقد أن بنفوسنا نقصا يمنعها الوصول الى الحقيقة المطلقة ، وإذا كان فى الوجود عقل ناقص يشك ويتردد ويجهل وهو مع ذلك موجود ، فمن باب أولى يكون موجودا فيه عقل كامل ليس عقلنا منه إلا قطرة من بحر أو شعاعا من شمس ، لأنه مما لا يعقل أن نكون نحن وحدنا المتمتعين بعقل وإدراك ، ويكون الوجود العظيم كله خالٍ

منهما ، إذ يقال إنه إذا كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لاعقل لها ولا إدراك ، فمن أين نشأ للانسان هذا العقل والادراك ؟ « وفاقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم » إذاً فلا بد أن يكون فى الوجود عقل مطلق وإدراك لا حد له »

برهان ليبنتز :

وهو من أشهر فلاسفة الألمان :

قال فى بعض كتبه : « الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له مشاعرنا ، هو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد وقد لا يوجد ، وليس فى أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها أن تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع أخر غير النوع الحالى ، إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة . يجب البحث عنها فى الهيولى التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية . يجب أن تكون هذه العلة عاقلة ، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا ، أى قد يكون ولا يكون ، ومن الامكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فمل إرادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الارادة فعالة إلا القدرة التى لهذه العلة الحكيمة . يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة . ولما كان الوجود كله مرتبطا بعضه ببعض ومفرغا فى قالب واحد ، فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها » .

هذا بعض ما قاله أولئك الفلاسفة . وما أجدرنا فى هذا المقام أن نقول :

جلالك يا قدوس ليس له حد ... كذاك صفات القدس ليس لها عد
تعاليت عن وصف الخليقة كلها ... ومن وصف علياك الطهارة والمجد
قضاؤك محتوم وأمرك نافذ ... وما شئت من شيء فليس له ردّ
لك المثل الأعلى وكل معبّد ... كفاه اعتزازاً أن يقال هو العبد

ولنكتف اليوم بهذا المقدار مخافة السآمة . وقد نقلنا من تلك الشهادات للدين الاسلامى شيئا كثيرا فى كتابنا (الجواب المنيف) علما بأن الالحاد قد طم سيله ، وعم ويله ، وظن أربابه أنهم وصلوا من العلم الى ما لم يصل إليه الأولون « ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون » ! وقد بين الله حقيقتهم ومبلغهم من الانسانية فقال وهو أصدق القائلين : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » « وإن

تدعهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . غـير أن هنا كلاماً مهماً لـكاتبة أمريكية عن الاسلام يحسن أن نذكره لحضرات القراء فى هذه الفرصة :

نشرت مجلة بوستن التى تصـدر بأمريكا مقالا طويلا لـكاتبة أمريكية بعنوان « لا دين أعلى من الحـق » استهلته بوصف جامع وثناء عاطر على النبى صلى الله عليه وسلم ، وما أحدثته رسالته فى العالم ، وما كان لبعثته من أثر فى أخلاق الأمم وتطور العقائد من الحضيض الى الأوج ، الى غير ذلك من الاصلاح الاجتماعى الذى لا حد له ، ثم أهابت بالناس جميعا ألا يغفلوا عن تعاليمه ، وأن يوجهوا كل همتهم إليها ، ففيها الخير العميم ، وفيها المنافع الـكثيرة . فمن قولها فى هذا المقـال :

« إن مقاييس الإصلاحات الانسانية هو الخير الذى يمكن أن يصل الى نوع الانسان عن طريق ذلك الإصلاح ، وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم قاموس محيط لأرقى مزايا الاصلاحات وأعمها نفعا للبشرية .

« فمن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم : أن كل عمل طيب صدقة ، وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة ، وتوجيه النصيحة إليه بمثابة هدية غالية ، وهداية الحائر الى الطريق يعد إحسانا ، ورفع الحجر والشوك ونحوهما من الطريق كى لا يتعثر فيهما السارى فى الظلام صدقة وبر عظيم .

« أطعموا الجائعين ، واسقوا العطاش ، وعودوا المرضى ، وحرروا الأسارى ، وأعتقوا العبيد ، وساعدوا كل إنسان .

« هذه من أقوال محمد ونصيحته . وكذلك قوله : أسعدوا القلب الحزين ، وأنقذوا المـكروبين ، وخلصوا الغريم من عبء الدين الثقيل ، لأن من أخرج المـكروب من ضيقه يفرج الله عنه فى يوم القيامة الذى يحقق الله فيه العدل ، وينجز وعده بالجزاء .

« وفى ذلك اليوم تمر على الانسان ذكريات دنياه ليقـدم عنها الحساب ، فبشرى للذين يعاونون إخـوانهم فى أوقات ضيقهم ، ويرفعونهم من كبواتهم ، أولئك يساعدهم الله يوم الفزع الأكبر .

« تلك وصايا محمد وعظاته البالغة التى تدفعنا لنحمل نور الفرح الى القـلوب التى تراكمت عليها ظلمات الهموم ، ونور الهداية الى النفوس التى أغرقتها ظلمات المعاصى .

« إن محمدا يبين لنا أن أحب مخلوق الى الله هو الذى يصدر منه الخير لمخلوقاته ، لأن جميع الناس سواء عند الله ، أفضلهم من سما بالفضل فيهم ، وتعاليم محمد لا تعتبر الانسان كاملا عند الله بمحض ألفاظه وكلماته ، فالكمال فى الاسلام قائم على الصدق الذى يبدو فى ثلاثة مظاهر من الحياة الانسانية : الصدق فى القول ، والطهارة فى النية ، وظهور الايمان فى الحياة العملية .

« قل الصدق إذا نطقت ، أد الشهادة على وجهها ولو على نفسك ، أنجز إذا وعدت ، أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك . خالف نفسك فى هواها إذا مالت الى شىء يغضب الله ، لا تحمل فى قلبك غلا ولا حقداً لأحد ، واغسل يديك من أدران الأذى والاعتداء . وهـذا الدين يحرم على أهله أن يفشى المسلم عيوب غيره ، أو ينقل بين الأصدقاء حديثا يفرق بينهم ، أو أن يتتبع المرء عورات أخيه ويخفى محاسنه ومزاياه .

« وهنالك حقيقة عظمى يكاد الاسلام يمتاز بها : وهى أن الانسان ينبغى أن يعيش من كسب يده : من التجارة ، أو الصناعة ، وغـيرهما ؛ وأن الله جلت قـدرته يبارك للمجتهدين فى أرزاقهم ، ويعطيهم ثواب العبّاد ، ويمنحهم أجر الذين جاهدوا فى نصرة الدين .

« نصح محمد لرجل سائل أن يجمع الحطب من الجبال والغابات ويبيعها لـكى لا يقع تحت ذل المنة عليه من الناس .

« وينصح محمد بأسمى فضائل الأخلاق ، ويدعو الى أن تصل من قطعك ، وتحسن الى من أساء اليك ، وأن لا تتكلم إلا بخير ، وإذا سكت فليكن صمتك تفكيرا فى الله ومصنوعاته .

« أما تعليم العلم وتعلمه : فان العلم مدين كثيرا لمحمد الذى يعلم أتباعه أن ساعة من الليل فى مذاكرة العلوم أفضل من قضاء الليل كله فى العبادة ، ويعتبر الاسلام أن من اجتهد فى العلم وأصاب الصواب كان له أجران عنـد الله : أجر نجاحه ، وأجر اجتهاده ، وأن من أخطأ فله أجر اجتهاده . فأى تشجيع على التعليم أسمى من هذا ؟

« إن محمدا يعتبر اقتناء العلوم جهادا ، والتكلم بها ذكرا ، والبحث عنها قنوتا ، وتعليمها تصدقا وإحسانا ، لأن العلم هو المنقذ من الحيرة ، والنور الـكاشف للظلمة ، وهو صلة الأرض بالسماء ، وطريق الانسان الى الله . العلم هو صديقنا فى صحراء الحياة المجدبة ، وأنيسنا فى وحشتها ، ومساعدنا عنـد فقد الأصدقاء ، ومرشدنا الى السعادة ؛ وهـو الذى ينقذنا من البؤس ، ويكسبنا زينة مع الفقر ، سلاحنا ضـد أعدائنا . ولطالما رفع العلم الخاملين وسما بهم الى معاشرة الملوك .

« تلك هى أقوال الاسلام وتعاليم محمد نقلنا خلاصة منها فى هذه الأقوال الموجزة المجملة غاية الاجمال .

ولقد نشر أصحاب محمد لواء العلم فى كل مكان ، ويظن بعض من يجهل الحق أو يتجاهله أن الاسلام كان دين غزو وفتح . هو قول بلغ أقصى غايات البعد عن الحق المبين .

« حقا إن المسلمين فتحوا ممالك وشادوا أمبراطوريات ، ولـكنهم لم يحملوا سيوفا فقط ، بل حملوا عدلا ، ونشروا علما وفنـا تجلى فى عبقرية المجتهدين الذين نشطوا بين القرن الثامن

والرابع عشر نشاطا لم يعرف التاريخ مثله ، شيدوا مدارس وجامعات فى مصر وبغداد وقرطبة فى غرب أسبانيا ، وما ازدهرت الحضارة فى الدنيا كما ازدهرت فى ظل أتباع محمد .

«إن المسيحيين فى أوربا لاينكرون ما اقتبسوه من الأندلس من العلوم والفنون التى كانت حياتهم بعيدة كل البعد عنها ، فتعلموا الفلك والرياضيات من المسلمين الذين كانوا يترجمون ثم يحققون ، فتبدو شخصيتهم العلمية والفنية وعليها من الاسلام طابع واضح يشهد بالفضل لتربية محمد صلى الله عليه وسلم التى أثرت فى الدنيا كلها »

هذه أقوال سيدة منصفة تحب الحق وتجهر به ، وإنا نتمنى أن يرشد الله أبناءنا المتعلمين أن يبحثوا عن الحقيقة التى جهلوها حتى يعرفوا أسرار دينهم التى غفلوا عنها ، حتى يعود اليهم مجدهم الذى كانوا فيه عند ما كانوا مسلمين حقا .

أسأل الله أن يعرفنا مزايا الاسلام وعظمة نبى الاسلام بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

البذىء لا يكون كريما

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » .

وقال على كرم الله وجهه : ما استبّ رجلان إلا غلب ألأمهما .

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوأ الداء ؟ الخلق الدنى ، واللسان البذى .

وقال أديب : اللئيم بعد الخناجنة ، والوقاحة جُنة ، فوجهه صُلَّب ، ولسانه خُلَّب .

وقال حكيم : الفاقة خير من الصفاقة .

وقال غيره : الوقاحة فى الرجـل تدل على لؤم نجره (أى أصله) ، وخساسة قدره ، وقلة خيره ، وكثرة شره .

وقال شاعر يهجو واحدا من الأوقاح :

لك عرض مثلم من قواريـ ـر ووجه ململم من حديد

وقال شاعر وقد أجاد :

كل من لم يكن عنصره طيبا لم يخـرج الطيب من فيه
كل امرىء يشبهه فعـله ويرشح الـكوز بما فيه
أصل الفتى يخفى ولـكنه من فعله يظهر خافيه

السنة

استواء سفينة نوح على الجودى

وكيف عبر القرآن عن الطوفان

حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى ، قال : حدثنا المحاربى عن عثمان بن مطر عن عبد العزيز ابن عبد الغفور عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فى أول يوم من رجب ركب نوح السفينة فصام هو وجميع من معه ، وجرت بهم السفينة ستة أشهر ، فانتهى ذلك الى المحرم ، فأرست السفينة على الجودى يوم عاشوراء ، فصام نوح وأمر جميع من معه من الوحش والدواب فصاموا شكراً لله تعالى » . أخرجه ابن جرير .

وروى أحمد عن أبى هريرة : « أن يوم عاشوراء هو اليوم الذى استوت فيه السفينة على الجودى ، فصامه نوح شكرا » .

يتعلق بشرح هذا مباحث : (١) بيان الطوفان وهل عم جميع الأرض أو لا . (٢) بيان أن الله تعالى كان يعـذب الأمم المـاضية باهلاكهم الى بعثة سيدنا محمد . (٣) كيف أهلك الله الأطفال والصبيان الذين لم يكلفوا . (٤) بيان معنى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » الآية .

الغرض الأول من هذا المقال هو بيان بعض المعانى التى أعجزت أساطين الفصاحة والبلاغة فى آية « وقيـل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض المـاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » . فان هـذه الآية الـكريمة قد حوت من أسرار البلاغة والفصاحة ما خضعت له أعناق ملوك الفصاحة والبلاغة ، واستيقنوا أنهم عاجزون عن معارضة القرآن الـكريم ، كما سنبينه قريبا . وإنما ذكرنا هذا الحديث لأن موضوع مقالنا فى مجلة الأزهر هو الـكلام فى السنة ، فلنشرح أولا بعض المعانى التى أشرنا اليها فى الحديث إجمالا ، ثم نتكلم فى الآية الـكريمة بقدر المستطاع :

(١) الطوفان ، وله فى اللغة معان ، منها المـاء الـكثير الذى يغشى كل شىء وهو المراد هنا ، فان الله سبحانه أراد أن يهلك قوم نوح باغراقهم جميعا إلا من آمن ، كما قال تعالى : «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » . وقد عبر الله سبحانه عن الطوفان بعبارات مختلفة فى كتابه

الكريم ، منها قوله تعالى فى سورة القمر : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودُسُر ، تجرى بأعيننا جزاءً لمن كان كُفر » . فهذه الآية الكريمة تبين لنا معنى الطوفان ، وتصور لنا كثرة الماء أحسن تصوير ، لأن معنى « منهمر » : منصب فى كثرة وتتابع ، فلم ينقطع مدة أربعين يوما ، كما روى فى صحيح الأخبار . ومعنى قوله : « وفجرنا الأرض عيونا » : وجعلنا الأرض كعيون الماء المتفجرة . والمتفجرة : السائلة ، يقال تفجر الماء وانفجر إذا سال . فحاصل معنى هذا أن الأرض نبعت منها المياه السائلة ، والسحب قد انصب منها الماء الكثير المتتابع ، فالتقى الماءان على حالة قدرها الله القوى القدير ، ليهلك الكافرين الطاغين الذين كذبوا بآيات الله وعصوا رسولهم ، واستهانوا بالدلائل القاطعة التى تدل على أن خالق الكون ومدبره إله واحد عليم قدير .

أما كون الطوفان قد عم الأرض كلها أو لا ، فلم يبينه القرآن الكريم ، لأنه لا يتعلق به غرض فى الموضوع الذى سيقت من أجله الآيات ، فان الغرض الظاهر منها إنما هو التذكير بعظمة الاله الخالق ، وبيان بطشه بالكافرين الضالين ؛ ولكن العلماء قد اختلفوا فى أمره ، فمنهم من قال : إنه قد عم الأرض ؛ ويؤيد هذا ما ذكره بعض علماء طبقات الأرض من أنه وجد فى أعالى الجبال عظام حيوانات لا تعيش إلا فى الماء كالأسماك . وإذا كان الماء قد غطى الجبال فلا بد أن يكون قد عم الأرض جميعها ، إذ ليس من المعقول أن يغطى الماء الجبال وتبقى سهول الأرض خالية منه . ولعل هذا هو الظاهر من القرآن ، لأن آياته فيه عامة . وبعضهم يقول : إن الطوفان لم يعم الأرض كلها . وعلى كل حال فما لا ريب فيه أن سكان الأرض يومئذ كانوا منحصرين فى قوم نوح ، إذ ليس من المعقول أن يعذب الله من لم يرسل له رسولا بالهلاك . وعلى هذا تكون فائدة عموم الطوفان إنذار الأمم التى تأتى بعد نوح وتعمر الأرض فى جميع جهاتها ، فكأن الله تعالى يقول لهم : إنه قادر على إهلاكهم بما أهلك به قوم نوح من قبلهم .

(٢) ولقد كان من سنن الله سبحانه مع الأمم السابقة على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يرسل اليهم الرسل المؤيدين بالمعجزات الواضحة والبراهين القاطعة ، ليأمروهم بعبادة الله وحده ، وينهوهم عن عبادة الأوثان ، فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا وعنادا ، وإصرارا على استمساكهم بأوثانهم ، ومحاربة خالقهم واضطهاد رسله ، فيجزيهم الله على ذلك بالهلاك فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

أما إهلاكهم فى الدنيا فقد كان متنوعا ، فمنهم من أهلكه الله بالغرق ، ومنهم من أهلكه بالمسخ والخسف ، ومنهم من أهلكه بالصواعق والرياح ، الى غير ذلك من المهلكات المدمرات الواردة فى كثير من آى القرآن الحكيم . فمن ذلك ما بينه الله تعالى فى قوله : « فكلا أخذنا

بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومعنى الحاصب : الريح العاصف التى فيها حصباء ، وقـد أهلك بها قوم لوط . والصيحة معروفة ، وقد أهلك بها مدين وثمود . وخسف الأرض بقارون . وأهلك بالغرق قوم نوح ، وفرعون .

أما بعد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقـد رفع الله عن الناس الذين يكفرون به هذا النوع من العذاب ، وهـو استئصال المكذبين وقطع دابرهم أجمعين ، وإن كانت النذر الإلهية لم تنقطع ، فان الله سبحانه لم يزل يذكر الناس ببطشه وسلطانه ، ويحذرهم بأنواع من العذاب ليتدبروا عاقبة طغيانهم فيكفوا عن الظلم والفساد ، قال تعالى : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » . فهذا وعـد من الله تعالى لنبيه بأنه لا يعذب أحداً من أمته (وهو رسول الى الناس جميعا) بذلك النوع من العذاب ، ولذا قال تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى » . ومعنى ذلك أن الله تعالى يقول لنبيه : لولا ما وعدناك به من أننا لا نعذب أمتك عذاب الاستئصال الذى عذبنا به الأمم التى من قبلك لـكان ذلك العذاب أمرا لازما . أما قوله : « وأجـل مسمى » فهو عطف على قوله : « كلمة سبقت » .

(٣) أما كون الله تعالى قد أغرق الأطفال الذين لم يكلفهم بدون ذنب ، فقد اختلفت فيه آراء العلماء ، فمنهم من قال : إن الله تعالى قـد أعقم النساء فى زمن نوح مدة أربعين سنة فلم يوجد بينهم طفل غير مكلف عند الغرق . ولـكن هـذا القول لم يدل عليه دليل صحيح . ومنهم من قال : إن الله تعالى قـد علم بأن هؤلاء الصغار سيكونون مثل آبائهم إذا كبروا ، وقد صرح بذلك سيدنا نوح ، فقد حكى الله عنه أنه قال : « رب إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » وأقره الله على ذلك ، فلو عـلم الله أن أحدا من هؤلاء الصغار سيكون مؤمنا لهيأ له وسائل النجاة . ومنهم من قال : إن هؤلاء الأطفال قد ماتوا لانقضاء آجالهم كما يموت غـيرهم ، فان الموت لا يترك الصغير رحمة به ، بل معظم الموتى من الأطفال ، فليس فى الموت تعذيب خاص بفريق دون فريق لأنه عام ، وقد يكون من مصلحة الطفل أن يموت فى هذه الحالة لينجو من فساد أبويه وكفرهم وطغيانهم . بل قد ورد فى بعض الأحاديث أن المؤمنين الذين يعيشون فى البيئات الفاسدة يمسهم العذاب الذى يلحق المفسدين فى الدنيا ، وأجرهم على الله فى الآخرة . وهذا الرأى قد أقره كثير من محققى المفسرين ، وهو الظاهر ، لأن هذا الخلاف فى الواقع مبنى على الظاهر المعروف لنا ، ولـكن عند التأمل نرى أن كل كائن فى هذه الحياة له أجل معلوم ، وقـد جرت سنة الله فى خلقه أن يجعل للموت أسبابا متنوعة

بعضها ظاهر وبعضها خفى . فنهاية أجل الانسان هى الموت باتفاق الناس . أما كون الميت لو فعل كذا لم يمت أو لو ابتعد عن المهلكات لنجا ، فهذا صحيح ، ولكنه لم يبتعد فأصابته فمات ، فغير المكلفين من قوم نوح قد انتهت آجالهم فماتوا بالغرق ، ولا فرق بينه وبين غيره من الحميات القاتلة (والميكروبات) المميتة .

فان قال قائل : لولا كفران آبائهم وإغراقهم بالطوفان لما ماتوا ، فذلك صحيح ، ولكن آباءهم كفروا فأغرقوا هم وأبناؤهم عظة وعبرة لمن يأتى من بعدهم ، فدل ذلك على أن آجالهم قد انتهت بلا نزاع .

(٤) أما ما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة فأمره معروف مشهور ، فقد روى أن فحول البلاغة من كفار قريش أرادوا أن يعارضوا القرآن بالإتيان بمثله ، فأخذوا يتريضون ولا يأكلون إلا ما يعتقدونه نافعا فى صفاء الأذهان وذكاء العقول ، فعكفوا على أكل لباب البر ولحوم الضأن وشرب سلاف الخمر مدة أربعين يوما . فنزلت هذه الآية ، فلما سمعوها قالوا : إن هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ، وأيقنوا بعجزهم عن الإتيان بمثله فتفرقوا . وروى أن ابن المقفع (وكان من مشاهير البلغاء والكتاب) أراد أن يعارض القرآن قبل إسلامه ، فسمع هذه الآية فرجع ومحا ما عمله من ذلك ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا ، وما هو من كلام البشر ! على أن هذه الآية وإن بلغت أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة فالقرآن الكريم كله قد بلغ المرتبة التى يعجز البشر عن الاتيان بمثلها ، وإن كان بعضه أبلغ من بعض كما هو مقرر فى علوم البلاغة .

وإليك بعض ما اشتملت عليه هذه الآية من دقائق البلاغة التى لا تخطر على قلب بشر مهما كان بليغا فصيحا :

إن الغرض من هذه الآية أمران : (أحدهما) التعبير عن قدرة الإله القاهر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون . (ثانيهما) إشعار النوع الانسانى بهذه القدرة ، وتخويف الطاغين من بطشه وسلطانه كى يؤمنوا به ويتبعوا أوامره التى جاءتهم بها الرسل المؤيدون بالمعجزات . فكأنه يقول للناس : انظروا الى هذه الآيات الكونية وفكروا فيها لتكون لكم منها عظة وعبرة ؛ وانظروا كيف أطاعت الأرض والماء والسحب أمرى وأنتم تخالفون مع أنكم ممتازون بالعقل الذى يدرك ، ومعرضون لآلام العقوبة دونها . وقد عبر سبحانه عن هذا فى الآية الكريمة بما لا يستطيع إنسان أن يأتى بمثله مهما أوتى من بلاغة وحسن بيان كما ذكرنا .

أما تفصيل بعض ما اشتملت عليه هذه الآية من المعانى ، فهو أنه سبحانه عبر أولا بالفعل المبنى للمجهول فقال : « وقيل يا أرض » وقال : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » ولم يقل : قال

الله مثلا ، أو قال القادر ، أو قال الخالق ، أو نحو ذلك . والسر فى هـذا عدم تحديد الفاعل ليذهب العقل فى تقديره كل مذهب . فكأنه يقول : إن فاعل ذلك لا يمكن للعقول البشرية أن تحده بالعبارة أو تصوره بصورة خاصة ، فهو الإله ، وهو القدير ، وهو القـوى ، وهو القاهر ، وهو ذوالسلطان الذى لا حد له ، الى غـير ذلك من العبارات التى تدل على العظمة المتناهية والقدرة القاهرة .

ثم قال : « يا أرض » . ومعروف أن النداء بيا ، كما يكون للعاقل يكون لغير العاقل . أما النداء بلفظ يا أيتها أو يا أيها فانما يكون للعاقل لما فيه من التنبيه ، وهاهنا إنما ينادى اللهُ غيرَ العاقل ، فكأنه يقول : إن الذى أناديه وآمره لا يعقل ومع ذلك فقد فهم ندائى وصدع بأمرى ، ومن ذا الذى يستطيع أن ينادى غير العاقل فيسمع ويجيب ؟ من ذا الذى يستطيع أن يأمر الماء الطاغى بالنقصان فيمتثل الأمر ؟ من ذا الذى ينادى السحب التى تنصب منها المياه بالكف فتكف ؟ لا شك أن ذلك مختص بالإله القادر وحده ، وأن هؤلاء الطاغين الذين مكث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم الى توحيد الله فلم يجيبوا ، أحقر من الجماد ، وأهون عند الله من السحب والماء .

ثم قال : « ابلعى ماءك » . وهذه العبارة تشتمل على شيئين : أحدهما الأمر بالبلع . وثانيهما إضافة الماء الى الأرض . فالله سبحانه قال للارض ابلعى ولم يقل : ارتشفى أو امتصى مثلا . والسر فى ذلك أن البلع هو ازدراد الماء دفعة ، أما الامتصاص والارتشاف فهو تناول الماء تدريجا . فالله سبحانه أمر الأرض أن تبلع الماء دفعة واحدة إظهارا لما يجب أن يكون عليه حال المأمور فى امتثال أمر الخالق العظيم ، فهو سبحانه إذا أمر أمرا لا يصح للمأمور به أن يهمل فى تنفيذه أو يتئد فى إجابته . وإذا كانت الأرض وهى جماد قد أسرعت فى تنفيذ أمر الخالق العظيم ، فما كان أجـدر بالانسان العاقل الذى يدرك دلائل عظمة الخالق بالبراهين العقلية أن يبادر بامتثال الأمر وتنفيذه ؟

وأما إضافة الماء الى الأرض ، فلا ن الله لو قال للارض ابلعى الماء أو ماءنا الذى خلقناه ، لكان معناه أمر الأرض ببلع جميع ما عليها من الماء دفعة واحـدة ، وفى ذلك ذهاب لجميع مياه الأرض اللازمة لحياة الانسان والحيوان والنبات ، وذلك ينافى إرادة الله سبحانه فى تعمير الأرض على الوجه الذى أراده . فمن أجل ذلك أمرها الله سبحانه ببلع القدر الذى زاد على الحاجة وهـو الذى أهلك به قوم نوح وجعله عبرة لمن يأتى بعدهم . فلذا أضاف الماء الى الأرض ، وأمرها أن تبلع الماء الذى تفجر منها . فالغرض من إضافة الماء الى الأرض هو أن تبلع الأرض الماء الذى تفجر منها ولم يكن فيها من قبل ، بدليل قوله تعالى « وياسماء أقلعى » . فالماءان اللذان نشأ منهما الطوفان هما المقصودان بأمر الله تعالى . أما الماء الذى كان على الأرض من قبل فـلم تبلعه الأرض ، وفى ذلك من الحيطة فى الأمر وتنفيذه على الوجه النافع ما يدهش

العقول ويحير الألباب . أما ما فهمه بعضهم من أن الأمر عام وقـد جف مياه الأرض جميعه ثم خلقه الله مرة أخرى ، فهو تكلف لا معنى له ، فضلا عن خلوه عن مراعاة الدقة فى الأمر .

أما قوله تعالى : « ويا سماء أقلعى » : فمعناه أن الله سبحانه بعد أن نادى الأرض وأمرها بأن تفعل ما هو من شأنها وهـو بلع الماء الذى يضر بالعمران ، أمر السماء بأن تكف عن إمداد الأرض بالماء . وكان أمره تعالى للسماء كأمره للأرض معبرا عن تمام قدرته وعظمة سلطانه ، فقال لهـا : « أقلعى » ومعنى القلع نزع الشيء من أساسه بحيث لا تبقى له باقية . فالغرض من الأمر ها هنا أن تكف السحب عن إنزال المطر مرة واحدة بحيث لا يبقى له أثر . وما قيل فى نداء الأرض يقال فى نداء السماء ، فالقادر القاهر هو الذى أمر ما لا يعقل بالكف عن إرسال المـاء فعقل أمره وامتثل ونفذه بدون تردد .

بعد ذلك قال تعالى : « وقضى الأمر » : ولا ريب أن هذا نتيجة طبيعية لما ذكرناه أولا من أن الآمر هو القادر الذى لا حد لقدرته ، فإذا أمر أمرا وأراد إنفاذه فلا بد أن ينفذ ، وإذا قضى شيئا فإنما يقول له كن فيكون ؟

عبد الرحمن الجزيرى

فضيلة التواضع

قال عروة بن الزبير : التواضع من مصايد الشرف . يريد أن الانسان يصطاد بها الشرف ، أى أنها مجلبة للشرف لا للذلة .

وقال حكيم : التواضع فى الشرف أشرف من الشرف .

كان النبى صلى الله عليه وسلم مع علو منصبه ، وسمو مكانته يجيب دعوة العبـد والحر والأمة والمسكين (أى يجيب دعوتهم للطعام) ويقول : لو دُعيت الى كراع لأجبت . وكان يخصف النعل ويحلب الشاة ويركب الحمار ردفا ، ويرقع الثوب ويطحن مع الخادم إذا أعيت ، ويأكل معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويسلم مبتدئا ، ويصافح الغنى والفقير ، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال لبيك .

وقال البراء بن عازب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل التراب حتى وارى التراب صدره ، وكان ينقل اللبن على عاتقه (أى الأحجار) مع أصحابه عند بناء مسجده بالمدينة .

باب الأسئلة والفتاوى

صلاة الجمعة بتبليغ الاذاعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

نسكن فى عزبة فى الريف ليس فيها حاكم سياسى ولا آخر شرعى ، ومذهبنا حنفى فلا تجوز لنا صلاة الجمعة جماعة فى القرية .

وعندنا (راديو) يذيع كل يوم جمعة الأذان والخطبة والصلاة ، فهل يجوز لنا الصلاة وقت الإذاعة مؤتمين بالامام الذى نسمع صوته وحركاته بجلاء ووضوح ما دامت الاذاعة أمامنا لجهة القبلة ؟

الجواب :

يشترط لصحة الاقتداء عند الحنفية ألا يكون بين المأموم والامام فاصل كبير كطريق واسع .

وحيث إن بين الامام فى الصورة المسئول عنها وبين المأمومين مسافة واسعة لا يصح معها اقتداؤهم بذلك الامام ، فلا تصح جمعتهم ، لأن من شرط صحتها أن تكون فى جماعة . والله أعلم ؟

حكم الالبسة

وجاء أيضا :

هل لبس النبى صلى الله عليه وسلم الألبسة على وجه العبادة ، أو على وجه العادة التى قصد منها ستر العورة ، ودفع أذى الحر والبرد ؟

حافظ ملا محمد زاده
كركوك — العراق

الجواب :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس قبل البعثة ما اعتاد قومه لبسه ، ولما شرفه الله تعالى بالرسالة لم ينقل أنه غيّر من لباسه شيئا ، والشريعة المطهرة التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم

أوجبت على الناس جميعا ستر عوراتهم ، ولم تلزمهم زيا معينا فيما يسترون به العورة ، ولا فيما يتقون به الحر والبرد ، ولا فيما يتجملون به من ثياب الزينة ، ولكن مع هذا حرمت على الرجال لبس الحرير ، كما حرمت التشبه بالكفار فى زيهم الخاص الذى له صبغة دينية عندهم .

ومن هذا يتبين أن اللبس على عمومه ليس من العبادات ، وإنما هو من العادات التى تصطلح كل أمة على اختيار نوع منها . والله أعلم ؟

الانفحة والجبن

وجاء أيضا :

كان الناس فى القديم يستعملون فى عمل الجبن بأنواعه الإنفَحة الطاهرة من صغار الضأن والمعز والبقر ، فلما ظهرت وشاعت فى بلادنا المادة المجلوبة من الممالك الأجنبية التى يقال لها فى ألسنة العامة « مايئه بينير » (خميرة جبنه) ، تركوا استعمال الإنفحة المذكورة إلا النادر من المتورعين ، وأكثروا من استعمال المادة المجلوبة لأنهم على مايقولون وجدوها أسهل وأكثر وجودا وأرخص قيمة ، ولم يصادفنى الى الآن فى الكتب الفقهية التى بأيدينا رأى العلماء فى هذه المادة المجلوبة : أهى طاهرة أم لا ؟ وقد كنت فى مجلس لجرى البحث عن الجبن ، فقال بعض الحاضرين : إن غير المسلمين يستعملون فى عمل الجبن إنفحة الخنازير قطعا وجزما ، فأشكل الأمر ، وتمكنت شبهة قوية فى طهارة المادة المجلوبة من الأجانب ، لأن عمالها غير مسلمين ، ويأكلون الخنازير ، فيحتمل احتمالا قويا أن يوجد فيها شىء من إنفحة الخنازير ، والناس هنا يأكلون الجبن أكثر من سائر الأغذية ، والأسواق مملوءة به ، ويعمله المسلم وغير المسلم ، وكذا يبيع ويشترى كل منهما ، والتمييز بين جبن وجبن متعذر لأن أثر النجاسة لا يظهر فيه ، فما الحكم ؟

عبد الحميد بن محمد
عضو المجلس العلمى فى أسكوب سابقاً
بيوجوسلافيا

الجواب :

الأصل أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين ، لقوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حِل لكم »

وعليه فكل ماورد من بلادهم من الأطعمة يحل للمسلم تناوله مالم يقم دليل قاطع لاشبهة فيه على أن هذا الطعام نجس أو اختلط بما ينجسه أو يحرمه .

وعلى هذا فالجبن المصنوع بالإنفحة المسئول عنها حلال تناوله إلا إذا علم يقينا أن الإنفحة التي صنع بها الجبن مأخوذة من خنزير أو من حيوان غير مذكى . والله أعلم .

خدمة الزوجة لزوجها

وجاء أيضا :

هل المرأة ليست مكلفة شرعا بالقيام بخدمة زوجها ورعاية أطفالها ، وتقديم الخدمة اللازمة لسلامتهم ؟ وإن كان ذلك فهل وردت آية أو حديث ينص على هـذا ؟ مع التفضل بإيراد هذا النص .

الجواب :

مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنه لا يجب على المرأة أن تخدم زوجها ولا أولادها ، لأن عقد الزواج لم يتناول شيئا من هذا .

أما المالكية فيرون في هذه المسألة تفصيلا يتلخص فيما يأتي :

أولا — إذا كانت الزوجة من ذوات القدر والشرف اللاتي جرت العادة بأنهن لا يتولين الخدمة بأنفسهن في بيوتهن ، فانه يجب على الزوج أن يجعل لها خادماً أو أكثر بحسب مايليق بها متى كان قادرا على ذلك .

ثانياً — إذا كان الزوج من الأغنياء الذين لا يليق بهم عادة أن تقوم زوجاتهم بخدمة المنزل ، وجب عليه أن يجعل لها خادما أو أكثر ، ولو كانت هي فقيرة ليس من شأنها أن يكون لها خادم .

ثالثاً — إذا كان الزوج فقيرا لايتيسر له أن يجعل لزوجه خادما ، فلا يجب عليه استحضار خادم لها ولو كانت شريفة ، ويجب عليها حينئذ القيام بالخدمة بحسب ماجرت به العادة .

رابعاً — إذا كان الزوج موسرا ويستطيع أن يجعل لزوجه خادما ولكن لم تجر العادة بأن يكون لمثله ومثل زوجته خادم ، فعليها أن تخدم بنفسها بحسب العادة . وحيثما تجب عليها الخدمة كما في الحالتين الثالثة والرابعة ، فانما الواجب عليها خدمة نفسها وزوجها لا غير ، أما أولاده وضيوفه فلا تجب عليها خدمتهم . والله أعلم ؟

فى الميراث

وجاء أيضا :

مات الميت وترك أما وإخوة لأم وعما ، كما ترك تركة قدرها أحد عشر قيراطا باعها الميت لعمه فى مرض الموت ، فطعن باقى الورثة مطالبين بفسخ عقد البيع ، فحكمت المحكمة أولاً بفسخ عقد البيع ، ثانيا بتوزيع التركة على الورثة باستحقاقهم الشرعى ، إلا أن المحكمة بعد هـذا فصلت تقسيم التركة وهى الأحد عشر قيراطا ، فجعلت للأم الثلث وقدره ٣ قراريط و١٦ سهما كما خصصت للإخوة لأم الثلث ، وللمدعى عليه وهو العم الثلث .

وبما أن الحكم الشرعى يتعارض مع حكم المحكمة فى نصيب الأم والعم ، رأينا الالتجاء إليكم لمعرفة الحكم الصحيح ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الجواب :

حيث تبين من السؤال أن المتوفى ترك أما وإخوة لأم وعما لا غـير ، فالتركة تقسم بينهم بالكيفية الآتية :

للام سدس التركة بنص قـوله تعالى : « فإن كان له إخوة فلأمه السدس » ، وللإخوة للام — اثنين أو أكثر — الثلث بنص قوله تعالى : « فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » إذ معنى الآية : فإن كان إخوته لأمه أكثر من واحد فلهم الثلث يشتركون فيه ، الذكر والأنثى منهم فى ذلك سواء .

وللعم الباقى وهو النصف بطريق التعصيب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر » . والله أعلم ؟

فى الرضاع

وجاء أيضا :

ولد رضع من جدته أيام رضاعته رضاعا كثيرا ، فهل جوّز أبو حنيفة أن يتزوج هـذا الشاب من بنت عمه التى أصبحت بنت أخيه رضاعا ؟

الجواب :

لا يجوز على جميع المذاهب أن يتزوج هذا الرجل بهذه البنت ، لأنها بنت أخيه من الرضاع ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

السيد محمد اقبال شاعر الهند

ولمعة من تاريخ اللغة الأردية

ليس فى الناس من يجهل أن الهنود كانوا أسبق الناس إلى الشعر ، والشعر لا يجمل إلا إذا امتزج بالتصوف والحكمة ، وكلاها وليدة الهند أيضا . وأقوى دليل على ذلك قول العرب : « الحكمة هندية » . والتصوف فى اعتقادى وليد الفلسفة ، وبعبارة أوضح : التصوف هو فلسفة الأديان والعقائد . وإنى لا أريد أن أفيض فى هذا الموضوع الآن .

كان قبل الاسلام فى الهند شعراء وفلاسفة ينظمون الأشعار باللغات الهندية القديمة ، وقد بقيت آثارها الى الآن ، ويحفظ هذه الأشعار كثير من الهنود ، ولكنها غير مدوّنة فى دواوين . وقد دخل الاسلام الهند فى القرن الأول الهجرى على يد محمد بن قاسم بأمر الوليد ابن عبد الملك الأموى ، فانه زحف أولاً على بلاد السند ، وجهزه ابن عمه الحجاج بستة آلاف مقاتل ، فحاصر محمد ثغر الديبل ومكانه الآن كراتشى ، واستولى عليه ، ثم واصل الفتح حتى بلغ نهر السند وقتل داهر ملك السند وهزم أتباعه ، وآثرت زوجة داهر وأتباعها إحراق انفسهم على الوقوع فى أيدى المسلمين . وزحف المسلمون من السند على بلوجستان وحاصروا ملتان فى جنوب بلاد البنجاب . ومن ذلك الوقت تأثرت اللغة السندية باللغة العربية . وكتابتها الى اليوم بالعربية . وهذا أول أثر للغة العربية فى اللغات الهندية .

وبعد ذلك حكم المسلمون الهند ، واستمرت دولتهم حوالى خمسمائة سنة ، وآثارها تظهر الى الآن عظمة هؤلاء الملوك ، وذلك أنه فى سنة ١٥٠٥ م . فرّ «بابر» أحد زعماء المغول من سلالة تيمورلنك من موطنه الأصلى الى سمرقند فنزل بها وكثر أتباعه ، فدانت له بعد ذلك بلاد أفغانستان ، ثم جاوزها الى حدود الهند ، فطالب بملك البنجاب متخذا له ذريعة هى أحد أجداده (وهو تيمورلنك) الذى كان قد فتحها منذ مائة وسبع سنين . وما لبث أن والى انتصاراته فى أراضى البنجاب حتى جاوزها الى ما وراءها ، وكانت بلاد الهند وقتئذ منقسمة على نفسها ، على استعداد لأن ترحب بأى فاتح يكفل لها الهدوء والسلام ولو كان هذا الفاتح أجنبيا لا يمتّ اليها بصلة . وظل بابر ردحا من الزمن كان النصر فيه تارة الى جانبه وأخرى الى جانب أعدائه من الوطنيين حتى جاء عام ١٥٢٥ م وفيها وقف وجها بوجه مع سلطان دلهى ، أشد ملوك الهند مراسا . وكان ذلك أمام قرية « بانيبت » التى تبعد عشرة أميال عن دلهى ، فانتصر بابر بالرغم من قلة جنده الذى لم يزد على ٢٥ ألفا ، بينما بلغ جيش سلطان دلهى مائة ألف مزوّدين بعدد عظيم من الفيلة لا يقل عن ألف . وبانتصار بابر على سلطان دلهى دانت

له بلاد الهند الشمالية ، وأطلق على نفسه لقب أمبراطور الهندوستان . وبموت بابر (١٥٣٠) وقف تيار الفتوحات المغولية فى الهند زهاء ربع قرن ، ولم يستعد المغول نشاطهم فى الفتح والغزو إلا بعد أن تولى حفيده الأعظم أكبر جلال الدين عرش الامبراطورية . وكان أكبر خان أعظم ملوك المغول فى الهند ، وتملك كل الهند ، وكان عهده عهد ثقافة ورخاء ، وبقيت أمبراطوريتهم الى أن دخل الانكليز فى الهند . وتأثرت اللغة الهندوستانية فى عصر أكبر خصوصا ، وفى عصر ملوك المغول الآخرين عموما ، باللغة الفارسية والتركية ، وتلوّنت بلون جديد ، وانتشرت انتشارا عظيما .

اللغة الهندوستانية أو الأردية :

اللغة الهندوستانية فرع راق من اللغة الهندية الآرية ، وقد تكلم بها أهل الهند فى القرن الرابع الهجرى فى وسط الهند كلغة مستقلة ، وبقيت على هذه الحالة حتى اختارها المسلمون فى القرن السادس لغة واحدة لهم . ولما انتشرت فى « دهلى » وجوارها ، دخلت فيها ألفاظ جديدة ، وتغيرت نوعاما . وفى القرن نفسه صارت بعد إصلاحها لغة الثقافة . وفى القرن الثامن اختارها الملك أمير خسرُو لغة للحكومة . ومن هذا القرن بدءوا استعمالها فى النظم والنثر . فمن القرن الثامن الى القرن الثانى عشر الهجرى دونت فيها علوم كثيرة وآداب جمة . وأما الشعراء فنظموا بها أشعارهم من القرن السابع . وفى القرن التاسع استعملها الشعراء الفحول مثل كبير نانك ، وداوسورداس ، وننداس ، وكَوسوانى ، وتلسى داس ، وكانت تسمى إذ ذاك الهندوستانية ، وبعد ذلك دخلت فيها الألفاظ العربية والفارسية والتركية فى كثرة هائلة حتى ظهرت بلباس جديد واسم جديد فى سنة (١٦١٨) م حين شرع الملك شاه جهان الخامس من أسرة المغول تعمير « لال قلعة » (القلعة الحمراء) التى تم بناؤها بعد عشرين سنة . ويقال : إن جيشه وخدامه كانوا فوق العدّ والحدّ ، وهم من جميع الأقوام والبلاد ، وسكنوا فى معسكر عظيم كان يسمى (أردو) ، ومعناه بالتركية الجيش . وكان فى جوار هذا الجيش سوق يسمى « أردوبازار » (سوق العسكر) ، فكل هؤلاء من الهنود والفرس والأتراك والعرب تنافسوا فى إدخال لغاتهم فى هذه اللغة ، فامتزجت فيها ألفاظ منتخبة من العربية والفارسية والهندية الآرية والتركية ، وصارت زبدة اللغات الشرقية ، فيها لطافة الفارسية ، وبلاغة العربية ، وعمق الهندية ، وحماسة التركية ، حتى صارت لغة جديدة ، وسميت « أردو » ، لأنها تجددت فى السوق المذكور ، وبقى هذا الاسم الى قرننا العشرين . ولكن منذ سنة فقط بعد استقلال الهنود استقلالهم الداخلى وتشكيل الوزارات الهندية سميت مرة ثانية « اللغة الهندوستانية » لأنها قُررت لغة للحكومة . والألفاظ العربية فيها تقارب نصفها ، والفارسية تقارب ربعها ، والباقى من الهندية الآرية والتركية ، ودخل فيها شىء من الانكليزية منذ دخول الانكليز

فى الهند . ولهذه اللغة كتب مدونة فى النحو والصرف والقواعد والبلاغة . ومن أكبر محاسنها أننا نستطيع أن ندخل فيها ألفاظا من أية لغة على هيئتها . وهى الآن أكثر انتشارا من اللغة العربية والفارسية والتركية ، لأن عدد الذين يتكلمون بها يبلغ ثلثمائة مليون فى الهند ، ويفهمها أكثر من أربعمائة مليون . وهى تدرس تقريبا فى كل العالم ، وعـدد حروف هجائها واحد وخمسون حرفا .

المقارنة بين الأشعار الهندية والعربية :

افتخر الفرس على سائر العالم بستين ألف بيت نظمها الفردوسى فى شاهنامته ، ولـكنهم تجاهلوا أنه ألفت فى الهند دواوين بهذا الحجم فى الأفكار فقط . ونظم مهرة الفن مثل آنيس ودبير وتعشق وغيرهم مئات من المراثى ، وفى كل مرثية خمسمائة وستمائة مسدس ، وكل مسدس ثلاثة أبيات . وألفت كتب متعددة فى نقد أشعارهم من الشرقيين والمستشرقين . ونحن لا نجد لهم نظيرا فى غيرهم . وعلماء الفنون الحربية متحيرون كيف قدر هؤلاء على نظم نكات غامضة من فنون الحرب بعبارة بديعة طريفة مع أنهم لم يخرجوا من منازلهم .

ومن أهم موضوعات اللغة الهندوستانية ، الأوصاف الجميلة ، والفلسفة والتصوف ، والتخيل والمراثى ، والغزل والقصة ، والمدح ، وغيرها . وبعض شعرائها الماهرين جمعوا دواوين على ألسنة النساء وفى أفكارهن ، ولا يمكن أن يعرف القارئ أنها للرجال . وممن يذكر من هؤلاء الشعراء من المتأخرين « سودا ، غالب ، ذوق ، مير ، آنيس ، دبير ، آتش ، مومن ، ظفر ، تعشق ، داغ ، نفيس ، أكبر ، حالى ، اقبال » وغيرهم . ومن المعاصرين « آرزو ، حسرت ، سيماب جليل (أستاذ نظام حيـدر اباد) أمجد ، ظفرعلى ، سالك ، صفى ، جوش ، أثر ، عزيز ، وحشت ، محشر ، جكر ، » وغيرهم .

وأهم سبب لانتشار الشعر فى الهند هو المشاعرة : أى المكاثرة بالشعر ، وهى أكبر دعاية لنشر هذه اللغة أيضا . فمنذ بدئها الى يومنا هذا يحتفل الشعراء بالمشاعرة ويشكلون لأجلها الأحزاب ، ويسمونها « بزم » حتى لا تجد قرية إلا وبها هذه الجماعات ، ينافس بعضها بعضا فى الشهرة والتقدم ، وتقدم الجوائز القيمة للسبق فى مبارياتها ، فتجد الاعلانات المتنوعة فى أكثر الجرائد الهندية لهذه المشاعرات الطريفة كاعلانات الرياضة والألعاب فى الجرائد المصرية . والهنود يشتركون فيها أكثر مما يشترك إخواننا المصريون فى الألعاب والرياضة البدنية . وطريق مبارياتها أن شاعرا منهم مشهورا يقدّم شطراً لبيت مع شروط ، وينشره فى الاعلانات والجرائد ، ويرسله أيضا الى الشعراء المعروفين بتحديد ميقات الاحتفال ، فكل من يريد الاشتراك فى هـذه المباراة من كل نواحى الهنـد ينظم أشعارا حسب ذوقه وطبعه مراعيا الشروط ، ويحضر يوم المشاعرة ، ويسمع الناس نظمه بصوته الجذاب ، ولهجته الخلابة ، والذى

لا يستطيع الحضور لأمر ما يرسل نظمه الى سكرتير الجماعة ليسمعه أحد الحاضرين باسم الشاعر ، حتى مثل إقبال وغالب وذوق وآنيس : أولئك الشعراء العظام ، كانوا يشتركون فى هذه الحفلات ويسمعون الحاضرين أشعارهم ، وكنت أشترك بنفسى فيها ، وما كنت أقوم منها طول الليل إلا قرب طلوع الشمس ، وكنت أعدها أحب الليالى الى . وهذه الجماعات أنواع ، فبعضها للأطفال ، وبعضها للشبان ، وبعضها للشيوخ ، وبعضها للنساء . وإذا نظرت الى كثرة الشعر والشعراء فى الهند اعتقدت أن أرض الهند كلها شعر ، فالأطفال من سن الثامنة ينظمون القصائد ، ولذ انتشر فى الهند مجلات وجرائد خاصة لنشر نتائج المطارحة ، وتجد أكبر عدد للشعراء فى العالم فى الهند ، وتؤلف فيها كل يوم دواوين متعددة فى المواضيع الطريفة المتنوعة . ومعظم سلاطين الهند وحكامها وزعمائها شعراء ، ولهم دواوين ، ورئيسهم فى هذا الفن نظام حيدر اباد ملك الدكن والبرارى ، ويسمى سلطان العلوم ، وله دواوين الشعر كما لأبنائه دواوين . وهذا الفن خاص بالهنود .

وسبب آخر لانتشار الشعر فى الهند : هو أنه لا توجد فى اللغة الهندوستانية لغة عامية كسائر اللغات ، بل لغة التخاطب والكتابة فى الهند واحدة ، والهنود يتكلمون بها حسب قواعدها ، وتختلف باختلاف الشعوب عمقا وسذاجة . فظهر من هذا أن للشعر مكانة خاصة فى أرض الهند .

ومكانة السيد إقبال بين هؤلاء الشعراء العظام ، كمكانة الشمس بين النجوم المتلألئة ، أو كمقام الملك بين أمراء بلاده . فاذا قرأت شعره تأثرت به تأثرا عظيما كأنك ألهمت شيئا كنت تجهله وهو كان بين يدى خيالك ، فان الشاعر لا يأتى بشيء مستحيل بل يأتى بشيء ممكن ولكن يعسر على غيره الاتيان به ، واذا لم يكن الشعر هكذا فليس بشعر ، بل هو نظم قد رتب الناظم ألفاظاً ظريفة على طريق بديع وسماها شعراً . وإنى شخصيا لا أطرب لأشعار الشعراء المعروفين طربى من أشعار السيد إقبال ، فكلما تلوتها شعرت كأنى أقرأ شيئا جديدا ، لأننى أجد فيها روحا وقوة لا أجدها فى أشعار غيره ، وكلكم تعرفون أن روح الشعر تزول بعد الترجمة من لغة الى لغة إلا إذا كان الشاعر رسول فلسفة أو حكمة أو شيء جديد غير معروف قبله ، فانكم حينئذ لتشعرون شيئا جديدا من الروح الجديدة فى أشعار هذا الشاعر بعد زوال أكثرها

وإنى أحاول الآن أن أعرض على حضراتكم صورة إجمالية لألمعية إقبال التى اتخذ شعره منبرا لها وترجمانا عنها فى هذه القصيدة ، عنوانها « طلوع إسلام » ثم أقدم اليكم بعد ذلك أبياتا مختلفة أتقدم بها كأنموذج من شعره ، وسأترجمها اليكم الآن نثرا . وها هى قصيدة « طلوع إسلام » :

« العين التى تعودت أن تنظر الى عظيم من الأشياء لا تهتم بصغيرها ، والعين المتطلعة الى الفرسان والغزاة لا تهتم بالنظر الى ما يكون فى الركاب من زينة .

«أنر أيها المسلم فى ضمير « زهرة لاله » سراج الرجاء والأمل ، واجعل كل ذرة فى بستان العالم شهيدة البحث والاكتشاف .

« أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها . فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام .

« إن الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلودا من الدنيا ، لك مجد الأزل ، ولك نعيم الأبد أيضا ، وأنت الرسالة الأخيرة لله ، لذلك أنت موصول الدوام .

« اقرأ مرة أخرى فى سيرتك الأولى ، دروس الصدق والعدل والشجاعة ، لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية .

« فهذه هى مقاصد الفطرة الأولى ورمز الاسلام الحقيقى أن تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة .

يجب أن تفنى فى دينك وملتك بعد أن تكسر أصنام اللون والدم حتى لا يبقى فى العالم تورانى ولا إيرانى ولا أفغانى .

« ما الذى محا استبداد قيصر وشدة كسرى ؟ أكانت هنالك قوة فى العالم كانت تحارب الجبابرة سوى قوة على ، وفقر أبى ذر ، وصدق سلمان ؟

« عندما ينبعث فى هذه الشرارة الترابية روح اليقين ، فانها تطير الى سماء المجد بجناح جبريل الأمين .

« لا تفيد السيوف ولا التدابير إذا سيطرت العبودية والاستكانة ، ولكن إذا وجد اليقين فهناك تتحطم السلاسل والأغلال .

« هل يستطيع أحد أن يقيس مبلغ قوة ساعد المسلم ؟ إن نظرة المؤمن تبدل الأقدار .

« إن الولاية والحكومة واكتشاف علوم الكائنات ليست إلا تفسيرا لنكتة من نكات الايمان .

« ولكن من العسير أن يخلق فى النفوس إيمان ابراهيم ، فان عوامل الحرص والخوف مستترة فى الصدور لتخلق الصور والتماثيل .

« إن امتياز السيد والعبد هلاك الانسانية ، فاحذروا أيها الجبابرة الأقوياء لأن فطرة العالم تتبدل وتتغير ولا تبقى الحياة على الحال .

« إن حقائق الأشياء واحدة متساوية ، فالذى خلق من تراب كالذى خلق من نور ، ولو شققنا قلب الذرة لتقطر منها دم الشمس .

« إن سيوف الأبطال فى جهاد الحياة هى اليقين المحكم والعمل المستمر . إن الذين ارتفعوا من أسلافكم كالنسور والعقبان ، لم يكن لهم ريش ولا جناح ، والذين طلعوا نجوما فى السماء قد غرقوا أولا فى دم الشفق ، والذين كانوا يسبحون فى هدوء البحر دفنوا فى قاعه السحيق . وأما الذين كانوا يصارعون لطمات الأمواج فقد خرجوا الى الدنيا بعد أن صاروا يواقيت .

« الذين كانوا يفتخرون بكيمياء الذهب صاروا غبارا فى ممر الطريق . والذين كانوا يضعون جباههم على التراب هم الذين صاروا يصنعون الكيمياء .

« إن المؤمن يعيش حيا كالشمس يغرب فى جهة ليشرق فى جهة أخرى ، فهو دائم الإشراق والحياة ، لا يغيب .

« أنت أيها المؤمن سر « كن فيكون » فاظهر على العيون وكن عارفا لأسرار حقيقتك وترجمانا لقدرة ربك .

« واستغرق فى ذاتك فهذا هو سر الحياة ، وصر خالداً بعد أن تخرج من حلقة الصباح والمساء .

« الى اليوم لا يزال الانسان شرّ فريسة لصيد الحكام ، وإنها لقيامة كبرى أن يبقى الانسان فريسة الانسان .

« ولم يخلق هذا الهيكل الترابى فى أول فطرته من تراب الجحيم ولا من تبر الرضوان ، ولكن الحياة تخلق بالعمل ، كذلك الجحيم وكذلك الجنة » .

الفقر والعلم فى تصوف إقبال :

« معجزات الفقر هى التاج والعرش والجنود ، والفقر هو أمير الأمراء والفقر هو ملك الملوك .

« ومقصود العلم نزاهة العقل والفهم ، ومقصود الفقر عفة القلب والنظر .

« العلم فقيه وحكيم ، والفقر مسيح وكليم ، والعلم طالب الطريق ، والفقر عارف الطريق ، والفقر مقام النظر ، والعلم مقام الخبر . السكر بالفقر ثواب ، ولكن السكر فى العلم ذنب وعذاب . لو كان قلبك فى هذا التراب حيا ومستيقظا لكسر نظرك زجاج الشمس والقمر »

محمد حسن الأعظمى الهندى

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٥ —

عمر بن الخطاب

تحتاج الأمم الناشئة فى مبتدأ نهوضها الى نوع من الشخصيات المثالية البارعة فى تكييف المبادىء الجديدة ، والنظريات التى ترتكز عليها دعائم تكوينها الاجتماعى ، تكييفا عمليا يخرج بالأمة سراعا من طور المعارف النظرية الى طور التمثيل العملى الذى يصور للأمة مثلها العليا حية متحركة ناطقة ، ليكون ذلك أسرع فى توجيهها توجيها صادقا الى تحقيق تعاليمها ، وفرض شخصيتها على الحياة بما لها من أفكار وأخلاق وآداب وتشريع ، فرضا يكتب لها صك السيادة والسلطان فى خلافة الله تعالى على عباده ، وقيادة الانسانية فى لاحب من الهداية ينتهى بما تتأدى اليه من إصلاح وعز وسعادة .

والأمة الاسلامية فى نشأتها الأولى أصدق صورة للمجتمع الذى يدلف الى الحياة وفى يده تشريع إلهى يرسم له طرائق أكمل هداية عرفها البشر من قبل ومن بعد ؛ وشريعتها أصدق صورة للتشريع العملى الذى يطبع المتشرعين به طابعا عمليا يدفعهم الى تحقيق غاياته ومراميه فى أنفسهم ، ليكونوا مثلا مضروبا ، وشاهد صدق على ما تستطيع الأمة أن تبلغه من السمو الفكرى ، والنبل الخلقى ، والرقى الاجتماعى ، فى ظل دينها الذى هو دنياها فى تشريعه وسياسته ، وآخرتها فى تهذيبه وآدابه ؛ وهذا منتهى ما تطمح اليه أمة يقدر لها الخلود .

وإذا كانت الشريعة الاسلامية — لما أودع الله فيها من عناصر الخلود والحيوية الروحية والمرانة التشريعية بما يتفق مع روح الأعصار المتعاقبة ، ويساير ما يتجدد من أوضاع عامة فى بيئات الأمصار المختلفة — زعيمة أن تجعل من الأمة الاسلامية وحدة اجتماعية قوية تتخطى حواجز الفوارق العنصرية والاختلافات الجنسية ، فإن هذه الزعامة فى حاجة الى شخصيات مثالية تكون رموزا حية لتحقيق التكييف العملى ، والانطباع بطابع تعاليم هذه الشريعة الطاهرة ، وصنع المثل العليا للقوى الانسانية ، وتصوير الطاقة البشرية فى طور الكمال الفكرى .

وقد كان فجر الاسلام مظهرا عاما لهذه الشخصيات المكيفة بآداب الشريعة وتعاليمها ، لأن جدة الايمان صادفت قلوبا أبكارا ، ولأن تنجيم الشريعة وفقا للأحداث والنوازل ، ويسر العقيدة الاسلامية وما يتبعها من تهذيب ، وتآخيها مع الفطرة السليمة ، وانطواء

التشريع الاجتماعى على مافيه مصلحة العباد وسعادتهم ـ جعل الامتثال أيسر على النفوس الفاضلة التى اتخذت الشريعة نبراسا لها فى جميع شئونها ، ومقياسا تقيس به أعمالها .

ومن هذه الشخصيات من ارتفع عن حيزه الخاص الى سدة القيادة الفكرية للأمة ، فجعل من شخصه أول مرقاة فى سلم التطبيق العملى لنظريات الشريعة وتعاليمها ، قصدا الى تحقيق الأسوة الحسنة . وليس من شك فى أن « عمر بن الخطاب » كان أعلى مثل لشخصيات قادة الفكر فى تاريخ الاسلام من جهة التطبيق العملى فى صرامة أتعبت من جاء بعده من أبطال الاسلام وقادة الفكر ، وبقيت حياته كالشمس يقع الناس تحت أشعتها ولا ينالون موضعها ؛ وهذه الصرامة التطبيقية هى موطن التفرد فى عظمة « عمر » ، وهى التى وطأت للاسلام فى عهده مكانا من الحياة لم يشهده التاريخ لدين من الأديان ولا لدولة من الدول .

والاسلام باعتباره عنوان أمة ودستور دولة ، لا يكفى فى تحقيق أغراضه من الوجهة العملية تقرير النظريات والوقوف فى سفحها ، لأن الاسلام شريعة ودولة ، فهو باعتباره شريعة محفوظ بكفالة الله تعالى فى نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وهو باعتباره دولة لا يستوى سلطانه على عرش الحياة إلا إذا سيطرت نظرياته على أعمال أمته سيطرة عملية فى غير خداع ، واتخذت من نفوس القادة وشخصياتهم مثلا تطبيقية لتحقيقها .

وقد جعل الله « عمر بن الخطاب » غاية الغايات فى هذا التطبيق العملى الصارم ؛ وكانت هذه الصرامة صدى لطبيعة « فاروق الاسلام » القوية العنيفة ، فهو منذ ألبسه الله بالاسلام رداء الحق اشرأبت نفسه الى الكمال صريحا عنيفا ، فلما ولاه الله أمر المسلمين وجعله ثانى الراشدين ، تجلت للناس عبقريته الملهمة الصارمة فى عدالة لم يعرفها البشر قبل مجىء الاسلام وخلافة عمر . وهل عرفت الانسانية فى تاريخها الدولى وحياتها الاجتماعية قبل خلافة عمر أن ملكا أو رئيس دولة فى أية صورة من صور الحكم يمتد ملكه ، وتخفق بنوده على أرق من عرف من ممالك الأرض ، ثم يرى نفسه أنه « عبد » لرعيته يحوطها ويرعاها رعاية العبد للسيد الكريم ؟

روى أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق ، فصادفه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجز بعباءة يهنأ بعيرا من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فانه لمن إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة . فقال رجل من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ! فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ؟ ! قال عمر : « وأى عبد أعبد منى ومن الأحنف ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » ! فلينظر المتشدقون بالديموقراطية الزائفة كيف تكون الديموقراطية الحقة على يد

أعظم حاكم لأعظم دولة ، فهو لا يغنيه فى أداء واجبه لرعيته أن يقوم فى حاجات أفرادها ومواساتهم ، بل يتتبع الجربى من إبل الصدقة يداويها بنفسه ، لأن فيها حقا لليتيم والمسكين والأرملة ؛ وهو إنما يصنع ذلك تقديرا لمكانه من الأمة ، وليكون مثلا صالحا لمن يتولى من أمور المسلمين شيئا . وانظر الى لطيف إشارته باشراك الأحنف ، وهو رئيس الوفد ، دون غيره من عامة المؤمنين ، حتى يفهم المسلمون أن عظماءهم ورؤساءهم ليسوا إلا أفرادا منهم ، بل هم أثقل كاهلا بواجبات رياستهم ؛ وفى ذلك من عوامل التكوين الخلقى والتربية الاجتماعية ما يسمو على هذه النظريات الجوفاء التى لا تتعدى صفحات الكتب إلا الى الآذان وليس لها الى القلوب سبيل .

وكان رضى الله عنه يقول : إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس ! وهذا أساس للتربية الوطنية الاسلامية يضعه « ابن الخطاب » ويدعمه بأعماله الخالدة ، ثم يطبقه على عماله وولاة أمور المسلمين تحت يده . ويقول فى بعض خطبه : « ألا ، إنى والله ما أرسل عمالى اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفسى بيده إذن لأقصنه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، إنى لأقص منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » . وما كان عمر بالذى يقول قولا لا يتبعه الفعل ، فاذا قال لأمرائه : إنه سيقص من أحدهم لأحد أفراد الأمة نفذ ذلك وتحرى أن يكون فى ملأ من الناس ليشعر المسلمون أنهم سواسية فى الحقوق والواجبات ، وأنه لا سلطان لأمير على أحد من الرعية إلا بمقدار ما خوله الله تعالى من إقامة الحدود . قال أنس بن مالك : كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : هذا مقام العائذ بك ؟ قال : ومالك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرس لى ، فلما تراءاها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسى ورب الكعبة ، فلما دنا منى عرفته ، فقلت : فرسى ورب الكعبة ، فقام يضربنى بالسوط ويقول : خذها خذها وأنا ابن الأكرمين . قال أنس : فوالله ما زاد عمر على أن قال للمصرى : اجلس ، ثم كتب الى عمرو : إذا جاءك كتابى فأقبل وأقبل معك بابنك محمد . قال : فلما وصل الكتاب الى عمرو دعا ابنه فقال له : أحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟ فقدما على عمر . قال أنس : فوالله إنا لعند عمر بمنى إذ نحن بعمرو ، وقد أقبل فى إزار ورداء فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه خلفه ؟ فاذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصرى ؟ فقال : هأنذا ، قال : دونك الدرة ، اضرب ابن الأكرمين ، يكررها ثلاثا ، قال : فضربه حتى أثخنه ، ثم قال :

أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ماضربك إلا بفضل سلطانه ! فقال المصرى : يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربنى ، فقال عمر : أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ! ثم التفت الى عمرو وقال كلمته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

أجل : لقد ولدت الانسانية ميلادا جديدا يوم هتف عمر بن الخطاب فى رعيته بهذا الدستور الذى ضمن لها عز الحياة فى ظل الاسلام لو استمسك الناس بصريح الاسلام : فَرْد من غمار الشعب يقص له خليفة المسلمين من ابن أميره ، ثم يخلى بينه وبين الأمير نفسه ، وهو من هو فى قادة المسلمين وعظمائهم ، ثم ينفخ فى نفير الحياة يبشر الأحياء ببعث جديد : الناس أحرار منذ ولدتهم أمهاتهم ! فهل تذوق المصريون فى ظل الرومان والفرس ومن تقدمهم من ملوك وفراعنة جعلوا أنفسهم آلهة وشعوبهم عبيدا ، شيئا من هذه الحرية قبل أن يضع الفاروق لهم هذا الدستور الذى هو أقل حق لهم فى الحياة ؟ وهل عرفت شعوب الأرض فى هذا العصر الذى يتشدق بفضله المتشدقون هذا النوع من الحرية ؟

وقد آتت هذه التربية الفاضلة أكلها ، وأينعت ثمرتها ، وأنبتت رجالا من المسلمين أبوا أن يستكينوا لسيطرة الأمراء ، وردّوها فى صرامة كانت أحب الى عمر من جميع ما أفاء الله عليه . روى جرير بن عبد الله البجلى : « أن رجلا كان مع أبى موسى الأشعرى وكان ذا صوت ونكاية فى العدو ، فغنموا مغنما ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه ، فأبى أن يقبله إلا جميعا ، فجلده أبو موسى عشرين سوطا ، وحلقه ، فجمع الرجل شعره ثم ترحل الى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ، قال جرير : وأنا أقرب الناس من عمر ، فأدخل الرجل يده فاستخرج شعره ثم ضرب به صدر عمر بن الخطاب ، فقال : أما والله لولا ! ! قال عمر : صدق لولا النار ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وأخبره بأمره ، وقال : ضربنى أبو موسى عشرين سوطا وحلق رأسى وهو يرى أن لا يقتص منه ، فقال عمر : « لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب الىّ من جميع ما أفاء الله علىّ » . فكتب عمر الى أبى موسى : « سلام عليكم . أما بعد فإن فلانا أخبرنى بكذا وكذا ، فإن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له فى ملا من الناس حتى يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك » . فقدم الرجل ، فقال له الناس : اعف عنه ، فقال : لا ، والله لا أدعه لأحد من الناس ! فلما قعد أبو موسى ليقتص منه رفع الرجل رأسه الى السماء ثم قال : اللهم قد عفوت عنه ! »

هنا يجب أن تسكب الأقلام عبراتها ، وتريق ماء بلاغتها ، باحثة عن موطن العظمة الاسلامية فى عهد « عمر بن الخطاب » ، فهو يرى أن يكون الناس كلهم على هذه الصرامة التى

وقف بها أحد أفراد رعيته فى وجهه يستدفع ظلما أذل نفسه ، أحب اليه من جميع ما أفاء الله عليه ، لأن عمر يعلم أن تربية الأمة على الشجاعة والرجولة ، وبعث العزة والإباء فى أنفس بنيها ، أضمن لخلودها ، وأخصب لحياتها .

وكان من سنن عمر السياسية أن لا يأخذ بالتهمة ولا يعمل بالظنة ، بل كان يجمع بين الشاكى والمشكو فيه ، ليحق الحق ، ويجعل من حوادث الأفراد زاجرا للمجموع . روى الطبرى فى تاريخه فقال : لما تم فتح « بيروذ » من الأهواز ، جمع أبو موسى السبى والأموال وغدا على ستين غلاما من أبناء الدهاقين تنقاهم وعزلهم ، وابعث بالفتح الى عمر ، وقد سأله ضبة بن محصن العنزى أن يجعله فى وفده الى عمر ، فأبى عليه أبو موسى ، فغضب وذهب الى عمر يشكو إليه أبا موسى ، وكان أبو موسى قد كتب بقصته الى أمير المؤمنين ، فلما قدم الكتاب والوفد والفتح على عمر ، قدم ضبة وأتى عمر ، فحجبه ثلاثا ، وفى الرابع دخل عليه ، فقال له عمر : ماذا نقمت من أميرك ؟ قال : تنقى ستين غلاما من أبناء الدهاقين لنفسه ؛ وله جارية تدعى « عقيلة » تغدّى جفنة وتعشّى جفنة ، وليس منا رجل يقدر على ذلك ؛ وله قفيزان ، وله خاتمان ؛ وفوض الى زياد بن أبى سفيان ، وكان زياد يلى أمور البصرة ؛ وأجاز الحطيئة بألف . فكتب عمر كل ما قال ، فبعث الى أبى موسى ، فلما قدم حجبه أياما ، ثم دعا به ودعا ضبة بن محصن ، ودفع إليه الكتاب فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ : أخذ ستين غلاما لنفسه . فقال أبو موسى : دللت عليهم وكان لهم فداء ففديتهم فأخذته فقسمته بين المسلمين . فقال ضبة : ما كذب ولا كذبت . وقال : له قفيزان . فقال أبو موسى : قفيز لأهلى أقوتهم وقفيز للمسلمين فى أيديهم يأخذون به أرزاقهم . فقال ضبة : والله ما كذب ولا كذبت . فلما ذكر « عقيلة » سكت أبو موسى ولم يعتذر ، وعلم أن ضبة قد صدقه . قال : وزياد يلى أمور الناس ولا يعرف هذا ما يلى . قال أبو موسى : وجدت له نبلا ورأيا فأسندت إليه عملى . قال : وأجاز الحطيئة بألف . قال : سددت فمه بمالى أن يشتمنى . فقال عمر : قد فعلت ما فعلت ، وإذا قدمت فأرسل الىّ زيادا وعقيلة ، ففعل ، فقدمت عقيلة قبل زياد ، وقدم زياد فقام بالباب ، فخرج عمر وزياد بالباب قائم وعليه ثياب بيض كتان ، فقال له عمر : ما هذه الثياب ؟ فأخبره ، فقال : كم أثمانها ؟ فأخبره بشىء يسير وصدقه ، فقال له : كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان ، قال : ماصنعت فى أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتى فأعتقتها ، واشتريت فى الثانى ربيبى عبيد فأعتقته ، فقال : وفقت . وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيها ، فرده وأمر أمراء الأجناد أن يأخذوا برأيه ، وحبس ضبة بالمدينة ، ثم قام فى الناس فقال : ألا إن ضبة العنزى غضب على أبى موسى فى الحق أن أصابه ، وفارقه مراغما أن فاته أمر من أمر الدنيا ، فصدق عليه وكذب ، فأفسد كذبه صدقه ، فإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى الى النار .

ولقد كان « الفاروق » من أعلم الناس وأعرفهم بالطبيعة العربية ، وما ركب الله فيها من شماس وجموح يدفعها إليه ما نشأت عليه من تشبع بالحرية الفردية ، واعتزاز بالشخصية ، وفراغ فى الوقت ، وتقلل من أسباب العيش تبعا لحياة البـداوة التى كانوا يحيونها ، فرمى بهم الأمم عن قوس الاسلام ، وشغلهم بالغزو والجهاد والفتح ، وكأنه الى هذا المعنى قصد بقوله : « إنما مثل العرب مثل جمل أنِف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، فأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » . وهو الى ذلك كان حفيا بهم ، حريصا عليهم ، فاذا شيع عماله وأمراء ولاياته قال لهم فيما يوصيهم : « ولا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها » وإذا حضره الموت كتب فى وصيته الى الخليفة من بعده « وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب فانهم مادة الاسلام » .

ولم تغفل عبقرية «عمر» المرأة المسلمة ، بل عنيت بها أشد العناية ، وتطلعت الى تشريع سماوى يحفظ عليها كرامتها ويصون حياتها من حومان الريب والظنون ؛ روى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقت ربى فى ثلاث ، ووافقنى ربى فى ثلاث : قلت : يارسول الله لو اتخـذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وقلت يارسول الله : إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن بأن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب ؛ وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فاستقريت أمهات المؤمنين واحدة بعد واحدة ، وأقول : والله لئن انتهيتن وإلا ليبدلن الله رسوله خيرا منكن ، فأتيت على بعض نسائه (هى أم المؤمنين زينب بنت جحش كما جاء مصرحا به فى بعض الروايات) فقالت : ياعمر أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تكون أنت تعظهن ؟ ! فأنزل الله عز وجل « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن » . وهذا الحديث يدلنا على أن « عمر ابن الخطاب » كان أول عقل إسلامى ، بل أول عقل إنسانى فكر فى المرأة ، وتنبه الى مكانها من الحياة الاجتماعية ، وأدرك بفطرته الطاهرة أن نبل المرأة فى صيانتها بعيدة عن خائنة الأعين ، حتى قال فيهن : « لو أطاع فيكن ما رأتكن عين » وليتأمل القارىء قول « عمر » لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر » فهو بهذا يتوجه الى صاحب الشريعة فى شأن نسائه الطاهرات وهو يعلم أنهن أعف امرأة ولدت حواء ، ولكنه يعلم الى جانب ذلك ما يسود البيئة العربية الجاهلية من فوضى اجتماعية لا تليق بكرامة المرأة المسلمة ، ويعلم مافى طبيعة المرأة من لين الأنوثة ، وما فى طبيعة عامة الرجال من جموح الغرائز ، ويعلم ما فى الاختلاط بين النساء والرجال من بواعث الفساد والإفساد ، والاسلام كله نبل ومكارم ، فلا يليق بالمسلمة فى ظله إلا أن تكون أصلح مثل للفضيلة والعفاف ؛ وأمهات المؤمنات القدوة الفاضلة للمؤمنات ، فليكنّ المثل الأعلى ،

وليكن التشريع بديا فى شأنهن ، حتى إذا علم الناس أن أشرف من مشين على الأرض أمرهن الله بالحجاب ، وأبى عليهن الاختلاط ، كان ذلك أسرع الى قلوب المؤمنات بالرضى والقبول .

وإذا كنا قد أدرنا البحث فى عبقرية عمر على مظهر الصرامة للحق ، فليس ذلك لأن تلك الصرامة كانت ترجح جانب العطف والرحمة فى شخصيته ، بل لأن عمر عرف أفضل مظهر الحاكم الذى يحكم أمة ناشئة ، ويسوس دولة مترامية الأطراف ، فتحلى به ؛ وهو الى ذلك كان أعطف الناس على الضعفاء ، وأبرهم بالمساكين ، وأرحمهم باليتامى ، وألينهم فيما ينبغى . قال الشعبى : لما سمع الناس قول عمر ورأوا عمله ، ذكروا أبا بكر والنبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : كان النبى صلى الله عليه وسلم أعلم بأبى بكر ، وكان أبو بكر أعلم بعمر ، فجرى أبو بكر وعمر مجرى واحدا ، وكانوا يخافون من لين هذا ومن شدة هذا ، فكان أبو بكر مع لينه أقواهم فيما لا نوا عنه وألينهم فيما ينبغى ، وكان عمر ألينهم فيما ينبغى وأقواهم على أمرهم . وروى الأوزاعى : أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب الى ذلك البيت فاذا عجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منه كذا وكذا ، يأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى ! فقال طلحة : ثكلتك أمك طلحة ! أعثرات عمر تتبع ؟ ! وأحاديثه فى هذا الوادى لا تستقصيها الأسفار ، غير أنا نذكر حادثة هى أعظم ماعرف الناس فى باب الرحمة والعطف القلبى ، وكأنها دستور أئمة الهدى وعلماء الأمة : روى ابن الجوزى : أن رجلا كان ذا بأس ، وكان يوفد الى عمر لبأسه ، وكان من أهل الشام ، وأن عمر فقده فسأل عنه ، فقيل له : تتابع فى هذا الشراب ، فدعا كاتبه ، فقال : اكتب : « من عمر بن الخطاب الى فلان . سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو اليه المصير » فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرؤها ويقول : غافر الذنب : قد وعدنى ربى أن يغفرلى ، وقابل التوب شديد العقاب : قد حذرنى الله عز وجل عقابه ، ذى الطول لا إله إلا هو اليه المصير ، فلم يزل يرددها على نفسه ، ثم بكى ونزع فأحسن النزع . فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

أما بعد : فان الفكر الانسانى ليس حبيسا على فنون الفلسفة ونظرياتها ، بل ربما كانت الفلسفة أضيق مجالات الفكر ، وإن كانت من أشرفها وأعمقها ؛ وجولات الفكر الاجتماعية التى يقوم عليها نظام الأمم فى حكمها وسياستها وأخلاقها وقوانين معاملاتها ، من أهم جوانبه واعودها على الانسانية بالنفع ، وقد كانت هذه المناحى مجلى عبقرية « عمر بن الخطاب » وفى طريقها قاد « الفاروق » الفكر الاسلامى حتى بلغ به ذروة الخلود ؟

صادق ابراهيم عرجون

التجديد فى الاسلام

— ٤ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوى شريف

(١) هل يتعدد المبعوثون ، أو المجددون لهذه الأمة أمر دينها ؟

(٢) من هم المجددون فى الاسـلام من القرن الأول الهجرى الى الوقت الحاضر ؟

المجددون فى القرن الأول : عمر بن عبد العزيز ، محمد الباقر ، القاسم بن محمد ، سالم بن عبد الله ، الحسن ، ابن سيرين ، ابن كثير ، الزهرى . . .

١ — هل يتعدد المبعوثون ، أو المجددون ؟

للعلماء أقوال كثيرة فى المبعوث على رأس القرن : هل يكون واحدا أو متعددا ؟ فقال الحافظ ابن كثير : قد ادعى كل قوم فى إمامهم أنه هو المراد بهذا الحديث ، والظاهر أنه يعم حملة العلم من كل طائفة ، وكل صنف من أصناف العلماء ، من محدثين وفقهاء ، ونحاة ، ولغويين ، وغيرهم .

وقال الحافظ ابن حجر : نبه بعض الأئمة على أنه لايلزم أن يكون فى رأس كل قرن مجدد واحد فقط ، بل الأمر فيه كما ذكره النووى فى حديث : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم خـلاف من خالفهم حتى يأتى أمر الله » من أنه يجوز أن تـكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، مابين شجاع ، وبصير بالحرب ، وفقيه ، ومحدث ، ومفسر ، وقائم بالمعروف والنهى عن المنكر ، وزاهد ، وعابد ؛ ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد ، ويجوز اجتماعهم فى قطر واحد ، وتفرقهم فى الأقطار ، ويجوز أن يـكونوا فى بعض البلدان دون البعض الآخر ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولا فأولا ، الى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فاذا انقرضوا أتى أمر الله ؛ وهذا متجه ، فان اجتماع الصفات المحتاج الى تجديدها لاتنحصر فى نوع من الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير تنحصر فى شخص واحد ، إلا أن يدعى ذلك فى عمر بن عبد العزيز ، فانه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخـير وتقدمه فيها ، وأما من بعـده : فالامام الشافعى وإن اتصف بالصفات الفضائل الجمة ، لـكنه لم يكن القائم بالأمر ، ولا بشأن الجهاد ، والحـكم بين الناس

بالعدل ؛ فعلى هـذا كل من اتصف بشيء من ذلك عنـد رأس المائة ، فهو المراد ، تعدد أم لا .

وقال الحافظ الجـلال السيوطى : روى أبو داود والحاكم عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » قال بعض شراح هذا الحديث : ذهب بعض العلماء الى أنه لايلزم أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يكون واحـدا وقد يـكون أكثر ، فان انتفاع الأمة بالفقهاء وإن كان عاما فى أمور الدين ، فانتفاعها بغيرهم أيضا كثير : مثل أولى الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء ، والوعاظ ، والزهاد ، وأصحاب الطبقات ، وغير ذلك ، ينتفع بكل فى فن لاينتفع بالآخر فيه ، فاذا حمل تأويل الحديث على هذا الوجه كان أولى وأشبه بالحـكمة .

وقال الحـافظ الذهبى : إن كلمة « مَن » فى حـديث التجديد للجمع لا للمفرد ، فنقول مثـلا : على رأس الثلاثمائة ابن سريج فى الفقه ، والأشعرى فى أصـول الدين ، والنسائى فى الحديث ؛ وعلى الستمائة : الامام الفخر الرازى فى الـكلام ، والحافظ عبد الغنى فى الحديث ، ونحو ذلك .

وقال الحافظ ابن الأثير : قد تكلموا فى تأويل هذا الحديث ، وكل أشار الى القائم الذى هو من مذهبه ، وحمـلوا الحديث عليه ، والأولى العموم ، فان « من » تقع على الواحـد والجمع ، ولا تختص بالفقهاء ، فان انتفاع الأمة يكون أيضا بأولى الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء ، والوعاظ ، وأنواع العلماء العاملين ؛ لـكن ينبغى أن يـكون المبعوث مشارا اليه فى كل فن من هذه الفنون .

٢ — من هم المجددون من القرن الأول الى الآن ؟

فى القرن الأول :

يرى الحافظ ابن الأثير أن مجددى الاسلام فى المائة الأولى الهجرية هم : من أولى الأمر : عمر بن عبد العزيز ؛ ومن الفقهاء : محمد الباقر ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، والحسن ، وابن سيرين ، وغيرهم من طبقتهم ؛ ومن القراء : ابن كثير ؛ ومن المحدثين : الزهرى ، وهكذا .

(ا) فمن هو عمر بن عبد العزيز ؟

هو الخليفة العالم ، والامام المجتهد ، الورع ، الزاهد ، المتواضع ، البعيد عن الزهو والـكبرياء ، النزيه العفيف ، المصلح ، المجدد ، جماع مكارم الأخلاق ، الذى ملأ طباق الأرض عدلا ، والذى أجمع المسلمون على أنه المبعوث على رأس المائة الأولى ليجدد للامة أمر دينها ، مصداقا لحـديث التجديد ، والذى أجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العـدل ، وأحد الخلفاء

الراشدين ، والأئمة المهديين ، الذين عـدهم سفيان الثورى فقال : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ، والذى فضله مالك بن زياد على نفسه فى الزهد فقال : يقولون : مالك زاهد ، مالك زاهد ، أى زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها فأعرض عنها وتركها ، وسأل امرأته يوما أن تقرضه درهما يشترى به عنبا فلم يجد عندها ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ فقال لها : هـذا الحرمان أيسر من معالجة الأغلال غدا فى جهنم .

ولم يكن زهد عمر من النوع المعروف ، من لزوم الرجل كسر الحائط ، وهو غريق فى لعابه ، عار عن بعض ثيابه ، جامد الفكر ، لا يتعدى إبصاره موضع قـدميه ، فهذا الى البله والعته أقرب ، ولـكنه كانت الدنيا عنده فى كفة ، والآخرة فى كفة ، يزن من هذه لهذه ، ويزرع فى دنياه ما يجـزى بخيره فى آخرته . ومن فضائل عمر أنه كان دائما يجالس العلماء ، ويطلب عظاتهم ، حتى إنه قال يوما لعالم : عظنى ، فقال له عليك بقول الشاعر :

تجـرد من الدنيا فانك إنما ... خرجت الى الدنيا وأنت مجـرد

من أين اكتسب عمر هذه المكارم ؟

والناس يتساءلون : ممن اكتسب عمر هذه الفضائل ، حتى صار مثلا أعلى فى نبل الأخلاق وسموها ، مع أنه نشأ فى بيت الترف ، والأخـلاق إنما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الانسان ؟ ومن حقق النظر وجد أن عمر أرسله والده الى المدينة صغيرا ، فربى فيها بين علمائها وصلحائها ، فاكتسب منهم حسن الخلق ، ومحبة الأمة ، والعفة فى أموالها ، والرأفـة بها ، والوفاء لها ؛ وحسْبه أن يكون من شيوخه بها أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وغيرهم ؛ أضف الى هـذا صفاته الموروثة عن جدّه الفاروق عمر بن الخطاب ؛ فإن عمر بن عبد العزيز أمّه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ؛ وكان يقال لعمر بن عبد العزيز : أشجّ بنى مروان ، فقد ضربته دابة فى جبهته وهو غلام ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : « إن كنت أشجّ بنى مروان إنك لسعيد » . قال ذلك لأن جـده عمر الفاروق كان يقول : « من ولدى رجل بوجهه شجّة يملأ الأرض عدلا » . ومن المأثور : « الناقص والأشج أعدلا بنى مروان » أى أنهما العادلان ولا عدل فى غيرهما .

كيف ولى عمر الخلافة ؟

كان سليمان بن عبد الملك من خيار خلفاء الأمويين ، وكان يؤثر دينه وأمته على نفسه ، فإنه لما مرض وأحس بدنو أجله كتب عهدا يستخلف فيه عمر بن عبد العزيز من بعده ؛ ولقد آثره على أولاده وعلى أقاربه ، وفيهم من يصلح للخـلافة ، والقوّاد العظام الذين أبلوا البلاء

الحسن فى الحروب ؛ ومنهم داود ابنه ، ومسلمة بن عبد الملك ؛ ولكنه رأى أن حقوق أبنائه وأقربائه أقل عنده من حقوق المسلمين التى جعلها الله فى عنقه ؛ ولذلك اختار للخلافة صفوة أهل زمانه ، وسلمها لخير أهل عصره وهو عمر بن عبد العزيز ؛ ولما علم عمر باستخلافه استاء من ذلك استياء عظيما ، واسترجع ؛ ولما سلموا عليه بالخلافة وهو بالمسجد ، عُقر ولم يستطع النهوض ، فأخذوا بيده وأصعدوه المنبر ، فجلس طويلا لا يتكلم ، وبعد أن تمت بيعته ألقى الخطبة الآتية :

« أيها الناس : إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإنى لست بقاضٍ ولكنى منفّذ ، ولست بمبتدع ، ولكنى متّبع ، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا ، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ولقد ولّى على الولايات من هو أصلح لها ، فانتظمت الأمور واستقامت الأحوال ، ولقد كان عمر لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، فقد دخلت عليه أشراف بنى أمية يسألون لهم عملا ، فأبى ، وقال : أنتم عندى وأقصى رجل من المسلمين فى هذا الأمر سواء ! فهل رأيت عدلا كهذا ؟

وانظر كيف كان عمر يعامل عماله ، فقد كتب إليه الجراح بن عبد الله يقول : « إن أهل خراسان ساءت أخلاقهم ، وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى ذلك ، فعل ، ورأيه الموفق . فكتب إليه عمر : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر به أن أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم ، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، والسلام »

ماذا كانت حال عمر قبل الخلافة وبعدها ؟

كان عمر قبل أن يلى الخلافة شديد التنعم ، فلما وليها خرج عما كان فيه من النعيم والمآكل والملبس والمتاع حتى النساء ، وصار فى غاية التقشف والزهد ؛ وكان دخله أربعين ألف دينار ، فردّ ذلك كله الى بيت المال ، وخصص لنفقة يومه درهمين ، ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يتعد الواحد ، فكان إذا غسلوه يمكث حتى يجف ، ويأكل الغليظ من الطعام ، ورد جميع المظالم لبيت المال ، حتى إنه رد ما كان لزوجته (وهى فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان) ، وردّ فص خاتم كان فى يده قال أعطانيه الوليد بغير حق ، وقد قالت زوجته : إنه يكون فى الفراش فيذكر الشىء من أمر الآخرة ، فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ويجلس ويبكى ، وهى تقول : « ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ! »

ما ذا عمل عمر من التجديد والاصلاح ؟

لعمر بن عبد العزيز من التجديد والاصلاح ما سجله التاريخ وهو كثير ، منه :

(١) أنه أول من عمل على جمع السنة النبوية وتدوينها ، فكان فى ذلك حفظها ؛ وهذا عمل مبتكر نافع ، كعمل أبى بكر الصديق فى جمعه القرآن الكريم .

(٢) أنه ردّ المظالم لأهلها ، وأبطل المغارم والضرائب الكثيرة التى استحدثت قبل عهده.

(٣) أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل ، أو قطع ، إلا بعد أن يعرض عليه ويراجعه ، وقد كانت الدماء قبله تراق على حسب هوى الأمراء من غير حساب .

(٤) أنه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام ـ وقد كانت سيرته بلغتهم ـ فأسلموا وتسموا بأسماء العرب .

(٥) أنه أول من أنشأ فى البلاد الاسلامية دورا للضيافة من الخلفاء ، وأول من فرض لأبناء السبيل ، فقد كتب الى سليمان بن أبى السرى : أن اعمل خانات ، فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعا فأبلغه بلده .

(٦) أنه جمع كلمة الأمة بإبطال سب على بن أبى طالب على المنابر ، وقد كان بنو أمية يفعلونه ، فتركه عمر وكتب الى الأمصار بتركه ، ووضع مكان ذلك قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . فهو أول من قالها عقيب خطبة الجمعة ، واستمر الخطباء على قراءتها على المنابر للآن ، وبذلك رفع الشر ووضع مكانه الخير ، وسن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .

(٧) أنه كان يشترى البلاد من أعدائه بأسراهم ، كما اشترى ملطية من الرومان بمائة ألف أسير كانت لديه منهم ، وصارت من مدن الاسلام المهمة .

(٨) أنه سن السنة الحسنة بإبطاله ما كان يعمل من الاحتفالات (الزفات) عند تولى الخليفة ، فانه لما تمت له البيعة ، أتى بمراكب الخلافة كالعادة ، من البرازين ، والخيل والبغال فقال لهم : ماهذا ؟ فقالوا : مراكب الخلافة . فقال : دابتى أوفق لى ، وركبها ؛ فصرفت تلك الدواب وأبطلت عادة (الزفات) ؛ ودعوه للجلوس فى بيت الخلافة ومحل الحكم فأبى ، وقال : فى منزلى الكفاية .

(٩) أنه وسع على الموظفين فى مرتباتهم قطعا للرشوة ، ولاستقامة العمال ، فكان يعطى العامل بحسب عمله : من مائة دينار ، الى مائتين ، الى ثلاثمائة ، فاذا كان الدينار نصف جنيه

مثلا ، فيكون عمر كان يعطى عماله مرتبات لا تقل عما يعطى الآن لكبار الموظفين فى مصر وغيرها .

(١٠) أنه أعاد سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا بعيدين عن كبرياء الملوك وجبروتهم ، والذين كانوا ينظرون الى أمتهم نظر الأب البار ، ويعدلون بينهم فى الحقوق ، ويعفون عن أموال الرعية ، ولا يعرفون غير العدل والحرية والإخاء والمساواة ؛ والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها ، وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر بن الخطاب .

شىء من أقوال العلماء فى عمر :

قال أنس بن مالك : ماصليت وراء إمام قط أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر ابن عبد العزيز . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه . وقال ميمون ابن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلاميذ ، وهو معلم العلماء . وقال الامام أحمد ابن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز . هذه قطرة من بحر مما قاله العلماء فى عمر بن عبد العزيز ، وليس هنا الآن محل استيعاب كل ما قيل فيه .

شىء من كلمات عمر :

قال : من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ولا يغتابن أحدا ، ولا يتعرضن لما لا يعنيه ، ويدلنا من الخير على مالانهتدى اليه . وقال : إن كانت الناس لايصلحها الحق فلا أصلحهم الله . وقيل له : هؤلاء بنوك — وكانوا اثنى عشر — ألا توصى لهم بشىء فانهم فقراء ؟ فقال : إن وليِّ الله الذى لا إله إلا هو ، وهو يتولى الصالحين ، والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه .

ولادته ووفاته :

ولد عمر بحلوان بمصر حينما كان والده واليا عليها ، واختلف فى تاريخ ميلاده ، فقيل إنه ولد سنة ٥٩ أو ٦٠ أو ٦١ أو ٦٢ ، وتوفى سنة ١٠١ هجرية . ومن أسباب وفاته أن بنى أمية تألبوا عليه لكراهتهم له لأنه ضيق عليهم الخناق ولم يتركهم يستغلون ضعف الضعفاء ، فدسوا له السم فى الطعام أو الشراب بواسطة مولاه ، وأعطوه على ذلك ألف دينار ، فلما مرض وأخبر بأنه مسموم ، استدعى مولاه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : ألف دينار ، فقال : هاتها ، فأحضرها ووضعها عمر فى بيت المال ، وقال لمولاه : اذهب فلا يراك أحد .

ولما احتضر صرف منْ حوله ، فخرجوا ، وجلس على الباب مسلمة بن عمه ، وفاطمة زوجته ، فسمعاه يقول : أهلا بهذه الوجوه ، ليست وجوه إنس ولا جان ، ثم قرأ : « تلك

الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » ثم انخفض الصوت ، فدخلوا ، فاذا به قضى نحبه ، رضى الله عنه .

(ب) ومن هو محمد الباقر ؟

هو ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . لقب بالباقر لأنه تبقر فى العلم أى توسع فيه ، وهو أحد الأئمة الاثنى عشر فى اعتقاد الإمامية ، أو الامام الخامس من أئمة الشيعة الامامية ، ولد بالمدينة سنة ٥٧ ، وكان عمره يوم قتل جده الحسين ثلاث سنين ، وتوفى سنة ١١٤ ، روى عن أبيه ، وابن عمر ، وغيرهم ، وكان عالما كبيرا ، سيد بنى هاشم فى زمانه .

(ج) ومن هو القاسم بن محمد ؟

هو القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ربته عمته عائشة أم المؤمنين ، وروى عنها وعن جماعة من الصحابة ؛ وروى عنه جماعة من كبار التابعين . كان أفضل أهل زمانه ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ومن سادات التابعين . قال يحيى بن سعيد : ما أدركنا أحدا نفضله على القاسم بن محمد . وقال مالك : كان القاسم من فقهاء هذه الأمة . وقال ابن عيينة : كان القاسم أعلم أهل زمانه . وقال عمر بن عبد العزيز : لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت القاسم . توفى سنة ١٠٦ هـ

(د) ومن هو سالم بن عبد الله ؟

هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ، من سادات التابعين ، وأحد فقهاء المدينة ، روى عن أبيه وغيره ، وروى عنه الزهرى ونافع وغيرهما ؛ دخل سليمان بن عبد الملك الكعبة فرأى سالما ، فقال له . سلنى حوائجك ، فقال : والله لا سألت فى بيت الله غير الله ! وقال مالك : لم يكن أحد فى زمان سالم أشبه منه بمن مضى من الصالحين فى الزهد والفضل ، وكان على سمت أبيه وعدم رفاهيته . توفى سنة ١٠٦ أو ١٠٨ هـ

(هـ) ومن هو الحسن ؟

هو الحسن البصرى ، من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن : من علم وفصاحة وزهد وورع وعبادة . قال ابن سعد : كان الحسن كبير العلم ، رفيعا ، ثقة ، حجة ، مأمونا ، ناسكا فصيحا جميلا ، وسيما ؛ وهو أحد الصادعين بالحق الذين لا يخشون فى الله لومة لائم . وكان أبوه مولى زيد بن ثابت ، وأمه « خيرة » مولاة « أم سلمة » زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ، وربما غابت أمه فيبكى ، فتعطيه أم سلمة رضى الله عنها ثديها ؛ ويرون أن حكمة الحسن وفصاحته من بركة ذلك . قال أبو عمرو بن علاء : مارأيت أفصح من الحسن ومن الحجاج بن يوسف ، فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن . ولما ولى ابن هبيرة العراق

استدعى الحسن وابن سيرين والشعبى وقال لهم : إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله وقد ولانى ما ترون ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تَقِيّة (١) فقال ابن هبيرة : ما تقول ياحسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ، ولاتخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكا ، فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصره ، الى ضيق قبره ، ثم لاينجيك إلا عملك ! يا ابن هبيرة : إن تعص الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ! ولد الحسن بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ

(و) ومن هو ابن سيرين ؟

هو محمد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ؛ روى عن مولاه أنس ، وعن أبى هريرة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وغيرهم ؛ كان فقيها إماما غزير العلم ، ثقة ثبتا عـلامة فى تعبير الرؤيا ، رأسا فى الورع ؛ قال مورق العجلى : ما رأيت أحدا أفقه فى ورعه ، ولا أورع فى فقهه من ابن سيرين . توفى سنة ١١٠ بعد الحسن بمائة يوم .

(ز) ومن هو ابن كثير ؟

هو عبد الله بن كثير ، أحد القراء السبعة ، وقاضى الجماعة بمكة ، ومن الطبقة الثانية من التابعين ، وكان فصيحا بليغا مفوها ؛ أبيض اللحية طويلا جسيما ، أسمر أشهل العينين ، وكان كثير السكينة والوقار ، ويخضب بالحناء . وكان مـولى عمرو بن علقمة الكنانى ، ولد بمكة سنة ٤٥ هـ ولقى بها عبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ؛ قال ابن مجاهد : لم يزل عبد الله ابن كثير هو الإمام المجتمع عليه بمكة حتى مات سنة ١٢٠ هـ

(ح) ومن هو الزهرى ؟

هو محمد بن مسلم ، المعروف بابن شهاب الزهرى ، ولد سنة ٥٠ هـ وحـدث عن عبد الله ابن عمر ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم . قال عمر بن عبد العزيز : لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية من الزهرى . وقال مالك : بقى ابن شهاب وما له فى الدنيا نظير . وقال الليث بن سعد : ما رأيت عالما قط أجمع من الزهرى ، يحدث فى الترغيب ، فتقول لا يحسن غيره ، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة فـكذلك . توفى سنة ١٢٤ ؟

السيد عفيفى

(١) التقية : قول فيه صيانة وستر عن الاذى .

معترك المذاهب الفلسفية

ما هو الضمير الأدبى وهل هو غريزى أم لا

الضمير الأدبى شعور باطنى فى الانسان يشهد على ما يفعله هو أو يفعله غيره إن كان خيرا أو شرا ، وهو الذى عُبر عنه فى القرآن الكريم بالقلب ، والضمير والقلب لغة بمعنى واحد . قال الله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » أى تفسد بغلبة الأهواء عليها فيستوى عندها الحسن والقبيح ، والخير والشر .

وبناء على هذا فوظيفة الضمير هى ما يحسه كل إنسان فى نفسه عند ما يشرع فى قول أو عمل من الحكم على ماهو شارع فيه ، إن كان خيرا موافقا للقانون الأدبى ، والعرف الإنسانى ، أم مخالفا لهما . والمشاهد أن هذا الحكم لا يتجاوز حد الشهادة ، فليس فيه صفة الالزام . فقد يشهد عليه ضميره بأن ما ينتوى عمله شر فيأتيه ، وأن نقيضه خير فيمتنع عنه ، مصرا على الاساءة . فالضمير الأدبى والحالة هذه فى حاجة الى قوة تنفيذ تكبح الانسان عن عصيان ضميره ، وهى لا توجد إلا فى النفوس العالية التى يقوم فيها مجرد الشعور بخسة الاساءة مقام الوازع المادى ، فلا يصدر عنها إلا ما يشهد بحسنه ضميرها الأدبى .

ما هو الضمير الأدبى وكيف نشأ فى الانسان ؟

انقسم علماء النفس فى كنهه ، وفى كيفية نشوئه فى الانسان الى ثلاثة مذاهب :

(أولها) أنه شعور غريزى فى النفس البشرية ، أى موهوب وليس بمكتسب .

(ثانيها) أنه وجه من وجوه العقل .

(ثالثها) أنه ثمرة التجربة والتمرس بشئون الحياة .

١ — مؤدى المذهب الأول أن الحكم الأدبى الذى يشعر به كل إنسان فى صميم نفسه ، آمرا إياه بالمعروف ، وناهيا له عن المنكر ، ومشيرا عليه بما يجب أن يفعله ، هو صوت حاسة غريزية فى النفس ، نشأت ملازمة لها بالفطرة ، مثلها كمثل مامنحناه من خاصة التفرقة بين الطعوم المختلفة ، والتمييز بين الخير والشر . وكما تلازم حواسنا الجثمانية دوافع تدفعنا لإيثار الحلو النافع على المر الضار ، كذلك تلازم الضمير الانسانى عوامل تسوقنا لتفضيل الأفعال الطيبة على الأفعال السيئة .

بناء على هذا المذهب يكون حكم الانسان على ما هو خير وما هو شر ليس متنزلا عن

تعقل سابق ، أو عن تجربة متقدمة ، بل عن شعور اضطرارى طبيعى موجود فى النوع البشرى من أول وجوده .

يعزى هذا الرأى الى الفيلسوف الانجليزى شيفتسبورى المتوفى سنة (١٧١٣) .

٢ — مؤدى مذهب العقليين أن الضمير الانسانى نفحة من نفحات العقل . فان الانسان متى عقل أن فعلا من الأفعال سيء الأثر على فاعله وعلى مجتمعه ، سقطت منزلته فى نفسه وكرهه ؛ وأن فعلا آخر حسن الأثر فى نفسه وفى جماعته التى ينتمى اليها ، ارتفعت قيمته فى نظره وأحبه ، فيتألف من مجموع هذه المدركات شعور قوى فى نفسه يعبر عنه بالضمير الأدبى.

وبناء على هذا فيكون الضمير الأدبى فى الانسان مجموع أحكام عقلية مستفادة من الشئون الحيوية .

٣ — أما مذهب الذين يقولون بأن الضمير الانسانى ثمرة التجربة والتمرس بأمور الحياة ، فان له ثلاثة أشكال :

(أولها) أن الضمير الأدبى ثمرة التربية والعرف .

(ثانيها) أنه نتيجة تشارك الأفكار والتعود .

(ثالثها) أنه أثر من آثار ناموسى التطور والوراثة .

مؤدى الشكل الأول : أن الضمير الانسانى يميز الخير من الشر على مقتضى مالُقنه من أبويه ، ومن المجتمع الذى يعيش فيه . ودليل القائلين بهذا الرأى من أمثال الفيلسوف الانجليزى هوبز وهلفتيوس ، أن الخيور والشرور كثيرا ما تختلف عند الأمم . فلو كانت صادرة عن غريزة طبيعية ، أو عن حكم عقلى ثابت ، لما اختلفت الى هذا الحد .

ومؤدى الشكل الثانى : أن الضمير نتيجة تشارك الأفكار والتعود ، والعامل الرئيسى فيه هى قيمة النفع العائد على الانسان من أعماله ، وتأثيرها فى تحسين أحواله .

وقد فسر القائلون بهذه النظرية ، وعلى رأسهم الفيلسوف الانجليزى ستوارميل ، كيف ينشأ الضمير الأدبى فى الأفراد ، فقالوا : لا يخلو أى مجتمع من قوة وازعة تسهر على الأمن العام ، وعلى الفصل بين المتنازعين ، وعلى الهيمنة على حفظ كيان الجماعة ، فهى لاتنى فى النهى عن الرذائل ، وعن الأمر بالفضائل ، ولا تألو جهدا فى معاقبة المجرمين ومكافأة المحسنين . ولا تنس ما تصادفه الرذيلة من ذم الناس وتشنيعهم ، والقدح فى أهلها وتحقيرهم ، وما تجده الفضيلة من ثناء الناس وتقديرهم ، ومدح أهلها وتبجيلهم . كل هذه المؤثرات ولّدت فى قلوب الناس إكبارا للفضيلة ، واحتقارا للرذيلة ، أصبح بالتمرس به طبيعة ثانية فى النفوس البشرية يتوهمها الخياليون متنزلة من العالم العلوى ، وما هى إلا ثمرة ماذكرناه هنا من العوامل .

أما مؤدى الشكل الثالث فهو أن الضمير الانسانى ثمرة من ثمرات ناموسى التطور والوراثة ، فعند هؤلاء العلماء وعلى رأسهم دارون وبوخنز وهلسكى أن العالم وما فيه من النواميس قائم على نظام آلى محض ، وكل ما فيه خاضع لهذا النظام لا يشذ عنه ، فجميع الكائنات البسيطة والمركبة ، حتى الحياة والقوة العاقلة ، من صنعها ، وقد صدرت لا عن تدبير وقصد سابقين عليها ، ولكن عن الاتفاق المحض ، وإنما جاءت محكمة ومتناسبة ، لأنها نشأت عن قوى منتظمة لا يتسرب اليها أقل اختلال ، وما كانت كذلك فلا يعقل أن يصدر منه إلا كائنات منتظمة .

والضمير الأدبى لا يشذ عن هذه القاعدة ، فليس هو بشىء قائم بنفسه ، ولا بمتنزل من عالم أرفع من هذا العالم ، ولكنه من متولداته كالروح والعقل وما نشأ منهما من العلم والحكمة والعبقرية .

والضمير الأدبى فى نظرهم بدأ تولده فى الحيوان ، فان الحاجة الحيوية حتمت عليه القيام على نظام خاص فى معيشته ، وأورث هذا النظام أخلافه ، وكلما ترقوا فيه وصار فيهم صفات راسخة ، أورثوه ذراريهم ، حتى نشأ الانسان فكان حاصلا على ما ورثه من آبائه الحيوانيين . وبما أنه أوتى حظا من انتظام الجمجمة وتناسب الأعضاء ، تابع طريقه فى الارتقاء تحت عوامل النواميس ، فوصل الى معقولات أولية ، وأصول أدبية اضطرارية لا اختيارية ، وأورثها أخلافه ، وما زال يترقى ويورثهم صفاته المكتسبة ، حتى تكوّن لهم ضمير أدبى ظنه الفلاسفة هبة سماوية ، وهو فى الواقع من إملاء الحاجات عليه فى آماد لا تحصى ، فنظروا اليه فى حالته الراقية ، ولم ينظروا اليه أيام كان لا يفترق عن ضمائر القردة وما دونهم من العجماوات .

تحليل هذه المذاهب والنظر فى أدلتها :

قبل أن نكتب كلمة واحدة فيما نحن بصدده يجب علينا أن ندحض شبهات أصحاب نظرية التطور والآلية الوجودية ، فان هذا المذهب وإن خدع بسهولته بعض العقول ، فانه قد تبين لأهل العلم فساده بأدلة لا تقبل النقض ، ولزم أشياعه السكوت .

يسهل على الباحث السطحى أن يشبه العالم وما فيه من القوى بأداة مولدة للكائنات على سبيل الاتفاق والخبط ، وتحليتها بكل ما هى فى حاجة اليه تحت تأثير الضرورة القاهرة ، ولكنه يصعب بل يستحيل عليه أن يعقل ذلك أو يقيم عليه شبه دليل ، لابتناء جميع عناصره على افتراضات .

لقد كفانا العلماء مؤنة دحض هذا المذهب ، ونقلنا مقالات ضافية من بحوثهم فى أعداد سابقة من هذه المجلة . وقد ذكرنا فيها أن الاتجاه العلمى تحول الى ناحية مذهب العلامة دوفريس الهولاندى ، الذى أثبت عمليا فى العهد الحديث ظهور الأنواع الحية الجديدة ، حاصلة مقوماتها وغرائزها ، طفرةً ، فسقط بذلك قولهم بضرورة التطور فى الآماد الطويلة ،

وبنشوء الغرائز بالتعود ، وتوريثها للأخلاف ، وبزوال هذين الأصلين ما ذا بقي من نظرية التطور التدريجى ، ومن معنى الانتخاب الطبيعى ، ومن رأيهم فى نشوء الغرائز ، وفى وراثة الصفات المكتسبة ؟

اللهم لم يبق شيء أصلا .

وبثبوت حدوث الغرائز المحيرة للعقل للحيوانات الحقيرة ، هبةً بدون كسب ، يسهل تصور أن يُمنح الانسان ضميرا أدبيا هبة من مبدعه بدون كسب ، لأنه من ضرورياته فى درجة حواسه الخمس .

لاجرم أنه يصعب جدا على الانسان أن يعتقد بأن الصانع جل شانه يلهم الحشرات الدنيا بوسائل يستحيل عليها تحصيلها لحفظ ذواتها وأنواعها ، ولا يودع فى قلب الانسان غريزة أدبية يميز بها الحسن من القبيح ، والخير من الشر ؛ فالفلاسفة الذين قالوا بهذا الرأى هم فى نظرنا على حق ؛ ولكن هل لدينا من دليل على ذلك نكافح به فى سبيل تثبيت هذه العقيدة فى النفس ؟

نعم ، وهو دليل محسوس لايترك ريبة فى النفس . ولا طريق اليه إلا بعد إيراد المناقشات التى تثور عادة حول هذا الموضوع :

مناقشات فلسفية حول الضمير الأدبى للانسان :

تنحصر شبهات الماديين على فطرية الضمير الأدبى للانسان فى ثلاثة أمور :

(أولها) أن ليس للجماعات المنحطة ضمير أدبى على الاطلاق .

(ثانيها) أن الضمير الادبى فى الجماعات التى اجتازت أدوار الاجتماع الأولى يوجد مناسبا لحالتها الأدبية ، وهو يخالف فى كل منها ما عليه فى غيرها . فما تعده جماعة واجبا تعده الأخرى جرما ، وما تعده الأولى حسنا تعده الثانية قبيحا . فهو يتطور فى كل منها على حسب تغير الزمان والمكان والاختبار .

(ثالثها) أن الضمير الأدبى متناقض عند الأمم المتمدنة .

ونحن نناقش كل شبهة من هذه الشبهات بغية الوصول الى حقيقة ثابتة يثلج الصدر عليها فنقول :

١ — إن عدم وجود الضمير الأدبى عند الجماعات المنحطة التى لا تمتاز كثيرا عن الحيوانات العجم ، لايدل على أنه ليس موجودا فيها بالقوة ، كما لايدل عدم وجود الفلسفة لديها أنها ليست موجودة لديها بالقوة . وإذا كان لا يجرؤ على القول الأخير إنسان يعتد بعقله ، فكان يجب أن لا يجرؤ أحد على القول الأول . وإلا فهل كان يريد أن يكون الرجل الذى لا يفترق عن

العجماوات إلا فى التلفظ ببضع عشرات من الـكلمات الساذجة ، ومضطر لأن ينقل عنها ماتصنعه من بيوتها التى تأوى اليها ، ووسائلها التى تستخدمها للحصول على فرائسها الخ الخ ، وهو مع ذلك مهدد فى كل آونة من وجوده بغارات الوحوش ، وعاديات الطبيعة ، هل كان يريد المعترض أن يكون لمثل هذا الرجل ضمير أدبى كالذى عند من أمن على نفسه وذويه ، وبلغ غاية بعيدة من العلم والوسائل الحيوية ، وماذا يفيده ذلك الضمير لو كان له وهو فى تلك الحالة المزعجة ، والحياة المضطربة ؟

ولـكن قد يكون لهذه الشبهة وزن إن ثبت عن هذا الرجل أنه لبث على حاله الأول مجردا من الضمير الأدبى بعد أن أمن شر العوادى عليه وعلى أهله ومجتمعه ، وبعد أن وصل الى حالة من الرخاء والنظام الاجتماعى تسمح له بالانتفاع بما أودع فى جبلته من المواهب الأدبية ، والصفات العلوية ، وهذا لم يحدث قط .

٢ — أما مايشاهد من الخلافات بين الأمم فى الضمير الأدبى لـكل منها ، على حسب تباينها فى البيئات ، وتخالفها فى شئون الحياة ، فهذا أمر طبيعى لا يمكن أن يحدث سواه . فمن الذى قال إن الانسان خلق حاصلا على جميع ماهو فى حاجة اليه من علم وأدب وصناعة وفن ؟ أما رأيت أن كل هذه الشئون الضرورية لوجوده قد نشأت فيه نشوءا تدريجيا ، واختلفت فى كل منها عما هى عليه فى غيرها على حسب اختلافات بيئاتها ، وتباينات أحوالها ؟ فهل يسوغ لمن يرى الشعوب على هذه الحالة من الخلافات العلمية والأدبية والصناعية والفنية أن يقول إنها مجردة من الأصول الجبلية التى تولدها ؟

وهل عند ما قال الاجتماعيون إن الانسان مدنى بطبعه ، أرادوا بذلك أن توجد الجماعات الساذجة على أرقى الأصول الاجتماعية ، من درجة التى تشاهد لدى أرقى الأمم الاوربية ؟

وهل قدح فى هذا الأصل العلمى وجود جماعات أولية على مثل ما عليه الحيوانات العجم من الفرقة والتشتت ، بحيث ظنهم كثير من العلماء من أنواع القردة المرتقية ؟

٣ — أما ما يشاهد من الخـلافات فى الضمير الأدبى لدى الأمم المتمدنة ، فـلا يقدح فى وجوده فطريا فى النفس البشرية ، كما لا يقدح اختلافها فى أصول الاجتماع ، وأصول الحـكم ، واختلافها فى المذاهب الفلسفية ، والـمُثل العليا الفنية . فإذا كان لا تؤثر هـذه الخلافات السياسية والاجتماعية والفلسفية والفنية فى أن الإنسان مفطور على الاجتماع ، وعلى إقامـة حكومة ، وعلى النظر فى الـكون ، وعلى العاطفة الفنية ، فـكذلك لا تؤثر خلافاتها فى الضمير الأدبى فى أن الإنسان مجبول عليه من أصل الخلقة .

على أن هذه الخلافات الضميرية بين الأمم لا تعدو الأمور العرضية ، أما الأصول الرئيسية ... حد ... خلاف ألبتة . فلا خلاف فى وجوب إقامة العدل بين الناس قطعا لذرائع الانتقامات

بينهم ، وفى إسعاف المرضى بالعـلاج ، وتدارك الطفولة بالتربية ، واليتم بالـكفالة ، والعجز بالايواء ، والملهوف بالاغاثة .

وإذا كان الضمير الأدبى وهماً من الأوهام ، فلماذا افتخر الناس قديما وحديثا بأعمال البر ، وتظاهر بها من ليس من أهلها ، وتبارى فيها أولو الجاه والثروة حتى بلغ ما دفعه بعضهم زيادة عن مائة مليون من الجنيهات ، كما يروى عن المثرين الامريكيين كارنجى وروكفلر وغيرهم ؟

ولماذا لم تقض المدنية ، والضلاعة فى العلوم والفلسفة ، على الضمير الادبى كما قضت على أوهام إنسانية كثيرة ، بل زادتها تشبثا بالنفوس ، وتسلطا على القلوب ؟

لقد قام فى العالم الإنسانى فى العهد الأخير غلاة من الاشتراكيين ، ارتأوا أن أصحاب العاهات أسباب وهن فى المجتمعات ، فيجب إبادتهم وإبادة من يجـدّ منهم ، حتى لا يكونوا عبئا ثقيلا عليه . هذا رأى من الوجهة العلمية البحتة صحيح ، ولـكنه من الوجهة الانسانية التى يتحكم فيها الضمير الأدبى لا يمكن إساغته ، ولذلك عدت الانسانية هذا القول هراء محضا ، وأزرت بقائليه واعتبرتهم غير جديرين بالاحترام ، فصمتوا فى وسط سخط العالم وسخريته .

وإليك ما هـو أعظم دلالة على سلطان الضمير الأدبى من هـذا : ذلك أن من الأمراض ما هو عضال لا يرجى له شفاء ، ويكون صاحبه عرضة لآلام مبرحة لا تحتمل ، يضطر معها للتسكين بالمخدرات ، فارتأى بعض الأطباء إراحة هؤلاء المرضى الميئوس منهم بالقضاء عليهم . فلم يرتح الضمير الانسانى الى هذا الحل وعارض فيه جمهور الأطباء وإن كان الداعى إليه إراحة المرضى أنفسهم .

وقد ازداد الضمير الانسانى سموا حتى امتد على عالم الحيوانات ، فأصبح الناس لا يطيقون أن يروا حوذيا يحمل عربته فوق ما تطيقه البهيمة التى تجرها ، فوضعوا لذلك عقوبات رادعة ، وعينوا رجالا يراقبون الحيوانات العاملة حتى إذا رأوا فى دابة جرحا ، أو آنسوا فى مشيتها ظلعا ، أو فى جسمها نحولا ، قادوها الى المستشفى الخاص بالحيوانات وعملوا على معالجتها .

ومما هو ذو دلالة عظيمة فى هـذا الباب أن الأمم المتمدنة قررت منع تشريح الحيوانات وهى حية ، لرؤية أعضائها الصدرية والبطنية وهى تعمل ، إشباعا للشهوة العلمية . وقد كان هذا التشريح سببا للوقوف على معلومات تفصيلية فى الدورة الدموية والهضم وعمـل العصارات المختلفة ، ولـكن الضمير البشرى رأى أن يستغنى عن هـذه المعلومات التفصيلية ، إذ لم يطق أن يسمح بحدوث مثل هذه القسوة ، وحمل الحـكومات على تحريم هذا النوع من البحث العلمى .

لو كانت اختصت بهذه الصفات النفسية العالية أمة دون أمة ، لقلنا إنها من باب التأنق

فى التظرف المدنى ، ولكننا نراها عامة فى النوع البشرى ، وإنما زادتها المدنية والثقافة العلمية قوة .

ولعلنا نطرف القراء بما يسرهم إذا ذكرنا لهم أن الاسلام سبق العالم كله فى رفع مستوى الضمير الانسانى ، وإكبار شأنه ، والعمل على إبلاغه السمو الذى هو أهل له .

فأما مادعا اليه من العطف على الضعفاء ، والرحمة بالمرضى ، والحدب على اليتامى ، والرفق بالأسرى ، فلا سبيل الى حصره ، وقد تجلت آياته فى القرآن كله . ولكن الذى ننبه اليه أن الاسلام سبق المدنية الأوربية فى تسرية مهمة الضمير البشرى على العالم الحيوانى أيضا ، بأكثر من ألف سنة . فقال صلى الله عليه وسلم : « لو غفر لكم ما تأتون الى البهائم لغفر لكم كثير » وقال : « إن الله يرحم عبده المؤمن برحمته العصفور » وقال : « لعن الله من مثل بالحيوان » والمراد بالتمثيل به بتر أعضائه وقتله على هذه الصورة ، واللعن من أشد العقوبات الالهية . وقال « اركبوا هذه الدواب سالمة ، واتدعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها » الحديث . وقال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت » .

وقد زاد الاسلام سموا على كل ما رأيته من سمو الضمير الانسانى فى العالم المتمدن ، فنهى حتى عن لعن الحيوان ، كما اعتاد الناس أن يفعلوه عند ما يستعصى عليهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تلعن إنسانا ولا دابة فترجع اللعنة إليك » . وكان صلى الله عليه وسلم على سفر فى بعض أصحابه ، فلعن واحد منهم راحلته ، فكره رسول الله ذلك ومنعه من ركوبها عقابا له .

كلمة ختامية :

إذا كان شأن الضمير الأدبى من الحياة الانسانية هو ما رأيت ، فمن الذى يجرؤ أن يدعى أنه مادى بحت ، وأنه لا صلة له بعالم أرفع من العالم الأرضى .

وكيف يمكن أن يدعى أنه لا أصل له غير الحاجة الحيوية ، وأنت ترى أنه قد تعدى فى تطوره منطقة تلك الحاجات الى مناطق أرفع منها ، لا تدعو إليها حاجة الاجتماع ، وأنه أصبح واحدا فى جميع فلسفات العلم المتمدن ، حتى فلسفة الملاحدة ؟

إذا لم يكن للانسان وراء الشعور بحاجاته المادية ، عاطفة أرقى منها لها حاجات من نوعها تتطلب توفيتها ، فكيف يعقل أن يتعدى هذا الشعور المادى طوره ، فيصل الى آفاق أعلى مما لم يخلق له ، آفاق يعدها الماديون الذين ينكرون الضمير الفطرى ضارة به ، ومعطلة لتطوره ، كايثار الفقر على الغنى ، والزهد فى متع الدنيا ، والعزوف عن الشهرة وبعد الصيت ، والعزلة لبلوغ الدرجات الروحية العالية ؟

يعز على أصحاب الفلسفة المادية أن يعترفوا للانسان بضمير فطرى هربا من عزوه الى أصل روحانى فوق المادة ، وهم لا يعترفون بوجود سواها ، كأن الكون لا يجوز أن يكون فيه إلا ما تحس به حواسهم القاصرة . وقد أنكروا فى هذه السبيل القدرة المدبرة للكون ، والروح الانسانية ، وكل ماسوى التراب والصخور ، وإنى لا أشك فى أنهم يستطيعون أن يبنوا الكون بما فيه من العجائب ، والعقلية البشرية بما احتوته من البدائع ، ببضعة ألفاظ اخترعوها وسموها نواميس طبيعية . فهذه الفلسفة قد طعنت حتى لا تجد فيها مكانا لطعن ، ومزقت حتى لا تستطيع أن تصادف منها ما تمزقه ، ومن العجيب أنها مع هذا المَحْق كله لا تزال تميس مختالة فى بعض الرءوس !

محمد فريد وجدى

الاستعطاء بالالزام

دخل دعبل الخزاعى الشاعر على بعض الأمراء فقال : أصلح الله الأمير ، لا أقول كما قال صاحب معن :

بأى الخلتين عليك أثنى فانى عند منصرفى مسول
أبا الحسنى وليس لها ضياء علىّ فمن يصدق ماأقول
أم الأخرى ولست لها بأهل وأنت لكل مكرمة فعول

ولكنى أقول :

ماذا أقول إذا أتيت معاشرى صفراً يدى من عند أروع مجزل
إن قلت أعطانى كذبت وإن أقل ضن الأمير بماله لم يجمل
ولأنت أعلم بالمكارم والعلى من أن أقول فعلت مالم تفعل
فاختر لنفسك ماأقول فاننى لا بد مخبرهم وإن لم أسأل

وكتب حبيب الطائى الى احمد بن أبى دواد :

اعلم وأنت المرء غير معلم وافهم جعلت فداك غير مفهم
أن اصطناع العرف مالم توله مستكملا كالثوب مالم يعلم
والشكر مالم يستثر بصنيعة كالخط تقرؤه وليس بمعجم
ويفوتنى فى القول إكثار وقد أسرجت فى كرم الفعال فألجم

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٤ —

أسلفنا فى الفصل الأول من هـذه السلسلة أن الباحثين المحـدثين من الغربيين هم أكثر نزاهة وأعظم انعطافا الى الحقيقة من القـدماء ، وقررنا أن من يحيد منهم عن جادة الصواب فانما يهوى فى هذا الخطأ قسر إرادته بدافع الجهل أو السطحية ، لا بالتعصب وسوء النية كما كان القدماء يفعلون . وبرهنا على هـذه الدعوى برأى « البارون كارادى فو » الذى بسط فى إسهاب إلهيات القرآن ، وأثبت أن هذا الـكتاب قـد عرض لأعوص مشاكل الفلسفة : كالألوهية والوحدانية ، والقـدرة ، وتنزه الإله عن الإنسال ، ومخالفته لـكل من عداه ، وعلمه بكل شىء ، وعنايته الشاملة ، وكماله التام . وكمشاكل القضاء والقدر ، والحياة الأخرى والخلود فى النعيم والجحيم ، وما شاكل ذلك مما استأنسنا به فى ردنا على نظرية « رينان » الخاطئة التى أشرنا اليها فى الـكلمة الثانية من هذه الـكلمات .

والآن نتابع هذه الفكرة فنقرر أن بحوث الغربيين عن الاسلام فى تقدم يوشك أن يكون مطردا نحو الاهتداء الى الرشاد ، وفهم هذا الدين على حقيقته بفضل دراستهم العميقة لأصوله ومنابعه الجوهرية . ومن آيات ذلك أن الأستاذ « إميل ديرمانجيم » — وهو الذى أخذ عنه الدكتور هيكل باشا كتاب « حياة محمد » — يلاحظ « أن التسرع فى الأحكام قد حال زمنا طويلا دون دراسة علمية حقة لأصـول الاسلام ، وأن مجهودا جديا قد قام به فى القرن التـاسع عشر : « كوسان دى بيرسيفال » و « موير » و « موى » و « مرجيليوت » و « نولديك » و « أسبرينجير » و « اسنوك هورجرونج » و « دوزى » . وأحدث من هذا المجهود الذى قام به « كايتانى » و « لامانس » و « ماسينيون » و « مونتيه » و « كازانوفا » و « بيل » و « هوار » و « هوداس » و « مارسيه » و « أرنولد » و « جريم » و « جولد يزيهير » و « جود فروادييومبنين » . ويلاحظ كذلك أن بعض هؤلاء الاختصاصيين قد هووا مع الأسف فى الافراط فى النقد ، فكانت كتبهم — وهى لاتعتبر فى الحقيقة إلا طلائع للبحث — معاول للهدم ، وأنه هو شخصيا قد عول على أن يسلك طريقا وسطا بين الافراط والتفريط ، فيتتبع الرواية الى الحد الذى لا يتعارض فيه مع النقد الحر ، أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول كالمسعودى مثلا ، ولا يغالى فى الهدم كما فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الاسلام .

وقد سلك هـذه السبيل فوفق الى كثير من الحقائق ، وإن كان له هـو الآخر هفوات سنعرض لها فى حينها ، ولـكننا نكتفى اليـوم بأن نسجل هنا بعض أحاسن آرائه فى النبى

صلى الله عليه وسلم وفى القرآن . وتلك الآراء التى أدلى بها هذا الكاتب الممتاز يتعلق بعضها بمحمد صلى الله عليه وسلم إنسانا ، وبعضها به حكيما ، وبعضها به نبيا . واليك هذه الآراء :

محمد إنسانا :

نريد الآن أن نشير الى رأى الاستاذ « دير مانجيم » فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم الشخصية ، لا لأننا فى حاجة الى التدليل برأى كاتب أوربى على سمو هذه الأخلاق النبوية الى أقصى ما تسمح به الطاقة البشرية ، ولكن لنبين أن الباحث المحايد الدقيق إذا بذل أدنى عناية فى البحث انكشف له من الحقائق ما يبهر الالب بسطوعه ولمعانه . وهاك موجزا فى هذه الآراء :

« إن محمدا قد أبدى فى أغلب حياته اعتدالا لافتاً للنظر ، فقد برهن - فى انتصاره النهائى - على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال فى التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفوا الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء ، وحظر عليهم أن يهدموا البيوت ، أو أن يسلبوا الثمار ، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة ، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا فى حالة الضرورة القاهرة ، بل قد رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحا ماديا ، ويقول لهم : إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء .

« إن الغنائم الحربية كانت فى ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد ، بل يمكن أن يقال : إنها كانت — مع التجارة وتربية الحيوانات — هى الصناعة الوطنية العربية ، فأعلن محمد إباحتها لأتباعه نتيجة لضعفهم ، ولكنه حددها بقواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش . إنه قد حظر فى قسمة الأسارى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم . إنه لم يكن يستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاما ، ولكنه نجح فى أن يقومه فى نقط كثيرة . إنه هو شخصيا لم يكن إلا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريبا كجميع بنى جلدته فى عصره ، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لاحد لها ، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية ، وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية ، وهو فى هذا يقول : « كاد الحليم أن يكون نبيا » بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة عن أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه . إن إخلاصه لايمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك ، فان حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته إيمانا عميقا ، وأنه تقبلها — لابدون بطولة — كحمل يجب عليه أن يحتمل أثقل أوزانه . إن قوة عبقريته الانشائية واتساعها وذكاءه العظيم ونظره الصائب الى الحقائق ، وسيادته لنفسه وقوة إرادته وحكمته واستعداده للعمل وحياته الواقعية ، كل ذلك يمنعنا من أن نعتبر هذا الملهم المضاء البصيرة مصروعا أو معتوها ذا خيالات زائفة ، مادام قد ثبت أن الزيف فى مبدأ رسالته مستحيل القبول . فكيف يتصور أن ينقلب كاذبا فجأة ذلك الذى كان

نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الإله لدعواه ؟ وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله ؟ (١) » .

محمد حكيما :

قال : « إن محمدا كان رجلا مؤمنا بالعالم الروحانى . إنه ذلك الانسان الذى للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية ، والذى عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات ، والذى يرى أن النظام الروحانى هو النظام الأساسى ، بل إنه هو النظام الوحيد الذى يوجد حقا . إنه قبض على الحقيقة العميقة ثم صدع بين بنى الانسان باكتشافه . إن هذا القلب الخلو من كل كذب ، ومن كل ثقافة مزيفة ، ومن كل غرور ، قد استحوذ دفعة واحدة على الصخرة المتينة . (٢) وإذ كان حقيقيا (٣) بالمعنى الكامل لهذه الكلمة : « Réaliste » فقد كان نجاحه فى الحياة العملية حين وكلت إليه أعمال العالم الخارجى أتم وأكمل ، لأن المرئى هو (مينا) الساعة التى عليها يرتسم اللامرئى ، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية ، إذ ما هو أدنى ، صورة لما هو أعلى (٤) » .

محمد نبيا :

بعد أن لخصنا لك شيئا من آراء هذا الكاتب عن النبى صلى الله عليه وسلم كإنسان ثم عنه كحكيم ، وجب علينا أن نجمل لك آراءه عنه كنبى ، ولكن بعد أن نشير الى آرائه فى النبوة وآثارها فى الإنسانية بوجه عام :

« إن النداءات الداخلية هى لتاريخ الإنسانية أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشرى التى تسمح له بأن يتحرك ويؤدى مهمته فى الحياة ، فمن وقت الى آخر ترن دعوة ، وتسمع صرخة فى الليل ، وينادى صوت فى السكون ، فيهب إذ ذاك رجل قافزا من نومه ويسير دون أن يدرى الى أين يتجه بالضبط كابراهيم وإلياس ، ثم يستمر فى سيره بلا راحة ولا فتور ، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل . وبهذا يتكون سلام الانسانية فى سلسلة من الأفعال الحرة . . . وهكذا نهض محمد ليدعو بنى جنسه الى دين واحد هو دين الإله الواحد ،

(١) انظر صفحات ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٧ و ١٩٨ من كتاب « حياة محمد » لمؤلفه « دير مانجيم » .

(٢) هذا تصوير لحالة من يهتدى الى خير ما يعتمد عليه ، وفيه تشبيه بالغريق الذى يعثر فى وسط الخضم على صخرة متينة يتشبث بها فينجو من الغرق .

(٣) انقسمت المذاهب الفلسفية بازاء ما وراء المحسات الى ثلاثة أقسام : الاول مذهب الحقيقية ، وهو الذى يرى أن للكليات وجودا ذاتيا حقيقيا سبق وجود المحسات وبه قال أفلاطون . والثانى مذهب الاسمية ، وهو الذى يرى أن المفاهيم ليست إلا أسماء اعتبارية ، مسمياتها المحسات ، وبه آمن السوفسطائيون ومن نحا نحوهم . والثالث مذهب المفهومية ، وهو الذى يرى أن للمفاهيم وجودا ذهنيا انتزع من المحسات ، وبه قال ارسطو . والاستاذ « دير مانجيم » يرى أن نبى المسلمين من أنصار المذهب الاول ، وهو أسماها جميعا .

(٤) انظر صفحتى ٨٠ و ٨١ من كتاب « حياة محمد » لدير مانجيم .

وليوقظ جزءا من آسيا وأفريقيا ، وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكى يجدد بلاد فارس التى كان النعاس يشملها ، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات الخيالية من الحماس ومن الاعتقاد العارى عن الوحدة . . . إن الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمى الخيرة القاسية : كالشمس والمطر وكعواصف الشتاء التى تصيب الأرض العربية لتكسوها بالخضرة فى بضعة أيام ، فبثمارهم ينبغى أن يحكم عليهم . إن أفضل براهين رسالاتهم هى تلك العقول المطمئنة والقلوب المفعمة بالسكينة ، والارادات القوية ، والأوجال المستحيلة الى هدوء ، والأمراض الأخلاقية التى أبرءوا الانسانية منها ، والصلوات التى تصعد الى السماء النقية .

« إنهم قد هوجموا بالكبرياء العالمية ، وهم بدون معتمد وبدون قوى مادية ، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سر أعلى أنواع الحرية الذى يمكن أن يلخص فى هذه العبارة : لأن تعصى الناس خير لك من أن تعصى الإله الذى أمامه وحده يجب أن يسجد الجميع متساوين .

« إن محمدا كان يجهل كل ما ليس علما مطلقا ، وكان أميا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، وليس معناها — فيما أرى — العامية أو الخلو من التأدب ، وإنما الأمى هو بالأحرى الرجل النقى الذى جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة . والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرعة ، ومع ذلك فقد نهض لكى يدعو العلماء الى أن يفهموا ما يقولون ، وليقوم الطرق الملتوية التى يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء . إن الناس حالة سماعهم خطبه الملهمة ، وكناياته الملتئمة مع عصره قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم ، وخضعوا للإله فرأوا كيف يستطيعون أن يهدوا وجودهم المؤقت . وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لا يستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه .

« إن محمدا قد جاء فى عصر يعتبر أحد عصور التاريخ المظلمة ، إذ أن جميع المدنيات من حدود الجول إلى أقاصى الهند كانت منهارة أومضطربة ... إن دعوة محمد قد أوجدت فى جزيرة العرب تقدما غير قابل للاعتراض ، سواء أكان ذلك فى دائرة الأسرة ، أم فى دائرة الجماعة ، أم فى الناحية الصحية ، فإن حظ المرأة قد تحسن ، وإن الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت ، وقد حرم أيضا إكراه الاماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن كما كان متبعا فى ذلك العهد « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » .

« إنه قد أباح الرق ، ولكنه نظمه وضيق حدوده ، وجعل العتق عملا خيرا ، بل كفارة عن بعض المعاصى ...

« إن أبا ذر دعا بلالا يوما بابن الأمة ، فقال له النبى : إنك لاتزال تشعر بشعور الجاهلية الأولى .

« إن الإلهيين والأخلاقيين والفقهاء والمتنسكين قد وجدوا فيما بعد فى دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم ، فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى ، وهو أن الإله هو المحور الرئيسى فى كل شىء . لقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتناقضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت الى النبى ، بل إن المشكلات الميتافيزيكية العظمى التى لم يكن محمد يحب أن يلح عليها قد عولجت فيما بعـد استنادا على تلك الأحاديث نفسها . ففيما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد أن الجبرية وخصومهم القدرية قد فتشوا عن أدلتهم فى الكتاب والسنة ، وهذه المسألة قـد بسطت بعد ذلك أمام المدرسيين المسيحيين كالقديس توماس ، وعند بعض المحدثين كبوسويه والجانسينيين ، والمولينيين ، بنفس العبارة التى بسطت بها عند العرب ، وحلت بنفس الحلول التى وضعوها لها . وفى الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الالهيين الكاملين ويعلن أن كل شىء آت من الاله ، ولكنه يصرح أيضا بأن الشر وليد الارادة الانسانية الفاسدة . وعلى الجملة : يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصا لحرية الفرد أو عليها . وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد على حلقاتها الوسطى . فاذا كان المسلمون — وعلى الأخص فى عصور التدهور — قد أبدوا انعطافا نحو الجبرية الشرقية ، فانه ليس فى الاسلام ما يضطرهم الى هذه الجبرية ، على عكس ما كان « ليبنيتز » يعتقد مسايرة للرأى العام ، إذ حين سأل أحد الأعراب محمدا عما إذا كان يكتفى فى حفظ ناقته بالتوكل على الله ، أجابه قائلا : « اعقلها وتوكل » . وحينما قيل له : إنه مادام أن كل شىء معلوم لله مقدما ، فان العمل عبث ، قال : كلا ! « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وهذا معناه : « ساعد نفسك تساعدك السماء » . وقال كذلك : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا (١) » . وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق فشهد لها بالحكمة (٢) » .

القـرآن :

لننظر الآن فى رأى هذا الكاتب فى القرآن وإعجازه بعد أن ذكرنا لك رأيه عن النبى ، قال:

« إن كل نبى يجب أن يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته . وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهـو يختلف عما يأتى به الأولياء ، ويسمى كرامة . . . والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة (٣) ، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان الى اليـوم لغزا لم يحل ، وهما يضعان من يتلونه — ولو كانوا أقل الناس تقوى — فى حالة خاصة من الحماس .

---

(١) يظهر أن هـذه الحكمة هى للامام على كرم الله وجهه لا للنبى صـلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه ديرمانجيم . (٢) انظر صفحة ٢٧١ وما بعدها من « حياة محمد » لدير مانجيم . (٣) نحن نعلم أن القرآن هو المعجزة الاساسية ، لا الوحيدة للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكننا كثيرا ما نصادف عند المستشرقين هذا الجزم بان نبى المسلمين اعترف هو نفسه بانه ليس له معجزة أخرى غير القرآن . ولست أدرى أين عثروا على هذا الاعتراف

لقد تحدى محمد الأناسى والجن أن يأتوا بمثله . وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية ، فإن محمدا كان يحتقر الشعراء ، ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم ، ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين (١) » .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحتى ٢٦٢ و ٢٧٧

فى الحرب وما اليها

كثر الكلام فى الحرب فى هذه الآونة ، فيحسن أن نورد للقراء بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، وما قاله قادة المسلمين فى ذلك :

قال الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » يريد أن يكونوا متصافين بنظام تام لا عوج فيه ، ومتساندين فى أشخاصهم ووحداتهم كأنهم بنيان مرصوص لا يستطيع العدو أن يخترق صفوفهم .

وقال النعمان بن مقرن الصحابى لرجاله فى وقعة من وقائعه : إنى هاز لكم الراية ، فليصلح كل رجل منكم من شأنه ، وليشد على نفسه وفرسه ؛ ثم إنى هاز لكم الثانية ، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه ، وموضع عدوه ، ومطار فرصه ؛ ثم إنى هاز لكم الثالثة وحامل فاحملوا على اسم الله .

فى النعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تكاملت الخيل ، وتطاع الصحابة التقدم عليها ، لأقلدن أعنتها رجلا يكون غذاء لأول أسنة يلقاها .

وقال على رضى الله عنه : انتهزوا الفرصة فانها تمر مر السحاب ، ولا تطلبوا أثرا بعد عين .

وقد كره قواد المسلمين التصايح فى الحرب وعدوه فشلا ، فكان جنودهم يقاتلون سكوتا . لذلك قال عتبة بن ربيعة من صناديد المشركين لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر المسلمين : أما ترونهم خرسا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الحيات ؟

فى ذكرى المولد النبوى

الخطبة التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد العدوى فى احتفال الأزهر بذكرى المولد النبوى ، وقد فاتنا أن ننشرها فى حينها فنتدارك ذلك بنشرها فى هذا العدد لنفاستها وروعة بيانها ، قال فضيلته :

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد إمام المتقين وسيد المصلحين .

وبعد : فاذا احتفل الأزهر فى هذه الليلة بذكرى المولد النبوى ، فإنما يحتفل بذكرى مصلح غيّر وجه الأرض ، وحوّل مجرى التاريخ ، وسعدت به الملايين من البشر ، وظهر به فضل الله على خلقه : « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

إذا احتفل الأزهر بهذه الذكرى فإنما يحتفل بميلاد ميمون على الخلق ، وعهد مبارك .

ونظرة واحدة فيما كان عليه البشر قبل ميلاد الرسول الأعظم ترينا مقدار الاصلاح المحمدى .

فقد كانوا فى ظلام حالك ، وجاهلية عمياء . فمن عقائد باطلة ، الى أخلاق فاسدة ، الى صلات مفككة ، الى فوضى فى الاجتماع والسياسة مروعة .

ومن عبادة للاصنام ، الى إنكار للبعث ، الى وأد للبنات خشية العار ، الى قتل للأولاد مخافة الفقر ، الى إضرام لنار الحرب لأوهى الأسباب .

دع ولوعهم بالخمر ، وكلفهم بالميسر ، وهتكهم للأعراض ، وتقطيعهم للأرحام ، وإساءتهم الى الجار ، وظلمهم لليتيم .

فكانت مهمة سيدنا محمد بن عبد الله شاقة : أخذ يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم بالعلم النافع ، ويدعوهم للعمل الصالح والخلق الطيب ، وينشر فيهم العقيدة الصحيحة .

يعلمهم التوحيد ، ويريهم ضلال ما كانوا عليه من عبادة الأصنام ، وأن التوحيد هو قضية المنطق ومقتضى العقل : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لايسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشية مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » .

« أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » .

أراهم أن الإيمان بالبعث والجزاء أصل أتت به كل الشرائع ، ولا غنى للناس عن هذه العقيدة ، حتى يعدّوا لذلك اليوم عدته ، فيصلحوا أعمالهم وأخلاقهم : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » .

وأقام لهم الدليل على أن عملية البعث ماثلة بين أيديهم تتكرر أمامهم كل يوم ، والبعث فوق ذلك مقتضى الحكمة والعدل الإلهى ، فإن الحكمة فى أن يكون للناس حياة وراء هذه الحياة ينتصف فيها المظلوم من الظالم ، والضعيف من القوى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

وأراهم بعد ذلك أن العمل الصالح والخلق الطيب لا غنى عنه بعد الايمان بالله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . والقرآن الكريم مملوء بالدعوة الى الخلق والعمل الصالح ، ففيه أدب المؤمن مع ربه ، وأدبه مع رسوله ، وأدبه مع آبائه وقرابته ، وأدبه مع المسلمين ، وأدبه فى دخول البيوت والمنازل ، وأدبه فى الدعوة الى الله ، وفيه غير ذلك من الآداب .

ألهذا الإصلاح فى العقيدة والعبادة والخلق قامت قريش وقعدت ؟ ولنشر ذلك العلم والعرفان حاربت رسول ربها وبأنعم الله كفرت ؟ ومن جراء ذلك العمل الذى قام به محمد وأصحاب محمد أخذت تؤلب عليه وعلى حزب الحق ! ولكن الله لم يدعه للهموم تستولى عليه ، ولليأس يتسرب الى قلبه ، بل أراه أن أولئك العقبات التى تعترض الداعى لا غنى له عنها ، وهاتيك الشدائد التى تنزل بالمصلح شنشنة قد عرفت عن المفسدين لا يستطيع المصلح أن يفرّ منها مادامت مهمته أن يحول بين النفوس وشهواتها ، والقلوب وأهوائها ، ليرسم لها طريقا غير الطريق ، ويخلق الناس خلقاً جديداً ، وينشئهم نشأة صالحة . لذلك أمره الله أن يعتصم بالصبر ، ويأخذ بالعفو ، لأن العاقبة للتقوى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإمّا ينزغنّك

من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون » . « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سُلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » .

مازالت قريش تعنت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتؤذى أصحابه ، وتذيقهم العذاب ألوانا ، ولا سيما الضعفاء منهم ، والله يأمره بالصبر ، ويدعوه الى الصفح ؛ حتى بلغ الإعنات غايته ، فحاربوا أصحاب محمد فى الأرزاق وقاطعوهم فى وسائل الحياة ، ودبروا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مؤامرة ليقتلوه ، وكان تدبير الله فوق تدبيرهم : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

أذن الله له فى ليلة المؤامرة بالهجرة إلى المدينة المنورة ، فنجا من مؤامرتهم ، ووجد فيها الأنصار الذين آزروه وأيدوه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وهناك أخذ ينشر دعوته ، ويتمتع بحريته فى الدعوة الى الله كاملة .

غير أن فريقاً من أهل الكتاب دخل عليه الشرك فى العقيدة كما دخل على مشركى العرب فى مكة ، وكان فيهم من يتغالى فى رسول الله عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حتى أخرجه من صف البشر ، وفيهم من تغالى فى العزير وقال إنه ابن الله ، فكان من الخير أن تصحح هذه العقيدة « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذَ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . « يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ؛ إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبرْ فسيحشرهم اليه جميعا » .

أخذ الرسول صلوات الله عليه وسلامه يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويؤلف بين الأوس والخزرج ، وقد طحنتهم الحروب ومكثوا ماينيف على المائة سنة متناحرين ، فكان حظه فى ذلك النصر والظفر : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . نعم هى آية من أكبر آيات الله لذلك النبى الأمى العربى : أن يجمع الله به

القلوب المختلفة ، ويستل منها السخائم ، ويطهرها من الاحقاد والضغائن : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولـكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » . ولا عجب فقد أرسل بكتاب أنزله خالق النفوس ، العليم بأمراضها ، الخبير بوسائل علاجها : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

مكث صلى الله عليه وسلم بالمدينـة المنورة تسع سنين وتسعة أشهر يبلغهم فيها التشريع الدينى فى العبادات ، كالصوم والحج ، والتشريع المالى كالزكاة ، ويضع لهم نظام الحـكومة على أساس الشورى ، وتشريعه فى الحرب والسلم ، وأن الحرب لم يـكن غرضا من أغراض الشرع بل هو ضرورة اجتماعية غايتها دفع العدوان عن العقيدة والنفس والمال .

وهناك وضع أصـولا للمعاملات عادلة ، ونظما للبيوت حـكيمة ، وقواعد للمواريث رحيمة . وناهيك بما أعطاه للبنت : جعل لها الحق المالى فى الميراث ، وكذلك فى البيع والشراء والوصية والهبة ، وما الى ذلك ، بعـد أن كانت تورث ولا ترث ، وتملك ولا تملك ، وتباع وتشترى كالسوائم . ووضع نظاما للعقوبات هو فى نظر بعض الناس قسوة ، ولـكنه فى واقع الأمر رحمة وحكمة .

وفى كل يوم تقوم الأدلة على أن المدنية الحاضرة فشلت أمام مشاكل الحياة حتى فى أعرق بلاد العالم مدنية ، فـلم تعد صالحة لعلاج الجرائم وأمراض الاجتماع وأهواء النفوس ، وكلما تقدمت المدنية شوطاً سبقتها الجرائم أشواطاً .

وفى الحق أن الناس لا يصلحون إلا إذا اعتصموا بكتاب ربهم وهدى رسولهم ، وتمسكوا بسنة الراشدين من خلفائهم ، وأنه لا غنى للناس عن الوازع الدينى والإصلاح المحمدى ، فقد سعدت به الأمة أيام أن أخذته بقوة ، وتلقفته بحرارة . سعدت بذلك الإصلاح حينما اعتبرته كلا لا يقبل التجزئة ، ودينا لله لا يحتمل التفريق . فالصوم والصلاة والزكاة والحج دين الله ، ونظامه العادل الذى وضعه فى المعاملات دين الله ، وأصله الذى رضيه للحكومة الإسلامية وهو الشورى دين الله ، وعقوبته التى رضيها مؤدبة لعباده وهو الرحيم بهم دين الله .

والأمل فى الله كبير أن يوفق الأزهر للقيام بهذه الدعوة العادلة لينشرها فى البلاد النائية كما نشرها خاتم النبيين بالحـكمة والموعظة الحسنة ، مسلحاً بسلاح العلم واللغة بعد الثقة بالله ، مستنجزاً وعد الله لجنده بالنصر ولحزبه بالغلب : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » فى ظل حضرة صاحب الجلالة مليـكنا المحبوب الملك فاروق الأول ، أبقاه الله ناصراً للدين معزاً للحق ؟

محمد أحمد العدوى

من سوانح المولد الشريف

الاسلام ، فى الحرب والسلام

أعد ذكر سلع والعقيق وما ضما … فانى أشم المندل الرطب من ثما

عهاد أناخ المجد فيها ركابه … وأرسى الهدى فيها معاقله الشما

بنا من هواها صبوة عامرية … جرت نفسا يحيى ، وخالطت العظما

اذا ما ذكرناها ، ففاح أريجها … ذكرنا العلاء المحض ، والشرف الضخما

مرابع عدنان ، وآطام يعرب … ومدرجة الاسلام ، مفخرها الأسمى

حبا بينها طفلا ، وأشرف يافعا … وأدرك موفور الجلالة فاعتما

وأشرق فى أفق البسيطة طالعا … على المعتدى غرما ، وللمجتدى غنما

رمى بجلال الحق أعداء نوره … فكم قاد مستعصى العنان ، وكم أصمى

سلوا الشرق هل أكدى سلوا الغرب هل أسا … سلوا بأياديه الأعاريب والعجما

سلوا موقدى الأضغان حربا مبيرة … ألم ينصر الاسلام فى العالم السلما ؟

ملكنا فأسجحنا ، فلما تملكوا … غدا العدل فى أقطار ساستهم وهما

سيوفَ رجالى ، أين مالت أكفهم … ألا نجدة !! سيل المخاوف قد طما

عزيز على الاسلام أن يَصفَر الحمى … وقد قام فى الدنيا قيامتها العظمى

***

بنى الأزهر الموفى على قمة العلا … دعا الصارخُ العريان ، فاستشعروا العزما

دعوا المجد تسديه الأيادى ، فانما … أخو المجد من يحوى مجادته رغما

دعيتم : حماة الدين ، فاحموا ذماره … والا فقد خان الحقيقة من سمى

***

خذوا شرعة الاصلاح عن نهج دينكم … فما جاوز الحسنى ، ولا أخطأ المرمى

وجدّوا ، فقد جد الزمان ، وانما … ينال الأمانى ، من تشمر واهتما

***

أصبتم بشيخ الدين نهجا مسددا … يؤم بكم فى طرقه خيرُ من أما

فسيروا على اسم الله تحت لوائه … جنودا ، الى العلياء ، واطلبوا النجما

وفى عرش فاروق عماد وعصمة … رعى الله فاروقا ، أبر الورى حكما

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

أطروفة أدبية

أين الزوجة ؟ !

أَخلقَ المهاة ، وَخلق النمر وقلب الذئاب ووجه القمر ؟
وعرس تجر الى بعلها مأتم تبقى بقاء العمر
فيخلع فيها رداء الشباب ويلبس فيها رداء الكبر
أرى الغانيات كثيرا ولا أرى بينهن ذوات الخفر
وماذا يفيد جمال الزهور إذا لم تفح بأريج الزهر
إذا لم تكن للغوانى قلوب حسان فلا كان حسن الصور
ولا كان يوما بياض الجبين ولا كان يوما سواد الشعر
وكم خاطب غادةً حسنها يسر وآدابها لا تسر
فنقب على من سقاها الحياء لتجنى منها شهى الثمر
وإياك إياك زور الجمال فبعض الجمال سراب يغر
وبعض النساء شبيه السباع وبعض الرجال شبيه الحمر
وكم للكواعب من مقلة تهز قلوب ضعاف النظر
وليس بها غير حق الخداع وليس بها غير زور الحور
وكم من وجوه علاها الطلاء فضاعت ، وأعيت حديد البصر
وما الزهر من عمل العاملين كزهر بأعلى الروابى نضر
ولا صبغة الله سبحانه كصبغة عبد له مفتقر

***

خبرتك يا عصر هذا الجمال طويلا وعندى عنك الخبر
فما أنت إلا غريب الدهور وما أنت إلا عجيب العصر
أتيت وكلك شر لنا وتأتى العصور بخير وشر
فهل فيك من أمل يرتجى وهل فيك من زوجة تنتظر ؟ !

محمد الأسمر

حماية الآداب على الشواطىء

لقد ضج حماة الآداب العامة ، وحفظة الكرامة الاجتماعية ، من تهاون بعض المترددات على الشواطىء فى التصون الذى يجب أن يراعى فى مجال مكشوف للأنظار يغشاه البار والفاجر من جميع الطبقات . وقد حملت الصحافة التى يعنيها الاصلاح الاجتماعى حملات صادقة على المقصرين فى وضع حد لهذه العدوانات على الآداب العامة ، وقد حاولت الادارة بقدر ماسمحت لها به الأحوال أن تضع نظاما للشواطىء يقطع شأفة هـذه الشكايات ، ويكفل حفظ كرامة السيدات ، ولا تزال جادة فيه .

فإن كان يجب علينا أن ننوه بهمة رجال كان لهم القـدح المعلى فى استنجاز وضع هـذا النظام ، فإننا نذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون ، فإنه منذ توليه مشيخة المعهد الاسكندرى الدينى لم ين فى الدءوب وراء تحقيق هذه الأمنية ، فأكثر من مقابلة صاحبي السعادة الهمامين محافظ الاسكندرية ورئيس المجلس البلدى ، واشتغل معهما فيما يجب أن يكون عليه ذلك النظام ، وما يتخذ من الوسائل لتنفيذه . وإننا ننشر ما كتبه فضيلته لسعادة محافظ الاسكندرية من الآراء لتحقيق هذا المشروع العظيم ، ومنه يرى القارىء أنه ملم بالصعوبات التى تعترض ماهو بصدده فى مدينة تغص بالأجانب كالاسكندرية ، فلم يفرط حتى يجعل الأمر غير قابل للتنفيذ ، ولم يفرّط حتى يتركه حبرا على ورق .

وإنا لننشر هنا آخر كتاب له الى سعادة محافظ الاسكندرية ، وفيه أصول النظام الذى كلف باقتراحه ، فاليك :

حضرة صاحب السعادة الأجل محافظ الاسكندرية :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد : فانى بمناسبة حلول موسم الصيف وارتياد المصطافين مصايف الثغر ، أتقدم باقتراحات لصيانة الآداب فى الحمامات وشواطئها ، ولست أزعم أن هذه المقترحات كفيلة بتحقيق الغرض المنشود ، أو بحسم الداء ، ولـكن بقدر ما استطعت بعـد البحث مع ذوى الاختصاص جمعت تلك المقترحات ، وأرجو أن تنال توفيقا وتحقيقا لما يرتجيه كل حريص على الأخلاق وسمعة البلاد ، والمقترحات هى :

١ — تخصيص حمامات للسيدات مجانا فى المناطق القريبة ، كالشاطبى والابراهيميـة وجليمونوبلو ، أو تخصيص زمن للسيـدات صباحا كما هو متبع فى بعض المصايف الأخرى مع وضع رقابة على هذه الحمامات لوقايتها من عبث الشبان ، بواسطة البوليس ، وذلك لإيجاد فرصة للأسر الحريصة على صيانة كرامتها ، وشرف آدابها من اختلاط الجنسين وعبث المستهترين

٢ — يلزم إيجاد نقطة دائمة من البوليس فى كل بلاجات الثغر التسعة المعروفة، بشرط أن تكون النقطة البوليسية ثابتة لا تنتقل من مكانها، وربما يكفى فى كل بلاج كونستبل واحد ومعه جنديان لمعاونته .

٣ — تعديل لائحة الآداب الخاصة بالشواطىء بما يمنع أى منظر مخالف للآداب العامة سواء فى الماء أو على الشاطىء، ويترك هذا التقدير لرجل بوليس الآداب الذى لابد أن ينتقى ممن عرفوا بشرف السيرة وحسن السمعة .

٤ — ينص فى اللائحة على أن يخول للبوليس سلطة إزالة أى كبينة استحمام أهلية تحدث فيها أمور مغايرة للآداب، ويكون ذلك عقب إنذار يوجه الى ساكن الكبينة، وتكون الإزالة على نفقة صاحبها .

٥ — تقفل الشواطىء جميعها، وتخلى الكبائن من جميع ساكنيها وقت الغروب مباشرة .

٦ — لابد لضمان الحالات المقترحة من بوليس نسائى مختلط، ولا بد أيضا من التعاون الوثيق بين بوليس آداب البلدية، وبوليس آداب المدينة .

ذلك ما رأيناه حتى الآن، نقدمه لسعادتكم تنفيذا لرغبتكم من تقديم المقترحات للبحث فيها والعمل بما فيه المصلحة، ولسنا نطمع فى أن هذه المقترحات تحسم الداء كما قلنا، ولكننا نأمل فى تلطيفه، وتخفيف وقعه على النفوس الكريمة .

وختاما نشكر لسعادتكم اهتمامكم بالأمر، وغيرتكم المعروفة، وسلام الله عليك وتحيته من المخلص ؟

محمود أبو العيون
شيخ علماء الاسكندرية

لا بؤس ولا تباؤس

قال بعض الظرفاء : كل ما اشتهت نفسك، والبس مايلبسه أبناء جنسك .

وقد اعتذر رجل ليس فى قدرته لباس حسن فقال :

ياهذه كم يكون اللوم والفند	لا تنكرى رجلا أثوابه قدد
إن يمس منفردا فالسيف منفرد	والليث منفرد والبدر منفرد
أو كنت أنكرت طمريه وقد خلقا	فالبحر من فوقه الأقذاء والزبد
إن كان صرف الليالى در بزعته	فبين طمريه منه ضيغم لبد

التشريع الاسلامى

وما رسمه للحياة من مُثُل عُلْيا

جاء الإسلام والناس فى جهالة عمياء، وضلالة شاملة، وتنكّب عن طريق الحق، وتشبث بأهداب الباطل، واتباع لحماقة الهوى، وابتعاد عن هداية العقل.

فمن تأليه للأصنام، وعبادة للأوثان، وتعظيم للأنصاب، واتخاذ للطواغيت — الى استقسام بالقداح، واعتقاد فى الكهانة، والعرافة، وزجر الطير والعيافة.

ومن تقديس للموروثات والتقاليد، وثقة فى الخرافات والأوهام، وانحطاط فى النظر والفكر، وتعويل على الأقاصيص والأساطير — إلى عصبية قبلية، ونعرة جنسية، وتفاضل بالأحساب، وتفاخر بالأنساب.

ومن فَهْم للأخلاق الفاضلة على غير وجهها، وإسراف فى سوء تقديرها، وإباحية مطلقة، وتبذير لا حدّ له — إلى أكل الميتة، وإتيان الفواحش، وقطع الأرحام، وإساءة الجوار، وقسوة فى الانتقام، وإفراط فى الأخذ بالثأر، واعتداء القوى على الضعيف، وشنّ الغارات لأقل حَدَث، وأتفه سبب.

نقول: جاء الإسلام وحالُ الناس على ما وصفنا من طغيان الجهالة، وشيوع الضلالة، وانتشار المنكرات، فلم تقتصر مبادئه السامية، وقوانينه الوافية، على أن تقرر من النظم، وتسنّ من الأحكام ما ينتشلهم من مهاوى الرذيلة، ويقضى على سوء أثرها، وما يخرجهم من ظلمات الجهل، ويبدد سحبه الكثيفة، بل رسم من محكم التعاليم، وأنشأ من أقوم المناهج، وأهدى السبُل، ما هو أعلى مَثَل فى كل فكرة نادى بها، وكل دعوة دعا إليها، وما هو أكبر شاهد له على أنه خير دين تعبّد الله به عباده، واختتم به شرائعه الأولى، وجعله دستورا كاملا متسعا لشئون الناس جميعا، وشاملا لكافة حاجاتهم، وصالحا لكل زمان ومكان.

***

اتجهت التعاليم الإسلامية فى تشريعها ثلاثة اتجاهات رئيسية:

الاتجاه الأول: العقائد، فأسسها الإسلام على أوطد دعائم، وأعلى مُثل فى التوحيد الخالص، والألوهية الحقة التى لا يشوبها شىء من الشرك، ولا يخالطها أى نوع من التعدد، ... تشعر بالتعدد.

انظر إلى القرآن الكريم ، تجده يقرر فى كثير من آياته ونصوصه وحدة الألوهية ، ويبطل التعدد ، ويهدم الشرك من أساسه ، قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ، وقال : « وما من إله إلا إله واحد » ، وقال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ».

ثم انظر إليه فى آيات أخرى تجده يقرر شمول الألوهية وعمومها وإحاطتها ، ويبين أنه تعالى ليس إله قبيلة من القبائل ، ولا إله أمة من الأمم ، ولا إله عنصر من العناصر ، ولا إله معنى من المعانى ، كالإنس والجن والملائكة ، وكالخير والشر والجمال ، بل هو إله كل شىء ، ورب كل موجود ، وأن جميع ما فى الكون من أسرار ومظاهر ، وكل ما يحتويه من معالم ورسوم مملوك له تعالى ، وصادر عنه ، ومسخر بأمره ، وأنه قادر على كل شىء ، وأنه قد أحاط بكل شىء علما ، قال تعالى : « الله ربكم ورب آبائكم الأولين » وقال : « لله ما فى السموات وما فى الأرض » وقال : « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره » وقال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه » ، وقال : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون » ، وقال : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

وهكذا حيثما تتبعنا آيات القرآن الكريم ، نجد أنها قد اهتمت بأمر العقيدة اهتماما عظيما ، وركزتها فى التوحيد الصرف ، ووصف الله تعالى بكل كمال ، وتنزيهه عن كل نقص ؛ كما أنها قد اهتمت أيضا بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى ، وبما يكون فيها من مسئولية ، وبما يلقاه الإنسان فيها من ثواب أو عقاب جزاء على ما قدمت يداه فى دار الدنيا من أعمال ، قال تعالى : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ، ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

* * *

الاتجاه الثانى : محاسن الآداب ، ومكارم الأخلاق ؛ فقد عنى الاسلام بها عناية فائقة ، وحث عليها حثا شديدا ، وطلب الى المسلمين أن يتخلقوا بأنبلها ، ويأخذوا بأفضلها ، ويخالقوا الناس بأحسنها وأجملها ، وأن يكونوا جميعا أمثلة حية ، وصورا ناطقة للعدل والإحسان ، والوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدائد ، والعفو عند المقدرة ، والشعور بالواجب ، وعزة النفس ، وعلوّ الهمة ، وطهارة الضمير ، وما الى ذلك من الخصال الجليلة ، والخلال الكريمة ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وقال: « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ، وقال : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

وقال : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » وقال : « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

فهذا النمط العالى من التهذيب الكامل ، والأدب السامى ، والخلق الرفيع ، هو الذى دعا إليه الاسلام ، ورغب فيه ، وحرصت عليه تعاليمه ، وأخبر نبيّه صلى الله عليه وسلم أنه ما جاء إلا لإتمامه وإكماله ، فقال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

***

الاتجاه الثالث : الأعمال المتعلقة بأفعال المكلفين ، فقد شرع الاسلام منها ما هو خير مظهر من مظاهر الانقياد لله تعالى ، والاخلاص له ، والاقرار بنعمه والشكر عليها ، وما هو أبلغ تعبير عما يكنه العبد فى نفسه من عاطفة الإجلال والتعظيم لخالقه ، كما شرع ما يعتبر — بآثاره ونتائجه — أرقى نظام ، وأكفل وسيلة لمساعدة الفقراء والمعوزين ، والترفيه عنهم ، وللمساهمة فى مصالح المسلمين العامة ، والقيام بأعباء ما تتطلبه حالة الجماعة ، وذلك كفريضتى الصلاة والزكاة ، وما إليهما من بقية ما شرعه الاسلام من أحكام وأعمال كثيرة ، تختلف فى صورتها وأدائها باختلاف الغرض المقصود منها ، والحكمة الداعية الى تشريعها ، وآيات القرآن الكريم فى هذا الصدد كثيرة مشهورة ، لاتحتاج الى إيرادها وذكرها .

***

من مجموع هذه الاتجاهات الثلاثة التى ألمعنا إليها فى وجازة وتلخيص ، تتجلى دقة التشريع الاسلامى ، وتظهر متانة أصوله ، وقوة تعاليمه ، ويتبين فى وضوح أنه فى كل ناحية من هذه النواحى الأساسية ، قد أتى بأرقى النظم ، ورسم أعلى المثل ، ووضع خير الأسس وأتمها ، موافقة لطبيعة العمران ، وروح الاجتماع .

ولا غرو فى ذلك ، فهو يرافق الانسان فى جميع أطواره ، ويتعهده فى كل أحواله بالتربية والتهذيب ، ويعلمه فى كل مرحلة من مراحل حياته كيف ينظم شئونه ، ويدبر أموره . فعلاقة المرء بربه يضع لها أقوى الروابط ، وأوثق العرا ، وحياته البيتية وما يتعلق بها من زيجة ونظام أسرة ، وتربية أولاد ، يؤسسها على ما يكفل لها السعادة ، ويضمن لها الطمأنينة والراحة ، ويجعل جوها نقيا صافيا ، لا يلوح فيه شىء من قتامة الظنون ، وكدورة الريب والشكوك .

ووسائل الكسب والحصول على المال ، يبين له طرقها المشروعة ، وأبوابها التى لا ضرر فيها ولا ضرار ، ومواردها التى لا غبن فيها ولا اعتداء .

وصلاته الاجتماعية العامة والخاصة يبنيها على أمتن القواعد ، وأعظمها ثباتا واستقرارا ،

ويقيمها على ضمان الحقوق المتبادلة ، ورعاية المصالح المشتركة ، والتزام الحريات المقررة ، وينوطها بروح المساواة العادلة التى لا استبداد فيها ولا استذلال ، والتى لا فضل فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل بارشادات الاسلام .

وهكذا لم يدع هذا التشريع الوافى الكامل صغيرة ولا كبيرة من شئون الأفراد والجماعات إلا وقد أنشأ لها من النظم ، وشرع لها من الأحكام ، ما هو خير كفيل بسعادة الناس وهناءتهم فى الدنيا والآخرة .

وبعد : فهذا إجمال نرجو أن نوفق الى تفصيله فى مقالات تالية ، إن شاء الله تعالى ؟

فكرى ياسين
المدرس فى كلية الشريعة

الوقاحة لؤم

قال أديب : الوقاحة فى الرجل تدل على لؤم نجره ، وخساسة قدره ، وقلة خيره ، وكثرة شره

وقال شاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد ... إلا تكامل فيه الشر واجتمعا

وقال غيره :

من لم يكن عنصره طيبا ... لم يخرج الطيب من فيه
كل امرئ يشبهه فعله ... ويرشح الكوز بما فيه
أصل الفتى يخفى ولكنه ... من فعله يظهر خافيه

وقد ليم بعض الوقحاء على الوقاحة فقال : الوجه ذو الوقاحة يفىء على صاحبه الانفال (أى العطايا) ، ويفتح له الأقفال ، ويلقطه الارطاب ، ويلقمه ما استطاب . ثم أنشد :

إذا رزق الفتى وجها وقاحا ... تقلب فى الأمور كما يشاء

هذا صحيح ولكن فى الأمم التى يكثر فى رجالتها الانحرافات الخلقية ، فتراهم إذا آنسوا من واحد منهم وقاحة بادروا الى إكرامه ، وبالغوا فى الاحتفال به ، خشية منهم أن ينبرى لهم فيكشف عن مساوئهم ، ولو كانوا على الجادة القويمة لما خشوا له بأسا ولألقموه حجرا .

الاراء العالمية فى الاسلام والمسلمين

الصراع بين الجنسين فى البلاد العربية

فتنة المدنية الغربية تمتد الى أقصى بلاد المغاربة :

نشرت جريدة (لير نوفيل) الفرنسية فى عددها الصادر فى ٢٦ مايو الماضى تحت عنوان « النساء المسلمات فى طرفى ممتلكاتنا بافريقيا الشرقية » ما تعريبه :

« كان شمال أفريقا الى الفتح الاسلامى يشاطر الغرب مدنيته بواسطة اللاتينية . فإن (تيرينس) المؤلف الهزلى الكبير كان أفريقيا . وقد ولد الامبراطور الرومانى (سيتيم سيفير) بمدينة سبتيماجرا من ليبيا . وكان القديسان أجوستان وسبريان من بربر تونس أو الجزائر . ولم تنقطع صلة شمال أفريقا بالغرب إلا من عهد أن صار إسلاميا .

واليوم بعد وجودنا مائة سنة فى الجزائر وستين فى تونس تظهر فيهما باكورة نهضة ترمى الى التشبه بالغرب ، ذات صبغة فرنسية . فان نخبة السيدات المسلمات يتكلمن الفرنسية الى جانب العربية ، ويختلطن بطلبتنا وأطبائنا ومحامينا وصحافيينا . أما سياستهن حتى مع ما هى عليه من مناقضتها للسياسة الفرنسية - وهذا فى الظاهر دون الباطن وقد تأيد ذلك فى الحوادث الأخيرة - فانهن يستعملن لنشرها أساليب الدعاية الغربية . والأمر على هذه الوتيرة فى مصر وفى سورية .

« أما فى مراكش فيمكن مشاهدة عقلية المرأة المسلمة على حقيقتها لأنها حديثة العهد بالاستعمار الفرنسى ، إذ لم يمض عليه أكثر من عشرين سنة .

« إن بعض الأوربيات من المعلمات والطبيبات والممرضات ومن زوجات الموظفين والضباط متى تعلمن اللغة العربية أمكنهن إحكام أواصر المودة بينهن وبين بعض النساء المراكشيات . وقد شهدن بأن الهوة بينهن لا تزال بعيدة القاع جدا .

« فلم يشاهدن عندهن حبا للاطلاع دالا على الذكاء إلا نادرا . فيقل تساءلهن عن عاداتنا وبلادنا أو دياناتنا . وتعليل هذا الاغفال ليس بالأمر الصعب : ذلك أن الاسلام مادام أرفع عندهن من جميع الأديان ، وفيه غناء فى كل شىء ، فلا داعى لمعرفة شىء بعد ذلك . وهن لا يغبطن النساء الأوربيات على حريتهن ، فهذه الحرية فى نظرهن من نصيب نساء الشوارع والمومسات والخادمات الملحقات بخدمة الأوربيين .

« إن الاقتناع بسمو الاسلام الذى يجعل الناس لا يهتمون بالاطلاع على أية مدنية ليست باسلامية ، لم يستدع أن يدفع النساء المسلمات للتعمق فى دراسة دينهن ، فان أكثرهن ...

جاهلات به كل الجهل ، اللهم إلا بعض النسوة المحترمات الطاعنات فى السن ، وهن على جانب عظيم من التقوى والاحسان ، والذى ينقص العالم الاسلامى إزاء هذه الحالة هو أن تؤسس جمعيات دينية نسوية على نحو ماأسس منها فى البلاد المسيحية ، وكان لها الأثر الجليل فى نهضة النساء الأدبية وتربيتهن . ولكن لأجل إمكان قيام هذه الجمعيات يجب أن ينتشر هنا نصيب من إدراك ما يجب أن تمنحه المرأة من الحرية ، على مثال مابدأ يحدث فى مصر بعد أن تأخرت فى هذا المضمار ثمانمائة عام .

« فلننتقل الآن الى الطرف الآخر من ممتلكاتنا الافريقية وهى تونس ، فاننا نجد أن المنظر قد تغير . فان البنات الشابات اللاتى تخرجن فى مدارسنا قد أسسن مجلة تدعى (ليلى) ، وهو حدث يعتبر فظيعا فى مراكش . وقد قبلن أن يساعدهن فى تحريرها بعض الرجال . ومن هنا نشأ فيها بين الجنسين حوار روعى فيه الأدب والوقار . فمن الموضوعات التى يؤيدها الرجال أنه إذا وجب على المرأة التونسية أن تتطور فلا يجوز أن يكون ذلك على المثال الغربى ، ولكن على المثال الشرقى المصرى . فلا يجوز أن يستقبل النساء الرجال فى الصالونات ، ويجب أن يربين تربية خلقية ودينية باللغة العربية ، وعلى أدق مايستطاع . ولا ينبغى أن ينظر الى الآداب المدنية من الموقف نفسه التى تقفه منها المجتمعات المسيحية . ولا يحسن بالمرأة المسلمة أن تستعمل المساحيق البيضاء ولا الحمراء ، ويجب أن يرسم المجتمع الاسلامى نفسه المراحل التى يجب أن تقطعها المرأة فى التطور الذى ترمى اليه . وكل تدخل أجنبى فيه يولد فى النفوس عدم الثقة به . ومهمة المرأة هى أن تنتج للمجتمع أطفالا يشبون جنودا صالحين لتحقيق استقلال الوطن .

« ولكن يظهر أن هذه الأوانس والسيدات لا يعرن هذه الوصايا كبير عناية ، ويقلن يجب الجرى على الأسلوب الغربى فى الزى ، لأن هذا الزى وحده هو الذى يسمح بالتغلب على المقاومات الاجتماعية التى تجعل حياة النساء مما لا يطاق . وتراهن يحللن بدقة غريبة مؤلفات ستندهال ، وأندريه جيد ، وجيرودو ، ولا يخفين ثورتهن على الزواج بالوسطاء ، ويعتبرنه ضربا من الاتجار بالرقيق الأبيض . وتجد الشبان يوافقونهن فى هذا المذهب .

« ولكن أمراً آخر قد اتفق عليه الرجال والنساء ، ومن العجيب أن هذا الاتفاق بين الجنسين يكاد يكون موجودا فى مراكش أيضا ولكن بأقل حدة ، هذا الأمر هو إسقاط الحجاب ! فقد كتب كاتب ، لا كاتبة ، يقول : الحجاب يساعد المرأة على ارتكاب جميع الانحرافات الخلقية بالسماح لهن بالاختفاء عن الانظار . الى أن قالت الجريدة :

« لقد أوجز المسيور . مونتاج المذهبين المتعارضين فى المجلة (ليلى) ، فأشار الى أنهما يشهدان بوجود أزمة اجتماعية وأدبية مؤثرة : فالمرأة التونسية المسلمة تزداد كل يوم انجذابا

نحو الغـرب ، ومواطنها من الجنس الآخر يريد أن يقفها باسم الواجب الوطنى . الأمر واقف هنالك عند هـذا الحد . فهل يمكن وجود معاهدة سلام بين الجنسين المتناضلين فى المجتمع الاسلامى ؟ هذا ممكن لو منح الشبان التونسيون للنساء ، ولو على مضض منهم ، مثل التحرير الذى تنعم به أخواتهن فى مصر . ولـكن هذا يفضى الى تكليفهن بتحمل نصيبهن من المـكافحات السياسية التى ظلت التونسيات بعيدات عنها الى اليوم » .

(مجلة الأزهر) : إن هذا الصراع الذى يراه القراء حاصلا فى تونس بين الجنسين موجود فى كل بلد من بلاد المسلمين على درجات متفاوتة ، وهو أمر طبيعى ، فإن الجماعات الاسلامية التى طال عليها الأمد فى الفتور ، تتطلع اليوم لتبارى الأمم الغربية فى عزة الوجود ، ومناعة الحوزة ، واكتمال أسباب الترقيات المعنوية والصورية ، وليس يعقل أن جماعة تتحفز للانتقال من حال الى حال تهمل أمر المرأة وهى نصف عدد آحادها . فلا بد من تعليمها وإعدادها للاشتراك العملى فى حركة النهوض التى هى بسبيلها . والتعليم كما يُشعر صاحبه بواجباته ، يشعره بحقوقه . وحقوق المرأة مهضومة فى الشرق كله ، وخاصة فى الطبقتين الوسطى والدنيا . فـلا بدع أن كان أول ماشعرت به المرأة بعد تعلمها أن تطالب بحقوقها ، وماهيـه ؟ هى أن تطلق من كل قيد على مثال المرأة الغربية ، وأن تقتدى بها فى كل عاداتها وتقاليدها . ولـكن الشرق وخاصة المسلم الذى لم يعتد أن تـكون شريكته على هذه الشاكلة ، لا يقبل أن يمنحها هذا القدر من الحرية ، فيقع النزاع بينهما ، ولا تعدم المرأة أن تجـد أنصارا من بعض الرجال ، فتقوى حجتها ، وتشتد خصومتها ، فيضطر مجادلوها الى التراجع إزاء هـذه الحملات العنيفة ، فتزداد تشبثا بآرائها ، وفى هذه الأدوار يصبأ رجال كثيرون الى مذهبها ، إما تسليما بالأمر الواقع ، تفاديا من اتساع الخرق على الراقع ، وإما اقتناعا بحجتها ، وافتتانا بمظاهر الحياة الغربية .

على هذا النحو نالت قضيه المرأة فى الشرق فَلجا سريعا حاسما لم تنله المرأة الغربية فى قرون كثيرة . فلو كان ماعليه المرأة الغربية خيراً كله أو نصفه ، لهنأنا أنفسنا على هذه الثمرة الجنية ، ولـكنه ليس كذلك لا فيما يختص بالرجال ولا فيما يتعلق بالنساء أنفسهن ، ولـكن من يسمع ؟

إن كل ما نالته المرأة الغربيـة أنها أصبحت مستقلة كالرجل ، فصارت لا تُعتبر النصف المـكمل له ، ولـكن القِرن المناظر له . وهذا من الناحية الخيالية الشعرية حسن ، وعند بعضهم أكثر من حسن ، ولـكنه فى الواقع خسران كبير على المرأة يجعلها أسيرة للرجل رضيت بذلك أم سخطت .

إن حركات الاجتماع كلها سائرة على نظام آلى لا يتخلف ، وليس للخيرة قدرة على تحـويله مرضاة لعاطفة ، أو تحقيقا لمصلحة . فكما لا يستطيع المصريون ، حكاما ومحكومين ، أن يزيدوا فى ثمن قنطار القطن قرشا واحدا ، كذلك لا يستطيعون أن يرفعوا قدر أى طبقة من الأمة

أو خفضها بارادتهم ، فهل لو استقلت المرأة عن الرجل فأصبحت مناظرته المزاحم له ، لانصفه المكمل له ، تستطيع أن تساويه فى مجال المزاحمات الحيوية ، فتعيش بجانبه على قدم المساواة ؟

هذا محال ، لأن محصول قوى المرأة لا يزيد عن ثلثى محصول قوى الرجل ، فكيف يتأتى أن تكون وإياه فى مستوى واحد ؟ وكيف يستطاع أن لا تقع تحت سلطانه ؟ تحت سلطانه لا من الناحية الزوجية ، وهى تقتضى من الاحترام لها والعطف عليها ما تحتمه الديانة والمدنية للزوجة ، ولكن تحت سلطانه من الناحية الاقتصادية ، وهى محكومة بقوانين فولاذية لا تعرف العطف ولا المرحمة .

المرأة لا تنكر قصورها من هذه الناحية ، ولكنها تتخيل أنها تتدارك هذا النقص بأنها ضرورية للرجل ، وأنها الحافظة للنوع . وهى مخدوعة فى هذا التخيل ، فان ما أحدثه فوزها بالاستقلال طوح بالكثير من بنات جنسها الى الاباحة ، فلم يعد الرجال يشعرون بضرورة الحياة الزوجية ، وأما أنها حافظة للنوع ، فهى أحوج لحياة الأمومة منه ، أما هو فقلما تهمه حياة الأبوة

وقد ظهر خطر استقلال المرأة فى أوربا على أشنع حالة ، فقد انتشرت العزوبة هنالك انتشارا مروعا ، وزاد عدد العاملات زيادة فاحشة ، حتى صرن سببا مباشرا لتعطل الرجال عن العمل ، وقلت أجورهن الى حد لا يكفى لحياتهن إلا بتدارك نقصه من طريق آخر : سىء الأثر على بنية الاجتماع .

إن حل مسألة المرأة ، وإحلالها محلها الطبيعى فى الشرق ، أصبح متعذرا ، لأن موجة التمرد النسوى التى ثارت فى أوربا لم تبلغ نهاية مداها بعد ، وهى فى أثناء طغيانها لا بد محدثة تأثيرا فى بلاد الشرق ، وهيهات أن ينجح النصحاء بوجوب اتقاء مظان الزلل المسبب عنها ، مادمنا لا نزال فى مفتتح العمل ، فالمخدوعون عندنا من الرجال والنساء لا يزالون بعيدين عن تنور مواطن الداء الدوىّ فى تلك الحركة العالمية ، فانهم ما برحوا يعتقدون أنها متمشية نحو المثل الأعلى ، وهى فى الحقيقة تسير الى حل نظام الزوجية ، وقد اعترف بذلك أقطاب العلم الاجتماعى مما لا سبيل الى نكرانه . فالعزوبة تزداد انتشارا ، والطلاق أصبح يسمح به لأبسط الأسباب ، والمخادنة صارت ديدن الكافة ، وهى تعدد الزوجات مجرداً من كل الضمانات القانونية للنساء ، خلافا للتعدد فى الاسلام ، فان فيه كل الضمانات التى تقضى بها العدالة . والتبرج النسوى أضحى تظرفا ينظر اليه الرجال بعين الرضا ، بل يحملون زوجاتهم عليه حملا ، وقد تبع هذه الحالة عادات وتقاليد ليس وراءها إلا مصير واحد : وهى الاباحة بما تحمله فى ثناياها من آفات الاجتماع ، وأدواء الأمم . فهل تتخلف سنة الله فيحترم الوجود كل هذه الانحرافات الخلقية لمجرد أن الشهوات النفسية أصبحت تحتمها ؟ « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به » ؟

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

نحاول اليوم أن نعرض لمسألة كانت ولا تزال فى نظام الوقف بمنزلة القطب من الرحى ، وهى أن يقف الواقف على نسله وذريته وعقبه وأولاد الظهور والبطون والآل والجنس وأهل بيته وقرابته وأرحامه وأنسابه . فما تواضع عليه علماء الفروع : أن الواقف لو قال : وقفت هذه الضيعة على ذريتى أو على نسلى وقع الوقف صحيحا ، ويدخل فى صيغة وقفه ولده وولد ولده وإن سفل ، الذكور والإناث منهم وأولاد البنين وأولاد البنات فى ذلك الشمول سواء .

ولو قال : وقفت على عقبى صح الوقف ، ودخل فيه كل من ينتسب اليه بالذات أو بالواسطة . فالصورة الأولى أولاده لصلبه ذكورا كانوا أم إناثا ؛ ومن ينتسب اليه بواسطه أبيه كالذكور والإناث من أولاد بنيه وإن سفلوا على الصورة الثانية . وفى هذه الحالة لا يدخل أولاد بناته وإن سفلوا ، إلا أن يكون آباؤهم من أولاد البنين . وكذلك أولاد الظهور فى هذه الحالة . أما أولاد البطون فهم الذكور والإناث من أولاد البنات وإن سفلوا .

نقل صاحب البحر صورة غريبة من صور الوقف فقال ملخصا : لو قال الواقف وقفت هذه الأرض على أعمامى وعلى أهل بيتى ومن بعدهم للمساكين ، صح هذا الوقف لاستحقاق أعمامه فى وجهى الانشاء جميعا ، إما بأنفسهم أو بآبائهم ، لأنهم من أهل بيته اتفاقا ، وفى هذه الحالة تقسم غلة الوقف على عدد أعمامه وبقية أهل بيته ، فما أصاب الأعمام أخذوه ، وما أصاب بقية أهل بيته يسقط عنهم ، لأنهم يستحقون فى حالة ولا يستحقون فى حالة أخرى ، فكان هذا الشك باعثا على الحرمان ، ضرورة أن الاستحقاق لا يثبت بالشك ، وفى هذه الحالة يصرف ماخصهم الى المساكين .

ونقل العلامة ابن عابدين : لو قال الواقف : وقفت أرضى على أقربائى أو ذوى قرابتى أو أرحامى أو أنسابى ومن بعد هؤلاء جميعا للمساكين ، وقع الوقف صحيحا ، وشمل كل من يداخله فى النسب بواسطة أمه أو أبيه الى أقصى أب للواقف أدرك الاسلام ، ما عدا أبوى الواقف وأولاده لصلبه ، ضرورة أنهم لا يسمون أقرباء اتفاقا بين العلماء ، لأن الله قد وضع لهم أسماء تميزهم عمن عداهم . فالأب أب والأم أم والابن ابن والحفيد حفيد ، وكذلك من علا من جهة أبويه أو سفل من جهة أولاده عند أبى يوسف وأبى حنيفة . وقد خالفهما محمد فى هذه الحالة فقال باستحقاقهم حيث اعتبرهم من أقارب الواقف . وذهب ابن عابدين الى أن هذا الرأى هو

ظاهر الرواية . ويدخل فى الوقف على تلك الحالات السابقة المحارم وغيرهم ، قربت درجة قرابتهم من الواقف أم بعدت ، فالكل فى ذلك سواء عند الصاحبين .

لكن الامام أبا حنيفة رضى الله عنه اعتبر الأحرمية الأقرب منها فالأقرب مقياسا لدرجة الاستحقاق . ونقل العلامة ابن عابدين أن رأى الامام هو الصحيح وعليه الفتوى .

وقد فرع علماء الفروع على الخلاف السابق فى المحرمية بين الصاحبين والامام الأعظم أن الواقف لو وقف عينا على ذوى قرابته وكان له عمان وخالان كان الوقف كله للعمين على رأى أبى حنيفة لأقربيتهما من الواقف عن الخالين .

ولو كان للواقف عم واحد وخالان كان للعم النصف ، وكان للخالين مجتمعين النصف الباقى بالسوية بينهما ، لأن العبرة عند أبى حنيفة فى الاستحقاق بالأقربية فى المحارم ، فمن كان أقرب الى الواقف كان أدخل فى الاستحقاق ممن هو أبعد منه .

وإنما أعطى العم وحده نصف الموقوف وقسم الباقى بين الخالين بالسوية ، لأن الامام لا يعتمد فى المحارم على أقل من اثنين ، ولما كان العم قريب المحرمية بالواقف عن الخالين نزل الخالان منزلة العم الواحد فى الاستحقاق ، فالواحد عنده يستحق النصف والباقى لمن يليه فى القرب .

وعند الصاحبين يقسم الريع على عدد الرءوس فى الحالين ، لأنهما لا يعتبران الأقرب فالأقرب ، ولا يشترطان الجمع .

والذين يرون رأى أبى حنيفة يستدلون على صحة ما ذهب اليه بصورة أخرى ، وهى لو قال الواقف : وقفت أرضى هذه على محارمى الأقرب منهم فالأقرب ، ففى هذه الحالة تشمل القرابة أولاده من صلبه ، ويكون الأقرب مقدما على من دونه فى القرابة ، وإنشاء الواقفين أبدا محمول على ما يستسيغه العرف وتقضى به التعاليم الدينية ، والأقربية بلا مراء قد اعتبرها القرآن مقياسا فى آية المواريث .

وإن كان فى هذه الحالة لا يعتبر الفقهاء القرب المعتبر فى الارث ، ولا بحسب العصوبة ، وإنما يعتبر القريب فى باب الوقف أقرب الناس الى الواقف رحما .

فلو وقف الواقف على أقرب الناس اليه ثم على المساكين وله ولد وأبوان ، فالغلة للولد ولو كان أنثى ، لأنه أقرب اليه ممن عداه . فمدار الأقربية عند علماء الوقف الأقربية فى الرحم لا الأقربية المعتبرة فى باب الارث ولا فى باب العصوبة ، والأب والأم متساويان فى القرب ، فيكون لكل منهما نصف الغلة فيما لو وقف على أقرب الناس اليه ، وهما أقرب من الاخوة والجد ، والجد لأب أقرب من الاخوة على قول من يجعله بمنزلة الأب ، والاخوة أقرب منه على قول آخر .

ولهذا البحث تفاريع كثيرة نعود اليها فى الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟

عباس طه

مؤلفات جديدة

العرب والاسلام فى العصر الحديث :

هذا عنوان عدد ممتاز أصدرته دار الهلال لمجلتها، وهو أثر يعتبر مثلا أعلى لما تستطيعه الألمعية الصحفية، والابداع المطبعى. أول ما يستوقف نظر القارىء منه غلاف مذهب أنيق محلى بنقوش عربية جميلة، فاذا كشف عما بين دفتيه تجلت له مجموعة من مقالات وصور وخرائط على غير مثال سابق يتجلى لك منها كل ما تريد معرفته عن العالمين الاسلامى والعربى فى العصر الراهن. وهذه أول مجموعة اشترك فى وضعها ملوك المسلمين وعلماؤهم وأدباؤهم، فتجد فى مقدمتها كلمة جليلة القدر، عظيمة الأثر، لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، تليها كلمات لحضرات أصحاب الجلالة ملوك الحجاز والعراق وشرق الأردن، ويأتى بعدها بحث شائق ممتع لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى فى حاجة الأمم بعضها الى بعض، وعناية الاسلام بنشر مبدأ الأخوة الانسانية، وقد وفى فضيلته الاحسان كله على عادته فى كل ما يكتب.

ثم تتوالى أمامك البحوث والصور عن مسلمى الأرض قاطبة حتى لا تبقى لك الى المزيد. فمرحبا وأكرم بهذه المجموعة الكريمة، وشكرا للاستاذين الكبيرين صاحبى دار الهلال.

التحقيق التام فى علم الكلام :

علم الكلام من العلوم الاسلامية الجليلة القدر، لأن موضوعه البحث فى الالهيات والنبوات والوحى والقرآن، وهذه البحوث كلها تقتضى الكلام عن الدليل وجهات قوته وضعفه، ومذاهب العلماء فى النظر الصحيح والفاسد، ومعنى الوجود، وآراء الحكماء فى الوجود الواجب، وحجج إثبات الصانع، وتحقيق مسألة الصفات ومذاهب العلماء فيها، والتنزيه ومرماه، وأفعال الله وأفعال العباد، وآراء أهل السنة والمعتزلة، والحاجة الى بعثة الرسل، وأقسام المعجزة، وإثبات النبوة، وصفات الرسل. وكلها مباحث شائقة طريفة. وقد لخص كل ذلك وصاغه صياغة قيمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الحسينى الظواهرى المدرس بكلية أصول الدين، وقد خدم فضيلته العلم بهذا الأثر الجليل خدمة تذكر له وتشكر.

حرية الفكر فى الاسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر على مجلة المصور بحديث يتناول حرية الفكر ، وتبرج النساء ، وصلة الأزهريين بالحياة العامة ، والعيد الألفى للأزهر، فرأينا أن نسجله لفضيلته فى مجلة الأزهر، فان هذا الحديث على إيجازه قد اشتمل من آراء الأستاذ الامام الناضجة ، وكلماته النابغة ، ما لم نجد بدا من ضمه الى نظائره من آثار فضيلته فى هذه المجلة . وسيجد القراء فى هذا الحديث الطريف مثل ما وجدوه فى جميع أحاديث الأستاذ الامام من بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، وإصابة المرمى ، ونبالة القصد . وقد احتوت هذه القطعة على إيجازها من ذلك كله حصة وافرة .

سأله مندوب مجلة المصور قائلا :

يقول بعض الناس لمناسبة الضجة التى قامت حول رواية « برنارد شو » أن الأزهريين يناهضون حرية الفكر ، فما رأى فضيلتكم فى ذلك ؟

فأجاب فضيلته بقوله :

ينبغى أن يعرف أن الايمان لا ينال بالاكراه ، وفى القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين » وفى آية أخرى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . وقد أرشد القرآن الكريم الى التدبر فى مصنوعات الله والتفكير فيها، وأنصف المخالفين فقال لهم: « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وقد انقسم المسلمون الى فرق متعددة فى العقائد والفقه ، وقد جمعت آراء الفرق كلها بادلتها وجرى عليها النقد العلمى ، والأزهر يدرس طائفة صالحة من هذه الكتب وفيها أيضا مذاهب فلاسفة اليونان وغيرهم من الأقدمين ، وبعض هذه المذاهب يخالف أصول الاسلام ، وقد اشتملت كتب التفسير أيضا على ذكر المذاهب المناقضة للقرآن الكريم وأصول الاسلام ، وتكفلت بالرد عليها ومن هذا يعرف أن سلف الأمة كانوا يتناولون هذه المذاهب ويعنون بالرد عليها . وإن الأزهر يجرى على سننهم . وفى الأزهر اليوم تدرس المذاهب الفلسفية الجديدة والقديمة ، والمذاهب الخلقية ، ويعنى العلماء بالرد عليها ، وإذا كان هذا هو شأن العلماء فى الماضى ، وشأن العلماء فى الحاضر ، فكيف يقال إن الأزهر يناهض حرية الرأى وحرية الفكر ؟ غير أنه ينبغى أن يعرف أيضا أنه كما أن بعض الناس يؤمن تقليدا ، كذلك بعض الناس يلحد تقليدا ، أو يلحد تظرفا . فقد شاع فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر

بين طبقة من المتعلمين التظرف بالالحاد ، والزراية على الأديان وأهلها ، لا عن تفكير وتعمق فى البحث بل عن تقليد للغربيين . ويظهر أن المثل القديم « أظرف من زنديق » هو الذى أغرى هؤلاء بالزندقة ، ليكونوا ظرفاء . وهناك أيضا نوع من أنواع الالحاد هو الاستخفاف بالدين ، سببه أشباع الشهوات ، لأن التقيد بالدين وإظهار الاعتقاد به قد يكون مانعا من الاسترسال فى الشهوات ، وأصحاب هـذا النوع لا يفقهون ادلة ولا يفقهون عقيدة ، وإنما يظهرون الفلسفة الجاهلة إشباعا للشهوة .

الحلال بين والحرام بين :

ولحرية التفكير والرأى مناطق لايجوز أن تتعداها ، محافظة على كيان الأمة وعلى أخلاقها ، فان الجمهور الجاهل والنشء المتعلم يجب أن يحاط بسياج الدين وتقديسه ، وإلا تفلت من كل فضيلة ، وذهب وراء الشهوات ، وارتكب أنواع الجرائم والموبقات ، وكل شخص يحاول أن يمس عقيـدة هؤلاء أو يشيع بينهم الزراية بالأديان ، ويشيع المبادىء التى من شأنها تقويض أركان الاسلام ، شخص مجرم لا شفقة فى قلبه ولا رحمة ، ولذلك يجب ألا يكون فى المجلات أو الجرائد شىء من هـذا . لـكن العلماء المخلصين فى البحث إخلاصاً حقيقياً للعلم لهم الحق فى شرح المذاهب على الطريق العلمى بالأسلوب الذى يتحاشى الزراية والمطاعن .

وإذا كان فى تلك الآراء ما يخالف أصلا من أصول الاسلام ، وجب على علماء الإسلام أن يقوموا بواجبهم وهو بيان ما فى تلك المذاهب من فساد وما عليها من نقد .

ولا أظن أن الشـكوى من الأزهر يجىء أكثرها من جهة مناهضة الآراء العلمية ، بل يجىء أكثرها من الآراء فى مسائل الاجتماع ، ومن رأيى أن المسائل الاجتماعية التى للدين رأى واضح قاطع فيها لايجوز السكوت عليها ، فاذا ذهب كاتب مثلا الى تحبيذ الحياة الخليعة ، والى وجوب إعطاء الحرية فيها ، لم يكن هذا رأيا يستحق الاحترام فى بلد إسلامى . فتبرج النساء مثلا وسفورهن مع الخلاعة والمراقص وشرب الخمر والبغاء وما أشبه ذلك مما نص فيه الاسلام نصا صريحا ، لا يجوز أن يكون محل بحث ، ولا أن يسكت عنه ، وليس الحديث فيه مناهضة لحرية الرأى ، بل هو مناهضة للشرور والآثام المقوضة للعمران .

ثم سأله :

وماذا ترون فضيلتـكم فى المناقشة التى دارت فى مجلس النواب حول تهتك النساء والفتيات ! ؟

فأجاب فضيلته بقوله :

ـت مسئولية هذا الفساد واقعة على جهة واحدة بل يجب أن توزع ، فهناك أرباب

الأسر ، وهناك المدارس ، وهناك العلماء ، وهناك الحكومة ، كل أولئك يتحمل كل واحد منهم بعض الوزر فى هذا ، ومتى استهان الناس بدينهم وأمور الخلق ، وجر هذا الى فساد النظام الاجتماعى ، وجب على الحكومة وقادة الأمة أن تتدارك هذا وأن تقاومه بالحزم ، وليست الأمور التى يشكو الناس منها خفية فى الدين ، حتى يقال أن العلماء قصروا فى بيان أحكامها .

ومن الدين ماهو ضرورى يتساوى فيه العالم والجاهل ، كحرمة الزنا وحرمة الربا وحرمة القتل وحرمة الاضرار بالناس وحرمة الخمر ووجوب الصلاة ووجوب الصيام ، كل ذلك يعرفه الناس على اختلاف طبقاتهم ، ولا فرق فيه بين العالم والجاهل . ومن الكلمات المعروفة يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

وأول واجب على الحكومة التى تعترف بالدين أن تحافظ على الدين وعلى مظاهره .

ثم سأله :

ماهى الجهود التى يبذلها الأزهر الجديد لتوثيق صلة الأزهريين بالحياة العامة ؟ وما الذى تحقق الى الآن من وسائل التجديد ؟ وما الذى تعتزمونه فضيلتكم مستقبلا فى هذا الشأن ؟

فأجاب فضيلته :

هذا السؤال يحتاج الجواب عليه الى حديث طويل جدا ، وكل ما أستطيع قوله الآن . إن خطط الدراسة فى الأزهر ومناهجه جعلت الأزهرى الحديث أكثر صلة بالناس وبالمتعلمين على الطريق المدنى من الأزهرى القديم . وقد اتصل الأزهر بالأمة عن طريق الوعظ والارشاد إتصالا لا بأس به ، ومن المنتظر أن تجنى الأمة ثمار هذا الاتصال وثمار التعليم الجديد . وكل شىء فى هذه الحياة لا تجنى ثمراته فورا .

والأزهريون الآن يشاركون الكتاب على صفحات الجرائد والمجلات ، ويقومون بالوعظ على المنابر فى الجمعيات والأعياد ، وغير ذلك على نحو يدرك من عاش فى مصر منذ أربعين سنة أنه منهج جديد قيم مفيد ، وأنه يفوق القديم بما لا يمكن التعبير عن قدره .

ثم سأله أخيرا :

المعروف أن الجامع الأزهر بدىء فى بنائه عام ٣٥٩ هجرية وتم بناؤه عام ٣٦١ هجرية ، فأى ميعاد من هذين نويتم اعتباره عيداً ألفيا للأزهر ؟ وماذا أعددتم لهذا العيد ؟

والى القراء إجابة الأستاذ الأكبر :

أرجح أن الأزهر يعد احتفاله بعيده فى التاريخ الذى يحتفل فيه بعيد القاهرة ، ولم نعد لذلك شيئا له قيمته حتى الآن ، وأرجوا أن تتم مبانى الأزهر ومبانى المكتبة وما يلزم ذلك من المرافق العامة قبل حلول الميعاد » .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

قلنا فى فصل مضى إن النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها أن يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى ، ويسمى هذا التلقى وحيا ؛ وقلنا إن الوحى رغما عما يثيره ضده الماديون مشاهد محسوس فى العالم الحيوانى لا يستطاع تجاهله ، ولا قيمة لما علل به أولئك الماديون هذا الوحى الحيوانى ، كما أثبتنا ذلك بكل حجة . ثم ألممنا بما كشفه العلم من التنويم المغناطيسى ، وما تجلى فيه من وجود شخصية باطنية للانسان أرقى من شخصيته العادية ، ليس للانسان بها أقل علم ، وما ثبت من وجود أفراد من كبار الرجال شهدوا أنهم كثيرا ما هدوا الى حلول نظرياتهم العويصة فجأة بدون إحالة نظر ، أو أنهم يسمعون بآذانهم ما يجب أن يكتبوه ، أو يرون بأعينهم ما يجب أن يؤلفوه الخ . ثم ختمنا ذلك بقولنا :

« هذه مشاهدات محسوسة وأقوال مأثورة عن كبار العلماء والمؤلفين ، ساقها الأستاذ الكبير (ه . و . ميرس) لإثبات وجود عقل باطنى فى الانسان له اتصالات روحانية فى عالم فوق هذا العالم ، وأنا لا أريد أن أثبت بما أنقله أن النبوة عبقرية ، أو هى من نوع الحوادث التى سردناها هنا ، ولكننا سقنا ماسقناه للتدليل على أمرين عظيمين : أولهما وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادى والحواس ، وثانيهما وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الانسان بعلم ، وتسعفه بهداية من غير طريق العقل العادى ، ولا من منافذ الحواس الخمس الخ »

واليوم أعالج موضوعا آخر أخص من كل ما تقدم وهو نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فأدرس أولا الأدوار التى سبقت عنده الوحى ، ثم أتبعها بأدلة صدقه ، متوخيا فى ذلك الأسلوب الذى تعهدت بالجرى عليه ، وهو الأسلوب المتفق عليه فى الزمان الأخير فى تحقيق مسائل العلم .

كيف بدأ محمد معيشته كفرد فى القبيلة التى أنجبته :

ولد محمد فى سنة ٥٧١ للميلاد فى أشرف قبيلة عربية وهى قريش ، ومن أكرم أسرة فيها وهى أسرة بنى هاشم . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . وأمه آمنة بنت وهب وهى قرشية أيضا .

توفى والده عبد الله ومحمد جنين فى بطن أمه لشهرين مضيا من الحمل به . وولد فى دار عمه

أبى طالب، وأسماه جده عبد المطلب محمداً . فلما بلغت سنه الرابعة أو أكثر توفيت والدته ، فكفله جده عبد المطلب وكان سيد قريش ، ولم يلبث أن توفى ، فكفل محمدا عمه أبو طالب وعمره ثمان سنين .

ولما بلغت سنه إثنتى عشرة سنة بدا لعمه سفر الى الشام للتجارة فاستصحبه معه .

ولما بلغت سنه العشرين حضر مع قومه حرب الفجار ضد بنى قيس .

وكان كسب محمد منذ ألقى على عاتقه أن يمون نفسه ، من رعاية الغنم لأصحابها على قراريط يأخذها .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين دعته سيدة ذات مال تدعى خديجة بنت خويلد ليسافر الى الشام فى تجارة لها ، وكانت تستأجر الرجال لهذا الغرض ، فسافر محمد بن عبد الله الى ذلك الإقليم مع غلام لها اسمه ميسرة ، فباع واشترى وأربحها ربحا عظيما ، فوجدت فيه الرجل القوى الأمين ، فخطبته لنفسها فتزوجها، وكانت تناهز الأربعين ، اشتهرت بالعقل والتصون . فصار محمد يعمل فى مالها حتى دعى الرسالة .

واتفق وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره أن حدث سيل جارف انصدعت منه جدران الكعبة ، وكانت وهنت من حريق كان أصابها قبل ذلك ، فرأت قريش أن تهدمها وتعيد بناءها ، فكان أشرافهم وكبراؤهم يحملون الحجارة على اكتافهم تبركا بالعمل لإقامتها ، وكان منهم العباس بن عبد المطلب وابن أخيه محمد بن عبد الله .

ولما جاء وقت وضع الحجر الأسود مكانه تنافس أشراف قريش فى وضعه ، واختلفوا حتى كادت تشب بينهم حرب من أجله . فأشار عليهم أمية بن المغيرة المخزومى أن يحكموا رجلا منهم يرضون حكومته . فقالوا نكل أمر الحكم لأول داخل علينا . فكان ذلك الأول محمداً ، فأخبروه الخبر، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، فرفعوه على هذا النحو حتى انتهوا الى موضعه ، فأخذه هو ووضعه فيه .

نفسية محمد قبل النبوة وبعدها :

لم يشتهر محمد بن عبد الله قبل مبعثه ، ماعدا الاستقامة الخلقية ، بشىء من المميزات اللسانية والثقافية ، فلم يكن بالشاعر الذى يرنن أوتار القلوب ، ولا بالخطيب الذى يختلب أهواء النفوس ، ولا بالعالم الذى يستهوى شهوات العقول ، ولا بالفارس الذى يلجأ اليه فى حماية الحوزة إذا جد الجد فى حرب زبون . ولم يعرف بشىء مما كان العرب يعولون عليه فى منازعاتهم ومكاثراتهم ومماتناتهم ومنافراتهم ، فلم يعين مرة ، بعد تشاور ، قاضيا فى نزاع ، ولا فيصلا فى خلاف ، ولا مرجعا فى مجهول ، ولا حكما فى منافرة .

لقد كان لدى العرب رجال يلوذون بهم فى المهام التى تطرأ عليهم مناسبة لحياتهم القبيلية . فكان لديهم قافة يتتبعون بهم أثر الجناة ، ونسابون يصعدون بالمرء الى أرومته الأولى ، ومتطببة يلتمسون عندهم العلاج ، ورواة يرجعون اليهم فى الشعر والكلام البليغ ، ومحكمون يعوذون بهم فى المنازعات ، وكهان يعتقدون فيهم الاتصال بالروحانيات ، فكانوا يسألونهم عن الغيوب ، ولم يكن محمد فى شيء من هذه الخطط كلها ، فعاش بين قومه لا يلفت لأحدهم نظرا ، ولا يستهوى بمظهره العادى لبا .

اشتغل فى طفولته راعيا فلم يمتز عن زملائه فى شيء غير استقامة سيرته ، وكرم شمائله ، وبعده عن السفاسف . فلما كبر اشتغل بالتجارة فكان كأوسط أهلها لم يبز أمثاله فى شيء غير أمانته فى الأداء ، وعدالته فى المعاوضة .

كل إنسان كتب له النبوغ فى عمل من الأعمال يظهرعليه ميل اليه فى طفولته ، فمن قدّر له أن يكون شاعراً أو كاتباً أوخطيباً أو حكيما أو قائداً نمّت فطرته عليه فبدرت منه ، وهو طفل ، مايدل على ما سينبغ فيه ، ولم يظهر على محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤول اليه غير ميل كان فيه الى السكينة والتفكير ، وكلما تقدمت به السن إزدادت حاجته اليهما حتى تأدى به ذلك الى تمضية أيام بلياليها فى غار بقرب مكة يقال له حِراء ، فكان يمضى فيه تارة ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فيه وحده متفكرا متدبرا .

هذه هى الصفة التى ميزت محمد بن عبد الله عن غيره من أهل جيله ، وهى صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مرا ، لأنها مظهر ما استتر فى سويداء نفسيته من النزوع الى أفق الروح ، والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هـذه الصفة نفساً بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحى على قدر ما فيها من قوة . ولقد كانت هذه الصفة مستوعبة شعور محمد استيعابا لا يدع لغيرها مكانا فيه ، بدليل لجوئه الى غار موحش أياما وليالى متوالية يمضيها فى التفكير وتلمس المخرج من الحيرة . من أى ضرب كانت هـذه الحيرة ؟ من الضرب الذى يشغل بال الكملة من أصحاب القلوب ، والبررة من أولى العزم : تخليص النفس من ظلمات المادة وتخليص الغير منها .

ونحن إذا كنا نجهل محامد محمد قبل النبوة لقلة إكتراث الناس له ، وعدم أبههم به ، فاننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والتفاف الناس حوله ، ونقلهم عنـه كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه . والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب فى أول أدواره ، بما عرف عنه منها بعد وصوله الى قمة المجد ، وبلوغه غاية مرامه ، يكاد لا يعدو الحق ، فان المعهود عادة أن الانسان قد يطغيه النجاح ، ويفسد قلبه الفلج ، فيصبح جبارا عنيداً بعد أن كان وادعا متواضعا ، ولا عكس . فكل ما دُوّن عن محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد

شمائل وآداب كانت لا شك له وهو فى ميعة الصبا وعدم استكمال سن النموة

وقد دُوِّن من شمائله أنه كان وادعا متواضعا ، هينا لينا ، يلقى أصحابه هاشا باشا ، لا يترفع عليهم ، بل يؤثرهم على نفسه ، ولا يسمح لهم بتعظيمه وتقبيل يده ، وقد عاش طول حياته متقشفا مخشوشنا ، لم يشبع من خبز الشعير الذى كان يفضله على غيره . وقد بقى متصفا بهذه الفضائل حتى اختاره الله لجواره .

قال الحسن بن على رضى الله عنه : سألت هند بن أبى هالة ، وكان وصافا ، فقلت صف لى منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السَّكْت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئا غير أنه لم يكن يذم ذَوَاقا (أى طعم شىء) ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعُدِّى الحق لم يقم لغضبه شىء ، (أى لم يقم لدفع غضبه شىء) حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام » .

إن هذه النفس الحائرة الثائرة التى لم تجد فى العالم المحسوس ما تعول عليه ، وتركن إليه ، فأخذت تلتمس بلال غلتها ، وسكن جيشانها ، فى عزلة الكهوف ، وظلمة المغاور ، وهى محرومة من ملاذ المطاعم والمشارب ، ومتع المكاسب والمآرب ، لهى نفس لم تطبع على غرار هذه النفوس العادية ، ولا تشغلها من المطامع والمطامح ما يشغلها فى محاولاتها اليومية . وإلا فماذا كان ينقص محمدا بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، وأصبح له زوجة وأطفال ، وعمل شريف يتكسب منه ، حتى يؤثر على لذات الحياة البيتية ، ومتع المحاولات الاجتماعية فى سن استكمال القوة ، واستتمام الفتوة ، حياةَ الانقطاع عن الناس ، وتجنب معاملتهم فى الفترات التى تسمح له بها أعماله المادية ؟ أكان يتطلع من وراء هذا التزهد لزيادة موارده المادية ، وتحقيق مطامعه الاجتماعية ؟ إن تحقيق هذين المطلبين لا يكون إلا فى الأسواق العامة ، حيث يكتظ الباعة والشارون ، وفى المجامع والأندية حيث يجتمع العقلاء ويتشاورون ، لا بكسر غار على رأس جبل لا يرقى إليه الطير .

لم تكن البيئة العربية بالبيئة التى تحفل بالمسائل الروحية وتعظم مدعى تمثيلها بين الناس ، فلم يكن فيهم متبتلة ولا متزهدة يعظمهم الناس ويتلمسون بدعائهم البركات ، ولا عباد إنقطعوا للعبادة فى الصوامع على نحو ما كان عليه أهل الكتاب ، وكل ما كان لديهم من هذا القبيل كهان يدعون الاتصال بالجان ، وما كان لهم من كبير شأن عند العرب حتى يطمع امرؤ فى أن يعد من زمرتهم .

هنا يحار الفيلسوف فى تعليل لجوء محمد بن عبد الله ، وقد مهد له طريق الحياة ، الى غار يمضى فيه أياما كثيرة ، فى بيئة مادية محضة ، ليس فيها ما يغرى بالانقطاع للعبادة ولا بالتفرغ للتفكير .

ماذا كان يريد محمد بن عبد الله من وراء هذه العزلة الشاقة ، والعناء الكبير ؟ لا تجد الفلسفة إلا جوابا واحدا ، وهو أنه كان نافرا مما عليه قومه من الضلال البعيد ، كارها أن يشاطرهم هذه الحياة الحيوانية ، فلم ير إلا أن يلجأ للتفكير طلبا للهداية الى سواء السبيل . مطلب بعيد ، ولكن القلوب الكبيرة تلهم أنها مستقر أسرارا خطيرة ، ومستودع أنوار يرتد عنها الطرف وهو حسير ، فتلجأ الى ذاتها تستثير قواها الكامنة ، وتستجيش مساتيرها الثاوية فى سويداء معناها الصميم .

هذه كانت بداية كل نابغة كبير ، وكل مصلح عظيم .

ولكن فيلسوفنا لا يكاد ينتهى الى هذه الحقيقة ويفرح بها حتى يعترضه أمر خطير : وهو أن محمدا لم يخرج من غاره نابغة كبيرا ، ولا مصلحا عظيما ، ولكنه خرج خائفا ترتعد فرائصه ، فلجأ الى داره وهو يقول لأهله : زملونى زملونى ، أى دثرونى دثرونى ، فقد كان يشعر ببرد شديد من هول ما ظهر له من الشأن المهول .

هنا يعترف الفيلسوف بالعجز عن فهم ما حدث لمحمد ، ويترك مكانه للبسيكولوجى الخبير . فيتساءل هذا : ما الذى أصاب محمدا حتى اعتراه هذا الذعر الشديد ؟ فيعلم أنه لما خرج من الغار خائفا أتى أهله فقال لهم : ظهر لى شخص وقال لى : أبشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الى هذه الأمة ، ثم قال لى اقرأ . فقلت له ما أنا بقارئ ، (أى إنى أمى لا أعرف القراءة) ، وكنت نائما على نمط (وهو نوع من البسط) فغطنى به (أى غمه به بأن جعله على فمه وأنفه) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى ثانية ثم أرسلنى ، ثم قال اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى ، وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » فقرأتها وانصرف عنى وقد استقر ذلك فى قلبى .

ثم يعلم ذلك البسيكولوجى أن ذلك الشخص لم يظهر لمحمد ثانية إلا بعد أربعين يوما وقد يئس من عوده . فبينما هو يمشى يوما إذ سمع صوتا من السماء فرفع اليه بصره ، فاذا هو الشخص الذى جاءه بالغار جالس بين السماء والأرض . فرجع الى أهله وهو يرتعد رعبا وقال لهم : (دثرونى دثرونى) أى أدفئونى . فأنزل الله عليه : « يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » الى آخر السورة . فصدع بأمر ربه وقام بعد أن هدأ روعه يدعو الى الاسلام سرا ثم أُمر باعلان الدعوة فأعلنها ، وما زال جاداً فيما هو بسبيله حتى دانت له الأمة العربية قاطبة ولم تدن لأحد قبله .

ولـكن البسيكولوجى لا يعتد بهـذا الفـالج كله ، ولا يهمه أمره ، والذى يعنيه هو أن يتحقق ذلك الشخص الذى كان يظهر لمحمد ويكلمه أهو صـورة ذهنية أم حقيقة لها وجود فى الخارج ؟ لأنه يعلم أن ضروبا من الأمراض العصبية وخصوصا الهستيريا تـظهر للمريض بها أشباحا لا حقيقة لها .

نعم أن الصور الهستيرية لا نتيجة لها غير إزعاج المريض وإقلاق راحته ، والتأدى به الى الجنـون أو ما يشبهه ، ولـكن الصورة التى كانت تظهر لمحمد كانت تهديه للخـير ، وتقيمه على الصراط ، وتمده بما يجب أن يقوله لأمته ليهديها الى سواء السبيل ، وقد تم لها ما أرادت .

يرى البسيكولوجى هذا الفرق كله ولـكنه لا ييأس من تعليله ، فيذهب فكره الى الشبح الروحانى الذى كان يظهر لسقراط ، ولا يرحل الى أشباح أخرى ظهرت ولا تزال تظهر للـكثيرين ، لأن شـبح سقراط مجمـع على صحته بشهادة جميع تلاميذ هـذا الفيلسوف ومنهم أفلاطون واكسينوفون . والمعروف عن شبح سقراط أنه كان يظهر له ويفضى اليه بما يجب أن يقوله أو يعمله ، وكثيرا ما أفضى اليه بأمور مستقبلة وأخبر بها تلاميذه ووقعت . وسقراط هذا يعتبر إمام الفلسفة اليونانيـة ، وقد رفعه بعض المؤرخـين الى درجة النبوة لنبله وفضـله واستقامته .

وفيما نحن بسبيله من أمر محمد صلى الله عليه وسلم لا يلبث البسيكولوجى أن يعتقد بمَـلَك محمد أكثر من اعتقاده بالشبح الروحانى لسقراط (أولا) لانتفاء افتراض الهستيريا فى خاتم النبيين كما تقدم ، (ثانيا) لثبوت تحقق أمور غيبية كثيرة أفضى بها الملك الى محمد مثل قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، وقوله : « لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » ، وقوله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » ، وقوله : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء (أى سقف بيته) ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ » . وأجل من ذلك كله قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

متى آنس صاحبنا البسيكولوجى كل هذا قرر أن مَـلَك محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر ثبوتا من الشبح الروحانى لسقراط ، وأجل أثرا منه ، ولـكنه لا يزال يشك فى كنهه هل كان له وجـود خارجى أم هو صورة ذهنية لمحمد أوجدها عقـله الباطنى ؟ لذلك تراه يعمـل على استيعاب جميع مراتب الوحى فى أثناء نزول القرءان :

(فأولها) الرؤيا الصادقة فى النوم .

و (ثانيها) ما كان يلقيه الملك فى صدره من غير أن يراه .

و (ثالثها) خطاب الملك له عند ما كان يتمثل له بشراً سويا .

و (رابعها) رؤيته جبريل فى صورته الروحانية فيأخذ عنه .

و (خامسها) ما كان يلقى اليه بصوت مثل صلصلة الجرس ، وكان هـذا النوع أشده عليه فإن جبينه صلى الله عليه وسلم كان يتفصد فى أثنائه عرقا فى اليوم الشديد الـبرد . وإذا اتفق حصوله وهو راكب بركت ناقته على الأرض ، وحدث مرة أن نزل عليه الوحى على هذا الضرب وفخذه فوق فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليها حتى كادت ترضها . وقد شوهد أنه كان إذا أوحى اليه على هذا النوع أصابته رعدة وكرب ، وتربّد وجهه ، وغمضت عيناه ، وربما غط كغطيط البَكر (أى الفتىّ من الأبل) .

كل هذا لايحمل البسيكولوجى العصرى على القول باستقلال جبريل عن شخصية محمد الباطنة ولا يزال يجـد نفسه متأثرا بالشبهة التى مؤداها أن نبوته يمكن تعليلها بالأعراض الهستيرية . فيرى نفسه مضطرا لأن يتأمل فيما كان يتأثر به من الأعراض عند نزول الوحى عليه ، فيجد ما يأتى :

(١) أن محمدا لم تكن تظهر عليه أعراض عند نزول الوحى عليه إلا عندما كان يلقى اليه بصوت يشبه صلصلة الجرس .

(٢) أن الهذيان الهستيرى لايحدث إلامصحوبا بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهو مالم يحصل قط لمحمد حتى فى أثقل حالات الوحى عليه .

(٣) أن ما ينسب للهستيريا من الهذيان يحدث فى أثناء النوبة ، فاذا أفاق المريض لم يذكر شيئا مما قاله . وهذا على عكس حالة محمد فقد كان لا ينطق فى أثناء الوحى بشىء حتى يتم ، فيعيد كل ما ألقى اليه ويأمر بتدوينه . وقد كان ، حرصا منه على استظهار ما كان يلقى اليه ، يعيده بلسانه أو يحرك به شفتيه ، فنهاه الحق عن ذلك بقوله تعالى : «ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل ربى زدنى علما » ، وقوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرءانه ، فاذا قرأناه فاتبع قرءانه ، ثم إن علينا بيانه » أى إن علينا جمعه فى صدرك فلا تخش أن يفلت منك ، فاذا قرأه عليك الملك فأنصت إليه وتتبع قراءته .

(٤) أن مواضيع الهذيانات الهستيرية ، لا تخرج عادة عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المتهيجة المريضة ، كتخيل المريض رؤية روح شرير يتوعده بالأذى ، أو يتقصـده بالفتنة أو يقلقه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان هستيرى قط موضوعه أشرف فضيلة ، [illegible] الدلالة على مصلحة ، وأنت خبير بأن موضوع الوحى [illegible]

صلى الله عليه وسلم كان أكبر شأنا من كل ما اشتغل به العالم الانسانى وهو إذاعة الدين الأول الذى أوحاه الله الى المرسلين الأولين ، خالصا من جميع الأوهام البشرية التى ألصقها به قادة الأمم بغيا بينهم ، وعدوانا على الحقيقة ، وكان ذلك بقصد إصلاح عام للأديان والمعتقدات. ندب الحق للقيام بهذه المهمة محمدا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل . هذا عدا عما استتبع هذا الاصلاح العام من دعوة الأمم للتعارف والتآخى ، والافضاء اليهم بالأصول الأولية للشريعة العادلة ، والأخلاق الفاضلة ، والمدنية الكاملة ، مما يتفق الناس قاطبة على صحته ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجا من ناحيته . وقد أثرت هذه الدعوة فسرت بين الأمم سريان البرق ، ومهدت الطريق لأصحابها للحصول على زعامة الأرض ، ولا تزال تبهر العلماء بآياتها ، وتسحر الألباب ببيناتها ، وتفتح القلوب بأدلتها ، حتى قرر أهل البصر أن مآل الناس قاطبة الى حظيرتها . فاذا كان هذا كله أثر هذيانات هستيرية ، ونوب مرضية ، فماذا أبقيت بعد هذا للوحى السماوى ، والفيض الإلهى ، والإشراقات العلوية ، والإتصالات الروحانية .

هنا لا يتمالك البسيكولوجى نفسه فيخر ساجدا لله وهو يقول :

اللهم ما أقوى سلطانك ، وأسطع برهانك ، أمى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، ومضطرب النظريات والمبادئ ، وبين ظهرانى أقوام لم يألفوا النظام ، ولم يأنسوا بالوحدة ، مضطرين الى ذلك بفواعل الطبيعة المحيطة بهم ، وعوامل الحياة القاهرة لهم ، ينتدب أن يكون رسولا للناس كافة فيدعوهم للكلمة الجامعة بينهم ، والطريقة اللائمة لشعثهم ، ملوحا لهم بالأصول الحكيمة لتحقيق هذا المطلب الذى لم يطف بخيال فيلسوف ولا مصلح قبله ، مدللا على إمكانه بالأدلة القاطعة ، والأمثال الساطعة ، وضاربا لهم المثل العملى بالقيام بتأليف أمة عالمية ليس فيها ظل من نعرة القومية ، ولا عصبية الجنسية ، ولا مانع من الاختلافات اللغوية واللونية ، وبتوزيع العدالة وجميع الحقوق المدنية بين الكافة بالسوية ؛ أمة خالصة من جميع علل الاجتماع ، كالطوائف المتفاوتة الحقوق ، والطبقات المتنافرة الاختصاصات ، والشخصيات المتوارثة الألقاب ؛ أمة كل ما فيها حق للكافة على السواء ، والكافة وحدة لا تقبل الانفصام ، يسودها قانون أصوله الحقوق الطبيعية ، ومبادئه المبادئ الأولية الخالدة التى لا يعتريها تبدل ، ولا يتحيفها انخرام ؛ أمة رأس مالها المعرفة ، وأصل دينها العقل ، وسلاحها العلم ، ووجهتها الحكمة ، وغايتها المثل الأعلى فى الحياة .

أمى فى أقصى بيئة عن العمران ، وأبعد مكان عن معترك العقول ، وعن مضطرب النظريات والمبادئ ، يأتى بكل ما ذكرت على وجه لا مجال للشك فيه ، وبنصوص صريحة لا تحتمل الصرف ولا التأويل ، لا يعقل أن يكون كل هذا من عنده ، ولا بد أن يكون قد تلقاه من عالم علوى لا من هذا العالم الأرضى . لأن هذه التعاليم التى أتى بها محمد خاصة بالأفراد والجماعات

والنظم والدستور ، أرقى من أية فلسفة نقلت لنا عن الأقدمين ، وأرقى من مجموعها متضافرة متساندة ، وكثير من أصولها سبقت زمانها الطبيعي بعدة قرون ، وبعضها بعد أن وُلدت مسبوقة بعدة قرون لا تزال لدى أهلها حلما من الأحلام ، ومن العجيب أن موحى هذه التعاليم يقرر أنها قد سبقت أوانها ، وأنها ستوجد من طريق النظر بعد زمان طويل ، فيُعرف فضل الكتاب الذى أتى بها فقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وقال : « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

أى دليل على الوحى أقوى من هذا الدليل .

محمد فريد وجدى

كلمات فى المدائح الخلقية

مدح أعرابى رجلا فقال : كان والله تعبا فى المكارم ، غير ضال فى طرقها ، ولا متشاغل بغيرها عنها .

وقال آخر : فلان لو وجد الكرم فى يد غيره لعلم أنه ضالة له .

ومدح بدوى رجلا فقال : كان والله صحيح النسب ، محكم الأدب ، من أى أقطاره أتيته انثنى إليك بكرم فعال ، وحسن مقال .

ومدح غيره رجلا فقال : كأن الألسن والقلوب ريضت له فلا تنعقد إلا على وده ، ولا تنطق إلا بثنائه وحمده .

وقال بليغ : فلان من شجر لا يختلف ثمره ، ومن ماء لا يأتلف كدره .

وسأل الوزير يحيى بن خالد البرمكى عن ابنه الفضل ، فقال له المسؤل وكان بليغا : تركته وماء الحياء يتحدر من أسارير وجهه ، وسيول الجود سائلة من فروج أنامله ، ولآلئ العلم منثرة من مسارب منطقه .

ومن هذا الباب ما مدح به ابراهيم بن الصابى الوزير المهلبى فقال :

له يد برعت جودا بنائلها ومنطق دره فى الطرس منتثر
فخاتم كامن فى بطن راحته وفى أناملها سحبان مستتر

وقال مروان بن أبى حفصة يمدح آل معن :

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ولو أحسنوا فى النائبات وأجملوا



سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » :

رأينا أن نوفى هـذه الفرصة الثمينة حقها ، فنكثر من البراهين الدالة عليه تعالى بقـدر ما نستطيع ، علما بأن العقائد قد اعتورتها الشكوك ، والنفوس قد لعبت بها الأوهام . وقد أكثرنا بنوع خاص من أقوال فلاسفة أوربا ، لما فى ذلك من التأثير البالغ فى نفوس شبابنا الذين أصبحوا يتهمون أئمة المسلمين ويقدسون أساتذة الأوربيين ؛ ولله فى خلقه شئون . ومما نقصده أيضا من نقل تلك الآراء والأفـكار أن تعرف القارئ أن الطرق الموصلة الى الله تعالى لا تنحصر . وقد قالوا قديما : إن لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق . وقد وصل الأمر من الوضوح عند بعض أرباب الوجدان من المسلمين أن سمع قائلا يقول : إن الفخر الرازى أقام على وجود الله ألف دليل ، فقال : « ومتى غاب حتى يستدل عليه » ؟

ولنسق لك بعض تلك البراهين ، ولعلها أليق ببعض الاستعدادات ، فنقول :

قال « نيوتن » الأنجليزى ، وهو أكبر علماء الفلك فى عصره ، ومكتشف قانون الجاذبية العامة ، وقـد سأله الناس من كل مكان أن يؤتيهم بدليل على وجود الخالق يكون فى درجة المحسوسات ، فأجابهم قائلا : « لا تشكوا فى الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى القائدة للوجود والمنظمة له ، لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مـكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الـكائنات ، ولا هـذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هـذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن . أوَّلىٍّ له حكمة تامة وإرادة نافذه » .

أقول : أكثر نيوتن من كلمة الضرورة ، لأن الملحدين يذكرونها كثيرا كلما أحرجوا . وإنى ولا أخفى عليك وقد حاولت كثيرا أن أفهم ذلك فلم أستطع . وليت شعرى ما هى الضرورة

التى توجد وتخلق ، وترتب وتضع الأشياء فى مواضعها ؟ وما حقيقتها ، وما صفاتها التى أتت بهذا الابداع المدهش ؟ وإذا كانت الضرورة تفعل ذلك كله ، فما بالنا فى هذا الضيق وهـذه المصائب ؟ فهل اعتراها الوهن أم أدركتها الشيخوخة ؟ ثم تبين لى أن للأوهام والخيالات مدركات لا يتأتى للعقول أن تدركها ، لأنها لا تدرك إلا بواسطة وهم فاسد أو خيال كاسد ، ولذلك يقول الله : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » . والأنعام لها قوة الوهم لا قوة التفكير .

ولنرجع الى كلام نيوتن . قال بعد ما سبق : « من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبة العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » ثم قال : « ومن الجلى الواضح أنه لا يوجـد سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة على مستوى واحـد بدون حدوث أى تغير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسبا دقيقا مع مسافاتها المختلفة بالنسبة للشمس . ولمراكز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هـذه المواد . وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها ، وبين جوبتير « المشترى » . والأرض ، وقرر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها . إذن فمقارنة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجوب وجود « سبب » لا أعمى ولا حادث بالاتفاق « كما يزعم الملحدون الجاهلون » على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة » ثم قال :

« ليس هذا كل ما فى المسألة ، فإن الله ضرورى لإدارة هذه الاجرام بعضها على بعض ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يكون من مجرد قوة الجاذبة أو لتحديد وجهة هـذه الدورات كما يرى ذلك فى الشمس وتوابعها ، بينما ذوات الأذناب تدور فى كل وجهة على السواء . ثم قال: « وغير هذا : أنظر تكوّن الأجرام السماوية كيف أن الذرات المبعثرة استطاعت أن تنقسم الى قسمين : القسم المضىء منها انحاز الى جهة لتكوين الأجـرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم يجتمع فى جهة أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها. كل هـذا لا يعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له » . أليس هـذا موافقا لما نقوله من أن معلومات الله لا تتناهى وكمالاته لاتتناهى ثم قال : « أنظر كيف كونت أجسام الحيوانات بهذه

الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الابصار ونواميه ، والاذن بدون إلمام بقانون الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الالهام الفطرى فى نفوس الحيوانات » الى أن قال : « وهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حىّ حكيم ، يرى حقيقة كل شىء ويدركه أكمل إدراك ؟ ! » .

قد أطلنا فى هذا البرهان ، ولعل فى ذلك التطويل فائدة لكثير من القراء . وقد كان عمدة « نيوتن » فى استدلاله بيان الأشياء التى لا يمكن تعليلها بغير فعل القادر الحكيم .

وأقول : إن نظر علمائنا فى هذا الموضوع أبعد غورا من غيرهم ، فإنهم إذا ظفروا بعلل الأشياء وأسبابها جعلوا ذلك من براهين حكمة الحكيم ودلائل وجوده ، فإن هذه العلل ليس لها وجود من نفسها ، لأن دلائل الامكان فيها واضحة ، وكل ماليس بواجب الوجود فلا بد له من واجب الوجود .

ثم نقول : ما الذى متعها بتلك الخصائص التى جعلتها عللا وأسبابا ؟ فقد كان يجوز أن تكون بصفات أخرى وقوى أخرى ، فانها قابلة لذلك كله بمقتضى إمكانها وتغيرها الذى نشاهده ، فكان وجودها بعد عدم وتمتيعها بتلك القوى المخصوصة من أكبر الأدلة وأعظم البراهين .

وليت شعرى لماذا عدد الله العناصر المختلفة حتى جعلها تزيد على السبعين أو الثمانين ، ثم جعل لكل منها خصائص لا توجد فى غيره ، بل قد تكون متضادة ، كالأكسوجين ، والأزوت ، والكربون . فمن ذا أوجدها كلها ومتعها بهذه الخصائص حتى تتعاون على هذا النظام البديع ؟ وليت شعرى ما الذى أوقفها عند هذا الحد فلم تنقص عنه ولم تزد عليه ، غير مشيئة الله الذى علم كل شىء ودبر كل شىء فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

والحق أقول : إنى لم أر فى هذا الوجود على سعة أكنافه وتباعد أطرافه وكثرة تنوعاته وتشعب مبدعاته ، أجن من أولئك الملحدين « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . ويكفينا ماقال الله فيهم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » . ولا يصح أن يذكروا فى عداد العلماء ، فإن الله يقول : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » : فكل من لم يشهد بذلك فليس من أولى العلم . وقد قال سبنسر « وهو من أكابر علماء الانجليز » ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى عرفها أبناء

المـدارس ، وإنما الغرض من علم الطبيعة أن نقف على ذلك الجسر الذى ننظر منه الى ما وراء الطبيعة . وقال « باكون » وهو من أشهر مشاهير علماء الطبيعة « من أخذ علم الطبيعة بأطراف الشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عبا أوصله الى الخالق » .

براهين كلارك ، وهو من أشهر فلاسفة الانجليز . قال :

« لابد لنا من فرض أن شيئا وجد من الأزل بدليل وجود الأشياء الآن ، وهذا الفرض حقيقة لاشك فيها لأن كل موجود من هذه الممكنات يجب أن يـكون هناك سبب أوجده أى أصل قام عليه وجوده ، وهذه الأشياء إما موجودة بذاتها فهى إذن قديمة أزلية ، وهو مالا سبيل اليه لما نرى فيها من دلائل التغير والحـدوث الدالة على أنه ليس لها شىء واجب لذاتها ؛ وإما أن تـكون موجودة بموجد تقـدم عليها فيـكون هو القديم الأزلى » ثم قال كلارك ما ملخصه .

« لا يمكن أن يكون هذا الوجود المادى مستقلا بنفسه ولا أبديا إلا إذا كان هو واجب الوجود بذاته ، ولـكن مما لا شك فيه أن الوجود المنظور ليس هـو واجب الوجود ، لأنه سواء أتأملت فى شكله الظاهرى مع قابلية أجزائه لحركاتها المختلفة ، أم اعتبرت مادته التى هو مكون منها بدون التفات الى شكلها الذى هى ظاهرة به الآن ، فـلا أرى فيها إلا آثار إرادة واختيار ، فمجموعها فى جملته وكل واحد من أجزائها فى موضعه وحركته ومادته وشكله . وبالجملة كل ما فيه متعلق بغيره غير مستقل وغير معقول أن يكون موجودا بذاته وإنى أصرح بأن الوجود لأجل أن يكون صالحا يجب أن تكون أجزاؤه على الترتيب الذى هو عليه اليوم . ومما أعده هذيانا القول بأن ذلك الترتيب وجد بضرورة طبيعية ، وهى الضرورة التى يستند عليها الملحدون ويدافعون عنها » . وقد سبق لك أن ذلك لا معنى له إلا فى رءوس المجانين .

براهين لوك ، وهو من كبار فلاسفة الانجليز ، قال :

« إنا نعلم ببداهة العقل أن العدم لا ينتج مطلقا كائنا حقيقيا . ومن هنا يظهر لنا بوضوح جلى وبأسلوب رياضى أنه لا بد من أن يكون قد وجد شىء فى الوجود من الأزل ، لأن كل ماله بداية يجب أن يكون ناتجا من شىء تقدمه . ومما لا ريب فيه أن كل كائن يكتسب وجوده من وجود غيره يستمد منه كل ما هو متمتع به من الخصائص والصفات . إذن فالينبوع الأزلى الذى تستمد منه جميع الـكائنات يجب أن يكون هو أصل جميع قواها ووجودها ، فهو إذن قادر على كل شىء ، وغـير ذلك فان الانسان يرى فى نفسه قوة على العـلم ، فيجب أن يكون الأصل الأزلى الذى نتج منه الانسان عالما ، لأنه لا يعقل أن ذلك الأصـل يكون مجردا عن العلم وتنتج منه كائنات عاقلة . ومما يناقض البـداهة أن المادة المجردة من الحس تمتع نفسها

بعقل لم يكن لها من قبل ، فيجب بالبداهة أن يكون أصل الكون عاقلا — بل لا حد لعقله وهو الله تعالى :

ولنقف هنا اليوم ، ولننشد قول أمية بن الصلت ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادّكار — وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات — وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل — مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا — فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج — وبروق وراءها أمطار
إن شان الاله شأن كبير — جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

التفرغ لتقرير العدالة

دخل عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما أيام خلافته فسلم فلم يرد عليه . فقال لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون خليفة رسول الله قد وجد على . فكلم عبد الرحمن أبا بكر فى ذلك . فقال له : إنه أتانى . وبين يدى خصمان قد فرغت لهما سمعى وبصرى وقلبى وعلمت أن الله سائلى عنهما ، وعما قالا ، وعما قلت .

وقال حكيم إسلامى : حق على من ملكه الله على بلاده ، وحكمه فى عباده ، أن يكون لنفسه مالكا ، وللهوى تاركا ، وللغيظ كاظما ، وللظلم هاضما ، وللعدل فى حالتى الرضا والغضب مظهرا ، وللحق فى السر والعلانية مؤثرا . وإذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته ، والقلوب محبته وأشرق بنور عدله زمانه ، وكثر على عدوه أنصاره وأعوانه .

وقد أحسن من قال :

لا تقدح الظنة فى حكمه — شيمته عدل وانصاف
يمضى إذا لم تلفه شبهة — وفى اعتراض الشك وقاف

السنة

الطوفان وما يتعلق به

ذكرنا فى مقالنا السابق نص حديث ابن جرير فى الطوفان، وبينا بعض المعانى التى اشتملت عليها آية « وقيل يا أرض ابلعى ماءك الخ »، وقد بقى الكلام فى أمور : (١) ملخص ما اشتملت عليه الآية الكريمة من المعانى الدقيقة . (٢) هل أمر الله للأرض والسماء حقيقة أو مجاز، وبيان كل منهما (٣) بيان أن القرآن الكريم محفوظ من الأقاصيص الباطلة، فكان ينبغى للمفسرين أن يطرحوها جانبا (٤) بيان ما جاء فى آخر الحديث من أن نوحا أمر الحيوانات التى كانت معه بالصيام فصامت .

(١) قد ذكرنا فى مقالنا السابق أن الله سبحانه أراد أن يعبر بهذه الآية عن عظم قدرته الذى لا حد له، ويبين أن أمره فى خلقه نافذ، فإذا أراد شيئا فلا مرد له، وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء عظيما كان أو صغيرا، وأن عظائم الأمور تستوى بالنسبة لقدرته القاهرة مع صغائرها . فأشار الى هذا كله بهذه الآية الصريحة التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام ولا تكلف ولا غرابة، ولا إطالة ولا حشو، ولا تنافر بين ألفاظها وحروفها ؛ بل عذوبة ألفاظها وسهولة معانيها ودقة إشاراتها وجمال بيانها تصل الى عقول ذوى العلم والفكر بدون عناء، بل لا بد لكل من يسمع هذه الآية من أن يفهم منها معنى سهلا ومحصلا يفى بالغرض وإن لم يدرك جميع ما فيها من كل هذه المعانى التى عجز العلماء المفكرون عن استقصائها الى الآن فلو اجتمع البلغاء جميعا فى صعيد واحد وقيل لهم : عبروا عن هذه المعانى التى تفهم من هذه الآية قبل أن يطلعوا عليها ويسمعوها لكتبوا فى ذلك صحفا كثيرة، ومع ذلك لم تصل عقولهم الى عشر معشار ما حوته من معان تعجز عن مراعاتها العقول البشرية مهما أوتيت من صفاء وزكاء . فسبحان الله العليم القدير ؟

وقد بينا تفصيل بعض المعانى التى احتوت عليها هذه الآية الكريمة فى مقالنا السابق ونريد أن نلخصها للقراء الآن لننتقل منها الى الكلام فى الحقيقة والمجاز وغيرهما من علوم البلاغة .

وحاصل ذلك : أن الله سبحانه أراد أن يبين المعانى التى أشرنا الى بعضها فى مقالنا السابق بهذه الآية الموجزة التى تسيل عبارتها رقة ، ويزهو حسن بيانها على جميع عبارات البشر مهما كانت فصيحة بليغة ، فبين لنا منها أمورا .

(أولا) أمر الأرض أن تكف عن إسالة الماء الذى تفجر منها وسال على ظهرها فأغرق جميع من عليها وترد القدر الضار الى بطنها ، فاستجابت وفعلت ما أمرها الله به بدون إبطاء .

(ثانيا) أمر السماء أن تكف عن إنزال الماء الكثير الذى ينصب منها على الأرض ، فاستجابت ونفذت ما أمرها به .

(ثالثا) أمر الماء الذى نزل من السماء ونبع من الأرض أن يغيض وينقص الى الحد الذى ينفع الناس ففعل .

(رابعا) أن يظهر للنوع الانسانى أنه سبحانه لن يترك الرسل ولن يهمل أمرهم وإن طال الأمد فقال : « وقضى الأمر » ، وهو إنجاز ما وعد الله به نوحا من إغراق قومه ، فقضى ذلك الأمر . وذلك شأنه سبحانه مع رسله السابقين الذين كانوا يلاقون من أممهم ما يلاقون من اضطهاد وتعذيب ، كما قال تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » ومعنى ذلك أن الله يهمل الظالمين الطاغين ولا يستعجل عقوبتهم كى لا يكون لهم حجة فيظن الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيما أوعدهم به الرسل من العذاب . وعند ذلك ينفذ الله سبحانه ما طلبه الرسل من العقوبات التى يستحقها المجرمون الطاغون . فهذا هو مجمل المعانى التى اشتملت عليها الآية الكريمة .

ولكن هل أمر الله للارض والسماء والماء بهذا من باب الحقيقة أو من باب المجاز ؟ جمهور المفسرين والعلماء على أن ذلك من باب المجاز لا من باب الحقيقة ، وأن الواقع ونفس الأمر هو أن فاعل ذلك كله هو الله وحده بدون واسطة سبب من الأسباب ، وأنه سبحانه إذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون . وذهب فريق من محقق العلماء الى أن هذه الأوامر كلها من باب الحقيقة لا من باب المجاز .

مع العلم بأنهم متفقون على أن الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له فى الآية مجاز بدون نزاع .

وإليك بيان كل مذهب من المذهبين : فأما الذين يقولون إن أمر الله للسماء والأرض حقيقة فيمكنهم أن يبينوه بأن الله سبحانه قد خلق فى هذه الأجرام قوى عاقلة تدرك به أمر الله تعالى ونهيه كما يدرك الانسان على خلاف العادة المعروفة لنا من أن الجمادات لا تدرك ولا تفهم . وهؤلاء قد يؤيدون رأيهم بأن الكلام إنما هو فى بيان آثار قدرة الله عز وجل ،

وأنه سبحانه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وأن الطاغين المتمردين على خالقهم أقل شأنا من الجمادات التى تطيع خالقها . ومما لاريب فيه أن هذا المعنى يستفاد من الحقيقة بلا حاجة الى المجاز . فالله تعالى يقول : إننى خلقت الادراك فى الجماد وأمرته فنفذ الأمر بدون تردد ، وخلقت العقل فى الانسان وأرسلت له الرسل المؤيدين بالمعجزات الظاهرة فكفر وتمرد وعصى فبعدا للقوم الظالمين وهذا القول يحتمل ثلاثة أوجه :

(أحدها) هو أن يقال : إن الله تعالى خلق فيهما الأدراك بدون أسبابه المعروفة لنا من العقل والحواس الظاهرة والباطنة . وذلك هو رأى جمهور المتكلمين الذين يقولون إن الربط بين الأسباب والمسببات عادى لا عقلى ، فيجوز أن يوجد المسبب بدون سبب ، أو يوجد السبب ولا يوجد المسبب مع عدم المانع من وجوده . وحينئذ فلا مانع من أن يوجد الادراك فى الجماد مع عدم وجود الحواس والعقل .

(ثانيهما) أن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات وجعل الربط بينهما ضروريا بحيث إذا وجد السبب ولم يوجد المسبب ظاهرا فانه لا بد أن يكون السبب موجودا فى الواقع . فاذا رأى الانسان مسببا بدون سبب فذلك لقصوره عن إدراك السبب . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الله سبحانه خلق فى الأرض والسحب التى لا تدرك وسائل الادراك ووسائل التنفيذ ، وأمرها فأطاعت ونفذت وإن كنا لا نعرف كيف خلق الله فيها تلك الوسائل التى لا توجد عادة إلا فى الانسان أو الحيوان ، كما لا نعرف كيف خلق الله فى الانسان العقل الذى يدرك الكليات ، والحواس التى تدرك الأمور الجزئية ، بل تكفى معرفة أنه ممكن فى ذاته بلا نزاع وقدرة الله صالحة لإيجاد كل ممكن وإعدامه باتفاق . ولكن أصحاب الرأى يقولون إن الربط بين الأسباب والمسببات عادى يصح أن يتخلف ، وأصحاب الرأى الثانى يقولون إن الربط بينهما عقلى لا يتخلف كما هو سنة الله التى لا تبديل لها ، وعلى كل حال فان هذين الرأيين متفقان على النتيجة ، وهو أن خطاب السحاب والأرض الوارد فى الآية الكريمة من باب الحقيقة لا من باب المجاز .

(ثالثها) أن يقال إن السنة الصحيحة قد جاء فيها أن لله ملائكة موكلة بالسحاب وملائكة موكلة بما فى الأرض من جبال وبحار وغير ذلك ، وسواء كانت هذه الملائكة أرواحا مجردة عن المادة كما هو رأى بعض فلاسفة الاسلام (وهو الصحيح المعقول) أو لم تكن كذلك ، فقد وصفها الله سبحانه بالقوة والعلم . وعلى هذا فيمكن أن يكون الخطاب للملائكة المتعلقة بها . وإذا كان الانسان لا يدرك إلا بالعقل المتعلق به تعلقا معنويا فكذلك هذه الأجرام لا تدرك إلا بالملك أو الروح المعنوية المتعلقة بها . فكما أن الله تعالى يأمر الانسان وهو الحيوان [illegible] باعتبار العقل المدرك فكذلك يأمر هذه الأجرام باعتبار الملائكة المتعلقة بها

تدرك وتنفذ الأمر . وكل ما يمكن أن يقال من الفـرق بين الحالتين . هو أن الأمر الصادر الى الانسان هو الذى ينفذه بما أودعه الله فيه من الحواس والقوى ، بخلاف السحب والأرض فان الذى يفهم وينفذ هو الملك المتعلق بها . وهذا لا يخرج الـكلام عن الحقيقة الى المجاز . غايته أن يقال : إن فيـه حذف مضاف كقوله تعالى : « واسئل القرية التى كنا فيها » يعنى واسأل أهل القرية . ومعروف أن حذف المضاف لا يخرج الـكلام من الحقيقة الى المجـاز . فنداء الله للسحب نداء للملائكة المـكلفين بها ونداؤه للأرض نداء للملائكة المـكلفين بما عليها كملائكة البحار . على أن الفلاسفة قـد أثبتوا للأفلاك نفوسا مجردة عن المادة . أما كون هذه النفوس للافلاك الكلية أو لها وللجزئية فهو خارج عن موضوعنا الآن . وقد بينا بعضه فى مجـلة الأزهر فى الجـزء الرابع سنة ١٣٥٦ . وبذلك يتضح أن نداء الله للأرض والسحب ونحوهما حقيقى . وإذا أمكنت الحقيقة فلا يصح العدول عنها الى المجاز . ويؤيد ذلك أن الله تعالى قد صرح بخطاب الأرض والسماء وأمرهما صريحا فى غير هذا المقام فقال تعالى فى سورة فصلت « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طـوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » . وكذلك قد صرح الله تعالى بأن الجماد ينطق ويتكلم فقال فى هـذه السورة : « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » . وقد اتفقوا على أن النطق فى الآية الثانية حقيقى لا مجاز فيه . وقالوا إن معناه أن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذى قدر على انطاق كل حيوان . فالذى قدر على خلق الادراك فى الانسان ، والقـدرة على النطق لا يعجزه أن يخلق هذا الادراك فى الجوارح التى لا تنطق عادة .

ومن هذا البيان يتضح أن إرادة الحقيقة من هـذه الآية الـكريمة ممكنة ، وأنها أبلغ من المجاز ، لأنها تدل على عظم قدرة الإله عز وجل على وجه لا تحيط به العقول ، وهو المقصود من السياق . هـذا هو بيان رأى القائلين بأن الـكلام فى هذه الآية من باب الحقيقة لا من باب المجـاز .

أما القائلون إنه من باب المجاز فإليك بيان رأيهم :

قالوا : إن خلق الإدراك فى الجماد خـلاف الظاهر المعروف للمخاطبين بالآية الـكريمة ، والمجاز فى هـذا المقام أبلغ من الحقيقة لما فيه من تصوير أثر القدرة فى صورة لا تحيط بها العقول ولا تدركها الأفهام . فهو سبحانه يقول لعباده من ذا الذى يستطيع ويقدر على أن يخلق هذه الأجرام ويخلق ما يصدر عنها من أفعال غيرى ؟ فضلا عما فيه من دقائق التشبيه والتصوير المعجز للبشر . وبيان المجاز فى هذه الآية هو أن فيها أمورا ثلاثة : (أحدها) الفعل المراد تحصيله . (ثانيها) المأمور بذلك الفعل ، وهو المراد منه أن يوقع الفعل . (ثالثها) إيجاد ذلك الفعل

وتحصيله . فأما الفعل المراد تحصيله فهو بلع الأرض للماء وإقلاع السحب عن إنزاله . وأما المأمور المراد منه تحصيل هذا الفعل فهو الأرض والسماء . وأما إيجاد الفعل وتكوينه فهو ظاهر بعد ذلك ، لأنه عبارة عن تحصيل الفاعل للفعل . فالتشبيه ها هنا ذا يكون فى المأمور الذى وقع منه الفعل ، فيقال : شبه المأمور أو شبه المراد منه إيجاد الفعل وهو الأرض والسماء بعاقل قادر على تحصيل كل ما يطلب منه ، مطيع لا يتأخر لحظة عن تنفيذ الأمر ، وحذف المشبه به وهو ذلك العاقل وأشير إليه بشىء من لوازمه وهو النداء بيا والأمر الصادر إليه الذى لا يصدر إلا للعاقل . والعلاقة بين المشبه والمشبه به ظاهرة ، وهى أن المأمور الحقيقى يقع منه الفعل ويتعلق به حقيقة . أما المأمور مجازا وهو المشبه فإنه لا يقع منه الفعل حقيقة ، وإنما يسند إليه ويتعلق به ظاهرا . والقرينة على هذا التشبيه هى أن الذى يؤمر وينادى حقيقة إنما هو العاقل . هذا هو بيان الاستعارة فى المأمور الذى طلب منه إيجاد الفعل وبقى الكلام فى نفس ذلك الإيجاد ، فإن الإيجاد وهو تأثير الفاعل الذى يترتب عليه الفعل لا يقع حقيقة من الأرض والسماء ، فإيجاد بلع الماء لا يقع من الأرض طبعا . وكذا إيجاد الاقلاع عن إنزال الماء لايقع من السماء ، وحينئذ فلابد من تشبيه إيجاد الله وتكوينه لما أراده من إمساك الماء النازل من السماء وتجفيف الماء الواقع على الأرض بنفس الأمر الصادر منه تعالى إليهما وهو : ابلعى وأقلعى .

وحاصل هذا أنه سبحانه أمر الأرض ببلع ماعليها من الماء فقال : «يا أرض ابلعى ماءك» وأمر السماء بالاقلاع والكف عن إنزال الماء فقال « ويا سماء أقلعى » . وهذا يقتضى ظاهره أن الأرض هى التى أوجدت البلع وكونته ، وأن السماء هى التى أوجدت الاقلاع وكونته . ولكن الواقع غير ذلك ، فإن الذى وقع منه الإيجاد هو الله تعالى ، ولكنه أمر السماء والأرض ظاهرا ، فيكون الكلام من باب الاستعارة التبعية لما فيه من تشبيه إيجاد الله وتكوينه بأمره الذى صدر منه ، واستعارة صيغة الأمر للإيجاد على الوجه المبين فى علم البيان .

وبقى الكلام هاهنا ذا فى قوله تعالى : ابلعى ، وأقلعى . فأما ابلعى فمعناه الحقيقى هو أن يزدرد الانسان الطعام (يأكله سريعا) وهو معروف ، يقال : فلان بلع اللقمة أو قطعة اللحم إذا ازدردها . وهذا هو المشهور فى اللغة . أما استعمال البلع فى الماء كأن يقال : بلع الانسان الماء إذا شربه ، فالتحقيق أنه مجاز لا حقيقة . وعلى كل حال فالمأمور هنا وهى الأرض لا يقال لها ابلعى الماء حقيقة باتفاق ، وإنما يقال لها : انشقى أو جفى . وقد عرفت أن الغرض من الكلام إنما هو تصوير آثار قدرته تعالى فى صورة نافذة بدون إمهال ، وهذا يقتضى أن يعبر عنه بعبارة تفيد سرعة التنفيذ فقال : ابلعى . وعلى هذا يكون فى أمر الأرض

بالبلع استعارة . وتلخيصها أنه شبه الأرض بانسان يزدرد الطعام وحذف المشبه به وأشار اليه بشيء من لوازمه وهو البلع على طريق الاستعارة بالكناية . أو يقال : شبه الماء بالغذاء بجامع أن كلا منهما يترتب عليه الحياة : فكما أن فى الغذاء حياة الانسان ، كذلك فى الماء حياة الزرع والنبات ، وحذف المشبه به وهو الغذاء وأشار اليه بشيء من لوازمه وهو البلع وعلى كل حال فالمفسرون قد جاءوا بكل ما يحتمل من هذه الاصطلاحات الفنية ، فليرجع اليها من أراد الاستزادة .

وأما أمر السماء بقوله « أقلعى » ففيه استعارة أيضا ، وذلك لأن الاقلاع عن الشيء هو الكف عنه بالاختيار . ومعلوم أن السماء لم يصدر منها هذا الفعل ، وإنما الذى حصل هو احتباس المطر النازل منها فى الظاهر فشبه هذا الاحتباس المحكم السريع بالاقلاع عن الفعل بالاختيار بجامع السرعة بينهما . أو يقال شبهت السماء بانسان عاقل يصدر عنه الفعل بالاختيار وحذف المشبه به وأشير له ببعض لوازمه وهو الاقلاع عن الفعل ، لأنه من لوازم العقلاء !

« يتبع »

عبد الرحمن الجزيري



من تواضع العظماء

روى أنه لما ولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة قال وهو على المنبر : « إنى وُلّيتكم ، ولست بخيركم » فلما بلغ كلامه الحسن البصرى قال : بلى ، ولكن المؤمن يهضم نفسه .

وسئل بعض التابعين . هل رأيت أبا بكر ؟

قال : نعم رأيت ملكا فى زى مسكين .

وقال شاعر ولعله يقصد أبا بكر :

إذا أردت شريف الناس كلهم ... فانظر الى ملك فى زى مسكين
ذاك الذى حسنت فى الناس قالته ... وذاك يصلح للدنيا وللدين

وقال غيره متحديا له فى هذا المعنى :

إن السعيد الذى تمت سيادته ... فتى يفر من الدنيا الى الدين
يصد بالطرف منه عن زخارفها ... فيغتدى ملكا فى زى مسكين

التجديد فى الاسلام

— ٥ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها »
حديث نبوى شريف

المجـددون فى الاسـلام

فى القرن الثانى الهجرى

الأئمة الأربعة . المأمون . اللؤلؤى . أشهب . على الرضا . الحضرمى . ابن معين . الـكرخى .

—

١ — تمهيد :

فى البحث الماضى بينا جمهرة المجددين فى القرن الأول الهجرى ، وفى هذا البحث نبين جمهرة المجددين فى القرن الثانى .

يرى الحافظ ابن الأثير أن المجددين للدين فى المائة الثانية الهجرية ، هم ، من أولى الأمر : المأمون . ومن الفقهاء : الامام الشافعى ، واللؤلؤى من أصحاب أبى حنيفة ، وأشهب من أصحاب مالك ؛ ومن الامامية : على بن موسى الرضا . ومن القراء : الحضرمى . ومن المحدثين : ابن معين . ومن الزهاد : الـكرخى .

٢ — مـكانة الأئمة الأربعة :

الظاهر أن المجـددين للدين فى القرن الثانى ، الذين بلغوا فى التجديد السماء التى ما طاولتها سماء ، والذين حفظوا للشريعة جدتها ، وجعلوها غنية المجتمع الانسانى ، هم : الامام أبو حنيفة والامام مالك ، والامام الشافعى ، والامام أحمد بن حنبل ؛ فهؤلاء الأئمة الأربعة ، رضى الله عنهم ، هم الذين قدرهم الجمهور حق قـدرهم ، واعترف لهم بالزعامة والامامة فى العلم والدين ، ولم يبق لغـيرهم من الفقهاء المتقدمين ذكر إلا بقدر ما ينقل لهم من الأقوال فى أثناء كتب الخلاف على كثرة عددهم ، وعظم شأنهم ، وهم النباريس لمن أتى بعدهم ، ومع ذلك فان أسماءهم طويت ، ولم يعتبر واحد منهم متبوعا لجمهور يسير على أثره ، ويقلده فى مجموع آرائه ؛ ولقد فتح تاريخ الأبد صفحة الخلود لهؤلاء الأئمة الأربعة ، وسجل لهم فيها أنهم هم الذين باجتهادهم استنبطوا الفقه الاسلامى من أصـول الشرع ، ونشروا المعارف الفقهية فى العالم ، وملأوا

الأرض ثقافة إسلامية ، ونظما وتجديدا ، وقد ترسم الجمهور خطاهم ، وعمل بمقتضى مذاهبهم ، حتى إنه ليجعل نصوصها كأنها مقدسة لا يجوز له أن يتعداها ، ولقد انقاد لهم أكثر من أربعمائة مليون من المسلمين فى العالم ، واستمعوا لأقوالهم ، ودانوا الله بمعتقدهم ، وساروا على أثرهم ، وعبدوا الله ركعا وسجودا منذ نحو ثلاثة عشر قرنا بتلقينهم ، وجعلوهم حجة بينهم وبين الله تعالى ؛ وكل يوم تطلع الشمس وتغرب ، ويموت أناس ويحيا آخرون ، وتنقرض دول ، وتنشأ دول ، وتحدث أحداث وتنقضى ، وتوجد مذاهب وتنقرض ؛ أما مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة فباقية خالدة لا تنصرم ، وأقوالهم متبعة لا تتغير ، وقد كتبت كتبهم ، وانتشرت فى الأرض مذاهبهم ، وأنشئت المدارس والمعاهد لتلقينها ، فدرسها الشيوخ والشبان ، واستظهروها ، وصيروها إماما لهم ، واتخذوها قانونا يعملون بمقتضاه فى حياتهم العامة والخاصة ، وأجروها فى مجالس الأمراء والحكام ، وحكموا بها فى الأموال ، والدماء ، والأعراض . هذا شيء من مكانة هؤلاء الأئمة عند الأمة .

٣ — ماذا أحدث الأئمة الأربعة من تجديد فى الاسلام ؟

أما تجديد الأئمة الأربعة فى الدين ، فماثل فى مذهب كل إمام منهم فى الفقه الاسلامى ، الذى استنبطوه من أصول الشرع : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ولقد صار هذا الفقه هو النظام المتبع الذى يسير عليه المسلمون ، ويعملون بمقتضاه فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين الله تعالى ، وفيما بينهم وبين الناس ، مبينا ما للانسان من حقوق ، وما عليه من واجبات ، حتى قال أحد أفاضل الكتاب : إن الباحثين من العلماء المنصفين — حتى من غير المسلمين — يعترفون للفقه الاسلامى بأنه البحر الذى لا ساحل له ، وأنه قسطاس العدل ، وأنه مجموعة انطوت على ما يسد حاجة الناس فى التشريع ، وأن فيه كل حاجات البشر : فى عقودهم ، وتوثيقاتهم ، ومعاملاتهم ، ومنازعاتهم ، وأقضيتهم ، ونظمهم ؛ وأنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل إلا وفيه قول يوافق حاجة من حاجات البشر فى التشريع ؛ ولكننا معشر المسلمين كأننا زاهدون فى تراثنا هذا ، وكأننا جاهلون قيمة هذه التركة التى تحت أيدينا ، فلم نحسن القيام على هذا الفقه ، ولم نبرهن على أننا أهل للاستفادة منه ؛ ولو كان هذا الكنز الثمين مما ورثه الاوربيون عن أسلافهم لكانوا أبرّ به منّا ، ولبادرت حكوماتهم الى استنباط قوانينها ونظمها منه ، بل ولكان له الآن عندهم دائرة معارف منظمة تنظيما عجيبا ، بحيث لا يخطر ببال أحد معنى من معانى العدل والتشريع إلا كان من السهل الرجوع إليه فى طرفة عين فى هذه الدائرة ، فيقف منها على جميع المذاهب فى ذلك المعنى ، وعلى بدائع الأحكام ، وغريب الأقوال ، ونوادر الفتيا ، فيخرج الانسان من ذلك البحث الشامل وقد أحاط بعصارة علم العلماء فيه مدة نحو أربعة عشر قرنا . أما الباحث منا الآن عن مسألة فى هذا الفقه فإنه

يضطر الى أن يراجع عشرات المجلدات ليصل الى بعض النتيجة التى كان يصل إليها فى ربع ساعة ، وبمراجعة كتاب واحد لو فكرنا فى تأليف دائرة معارف للفقه — جميع مذاهبه — على مثال : كاربنتيه ، ودلوز ، والباندكت فى القانون . وكما قصرنا فى تنظيم هذا الفقه فإننا انصرفنا عنه الى القوانين الأجنبية ، وأين هـذه القوانين من هذا الفقه الذى أنس به المسلمون ، ومازج أرواحهم مدة نحو أربعة عشر قرنا ، وفيه مرآة مشاعرهم ، وعلاج أمراضهم الاجتماعية ، تلك الأمراض التى وضعت لمداواتها أحكام هذا الفقه وهى مستنبطة من شرع الله تعالى الذى يذعن له كل مسلم ، ويرضى به المحكوم له ، والمحكوم عليه .

فالفقه الاسلامى نظام عام للمجتمع البشرى ، لا الاسلامى فحسب ، تام الأحكام ، لم يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؛ وهو الدستور ، والقانون الأساسى لدول الاسلام ، والأمة الاسلامية جمعاء ، وإن انتظام أمر دول الاسلام فى الصدر الأول ، وبلوغها غاية لم تدرك بعدها فى العدل والنظام ؛ لدليل واضح على ما كان عليه الفقه من الانتظام ، وصراحة النصوص ، وصيانة الحقوق ، ونزاهة القائمين بتنفيذ أوامره ، ودليل على ما كان لهذه الدول من التمسك بحبله المتين ، وما دخلت الأمم الكثيرة فى الاسلام أفواجا أفواجا ، واتسعت دائرة الاسلام ، فانتشرت الأمة الاسلامية ، مادة جناحيها من نهر الغانج فى الهند شرقا ، الى افريقية ، ثم الى أواسط أوربا ، فى زمن قليل إلا باحترام الحقوق ، والعمل بقواعد الفقه الاسلامى ، والتسوية بين جميع أجناس البشر الذين كانوا فى حضانة الأمة الاسلامية .

وهذه التواريخ العربية وغيرها لم ينتقد واحد منها نظام العرب الذى كانوا عليه ، بل مدحوه بما لم يمدحوا به سواه ، واقتبسوا منه ، واختارته الأمم على ما كان لها من النظم ، فانصرفت عنها اليه ؛ فالأمة الاسلامية تحيا بالفقه ، لأنه لا رابطة ولا جامعة تجمعها سوى رابطة هذا الفقه وعقائد الاسلام ، ولا تتعصب لأى جنسية لأنه لا جنسية عند المسلمين سوى الاسلام . ويجب على كل أمة إسلامية أرادت سن قانون أو دستور أن تراعى هـذا المبدأ حفظا لهذه الرابطة وللجامعة الاسلامية . إن جامعة اللغة دائرتها ضيقة لأنها لا تشمل سوى الناطقين بالضاد مثلا ، أما جامعة الفقه فدائرتها واسعة جدا لأنها تشمل جميع المسلمين فى العالم بقطع النظر عن جنسياتهم ولغاتهم وألوانهم . لما نهضت أوربا نهضتها المعروفة للرقى العصرى كان أول حجر وضعته فى أساس مدنيتها الزاهرة هو العدل ، وسن القوانين بالتسوية فى الحقوق ، إذ لا يعقل أن ترتقى أمة وحقوقها مهضومة ، وأفرادها مظلومون ، وكل الباحثين المنصفين يعلمون أن بعض قوانين أوربا مقتبس من الفقه الاسلامى : كقانون نابليون الأول ، وغيره من ملوك أوربا ؛ فالفقه الاسلامى أصل التمدين العصرى الحديث ، والفضل كل الفضل فى احترام الحقوق ، وصيانتها ، وتشييد منارها ، للاسلام وللفقه الاسلامى .

ومن معجزات هذا الفقه أنه تم نظامه فى مدة نحو عشر سنين ، فلم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم الى الدار الآخرة حتى تركه تام الأصول ؛ ولم يمض على الأمة الاسلامية قرن ونصف حتى ألفت تآليف مهمة فى فروعه ، وبسط أحكامه ، وتطبيق أصوله على فروعه ؛ وهـذا لم يكن للامم قبل الأمة الاسلامية ؛ فهذه أمة الرومان التى يتبجح بعض أهل التاريخ بقوانينها ، ويعدونها أصل التمدين الحـديث ، لم ينضج فقهها ، ولا جمـع نظامها ، إلا على عهد القيصر « جوستنيان » سنة ٥٦٥ ميلادية أى قبل الهجرة النبوية بسبع وخمسين سنة ، بعد أن مضى ثلاثة عشر قرنا من حياة الرومان ؛ ذلك مايدلك على مكانة الفقه الاسلامى ، وأنه بوحى من عند الله (١) .

ولم يوجد شرع مزج المصالح الدينية بالدنيوية ، وبين قانون الاجتماع البشرى ، والعدالة التامة بوجه يعم جميع المصالح الاجتماعية كالشرع الاسلامى ، ولذلك كان الخليفة الأعظم عندنا معشر المسلمين رئيسا دينيا ودنيويا معا ، فهو جامع وظيفتين عظيمتين ؛ ولذا عرفوا الإمامة العظمى بأنها رياسة عامة فى الدين والدنيا توجب للمتصف بها أن يطاع ؛ أما القوانين الوضعية فلا تعلق لهـا بأمر العبادة ، ولا بالآداب النفسية ، وآداب المعاملة ، وإنما هى ضبط لمعاملة الأفراد والأمم بتبادل المصالح ؛ وأيضا فالفقه الاسلامى هو بأمر إلهى ، والعمل به طاعة لله سبحانه وتعالى ، والعامل به له أمل الثواب فى الدنيا والآخرة ، وعدم العمل به معصية متوعد عليه بالعقاب الأخروى ، زيادة عما تقرر فيه من العقوبات الدنيوية .

فالفقه الاسـلامى أمس بالنظام من بقية الشرائع ، والقوانين التى هى من وضع البشر . وفضلا عن ذلك فهو مؤسس على روح العدل والمساواة واحترام الحقوق العامة والخاصة ، والنظام المهم ، وتقرير الملك لذويه ، واحترام النواميس الطبيعية ؛ وقد اعتبر درء المفاسد ، فقدمه على جلب المصالح ، وسدّ الذرائع ، والمصالح المرسلة ، ولا ضرر ولا ضرار ، وتقديم الأهم على المهم ، وبنيت أحكامه على الاعتدال ، لا إفراط ولا تفريط ، واعتبر العرف والعادة وإن المسائل المبنية عليهما تتبدل بتبدل العصور ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، وذلك على الوجه الذى شرحناه فى العدد الأول من هذه السنة ، وكما قال عمر بن عبد العزيز . تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور ، وكما قال زياد بن أبيه لأهل البصرة فى خطبته المشهورة قد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لـكل ذنب عقوبة ، فالفقه الاسلامى صالح لـكل زمان ومكان ، ولـكل أمة ، ولهذا كان لاينسخ ، وكانت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الأمم الى يوم القيامة .

---

(١) أثبتنا بالدليل النقلى والعقلى فى مقال نشر بهذه المجلة فى المجلد الثامن أن القانون الرومانى اقتبس من الفقه الاسلامى .

٥ — ربما سأل البعض فقال : إذا كان الفقه الاسلامى كما ذكر فهل يمكن صوغ قوانين منه كالقوانين الوضعية الحديثة ؟ وإنى ادع الجواب على هذا السؤال لثقة من المتثبتين فى الشريعة الاسلامية ، وفى القوانين الحديثة ، وهو الدكتور عبد الرزاق بك السنهورى عميد كلية الحقوق السابق بالجامعة المصرية ، فانه قال مايتضمن : قسم الفقهاء الفقه الى أبواب للعبادات ، وأبواب للمعاملات ، وبذلك فرقوا بين المسائل الدينية ، وبين القانون بمعناه الحديث ، لذلك نقتصر — نحن المشتغلين بالقانون — من الفقه على أبواب المعاملات ، فهذه هى الدائرة القانونية ، ولنسمّ أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات مثلا : « بالقانون الاسلامى » ولندخل ضمن هذا القانون، بجوار هذا الجزء من الفقه ، علم أصول الفقه : وهو يبين لنا مصادر القانون ، وكيفية استنباط الأحكام من هذه المصادر ، ولندخل أيضا فى القانون الاسلامى جزءا من الكلام ، وهو المتعلق بمباحث الامامة ، فان هذا هو أساس القانون العام ولنقسم القانون الاسلامى بهذا التحديد تقسيما حديثاً : الى قانون خاص ؛ والى قانون عام ؛ وأساس تقسيم القانون الحديث هو التفريق بين القانون الخاص والقانون العام ؛ فالقانون الخاص يشمل القواعد التى تضبط علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، فأبواب المعاملات ، والأحوال الشخصية تدخل فى القانون الخاص ؛ والقانون العام : يشمل القواعد التى تسرى على السلطات العامة ، وعلاقة هذه السلطات بالأفراد ، وإذا أردنا أن نحدد فى كل قسم فروعه ، سهل علينا دون كبير مشقة أن نجد فى القانون الاسلامى الخاص : قانونا مدنيا ، وقانون مرافعات ، وأساساً لقانون تجارى ؛ وأن نجد فى القانون الاسلامى العام : قانونا دستوريا ، وقانونا إداريا وقانونا جنائيا ، وأصولا لقانون دولى عام ، ولقانون دولى خاص ؛ والشريعة الاسلامية إذا صادفت من يعنى بأمرها تستطيع أن تجارى القانون الحديث دون تقصير ، بل وتفوق عليه .

٦ — فأما عن وجود القوانين التى ذكرها الدكتور السنهورى فى الشريعة الاسلامية ، فهذا محس ملموس لا ينكره إلا من ينكر الأمور الراهنة ، والموجودات الملموسة ؛ وما مثل الفقه الاسلامى إلا كمثل الذهب يصاغ منه جميع الحلى الثمينة على الشكل الذى يهواه الانسان ؛ فلو صيغت من الشريعة الاسلامية قوانين على نظام القوانين الحديثة لكانت القوانين التى تصاغ من الشريعة أفضل من هذه القوانين الحديثة ، ولرجحت عليها وفاقتها .

وأما عن صوغ القانون الدولى من هذه الشريعة على وجه أخص ، فقد قرر كثير من أقطاب العلماء الباحثين — مسلمين وغير مسلمين — ومنهم ، نيس ، وريفى ، وهولتزندورف أنه يوجد فى الفقه الاسلامى أعمال وأوضاع تتعلق بما يسمى فى هذه الأيام بالقانون الدولى ؛ كما يوجد فيه قواعد السلم وقواعد الحرب ، وجميع القواعد التى تتعلق بدار الاسلام ، [illegible] الحرب ، ولم يقتصر على الفتح والغنيمة ، بل تجاوز ذلك الى فرض الضرائب ، و[illegible]

المواد المحرمة فى التجارة ، ونظائر هـذا ، مما لا يختلف إلا اسمه عما يستعمله الناس فى هذه الأيام .

وعلى الجملة : فالفقه الاسلامى من مفاخر الزمان ، ومعجزات الدهور ، وحسبه أنه قرر المؤاخاة العامة ، والمساواة بين أفراد الأمة ، وأعطى الحرية المطلقة لكل إنسان فى حدود الشرع ، وحفه بالحماية حيثما كان هو وأمواله وأهله ؛ وهذا من العوامل التى جعلت الاسلام يمتد امتداده العظيم ناشرا ظله على آسيا وإفريقية وأوربا ؛ فهل نعمل لهذا الفقه ونوجد منه هذه القوانين ليتبين للناس أن الشريعة الاسلامية تفوق القوانين الحديثة إذا صادفت من يعنى بأمرها ؟ . وهل :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا ؟

٧ — وهناك سؤال طالما ردده البعض فقال : النبى صلى الله عليه وسلم جاء بشرع واحد فمن أين هذه المذاهب الأربعة ، واختلافها يحدث بين الأمة ما لا تحمد عقباه ؛ وهناك فريق آخر يفضل بعض هذه المذاهب على بعض تفضيلا يؤدى الى تنقيص المفضل عليه ، وربما أدى ذلك الى الخصام بين الجهال ، والسفهاء ، وصغار العقول . وهذان الفريقان على غير الحق .

فأما الاختلاف فى الآراء وفى المذاهب فهذا من الغرائز والطبائع البشرية ولا يمكن أن تتفق آراء الناس ومذاهبهم فى كل شىء ؛ ومع ذلك فكل المجتهدين على هدى من الله ، وكلهم على حق ، وهم مأجورون غير مأزورين ، واختلافهم لا يستوجب ذما ولاقدحا ، وإنما يستدعى المدح والثناء ، لأن اختلاف المذاهب توسع فى الشريعة الاسلامية انفردت به عن الشرائع التى جاءت قبلها . فكأن كل مذهب شريعة ، وكأن المذاهب على اختلافها شرائع متعددة ، فجاءت هذه الشريعة كأنها عدة شرائع بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك توسعة زائدة لها ، وفخامة عظيمة لقدر النبى صلى الله عليه وسلم وخصوصية له على سائر الانبياء ، إذ لم يبعث كل منهم إلا بحكم واحد فى الأمر الواحد ، وبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر الواحد بأحكام منوعة حتى لا يضيق الأمر على أهلها بالتزام شىء واحد ، وحتى يثاب كل عامل بمذهب صحيح ، وحتى يحكم بكل حكم منها ، وينفذ ، ويصوب قائله ، ويؤجر عليه ، ويهدى به . على أن اختلافهم لم يقع إلا فى فروع الشريعة دون أن يمس أصولها .

وقد وقع الاختلاف فى الفروع بين الصحابة — وهم خير الأمة — فما خاصم أحد منهم أحدا ، ولا عادى أحد أحدا ، والترجيح فى المذاهب بالنظر الى الأفضل من حيث قوة الدليل ، والقرب من الاحتياط والورع ونحو ذلك فى مسائل معدودة لا من حيث مجموع المذهب ، وأما بالنظر الى التصويب فكل صواب وحق لا شبهة فيه ؛ ومن هذا يظهر خطأ من لا يرى اختلاف المذاهب ، ومن يفضل بعضها على بعض . وأخرج بن سعد ، والبيهقى : أن عمر

ابن عبد العزيز قال : ما سرنى أن أصحاب محمد لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . وروى الخطيب أن هرون الرشيد قال للامام مالك : يا أبا عبد الله : نكتب هذه الكتب ونفرقها فى آفاق الاسلام لنحمل عليها الأمة ؛ فقال الامام مالك : يا أمير المؤمنين : إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله تعالى . وروى أبو نعيم أن الامام مالكا قال : شاورنى هرون الرشيد فى أن يعلق الموطأ على الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقال له مالك : لا تفعل ، فان أصحاب محمد اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب . فقال : وفقك الله يا أبا عبد الله . وروى ابن سعد : إن المنصور قال للامام مالك : إنى عزمت على أن آمر بكتبك فتنسخ ، ثم أبعث بها الى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره ، فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ؛ فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . . . فهذا الفقه الاسلامى أثر من آثار تجديد الأئمة الأربعة فى الدين ؛ وهذا تمهيد ومقدمة لدراسة حياتهم التى تأتى بعد إن شاء الله تعالى ؟

السيد عفيفى

الوجوه مرايا القلوب

قال أرسطو أمير الفلسفة : وجهك مرآة قلبك ، فانه يظهر على الوجوه ما تضمر القلوب . وقد أولع الشعراء بنظم هذا المعنى فقال بعضهم :

إن العيون لتبدى فى نواظرها   مافى القلوب من البغضاء والاحن

وقال غيره :

تريك أعينهم مافى صدورهم   إن الصدور يؤدى سرها النظر

وقال آخر :

عيناك قد دلتا عينى منك على   أشياء لولاها ماكنت أدريها
تظل فى نفسك البغضاء كامنة   والقلب يضمرها والعين تبديها
والعين تعرف من عينى محدثها   إن كان من حزبها أو من أعاديها

وقال زهير بن أبى سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٦ —

على بن أبى طالب

يكتنف التاريخ الاسلامى غموض كثيف فى كثير من نواحيه ، وهذا الغموض قد يشتد أحيانا فيقف بالباحث فى جانب من الحيرة والاضطراب حتى لا يدرى باى مذهب يستمسك ، وعلى أى رأى يعتمد ، وبأية قصة يأخذ ، لتضارب الروايات واختلاف المذاهب فى تكييف الأحداث العظمى التى كان لها أثر عظيم فى توجيه تاريخ الأمة الاسلامية وجهته التى صار اليها .

وقد كان للعصر الأول أوفى حظ من هذا الغموض المعوق للدراسة التاريخية المثمرة ، فاننا إذا استثنينا حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته النيرة بعد البعثة ، لا نكاد نعثر على صورة واضحة تمام الوضوح لحادث تاريخى ، ولا تكاد تسلم لنا سيرة رجل من رجالات الاسلام خالية عن شوائب الغلو أو التفريط ، ولعل ذلك راجع فى أغلب أمره الى تلك الفتن القاصمة التى أسرعت الى الأمة الاسلامية وهى فى مهدها لم يشتد ساعدها ففرقتها شيعا وأحزابا والفرقة داء الأمم الوبيل ، وجهدت كل طائفة أن تؤيد مذهبها ، فلم يبال من لا يرجو لله وقارا أ كان الصدق فى يده أم كان من الكاذبين ، واختلط الحق بالباطل وراج الزيف بين الناس ، وعميت عليهم الحجة فلم يفصلوا بين رأى يعتمد على العقل والمنطق ، وآخر يتكا على الهوى ويتسشح بالأباطيل ، وجاء الذين دونوا التاريخ فكان أرفعهم درجة فى الاحسان من يجمع الروايات المختلفة ، ووراءه مذاهب تحدو بها العصبية المذهبية فلا تثبت إلا ما وافق هواها .

ولكننا الآن أمام أنظار ناقدة وعقول فاحصة لا تستطيب من البحث إلا ما كان آخذا بسبيل من التحقيق العلمى ، فلا يتدافع مع رواية صادقة ، ولا يتراجع أمام امتحان الفكر السديد ، وحسب التاريخ الاسلامى حوادثه الصادقة ، فهى مليئة بالعبرة البالغة ، وسيرة رجاله فى غنية عن غلو الأساطير المقتحمة على حياتهم إقحاما أسدل عليها حجابا من الشك الصفيق .

لم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتفع الى الرفيق الأعلى حتى مشت سعالى الفتنة ، ودب التنازع واضطربت أرشية الألفة والترابط بين الأمة ، وأصبحت عباديد من أجل الخلافة وإذا كان هذا الشقاق لم تتسع له شقة ، ولم يتفاقم له شر ببركة الصديق الأكبر ، وشدة إخلاص الأنصار لله ولرسوله ، وحزم الفاروق ، وحداثة العهد بالوحى وجلال النبوة ، فانه كان بلا ريب النواة الأولى لما جاس خلال الحياة الاسلامية من حزبية وتشيع تعددت مذاهبه وتكاثرت نحله بعد أن تضاءلت فى النفوس أسباب الألفة ، واندفعت الى الاسلام أحداث

ممن نكأ لهم الاسلام جرح عنجهية أسلافهم ، فانطووا له على مستكنة من الضغينة ، وتربصوا به الدوائر ، حتى افترصوا أول نهزة سنحت ، فأوضعوا خلال صفوف الايمان يبغونها الفتنة ، وتلاقت أغراضهم مع أغراض طوائف أخرى من طغام اليهود وأعلاج الفرس ، وكادوا للاسلام كيدا عن طريق الرأى ، لأنهم كانوا أعجز من أن يشهروا فى وجهه السيف ، لأن عهد الفاروق جعل من المسلمين قوة لا تضارع ، فلم يبق أمام المؤتمرين على الحق إلا تفريق هذه القوى عن طريق التظاهر بالغيرة المصطنعة الكاذبة على آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم والتشيع لهم ؛ وكان طبيعيا أن تقف فى وجههم جماعة أخرى ترد عليهم وتدحض آراءهم ، وثالثة تضالل الطائفتين ، ورابعة تقف فى سفح الأكمة فلا هى شرقية ولا غربية ، وتحتج لهذا التوقف وتبرره ، وخامسة وسادسة وهلم جرا ، مما اكتظت به أسفار التاريخ وأخطأه الاحصاء.

وهكذا أصبحت الأمة التى جعل الله خصيصتها من بين الأمم الوحدة الايمانية ، والأخوة الاسلامية فى هذه الصورة الملفقة من الآراء المزيفة والمذاهب المزورة بالكذب العلمى والأباطيل المختلقة ، فإن كثيرا من هذه الطوائف لم تبال فى سبيل تأييد نحلتها أن تكذب على الله ورسوله ، فتحرف من آيات الله بباطل التأويل ما شاء لها هواها ، وتقوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، وتعزو الى أئمة الهدى من الصحابة وآل البيت ما لا يتفق مع ما ضمّن الله قلوبهم من التقوى والارشاد.

ولو لا أن الله تعالى وعد بحفظ هذا الدين القويم فجعل من الأمة طائفة لا تزال على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ، تحقيقا لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » ، لو لا ذلك لكانت هذه العواصف القاصفة قد طوحت بتراث الاسلام وقوضت معالمه ، ولكن الله تعالى أبرّ بدينه وأمة نبيه صلوات الله عليه فلم يتركها لجوائح الفتن تعصف بها بل جعل لها منها من يدفع عنها غوائل الجموح الفكرى ، وينفى عن دينها كذب الكاذبين وانتحال المبطلين وغلو الغالين حتى استقامت فئاتها على الحق من غير إفراط ولا تفريط .

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه هدف هذه الطوائف والشيع ، له أو عليه ، فشيعة غالية ، غلت فيه حتى كفرت به وأبت عليه أن يكون إنسانا ، وقالت فيه بقول النصارى فى عيسى بن مريم ، وشيعة غلت فى إنسانيته وجادت بأضاحيك أشبه بأسمار العجائز وأحاديث الممرورين . فالرعد عندها صوته ، والبرق ابتسامته ؟ وشيعة اعتدلت فى كثير من أمرها ولكنها تعصبت فى مسائل فأخطأها التوفيق ، وفيما بين هؤلاء وهؤلاء طوائف حسبما وضعت كل طائفة لنفسها من قواعد وأصول ، ووراء ذلك ...

ناقمة ساخطة، فعثمانية ناصبة، وخارجية مارقة، وواقفية حائرة، وجماعية آسفة تحاول التوفيق فيخذلها التعصب المذهبي البليد.

ومما يحز فى قلب المسلم الصادق الإيمان ما نشهده فى حاضر المسلمين من آثار هذه الخلافات الطائفية التى باعدت بين أمم الاسلام فى حياتها الدينية والسياسية والاجتماعية حتى تقسمها ذؤبان الاستعباد، وأصبح المسلمون فى كثرتهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « غثاء كغثاء السيل » وهم اليوم أحوج ما يكونون الى وحدة الايمان وأخوة الاسلام، طارحين وراء ظهورهم كل ما يباعد بين قلوبهم، عاملين على ما يجمع حول راية القرآن الكريم أفئدتهم، وليس ذلك بعسير على قادة المسلمين ومفكريهم إذا أخلصوا لله ولرسوله نياتهم، لأننا لا نعلم من مسائل الدين الأصولية مسألة تقف دون تفاهم طوائف المسلمين، وأكثر الخلافات يرجع الى دواع قديمة اجتماعية وسياسية ذهب بها التاريخ، وهى الآن نظريات لا يقيم لها الواقع وزنا، ولقد خطا الأزهر معهد الاسلام الأعظم خطوة جليلة فى سبيل التقارب بين عواطف المسلمين، فهل يستمع إخواننا المسلمون فى أرجاء الأرض الى هذه الدعوة المباركة ويسائلون أنفسهم فيم يدابر الشيعى أخاه السنى ؟ وفيم الآن يختلف الأباضى مع الشيعى والسنى ؟ إنهم إن فكروا تفاهموا، وإن تفاهموا تجمعوا، وإن تجمعوا توحدوا، وعلى هذه الوحدة قام مجد الاسلام.

هذه كلمة انساق اليها القلم تمهيدا لما أردت أن أكتبه فى أحاديث قادة الفكر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليه باعتباره من أعظم قادة الفكر فى تاريخ الاسلام فلقد كان من حق البحث أن أقرأ قبل أن أكتب، وماذا أقرأ وأنا بصدد الحديث عن شخصية إذا شئت كانت من أوضح الشخصيات الاسلامية، وإذا شاء تاريخ الفرق كانت من أغمضها ؟ فلا بد إذاً من تعرف شىء مما يقوله الكاتبون فى سيرته كرم الله وجهه، وما أكثر من كتب فى سيرته، وما أشد اختلاف ما كتب، ولقد قرأت عجبا، وعذرت الشادين من شباب المسلمين إذا شبوا على هذا التباعد الفكرى، فذلك غذاء أفكارهم، وعذلت القادة لأنهم تركوا — مختارين أو غير مختارين — سيرة عظمائهم نهب الروايات الواهية المضللة فى كتب مطبوعة مقروءة تتحدث عن شخصية واحدة، ولكنها تختلف فى تصويرها أشد الاختلاف حتى كأنها شخصيات متناكرة، فرأيتنى إزاء ذلك كله مضطرا الى أن أتنكب سبيل الخوض فى معمعان هذه الاختلافات محاولا رسم صورة مجملة لشخصية أمير المؤمنين كرم الله وجهه تتمثل فيها بعض جوانب عبقريته الفكرية على سنتنا فيما كتبنا عن فاروق الاسلام.

كان أبو طالب رجلا نبيلا فى قومه، ورث مكانة أبيه عبد المطلب فى شرفه وسيادته على قريش أرجح القبائل فى ميزان الشرف العربى، وهو صنو عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، آثره أبوه بكفالة ابن أخيه وأوصاه بحفظه وحياطته، فضمه اليه بعد وفاة جده

وقام بما عهد اليه فى شانه أحسن القيام وأفضله ، روى محمد بن سعد فى الطبقات « لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه ، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها قط » وفى رعاية هذا الحب الأبوى شب النبى صلوات الله عليه بين أبناء عمه ، وهو يرى مايلاقيه عمه فى سبيل تربية أبنائه وإعاشتهم ، وكان عمه من أكثر قريش ولدا وأقلهم مالا ، وفى نحو الثلاثين من عمر النبى صلى الله عليه وسلم ولد لأبى طالب على فتلقته الحياة العربيـة بشظفها حتى شارف العام السادس ، وكانت قد نزلت بقريش أزمة وقحط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعميه حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبى طالب فى هـذا المحل ؟ فجاءوا اليه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان شديد الحب لعقيل ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ، وقال : قد اخترت من اختاره الله لى عليكم عليا .

ومن هنا تبدأ حياة فتى قريش وبطل العرب فى اتجاه جديد ، يختلف كل الاختلاف عن حياة أمثاله من صبيان العرب وأنداده من فتيانهم ، فانه انتقل من بيت كان للوثنية فيه صوت دوى ، وأثر قوى ، الى بيت أقام الله صرحه على دعائم التوحيد ، وشاد دعائمه من الاخلاص واليقين ، والصبيان أشد الناس حساسية ، وأطبعهم على التقليد والمحاكاة ، وإذا كان على كرم الله وجهه قد ارتضع الشجاعة وكرم النحيزة ، ومخايل النبل عن أبيه سيد قريش فى سنيه الأولى ، فانه درج أيام شبابه وفتوته فى مدارج الوحى ومهبط التشريع حيث أتاح الله له أفاويق النبوة ينهل منها ما شاء له استعداده وفطرته من خير وبر ، وإيمان ويقـين ، وعلم وحـكمة ، فى ظل أصفى الخليقة سريرة ، وأنقاهم علانية ، يلقى من رعايته وحبه وعطفه مالم يلقه وليد فى كنف أعطف والد ، حتى كان موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولجأ أمره ، وعيبة علمه ، وهو يصف ذلك فيقول : « يضمنى الى صدره ، ويكنفنى الى فراشه ويمسنى جسده ، ويشمنى عرقه ، وكان يمضغ الشىء ثم يلقمنيه » .

نهد على كرم الله وجهه مسلما ، وترعرع على الإيمان ، وشب طاهر العقيدة ، لم يعبد من دون الله شـيئا منذ نيطت عليه التمائم ، ولم يتفتح عقله وإحساسه للحياة إلا ونور النبوة قد أخـذ بمشاعره وهداية الوحى ملأت قلبه ، وجلال الاسلام أيقظ روحه ، وتعاليم الشريعة وآدابها كانت نبراسا له يضىء حوالك الظلمات أمامه ، وتفتح أبواب الحـكمة لعقله ؛ روى أنه دخل على النبى صـلى الله عليه وسـلم بعيد البعثة فوجده هو والسيدة خديجة أم المؤمنين يصليان ، فقال : ما هذا يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا دين الله الذى بعث به رسله فأدعوك الى الله ، وأن تكفر باللات والعزى . فقال على رضى الله عنه : هذا أمر لم أسمع [illegible] م ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا عل

إن لم تسلم فاكتم ، خشية أن يفشى أمره قبل أن يستعلنه ، فمكث على ليلته يفكر فى شأنه وشأن هذا الدين الجديد الذى جاء به ابن عمه الصادق الأمين ، ولكن هداية الله كانت ترعاه ، فلم يكد يسفر عليه الصبح حتى أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا إيمانه بدعوته وقبوله لرسالته .

ناهز على العاشرة من عمره يوم شرف الله عز وجل محمدا بالبعثة الى الناس كافة فقابله قومه وعشيرته أعنت مقابلة ، ولا سيما بعد أن أعلن صلى الله عليه دعوته ، وعلى رضوان الله عليه يشهد هذا النضال الذى سبق فيه اللسان السنان ، فصقل الله بذلك رجولته ، ونشأه على بطولة الاسلام ، فكان واحدها غير مدافع ، وفارسها غير منازع ، حتى فتح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم باب الهجرة الى المدينة ، فخرج متخفيا وأمر أخاه وابن عمه فتى قريش أن يبيت على مضجعه تلك الليلة ، فبات فيه وتغشى بردا حضرميا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فيه ، واجتمع فتيان قريش بالباب يرصدون عليا وهم يظنونه محمدا

روح الوفاء والبطولة ملأت قلب فتى الفتيان على فأنامته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخطر المواقف وأحرج الأوقات فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عهد إليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤدى عنه ودائعه ووصاياه ثم يلحق به الى المدينة حيث يبدأ الاسلام حياته الجديدة ؟

صادق ابراهيم عرجون

أسباب السؤدد

قال حكيم : أسباب السؤدد سبعة : العقل والحلم والصيانة والصدق والعلم والسخاء وأداء الأمانة ، وأضاف غيره اليها الصبر والتواضع والعفاف فتكون عشرة .

وقال رجل للأحنف بن قيس وكان سيد بنى حنيفة وهو الذى قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب . قال له رجل يوما : بم سودك قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ، ولا بأصبحهم وجها ، ولا بأحسنهم خلقا ؟ قال : بخلاف ما فيك يا ابن أخى . قال الرجل وما ذاك ؟ قال الأحنف : بتركى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عناك من أمرى ما لا يعنيك .

وقال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى لبنيه يوما : كلكم يترشح لهذا الأمر ولن يصلح له إلا من كان له سيف مسلول ، ومال مبذول ، ولسان معسول ، وعدل تطمئن اليه القلوب ، وأمن تستقر به فى مضاجعها الجنوب .

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٥ —

أسلفنا فى الفصول السابقة من هذه البحوث آراء بعض علماء أوربا المحدثين فى الاسلام وبنيه وكتابه ، وأشرنا الى ما لاحظناه فى مؤلفاتهم من مآخذ وهفوات ، وأبنا أنها ضئيلة الى جانب ما أثبتوه فى تلك المؤلفات للاسلام من فضائل وخيرات ، وقررنا أن السبب فى هذه الهفوات هو الجهل ببعض أسرار الاسلام ، أو النشوء بين أحضان دين آخر .

أما اليوم فإننا سنحاول الكتابة عن نوع آخر من العلماء الغربيين الذين تناولوا الاسلام ، وهم العلماء الذين لا تعتبر أخطاؤهم فيما كتبوه هفوات كهفوات الذين أسلفنا الحديث عنهم ، وإنما تعتبر سقطات ضخمة ليس من السهل أن نتسامح فيها أو أن يمر بها التاريخ مغضيا .

وأول هؤلاء العلماء الذين وقع اختيارنا عليهم لنحاسبهم هنا على ما فرطوا فى جنب الحقيقة حسابا عسيرا ، سداه المنطق ، ولحمته النزاهة والهدوء هو الأستاذ : « بول كازانوفا » الذى كان حين ألف رسالته التى نحن بصددها أستاذا للغة العربية وآدابها فى « الكليج دى فرانس» ثم انتدب بعد ذلك للتدريس فى الجامعة المصرية .

عنوان هذه الرسالة : « محمد ونهاية العالم » وغاية مؤلفها منها — فيما يظهر — هى محاولة إثبات أن القرآن قد أضيف إليه بعد وفاة النبى ما دعت إليه الحاجة فى نظرى أبى بكر وعمر مثل الآيات التى صرحت بأن الساعة من الأمور التى استأثر الله بعلمها بعد أن لم يتحقق ما أخبر به النبى من أنها ستقوم عند ما تنتهى مهمته ، وقد يكون ذلك فى حياته أو على أثر موته مباشرة .

عرض هذا الأستاذ لتلك المسألة ، فبحثها البحث الذى هيأته له بيئته ودراسته ، وانتهى منها الى النتيجة التى شاءها له منطقه ، والتى سنقفك عليها وعلى مناقشتها بعد قليل .

أما السبب الذى حدانا الى مناقشة هذا البحث الآن فهو أنه يعتبر أول بحث من نوعه تعرض لصحة القرآن أو تبديله وإضافة شىء إليه ، وأنه لهذا كان حدثا خطيرا أثار ثائرة كثير من العلماء الباحثين فحمل فريقا منهم على متابعته ، ودفع فريقا آخر الى مهاجمته ، وسوف يبقى مثار جدل عنيف ما لم تقم الأدلة على بطلانه . ولا ريب أن هذه الأدلة إذا لم يسطع نورها من حصون الاسلام فعليها العفاء ، لأنه من غير الممكن أن يتيسر للمستشرقين الذين يخالفون « كازانوفا » فى هذا الرأى الخاطئ مثل ما يتيسر للمسلمين المثقفين من البراهين على بطلانه .

لهذه الأهمية العظيمة التى يمثلها هذا البحث ، رأيت من الواجب على أن أغامر فى مناقشته ، فإن لم أتمكن من صد تياره ، فإنى على الأقل أساهم فى نقاش بحث كتبه عالم شهير عن الاسلام ، وأثيرت حوله زوبعة من الجدل ولا تزال تثار وستظل ما شاء الله لها أن تظل ولن تخمد إلا بالأدلة القاطعة التى تقام على بطلانها من جانب باحثى المسلمين . وقد عبرت هنا بكلمة : أغامر ، لأنى أعلم أن بعض القراء سيسخطون على هذا البحث ويقولون : مالنا ولاثارة مثل هذه المناقشات ؟ أفما كان يجمل بنا أن نكتب فيما هو أنفع من ذلك وأن نترك أمثال هذا البحث تجنبا لإيقاظ الفتن ، وبعداً عن تجرىء الناس على قداسة الاسلام ؟ ولكنى أجيب هؤلاء مقدما بأننا لو سمعنا نصائحهم لكان مثلنا كمثل النعامة التى تخفى وجهها ظانة أن الصياد لا يراها ما دامت لا تراه ، فتكون النتيجة أن نذهب ضحية هذا الحمق . وإذاً ، فيجب علينا أن لا نجبن أمام هذه المثالب التى وجهها خصوم الاسلام إليه ، وأن لا نتزوى فى أركان الخمول ، راجين أن نعود الى الظهور بعد مرور العاصفة ، فتكون النتيجة أن تجتاحنا وتهدم علينا الأسوار التى إنزوينا فى أركانها ولم ندفع عنها غوائل العدوان .

على أنى أعود الى أولئك الذين عساهم يعترضون علىّ فأرميهم علنا بالتجافى عن روح الاسلام ونص القرءان الذى يقول : « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » . ويقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، والذى قدم لنا أرفع المثل للجدل المنطقى المؤسس على الحجة القاطعة ، وليس هذا فحسب ، بل إن حياة النبى العملية كانت كلها نموذجا من نماذج الشجاعة والجهاد والاقدام والنضح عن العقيدة ولم يؤثر عنه مرة واحدة فى حياته أنه قال : « طأطىء رأسك للعاصفة تمر » بل أثر عنه أنه قال : « لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وبناء على كل ما تقدم يجب علينا أن نواجه هذه الفكرة بكل ما أوتينا من قوة ومعرفة .

غير أننا آثرنا قبل أن نبسط هذا البحث أن نترجم لك شيئا من العبارات التى صدر بها هذا الأستاذ رسالته والتى تحمل كثيرا من معانى الاجلال لنبى المسلمين ، لنسجلها على كاتبها قبل أن نخوض فى أخطائه العلمية ومناقشتها . وهاك هذه العبارات : قال : « قبل الدخول الى أعماق المسألة أحرص على أن أعلن أننى أطرح بادىء ذى بدء كل نظرية تميل الى الارتياب فى إخلاص محمد ... إن كل تاريخ هذا النبى يبرهن على أن خلقه واقعى جدى محمود ... ينبغى الوفاق على أن النبى كان رجلا ذا ذكاء عظيم فان الكيفية التى استطاع بها أن يحرز الغنى والاعتبار بعد أن كان معدما يتيما ، مقدرا له منذ الطفولة أن يقذف به بين أحضان المتربة

والبأساء (١) وإن نضوج عقله وحكمته اللذين برهن عليهما عند ظهور أول أوحائه ، وإن الفن الذى عرف كيف يجمع به قبائل العرب رغم انقساماتهم التى دامت عدة قرون وكيف يميز به ما ينبغى أن يبقى من دساتيرهم ، وما ينبغى أن يلغى منها ، وإن إبداع أسلوبه الذى لا نظير له ، بل الذى لم يستطع أى عربى أن يدرك ما اشتمل عليه من أفكار ، كل ذلك يدل على أنه كان لديه فكرة واضحة عن الحقيقة . وأن الحلم والخيال لم يكونا ميزتى عبقريته ، ولكن ميزتى هذه العبقرية كانتا الذوق وموهبة حسن الاتجاه فى الفهم والعمل .

« أية فائدة كانت تعود عليه فى مبدأ مهمته من أن يقدم الخيالات المحضة الى الناس فى صورة حقائق وإلهيات ؟ هل يمكن أن يفترض أن الطمع فى أن يحكم مكة والجنس العربى والعالم أجمع قد استولى عليه فى ذلك العصر المتأخر (٢) من حياته ، وأنه لكى يحقق هذا المشروع الهائل فكر فى أن يكون رئيسا دينيا ، وبهذه الطريقة يصبح قويا كل القوة ؟ ولكن هذا لا يمكن أن يتفق مع ميله العادى الى العزلة ومع تلك الظاهرة الغير القابلة للاعتراض ، وهى أنه ظل الى عهد البدء بمهمته بعيدا عن الحياة السياسية ولا مع تلك العقلية العربية الساخرة المرتابة الأجنبية — ولو فى ذلك العصر على الأقل — عن النظر التنسكى . فلو كان الطمع هو وحده الذى دفعه لوجد فى نفسه من سداد الرأى ما يحمله على أن يسلك طريقا آخر أقرب وأكثر مباشرة للحصول على التأثير الذى كان مولده وثروته (٣) قد صيراه جد مشروع ، بل كيف كان يتشدد كل ذلك الزمن فى أن يفرض على المكيين تلك المعتقدات التى كانت تظهر لهم مضحكة ، والتى — مع بعدها عن أن تحقق له السلطان — كانت تتضافر على نزع اعتباره من نفوسهم ؟ . إنه لم يقتنع بأنه يجب عليه أن يبحث عن أعوان خارج مكة وضدها إلا فى الوقت المتأخر ، وبعد أن يئس من أسباب انتصاره . إن طريقته فى العمل هى طريقة رجل ملهم مقتنع بأن جميع الناس مثله سيعترفون بالهية أصول الكلام الذى سمعه والذى هو يردده بكل بساطة وبدون أن يسأل نفسه لحظة واحدة هل لو وفق بين كلامه وبين عقلية معاصريه يمكن أن يكون حظه فى إقناعهم أعظم من حظه الحاضر ؟ . غير أنه حين أصبح فى المدينة على رأس جيش هجر الاقتصار على الحماس الأول ، إذ من الواضح أنه لو ظل منحصرا فى ذلك التحمس البحت بكل بساطة لسارع حزبه الى الانحلال ، ولما رأى ألبتة انتصار مذهبه ، فبعد أن كان

---

(١) خلط المستشرقون بين الفقر ونبل المولد لدى النبي صلى الله عليه وسلم فارتاب بعض جهلائهم بتاريخ أسرة عبد المطلب الماجدة فى رفعة عنصر النبي وتبعهم الدكتور طه حسين فى هذه الفكرة السخيفة فى كتابه « الادب الجاهلى » وسنناقش هذا الرأى اليوم بعد انتهائنا من ترجمة هذا النص (٢) يقصد بكلمة العصر المتأخر الوقت الذى بدأ فيه النبي بالصدع برسالته ، وهو زمن بلوغه سن الاربعين . (٣) يقصد الثروة التى أحرزها النبي من تجارته أولا ، ومن زواجه بالسيدة خديجة ثانيا .

نبيا على نهج أسلافه من الاسرائيليين ، صار رئيسا دينيا وعسكريا . وإذ ذاك بسط مزاياه الرئيسية كقائد ومنظم .

« كان محمد يرى الغاية ويتبعها بفطرته كسياسي مستنير ، وبالهامه كنبي مخلص (١) » .

الآن وبعد أن انتهينا من هذا النص الذى أثنى فيه المؤلف على النبي صلى الله عليه وسلم وسجل فيه عبقريته وإخلاصه ومقدرته السياسية وقبل أن نبدأ فى عرض آراء هذا الأستاذ الخاطئة ومناقشتها كما وعدنا القارىء يجب علينا أن نقف هنيهة عند مناقشة الفكرة التى أشرنا اليها فى الهامش رقم ١ — من هذا المقال ، وهى : « كيف يمكن التوفيق بين البؤس المادى الذى نشأ فيه النبي وبين القول برفعة أسرته ؟ » .

لم يستطع المستشرقون أن يحلوا هذه المشكلة ، فتخبطوا فيها تخبط العشواء ، فذهب « كازانوفا » الى أن القول برفعة مولد النبي هو فى الأغلب خرافة ، ولو كان حقا لهيأ له مولده مركزا عظيما قبل أن يغتنى ، ولكن المأثور من سنته لم يحدثنا عن شىء من ذلك . وقد اعتنق «كانيانى الايتالى» فى كتابه : «تاريخ الاسلام (٢)» وكذلك «جويج» و « فوليرس » هذه الفكرة الخاطئة وأيدوها فى مؤلفاتهم بأدلة هى نسيج من الفروض والأوهام .

غير أن أسخف أفكار هؤلاء الأساتذة جميعا هى فكرة « الأب لا مانس » التى تزعم أن محمدا هو طفل فقير مجهول المولد تبنته أسرة عبد المطلب . ومن العجيب أن هذا الأستاذ المضحك قد اتخذ دليلا على هذه الفكرة التى هى عار على صاحبها وحده قول القرءان : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » .

كنا نحب أن نسهب فى إظهار سخف هذا الرأى وضآلته فى ميزان العلم بسبب ما احتوى عليه من مخالفة أوليات المنطق ، بل أوليات التعقل الساذج ، ولكننا فضلنا الايجاز ، لأنه غير جدير بالاسهاب ، إذ لو كان صحيحا لفضل العرب المتكبرون المتعجرفون أن ينمحوا الى آخر طفل من أولادهم على أن يحنوا رؤوسهم لرجل شريد مجهول المولد ، ولما أجاب زعماؤهم كسرى حين سألهم عن نسبه بانه خيرهم حسبا ونسبا ، ولما ارتضى زعماء القبائل تحكيمه بينهم حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود ، ولما بايعه أبو طالب الجبار على مناصرته رغم أنه لم يعتنق دينه . ولما تردد زعماء مكة فى الاقدام على قتله حين ضايقهم بالدعوة الى الاسلام كما فعلوا رهبة من أسرته ، ولما شج حمزة رأس أبى جهل حين جرؤ على شتمه ، ولمنعت العنجهية المغالية أسر : خديجة ، وأبى بكر وعمر وعثمان من مصاهرته ، ولرأينا أفانين الهجاء وضروب السب والاقذاع تتجه الى مولده وأسرته كما كانت العادة المألوفة عند العرب ، ولما استطاع أن يجابه

(١) انظر صفحة ٦ وما بعدها من كتاب « محمد ونهاية العالم » لكازانوفا . (٢) هو كتاب ضخم فى تسعة مجلدات .

عظماء العرب بذكر أجداده فى بيئة كان نصف موهبتها ينحصر فى حفظ الأنساب . وأخيرا لو كان كذلك لما رأينا له أخوالا من أسرة بنى النجار بالمدينة ، وهى فرع من قبيلة قريش المتكبرة التى يستحيل عليها أن تزوج ابنتها آمنة من رجل وضيع ! ! .

هـذا ، ولا نريد أن نستمر فى سرد الأدلة الناصعة على بطلان ذلك الرأى ، لأنه لا يبعد على هذا القسيس أن يزعم أن كل هذه منتحلات وضعها المسلمون ، ليموهوا بها على العقول كما تعود كثير من المستشرقـين أن يتهموهم إلا أننا نحب أن نذكر لك هنا على سبيل الاستئناس رأى الأستاذ « كارادى فو » فى هذه الفـكرة السخيفة . قال :

« إن الأب لامانس الذى يلتقط بكل سرور جميع الاشارات البسيطة التى من شأنها أن تحط من مقادير عظماء رجال الاسلام الأولين قد ظن أنه يستطيع أن يرتاب فى منشأ محمد ، فأخذ الآيات المذكورة فى السورة الثالثة والتسعين من القرآن : ألم يجدك يتيما الى آخره على ظاهرها ، فاتخـذ من محمد طفلا يتيما نشأ من مولد مظلم تبنته أسرة عبد المطلب ، ثم استغله بنو هاشم فيما بعد كسلعة للاتجار .. ونحن يظهر لنا أكثر بساطة أن نرى فى هـذه السورة دعوة الى الاتعاظ ... فـكأنها تقول : كل نفس بطبيعتها فقيرة شبيهة بيتيم آواه الإله ثم أغناه(١) .

لا يفوتنا قبل مغادرة هذا المجال أن نشير هنا الى أن الدكتور طه حسين قد سرق هذا الرأى من المستشرقين فاتهم المسلمين بأنهم رتبوا شرف مولد النبى كما شاءت لهم أهواؤهم حين رأوا مصلحة الاسـلام فى القول بنبل مولده فقال : فى كتاب « فى الأدب الجاهلى » ما نصه : « فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يـكون صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف ، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بنى قصى ، وأن يكون قصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب » .

وأنت ترى من هـذه العبارات أن كاتبها يريد أن يقول : إن المسلمين قد اقتنعوا بأن أسرة نبيهم يجب أن تـكون فوق الأسر ، وهى لم تـكن فى الحقيقة كذلك فرفعوها .

وبما أنه رأى مسروق — فضلا عن أنه سخيف — فقد آثرنا أن يكون نقاشنا مع أحد أصحابه الحقيقيين . وقد أسلفنا ردنا على « لامانس » فى شىء من الايجاز الجدير به ، لتجافيه عن روح المنطق .

هذا ، وسنعرض فى الفصل الآتى آراء « كازانوفا » فى فكرة تبديل القرءان ، وسنناقشه فيها الحساب !

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) أنظر صفحتى ١٢٩ و ١٣٠ من الجزء الثالث من كتاب « مفكرو الاسلام » للاستاذ « كارادى فو »

التشريع الاسلامى

وجريانه على الاعتدال فى التكليف

كل من يلقى نظرة فاحصة على الشريعة الاسلامية ، وعلى تعاليمها الراقية الحكيمة ، ويوازن بينها وبين ما تقدمها من شرائع ، ويقيس ما جاء فيها من تكاليف بما جاء فى غيرها — يجد أنها قد جرت فى تشريعها على وضع حكيم ، وسنن مستقيم من الطريق الوسط الأعدل الواقع تحت كسب العبد واستطاعته ، والداخل فى دائرة طاقته وقدرته ، فلا مشقة توقعه فى الحرج ، ولا إرهاق يجاب إليه العنت ، ولا تهاون يخليه من المسئولية ، ولا إباحة تلقى له الحبل على الغارب .

وذلك لأنها شريعة قامت على السداد والحكمة ، فجمعت بين السهولة فى التكاليف ، والرفق فى التشريع ، والاعتدال فى الأحكام ، وبين الحزم فى كل ما يجب أن يؤخذ به الانسان من أوامر ونواه ، ومثوبة وعقوبة ، وزواجر وحدود ، فلا أثر فيها مطلقا للافراط أو التفريط فى أى اتجاه من الاتجاهات التى لا تتفق وما وصلت إليه الانسانية من درجة الانتقال والتطور عند ما اقتضت حكمة الله تعالى أن يتعبد الناس بالشرع الاسلامى .

فهى إذاً — كما يقول الأصوليون — شريعة جارية على موازنة دقيقة تقتضى فى جميع المكلفين غاية الاعتدال ، فاذا وجد فى المكلف شىء من الانحراف ، أو مظنة الانحراف عن الطريق الوسط الى أحد الطرفين ، جاء التشريع مانعا ورادّا له عن ذلك الى الوسط الأعدل على وجه يحصل به الاعتدال ، وينتفى معه الميل .

ويظهر ذلك واضحا إذا نظرنا الى خطابات القرآن الكريم للناس حين بدء التكليف ، فانه عرفهم فى كثير من آياته بالنعم التى أنعمها الله عليهم ، وبالطيبات التى أحلها لهم ، وبالمصالح التى أوجدها من أجلهم ، وبالمنافع والمرافق التى تتوقف عليها حياتهم ، ويقوم بها عيشهم ، ووعدهم بالنعيم المقيم إن أطاعوا وآمنوا ، وبالعذاب الأليم إن ظلوا على كفرهم ، وسدروا فى غوايتهم فلما لم يزحزحهم ذلك عن موقفهم ، ولم يكفكف من حدتهم ، ولم يلين من جوانبهم ، وقابلوا الإرشاد بالعناد ، والاحسان بالكفران ، واليقين بالشك ، سلك معهم القرآن سبيل نصب الأدلة ، وإقامة الحجج والبراهين ، فلما لم يرعووا بشىء من هذا ، وانصرفوا عنه ، ومالوا الى التعلق بالدنيا والاستماتة فيها ، والتهالك عليها ، لم يتركهم القرءان وشأنهم ، ولم يضن عليهم ببيان حقيقة الدنيا ، ومدى ما فيها من متاع ، ومقدار ما لها من دوام وبقاء ، بل أخذ يهيب بهم الى الرشد ، ويرجعهم الى الاعتدال ، ويصرفهم عن الميل والانحراف ، ويضرب لهم

الأمثال المبينة لحقيقة الدنيا ، والمنبئـة بزوالها وفنائها ، فقال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » وقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم وتـكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الـكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

***

هذا هو موقف القرءان الـكريم من الناس فى مخاطباته إياهم أول الدعوة الى الايمـان ، وعند بدء التـكليف ، وهـو موقف ينطوى على منتهى العناية بمصالح العباد ، ويدل على غاية الانصاف فى معاملتهم ، وأخذهم بما فيه كل الرفق بهم ، والتسامح معهم ، والتيسير لهم ، والتفادى بهم عن مزالق الحرج ، وأعباء المشقة ، حتى لا ينقطعوا عن العمل أثناء الطـريق ، ويبغضوا العبادة ، ويعيوا بالتـكاليف ، وحتى لا يقعوا فى شيء من التقصير بتزاحم الأعمال ، وتـكاثر المطالب ، فجاءت تعاليمه سمحة سهلة حافظة على الخلق حبهم لهـا ، ورغبتهم فيها ، قال تعالى : « واعلموا أن فيـكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولـكن الله حبب إليكم الايمـان ، وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الـكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وفى الحق إن هذا الموقف ليس بغريب على دين قصد فيه مباشرة الى مصالح العباد فى العاجل والآجل معا ، ولا على تشريع هو من وضع الله الخالق لـكل شيء ، المحيط بجميع الشئون ، العالم بأن الناس — مهما كانت قوتهم ، وكان استعدادهم — يضعفون أمام التكاليف ، وينوءون بحملها ، قال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولـكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم » وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

***

كما كان موقف الشريعة الاسلامية من الناس فى بدء التكليف معنيا بدعوتهم الى التوسط والاعتدال ، كذلك كان موقفها منهم بعد إيمانهم ودخولهم فى الدين ، فلقد حرصت على أخذهم بهما فى كل شيء حرصا شديدا ، ونبهتهم إليهما فى كثير من نصوصها ، واهتمت فى مواردها [illegible] بتجنب الانحراف ، والبعد عن الميـل والتحرز من أن يختـل ميزان الاعتدال

فى أفعال العبد ، فيقع فيما قد يجره الى الشدة والعنت ، أو فيما قد يستهويه الى الاندفاع فى تيار الاهمال والتهاون .

ومن الأمثلة الواضحة فى هذا الصدد أنه لما ورد على لسان القرآن الكريم ذم الدنيا ، وتحقير متاعها ، وتسفيه الراغبين فيها ، وتحميق المتطلعين الى زهراتها ، همّ جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتبتلوا ويتركوا النساء وينصرفوا عن اللذة والدنيا ، وينقطعوا الى عبادة الله ، فلم يكن من الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلا أن رد عليهم ذلك ، ونهاهم عنه ، وحذرهم عاقبته ، وقال : من رغب عن سنتى فليس منى ، ولم يقف معهم عند هذا الحد بل أقرهم على جمع الدنيا ، والتمتع بالحلال منها ، ودعا لأناس منهم بكثرة المال والولد ، كما وقع ذلك لأنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان له بستان يؤتى ثمرته فى العام مرتين ، ولم يمت إلا وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولدا .

وفى هذا المعنى يقول القرءان : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ويقول : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » ويقول : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

فأنت ترى من مجموع هذا أن الشريعة المباركة لم تطالب بالزهد فى الدنيا ، ولم تأمر بتركها والتصون عن مفاتنها وزخارفها ، والتحاشى من حبائلها ومغرياتها إلا عند ظهور الحرص الشديد عليها ، والرغبة القوية فيها ، ووجود ما يقتضى الميل عن الاعتدال فى طلبها ، ولم ترغب فيها وتدع الى الأخذ بالنصيب الصالح منها إلا عند مخالفة التوسط فى الاعتداد بها ، وعند الاسراف فى إهمال شأنها ، والغلو فى العزوف عنها .

***

لم يقتصر الاسلام فى تقرير مبدأ التوسط والاعتدال فى التكليف على التشريعات العامة المرتبطة بحفظ كيان الجماعة ، والمتصلة بتوطيد نظام العمران ، بل لقد عمم ذلك حتى فى الشئون الفردية التى لا علاقة لها بالغير ، والتى ربما تعد من الأعمال الشخصية البحتة ، وذلك كالعبادة ، فإنه دعا إليهما فيها بقدر ما يدخل تحت الناموس العام ، والطاقة المعتادة ، ففى حديث الحولاء بنت تويت ، حين قالت له عائشة رضى الله عنها : هذه الحولاء بنت تويت ، زعموا أنها لا تنام الليل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تنام الليل ! ! خذوا من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يسام الله حتى تسأموا » .

وفى حديث أنس ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وحبل ممدود بين ساريتين ، فقال : ما هذا؟ قالوا : حبل لزينب تصلى ، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به ، فقال : حلّوه ، ليصلّ أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد .

وفى حديث معاذ حين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أفتان أنت يامعاذ ؟ » وذلك حين أطال بالناس الصلاة ، وقال : « إن منكم منفرين ، فأيكم ما صلى بالناس ، فليتجوز ، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » .

***

هذه كلها شواهد ناطقة بجريان التشريع الاسلامى على الاعتدال فى التكليف ، وبسريان هذا الروح السامى فى جميع تعاليمه وأحكامه ، وهو ما يتفق كل الاتفاق وقول الله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ولعل أحسن ما يناسب أن نختم به هذا الفصل ، وأجمع ما يمكن أن يقال فى هذا المقام هو ماذكره الشاطبى فى موافقاته عند الكلام على هذا الموضوع ، قال :

« فاذا نظرت فى كلية شرعية ، فتأملها تجدها حاملة على التوسط ، فان رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف ، فذلك فى مقابلة واقع أو متوقع فى الطرف الآخر ، فطرف التشديد وعامة ما يكون فى التخويف والترهيب والزجر ، يؤتى به فى مقابلة من غلب عليه الانحلال فى الدين ، وطرف التخفيف وعامة ما يكون فى الترجية والترغيب والترخيص ، يؤتى به فى مقابلة من غلب عليه الحرج فى التشديد ، فاذا لم يكن هذا ولا ذاك ، رأيت التوسط لائحا ومسلك الاعتدال واضحا ، وهو الأصل الذى يرجع اليه ، والمعقل الذى يلجأ اليه » ؟

فكرى ياسين
المدرس فى كلية الشريعة

علامات اللؤم

قال حكيم : أربعة من علامات اللؤم : إفشاء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الأحرار ، وإساءة الجوار .

روى أن رجلا سأل آخر أن يصف له نفسه فتلكأ وامتنع . فأقسم عليه أن يفعل ، فقال : حسود كنود ، لجوج حقود . فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال : لقد انتحل الشر بحذافيره ، ومرق من خلال الخير بأسره ، وتأنق فى ذم نفسه ، وتجرد فى الدلالة على لؤم طبعه ، وأفرط فى إقامة الحجة على كفره .

ولعل أبو تمام يقصد رجلا مثل هذا بما يقول :

مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق

أذان الجمعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه وهو :

تأسس بالمنشاة مركز جرجا مسجد لإقامة شعائر الدين ، فكان يؤذن فيه يوم الجمعة عند جلوس الخطيب على المنبر عند باب المسجد ، ولكن أحد العلماء رأى أن يكون هذا الأذان أمام المنبر ، فحصلت مشادة بينه وبين الذين يريدون التأذين على باب المسجد كادت تؤدى الى الفتنة لولا أن حضرت قوة من نقطة البوليس . فنرجو أن تفتونا فى أى المكانين يوافق السنة ولكم الشكر ؟

حسن محمد نايب

من العلماء بالمنشاة

الجواب :

١ — كان أذان الجمعة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أذانا واحداً حين يجلس للخطبة وقد دلت بعض الروايات الصحيحة على أن هذا الأذان لم يكن داخل المسجد ، وأنه لما كثر المسلمون بالمدينة وتباعدت ديارهم عن المسجد زاد عثمان رضى الله عنه أذانا آخر وجعله عند دخول الوقت على دار بسوق المدينة يقال لها « الزوراء » للإعلام بدخول وقت الصلاة ، وأبقى الأذان الذى كان فى عهده صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه بعد جلوس الخطيب .

وقد أقرت الصحابة رضوان الله عليهم تصرف عثمان رضى الله عنه نظرا لأنه :

(أولا) فيه المحافظة على ما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من الأذان الذى يكون حين يجلس الخطيب للخطبة .

(ثانيا) إن النداء الذى استحدثه عثمان رضى الله عنه يحقق الغرض المقصود من الأذان وهو الاعلام بدخول الوقت على أتم وجه .

وعلى ذلك رأى الجمهور من الفقهاء أنه يسن للجمعة أذانان : أحدهما عند دخول الوقت ، والثانى عند جلوس الخطيب على المنبر .

وقد ذكر كثير من العلماء أن العمل استمر على هذا الى عهد هشام بن عبد الملك حيث نقل أذان الزوراء الى المنارة فوق المسجد وجعل الاذان الآخر داخل المسجد أمام المنبر . ويؤيد هذا مانقله ابن القاسم عن مالك رضى الله عنه أنه قال : « ليس الأذان بين يدى المنبر من الأمر القديم » أى ليس من السنة النبوية ولا من عمل السلف الصالح ، وعلى ذلك جرى أكثر الفقهاء من المالكية .

٢ — ويرى ابن عبد البر من كبار متقدمى المالكية أن أذان الجمعة يكون أمام المنبر حين يجلس الخطيب ، وادعى أن السنة هكذا وقال : « إن من زعم أن هشام بن عبد الملك هو الذى نقل الأذان الثانى الى داخل المسجد فقد اشتبه عليه الأمر لأن هشاما لم يفعل أكثر من نقل الأذان الأول من الزوراء الى المنارة . أما الأذان الذى يفعل الآن أمام المنبر فهو فى مكانه الذى كان فيه على عهده صلى الله عليه وسلم »

أما الشافعية فقد جاء فى مجموع النووى ما يفيد أنهم اختلفوا فى أذان الجمعة ، وأن المحاملى نقل عن الشافعى أنه قال : « أحب أن يكون للجمعة أذان واحد عند المنبر » ومن رواية المحاملى هذه فهم أكثر الفقهاء من الشافعية أن أذان الجمعة يكون داخل المسجد .

٣ — ومن هذا يتبين أن العلماء مختلفون فى أذان الجمعة من جهة مكانه ، ومن جهة تعدده ووحدته . فمنهم من يرى أنه يكون خارج المسجد ، ويخالفهم فى ذلك آخرون ، ومنهم من يرى أنه يكون أذانا واحدا لا متعددا ، ويخالفهم فى ذلك آخرون .

فأما تعدد الأذان أو وحدته يوم الجمعة فقد عمل المسلمون بكل منهما وتوارث كل قطر من الأقطار الاسلامية ما صح عنده . فالمغاربة كما حكى عنهم بعض العلماء يؤذنون للجمعة أذانا واحدا اتباعا لما كان فى عهده صلى الله عليه وسلم ؛ والمصريون يؤذنون فيها أذانين اتباعا لعمل عثمان الذى أقره عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما مكان الأذان فقبل الكلام فيه يحسن بنا أن نذكر المبادئ الآتية :

(أولا) إن للأذان غرضا يقصد منه وحكمة من أجلها شرع ، وهذه الحكمة هى إعلام الناس بدخول الوقت ودعوتهم الى الصلاة ، كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله » ، وقال جل شأنه : « وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » فجعل الله الأذان نداء ودعوة للصلاة .

(ثانيا) إن الأذان وإن كان فى ألفاظه وكيفية أدائه من الأمور التعبدية التى يقتصر فيها على الوارد ، فليس هو فى مكانه من الأمور التعبدية ، بل هو أمر معقول المعنى يقصد منه غاية معينة فى مصلحة الدعوة الى الصلاة ، فكل مكان يحقق هذه الغاية بأوسع معانيها يكون أفضل من غيره .

(ثالثا) إن صلاة الجمعة حكمها حكم سائر الصلوات فى أن يتقدمها أذان يعلم الناس بدخول وقتها ويدعوهم الى ذكر الله فيها .

... المبادئ نقول : إذا اقتصر يوم الجمعة على أذان واحد كما هو العمل عند ال...

فإنه ينبغى أن يكون هذا الأذان خارج المسجد، وعلى مكان مرتفع حتى يكون فى ذلك أوسع نطاق لإسماع الناس ودعوتهم الى الصلاة .

وإذا جعل للجمعة أذانان كما هو العمل عند أكثر الناس بمصر فإن الأذان الأول ينبغى أن يكون للاعلام بدخول الوقت ولدعاء الناس الى الصلاة ، فلا بد أن يكون على مكان مرتفع ليحقق هذا الغرض أتم تحقيق وأوفاه .

أما الأذان الثانى الذى يكون عند جلوس الخطيب على المنبر فيكون الغرض منه كما قال الحافظ ابن حجر وغيره من العلماء — الاعلام بصعود الخطيب على المنبر ليستعد الناس للاستماع والانصات فيتركوا الصلاة والكلام . وحينئذ ينبغى أن يكون هذا الأذان فى المكان الذى يحقق له الغرض المقصود منه . وواضح أن فعله خارج المسجد لا يفى بهذه الحاجة لاسيما فى المساجد الكبيرة واسعة الأرجاء . فيحسن أن يكون داخل المسجد ليكون أدنى الى تحقيق الغرض منه .

وبعد : فان اللجنة تأسف أشد الأسف لما يحصل بين المسلمين من الخلافات الشديدة والمنازعات التى تؤدى الى البغضاء والتشاحن على أمر شأنه عند المتقدمين وعلماء السلف مارأيت من خلاف ، وتدعوا اللجنة المسلمين جميعا الى أن يتخذوا من اجتماعهم لعبادة الله سبيلا للوحدة والتضامن والمحبة ، وأن يطرحوا وراء ظهورهم التفرق والمنازعة والخلاف فى دين الله باسم السنة والبدعة ، فللسنة حدود يعرفها العلماء ، وللبدعة حدود يعرفها العلماء ، والكل واضح بين لا لبس فيه ولا اشتباه . وليقدر هؤلاء وأولئك أن السنة فى الدعوة الى الحق إنما تكون للحكمة والموعظة الحسنة .

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

علامة من تمت سيادته

قال المرار بن المنقذ العدوى :

يا حبذا حين تمسى الريح باردة ... وادى الأضاء وفتيان بها هضم

مخدمون كرام فى مجالسهم ... وفى الرجال إذا صاحبتهم خدم

عمر بن عبد العزيز

— ٢ —

خلافته :

تولى الخلافة فى يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين هجرية ، بعهد من سليمان بن عبد الملك اليه دون علم منه ، قيل فى سبب العهد اليه : إن سليمان خرج ليصلى بالناس الجمعة ، فلم يرجع حتى ألم به مرض خفيف ، فلما ثقل عليه كتب كتاب عهده الى ابنه أيوب ، وكان دون الحلم ، فسأله رجاء بن حيوة : ماذا نصنع يا أمير المؤمنين ، إنه مما يحفظ الله به الخليفة فى قبره أن يستخلف الرجل الصالح . فقال سليمان : هذا كتاب أستخير الله فيه يا رجاء ، ما الذى تراه فى داود بن سليمان ؟ فقال له : هو غائب بالقسطنطينية ولا ندرى أحى هـو أم ميت . ثم سكت قليلا وقال : وما رأيك فى عمر بن عبد العزيز ؟ فقال له : أعلمه والله رجـلا فاضلا خيارا مسلما .

فأقره سليمان على ذلك ، ولكنه خشى أن تقوم فتنة من ولد عبد الملك ، فشرطها ليزيد ابن عبد الملك من بعد عمر ، وأن يكونوا عونا لعمر فى خلافته ، فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى وليته الخلافة بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم »

البيعة الأولى لعمر :

ولما ختم سليمان الكتاب أرسل الى كعب بن جابر رئيس شرطته وأمره أن يجمع أهـل بيته ، فلما جمعهم قال سليمان لرجاء بن حيوة : إذهب بكتابى هـذا فألقه اليهم وأخبرهم بأنه كتابى ، ومرهم فليبايعوا من وليت ، فصدع رجاء بالأمر ، فبايعوا من سماه فى كتابه ، ولم يكن عمر يعلم من أمر البيعة شيئا أكثر من علمه بأن أهل بيت سليمان بايعوا رجلا فى كتاب سليمان نخاف أن يكون الأمر قد أسند اليه ، فناشد رجاء أن يصارحه الأمر ليستعفى قبـل أن تأتى حال لا يقدر عليها ، واهتم هشام بن عبد الملك مخافة أن يكون الأمر قد تعداه ، فسأل رجاء ألا يكتم عليه سرا حتى يتدارك ما عساه أن يكون من خروج الخلافة من بنى عبد الملك .

موقف رجاء :

كان رجاء موضع سر سليمان بن عبد الملك ، فأبى إلا أن يكتم الأمر عليهما ، ولا يخبر أحدا منهما بحرف من الكتاب وإن أغضبهما ذلك ، ثم عاد الى سليمان فاذا هو يعالج سكرات الموت ، فلزمه حتى فاضت روحه ، وبينما هوكذلك بعثت زوجته برسول لتتعرف الخبر ، فقال له رجاء : إنه نائم ومغطى . فأخبرها بذلك فاطمأنت .

البيعة الثانية :

عندئذ أغلق رجاء الباب على سليمان وأجلس على وصيده من يثق به ، وأوصاه ألا يبرح حتى يأتيه ، ولا يدخل أحدا على الخليفة . ثم خرج الى مسجد دابق ، وفض الكتاب بعد أن أخذ البيعة لمن فيه وفى حضرة أهل بيت سليمان ، فاذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز . فقال الناس : أين عمر؟ وقد كان فى مؤخرة المسجد ، فتقدم اليهم فسلموا عليه بالخلافة إلا هشام بن عبد الملك فإنه قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » حين صار هذا الأمر الى عمر بن عبد العزيز على ولد عبد الملك . وامتنع عن مبايعته ، فهدده رجاء بضرب عنقه إن هو تمادى فى غيه ، فبايعه .

وأخذ رجاء بضبعى عمر وأجلسه على المنبر وعمر يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » حين صارهذا الأمر الىّ لكراهتى له . ثم خرجوا جميعا من المسجد لدفن سليمان ، فصلى عليه عمر وما إن شيعوا جثته حتى أقبلت مراكب الخلافة من خيل وبغال وبراذين يقود كل واحد منها سائس . فقال عمر : إن فى بغلتى وفسطاطى ما يغنينى عن مراكب الخلافة ومنزلها . فقال له مولاه : يا أمير المؤمنين كأنك مهتم . فقال لمثل هذا الأمر الذى نزل بى إهتممت ، إنه ليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد فى مشارق الأرض ولا فى مغاربها إلا له قبلى حق يحق على أداؤه إليه غير كاتب الىّ فيه وطالبه منى .

أول خطبة لعمر :

سار معه من كان مشيعا لجثة الخليفة الراحل حتى وصلوا المسجد فدخلوه ، وصعد عمر المنبر وقال : « أيها الناس ! إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » . فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعا ، حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه ثم قال : « أوصيكم بتقوى الله فإنها خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله خاف ، واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه الله عز وجل أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم ، وأكثروا من ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى نبيها ولا فى كتابها ، وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم ،

وإني والله لا أعطي أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدا حقا ، ومن أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصا الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ومن أصابته مظلمة من عامله فلا إذن له عليَّ ، ومن لا فلا أرينه . وإني والله إن منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال وضننت به عليكم إني إذا لضنين . ولا أن أنعش سنة أو أعمل بحق ما أحببت أن أعيش فواقا . ولو أن كل بدعة يميتها الله على يديَّ ، وكل سنة يحييها الله على يديَّ ، ببضعة من لحمي حتى يأتي ذلك على آخر نفس مني لكان في الله يسيرا » .

ثم نزل فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت ، وبيع جميعها ، وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين .

ردّه المظالم :

بدأ بنفسه أولا ليكون أوقع في النفس ، وليقتدى به غيره ، فخرج مما كان في يده من القطائع كالمكيدس ، وجبل الورس باليمن ، وفدك ، وقطائع أخرى باليمامة ، وجعلها لبيت المال ، إلا عينا بالسويداء كان قد استنبطها بعطائه فلم يردها ، وكانت غلتها في العام تقدر بعشرة آلاف دينار .

وجعل لا يدع شيئا مما كان في يد سليمان أو في يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة فاختصم اليه جماعة من الأعراب مع قوم من بني مروان في أرض كانت مواتا فأحياها العرب ، فأخذها الوليد بن عبد الملك وأعطاها لبعض أهله . فقال عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، من أحيا أرضا ميتة فهي له » ثم ردها على الأعراب . وذهب اليه رجل ذمي من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين : أسألك كتاب الله . قال : وما ذاك ؟ قال الذمي : إن العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي — والعباس يومئذ حاضر — فقال له : ياعباس ما تقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي سجلا بها . فقال عمر : ما تقول ياذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، أردد عليه ياعباس ضيعته . فردها .

تعففه عن مال زوجته :

لم يكن عمر ممن يحب نفسه ويتبع هواه ، بل كان يضحي بالكثير من ماله في سبيل اسعاد شعبه ورفاهيته ، ويبذل ماوسعه في تنظيم بيت المال وتنمية موارده ، فباع ما كان من كماليات للخليفة الراحل ووضع أثمانها في ذلك البيت ، وفاوض امرأته فاطمة بنت عبد الملك

— وكان أبوها قد أعطاها من المال والجواهر مالا يقدر بثمن — فى أن ترد ماعندها من مال وحلى الى بيت المال ، أو تلحق بأهلها إن هى خالفت رأيه . فقالت له : ياأمير المؤمنين إنى أختارك على هذا المال وعلى أضعافه لو كان لى ، فأمر بوضعه فى بيت المال فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة : إن شئت رددت مالك عليك ؟ فقالت : لا أشاؤه ، فلقد طبت عنه نفسا فى حياة عمر ، فلا يصح أن أرجع فيه بعد موته .

أول ما تنكر له عمر :

خالف عمر ما كان من عادات السابقين قبله ، فخرج يوما فى جنازة فأتى له ببرد كان يلقى للخلفاء ليقعدوا عليه إذاهم خرجوا الى ذلك ، فأتى له فوكزه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فعجب الناس لفعلته وأيقنوا أنه سيكون خير رجل تولى قيادتهم . فأقبل عليه رجل ووقف بين يديه ، وقال : ياأمير المؤمنين إشتدت بى الحاجة ، وانتهت بى الفاقة ، والله يسألك عن مقامى هذا بين يديك . وكان فى يده قضيب قد إتكأ عليه ، فاستعاده فأعاد ، وبكى حتى جرت دموعه على القضيب . فسأله عمر : ماعيالك ؟ قال : خمسة : أنا وزوجتى وثلاثة أولاد ففرض له عشرة دنانير وأمر بمنحه خمسمائة دينار : مائتين من ماله ، وثلاثمائة من مال الله ، يتبلغ بها حتى يخرج عطاؤه .

الولد سر أبيه :

حرص عمر على ألا يطوق عنقه بشبر من أرض أو درهم من مال المسلمين ، فجاءه أهله وأقطعوه قطيما من أرض ومال ، فهم بردها للمسلمين . فقال له مزاحم : خذه لأولادك . فذرفت عيناه بالدموع ، وقال : أكلهم الى الله . فلم يقنع مزاحم بذلك فذهب الى ابنه عبد الملك وأخبره بما كان من عزمة أمير المؤمنين ، فقال له : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ! ووثب الى أبيه وكان قد تبوأ مقيله فاستأذن ، فقال له البواب : ألا ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة فسمع عمر صوته فأذن له بالدخول ، وقال ما الذى جاء بك الى هنا ياعبد الملك ؟ فقال له : إن مزاحما أخبرنى بكذا وكذا وليس هذا من الدين فى شىء . ففرح به عمر لتمسكه بدينه ثم قام لساعته وجمع الناس وأمر برد ما قطعه له أهله ؟

محمد مصطفى شاى

المسلمون يطالبون بابطال المنكرات الدينية

سيدى المحترم رئيس تحرير مجلة الأزهر الغراء :

تحية وسلاما « وبعد » فنتقدم إليكم صورة موجزة للعرائض التى رفعت موقعة من عدة آلاف من السيوطيين من كبار الموظفين وصغارهم ومن الأعيان ومن التجار والصناع والأهالى الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح والى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء والى حضرة صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر . فنرجو التفضل بنشرها خدمة للغرض الشريف الذى تسعى اليه هذه العرائض . ومع أجزل شكرى أقدم أوفر احترامى ؟

عنهم

محمد محمد محرم

المدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيوط

قرارات

تداول المصلون فى مساجد مدينة أسيوط فى أمر الأرجاس الشائعة فى البلاد ثم أصدروا القرارات الآتية :

(أولا) استنكار استمرار انتشار البغاء الرسمى والخمر الرسمى والقمار الرسمى فى مصر البلد الاسلامى الذى يملك عليه الفاروق الصالح مليكنا المسلم الموهوب الموفق المحبوب .

(ثانيا) مطالبة الحكومة بالغاء المنكرات العلنية ومكافحة المنكرات السرية وإصدار القوانين المحرمة لتبرج النساء الفاحش .

(ثالثا) مطالبة الحكومة بجمع البغايا فى الحال فى ملجأ يؤدين فيه بعض الأعمال النافعة .

(رابعا) مطالبة وزارة المعارف بتنشئة أولادنا وبناتنا بالمدارس على اختلاف درجاتها تنشئة دينية صالحة وذلك بالاكثار من دروس الدين .

(خامسا) مطالبة الحكومة باستنباط القوانين المصرية من الشريعة الاسلامية السمحة التى تحوى كل الفضائل السامية .

(سادسا) رفع عرائض الى ساحة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح المفدى والى حضرة صاحب المقام الرفيع والى حضرة صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر لالتماس تحقيق هذه المطالب .

القومية فى التشريع

لكل أمة أحوال طبيعية واقتصادية تغاير بها غيرها من الأمم الأخرى ، كما أن حالتها النفسية والعقلية والخلقية تختلف كذلك عما لبقية الأمم .

والحالة النفسية هى فى الواقع نتيجة تكييف للأحوال الجغرافية ، والاقتصادية . فالبلاد الشمالية لها طابع نفسى مخصوص كونته الجواء الباردة وما تستلزمه من تنمية قوة الجرأة وحب الاستكشاف الناشئ عن تغير موضع الإقامة طلبا للرزق ، وتوقيا لحوادث الطبيعة . كما أن للبلاد الجنوبية — ومنها الأمم الشرقية — طابعا نفسيا خاصا خلقته جودة التربة الأرضيه وهو طابع الأنسة بالموطن والرغبة فى عدم النزوح عنه .

وعن صفة الجرأة والميل الى الاغتراب تتولد صفات أخرى ، مثل الاعتماد على النفس والاعتداد بها ، ومقاومة مشاق الحياة والتحمل للمسئولية ، كما تنشأ صفات أخرى عن الميل فى الإقامة بالموطن ، مثل التواكل والرغبة فى تكليف الغير بالقيام بالأمر وتحميله مسئولية القيادة .

ومن هنا نفهم رغبة الشرقى فى الوظيفة ، وشدة ارتباطه بالمكان الذى يحل فيه ويجد به متعة نفسه التى يقوم بها لأجله غيره ، كما نفهم رغبة الشمالى فى الهجرة ولذته فى المجازفة . من هنا نفهم لماذا تترك الأمم الشرقية التصرف فى سياستها للدخيل فيها ، ولماذا تتحول البلاد الشمالية الى دويلات صغيرة تود الاستقلال وتموت دفاعا عنه .

لهذا التباين فى الطابع النفسى يجب أن يكون هناك اختلاف كبير فى القانون الخلقى لكل من الطابعين . فالقانون الخلقى للطابع الجنوبى فى حاجة الى الحض على العمل ، والرفع من شأن الاعتماد على النفس ، والخفض من شأن التواكل والكسل ، لأنه كلما مالت الناس الى الراحة بسبب عوامل طبيعية زاد واجب الأخلاق فى إبعادهم عنها ، وتعين على القانون التشديد فى العقوبة على الأعمال المبنية عليها . فالسرقة والتسول مثلا من الأعمال التى يساعد عليها الميل الطبيعى الى الراحة ، ووقوعهما فى البلاد الجنوبية لذلك مطرد .

هذا على العموم بالنسبة لما هو شمالى أو جنوبى ، بغض النظر عن أن كل بلد فى المنطقة الشمالية الباردة ، أو فى المنطقة الجنوبية الحارة ، أو المتوسطة ، لها مميزات أخرى غير المميزات الجوية لا بد من مراعاتها فى التشريع أيضا .

فالعادات المألوفة للشعب ، والخلق الموروث فيه ، لا بد أن يحظى بنصيب من نظر المقنن . لأن القانون الذى يغفل هذه الناحية يغفل فى الواقع أحد الجزأين المكوّنين لنفسية الشعب ،

إذ نفسية الشعب عبارة عن الآثار المطبوعة فى عقل كل فرد من أفراده بوساطة العالم الخارجى. وهذا العالم الخارجى إما أنه الطبيعة الجغرافية للشعب، أو بيئته العقلية التى تتمثل فى عاداته وقانونه الخلقى والدينى.

ولهذا فالقانون الذى لم يُبن على «نفسية الشعب» إما أن يلقى معارضة فى تنفيذه، أو يؤدى الى نتيجة سلبية. فالطبيعة الجغرافية ما دامت على حالها، والعادات والأخلاق ما دامت لم تتغير، فلا بد أن يوضع القانون ملائما لهما. وخطوة الإصلاح حينئذ تكون بالبدء فى تنظيم طبيعة البلد والتغيير من عادات الشعب ووضعه أمام قانون خلقى آخر، ثم يتبع ذلك تعديل القانون حسب نسبة التغيير والتطور فى هذه العوامل.

فالقانون المصرى مثلا الذى يقضى بتجنيد العرب والبدو تجنيدا نظاميا، لم يلاحظ فى وضعه عادة هؤلاء وما جبلوا عليه من اعتبار عدم خضوعهم للتجنيد ميزة خاصة بهم حتى صار موضع الفخر فيهم. فقبل الإقدام على سن هذا القانون يجب على المشترع بوساطة الدعاية والتعليم أن يهيئهم لقبوله بتفهيمهم أن من الرجولة، التى هى طبعا من مواضع فخرهم، الاستعداد للدفاع ورد مقاومة العدو، ثم تفهيمهم مع ذلك أنهم ليسوا أفرادا فحسب يعيشون موزعين فى نقط متعددة، وإنما هم ينتسبون الى أمة، وأن هذه الأمة فى حاجة إليهم، والى دفاع منظم موحد من كل أبنائها. بعد هذه المحاولة من الإقناع يستطيع التشريع المصرى أن يخرج قانون التجنيد الإجبارى شاملا للعرب والبدو.

كذلك إذا أريد تجنيد الأزهريين، لا شك أن القانون يلقى معارضة نفسية شديدة، لأن الصفة الروحية التى للكنيسة قد غلبت على الاسلام أيام ضعفه ومحنته، وعلى علمائه إبان استسلامهم، وعودت هؤلاء على أن الشرف فى عدم مساواتهم ببقية طبقات الأمة فى القيام بخدمة الجندية، وعلى أن الكرامة فى احتفاظهم «بوظيفتهم المقدسة» وهى أشبه بوظيفة «النيابة عن الرب» فى العادات المسيحية التى تتنافى و «النزول» الى مرتبة الشعب.

فاذا أراد المشترع المصرى أن يتجنب هذه المعارضة ويتيقن بنتيجة إيجابية لمثل هذا القانون بين الأزهريين، فليعمد أولا الى نوع من الدعاية الاصلاحية، ولكنه نوع آخر يخالف ما يجب استعماله عند البدو والعرب للغاية نفسها. على المشترع أو المصلح أن يذكرهم بمبدأ الجهاد فى الاسلام، وبمن قام به فى زمنه الأول، يجب عليه أن يذكرهم بأن الاسلام ليس مبدأ روحيا كنسيا، وإنما هو فكرة معنوية تقوم على العزة والسلطان فى ظل العدل وتحت راية الأخلاق الكريمة. فاذا ما انتشرت هذه الذكرى بينهم فأكبر ظنى أنهم أنفسهم سيبدأون بحمل الهيئة التشريعية على جعل هذا القانون شاملا لهم كبقية الطوائف الأخرى.

وكما على المشترع أن يغير أولا من عادات البلد بالدعاية والتربية نحو ناحية الاصلاح والرقى

قبل أن يضع قانونه — الذى مهمته فى الواقع الاحتفاظ فقط بحالة فى الشعب مرغوب فيها ، وليس التغيير والتبديل لأن الكفيل بذلك هو التربية وحدها — كذلك عليه أن يتناول الحالة الخلقية السائدة فى البلد بالتعديل مبدئيا بوساطة الدعاية أيضا ، ثم يبنى قانون الأخلاق الجديد على أساس هذا التعديل .

فمثلا من المذاهب الخلقية الشائعة فى مصر ، المذاهب الصوفية . فهذه المذاهب وإن تعددت ترجع فى الفتور الذى أصاب المسلمين الى فكرة واحدة ، الى الفكرة السلبية التى تقوم على الزهد فى الحياة الحاضرة تلبية لداعى عدم الرغبة فى العمل ، وإجابة لما تتطلبه طبيعة البلدان الشرقية من الميل الى الفراغ والكسل والاستسلام ، وعدم الشعور بالمسئولية ، ومحبة الاستيطان فى موضع واحد . ومنشأ هذه الفكرة هى البلدان القديمة لتطور الفكر الانسانى بلدان الهند وما جاورها من البلاد الشرقية الحارة ، فطبيعة هذه البلاد الجغرافية هى التى أملت على ساكنيها هذه الفكرة ، وقربتها من نفوسهم ، حتى صارت عقيدة ثابتة . ومن ثم انتشرت بالتدريج فى الأقاليم الأخرى ، ووجدت من يعتنقها قلة وكثرة حسبما يكون الميل الطبيعى للفرد ، وحسبما تكون طبيعة الاقليم . والمذاهب الفلسفية القديمة — الشرقية — لم تكن سوى صدى لفكرة العزلة عن العالم والزهد فى الدنيا والتخلص من الجسم والرغبة فى الفناء فى ذات الإله الخالق ، والمسيحية ، ومن بعدها الأفلاطونية الحديثة ، تمثل جانبا عظيما من تلك المذاهب الصوفية الفلسفية .

فاذا فاجأ المشترع المصرى فرق الصوفية بمصر ، التى لا اعداد لها ، بتحريم القيام بشعائر فرقهم ، وبمنعهم من نشر هذه الفكرة بين الطبقات الفقيرة التى هى أحوج الطبقات الى السعى فى طلب الرزق بالعمل والجد فيه ، لم يجد إلا احتجاجا إجماعيا من رؤساء الصوفية وأتباعهم فاذا هو بدأ بقلب هذه الفكرة الخلقية وهذه النزعة الفلسفية بإذاعة الفكرة الاسلامية القائمة على الدعوة لله وحده ، والتى تنادى بالعمل فى الحياة الدنيا ، وبنشر مبدأ الاسلام الخلقى الذى ينص على ربط الجزاء بالعمل ، ويبغض فى السؤال والتواكل ، ويعترف بمنزلة الجسم كمنزلة الروح . فكما أن هذه تحتاج فى تأدية رسالتها من الصفاء والمحبة للغير الى عدم الافتتان بالمادة ، كذلك قرينها وهو الجسم يحتاج فى قيامه بمهمته من معاونة الروح الى الاحتفاظ بقوته ومنعته عن طريق السعى والعمل فى الدنيا . إذا تمكنت هذه الفكرة الاسلامية من نفوس الأفراد ومن نفسية الأمة ، كان للمشترع حينئذ أن يقنن بما يحفظ هذه الحال ، بما يحفظ بقاء هذه الفكرة ويضمن شيوعها .

بهذا يكون التشريع أضمن نجاحا وثباتا ، ويكون للقانون حرمته التى لا يصح أن تكون حرمة رهبة فحسب . بل قبل كل شىء حرمة تقديس واحترام .

وكما تجب مراعاة الطبيعة الجغرافية وعادات الأمة وأخلاقها فى وضع القوانين ، كذلك يجب عدم معارضتها للقواعد الدينية الصحيحة ، وإلا نشأت فى الشعب ملكة الاستخفاف ، إما بالدين ، أو بالقانون الوضعى ، لأن كلا منهما يكون حينئذ سالكا اتجاها مضادا لاتجاه الآخر ، ومستلزما طبعا لأعمال هى على النقيض مما يستلزمه الآخر . فاذا حرم الدين شرب الخمر مثلا وأباحه القانون الوضعى ، فالشعب إما أن لايتناوله لأنه حر فى تصرفه ، وإما أن يشربه ، فالدين يكون عنده حينئذ عديم الحرمة غير مستحق التقدير . وبما أن القانون الوضعى مصحوب دائما بالسلطة الزمنية فهو ضامن رجحان كفته ، ويومئذ ينعدم فى الشعب مالا يمكن أن يعوضه القانون بحال من الأحوال ، وهى الناحية الدينيـة البحتة (العاطفة الدينية كما يقـول علماء النفس) التى من أخص مظاهرها طاعة الشعب المطلقة المصحوبة بالرضى النفسى منه ، وإقامة العـدل من الحاكم بالأمر فى الرعيـة عن عقيدة مصحوبة بخشية الهية . وحكومة لا تعتمد على هاتين القاعدتين حكومة لا تنجو من خطر الانقلابات الاجتماعية .

لذلك ينادى مونتيسكى (Montesquieu) وإن لم ير وجوب اشتقاق القانون الوضعى من الدين — فى كتابه « روح القوانين » بلزوم تعاونهما « فالشريعة (١) — يقول مونتيسكى — والقانون الوضعى يجب أن يكمل كل منهما الآخر لأن بغيتهما تهذيب الانسان ، فاذا عجز أحدهما عن الوصول الى هذه الغاية وجب أن يعاونه الآخر . فالدين اليابانى مثلا لايعرف قواعد للتصديق ولا جنة ولا نارا (فهيبته محدودة) ، ولهـذا نجد القوانين اليابانية فى غاية الشدة وتنفذ بكل دقة ... » .

وعدم أخذ مونتيسكى بمبدأ اشتقاق القانون الوضعى من الدين ، وإن أوجب تعاونهما ، راجع الى أنه يرى أن الدين قواعد خلقية تقصد الى تهذيب الفرد وحده دون القدرة على تهذيب الجماعة . « فالقـوانين الدينية ترمى (٢) الى كمال الفرد الذى يقـوم بأدائها ويمتثل لها ، بينما القوانين الوضعية تقصد الى الخيور الخلقية للفرد باعتبار أنه إنسان على العموم . وإذا فهمهما كانت المعانى المشتقة من الدين محترمة فانها لا تصح أن تجعـل أساسا للقوانين المدنية ، لأن هذه مشتقة من أصل آخر وهو الصالح العام » .

واستشهد على رأيه هـذا بمقارنة بعض مسائل تشريعية اختلف حكمها على عهـد القانون الرومانى فى أيام الجمهورية والمملكة الرومانية ، ثم على عهد الكنيسة فى الأمبراطورية البابوية فالتشريع الرومانى راعى مثلا فى تنظيم الأسرة المحافظة على أخلاق النساء عموما . فلما جاءت الكنيسة لاحظت فى تشريعها للاسرة قداسة الزواج أكثر من العفة الخلقية . فقد كان يحكم

(١) صفحة ١١٩ من الفصل الرابع عشر من الكتاب الرابع والعشرين من القسم العاشر طبعة ليبتسيج سنة ١٨٤٣ . (٢) صفحة ١٤ ، ١٥ من الفصل التاسع من الكتاب السادس والعشرين من القسم التاسع .

فى عهد القانون الرومانى على الزوج — مثل زوجته — إذا أعاد زوجته الى عصمته بعد الحكم عليها لارتكابها جريمة خلقية فى مدة الزواج الأول باعتبار شركته لها فى الفسق حينئذ . ولكن لما جاء عهد الكنيسة شرع القيصر جوستنيان (Justinian) إباحة رجعتها إذا مكثت فى الدير مدة التوبة وهى سنتان .

كذلك إذا ذهب الزوج الى الحرب ولم تسمع عنه زوجته خبرا ، جاز لها بعد مضى الغيبة القانونية وهى أربع سنوات بناء على قانون قسطنطين (Constantin) — أن تكتب الى قائد الساحة فى الحرب خطاب الطلاق ثم تتزوج غيره . فاذا قدر ورجع الزوج الأول لم يكن له حق فى اتهامها بالخيانة الزوجية . ولكن بعد ما تولى القيصر البابوى جوستنيان عدل ذلك ومنعها من الزواج مهما طال وقت الغيبة حتى تتحقق وفاته بإيذان قائد الساحة نفسه .

فهذا رأى مونتيسكى — يريد إذا أن يستنتج أن القانون الوضعى ، وهو القانون الرومانى هنا ، قصد الى المصلحة العامة وهى المحافظة على العفة والتقليل من الجرائم الخلقية عند ما أباح الزواج ثانية ، بينما قانون الكنيسة قد رمى الى منفعة فردية وهى رابطة الزوجين رابطة أبدية ربما تنشأ عن أبديتها هذه أخطار خلقية اجتماعية .

ومع أن الناحية السياسية المدنية تغلب على مونتيسكى فهو لا يضمر عداء للدين اذا قال بعدم اتخاذه أساسا للتشريع الوضعى ، ونادى بالمحافظة على الفرق بين الشريعة والقانون ، لأنه يرى فى هذه المحافظة نفسها ضمانا كبيرا للمصلحة العامة ، « إذ القانون (١) الوضعى خاضع للتغيير الذى يتبع إرادة الانسان ، بينما عدم قابلية التحويل من ألزم صفات القانون الدينى لأن الأول يقصد الى « الحق » والثانى الى « الأحق » . والحسن يمكن أن يتمثل فى أشياء كثيرة بينما الأحسن لا يوجد إلا فى شىء واحد . كما أن القانون الوضعى فى دول عدة عبارة عن إرادة وقتية للحاكم ، ولو كانت القوانين الدينية بهذه الصفة لما كان هناك شىء ثابت للجماعة الانسانية ، مع أن الضرورة تقضى بذلك ، وهو ما يجده المرء فى الدين » .

مونتيسكى جعل فى الواقع أساس بحثه هذا فى تعرف الصلة بين القانون الوضعى والشريعة ، الذى يطلب له الاعتبار العام ويرغب فى تعميمه وتطبيقه كذلك على الأديان الأخرى ، ما رآه فحسب فى المسيحية من المعنى الفردى الروحى ، وبناء عليه قال بوجوب تعاون القانون والشريعة دون أن يكون أحدهما أصلا للآخر ، وبعبارة أخرى دون أن يتخذ الدين أساسا للتقنين الوضعى .

وسواء أكان مثل هذا البحث — لأنه خرج من جزئية واحدة ، وهى دين بعينه ، ومع

(١) صحيفة ٤ ، ٥ من الفصل التاسع من الكتاب السادس والعشرين من القسم التاسع .

ذلك يطلب صاحبه لنتائجه الاعتبار المطلق — موافقا لقواعد البحث العلمى الصحيح أم لا ، فالذى لا شك فيه — وهو بغيتنا من هذا المقال — أن المقنن يجب عليه اعتبار الدين على أى وجه فى تقنينه .

وإذاً معنى القومية فى التشريع عدم إغفال هذه النواحى (الطبيعة الجغرافية ، العادات ، الأخلاق ، الدين) ووجوب مطابقته لأسس الحياة الطبيعية والعقلية للشعب . ولا تعارض بين ما يوجهه الدين ، إذا قلنا بوجوب مراعاته فى التقنين الوضعى ، من نداء بأخوة عامة فى الانسانية ، وبين ما تتطلبه القومية فى التشريع من اعتبار أحوال الأمة ومصالحها وحدها ، لأن النداء بالأخوة العامة فى الانسانية معنى خلقى زائد عما يقتضيه التشريع الوضعى ، وأشبه شىء بمسألة السلام العام التى يمكن تأديتها مع حفظ كل أمة لمصالحها الخاصة بها .

أما التقليد فى القوانين فليس من التشريع القومى فى شىء ، الذى يترقب من ورائه نتيجة إيجابية ذات صبغة إصلاحيـة . لأن القانون يكون حيث يطلب صيانة حالة من حالات الأمة مرغوب فى بقائها والاستمرار عليها ، والقانون المقلد فيه لا يؤدى هـذه الوظيفة فى الشعب المقـلد لأنه وضع لحالة أخرى فى شعب آخـر ، فهو لا يعبر عن نفسية الثانى تعبيره عنها فى بيئته الأولى .

الفقه الاسلامى والتشريع القومى :

وأوضح مثل تاريخى لتأييد هـذه النظرية الاختلاف فى مذاهب الفقه الاسلامى بعضها تجاه بعض ، وأوضح منه الاختلاف الحاصل عند إمام واحد تبعا لاختلاف البيئة والمـكان . وقد أمر الاسلام بمراعاتها لأنه مبنى على اليسر لا على الارهاق ، ولذلك اختلفت بعض الفروع فى المذاهب الفقهية ، ففقه أهل العراق فى المسائل الاقتصادية يختلف اختلافا كبيرا عن فقه أهل المدينة فى المسائل عينها ، وفقه الامام الشافعى وهو ببغداد غـيره وهو بمصر . كذلك البيئة المصرية كانت تتطلب من الأحكام الفقهية الجزئية غير ما كانت عليه فى بغداد ، وحملت الشافعى على أن يكون له رأيان : القديم والحديث .

واختلاف الفقه الاسلامى تبعا لاختلاف مقومات البيئة نفسها لا يقدح فى « عموميـة » مبادئ التشريع الاسلامى وصلاحيتها لـكل زمان ومكان . لأن الأحكام الفقهية هى فى الواقع أحكام فرعية لمسائل اقتضتها الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

كما أن تطبيق القومية على الفقه الاسلامى ، أى جعل اختلاف المذاهب الفقهية دليلا على ربط التشريع بالطبيعـة الجغرافية والبيئة العقلية الخاصة ، لا يتعارض مع دعوى أن أحكام الاسلام معتبرة بالنسبة لـكل الشعوب الاسلامية وأن دعوته عامة للجميع لا فرق بين عربى وعجمى . لأن الاسلام باعتبار قضاياه الخلقية كالحث على العدل وطاعة الوالدين والرفق بهما ،

والمحافظة على العزة والسلطان للمؤمنين ، والحث على العمل والسعى لطلب الرزق وطلب التعاون والاتحاد . . . ؛ وباعتبار مبادئه التشريعية العامة ، كالزكاة ، والحج ، والقصاص والدية ، والنفقات ، والبيوع ، والجهاد فى سبيل الله . . . من المسائل الاجتماعية ، دين عام . والدعوة به معتبرة نحو كل إنسان وكل أمة . وهو بهذا الاعتبار غير الفقه الاسلامى الذى هو عبارة عن أحكام فرعية خضعت — وتخضع — للبيئة الزمنية والمكانية بترخيص منه دفعا للحرج ، وترجع فى تفريعها الى أصول الاسلام التشريعية التى لها عمومية الاعتبار .

فالفقه الاسلامى ليس نفس قواعد الاسلام الخلقية الدينية ، وليس نفس مبادئه التشريعية الكلية وإن كان يمت اليهما — إلى القواعد الخلقية والمبادئ التشريعية — بصلة المرجع والاشتقاق . وإذاً الدين الاسلامى (باعتبار الطابع الخلقى والطابع التشريعى العام) دين عالمى روحى (universal) والفقه الاسلامى محلى (local) وأيضا غير روحى ، لأنه يتعلق بتنظيم الحياة الظاهرة فحسب وليس له على النفس الفردية مباشرة من سبيل خلقى إلا بقدر ما تؤديه أحكامه كمواد قانونية ، من نتائج خلقية فى مجموع الأمة . فمثلا الغرض من إلزام الولد الموسر بالنفقة على والده العاجز عن الكسب تنظيم العلاقة بين الاثنين ودفع فاقة الجوع عن الوالد ، لأن من النظم العامة للدولة المحافظة على أرواح الافراد ، ولذلك كان لها التدخل فى خصوصياتهم لمصلحة بعضهم بعضا ، فاذا لم تلزم الولد فى هذه الحالة كانت هى المكلفة بالنفقة على الوالد . والقاضى وقت حكمه بالنفقة على الولد لم يلاحظ فى الواقع إلزامه مباشرة باحترام والده الذى — أى الاحترام — هو معنى خلقى من أخص موجباته مساعدة الولد لوالده دون احتياج الى تدخل السلطة القضائية . ولكن ذلك الاحترام سيصبح لسلطة القانون وسطوته عادة خلقية فى الشعب.

وجوب اعتماد الشرق فى تشريعه الوضعى على الفقه الاسلامى :

وإذا كانت القومية هى عماد التشريع ومن الشرائط الأولية فى تحقيق غايته من ناحية ، والتقليد فى نقل القوانين من دواعى الاضطراب الداخلى وسيادة الارتباك فى سياسة البلد الانشائية من ناحية أخرى ، وجب على كل أمة أن تؤسس تشريعها على ما لها من حالات طبيعية وما نشأت فيه من عادات ، وآمنت به من مبادئ دينية ، وارتضته لنفسها من قضايا خلقية .

فإذا قيل للقائم بأمر التشريع فى مصر : إن الفقه الاسلامى هو الفقه القومى المصرى ، أو هو أقرب أنواع الفقه الى ما يصح أن نسميه أو نكونه باسم الفقه القومى ، ولهذا يجب الاعتماد عليه فى سن القوانين ، لم يكن فى هذا القول مغالاة ولا « رجعية » . وإذا قيل له أيضا : إن القوانين الغربية لم تكن من عوامل مدنية أوربا الحاضرة إلا لبنائها على أسس البيئات القومية ، وأن بينها من الاختلاف والتفاوت بقدر ما تتميز به تلك البيئات بعضها عن بعض من خصائص ، وأنها لذلك لا تنتج إذا هى طبقت فى بلاد الشرق إلا أضرارا اجتماعية

واقتصادية وخلقية خطيرة ، لم يكن فى هذا القول أيضا جفاء للمدنية الأوربية وإغماط من حقها .

كيف يطبق قانون مساعدة العاطلين مثلا الذى ينفذ فى بعض بلدان أوربا على العاطلين فى مصر أو فى الشرق ، والشرقى على العموم ميال بحكم الطبيعة الى الكسل والقناعة التى هى ضرب من الاذعان للمذلة ؟ . حقا يمكن تطبيقه إذا أصبح السعى الى العمل من عادة الأفراد وغدا حقيقة خلقية يفخر بها الشعب . ولكن والحال على ما هو عليه من رغبة فى العطلة ومودة للفراغ وإن كان فى ظل الفاقة والجوع ، فالتقليد فيه تشجيع لما تقتضيه الطبيعة من الكسل ، وليس حدًّا لها كما يتطلبه المبدأ العام للتشريع وهو رعاية المصلحة وتقويم الطبائع الفاسدة .

وفوق ما للفقه الاسلامى من هذه الميزة ، وهى قربه على الأقل لما يصح أن يسمى تشريعا مصريا ، إن لم يكن هو نفسه ، فإن مراعاته للعاطفة الدينية مما يزيد فى تقديس الشعب للتشريع المصرى الحديث لو اعتمد عليه ، ومما يجعله أميل الى طاعته والانقياد له أكثر من مخالفته إياه .

فالفائدة من بناء التقنين الوضعى المصرى على الفقه الاسلامى ، أو بعبارة أخرى التعديل فى الفقه الاسلامى على حسب مقتضيات الحالة الطبيعية والعقلية فى الوقت الخاص ، مزدوجة ، أو على الأقل تتجنب بوساطته الأضرار الناشئة عن التقليد فى التشريع أو عن معارضة القانون الوضعى للفقه الدينى ؟

محمد البهى
دكتوراه فى الفلسفة وعلم النفس

ذم أكل الدنيا بالدين

قال شاعر يذم أهل الرياء فى عصره :

قد لبس الصوف لترك الصفا ... مشايخ العصر لشرب العصير
الرقص والتناهد من شأنهم ... شر طويل تحت ذيل قصير

وقال آخر :

أظهروا للناس نسكا ... وعلى المنقوش داروا
وله صاموا وصلوا ... وله حجوا وزاروا
إن يكن فوق الثريا ... ولهم ريش لطاروا

الدفاع عن القرآن

الأسس الثمانية التي جعلناها قواعد لبناء ردودنا على الروايات الآحادية

القاعدة الأولى : اعتراف ابن أبى داود فى كتاب المصاحف بأن المروى آحادا ليس قرآنا .
القاعدة الثانية : آراء الأصوليين فى المتواتر والآحاد .
القاعدة الثالثة : آراء علماء التفسير .
القاعدة الرابعة : خلو المروى آحادا من البلاغة والاعجاز .
القاعدة الخامسة : نسخ العرض الأخير لما تقدمه .
القاعدة السادسة : إجماع الصحابة على مصحف سيدنا عثمان .
القاعدة السابعة : ترتيب سور القرآن وآياته بتوقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
القاعدة الثامنة : حكم الشريعة الاسلامية فيمن غير كلمة من القرآن أو بدل حرفا مكان حرف.

القاعدة الأولى — اعتراف ابن أبى داود :

تقدم الكلام على اعتراف ابن أبى داود فى كتاب المصاحف بأن المروى آحاد ليس قرآنا ، وقد اعترف بذلك فى موضعين :

فالموضع الأول فى باب مصحف أبى بن كعب رضى الله عنه ، إذ ورد فيه ما نصه : « قال عبد الله بن أبى داود : لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان الذى اجتمع عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فان قرأ إنسان بخلافه فى الصلاة أمرته بالاعادة » اه . والموضع الثانى — اعترف فيه اعترافا ضمنيا ، فى أول باب اختلاف مصاحف الصحابة حيث ورد فيه ما نصه :

« قال أبو بكر بن أبى داود إنما قلنا مصحف فلان لما خالف مصحفنا هذا من الخط أو الزيادة أو النقصان — أخذته عن أبى رحمه الله هكذا فعل فى كتاب التنزيل » فقوله : لما خالف مصحفنا هذا ، يريد به المصحف الامام — ولذلك أضاف المصحف المخالف الى صاحبه ، فيقول مصحف عمر بن الخطاب ، مصحف عبد الله بن مسعود وهكذا ، فهذا القول من ابن أبى داود يدل على أن الزيادة أو النقصان ، أو المخالفة فى الخط والرسم ، الواردة فى المصاحف المضافة ليست قرآنا ، لمخالفتها الاجماع الذى انعقد على المصحف الامام — هذان الاعترافان يهدمان ما زعمه الدكتور جفرى — كما قلنا غير مرة — من أن كتاب المصاحف دليل على تطور القرآن .

القاعدة الثانية — آراء الأصوليين فى المتواتر والآحاد :

نريد الآن أن نبين ما هو القرآن — ثم نبين أن شرطه التواتر وأن المروى آحادا ليس قرآنا ، مع بيان درجته من أنه خبر أو مذهب : وقد اخترنا ثلاثة مصادر من أمهات الكتب فى أصول الفقه .

أحدها : وهو من أصول الشافعية : كتاب الاحكام فى أصول الأحكام للآمدى .

وثانيها : وهو من أصول المالكية : مختصر المنتهى لابن الحاجب .

وثالثها : وهو من أصول الحنفية : التقرير والتحبير ، شرح التحرير لابن أمير الحاج والكمال بن الهمام .

قال العلامة الآمدى فى كتابه الأحكام ص ٢٨٨ :

أما حقيقة الكتاب فقد قيل فيه : هو ما نقل الينا بين دفتى المصحف بالأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا — وفيه نظر فانه لا معنى للكتاب سوى القرآن المنزل علينا على لسان جبريل ، وذلك مما لا يخرج عن حقيقته بتقدير عدم نقله إلينا متواترا بل ولا بعدم نقله الينا بالكلية ، بل غايته جهلنا بوجود القرآن بتقدير عدم نقله الينا ، وعدم علمنا بكونه قرآنا بتقدير عدم تواتره — وعلمنا بوجوده غير مأخوذ فى حقيقته فلا يمكن أخذه فى تحديده — والأقرب فى ذلك أن يقال : الكتاب هو القرآن المنزل فقولنا : القرآن احتراز عن سائر الكتب المنزلة من التوراة والانجيل وغيرهما .

« وقولنا : المنزل احتراز عن كلام النفس فانه ليس بكتاب ، بل الكتاب هو الكلام المعبر عن الكلام النفسانى ، ولذلك لم نقل هو الكلام القديم ، ولم نقل هو المعجز ، لأن المعجز أعم من الكتاب ، ولم نقل هو الكلام المعجز ، لأنه يخرج منه الآية ، وبعض الآية مع أنها من الكتاب وإن لم تكن معجزة » اه .

وقال العلامة ابن الحاجب فى مختصره فى تعريف القرآن : « الكتاب (القرآن) وهو الكلام المنزل للاعجاز بسورة منه ، وقولهم : ما نقل بين دفتى المصحف تواترا حد للشىء بما يتوقف عليه ، لأن وجود المصحف ونقله فرع تصور القرآن »

وقال العلامة ابن أمير الحاج فى شرحه المسمى . التقرير والتحبير ، على تحرير الكمال ابن الهمام ص ٢١٣ — من الجزء الثانى ما نصه : « وهو ـ أى القرآن اللفظ العربى المنزل للتدبر والتذكر المتواتر ـ فاللفظ شامل للقرآن وغيره من الكتب السماوية وغيرها مخرج للكلام النفسى القائم بذاته تعالى ، والعربى مخرج لما سواه من الكتب السماوية ، والمنزل أى على لسان جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم للتدبر والتذكر أى

للتفكر فيه فيعرف ما يدبر أى ما يتبع ظاهره من التلاوات الصحيحة والمعانى المستنبطة ويتعظ به ذووا العقول السليمة — (ثم قال بعد كلام) والمتواتر مخرج لما كان هكذا غير متواتر كقراءة ابن مسعود رضى الله عنه (فاقطعوا أيمانهما) وأبى (فعـدة من أيام أخر متتابعات) وبعض الأحاديث الإلهية التى أسندها النبى صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى على لسان جبريل كالحديث الحسن الذى أخرجه أحمد وغيره أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أى البـلاد شر قال : لا أدرى حتى أسأل فسأل جبريل عن ذلك فقال لا أدرى حتى أسأل ربى فانطلق فلبث ما شاء الله ثم جاء فقال : إنى سألت ربى عن ذلك فقال : شر البـلاد الأسواق » اهـ .

فهذه النصوص صريحة أن المروى آحادا كقراءة ابن مسـعود ، وقراءة أبى وغيرها لا ينطبق عليه تعريف القرآن ، فهو ليس بقرآن ، ومع كونه ليس قرآنا اتفاقا ، فهل هو حجة يحتج به فى الأحكام الشرعية — ويكون حكمه حكم الحديث فى الاسـتدلال أو حكم مذهب الصحابى أم لا — واليك كلام الأصوليين فى ذلك .

قال الآمدى فى كتابه المذكور :

« اتفقوا على أن ما نقل إلينا من القرآن نقلا متواترا ، وعلمنا أنه من القرآن أنه حجة . واختلفوا فيما نقل إلينا منه آحادا كمصحف ابن مسعود وغيره أنه هل يكون حجة أم لا ، فنفاه الشافعى ، وأثبته أبو حنيفة وبنى عليه وجـوب التتابع فى صوم اليمـين بما نقله ابن مسعود فى مصحفه من قوله : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » .

والمختار إنما هو مذهب الشافعى — وحجته أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مكلفا بالقاء ما أنزل إليه من القـرآن على طـائفة تقوم الحجة القاطعة بقولهم ، ومن تقوم الحجة القاطعة بقولهم لا يتصور عليهم التوافق على عدم نقل ما سمعوه منه . فالراوى له إذا كان واحدا ان ذكره على أنه قرآن فهو خطأ وإن لم يذكره على أنه قرآن فقد تردد بين أن يكون خبرا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين أن يكون مذهبا له فلا يكون حجة — وهذا بخلاف خبر الواحد عن النبى عليه الصلاة والسلام . وعلى هذا منع من وجوب التتابع فى صوم اليمين على أحد قولين :

« فإن قيل : قولـكم ان النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إلقاء القرآن على عدد تقوم الحجة القاطعة لقولهم ، لا نسلم ذلك ، وكيف يمكن دعواه مع أن حفاظ القرآن فى زمانه عليه الصلاة والسلام لم يبلغوا عدد التواتر لقلتهم ، وإنما جمعه إنما كان بطريق تلقى آحاد آياته من الآحاد . ولذلك اختلفت مذاهب الصحابة ولو كان قد ألقاه الى جماعة تقوم الحجة بقولهم ، لما كان كذلك ، ولهذا أيضا اختلفوا فى البسملة أنها من القرآن . وأنـكر ابن مسعود كون الفاتحة والمعوذتين من القرآن . سلمنا وجوب ذلك على النبى عليه السلام ، وأنه سمعه منه جمع

تقوم الحجة بقولهم ولكن إنما يمتنع السكوت عن نقله على الكل لعصمتهم عن الخطأ ولا يمتنع ذلك بالنسبة الى بعضهم — وإذا كان ابن مسعود من جملتهم وقد روى ما رواه فلم يقع الاتفاق من الكل على الخطأ بالسكوت — وعند ذلك يتعين حمل روايته لذلك فى مصحفه على أنه من القرآن لأن الظاهر من حاله الصدق ، ولم يوجد ما يعارضه ، غايته أنه غير مجمع على العمل به لعدم تواتره وإن لم يصرح بكونه قرآنا ، أمكن أن يكون من القرآن وأمكن أن لا يكون لكونه خبرا عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وأمكن أن يكون لكونه مذهبا له كما ذكرتموه ، وهو حجة بتقدير كونه قرآنا ، وبتقدير كونه خبرا عن النبى عليه الصلاة والسلام وهما احتمالان وإنما لا يكون حجة بتقدير كونه مذهبا له ، وهو احتمال واحد ، ولا يخفى أن وقوع احتمال من احتمالين أغلب من وقوع احتمال واحد بعينه . سلمنا أنه ليس بقرآن وأنه متردد بين الخبر وبين كونه مذهبا له ، إلا أن احتمال كونه خبرا راجح لأن روايته له موهم بالاحتجاج به ، ولو كان مذهبا له لصرح به نفيا للتلبيس على السامع المعتقد كونه حجة مع الاختلاف فى مذهب الصحابى هل هو حجة أم لا .

« والجواب : أما وجوب إلقاء القرءان على عدد تقوم الحجة القاطعة بقولهم فذلك مما لم يخالف فيه أحد من المسلمين ، لأن القرآن هو المعجزة الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام قطعا ، ومع عدم بلوغه الى من لم يشاهده بخبر التواتر لا يكون حجة قاطعة بالنسبة إليه ، فلا يكون حجة عليه فى تصديق النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا يلزم من عدم بلوغ حفاظ القرآن فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام عدد التواتر ، أن يكون الحفاظ لآحاد آياته كذلك . وأما التوقف فى جمع آيات القرآن على إخبار الآحاد فلم يكن فى كونها قرآنا ، بل فى تقديمها وتأخيرها بالنسبة الى غيرها ، وفى طولها وقصرها ، وأما ما اختلفت به المصاحف ، فما كان من الآحاد فليس من القرآن ، وما كان متواترا فهو منه . وأما الاختلاف فى التسمية إنما كان فى وضعها فى أول كل سورة ، لا فى كونها من القرآن .

« وأما إنكار ابن مسعود ، فلم يكن لانزال هذه السور على النبى عليه الصلاة والسلام ، بل لإجرائها مجرى القرآن فى حكمه . قولهم إذا رواه ابن مسعود لم يتفق الكل على الخطأ — قلنا وإن كان كذلك إلا أن سكوت من سكت ، وإن لم يكن ممتنعا إلا أنه حرام لوجوب نقله عنه ، وعند ذلك فلو قلنا أن ما نقله ابن مسعود قرآن لزم ارتكاب من عداه من الصحابة للحرام بالسكوت ، ولو قلنا أنه ليس بقرآن لم يلزم منه ذلك لا بالنسبة الى الراوى ، ولا بالنسبة الى من عداه من الساكتين ، وبتقدير ارتكاب ابن مسعود للحرام مع كونه واحدا ، أولى من ارتكاب الجماعة له ، وعلى هذا فقد بطل قولهم بظهور صدقه فيما نقله من غير معارض ، وتعين تردد نقله بين الخبر والمذهب — قولهم : حمله على الخبر راجح — لا نسلم ذلك .

« قولهم : لو كان مذهبا لصرح به ، نفيا للتلبيس — قلنا أجمع المسلمون على أن كل خبر لم يصرح بكونه خبرا عن النبي عليه الصلاة والسلام ليس بحجة ، وما نحن فيه كذلك ، ولا يخفى أن الحمل على المذهب ، مع أنه مختلف فى الاحتجاج به أولى من حمله على الخبر الذى ما صرح فيه بالجزية ، مع أنه ليس بحجة بالاتفاق — كيف وفيه موافقة النفى الأصلى ، وبراءة الذمة من التتابع بخلاف مقابله ، فكان أولى » ا هـ .

وقال العلامة ابن الحاجب فى مختصره ما نصه :

« ما نقل آحادا فليس بقرآن ، للقطع بأن العادة تقتضى بالتواتر فى تفاصيل مثله وقوة الشبهة فى بسم الله الرحمن الرحيم منعت من التكفير من الجانبين والقطع أنها لم تتواتر فى أوائل السور قرآنا فليست بقرآن فيها قطعا كغيرها وتواترت بعض آية فى العمل ، فلا مخالف قولهم مكتوبة فى المصاحف بخط المصحف ، وقول ابن عباس رضى الله عنهما : سرق الشيطان من الناس آية لا يفيد ، لأن القاطع يقابله . قولهم : لا يشترط التواتر فى المحل بعد ثبوت مثله ضعيف يستلزم جواز سقوط كثير من القرآن المقرر ، وجواز إثبات ما ليس بقرآن منه ، مثل (ويل يومئذ للمكذبين) و (فبأى آلاء ربكما تكذبان) لا يقال : يجوز ولكن اتفق تواتر ذلك ، لأنا نقول : لو قطع النظر عن ذلك الأصل لم يقطع بانتفاء السقوط ، ونحن نقطع بأنه لا يجوز ، والدليل ناهض ولأنه يلزم جواز ذلك فى المستقبل وهو باطل » اهـ .

ولما تعرض ابن الحاجب هنا لمسألة التسمية ، وكان كلامه فيها مختصرا مجملا ، رأيت أن أنقل هنا ماذكره العلامة الآمدى فيها ، فان كلامه فيها واضح جلى يعتبر كالشرح لابن الحاجب قال الآمدى :

« اتفقوا على أن التسمية آية من القرآن فى صورة النمل ، وإنما اختلفوا فى كونها آية من القرآن فى أول كل سورة ، فنقل عن الشافعى فى ذلك قولان — لكن من الأصحاب من حمل القولين على أنها من القرآن فى أول كل سورة كتبت مع القرآن بخط القرآن أم لا — ومنهم من حمل القولين على أنها هل هى آية برأسها فى أول كل سورة ، أو هى مع أول آية من كل سورة آية — وهو الأصح . وذهب القاضى أبو بكر وجماعة من الأصوليين الى أنها ليست آية من القرآن فى غير سورة النمل . وقضى بتخطئة من قال بأنها آية من القرآن فى غير سورة النمل — لكن من غير تكفير له لعدم ورود النص القاطع بانكار ذلك .

والحجة لمذهب الشافعى من ثلاثة أوجه :

« الأول — أنها أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أول كل سورة . ولذلك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف ختم

سورة وابتداء سورة أخرى حتى ينزل عليه جبريل ببسم الله الرحمن الرحيم . وذلك يدل على أنها من القرآن حيث أنزلت .

« الثانى : أنها كانت تكتب بخط القرآن فى أول كل سورة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه لم ينكر أحد من الصحابة على من كتبها بخط القرآن فى أول كل سورة ، مع تخشنهم فى الدين وتحرزهم فى صيانة القرآن عما ليس منه ، حتى أنهم أنكروا على من أثبت أوائل السورة والتعشير والتنقيط ، وذلك كله يغلب على الظن أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن أنها منه .

« الثالث : ماروى عن ابن عباس أنه قال : سرق الشيطان آية من القرآن — لما أن ترك بعضهم قراءة التسمية فى أول السورة ولم ينكر عليه منكر ، فدل على كونها من القرآن فى أول كل سورة .

« فان قيل : لو كانت التسمية آية من القرآن فى أول كل سورة ، لم يخل إما أن يشترط القطع فى إثباتها ، أولا يشترط . فان كان الأول فما ذكرتموه من الوجوه الدالة غير قطعية بل ظنية ، فلا تصلح للاثبات ، وأيضا فانه كان يجب على النبى صلى الله عليه وسلم أن يبين كونها من القرآن حيث كتبت معه بيانا شافيا شائعا قاطعا للشك ، كما فعل فى سائر الآيات ، وإن كان الثانى ، فليثبت التتابع فى صوم اليمين ، بما نقله ابن مسعود فى مصحفه ، « قلنا : الاختلاف فيما نحن فيه لم يقع فى إثبات كون التسمية من القرآن فى الجملة حتى يشترط القطع فى طريق إثباتها ، وإنما وقع فى وضعها آية فى أوائل السور ، والقطع غير مشترط فيه ، ولهذا وقع الخلاف فى ذلك من غير تكفير من أحد الخصمين للآخر ، كما وقع الخلاف فى عد الآيات ومقاديرها . قولهم : كان يجب على النبى عليه الصلاة والسلام بيان ذلك بيانا قاطعا للشك . قلنا : ولو لم تكن من القران لتبين ذلك أيضا بيانا قاطعا للشك ، كما فعل ذلك فى التعوذ ، بل أولى من حيث إن التسمية مكتوبة بخط القرآن فى أول كل سورة ومنزلة على النبى عليه الصلاة والسلام مع أول كل سورة كما سبق بيانه . وذلك مما يوهم أنها من القرآن مع علم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وقدرته على البيان ، بخلاف التعوذ ، فان قيل كل ما هو من القرآن فهو منحصر يمكن بيانه بخلاف ما ليس من القرآن فانه غير منحصر فلا يمكن بيان أنه ليس من القرآن ، فلهذا قيل بوجوب بيان ما هو من القرآن دون ما ليس من القرآن . قلنا : نحن لم نوجب بيان كل ما ليس من القرآن أنه ليس من القرآن ، بل إنما أوجبنا بيان ما يسبق الى الأفهام أنه من القرآن بتقدير أن لا يكون منه كما فى التسمية ، ولا يخفى أنه منحصر ، بل هو أقل من بيان ما هو من القرآن ، وعلى هذا فلا يلزم من وضع كون التسمية آية مع أول كل سورة بالاجتهاد والظن ، وقد ثبت كونها آية من القرآن فى سورة النمل قطعا أن يقال مثله

فى ثبوت قراءة ابن مسعود فى التتابع مع أنها لم يثبت كونها من القرآن قطعا ولا ظنا ـ اه .

وفى التقرير والتحبير ما نصه :

ثم إنما ذهب الى نفى قرآنيتها — يريد التسمية — فى غير سجدة النمل ، من ذهب كمالك لعدم تواتر كونها فى الأوائل — أى أوائل السور قرآنا ، وكتابتها بخط المصحف فى أوائل السور لشهرة الاستنان بالافتتاح بها فى الشرع لقوله صلى الله عليه وسلم كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع ، رواه ابن حبان وحسنه ابن الصلاح — والآخر المثبت لقرآنيتها فى الأوائل يقول : إجماع الصحابة على كتابتها بخط المصحف فى الأوائل مع أمرهم بتجريد المصاحف عما سوى القرآن ، حتى لم يثبتوا آمين ، فقد قال ابن مسعود : جردوا القرآن ولا تخلطوه بشىء يعنى فى كتابته . وروى ابن أبى شيبة عنه : جردوا القرآن لا تلحقوا به ماليس منه دليل على كونها من القرآن فى هذه الحال — والاستنان لها فى أوائل السور لا يسوغ الاجماع على كتابتها بخط المصحف فيها . لتحقق الاستنان فى الاستعاذة ولم تكتب فى المصحف — ثم قال بعد ذلك بقليل :

والشافعية على أنها آيات فى السور أى آية كاملة من كل سورة على الأصح عندهم ، فيما عدا الفاتحة وبراءة فإنها آية كاملة من أول الفاتحة بلا خلاف ، وليست آية من براءة بلا خلاف وترك نصف القراء لها — أى ابن عامر ، ونافع ، وأبى عمرو فى أوائل السور مطلقا ، وحمزة فى غير الفاتحة ، تواتر أنه صلى الله عليه وسلم تركها فى أوائل السور ، لأن كلا من القراءات السبع متواتر — وتواتر قراءتها فى أوائل السور عنه صلى الله عليه وسلم بقراءة الآخرين لا يستلزم أن التسمية منها ، لجواز كون قراءتها فيها تبركا — اه .

حسنين حسين

موافقة اللسان القلب

يجب أن يوافق اللسان القلب والاصار المخالف بينهما منافقا . وقد ذم إعرابى قوما فقال : قلوبهم أمر من الدفلى ، وألسنتهم من العسل أحلى .

وقال شاعر :

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكن حسن القول خالفه الفعل

وقال ابن جبير :

الناس شبه ظروف حشوها صبر ... وفوق أفواهها شىء من العسل

تحلو لذائقها حتى إذا انكشفت ... له تبين ما تحويه من زغل

المساواة الصحيحة والمساواة الزائفة

هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون

لا مشاحة فى أن الديموقراطية تكابد فى هذا العصر أزمة خطيرة ، لا من ناحية أنها تقوم على أصول فاسدة ، كما يقوله خصومها ، ولكن من جراء غلو بعض الشعوب فى تطبيقها ، وسوء فهم الأصول التى تقوم عليها .

أول دعامة تقوم عليها الديموقراطية المساواة بين الأفراد ، وقد قام الخطباء من لدن الثورة الفرنسية الى اليوم بالإشادة بهذا المبدأ ، والمبالغة فيه ، الى حد أن أوهموا الدهماء أنها مساواة مطلقة من كل قيد ، وأن لكل فرد الحق فى كل مزايا الاجتماع حتى ولاية الأحكام ، وقيادة الجماهير . متغافلين فى ذلك عن الحقوق المشروعة للنخبة الممتازة من الجماعة ، وكانت ثمرة هذا التطرف نشوء الشيوعية وما دونها من المذاهب الغالية . وقد اعتبر بعض النقاد أن ذلك من عيوب الديموقراطية وشرعوا فى إسقاطها وإحلال نظام آخر من الحكم محلها ، مع أنها تبرأ من إطلاق المساواة الى حد توليد هذه الأمراض الاجتماعية العضالة .

فكيف يمكن تبرئة الديموقراطية من هذه التهم وإخراجها من المأزق الذى دفعت اليه وهى كما يشهد العقل والعلم خير ما أتيح للناس من نظام يقوم بين الناس على أساس طبيعى حكيم ؟

لا يمكن ذلك إلا بالاستعانة بالفلسفة والعلم وهما معول الديموقراطية فى إثبات صحتها .

فأما الفلسفة فلا تسمح باعتبار مبدأ المساواة على إطلاقه . فاذا كان لا بد منها فى توزيع الحقوق والعدالة ، فليس ولاية الأمور العامة من هذه الحقوق ولا من العدالة ، فهى تقتضى من العلم والاطلاع والاختبار ما لا يوجد إلا فى أفراد معدودين ، ولا يتفق قط أن يوجد فى جميع آحاد أمة تقدر بالملايين .

ولو نظرنا الى العلم رأينا أنه قوة محافظة لا تدعو الى التسوية المطلقة بين الكافة ، ولكن الى التفرقة الدقيقة بين طبقات الناس لتضع كلا فى المكان الذى تزدهر مواهبه فيه .

وإذا اعتبرنا الرجل الذى كانت كتاباته عوامل باعثة على تقرير حقوق الأفراد ، وتأييد مبدأ المساواة ، وهو (جان جاك روسو) الفيلسوف الفرنسى المشهور (١٧١٢ – ١٧٧٨) ، حتى قيل إنه موقد نار الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية بكتاباته القيمة ، فهل كان هو نفسه من دعاة المساواة المطلقة المؤدية الى هضم حق الكفايات الممتازة ، والمواهب الفذة ، التى يفتح عليها ما لا يفتح على الجماهير مجتمعين ؟

قال جان جاك روسو فى الفصل الثانى من كتابه العقد الاجتماعى :

« إن الارادة العامة تعتبر مستقيمة دائما وتميل الى المصلحة العامة : ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون مشاورات الشعوب مؤدية الى السداد . فالانسان يريد الخير لنفسه ولكنه قد لا يراه فيخطئه . ومن المحال رشو الشعوب ولكن من الممكن خدعها » .

وقال فى موطن آخر من ذلك الفصل :

« الشعب بحافز من ذاته يتطلب الخير ، ولكنه قد لايهتدى بذاته اليه . فإرادته كما ترى صحيحة ، ولكن الحكم الذى يقودها قد لا يكون على شىء من الهدى .

« فهو يجب أن يُرَى الأمور على ما هى عليه ، وأحيانا على ما يجب أن تظهر به اليه ، وأن يُدَل على الصراط المستقيم الذى يبحث عنه ، وحمايته من تسويل الارادات التى تحتوشه لتفتنه ، ويجب أن تقرَّب الى عينيه الأمكنة والأزمنة ، والمقابلة له بين حوادث المنافع الحاضرة المحسوسة ، وبين خطر الويلات البعيدة المحجوبة عنه .

« فالآحاد قد يرون الخير الذى يهملونه ، والجمهور يريد الخير الذى لا يراه . فكلاهما فى حاجة الى الهداة » .

هذا رأى واضع كتاب العقد الاجتماعى الذى يعتبر موقد كبريات الثورات الاجتماعية ، التى هبت للمطالبة بحقوق الشعوب وبالمساواة ، ولننتقل الى الثورة الفرنسية نفسها لنرى هل ترى رأى المطلقين فى المساواة ؟ فنجد فى المادة السادسة من إعلان حقوق الانسان وهو الكتاب المقدس لتلك الثورة ما يأتى :

« كل الوطنيين متساوون فى الأهلية لجميع الخطط الاجتماعيـة على حسب استعداداتهم ، وبدون أى تمييز بينهم إلا ما يكون من ناحية خصائصهم ومواهبهم » .

وفى هذا دليل على أن الثورة الفرنسية التى يرجع دعاة الاطلاق إليها تفرق بين الناس بمواهبهم وخصائصهم ، أى بصفاتهم الأدبية ، أى بعقولهم وقلوبهم ، وهل يراد أكثر من هذا من ثورة قامت تطالب بالمساواة بين الناس ؟

فتلك المساواة التى أهرقت الشعوب دماءها للحصول عليها هى المساواة فى الحقوق الطبيعية التى لكل فرد أن يتمتع بها ، فلا يصح أن يسمح لعظيم من العظماء مالا يسمح به لأفقر وأجهل رجل من الهيئة الاجتماعية . مثال ذلك إذا حرم شعب على آحاده السير من جهة اليسار ، وجب عليه أن يؤاخذ المخالفين لذلك على حد سوى ، سواء أكانوا من السراة أم من الدهماء . وإذا قتل فرد نفسا وجب أن يقتص لها من قاتلها ، وإن كان من أعظم العظماء . هذا معنى المساواة ، ولكن هل يؤدى هذا المعنى الى وجوب اعتبار أى نابغة من النبغاء ، وأى جاهل من الجهلاء على حد سُوى فيما يتعلق باسناد بعض المهام الاجتماعية الى واحد منهما .

لا يقول بهذا إنسان له عقل وشعور . وإذا كان الأمر كذلك فمن أين نشأ للعامة وخطبائهم ، من الذين يتملقونهم لاجتلاب أصواتهم ، سوء الظن بالطبقات العالية ، حتى إنه ليوجد فى البلاد الديموقراطية حقد مختزن فى قلوب العامة عليهم ؟

نشأ ذلك من أن الطبقة العالية من الحاكمين قبل عهد الديموقراطية كانت طبقة فاسدة التكوين ، مؤلفة من أفراد قذفت بهم وراثة الألقاب الى مكانات الرفعة دون أية ميزة عقلية ولا علمية كانت لهم . فلما نادى الخطباء الشعبيون لتسقط الارسطوقراطية ، لتسقط الطبقة العالية ، شايعهم الدهماء مقتنعين ، وأقبلوا يحطمونها باطشين . ولو كانوا قالوا : لتسقط الاريسطوقراطية الزائفـة ، لتسقط الطبقة العاليـة المزوَّرة ، لـكانوا أقرب الى الحق مما خاضوا فيه .

لست بما أكتب أريد التدليل على أن الاريسطوقراطية خير من الديموقراطية فى قيادة الشعوب ، ولـكنى أريد أن أبرهن على أن الديمقراطية الحقة لا تعنى بمبدأ المساواة ، تجاهل المزايا الطبيعيـة والأدبية للافراد فتزنهم جميعا بمعيار واحـد ، ولـكنها بإبطالها الحقوق المـكتسبة بالوراثة تمكـن أصحاب المواهب العالية ، والمزايا الجليلة من شغل مكاناتهم من قيادة الهيئة الاجتماعية ، من غير أن يصادفوا موانع تمنعهم من بلوغ هـذه الغاية استنادا الى نسب رفيع ، أو حق موروث . فهذا هو الذى كان يتطلبه جميع المصلحين ، وهذا نفسه الذى دعت اليه الثورات الانجليزية من لدن القرن الثالث عشر والثورة الفرنسية التى حدثت سنة ١٧٨٩ وكانت مثالا لجميع ما تلاها من الثورات الاجتماعية فى سبيل تحرير الشعوب ، وهذا هو الذى قرره الاسلام قبل حدوث هذه الثورات بقرون كثيرة . فانه مع تأسيسه مبدأ المساواة فى الحقوق الطبيعية بين الأقوياء والضعفاء ، ومحوه نظام الطبقات القائم على الوراثة ، وتطهيره المجال من جميع النعرات الجاهلية ، قرر أن حق القيادة يوكل للأفضلين جريا على قوله تعالى : « هـل يستوى الأعمى والبصير » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم فى إصلاحه الاجتماعى على هـذا المبدأ القرآنى فأسند الأمور الى أهل الـكفايات والسابقات الحسنة ، غـير مكترث الى نسب رفيع أو وضيع ، أو شرف تليد أو طريف ، فولى الأمور العامة الموالى والعبيد ، والصالحين من أى جنس كانوا ، لا فرق بين عربى وفارسى وروى وغيرهم . وهو لم يرد بذلك تطبيق مبدأ المساواة على إطلاقه ، فان ذلك غير معقول ، ولـكنه أراد منه تطبيقه على وجهه الصحيح . أى أنه لم يكن يقصد هدم الاوضاع الطبيعيـة التى يقوم عليها كل اجتماع ، وهو وجود طبقات متفاوتة فى الـكفايات العقلية والأدبية والمالية ، ولـكنه قصد حل الطبقات التى أوجدتها عوامل غير طبيعية ، قامت على الاغتصاب والوراثة والعصبية ، وإيجاد غـيرها تقتضيها طبيعة الاجتماع الصحيح ، وتستدعيها المساواة الحقة .

وهذا ما قصدته الثورات الاجتماعية التى حدثت بعد الاسلام بقرون كثيرة وكانت من ثمراتها الديموقراطية .

فالمجتمعات البائدة لم تكن معلولة لأن فيها طبقات متفاوتة ، ولـكنها كانت كذلك لأن الطبقات فيها كانت مغتصبة ووراثيـة ، وخالية من الروح التى تقتضيها وهى السمو والنبوغ والمواهب الفطرية . فـكل الذى أحدثه الاسـلام وأحدثته الثورات التى هبت بعـده هى إسقاط السراة الزائفين، وإحلال سراة حقيقيين مكانهم ، تقوم مكانتهم على الفضائل الصحيحة، والمواهب الـكريمة ، لـكى يتولى أقوياء العقول ، وكبار القلوب ، وكرام النفوس ، مهمة قيادة الجماعة بدل أولئك الأشباح الذين رفعتهم الى تلك المـكانات غفلة الشعوب ، وغلبة الصفات الساقطة عليها .

فاذا كانت قد حدثت مذاهب متطرفة كالشيوعية والفوضوية ، استندت الى مبدأ المساواة المطلقة ، فليس ذلك عاب الديموقراطية فإنها بريئة من إطلاق مبدأ المساواة ، بل تنافيه من كل وجه إلا فى الحقوق الطبيعية كما رأيت .

و إذا تمكن خصوم الديموقراطية من إسقاطها بالصاق أمثال هذه التهم بها ، فلا يمكن أن يقوم على انقاضها إلا مذاهب إستبدادية لا تستند الى مبدأ المساواة لا مطلقا ولا مقيدا ، ولـكن تستند الى القوة .

فإن قيل إن الديموقراطية مسؤولة عن وجود هذه المذاهب ، لأنها لا ستنادها الى مبدأ حرية الرأى قد سمحت بأن تدعو الى نفسها ، وبأن يصبأ جماهير من السذج ومن يراد تسخيرهم إليها . فلو كانت أخذتهم بالحزم ، وعاملتهم بما هم أهله من الشدة لأمكنها القضاء على مذاهبهم قبل أن تنتشر وتصبح شؤما على من تنشأ بين ظهرانيهم .

نقـول : إذا سمحت الديموقراطية لنفسها بأن تسلك هـذه السبيل فى كبت كل صاحب مذهب ، لبطلت أن تـكون ديموقراطية ، فإن من صفاتها إحترام جميع الآراء والمذاهب ، ما دامت لا تثور على النظام العام بالقوة . ولو سمح للديموقراطية أن تعامل خصومها بالشدة ، لا نقلبت الى أداة استبدادية ، وخسرت جميع المزايا التى يقوم عليها جمالها ، وفقدت كل الدعائم التى يستند إليها وجودها .

فإن قيل : إذا كان الأمر كما تذكر فما الذى يضمن وجودها ؟

نقول الذى يضمن وجودها هـو الضمير البشرى ، فإن الجماعة أو طائفة كبيرة منها إن إفتتنت بدعوة تناقضها فى دور من أدوارها ، وجرت عليها شوطا بعيـدا ، فلا تلبث ، بعد

أن تذوق وبال أمرها ، أن تعود الى حضن الديموقراطية ، وتكون هذه المرة أشد حرصا عليها ، وكلفا بها ، مما كانت عليه أول مرة .

على هذا النحو تحمى الديموقراطية وجودها ، وهو الأسلوب نفسه التى تحمى به الحقائق وجودها وخلودها ؟

محمد فريد وجدى

ما هو العقل و أين هو

قال حكيم : العقل غريزة لا يقدر أحد أن يصفها فى نفسه ولا فى غيره ، ولا يعرف إلا بالأقوال والأفعال الدالة عليه .

وقال العتبي واسمه عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان : العقل عقلان : عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع ، فاذا اجتمعا قوى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة البصر .

وينسب الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ونور العين ممنوع

وقد مال حكماء الاسلام الى أن العقل فى القلب وقد استندوا فى ذلك الى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العقل فى القلب به يفرق بين الحق والباطل »

وهذا حق لا مرية فيه ، فالمراد بالقلب حقيقة الانسان لا العضو المعروف والعقل مظهر من مظاهره . والدليل على أن المراد بالقلب حقيقة الانسان قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب » أى لمن كانت حقيقته الانسانية متيقظة ، لا لمن كان له العضو المعروف بالقلب ، فانه عام بين الناس جميعا ولكن الذين يدركون آيات الله قليلون . وكذلك قال الله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها »

وقال بعض الحكماء : أربعة تحتاج الى أربع : الحسب الى الأدب ، والسرور الى الأمن ، والقرابة الى المودة ، والعقل الى التجربة .

معرض الاراء العالمية

محمد وشرلمان

﴿ انتشار الاسلام بسرعة محيرة للعقل — شهادة مؤرخ كبير ﴾

جاء فى جريدة (الريبوبليك) الفرنسية تحت العنوان المتقدم ما يأتى :

« كان لكل من النبى العظيم والأمبراطور العظيم فى خلال عهود التاريخ دور حاسم . فكل منهما يمثل مدنية خاصة . ولقد كتبت حياة كل منهما فصلين تاريخيين نقشا على سور الأجيال بأحرف متخالفة كل التخالف .

« لماذا اختار المؤرخ البلجيكى المأسوف عليه (هنرى بيرين) أن يكون هذا الاسمان عنوانا للكتاب الذى قدر أن يكون تتويجا لأعماله فى سنيه الأخيرة ؟ اختارهما للدلالة على العلاقات الوثيقة التى توجد بين فتوحات الاسلام ، وبين قيام عهد القرون الوسطى فى الغرب .

« وقد حداه أيضا الى ذلك كلفه بأن يضع الدور الذى بقيت صورته مبهمة فى مخاخنا ، فى موضع يساعد على إظهارها وإيضاحها ، وذلك الدور يبدأ من سنة (٦٣٢) وهى السنة التى توفى فيها محمد الى القرن التاسع . فقد أطال المؤلف البحث فيه وتابعه فى مدى الحرب العظمى ، وكان من أسراها ، وخلص من ذلك الى نتائج سيتولاها المؤرخون بالمناقشة والتمحيص .

« أهم هذه النتائج هى أن غارات القبائل المتبربرة على الدولة الرومانية لم تغير من تركيبها الاقتصادى والروحى شيئا ، وما بقى من تلك المدنيـة كان معتمدا على صلته بالبحر الأبيض المتوسط . فاقتصر التغير الذى حدث على انتقال المركز المخصب من روما الى القسطنطينية .

« ولكن كل ما تم من التحولات الذريعة بأوربا كان بفعل الاسلام . فانه قد أحدث انقلابا حقيقيا فصل به الشرق عن الغرب نهائيا ، ووضع نهاية لجامعة المدنية التى كان رباطها البحر المتوسط .

« فانتقل بذلك محور الحياة الغربية هزيما الى الشمال لأول مرة فى التاريخ ، فأدى ذلك الى ظهور أسرة الكارولنجيين فى الأقطار الجرمانية . وعليه فلولا ظهور محمد لما أمكن ظهور شرلمان (١) .

---

(١) شرلمان هو ملك الفرنكيين اسلاف الفرنسيين ، ولد سنة (٧٤٢) وخلف أباه سنة (٧٦٨). شرع فى فتوحات موفقة إلا فى احتكاكه بعرب أسبانيا ، فقد دحروه دحورا شنيعا وقتلوا قائده . من أعماله العظيمة أنه أعاد فى شخصه عهد البراطرة الرومانيين وأعانه البابا فى سنة ٨٠٠ أمبراطوراً للمملكة الرومانية الغربية بعد أن كانت انقرضت بسبب هجوم المتوحشين عليها من كل جانب ، وبسبب ما كان أصابها من الترف ، ولكن بموت شارلمان انقسمت ممالكه وتميزت الدول على النحو الذى هى عليه اليوم .

« هذه الفتوحات العربيــة التى كان مجالها أوروبا وآسيا معا ، يعتبرها المؤرخ البلجيكى (هنرى بيرين) لا مثيل لها فى تاريخ البشر . ولا يمكن لانسان أن يقابل سرعة تتابعها بنجاح إلا بمـا تم فى عهود الدول المغولية على أيدى أتيلا وبعده بزمان جنكيزخان أو تيمورلنك . ولـكن هذه الفتوحات الأخيرة كانت مؤقتة بقدرما كانت الفتوحات الاسلامية ثابتة وراسخة. ولا يزال للاسلام أتباع فى كل جهة استولى عليها الخلفاء الأولون . إن انتشار الاسلام بهذه السرعة المحيرة للعقل تعتبر آية حقيقية إذا قوبلت بالبطء الذى تمشت عليه المسيحية .

« لا يدهش أحد أن يكون من آثار انتشار الاسلام ظهور الاسرة الامبراطورية الرومانية القــديمة ، ولـكن المرء يتساءل متعجبا كيف لم يفن العرب فى سكان الممالك التى فتحوها كما فنى الجرمانيون فى سكان الممالك التى قهروها ولم يكونوا أ كثر منهم عددا ؟

« لم يفن العرب فى سواهم لأنه كانت لهم ديانة جديدة يمكن مواجهة المسيحية بها ، ديانة لم تضطهد سواها ولـكنها نفت أتباعها من جامعتها باعتبار أنهم غير مؤمنين ، وأحلت أصولها الشرعية محل الأصول القانونية الرومانية .

« فالدولة بدخولها فى المسيحية تتغير روحا ، ولـكنها باسلامها تتغير جسما وروحا » .

(مجلة الأزهر) كل يوم يمر على الاســلام يظهر فيه للعالم من أمره عجبا جــديدا . فهذا العلامة (هنرى بيرين) المؤرخ البلجيكى الـكبير يحـدثنا أنه لولا فتوحات العرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى عهد الخلفاء الأمويين ، لمـا أمكن قيام شرلمان ، ولمـا تم له من الفتوح ما استأهل به أن يتوج أمبراطورا رومانيا سنة (٨٠٠) ، بعد أن كانت تلك الأمبراطورية قد انقرضت . فعمل على جمع إشلائها المبعثرة بحروب موفقة ، وحلاها بكل ما تحتاج اليه من نظم وقوانين ، وأصبح فذا من أفذاذ تاريخ القرون الوسطى . ولما توفى لم يوجد فى أولاده من يخلفه بمثل الـكفاية والحنكة اللتين كان متصفا بهما ، فتجزأ ملـكه بين أولاده وكان ذلك بدء نشوء الدول الأوربية الموجودة ، وهو انتقال ذريع فى حالة أوروبا غيرتها من حال الى حال ، وأوجدت فيها عوامل جديدة للانقلابات والتطورات الاجتماعية والجغرافية . فاذا كنا فى كثير مما كتبناه ذكرنا أن الاســلام كان سببا فى تغيير خريطة العالم شرقا وغربا ، وأنه أزال دولا وأوجد دولا ، ومخض العالم مخضا نفى عنه كثيرا من أسباب الجمود والركود ، فانما نعنى أمثال هذه الأحداث الخطيرة .

يعجب المسيو هنرى بيرين من أن الفتوحات الاسلامية تمت بسرعة محيرة للعقل ، ولو كان يعلم ما فى الاسلام من روح علوية ، وعوامل ليست من نوع العوامل المعروفة ، لما تعجب من ذلك ، ولاعتبره وجها من وجوه غلبة الحق على الباطل ، فان ما كان يربط المسلمين الأولين بعضهم ببعض ، ويدبر حركاتهم للفتح والغلب ، ليست المطامع المادية ، والشهوات النفسية ، ولـكن

القيام بما عهده الحق اليهم من إعلاء كلمة الله فى العالم، وتأسيس دولة تقوم فيه بواجب العدل، وتدفع بالانسانية الى باحات الترقيات الصورية والمعنوية، قياما بخلافة الله فى الأرض. وهذا الشعور العالى يدفع بالنفس الى الاستهانة بالاخطار، والاستخفاف بالمعاطب، فاذا وجد ألف من الناس استشعروا هذا المبدأ السامى، أغنوا عن ألوف مؤلفة ممن ليس لهم من البواعث على المقاومة إلا ما اعتاد الناس أن يكونوا عليه حيال النوازل. هذا هو السر فى أن بضع عشرات من ألوف كانوا يهزمون مئات الألوف ويستولون على بلادهم التى كانت قبل ظهور الاسلام أمنع من الجبال الرواسخ. أضرب لك أمثلة بسوريا ومصر والفرس. فقد تقابل فى سوريا بضع ألوف من جيوش المسلمين بمئات الألوف من جيوش الرومان المدربة أعظم تدريب، والمسلحة تسليحا يفوق تسلح المسلمين كثيرا. ومع كل هذا لم يثبتوا أمام المسلمين فى وقعة واحدة فجلوا عن الشام وفيها مكان حجهم.

أما مصر فتوجه إليها عمرو بن العاص بثمانية آلاف، ثم أمده أمير المؤمنين الفاروق بأربعة آلاف أخرى، فهزموا جيوشا رومانية تفوقهم عددا وعدة، ولم تغن كثرتهم عنهم شيئا.

وأما الفرس فأمرها أغرب من هاتين، فإن سعد بن أبى وقاص تقصدها بنحو ثلاثين ألفا مبتعدا عن قواعده مئات الكيلومترات، فلم يفت هذا فى عضد المسلمين شيئا، وكانت خاتمة المعركة أن استولى المسلمون على فارس كلها، ولم تلبث أن انقلبت إسلامية ورفعت من شأن الاسلام مالم توفق الى مثله أمة أخرى.

فالمدار فى كل هذا على الروح التى تبعث على الاقدام، فإذا كانت من نوع الروح العادية التى تدفع البعض الى شن الغارة، والبعض الآخر الى الدفاع عن الحوزة، توازنت الكفتان وكان الرجحان للعدد والعدة. ولكن إذا كانت الروح الباعثة من طراز هذه الروح العلوية لم يقف فى وجهها شيء، لأنها تنشئ من الضعف قوة، ومن القلة كثرة، وليس بعد هذه الأمثلة من دليل، وإلا فقد كان العرب عربا قبل الاسلام، فما بالهم قبلوا تحمل نير الفرس فى العراق واليمن، ونير الرومان فى شمال بلاد العرب، ولم يحدثوا أنفسهم بالقاء هذين النيرين عن عواتقهم، وقد لبثوا يحملونهما أجيالا كثيرة؟

ويعجب العلامة (هنرى بيرين) كيف لم يفن العرب على قلة عددهم فى الأمم التى دوخوها، كما فنى الرومانيون فى الأمم التى تسلطوا عليها، وهذا موطن ظاهرة بسيكولوجية دقيقة جدا، ذلك أن النفوس التى يفنى بعضها فى بعض بسبب القلة والكثرة، هى النفوس المتشابهة فى الوجهات والمقاصد، ولكن الجماعات التى تكون صادرة عن تعاليم عالية، ومبادئ سامية، ومقتنعة بها كل الاقتناع حتى أصبحت حالا لها، لا يمكن بحال من الأحوال أن تفنى فى غيرها ولو لم يبق إلا رجل واحد منها. وهذا دليل من طريق اللزوم على أن تعاليم الاسلام تطبع

شخصية الآخذ بها بطابع لا يزول أثره ، يحميه شر الاندماج فى أمم أحط منه نفسا ، وهو ما حفظ المسلمين الى اليوم وحدتهم الدينية ، وصبغتهم الاجتماعية ، رغما عن إهمالهم العمل بالتعاليم التى يقدسونها .

من أروع الأمثلة على ذلك أمم إسلامية ساذجة وقعت تحت الاستعمار الاوربى أكثر من قرن من الزمان ، فبالغ المستعمرون فى بث لغاتهم فيها ، ونشر عاداتهم بينها ، حتى كادوا ينسونها لغتها وتقاليدها ، ومنعوها أداء فريضة الحج سنين كثيرة ، فلم يزدها ذلك كله إلا تقديسا لتعاليمها . يمكن أن يقال هنا إن هذا من الجمود على القديم ، والحق إنه من إدراك السمو الذى بين تعاليم كتابها وما ترى عليه المغير على بلادها . والمبادئ والأصول تتنازع الوجود كالأحياء سواء بسواء ، ثم لا يبقى منها إلا الأصلح للبقاء ، والأقوى على تحمل اللأواء .

ويعجب المؤرخ البلجيكى الكبير من بقاء الفتوح الاسلامية ودوامها ، على حين أن جميع الفتوحات التى حصلت قبله وبعده لم تبق إلا مدة بقاء من قاموا بها . ولكن إذا علم السبب بطل العجب . ذلك أن الفتوح الاسلامية لم تعمل لتخليد اسم مستبد غاشم ، ولا للتوصل بها الى سلب الأمم مدخوراتها من مال وحطام ، ولكنها عملت لمقصد سام وهو تطهير الأرض من المظالم التى رانت عليها ، والمفاسد التى ذاعت فيها ، وإيقاظ الشعوب من طريق الفتوح الى ما هى فيه من جمود يلحقها بالعجماوات ، وركود جعل كل ترق مستحيلا عليها . ولم يصحب هذه الفتوح جيوش الدعاة يخرجون الناس من أديانهم بالقوة ، بل تركوا على ما هم عليه ، واحترمت معابدهم وكهنتهم وتقاليدهم ، ولم يكلفوا من الإتاوات إلا ببعض ما كانوا يقومون به لحكوماتهم الوطنية ، وعوملوا بالعدل المطلق ، حتى إذا شجر بينهم وبين المتغلبين عليهم نزاع ، أو ثار خلاف ، وجدوا فى القضاء الاسلامى حكما عدلا ، فاقتص لهم فى الدماء ، وسوى بينهم فى الحقوق .

أين هذه الحالة مما كان يحدث فى الفتوحات غير الاسلامية ، من احتقار المغلوبين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم ، وتسخير نسائهم ورجالهم ، ومعاملتهم بما لا تعامل به الحيوانات العجم من القسوة والعذاب المهين ؟

لا جرم أن الشعوب التى تقع تحت أيدى الفاتحين المسلمين تأنس للحياة تحت ظلهم ، وترتاح للعيش فى جوارهم ، وتكره أن تعود حتى الى سلطان حكوماتهم الوطنية ، لأنها لم تكن على شىء من النظام الديموقراطى الذى يدعو اليه الاسلام ، ولكنها كانت على أخشن ما يمكن تصوره من النظام الاوتوقراطى الذى يسمح للعدد القليل من الأقوياء المتغلبين بتسخير جماهير الضعفاء لتوفير لذاتهم ، والكدح لزيادة ثرواتهم ، ولا بأس أن يموت هؤلاء الضعفاء جوعا وعريا وحرمانا ، فانهم فى رأيهم إنما خلقوا لخدمة الأقوياء لا لأنفسهم .

على هذه السنة كانت تقوم الحكومات الوطنية ، وعليها كانت تسير الدول الفاتحة قبل ظهور الاسلام ، حتى إن أمما برمتها زالت بسبب فتح الأوربيين لأمريكا الجنوبية . فلا عجب بعد هذا البيان أن تثبت الفتوحات الاسلامية ، وتستمر خلال قرون تتطور فيها حتى تصبح بلادا إسلامية محضة . فقد شوهد أن الاسلام لم يستقر فى بقعة من الأرض إلا انتشر فيها بلا إجبار ، وتغلبت لغته على لغة أهل تلك البقعة حتى نسختها .

إن حدوث هذا التحول السلمى كله أدلة قاطعة على أن أسلوب المسلمين فى معاملة المقهورين حبب اليهم التحول الى دينهم يسيرا يسيرا . وهذا مالم يحدث قط فى العالم الانسانى فى أية بقعة من بقاع الأرض . فقد شوهد أن الأمم المقهورة إما أنها تمكنت من الافلات من براثن المتغلبين ، وإما أنها فنيت برمتها فى أجسادهم .

ومن أغرب الظواهر الانسانية وأدعاها للدهش ، وهو مالم يحدث فى غير الاسلام ، انتقال بعض الأمم المقهورة بسرعة الى حظيرة الاسلام ، وتحولها الى صفوف المدافعين عنه بسيوفهم وأقلامهم ، حتى صاروا من أكبر حفظته ، وأعظم حفدته .

فهذه الممالك المفتتحة لم يكفها أن تبقى مستنيمة الى سلطان الاسلام فقامت تذود عن بيضته ، وتحامى عن حقيقته .

ولو فطن العلامة هنرى بيرين الى هذه الخصوصية للفتوحات الاسلامية لجعلها فى مقدمة ما استنزل عجب قرائه منه . وهو يدل على أن عاملا أدبيا يلازم الاسلام ويحل معه حيثما حل ، وهو عامل يصح أن يكون موضوع دراسة عميقة ، تؤدى حتما الى معرفة كنه هذا الدين ، والعوامل المبثوثة فيه لايقاظ الآخذين به والمتصلين بهم ، فإن قصر الأوربيون فى تلمسه ، فلا يعز على المسلمين أن يقوموا بهذا الواجب وهم أولى به من سواهم ؟

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

اتفق الفقهاء على أن دعوى الوقف تثبت باقرار المدعى عليه بأركان الدعوى ، أو بنكوله عن اليمين إذا أنكر من حالة ما إذا طلب المدعى تحليفه على أن مافى يده ليس وقفا . وهذا يتعين المصير اليه إذا كان المدعى عليه هو الواقف ثم عرض له من الأسباب مايجعله يجحد هذا الوقف . فمن طرق الاثبات فى هذه الحالة أن يعترف بها الواقف أو ينكل إذا طلب ذو صفة الى القاضى تحليفه على أن هذه العين ليست موقوفة . فمما تواضع عليه علماء الفروع أن الاقرار من الحجج الشرعية التى يعتبرها القضاء فى الطبيعة دليلا على صحة المدعى . وهذا مسلم الثبوت فالأقوال من دلالتها فى المرتبة الثانية بعد الأفعال من الدلالة على إثبات المدعى إذا كان الاقرار خالصا من القرائن التى تجعله حيلة يحتال بها المقر على طمس معالم الحقيقة أو النبو بها عن جادتها الواضحة . وهو حجة قاصرة على المقر لا تتعداه الى غيره إلا إذا صادقه المقر له . والاقرار الصحيح ينفذ فى كل ماله إذا أقر به ، فاذا رجع المقر عن إقراره كان الرجوع غير صحيح ، وتعين المصير الى العمل بإقراره دون الرجوع عنه . وهذه مبادئ عامة تشمل الاقرار بالوقف وغيره ، لأن لها صلة بطرق الاثبات للمدعى إطلاقا .

لكن العلماء فيما نقل العلامة صاحب الفتاوى المهدية قد استثنوا حالة واحدة وهى الاقرار بالوقف ، فقالوا : ليس بلازم من صحة الاقرار بالموقوف بتصديق المقر له إن كان الموقوف المقر به معينا ، فان صادق المقر له المقر فيما أقر به ، دخل فى حكمه وإلا بان كذبه فى إقراره بالموقوف انحاز نصيبه الى المساكين . فاذا رجع المقر له الى تصديق المقر صح هذا الرجوع وعاد اليه نصيبه وإن لم يقر به الواقف أو الناظر مرة أخرى ، لأن العبرة بالاقرار الأول ، وهو صريح الشمول والدلالة .

ويتضح هذا التحقيق فى صورة ما إذا أقر شخص لرجلين بأن هذه العين التى فى يده وقف عليهما ، ومن بعدهما على المساكين ، فصدقه أحد الرجلين وكذبه الآخر ، ففى هذه الصورة تصرف حصة الجاحد فى الغلة للمساكين ، فلو عدل عن تكذيبه عادت اليه حصته وإن لم يتكرر من المقر إقرار ثان لما أسلفنا .

لكن نقل العلامة ابن عابدين فى رسائله أن هذه الحالة فى الوقف تختلف جد اختلاف عن الاقرار والعدول عنه من المقر له فى الملكية . فلو أقر شخص لآخر بأرض غير موقوفة

فكذبه المقر له فى إقراره ثم عاد فصادقه عليها فلا تصير ملكا للمقر له إلا إذا أقر المقر بها مرة أخرى .

قال العلامة ابن عابدين : والفرق بين الإقرارين أن الأرض المقر بوقفيتها لا تصير ملكا لأحد بتكذيب المقر له ضرورة أنها تنحاز الى جهة المساكين أو أنها تصير المقر له عند عدوله عن التكذيب الأول مستحقا ، بخلاف الملكية فإنها تنحاز الى جهة المقر له عند تصديق الثانى ، والفرق بين الحالتين جلى لا يحتاج الى عناء فى التقدير .

فلو أقر شخص بوقفية عين فإما أن تكون فى يده أولا ، فإن كانت فى يده فإما أن يعين وقفه أولا وإما أن يعين مستحقين فى الوقف أولا . فإذا أقر شخص بوقفية أرض فى يده ولم يعين واقفا ولا مستحقين حين الاقرار ، صح إقراره وتصير وقفا على الفقراء ، لأن الأوقاف تكون فى يد القوام عادة ، فلو لم يصح الاقرار ممن هى فى أيديهم لبطلت أوقاف كثيرة . ولا يمكن فى هذه الحالة أن يجعل الواقف هو المقر لهذه العين إلا إذا أقام البينة أمام القاضى بأن هذه العين كانت فى حيازته وقت الوقف . وحينئذ تندفع الخصومة القائمة ويثبت للقاضى أنه هو الواقف وتثبت تبعا وقفية تلك العين ، وتكون للمقر فى هذه الحالة الولاية عليها فلا يتطرق إليه عزل إلا بأسباب موجبة له .

ونقل العلامة الخصاف أن المقر لو عين مستحقين فى إقراره ولم يسم واقفا وليس له من ينازعه فى هذا الاستحقاق ، وقع هذا التعيين صحيحا ، وصرف الريع الى الجهة التى عينها فى إقراره ، وإن عين نفسه وولده وذريته ، إلا إذا ادعى قوم أنهم هم الموقوف عليهم دون غيرهم فصدقهم المقر لا يعتبر تصديقه إلا فى حق نفسه ، فيصرف ما يخصه من الريع إليهم ، ويبطل بحوثه على ما هو مبسوط فى البحر .

قال صاحب كتاب أنفع الوسائل ومثل هذه الحالة المتقدمة حالة أخرى وهى ما لو أقر المقر بالوقف ثم سكت فذكر جهة من الجهات على سبيل التعيين فإنه يقبل منه ذلك التعيين استحسانا لأنه وقد أصبح الموقوف فى يده كان مصدقا فيما يقر به متعلقا بالعين الموقوفة . أما قياسا فلا يقبل منه قوله الأخير ، وبالتالى تلك الجهة التى عينها ، لأنه بإقراره الأول صار الموقوف للمساكين لعدم تعيين مستحق فلا يملك إبطاله بعد ذلك ، فمتى ذكر جهة من الجهات فلا يصح له أن يزيد عليها أو ينقص منها إلا إذا كان الاعتراف الثانى متصلا بالإقرار الأول .

وموعدنا بالكشف من بقية البحث الأعداد القادمة . فالى اللقاء ؟

عباس طه

لحضرات المشتركين

اضطررنا حرصا على النظام أن نمسك هذا العدد عمن لم يصلنا منهم القسط الثانى من الاشتراك حتى نعرف رأيهم .

اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى :

أول من ألف فى الخلافات الفقهية أبو حنيفة النعمان ، فقد وضع كتاب (اختلاف الصحابة) ثم ألف تلميذه أبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ كتاب (اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى) وهو الذى نقرظه اليوم . ومن يعلم مكانة أبى يوسف من الفقه يدرك قيمة الفوائد الجليلة التى يمكن جنيها من كتاب يضعه فى خلافيات إمامين جليلين .

عنيت بنشر هذا الكتاب لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد الدكن ، وعنى بتصحيحه والتعليق عليه الاستاذ أبو الوفا الافغانى المدرس بالمدرسة النظامية بالهند ، وأشرف على طبعه الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان ، فنشكرهما ونشكر لجنة إحياء المعارف على ابراز هذا المؤلف النفيس راجين أن يعم النفع به .

مباحث عربية :

الأستاذ بشر فارس شاب تيمه التعلم فرحل فى طلبه الى باريس ونال فيها الدكتوراه فى الآداب ، ثم شخص الى برلين ليطلع على مناهج أهلها فى البحث والكتابة والتحليل ، ثم انتقل الى لوندره يستكمل فيها ما عسى أن يكون فى تينك العاصمتين . وقد آب الآن الى مصر ينشر فيها ما ادخره فى عواصم المدنية من العلم العالى والأدب الصميم . فكانت أول باكورة له كتابه الممتع (مباحث عربية) وإنه لممتع حقا بما سلكه مؤلفه من طرق التمحيص ، ومناهج التحقيق ، صدره بالكلام عن مسلمى فنلنده ثم والى بعده البحوث فى مكارم الأخلاق ، والمروءة ، والتفرد والتماسك عند العرب ، والبناء الاجتماعى عندهم فى الجاهلية ، وتاريخ لفظة الشرف ، واصطلاحات الموسيقى والفلسفة ، ومصطلحات مختلفة من بعض المخطوطات العربية الخ .

الكتاب الذى نحن بصدده يعتبر أطروفة فنية من جميع نواحيه ، فهو مزيج من أدب وعلم ولغة وفلسفة ، جم الفوائد الى حد أنه يشبه أن يكون كتابا تعليميا ولكن ليس فيه جفاف الأساليب التعليمية ، ومن النجاح العظيم أن يؤلف مؤلف كتابا غزير المادة العلمية وجذابا الى حد يشبه معه قصة ظريفة . يوجد بمكتبة المعارف بمصر .

الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة :

هذا مؤلف ممتع وضعه الإمام بدر الدين الزركشى وعنى بتصحيحه ووضع مقدمته وتعاليقه وفهارسه الأستاذ سعيد الافغانى .

موضوع هذا الكتاب يعرف من عنوانه ، وهو ما استدركته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على الصحابة فى فهم بعض الأحاديث النبوية ، وفى عملهم بالسنة ، وفيهم أبو بكر وعمر وعلى وابن عمر وابن عباس ، وقد قدروا استدرا كاتها قدرها ، فهو كتاب كما قال ناشره يتجلى فيه ذكاء المرأة وفطنتها ومواهبها ودقة نقدها .

الكتاب يقع فى نحو ٢٢٥ صفحة وهو مطبوع طبعا جيدا على ورق صقيل فنشكر لحضرة ناشره حسن عمله ونرجو له مزيدا .

لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟

هذا بحث عويص ، متشعب النواحى ، لا يستطيع أن يخوض غماره إلا الأفذاذ المطلعون على ماجريات الحوادث ، وشؤن الأمم ، ممن حصلوا على مذخور عظيم من علم الاجتماع . وليس يشك أحد فى أن الكاتب الكبير والزعيم الجليل الأمير شكيب أرسلان ممن يوثق بمعارفهم وملاحظاتهم فى خوض هذا البحث الخطير .

بحث فيه واضعه الفاضل العلل التى طرأت على المسلمين ، وبين كيفية تسربها اليهم ، ودرس أحوال الأمم الغربية وبين مواطن قوتها ، وجهات عظمتها ، وسرد فى ذلك حوادث ، وأتى على بيانات ، فأصبح لدى القارئ بذلك مرجع جليل القدر فى داء المسلمين ودوائهم إن لم يكن صوابا كله ، ففيه حصة صالحة منه ، والخلاف يرجع الى تباين المذاهب فى تشخيص العلل وهذا الموضوع قل أن يتفق فيه باحثان .

وقد عنيت بطبعه مكتبة عيسى البابى الحلبى فأهدت العربية منه سفرا جليل القدر ، عظيم الفائدة ، فنشكر لها هذه الخدمة .

الطليعة

ليس فى مصر والشرق من يجهل مكانة الأستاذ ابراهيم الدباغ من الشعر والنقد والفكاهة فهو شاعر لا تخلو له قصيدة من كلمة نابغة أو نادرة طريفة أو نكتة ظريفة ، وهذه ميزة قلما توجد فى شعر على النحو الذى هى عليه فى شعر الدباغ من النزاهة والبعد عن الاسفاف ، وقوة التأثير .

تفضل حضرته فأهدانى مجموعة من شعره بين سنتى ١٩٢٦و١٩٣٨ فرأيت فيها المعجب المطرب من الشعر الفحل والأدب الصميم . وعند تصفحه كان أول ما وقع عليه بصرى قوله :

لى ضمير به شقيت فيامن يشتريه يريحنى من ضميرى
يرغب الأصغرون منى صغارا وهو يأبى الامكان الكبير

كلمتان لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

أولاها كلمة رفيعة القدر ، بعيدة مدى النظر فى الشئون العالمية ، والعوامل الاجتماعية ، نشرت لفضيلته فى العدد الممتاز الذى أصدرته دار الهلال لمجلتها الشهرية تحت عنوان (العرب والاسلام فى العهد الحديث) . ولست فى حاجة لأن أطنب فى تقريظ هذه الكلمة الجامعة ، فقد عبرت عن الحقيقة الاسلامية أصدق تعبير ، وكشفت عن أبعد أصول هذا الدين أثرا فى جمع القلوب عليه ، ولفت الأنظار اليه ، فلا شىء أوقع فى نفوس العالمين اليوم ممن يدعو الى الأخوة الانسانية العامة ، فإن جاءت معبرة عن كتاب أمة يبلغ عددها خمس سكان الكرة الأرضية ، فإن الغيورين على ارتقاء النوع البشرى يزدادون إيمانا بتغلب عوامل الخير على عوامل الشر فى الحياة البشرية .

والكلمة الثانية ما أجاب به فضيلته جماعة اتحاد المتخصصين وقد قابله وفد منهم تحت رياسة فضيلة الاستاذ الشيخ صادق عرجون للإعراب لفضيلة الاستاذ الامام عما يشعرون نحوه من الاخلاص والتقدير . وإننا لنأتى بالكلمتين المذكورتين هنا جمعا لشتات كل ما يكتبه فضيلة الأستاذ الامام ، وهو لا يكتب إلا فيما يصلح المسلمين ، ويعلى قدر الدين .

كلمة فضيلته الأولى فى العدد الممتاز للهلال :

الاسلام والإخاء الانسانى

اليوم وقد نشأ الشعور بحاجة الأمم بعضها الى بعض ، ونشأ الشعور بوجوب جعل الحياة العامة فى البشرية كلها بمأمن من الغوائل ، ونشأت الحاجة الى تحقيق مطالب اقتصادية ومدنية وعلمية وروحية لا تستقل بها أمة ، بل تحتاج الى مشاركة عامة — أخذت فكرة الزمالة تتسع وتمتد لتشمل النوع الانسانى كله ، ففكرة الزمالة ليست نظرية فلسفية ، بل هى حاجة طبيعية تولدت فى النوع البشرى منذ دور الطفولة ، ومنذ أدرك أن ارتباط الأفراد بعضهم ببعض يساعد على قطع مفاوز الحياة بأمان ، ويعود عليه بالخير .

ومع شعور الانسان بالحاجة الى الزمالة ، ومع أن العقل يقتضيها ، فقد كانت عوامل التفرق دائما ملازمة لهذا الشعور ، لأن الانسان لا يسيره العقل وحده ، ولكن تسيره أيضا غرائز حيوانية ركبت فيه ، ومن هذه الغرائز حب الأثرة ، والغيرة والخوف والشك ،

وقد أضيف الى ذلك اختلاف الأديان والمذاهب ، فوجـد عامل آخر للتفرق ، حتى إنه عند ما يلوح للباحث أن الاخاء الانسانى المنشود تدافعه كل تلك النوازع فى الانسان ، يبدو له أنه مطلب لا ينال فى هذه الحياة ، إذ يهوله ما يحتكم فيها من شرور تصرفها جائر شرس لا قلب له ولا وجدان .

ولا أعتقد أن التقدم العلمى والفلسفى بقادر على التغلب على هذه العوامل وإزالة آثارها ، فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولا ووحشية كلما ازداد تقدم العلم ، وأنه أمضى أسلحتها ، بل فى الحق أنى لا أعتقد أنه سيجيء اليوم الذى تتحقق فيه المثل العليا للبشرية ، لأنه وإن أمكن بعامل من العوامل أن تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الانسان ، فانه لا يمكن أن تنطفئ تلك النار . ولـكن هذه العقيدة لا يصح أن تقفنا عن البحث عن الوسائل الملطفة لتلك الغرائز ، والـكابحة لجماحها ، بل من الخير أن نبحث عن تلك الوسائل ، والمتدين حين يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها قد اعتمدت فى الانسان على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته الى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة ، ترقب النيات وتحـكم الضمائر ، وأن هذه الحياة صائرة الى غاية من المسئولية والمجازاة . ففى التدين من هذا التأليه والخضوع ومراقبة الإله وتوقع محاكمته ، عوامل ليست أقل خطرا ولا أضعف أثرا فى دفع الانسان الى الخير والبر ، من تلك العوامل الأخرى الداعية الى الشرور ، والدافعة الى الحرب والحرص ، وإفساد شأن الجماعة الانسانية .

وليس من شك فى أن اعتقاد حياة أخرى أطول مدى من هذه الحياة ، واعتقاد أنها خير خالص يصل اليه الانسان بالعمل الصالح ، أو شر محض يكون نتيجة حتمية لأعمال الشر ، يجعل قلب الانسان مطمئنا راضياً إذا ساء حظه فى الحياة الدنيا ، ويغير نظره الى هذه الحياة تغييراً تاما . ثم اعتقاد أن الخير والشر ينزلان بمقدار بعد وزنهما بميزان عادل هو ميزان القادر الحـكيم ، يحفز الانسان الى الاكثار من عمل الخير ، ويبعده عن عمل الشر .

يجب أن يكون المهيمن على عمـل الانسان من داخل الانسان ، وهو خوف الله . وقـد يقول علماء الأخلاق إنهم إذا وصلوا الى جعل الانسان يحب الخير لذاته ، ويكره الشر لذاته ، ونبهوا الضمير الانسانى بواسطة التهذيب والتربية أغنى ذلك عن التدين ، ولـكن أنى لهم ذلك ، وكيف يستطاع تهذيب الدهماء ، ومن تلهيهم من أول أدوار الحياة الحاجة الى القوت ؟ فالرجوع الى غريزة التدين أسهل ، وهذا الشعور الدينى إذا عمق وصلح أقوى ، أو على الأقل ليس أضعف ، من الخوف والطمع والمنافسة المثيرة للحروب . وهـذا الشعور يرفع الانسان الى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والحياة والطبقة والثروة . وهو صالح لأن يغالب الحقـد والحسد والأنانية ، وفيه من تطمين النفس ما يقلل بطرها بالغنى ، ويهون عليها الفقر ، ويخفف ثورتها عليه .

وهذا الشعور يكرم النفس الانسانية ، ويحدوها الى المعرفة والحكمة ، ويكره اليها الجهل والحمق . كل تلك الآثار قد ثبت تحقيق التدين لها فعلا ، لولا طوارئ أخرى ، ومن هنا تقوى طاعية المتدين فى قبول تلك الغاية المرجوة من الأخوة الانسانية مهما عز ذلك أو بعد ، ولكن بقدر ما تحتمل ذلك طبيعة الانسان .

وقد عنى الاسلام بفكرة الأخوة الانسانية ، فقد نبه القرآن الكريم الى وحدة الأبوين الموجبة للتعاون والتعارف والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتخاذل ، ولم يقم وزنا لشرف المولد وكرم الجنس ، ووضع معيارا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل ، هو تقوى الله ؛ وفى القرآن الكريم : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وطلب القرآن الكريم الى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا فى حالة العدوان ؛ وفى القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وقد عمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه ، وخلفاؤه من بعده ، على وفق هذه المبادئ السامية ، حتى أبيح الإصهار الى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة وعدم منعها من شعائر دينها .

كلمة فضيلته الثانية لاتحاد علماء التخصص :

واجب العلماء فى الحياة العامة

يسرنى أن يكون لعلماء الأزهر عناية بالأحوال العامة ، فقد كان الأزهر لا يفكر فيها فيما مضى ، وكنت دائما أؤمل أن يتجه اليها ، وأن يعالج فى كياسة ورفق النقص الطارئ عليها .

وإنى لأشعر اليوم بغبطة عظيمة لأنكم قد أرضيتم باتجاهكم هذا رغبة الأزهر ، وهو اتجاه مشكور طالما تمنى الأزهر تحقيقه .

ولا شك أن بلدا إسلاميا مثل مصر ، فيه أقدم جامعة إسلامية أدت ما عليها وصمدت للحوادث عشرة قرون ، حمت فيها الدين الاسلامى وعلوم اللغة العربية ، حتى أصبحت مصر زعيمة العالم الاسلامى والشرق فى الدين والآداب والعلوم العربية والثقافية الدينية — مثل هذا البلد ، ومثل هذا المعهد العظيم ، عليهما الآن أن يفكرا ، ويفكرا طويلا ، فى الاحتفاظ

بهذه الزعامة ، وفى تغـذيتها ، وعليهما أن يوجـدا الثقافة التى تلائم روح الشرق وتستهدى بهدى الاسلام .

ولعل اتحادكم هـذا يكون نواة لقيام فكرة عامة بين المسلمين ، هى تشاور جميع الأمم الاسلامية والشرقية فى شئونها العامة التى لا تتوقف فقط على توحيد الثقافة ، بل تمتد فتشمل البحث فى أمراض المسلمين ، والعلل التى أدت بهم الى ما يشكون منه الآن من ضعف وتفكك ووهن ، فى حين كان الواجب أن يـكونوا فى طليعة الأمم الشرقية بما كفله لهم دينهم من سعادة ، وما ضمنه لهم من أسباب الرقى .

وأظن أن خير علاج للحالة الراهنة فى مصر وغير مصر ، هو بحث العلل الاجتماعية بحثا خاليا من التعصب ، بعيدا عن فكرة التقليد العمياء ، وألا نرتكن فى هذا على تقاليد نستمدها من السياسة الشرقية الماضية .

لقد فـكرت من قبل طويلا فى إيجاد روابط تربط الأمم الاسلامية فى شئونها المتعددة ، وقد سرت فى طريق ذلك خطوات ، ولـكنى أعتقد أنى ما زلت فى منتصف الطريق فضلا عن نهايتها ، غير أن يقظة علماء المسلمين ، وشعورهم بما لهم وآلامهم ، مما يجعل من السهل تحقيق هذه الرغبات ، ويبشر بالخير العظيم ، إن شاء الله .

ومع ذلك فليس عندى من الوسائل التى تضمن النجاح فى هذه الأحوال إلا شىء واحد : هو أنى أحب الاسلام والمسلمين ، وأحب أيضا أن يكون هذا هو شعوركم فى كل أعمالـكم لخير الاسلام وأهله لنضمن النجاح .

ثم كرر فضيلته شكر أعضاء الاتحاد على فكرتهم النبيلة ، وعلى زيارتهم له ، ورجا الله أن يحقق آمال المسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

مهمة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

نشرنا فى الأعداد السابقة بحوثا فى ماهية الوحى وفى إمكانه ، بل وجوده بالفعل فى عالم الطبيعة مشاهدا محسوسا ، وفى أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان واحدا من الذين شرفهم الله بوحيه ورسالته بعد عيسى عليه السلام بنحو ستة قرون ، واليوم نبحث فى ماهية المهمة التى كلف بها محمد صلى الله عليه وسلم .

المعروف من الاسلام بنصوص محكمة لا تقبل التأويل ، أن رسالة محمد عامة للناس كافة ؛ وأنه أرسل بالدين الأول الذى أنزله الله الى المرسلين قاطبة ، خالصا مما شابَهُ به المحرفون ، وما ألحقه به الشارحون والمؤولون ؛

وأن هذا الدين هو ما تدعو اليه الفطرة الانسانية ، ويمكن أن يتفق عليه البشر كلهم ، فتصبح دياناتهم واحدة ، وجماعتهم واحدة ، لا طفرة ، ولكن بعد أدوار من التطور تحفزهم الى هذا الموقف حفزا طبيعيا ، تحت تأثير العلم والحكمة ، والمَثُلات العالمية المربية ؛

وأن الاسلام مجموع من أصول ومبادئ هى المثل العليا التى تتطلبها النفس البشرية ، وتترامى عليها بمجرد إدراكها ، متى خلصت من سطوة الأوهام الوراثية ، وتملصت من سلطة الوساوس التقليدية ؛

وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم المرسلين ، به انتهى دور النبوة ، وانقضى عهد الوحى ؛

وأنه قد عُهِد بعده الى العلم والعقل أن يقوما على حراسة هذا الذخر الإلهى من عبث العابثين ، وعنت المتنطعين ، وأن يعملا على إزالة العراقيل دون انتشاره ، ويمهدا السبيل لإبلاغه غاية سلطانه .

هذه أمور خطيرة أعلنها الاسلام وعمل على تحقيقها ، ولم تكن تدور بخلد أحد من العالمين حتى أئمة الفلسفة أنفسهم ، إذ لم يكن يبحث أحد فى إمكان وجود رسالة عامة للبشر كافة ،

ولم يكن يعرف إنسان أن الله أوحى لجميع المرسلين دينا واحدا ، ولا أن التخالف فى الأديان إنما حدث بسبب تحريف قادتها لما أنزل اليهم منها . ولم يكن يتخيل مصلح أن هذه الأديان المتخالفة كلها يمكن توحيدها بارجاعها الى أصلها الأول ، فيصبح بذلك للأمم قاطبة دين واحد ؛ ولا أن هـذه الأمم ذات القوميات المتباينة ، والمصالح المتعاكسة يمكن أن تتوحد ويكون لها وجهة مشتركة ، باعتبار أن توحدها أوفى بمصالحها ، وأدعى لزيادة رفاهتها .

ولم يـكن فى الأرض من يتصور المثل العليـا فى الأصول ، ولا أن فى الفطرة البشرية عوامل تحفز النفوس اليها تحت تأثير المثلات العالمية ، والتفاعلات الاجتماعية .

ولم يبحث أهل الأديان قبل الاسلام فى مدى سطوة الأوهام الوراثية بالعقول ، وتأثير الوساوس التقليدية فى القلوب .

كل هذا لم يكن يتردد فى العقلية الدينية قبل ظهور الاسلام ، ولم يـكن أقطاب الفلسفة يهتمون بذلك من الوجهة الدينية ، فقد كان رجال الدين منتبذين ناحية لا يسمحون لأحـد أن يغشاهم فيها إلا لتأدية العبادة لهم ، ولما أقاموه من التماثيل والنصب حولهم ، أما التفاهم معهم على أصل ، أو مجادلتهم فيه ، فان ذلك كان جزاؤه الاحراق بالنار ، أو على القليل كارثة لا ينتعش منها أبدا وإن تاب .

ولما كانت كل هذه الشئون ، لو جاءت بها نصوص كتابية صريحة ، تكشف عن أكبر تطور دينى عرفه البشر منـذ وجـد الى اليوم ، وتدخل المسألة الدينية فى صميم الظواهر الاجتماعية التى تماشى المنطق العلمى ، وتساير ناموس التطور الطبيعى ، ويكون انتهاء العالم اليها ضربة لازب ، فان التدليل على قيام الاسلام عليها بالنصوص الكتابية الصريحة لا من طريق التأويل ، يحول الأنظار الى الاسلام تحويلا لا يأتى من أى طريق آخر ، ويعتبر أقوى دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عقـلا بشريا قبل نحـو ألف وثلاثمائة سنة ، وفى بيئة لا تنجب مثل هذه المبادئ ، لا يقوى على تصور كل هذه الشئون العظيمة ، وينجح فى إقناع جمهور كبير بصحتها ، ثم يحمله على التكيف بها والعمل لسيادتها ، باذلا حياته فى سبيلها ، بحيث يؤدى ذلك الى قبول أمم عظيمة لها ، ودعوتهم العالم كله اليها .

بناء على هذه الاعتبارات يصبح مما لا يقبل الجـدل أن مهمة محمد صلى الله عليه وسلم هى أن يحمل للبشرية كلها دينا عاما ، قائما على أصول طبيعية لا يتأتى هدمها ، بل لا يمكن الشك فى أصالتها ، وفى اتجاه كل المحاولات العلمية والفلسفية الى الحمل عليها ، مصداقا لوعده تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » .

تنازع أصحاب الأديان لقب الدين العام :

إن قوله تعالى فى القرآن : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » وقوله : «ما كان محمد أبا أحد من رجالـكم ولـكن رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما » لا يدع محلا للشك فى أن الاسلام أنزل ليكون دينا عاما للبشرية كافة ، وقد قام محمد صلى الله عليه وسلم بابلاغ قادة الأمم ذلك بكتب أرسلها إليهم يحملها رسل من قبله .

ولـكن رجال الديانة الاسرائيلية والنصرانية ينازعون الاسلام هـذا الحق ويدعون أن دينيهم سبقا الاسلام الى هذه المهمة العليا ، فلننظر ألـهم حق فى هذه الدعوى ، أم هى مجرد غيرة متطرفة منهم على دينيهم ، حملتهم على أن يضعوهما حيث لا تقوى أصولها على تبوئتهما هذه المكانة ، وتمكينهما فيها ؟

فأما الاسرائيلية فلا نص فيها على أنها هى الديانة العامة التى شرعها الله للناس كافة ، وكل ما فيها أن رجالا من أحبارها استفادوا مما جاء فى القرآن عن الاسلام ، فأرادوا أن توصف بهذا الوصف ديانتهم ، فنحلوها من المهام ما لم تساعدهم على فهمهم هذا آية واحدة من كتابهم ، على حين أنه حافل بما يدل على أنها ديانة أسرة بشرية واحدة ، هى بنو اسرائيل دون سواهم ، وكل ما جاء فيها خاص بها و بمصالحها وبقوميتها وتقاليدها ، دون نظر لاعتبار آخر ، حتى إنه ليست لليهود دعوة الى دينهم ، بل إنهم يكرهون أن يصبأ اليه من ليس من أسرتهم . فمن تقاليدهم أنهم إذا تقدم اليهم راغب فى ملتهم ، تلطفوا فى رده ببيان ما فى ديانتهم من التكاليف التى تشق عليه وما ينتظره فيها من الواجبات التى لا يستطيع الاضطلاع بها . فإن أصر بعد تكرار رده على هذه الصورة قبلوا منه أن يتخلق بأخلاق اليهود ، ويتأدب بآداب شريعتهم ، دون أن يكلف غير ذلك (راجع كتاب (le Judaisme) لحاخام باريس المطبوع سنة ١٩٣١) .

كل ما يستندون اليه من نص فى هـذا الشأن ، ما ورد فى كتابهم من أن بنى إسرائيل سيكونون محكمين للأمم ، ومربين للشعوب القوية ، وأنه (قبيل قيام الساعة) سيتفق العالم كله على عبادة الله اتباعا لديانة بنى إسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيضطر الناس الى القيام عليه .

نقول : إن هذا القول وحده يكفى فى الاعتراف بأن الديانة اليهودية بحالتها الراهنة ليست بديانة عامة ، ولـكنها ستكون كذلك ، كما يقولون ، فى مستقبل بعيد جدا قبيل يوم الدين . فلا موجب لملاحاة أشياعها فى أمر يعترفون بأنه لم يوجد بعد .

وأما الديانة المسيحية فان أهلها يعتبرونها الديانة الأخيرة العامة ، مستندين فى ذلك الى اشتمالها على البُشرى بخلاص العالم من اللعنة التى أصابتهم بسبب عصيان أبيهم آدم لله ، وأكله

من الشجرة التى حرمت عليه فى الجنة . فانهم يقولون إن الله غضب على آدم لعصيانه أمره ، ولعنه وقذف به الى جهنم ، وورث هذه اللعنة جميع ذريته ، وسيقوا بعد وفاتهم الى النار ، الى أن أراد الله أن يعفو عنهم ، فأرسل ابنه الوحيد يسوع الى الأرض ، فحملت به مريم جنينا ، ثم ولدته طفلا ، فتربى ونشأ وأخذ يعلم الناس ويعظهم وينعى على الكهنة والفريسيين من اليهود تنطعَهم فى الدين وأخذَهم بقشوره ، وغفلتَهم عما أودع فى آيات الكتاب من الأسرار ؛ فحقدوا عليه ، ووشوا به ، فقبضت عليه الحكومة وصلبته . وكان فى صلبه كما يقول المسيحيون فدية للناس كافة من اللعنة التى كانوا يرزحون تحتها . وبعد ثلاثة أيام من دفنه قام من بين الأموات ، وقابل بعض حواريه وأوصاهم ووعظهم ، ثم صعد الى السماء ، وأخذ مكانه عن يمين الرب . وقبيل يوم القيامة ينزل الى الأرض ويدين أعداءه ، وبذلك يتم وعد الله ، وتنتهى هذه الحياة الجسدانية ، ويخلد الذين آمنوا ببنوته لله ، وافتدائه الخلق بنفسه ، فى الملأ الأعلى على مثل حال الملائكة ، ويخلد الذين لم يؤمنوا بذلك فى النار .

وقد نقل مؤلفو الأناجيل كل ما قاله عيسى عليه السلام ، وما وصى بالقيام عليه من الأصول ، وهى تنحصر فى الاستسلام المطلق ، وحب الغير ولو كان عدوا لدودا ، والصفح عن المسيئين ، وعدم مقابلة الشر بالشر ، والتخلص من علائق الدنيا ، وانتظار الموت فى سكينة وهدوء .

هذه الديانة لا تصلح أن تكون ديانة عامة للبشر لثلاثة أسباب :

(أولها) ابتناؤها على عقيدة لا يمكن أن يقام عليها دليل ، فان لم تؤخذ بالتسليم فلا يكون لها سلطان ما على الضمير الانسانى ، والتسليم غير ممكن فى عصر كثرت فيه الشكوك ، وأصبح أهله لا يدينون حتى للدليل العقلى إن لم يعززه شاهد من العالم المحسوس . فكيف يتأتى تعميم هذه العقيدة بين الناس وهى فاقدة أهم أركان التدليل ؟

(ثانيها) قيامها على مبدأ الزهد والتخلص من علائق الدنيا ؛ والحياة الاجتماعية تأبى ذلك ، ولا أدل عليه من أن الأمم الآخذة بهذا الدين تقوم على المبالغة فى الاستكثار من المال ، وفى التورط فى علائق الدنيا خلافا لما يوصيهم به ؛

(ثالثها) إبطالها أهم أركان التشريع ، وهو منع الاعتداء بالقوة ، والضرب على أيدى الجناة لكف أذاهم عن الناس ، وإصلاحا لنفوسهم . فاذا أخذ الناس بمبدأ العفو المطلق ، على قاعدة : من سرقك رداءك فأعطه قميصك ، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، استشرى الشر فى الأرض ، وطم العدوان فيها ، وذل الخيِّرون للشريرين ، وتمادوا فى استذلالهم حتى منعوهم حق الحياة ، وليس هذا من الاصلاح المنشود لهذا العالم فى شىء .

أقول هذا ولا أنكر مبلغ السمو الذى تنطوى عليه هذه الأصول من تجريد النفس من جميع العلائق الجسدانية ، ولكنه سمو قد يسمح به لأفراد يعيشون فى ظل جماعات قوية

تستطيع أن تحمى الفضيلة وأهلها من عـدوان العادين ، وعبث العابثين ؛ أما أن يصبح هذا التجريد دينا للكافة فلا يعقل بوجه من الوجوه .

هل يصلح الدين الاسلامى أن يكون هو الدين العام ؟

بقيت الكلمة الآن للاسلام ، فهل يصلح أن يكون هو الدين العام ؟

أما أنه قد أوحى الاسلام الى محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الوصف ، فقد ثبت ذلك من النصين القرآنيين اللذين أتينا بهما فى مقدمة هذا البحث ، وهو لأجل أن يقيم هـذا التطور الدينى الجلل على المسلمات العلمية ، قدم لذلك مقدمات بدهية :

(أولها) أن الله لم يخـل أية أمة فى الأرض من الهداية بواسطة رسول ، فقال تعـالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » .

(ثانيها) أن الأمم كانت تقابل هذه الهداية بالاستعصاء ، إلا أفراداً قليلين كانوا يتبعون الرسل متحملين ما ينالهم بسبب صبوئهم عن دين آبائهم من العنت والاضطهاد العظيم ، قال الله تعالى : « ولقـد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسـول إلا كانوا به يستهزئون » .

(ثالثها) أن الأمم التى كانت تأخذ بالأديان ، كانت تعمد الى تحريفها لتتفق وما هى عليه من وثنيتها ، وكان لزعمائها مصلحة فى ذلك التحريف وهى استغلال جهالات تلك الأمم لحفظ مكاناتهم ، وامتداد سلطانهم ، قال تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لـكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ » وقـوله : « وما اختلف فيه (أى فى الـكتاب) إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

(رابعها) أن الدين الذى كان يبعث الله به رسله تترى الى الأمم ، كان يناسب الميول التى فطرهم عليها ، ليكون أخذهم به قائما على الغريزة الأدبية التى متعت بها نفوسهم ، وكان هذا الدين واحدا لجميع الخلق لوحدة تلك الغريزة فيهم ، ومواده توحيد الله وتنزيهه ، والاستسلام لارادته ، والاحسان فى العمل ، قال الله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرةَ الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » ، وقال تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟ » . والدليل على وحدة هذا الدين المنزل لجميع الأمم قوله تعالى : « شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ،

كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع (أى فلوحدة الدين فادع) واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) ، الله يجمع بيننا واليه المصير » .

(خامسها) أن هذا الدين الحق الفطرى الذى أرسله الله الى الأمم كافة بلسان رسله ، قد أعاد الله إنزاله الى محمد صلى الله عليه وسلم ، رفعا للخلاف الذريع بين الأديان مع وحدة أصلها ، وأمر رسوله بأن يقوم بدعوة الناس إليه كافة ، باعتبار أنه دين البشرية كلها لا دين أمة واحدة منها ، فقال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهىَ لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدَوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

(سادسها) دين البشرية وحدة لا تتجزأ تشمل الايمان بجميع من أرسلهم الله من رسل ، وما أنزله إليهم من كتب ، جملةً ، لأن التفصيل لا سبيل إليه ، قال الله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغةَ الله ومَن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وقال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

ومما هو ذو دلالة قاطعة فى أن الاسلام أنزل ليكون دين الانسانية عامة ، لا دين أمة خاصة ، ما شرطه الله على الداخل فيه من وجوب الايمان بجميع الرسل الذين أرسلوا الى الأمم وبجميع الكتب المنزلة إجمالا ، فإن كفر بواحد من أولئك أو من تلك الكتب ، اعتبر كافرا وإن آمن بالقرآن ومحمد ، قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

فالاسلام هو الايمان بدين الانسانية كلها وعدم التفرق فيه ، تحقيقا للوحدة الدينية ، وهى أساس كل خير يرجى للجماعات البشرية ، قال الله تعالى : « إن الدين عندالله الاسلام (وقد علمت ما هو) ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن

يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقـل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الـكتاب والأميين (يريد بالأميين العرب) أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد »

هذا أكبر تطور حدث فى العالم يمكن تسجيله للعقلية الدينية ، وهو ما لا يمكن حدوثه من عقل بشرى بدون إرشاد سماوى ، لأن الحالة العالمية فى عهد نزوله لم تكن توحى به ، ولم تكن البيئة العربية مما تحفز اليه . فجهد أعظم عبقرى يسند اليه إصلاح تلك البيئة ، كان ينحصر فى أن يوجد للأمة العربية دينا يجمع شتاتها ، ويوفق وجهاتها ، ويحملها على أن تتحول الى أمة ، بدل أن تبقى على حالة قبائل متناحرة .

هذا كان جهد أكبر عبقرى يتكلف إحداث عمل جالل يسجله له التاريخ فى تلك البيئة . أما عدم الوقوف عنـد حاجة تلك البيئة الجزئية ، والاشتغال بحاجة العالم كله ، وما تقتضيه من عرض أصول الأديان التى بها يدين الناس ، ومحاولة بيان الفاسد منها ، وإصلاح ما يقبل الاصلاح منها ، والعمل على تمهيد الطريق لتوحيدها باحالة أصولها الى حقائقها ، والافاضة فى بيان ماهية الدين ، وعلاقة الانسان به ، وفى توزع الأمم فى الأرض ، وحاجتها الى وحدة عامة ، الخ الخ

كل هذا لا توحى به البيئة التى نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أرقى عقلية فى أرقى أمة من أمم الأرض على عهده .

إن الصبغة العامة فى الديانة الاسلامية واضحة الى حد أن آية واحدة من الـكتاب لم توجه الى العرب خاصة ، وكل مافيه موجه الى الناس كافة ، أو الى المؤمنين ، بحيث أن تالى القرآن الـكريم من أية ملة كان لايشعر بأن هذا الـكتاب نزل بين ظهرانى أمة غير أمته . وهذه ميزة يجب أن تلحظ فى التدليل على عمومية الدين الاسلامى .

الأصول التى قررها الاسلام لتحقيق هذا التطور العالمى :

لم يكتف الاسلام بتوحيد الدين من الوجهة النظرية ، ولـكنه عمل على تحقيق هذا التطور العظيم بتأليف أمة عالمية غير قومية ، كان فيها لذوى الألوان المختلفة ، واللغات المتباينة ، والأجناس المتباعدة ، حقوق واحدة ، تحت اسم جامع مشترك تفنى فيه جميع الأسماء الخاصة ، وهو (الأمة الاسلامية) .

فما هى الأصول التى قررها الاسلام لتحقيق هذا التطور العالمى ؟

(أولها) وجوب الرجوع الى العقل فى الأخذ بأية عقيدة دينية .

(ثانيها) طلب الدليل على كل ما يتطلب التصديق .

(ثالثها) الاستماع الى كل قول واتباع أحسنه .

(رابعها) تصيد الحكمة من كل مظانها حتى ولو جاءت عن المشركين .

(خامسها) طلب العلم من المهد الى اللحد ، وبذل كل جهد للوصول الى لبابه .

(سادسها) النظر فى السموات والأرض ، وفى جميع مايقع تحت سلطان المشاعر والتأمل فيها .

(سابعها) السياحة فى الأرض لدراسة أحوال الأمم ، ومعرفة علل تقدمها وتأخرها ، أو هلاكها وبقائها .

(ثامنها) عدم الاعتداد بالعقائد الموروثة ، ومحاكمتها الى العلم والعقل وتطلب الدليل عليها .

(تاسعها) الامتناع عن التقليد وتطلب الاقتناع الشخصى .

(عاشرها) استشعار المسئولية الشخصية ، والاعتقاد بأن الانسان لايغنى عنه أحد شيئا .

هـذه أصول لو أخذت بها أمة لحدث فى عقليتها ونفسيتها ووجودها الاجتماعى تطور سريع لا يقف دون إبلاغها أرفع مستوى تتوق إليه فى حياتها الأرضية .

ولو أخـذت به الأمم قاطبة لتقاربت وتفاهمت وتعاطفت ، وانتهت الى الوحدة التامة ، كما حـدث للامة الاسلامية وهى مؤلفة من عشرات من القوميات ، وكما يحدث لمن يقبل الاسلام دينا له ، إذ يجد نفسه كأنه من المسلمين جسدا وروحا ، وينسى أنه من نابتة بيئة أجنبية . فالاسلام رسول الوحدة الانسانية ، والممهد لأكبر تطور روحى وعقلى واجتماعى سيحدث فى العالم البشرى .

نعم إن هـذا التطور العام لا يمكن حدوثه إلا بعد أدوار كثيرة من الانقلابات الأدبية والعلمية والاجتماعية ، ولـكنه سيحدث لا محالة ، وليس بكثير أن تمضى عليـه بضع مئات من السنين بعد وصوله الى حالته الراهنة ، وقد أنبأنا الله بذلك فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

ولـكن مما يجب علينا بيانه هنا أن هذا التطور سيكون لمصلحة الاسلام لا محالة ، لأنه كفل لنفسه هذه المـكانة بما أحاط جوهره به من العوامل التى تجعله الغاية التى ليس وراءها غاية .

فهو يدعو الى توحيد الله وتنزيهه ، ويحول دون الخيالات أن تتناوله على أية حالة ، وهى التى فرقت الأمم شـيعا ، وألبست الأوهام حلة الدين « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

ويدعو الى الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، ولـكنه لايلزم الأمم فى التمشى اليهما أن تتوخى أساليب مقررا ، تاركا لناموس الترقى الحرية فى تـكييف جهودها على ما تستدعيه حالات الانتقال فى خلال المقتضيات المختلفة .

ويمنح العقل سلطانه كله ، لا يحمله إصرا إلا ما يزيد فى نضوجه من علم ونظر ، ويبارك فى قواه من تثبت وتحقيق .

ويطلق الميول الجسدية حريتها ، ولكن فى دائرة الاعتدال التى ترسمها الحكمة المستمدة من العلم الصحيح ، لا من التحكم وإرادة التسخير .

ويأمر بالتوسع فى العلم ، والتبحر فيه ، العلم الذى يحصله الواقع المحسوس ، لا الذى يقيم صرحه الخيال ، وتمده الأوهام والظنون .

ويأمر بمراعاة الأحوال، وتقدير الظروف ، ومعالجة الأمور بالحكمة لابالخرق ، وبالتشاور لا بالاستبداد بالرأى .

ولا يحرم على أهله إلا الخبائث ما ظهر منها وما بطن ، سواء أ كانت فى مأ كل ومشرب ، أم فى قول وعمل ، محلالهم الطيبات فى حدود الاعتدال والتوسط .

ويحث على دوام الترقى ، وتطلب الأحسن من كل شىء ، وتوخى الأمثل من كل رغيبة .

ويحض على التخلق بأخلاق الله ، وهى ما يرى ظاهرا يبهر الأنظار فى كتاب الكون المبسوط للكافة ، يرون فيه آثار حكمته وعدله ، ورحمته وإحسانه ، وتدبيره وإتقانه .

إن دينا يكون قد أحيط بكل هذه العوامل ، وكفى المحللات بما رأيته من الحوافظ ، جدير بأن يبقى على الدهر ، وإن انحرف عنه أهله ، ويدوم دوام السموات والأرض ، وإن التوى على بعض أصحاب الأغراض فهمه ، حتى إذا استعدت النفوس الى إيثار الوحدة الاجتماعية والوحدة الدينية ، وجدت الاسلام أمامها يدعوها الى حظيرته ، فأقبلت عليه إقبال الهيم على المورد العِد ، فقبلته دينا لها إن طوعا وإن كرها ! والى هذا يشير الحق فى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها (١) واليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

محمد فريد وجدى

(١) المراد بقوله تعالى : « كرها » فيما يظهر : إكراه الحوادث العالمية الناس على قبول الاسلام كمنقذ لهم من الشرور



تتمات لتفسير سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرنا لك شيئا من كلام الفلاسفة الأقدمين والمحدثين فى الاستدلال على وجود الله تعالى وقد رأينا أن نضرب معهم بسهم فى ذلك الموضوع الرفيع بأسلوب بديع ، وقد وجدت من نفسى سائقا قويا لإعمال القريحة فى ذلك واستخدام القلم فيما هنالك ، علما بأن ذلك مطاب الأرواح وهو المقصد الأسمى من بعثة الرسل عليهم السلام . وأى سورة أحق بهذا من سورة الاخلاص التى تعدل ثلث القرآن بنص الحديث الشريف . ولو كتبنا أسفارا فى بيان صمديته تعالى أو أحديته عز وجل لم نبلغ إلا أقل القليل من دلائل قدرته وآيات عظمته « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » وبالجملة فقد جاءنى هذا الالهام القوى الذى لا يمكننى أن أخالف سلطانه ، أو أدع بيانه ، وهو فيما أعتقد أجل ما ينفع القراء ويبتهج به أهل الذكاء ، فأقول متوخيا طريقة القرآن من وضوح البيان واستنارة الوجدان ، وبالله التوفيق :

(١) إن نسبة الالحاد الى علم الطبيعة إفتراء على علم الطبيعة ، فإنه لا علاقة له باوائل الأشياء ولا أواخرها ، وليس فى قدرته أن يعرف من أين جاءت ولا الى أين تذهب ، ولا ذلك من أبحاثه وإنه لينطق بعجزه عما وراء الطبيعة ، ولكنه يقدس بأسراره البديعة ، ذلك الفاعل المستتر بكنهه ، الظاهر بآثاره ، الذى دق عن رؤية الأبصار وجل عن أن يقع تحت الحس ، ولكنه معروف للعقول مرئى للبصائر ، فهو كالروح وجودها بدهى فى الفطر ولكنها مجهولة عند إرادة التكليف والتحديد ، لأنها تعلو عن ذلك بمقتضى طبعها لبُعْدَ النورانيات عن الظلمانيات ، فتنكرها عوالم السفلية الكثيفة التى لا تعرف غير المحدود .

(٢) ينطق بوجوده تعالى وعظمته وسعة علمه وباهر ألوهيته ما أودعه فى الأشياء من الحكم التى اقتضت أن يوجد لك كبدا تفرز الصفراء ، وغددا تفرز الريق ، ومجرى للطعام ، ومجرى للنفس ، ومصفاة فى الأنف للهواء ، وسدادات تفتح من جانب واحد بغاية الاحكام فى الأذين والبطين والشرايين والأوردة . وانظر كيف جعل لك منفذا للفضلات وبجانب قناة

البول قناة أخرى للمنى بعد عمل حوض للبول يجتمع فيه وكليتين تفرزانه من الدم، ثم جعل لك أنثى، وهيأها لما يراد منها فخلق فيها رحما وثديا الخ.

وانظر الى حكمة: الأصابع والأظافر واليدين والرجلين والمفاصل وطبقات العين وخلق اللسان فى الفم الى غير ذلك مما يبهرك إن كنت ذا وجدان صحيح.

(٣) من المقرر أن فاقد الشىء لا يعطيه، فكيف تعطينا المادة الجامدة الميتة الحياة والعلم والادراك؟ وهل لتلك العناصر المادية كالكبريت والفسفور والأكسوجين والادروجين والذهب والذئبق الى غير ذلك من عناصر المادة خبر من ذلك أو أثارة من حياة أو علم أو إدراك وهل إذا اجتمعت الجمادات كونت حياة وإذا انضمت الجهالات كونت علما عاليا وإدراكا ساميا. هل كان يمكن للمادة الجاهلة التى تجتمع كيفما اتفق أن تكون معدة وإمعاء ورئتين وكليتين، وأن تخلق فى المعدة ما تحتاج اليه من العصارة المعدية وبجانبها العصارة البنكرياسية، ثم تخلق جهازا للتناسل وتعلم أن ذلك وحده غير كاف فتخلق خلقا آخر من جنس الخلق الأول وتخلق فيه جهازا للتناسل يخالف الجهاز الأول ليكون الأول فاعلا والثانى قابلا ثم تخلق فيه محلا للجنين وتدبر له كيفية غذائه مادام فى الرحم وتخرج له ثديا يغذيه بعد خروجه وتهيئ له لبنا يجرى فيه يناسب حاله وضعفه فى طفولته ويجعل الرجل مجردا عن ذلك وقد ألقى على كل منهما الشهوة الشديدة الى الآخر لينساقا الى ما خلقا له وليحفظ النوع من الفناء والدثور.

بل نقول: هل علمت المادة الصماء العمياء أن الكلبة ستلد أجراء كثيرة، فجعلت لها أثداء كثيرة وحلمات عديدة رحمة بأولادها التى ستكون بعد، وهل علمت أن العقاب سيتغذى باللحم فكونت فى البيضة التى يتخلق منها مناثر يقطع بها اللحم كما علمت أن بعض الطيور تأكل النبات وأن بعضها يحتاج الى حويصلة فلم تكون ذلك فى بيضتها.

٤ — إن أعمال الله تعالى لا تتناهى ولا تدخل تحت حصر مما ينبئ عن الاختيار والإرادة فان الأعمال الطبيعية يجب أن تكون متشابهة بل متحدة. فان الطبيعة لا تعمل إلا عملا واحدا ووجود الأعمال المتنوعة من خصائص الاختيار والارادة وليس الاختلاف الذى نشاهده ولا يدخل تحت حصر قاصرا على الأنواع المتباينة بل أفراد النوع الواحد لا تكاد تدخل تحت الحصر مباينة واختلافا «يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم» وإن شئت فانظر الى الأشجار المتجاورة التى تضرب عروقها فى بقعة واحدة وفروعها فى هواء واحد، بل انظر الى أوراق الشجرة الواحدة تجدها لا توافق ورقة منها ورقة أخرى، فإن حاولت أن ترجع ذلك الى أسباب ومقتضيات فقل لى من الذى نوع تلك الأسباب وخالف بين تلك المقتضيات الخ.

٥ — وإن شئت فانظر الى تعاضد العوالم وخدمة بعضها بعضا وتوجيهها كلها لغاية واحدة مما لا يتصور مثله المادة العاجزة التى ليس لها خبر عما يجاورها فضلا عن البعيد عنها فانظر الى خدمة العالم العلوى للعالم السفلى .

٦ — والى وضع الأرض وغيرها من العوالم العلوية على الأبعاد المناسبة حتى ينتفع بعضها ببعض ، وحتى لا تختل حركة الجاذبية العامة ، ولو جعلت الأرض قريبة من الشمس جدا لاحترق كل ما عليها بحرارة الشمس ، ولو جعلها بعيدة عنها جدا لم يعش عليها نبات ولاحيوان « فسبحان العليم الحكيم » ومن المدهش كون أوضاعها على نسبة تحفظ بها قوانين الجاذبية فى الجميع بالنسبة لما على يمين الكوكب وما على شماله وما فوقه وما تحته الى آخر ما يحير الحاسبين ويدهش الناظرين .

(٧) وإن شئت فانظر الى الأرواح والجن وأفاعيلها التى خرقت كل نواميس المادة وتلك الخوارق يعرفها المسلمون فى أوليائهم بالكرامات وأنبيائهم بالمعجزات ، وقد اعترف بها الآن فلاسفة الأوربيين وأساتذتهم بواسطة استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى الذى أتى بما لا يمكن تعليله بالعلل المادية كما هو معروف الى آخر ما لا يتسع له هذا المقام .

٨ — وإنى لأعجب كيف تنسب هذه القدرة الباهرة التى أوجدت هذا الملك العظيم الذى لا يحيط به محيط فى اتساعه وكثرة أنواعه من هواء وماء وأرض وسماء ونجوم وأقمار . ورياض وأزهار وجبال وبحار . الخ . عجبت كيف تسيغ العقول ذلك أم كيف تسيغ أن تنسب الى المادة الجاهلة تلك العلاقات المنظمة التى بين الأشياء والترتيب الغريب المسيطر عليها والحكم السامية المودعة فيها التى اقتضت أن يكون « الأزت » فى الهواء على نسبة ٩٩ فى المائة « والأكسوجين » فى الهواء على نسبة ٢١ فى المائة ، حتى يتأتى أن يتنفسه الانسان والحيوان وتصلح به الأشياء . تلك الحكم التى أوجدت فيك المخ والمخيخ والرئتين وصورت لك فكين وأوجدت بينهما لسانا وعلى طرفيهما أسنانا ولم تكتف بذلك حتى أوجدت لك غددا فى ذلك المحل تفرز الريق الى آخر مالا يسعنا إلا أن نلمع اليه لا أن نأتى عليه .

(٩) عجبت كيف لايدهشه هذا الابداع وكثرة الأنواع . بل اختلاف الصور والأشكال فى النوع الواحد ، وانظر الى ذرة المكروب من نوع الحيوان الى أن تصل الى ماطوله عشرات الأمتار كما فى حيوانات البحر والى ماله حويصلة ومعدة ومعدتان وثلاثة والى آكلة النبات وآكلة اللحوم ، والى ماله عيون تزيد على عشرات المئات الى آخر مابينه علماء الحيوان .

ثم انظر الى النبات كيف تزيد أنواعه على مائتى ألف نوع الخ الخ : ثم انظر الى سعة العوالم العلوية وانتظامها وسرعة حركاتها وما قرره فيها المكتشفون فيا ليت شعرى ما الذى عرف هذه الاختلافات وتلك التنوعات وهذه النظامات وهذا الابداع وذلك الاختراع .

(١٠) أم كيف أوجدته المادة التى لا تستطيع أن توجد نفسها . وألفت نظرك الى هذا الغذاء الذى نأكله كل يوم ولا ندرى بشهادة علماء الطبيعة أنفسهم كيف يكون العين والمخ والمخيخ الى آخر أجزاء البدن أم كيف يكون العلف والتبن عينا فى رأس الحصان ودما فى جسمه ولحما فى عظمه وربما سمعت شهادة فلاسفة أوربا فى ذلك . فليت شعرى أى قدرة عملت هذه ، وأى علم نظمه ، وأى سر أودع فيه ، وأى كيفية تم بها .

١١ — فان كان لا يدهشك أصل وجود الأشياء من العدم فليدهشك ما فيها من الأسرار وتنوعاتها وكيفية تأثيرها التى لا نعلمها ولا نحس منها إلا بقـدرة تعلو عن العقول . ولست أدرى أى سر أودع فى بزرة التوت حتى أوجدت تلك الشجرة الضخمة ونوعت أوراقها وثمارها دون شجرة الفول الذى هو أكبر من بزرة التوت بأضعاف كثيرة ، وأى سر أودع فى المعدة حتى صيرت تلك الأشياء الجامدة الغليظة الميتة دما حيا يجـرى فى مجاريه المختلفة الى القلب ثم يرجع الى أطراف البدن ست عشرة مرة فى الدقيقة ، ولئن عرفنا تركيب الأشياء فلا ندرى كيف تألفت ولا كيف أثرت . ولا كيف تظهر عنها نتائجها . أفـلا تدهشك تلك الأسرار فتستدل بها على قادر عظيم لا ندرى ما هى الأسرار التى أودعها ونوعها ولا نعـلم كيف يفعل فكما تنزه فى ذاته أن تدركه العقول كذلك تنزه فى فعله عن أن نعلم كيف يكون ، فهل أودعت الأشياء هذه الأسرار فى أنفسها « وكيف ذلك » ؟ وهل نوعتها الى تلك الأنواع التى لا يحيط بها محيط وباينت بينها وخصصت كلا بكل الخ الخ ؟ وليت شعرى كيف ذلك وهى الصماء البكماء بل الجماد الميت .

١٢ — بل نقول . كيف نعقل وجود المادة ، هل ترى أيدك الله أنها وجدت من غير شىء وأودعت تلك الأسرار المتنوعة التى تخرج عن نطاق العـد بل التى لا نهاية لها من غير شىء . اللهم إن ذلك كله باطل بالبداهة ولا يتجرعه ولا يكاد يسيغه إلا مجنون فسد عقله أو بطلت إنسانيته . وضاعت فطرته التى فطر الله الناس عليها . أم نقول إن ذلك كله قد وجد بأصله وأسراره وحكمه ونظامه بالصدفة كما يقول أولئك المجانين .

وأنت لا تجيز إذا رأيت قصرا مشيدا مشتملا على ترتيب عجيب ونظام غريب كل شىء فيه لغرض من الأغراض وسر من الأسرار أن يكون قد وجد بالصدفة . بل لا تجيز أن يوجد أقل شىء بالصدفة . بل نرجع بك الى أصل وجـود الأشياء من العدم فان كنت تجيز الصدفة فى ذلك كله ويهضم ذلك عقلك فقد سقطت مكالمتك . وبعد : فتبا لمن عمى عن رؤية شمسه تعالى المشرقة على جميع الموجودات وباهر آياته التى ملأت الأرضين والسموات ثم ينسب ذلك لعلم الطبيعة زورا وبهتانا وقد قال باكون وهو من أساطين علم الطبيعة من أخذ علم الطبيعة رشفا بأطراف الشفاه ألحد ومن شربه عبا أوصله الى الخالق . وقال الفيلسوف الكبير

« سبنسر الانجليزى » ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس بل الغرض أن يوقفنا على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ما وراء الطبيعة وما أجدرنا فى هذا المقام أن ننشر قول القائل :

يا من تفلسف كى يؤيد كفره ... مع أنه لم يدركنه وجوده
خسرت بسوق الفضل صفقة جاهل ... تخذ العلوم ذريعة لجحوده

أو نقول ما قال غيره :

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئا يدعى أكثر منه

ولنقف هنا اليوم وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

شىء من الزهد

مر محمد بن واسع الصوفى على قوم فسأل عنهم ، فقيل له : هؤلاء الزهاد . قال : وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها ؟

نقول : لعله نظر الى قول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لسليمان بن عبد الملك وقد أعجبه سلطانه وسأله كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال له عمر : سرور لولا أنه غرور ، وحرم لولا أنه عدم ، وملك لولا أنه هلك ، وحياة لولا أنها موت ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم .

وقال لقمان لابنه : يا بنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا .

وقال الفضيل بن عياض : لو عرضت على الدنيا بحذافيرها حلالا لا أحاسب عليها فى الآخرة ، لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

وقال : جعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

نقول : الزهد فى الدنيا حال يعترى بعض النفوس العالية ، وهم فى زهدهم يخدمون المجتمع من ناحية بقدر ما يخدمه الأغنياء بأموالهم ، وذوو السلطان بسلطانهم . ولم يحرم الدين شيئا من الدنيا يناله الانسان حلالا طيبا ، يلتمسه من وجوهه المشروعة ، ويضعه فى مواضعه الصالحة .

السنة

الطوفان وما يتعلق به

موضوع كلامنا فى شرح حديث الطوفان الذى رواه ابن جرير مرفوعا، وقد ذكرنا نصه وبينا بعض ما يتعلق به فى العددين السابقين من مجلة الأزهر، ونريد الآن أن نتكلم فى المطالب التى أشرنا إليها فيما مضى، وهى: (١) بيان معنى قوله تعالى (وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) (٢) بيان أن القرآن الكريم محفوظ من القصص الباطل، فكان ينبغى للمفسرين ألا يذكروه. (٣) بيان ما جاء فى آخر الحديث من أن نوحا أمر الحيوانات التى كانت معه بالصيام فصامت. وإليك بيانها على هذا الترتيب:

(١) يقال لغة غاض الماء يغيض غيضا إذا قل ونقص، ويقال غاض الله الماء وأغاضه، فإذا بنى الفعل للمفعول يقال غيض الماء، ومعناه غاضه الله أو أغاضه، فمعنى قولنا فى مقالنا السابق أمر الله الماء أن يغيض فغاض، معناه أن الله فعل به ذلك لأنه لا سبيل هنا الى جعل الماء فاعلا كما قيل أن الأرض فاعل ابتلاع الماء وأن السماء فاعل الإقلاع عن إنزاله، وذلك لأن الماء هنا مفعول قام مقام الفاعل فلا يتصور أن يكون فاعلا. من المعلوم أن إسناد الفعل المبنى للمفعول الى ذلك المفعول حقيقة، لا مجاز، فهو كإسناده الى الفاعل، ولكن قد يقال لماذا بنى الفعل للمجهول هنا فقال وغيض الماء ولم يقل أغاض الله الماء. والجواب أن الفعل إذا كان منحصرا فى الفاعل بحيث يستحيل صدوره عن غيره بنى الفعل للمفعول للدلالة على شيئين: أحدهما دلالة الفعل المبنى للمجهول على فاعل مقدر وهذه الدلالة حقيقية. ثانيهما دلالته على تخصيص ذلك الفعل بفاعل معين لا يمكن صدور ذلك الفعل إلا عنه، وهذه كناية عن تخصيص الفعل بفاعله. ولا يخفى أن الفعل صفة والفاعل موصوف فهو كناية عن تخصيص الصفة بموصوفها وإن شئت قلت إن بناء الفعل للمفعول وحذف فاعله المعلوم المعين لازم للعلم بذلك الفاعل فذكر اللازم وهو حذف الفاعل وبناء فعله للمجهول وأراد الملزوم وهو العلم بذلك الفاعل فكأنه يقول إن الفاعل معلوم معين لا حاجة لذكره، ومن هذا تعلم أن حذف الفاعل هنا وبناء الفعل للمجهول يدل على معنى عظيم وهو أن فاعل هذا الأمر هو وحده القدير على فعله فلا

سبيل الى تقدير غيره ألبتة ، ومن ذا الذى يقدر على إيجاد ذلك الفعل الهائل سوى الله الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وكذلك الحال فى قوله تعالى (وقضى الأمر) فإن المراد هنا ما وعد الله به نوحا من إغراق الكافرين من قومه وإبادتهم جميعا ، ومعنى قضى أنجز ، فهو يقول وأنجز الله ما وعد به نوحا من إغراق قومه وإبادتهم ، فبنى الفعل للمفعول للدلالة على أن الفاعل مختص بذلك الفعل وحده على الوجه الذى بيناه . ومثل قوله تعالى (وغيض الماء وقضى الأمر) قوله (وقيل بعدا) فإن المعنى قال الله ونحوه مما قدرناه أولا ، فبنى الفعل للمفعول وحذف الفاعل ليدل على أنه مختص به وحده فإنه يستحيل أن يقول أحد ذلك وينفذ قوله .

أما قوله تعالى (واستوت على الجودى) فان معنى استوت هنا استقرت كما يقال فلان استوى على السرير إذا استقر عليه ، والجودى اسم لجبل بالجزيرة متصل بجبال أرمينية فى نواحى ديار بكر . ويأتى فيه الخلاف الذى ذكرناه أولا من كون استواء السفينة حقيقى لا مجازى . فان الفعل مبنى للفاعل لا للمفعول . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الله قد أودع فى السفينة قوة الادراك المودعة فى الانسان وأمرها بالاستواء على هذا الجبل فاستوت فتكون نسبة الاستواء اليها حقيقة لا مجازا . أما الذين يقولون إن فاعل الاستواء هو الله على أى حال فانهم يقولون إنما لم يذكر الفاعل لأنه هو وحده المختص بذلك ، وذلك كناية عن تخصيص الصفة وهى الاستواء بموصوفها وهو الله تعالى كما قيل فى بناء الفعل للمفعول لأن الفاعل إذا كان متيقنا دلت عليه القرائن القطعية يصح حذفه مع بقاء الفعل على حاله كما هو الحال فى بناء الفعل للمفعول بلا فرق . ومعنى قوله تعالى (وقيل بعدا للقوم الظالمين) قال الله ليهلك القوم الظالمين هلاكا لأن معنى البعد هنا الهلاك .

هذا بعض ما يتعلق بهذه الآية من علم البيان ، أما ما يتعلق بها من علمى المعانى والبديع فأمره طويل يستغرق بيانه مفصلا زمنا طويلا قد تضيع معه الفرصة على قراء المجلة الذين يريدون الوقوف على أسرار الدين وحكمه من نواح أخرى ، فلذا رأينا الآن الاقتصار على هذا القدر ليعلم المسلمون أن القرآن الكريم صادر من لدن حكيم خبير فلا تستطيع يد المحرفين أن تمتد اليه — ولا يستطيع أعداء الدين الاسلامى أن ينالوا منه نيلا أو يكيدوا له كيدا فهو محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

(٢) مما لا شك فيه أنه لا ينبغى لعاقل يدرك معانى القرآن الدقيقة ويفهم ترتيبها وأحكامها ويؤمن بأنه صادر من لدن حكيم خبير أنزله ليتحدى به فحول البلاغة وأذكياء العالم أن يجعل للقصص المكذوب بالبداهة علاقة بتفسير هذه الآيات الحكيمة . فمن الأخبار

المكذوبة بداهة ما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس من أنه قال إن أهل السفينة لحقهم من الفأر أذى خصوصا أنه كان يقرض حبال السفينة فعطس الأسد فخرج من منخريه سنوران (قطان) ذكر وأنثى فأكلا الفأر إلا ما أراد الله تعالى أن يبقى منه. وهذا الخبر مكذوب بالبداهة. وذلك لأن سفينة نوح عليه السلام كانت مصنوعة على أحسن نظام وأتقنه. فان الله تعالى قد أخبر بأنها مصنوعة بوحي من الله تعالى وبإرشاده سبحانه كما قال: « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » والأعين هم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليعلموا نوحا كيف يصنع السفينة، وليس من المعقول أن يصنعوا سفينة تغالب أمواج الطوفان الهائلة التي قال الله عنها « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » وتكون أقل شأنا من البواخر العظيمة التي نراها الآن فلا ريب فى أن هذا الخبر مكذوب من هذه الناحية، وأيضا فانه لامعنى لقولهم إن الهر قد خلق من عطاس الأسد فى هذا الوقت لأن جميع أنواع الحيوانات مخلوقة قبل هذا. ولو سلم هذا لكان الهر غير موجود فى عهد آدم ومن بعده. وهذا باطل بالبداهة وليت شعرى كيف يتصور وجود الفأر وحمله فى السفينة مع كونه غير محتاج اليه بل هو ضار بالنوع الانسانى ولا يتصور وجود الهر.

ومن ذلك ما أخرجه أبو الشيخ أيضا أن أهل السفينة تأذوا بفضلات الطعام من بول وغائط ونحوهما، فعطس الفيل فخرج من منخريه خنزيران ذكر وأنثى، فأكلا أذى أهل السفينة ولا ريب فى أن راوى هذا قد غفل عن أن السفينة لم يكن فيها محل خاص لقضاء الحاجة وذلك جهل عظيم بمعنى الآية لأن السفينة التي تصنع بالوحى ولا يكون فيها محل لقضاء حاجة الانسان تكون ناقصة نقصا معيبا. بل لا تكون صالحة لمغالبة أمواج الطوفان، ويظهر أن رواة هذه الأخبار قد اعتمدوا على ماذكر فى قصص الكتابيين بدون أن يتدبروا معناه وبدون أن يدركوا تقدم الصناعة، بل رأوا السفن التي كانت فى زمانهم فحملوها عليها وصدقوا هذه الأخبار.
ومن ذلك ما روى من أن إبليس تعلق بذنب الحمار فجعل نوح يجذبه وجعل إبليس يجذبه فقال نوح أدخل شيطان فدخل الحمار ودخل إبليس معه، فلما سارت السفينة جلس إبليس فى ذنبها وأخذ يتغنى فقال له نوح ويلك من أذن لك قال أنت. قال متى. قال إذ قلت للحمار أدخل شيطان فدخلت باذن منك. وهذا أيضا مما لا معنى له لأن ابليس لا يعنيه أن يكون فى السفينة أو يكون فى الماء، فاننا إذا فرضناه ماديا فاننا نجزم بأن له قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، وأن له قدرة على الوسوسة فى أى ناحية من النواحى وفى أى وقت من الأوقات ولا يملك نوح عليه السلام ولا غيره من الأنبياء الحيلولة بينه وبين أحد، ولو أمكنه ذلك لمنعه من الوسوسة لقومه والوقوف فى سبيل دعوته فهذا كلام لا يمكن أن يتفق مع بلاغة القرآن وإحكامه وإتقانه. ومن ذلك ما رواه اسحق بن بشر عن زيد بن ثابت أن نوحا استعصت عليه ماعزة فدفعها فى ذنبها فانكسر ذنبها وبدت عورتها مكشوفة بخلاف النعجة فانها امتثلت ودخلت

فمسح نوح على ذنبها فستر عورتها ولعل هـذا مضحك فان الماعزة حيوان هادئ لا يمكنه أن يستعصى بل يمكن حملها بسهولة ، وعلى فرض أنها استعصت فانها غير مكلفة حتى تعاقب بهذه العقوبة وعلى فرض أنها مكلفة فما ذنب من يأتى بعدها من هذا النوع حتى يعاقب بعقوبة غيره إن هذا لشيء عجيب . ونسبته الى زيد بن ثابت وهو من مشاهير المدققين فى رواية الأخبار وقد كان حجة فى جمع القرآن الكريم من المضحكات المبكيات .

وأمثال هذا كثير ، ولكن يظهر أن الذين نقلوه فى تفسير هذه الآيات التى خضعت لها أعناق فحول الأذكياء قد وضعوا ثقتهم العمياء فى الرواية بدون نظر الى ما تدل عليه فى الخارج وبدون تقدير لما يترتب عليها من أثر سيء قد يشوه جلال القرآن الكريم وعظمته ، ومن حسن الحظ أن بعض المفسرين المشهورين قد نبه على ذلك فإن الأستاذ الألوسى قد نقل كثيرا من هـذه الآثار ثم قال إنها تفضى الى العجب . وإنها لا يعول عليها فى شيء . أما أنا فأعتقـد أن ذكرها فى التفاسير ضار لأن بعض المفكرين الذين لم يطلعوا على أصول الدين قد يذهب بهم الوهم الى أن الدين الاسلامى مبنى على هـذه السخافات . مع كونه بريئا من كل ما لا ينطبق على العقول السليمة . ومشتملها على كل ما تدل عليـه الأدلة الصحيحة والبراهين القاطعة . ومن المستغرب أن تذكر أمثال هذه الآثار فى تفسير الطبرى مثلا بدون تنبيه على وضعها مع كونه عمدة لكثير من المفسرين : وعلى كل حال فالذى ينبغى ذكره هو ما اقتصرت عليه آيات الكتاب المبين ، ولا يليق أن تفسر بغير ما يناسب النظريات الكونية والاجتماعية . فاذا سنحت للمفسر ضرورة تدعو لبيان قصة أو ذكر حادثة ، فعليه أن يرجع فيها الى نفس الكتاب والسنة الصحيحة وإلا فالخير كل الخير فى عدم ذكرها .

(٣) أما كون نوح قد أمر الحيوانات الموجودة بالسفينة أن تصوم بعد نجاتهم فصامت فليس ببعيد ، لأننا قد رأينا فى زماننا أن كثيرا من الحيوانات مستعدة للتعليم والادراك ، وأن بعضها قد يستخدم فى مهام الأمور فينجزها على وجه كامل وسواء كان هـذا الادراك من طريق الحس والمشاهدة أو من طريق قوة باطنة فان إدراك تكليفها بالصيام ممكن ، غايته أن يقال إن التكليف بالعبادة عادة إنما يكون لمن يدرك بفطرته كالانسان والجن . أما البهائم فلا معنى لتكليفها بالصيام . ولكن يجاب عن ذلك بأن الغرض هاهنا ذا إنما هـو إظهار الخضوع لله تعالى شكرا لما أولاهم من نعمة النجاة ، ومن المبالغة فى شكره أن تعلنه الحيوانات التى لا تعقل متى أمكن إدراكها . وقد عرفت أن إدراكها ممكن لأنه قد شوهد فعلا فى بعض الحيوانات المعلمة ، فلا مانع من أن تصوم الحيوانات غير المعلمة بطريق الالهام معجزة لنوح عليه السلام .

وقـد دلتنا بعض الحوادث فى زماننا على أن بعض الحيوانات قد صام فعلا ، فمن ذلك أن سمكة كانت فى حوض مع رفيقة لها فلما ماتت رفيقتها صامت عن الطعام بتاتا . وأن ثعبانا عظيما

فى بعض حدائق الحيوانات قد أضرب عن تناول الطعام وكانوا يغذونه (بالحقن الصناعية) وغير ذلك كثير ، هذا وقد بقى أن يقال ظاهر الآية يفيد العموم ، وأن نوحا قد حمل فى سفينته اثنين من كل نوع ذكرا وأنثى ، ولكن الظاهر المعقول أنه حمل من ذلك ما يحتاج اليه الانسان بعد نجاة السفينة ، فالمراد بالعموم فى الآية هذا المعنى وهو حمل كل ما يحتاج اليه النوع الانسانى فلم يحمل نوح الفأر والحشرات ونحو ذلك مما لا حاجة اليه ، ولا يقال أنه حملها بأمر الله تعالى لاستبقاء نوعها لأن الطوفان لم يكن عاما لجميع الجبال ، وعلى فرض أنه عام فان هلاكها لا يترتب عليه عدم إعادة خلقها ، لأن الإله الذى خلقها أولا من موادها قادر على إعادة خلقها فى أى وقت وهو الخلاق العظيم .

عبد الرحمن الجزيرى

سقطات الادباء

دخل جرير الشاعر المشهور على عبد الملك بن مروان بعد ما منعه من الدخول عليه كراهة فيه ، فأنشده :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم قومك بالرواح

فقال له عبد الملك : بل فؤادك ، فحصر جرير وخرج خائبا .

وخاصم رجل خالد بن صفوان وكان قد كف بصره ، فترافعا الى بلال بن أبى بردة ، وكان أميرا للكوفة وقاضيالها ، فقضى على خالد . فلما خرج وجلس الى ناحية مر به مركب ، فسأل عن صاحبه فقالوا له : هذا مركب بلال ، فقام خالد وهو يقول :

سحابة صيف عن قليل تَقَشَّع .

فسمعه بلال ، فقال له : والله لاتقشع حتى يصيبك منها شؤبوب برد ، ثم أمر به فضرب مائتى سوط ، وأمر بحبسه . فقال له خالد : علام تفعل بى هذا ولم أجن جناية ؟

فأجابه بلال يخبرك بذلك باب مصمت ، وأقياد ثقال ، وقَيِّم يقال له حفص .

فلما نكب بلال وأحضر أمام عامل هشام فى قيوده كان خالد جالسا عنده ، فقال له : الحمد لله الذى أذل سلطانك ، وهد أركانك . فقال له بلال : ياخالد إنما استطلت على بثلاث : الأمير عليك مقبل وعنى معرض ، وأنت طليق وأنا عان ، وأنت فى وطنك وأنا غريب ! فأفحمه .

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٧ —

على بن أبى طالب

أتينا فى كلمة عابرة بصورة مجملة من حياة أمير المؤمنين « علىّ » رضى الله عنه فى مبتدأ أمره وعهد صباه حتى شب عن الطوق بين أحضان الاسلام فى حجر النبوة ، فكان فى تربيته نسيج وحده ، وفريد عصره ، تجمع فيه من الخصال والسوابق ما لم يكن لغيره ، يقول ابن عباس : « لقد سبق لعلى رضى الله عنه سوابق لو أن سابقة منها قسمت على الناس لوسعتهم خيرا . . كانت له خصال ضوارس قواطع بِسطَة فى العشيرة ، وصهر بالرسول ، وعلم بالتنزيل ، وفقه فى التأويل ، وصبر عند النزال ومقاومة الأبطال ، وكان ألد إذا أعضل ذا رأى إذا أشكل » ويروى البيهقى فى المحاسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أم سلمة بنت أبى أمية إذ أقبل علىّ عليه السلام يريد الدخول على النبى صلى الله عليه وسلم ، فنقر نقرا خفيفا فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم نقره ، فقال : يا أم سلمة قومى فافتحى الباب ، فقالت : يا رسول الله من هذا الذى يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسنى ومعاصمى ؟ فقال : يا أم سلمة إن طاعتى طاعة الله جل وعز ، قال « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » قومى يا أم سلمة فإن بالباب رجلا ليس بالخرق ولا النزق ولا بالعجل فى أمره يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يا أم سلمة إنه إن تفتحى الباب له فلن يدخل حتى يخفى عليه الوطء ، فلم يدخل حتى غابت عنه وخفى عليه الوطء ، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل فسلم على النبى عليه الصلاة والسلام فرد عليه السلام وقال : يا أم سلمة هل تعرفين هذا ؟ ! قالت نعم ، هذا على بن أبى طالب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم هذا علىّ سيط لحمه بلحمى ودمه بدمى ، وهو منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ، يا أم سلمة هذا علىّ سيد مبجل مؤمل المسلمين وأمير المؤمنين وموضع سرى وعلمى وبابى الذى يؤوى اليه ، وهو الوصى على أهل بيتى وعلى الأخيار من أمتى ، وهو أخى فى الدنيا والآخرة وهو معى فى السناء الأعلى » .

هذه خصائص من الفضائل وفواضل من المزايا لم تكن لأحد من المسلمين ، تفرّد بها أبو حسن كرم الله وجهه فجعلت منه شخصية إسلامية صريحة تدور مع الحق حيث دار ، لا تعرف المخاتلة ولا المداهنة فى نسج السياسة وحوك الدهاء ، وهو يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث الى قريش فى شأنه فقال : « والله ليبعثن الله عليكم رجلا منكم قد امتحن الله قلبه للايمان يضرب رقابكم على الدنيا ، فقال أبو بكر أنا هو يا رسول الله ، قال :

لا ، فقال عمر : أنا هو يا رسول الله ، قال : لا ، ولكنه خاصف النعل ، وأنا أخصف نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم » وامتحان الله قلب المؤمن للإيمان تخليص له من عوارض الدنيا ، وتفريغ من شواغل الحيل والمواربات ، وإفعامه بالحكمة والتسامى عن غرور الأباطيل ، وهذا ما كان أظهر صفات أبى تراب كرم الله وجهه فى حياته منذ عقد له الزمن لواء الرجولة ، ووضع فى يده زمام بطولة الاسلام .

كانت الهجرة الى المدينة فتح الفتوح على الاسلام والمسلمين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكد يستقر بأصحابه من المهاجرين بين أنصاره من اليثربيين حتى لحق به على فى أهل بيته ، وهنا تبدأ حياة الاسلام تستقبل من التاريخ وجها جديدا تشرق من جبينه شمس العزة والنخوة والبطولة ، فالمسلمون المستضعفون فى مكة يقفون فى وجه قريش مناضلين بالسيف لحماية دعوتهم ، والدفاع عن حوزتهم ، وتستعر الحرب فى بدر وتتجلى بطولة على رضى الله عنه فى صولاته عاليا بها هامات صناديد قريش ، وتقول الرواية إن نصف قتلى بدر — وكانوا سبعين — إنما سالت نفوسهم على شفرات سيفه ، وفى غزوة أحد امتحن الله المسلمين فطارت أنفس الكثرة شعاعا وتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يثبت معه إلا نفر فدوه بأنفسهم ، وكان بطل الاسلام على فارسهم ، فلم يزل يصول حتى فرج عن نبى الله وتحاجز الناس ، وعادت الى المؤمنين قلوبهم ، وفى غزوة الخندق اشتد على الناس الحصار ، وملوا الانتظار فاقتحم قرم العرب « عمرو بن ود » الخندق يطالب الى المسلمين المبارزة ، وعلى يومئذ شاب ، وعمرو بن ود هو من هو فى أبطال العرب وشجعانهم ، فبرز إليه على وصارعه حتى صرعه فتنفس المسلمون الصعداء ، وفى هذا تقول أخت عمرو ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... بكيته أبدا ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له ... وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقد فتح الله على يديه حصون خيبر ، وفى هذه الغزوة المظفرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » ولم يعرف التاريخ أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى « تبوك » فقد خلفه زمنها رسول الله على المدينة وقال له : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » والحديث عن شجاعته لا ينتهى الى غاية ، وهو كما يقول فى نفسه : « والله لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه » .

ظل أبو الحسن كرم الله وجهه يحمى راية الجهاد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم حتى أتم الله على المسلمين نعمته وأكمل لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وقلتهم كثرة وعزة ، واختار نبيه الى الرفيق الأعلى ، فاجتمع الناس بعد محنة عاصفة على بيعة

أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وتخلف عنها على ونفر من الهاشميين لأنهم كانوا يرون أن عليا أحق بامامة المسلمين لسابقته فى الاسلام وقرابته وصهره من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه كرم الله وجهه لما رأى إجماع الناس على بيعة الصديق الأكبر بعث اليه أن أقبل الينا فأقبل أبو بكر حتى دخل عليه بيته وعنده النفر من بنى هاشم ، فحمد الله على وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد ، يا أبا بكر ، فانه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا ، وموعدك غدا فى المسجد الجامع إن شاء الله » هذا مذهب جماعة من السلف ، روى عن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أنه قال : « كان إياس بن معاوية لى صديقا فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وعنده جماعة من قريش يتذاكرون السلف ففضل قوم أبا بكر ، وقوم عمر، وآخرون عليا رضى الله عنهم أجمعين ، فقال إياس : إن عليا رحمه الله كان يرى أنه أحق الناس بالأمر ، فلما بايع الناس أبا بكر ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه وأن ذلك قد أصلح العامة اشترى صلاح العامة بنقض رأى الخاصة — يعنى بنى هاشم — ثم ولى عمر ففعل مثل ذلك به وبعثمان رضى الله عنه ، فلما قتل عثمان رحمه الله واختلف الناس وفسدت الخاصة والعامة وجد أعوانا فقام بالحق ودعا اليه » .

وذهب جماعة آخرون الى أن علياً لم يتعتع فى بيعة أبى بكر ورأى أن تقديم النبى صلى الله عليه وسلم له فى الصلاة وهو يرى مكان الهاشميين عامة وعلى خاصة مرجح لتقديم الصديق بالامامة الكبرى ، وهم يسندون مذهبهم بما يروون عن على كرم الله وجهه أنه لما فرغ من قتال أهل الجمل دخل عليه عبد الله بن الكواء وقيس بن عبادة اليشكرى فقالا : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت ، يضرب الناس بعضهم رقاب بعض أرأيا رأيته حين تفرقت الأمة واختلفت الدعوة ، فان كان رأيا رأيته أجبناك فى رأيك ، وإن كان عهد عهده اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت الموثوق به المأمون فيما حدثت عنه ؟ فقال : « والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ، أما أن يكون عندى عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فلا ، والله لو كان عندى ما تركت أخاتيم وعدى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة ولكنه مرض ليالى وأياما ، فأتاه بلال ليؤذنه بالصلاة فيقول إيت أبا بكر وهو يرى مكانى فلما قبض صلى الله عليه وسلم نظرنا فى الأمر فاذا الصلاة علم الاسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ، فولينا أمورنا أبا بكر ، فأقام بين أظهرنا الكلمة واحدة والدين جامع لا يختلف منا اثنان ولا يشهد منا أحد على أحد بالشرك ، وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى وأضرب الحدود بين يديه بسيفى وسوطى على كراهة منه لها - الخلافة - وود أبو بكر لو أن واحدا منا يكفيه ، فلما حضرت أبا بكر رحمه

الله الوفاة ظننت أنه لا يعدل عنى لقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابقتى وفضلى. فظن أبوبكر أن عمر أقوى منى عليها ، ولو كانت اثرة لآثر بها ولده فولى عمر على كراهة كثير من أصحابه فكنت فيمن رضى لا فيمن كره ، فوالله ماخرج عمر من الدنيا حتى رضى به من كان كرهه ، فأقام عمر رحمه الله بين أظهرنا الكلمة واحدة والأمر واحد ، لايختلف عليه منا اثنان فكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى وأضرب الحدود بين يديه بسوطى وسيفى أتبع أثره اتباع الفصيل أمه ، لا يعدل عن سبيل صاحبيه ولا يحيد عن سنتهما ، فلما حضرت عمر الوفاة ظننت أنه لا يعدل عنى لقرابتى وسابقتى وفضلى ، فظن عمر أنه إن استخلف خليفة وعمل بخطيئة لحقته فى قبره فأخرج منها ولده وأهل بيته وجعلها شورى فى ستة رهط منهم عبد الرحمن بن عوف ، فقال : هل لكم أن أدع لكم نصيبى على أن أختار لله ولرسوله قلنا نعم فأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه وأخذنا ميثاقه على أن يختار لله ولرسوله فوقع اختياره على عثمان رضى الله عنه ، فنظرت فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى ، وإذا ميثاقى قد أخذ لغيرى فاتبعت عثمان وأديت اليه حقه على أثرة منه وتقصير عن سنة صاحبيه ، فلما قتل عثمان رضى الله عنه نظرت فكنت أحق بها من جميع الناس .

وهذا الحديث عندنا أرفع رتب أحاديث التاريخ فى هذا المأذق ، فان فيه ضروبا من الآيات الدالة على صفاء طوية أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وتجافيهم عن التنازع لأمر من الدنيا وهذا أدنى الى سيرهم الطاهرة وتربيتهم النبيلة ، ففيه « أولا » أن بيعة أبى بكر لم تكن فلتة كما يزعم مؤرخو الشيعة ومن أخذ عنهم ، بل كانت قائمة على أساس الشورى المطلقة وأنها تمت باختيار المسلمين ، وهم الذين ولوه أمر الأمة ، وأن الصديق كان لها كارها ولكنه رضى واحتمل نزولا على إرادة الأمة ، وفيه « ثانيا » أن عليا رضى الله عنه لم يختلج فى نفسه بالنسبة لأبى بكر ما اختلج فيها بالنسبة لعمر من ظنه أحقيته بالخلافة منه لسابقته وقرابته لأن أبابكر قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لامامة الدين فى أهم أركانه ، فرضيه المسلمون للدنيا أخذا باشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه « ثالثا » أن عليا كرم الله وجهه كان أصح الناس عقيدة فى إخلاص أبى بكر وعمر ونصحهما لله وللرسول ، فهو يحتج لأبى بكر فى توليته عمر بأبرع حجة فيقول : « ولو كانت أثرة لآثر بها ولده » ، ويحتج لعمر فى جعل الأمر شورى بين ستة رهط بأنه « ظن أنه إن استخلف خليفة فعمل بخطيئة لحقته فى قبره فأخرج منها ولده وأهل بيته » .

بايع على لأبى بكر طواعية فأخلص له النصيحة ، ووازره أصدق موازرة حتى عهد بها الصديق الى الفاروق فكان أبوتراب كرم الله وجهه وزير صدق لابن الخطاب ومستشارا أمينا رضى عنه وعن خلافته ، ومدحه وأثنى على أيامه فقال : « لله جلاد فلان — يعنى عمر —

فقد قوم الأود وداوى العمد ، خلف الفتنة ، وأقام السنة ، ذهب نقى الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى الى الله طاعته ، واتقاه بحقه ، رحل وتركهم فى طرق متشعبة لا يهتدى فيها الضال ، ولا يستيقن المهتدى » .

وكان عمر رضى الله عنه يعرف لعلىّ كرم الله وجهه قدره فى علمه وفضله وقرابته ، وكان يقول : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو حسن » ويقول : « لا يفتين أحد بالمسجد وعلىّ حاضر » ولما دخل علىّ على عمر فى طعنته التى مات فيها قال له عمر : « أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟ » فقال علىّ : « ما كان عن ملأ منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا فى عمرك » ولما وضع عمر الأمر فى يد رجال الشورى قالوا له قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به ، فذكرهم جميعا حتى جاء الى علىّ رحمه الله فقال : « وما يمنعنى منك يا علىّ إلا حرصك عليها وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم ، ولعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وقرابتك وشرفك من رسول الله ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفونك ، فان وليت هذا الأمر فاتق الله يا علىّ فيه ، ولا تحمل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس »

انتهت الشورى الى بيعة عثمان رضى الله عنه ، فسلم علىّ واتبع وأخلص إيثارا لصالح الأمة وفرارا من الفرقة ، وفى ذلك يقول : « لقد علمتم أنى أحق بها من غيرى ، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علىّ خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » وقد حدثت بعد ذلك أحداث أنكر الناس فيها على عثمان رضى الله عنه ، فاجتمعوا الى علىّ كرم الله وجهه وسألوه مخاطبة عثمان واستعتابه لهم فدخل عليه فقال : « إن الناس ورائى وقد استسفرونى بينك وبينهم ووالله ما أدرى ما أقول لك ؟ ما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على شىء لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا وصحبت رسول الله كما صحبنا ، وما ابن أبى قحافة ولا ابن الخطاب أولى بعمل الحق منك ، وأنت أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشيجة رحم منهما ، وقد نلت من صهره ما لم ينالا ، فالله الله فى نفسك ، فإنك والله ماتبصّر من عمى ولا تعلّم من جهل ، وإن الطرق لواضحة ، وإن أعلام الدين لقائمة ، وإنى أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول ؟ فانه كان يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ويثبت الفتن عليها فلا يبصرون الحق من الباطل ، يموجون فيها موجا ، ويمرجون فيها مرجا ، فلا تكونن لمروان سيّقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر ؟ ! »

صادق ابراهيم عرجون

التجديد فى الاسلام

— ٦ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها »
حديث نبوى شريف

المجـــــددون فى الاسلام

فى القرن الثانى الهجرى

الأئمة المجتهدون الأربعة : المأمون ، علىّ الرِّضا ، اللؤلؤى ، أشهب ، الحضرمى ، ابن معين ، الـكرخىّ .

١ — لماذا ندرس المجددين ؟

للامم الراقية ولع شديد ، وعناية كبيرة بدراسة مجدديها وزعمائها وعظمائها ؛ وقدلا تكتفى فى دراسة أحدهم بوضع مؤلف واحد ، بل قد تضع فى حياته المؤلفات مابين موجزة ومطولة ، وما كانت هـذه الدراسة من باب اللهو واللعب والتسلية ، ولـكنها من باب الجد والنفع والفائدة الـكبرى ، ومن ضروب التربية والتعليم التى لها من الأثر العظيم فى حياة الأمم والشعوب ، وفى توجيه الأفراد خصوصا الناشئين مالها ؛ فدراسة المجددين والزعماء والعظماء من النواحى الخصبة التى يجب الاتجاه إليها ، والعناية بها ، بل هى من أنفع ما يدرس وأفضله ؛ ولقد نوه بالمجددين كثير من المؤلفين ، فقال العلامة الدكتور جوستاف لوبون : « يرجع الفضل فى الرقى الذى وصلت اليه العلوم والفنون والصناعات وجميع فروع الحضارة الى طائفة المجددين ، وإنا لمدينون لهذا الرهط بكل رقى وفضل ؛ إن مقدرة الأمة كلها تجتمع فى هذه الطائفة من الرجال الممتازين ، حتى إننا إذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلى سقوطا كبيرا . ومع كون المجموع منتفعا بهذا الفضل وهذا الرقى ، فان الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم ، وإن كان النبوغ آتيا من بينهم ؛ لهذا ذهب كبار العلماء ، وعظماء المفكرين ، ومن اليهم ضحية غضب قومهم فى غالب الأحيان ؛ وما درى القوم أن غرس الأجيال السالفة ، وثمرة ماضيها ، إنما تنمو فى بستان هذه العقول النابغة ، التى هى قطوفها الدانية ، أولئك المجددون هم مجـد الأمم ، وكل فرد من أفرادها يفتخر بهم ، ويعتز بشأنهم ، لأنهم لا يوجدون اتفاقا ، ولـكنهم ثمرة الماضى الطويل ، فيهم تمثل عظمة عصرهم ، ومكانة أمتهم ، وكل من يساعد على نشر علومهم ، وانبثاق أزهارهم ، فانما يساعد على انتشار الرقى الذى تستفيد منه الانسانية » .

ومن هذا يتبين الأثر الكبير الذى تتركه دراسة المجددين بصفة كونهم مثلا عليا فى نفوس دارسيهم خصوصا فى نفوس الناشئين ؛ ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا الطموح آخذا على نفوس الدارسين كل مأخذ ، لأنهم يرون أمامهم مثلا عليا يحثون السير للوصول اليها مهما كلفهم هذا من جهود وجهاد ؛ وقد فرغ العلماء من دراسة قيمة المثل العليا ، وتأثيرها فى النفوس ، وفائدتها فى حياة الدارسين والقارئين ، حتى إنها أصبحت الآن فى عداد البدهيات ؛ لذلك نقتصر فى هذا الموضوع على هذه الكلمة الموجزة ، وننتقل الى دراسة المجددين فى القرن الثانى الهجرى ؛ ونقصر هذا المقال على دراسة المأمون .

٢ — من هو المأمون ؟

هو عبد الله المأمون ، بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين ، مجدد الاسلام من أولى الأمر فى القرن الثانى الهجرى كما قال الحافظ ابن الأثير ؛ عالم بنى العباس ، وحكيمهم ، ومن أحلمهم ، وأعدلهم ، وأسخاهم يدا ، وأسمحهم نفسا ، وأفضلهم مروءة وسؤددا ، وأنبلهم أخلاقا ، وأجلهم حزما وعزما ، ورأيا ودهاء وحسن سياسة ، وهيبة وشجاعة ، وعلو همة ؛ بل كان يفضل الناس بعقله وكماله ، ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته ، وكثرة فضائله ، حتى قال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ، وإن ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر فى لهجته ، وإن ذكرنا الوفاء كنت أوفى من السموءل ، أو ذكرنا الإيثار كنت فوق كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه . وقال الرشيد : فى المأمون حزم المنصور ونسك المهدى ، وعزة الهادى .

علمه وذكاؤه :

تواترت الأنباء أن المأمون كان آية فى الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وشدة الحفظ ، كما كان واسع الاطلاع ، محيطا بكل فن ، غاية فى كل علم ؛ قال يحيى بن أكثم ، يا أمير المؤمنين : إن خضنا فى الطب كنت جالينوس فى معرفته ، أو فى النجوم والفلك كنت هرمس فى حسابه ، أو فى الفقه كنت على بن أبى طالب فى علمه .

وقال الأنماطى : تغدينا يوما مع المأمون ، فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة نوع من أنواع الطعام ؛ وكلما وضع نوع يقول : هذا نافع لكذا ، ضار لكذا ، فمن كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ، حتى أتى على فوائد جميع أنواع الأطعمة ومضارها بالنسبة لأصحاب الأمزجة على اختلاف أنواعها . وعلى الجملة فقد كان المأمون يحفظ القرآن الكريم كله ، كما كان يحفظ كثيرا من الحديث الشريف ، وقد برع فى اللغة والأدب ، والفقه ، والأخبار ، والفلسفة وعلم الفلك والنجوم ، وعقائد الأمم الغابرة وآدابها ، وغير ذلك .

ومما يدل على ذكائه وإحاطته بالفقه والمواريث إحاطة تامة ، أن امرأة شكت اليه فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى ، فخلف ستمائة دينار ، فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون : هذا نصيبك . قالت : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟! فقال : الرجل خلف بنتين ، ووالدة ، وزوجة ، واثنى عشر أخا . قالت : نعم . قال : فللبنتين الثلثان : أربعمائة . وللوالدة السدس : مائة . وللزوجة الثمن : خمسة وسبعون . ولكل أخ ديناران ؛ ولك دينار واحد . وكان شعار المأمون فى طلب العلم والاشتغال به كلمته الذهبية : « لا نزهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال » .

عدله ونزاهته :

من غرائز المأمون حبه العدل ، وأخذه الحق للضعيف من القوى ، وعدم المحاباة ؛ ولا أدل على هذا من أنه جلس يوما للمظالم ، فكان آخر من تقدم اليه وقد هم بالقيام امرأة عليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمى فى حاجتك ، فأنشدته شعرا ضمنته شكواها ، فأمرها باحضار خصمها يوم انعقاد مجلس الحكم . فلما كان يوم الأحد ، انعقد المجلس ، فكان أول من تقدم اليه تلك المرأة ، فقال لها : أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على شمالك ، وأومأت الى ابنه العباس ، فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فأخذا يترافعان ، وكان كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها بعض الحاضرين : إنك بين يدى أمير المؤمنين تكلمين ابنه فاخفضى من صوتك ، فقال المأمون : دعها فان الحق أنطقها وأخرسه ؛ ثم بعد سماع شكايتها قضى لها وعاقب ابنه العباس .

وقال يحيى بن أكثم : كنت أمشى يوما مع المأمون فى بستان موسى ، فى ميدان البستان والشمس علىّ وهو فى الظل ، فلما رجعنا قال لى : كن الآن أنت فى الظل ، فأبيت عليه ذلك . فقال : أول العدل أن يعدل الملك فى بطانته ، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ الى الطبقة السفلى .

رفقه وتواضعه وأدبه العالى :

كان فى المأمون من الأدب العالى ، والتواضع الجم ، وحسن المعاشرة والحلم ، والتغاضى والرفق بالناس خصوصا ببطانته وخدمه ما تصوره الوقائع الآتية :

قال يحيى بن أكثم : بت ليلة عند المأمون ، فعطشت فى جوف الليل ، فقمت لأشرب ماء فرآنى المأمون فقال : مالك لا تنام يايحيى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين أنا والله عطشان ، قال : ارجع الى موضعك ؛ فقام الى البرادة وجاءنى بكوز ماء ، وقام على رأسى فقال : اشرب يايحيى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، هلا وصيف أو وصيفة ؟ فقال : إنهم نيام . قلت : فأنا أقوم للشرب . فقال لى : لؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وقال يحيى أيضا : مارأيت أكرم من المأمون ، بت عنده ليلة فعطش وقد نمنا ، فكره أن يصيح بالغلمان ، فأنتبه — وكنت منتبها — فرأيته قد قام يمشى قايلا قايلا إلى البرادة وبينه وبينها بعيد حتى شرب ورجع . . وأخذه سعال ، فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أستيقظ . وقال ابن صالح : كنا نتحدث عند المأمون حتى ذهب من الليل ما ذهب ، فطفىء السراج ، ونام القيم الذى كان يصلح السراج ، فدعاه فلم يجبه ـ وكان نائما ـ فقلت : يا أمير المؤمنين أصلحه أنا ، فقال لا ، وقام هو فأصلحه ؛ ثم استيقظ الخادم فظننت أنه يعاقبه لأنه كان يناديه وهو نائم فلا يجيبه . قال : فتعجبت أنا من هـذا . وسمعت المأمون يقول : ربما أكون فى المتوضأ فيشتمونى ، أو يفترون على ، ولا يدرون أنى أسمع ، فأعفو عنهم .

وقال محمد بن البواب : كان المأمون يحلم حتى يغيظنا فى بعض الأحيان من حلمه . جلس يوما على دجلة من بغداد ونحن قيام بين يديه ، فمر ملاح وهو يقول بأعلى صوته : أتظنون أن هذا المأمون ينبل فى عينى . قال : فوالله ما زاد على أن تبسم ، وقال لنا : ما الحيلة عندكم حتى أنبل فى عين هذا الرجل الجليل ! ! ؟

بصره بالشعر ومهارته فى نقده :

قال ابن أبى حفصة الشاعر لعمارة بن عقيل : أعلمت أن أمير المؤمنين لا يبصر الشعر ؟ فقلت : من يكون أعلم منه ؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسبق الى آخره من غير أن يكون سمعه . فقال ابن أبى حفصة : إنى أنشدته بيتا أجدت فيه ، فلم أره تحرك له ، وهـذا هو البيت فاسمعه :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا   بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال له عمارة : ما زدت على أن جعلت أمير المؤمنين عجوزا فى محرابها ، وفى يدها سبحة فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها ، وهو المطوق لها ، ألا قلت كما قال جرير لعبد العزيز بن الوليد :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

محافظته على الدين ومعاقبته من يمسه :

ومما يدل على محافظة المأمون على الدين ، ومهارته فى نقد الشعر أيضا ما قصه محمد بن على قال : كنا مع أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علوية بقول الشاعر :

برئت من الاسلام إن كان ذا الذى   أتاكِ به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سَريعة   الىّ تواصَوا بالنميمة واحتالوا

فقال المأمون : ياعلوية ، لمن هـذا الشعر ؟ فقـال : للقاضى . قال : أى قاض ويحك ؟ قال : قاضى دمشق . فقال : يا أبا إسحق ، اعزله . قال : قد عزلته . قال : فيحضر الساعة . قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير . فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان . قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله . فقال : ياعلوية أنشده الشعر ، فأنشده . فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق ، وكل ما يملك فى سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا فى زهد أو معاتبة صديق ! فقال : يا أبا إسحق : اعزله فما كنت لأولى رقاب المسلمين من يبدأ فى هزله بالبراءة من الاسلام . ثم قال : يا علوية ، لا تقل برئت من الاسلام ، ولـكن قل :

حرمت مناى منك إن كان ذا الذى أتاك به الواشون عنى كما قالوا

فانظر الى المأمون كيف يحافظ على الدين ، ويعـاقب قاضيا بالعزل ، لأنه لم يحسن التعبير فى كلمة قالها تتعلق بالدين ، ويقـول : ما كنت لأولى رقاب المسلمين من يبدأ فى هزله بالبراءة من الاسلام .

تجديده :

يطول بنا القول إذا ذكرنا كل ما قام به المأمون من تجديد ، ولـكننا نذكر شيئا منه على سبيل المثال : فمن تجديد المأمون أنه أول من اهتم بقياس درجة من دوائر نصف النهار توصلا لتقرير مساحة الأرض ؛ وهو عمل خطير لم يتيسر للأوربيين إلا بعـد زهـاء تسعمائة سنة . ومنه أنه أول من أسس دار كتب عامة فى الاسلام ، وسماها : « بيت الحـكمة » . ومنه أنه أول من أسس مجمعا علميا للعلوم وسماه دار العـلم . ومنه أنه نقل كتب الأوائل الى اللغـة العربية ، وصحح أغلاطها .

كلماته :

للمأمون من درر الـكلمات ، وبدائع الحـكم ما يجدر حفظه والتمثل به ؛ من ذلك قوله :

(١) الناس ثلاثة : غـذاء لا بد منه ، ودواء يحتاج إليه فى حال المرض ، وداء مكروه على كل حال . (٢) وقـوله : أعيت الحيلة فى الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل . (٣) وقوله : ما فتق علىّ فى الخلافة فتق ، إلا وجدت سببه جور العمال . (٤) وقوله : لو عرف الناس حبى للعفو ، لتقربوا الىّ بالذنوب . (٥) وقوله : غلبة الحجة ، أحب الىّ من غلبة القدرة ، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها ؛ وغلبة الحجة لا يزيلها شىء . (٦) وقوله : معاوية بعمره ، وعبد الملك بن مروان بحجاجه ، وأنا بنفسى . (٧) وقـوله : لا نزهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال . (٨) وقوله : لؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه . (٩) وقوله : الناس

على طبقات ثلاث : ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظـلوم ؛ فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمساكنا ، وأما المظـلوم فليس يتوقع أن ينصف إلا بنا ، ومن كان لا ظـالما ولا مظـلوما فبيته يسعه .

رقى الدولة فى عهده :

ولقد بلغت الدولة فى عهده شأوا بعيدا من العمران والعرفان ، فقد وسع نطاقها بفتوحات جديدة ، وقوى ثغورها ، وحصنها ، وشيد قلاعها ، وأحـكمها وأنشأ لها السفن فى البحار ، ونشط أهل الصناعة والزراعة والتجارة وأجرى العدل بين الجميع ، فرتعوا فى بحبوحة الهناء .

تاريخـه العلمى :

ولقد صرف المأمون همته فى رفع منار العـلوم والمعارف ، واستكمال النهضة العلمية التى أحياها المنصور ، ومن أتى بعده ، فاستحضر لذلك العلماء المبرزين ومعظمهم أجانب ، وأسبغ عليهم نعمه ، وطلب إليهم أن يترجموا له علوم لغاتهم الى اللغة العربية ، ويعلموها للأمة ؛ فانتشرت العـلوم والمعارف بين أبنـاء البلاد ، وجدوا فى تعلمها ، فما عتم أن قام منهم علماء وحكماء ، تفننوا فى تأليف الـكتب وإبداع المؤلفات .

والخلاصة : أن المأمون من أكبر الخلفاء ، إن لم نقل أكبرهم ؛ وله فى عظم سلطة الأمة فضل لا يمحوه كر الأعصار ، وفى إيجاد العلوم والمعارف بينها صنيعة تنقل كاهلها ما تعاقبت الأزمان .

توفى المأمون فى سنة ٢١٨ هـ تبكيه أختان : السياسة والـكياسة ؛ وتوأمان : العلم والتقى ؟

السيد عفيفى

بلاغات العرب

قيل إن أعرابية اعترضت المنصور بطريق مكة بعد موت السفاح فقالت له :

« يا أمـير المؤمنين قد أحسن الله اليك فى الحالتين ، وأعظم عليك النعم فى المنزلتين : سلبك خليفة الله ، وأفادك خلافة الله ، فاحتسب عند الله ما سلبك ، واشكر له ما منحك » .

ووقف أعرابى على قوم يسألهم فقال :

« يا أرباب الوجوه الصباح ، والعقول الصحاح ، والصدور الفساح ، والألسن الفصاح ، والمكارم الرباح ، هل فيكم من يسمع كلامى ، فيعذرنى من مقامى » ؟

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٦ —

أسلفنا لك فى الكلمة السابقة أننا سنعرض فى الفصول الآتية لآراء العلماء الغربيين الذين خلطوا عن الاسلام آراء حسنة بأخرى سيئة ، وقلنا لك : إننا اخترنا آراء الأستاذ « كازانوفا » لتكون مبدأ لهذا القسم ، لأن كاتبها رجل معروف فى الأوساط العلمية الراقية فى أوربا من جهة ، ولأن لنا به صلة خاصة من جهة أخرى . وقد أنبأناك بأننا اعتزمنا بسط هذه الآراء ومناقشتها دون رهبة ولا تهيب ، لأننا نعلم أنه لا يتهيب مجابهة الخصوم إلا مبطل أو ضعيف ، وقد سجلنا أن الذين يريدون من المسلمين إغلاق هذه الأبواب وتجنب تلك المجادلات لا يتفقون وروح الاسلام فى شىء ، لأنهم يصورونه فى صورة هيكل من زجاج رقيق يتحطم أثر قذفه بأول حجر يلقيه عليه خصم جاهل أو متعصب . وبما أننا لسنا من أولئك الضعفاء من ناحية ، ولا من الذين ينزلون بالاسلام الى دركة الضعف والارتجاف من مجابهة الخصوم من ناحية أخرى ، فقد صممنا على أن نعرض تلك الآراء الخاطئة على بساط البحث ثم نقيم الحجة على بطلانها ، لنشهد الباحثين المحدثين على أن الاسلام دين منطق وبرهان ، لا دين تعصب أحمق ، ولا ضيق صدر وانفعال . ولما كان لهذا الأستاذ آراء صدر بها كتابه تشهد بإخلاص النبى ، وسمو نفسه ، ورفعة عقليته ، فقد صدرنا بها حديثنا عنه فى الكلمة السابقة ، ثم وعدنا بعرض آرائه الأخرى التى قصد إليها من رسالته والتعليق عليها فى كلمة اليوم . وها نحن أولاء نوفى بوعدنا فيما يلى :

إن الغاية الرئيسية التى قصد إليها « كازانوفا » من كتابه « محمد ونهاية العالم » هى إثبات أن الاسلام ، وعلى رأسه القرآن ، قد حدثت فيه بعد وفاة النبى تبديلات جوهرية قام بها خلفاؤه لأغراض فى نفوسهم ، وقد حاول التدليل على صحة هذه الفكرة بأدلة ضعيفة أجهد نفسه فى تقويتها وتدعيمها بكل ما أوتى من علم ومقدرة على الجدل . وهاك موجزا من عبارته التى بسط بها غايته وبراهينه ، حتى تتيسر لك متابعة نقاشها وإبطالها ، لأن محاولة إبطال الدعوى قبل بسطها وإيضاحها ضرب من العماية كما يقول الامام الغزالى .

قال كازانوفا : « إنى أؤكد أن مذهب محمد الحقيقى إن لم يكن قد زيف ، فهو على الأقل ستر بأكبر العنايات ، وإن الأسباب البسيطة التى سأشرحها فيما بعد هى التى حملت أبا بكر أولا ، ثم عثمان من بعده ، على أن يمدا أيديهما الى النص المقدس بالتغيير ، وهذا التغيير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلى يشبه أن يكون مستحيلا » .

هذه هى النظرية التى أراد إثباتها فى هذه الرسالة . ومن براهينه على صحتها ما يأتى :

(١) « إذا سلمنا بأن القرآن الحالى كله حقيقى ، فاننا نلاحظ أنه لا يوجد فيه أى تصريح عن الآراء السياسية ، ولا يشتمل على أية قاعدة تطبق على السلطة الدنيـوية . ومن ذلك تتبع النتيجة الأولى التى تسود التاريخ العربى سـيادة تامة ، وهى أنه نشأ (على أثر موت النبى) حزبان متعارضان أعلن أحدهما أن الامام أو السلطان قد عينه النبى ، وقد وضع هذا الحزب للامامة قواعد متينة ثابتة . وصرح الحزب الثانى أن هذه المسألة ليست مما يكترث له الدين وأنها لهذا يجب أن تعالج بحلول دنيوية محضة . والحزب الأول من هذين الحزبين هو حزب الشيعة الذى كان دائما حزب المعارضة بالمعنى الـكامل ، والذى ضم بين دفتيه المتضايقين والثائرين والخياليين والعصاميين ، والذى اشتهر بعقائد ميتا فيزيكية وتنسكية يعتبر أكثرها أجنبيا عن العقلية العربية الخالصة ، والذى لم يستطع أن يـكون حكومات ثابتة إلا بين الفرس والمغاربة ، والذى لم ينتصر إلا نادرا ، والذى كان العرب يعتبرون أنصاره دائما خارجين على الاسلام .

غير أن هذا الحزب مع ذلك قد بقى ، وسر بقائه هو أنه أجاب على هذا السؤال الآتى الذى لا بد من الاجابة عليه ، وهو : لماذا نرى القرآن — وهو الذى لم يقتصر على تحديد العقيدة ، بل حدد الأخلاق والحقوق وقوانين الأسرة — لم يعن أية عناية بهذا العنصر الذى ليس أقل جوهرية للمجتمع مما عنى به ، وهو : النظام السياسى ؟ .

وعند سكوت القرآن كوحى إلهى عن هـذه المسألة ، لماذا أهمل النبى معالجتها بطريقة شخصية ؟ ولماذا لم يعمل على تثبيت انتقال السلطة التى كان هو مدينا بها لنبوته والتى لم يكن أحد بعده يستطيع عقليا أن يتلقاها إلا عنه وحـده ؟ لأن محمدا إذا كان إماما للعرب لم يكن كذلك لأنه كان قرشيا من أسرة كذا أو كذا ، وإنما كان إماما ، لأنه نبى . ولهذا يجب أن يكون الاعتراف بخليفته تابعا لهذا النظام عينه . وبما أن النبوة لا تتجدد بعده ، فعلى الأقل كان ينبغى أن يكون تعيين الخليفة ناشئا من مصدر نبوى .

على هـذا السؤال أجاب الشيعة بجواب هو أصل مذهبهم ، وهو أن النبى لم يهمل هذه المسألة ، بل عنى بها كل العناية وعين الامام الذى يخلفه » .

يشير الأستاذ « كازانوفا » بجواب الشيعة هـذا الى رأيهم الذى نقله ابن خلدون عنهم فى مقدمته فى مسألة الامامة ، والذى جاء فيه ما يلى :

« ومذهبهم جميعا متفقين على أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ... يجب عليه تعيـين الامام لهم ويكون معصوما من الـكبائر والصغائر ، وأن عليا

رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة » (١) . قال كازانوفا بعد ذلك :

« على عكس إجابة الشيعة على هذا السؤال ، أجاب ابن خلدون (وهو فى هذا الجواب يمثل اراء إجماع المسلمين) فقال :

« وشبهة الامامية فى ذلك إنما هى كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون ، وليس كذلك وإنما هى من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ، ولو كانت من أركان الدين ، لكان شأنها شأن الصلاة ، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة ، واحتجاج الصحابة على خلافة أبى بكر بقياسها على الصلاة فى قولهم : ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على أن الوصية لم تقع ، ويدل ذلك أيضا على أن أمر الامامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم » . (٢)

بعد أن أشار الأستاذ « كازانوفا » الى إجابة الشيعة على هذا السؤال ، وذكر نص إجابة ابن خلدون عليه ، علق على ذلك بقوله :

« بقى علينا نحن الذين لسنا مسلمين والذين بناء على هذا لنا الحق فى أن ننظر الى محمد كرجل عبقرى عادى أن نوضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الأهمية الكبرى ، فنعلن أن السبب فى إهمال أمر الخلافة بسيط ، وهو أن محمدا لم يفكر فى أنه سيموت وسيترك خلفاء من بعده ، بل اعتقد أن نهاية العالم قريبة ، وأنه هو سيشاهدها ، وهذه العقيدة بقرب نهاية العالم مسيحية محضة ، ومحمد كان يقول عن نفسه : إنه هو نبى آخر الزمان الذى أعلن المسيح أنه سيجىء ليتمم رسالته .

وهذه الفكرة كما كانت عند محمد ، كانت عند المسلمين الأولين ، وإذا كان المسلمون المتأخرون لم يحتملوا أن يستسيغوا غلطة كهذه من نبيهم ، فانهم لم يقلوا عن أسلافهم فى الاحتفاظ فى هذا الشأن بكلام له اضطروا الى أن يلووا معانيه .

هذا هو البرهان الأول الذى ساقه « كازا نوفا » ليؤيد به زعمه أن النبى كان يعتقد بفناء العالم قبل موته ، وأن القرآن قد احتوى هذه العقيدة ، وأن الصحابة قد تنبهوا الى هذه الورطة فمدوا أيديهم الى القرآن بالتغيير . ويتلخص هذا البرهان فى أن النبى لما كان مؤمنا تمام الايمان بأن العالم لن يستمر بعد وفاته ، وأن الساعة ستقوم قبل موته ، فقد أضرب تمام الاضراب عن تعيين من يخلفه على أمر المسلمين ، لأنه لن يكون بعده — فيما يعتقد — خلافة

---

(١) انظر صفحتى ١٧٠ و ١٧١ من مقدمة ابن خلدون . (٢) انظر صفحتى ١٨٤ و ١٨٥ من المقدمة المذكورة .

ولا خـلافاء ، ولا مسلمون ولا كفار ، وأن النبي لم يختر أبا بكر إلا ليخلفه فى الصلاة أثناء مرضه ، وأن الصحابة لما رأوا أن الشمس تشرق وتغرب ، والعالم كما هو ، والساعة لم تقم ، أدركوا أنه لا بد لهم من تلافى هـذا الأمر ، وإلا لتهدم صرح الاسلام ، فبادروا الى توطيد الحالة السياسية ، وبايعوا أبا بكر مبررين بيعته باختيار النبي إياه إماما فى الصلاة . ولما سئلوا كيف أن القرآن والنبى قد أهملا الرياسة السياسية ؟ أجابوا بأنهما قد أهملاها لصغر شأنها عن شأن إمامة الصلاة التى اهتم بها النبى وعين لها أبا بكر ، ولما كان التعيين للا على يقتضى بالأولوية التعيين للأدنى ، فقد صح أن يكون أبو بكر إماما سياسيا كما كان إماما دينيا .

ونحن نعلن أن هـذه الفـكرة باطلة من أساسها ، وأن ما تقدم أو ما سيجىء من براهينها أوهى منها . وبما أننا لم نقدم من هذه البراهين إلا برهاناً واحداً ، فيجب أن نقصر مناقشتنا اليوم عليه إلى أن نسرد البراهين الأخرى فنناقش كلا منها على حدة . وهاك مناقشة برهان اليوم :

أسس « كازانوفا » هـذا البرهان على أساس خيالى ، وهو أن النبى لم يعن بأمر الامامة السياسية ، فهل يساعد المنطق أو أسلوب البحث الحديث هذا الأستاذ على أن يجزم بأنه ليس هناك سبب حمل النبى على إهمال أمر الامامة السياسية إلا عقيدته بفناء العالم قبل وفاته ؟ وهل مجرد الفرض الخيالى يـكفى فى نظر العلم الصحيح لأن يكون دليلا ؟ ثم ألا يعلم هذا الأستاذ أنه يحتمل أن يكون هناك سبب آخر منع النبى من تعيين الامام السياسى غير عقيدته بفناء العالم ، وأن من أوليات قواعد أرسطو وفرفريوس المنطقية قولها : « ما تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال » .

على أننا نؤكد للاستاذ وأنصاره أن هناك سبباً آخر غير عقيدة فناء العالم هو وحده الذى منع النبى عن هذا التعيين ، وأن هـذا السبب ليس فى درجة الاحتمال ، بل فى درجة اليقين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى تؤيده الشواهـد الناطقة ، والحوادث الجلية ، والتاريخ الصحيح ، والذى لا يستطيع أى واحد من أنصار « كازانوفا » أن يجادل فيه ، ذلك السبب هو أن النبى أعلن منذ الساعة الأولى لبعثته الى اللحظة الأخيرة من حياته أنه رسول دينى ، وأن مهمته العليا فى هـذه الحياة هى إرشاد الناس الى التوحيد والاستقامة ، أما الرياسة السياسية والقيادة الحربية فهما ضرورتان من ضرورات الحياة احتملهما النبى احتمالا ، لأنه لم يـكن له منهما مفر وإذاً ، فهو لم يكن طاغية أو ديكتاتورا أو ملكا مطلقا حتى يعين ولى العهد من بعـده ويفرضه على الأمة فرضا ، كما كان ذلك متبعا فى الدول الأخرى ، وكما حدث فى الاسلام فيما بعد .

لهذا تصرف النبي فى الأمر الديني الذى يملكه ، بل الذى هو مهمته الأساسية التى جاء من أجلها وترك الامامة السياسية لمن يعنيهم أمر دنياهم من بعده .

على أنى لا أدرى كيف يتفق فرض الامام على الأمة مع مبدأ الشورى الذى أمر القرآن به النبي أمراً صريحا فقال : « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » فلم يسمه إلا الخضوع والطاعة لهذا الأمر ، وقد ظهر ذلك جليا يوم الخروج الى غزوة (أحد) حين رأى النبي عدم الخروج ، ورأى أصحابه الخروج ، فأذعن للكثرة راضيا مغتبطا وتركهم يخرجون بل خرج على رأسهم كأن الخروج كان رأيه الشخصى . وليست هذه الحادثة هى الوحيدة التى ظهر النبي فيها بأجلى المظاهر الدستورية ، بل هناك عشرات الحوادث من هذا النوع يعرفها من له إلمام بالسيرة النبوية .

قد يعترض أنصار (كازانوفا) على هذا الاهمال بأن النبي عنى بما هو أقل شأنا فى مصالح الأمة من الخلافة ، مثل سياسة الأسرة ، فلم يكن من الطبيعى أن يعنى بالأقل ويهمل الأعظم . ولكننا نجيبهم على هذا الاعتراض المضحك بأن عناية القرآن والنبي بالأسرة تنحصر فى وضع القواعد المؤدية الى نظامها وسعادتها ، وهذه العناية لم تحرم منها سياسة الدولة فى القرآن أو فى السنة ، بل كان لها منها فيهما حظ عظيم ، إذ عنى القرآن وعنيت السنة بوضع قواعد : الشورى ، والعدالة ، والاعتدال ، والعفة ، والبشاشة ، ولين الجانب ، وكرم الخلق ، للملوك والحكام (وشاورهم فى الأمر) . (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) . (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) . (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . (وإنك لعلى خلق عظيم) .

كذلك عنيت السنة بإيضاح أن مسئولية الحاكم مضاعفة ولو كانت رعيته من الحيوانات (كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) . (دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) .

وإذاً ، فقد وضع القرآن والسنة دستور الدولة ، ولكنهما لم يعينا الملك ولا نظام الحكم الذى يجب أن تسير عليه الأمة ، بل تركا هذا التعيين لمن يهمهم الأمر من رجالاتها المسئولين ، فكأنهما أعلنا أن الأمة حرة فى اختيار النظام الذى يروقها والملك الذى تريده على شرط ألا تكون الأهواء ولا الأغراض الخاصة ، ولا المصالح الشخصية هى التى حملت الزعماء على اختيار نظام بعينه ، أو هى التى تدفع الملوك الى التكالب على الحكم أو تحول بينهم وبين تحقيق العدالة والعفة والتضحية بالمنافع الشخصية فى سبيل المنفعة العامة ، فاذا رأى المسلمون أن هذه الشروط تتحقق فى أى نظام من أنظمة الحكم ، فليس عليهم أى إثم دينى فى أن يأخذوا به ، لأن الاسلام لا يجيز القسر والاضطهاد إلا فى الأحوال التى لا مفر فيها

منهما ، مثل حالات الفتن ، وفساد الأنظمة الاجتماعية ، وغيبة الأمن ، وسيادة الفزع ، وهذه مبادئ لا تحط من قـدر الاسلام ، بل على العكس هى تشرفه وترفع من شانه فى نظر عقلاء الساسة والاجتماعيين .

وبناء على هـذا كله ، فان الذى منع النبي عن تعيين الامام هو روحه الدستورى المشبع بمبدأ الشورى ، واحترامه للعدل ، ويقينه بأن مهمته الأساسية دينية ، وعلمه بأن الأزمان متغيرة والظروف حائلة ، وأنه لهـذا يجب أن يترك أمر الناس الدنيوى فى أيديهم بعد أن يوضح مسئولياتهم ، وأن ينذرهم بأن تصرفاتهم محسوبة عليهم ، وليست عقيدة فناء العالم قبل موته هى التى منعته كما تخيل الأستاذ كازانوفا .

الى هنا لم نزد على أننا أبطلنا سببية عقيدة فناء العالم لاهمال تعيين الامام السياسى ، وأثبتنا أن السبب هو شيء آخر غير هذه العقيدة . أما وجود هذه العقيدة نفسها عند النبي فسنبرهن على بطلانه بالأدلة القاطعة فى الكلمة الآتية ، فاذا فرغنا من إبطال هذا الدليل الأول لكازانوفا عرضنا لما أتى به بعد ذلك من أدلة ، فبسطناه وناقشناه ، حتى إذا انتهينا منه قذفنا به الى الدركة الجديرة به وبأمثاله من الآراء الباطلة .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

ماقيل فى الاستبداد بالرأى

علم الناس قاطبة أن الاستشارة فى المهام أجـدى على الانسان ، وأعود عليه بالفلاح ، من الاستبداد بالرأى ، ولكن طائفة فضلوا عليها الاستبداد لاعتبارات خاصة . منهم القائد الاموى المشهور المهلب بن أبى صفرة ، فقد قال : « لو لم يكن فى الاستبداد بالرأى إلا صون السر وتوفير العقل لوجب التمسك به » .

وقال عبد الملك بن صالح : « ما استشرت أحدا قط إلا تكبر على وتصاغرت له ، ودخلته العزة ، ودخلتنى الذلة ، فعليك بالاستبداد فان صاحبه جليل فى العيون ، مهيب فى الصدور ، وإنك متى استشرت تضعضع شأنك ، ورجفت أركانك ، فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب ، واشتبهت لديك المسالك ، وأنشد :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بلبيب

[...] : لا تنهض مثل هذه الشبهات حجة لنقض ما أجمع عليه البشر من ضرورة المشا[...]

باب الأسئلة والفتاوى

جاء من بعض حضرات العلماء الجاويين الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي وطلبوا أن تكون الاجابة على مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه :

(أولا) هل يكفى فى نية الصلاة استحضار أركان الصلاة على سبيل الاجمال ومقارنتها لأى جزء من تكبيرة الاحرام ، أو لا بد من استحضار أعمال الصلاة كلها تفصيلا ومقارنتها لجميع تكبيرة الاحرام ؟

(ثانيا) مشرك باع ولده الحر لمسلم أو غيره ، فهل يصح هذا البيع ؟ وهل يصير هذا الولد ملكا للمشترى ؟ وإذا لم يصح البيع فما حكم عقده ؟ وهل يجب استرداد الثمن ، وما هى أسباب الرق بالضبط ؟

الجواب

عن الأول : النية فى الصلاة فرض ، ولا تصح الصلاة إلا بها ، قال الشافعى : وإذا أحرم نوى صلاته فى حال التكبير لا بعده ولا قبله ، ومعنى ذلك أنه لابد أن تكون النية مقارنة لتكبيرة الاحرام . فلو خلت تكبيرة الاحرام من النية لم تنعقد الصلاة .

ومعلوم أن النية هى القصد ، ولا بد من مقصود معلوم يستحضره الناوى أثناء التكبير فلا بد إذاً من استحضار المنوى ومقارنته لتكبيرة الاحرام .

وقد اختار إمام الحرمين والغزالى أنه تكفى المقارنة العرفية العامية بحيث يعد مستحضر الصلاة غير غافل عنها اقتداء بالأولين فى تسامحهم فى ذلك .

وهذا الذى اختاراه هو المختار عند النووى فى مجموعه ، وعليه عمل الناس الآن .

وعلى هذا يكفى فى نية الصلاة استحضار أركانها على سبيل الاجمال ومقارنتها بأى جزء من أجزاء تكبيرة الاحرام .

عن الثانى : الاسترقاق ظاهرة اجتماعية نشأت منذ ابتدأ الاجتماع الانسانى ، وترجع هذه الظاهرة الى تغلب القوى على الضعيف وتسلطه عليه واستخدامه إياه .

وقد كان الرق شائعا قبل الاسلام فى جزيرة العرب ، فكان الناس يتخطفون الغلمان

والفتيات من بين أهليهم ، ويذهبون بهم الى الأسواق حيث يوجد النخاسون وسماسرة الرقيق ، وكذلك كان شائعا قبل الاسلام فى أمتى الفرس والرومان على نحو ما كان فى جزيرة العرب أو أشد .

وكانت معاملة الأرقاء فى هـذه الأمم تختلف فى القسوة واللين تبعا لاختـلاف دياناتها وتقاليدها ، إلا أن هـذه المعاملة على العموم كانت قاسية جدا ، يظهر فيها سلطان القوى على الضعيف بأجلى معانيه ، بل إن الديانة الهندية القديمة المؤسسة على تمايز الطبقات البشرية كانت تعتبر الأرقاء من الطبقة الدنيا التى تلزمها الخسة لذاتها ، ولا يمكن أن ترقى يوما ما الى ذروة الطهارة الانسانية .

جاء الاسلام ، وسوى بين الناس جميعا ، وأعلن ألا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولـكنه وجد نظام الاسترقاق قائما بين الأمم ومعتبرا فيها من النظم الاجتماعية المتغلغلة فى صميم الحياة إذ ذاك ، فلم ير من الحـكمة فى التشريع أن يلغى هذا النظام إلغاء تاما ، بل عمد الى تقرير المبادئ الآتية التى تخفف من آثار الرق وتنظيم العـلاقة بين المالك والمملوك لا على أساس القـوة والضعف كما كان فى الأمم السابقة بل على أساس المحبة والأخوة وتبادل المنافع والتعاون فى شئون الحياة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن مبادئ الاسلام التى شرعها فى الاسترقاق تعتبر بمثابة إلغاء الرقيق ، واليك بعضا من هذه المبادئ :

(أولا) ضيق الاسلام فى أسباب الرق حتى حصرها فى سبب واحد هو محاربة المشركين للاسلام وصدهم النـاس عن سبيل الله ، فاذن للمسلمين الذين يدافعون عن دينهم ويردون عنه عادية المشركين أن يضربوا الرق على من يقع فى أيديهم من أسرى هؤلاء المشركين المحاربين .

(ثانيا) لم يجعل هذا الاسترقاق ضربة لازب ولا نتيجة حتمية لمحاربة المشركين والظفر بهم ، بل جعل ذلك من قبيل نظم السياسة الحربية ، فخير الامام فى أن يلجأ الى الاسترقاق إذا رآه وسيلة من وسائل الاعزاز لدين الله وكسر شوكة المعتدين ، وفى أن يمن على الأسرى فيطلق سراحهم بفداء أو من غير فداء .

(ثالثا) إذا رأى الامام أن فى الاسـترقاق وسيلة حربية لاعزاز الدين ودفع اعتـداء المعتدين فلجأ اليه فإن الاسلام لم يترك الحبل على الغارب ولا ترك الرقيق لمشيئة مالـكه ورحمته يحمله من عناء الأعمال ماشاء كما كان زمن الجاهلية ، ولا جعل حظيرة الرق حظيرة أبدية لا يتسنى للرقيق الخروج منها بحال ، بل عنى بأمر الرقيق وأوصى المسلمين به خيرا قال الله تعالى : « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملـكت أيمانكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خولـكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس » وقال صلى الله

عليه وسلم : « من كانت له جارية فعلمها فأحسن تعليمها ثم تزوجها كان له أجران » ثم رغب فى العتق ودعا الى تحرير الرقاب وجعل لمن أعتق رقبة ثوابا عند الله يعدل ثواب كثير من الطاعات بل أوجب الاسلام ببعض المعاصى تحرير رقبة كمن قتل نفسا خطأ أو أفسد صيامه عامدا أو حنث فى يمينه التى عقد عليها قلبه .

وآيات القرآن العظيم وأقوال الرسول الكريم فى الرفق بالرقيق والاحسان اليه فى المعاملة كثيرة مشهورة .

من هذا يتبين أن ليس للرق فى الاسلام إلا سبب واحد هو ما أسلفنا الاشارة اليه من محاربة المشركين واعتدائهم على المسلمين ، وأن الاستيلاء على المشركين بأى وسيلة كانت زمن السلم ومن غير محاربة وخطف الأولاد من أهليهم كما كان يعمل فى الماضى ، كل ذلك لايترتب عليه أن يكون المستولى عليهم أرقاء ولا يسوغ التصرف فيهم بحال .

وأن بيع الرجل ولده يكون بيعا باطلا يجب منعه ويجب رد الثمن للمشترى ورد الولد الى أبيه ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

قصيدة الكرم

حاتم طيء يضرب به المثل فى الكرم ، وقد أوجز مذهبه فى شعر له فقال :

أماوى قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتنا فى طلابكم العذر

أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الاحاديث والذكر

أماوى إنى لا أقول لسائل ... إذا جاء يوما حل فى مالى النذر

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا مال لدى ولا خمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلت به صفر

أماوى إن المال مال بذلته ... فأوله شكر وآخره ذكر

وقد يعلم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

فانى وجدى رب واحد أمة ... أخذت فلا قتل عليه ولا أسر

ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى ... شهودا وقد أودى باخوته الدهر

غنينا زمانا بالتقصد والغنى ... وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر

فما زادنا مأوى على ذى قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

نظرة فى عالم الاحياء الدقيقة

يكشف العلم حينا بعد حين ، عن ناحية خفية من نواحى الحياة ، تتجلى فيها القدرة الإلهية بأوضح بيان ، وتتبين عظمة هذا الكون الشاسع بأروع نظام ، مما لا يجد معه العقل البشرى إلا أن يسجد لله العلى القادر ، مبدع هذه الكائنات .

فهذه الأرض التى ندب عليها ، وهذا الهواء الذى نتنفسه ، بل هذا الماء العذب الذى نشربه سائغا مريئا ، وذاك الطعام الذى نتناوله شهيا هنيئا ، كل ذلك يحوى أنواعا من كائنات حية لا ترى بالعين المجردة ، تعيش وتتكاثر ، وتؤدى مهمتها فى الحياة شأنها فى ذلك شأن الانسان والحيوان والنبات . وإنك إذا علمت أن بعض تلك الأحياء يبلغ حجمها ميكرون واحد أى ١ على ١٠٠٠ من الملليمتر ، لأدركت هذا الحجم الضئيل المتناهى فى الصغر . ولقد تزدرى تلك الكائنات ، فتقول : هل لهذه التوافه شأن ما فى الحياة ؟ فلا جدال فى أن سيأخذ منك العجب كل مأخذ ، إذا ما علمت أن تلك الأحياء الدنيئة تلعب دورا عظيم الأثر ، جليل الخطر فى هذا الكون ، وأن تلك الضآلة فى الحجم ، لم تمنعها من أن تؤدى مهمتها بنشاط عجيب ، وأن تقوم بأعمال عجز الانسان عن القيام بها ؛ وقبل ان أتبسط فى شرح ماهية تلك الأعمال أحب أن أسرد طرفا من تاريخ حياة البكتريا — المعروفة باسم الميكروبات — وهى أهم تلك الأحياء شأنا وأعظمها أثرا .

تضح أبسط أنواع الحياة فى البكتريا ، فجسمها لا يزيد عن كونه خلية واحدة ، تحتوى على مادة لزجة ضرورية للحياة ، وتحاط بجدار غشائى رقيق ؛ ولبعض أنواعها أهداب رفيعة جدا تتحرك بواسطتها فى السائل الذى تعيش فيه ، بيد أن البعض الآخر يتحرك بالتواء جسمه كالثعابين ، وإن الأمر الذى يذهل الفكر ، فيقف أمامه مشدوها متعجبا ، هو تلك السرعة الفائقة التى تتكاثر بها البكتريا ؛ فإن الميكروب وهو عبارة عن خلية واحدة ، ينقسم الى خليتين ، وكل منهما ينقسم بدوره الى اثنين وهكذا ، ويسمى هذا التكاثر بالانقسام البسيط ويحصل فى الظروف الملائمة مرة كل ٢٠ — ٣٠ دقيقة ، وإذا استمر هذا الانقسام بدون توقف مدة يوم فقط ، تكون عدد ضخم جدا من هذه الكائنات يملأ الأرض جميعا وتعذرت حينئذ سبل الحياة ، ولكى نقرب الى فكرك هذا العدد ، نذكر على سبيل المثال بكتريا الكوليرا ، فانه لو تكاثر فرد واحد فقط منها فى الظروف الملائمة بالانقسام ، لبلغ عدد الأفراد التى تنتج فى ٢٤ ساعة ما يقرب من : (١ كنترليون و٦٠٠ ترليون) فرد أو ما يبلغ زنته نصف مليون رطل ، فبالله عليك إذا كان هذا هو ماينتج من تكاثر فرد واحد ، فإ

إذاً بما ينتج من تكاثر تلك الأفراد جميعا ! ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ، وسمت حكمته ، أوجد عوامل طبيعية تقف حائلا فى وجه هذا التكاثر الذريع ، منها تناقص المواد الغذائية ، كما أن هناك تزاحما وصراعا بين أنواع البكتريا المختلفة ، ومع هذا فإن عددها عظيم لا يستهان به ، ويكفيك أن تعلم أنه فى الجرام الواحد من التربة يوجد ٦ — ١٠ ملايين من هذه الكائنات ، لتدرك أهمية هذه الأحياء فى الوجود .

قلنا إن تلك الخليــة الضئيلة التى تبلغ من الحجم ١ على ١٠٠٠ من المليمتر هى كائن حى تتجلى فيها ظواهر الحياة ؛ إذاً فلا غرابة فى أن نجدها تسعى فى الحصول على غذاء يقوم بأودها ؛ وهى إما أن تسلك فى ذلك طريقا مباشرا بأن تتطفل على أجسام الكائنات الحية ، أو تتغذى على أجسام كائنات ميتة وبذا تكون رمية . وهى تأكل الفوسفور والبوتاسيوم والكبريت والحديد والكالسيوم والمغنسيوم ، وأما عنصرا الأزوت والكربون فهما من مقومات حياتها ، وتحصل على الأزوت من البروتين ، ولهذا نجد اللحوم معرضة دائما لغارات البكتريا ، وتحصل على الكربون من المواد العضوية ، ويمكن لعدد قليل أن يمتص ثانى أكسيد الكربون الجوى . وحياة هذه الميكروبات بدون الماء مستحيلة ، إذ أن الخلية البكتيرية تحتوى على ٧٥ — ٩٨ ٪ من الماء .

وهذه الكائنات تتنفس أيضا . فتأخذ الأكسجين اللازم لها من الهواء الجوى ، وأما الأنواع التى تعيش فى بيئات خالية من الهواء فتتحصل على المجهود اللازم لها من تحايل المواد العضوية .

وقد يتبادر الى الذهن أن الميكروبات — وهى متناهية فى الصغر — سريعة الفناء سهلة الهلاك ، ولكن الواقع الملموس عكس هذا : فالله سبحانه وتعالى قد حبا تلك المخلوقات بمناعة غريبــة وقدرة على المقاومة فريدة فى بابها ، مما لو توفرت للانسان لعاش مئات السنين سليما هانئ البال . فالانسان منا لو منع عن الغــذاء أو الماء مــدة من الزمن ، لهلك وقضى وكذا الحال فى الحيوان والنبات ، وأما فى الميكروبات ، فانها لا تهلع ولا تجزع ، بل تحزم أمرها على المقاومة والمجالدة ، فتحيط نفسها بغشاء سميك يقيها المؤثرات الخارجيــة ، وتبقى كذلك فى حالة سكون وكمون منتظرة بصبر غريب أن ترجع اليها ظروف الحياة الملائمــة . ولقد بلغ من مقاومتها العجيبة . أنها تستطيع الحياة بدون غذاء عدة سنين ، بل إنها لتحيا فى الهواء السائل أى فى درجة ١٩٠ تحت الصفر ، وتقاوم الافرازات السامة الى حد بعيــد وتعرف فى هذا الوقت بالجرثومة .

سبحانك ربى ! يشعر الانسان بألم بسيط ، فاذا به يكاد يقضى فرقا ، وهــذه كائنات دنيئة لا تبصرها العين ، ولا يكاد يدركها الفكر ، تتعرض لبرد يقضقض الأعضاء ، ويجمــد

الريق فى المآق ، وتجد الحر اللافح والعدو المهاجم ؛ فتصمد أمامها جميعا بثبات وجلد ، ما أحوج بنى الانسان الى جزء منه !

هناك عدة تأثيرات طبيعية تحدثها البكتريا ، منها إنتاج اللون ، والألوان الشائعة هى اللون الأبيض والأصفر والأحمر والأرجوانى ، وهذا الأخير يشاهد كثيرا فى البرك والمياه الراكدة . وبعض أنواع الميكروبات يتسبب عن نموه نقط حمراء مشابهة جدا لنقط الدم ، تظهر فجأة على الخبز واللحوم . ومن طريف المقال ، أن هذه الظاهرة الطبيعية كان لها شأن كبير لدى رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، فلقد كان الرجل منهم يترك خبزه سليما نظيفا ، ويصبح فاذا بتلك البقع الدموية تغمره ، فيبهت ويتملكه العجب ، ويقدح زناد الفكر عمن سبب هذه الدماء فلا يجد حلا إلا أن يذهب ويصيح بين الناس بأن دم المسيح قد حل فى ذلك الخبز المقدس . وهكذا ساعدت الميكروبات — دون قصد منها أو علم — على رواج تلك العقائد الخرافية وتمكينها من نفوس القوم .

وهناك من الميكروبات ماله خاصية الاضاءة ، فلقد شوهدت فى كثير من الأحيان اضواء مختلفة فى ماء البحر وعلى أنواع من السمك ، ثبت أنها أنواع من البكتريا المضيئة المعروفة علميا باسم Phosphores cent ، وقد أمكن فعلا تربية هذه الميكروبات فى بيئات صناعية ، وأمكن أن يشاهد الضوء بوضوح ، وقد اقترح بعض الباحثين استعمال هذه المزارع المضيئة فى عمل مصابيح خاصة تستعمل فى المناجم لمنع خطر الانفجار ، ولا يزال هذا الاقتراح رهن التجربة .

نعود بعد هذا الى الكلام على أهمية الميكروبات فى الطبيعة ؛ فحياة النبات — وبالتالى حياة الانسان والحيوان — تتوقف على وجود هذه الكائنات فى التربة ، ذلك أنها تقوم بتحضير الغذاء الصالح للنبات ، فهى تحول المادة العضوية التى لا يستطيع النبات أن ينتفع بها ، الى مادة معدنية صالحة لغذاء النبات ؛ ومن المعلوم أن عنصر الأزوت هو أهم العناصر التى يحتاج اليها النبات على الاطلاق ، وأنه لا يستطيع امتصاصه إلا على حالة أملاح ، فنجد أن البكتريا تقوم بتجهيز هذا الأزوت من المواد المعقدة التركيب ليتمكن النبات من استعماله وهناك أنواع أخرى من الميكروبات لها القدرة على امتصاص الأزوت الجوى ، فباتحاده مع مركبات الكربون اللازوتية ، يتكون مركب البروتين الذى يتحال بعد موت البكتريا ، فتتكون منه الأزوتات اللازمة للنبات ، أى أن البكتريا نفسها تعد مصدرا آخر للازوت .

فيتضح لنا من هذا أن خصب الأراضى قاطبة يتوقف على وجود هذه الأحياء ، وأنه إذا كانت النباتات الخضراء هى أساس الحياة ، لأنها تكون المادة العضوية من مواد غير عضوية فإن تلك الأحياء تقوم بعكس هذه العملية ، أى تحول المواد العضوية الى أخرى معدنية [illegible] النباتات .

ومن أنواع البكتريا، النوع المسمى بالبكتريا العقدية، وله القدرة على امتصاص أزوت الجو وهى تصيب جذور نباتات العائلة البقولية وتتكاثر فيها وتحدث فيها انتفاخات كثيرة تبرز الى الخارج، وتكون ما يعرف بالعقد؛ وتتغذى هذه البكتريا على النشويات الموجودة بالنبات وبعد موتها يمتص النبات البقولى أجسامها، وبذلك يحصل على الأزوت اللازم له من الهواء الجوى عن طريق البكتريا. والنباتات البقولية تفيد الأرض التى تزرع فيها بعد أن تتحال بقايا جذورها لأنها تزيد كمية الأزوت فى التربة.

علاوة على تلك الخدمة الجليلة التى تؤديها الأحياء للنبات فإنها تقوم بعملية هامة فى الطبيعة ألا وهى عملية الاختمار، وإنك لتشاهد هذه العملية فى أبسط مظاهرها إذا ما تركت قليلا من اللبن معرضا للجو مدة من الزمن، فإنك ترى أن طعم اللبن قد تغير وصار أقرب الى الحموضة وارتفعت درجة حرارته، وهذا ناشئ عن فعل الميكروبات فى اللبن وتكاثرها فيه وتكوينها لحمض يسمى حمض اللبنين، فإذا تركت هذا اللبن مدة أكبر، لتجبن وجد نتيجة ترسيب أملاح الكالسيوم الموجودة به بواسطة الحمض المذكور.

وعلى ذلك فنى جميع العمليات الاختمارية، يستعان بالبكتريا لإتمامها ففى عمل اللبن الزبادى وفى عمل الخل وغيره، لا بد من وجود أنواع معينة من الميكروبات للقيام بتلك العملية. ومن المعلوم أن الجلود تحتاج لبكتريا خاصة لاتمام عملية دبغها.

تلك هى النواحى النافعة فى حياة البكتريا. وأنها لمنافع جليلة الشأن عظيمة الأهمية. أوجزناها إيجازا خشية الملل والاطاله، وبقى أن نذكر كلمة صغيرة عن الأنواع الضارة وهى التى تسبب هلاك الانسان والحيوان.

قلنا آنفا ان البكتريا وجراثيمها منتشرة بكثرة فى الهواء والماء وعالقة بالأسطح المعرضة للهواء الجوى، وعلى ذلك فالكائنات عامة معرضة لهجمات هذه الميكروبات، وهى كثيرا ما تسبب أمراضا خطيرة للانسان وتصيبه عن طريق الجلد أو القناة الهضمية أو الجهاز التنفسى، فإذا دخلت الميكروبات عن طريق جرح أو ثلم فى الجلد فانها تتكاثر بسرعة وتسبب التهابات موضعية وتفرز موادا سامة تسرى فى الدم وتسبب تسمم الجسم، الأمر الذى قد يفضى الى الموت. لهذا كان من أوجب الواجب المسارعة بتعقيم الجروح التى تحدث فى الجلد بمادة مطهرة مثل صبغة اليود. وتصيب الجهاز الهضمى أنواع مختلفة من الجراثيم، من أخطرها بكتريا التيفود والكوليرا وينقلها الذباب من الأطعمة الملوثة. أما الجهاز التنفسى، فهو أكثر الأعضاء تعرضا للميكروبات، وتصيبه أنواع قتالة من جراثيم السل والالتهاب الرئوى.

حقا، إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين، فهذا قل من كثر، وغيض من فيض من عوالم شأنها فى الحياة جليل عظيم، وأمرها عجيب غريب، خلقها الله سبحانه وتعالى رحمة

للناس والكائنات عامة ، ثم جعلها نقمة منه يصيب بها من يشاء ، ففيها خير كثير ونفع عميم ، وفيها شر مستطير وعذاب أليم .

سبحانك اللهم ولا قوة إلا بك ، هذه آياتك فى الكون بينات ، ناطقة بقدرتك شاهدة بعظمتك ، مبينة لرحمتك ، مظهرة لعذابك ، يمر عليها الناس صباح مساء ولكن أكثر الناس عن آيات ربهم غافلون معرضون ! « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

رضوان محمد رضوان
بكالوريوس فى العلوم الزراعية

شورى الكهول والشبان

اختلف الناس فى أى القبيلين أولى بأن يستشاروا : الكهول أم الشبان . فآثر بعضهم الأولين ومال بعضهم الى الآخرين . فمن حجج أصحاب المذهب الأول قول حكيم : عليكم بمشورة من حلب ضرع دهره ، ومرت عليه صروف خيره وشره ، وبلغ من العمر أشده . لذلك كان العرب يقتدون بآراء الشيوخ ، ويعتمدون فى تصريف النوازل عليهم ، لما يكثر فيهم من أصالة الرأى ، وإصابة الحدس ، وصحة النظر ، مع مامنحوا من حسن الاختبار ، وسمت الوقار .

ومن حجج أصحاب المذهب الثانى أن للشبان من توقد الفطنة ونشاط النفس ، وقوة المنة ، مايقصر عن مثل ماهم عليه الشيوخ .

والحقيقة أن الصواب مع أهل المذهب الأول ، فان الأمور لا تؤخذ بالعنف ، ولا تعالج بالقوة ، والنوازل لا تدفع بالشدة ، ولا تتحامى بالمكافحة ، ولكن الانسان الى عقل بصير بسنن الحياة ، وفواعل الوجود ، ونظر ثاقب بأسباب الحوادث وعواقبها ، وحنكة صحيحة بوجوه الاحتماء من العوادى أو تسهيل وقعها ، أحوج منه الى اعتداد بالنفس يخفى عليه وجوه الوصول الى الصواب ، واعتماد على الحول يورطه للصدمات حتى تخور قواه من شدة وقعها . وهذا العقل وتلك الحنكة ثمرة لممارسة الأحداث ومعالجتها ، وهى من حظ أصحاب الأسنان المتقدمة ، لا الشبان الذين ليس لهم بتكاليف الحياة خبرة .

بين النقد والادب

تدرج الطبيعة بالانسانية فى مدارج الرقى والكمال ، وتنهج بها مناهج السمو والتطور ، فتحرص على النافع وتختار الأصلح ، وتجدد دائما ، فتنقل الناس من حال الى حال ، وتخرج بهم من وضع الى وضع ، وما أداتها فى هذا إلا الشخصيات العظيمة ، والنفوس الكبيرة ، والارادات القوية الوثابة ، التى تحمل فى أطوائها عظمة الطبيعة نفسها ، فإذا هى فى أعمالها وحياتها ومواهبها برامج سامية للجنس ، وشرائع عالية للنوع ، وعوامل ناهضة بدهماء الناس من ظلمة الخمول ، وحمأة الانحطاط ، ومثل رفيعة تثير بروعتها فى النفوس أعمق الخواطر ، وتلهمها الانشاء والخلق والإبداع !

وما الأدب فى وضعه الشامل ، ومادته المتصلة بكل شىء ، إلا دنيا حافلة ، وإنسانية كاملة ، فهو — كما يقول مكسيم جوركى — مرآة الحياة تنعكس على زجاجته المصقولة ، فى هدأة الحزن أو ثورة الغضب ، سائرمشاكل الحياة وشعابها المترامية ، وخيوطها المشتبكة ، ومناحيها المتنائية ؛ كما تنعكس كذلك على أديمه الشفاف كافة رغباتنا وشهواتنا ومشاعرنا وآمالنا ، وبالاختصار هو كل ما يحيا به العالم وسائر ما يعتمل وينبض فى قلوب البشر .

فدنيا الأدب هى دنيا الناس تامة كاملة ، يصورها لنا الأسلوب المهذب ، ويرسمها التعبير الفنى الجميل ، وإن النهج الذى تسلكه الطبيعة فى دنيا الناس للسمو بالانسانية ، والترقى بالعالم هو هو بعينه النهج الذى يحتذيه النقد فى دنيا الأدب لخدمته وصقله وتهذيبه واختيار الأصلح منه ... كما تفعل الطبيعة تماما فى دنيا الناس المادية المحسوسة ، وما النقد إلا رسالة من رسالات الطبيعة وعمل من أعمالها ، فمن المعقول أن يحتذيها فى مهمته ، وأن يكون على غرارها فى وضعه ، فهو — على ما يجب أن يكون — إرادة قوية تكشف وتوضح ، وتختار وتميز ، وتنفى وتثبت ، وتزجر وترشد ، قد تبتر الضعيف ، وقد تحابى القوى ، وما قصدها فى ذلك الى البطش والانتقام ، ولا إلى المداهنة والمحاباة ، ولكنها تقصد الى صقل الخواطر وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأفكار ، من مظاهر البساطة الأولى التى تكون للماس إذ يخرج من أحافير الأرض ، فما تزال تتعهدها بذلك حتى تقيمها على الوجه الصحيح النافع ، فإذا هى سمو بالانسانية ، وصلة بالحياة ، ومادة للخلود ، ومبعث الروعة والجلال على مدى الدهر وطول الأيام .

والأدب والنقد يرميان الى غاية واحدة ، ويتعاونان فى مهمة متفقة ، فالأدب ـ كما يقول الرافعى ـ يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليه ، ومحاولة إظهار

النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة ، وصولة الغريزة ، وغرارة الطبع الحيوانى ، والنقد من وراء الأدب فى هذا كله يصحح له هـذا « التقدير » من جميع جهاته ، ويسدده على طريقه القويم ، ويدله على الصور الرائعة التى يصح أن تكون مثلا أعلى لما نطلبه من جمال الحياة وجمال العواطف ، ومن ثم كان النقد — كما يقول شوقى — حارس الأدب ، ومكمل الكتاب والكتب ؛ ومن ثم أيضا كان النقد أساسا لكل نهوض أدبى مثمر ، فاذا مارأيت أدبا مهذبا يغمر أصحابه بالحياة ويؤدى لهم غذاء العواطف والعقول ، ويملأ نفوسهم باليقظة والحكمة والاحساس ، ويرفعهم عاليا الى الكمال الانسانى ، ثم رحت تتلمس السبب فى ذلك فلن تجده إلا النقد ، ثم النقـد ، ولا شىء غير النقد .

قال لى أديب كنت أبسط له هذا الرأى : ولكنك تعلم ياصاحبى أن أهل الفن قوم خلقهم الله أحرار المواهب ، فهم يطلبون حرية الفكر ، وذلك عندهم كل شىء ، ولعلك تذكر فى ذلك قول ملتون الخالد : « أعطنى حرية القول ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ، ولا تعطنى شيئا غير ذلك » . والنقد إنما هو ضرب من ضروب الحجر على هـذه الحرية ، وحبسها عن التحليق فى سماء الفن وجو الحياة الفسيح ، ولا شك أن الفنان إذا ما فقـد حريته فقد فقد عبقريته ، وتلاشت شخصيته . ثم أنت تعلم أن حياة الفن إعجاب وتقدير ، وأن الفنان فى حاجة كبيرة الى العطف والثناء والمدد والبخور ، ولكن النقد كثيرا ما يرهق أعصاب الفنانين — وهى الدقيقة المرهفة — بصلف الأستاذية أو عنت الحزازة ، وعبث الفضول ، وكثيرا ما هوى فنانون صرعى هـذا الطغيان ، أوقل هذا اللؤم ، وكثيرا ما أحجم كرام فضلاء عن الظهور فى الميدان ضنا بأعراضهم أن ترتع فيها الألسنة الضارية . وهـذا ما يجعلنى أعتقد أن النقد عداوة للأدب ، وتهجم على كرامة الفن ، وأنه طاغية مستبد ، يهدم ويثبط ، ويندفع فى جبروته واستبداده لا يلوى على شىء ولا يحفل بشىء ولا يفيد فى شىء . . . وهذا ما جعلنى أيضا أرتاح لصنيع ألمانيا يوم حرمت النقد الأدبى ، ووقفت به عند عرض الموضوعات وبسطها دون التعليق عليها أو إبداء أى رأى فيها ؛ ولقد كان وزير الدعاية الألمانية على حق إذ يقول فى بيانه الذى أصدره فى ذلك الصدد : إن الفن لا يفقد شيئا إذا ما بعـد أولئك النقدة الأغرار من الميدان ، إذ العظمة الزائفة تسقط من غير أن يسقطها النقد ، أما أصحاب العظمة الحقيقية فيجب أن يسمح لهم بحرية الابتكار ، والاحتفاظ بكرامتهم الفنية ، ويجب أن تصان العبقرية الصحيحة من كل ما يؤذيها ويمهد لسقوطها ...

ولقد يبدو هذا الكلام طريفا لبعض الناس ، وأذكر أنى سمعت صداه فى ندوة أدبية ، وقرأت كلاما بمعناه فى إحدى الصحف ، ولكنه فى الواقع أفن من الرأى لا يصح فى عقل ، ولا يستقيم فى منطق ، فان النقدليس مصادمة لحرية الفنان فى شىء ولكنه تقويم لهذه الحرية ،

وتمهيد السبيل لها الى الأوج ، وتنزيه لها من العبث ، وإذا كان له أن يقف بالفنان عند حدود ، أو يلزمه بقيود ، فليست هي إلا الحدود الفنية ، والقيود التي هي معالمه ودعائم كيانه ، فاذا ما أباح لنفسه أن يتعداها وأن يستهين بها ، هان فنه ، وسقط شأنه ، كتلك القيود التي يود أن يتملص منها بعض الناس ، من تفريط في حق اللغة ، وعدم العناية بالأسلوب والاستهانة بأوضاع العرف والأخلاق ، والتقاليد والدين !

ثم كيف يعقل أن يكون النقد عدوا للادب وهما صنوان يجمعهما الفن الى أصل واحد ؟ فإذا ما نظر النقد الى الأدب وهو ينصح له أو يسخر منه ، أو ينكر عليه ، فهو في هذا يمثل الطبيعة تحاول أن تذهب بالزبد ليبقى ما ينفع الناس ، والطبيب ليس بمتجبر ولا بمستبد إذا ما بتر العضو الفاسد لينجو المريض ، والصائغ لا يقصد الشر إذا ما تناول حجر الماس بالبتر والصقل ليظهر جوهره . فالنقد إذا ماوضع الحق في نصابه ، ودافع عن الفن في نسقه الأعلى ، فإنما هو يؤدى رسالته التي ائتمن عليها ، وإن من انقلاب الأوضاع والاستهانة بالحقائق أن نحسب التهذيب عداوة ، والتطهير هدما وتثبيطا ، وإذا كان بعض الأدباء لايفيدون في النقد تقويما وإرشادا فإنما هو التفريط منهم في الانتفاع بالرشد والاصاخة الى النصيحة ، وماهم إلا كالمريض يصف الطبيب له الدواء ويقدر عليه الغذاء ويقرر له ما يأتى وما يدع ، ولكنه يستهين بهذا كله ، وما يزال حتى ينوء بعلته .

على أننا إذ نقول النقد ، فإنما نعنى ذلك الفن الجميل بقواعده المقررة ، وأصوله المحررة ، وغايته الشريفة ، وهو شيء أسمى من أن يتناول بالغرور والتفيهق والحقد والحسد ؛ ولقد صدق شوقى إذ يقول : « من نقد على غضب أسخط الحق ، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق ، ومن نقد على حسد لم يخف بغيه على أحد ، ومن نقد على حب حابى وجمجم به التشيع ، وإنما النقد فن كريم ، وهو آلة إنشاء ، وعدة بناء ، وليس كما يزعمه الزاعمون معول هدم ولا أداة تحطيم » .

ثم إننا إذ نقول الناقد فلسنا نريده من أولئك المزورين الأدعياء الذين ليس لهم أداة النقد ، ولا عندهم وسائله ، ولكنا نعنيه من أولئك الذين لهم قدرة الحكم ، وفيهم قوة الصواب ، وعندهم وسائل الترجيح ، وغايتهم الانصاف ، وشأنهم خدمة الفن ، فإذا لم يكن الناقد من هؤلاء عرض نفسه للزراية والسخرية ، وتدلى بعقله وفنه الى أسفل .

فالنقد كما ترى مجلى العبقريات ، ودعائم النبوغ ، وظل التاليف ، وعضد الفن ، يذعن له الأدباء في ارتياح واطمئنان ، ويرمقونه بالاجلال والاكبار ، ويصيخون لكلمته بالوعى والانتفاع ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

فى مؤتمر الاديان العالمى

الخطبة التى ألقاها فيه صاحب الفضيلة الأستاذ

الشيخ محمد عبد الله دراز

عضو بعثة فؤاد الأول الأزهرية فى جامعة السوربون

(موافقة المؤتمر بالإجماع على اقتراحين جليلين لممثل الأزهر)

يعقد فى عواصم أوربا فى دورات متعاقبة مؤتمر يدعى (مؤتمر الأديان العالمى) وقد دعى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى لحضوره فاعتذر وأرسل اليه بخطبة له قوبلت بما تستحقه من الحفاوة والاكبار ، وكان لها صدى بعيد فى الجرائد والمجلات العالمية .

وقد دعى الأزهر فى دورة المؤتمر التى إنعقدت فى هذه السنة بباريز فى جامعة السوربون فندب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فضيلة الشيخ محمد عبد الله دراز عضو بعثة فؤاد الأول الأزهرية ليلقى كلمة الأزهر فى ذلك المؤتمر . فألقاها بالفرنسية ، فكان إعجاب المؤتمرين بها عظيما حتى قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : إن كلمة الأزهر هذه هى الكلمة الرئيسية !

وقد وافق المؤتمرون بالإجماع على اقتراحين قدمهما الأستاذ دراز يراهما القراء فى الخطبة .

وإن مجلة الأزهر لتفخر بأن تنشر لأحد نجباء أبنائه كلمة جليلة القدر كانت أول ما سمع الاوربيون من أمثالها عن الاسلام ، فنهنئه بهذا الفوز العظيم ، ونرجو أن يكثر الله من أمثاله فى علماء الدين .

واليك ترجمة الخطبة :

باسم الأزهر ، ذلك البيت العتيق الذى هو أقدم الجامعات الدينية العلمية المعروفة فى العالم ، وأكبر المفاخر الأدبية للقطر المصرى ولمدينة القاهرة ، والمركز الذى تلتف حوله قلوب مئات الملايين من البشر ، يعدونه رمزا خالدا لحضارتهم ، ومنبعا دائم الفيضان لثقافتهم الروحية .

بل باسم الاسلام ، ذلك الدين الخاتم الذى أخرج للناس يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى

كانت عليهم ، ويمحو ما بينهم من فوارق الأنساب والأجناس ، واللغات والألوان ، ليجعل منهم أمة واحدة على قدم سواء ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالعمل الصالح ؛

بل باسم الانسانية التى اجتمعتم اليوم للتشاور فى الوسائل الفعالة لتخفيف آلامها ، وإنقاذها من الهاوية ، التى أشرفت على التردى فيها ؛

باسم الأزهر والاسلام والانسانية ، أرحب بقدومكم ، وأحيي فيكم ذلك الشعور النبيل الذى أوحى اليكم فكرة هذا المؤتمر ، وأتمنى لكم النجاح والتوفيق ، فيما ترسمونه من الخطط لتأييد السلام العام .

***

ياحضرات السيدات وياحضرات السادة :

إن نظرة واحدة نلقيها على العالم اليوم ، لتكفى لإدراك مايسود بين شعوبه من روح العداوة والشحناء ، وما ينبعث فى أقطاره من زفرات الشكوى والأنين .

فمن أين جاءت هذه النزعة الشريرة التى تنذر بأسوأ العواقب ؟

أليس منشؤها هو تحكم المادية وازدياد نفوذها فى تسيير مجرى الأمور العالمية ؟

وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون العلاج الوحيد هو أن نعود الى الروح فنعيد اليها سلطانها الذى أهملناه فى هذا العصر إهمالا كبيرا ؟ ثم ما هى تلك القوة التى تستطيع أن تضطلع بهذا العبء الشاق إن لم تكن هى قوة الدين ؟

غير أننا إذا رجعنا الى الأديان نلتمس منها المعونة ، هالنا مانراه من اختلافها اختلافا طالما كان من أسباب الخصومات والحروب ، بدل أن يساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب ، فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محوراً لتقرير السلام بين معتنقيها ، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع ؟ هذه هى النقطة الأساسية التى تدور عليها أعمال المؤتمر ، وهذا هو الاشكال الذى يحاول المؤتمر أن يجد له حلا .

أما أنا فأميل الى أن يكون هذا الحل على أساس الفصل فى الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى ، وأعتقد أن افتراق الأديان فى عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع التقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب ؛ وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والاحسان ، وتنهى عن الظلم والعدوان ، وكلها تسوى فى هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها .

***

اسمحوا لى إذاً أن أستعرض الديانات التى هى أكثر انتشاراً فى العالم اليوم ، أعنى الديانة الهندية « البرهمية » والديانة البوذية ، والديانة اليهودية ، والديانة المسيحية ، والاسلام ؛ لكى أبين بإيجاز ما فى كل واحدة منها من روح التسامح والرحمة الانسانية :

أما الديانة الهندية فان التاريخ يحدثنا أنها لم يقع منها اضطهاد قط للفلسفة الالحادية التى نشأت بين ظهرانيها ، حتى إن الفيلسوفين « كابيلا » و « كانادا » وغيرهما أمكنهم أن يزعموا أن كتابهم المقدس « الفيدا » ليس كافيا للخلاص ، بل أمكنهم أن ينكروا وجود الإله ، ألبتة ، ومع ذلك لم يمسهم من رجال الدين أذى ولا إحراج ، بل إن الديانة البوذية التى هى فيما يظهر وليدة تلك الفلسفات الالحادية استطاعت أن تنشر نظرياتها العدمية بملء حريتها وبقيت على ذلك اثنى عشر قرنا دون أن يقاومها أحد من البراهمة بالعنف . نعم إنها آل أمرها الى أن طردت من الهند وهاجرت نحو الشمال ونحو الشرق ، حتى زعم بعض المؤرخين أنها ألجئت الى ذلك بتأثير التعصب الدينى البرهمى ، لكنهم فى الحقيقة ليس عندهم دليل إيجابى يؤيد هذا الرأى .

والديانة البوذية بدورها ما اعتدت قط على أحد من مخالفيها . على أن مبادئها نفسها تضطرها اضطراراً الى الاحتمال وتوسيع الصدر لكل خلاف ، فإن من جرد نفسه من تأثير اللذة والألم ، وجعل منتهى همه إنكار الذات والوصول الى الفناء والعدم ، لا يمكن أن يجد غضاضة فى أى مذهب يخالفه مهما كان متطرفا . هكذا نجد مشكلة السلام العالمى محلولة بطبيعتها فى الديانة البوذية بحيث لا محل لوضع السؤال فيها .

ولعل الديانة التى تليها مباشرة فى هذا المعنى هى « الديانة المسيحية » إذ أنها لا تتصل بالأحوال الزمنية إلا اتصالا ضعيفا ؛ ولذلك نرى فيها طابع التواضع والسلام ، بل قد يقال طابع الخضوع والاستسلام ، أوضح من أن يحتاج الى بيان ؛ فشعارها ليس فقط « أحب جارك كما تحب نفسك » بل « أحب عدوك وصلِّ لمن يضطهدك » أو بعبارة أخرى « من ضربك على الخد الأيمن فامدد له الخد الأيسر » ، وهنا تحسن الاشارة الى أن المسيحيين فى العصور الأولى كانوا يتحرزون تحرزا شديدا من الانخراط فى سلك الجندية ؛ وأن من دخلها منهم مضطرا كان يجب ألا يسفك دم أحد ؛ وإلا لكان جزاؤه الطرد من حظيرة الدين .

غير أن الناظر فى تاريخ اليهودية والاسلام قد يجد فيهما شذوذا عن القاعدة ، وقد يتسرع فى الحكم بعدم انطوائهما على روح الرفق والتسامح ؛ ذلك أن موسى ومحمدا عليهما السلام لم يكونا مؤسسى دين فحسب ؛ بل كان كل منهما جامع شتات أمة ومؤسس دولة : كلاهما كان مشرّعا وحاكما ، وكلاهما قاد الجيوش لفتح بلاد الأعداء ؛ ويضيف الاسلام الى ذلك أنه توسع فى هذه الفتوح فأنشأ أمبراطورية من أعظم الأمبراطوريات فى أسرع زمن عرفه التاريخ .

ولكن الخطأ كل الخطأ ، بل الظلم كل الظلم للحقيقة ، أن توصم هذه الفتوحات النبوية

بوصمة البغى والعدوان ؛ فليس هناك مثال واحد يدل على أن اليهودية أو الاسلام أباحا البدء بالاعتداء على الطوائف الأخرى سواء أكان ذلك لمقاصد دينية أم لأغراض سياسية ؛ بل الواقع على العكس من ذلك أنهما احتملا الاضطهاد أمداً طويلا قبل أن يأذنا لأتباعهما باتخاذ القوة للدفاع عن حياتهم وعن حريتهم فى اعتناق الحق والدعاء اليه ؛ وهذا الدفع المشروع مازال حقا مقررا لا يجادل فيه عاقل : « ولَمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » .

يكفى فى شأن اليهودية أنها رفعت قيمة الحياة الانسانيـة الى درجة لم تصل اليها أشـد النظريات العصرية تحمسا فى الدفاع عن حق الفرد .

ينقل لنا القرآن عن التوراة أن قتل النفس بغير حق لايقاس فى نظرها بقتل أمة بل بقتل الانسانية جمعاء ، وحياته بحياتها : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

***

وأما الاسلام فمن السهل الرجوع الى كتابه والى حياة نبيه ، فكتابه لا يزال غضا طريا محفوظا فى نصه وحرفيته كما تركه صاحبه ؛ وحياة نبيه قد سجلها التاريخ بتفاصيلها بأتم عناية وضبط . وإن نظرة واحدة فى هذين المصدرين لكافية فى معرفة موقف الاسلام نظريا وعمليا من قضية السلام العالمى .

نعم إن الاسلام قد خاض كل ميادين الحياة وتدخل فى جميع جزئياتها ، ولكنه على رغم ذلك بقى محتفظا بسموه الروحى حتى فى أشـد الشئون ارتباطا بالمادة ، وهكذا كان وجه بداعته أنه استطاع أن يوفق بين المطالب الروحيـة والمطالب الزمنية للانسان ، بنسبة عادلة مستقيمة .

لا يتسع نطاق هذه المحاضرة للإتيان على ما فى القرآن وتاريخ نبيه من براهين على سماحة الاسلام وسعيه للوحدة والائتلاف بأوسع ما فى حدود الامكان ؛ فلنكتف بالاشارة الى شىء من ذلك . أما من الوجهة النظرية فقد سعى الاسلام لتأسيس هذه الوحدة على دعامتين :

أولاً : من طريق توحيد الغاية ، وذلك بدعوة الناس جميعا الى عبادة إله واحد .

وثانيا : من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية ، وذلك ببيان أن الشرائع السماوية ترجع كلها الى أصل واحد ، ودعوة معاصريه من أهـل الأديان السابقة الى تكوين أسرة روحية واحدة تؤمن بجميع الكتب وجميع الأنبياء بدون تفريق بين أحد منهم : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم

وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ».
ونرى القرآن فى أثناء هـذه الدعوة يعنى دائما بربط الاسلام بالأديان التى سبقته منذ عهد نوح : « شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليـك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، ويصور نبى الاسلام بصورة المأمور باتباع هدى من قبله : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ، ويقول إنه لم يجئ بجديد يهدم القديم وإنما جاء مجددا لما اندرس منه ، مبينا لما خفى ، مصححا لما حرف : « قد جاءكم رسولنا يبين لـكم كثيرا مما كنتم تخفون من الـكتاب » ، وبالجملة ليعيد الدين الى نقاوته الأولى .

بل إن اسم الاسلام نفسه « فى اصطلاح القرآن » اسم مشترك يضعه القـرآن على لسان أكثر الأنبياء المتقدمين ، يقول فى شأن إبراهيم : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ، وفى شأن يعقوب : « إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ، وفى شأن التوراة وأنبياء بنى إسرائيل: « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » . وهو حين يقول بصيغة الحصر : « إن الدين عند الله الاسلام » لا يمكن أن يعنى إلا هـذا المعنى المشترك بين الأديان المنزلة ، وإلا لـكان هادما للأساس الذى أراد أن يقيم عليه بناء هذه الوحدة .

غير أن هاهنا نقطة يجب التنبيه اليها : وهى أن القرآن حين دعا الى هذه الوحدة لم يجعلها غاية يطلب الوصول اليها من كل طريق ، وشراءها بـكل ثمن ، بل نظر اليها كمثل عال وأمل عزيز ينبغى الاقتراب منه بقدر الطاقة ، واعترف فى أكثر من موضع بأن هذا الأمل متعذر التحقيق : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » .

هذه النظرة لها نتائجها الطبيعية فى مسلك الاسلام بإزاء مخالفيه ، فهى التى جعلته يواجه الحقيقة الواقعة بالاحتمال والتسامح ؛

وهى التى حددت مهمة الرسول بأنها ليست هى إكراه الناس على الايمان وإنما هى التعليم والانذار ثم تفويض الأمر فى عقائدهم الى الله الذى سيتولى الحـكم بينهم فى يوم الفصل « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » « لا إكراه فى الدين » « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » « ما على الرسول إلا البـلاغ » « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصـير » « لـكم دينكم ولى دين » « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله

ليجزي قوما بما كانوا يكسبون ». ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الموقف لا يخص علاقة المسلمين بأهل الكتاب ، فان أكثر هذه النصوص مكية فى شأن الوثنيين أنفسهم . وقد صرح القرآن بأن هذه هى حدود مهمة الرسول بإزاء الطوائف كلها ، وذلك فى تلك الآية المدنية الجامعة : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

وأما من الوجهة العملية ، فالاسلام « أولا » : قد حظر البدء بمناوشة مخالفيه أو بمضايقتهم فى الحياة المادية ما داموا مسالمين له ، وأمر فى هذه الحال بحسن جوارهم ليس بطريقة سلبية فحسب بل بالبر إليهم ، والعدل بينهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » . ولقد كان من أول الأعمال التى قام بها النبى بعد الهجرة الى المدينة محالفته لليهود ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، وبذلك أنشأ فى المدينة أمة واحدة من عناصر ثلاثة مختلفة فى الجنس والدين ، يستوى قحطانيهم وعدنانيهم وإسرائيليهم كما يستوى مسلمهم ومشركهم ويهوديهم ، فى حقوق الولاء وحسن الجوار والتناصر على دفع المغيرين . كما كان من أواخر أعماله مصالحته لنصارى نجران ، وإقرارهم على دينهم فى قلب الوطن العربى الاسلامى .

ثانيا : فى الحال التى تستحكم فيها العداوة وتكون الظروف مهددة باحتمال وقوع حرب ، وضع الاسلام وسائل كافية لاتقائها فى الوقت نفسه الذى يكون فيه المسلمون أشد قوة ؛ وأوصى بقبول كل شروط يعرضها المخالفون مادامت تؤدى لحقن الدماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين . ومن الأمثلة الواضحة فى هذا الموقف السلمى النبيل تلك المعاهدة التى وقعها الرسول بنفسه مع قريش فى عام الحديبية . هذا والمعاهدات الاسلامية ليست حبراً على ورق ، بل هى عقود دينية يوجب الاسلام تنفيذها بدقة وأمانة حتى مع الوثنيين : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين » . ولقد كان فريق من أهل الكتاب يوفون بعهودهم الى أهل ملتهم ولكنهم لا يرون الوفاء واجبا بعهودهم مع المسلمين « يقولون ليس علينا فى الأميين سبيل » فجاء القرآن ناعيا عليهم هذا التفريق ، مبينا أن الوفاء بالعهد واجب إنسانى عام : « بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » .

ثالثا : فى الحال التى تصبح فيها الحرب أمرا واقعا ، وضع الاسلام قواعد عملية كثيرة تخفف من أهوالها وتحدد بانصاف ما يقتضيه الموقف الدفاعى البحت ، فنهى عن قتل المرأة فى بيتها والراهب فى متعبده ، والفلاح فى مزرعته ؛ وبالجملة حصر القتال فى ميدان الحرب لا يتعداه : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وفى هذا الميدان نفسه نهى عن التشفى بالتمثيل والتعذيب : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

رابعا : فى الحال التى تنجلى فيها المعركة عن ظفر المسلمين ، ضرب الاسلام أمثلة عالية فى الكرم والصفح عن الماضى وعدم الاستمرار فى تتبع الفارين الذين يطلبون الأمان ويلقون كلمة السلام : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » . ومن أروع الأمثلة فى ذلك موقف الرسول يوم فتح مكة مع قريش الذين ناصبوه الحرب والعداء أكثر من عشرين سنة ، إذ قال لهم بعد أن ظفر بهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وأطلق سراح أكثر من ستة آلاف أسير .

***

أما أن محمدا عليه السلام نفسه كان مطبوعا بفطرته على التسامح وحب السلام ، وأنه كان داعية توفيق لا تفريق ، فذلك ما تدل عليه كل حياته حتى قبل النبوة . ولأضرب لذلك مثالين اثنين فقط : (أحدهما) حادث الحجر الأسود حين اختلفت القبائل فيمن يكون له شرف وضعه فى مكانه من الكعبة وحكموا محمدا « الأمين » بينهم ، فلم يتحيز فى حكمه لجانب قبيلته هو ، بل حكم أن يوضع الحجر فى رداء ، وأن تأخذ كل قبيلة بطرف لتساهم كلها فى هذا الشرف ، وهكذا كان به حقن دمائهم والتأليف بين قلوبهم . (الثانى) اشتراكه حين كان له من العمر خمس وعشرون سنة فى حلف الفضول ، وهو شبه مؤتمر صغير تحالفت فيه قريش على نصر المظلوم وحفظ الأمن العام .

إن إثارة هذه الذكرى فى يومنا هذا وفى مكاننا هذا لها موقع خاص فى نفسى ؛ وإنى لا أستطيع أن أدفع عن خيالى هذه المقارنة بين الماضى والحاضر . ويلوح لى أننا الآن إنما نطبع على غرار ذلك الماضى البعيد ، وإنما نترسم الخطوات الأولى للنبى العربى الكريم .

***

إن فكرة الاجتماع والائتلاف نفسها يرى عليها فى الاسلام مسحة من طابع القدسية ، فخير يوم عند المسلمين اسمه يوم « الجمعة » أى يوم الاجتماع ، وخير مكان عندهم اسمه « الجامع » .

إن المحبة المتبادلة بين المؤمنين هى إحدى النعم العظمى التى يمتن الله عليهم بتحقيقها بالفعل : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . وإن المحبة المتبادلة بين الناس أجمعين هى إحدى الأمانى الغالية التى فتح القرآن بابها أمام المسلمين : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » .

إن اسم « السلام » نفسه واسم « الاسلام » يرجعان فى اللغة العربية الى أصل واحد ؛ وإن احب التحيات الى المسلمين هى الدعاء بالسلام .

***

وبعد : فاننا نستطيع أن نخلص من هذا البيان الى النتائج الآتية :

(أولا) أن الأديان كلها ، بدلا من أن تكون سبب نزاع وخصام فى شئون هذه الحياة ، هى على الضد من ذلك تنادى بالائتلاف والوئام .

(ثانيا) أن السبب الحقيقى لهـذه الخصومات هو بالعكس تعمد الانحراف عن الدين ، وأن كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين كاذبة فى دعواها الانتساب الى دينها .

(ثالثا) أن العلاج الوحيد للآلام الانسانية الحاضرة هو أن يعنى رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخلقى العام منه ، فينمّوا فى أتباعهم عاطفة الأخوة الانسانية باسم الدين نفسه.

إن هـذا التقارب والتعاون فى الحياة العملية إن تم على وجهه سيكون خطوة أولية فى سبيل التفاهم فى الحقائق الدينيـة نفسها ؛ ويرجى من وراء ذلك تقليل فوارقها النظـرية وتسهيل الوصول الى الحقيقة بالبحث الحر ، فى جو ودى نزيه .

***

وفى الختام أحب أن أعرض على هيئة المؤتمر اقتراحين عمليين أرجو أن يؤخذ الرأى عليهما :

الأول : أن تنشر خـلاصة قرارات المؤتمر على رجال الدين فى كل أمة ، وأن يرجى منهم المساهمة فى علاج الأزمات الراهنة بتحريض أتباعهم على اقتفاء هذه المثل العليا .

الثـانى : أن يطلب باسم المؤتمر الى مختلف الحكومات أن تنصف الشعوب المظلومة التى تحت نفوذها .

إننا إن فعلنا ذلك نكون قد قمنا بنصيبنا من الواجب الدينى والانسانى لخير الجميع ؟

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

– ٢ –

كان بديع الزمان الهمذانى على الرغم من نسبته عربى الأصل ، وإن كان فارسى النشأة ، يدل على ذلك قوله من رسالة بعث بها الى أبى العباس الفضل بن أحمد الاسفرائينى « إنى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » .

ومهما يكن فى الشعوبية من طعن أو مدح ، فهى عامل ذو خطر من العوامل التى غذت الأدب حينا بلبانها .

ولا يعنينى من هذه المقالات التى قمت بنشرها تحت هذا العنوان إلا أن أجلى للقارئ هذه الناحية من الأدب ، وأبسط له ما قيل فيها دون أن يكون همى التعصب للعرب ضد العجم أو للعجم على العرب .

ولا يفوتنى أن أكون حكما – إن استطعت – بين هذين الفريقين المسرفين فى التعصب ، المتغاليين فى الذود عن حياضهما ، فكل قول قيل فى هذا الباب لم يخل من مبالغة وإغراق ممقوتين .

وقد كان بشار بن برد – وهو رأس الشعراء المحدثين – من أكثر الشعراء طعنا وتعصبا على العرب ، فقد قال يتبرأ من ولائهم :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ... مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع الى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الأجل الأكبر

وله شعر كثير فى هذا الباب كله قدح وطعن فى العرب ، من ذلك ما يروى فى كتب الأدب من أن أعرابيا دخل على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابى : من الرجل ؟ فقالوا : شاعر ، فقال : أمولى هو أم عربى ؟ فقالوا بل مولى ، فقال الأعرابى : ما للموالى والشعر ؟ فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فأنشد بشار :

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الأحرار ! حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت الى قراح شركت الكلب فى ولغ الأطار
تريد بخط كسر الموالى وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها ولم تعقل بدراج الديار
وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب فى حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب على مثلى من الحدث الكبار

فقال مجزأة للاعرابى : قبحك الله فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأ مثالك .

ولئن كان هذا قد حدث من بشار بن برد وهو من شعراء العباسيين ، وأنت تعرف ما كان للموالى فى هذه الدولة من جاه وسلطان ، فقد كان ما يدانيه فى صدر الاسلام من شاعر عربى رغم ما جاء به الدين الحنيف من تسوية بين الشعوب ، وعدم اعتداد بالفوارق الجنسية ، فقد روى أنه لما احتضر عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم صهيبا على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس وقال له : استخلف ، فقال : ما إخالنى ممن استخلف ، فذكر له الستة من أهل حراء فكلهم طعن عليه ثم قال : لو أدركت سالما مولى أبى حذيفة حيا لما شككت فيه . فقال فى ذلك شاعر العرب :

هذا صهيب أم كل مهاجر وعلا جميع قبائل الأنصار
لم يرض منهم واحدا لصلاتنا وهم الهداة وقادة الأخيار
هذا ولو كان المترم سالم حيا لنال خلافة الأمصار
ما زال هذى العجم تحيا دوننا إن العريب لفى عمى وخسار

وفيما عدا هذا قد أخصبت الشعوبية قرائح كثير من الشعراء فقالوا مدفوعين بهذا الدافع ما واتتهم به قرائحهم ، ومن هؤلاء الحسن بن هانئ القائل على مذهب الشعوبية :

وجاورت قوما ليس بينى وبينهم أواصر إلا دعوة وبطون
إذا ما دعا باسمى العريف أجبته إلى دعوة مما علىّ يهون
لأزد عمان ابن المهلب بزوة إذا افتخر الأقوام ثم تلين
وبكر يرى أن النبوة أنزلت على مسمع فى البطن وهو جنين
وقالت تميم : لا نرى أن واحدا كأحنفنا حتى الممات يكون
فلا لمت قيسا بعدها فى قتيبة إذا افتخروا ، إن الحديث شجون

ولقد أساء بنو أمية إلى الموالى واشتطوا فى الغلظة عليهم والجفاء ، وأظهروا لهم

ضروب السخرية وألوان الاحتقار ؛ وآية ذلك أن الخاطب ما كان ليخطب امرأة من الموالى الى أبيها ولا الى أخيها وإنما يخطبها الى مواليها ، فان رضى زوج وإلا فلا ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح . وليس هذا بالعجيب المستغرب ، ولا بالبعيد المستنكر من بنى أمية .

وقد دعا معاوية بن أبى سفيان الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال : إنى رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وكأنى أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن نفسى لا تطيب لقتل أخى لأمى وخالى ومولاى ، وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب ، فظننت أنى قد قتلت عنهم ، وأطرق . فقال سمرة بن جندب : اجعلها الى يا أمير المؤمنين ، فأنا أتولى ذلك منهم ، وأبلغ منه . فقال معاوية قوموا حتى أنظر فى هذا الأمر ، قال الأحنف : فقمنا عنه وأنا خائف ، وأتيت أهلى حزينا ، فلما كان بالغداة ، أرسل الىّ ، فعلمت أنه أخذ برأيى وترك رأى سمرة .

فانظر كيف كانت المصلحة الجنسية تختلج فى نفس معاوية ، وتدفع به لعمل شديد الوقع فى النفوس خشية أن يصبح الجنس العربى مسودا بعد أن كان سائدا . ولا بد هنا من التنويه بشجاعة الأحنف وانتصاح معاوية ، فكلا العملين يستحق الاعجاب .

وقال أبو عبيدة : مر عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالى وهم يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده . قال أبو عبيدة : ليته سمع لحن صفوان وخاقان ومؤمل ابن خاقان .

وكان عقيل المرى من أشد الناس حمية فى العرب ، وكان ساكنا فى البادية ، وكان يصهر اليه الخلفاء ، فقال لعبد الملك بن مروان وقد خطب اليه ابنته الجرباء : جنبنى هجناء ولدك ! !

ومن تلك المثل تقف على مبلغ تعصب بنى أمية ضد العجم ، وإغراقهم فى التمسك بهذه النعرة العربية والتغنى بمآثرها ، والإطراء على محامدها ؟

أحمد ابراهيم موسى البارودى
تخصص البلاغة والأدب

دفاع عن القرآن الكريم

متابعة آراء الأصوليين

أوردنا فى المقال السابق طائفة من آراء الأصوليين فى موضـوع المتواتر والآحاد ، ولم تتسع صفحات المجلة الغراء لاستيفائها ، فنورد فى هذا العدد بقية آرائهم فى الموضوع :

قال ابن الحاجب فى مختصره :

العمل بالشاذ غير جائز ، مثل (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) ، واحتج به أبو حنيفة رحمه الله - لنا - ليس بقرآن ، ولا خبر يصح العمل به - قالوا يتعين أحدهما فيجب . قلنا : يجوز أن يكون مذهبا ، وإن سلم فالخبر المقطوع بخطئه لا يعمل به ، ونقله قرآنا خطأ اه

وقال صاحب التقرير والتحبير :

القراءة الشاذة حجة ظنية ، خلافا للشافعى ، لنا : منقول عدل عن النبى صلى الله عليـه وسلم ، قالوا : متيقن الخطأ ، قلنا : فى قرآنيته لا خـبريته مطلقا ، وانتفاء الأخص ، يعنى القرآنية ، لاينفى الأعم يعنى الخبرية مطلقا - فـكما لأخبار الآحاد فى الحـكم لأنها منها ومنعهم الحصر فى كونه قرآنا أو خبرا ورد بيانا فظن قرآنا فألحق به ، وعلى التقديرين يجب العمل به يتجوز ذكر الصحابى ذلك مع التلاوة مذهبا للقارئ بناء على دليل اعتقده كاعتقاد حمل المطلق على المقيد بالتتابع فى كفارة الظهار ، فذكره فى معرض البيان بعيد جـداً لأن نظم مذهبه مع القرآن إيهام أن من القرآن ما ليس منه - ثم قال : فلا ، وإن لم يكن قرآنا يقرأ فأقل حالاته أن يكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن القرآن لا يأتى به غيره اه

تواتر القراءات السبـع :

قال ابن الحـاجب :

القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمد والامالة وتخفيف الهمز ونحرها . لنا : لو لم تـكن لـكان بعض القرآن غير متواتر كملك ومالك ونحوها وتخصص أحدهما تحكم باطل لاستوائهما .

وقال صاحب التقرير والتحبير :

قـراءة السبعة ما كان منها من قبيـل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق بدونها ولا تختلف خطـوط المصاحف به كالحركات والادغام فى المثلين أو المتقاربين ، وهو إدراج الأول منهما ساكنا فى الثانى ، والاشمام ، والروم ، والتفخيم ، والامالة ، والقصر ، وتخفيف

الهمزة ؛ وأضدادها : من الفك وعـدم الاشمام ، وعـدم الروم ، والترقيق ، وعدم الامالة والمد ، وتخفيف الهمز — لا يجب تواترها . وخـلاف ما كان من قبيل الأداء مما اختلف بالحروف ، (كملك) المنسوب قراءته الى من عدا الكسائى وعاصما (ومالك) المنسوب قراءته إليهما ، ويسمى بقبيل جوهر اللفظ متواتر . ثم قال :

وقد نظر العلامة الشيرازى فى كون ما من قبيل الأداء كالحركات لا يجب تواتره بخلاف ما كان منه ، لأن الحركات وما معها أيضا قرآن .

لنا فى أن ما من قبيل الأداء ، أنه قرآن فوجب تواتره ، ضرورة أن جميع القرآن متواتر إجماعا لكون العادة قاضية به . قال المخالف :

هذه القراءات آحاد ، لأنها منسوبة الى سبعة نفر ، والتواتر لا يحصل بهذا العدد فيما اتفقوا عليه فضلا عما اختلفوا فيه . أجيب بأن نسبة القراءات السبع إليهم لاختصاصهم بالتصدى للاشتغال بها واشتهارهم بذلك ، لا لأنهم النقلة لها خاصة ، بمعنى أن روايتهم مقصورة عليهم ، بل عـدد التواتر موجود معهم فى كل طبقة ، الى أن ينتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم اهـ .

نتائج هذه القاعدة :

(١) القرآن المنزل من الله بواسطة جبريل عليه السلام ، على النبى صلى الله عليه وسلم .
(٢) القرآن الكريم متواتر إجماعا .
(٣) القراءات السبع ، فيما يخص المادة ، متواترة إجماعا .
(٤) القراءات السبع ، فيما يخص الهيئة متواترة عند الحنفية والشافعية والحنابلة .
(٥) القراءات الشاذة ليست قرآنا إجماعا .
(٦) المروى آحادا ، كمصحف ابن مسعود وغيره مما ليس فى المصحف الامام ، ليس قرآنا إجماعا .
(٧) المروى آحادا متردد بين أن يكون خبرا (حديثا) أو مذهبا للصحابى .
(٨) المروى آحادا ليس حجة فى الأحكام الشرعية ، عند الأئمة إلا الحنفية فى بعضها .
(٩) التسمية فى النمل قرآن إجماعا .
(١٠) التسمية فى أوائل السور قرآن عند الشافعية ، آية مستقلة ، أو هى مع أول آية ، آية .

القاعدة الثانية : آراء المفسرين والمحدثين :

يعتبر علماء التفسير والحديث من أصحاب الشأن فى موضوع كتابنا هذا ، فانه يتعلق بالقرآن الكريم ، وعلماء التفسير من هذه الناحية هم المختصون ، ولما كانت السنة تبين القرآن

لقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس » كان علماء الحديث من المختصين أيضا . لذلك رأينا أن نستند على آراء أهل العلمين لما لهم من الاختصاص .

وقد رجعنا الى كتب الحديث وشروحها ، وكتب التفسير ومقدماتها ، فوجدناها بحمد الله مملوءة بالحجج القاطعة ، والبراهين الدامغة .

ولما كان نقل جميع ما ذكروه فى الموضوع - يفضى بنا الى الاطالة ، وكان العلامة أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصارى القرطبى ، جمع فى مقدمة تفسيره : « الجامع لأحكام القرآن » فصلا حسنا فى هذا المعنى ، نقل فيه خلاصة آراء شراح الحديث والمفسرين ، كما نقل شيئا من كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان لأبى بكر الانبارى) رأينا الاقتصار على ما جمعه .

ولما كان أظهر شىء فى ذلك هذا الحديث المشهور « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » رأينا أن نصدر به المبحث كما فعل القرطبى رحمه الله :

روى مسلم عن أبى بن كعب « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال : اسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، فقال اسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : اسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا » . وروى الترمذى عنه قال « لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل . إنى بعثت الى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط ، فقال لى : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » قال : هذا حديث حسن صحيح . وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات : قصة عمر مع هشام بن حكيم . وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ، ذكرها أبو حاتم ابن حبان البستى ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول ، وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة : نحو أقبل ، وتعال ، وهلم . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل شاف كاف .

إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة ، على نحو : هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل .

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ (للذين آمنوا انظرونا) : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنوا أخرونا ، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الاسناد عن أبي كان يقرأ (كلما أضاء لهم مشوا فيه) : مروا فيه ، سعوا فيه . وفي البخاري ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوسع له في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغتهم الى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدروا لذلك على تحفظ ألفاظهم ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أبي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبي إني أقرأت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين ، فقال الملك الذي معي قل على حرفين ، فقيل لي على حرفين أو ثلاثة ، فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ، ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما ، عزيزا حكيما ، ما لم تخلط آية عذاب برحمة ، أو آية رحمة بعذاب . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبي — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالفه .

القول الثاني : قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها يمنها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها ، وكان قد أوتي جوامع الكلم ؛ وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابي : على أن في القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : (وعبد الطاغوت) ، وقوله (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب) وذكر وجوها كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف

لا كله . والى هذا القول أى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب ، عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنــه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش ؛ وقد قال الله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا » ولم يقل قرشيا ، وهــذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غــيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغــة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى : الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز .

وقال ابن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أى فيه عبارة ســبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن «فطر» معناه عند غير قريش ابتدأ ؟ فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها .

قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : « فاطر السموات والأرض » . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قــوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك : أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة ابن مالك إذ سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : (والنخل باسقات) ذكره مسلم فى باب القراءات فى صلاة الفجر ، الى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هــذه اللغات السبع إنما تكون فى مضر ، قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لهــذيل ، ومنها لتميم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس . قالوا : فهذه قبائل مضر

تستوعب سبع لغات على هذه المراتب . وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها فى مضر ، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها : مثل كشكشة قيس ، وتمتمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون فى (جعل ربك تحتك سريا) : جعل ربش تحتش سريا . وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات ، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ، ولا يحفظ عن السلف فيها شىء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض ، فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود ، « ليسجننه عتى حين » ذكرها أبو داود ؛ وبقول ذى الرمة :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولونك إلا عنّها غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا ، منها ماتتغير حركته ولايزول معناه ولاصورته ، مثل « هن أطهرُ لكم » وأطهرَ ، « ويضيقُ صدرى » ويضيقَ ؛ ومنها مالاتتغير صورته ويتغير معناه بالاعراب ، مثل « ربَّنا باعدَ بين أسفارنا » وباعدْ . ومنها ماتبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « ننشزها » وننشرها ؛ ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : « كالعهن المنفوش » وكالصوف المنفوش . ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثل « وطلح منضود » وطلع منضود ؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » وجاءت سكرة الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : « تسع وتسعون نعجة أنثى » ؛ وقوله : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » . وقوله : « فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم » .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، لأن هذا لا يسمى أحرفا ؛ وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة . ومنه قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » . كذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى ؟

البدع فى الاسلام

لايوجد تعليم أدبى واجتماعى فى الأرض يجافى بروحه وحرفيته البدع الدينية ، والخزعبلات الاعتقادية ، والتقاليد الخرافية ، بقدر ما هو عليه من ذلك كله دين الاسلام . ناهيك بدين كان من أوليات ما شرع من أجله تخليص الانسان من الآصار الوهمية التى أنقضت ظهره ، والوساوس الجاهلية التى ضللت عقله ، والجهالات الوراثية التى أفسدت قلبه ، حتى يكون من التنزه منها على مثل ما كان يوم ولدته أمه ، أى على الفطرة التى فطره الله عليها . هذه هى الحالة التى شرع الاسلام ليؤدى الانسان اليها ، وقد صرح له بأنها هى الدين القيم ، وكل ما عداه مما لم يثبت علميا ، ولم يتقرر عقليا ، فأضاليل مضللين ، وأباطيل مبطلين ، لا يصح له أن يرفع بها رأسا ، أو يقيم لها وزنا .

هذا هو الغرض الأول من الاسلام ، ومن أجل هذا استحق المسلمون أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، ولهذا السبب جعلوا شهداء على سائر الأمم فى غلوهم وتقصيرهم ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

لم يلبث الاسلام لصحة أصوله ، وسمو آدابه ، ونصوع حجته ، واستقامة محجته ، من الانتشار بين عشرات من الأمم ، أخذت به طواعية بدون إجبار ، وجرت منه على سنن ظهرت عليها آثارها فى سنين معدودة ، حتى آلت اليها خلافة الأرض ، وزعامة العلم ، وقيادة الأرواح .

ولكن الشعوب التى أخذت بالاسلام هى كسائر الشعوب سوادها الأعظم جاهلون أميون تأنس نفوسهم للبدع ، وتسلس مقادتهم للمضللين ، فانتشرت فيهم تقاليد وعادات ليست من الدين فى شىء بل مما يجافيه الدين ، وينافيه صريح الكتاب ، وصحيح السنة . فاضطر حماة الدين حيال ذلك أن يضعوا المؤلفات الكثيرة دحضا لهذه البدع الفاشية ، وزجرا عن هذه الضلالات الذائعة ، ولكن الأمية المستحكمة كانت تحول دون الاطلاع على هذه الزواجر ، فكان أثرها فيهم ضعيفا ، واكتسبت تلك البدع بسبب الاستمرار قوة ، واختلطت بالدين فى نظر الدهماء حتى صارت لديهم كأنها جزء منه ، وأصبح لها من المرتزقة دعاة يؤيدونها ، ويؤولون صريح الآيات لإثباتها ، وزادوا جرأة فوضعوا فيها مؤلفات تبررها .

حدث هذا كله فى دور فتور الدولة الاسلامية ، واشتعال نيران الفتن فى أجزائها ، وعمل النحلل فى جثمانها ، فلم تأبه لهذا التدهور المريع فى نفسية بنيها ، فتركتهم

وشأنهم . فلما تنبه المسلمون لاسترداد مكانتهم الاجتماعية ، رأى عقلاؤهم أن ذلك ضرب من المحال ما دام عامة المسلمين على ما هم عليه من الأخذ فى دينهم بالأباطيل ، وفى عقليتهم بالأضاليل ، وفى عاداتهم بالبدع ، فكيف تؤثر روح الاسلام الصحيح فى شعوب استناموا الى أصول ترجع بهم القهقرى ، واستراحوا الى مبادئ تمنعهم الأخذ بما فيه نهوضهم وصلاح شئونهم ؟

والموجب للأسف أن هذه البدع التى يدين لها جميع العامة ، قد طغت على كل شىء حتى على الحكومات ورجال العلم ، فترى أكثر حكومات الشعوب الاسلامية تشاطر تلك الشعوب رسميا فى بدعها التى ليست من الدين ، وتحتفل بما يحتفلون به وعلى النحو الذى يجرون عليه . وإنك لتشاهد ذلك فيما تسمح به من اقتناء الأفراد مساحات واسعة من الأرض لإقامة مدافن خاصة لهم فيها ، وتصرح لهم ببناء مساكن عليها وتحليتها بكل وسائل البقاء فيها من ماء وكهرباء وغاز ، حتى أصبحت مساحة المقابر تكاد تساوى مساحات العواصم ، مما ليس له وجود فى أية مملكة من ممالك العالم ، وهنالك يرتكب من ضروب البدع باسم الاسلام ما الاسلام منه براء .

ومن مشايعة الحكومات للبدع العامية سماحها بإقامة المآتم ، وسد الطرقات فى وجوه المارة بما ينصب من سرادقات ، وهى تقتضى حفر الأراضى المرصوفة بالماكادام أو الأسفلت لإقامة السوارى الخشبية عليها التى تحملها وتحمل المصابيح التى تمد على طول الشوارع المؤدية للدار الى مسافات بعيدة ؛ وفى تلك السرادقات ترتكب من البدع فى حق تلاوة القرآن ما يعتبر دينيا من أشد الآثام .

وقد علق هوى هذه السرادقات بالأذهان الى حد أن أصبحت عبئا ثقيلا على عاتق الناس ، ولكنهم يأتونها إما عملا بالسنة كما يكتبون ذلك فى المناعى ، والسنة من ذلك براء ، وإما صيانة لمكانة المتوفى أو أهله بين الناس . وقد اجتمع كثير من أعلام العلماء ، وقرروا حرمة الجلوس للتعزية ونشروها فى الجرائد . ولكنهم مع ذلك يأتونها على روس الأشهاد كأنهم ليسوا مكلفين بها قبل سواهم من الدهماء .

وأعجب ما شهدناه من هوى هذه السرادقات ، أن رجلا ماتت والدته فأخذ يستندى لإخراجها ، وإقامة سرادق لها ، أكف أهل السخاء ، وكنا نحن فيمن رآهم أهلا لبذل المعونة له . ولما مضى على وفاة والدته أربعون يوما ، وكانت فى حياتها تبيع قطعا من الحلوى بجانب جدار ، أسرع الرجل وإخوته ، وما فيهم من يكسب ما يزيد عن قوته اليومى ، الى إقامة سرادق امتد بضعة عشر مترا سادين به الحارة الضيقة التى كانت تصل بين شارعين آهلين بالمارة ، احتفالا بمرور الأربعين على وفاتها . فلما بلغنى الخبر عجبت غاية العجب وقلت لمن أطرفنى به : ما أولى هذه الأم بقول عبد للشاعر عبيد بن الأبرص :

لأعلمنك بعد الموت تندبنى   وفى حياتى ما زودتنى زادى

ليس هذا كل ما تؤاخذ عليه الحكومات ويؤاخذ عليه العلماء، فان هنالك من منكرات المساجد والموالد ما لا يصح أن يصبر عليه .

فأما المساجد فقد أقيمت فيها القباب ، وأوقدت فيها السرج ، وأدخل اليها القبور ، ورفعت عليها المقاصير ، ووضعت على شواهدها العمائم ، وسمح للناس أن يطوّفوا بها ، وأن يضرعوا اليها ، وأن يقبلوا الأرض أمامها ، وسمح لهم أيضا أن يقيموا لها الاحتفالات السنوية تحت اسم المواليد ، وأن يجتمع الناس حول تلك المساجد ذكورا وإناثا فى حالة تهتك لا ترضى بها رجولة أمة تعرف كرامتها . وأغضى الطرف عن الفئام التى تتحلق وتأخذ فيما تسميه الذكر ، فيتمايل الذاكرون يمينا وشمالا حول واحد منهم ينشدهم بعض الأشعار الغرامية ، أو يضرب لهم على الصنوج النحاسية (الساجات) ، أو ينفخ لهم فى صفارة ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

فهذا المظهر من طغيان البدع الذى أدى الى اعتراف الحكومات الاسلامية بها ، ومشاركة العامة فيها ، وسكوت العلماء عنها ، هو موطن الخطر على سمعة الاسلام ، وسقوط منزلته فى نظر الباحثين والناقدين . فإنهم يقولون : إن الاسلام لو كان على ما يقوله أفذاذ المصلحين الذين نبتوا فى جماعاته ، خالصا من هذه البدع والخزعبلات ، لما استطاعت الحكومات أن تشايع الدهماء فيها ، ولما سمح العلماء لأنفسهم بأن يسكتوا عنها . لذلك نرى فى جميع الكتابات الأجنبية التى نقرؤها التعبير بالاسلاميات على كل ما يعمله المسلمون فى بلادهم مما يتصل بالدين ، حتى أصبح يتعذر على أى إنسان أن يقول لأجنبى : إن ما تذكره من الأعمال المنسوبة للمسلمين ليست من الدين ، لأنك تسمعه يصيح بك على الفور : إذا كان ما تقوله حقا فكيف تشايعهم فيه الحكومات ، ويسكت عنه العلماء ؟

كلمة حق بعد الذى مر :

لقد مرت على المسلمين حقب من الفتور ، سنة الله فى خلقه بعد كل دور من أدوار الانقلابات التى تدخل فيها الأمم ، قضت على أهله بالاستنامة للبدع ، والأخذ بها تقليدا للشعوب التى احتكوا بها فى حياتهم الاجتماعية ، وتطاولت عليهم الآماد فيها حتى أصبحت من تقاليدهم ، وابتنت عليها عاداتهم ومعاملاتهم ، وأصبح يستحيل سلخهم منها طفرة بدون تعريض وشائج ترابطهم الاجتماعى للخطر ، والقضاء على وجودهم الاقتصادى بالتزعزع ، بل وعلى عاطفتهم الدينية بالضعف .

إن الناظر من بعيد الذى يستعرض هذه البدع ، ويرى كل ما فيها من الشناعات المنافية للعقل والدين ، والسخافات المجافية للكرامة والوقار ، يدركه ما يدرك كل غائر على كيان أمته من التحلل ، وكل حريص على شرفها من التدهور ، ولا يتمالك نفسه أن يصيح بالحكومات [illegible] وبالعلماء صيحات حماسية يتناثر منها الشرر ، ثم يعود فيعجب من أن نداءه لم يصادف

مجيبا ، مع أن أولى الحل والعقد يرون كلهم مثل رأيه ، ويرجون القضاء على جميع البدع مثل رجائه .

يعجب ولكنه لو كلف أن يعمل لاضطر أن يتئد كما يتئدون ، ولحسب لكل خطوة حسابها كما يحسبون .

إن أمرا فى ثلاثة أسطر تصدره الحكومة يكفى لمنع أى سرادق يقام لمأتم فى طول البلاد وعرضها ، ولا تجد من يعترضها فى ذلك ، بل تصادف من التأييد والتحبيذ ما يملأ قلبها غبطة وسرورا . ولكن عُدَّ معى كم بيتا تقضى عليه هذه الأسطر الثلاثة بالخراب من بيوت الفراشين والخيمية والطهاة وصناع المقاعد من النجارين والمنجدين ، وعمال الأبسطة وباعة البن والقارئين ؟

قس على ذلك إبطال الموالد ، وزيارة المقابر ، وتشييد المدافن الخ مما لا يحصى كثرة ، ولكله تأثير بقدره فى الحالة الاقتصادية مما لا قبل لحكومة على الإقدام عليه طفرة بغير تدريج .

فمعالجة هذه البدع والحالة هذه يجب أن تُستمد لها معونة الزمن الطويل ، فإن ما حدث واستقر ودخل فى صميم العادات ، وابتنت عليه مهن وصناعات ومناجر يحتاج فى إزالته الى مثل الزمان الذى نشأ واستولى على الأهواء فيه .

فإذا قلت : فكيف تسنى لرسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الوثنية وما يتعلق بها من بدع وطامات ، وعلى الجاهلية وماتقوم عليه من سخافات وشناعات ، طفرة بدون تدريج فى نحو عشر سنين ؟ قلنا : هذا موطن الاعجاز الذى نستدل به على نبوة خاتم النبين . وهذا عمل لم يقم له شبيه فى الأرض من يوم خلقها الله الى هذا الحين . وقد لجأ صلى الله عليه وسلم الى بناء أمة جديدة ، وأنجحه الله فيها ، مناقضة لجميع النواميس المعروفه عند البشر .

أما نحن وإن كنا نستهدى بهديه ، ونسترشد بسنته ، إلا أننا لا نملك مثل ما كان يواتى به من المدد الإلهى المعجز لتقوم الحجة على رسالته .

فالذى علينا اليوم نشر التعليم بين جميع الطبقات ، وإبطال مايمكن إبطاله من بدع المساجد والموالد والمآتم دون التعرض لما يبتنى عليه تصدع فى النفوس ، أو فى البناء الاقتصادى ، مع الميل بالتعليم الى جانب التكريه فى البدع ، والتشنيع على المنكرات ، فتنشأ أجيال متعاقبة تنفى عن نفسها خبث هذه الطامات تدريجا ، فلا تحدث صدمة لا فى العاطفة الدينية ولا فى البنية الاجتماعية ، ونصبح بفضل الله كما يريده الاسلام منا أمة هادية مهدية ، مثالا يحتذيه الناس أجمعون ، كما كان آباؤنا الأولون ؟

محمد فريد وجدى

معرض الاراء العالمية

فى الاسلام والمسلمين

مراكش تحتفظ بالتقاليد القديمة

جاء فى جريدة (الكرونيك) التى تصدر بالفرنسية فى دمشق ما يأتى :

« إن خلق المراكشى فى المحافظة على التقاليد يتبين فى العناية التى يبذلها لحفظ عادات الأسلاف فيما يتعلق على الأخص بملابس النساء .

« يعرف الناس أن الباشا التازى بفاس كان قد حظر على النساء المسلمات أن يخرجن لابسات الجلابية وهى من أزياء الرجال ، وأمرهن أن يحافظن على لبس الإزار التقليدى . وقد أخذ كثير من باشوات المدن الأخرى بهذه النصيحة فى المملكة الشريفية بقصد مكافحة المودة الجديدة التى تقلب العادات القديمة رأسا على عقب . من هنا يسهل تصور الانتقادات العنيفة التى تلقى بها الرأى العام الاسلامى ما حدث من عبد الخالق توريس زعيم حزب الاصلاح بتطوان الذى شوهد يتنقل حديثا فى أشهر شوارع المدينة ، مستصحبا امرأته فى زى أوربى سافرة الوجه . وكانت نتيجة هذه الجرأة من زعيم حزب الاصلاح أن تقدمت اليه استقالات كثيرة من الحزب ، يعلن فيها أصحابها أنه لا ترجى فائدة من حزب مراكشى يقضى بالاستسلام لجميع المودات التى تأتى من الخارج »

(مجلة الأزهر) : منى الذين يزجون بأنفسهم لقيادة أدوار النهوض فى الجماعات الاسلامية بداء العناية بالقشور ، فتراهم قبل أن يُعدوا مجتمعاتهم الرجلية لآداب أرفع مما هم متصفون به ، ومبادىء أقوم مما هم عليه ، ويمهدون البيئة لقبول انتقالات جديدة بافتراض أنها شروط ضرورية للنهوض ، يعمدون الى الظهور بالنهايات والدعوة اليها ، فيبادرون الى إخراج نسائهم حاسرات الوجوه ، عاريات السواعد والسيقان ، على النحو الذى كان يأنف الشرقى أن يسمح به لطفلة عمرها سنتان . ويغفل هؤلاء الزعماء الزائفون أن المرأة الغربية لم تنته الى هذا التعرى إلا بعد أدوار كثيرة أمضتها فى السفور ، لا طفرة على ما عليه الحال فى الشرق . من هنا يتبادر الى أذهان الناس أن الغرض من الجمجمة التى يقوم بها طلاب النهوض ، ليست إلا ستارا على مذهب إباحى ينشرونه على الرغم من الغيرة الفطرية فى الرجال ، والنخوة القومية العزيزة عليهم

فإذا كان هؤلاء الدعاة حكماء لجعلوا ديدنهم إصلاح النفوس ، وتقويم الأخلاق ، ومكافحة الخمر والقمار والفسق ، وهى أمهات جميع الرذائل ، والماحقة لكل ضروب الفضائل . فإذا

استدعى الحال بعد ذلك أن تدخل الأزياء النسوية فى أدوار من الانتقالات ، جاءت مناسبة لما عليه المجتمع من أخلاق ، وما تمرس به من آداب ، وكان ما يحدث مناسبا لما تتطلبه مصلحته الاجتماعية ، ومراعى فيه أصوله ومبادئه .

المتنطعون فى الدين :

كتب المسيو ميشل رينو بجريدة (لا فرانس ميليتير) الباريزية تحت هذا العنوان : كيف قابل الكولونيل بيلاندو الحاكم على قسم من صحراء مراكش فيها بلدة الموزاب موطن المتشددين فى الدين من مسلمى المغرب ، ثم قال :

« يعرف الناس هنا حياة الموزابيين العجيبة ، أتباع محمد ، وهم على ما يرجح من سلالة القرطاجيين القدماء . فقد أجمعوا أمرهم لأجل أن يقيموا طريقة القرآن ، ويترسموا تعاليمه على ما يفهمونها ، أن يهجروا السهول الساحلية الثرية منذ ألف سنة ، وكانوا يعيشون فيها سعداء ، والإصعاد الى هضبة جرداء كالكف ، فحفروا فيها الآبار العميقة ، وأنشأوا فيها من مواد مختلفة جمعوها من هنا وهنا ، سبع مدائن ، واستنبتوا فى هذه الأرض الصخرية حدائق من النخيل وهو ما يعتبر من عجائب موزاب .

« ولكن تلك الناحية لا تكفى لصغرها إقاتة ما فيها من السكان ، فاضطر عدد منهم للمهاجرة الى إقليمى الجزائر وقونسطنطين ليشتغلوا فيها بدالين وجزارين وتجارا للجوخ . وهم على جانب عظيم من الذكاء ، ويعتبرهم الكافة أمثلة فى الأمانة وفى حسن تصريفهم للأعمال .

« وقد حظرت الحكومة أن يحضروا معهم الى موطنهم الجديد نساءهم أو بناتهم أو أخواتهم ، ولا سبيل الى الاستثناء فى هذا الحظر ، لأنهم كثيرا ما سكنت جالياتهم مدينة الجزائر أو غيرها من المدن الساحلية والسهلية الفخمة ، وصرحوا بأنهم لن يعودوا الى معيشتهم الخشنة فى موطنهم الصغير ، ولكنهم على الرغم من هذا التأكيد عادوا كلهم اليه بعد أن بلغوا مناهم من الثراء »

« قلت : إن الموزابيين قوم أذكياء ، ونجاحهم فى التجارة يثبت ذلك ، ومع هذا تراهم ضحايا لعوائدهم الخاصة . فقد اتفق أنه عند وصولى الى موزاب كان الكولونيل بيلاندو فى حالة جدال عنيف معهم . أتدرى على أى شىء ؟ لأن السلطة العسكرية تريد أن تمد أسلاك النور الى تلك البقعة ، فلما عرض هذا القرار على رجال الدين والحكام عندهم رفضوه بالإجماع . فدهش الكولونيل بيلاندو من هذا الرفض ، ولما سألهم عن السبب أجابوه : نحن لا نريد الكهرباء فى دورنا لأن العمال الأوربيين أو الوطنيين الذين يكلفون إصلاح الأسلاك الممتدة على رءوس الساريات يمكنهم أن يلقوا بأنظارهم الى سطوح منازلنا ، وقد لا تخلو فى ساعات الحر من النهار أن يكون نساؤنا وبناتنا يمرحن هناك .

« روى الكولونيل موضوع هذا النزاع وهو يضحك ، ولكنه أمل أن يقنع محكوميه بالمزايا التى تجنيها مدينتهم من هذا التجديد .

« ثم قال لى : ولقد اشتد عجبى حينما رأيت أن عددا من المعارضين كانوا ممن تاجروا فى مدينتى الجزائر وقونسطنطين ، مدة سنين ، وأدركوا كنه مزايا الضوء الكهربائى فى محلاتهم التجارية » .

وختم الكاتب مقاله بتشبيه أهالى موزاب المغربية بطائفة البوريتان المسيحية .

(مجلة الأزهر) : إن الطائفة المسيحية التى شبه المسيو ميشيل رينو بها أهالى الموزاب ، نشأت فى انجلترة فى القرن السادس عشر حيث كانت قراءة الكتب المقدسة هى الشغل الشاغل للانجليز ، ومذهب هذه الطائفة هو العمل بأصول المسيحية بدون تأويل ، وهى تنحصر فى الزهادة والتقشف وعدم الدفاع عن النفس ومقابلة الشر بالخير ، والتشدد فى ذلك الى آخر حدود التشدد .

لسنا نوجه الكلام الى موريتان المسيحيين ، ولكنا نوجهه الى أهل موزاب المغربيين ، فنقول : إنهم إذا كانوا قد تخيلوا أن ما فعلوه بأنفسهم هو الاسلام الصحيح فقد خدعوا أنفسهم من حيث لا يعلمون . فالاسلام الصحيح يدعو أهله لأن يحيوا حياة صحيحة فاضلة ، لا بالتقشف والشظف ، ولا بحرمان النفس من مزايا الصنائع النافعة والفنون ، ولا بالهرب من مزدحم المجتمعات للعيش حيث لا تقع الأنظار ، ولا تحوم الظنون .

الاسلام لم يحرم على أهله متعة من متع الحياة ما دامت لا تفسد القلب ، ولا تلهى عن الحق ، ولا تدفع بالانسان الى رذيلة . وهم مأمورون أن يعيشوا فى مزدحم الجماعات ، ومضطرب الشئون ليظهروا الحق الذى وكل اليهم الدفاع عنه ونشره ، وإسقاط الباطل وتخليص العالم من شره . فللمسلمين مهمة عالمية لا يكمل إسلامهم إلا بتأديتها ، والاضطلاع بأعبائها .

فكل من هرب من مزدحم الأمم بحجة أنه هارب بدينه ، فمثله كمثل الهارب من ساحة الوغى ، فضلا عن أن ذلك يعتبر من أحط درجات حب الذات ، ومن أشد ضروب الاعتراف بالضعف .

فإذا لم يحصل الانسان من كفاحه للمنكرات ، ومكاوحته للآثام ، قوة نفسية يستقيم بها على الطريق رغما عن كل ما يحتوشه من عوامل الاغراء والتسويل ، فلا يكون قد جنى من حياته ما بُعث به اليها ليجنيه من صحة الرجولة ، وقوة الارادة ، وعزوف النفس عن الدنايا ، وترفعها عن السفاسف .

وإذا كان الاسلام مما يصح أن يهرب به أهله الى مجاهل الأرض ليستطيعوا أن يقيموه

فمن الذى كلف إذن أن يقـوم على نشره فى الأرض ، ويتحمل ضروب المجاهدات على هداية الناس إليه ؟

إن مذهبا كهذا ينافى أصول هذا الدين ويجافيها الى حد أن الآخذ به يكاد لا يعتبر من أهله لولا أنه يعترف بصحته .

والذى رأيناه بأعيننا أن الاسلام قد لقى من أمثال هذه الطائفة ممن زعموا أنهم صوفية وليسوا منهم فى شىء ، أشد مما لقيه من أعدائه ، فقد فهموه على غـير حقيقته ، وصرفوه الى غير وجهه ، ووقفوا به وليس من شأنه الوقوف ، وجمدوا حيث هم وليس من صفاته الجمود .

فى الاسلام من قوة التوثب والتطور ما ليس فى أى مذهب من مذاهب الاصلاح الاجتماعية ، فقد أثبت ذلك من دفع ذويه فى أدوار الانتقالات وثبا ، وغيرهم لا يقطعها إلا حبوا ، وأحيانا بعد فترات طويلة من الوقوف ، فيكون من أعجب العجائب أن يقف مجتمع إسلامى أجيالا حيث هو . والله لو كان هذا المجتمع مسلما حقا لما أمكنه هذا الوقوف ! ؟

الرأى الاسـلامى ومشروع واردا

الفكرة تخالف التقاليد الاسلامية

جاء فى جريدة بريطانيا العظمى والشرق تحت هذا العنوان ما ملخصه :

منذ منحت الأقاليم استقلالها الذاتى ، كان لآراء مستر غاندى عن التعليم ، تأثير ظاهر فى نظامه فى سبعة الأقاليم التى اشتركت فى المؤتمر .

ويقوم المشروع على أصلين : الأول أن يكون التعليم عن طريق العمل الانشائى ؛ والثانى أن يصيب التلميذ شيئا من الكسب المادى أثناء تعليمه .

وقد عينت جماعة المسلمين بالهند لجنة لفحصه يرأسها بيربور فاعترضت عليه . ثم ختمت الجريدة هذا الموضوع بقولها :

والنقد الصحيح لمشروع واردا هو مخالفته للافـكار الاسلامية ، فما دام يجب أن يعيش المسلم الى جانب الهندى فى بلاد واحدة ، فلا سبيل الى نجاح نظام التعليم إلا إذا كان أساسه التسامح والاحترام المتبادل .

والمشروع كما جاء فى التقرير يحاول فرض الأفـكار الهندية البحتة ، ولا يستبعد فقط تعليم الديانات التى تعتنقها الطوائف الهندية ، بل يحل محلها أفكار مستر غاندى الفلسفية .

محمد فريد وجدى

متى تسقط دعوى المدعى بالحق الشرعى

الخلاف على ذلك بين علماء الفقه الاسلامى

أسلفنا لقراء المجلة سلسلة من البحوث تتلاقى كلها مجتمعة فى نظام الوقف فى الاسلام ، واليوم نعرض لبيان المدة الطويلة التى لاتسمع بعدها الدعوى إذا ادعاها مدع فى مجلس القضاء ، وأقوال الفقهاء فى مدى تلك المدة وتعرضهم لتفصيلات لا يجد الباحث فى نظام الوقف الاسلامى عنها غناء :

فما لا مشاحة فيه أن خلافا نشب بين الفقهاء على تحديد المدة التى تسقط بعدها دعوى المدعى ، فقد روى العلامة ابن عابدين فى رسائله أن المدعى إذا ترك دعواه مدة طويلة من الزمن دون أن يدعيها فى مجلس القضاء ثم جاء الى المجلس بعد مضى هذه المدة وادعاها وأنكرها المدعى عليه ، فإن كان الحق المدنى إرثا أو وقفا منع القاضى من سماع الدعوى بأحدهما إذا مضى على المدعى دون أن يدعيها فى مجلس القضاء ثلاث وثلاثون سنة ، وإن كان المدعى شيئا آخر غيرهما منع القاضى من سماع الدعوى به إذا مضى عليها خمس عشرة سنة . وروى صاحب البحر أن بعض الفقهاء قدر لسماع الدعوى بارث مدة خمس عشرة سنة .

ومن الجلى أن تلك الحيطة تتخذ فى مصالح الناس والابقاء عليها سليمة قطعاً لكل شك يتطرق الى حكم القاضى فى صحته وبقائه نافذا محترماً .

من أجل ذلك كفلت قوانين المحاكم الشرعية فى مختلف أزمنتها التنصيص على هذه المدة حتى لائحة سنة ١٩٣١ وهى اللائحة التى يجرى عمل المحاكم الشرعية عليها ، فقد نصت المادة ٣٧٥ على ما يأتى : « القضاة ممنوعون من سماع الدعوى التى مضى عليها خمس عشرة سنة مع تمكن المدعى من رفعها وعدم العذر الشرعى له فى عدم إقامتها إلا فى الارث والوقف فإنه لا يمنع من سماعها إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة مع التمكن وعدم العذر الشرعى ، وهذا كله مع الانكار للحق فى تلك المدة اهـ » .

وبدهى أن القضاء يجرى على تلك المادة فى سائر مناحيه ، وأن عموم تلك المادة يشمل دعوى الاستحقاق فى الوقف لأول وهلة ، لكن كثيرا من حضرات القضاة فى دوائرهم جرى على أن دعوى الاستحقاق فى الوقف كدعوى الملك تسقط بمضى خمس عشرة سنة على المدعى دون أن يدعيها فى مجلس القضاء طيلة هذه المدة ، وليست ملحقة بدعوى الوقف ذاته حتى لا [illegible] بمضى ثلاث وثلاثين سنة .

بقى أن يتضح بجلاء مبدأ تلك المدة المضروبة لسماع الدعوى فى الارث وفى الوقف من جهة وفى غيرهما من جهة أخرى : فقد تواضع علماء الفقه الاسلامى وعلماء القانون المدنى على أن المدة تبتدىء من وقت ثبوت حق مطالبة المدعى وظهور واضع اليد على العين بمظهر المالك لها مقترنا ذلك المظهر بعدم قيام مانع شرعى يحول دون المدعى من إقامة دعواه كأن يكون أحد المتداعيين غائبا مسافة يتعذر على أحدهما معها مقاضاة الآخر ، أو يكون أحدهما مجنونا أو صبيا لاولى له ولا وصى ، أويكون الوقف شاغرا من النظر ، أو يكون المدعى عليه حاكما ذا شوكة مرهوب الجانب سريع الانتقام من خصومه ، وما الى ذلك من الأعذار القاهرة التى تحول دون دعوى المدعى فى خلال الأمد المضروب . وعلى كل حال فقد أفتى غير واحد من علماء الفروع بأن تقدير ذلك يفوض الى فطنة القاضى وقياسه .

وعلى الجملة فالأجل المضروب لسماع دعوى المدعى فى الوقف وفى الارث وفى غيرهما وسقوط الدعوى بمضى تلك المدة مسائل مما كشفت عنها عظات الماضى فاستبصر بها القضاء فى الحاضر ومنحها من تقديره أفضل قسط .

وقد فرع العلماء على تلك العوائق بفروع منها :

(١) أن المرأة لو مات عنها زوجها أو طلقها بعد أربعين سنة من وقت النكاح مثلا فلها حق المطالبة بمؤخر صداقها المؤجل الى أحد الأجلين لأن حق المطالبة إنما يثبت بعد الموت أو الطلاق فتبتدئ المدة الطويلة منهما ، وأن المستحق فى الوقف إذا كان لا يستحق إلا بعد وفاة أبيه مثلا فان المدة المانعة من سماع دعواه تبتدئ من تاريخ انتقال الاستحقاق اليه ولا تحتسب عليه المدة التى ترك أبوه فيها الدعوى ، ولا يعتبر المانع من سماع دعوى أبيه مانعا من سماع دعواه لأن الحق ينتقل اليه من الواقف مباشرة طبق شرط الوقف ولا ينتقل اليه من قبل أبيه ، بخلاف الارث فان ما يمنع سماع دعوى المورث يمنع سماع دعوى الوارث شرعا .

(٢) أنه إذا لم يظهر واضع اليد على العين بمظهر المالك لها كأن وضع يده مقراً بالاجارة أو الاعارة ، لا تسقط الدعوى عليه ولو طالت المدة ما طالت ، كما إذا أقر صريحا بالحق للمدعى ، لكن إن جحد الاقرار بذلك وأراد المدعى أن يبرهن على إقراره تسمع دعواه وتقبل بينته مالم يترك الدعوى من وقت الاقرار بالمدة الطويلة المسقطة لسماعها .

هذا وللبحث تفاصيل لا يتسع لها هذا المقال . فالى الغد القريب لاستيفاء الكلام عنه فى أعداد تالية .

عباس طه
المحامى الشرعى

نشيد الازهر فى الحرب

قد سار الأزهر ، فاحتفلى يامصر ، وسيرى للمجد
كم قاد رجالك من قبل ومضى بالعز وبالسعد
يختال بألوية النصر

أبطال الدنيا والدين أبطال ، عاشوا أحرارا
يقصيهم عن ورد الهون أسلاف ، عاشوا أطهارا
وأناروا الدنيا بالفكر

الأزهر تحويه الحرب فتخال العالم يرتج
أسد فى وثبتهم غلب فالهارب ليس له فج
ينجيه من الموت المر

اسمع أغنيتى : عطار واهدر كالجمل الصوال
إخوانك من حولك داروا فاضرب فى صدر الأبطال
وامنعهم من كمك العطرى

ضحيت لذا الوادى بدمى وسموت بوجهى لله !!!
أقضى بهما حق الذمم ومقام العبد الأواه
لا تقربنى ، سيفى سحرى

فاروق لقد عز الوطن يوم اخترناك لنا ملكا
نفديك وإن عز الثمن وننال بسعدك الفلكا
فلتحيي للشرق ومصر

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

الدين والعقل — برهان القرآن

صرف حضرة الاستاذ احمد حافظ هداية حياته فى وضع فهرست للقرآن الكريم يفوق جميع ما وضع منها حتى الآن ترتيبا وتوفية بالحاجة . وقد جاء فيه بالآيات الشريفة بنصها ، وأطلع عليه جمهورا من العلماء قبل طبعه فشهدوا له بالكفاية وسمحوا له بنشر تقاريظهم . فنشكر لحضرة المؤلف همته ، ونرجو لعمله إقبالا . وعنوانه بشارع المبدولى رقم ٣٤

أرجأنا مضطرين نقد وتقريظ ما لدينا من المؤلفات الى العدد القادم .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

أدوار الدعوة الاسلامية وما لقى أهلها فى سبيلها

ليس فى الشئون الاجتماعية ما هو أشد على المصلحين من تغيير عادة من عادات أمة برمتها ، فضلا عن تغيير عقيدة من عقائدها ، فما ظنك بتغيير كل ما يخالف الحق والعدل من عاداتها ، والعقلَ والحكمةَ من عقائدها فى سنين معدودة ؟ هـذا ما لا سبيل اليه فى نظر جميع الذين عالجوا الشئون الاجتماعية ، ودخلوا فى مضايقها ، وهو الذى قام به محمد بن عبد الله خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ، واعتبر بحق أدل آية على صحة رسالته . آية تتحطم حيالها كل ما يمكن أن يدلى به من الشبهات وهى راسخة رسوخ الجبال ، وتضمحل دونها ضروب الخلابات الكلامية وتتبخر فى الهواء ، وهى ماثلة أمام الأعين مثول الشمس فى رائعة النهار .

يقول شوبنهور الألمانى مؤسس المذهب التشاؤمى : « يخيل للجاهل أن كل حادث تعليله ميسور ولا تتراءى له وجوه الإعضال فيه » ، ويخيل للجاهل فيما نحن بصدده أن تعليل نجاح النبي فى الانقلاب الذى أحدثه فى الأمة العربية أمر ميسور ، ويحوم فكره حول الشبهات التى يتلقفها عن أعداء هذا الدين ، فيعزوه الى البيان الساحر الذى أذيعت به الدعوة الاسلامية ، ويغيب عنه أن سحر البيان أعجز من أن يهدم ما بنته الاجيال فى متطاول الأحقاب والقرون ؛ أو الى الإجبار والاكراه ، ويتناسى أنهما لا يكونان إلا بالقوى المسلحة ، وأين هى ممن لا ناصر له ولا معين ؟ فان قيل : كان له الناصرون والمعينون . قلنا : هذا وجه الحيرة ! فكيف حصل على عـدد عديد منهم بحيث تغلبوا على أمة بأسرها ؟ ثم نسأل : وكيف بقوا أقوياء مخلصين بعد ممات زعيمهم ولم يتفرقوا شذر بذر، كما هى السنة فى كل أمر لا يقوم على أساس من الحق ركين ؟

أشد ما ترامى الى هؤلاء القشريين من خصوم الاسلام ، أن العرب كانوا فى دور نهوض ، فلما أهاب بهم محمد الى العمل أجابوه منقادين ؛ ويغبَى هؤلاء المضللون عن أنه لو كان لأهل الجاهلية ميل الى الاجتماع والنهوض لما استنكروا ما جاءهم به النبي من النور المبين ، ولالتفوا حوله متساندين متكاتفين . ألم يبلغك أنه حين دعا النبي قريشا للدين وهى أرقى قبائل العرب إدراكا وبصرا بأعقاب الأمور ، ثار ثائرها ، وجن جنونها ، وطفقت تعارض الدعوة بكل وسيلة

تطوف بخيال الجاهليين : الاستهزاء ، الايذاء ، الاضطهاد ، المقاطعة ، حتى اضطر النفر الذين قبلوها للهجرة الى الحبشة مرتين ، واضطر من بقى للالتجاء الى شعبهم فى الجبل يتقون فيه مباغتة إخوانهم الأقربين ؟ وبعد أن بقيت الحال على هذه الوتيرة ثلاث عشرة سنة اضطر المسلمون للهرب من وجه المشركين الى المدينة ، وتبعهم النبى صلى الله عليه وسلم خفية ، وقد اضطر فى الطريق أن يلجأ الى غار يغص بالهوام والحشرات ، حتى استبعد متعقبوه أن يكون قد لجأ هو وصاحبه اليه ، لأن دخوله فوق مقدور الآدميين !

ثم ألم يبلغهم أن خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر فى المدينة ، وكان قد هدى الله أهلها للاسلام ، تتبعه فيها المشركون شانّين عليه حروبا طاحنة ، قاصدين اصطلام المؤمنين ، والفراغ من أمر هذا الدين ؟

فهل يعقل أن قبائل تميل الى التوحد والنهوض ، تناهض دعوة مثل الدعوة الاسلامية أساسها توحيد القلوب ، وتطهير العقول ، وترقية النفوس ، وجلب المصالح ، ودرء المفاسد ، والعيش على أكمل وأجمل ما يكون ؟

وهل لم يبلغ الخصوم أن قريشا ، وهى القبيلة التى كان يرجى أن تكون قد شعرت قبل غيرها بعوامل التوحد والنهوض ، قد بقيت محاربة للدعوة الاسلامية ، تؤلب عليها العرب وتجمع لها الجموع ، وتقصد بهم قاعدتها بيثرب لتبيد خضراءهم فيها ، حتى شارف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم أن يدعى الى الرفيق الأعلى ، ولولا أنه رأى وجوب فتح مكة عنوة لبقيت جرثومة الكفر فيها تثير على خلفائه الحروب ، وتنفر منهم القلوب ؟

فاذا كانت فى بلاد العرب قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم فكرة عن التوحد والنهوض ، أكانت تتخطى صميم العرب من قريش وخزاعة وتميم وهوازن الخ وتأوى الى قلوب أهل يثرب من قبيلتى الأوس والخزرج ، ولم يكونوا فى مكانة تسمح لهم بأن يحدّثوا أنفسهم بحركة من هذا القبيل ؟

وإذا كانت هذه الفكرة قد جالت فى رءوس بعض مفكريهم ، فماذا قالوا فيها من شعر نظيم ، أو نثر حكيم ؟ أكانت حركة بكماء لا تنبس بكلمة تدل على وجودها ، وقد تكلموا فى كل شىء حتى فى الفسوق والفجور ، ونقل عنهم فى حرص شديد ، ومبالغا فيه الى أقصى الحدود ، أفلا كانت تترامى من أحد خطبائهم أو شعرائهم كلمة فى هذا الموضوع الخطير ؟

لقد حرص نقلة اللغة ممن عاشروا أهلها فى البداوة على نقل كل كلمة من كلماتهم ، حتى الدالة على الهنات ، وأطنبوا فى ذكر بلاغة قائلها ، وتوسعوا فى سرد نسبه ، وتعداد مناقبه ؛ أفلم يعثروا على اسم شاعر دعاهم للوحدة أو خطيب أهاب بهم للنهوض وهى دعوة يملأ صداها المعمور ؟

الحق الذى لا مرية فيه أن بلاد العرب لم تقم فيها دعوة ترمى الى توحيد قبائلها ، وإصلاح

نفسيتها ، وتقويم ديانتها ، ولو كان لترامت إلينا أخبارها مكبرة مضخمة ، لأن هذه الحركة الاصلاحية لا يمكن أن تكون خفية ، فهي شعور تولده في الجماعات الحاجة ، وتهيئه العوامل ، تضطرب له أعصابها ، وتنفعل به أعضاؤها ، وتنشأ تحت تأثيره أخلاق جديدة ، ومرام بعيدة ، تدرك تطوراتها الشعوب البعيدة عنها ، فما ظنك بالقريبة منها ؟

أما وقد ثبت ذلك بكل دليل ، فان مصداقه من القرآن الكريم قول الله تعالى في كتابه : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا (أي حين نادينا موسى) ، ولكنْ رحمةً من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

كيف انتشر الاسلام في بيئة الجاهلية ؟

لو تصدى أحدنا أن يتخيل ما يمكن أن يعمله رسول أُمر أن يقوم بدعوة جديدة في وسط هذه البيئة الأمية المتشددة في جاهليتها ، لما وجد لذلك طريقا معقولا ، إلا ماسلكه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يدعو أولا أهل بيته ، فآمنت به امرأته خديجة بنت خويلد ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان في كفالته لضيق ذات يد والده ، وكان إذ ذاك قد ناهز سن الحلم ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان مولاه اشتراه ثم أعتقه وتبناه ، وأم أيمن حاضنته .

ثم رأى صلى الله عليه وسلم أن يدعو سرا من يعرف فيهم رجاحة العقل ، وسلامة الفطرة ، والنزوع الى الحق ، فشافه بالدعوة أبا بكر بن أبي قحافة ، وكان صديقا له ، فأسرع الى تصديقه ، لما يعلم فيه من الصدق والأمانة والاخلاص . وكان أبو بكر من عظماء قريش ورجالاتها المعدودين مالا وجاها وسخاء ، وكان محببا الى الناس مبجلا فيهم ، لذلك اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم وزيرا له ، يستشيره في جميع مالم ينزل فيه وحي .

فقام أبو بكر من ناحيته بدعوة من يثق بنضوج عقله ، وصحة منطقه ، فلبى دعوته رجال : منهم عثمان بن عفان ، وكان شابا لا يجاوز العشرين . فلما ترامى الى عمه الحكم بن عفان خبر إسلامه ، قبض عليه وأوثقه كتافا ، وآلى على نفسه أن لايحله حتى يرجع الى دين آبائه ، فتحمل عثمان هذا الاضطهاد بصبر وثبات . فلما رأى عمه تفانيه فيما هو فيه ، أطلقه .

ومنهم الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب ، فلما بلغ عمه خبر خروجه عن دين آبائه كان يعذبه بأن يغمره في الدخان المتصاعد من الحريق ، فلم يزده ذلك إلا تشبثا بما هو فيه على أنه لم يتجاوز سن الحلم .

ومنهم عبد عمرو بن عوف بن عبد عوف (وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمه فجعله عبد الرحمن بدل عبد عمرو) .

ومنهم سعد بن أبي وقاص ، وكانت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية ، فلما علمت بصبوئه

عن دين آبائه قالت له : بلغني أنك قد صبأت ، فوالله لا يظلني سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد ! فلم يثنه ذلك عن عزمه واستمر على ما هو عليه .

ومنهم طلحة بن عبيد الله ، وكان يسمع من أهل الكتاب أن نبيا سيرسل فى آخر الزمان ، فلما سمع دعوة أبى بكر بادر الى الاسلام .

وممن سبقوا الى الاسلام مسوقين اليه بدافع وجدانى ، صهيب ، وكان عبدا روميا ؛ وعمار ابن ياسر وأبوه وأمه سمية ، وعبدالله بن مسعود ، وكان راعيا للغنم ، فلما سمع بمبعث رسول الله اتبعه ولازمه ، فكان يمشى أمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلبسه نعليه إذا قام ؛ وأبوذر الغفارى ، وكان من أهل البداوة ، فصيح اللسان حلو الحديث ؛ وسعيد بن زيد العدوى وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر ؛ وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأبو سلمة بن عبد الله بن عمة رسول الله وزوجه أم سلمة ؛ وعثمان بن مظعون الجمحى وأخواه قدامة وعبد الله بن أبى الأرقم ؛ والأرقم ؛ وخالد بن سعيد بن العاص ، فغضب عليه أبوه ومنعه الغذاء ، فأوى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم بعده أخوه عمرو ابن سعيد .

حدث كل هذا والنبى مختف فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يدعو الى دينه سرا . ثم أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، فصعد على جبل يقال له الصفا وطفق ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ، لبطون قريش ، فكان الرجل إذا لم يستطع الخروج بنفسه ، أرسل من يأتى له بالخبر ؛ فلما اجتمع الناس قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقىّ ؟ » قالوا : نعم ما علمنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد »

فلم يرفع أحد بما قاله رأسا ، ولم يقم له وزنا ، وأغلظ بعضهم له القول ، ثم تولوا عنه مدبرين .

عند ذلك أنزل الله عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين (وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس) ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » فاستدعاهم رسول الله وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا » !

فكلمه القوم كلاما لينا إلا عمه أبا لهب فإنه أغلظ له القول ، وصاح بالناس أن خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذن ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فأجابه عمه

الثانى أبو طالب قائلا : والله لتمنعنه ما بقينا ! وقد بر بيمينه . وكان الجهر بالدعوة فى السنة الثالثة من النبوة .

عهد الاضطهاد وما لقى منه النبي والمسلمون :

لما أُمر صلى الله عليه وسلم باعلان الدعوة ، أخذ يغشى مجالس قومه ويدعوهم للاسلام ، ويبالغ لهم فى إظهار حجته ، ووجاهة محجته ، ويكثر لهم من الأدلة عن عوج طريقتهم ، وبطلان ديانتهم . فكانوا يقابلونه بالسَّخَر والاستهزاء ، كأن يقولوا : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، ولا يتجاوزون هذا الحد . ولكن لما أخذت الآيات تترى عليه فى تسفيه أحلامهم ، وتحقير آلهتهم ، وتضليل آبائهم ، تغير موقفهم حياله ، وانتقلوا من مجرد الاستهزاء الى ضروب من الايذاء ، وصنوف من الاضطهاد لا تطاق .

دخل عليهم النبي يوما المسجد الحرام فوجدهم يسجدون للأصنام ، فنهاهم عن ذلك ، وأنبهم على خروجهم على دين أبيهم ابراهيم . فأجابوه : إننا إنما نسجد لها لتقربنا الى الله . فبيّن لهم بان ذلك هو الشرك الذى لا يقبله الله منهم ، ونعى عليهم استرسالهم فيما هم فيه ، فأجمعوا على مخالفته ومنابذته ، كما يحكى الله ذلك فى قوله تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشئ عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليرتقوا فى الأسباب . جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إنْ كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَوَاق » .

وكان ما أجمع عليه المشركون معاكسة النبي صلى الله عليه وسلم بكل وسيلة ، ومحاربة دينه بكل حيلة . فصاروا يتحككون بالمسلمين ويحاولون حملهم على الرجوع الى دينهم بعد أن صاروا مسلمين . وكان أكثر الناس سعيا فى هذه السبيل أبو جهل وهو من أشراف قريش ، فكان إذا سمع بإسلام رجل نابه الذكر جليل القدر ، لامه وهدده قائلا : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنغلبن رأيك ، ولنضعن شرفك . وإن ترامى إليه إسلام تاجر ، قال له : لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وإن كان الذى أسلم مستضعفا أهانه وضربه .

وقد تفنن المشركون فى ضروب التعذيب حتى لم يدعوا وجها من وجوهه إلا أخذوا به حتى الايلام بالنار . فقد عذبوا بها عمار بن ياسر ، وعذبوا بها أيضا أباه وأخاه وأمه . فمات ياسر من أثر النار . وأخذ أبو جهل امرأته فعذبها ثم طعنها برمح فقتلها .

وقيل فى تفصيل هـذا التعذيب إن أبا جهل كان يلبس عمارا درعا من الحديد فى اليوم الصائف .

وممن عذب فى الله خباب بن الأرت ، وكان يحدّث عن نفسه فقال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدت لى نار ووضعوها على ظهرى فما أطفأها الاودَك ، أى دهنه .

وكان قد أسلم غير خباب عبيد كثيرون ، فكان مواليهم يذيقونهم عذاب الهون ، رجاء أن يصبأوا عن الاسلام فما كانوا يفعلون . وكان أبو بكر اذا مر بعبد يعذب فى الله ، اشتراه وأعتقه ، منهم بلال مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمامة أم بلال وبنتها ، وزُنَيرة .

فكان مولى بلال يخرجه إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يوما وليلة ، فيطرحه على ظهره فى الرمضاء : أى الرمل إذا اشتدت حرارته ، ثم يأمر بالصخرة الثقيلة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعود الى عبادة اللات والعزى !

أما زُنيرة وأخت عامر بن فهيرة ، فكانتا لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم ، فمر به أبو بكر وهو يعذبهما بالضرب فاشتراهما منه وأعتقهما . أما عامر بن فهيرة فكان يعذَّب حتى يخر مغشيا عليه ، فاشتراه أبو بكر كذلك وأعتقه .

وكان أبو فكيهة عبداً لصفوان بن أمية ، فأخرجه فى يوم شديد الحر مقيداً الى الرمضاء ، ووضع على بطنه حجرا حتى خرج لسانه وعم صفوان حاضر ، فكان يقول لابن أخيه : زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره . فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وأم عنبس كانت أمة لبنى زهرة ، وكان الأسود بن عبد يغوث قد تولى تعذيبها بأشد ما يستطيع قلب صلد أن يفعله ، فصادفه أبو بكر فاشتراها وأعتقها . واشترى كذلك ابنتها لطيفة وكانت تُسام أشد العذاب ، وأعتقها . واشترى لبينة جارية المؤمل بن حبيب ، وكانت تلاقى من سيدها أفظع ما يلقاه ضعيف من قوى .

وممن أوذى فى الله أبو بكر نفسه ، حتى أنه نوى أن يفر بدينه من وطنه ، فقصد الحبشة وسار حتى أتى برك الغماد ، وهو موضع يبعد عن مكة بخمس ليال ، فلقيه سيد قبيلة القارة ابن الدُغَنة فسأله عن وجهته ؟ فقال : أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد الله . فقال : مثلك لا ينبغى أن يخرج ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ؛ وصحبه ابن الدغنة حتى أتى قريشا وقال لهم : مثل أبى بكر لا يصح أن يخرج . فقبلت قريش جوار ابن الدغنة ، وشرطوا على أبى بكر أن لا يعلن صلاته ولا قراءته . فقبل منهم ذلك ، ولكنه ابتنى لنفسه مسجدا فى فناء داره ، فكان يجلس فيه ويقرأ القرآن ، وكانت تجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم معجبين به وبتقواه . فخشى المشركون

يفتنهم مايرونه فيه ، فارسلوا لابن الدغنة يشكونه اليه ، فحضر وقابل أبا بكر وقال له : إما أن تقتصر على ما اتفقنا عليه وإما أن ترجع الىّ ذمتى . فقال أبو بكر : إنى أرد عليك جوارك ، وأرضى بجوار الله ! فتقصده المشركون وألحقوا به من ضروب الاضطهاد مالا يصبر عليه إلا مثله

لجوء قريش الى المسالمة بعد يأسهم من تأثير الاضطهاد :

لما رأى المشركون أن ما صبوه على المسلمين من ضروب الأذى والاضطهاد لم يزدهم إلا تمسكا بدينهم ، وتعلقا بنبيهم ، اجتمع قادتهم وتشاوروا فيما يعملون . فأشار عليهم عتبة بن ربيعة العبشمى وكان سيدا مطاعا ، بأن يذهب الى محمد فيعرض عليه أمورا لعله يقبلها ويقلع عما هو ماض فيه . فقبلوا رأيه . فذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم فصادفه يصلى ؛ فلما أتم صلاته فاتحه الحديث وقال له : « يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها »

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال له الوليد : « يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ؛ وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِىٌّ من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى » .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد فرغت يا أبا الوليد » ؟

قال نعم .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : فاسمع منى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا

أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم . فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فانا بما أرسلتم به كافرون »

لما انتهى النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الحد ، أمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن قراءته .

فلما رجع عتبة الى قريش قال لهم : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، ولا بالسحر . يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه . فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم !

فقالوا له : لقد سحرك محمد !

فقال لهم : هذا رأيى ، وتركهم وشأنهم .

يتجلى من سفارة عتبة بن ربيعة الى النبى صلى الله عليه وسلم أمر ذو دلالة قوية فيما نحن بصدده : ذلك أنه فى كل ما قدمه من المغريات لخاتم المرسلين كان همه مصروفا الى شىء واحد وهو المحافظة على الحالة التى كانت قريش عليها ، فلو كانت هنالك حركة تطور لظهرت جلية فى كلامه ، بل لجعلها محور حواره ، ولما عاد الى قومه لم ينصحهم باتباعه ، بل لم يتبعه هو نفسه ، وكل ما أشار عليهم به أن يتركوه وشأنه ، فإما أن يكفيهم الناس أمره فيطمئنوا على عاداتهم ووثنياتهم ونظامهم الاجتماعى ، وإما أن تكثر أنصاره ويسود فيستفيدوا من علو شأنه باعتبار أنهم قومه وأقرباؤه ، وليس هذا شأن الجماعات التى نشأت فيها عوامل النهوض والتطور . وليتهم رضوا بهذه الحالة من الحياد التى دعاهم اليها عتبة ، ولكنهم رأوها مما لا تطاق حيال دعوة يوشك أن تثمر ثمراتها فتنقلهم مما جمدوا عليه آمادا طويلة ، ولا يبغون عنه حولا .

إن الذين يريدون الغض من تأثير الاسلام فى الأمة العربية لتقليل شأن الرسالة المحمدية ، يبذلون جهدا عظيما فى تمويه هذا التعليل ، ويفتتن بهم بعض المسلمين بقصد تمجيد الأمة العربية ، ولكن لا أولئك ولا هؤلاء يستطيعون أن يأتوا على ما يقولون بسلطان بين ، لا سيما وأن أدوار المشادة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين المشركين لم تقف عند هذا الحد ، كما ستراه فى المقالات التالية مما لا يدع مقالا لقائل ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى



تتمة تفسير سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

أسمعناك فى مقالنا السابق من دلائل الإلهية وآيات الربوبية ما ينشرح به الصدر ، ويتضح به الأمر ، على نهج ما تفنن فيه كبار الفلاسفة قديما وحديثا ، سالكين فى ذلك طريقة القرآن من الوضوح والبيان ؛ وسنسمعك اليوم ما يزيد به إيمانك ، ويتم به إيقانك ، إن شاء الله . ولا غرو فهو أجل المطالب وأعظم الرغائب ، فأقول وبالله التوفيق :

إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئا أو نظر الى شيء أحس بوجود الله عز وجل ، وكأن شيئا يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهد روحه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس فاعله الذى أثر فيه ، ومبدعه الذى تجلى بين خوافيه ، لأن الروح الانسانية لا تعقل أثرا بلا مؤثر ، ولا نظاما بلا منظم ، ولا حكمة بلا حكيم ، ولا سراً بلا عليم ، بل وجود الله عز وجل عند الانسان الذى لم تفسد إنسانيته من أول ما غرس فيه ، فهو أوضح بدهياته ، وأول أولياته ، متى أحس بروحه أحس به ، لأنه لا يعقل وجوده بنفسه ، فهو مقترن بوجوده ، والاحساس به ملازم للإحساس بنفسه ، ولا يمكن أن ينطفيء ذلك منه وإن كان يغفل عنه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس ، أقرب اليها من الاحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبى بالأجنبى ، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه ، ومع وجودها وجوده ، وفى أعماقها فيضه وجوده ، وفى أحداقها النظر اليه ، ومركوز فى طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه »

وسر ذلك أن طينتها معجونة بمعرفته واللجأ اليه ، والإحساس به مفاض عليها من نوره

بحيث يجعلها تذهل عن نفسها ولا تذهل عنه ، لحياتها فى الحقيقة بأنسه ، وفرحها ليس إلا بنور قدسه ، فـلا يمكن أن يفارقها إحساسه ، أو يزاولها إيناسه ، ولـكن الناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فبقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعـدهم منه ، فسبحان من يحول بين المرء وقلبه ، ويضع الحجاب بينه وبين ربه ، وهو أقرب اليـه من حبل الوريد . غاية الأمر أن الأوهام البشرية والخيالات الجسمانية التى لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تتصور غـير المـكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المتشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوفاتها ، وهى لا تعرف إلا ما كان محددا مقيدا ، وهو يعلو عن التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تـكيفه وهو لا يتـكيف ، وأن تقيده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لايتناهى ، فنفرر منها وبعد عنها ، فلم تقع عليـه ولم تصل اليه ، ونادى منادى العزة : إنك أيتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ سناه ، أو معرفة مداه ، فليس فيك صلاحيـة لذلك ، ولا خلقت قابلة لما هنالك ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما أن العين لا تدرك الهواء وهى واقفة مع رقتها على ماحد لها من درجتها ، كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ، ولا يعلو الى أفق الروحانيات ، ومحال عليه أن يعرف رب الأرض والسموات ، الذى جل عن الـكيفيات ، وعلا عن القياس وتنزه عن إدراك الحواس .

ولـكن فيك أيها الانسان عالما يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ، فيمكنه أن يستلمع شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك القهار ، ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بجمال تلك الإشراقات . وأما أنت أيتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد ، وليس لك من هـذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ، فقلدى الروح فيما توحيه اليك وتلقيه عليك ، فهى التى تعرف وتعترف ، وتسجد وتقترب ، فليعرف كل عالم من عوالمك قدره ، ولا يتجاوز طوره ، فان طلبت أن تعرف عوالمك السفلية فقد طلبت أن تحدده ، والمحدود لا يكون إلها للاشياء ، بل يـكون له مالها ، وعليه ما عليها ، وما هى إلا نزعة عباد الأصنام وأسراء الأوهام .

ولعمرى لو رجعت الى نفسك ، ولم تتقيد بمألوفات حسك ، لوجدتها أول البديهيات ، وأوضح الواضحات ، لا تحس بوجودك إلا أحسست بوجوده ، غـير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه بالتكييف ، والإله يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلها كما قلنا ، بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهى التى أمدتك بكل شىء ، وأفاضت عليك كل شىء ، ولست شيئا إلا بها بل ما أنت إلا هى ، ومع ذلك لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخروجها عن عالم التقييد والتكييف : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فـ[illegible] تطمع فى إدراك اللطيف القدوس الذى فوق كل شىء وما يماثله شىء ؟ جل أن تشـ[illegible]

الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » ، بل أنزل بك الى ما هو أقرب من هذا ، فإنه لا يمكنك أن تعرف عالم الجن فانك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك من الماديات التى بين يدك وتحت أمرك وتصرفك مالم تصل اليه ولم تعرف كنهه ، مثل الكهرباء والسر المودع فى المغناطيس ، الى غيرذلك من أسرار الطبيعة التىأودعها الله فى المادة ولم يعرفوا إلا ظواهرها لا حقائقها ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هى المادة وما حقيقتها ، الى آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التى خروا لها ساجدين ، وظلوا أمامها مبهوتين ، مع كونها من العالم الكثيف لا من العالم اللطيف ،ومن الماديات لا من الروحانيات ، فما أجدرنى أن أنشد قول الغزالى :

قل لمن يفهم عنى ما أقول   قصّر القول فذا شرح يطول
ثَم سر غامض من دونه   قصرت والله أعناق الفحول

هذا ، وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ، ومن ذاق نور الوجود الحق بوجدانه وأدرك الأمر من أصله فهو غنى عن البيان ، ومن وصل الى حد العيان فلا حاجة به الى البرهان . وعلى كل حال فنطاق التعبير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع الى نفسك تجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس ، وإذا عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شىء بعد ذلك أكثف من ذلك الوجدان ، ولا معنى لأن تطلب شيئا تجده فى نفسك وتحس به فى أعماق قلبك ، ومن كان فى أصل الشجرة فلا معنى لأن يستدل بأوراقها عليها ، بل يعرف أوراقها وغصونها وثمارها وخواصها التى هى ظلها ومستمدة منها ، ولا قوام لها إلا بها ، مما يشاهده عيانا ووجدانا من أصل تلك الشجرة التى يحس بها مغروسة فى نفسه وبين أعماق قلبه ، وإذا كان الشىء أقرب الأشياء إليك وأخذت تبحث عنه من بعيد ، كان ذلك سببا فى عدم وصولك إليه لا فى عثورك عليه .

ولا بأس أن نذكرك بما قلناه فى بعض ما كتبناه : إن الحمار إذا ضربه ضارب ، التفت لينظر الضارب ، لأنه لا يجوّز أن يوجد ضرب بلا ضارب . فمن أنكر وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر قدرته وبدائع حكمته ، فهو أجهل من الحمار ، الذى لا ينكر المؤثر مع وجود الآثار . وقد قال لى يوما بعض أذيال الماديين : بماذا تردون على الطبيعيين الذين لايقولون بشىء وراء المادة ؟ فقلت له : إن الرجل العامى المسلم يمكنه أن يفحم أساطين الماديين ، فضلا عن العلماء والفلاسفة من الموحدين ، فإن ما يشاهده ذلك العامى من حوادث الجن التى يعرفها حق المعرفة ، وقد شاهدها مرارا ، تخرق كل نواميس المادة التى يقدسها الماديون ولا يثبتون شيئا وراءها .

وقد جاء فى أحد أعداد المجلة الطبية الباريسية هذه العبارة : « ليست الفكرة الواحدة

إلا اتحادا يشبه اتحاد حمض « الفوسفوريك » والتفكر نفسه ناتج من الفسفور الذى هو فى تركيب المخ . فرد عليها العلامة الشهير « كاميل فلاماريون » قائلا : من أخبركم بذلك يا حضرات المحررين ؟ إن الناس يتوهمون أن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع أن الأمر بخلاف ذلك ، لأن هذه الادعاءات ليست أمام النظر العلمى إلا هباء منثورا . على أنى لا أدرى أى الأمرين يستحق أن يتعجب منه أكثر : أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجيبين للعلم ، أم من سخافة ادعاءاتهم ؟! إن نيوتن كان يقول : « يظهر لى » وديكرت كان يقول : إنى أستنزل حلمكم فى هذه الفروض . ولكن هؤلاء يقولون : نحن نثبت ، نحن ننكر ، هذا موجود ، هذا غير موجود ، العلم قد حكم ، العلم قد أقر ، العلم أدحض ، مع أنه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى . الى أن قال : إنكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ، ولئن ممعكم العلم أيها السادة لقد حق له أن يضحك استهزاء من غروركم ! الى آخر ما قال .

ولنختم كلمتنا هذه بقول الله عز وجل : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » . فانظر لنفسك وأشفق عليها ، فان الأمر والله جلل « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » . ولنقل من كل قلوبنا :

اللهم يا من ليس فى السماء من قطرات ، ولا فى الأرض من حبات ، ولا فى هبوب الريح من ولجات ، ولا فى قلوب الخلق من خطرات ، ولا فى أعضائهم من حركات ، ولا فى أعينهم من لحظات ، إلا وهى لك شاهدات ، وعليك دالات ، وبربوبيتك معترفات ، وفى قدرتك متحيرات . فأسألك يا ألله بالقدرة التى تحير بها من فى الأرض والسموات ، أن تملأ قلوبنا يقينا ، وأن ترزقنا حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنا الى حبك ، وأن لا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنك وكرمك ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء



الوحى

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ فيَفصمُ عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيَفصمُ عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا » . رواه البخارى :

رأينا من الحسن أن نقصر كتابتنا فى مجلة الأزهر على شرح أحاديث البخارى الهامة فى كل باب من أبوابه ، لينتفع به طلاب العلم وغيرهم من قراء المجلة ، ورأينا أن نبدأ بهذا الحديث من أحاديث الوحى ، والله المستعان :

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الوحى وبيان أقسامه (٢) كيف يتمثل الملك فى صورة رجل ؟ وهل الملك مادى أو مجرد عن المادة ؟ (٣) شرح باقى ألفاظ الحديث .

(١) يطلق الوحى فى اللغة على عدة معان ، منها الرسالة ، فيقال : أوحى اليه وحيا بمعنى أرسل اليه برسالة . ويطلق أيضا على الإلهام وعلى الكلام الخفى ، فيقال : أوحى اليه : بعثه وألهمه .

وأما الوحى فى اصطلاح الشرعيين فيطلق على أمور أيضا ، أحدها : أن يلهم الله رسله ما يشاء من أحكام وغيرها ، بمعنى أن يلقنهم إياها على وجه لا يحتمل الخطأ .

ثانيها : الرؤيا فى المنام ، فاذا أمر الرسول فى نومه بأمر من قِبل الله عز وجل ، أو نهى عن أمر أو أخبر بخبر ، فانه يكون وحيا صادقا لا شك فيه . ومن ذلك ما رآه إبراهيم فى نومه من ذبح ولده إسماعيل ، وما روى من أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح . ويعلل الفلاسفة ذلك بأن الروح الانسانية التى تدرك وتدبر الانسان مجردة عن المواد الحيوانية ، فهى أمر معنوى ، ومتعلقة بالانسان تعلقا معنويا لتدبره وتتصرف

فى أموره ، ومن شأن المجرد الاطلاع على الأمور الغيبية ، ولكن اشتغال الروح حال اليقظة بتدبير البدن يحول بينها وبين الاطلاع على الغيب ، فاذا نام الانسان وانصرفت عن تدبيره ، واتصلت بالملأ الأعلى كما هو شأنها : فاذا كانت صافية غير ملوثة بالشهوات الفاسدة كان إدراكها للغيب كاملا ، وكانت الصور التى تدركها هى بعينها التى ستقع بدون تغيير ما ، كما هو الحال فى الأنبياء والرسل وأتباعهم الصالحين ، أما إذا كانت الروح ملوثة بالشهوات الفاسدة واللذات المحرمة ، فان صفاءها يتغير بهذه الشهوات ، ويكون مثلها كمثل المرآة التى يعلوها الصدأ فلا تنطبع فيها الصور على وجه صحيح ، كما هو الحال فى غير الأنبياء والصالحين . وهذا تعليل حسن معقول ، وقد أقره صاحب الفتوحات المكية فى مبحث الرؤيا ، وأبان فيها الفرق بين الرؤيا بهذا المعنى ، والرؤيا بمعنى طرد الصور المخزونة فى الدماغ ، وهى التى تدرك بالحواس فى حال اليقظة وإذا نام الانسان تمثلت له فى صورة مختلفة . فالرؤيا تارة تكون متعلقة بأمر قد وقع قبل النوم وبقيت صورته فى الدماغ ، وتارة تكون متعلقة بأمر لم يقع أصلا .

ثالثها : أن يكلم الله الرسل من وراء حجاب ، كما وقع لموسى صلوات الله عليه . وقد اتفق علماء التوحيد على أن الله سبحانه منزه عن المكان والجهة ، وعلى أنه تعالى منزه عن الكلام اللفظى المشتمل على الحروف والأصوات ، وعلى أنه تعالى لا تدركه الأبصار . فإذا كان المراد بتكليم موسى أن الله كلمه بكلام مؤلف من حروف وألفاظ تنقضى بمجرد النطق بها ، فلا نزاع فى أن معنى هذا أن الله خلق له الكلام وخلق فيه إدراك معناه . وإذا كان المراد أنه خلق فيه قوة لإدراك كلامه القديم ، فذلك مما لا فائدة له ولا معنى له فى هذا المقام ، لأن المقام مقام تكليف برسالة تبلغ للناس ، وكلام الله القديم على تسليم أنه صفة حقيقية قائمة بذاته منزه عن الحروف والأصوات ، ولا ضرورة لتكليف موسى بالاطلاع عليه فى هذه الحالة . فلا بد من الرجوع الى المعنى الأول وهو أن الله خلق له الكلام وأفهمه إياه بالوسائل التى أرادها سبحانه .

رابعها : أن يرسل الله تعالى ملكا الى أنبيائه ليبلغهم ما يشاء ، وهذا هو الغالب كما صرحت به الأحاديث الصحيحة الأخرى .

(٢) وإليك بيان ما قيل فى معنى الملائكة : اتفق المسلمون وغيرهم من أهل الكتاب على أن لله ملائكة ، ولكنهم اختلفوا فى بيان معنى الملك ، وجمهور علماء الكلام والحديث يقولون إن الملائكة مخلوقة من مادة . أما فلاسفة الاسلام فانهم يقولون إنها مجردة عن المادة ، وسواء أكانت مادية أم مجردة عن المادة ، فقد اتفقوا على أن لها قدرة على التشكل فى صور مختلفة . وقد عرفها المتكلمون والمحدثون بأنها أجسام هوائية لطيفة تقدر على التشكل بأشكال

مختلفة . وبعضهم عرفها بأنها أجسام نورانية تقدر على التشكل . ولعلهم يريدون أنها مخلوقة من مادة الهواء ولكن قد جملهم الله فجعلهم كالنور . أما فلاسفة الاسلام فإنهم يقولون إنها مجردة عن المادة كالروح الانسانية ، ولكنهم يقولون إن الله تعالى يلبس كل ملك الصورة التى يريدها ، ومن ذلك قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » .

وبيان ذلك : أن الفلاسفة يقولون إن العالم منه ماهو مجرد عن المادة ، ومنه ماهو مادى ، وليس من المعقول إنكار المجردات عن المادة مع كون الانسان نفسه مشتملا على كثير من الأمور المعنوية الوجودية المجردة عن المادة . وكيف تنكر المجردات مع كون الالفاظ التى ينطق بها الانسان لها معان ثابتة وهى مجردة عن المادة ، وكذلك الحب والغضب والفرح ونحو ذلك من الأمور التى يترتب عليها آثار ظاهرة مع كونها أمورا معنوية صرفة لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقتها . وإذا ثبت أن بين الممكنات المحسة أمورا معنوية لا يمكن لأحد أن يدرك ماهيتها ولا يحكم عليها بالتحيز فى المكان ونحوه مما تستلزمه المادة ، فلا معنى للحكم بأن كل شىء مادى . ولهذا ذهب بعض فلاسفة الاسلام (ومنهم الامام الغزالى) فقالوا : إن الروح الانسانية مجردة عن المادة ، وإنها متعلقة بالبدن تعلقا معنويا كتعلق العاشق بمعشوقه ، فكما أن علاقة العشق أمر معنوى لا يمكن لأحد أن يدرك حقيقتها فكذلك الروح الانسانية التى بها الإدراك الكلى مجردة عن المادة ، ومثلها الملائكة . وهو الظاهر المعقول الذى يؤيده ظاهر القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ، وهذه الإجابة تدل دلالة واضحة على أن الروح ليست مادية ، لأنها لو كانت كذلك لأوحى الله الى نبيه معناها المادى خصوصا فى مقام التحدى ، لأنهم كانوا يريدون أن يتحدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا السؤال ، ولذا قال بعد هذا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فهو سبحانه خاطب السائلين من أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين بانهم عاجزون عن إدراك حقيقة الروح وغيرها من الأمور المعنوية التى خلقها الله تعالى ، بل هم عاجزون عن إدراك حقائق الأمور المادية كذلك ، لأن الانسان عاجز عن العلم بحقائق الأمور البسيطة التى يعجز عن تحليلها ، وكل ما يستطيع هو معرفة أجزاء المركبات من عناصر مختلفة ، حتى إذا انتهى الى أجزائها التى لا يمكن تحليلها وقف عند هذا الحد من العلم . وقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يجعل للنوع الانسانى حاجة الى معرفة حقائق الأشياء ، بل جعل حاجته الى خواصها ومزاياها . فالانسان من حيث هو إنسان ليس فى استعداده إدراك حقيقة المجردات مطلقا ، وليس فى استعداده إدراك حقيقة الأجزاء التى ينتهى اليها تحليل المركبات المادية ، وكل ما يمكن أن يعلمه الانسان إنما هو خصائص هذه المركبات ومزاياها التى ينتفع بها النوع الانسانى .

ومن هذا تعلم أن العالم الممكن منه ما هو مادى ومنه ما هو مجرد عن المادة ، والملائكة من المجردات ، ولها قدرة على التشكل بأشكال مختلفة . هذا هو رأى فلاسفة الاسلام .

أما المتكلمون والمحدثون فقد أنكروا المجردات عن المادة بتاتا وقالوا : إن المنزه عن المادة وعلائقها هو الله وحده ، ومع ذلك فقد قالوا إن الملائكة مع كونهم ماديين مخلوقين من الهواء فإن لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة .

ولكن الفلاسفة الذين يقولون إن الملائكة مجردون عن المادة ، يقولون إن تعريف الملائكة بأنهم أجسام هوائية لطيفة يرد عليه أمران :

(أحدهما) أن الجسم اللطيف لا يقدر على الأفعال الشاقة ، بل هو يتلاشى بأقل قوة وبأدنى سبب يصل اليه من الخارج ، وهذالا يتفق مع ما ورد من أن الملائكة لها قوة وبطش لا حد لهما بالنسبة لجميع الأجسام المخلوقة . والجواب : أن القوة والبطش وشدة البأس لا تتنافى مع الدقة واللطافة ، لأن الله تعالى قادر على أن يمنح اللطيف قوة عظيمة لا يوجد عشر معشارها فى الأجسام الضخمة . وذلك مشاهد محس فى كثير من الأجسام ، فإن الانسان الرقيق القوام قد يأتى بأفعال شاقة عظيمة يعجز عن القيام بها ذوو الأجسام الضخمة ، فانه قادر على أن يفتل الحديد ويكسر الحجر ويتسلط بقوته على صاحب الجسم الضخم ، بل نرى كثيرا من الحيوانات الرقيقة القوام لها قوة تفتك بكثير من الحيوانات الضخمة . وهذا هو الأسد الصغير يمكنه أن يفتك بالجمل الغليظ ، وبالحمار الضخم وغيرهما من الحيوانات . فالقوة لا تتبع الأجسام ولكنها فى الواقع مستندة الى إرادة الإله القادر الذى يفعل ما يشاء . وهذا الجواب حسن .

(ثانيهما) أن يقال : ما فائدة تشكل الملائكة بأجسام قابلة للتأثر بما يتأثر به الجسم الانسانى مع كون الوحى لا يستلزم هذا التشكل كما عرفت مما ذكرناه لك فى معنى الوحى ؟ وقد يجاب عن هذا بأن تشكل الملك بشكل الانسان لكون طبيعة الانسان لا تأنس عادة إلا الى نوعه . فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا قد يتصلون بربهم بدون واسطة ملك يتمثل فى صورة الانسان ، ولكن مجىء الوحى فى صورة إنسان يستلزم زيادة أنس واطمئنان للرسول ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : إن أحسن الأحوال عنده هى الحالة التى كان يأتيه الوحى فيها فى صورة دحية الكلبى ، وهى صورة رجل جميل من أصحابه . وذلك لأن طبيعة الانسان مهما كان حاله من القرب بربه أكثر ميلا وأشد اطمئنانا الى تلقى الأوامر الالهية من إنسان مثله . على أن سنة الله فى خلقه قد اقتضت أن تكون أوامره ونواهيه بواسطة رسل من النوع الانسانى غالبا ليقطع على المنكرين حجتهم ، ويسد عليهم باب العناد فى طلبهم الاتصال بالإله مباشرة ، فكأنه سبحانه يقول لهم : إن هذا الرسول مع كونه من المقربين الىّ بشر مثلكم ، ولا يمكن أن أرسل اليه ملكا على الهيئة التى خلقته عليها ، لأن الانسان من حيث

هـو إنسان عاجـز عن إدراك حقيقة الملك ، وعاجز عن التفاهم معه ، كما لا يمـكن لبشر أن يتصل بى اتصالا مباشرا وهـو على حالته المادية التى تحول بينه وبين المنزه عن جميع المواد وتحجبه عن إدراكه ؛ وبذلك يرد عليهم طلبهم الذى طلبوه عنادا . ولهـذا قال تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبَسنا عليهم ما يلبِسون » . وذلك لأن المشركين اقترحوا أن يرسل الله مع محمد ملـكا يبلغهم ، أو يأتيهم ملك بدون محمد ليبلغهم رسالة ربهم ، فرد الله عليهم ذلك بقوله « ولو جعلناه ملـكا » الخ .

هـذا هو اعتقاد علماء المسلمين وفلاسفتهم ، وهو لا ينافى القول بأن الأرواح مجردة عن المادة ، لأن المسلمين الذين يقولون بتجردها عن المادة يقولون إنه لا مانع من أن هذا المجرد يتعلق بمادة ذات صورة من الصور المألوفة للرسول .

أما الفلاسفة الذين ينكرون تعلق المجردات القائمة بنفسها بمادة تتشكل فيها بأشكال مختلفة فان قواعـدهم لا تأبى أن تكون الملائـكة أرواحا مجردة عن المادة ، ولـكنهم ينكرون نزول الوحى فى صورة إنسان أو غيرها من الصور . وهذا الانـكار ليس مبنيا على استحالة عقلية ، بل كل ما قالوه فى هذا المقام أن تشكل الملك فى صورة إنسان أو فى صورة شىء له طنين كطنين الجـرس ، يرفع الثقة بالوحى لجواز أن يكون الملك نحلة تطن أو يكون إنسانا آخـر غير ملك . ولـكن هـذا الـكلام صادر عن غفلة بمقام الرسول ، وجهل بالشرط الأساسى الذى تنبنى عليه الرسالة ، وهو أن الرسول معصوم عن الخطأ فى فهم جميع ما يأتيه من عند الله ، فمحال أن يشكل على الرسول أمر الملك ، ومحال أن يأتيه رجل آخر فى صورة دحية أو غيره ويبلغه عن ربه كذبا . ومن هـذا يتضح أن الملك سواء كان مجردا عن المادة أو كان ماديا فانه لا يأتى الرسول غالبا فى صورته الحقيقية ، وقـد عرفت أنه لا مانع من أن يلبس صورة بشر أو غـيرها من الصور التى يريدها الله تعـالى . والظاهر المعقول يؤيد فلاسفة الاسـلام القائلين إن الملائـكة مجردون عن المادة والله تعالى يلبسهم الصور التى يريدها .

أما الذين ينكرون وجود الملائـكة رأسا فهم مارقون من الدين الاسلامى وغيره من الأديان التى لها كتاب ، وذلك يدل على أنهم قريبون من الماديين الذين ينكرون الإله وينكرون كل معنى من المعانى الغيبية ، فهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، وبذلك يهدمون قواعد الأديان : من وجود إله ، ووجود يوم القيامة ، وغير ذلك . وهذا جهل وسخافة ، فإن كثيرا من الأمور المادية التى لم تكن مألوفة فى زمن من الأزمان وكان الإخبار بوجودها يكاد يكون مستحيلا عند أمثال هؤلاء ، قـد أصبحت أمورا عادية يدركها الصغير والـكبير ، كاللاسلـكى ، فإننا قبل وجوده ما كنا نـكاد نصدق بأن شخصا يتـكلم وراء البحار بكلمة فنسمعها بمجرد أن ينطق بها ، وغير ذلك من الأمور التى جاء بها العلم ، فهى تدل على أن الله تعالى قد أودع فى هذا

العالم من الأسرار والحكم ما لا يحصيه إلا هو ، سبحانه وتعالى ، كما قال : « ويخلق ما لا تعلمون » .

(٣) أما شرح باقى ألفاظ الحديث فإن معنى قوله : « كيف يأتيك الوحى » يحتمل أن يكون المراد به السؤال عن معنى الوحى الذى بيناه آنفا ، فكأن السائل يقول له : ما معنى الوحى ؟ وقد عرفت أنه يطلق على الإلهام ، وعلى الرؤيا الصالحة ، وعلى تكليم الله الرسل من وراء حجاب ، وعلى ما يجىء به الملك من أوامر ونواه وغيرها الى الرسل . ويحتمل أن يكون المراد به السؤال عن صفة حامل الوحى نفسه وهو جبريل ، فكأنه يقول : ما صفة الملك الذى يأتيك بالوحى ؟ ويحتمل أن يكون المراد به السؤال عن الأمرين معا . وقد تضمنت إجابة النبى صلى الله عليه وسلم بيان الأمرين ، فقد بيّن له صفة الملك الذى يأتيه بأمر الله ونهيه وخبره ، واقتصر عليه لأنه هو الغالب الذى نزل به القرآن ، أما بقية أحوال الوحى من رؤيا وتكليم الله بلا واسطة فإنه قليل .

ومعنى صلصلة الجرس : صوت الجرس . والحكمة فى ذلك واضحة ، وهو تنبيه الرسول الى ما سيلقى عليه من قول الله عز وجل . وقد يوضح معنى هذا : الأجراس (الكهربائية) الموجودة فى زماننا . ولا خفاء عندى فى جوازها ، أما النهى عن استعمالها فهو مختص بما له نغم يستعمل فى الملاهى وإثارة الشهوات . ولا أدرى كيف ينهى عن استعمال الأجراس المفيدة للتنبيه المترتب عليه كثير من المنافع الهامة المشروعة مع كون قواعد الدين الاسلامى مبنية على جلب المصالح دائما ، ومع كون النبى صلى الله عليه وسلم قد صرح بأن الوحى نفسه كان يأتيه على هذه الحالة ؟

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وهو أشده علىّ » : يفيد أنه كان يجد صعوبة فى تلقى الوحى على أى حال ، ولكن هذا الحال أشد عليه من غيرها . وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس خشية من الله عز وجل ، وأشدهم خوفا منه تعالى ، وأعلمهم بقدرته وبطشه بالكافرين ، فكان عند مجىء الوحى تتمثل له عظمة الإله القادر القاهر ، فيشتد خوفه من الله ، ويتأثر لمعانى القرآن على الوجه الأكمل ، خصوصا أنه كان حذرا على قومه من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم التى قبلهم من الهلاك والدمار فيضطرب فؤاده ، ولكن الله يثبته بقدرته فيحفظ ما يلقى عليه . على أن الظاهر أنه فى هذه الحالة كان يأتيه الملك (جبريل) وهو على حالته الروحية ، وقد جرت العادة أن النوع الانسانى تغلب عليه البشرية حال اليقظة فيجد صعوبة فى التفاهم مع الروحى .

وقول عائشة : « فيفصم عنه » معناه : ينفصل عنه ويفارقه . وقولها : « ليتفصد عرقا » معناه : يسيل عرقا كثيرا كالدم الذى يسيل بسبب الفصد ؟

عبد الرحمن الجزيرى

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٨ —

على بن أبى طالب

لم تلق شخصية من شخصيات التاريخ الاسلامى من المحن والابتلاء فى حياتها العملية الاجتماعية مثل مالقيته شخصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد خرجت من هذا الامتحان المرير أنبل ما تكون علما وفقها ، ورجولة ، وشجاعة فى الحق ، واستمساكا بالدين والتقى ، وإعراضا عن زخرف الحياة وزبرجها ، ولو شاءها لزويت بين يديه وكان له منها أوفر حظ وأوفى نصيب .

كانت فتنة المروانيين فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه فتنة هوجاء ، عميت مسالكها وغامت آفاقها ، فلم يعرف لها التاريخ صدرا ولا وردا ، وكانت الى ذلك أعظم البلايا التى أصابت كيان المجتمع الاسلامى الفتى فعصفت بدعائمه القوية ، وفصمت وشائجه ، وعبثت برجالات الأمة فساطتهم سوط القدر حتى عاد أسفلهم أعلاهم وأعلاهم أسفلهم، فلم يسلم من شرها عظيم ، ولا نجا من هولها حقير ، خاض لها قوم سراب الأمانى خوضا ، ومرجوا فى خلالها مرجا ، أخذت بحلاقيم القادة من عظماء المؤمنين ، ودفعت بهم الى صدر القناة تنزف من صدورهم دماء الأسى والحسرة ، فلا يكادون يجدون سميعا الصوت النبرى يخرج من أعماق أفئدتهم حتى يغشاهم صائح التهمة ينعق بهم ، وفى غمار هذه القواصم تزاحف الرعاع والغوغاء من أطراف الأرض الى عش الاسلام يفتكون بالحرمات فتك الذئاب الجائعة بالحملان الضالة ، حتى تجمعوا حول دار الخلافة وفيها ثالث الراشدين أمير المؤمنين ذو النورين عثمان بن عفان ، من لا تجهل سابقته ولا يجحد فضله ، فحاصروه ومنعوه الطعام والشراب ، فحاججهم وناشدهم الله والقربى وحاكمهم الى الحق والدين ، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانا انتهى بقاصمة الظهر وفاقرة الاسلام ، وقتل الخليفة صابرا محتسبا ، والدين لا يزال غضا ، ومعالم النبوة قائمة ، ومنازل الوحى آهلة عامرة بالجلة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم !

إننا إذا نظرنا للأمر نظرة تاريخيـة صافية من كدورات العصبية العمياء لنستخرج منه العبرة الزاجرة والأسوة الصالحة ، ووضعنا الأمور فى أوضاعها ، ورددنا النتائج الى مقدماتها لنتعرف الحقيقة فى ذاتها ، تجلى لنا موقف علىّ كرم الله وجهه فى هـذه الفتنة الجائحة نقيا خالصا من شوائب الهوى ، وتجلى لنا الى جانب ذلك نفاذ بصيرته ، وصلابته فى الحق ، وعرفانه

بطبائع المجتمع الذى عاش فيه ، ولكنه لم يصدر فى جميع أعماله إلا عن وازع الدين وخشية الله ، وهذا مصداق فراسة عمر بن الخطاب يوم كلم رهط الشورى فكان من قوله لعلىّ عليه السلام : « أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء » !

لقد كان علىّ رضى الله عنه رأس المسلمين ، ترمقه الأنظار وتهفو اليه القلوب ، فاذا جد الجد وحزبت الناس شدائد الأحداث تطلعوا اليه وصغوا الى رأيه ، فكان من الطبعى أن تجعله الأمة قطب الرحى فى هذه الأزمة الآزمة ، يدور حوله من كان صغوه اليه فى طمأنينة ورضا ، ويطيف به الآخرون يحصون عليه أنفاسه ويرقبون حركاته وسكناته ، فرقا من سطوته أن تبطش بأهوائهم ، ومن هنا كانت مغاليق التاريخ فى ذلك العهد ، وكانت ثائرات التهم الباطلة حول الأكابر من رجالات الاسلام ، وكان هذا التناقض الذى نراه فى كتب التاريخ . وكان أكبر معوان على استشراء الفساد تلك العناصر الجديدة التى دخلت فى تأليف المجتمع الاسلامى من غوغاء الأمم وذؤبان العرب ممن لم تخالط بشاشة الايمان قلوبهم ، وهم الذين تولوا كبر الفتنة وسفكوا الدم الحرام ، وفتحوا على الأمة أبوابا من الشر والبلاء لا تستطيع لها سدا .

إن التاريخ ليحمل فى ثناياه شواهد الصدق على أن عليا كرم الله وجهه لم يأل جهدا فى النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وقد بذل نفسه وفلذة كبده فى سبيل الذود عن حوزة الاسلام وخلافته فى شخص عثمان رضى الله عنه ، ولكن شيطان الفتنة الذى تقمص مروان بن الحكم كان يفسد عليه كل تدبير ورأى يعصم الأمة من التردى الى هاوية الفرقة والاختلاف .

يقول الواقدى : « لما أجلب الناس على عثمان وكثرت القالة ، خرج ناس من مصر فى ألفين عليهم أبو حرب الغافقى ، وخرج ناس من الكوفة فى ألفين منهم زيد بن صوحان العبدى ومالك الأشتر النخعى ، وخرج ناس من أهل البصرة عليهم حرقوص بن زهير السعدى ، وأظهروا جميعا أنهم يريدون الحج ، فلما كانوا من المدينة على ثلاث تقدم أهل البصرة فنزلوا ذا خشب ، وكان هواهم فى طلحة ؛ وتقدم أهل الكوفة فنزلوا الأعوص ، وكان هواهم فى الزبير ؛ وجاء أهل مصر فنزلوا المروة ، وكان هواهم فى علىّ ؛ ودخل ناس منهم الى المدينة يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان ، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار ، ولقوا أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنما نريد الحج ونستعفى من عمالنا ، ثم لقى جماعة من المصريين عليا وهو متقلد سيفه عند أحجار الزيت فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم ، فصاح بهم وطردهم وقال : « لقد علم الصالحون أن جيش ذى المروة وذى خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ! » فانصرفوا عنه ، وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك ، وأتى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك ، فتفرقوا وخرجوا عن المدينة الى أصحابهم ، حتى اذا أمن

أهل المدينة منهم واطمأنوا الى رجوعهم ، لم يشعروا إلا والتكبير فى نواحى المدينة وقد نزلوها ، وأحاطوا بعثمان ، ونادى مناديهم : يأهل المدينة من كف يده عن الحرب فهو آمن . فحصروه فى منزله ، إلا أنهم لم يمنعوا الناس من كلامه ولقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين وسألوهم ما شأنهم ؟ فقالوا : لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلنا لنولى غيره ، لم يزيدوهم على ذلك »

هذه الرواية تدلنا على أن هؤلاء الذين قدموا الى المدينة من الأمصار الثلاثة الكبرى متظاهرين بالحج ، كانوا على اتفاق وتدبير سابق للثورة على خلافة عثمان رضى الله عنه ؛ وتدلنا الرواية أيضا على أن رءوس الصحابة وفى طليعتهم على كرم الله وجهه لم يكونوا على شىء من علم ما دبر هؤلاء وائتمروا به ، وأنهم إذ علموا غضبوا أشد الغضب ولم يرضوا عن مسلكهم ، وزبرهم على رضى الله عنه ولم يشعرهم بمسكة من هوادة فى أمرهم ، وروى فى شأنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم أشد ما ينفر الناس عنهم وعن الاحتطاب فى حبلهم ، وأن الثائرين لما لم يجدوا من المهاجرين نصيرا دبروا أمرهم وبيتوا المدينة بعد أن خدعوا الناس برجوعهم ، وحصروا الخليفة فى منزله ، فلما سألهم رؤساء المهاجرين عن شأنهم لم يزيدوا على أن طلبوا عزل عثمان رضى الله عنه ليولوا غيره .

لو أن باحثا تقصى أسماء هؤلاء الثائرين وتتبع سيرتهم لأعياه أن يجد فيهم رجلا هذبه الدين وأدبته صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولوجد كثرتهم أعرابية جافية لم يجاوز الايمان حناجرهم ، طمعوا فى السلطان لأنهم ألفوا عطفا ولينا ودعة ودنيا عريضة تفتح أبوابها لمن يغترف حتى أصبح أمر الأمة الى الغوغاء يولون الخليفة ويعزلونه وفقا لأهوائهم ، وليس للقادة ورؤساء المهاجرين من الأمر شىء ، فلم يبق إلا أخذ الأهبة والتشمير لإصلاح ذات البين والعمل على توقير الخلافة وتعرف أسباب الثورة والاحتكام الى الدين ، لئلا يستفحل الخطب ، ويطمع فى الأمر من ليس له بأهل ، ومن ثم ظهر القادة فى الميدان ليردوا شماس الثائرين ، ويكبحوا جماحهم ، ويرجعوا الأمور الى مشارعها ، فمشى على الى عثمان رضى الله عنهما بالنصيحة الصادقة ، فاستمع اليه عثمان وأنصف من نفسه ، ولكن شياطين الفتنة من أمثال مروان وابن أبى سرح من فتيان أمية الطامعين أبوا إلا أن يسعروا لظاها ، ولم يبالوا أن يكون ضحيتها عثمان رضى الله عنه .

روى أبو جعفر الطبرى فى تاريخه ما ملخصه : إن القوم لما نزلوا ذاخشب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون ، وعلم عثمان ذلك ، جاء الى منزل على رضى الله عنه فدخل وقال : **يا ابن عم : إن قرابتى قريبة ولى عليك حق ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى ولك عند الناس قدر ، وهم يسمعون منك ، وأحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ، فان فى دخولهم**

على وهنا لأمرى وجرأة على ! فقال عليه السلام : على أى شىء أردهم ؟ قال : على أن أصير الى ما أشرت إليه ورأيته لى ، فقال على رضى الله عنه : إنى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع ، وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله ابن سعد ، فانك أطعتهم وعصيتنى . قال عثمان رضى الله عنه : فانى أعصيهم وأطيعك . فأمر على الناس أن يركبوا معه فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين والأنصار حتى كلموا الناس ورجعوهم بأصحابهم الى بلادهم ، وأشار علىّ على عثمان أن يكلم الناس ليسكنوا الى ما يعدهم به من النزوع وقال له : إن البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن أنه يجىء ركب من جهة أخرى فتقول لى : يا على اركب اليهم ، فان لم أفعل رأيتنى قطعت رحمك واستخففت بحقك . فخطب عثمان خطبة وعد فيها الناس النصفة ، وقال : « والله لأعطينكم الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم » فرق له الناس وبكوا . قال أبو جعفر : فلما نزل وجد مروان وسعدا ونفرا من بنى أمية فى منزله قعودا لم يكونوا شهدوا الخطبة ولكنهم بلغتهم ، فلما جلس قال مروان : يا أمير المؤمنين أأتكلم أم أسكت ؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان : لا بل تسكت فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ! إنه قد قال مقالة لا ينبغى له أن ينزع عنها . فشتمها مروان وعاد الى مساءلة عثمان رضى الله عنه ، ولامه على ما كان منه فى خطبته للناس ، وخوفه اجتماع الناس حول بابه ، فقال له عثمان : فاخرج أنت الى الناس وكلمهم فانى أستحى أن أكلمهم وأردهم ، فخرج مروان الى الناس وقد ركب بعضهم بعضا فقال لهم : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ، شاهت الوجوه ! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اعزبوا عنا والله إن رمتمونا لنمرنّ عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم ما لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله غير مغلوبين على ما فى أيدينا ! فرجع الناس خائبين ، وأتى بعضهم عليا كرم الله وجهه فأخبره الخبر ، فأقبل على رضى الله عنه على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهرى فقال : أحضرت خطبة عثمان ؟ قال : نعم ، قال : أفحضرت مقالة مروان للناس ؟ قال : نعم ، فقال : « أى عباد الله ! يالله للمسلمين ! إنى إن قعدت فى بيتى قال تركتنى وخذلتنى ، وإن تكلمت فبلغت له ما يريد جاء مروان ويلعب به حتى قد صار سيقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ! » وقام مغضبا من فوره حتى دخل على عثمان فقال له : « أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ، فأنت معه كجمل الظعينة يقاد حيث يسار به ، والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا عقله ، وإنى لأراه يوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » !

هذا موقف علىّ رضوان الله عليه فى النصح لعثمان وتسديده ، يحمل فى طياته أصدق الإخلاص وأصفى الوفاء ، فلما أيس من استصلاح بطانته أو صرفه عن الانقياد اليها قعد فى بيته أسيفا حزينا ، وعاد الناس على بدئهم ، واشتدوا على عثمان حتى منعوه الماء ، فبلغ عليا فغضب

من ذلك غضبا شديدا ولم يزل حتى أدخل عليه الماء ، ثم أرسل ابنه الحسن فى طليعة أبناء المهاجرين والأنصار ليكون فى حماية الخليفة والذب عنه ؛ ولأمرّ ما أبى عثمان رضى الله عنه مقام هؤلاء ببابه فأقسم عليهم أن يرجعوا الى منازلهم . قال الطبرى : « لما اشتد على عثمان الحصار أشرف على الناس فقال : « يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة بعدى ! » ثم لزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم أن يرجعوا ، فرجعوا إلا الحسن بن علىّ ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباها لهم » .

ويقول الواقدى : « واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبى وقاص ، والحسن بن على ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، فأرسل اليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ، فانصرفوا » . والطبرى يروى أن الحسن بن على لم ينصرف مع من انصرف ، فقد قال له عثمان : « إن أباك الآن لفى أمر عظيم من أجلك ، فاخرج عليه ، أقسمت عليك لما خرجت » فلم يفعل ووقف محاميا عنه ، وخرج مروان بسيفه يجالد الناس فهاجوا وماجوا ، وانتهى الأمر بما بدأت به أعظم مأساة عرفها التاريخ الاسلامى ، وقتل أمير المؤمنين عثمان رضوان الله عليه مظلوما بأيدى الرعاع والسفلة ، وتدبير بطانة السوء .

وقد أجمل علىّ كرم الله وجهه موقفه وموقف الناس من هذه الفتنة فقال : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، أو نهيت عنه لكنت ناصرا ، غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه ، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير منى ، وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع » !

صادق ابراهيم عرجون

ذكاء العميان

عرف الناس فى كل زمان أن العمى يكونون سريعى الحفظ ، دقيقى الحس ، وكثير منهم وصل الى درجات عالية من الذكاء ، وما ذلك إلا لاعتمادهم على حافظتهم وذاكرتهم وشعورهم بعد ضياع بصرهم ، فصقلت هذه الحواس صقلا لا يحدثه غير مثل هذه الحاجة الماسة .

من هؤلاء قتادة بن دعامة فقد روى أنه كان يقول لقائده تجنب بى الحلَق التى فيها الخطأ فإنه ما وصل الى سمعى شىء فأداه الى قلبى إلا حفظته ولم أنسه .

التجديد فى الاسلام

— ٧ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها »
حديث نبوى شريف

المجـــــددون فى الاسلام

فى القرن الثانى الهجرى

الأئمة الأربعة : المأمون ، اللؤلؤى ، أشهب ، الحضرمى ، ابن معين .

ذكرنا من قبل ما قاله الحافظ ابن الأثير من أن المجددين للدين فى المائة الثانية الهجرية هم : من أولى الأمر : المأمون ، ومن الفقهاء : الامام الشافعى ، واللؤلؤى من أصحاب أبى حنيفة ، وأشهب من أصحاب مالك ، ومن القراء الحضرمى ، ومن المحدثين : ابن معين . وفى هـذا العدد نتكلم على هؤلاء ، ما عدا المأمون ، فقد سبق الكلام على شىء من صفاته وأحواله ، وما عدا الامام الشافعى ، فسيأتى الكلام عليه مع الأئمة الأربعة ، إن شاء الله تعالى .

١ — اللؤلؤى :

فمن هو اللؤلؤى ؟ هو الحسن بن زياد اللؤلؤى ، الكوفى ، تلميذ الامام الأعظم أبى حنيفة ، وأحد أصحابه الذين انتشر بهم مذهبه ، ويعتبر الحسن بن زياد مجتهدا مطلقا منتسبا الى أبى حنيفة ، كأبى يوسف ، ومحمد بن الحسن ؛ ونسبتهم الى الامام الأعظم كنسبة الشافعى الى مالك ، أو ابن حنبل الى الشافعى : أى أن نسبتهم اليـه كنسبة المتعلمِّ للمعلمِّ ، ولم تكن كنسبة المقـّلد لمقـّلده .

طلب الحسن بن زياد العلم وجدّ فيه ، حتى صار من كبار الأئمة ، ولعل هذا مما جعل هارون الرشيد يختاره ليحضر فى كل أسبوع يوما عند ابنه «المأمون» ليعـّلمه الفقه والحديث ؛ فأما الفقه فحسبه أن يقول فيه يحيى بن آدم : ما رأيت أفقه من الحسن بن زياد . وأما الحديث فقد حدّث هو عن نفسه فى تعـّلمه فقال : سمعت من ابن جريج ، وكتبت عنه اثنى عشر ألف حديث ، كلها يحتاج اليها الفقهاء . وهذا القدر من الأحاديث يزيد عن الأحاديث التى فى صحيح البخارى وصحيح مسـلم . فانظر الى الحسن بن زياد فى إحاطتـه باثنى عشر ألف حديث خاصة بالأحكام ، فما ظنك بما يعرفه من الأحاديث الأخرى ؟

تقديره وعدّه حجة عصره :

قدر أفاضل العلماء وخيارهم الحسن بن زياد ، فقال نصير بن يحيى : قلت لخلف بن أيوب : من الحجة اليوم ؟ فقال : الحسن بن زياد ، فأعدت السؤال عليه ثلاثا ، فقال : الحسن هو الحجة . وسأل رجل خلف بن أيوب عن مسألة ، فقال : لا أدرى ، فقال الرجل : دلنى على من يعرف ، فقال : الحسن بن زياد بالكوفة ، فقال : إنه بعيد ، فقال خلف : من همّه الدين فالكوفة اليه قريبة . وروى عن ابن صالح أنه قال : كنا عند أبى يوسف ، إذ أقبل الحسن ابن زياد ، فقال أبو يوسف : سلوا الحسن قبل أن يسأل ، وإلا لم تقدروا عليه .

أمانته على العلم والفتوى :

مما يدل على أمانة الحسن بن زياد على العلم ، أنه استفتى يوما فى مسألة ، وبعد أن أفتى ظهر له أنه أخطأ ، ولم يظفر بالمستفتى ، فاستأجر مناديا ينادى فى الأماكن والطرق : ألا إن الحسن ابن زياد استفتى فى مسألة كذا فأخطأ ، فمن كان أفتاه الحسن فليرجع اليه ! فمكث أياما لا يفتى حتى عاد اليه السائل ، فأعلمه بخطئه ، ورده الى الحق .

موازنة بين الحسن وأبى يوسف ومحمد :

سئل بعض العلماء عن أصحاب الامام أبى حنيفة : أبى يوسف ، ومحمد ، والحسن بن زياد ، فقال : الحسن بن زياد أحسن الناس سؤالا ، ولم يكن جوابه على قدر سؤاله ؛ ومحمد بن الحسن أحسن الناس جوابا ، ولم يكن سؤاله على قدر جوابه ؛ وأبو يوسف : أحسن الناس سؤالا وجوابا .

صفاته وأخلاقه واتباعه السّنة :

كان الحسن بن زياد آية فى النباهة والفطنة واليقظة ، والمثابرة على العلم وطلبه ، كما كان آية فى مكارم الأخلاق ، فقال أحمد بن عبد الحميد الحارثى : ما رأيت أحسن خلقا ، ولا أقرب مأخذا ، ولا أسهل حالا وجانبا ، من الحسن بن زياد ، وقد كان يكسو مماليكه كما كان يكسو نفسه .

كيف كان الحسن يقضى يومه ؟

كان الحسن بن زياد يقضى يومه فى العلم والفتوى ، وعبادة الله تعالى ، وخدمة الناس . قال نصر بن يحيى : قسم الحسن وقته أقساما : فكان يجلس صدر النهار فيدرس ويخوض فى فى مسائل الفقه الى قبيل الزوال ، ثم يدخل منزله فيقضى حوائجه الى وقت الظهر ؛ ثم يخرج لصلاته ، ويجلس للواقعات والفتاوى الى العصر ، وبعد أن يصليه يجلس فيناظر من بين يديه فى الأصول الى غروب الشمس ؛ وبعد أن يصلى المغرب يدخل منزله ، ثم يخرج فيتذاكر فى المسائل المغلقة الى العشاء ؛ فاذا صلاها جلس لمسائل الوصايا ونحوها الى ثلث الليل ؛ فلا يفتر

عن النظر فى العلم . وكان له جارية إذا اشتغل بالطعام تقرأ له على المائدة حتى يفرغ وقد حدث الحسن عن الوقت الذى كان يقضيه فى العلم فقال : مكثت أربعين سنة لا أبيت إلا والسراج بين يدى .

مؤلفاته :

ألف الحسن بن زياد عدة كتب ، منها : كتاب أدب القاضى ، وكتاب النفقات ، وكتاب الوصايا ، وكتاب الفرائض ، وكتاب الخراج . توفى سنة (٢٠٤) ه

٢ — أشهب :

هو أشهب بن عبد العزيز المصرى ، تلميذ الامام مالك رضى الله عنه ، وصاحبه ، وأحد الأئمة المصريين المجتهدين ، الذين حملوا لواء مذهب مالك ، وقاموا بنشره ، وعنهم تسرب الى إفريقية والأندلس ، وقد انتهت اليه الرياسة بمصر بعد ابن القاسم .

كان أشهب إماما مجتهدا ، ولكنهم اختلفوا فيه وفى ابن القاسم ، هل كانا مجتهدين مطلقين ، أو مجتهدين مقيدين ؟ والظاهر أنهما مجتهدان مطلقان منتسبان الى الامام مالك رضى الله عنه . وقال الشاطبى : لايلزم المجتهد أن يكون مجتهدا فى كل علم يتعلق بالاجتهاد ، وإن أشهب ، وابن القاسم ، ومحمد بن الحسن ، وأبا يوسف ، والمزنى ، والبويطى اتبعت أقوالهم ، وعمل على وفقها مع مخالفتهم لأئمتهم وهم مقلدون لهم فى أصول مذهبهم ، واجتهادهم مبنى على مقدمات مقلد فيها ، فاذاً لا ضرر على الاجتهاد مع التقليد فى بعض القواعد المتعلقة بالمسألة المجتهد فيها .

أطرى الأئمة أشهب ، وشهدوا له بالفقه ، والورع ، والصدق . فقال الشافعى رضى الله عنه : ما رأيت أفقه من أشهب ، وما ناظرت أحدا من المصريين مثله . ولم يدرك الشافعى من أصحاب مالك بمصر سوى أشهب ، وابن عبد الحكم . وقال القضاعى : كان لأشهب رياسة بمصر ، وكان أنظر أصحاب مالك . وذكر ابن يونس أن أشهب أحد فقهاء مصر ، وذو رأيها . وقال ابن عبد البر : كان أشهب فقيها حسن الرأى . وقال ابن القيم : مكانة أشهب من العلم والأمانة غير مجهولة . ووصفوا أخلاقه فقالوا : ما كان أصدق أشهب ، وأورعه فى سماعه ، وأوثقه فيما رواه عن مالك ، وأخوفه من الله تعالى !

ولأشهب من المؤلفات : كتاب فى الفقه رواه عنه الكثيرون .

موازنة بين أصحاب مالك : ابن وهب ، وابن القاسم ، وأشهب :

من علماء مصر فى القرن الثانى الهجرى الذين أعلوا شأنها ، ورفعوا قدرها ، وكانوا عماد مذهب مالك بمصر ، وعنهم تسرب الى إفريقية والأندلس : ابن وهب ، وابن القاسم ، وأشهب . فهؤلاء بلغوا درجة الاجتهاد مع الانتساب للامام مالك رضى الله عنه . وقد سئل مالك عن

ابن وهب وابن القاسم فقال : ابن وهب عالم ، وابن القاسم فقيه . وسئل ابن وهب : عمن نأخذ الفقه ؟ فقال : إن أردت فقه مالك فعليك بابن القاسم ، فانه انفرد به وشغلنا بغيره . وسئل الامام الشافعى عن أشهب فقال : إنه ما رأى أفقه منه ، ولا ناظر أحدا مثله من المصريين . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : أشهب أفقه من ابن القاسم مائة مرة . فأنكر عليه ذلك ابن كنانة ، وقال : إنما قاله لأن أشهب شيخه ومعلمه . فقال ابن عبد البر : ابن القاسم شيخه ، وأشهب شيخه : أى شيخ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وهو أعلم بهما لكثرة مجالسته لهما ، وأخذه عنهما . وسئل سحنون : أيهما أفقه ؟ فقال : كانا كفرسى رهان ، وربما وفق هذا وخذل هذا ، وربما خذل هذا ووفق هذا . فانظر الى العلم فى مصر فى القرن الثانى الهجرى ، والى علمائها ، وشهادة مالك والشافعى لهم ، وانظر الى العلم فيها اليوم فى القرن الرابع عشر ، وقارن بين الماضى والحاضر واحكم . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقد ولد أشهب بمصر سنة ١٤٠ أو ١٥٠ هـ وتوفى سنة ٢٠٤ بعد وفاة الشافعى بأيام .

٣ — الحضرمى :

هو يعقوب بن إسحاق الحضرمى البصرى ، أحد القراء العشرة ، إمام أهل البصرة .

بلغ الحضرمى من العلم والجاه والأخلاق ما قصه معاصروه . فقال أبو القاسم الهزلى : لم ير فى زمن يعقوب الحضرمى مثله ، كان عالما بالقرآن واختلافه ، والعربية ووجوهها ، فاضلا ، تقيا ، ورعا ، زاهدا ؛ وبلغ من جاهه بالبصرة أنه كان يحبس ويطلق ، وقال أبو حامد السجستانى : يعقوب أعلم من رأيت بحروف القرآن واختلافه ، وعلله ومذاهبه ، ومذاهب النحو . وقال الدانى : ائتم بيعقوب فى اختياره عامة البصريين بعد أبى عمرو ، فهم أو أكثرهم على مذهبه . وسئل أحمد بن حنبل عنه : فقال : صدوق . وقال ابن المنادى : كان يعقوب أقرأ أهل زمانه ، وكان لا يلحن .

وقال ابن المنادى : كان أبو يعقوب وجده من أعلم أهل زمانهما بالقرآن والنحو . وقال أبوحاتم : يعقوب بن إسحاق من أهل بيت العلم بالقرآن والعربية وكلام العرب والرواية والفقه ، وكان أقرأ القراء .

هل تجوز الصلاة بقراءة الحضرمى ؟

طالما ردد بعض الناس هذا السؤال ، وإنى أدع الجواب عنه للإمام ابن الجزرى قال : **لا فرق بين قراءة يعقوب ، وقراءة غيره من القراء السبعة عند أئمة الدين المحققين ، وهو من الحق الذى لا محيد عنه ، ومن أعجب العجب ، أو من أكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من**

الشاذ الذى لا تجوز القراءة به ولا الصلاة ، فلا يقول هذا إلا من لا يعوّل على قوله ، ولا يلتفت الى اختياره . توفى الحضرمى سنة ٢٠٥ هـ

٤ — ابن معين :

هو يحيى بن معين ، العالم الحافظ أحد أئمة الحديث ، الثبت الثقة المتقن ، صاحب الجرح والتعديل ورئيسه ، فمن جرحه سقط الى الحضيض ولم تقم له قائمة ، ومن عدله ارتفع الى السماء ، وكان ممن يوثق بقوله ، المظهر كذب الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه الإمام أحمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين ، فليس هو بحديث .

نشأته وحياته :

كان والد يحيى كاتبا لعبد الله بن مالك ، أو كان على خراج الرّى ، فمات وترك لابنه يحيى ألف ألف درهم ، وخمسين ألف درهم ، فأنفق كل هذا على الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسه . وقال على بن المدينى : لا نعلم أحدا كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين . وسئل يحيى ابن معين : كم كتبت من الحديث ؟ فقال : كتبت بيدى هذه ستمائة ألف حديث . وقد عاش حياته الطويلة المباركة وقد أربت على سبعين سنة فى خدمة السنة النبوية المطهرة ، وترك من الكتب أكثر من مائة قمطر مملوءة كتبا معظمها فى الحديث الشريف .

انتهى العلم الى يحيى بن معين فى عصره . فقال على بن المدينى : انتهى العلم بالبصرة الى يحيى بن أبى كثير وقتادة ، وعلم الكوفة الى أبى إسحاق والأعمش ، وانتهى علم الحجاز الى ابن شهاب وعمرو بن دينار ، وصار علم هؤلاء الستة الى اثنى عشر رجلا ، منهم بالبصرة : سعيد بن أبى عروبة ، وشعبة ، ومعمر ، وحماد بن سلمة ، وأبو عوانة ؛ ومن أهل الكوفة : سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ؛ ومن أهل الحجاز : الى مالك بن أنس ؛ ومن أهل الشام الى الأوزاعى ؛ وانتهى علم هؤلاء الى محمد بن إسحاق ، وهشام ، ويحيى بن سعيد ، ووكيع ، وابن المبارك ، وابن مهدى ، وابن آدم ؛ وصار علم هؤلاء جميعا الى يحيى بن معين ، فهو منتهى المعارف ، ومجمع العلم فى زمانه .

أخذ عن يحيى بن معين كبار العلماء والأئمة : كالبخارى ، ومسلم ، وأبى داود ، وأحمد ابن حنبل ، ومحمد بن سعد ، وغيرهم من الحفاظ .

أخلاقه ونقده الرجال :

كان يحيى بن معين فى نقده الرجال يزن بالقسطاس المستقيم ، ولا يؤثر فيه أى عامل من العوامل التى تؤثر فى الناس ، وكان يسير فى نقده بالحكمة ، ومنتهى مكارم الأخلاق ، وقد حدث عن ذلك فقال : ما رأيت على رجل خطأ إلا سترته ، وأحببت أن أزين أمره ، وما

استقبلت رجلا فى وجهه بأمر يكرهه ، ولكن أبين له خطأه فيما بينى وبينه ، فإن قبل ذلك وإلا تركته . وقال ابن الرومى : ما سمعت أحدا يقول الحق فى المشايخ غير يحيى بن معين ، أما غيره فكان يتحامل بالقول . وقال الامام أحمد بن حنبل : هاهنا رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يظهر كذب الكذابين — يعنى يحيى بن معين .

ولد يحيى بن معين سنة ١٥٨ ﻫ بالقرب من بغداد ، ومات بالمدينة سنة ٢٣٣ ﻫ وعمره ٧٥ أو ٧٧ سنة إلا أياماً ، وصلى عليه والى المدينة ، ثم صلى عليه مرارا ، وحملوه على سرير النبى صلى الله عليه وسلم ، ودفن بالبقيع .

السيد عفيفى

مساعدة ذوى الحاجات

يروى أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ذكرت يوما قول لبيد الصحابى وهو أحد أصحاب المعلقات :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وقالت لله أبوه ما كان أشعره لقد صدق . قالوا وكيف يا أم المؤمنين ؟ فقالت : كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث لا يعلم ثم ذهب أولئك وجاء قوم كان أحدهم إذا علم من أخيه خلة سدها من حيث يعلم . ثم جاء من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله ، فاذا سأله أعطاه . ثم جاء من بعدهم قوم إذا علم أحدهم من أخيه خلة أحب أن يسأله فان سأله منعه ، ثم بعد ذلك يفضحه ، فيقول جاء فلان يسألنى فلم أعطه .

مما يناسب هذا قول شاعر فى بخيل :

لا يغرنْك اللباس ليس فى الأثواب ناس
هم وإن نالوا الثريا بخلاء وخساس
كل من يدعى رئيساً هو فى الخسة راس
كم يد تصلح للقطع فتفدى وتباس

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٧ —

أسلفنا فى الكلمة السابقة بعض مزاعم الأستاذ « كازانوفا » عن القرآن وقلنا إنه ادعى أن النبى كان يعتقد أنه سيشهد قيام الساعة قبل وفاته ، وأنه لهذا لم يعين الامام الذى يخلفه ، وأن أصحابه لما رأوا أن الساعة لم تقم قبل وفاته مدوا أيديهم الى القرآن بالتبديل ، لينجوا من تلك الورطة . وقد رددنا على فكرة تغاضى النبى عن تعيين الامام بأن السبب فيه هو إيمانه بأن رسالته دينية قبل كل شىء ، وتشبعه بروح العدالة والشورى ، ووعدنا القارئ بأننا سنناقش شيئا من براهين هذا المستشرق على هذه الدعوى السخيفة . واليك بعض هذه المناقشة :

ذكر « كازانوفا » كثيرا من البراهين على دعواه . ولما كنا لا نستطيع أن نستوعب هنا كل هذه البراهين ، لأن بعضها ينبو عن المنطق ، والبعض الآخر يعتمد على روايات أسطورية وأخبار خرافية وردت فى كتب المسعودى والمقريزى والطبرى وما شاكل ذلك ، فقد صممنا على أن ننتقى من هذه البراهين أقواها فى نظر الباحثين ، ليكون هدمها آية واضحة على أن دعوى هذا الرجل واهية الدعائم والأركان . وأقوى هذه البراهين عند العلماء هو فى نظرنا ما اعتمد على القرآن أو على حديث ثبتت صحته .

غير أنه ينبغى لنا قبل الخوض مع هذا المستشرق فى مناقشة براهينه أن نسجل عليه أنه لم يفهم روح القرآن ، بل لم يفهم روح اللغة العربية فى أغلب الأحيان . وفوق ذلك فانه كثيرا ما يهجر النزاهة الى الأغراض والأهواء ، فيستخدم لغايته صدر جملة لو أنه أتمها لألفى القارئ فى عجزها ردا مفحما على فكرته . وهاتان الملاحظتان تدفعاننا الى الاحتياط من خطة هذا المستشرق فى البحث ، وتحملاننا على النظر الى نتائج بحوثه بعين الحذر المرتاب .

ومهما يكن من الأمر ، فاننا سنتعقب أهم براهينه على هذه الدعوى ، لنثبت بطلانها أو ضآلتها فى ميزان البحوث العلمية .

قرر « كازانوفا » بديا أن القرآن أشار فى عدة مواضع الى الساعة : أى الى نهاية العالم والبعث والحكم الأخير ، ولكنه لم يحدد لذلك زمنا معينا : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجلّيها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفىّ عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١)

---

(١) سورة الاعراف .

ومع ذلك فان فى القرآن آيات عديدة تتحدث فى وضوح عن قرب الساعة : « اقتربت الساعة وانشق القمر (١) » ، « أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٢) » . ولكن هذه الآيات لا تشتمل على شىء من التحديد ، بل كل ما يمكن أن يستخلص منها هو شعور بأنه يجب أن ننتظر هذه الساعة فى كل لحظة .

على أنه إذا كان القرآن قد اقتصر على إثبات قرب الساعة ولم يتعرض لتعيين وقتها ، فان السنة تربط أضيق الربط وأحكمه بين بعثة النبى وقيام الساعة ، فمن ذلك مثلا ما روى عن ابن عباس بمناسبة حديثه عن آية « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال : إن الله أوحى أولا آية « اقتربت الساعة » فقلق الكفار ، ولكنهم لما رأوا أن الساعة لم تقم عادوا الى اطمئنانهم ، فنزل قوله : « اقترب للناس حسابهم » فرجع اليهم قلقهم ثم جحودهم ، فأنزل قوله تعالى : « أتى أمر الله » فرفع الكفار رءوسهم ، فنزل قوله : « فلا تستعجلوه » ، وبهذه المناسبة قال النبى : « بينى وبين الساعة كما بين هاتين » وأشار الى ما بين سبابته ووسطاه (٣) .

هذا الحديث هو عماد أول البراهين التى سنناقشها اليوم . وهو فى نظر كازانوفا من الأهمية بموضع عظيم ، بل قد اعتبره أحد المستندات الأساسية لرسالته ، لأنه فى رأيه تصريح بأن بعثة النبى مرتبطة ارتباطا مباشرا بقيام الساعة ، وهو يؤيد هذا الرأى بتلك العبارة المضحكة : « إن تمثيل شيئين بأصبع اليد تعبير مألوف فى لغتنا الفرنسية يثبت بين هذين الشيئين علاقة ضيقة يمكن أن يعبر عنها بعدم قابلية الانفصال ، إذ أن هذا التعبير صورة منتزعة من أعماق الانسانية ، ومعناه واحد فى جميع لغات العالم . وإذاً فمن المحتمل إن لم يكن من المؤكد أن محمدا أراد بهذا التعبير أن يقول : إن مجيئى والساعة غير قابلين للانفصال (٤) .

ومما ضاعف أهمية هذا الحديث فى نظر « كازانوفا » هو أن إجماع المسلمين منعقد على صحته ، بل إن كثيرا من علمائهم استخلصوا منه فروضا وعمليات حسابية أثبتوها فى كتبهم . فمن ذلك مثلا أن الطبرى — فيما يرويه ابن خلدون والمقريزى — أجرى فى مشكلة الساعة العملية الحسابية الآتية :

حيث إن القرآن قال : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (٥) ، وإن النبى قال : « إن وجودكم بالنسبة الى وجود من سبقوكم كما بين العصر وغروب الشمس » ، وقال أيضا : « إننى بعثت فى زمن كنت فيه أنا والساعة كهاتين » وأشار الى سبابته ووسطاه ، وقال كذلك : « إن بقاء هذا العالم هو أسبوع من العالم الآخر الذى يومه ألف سنة » .

ولما كان ما بين العصر وغروب الشمس جزءا من أربعة عشر جزءا من اليوم ، ولما

(١) سورة القمر (٢) سورة النحل (٣) انظر صفحة ١٦ من كتاب « محمد ونهاية العالم » لكازانوفا .
(٤) انظر صفحة ١٧ من نفس المصدر . (٥) سورة الحج .

كانت الوسطى تزيد على السبابة بجزء من أربعة عشر جزءا من الأصبع ، ولما كان عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، فقد وجب أن يكون ما بين النبي والساعة جزءا من أربعة عشر جزءا من عمر الدنيا وهو خمسمائة سنة .

غير أن السهيلى الذى عاش الى ما بعد سنة خمسمائة وثلاثين للهجرة قد اقتنع بأن حساب الطبرى غير صحيح ، وقرر أن هذا الحديث لا يفيد إلا قرب الساعة .

هذا هو موجز ذلك البرهان الذى ساقه الأستاذ « كازانوفا » فى طليعة براهينه على دعواه الغريبة . ولكى نكون منطقيين فى نقاشنا ينبغى لنا أن نلفت نظره بديا الى أن استدلاله على جزم النبي العربى بعدم قابلية انفصال بعثته من الساعة بما يراد من هذا التعبير فى لغة كازانوفا الفرنسية ضرب من الهراء المخجل الذى لا يليق بصغار المتعلمين فضلا عن العلماء والباحثين ، إذ من الذى لا يخجل من أن ينسب اليه التاريخ أنه فسر عبارة فى لغة شرقية سامية بما يراد بمثلها فى لغة غربية لاتينية ؟ ومن الذى يجرؤ على الادعاء بأن روحى اللغتين متماثلتان أو متقاربتان ؟ وما يدرى كازانوفا أن هذه العبارة عامة منتزعة من الانسانية كما يزعم ؟ أفلا يمكن أن يكون معناها فى اللغة الفرنسية عدم قابلية الانفصال ، وأن تكون فى اللغة العربية مجرد تصوير للقرب أو محض تشبيه يفيد القرب وقصر المسافة التى تفصل بين بعثة النبي والساعة ؟ الحق أن موقف هذا المستشرق بإزاء هذه العبارة ضعيف مزر لا يليق بالباحثين الذين يحترمون أنفسهم .

على أننا إذا أغضينا عن هذه السقطة وغفرنا له فهمه اتصال البعثة المحمدية بالساعة مباشرة وعاملناه معاملة من فهم مجرد القرب بينهما ثم نظرنا الى اعتراضه على هذا القرب ، ألفيناه فى نظر علماء الفلك ضعيفا واهيا ، وألفينا قول النبي مؤيدا بأحدث آراء العلماء المعاصرين ، لأن إجماع أولئك العلماء منعقد الآن على أن ما بقى من عمر الدنيا الى جانب ما مضى منها يشبه حقا ما تزيد به الوسطى عن السبابة ، وأن هذه الثلاثة عشر قرنا التى فصلت بعثة نبى المسلمين عن العصر الحاضر لا تكاد تعتبر إلا جزءا ضئيلا من عمر الكون لا يتعارض مع الإخبار باقتراب نهايته قبل مرورها ، لأن العمدة فى تقدير هذا الاضطراب إنما هو نسبة ما بقى الى ما مضى . وأكثر من ذلك أن أحد كبار علماء الفلك الغربيين قرر منذ أعوام فى محاضرة عامة أنه إذا أريد أن يقاس ما بقى من عمر الكواكب أو من عمر الكون بما مضى من السنين وجب أن يقدر ما مضى بعدد كمية من طوابع البريد ، صف بعضها فوق بعض من سطح الأرض الى قمة جبال الهملايا ، وأن يقدر ما بقى منها بكمية تساوى ارتفاع إحدى المنارات البحرية . ونحن نحسب أن الأستاذ « كازانوفا » يوافقنا على أن ما بين الوسطى والسبابة من فرق لا يقل عما بين المنارة وجبال الهملايا من هذا الفرق ، كما أنه يوافقنا على أن آلاف السنين الى جانب

الملايين تعتبر ضئيلة الى حد أن تصح الاشارة اليها بأصبعي اليد ، كما أننا نحسب أنه لا يخالفنا فى أن نسبة الثانية الى الدقيقة هى بعينها نسبة المليون الى الستين مليونا من السنين أو من القرون ، وأنه ما دامت موازنة نبي المسلمين كانت تتعلق بنسبة ما بقى من عمر الدنيا الى ما مضى منه فانه ليس له أن يعترض اعتراضا علميا على هذا الحديث الذى يصرح بقرب الساعة . وليس أدل على ما نقول من وصف هذا النبي أمته بأنها فى وسط ما مضى من الخلائق كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود . فاذا استطاع كازانوفا أن يحصى شعر ثور ، وأن يجعل ملايين المسلمين جميعا وحدة واحدة من عدد شعر هذا الثور ، ويجعل الأمم السابقة بقدر ما بقى من الشعر مضروبا فى عدد ملايين المسلمين ، أمكنه أن يصل الى إحصاء عددى يتكافأ مع الاحصاء الزمنى الذى أخبر نبي المسلمين عنه بأن ما بقى منه الى جانب ما مضى يشبه ما تزيد به الوسطى على السبابة .

أما تلك العملية الحسابية التى أجراها الطبرى فهى سخيفة مضحكة ليس الاسلام مسئولا عنها ولا مؤاخذا بها ، لأن الاسلام مسئول عما ورد فى كتابه وما ثبتت صحته من أحاديث نبيه ، وليس مسئولا عن آراء كل من هب ودب من معتنقيه وأنصاره . أما قول القرآن : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » فهو تشبيه أريد به أنه يتم فى اليوم الواحد بالقدرة الالهية ما لا يتم من أفعال العباد فى ألف سنة من سنى دنياهم . وأما الحديث الآخر الذى استغله الطبرى فى عمليته الحسابية وهو قول النبي : « إن ما بقى من عمر الدنيا كما بين العصر وغروب الشمس » فهو — إذا صح — تشبيه بديع يشبه تشبيه السبابة بالوسطى الذى ورد فى الحديث الأول ، وهو كسالفه لا يتعارض مع الآراء العصرية فى تقدير أعمار الأفلاك .

استشهد كازانوفا على دعواه هذه ببرهان ثان ورد كسالفه فى السنة فيما يزعم ، وهو أن النبي كان يعتقد أن المسيخ الدجال الذى لا شك فى شهوده نهاية العالم كان معاصرا له . وآية ذلك أنه أشار الى ابن سعيد اليهودى بقوله : « هـذا هو المسيخ الدجال » وأن تميما الدارى حدث النبي أنه كان مسافرا فوق البحر مع عدد من بنى عمه فألقت بهم عاصفة على إحدى الجزائر فرأوا فيها حيوانا هائلا مغطى بشعر طويل فسألوه عن شخصيته ، فأجابهم الحيوان بأنه الجساسة التى ستظهر فى آخر الزمان ، ثم قالت لهم : احذروا سيد القصر ، فنظروا فرأوا رجلا مكبلا بسلاسل من حديد مربوطة فى عمود من حديد ، ومن أوصافه كذا وكذا ، ثم حدثهم فأنبأهم بأنه المسيخ الدجال ، وأنبأهم بوقوع عدد من الملاحم ، ثم أعلن أنه لن يدخل مدينة النبي .

بعد أن ذكر الاستاذ كازانوفا هاتين الروايتين علق عليهما بقوله : « من هذا يتضح أن محمدا كان يعتقد أنه سيشهد نهاية العالم » .

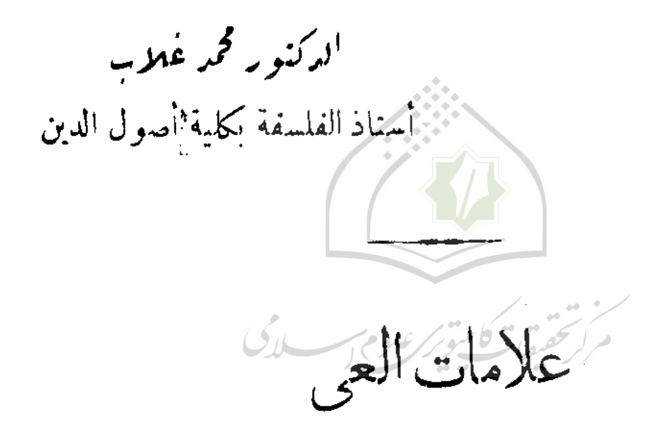
لا ريب أن هـذا البرهان هو أضعف من سالفه ، لأنه يعتمد على روايتين ، أما أولاهما وهى إطلاق النبي اسم المسيخ الدجال على ابن سعيد الاسرائيلى ، فإذا صحت فإن ما فيها لا يخرج

عن كونه ذما لهذا الاسرائيلى وإهانة له من النبى باطلاق اسم المسيخ الدجال عليه ، كما يقال : هذا شيطان ، وهذا وحش ، وهلم جرًّا . ولا يعقل أن يكون هذا الإطلاق حقيقيا على ظاهره حتى يستند الأستاذ كازانوفا إليه فى إثبات نظرية علمية ، أللهم إلا أن يكون هـذا الأستاذ كالغريق الذى يتعلق بالقش أملا فى أن ينجو من الغرق .

أما الرواية الثانية فقـد نقلها كازانوفا عن مروج الذهب للمسعودى ، وإذاً فهى ضمن ما أشرنا إليه فى أول هـذه الـكلمة من الروايات الخرافية التى صرحنا بأننا لن نقيم لها وزنا لسقوط قيمتها فى نظر البحث الصحيح الذى يعتمد على اليقينيات .

هـذا ، وسنعود الى مناقشة بقية براهين كازانوفا التى تصلح للمناقشة ، وموعدنا المقال المقبل م؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين



علامات العى

ترى المتكلم إذا كل لسانه يقول عند مقاطع كلامه للمخاطب : استمع الى ، واسمـع منى ، وافهم عنى . ومنهم من يقول فى خلل كلامه : أما قولى كذا فأعنى به كذا . وهو لا يريد التفسير ولـكنه يعيـد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأول ، فبيانه أبدا يقصر عن إيضاح إشكاله ، وإن أتى بأنواع الـكلام وأشكاله .

وذم بعض البلغاء عييا فقال : قلبه ميت الفطنة ، ولسانه بادى الـكنة ، ولفظه ظاهر الهجنة ، شديد التعاون (يريد بالتعاون العيوب السابقة من قوله : اسمع منى الخ) ، بيّن التهافت ، إذا عضته ولدغته المساجلة والمساورة تثاءب للعطاس ، وتثاقل للنعاس ، وتشاغل بمسح اللحية ومس الجبهة ، وقرع السن ، وفتل الأصابع ، فعجزه ظاهر وعيه حاضر .

نقول : لا يعيب العي عيه لأنه يعجز عن إصلاحه ، ولـكن الذى يعاب أن يعلم من نفسه القصور عن مقامات الفصحاء ، ومحالات البلغاء ، ويدفع بنفسه اليها مزاحما المتكلمين ، مشوشا نظام المجتمعين . فهذا هو الذى يسخر منه ، ويزرى به .

عمر بن عبد العزيز

— ٣ —

اقتداؤه بالقرآن فى أعماله :

كان يجيد القرآن لفظا ومعنى ، ويحكم به فى كل تصرفاته ، علما منه بأن من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ولأنه سنام الكتب السماوية ، والدستور الإلهى الذى لا تغيره الأهواء والأزمان . فدخل ابنه عبد الملك يوما عليه وهو فى قائلته فأيقظه وقال له : ما يؤمنك أن تؤتى فى منامك وقد رفعت اليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟ فقال له أبوه : يا بنى إن نفسى مطيتى إن لم أرفق بها لم تبلغنى . إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى ، لم يك ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا ، وإنى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب فى يقظتى . إن الله جل ثناؤه لم ينزل القرآن جملة ، بل أنزله الآية والآيتين حتى استكن الإيمان فى قلوب ذويه . يا بنى : إن مما أنا فيه أمراً هو أهم الى من أهل بيتك ، هم أهل العدة والعدد ، وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره على ، ولكنى أنصف الرجل أو الاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما فيكون أنجع ، فان يرد الله تمام هذا الأمر أتمه ، وان تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف رعينه !

روايته الحديث :

أخذ عمر من كل ناحية بطرف : لحفظ القرآن ، وتعلم السياسة والعلم ، وأسند الحديث عن جماعة من الصحابة ، وعن جماعة من كبار التابعين ، إلا أنه كان مشغولا عن الرواية ، فقل حديثه ، فروى عن أنس بن مالك ، وابن عمر ، وابن جعفر ، وابن أبى سلمة ، والسائب ، وابن سلام ، وابن الصامت ، والدارى . وأرسل الحديث عن شعبة ، وعائشة ، وأم هانئ ، وخولة ، والمسيب ، وابن قارظ ، وأبى بكر بن عبد الرحمن ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسلمة بن عبد الرحمن ، وعروة ، وعبيد الله بن عتبة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعامر ابن سعد بن أبى وقاص ، وأبى بردة ، والربيع بن سبرة ، وعراك بن مالك ، وأبيه ، والزهرى ، ومحمد بن كعب ، وأبى حازم ، وغير هؤلاء .

ولنذكر طائفة من أحاديثه ليستدل بها على من سمع منه وروى عنه :

روايته عن أنس :

حدثنا الحارث بن محمد العبرى عن إسماعيل بن أبى حكيم عن عمر بن عبد العزيز عن أنس

ابن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم عدوا من غيركم تدعونه فلا يستجيب لـكم » .

روايته عن عبد الله بن جعفـر :

حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن عمر بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أسماء بنت عميس قالت : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم دعوة الـكرب قال : « إذا نزل بكِ كرب فقولى : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا » .

روايته عن عمر بن أبى سلمة المخزومى :

حدثنا ابراهيم بن أبى يحيى عن اسماعيل بن أبى حكيم ، عن عمر بن عبد العزيز ، عن عمر ابن أبى سلمة المخزومى : « أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى ثوب واحد متشحا به وقـد خالف بين طرفيه » . وهـذا غريب من حديث عمر بن عبد العزيز تفرد به الحسن عن عبد الـكريم .

وقد أرسل الحديث عن جماعة من القدماء ، منهم عبادة بن الصامت ، قال : حدثنا ابراهيم ابن يحيى عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز ، عن عبادة بن الصامت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل رمضان قال : « اللهم سلمنى لرمضان ، وسلم لى رمضان ، وتسلمه منى مقبلا » .

روايته عن أبيه :

قال حدثنا المغيرة بن أبى السعدى ، قال حدثنا الحسن بن أبى الحسن عن عمر بن عبد العزيز ، عن أبيه عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا خشى أحدكم نسيان القرآن فليقل : اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى ، وارحمنى بترك ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، وألزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، ونور به بصرى ، واشرح به صدرى ، واجعلنى أتلوه كما يرضيك عنى ، وافتح به قلبى ، وأطلق به لسانى » .

وقصارى القول : أنه روى أحاديث عمن ذكرتهم قبلا وعن غيرهم ، ولـكن لما كان هذا المقام مقام إيجاز لا إطناب اكتفينا بما ذكر من الأحاديث ، وما بقى منها فليرجع إليه فى مواضعه .

تركه سب علىّ على المنابر :

نشأت العداوة والبغضاء بين الأمويين وعلى بن أبى طالب لاعتقادهم أنه كان سببا فى قتل عثمان ، فـكالوا له السباب والمطاعن فى منتدياتهم ومجتمعاتهم بل وعلى منابرهم أيام الجمع ، وتبعهم فى ذلك ذريتهم ، حتى استخلف عمر بن عبد العزيز فحرم عليهم ما كانوا يفعلون ، واستبدل

سبابه على المنابر بقـوله تعالى : « إن الله يأمر بالعـدل والاحسان » الآية ، فاتخذها الخطباء فى نهاية الخطبة الثانية الى وقتنا هذا ، وتوعد بالعقاب من ينال عليا بمكروه ، وأكرم مولاه «زريقا» حينما وفد عليه ، وقد كان يحفظ القرآن والفرائض ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنى رجل من أهل المدينة ، وقد حفظت القرآن والفرائض ، وليس لى ديوان . فأجابه عمر : من أى الناس أنت ؟ قال : رجـل من موالى بنى هاشم . فقال له : مولى من ؟ قال له : رجل من المسلمين . فقال له عمر : اليك أسأل ، وصاح به : أتـكتمنى من أنت ؟ فقال سرا — مخافة أن يسمعه أحد من بنى أمية : أنا مولى على بن أبى طالب رضى الله عنه . فبكى عمر حتى جرت دموعه على الأرض ، ثم قال : وأنا مولى على ، أتـكاتمنى ولاء على ؟ حدثنى سعيد بن المسيب عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ثم قال : يامزاحم كم تعطى أمثاله ؟ قال : مائة درهم أو مائتين . فقـال عمر : أعطه خمسين دينـاراً لولايته لعلى ابن أبى طالب ، وزده عشرة أخرى ، ومره أن يلحق ببلده فسيأتيه مثل ما يأتى نظراءه .

تحول جسمه بعد الخلافة :

كرس عمر حياته على توخى العدل بين الرعية ، رادًّا ما اختلف فيه من الأحكام الى كتاب الله وسنة رسوله ، متأسيا بقوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسـول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » وألا يترك عاملا من عماله يعبث بنظام من ولى عليهم . كل ذلك كان شاغلا له عن راحته وزوجته وجواريه ، فخيرهن بين البقاء فى المنزل أو الطلاق ، فبكين بكاء شديدا . وتغيرت حالته بعد أن كان شابا غليظا ممتلىء الجسم حتى رثى له محمد بن كعب القرظى حينما دخل عليه يوما من الأيام وجعل ينظر اليه نظر تعجب ، فقال له عمر : ما أعجبك يا ابن كعب ؟ قال : لمـا حال من لونك ، ونفى من شـعرك ، ونحل من جسمك . فقال له : كيف لو رأيتنى فى قبرى بعد ثلاثة أيام حين تقع حدقتى على وجنتى ، ويسيل منخرى وفمى صديدا ودودا ، كنت لى أشد نكرة ! يا ابن كعب أعد على حديثا حدثتنيه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال : قال ابن عباس : إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لـكل شىء شرفا ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، وإنما تجالسون بالأمانة ، ولا تصلوا خلف النائم والمحدث ، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم فى صلاتكم ، ولا تستروا الجدر بالثياب ، ومن نظر فى كتاب أخيه من غير إذنه فـكأنما ينظر فى النار ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يده » .

والفضل ماشهدت به الأعداء :

لمـا كانت وقعة صفين بين على ومعاوية وطلب معاوية تحكيم كتاب الله ، اختلف أصحاب

علىّ أيقبلون التحكيم لأنهم يحاربون لإعلاء كلمة الله ، أم لا يقبلون لأنها خدعة حربية لجأ اليها معاوية وصحبه لما أحسوا بالهزيمة ؟ وبعد جدال وتردد قبل علىّ التحكيم ، واختار معاوية عمرو بن العاص كما اختار أصحاب على أبا موسى الأشعرى ليحكما بينهما . إذ ذاك ظهر قوم من أتباع على ونفروا من التحكيم لاعتقادهم خطأه . هؤلاء هم الخوارج : تفرقوا شيعا وأحزابا ، وتمذهب كل واحد منهم بمذهب خاص مستمرئين نهش أعراض من كانوا لهم بالأمس إخوانا ، واستمروا على حالتهم هذه يناوئون من لا يعمل على . طريقتهم من الخلفاء والأمراء ، الى أن استخلف عمر بن عبد العزيز فشهدوا فيه نهاية النسك والتواضع ، وأنه قد صرف عمال من كان قبله من بنى أمية ، واستعمل أصلح من قدر على اختياره ، فسلك عماله طريقته ، فأقبلوا عليه وقالوا له : لقد حقنت منا دماءك وعرضك لعدلك وحسن سيرتك . ثم فاوضوه أن ينهج طريقتهم فأبى .

محمد مصطفى شادى

فضل البيان

قال حكيم : فضل الانسان على الحيوان بالبيان ، فاذا نطق ولم يفصح عاد بهيما .

وقيل : ما لعيي مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولوحك يافوخه فى عنان السماء .

وقالوا : العى داء دواؤه الخرس .

وروى : أنه تكلم رجل فى حضرة معاوية بن أبى سفيان وكان ذا عى ، فقال عمرو ابن العاص وكان حاضرا : سكوت الألكن نعمة . وقال معاوية : وكلام الأحمق نقمة .

وقالوا : البيان بصر والعى عمى ، والبيان من نتاج العلم ، والعى من نتاج الجهل .

ويحكى أن رجلا وكان داهية جريئا قام الى محمد بن الزيات وزير المعتصم فقال له : إنى مظلومك !

فقال الوزير : هذا الكلام يحتاج الى شهود وبينة ، وأشياء غير ذلك . فقال الرجل : أصلحك الله : الشهود هم البينة ، والبينة هم الشهود ، وأشياء غير ذلك حصر وعى وزيادة هى نقص فى القيام بحجتك أيها الوزير !

فضحك ابن الزيات منه وكشف ظلامته .

الفائدة والربا

بين النظريتين الغربية والاسلامية

تقوم السياسات المالية فى العالم الآن على أساس الفائدة والبنوك ، فما من عملية مالية تتم بين طرفين إلا وللفائدة أثر بين فيها .

والفائدة هى النتيجة الضرورية لنظام الملكية الخاصة والمبادلة الحرة ، وهى ثمن استعمال رأس المال ، سواء أكان ذلك فى الاستهلاك أم فى الإنتاج ، ووسيلة ذلك الإقراض .

ويرجع سبب الاقتراض الى توزيع الجهود البشرية ، فأنت يمكنك استثمار المال فى ناحية من نواحى النشاط الاقتصادى حيث تؤهلك ميزاتك الخاصة وتدريبك لهذا العمل .

ومن الجناية أن تعطل رءوس الأموال بكنزها فى خزائن حديد كما كان يفعل الأقدمون ، إذ أن كل قرش يحجز فى تلك الخزانة يسحب من السوق ، فتقل وسائل المبادلة ، وبذلك تتأثر القوة الشرائية فى المجتمع ، مما يسبب فقر الأمة . وهذا هو سبب مهاجمة النظريات الاشتراكية والشيوعية للرأسمالية . ذلك أن النقود وهى وسيلة المبادلة ، تصدرها الحكومات والبنوك المركزية بقدر محدود يتفق وحاجة البلد الاقتصادية محافظة على القوة الشرائية فيه ، لأنها لو زادت أو نقصت عن حاجة الأمة اختلت تلك القوة الشرائية ، وتغيرت الأسعار ، وارتبك المنتجون والوسطاء والمستهلكون جميعا .

ويتكون رأس المال من مال موروث أو مدخر ، وهو فى كلتا الحالتين يود صاحبه أن يستثمره ، وقد يكون صاحب رأس المال غير كفء للعمل ، أو أن رأس المال ذاته يكون زائدا عن حاجته فيقرضه لمن يتطلبه نظير فائدة . وبذلك يكون الإقراض إما للاستهلاك وقد أصبح نادرا مثله كالقروض التى تعقدها الحكومات للحروب ، وإما للإنتاج وتقوم الصناعات الكبيرة والمشروعات الجديدة معتمدة على هذا النوع من القروض لتغطى حاجتها المتزايدة للمال ، حتى إنه قد تأسست بنوك وبيوت مالية خاصة لتنظيم مسألة الإقراض والتسليف ، كالبنوك التى أنشئت خصيصا لتموين المصانع الكبيرة فى ألمانيا ، أو لإنشاء صناعات جديدة فيها ، وكبنك التسليف الزراعى فى مصر .

وإن المحال التجارية والمؤسسات المالية والمصانع والبنوك بدورها تشغل جزءاً من رأس مالها وتستثمره تارة بهيئة قروض ، وطورا فى شراء سندات أو أوراق مالية أخرى ، ويدخلون فى حساب أرباحهم فائدة رأس المال ، ولا يحتفظون برصيد كبير عاطل فى خزائن محلاتهم ، بل هم يتعاملون دائما مع البنوك ، ومن طبيعة عملها التعامل بالمال فى نواحى الاستثمار المختلفة .

ويرجع تاريخ الفائدة الى العصور الأولى ، فقد شغف الاسرائيليون من قبل موسى بجمع المال والاشتغال به ، واتبعوا طرقا مغرية لسحبه من ذويه ، فابتدعوا نظامى الفائدة والرهن ، وانتشروا بين الناس ، وأسسوا « بنوكا للتسليف تحت رهونات » ، وأنزل إليهم كتاب من ربهم ينهاهم عن الربا ، فعصوا أمر ربهم ، واستباحوا لأنفسهم ذلك الجشع المادى ، ودفعهم التقصى الذى يشعرون به من تفرقهم وتشتتهم الى الاحتماء وراء المال والتقوى به ، وتفننوا فى نظام الفائدة فجعلوها مركبة تتضاعف بطول مدة القرض ، حتى إذا ما عجز المدين عن الدفع نزعوا ملكيته ونقلوا الى أنفسهم كل ثروته .

وكانت النتيجة أن تجمعت الأموال فى أيدى نفر قليل أصبحوا أصحاب رءوس الأموال ، وتكونت منهم طبقة غنية عاطلة تحترف الإقراض ، وتعرف بالخبرة أنها تحصل دائما على فائدة لنقودهم التى يقرضونها يعتبرونها — فى عرفهم — فائدة مكتسبة .

وكان أن جاء دور الانقلاب الصناعى فى أوربا ، واستخدمت الآلات بدل الانسان ، وأتى ذلك بالانتاج الكبير ، وعاد بالربح الوفير على أصحاب الصناعات والمتاجر الكبيرة ، فأثرت طوائف عدة ، وزاد الإقبال على الادخار ، واستعملت كميات هائلة من رءوس الأموال فى وسائل الإنتاج ، واحتاج رجال الأعمال الأغنياء أنفسهم الى الاقتراض — وهذا هو الإقراض للإنتاج — نظير فائدة يحددها عرض رءوس الأموال سواء المدخرة أم الموروثة ، وطلب المنتجين لها ، وأصبحت لها نسبة مئوية ، وأصبح من السهل على رب العمل الحصول على المال اللازم لصناعته بفائدة صغيرة ، بينما العامل الذى لا يقترض إلا لغرض الاستهلاك — للحصول على حاجاته الضرورية — لا ينال ما يحتاج إليه إلا بعد أن يقبل فائدة مضاعفة ، ويرهن منقولاته وأملاكه ، وبذلك تتهدد تلك الطبقة بالفقر والاعدام .

وزاد نفوذ الرأسماليين وتحكمهم فى رقاب العمال والطبقات الفقيرة ، واتخذ نظام الرق شكل رق العمل ، وانتهى الأمر بتبرم العمال ، وظهور اتحادات العمل ، ونظريات الاشتراكية والشيوعية ، والاشتراكية الوطنية وغيرها ، ترمى للتخلص من نير رب العمل ، وتحسين حالة العمال والطبقات الفقيرة ، بتقليل ساعات العمل ، وزيادة الأجور واقتسام الأرباح ، بل والقضاء على الملكية الخاصة ، وعلى الطبقة الغنية العاطلة ، وعلى الدخل الناشىء من الفائدة والإيجار ، وإباحة الدخل الناشىء من كسب العمل .

أسباب الفائدة :

اتفقت الشرائع على تحريم الفائدة والربا ، على لسان موسى وعيسى ، وجاء النبى العربى صلى الله عليه وسلم يقول : « وأحل الله البيع وحرم الربا » : ذلك أن الأموال كانت تقرض لأغراض الاستهلاك فقط ، أى لحالات شخصية غير منتجة ، وكان الفقير هو الذى يقترض من الغنى

المرابى الذى ينتهز فرصة حاجة المدين الى المال ويملى شروطه القاسية ، حتى إنه فى عهد الرومان كان يرهن المدين شخصه ، فإذا ما حل ميعاد الوفاء ولم يمكنه لفقره أن يدفع لا المبلغ ولا فوائده يدفع بجسمه وعمله بأن يصبح ملكا للدائن . وإن فى قصة « شيلوك » المرابى الذى حكمت له المحكمة أن يقتطع رطلامن لحم المدين وفاء لشروط سداد دينه لدليلا على قسوة الدائنين وتحكمهم ، وأن المدين الذى يقبل هـذه الشروط كان يقبلها تحت إرغام الحاجة الماسة التى تسلب قواه العاقله فيخضع لشروط الدائن ، ولذلك أقام الدين من نفسه قيما عليه ليحفظ له أمواله واعتباره ، ويمنعه من الوقوع بين براثن الدائنين .

ولـكن تقسيم العمل والانقـلاب الصناعى وقيام الصناعات الـكبيرة ، كل أولئك قلب الأوضاع وجعل الإقراض للإنتاج هو الظاهرة الأكثر شيوعا . ولذلك يذهب الاقتصاديون لتبرير الفائدة الى سببين : قانونى ، واقتصادى .

السبب القـانونى :

أن رأس المال هو أحد عوامل الإنتاج الثلاثة ، وهى الأرض ، والعمل ، ورأس المال . فكما أن الأرض تستحق نظير استعمالها إيجارا ، والعمل أجرا ، فكذلك يأخـذ رأس المال فائدة . وإن مثل امتلاكك منزلا تنتقل اليك ملـكيته إما عن طريق الميراث أو الشراء : مثل رأس المال الذى تكون قد ورثته عن آبائك أو قد ادخرته فى حداثتك ، فهو ملـكية خاصة لا تعطيها لأحد إلا فى نظير مقابل ، مثلما يأخذ المالك إيجارا نظير تأجير منزله أو أرضه .

وقـد يقال إن رأس المال شىء زائد عن حاجة صاحبـه ، أو إن صاحبه عاجز عن العمل والتصرف فى ماله فلا يستحق عنه فائدة . ولـكن كما يقول الأستاذ « جيد » فى كتابه (مبادىء الاقتصاد السياسى) : أيفرض علىّ أن أدع غيرى يحتل بيتى فقط لأنه قدر علىّ أن أكون غائبا عنه ؟ أو أن أسمح لغيرى أن يأكل طعامى لأنى لست جائعا الآن ؟ ثم إنه إذا كان إيجار المنزل أو الأرض يعتبر قانونيا فكيف لا يكون إيجار رأس المال كذلك ما دام يمكن استعمال رأس المال فى شراء منزل أو أرض ؟ بل إن رأس المال نفسه شكل دائم من الثروة له شخصية قائمة عن المنزل الذى قد يتهدم ، أو الأرض التى قد تبور .

السبب الاقتصادى :

تنشأ الفائدة نتيجـة الموازنة بين الحاضر والمستقبل ، والتفاضل بين المنفعـة الحاضرة والمنفعة المستقبلة . فالمقـرض يؤخر التمتع بوسائله الحـاضرة فى سبيل أن يضمن حصوله على قسط ثابت فى مستقبل حياته ، أو هو يضحى منفعة حاضرة بمنفعة مستقبلة .

فالمـائة جنيه فى هـذه السنة قيمتها تساوى بعـد سنة بالنسبة للدائن مائة جنيه وخمسة جنيهات ، وعلى ذلك يستحق المقرض خمسة جنيهات هى فائدة قرضه .

أو أن المائة جنيه قيمتها تساوى بعد سنة بالنسبة للدائن ٩٥ جنيها ، فهو يخصم خمسة جنيهات من المبلغ المقرض فى تاريخ عقد القرض حتى لا يضار اقتصاديا .

ولكن هذه الأسباب قررها الاقتصاديون تبريرا للحالة الناجمة عن النظام الاقتصادى ، وهذا النظام بوضعه الحالى فاسد من أساسه ، لأنه لم يمنع تصادم الفئات وجشع الأفراد وافتقار بعض البلاد نتيجة لنظام توزيع الثروة ، مما سبب المنازعات والشحناء الدائمة بين رب العمل والعامل ، أو الحكومات بعضها وبعض ، بسبب المادة التى تجمعت لدى أفراد وشحت من لدن آخرين . وإن التوتر الحالى فى الحالة الدولية يرجع سببه لسوء توزيع المادة الأولية التى توفرت لدى الرأسماليين .

ولقد حرم الله الربا لما يؤدى اليه من النتائج السابقة التى تهدد المجتمع بالانهيار ، وليرفع من شأن الانسان ، فلا يعيش على التحايل لجمع المال وكنزه ، وبذلك تتكون الطبقة العاطلة من الأمة ، تبقى حارسة على مال معطل ، أو تستخدمه فى إذلال فئات أخرى . ولا يخفى ما يتركه ذلك من الأثر النفسانى السيء ، من تفشى الحسد والبغضاء بين الطبقات المختلفة . وهذا ما يسعى الاسلام للقضاء عليه ، لأنه وهو « دين عام خالد » يفرض مجتمعا غير المجتمع الذى نعيش فيه : مجتمعا مثاليا تسود فيه المحبة والإخاء بين جميع المسلمين ، فالمسلم أخو المسلم ، ولا يتم إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، لذلك لم يفرق بين الاقراض للاستهلاك أو الإقراض للإنتاج . بل إن من توفرت لديه كميات من المال من تجارة أو صناعة أو ميراث أو غنائم وأصبح فى غنى عنه فلا ضير أن يقرضه لإخوانه الذين يحتاجون اليه سواء لغرض إشباع حاجتهم ، أو للعمل فى الانتاج ، ولا يتطلب منهم فائدة ، إلا أنه فى الحالة الأخيرة يمكنه كما سنبين بعد أن يشترك فى الانتاج وينال أرباحا ، وهذا أسمى أنواع التعاون . أليس من مبادىء التعاون الاشتراك فى رأس المال دون انتظار نصيب فى فوائده ؟

كذلك يفرض الاسلام فى المحيط الاسلامى تعاونا بين جميع أفراده ، فهم وحدات تدأب على العمل فى تعاون بينهم لإتمام العمل الربانى الذى خلق الانسان من أجله ، حيث قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »

ولكن مبادىء الاسلام أصبحت عافية الآثار ، إذ قد أهملها ذووها وأخذوا عن الغرب قوانينهم الوضعية ، واعتنقوا مبادئهم الاقتصادية . ولذلك اختلط على أفراد المسلمين التوفيق بين مجاراة الغربيين والتمسك بأهداب دينهم ، خصوصا أن حكوماتهم قد رتبت معاملاتها الاقتصادية على تلك النظم الغربية ، فأسست البنوك ، وأقامت الشركات والبيوت المالية الحديثة . فترى المسلم يودع أمواله فى البنك إلا أنه للوازع الدينى يأبى أن يأخذ عنها

فوائد . وفى ذلك يقول جيد : إن البنكير المسيحى أو اليهودى يستفيد من ذلك كثيرا ، لأنه يشغل ويستثمر تلك الأموال ثم هو يأخذ الفائدة لحسابه .

إلا أن المسلم الذى يفعل ذلك يرتكب خطأ كبيرا من الوجهتين القومية والدينية :

فمن وجهة الاقتصاد القومى : إن مجرد إيداع المال فى البنك يزيد ثروة الأجانب ويقوى نفوذهم ، وكان المفروض أن تطرد رءوس الأموال المصرية رءوس الأموال الأجنبية وتحل محلها فى الصناعة والتجارة والترقى بالزراعة ، خصوصا فى مصر البلد الناشىء نشأة اقتصادية ناهضة ، فبدلا من تعطيل رءوس الأموال يجب المجازفة بها بتأسيس شركات كبيرة لاستثمار الموارد الطبيعية فى مصر ، أو الاشتراك فى رأس مال الشركات الموجودة بشراء أسهمها .

أما من الوجهة الدينية فيكون مثله مثل الرجل يؤجر لليونانى دكانا فى منزله ويحرم على نفسه الخمر ، بينما هو قد ساعد على انتشارها بين سكان الحى . فهو بالمثل إذا لم يأخذ الفائدة من البنك عن أمواله المودعة فيه فانه يعطيه فرصة تشغيلها ومضاعفة أرباحه .

ثم إن ذلك لم يخرج عن كونه كنزاً ، وفى ذلك يقول تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

هذه هى نظرية الاسلام فى تحريم الكنز والاشتغال بجمع المال « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده » . ولكن لا يظنن من ذلك أنه يدعو الى الإنفاق والإسراف والتبذير فتضيع الثروة الفردية ولا تتجمع لدى الأفراد رءوس الأموال اللازمة للصناعة والانتاج الكبير ، كلا ! بل إنه يحض على إنفاقها فى سبيل الله : أى فى التداول والانتاج والقيام بالعمل الربانى الذى كلف به الانسان يوم حمل الأمانة الكبرى ، وهى تكملة نقص الأرض وزينتها وزخرفها باستخراج ما أودع فى بطنها فى المناجم والمحاجر وصناعته وتنظيمه وتنسيق الزراعة .

بل هو لهذا الغرض يدعو الى الادخار والاقتصاد ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقال : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقال : « ولا تبسطها كل البسط » وقال صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » .

والادخار الذى يدعو له الاسلام ادخار لغرضين : إما للقيام بمشروع جديد ، أو للاشتراك فى مشروع قديم . ويكون ذلك فى عصرنا الحالى بقيام جماعة من المسلمين بتأسيس شركة والاشتراك فى رأس مالها وطرح أسهمها فى السوق ليكتتب الجمهور فيها ، أو بشراء أسهم شركة قائمة كشركة الغزل ، وبذلك يشتركون فى رأس مالها ، لأن السهم جزء من رأس المال

يعود على صاحبه بربح ناشىء من كسب التجارة أو الصناعة ، فهو حلال بيّن ، ولا عبرة إذا كانت الشركة تشغل جزءا من رأس مالها بفوائد ، فان هذا ليس الغرض من قيامها ، وحكمه حكم الحرير فى لباس يغلب فى نسجه القطن .

إنما إذا كانوا هم أصحاب الشركة أو المشروع فلا يصدرون سندات ، وإذا كانوا من جمهور المساهمين أو المموالين فلا يشترون سندات ، لأن السند يمثل دينا على الشركة ويستحق صاحبه فائدة سنوية سواء ربحت الشركة أم خسرت ، وبذلك يدخل فى الفئة الغنية العاطلة التى تشتغل بالمال ، والتى يحاربها الاسلام ، وتحاربها الاشتراكية الحديثة .

وإذا كانت الحكومات الاسلامية قد سارت على سنن القوانين الاقتصادية الوضعية ، فأنشأت بنوكا مركزية وصناديق للتوفير تشغل أموالها وتعطى عنها فوائد ، وبنوكا للتسليف وتأخذ هى الفائدة ، واضطرتها الظروف السياسية الى الاستدانة وعقد القروض مع الحكومات والبيوت المالية الأجنبية نظير فائدة تدفعها سنويا — فإنه يتعين على كل مسلم حريص على اتباع تعاليم دينه أن يتحاشى هذه المعاملات ، وأن يؤلف ذوو السعة جمعيات من بينهم للإقراض ، إما لغرض الاستهلاك فى الحالات الضرورية ، أو للإنتاج لتشجيع الصناعة والزراعة القومية والنهوض بها بدون فائدة . ولا ضير من الرهن حتى إذا لم يف المدين بدينه يبيع الشىء المرهون ويرد للمدين باقى قيمته فى لين ورفق ، إذ مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . ويخرجون الزكاة ويتصدقون ، حتى تخف وطأة الحاجة على العمال والفقراء ، قال الله تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

ابراهيم زكى

خريج كلية التجارة العليا

عدل عمر الفاروق

كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه فى موسم الحج ، فاذا اجتمعوا قام خطيبا وقال : أيها الناس : إنى لم أستعمل عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أعراضكم ولا من أموالكم شيئا ، إنما استعملتهم ليحجزوا بينكم ، ويردوا عليكم فيئكم ، فأيكم كانت له عندى مظلمة فليقم .

نقول : إن هذه الوسيلة التى ابتكرها عمر وتفرد بها من بين جميع قادة الأمم ، هى أفعل فى تقويم أخلاق الولاة من كل الأوامر المشددة التى تصدر اليهم ، فضلا عن أنها تشف عن ديمقراطية تحفظ على الشعب كرامته وتصون له عزته .

النبوغ بين الذكر والنسيان

الخليل بن أحمد

ذكر الناس سيبويه ونسوا أستاذه، وتمثلوا بذكاء إياس وتركوا الخليل، ولهجوا بالأصمعي وأهملوا صاحب العين .

ذلك هو الخليل بن أحمد، نابغة العرب، وصاحب الفضل الأعظم على لغة الضاد والناطقين بها جميعا .

عصر الخليل :

شهدت المدة التي قضاها الخليل من سنة ١٠٠ الى ١٧٤ هـ انقلابا هائلا فى حياة العرب الاجتماعية والعلمية واللغوية والأدبية، ذلك بأن الخلفاء من بنى أمية قد ركنوا الى الترف والإسراف، واستمرءوا الدعة والخمول، وانشقوا على أنفسهم، فدب الضعف فى دولتهم، وطمع فيهم خصومهم، وائتمر بهم بنو عمومتهم من العباسيين والعلويين، واستعانوا عليهم بغير العرب من العجم، حتى دكوا عروشهم، وأطاحوا برءوسهم، وأعمل السفاح والمنصور السيف فى أهل بيتهما حتى كان من شناعة ذلك ما سطره التاريخ . قام بنو العباس إذن على سواعد الفرس، فقربوا العجم وأبعدوا العرب لتعصبهم لبنى أمية، وخوفهم من بنى على، وأوصى المنصور أبا مسلم وصيته المشهورة : « إن استطعت ألا تدع فى خراسان لسانا عربيا فافعل » . فنشأ عن ذلك انقلاب فى الفكر وفى اللغة . فقد تعلم العجم لسان العرب، واستخدمهم الخلفاء فى الدولة، فأدخلوا أفكارهم وعلومهم وفلسفتهم، وتغيرت حال اللغة فى التصور والتفكير والخيال والأسلوب، واستفاد العرب من كل ذلك وتعلموه وفهموه ووضعوا فيه الأسفار، وابتكروا من عندهم فنونا وعلوما، فكانت نهضة كبرى أورثتنا حضارة اليوم .

غير أن ما تقدم قد صحبه سيئات، منها أن العجمة انتشرت، وفشا اللحن، وتبلبلت الألسنة، وضعفت السليقة، فقام الغيورون ينضحون عن العربية، يصححون أصولها، ويضعون قواعدها، ويبتكرون ضوابطها، وينشرون فيها السلامة حتى نحوا عنها شرا كثيرا . وقد أم القوم فى ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدى .

نشأة الخليل :

نشأ الخليل نشأة عربية، فتعلم القرآن والحديث، وأخذ اللغة والأدب عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى، وتلقى فن الإيقاع وغيره على أئمة تلك الفنون . ورحل الى البادية غير

مرة ، فشافه الأعراب والبلغاء ، وجمع من شعرهم ولغتهم ما لم يجتمع لأحد قبله ، ولم يكن همه من الرحلة الى البادية البحث عن الشعر واللغة وضبط الألفاظ ومعرفة اللهجات ليس غير ، وإنما حشد حشده لوضع أصول النحو وفروعه ومسائله حتى جعل من ذلك علما قائما مضبوطا نقله عنه أئمة هذا الفن ، كما سيأتى ذكره بعد .

اختراع الخليل :

الشعر كتاب العرب ، وضعوا فيه تاريخهم وعلومهم ومفاخرهم وعاداتهم وأخلاقهم ، فكان طبيعيا أن يهتم الخليل به أكثر من غيره ، فنظر إليه نظرة البحث فى ماضيه وحاضره ومستقبله فوجد أن العرب جرت فى ذلك على نظام لم يشذ عنه أحد منهم ، وجرى الخلف على ما صنع السلف بالطبع والسليقة ، ولكن الحال الآن قد تغيرت ، فالموالى قد تعاطوا الشعر وقرضوه ، والعرب قد ضعفت فيهم السليقة ، والألسنة تبلبلت واللحن فشا ، وقد انزلق بعضهم الى غير المقاييس العربية ، ولو اطرد الأمر على هذا لعمت الفوضى ، واضطرب حال الشعر ، وكانت الكارثة على أثمن ما خلف العرب . فطن الخليل الى هذا فهاله ، فأخذ يجمع شعر العرب من كل فج ، ورتبه ترتيبا عجيبا ، وجعله طوائف ، وأرجع كل طائفة الى أصل ، ووضع لكل أصل تفعيلات متزنة يعرف بها ، ويتميز من أصحابه من أجلها ، وانتهت أصوله الى خمسة عشر أصلا سماها بحورا ، وجعل لكل بحر اسما يناسبه ، واستخفى بعمله عن الصحب والولد ، مخافة أن يظنوا به الظنون . وقد رآه مرة أحد أولاده يقطع بيتا من الشعر فظنه مجنونا وأخبر الناس بذلك ، فلامه الخليل على عمله وقال :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

فلما اطمأن الخليل الى عمله ، ووثق من جلية أمره ، أخرجه الى الناس فبهرهم ، واستولى عليهم ما يشبه الذهول ، وخضع الجميع أمام نبوغ الخليل وتفوقه . ولو كان فى عصرنا هذا لأقاموا له التماثيل .

أمنت لغة القرآن إذن من الاضطراب ، وأصبح الشعر فى حصن لا يتطرق إليه فساد ولا يعتوره خلل ، وصار الشاعر آمنا يؤوى الى ركن ركين ، يقيس به قوله ، ويقدر به عمله ، وأصبح الناطقون بالضاد عيالاً فى ذلك على الخليل ، سواء منهم الشاعر والناثر ، والفقيه والمحدث والمفسر ، والعالم والطالب ، ولا يدرى إلا الله ماذا كانت الحال اليوم فى شعر العرب لولم يصنع الخليل ما صنع .

هذا الرجل الذى أتى بعالم يأت به أحد قبله ، وكانت حياته خيرا وبركة على لغة العرب ، وكان فى وقته ملء فم الدنيا وسمعها ، أين ذكره الآن ؟ هل تعرفه الجامعة ؟ هل تعرفه [illegible]

المعارف ؟ والغريب فى أمر هذا الرجل أن الناس يرجعون اليه فى كل يوم ألف مرة ، ولكن أحدا لم يذكره مرة !

ولم يكن اختراع الخليل مقصورا على ضوابط الشعر وأوزانه ، وإنما ابتكر طريقة تدوين المعاجم ، وهو صاحب الشكل المستعمل الآن .

قال حمزة بن الحسن الأصبهانى : إن دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها عند العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذى لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وإنما اخترعه ، فلو كانت أيامه قديمة ، ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته مالم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه علم العروض ، ومن وضعه كتاب العين الذى يحصر لغة أمة ... الخ .

نبوغ الخليل :

النبوغ : التفوق . وسأقف منه على كلمات ، فقد اتسعت أرجاؤه وإن قل وجوده فى الناس ، والنبوغ قد يكون فى فكرة ، وقد يكون فى إدراك ، وقد يكون فى فن ، وقد يكون فى علم ، وقد يكون فى غير ذلك . وللنبوغ مزايا وضحايا ، فهو الذى أضاء العالم ، ووهب للناس النور والمعرفة ، ونقلهم مما كانوا فيه الى الأفق الذى نرى الآن . غير أنه يخرج على المعهود والمألوف ، ويطمس كثيرين من العلماء البارزين ، ويقضى على شهرة المشهورين منهم . ولهذا كان أكثر الناس عداوة للنبوغ ، وأشدهم حقدا على النابغ ، العلماء وأنصاف العلماء ، يحاربونه ويقللون من شأنه . ولكن أنى للذرة أن تطاول الجبل ، وللذبالة أن تباهى الغزالة ! ومن شأن النابغة أن يفكر فى كل شىء حوله ، وأن يفكر فيما ليس حوله ، وأن ينصت الى صوت الطبيعة ، فقد تتكون منه لغة يتفاهم بها مع نفسه ، ويزداد هذا التفاهم حتى يخرج من العدم وجودا ، وقد يرسل النابغة فكره الى عالم آخر فيواتيه الالهام فيدله على ما لم يبدعه أحد قبله . والخليل قد فكر فواتاه الالهام ، وأنصت الى صوت الجماد فكانت منه لغة تفاهم بها مع نفسه ، وازداد هذا التفاهم حتى أوجد ما لم يوجده أحد قبله . قالوا إن الخليل قد مر برجل يضرب بمقرعة على طست ، فخلق من هذه الرنات علم العروض ، وهذا هو النبوغ . فالخليل نابغة لأنه فكر ، ولأنه أدرك ، ولأنه خلق ما لم يخلق من قبل .

الخليل اللغوى :

كان الخليل إماما فى اللغة ، أخذها عن ابن العلاء وأضرابه ، وشافه الأعراب فى البادية ، فأحاط من ذلك بما لم يحط به أحد ، فأراد أن يحفظ للعرب لغتهم ، فابتكر طريقة المعاجم ، ووضع كتاب العين ، وقد أكمله بعده تلاميذه النضر بن شميل وغيره ، وقد احتذى مثاله

كل من جاء بعده من اللغويين ، وقد بدأه بحرف العين فسماه بهذا الاسم . غير أن النضر وزملاءه لم يتمكنوا من إتمام الكتاب كما رسم الخليل ، فغيروا وبدلوا ، فجاء فيه بعض اضطراب لا يقع الخليل فى مثله .

الخليل النحوى :

إذا استثنينا جملا قصيرة وضعها أبو الأسود وغيره ، وجدنا أن الخليل هو الذى أبدع النحو ، أو على الأقل هو الذى أوجده علما قائما مضبوطا ، فقد استخرج مسائله وفرّع على أصوله ، ووضع ضوابطه ، وخف اليه العلماء فأخذوه عنه ، ولقن سيبويه ما وضع منه كتابه الذى صار مرجعا وإماما لكل من كتب فى هذا الفن بعد . وقد بلغ من شأن هذا الكتاب أنه كان إذا أطلق لفظ الكتاب لا ينصرف الذهن إلا اليه . قال الجاحظ : أردت الخروج الى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ففكرت فى شىء أهديه اليه فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه . وكان الخليل يحب سيبويه ويقربه ، ويقول عند قدومه : مرحبا بزائر لا يمل ! قال أبو عمرو المخزومى : ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا لسيبويه .

الخليل العالم :

يكفى أن نقول فى ذلك : إن الخليل كان يعلم ما يعلمه أهل زمانه ، ويعلم ما ليس يعلمونه ويعلمهم إياه ، وقد ألف كتبا فى كثير من العلوم والفنون .

الخليل الزاهد :

كان الخليل عالى النفس بعيد الهمة ، أبيا ، يرى الحياة فى العلم ، وإبداع ما ينفع الناس ، غير مهتم بمال ولا منصب ، فكان تلاميذه يكسبون بعلمه الأموال الطائلة وهو مقيم فى كوخ من أكواخ البصرة يعمل ويفكر ويخرج الى الناس ما يبهرهم ، وكان يقول : « إنى لأغلق علىّ بابى فما يجاوزه همى » . وكثيرا ما كان ينشد قول الأخطل :

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

وقد علم بحاله سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة فأجرى له راتبا ، وكان واليا على فارس والأهواز ، وكتب اليه يستدعى حضوره ، فأحس الخليل أنه إنما يريد أن يستخدمه بماله ، فكتب اليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحا بنفسى أنى لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب ، فقال الخليل :

إن الذى شق فمى ضامن للرزق حتى يتوفانى

فبلغ ذلك سليمان فكتب اليه يعتذر وأضعف راتبه .

وفاة الخليل :

قالوا : إن الخليل دخل المسجد وهو يفكر فى اختراع نوع من الحساب تذهب به الجارية الى البياع فلا يظلمها ، فصدمته سارية الجامع ، فكانت هذه الصدمة سبب وفاته ، رحمه الله ، وذكر العلماء به ؟

محمد ناصف

حرفة الادب

اشتهر قول الأدباء : أدركته حُرْفة الأدب . والحرفة : الحرمان ، يريدون بذلك أن كل أديب لا بد من أن تدركه هذه الحرفة فتنعكس آماله ، وتسوء حاله . حتى روى أن أبا عبيدة ابن معمر بن المثنى قال : قال لى أبى : إذا كتبت كتابا فالحن فيه ، فان الصواب حرفة ، والخطأ نجح . أخذه بعض الشعراء فنظمه فى قوله :

إن كنت يوما كاتبا رقعة تبغى بها نجح وصول الطلب
إياك أن تعرب ألفاظها فتكتسى حرفة أهل الأدب

ومن أدلة القائلين بهذا الرأى ماحدث لعبد الله بن المعتز : فانه لما خلع المقتدر بالله العباسى بويع عبد الله بن المعتز بالخلافة ، وهو واضع علم البديع ، ومكانته فى الأدب لا تطاول . فلقبوه المرتضى . وكانت الفتن قائمة على ساق وقدم فلم يلبث فى الخلافة غير يومين ، فألحت عليه الاضطرابات فاضطر للهرب بحياته من وجه الذين يتقصدونه بالموت . ولم يلبث أن انكشف أمره وقتله حزب خصمه فى تلك الدار . فقال فيه ابن بسام :

لله درك من ميت بمضيعة ناهيك فى العلم والآداب والحسب
مافيه لولا ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

وقال أبو إسحاق الصابى :

قد كنت أعجب من مالى وكثرته وكيف تغفل عنى حرفة الأدب
حتى انثنت وهى كالغضبى تلاحظنى شزرا فلم تبق لى شيئا من النشب

أما نحن فنرد كل هذا ، ودليلنا ما كان للادب من دولة فى شباب الدولة الاسلامية ، وماله من دولة اليوم ، حيث يبوّئ المجيدين من أهله أعلى المراتب .

نظرة فى عالم الاسماك

أطروفة علمية عن عالم البحار

إن هذا النهر العذب الفرات ، الهادىء الجنبات ، وذاك البحر الملح الأجاج ، المتلاطم الأمواج ، يضمان بين طياتهما عالما غريبا مملوءاً بكل مدهش وعجيب ، ذلكم هو عالم الأسماك . وكلما تقدم العلم أبان عن ظواهر غامضة ونواح غريبة فى حياة تلك الكائنات يقف العقل أمامها عاجزا مشدوها ، لا يجد لها تفسيرا أو يدرك لها تعليلا . فها كم حديث الأسماك المهاجرة : تلك التى تترك موطنها وتهاجر فى سياحة شاقة طويلة ، معرضة لأشد الأخطار دون أن تتردد أو تهن ، حديث فيه طلاوة وغرابة ، وفيه عظة وعبرة .

وجد علماء الحيوان من المشاهدات العديدة أن ثعابين السمك لا تتناسل أصلا فى الأنهار التى تعيش فيها ، ومع ذلك فان عددها لا ينقص سنة عن أخرى ؛ فلما أن وضع تاريخها موضع البحث والتجربة ، طالعتهم قصة من أغرب القصص التى لا يكاد يصدقها العقل ، تبين أن ثعابين السمك حينما يتم نموها فى السنة الخامسة أو السادسة ، تتهيأ لمغادرة النهر والرحلة الى المحيط ابتغاء التزاوج ، فتنتحين وقت الخريف وتترك النهر فى جماعات هائلة متجهة الى مصبه ، ثم تنتظر ليلة مدلهمة الظلام حالكة السواد عاصفة الجو ، فتنزل الى البحر وقت اضطرابه ، وتعوم فيه بنشاط عجيب ؛ تبتدئ بذلك رحلتها الطويلة ، فتمر من بوغاز جبل طارق الى المحيط الأطلنطى ، وتعبره الى جزائر برمودة شمال بحر السرجاس ، التى تبعد عن شواطئ الولايات المتحدة الامريكية بنحو ألف كيلو متر . وقد اصطيدت حيوانات مختلفة فى مناطق متعددة أثناء تلك السياحة ، فوجد أن الغدد التناسلية تكون أقرب الى البلوغ والنضج كلما اقتربت من بحر السرجاس ، مما يدل على نموها طول فترة السياحة .

تقطع إذاً آلاف الكيلومترات لكى تصل الىجزائر البرمود بسرعة تتراوح بين ٢٠ — ٣٠ كيلو مترا فى اليوم ، فاذا ما وصلت الى مكانها المنشود تبيض الأنثى كمية هائلة من البيض قد تزيد على المليون ، ثم تفرغ الذكور حيواناتها المنوية فى الماء ، وبهذه الطريقة يتم إخصاب البيض .

يبقى البيض مدة فى الماء ثم يفقس وتخرج منه يرقات صغيرة تبدأ سياحتها راجعة فى نفس الطريق الذى سلكه الآباء من قبل ، وتتغذى فى طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة . أما مصير الآباء بعد وضع البيض فأمره مجهول تماما ، إلا أن الرأى السائد فى الدوائر العلمية أنها تموت بعد أن تؤدى مهمتها فى الحياة ، كما هى العادة عند بعض الحيوانات . وعند ما تعبر

ثعابين السمك الأمريكية النامة النمو بسياحتها من الأنهار الى المحيط ، فإن نسلها لا يرجع إلا الى الأنهار الأمريكية التى تربى فيها الأبوان ، فلا يوجد ثعبان السمك الأمريكى فى أنهار أوربا ولا فى أنهار أفريقية ، وكذلك الشأن مع الثعبان الافريقى والأوربى ، كل يسلك سبيلا مرسوما لا يحيد عنه قيد أنملة ، هو السبيل الذى سلكه أبواه من قبل .

فقل لى بربك : أى قدرة خفية قاهرة تسيطر على تلك المجهاوات فتسيرها فى طريق لا تجد محيصا عن سلوكه ، لا يختلف فى ذلك الابن عن الأب عن الجد ؟ ثم كيف يدرك الأبناء أنها فى غربة عن الوطن ، فلا يهدأ لها بال ، ولا تستقر على حال حتى تهاجر من مقرها وهى لا تضل سبيلها فى تلك البحار الخضمة المتلاطمة الأمواج ؟

إنها قدرة الله العلى القادر (وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا) !!!

رضوان محمد رضوان

بكالوريوس فى العلوم الزراعية

من أخبار أهل الفصاحة

قال الجاحظ : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بالايجاز .

فى المثل : أخطب من قس بن ساعدة الايادى .

وقد عرف الناس أن لاياد وتميم شرفا ليس لقبيلة من العرب ، فأما إياد فلأن النبى صلى الله عليه وسلم روى كلام قس وموعظته بعكاظ . وأما تميم فلأنه صلى الله عليه وسلم سأل عمرو بن الأيهم عن الزبرقان بن بدر ، فأجابه بكلام مدحه فيه بما عنده ، فلم يرض الزبرقان باقتصاره على ما قاله ، ورأى أنه غض منه ، وأنها عثرة لا تقال . فعاد عمرو بن الأيهم فذمه لرسول الله فى المجلس نفسه ، وكان صادقا فيما ذكره أولا من محاسنه ، وصادقا فيما ذكره ثانية من مساوئه . فعجب صلى الله عليه وسلم من سرعة بديهته ، وطلاوة عبارته ، وقال : إن من البيان لسحرا .

قال قيس بن عاصم يمدح قوما بالخطابة :

خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن

وقال آخر :

وإنى من قوم كرام أعزة ... لأقدامهم صيغت رءوس المنابر

دفاع عن القرآن الكريم

هل هذه القراءات السبع هى الأحرف السبعة

فصل : قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ، ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء . وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب اليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير . ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزه . وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكل صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا فى ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب . وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون ، كالقاضى أبى بكر بن الطيب ، والطبرى وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالاجماع ، وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه . أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيه إلا أنهم رووه . وأما ما يؤثر عن أبى السمال ومن قارنه فلا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ، وأحسن محاملها أنها بيان تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والإثبات . ووجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة . وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام — قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الاعجاز وجودة الوصف ، ولم تقع الاباحة فى قوله عليه السلام : « فاقرءوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة اذا أراد أن يبدل اللفظ من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه . ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معرضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل

من عند الله . وإنما وقعت الاباحة فى الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبى بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا . وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها . وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منهما ، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأنى جبريل » ؟ هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه ؟ وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا . فقيل له : إنما نقرأ : وأقوم قيلا . فقال أنس : وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ ، واحد . فانما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله : اقرأ ، فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت : ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه .

قلت : وفى معنى حديث عمر هذا ، ما رواه مسلم عن أبى بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرءا ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ! فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا ، وكأنى أنظر الى الله تعالى فرقا ، فقال : يا أبى أرسل الىّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت اليه أن هوّن على أمتى ، فرد الى الثانية أن أقرأه على حرفين ، فرددت اليه أن هون على أمتى ، فرد الى الثانية أن أقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام .

قول أبى رضى الله عنه «فسقط فى نفسى» معناه : اعترتنى حيرة ودهشة : أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوش عليه حاله ، ويكدر عليه وقته ، فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ، وإلا فأى شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة ؟ ولما رأى النبي صلى الله عليه [illegible] من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صد[illegible]

وتنور باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح الى حالة المعاينة . ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : « وقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ذلك صريح الايمان » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وسيأتى الكلام عليه فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى .

الرد على من خالف مصحف عثمان :

لا خلاف بين الأمة ، ولا بين الأئمة أهل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له ، فمن ادعى زيادة عليه أو نقصا منه فقد أبطل آية رسوله عليه السلام ، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه حين شيب بالباطل ، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية ، وخرج عن أن يكون معجزا .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الانبارى ما ملخصه : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ، ما يوجبه الحق والانصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين وتحريف الزائفين ، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها ، ويثبت أسها ، وينمى فرعها ، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور ، ومكايد أهل العداوة والكفر ، فزعم :

(١) أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف ، قد قرأت بعضها وسأقرأ بقيتها ، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » ، ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، فادعى هذا الانسان أنه سقط على أهل الاسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

(٢) وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ « أحد » وادعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن على قراءة المسلمين .

(٣) وادعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة منها : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » فادعى أن الحكمة

والعزة لا يشاكلان المغفرة ، وأن الصواب : « وإن تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغى فى هذا وأشكاله حتى إن المسلمين يصحفون : « وكان عند الله وجيها » والصواب الذى لم يغير عنده : « وكان عبـد الله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا به جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته ، فاذا قرأناه فاتبع قراءته ، ثم إن علينا نبأ به » ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : « ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة » ، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : « وهذا صراط علىّ مستقيم » ، وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فقرأ : « أليس قلت للناس » فى موضع « أأنت قلت للناس » . وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ، لأن العرب لم تقل : ليس قمت ، فأما لست قمت ، بالتاء فشاذ قبيح لأن ليس لا تجحد الفعل الماضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ؟ وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

(٤) وادعى أن عثمان رضى الله عنه لما أسند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يصب ، لأن عبد الله ابن مسعود وأبىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اقرأ أمتى أبى بن كعب » ولقوله عليه السلام « من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد » ، وقال هذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ « إن هـذين » ، و « فأصـدق وأكون » ، و « بشر عبادى الذين » بفتح الياء ، « فما آتانى الله » بفتح الياء ، والذى فى المصحف « إن هذان » بالألف ، « فأصدق وأكن » بغير واو ، « فبشر عباد » ، « فما آتان الله » بغير ياءين ، فى الموضعين ، وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا « وكذلك ننجى المؤمنين » باثبات نونين ، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم . وفى المصحف نون واحدة ، وكما خالف حمزة المصحف فقرأ « أتمدونى بمال » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدها ، وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقـرأ « ألا إن ثمودا كفروا ربهم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ، وكل هذا الذى شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف المصحف .

قال أبو بكر : وذكر هـذا الانسان أن أبىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ، لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبى بن كعب « حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات » ، وفى رواية : وقرأ أبى القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الاسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصيانة . وإذا صح عن رسول الله

صـلى الله عليه وسـلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيي بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبىّ بن كعب ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلـكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هـذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم . حدثنى أبىّ نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يروى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الاجماع من الحروف التى يعرف أسانيدها الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبىّ : « وما كان الله ليهلـكها إلا بذنوب أهلها » .

وعن ابن عباس « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ، ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غـير المغضوب عليهم وغير الضالين » مع نظائر لهذه الحروف كثيرة ، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحل ، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ، لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ، والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقـة الصحابة له لو أنـكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حـكم المرتد يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يعتد له بأنه من مناقبه العظام ، وقـد طعن عليه فى بعض أهـل الزيغ فانكشف عواره ، ووضحت فضائحه ، وقال أبو عبيد : وقـد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبى مجلز قال : طعن قـوم على عثمان رحمه الله بحمقهم جمع القرآن ثم قرءوا ما نسخ ، قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز الى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » دلالة على كفر هذا الانسان ، لأن الله عز وجل قـد حفظ القرآن من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، فاذا قرأ قارئ : « تبت يدى أبى لهب وقد تب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، ومريته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من ليف » فقد كذب على الله جل وعلا ، وقوله ما لم يقل ، وبدل كتابه وحرفه ، وحاول ما قد حفظه منـه ومنع من اختلاطه به ، وفى هـذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهـل الالحاد ، ليدخلوا فى القرآن ما يحـلون به عرا الاسلام ، وينسبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالأباطيل عليهم ، وفيه إبطال الاجماع الذى به يحرس الاسلام وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتتحرى المتعبدات .

وفى قول الله تعالى : « الـر كتاب أحكمت آياته » دلالة على بدعة هذا الانسان وخروجه الى الـكفر ، لأن معنى « أحكمت آياته » منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها ، أو يعارضوها بمثلها ، وقد رأينا هذا الانسان زاد فيها « وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا » ، فقال فى القرآن هجرا ، وذكر عليا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى

عليه الحد ، وحكم عليه بالقتل ، وأسقط من كلام الله : « قل هو » وغير « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد ، وإسقاط ما أسقطه نبي له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ، لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك : أمن ذهب أم من نحاس أم من صفر ؟ فقال الله جل وعز ردا عليهم : « قل هو الله أحد » ففى « هو » دلالة على موضع الرد ومكان الجواب ، فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عز وجل ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ويقال لهـذا الانسان ومن ينتحل أصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من أسلافنا سواه : هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله الى آخره صحيح الألفاظ والمعانى عار من الفساد والخلل ، أو هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا ؟ وإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ، فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم ، وليس له شراب إلا من غسلين ، من عين تجرى من تحت الجحيم » فأى زيادة فى القـرآن أوضح من هـذه ؟ وكيف يخالط القرآن وقـد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تؤملت وبحث عن معناها وجـدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارىء تعالى ولا تختلط به ، ولا توافق معناه ؟ وذلك أن بعدها « لا يأكله إلا الخـاطئون » .

فـكيف يؤكل الشراب والذى أتى به قبلها « فليس له اليوم ها هنا حميم ، وليس له شراب إلا من غسلين ، من عين تجرى من تحت الجحيم ، لا يأكله إلا الخاطئون » ؟ فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ، لـكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته . ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى من خالف حرفا منه كفر : « ولا طعام إلا من غسلين » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون ، أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ، فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة ، والشراب محال أن يؤكل ، فإن ادعى هـذا الانسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله « من عين تجرى من تحت الجحيم » ليس بعدها « لا يأكله إلا الخاطئون » ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته ، فقد كفر لما جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردا لقوله ، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرءان يتلى ؟

حسن حسين

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

— ٣ —

حدث ابن أبى ليلى قال : قال لى عيسى بن موسى وكان متدينا شديد العصبية : من كان فقيه البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن ، قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما ؟ قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وسليمان ابن يسار ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالى ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالٍ ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى ، وابن أبى الزناد ، قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى ، فاربد وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاوس وابنه وابن منبه ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالى ، فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا ، ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : فما كان عطاء ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربدا ، واسود اسوداداً حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عتيبة ، وعمار بن أبى سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم والشعبى ، قال : فما كانا ؟ قلت : عربيان ، قال : الله أكبر ، وسكن جأشه !

وهذه المحاورة قد أثبتها صاحب العقد الفريد فنقلناها عنه محافظين على نصها ؛ فان كانت صحيحة — ولا بعد فى ذلك — فليس فيها غريب ، فهى تدل من قريب على أن العصبية الجنسية قد بلغت ببعضهم هذا المبلغ الذى رأيته ، ولم يمنعها عن الطغيان ويقفها عن الغلو ما اشتهروا به من ورع عن الدنايا ، وتعفف عن المسف من القول والمخزى من الفعال ! فهذا هو عيسى بن موسى فى صلاحه وتقواه ، وعفته وزهده ، ويقينه بأن الفضل بيد الله يختص به من يشاء ، وأن الحكمة تحت تصرفه يعطيها لمن يشاء ، وأن التلميذ قد يفوق أستاذه ويبذه فى الميدان ، وأن الناس كلهم لآدم لا فرق بين عجميهم وعربيهم إلا بسلامة الفطن ، ورجاحة العقول ، وثقوب الأفكار ونضوج الآراء ، فأى غريب فى أن يكون قادة الأمة الموفقون ، وزعماؤها المظفرون، وفقهاؤها المجتهدون، من أجناس مختلفة ؟ وأى مسوغ لهذا الحقد الدفين، والحسد الأصيل الذى رأيناه وتراه على محيا ابن موسى ، فيتجهم تارة ، ويربد تارة أخرى ، وتنتفخ أوداجه من الغيظ طورا ، ويتنفس الصعداء طورا آخر ، لا لشئ سوى أن فقهاء كل بلد مما ذكره كانوا من الموالى لا من العرب ؟ وليس هناك من باعث فيما نعتقد إلا تعصبه لقومه ؛ وليس هذا من مذهب الاسلام فى شىء . أما درى أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس

بكونهم عربا ولا عجما ، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد هممهم ؟ ورحم الله عامر بن الطفيل ، فانه يقول فى هذا المعنى :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المشهور فى كل مركب
فما سوّدتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى ... أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وقال آخر :

إنا وإن كرمت أوائلنا ... لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ، ونفعل مثل مافعلوا

وقال آخر :

نفس عصام سوّدت عصاما ... وعلمته الكر والإقداما
وجعلته ملكا هماما

وقال آخر :

مالى عقلى وهمتى حسبى ... ما أنا مولى ولا أنا عربى
إن انتمى منتم الى أحد ... فاننى منتم إلى أدبى

وقد تكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فأعجب عبد الملك ما سمع ، فقال : ابن من أنت يا غلام ؟ قال : ابن نفسى يا أمير المؤمنين التى نلت بها هذا المقعد منك ! قال : صدقت !

الى غير ذلك من الشواهد التى ترد على ابن موسى اعتقاده . وفى العرب متعصبون لا يستطاع حصرهم ، فنهم عدا ما قدمنا : الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأنت خبير بمقداره ، وما كان عليه من نعرة وكبرياء .

فقد ذكر الجاحظ فى كتاب (الموالى والعرب) أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ، ولقى ما لقى من قراء أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه : الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة ، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم ، أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم ، حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا ، فأقبل على الموالى وقال : أنتم علوج وعجم ، وقراؤكم أولى بكم . ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب ، وصيرهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها ، وكان الذى تولى ذلك منهم رجلا من بنى أسد بن عجل ابن لجيم يقال له حراش بن جابر ، فقال شاعرهم :

وأنت من نقش العجلى راحته ... وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة ، وقد كان قاضيهم رجلا من الموالى يقال له نوح بن دراج . وقال شاعرهم :

إن القيامة فيما أحسب اقتربت   إذ كان قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيًّا له الحجاج ما بقيت   صحيحة كفه من نقش حجاج

وقال آخر :

جارية لم تدر ما سوق الإبل   أخرجها الحجاج من كن وظل
لو كان عمرو شاهدا وابن جبل   ما نقشت كفاك من غير جدل

فتلك حال أخرى لا تقل عن سابقتها خطرا فى بابها . وهكذا يكشف لنا هذا البحث عن كل مدهش وغريب ؟

أحمد ابراهيم موسى البارودى
تخصص البلاغة والأدب

بديهة واعظ بليغ

جلس نحوى الى جانب منبر واعظ يستمع اليه ، فلحن ، فقال له النحوى : أخطأت يالُحَنة !

فقال الواعظ بديها :

« أيها المعرب فى أقواله ، اللاحن فى أفعاله ، مالى أراك تائها منكرا ؟ أكل ذلك لأنك رفعت ونصبت ، وخفضت وجزمت ؟ هلا (رفعت) الى الله يديك فى جميع الحاجات ، و(نصبت) بين عينيك ذكر الممات ، و (خفضت) نفسك عن الشهوات ، و (جزمتها) عن اتباع المحرمات ؟

« أو ماعلمت أنه يقال يوم القيامة : ألا كنت فصيحا معربا ؟ وإنما يقال لك : لم كنت عاصيا مذنبا ؟ فلو كان الأمر كما زعمت ، والخطب كما حكمت ، لكان هرون أحق بالرسالة من موسى ، إذ قال الله تعالى إخبارا عنه : «وأخى هرون هو أفصح منى لسانا » ، فجعل الرسالة فى موسى لفصاحة تبيانه لا لفصاحة لسانه ، فالفصاحة فصاحة الجنان لا فصاحة اللسان ، ثم أنشد :

مجازف فى الفعال ذو زلل   حتى إذا جاء قوله وزنه
قال وقد أعجبته لفظته   تيها وعجبا : أخطأت يالحنه
فقلت : أخطأ الذى يقوم غدا   ولا يرى فى كتابه حسنه

الثقافة الاسلامية

وأثرها فى حركة إحياء العلوم فى أوربا
وفى النهضة الحديثة

الثقافة الاسلامية أثر من آثار العقيدة الاسلامية . فالقرآن الكريم رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها النظر فى الكائنات بحرية واستقلال ، ووجهه للبحث فى الوجود والتأمل فى عوالمه ، وحث الانسان على التعلم والتجديد وكشف المساتير .

والثقافة الاسلامية قبل أن تنتقل الى أوربا بفعل الفتوح الحربية تركزت فى بلاد الشرق تركزا قويا حتى لا يزال أثره بارزا فيه الى اليوم . فالثقافة العربية لم تقف فى الشرق عندحدود بلاد العرب والشام وما جاورها من البلدان ، وإنما تجاوزتها الى الهند والصين على يد التجار من العرب المهاجرين من الفرس والغازين من الترك والمغول . فالعرب نقلوا فى رحلاتهم التجارية طائفة كبيرة من المعارف الى تلك البلاد ، حتى إن دخول الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهند وجزء من الشرق الأقصى ، أدى الى ثورة عظيمة فى الأدب والثقافة .

والرقى الفجائى الذى طرأ على اللغة العربية وأحالها الى لغة مكتوبة مهذبة ، من أعجب الأمور إذا تذكرنا أن وقت ظهور الاسلام لم يكن للعرب أدب لغة ، وأن الخط كان قليلا ، وأن القرآن نزل بلغة أهل الحجاز ، وأنه لم يكن هناك معجم عربى يضم بين جناحيه الألفاظ المتداولة ، شأن معاجم اللغة . ولم يكن هناك كتاب يفصح عن قواعد النحو والصرف .

وبالرغم من أن الفتوح الأولى للقوات الاسلامية فى الهند لم تذهب بهم بعيدا داخل البلاد الأجنبية فإن الأتراك فى القرن العاشر استطاعوا أن يتوغلوا بالاسلام الى مسافات بعيدة داخل الهند ، الى أن كان القرن الثالث عشر فرأينا أن أول ملك تبوأ عرش دلهى كان ملكا مسلما . وكان الهنود قبل الاسلام وثنيين ، وكانت آدابهم خليطا من الهندوكية والبوذية . ولما نزح أتراك أواسط آسيا الى الهند ونشروا الاسلام كان هؤلاء الأتراك يتكلمون التركية بينما كانت ثقافتهم فارسية ، وهى تلك الثقافة الحديثة التى ظهرت فجأة فى بلاط سميندس فى بخارى .

فعلى هذا القياس يكون الاسلام قد أدخل فى الهند لغتين : العربية لغة الدين ، والفارسية لغة الشعر ، إلا أن العلاقة الوثيقة بين اللغة الفارسية واللهجات السائدة فى الهند الشمالية هى السبب فى أن مسلمى الهند قد اختاروا الفارسية واسطة لآدابهم دون العربية

والتركية . واستمر الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر إذ لم تصل اللغة الأردية وهى خليط من الهندية والفارسية إلا فى ذلك القرن .

ولم يك مسلمو الهند قادرين على تذوق السمو الذى امتازت به العربية بالسرعة التى كانت عند غيرهم من الفرس ، إلا أن الاسلام صبغ العدد العظيم من الهنود بصبغة العقيدة الاسلامية . وكان من أثر الثقافة الاسلامية عند الهنود أن تهافتت الأذهان الى تدوين تاريخهم ، وكان نتيجة ذلك أن دونت أخبار جميع ملوك دلهى ابتداء من القرن الثالث عشر ، بعد أن كان التاريخ يعتبر أمرا ماديا فى نظر المفكرين والفلاسفة . وهذا هو السبب فى أن التاريخ الهندى القديم قد جمع بصعوبة عظيمة ، وكان الاعتماد فى جمعه على ما عثر عليه من السكة والتماثيل دون أن يكون هناك مخلفات كتابية . يقول السير دنسون روس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن : « الأثر الذى تركته اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى عقول مسلمى الهند والفرس والأتراك كان أجل شأنا وأعظم خطرا من الأثر الذى تركته اللاتينية فى عقول الأدباء من أهل أوربا فى القرون الوسطى » الى أن يقول : « ومع أن اللاتينية كانت الواسطة للكتابات الدينية والعلمية لم يكن لها ميزة كبيرة فى الثقافة حيث كان يوجد فى أوربا قبل حركة إحياء العلوم لغات كثيرة اصطبغت بصبغة البيئة التى وجدت فيها ، ولم يكن الأمر كذلك فى اللغة العربية ، فان العربيــة قد أمدت المستنيرين فى أواسط أوربا بثقافة جديدة من كل الوجوه ، وفتحت أذهانهم الى علوم حديثة لم يألفوها من قبل » .

وإذا اتجهنا بعد الهند صوب فارس نجد أنه بالقضاء على الديانات القديمة ، وبحلول العربية محل اللغات القديمة فى المسائل الأدبيــة ، ثم باستبدال الثقافة الاسلامية بكل ما يرجع فى أصله الى الثقافة الآرية ، كل هذا يدفعنا الى القول بأن العربية قد أمدت بلاد فارس بخزائن جديدة من العلم ، أو قل : أمدت الفرس ببعث قومى جديد مع ثقافة حديثة .

ومما يدعو الى الدهش أن الاغريق وقد حكموا الفرس نحو قرنين لم يتركوا فيها أى أثر أدبى ، كما أنهم لم يتركوا شيئا من هذا فى الهند . كذلك لم يترك فتح الفرس لمصر أى أثر فى تلك البلاد ، ولكن دخول هــذه البــلاد تحت نفوذ المسلمين جعلهم يستسلمون طوعا لحكمهم ولدينهم ثم لثقافتهم .

ولما كان العرب قد ساهموا فى كل شأن من شئون المدنية ، فلم يمض قرنان على فتحهم حتى كان أكثر البلاد المفتوحة على دينهم . وإن نظرت الى اللغة رأيتهم هيئوا لغتهم لكل حديد ووسعوها — وهى البدوية الأصل والمنشأ — حتى زاحمت الفارسية فى فارس ، والرومانية فى الشام ، والقبطية فى مصر ، وسارت مع الدين جنبا لجنب ، كلما سار الدين وظفر سارت اللغة وظفرت . وإن نظرت الى النظم والتشريع ، وقف الفقهاء فى كل قطر يوسعون مذاهبهم حسب

الحاجة وحسب الاقاليم الذين حلوه ، وخلقوا من ذلك قوانين لا تزال الى اليوم محل إعجاب المشترعين . وإن التفت الى العلم رأيت أنهم فى كل فرع من فروع العلم أخذوا بحظ وافر ، لم يمنعهم دينهم أن يأخذوا عن وثنيي اليونان فلسفتهم ، ولا عن النساطرة طبهم ، ولا عن اليهود أخبار أنبيائهم وعلمائهم ، وأبلوا فى العلم بلاء لا يقل عن بلائهم فى الحرب ، ثم خلقوا من كل ذلك ثروة علمية تداولوها بالنقد والشرح ، وضموا اليها ما أوحته نظرات دينهم من العلوم الاسلامية والمذاهب الدينية . من هنا نعلم أنه من العبث أن يحاول كاتب فى التاريخ الحط من شأن العامل الدينى فى التطور الاجتماعى ، وأن يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها .

ومن أجل هذا كانت الثقافة الاسلامية نتيجة العقيدة الاسلامية . فان هى اتجهت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلأن الدين حملها على ذلك ، وطلب منها أن تتزود من العلم حيث كان ولو فى الصين ، وأن تأخذ الحكمة ولو من المشركين .

وقد بذر الاسلام فى نفوس أصحابه بذورا تأصلت فيهم ، فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفا ، إنما كانوا دائما يعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرءوا . فاذا نظرنا الى كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب ، بل نقدوا وزادوا ، ووفقوا بين الفلسفة والدين ، وأمدوا كل شىء أخذوه من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها ، حتى المنطق اليونانى الذى دانت له كل الأمم زاد الغزالى فى بعض كتبه فصولا عن القرآن ، وابن تيمية وابن حزم ، وغيرها نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة .

فدعوى أن المسلمين فى ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة ، دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية .

لذلك لما انتقل الاسلام الى أوربا بدأت الدنيا تتقلقل كأنما مر بقدمه على مركزها فضغطها فحركها ، وكانت خطواته تخط فى الأرض بينما معانيه تخط فى التاريخ ، وظل الاسلام ماضيا فى طريقه لا ينحرف ، وممتزما لا يتحول . فقد اتصل الأوربيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقا ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا من مؤلفات ابن رشد المترجمة الى اللاتينية لا نجد أصلها بالعربية . وكان من أشهر من قام بهذه الحركة : « ريموند » الذى كان مطرانا لطليطلة من سنة ١١٣٠ الى سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، حتى بلغ ما ترجموه عن العربية ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور لكلارك فى كتابه تاريخ الطب العربى . وكان أكثر ما ترجم كتب الرازى وأبى القاسم الزهراوى

وابن رشد وابن سينا والفارابى ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ فى باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية ، وأمر لويس الحادى عشر عند ما نظم برامج التعليم سنة ١٤٧٣ بإدخال فلسفة ابن رشد ضمن مناهج التدريس .

ولقد ظلت هذه الكتب المترجمة تدرس فى جامعات أوربا مدى خمسة قرون ، وظلت فلسفة ابن رشد تدرس فى جامعات فرنسا وإيطاليا وعلى الأخص بادوا وبولونيا ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى .

قال المؤرخ خورخ ملر فى كتابه فلسفة التاريخ :

« إن مدارس العرب فى أسبانيا كانت هى مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الميتافيزيقية ، وأصبح جنوب إيطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة الى أوربا » .

وكان ممن تزود بعلوم العرب جربرت الراهب الفرنسى ، فبعد أن درس علم اللاهوت فى أورياق مسقط رأسه توجه الى قرطبة فدرس فيها الرياضيات والفلك ثلاث سنين ثم رجع الى قومه ينشر فيهم ما تزوده من العلوم ، فرموه بالكفر والسحر ، ولكنه ارتقى الى سدة البابوية سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثانى . كذلك تخرج على علماء قرطبة شانجة ملك ليون واستوريا .

وأوصى الراهب روجر بيكون فى كتبه بدراسة اللغة العربية وقال « إن الله يؤتى الحكمة من يشاء ، ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين ، وإنما أتاها العرب » .

وذكر جيبون فى الفصل الثانى والخمسين من كتابه تاريخ اضمحلال الدولة الرومانية وسكونها : « إن مدرسة سالرنو التى نشرت الطب فى إيطاليا كانت من صنع العرب وغرس أيديهم » .

وقال المؤرخ ولز الانجليزى فى كتابه ملخص التاريخ ، وهو من أمهات الكتب التى تدرس فى الجامعات الأوربية اليوم :

« جاءنا علم اليونان عن طريق العرب لا عن طريق اللاتين . فليونارد بيز وأرمان دفيلنوف وريمون لول وهرمان الدلماسى وميخائيل سكوت ويوحنا الأشبيلى وسان توما وألبير الجراند والفونس العاشر أمير قشتالة لم يكونوا غير تلاميذ للعرب أو نقلة عنهم » .

وقال رينان الفيلسوف :

« إن ألبير الجراند مدين بعلمه كله لابن سينا ، وسان توما مدين بفلسفته لابن رشد » .

ويقول بترارك شاعر ايطاليا العظيم وهو من شعراء القرن الرابع عشر : « أبعد ديموستين يستطيع سيشرون أن يكون خطيبا ؟ وهل بعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعرا ؟ وهل بعد العرب يستطيع جيل من الناس أن يخط بقلمه على القرطاس ؟ » .

وقال البارون دى فو مترجم كل ما كتبه الامام الغزالى :

« إن الميراث العلمى الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد حفظوه وأتقنوه ، فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب ، ولـكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد فى تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة .

وقال الدكتور سارطون فى إحدى خطبه العامة بالجامعة الأمريكية ببيروت :

« إن بعض الأوربيين يحاولون أن ينتقصوا من قدر العرب العلمى فى القرون الوسطى ، وذلك بقولهم : إن العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، وهذا خطأ . وإذا افترضنا أن العرب لم يكونوا غير نقلة ، أليس فى عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ، ولـكننا حتى الآن فى القرون الوسطى » .

الحق أن فضل العرب بثقافتهم الاسلامية على المدنية الحديثة كان من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح فى الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوربا يبحثون نواحى تأثير الثقافات الاسـلامية فى الثقافة الأوربية ، وكان من آخر ما أظهروا فى هذا الباب كتاب « ما خلفه الاسلام » Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية فى الجغرافيا والتجارة ، وفى القانون والاجتماع ، وفى الفن والعمارة ، وفى الأدب وفى التصوف ، وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب ، وفى الهيئة والرياضيات .

والمتتبع لدراسـة المدنيات وتاريخ قوميات الشـعوب يرى أن تاريخ المدنيات عبارة عن حلقات يسلم بعضها الى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل اليه سابقها . وكانت المدنية الاسلامية فى الذروة أيام كانت أوربا تظلها سحابة سوداء من عماية الجهل فى القرون الوسطى . ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى فى العالم فى مدنيتهما وثقافتهما ونظمها الادارية والحربية .

فلو لم يكن فى الوجود مدينة بغداد وقرطبة ما كانت حركة إحياء العلوم فى أوروبا ، ولما كانت النهضة الأوربية الحـديثة تبلغ ما بلغت الآن لو لم ترتكز على المدنية الاسلامية والثقافة الاسلامية المنبثة من ضوء بغـداد وقرطبة .

ولزيادة الايضاح ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الاسلامية :

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين : وهما الشك والتجربة ، وكانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان ، وتقدس آراء أفلاطون وأرسطو كل التقديس . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء . والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى ، وتعنى فيه بالشكل ، [illegible] النهضة الحديثة تشك فى هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ، ولا [illegible]

بشيء حتى تدل التجارب على صحته ، وكان هـذا دعامة النهضة الحديثة . والحقيقة أن طريقة المنهج العلمى فى البحث الحديث لم تكن بعيدة عن أذهان المسلمين .

فالتاريخ يحـدثنا أن النظام ألّف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتاب الحيوان يستطلع ما قاله أرسطو فى الحيوان ثم لا يمنحه شيئا من العناية بل ينقده نقدا جريئا ، ويقول : « قـد جربنا قول أرسطو فلم نجده صحيحا » ويقول : « إن قوله هـذا غريب » الى أن يقول : « وهو قول لا يجيزه العقل » . والجاحظ بهذا الانتقاد يجعل عقله الفيصل على أرسطو على حين أن فلاسفة القرون الوسطى جعلوا أرسطو حكما على العقل . والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ سنة ١٠٤٨ م والذى قال عنه المستشرق الألمانى سخاو « إنه أكبر عقلية عرفها التاريخ فى كل عصوره » كان يحـكم عقله فى الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، حتى لقد ترجم كتابه الآثار الباقية الى الانجليزية ، وطبع عام ١٨٧٩ فى لندن ، وترجم أيضا كتابه تاريخ الهند وطبع فى لندن عام ١٨٨٧ م .

ويقف الغزالى فى كتابه المنقـذ من الضلال الموقف الذى وقفه بعـد ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وإنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال : إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته »

وابن خلدون الذى كان وقوف الغرب على تراثه منذ منتصف القرن التاسع عشر اكتشافا علميا حقا ، حيث ظفر الغرب بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربي إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . أجل اكتشف النقد الغربى لدهشه وإعجابه فى تراث ابن خلدون كثيرا مما ردده مكيافلى بعده بقرن ، وما ردده منستكيو وآدم سميث واوجست كونت بعده بقرون أيضا . وكان المعتقد أن البحث الغربى أول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ومبادئ الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسى ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو فى مقدمته هذه الميادين ، ويعرض كثيرا من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة ، حتى لقد اعتبر المستشرق النمسوى الكبير البارون فون كريمر فى رسالته الشهيرة بالألمانية (ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية) ابن خلدون مؤرخا للحضارة ، لأنه أول من خصص فصولا ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطورها فى الدول الاسلامية ، ثم عن العلوم والفنون والآداب . وابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها ، وإنما يعالجها كصور من العمران ، ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

وعلى الجملة فهذه الأسس التى بنيت عليها النهضة الاوربية الحديثة فى أوربا ، من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذه القدماء من علماء القرون الوسطى فى أوربا قضايا مسلمة ، كل هذه الأسس كانت موجودة كقواعد عامة فى الثقافة الاسلامية فى عصورها الزاهية ، وكانت مظهرا من مظاهر الاختراع العقلى للمسلمين ، وكانت من عوامل بناء المدنية الاسلامية التى بنيت عليها المدنية الحديثة من بعض وجوهها ؟

عبد الحميد سامى بيومى

كيف يعاقب السفهاء

قال حكيم : أعقل الناس من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة السفيه .

وقال غيره : السكوت عن السفيه جواب ، والاعراض عنه عقاب .

وقال بعض الشعراء :

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
فان جاوبته فرجت عنه ... وإن خليته كمدا يموت

وقال غيره :

لاترجعن الى السفيه حكاية ... إلا جواب تحية حياكها
فمتى تحركه تحرك جيفة ... تزداد نتنا ما أردت حراكها

وقال أديب : إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا ، وأوجعته عذابا .

وقال غيره : ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة : حليم من أحمق ، وبر من فاجر ، وشريف من دنىء .

وقال شاعر حكيم :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليما أو أصابك جاهل
فأصبحت إما نال عرضك جاهل ... سفيه وإما نلت ما لا تحاول

نقول : وقد فات هؤلاء العلاج الفعال للسفاهة ، وهو استشعار الرحمة بأهلها فى حالة الامتناع عن إجابتهم ، لا استبطان نية تعذيبهم ، ففى الحالة الأولى تنفث روحك فى نفوسهم وفى الحالة الثانية يزيدهم قصدك السىء بهم مضيا وتمردا .

الانسان والرزق

كثير ممن يرون أن الله سبحانه وتعالى قَتَّر عليهم فى الرزق يغفلون عن نعمه الكثيرة التى أسبغها عليهم بواسع فضله ، ولو فطنوا لها لعلموا أنهم عاجزون العجز كله عن شكر بعضها .
ففى هذه الأبيات نخاطب هؤلاء :

أمسِك الدمعةَ فى آماقِها ودع الأمرَ الى خالقِه
هـذه الدنيا نُجِبْ آفاقها واترك الرزق الى رازقِه
إن يشأ أعطى ، وإن شاء أبى

وهو فى الحالين رب عادل سخّر الشمس لنا والقمرا
لطفُه ضافى النواحى شامل بسط الرزق لنا أو قَدَرا
كم حباك الفضلَ ، بلْهَ الذهبا

خلق الأرض وما فيها لكا خالقٌ قام إليها فدحاها
ثم سوّاك عليها مَلِكا مستبدا فى دجاها وضحاها
تصرع الليثَ بها والثعلبا

ليس يجدى الليثَ ناباهُ ولا ذلك الثعلبُ يغنيه دهاؤه
أكلا الاثنان فيا أكلا لضعيفِ هـذه الدنيا غذاؤه ! !
سالبٌ حكَّم فيها سَلبا

ولك اليابسُ ، والماء ، وما دَبّ من مكمنه ، أو سبحا
فاشكر الله على ما أنعما واتّبعْ من سبله ما أوضحا
لا أرى من ضلّ فيها أو كبا

وإذا أبصرت شيخا مُعدِما أو فقيراً طاويا أحشاءه
فاذكر الله وقل ما أحكما ليس يُحصى عبدُه آلاءه
ذاك فضلٌ سره قد حجبا

محمد الأسمر

ملاحظات

حضرة الأستاذ مدير مجلة الأزهر .

قرأت فى جريدة الديلى تلغراف التى صدرت فى يوم السبت ٢٦ أغسطس ١٩٣٩ كلمة تحت عنوان (Danzig is not the issue) بقلم J.B. Firth رأيت فيها إشارة الى الاسلام فى أيام ظهوره ، كلمة لم أحب أن تمر من غير أن ألفت اليها القراء وأعلق عليها تعليقا موجزا فى مجلة الأزهر :

يقول هـذا الكاتب : « إن الدكتاتورية تستعمل فى إرضاء مطامعها الروح الحربية التى لا تطاق ، كما استعملها الاسلام فى أيامه الأولى » . ولو أن هذا الكاتب قبل أن يكتب مقالته أجهد نفسه قليلا واختلس من وقته ساعة ، وقرأ بعضا من الكتب التى كتبت حول « كيف ظهر الاسلام » لعلم أن الاسـلام لم يكن يوما ما من أنار الحرب إيثارا لها ، ولم يكن طموحا أن يعلو بالعسف والعدوان ، ولم تكن القوة سلاحا له يدعو بها . وهذه مبادئه وتعاليمه تتحدى كل مدع ، وهذا هو التاريخ يكذب كل مفتر . وما سبب حروبه إلا القبائل والأمم المجاورة : حرمت على أهله أن يدعوا الى الله بالحسنى ، وأن يقنعوا بالبرهان ، وعادتهم وجمت له الجموع وحاربتهم ، فكان مقضيا على الاسـلام لحفظ كيانه وإبقاء على المسلمين أن يدفع عن نفسه العدوان ، وأن يستعمل السلاح ليدفع به الغارة ، وليبقى فى بيته آمنا مطمئنا .

ولا أعلم أن هناك مبدأ خلقيا أو نظرية فلسفية أو دينا من الأديان يحرم الدفاع عن النفس ويجعـله من الهنات التى يهمز بها ويلمز . وكم من ملايين من الأنفس البريئة قتلت تحت اسم المسيحية .

أنا لا أسأل هذا الكاتب شططا ، ولا أكلفه مؤنة البحث والتنقيب وراء الحقائق ، بل ما أرجـوه منه أن يستقى معلوماته من مصادر معتمدة موثوق بها ، وهناك علماء لا أقـول « شرقيون » ، فربما لا يؤمن الكاتب بهم ، بل مستشرقون أوضحوا الأمر جليا ، وبينوا أن الاسلام كثيرا ما كان مضطرا الى الحروب ليدفع بها عن نفسه العدوان .

وأخيرا ، فانى لا أسأل الكاتب أن يكيل عبارات الثناء للاسلام ، فالاسلام عن كل ذلك فى غنى ، وكفى بتعاليمه شاهدا ومزكيا له . ولكنى أسأله أن يكون منصفا فى خصومته وألا يبيح لعاطفته أن تغلب عقله ، فان خصومة كهذه تفقد قيمتها الأدبية ؟

محمود حب الله

عضو بعثة فؤاد الأول الأزهرية بلندن

حضرة الأستاذ مدير مجلة الازهر .

نشرت مجلتكم فى عددها السابع نقلا عن جريدة « الكرونيك » الفرنسية (التى تصدر فى دمشق) : أن زعيم المغاربة المحبوب عبد الخالق الطريس طاف فى أشهر شوارع المدينة مستصحبا معه زوجته بزى أوربى ، سافرة الوجه ، عارية الرأس ، دون أن يساوره خجل من بنى قومه الأباة (الذين ينبذون كل المظاهر المخالفة لدينهم الحنيف وقوميتهم النبيلة) .

وإنا نصحح لكم ما أرجفت به جريدة الكرونيك حرصا على الحقيقة فنقول : إن عبد الخالق الطريس ما كان من الزعماء المزيفين ، فالجميع يعرف تضحياته ، وإخلاصه فى الذود عن إحياء لغة القرآن ، وإعلاء شأن الاسلام فى بلاد المغرب ، والبرهان على هذا هو التفاف الأمة المغربية حول ظل حركته الوريف . وهو من أشد الناس تحمسا للقومية المغربية التى تصون المرأة المغربية من تيار المدنية الزائفة ، وأن حزب الاصلاح الوطنى ما أنشىء إلا لإنهاض الشعب ، ومحاربة كل من حاول أن ينتهك حرمة المرأة فى هذا السبيل .

وأصدق دليل على صحة ما نقول : هو ما حدث فى المؤتمر العربى للدفاع عن قضية فلسطين فانه لما استدعى اليه ممثلى البلاد المغربية — وفى مقدمتها المغرب الأقصى ، انتخب الرجل القدير والزعيم المخلص : عبد الخالق الطريس لتمثيله فى المؤتمر ، والشاهد عندنا أنه مثل بلاده بلباس قومه الصميم .

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . فأيدوا الحق « إن الباطل كان زهوقا » . وانصروا دعاة الاصلاح وزعماء الاسلام : « ينصركم الله ويثبت أقدامكم »

محمد الرحمانى

عضو البعثة المغربية

(مجلة الأزهر) إننا اغتبطنا كل الاغتباط بما ثبت من براءة ما نسبته جريدة الكرونيك الى الزعيم المغربى عبد الخالق الطريس ، وننشر هذه التبرئة شاكرين لمرسليها الينا .

معرض الآراء العالمية فى الاسلام والمسلمين

الاسلام فى بلاد الصومال التابعة لفرنسا

جاء فى نشرة الأخبار الدولية الصادرة فى ٤ أغسطس سنة ١٩٣٩ :

« إن الدناكل وهم سكان الشاطئ الفرنسى لبلاد الصومال ، الذين يقيمون فى منطقة تقع بين مصوع شمالا وبين جوليت كاراب جنوبا ، قد دخلوا فى الديانة الاسلامية ، مثلهم كمثل أهل الصومال البريطانى والصومال الايطالى .

« كانت هذه الأصقاع يسكنها أولا السود الذين يدعون بنتوس ثم قبائل الجالاس ، فكابدت عدة غارات صومالية جاءتها من ناحية الشاطئ الأفريقى لخليج عدن ، نخلفت الديانةُ الاسلامية الديانةَ المسيحية هنالك من لدن القرن الثانى عشر ، فاستقرت على الأخص فى المرافئ التى كان أهلها المشتغلون بالتجارة يحتفظون منذ قرون بعلاقات مادية مع المراكز الاسلامية فى بلاد العرب . أما القبائل الداخلية التى كانت شديدة التعلق بعقائدها الساذجة وعاداتها الوحشية فلم تقبل الدعوة الاسلامية إلا بعد أن أدمجت فيه أصولها التقليدية .

«فأهالى البلاد كلهم اليوم مسلمون سنيون إلا عددا من الهنود . أما البورهيون فهم شيعة ، ولكن حتى لدى المتشددين فى عقائدهم لا يشاهد أثر للتعصب . ودرجة غشيان المساجد لديهم فى درجة متوسطة . والصوماليون لا يفرقون بين مساجد الفرق المختلفة ، ولكن العرب لا يصلون إلا فى مساجدهم ، لأن القرآن الذى يتلى فى مساجد الصوماليين لا يتجرد من أثر العجمة الملازمة للسانهم ، وهم يريدونه قرآنا عربيا صحيحا .

الى أن قالت النشرة :

« القوانين القرآنية المعمول بها فى القبائل هى التى طبقت على العادات السائدة لديهم . وهى القاعدة التى يخضع لها الكافة هنالك . فاذا تعارضت آية قرآنية وعادة مقررة فى قانون الزواج أو إحياء ذكر الموتى ، آثروا اتباع العادة على الخضوع للقرآن !

« ولا تزال عادة تعظيم الأولياء معمولا بها هنالك . فانه فى أوقات مختلفة من السنة يزور أهل المدن والبدو قبور الصالحين الذين امتازوا فى حياتهم بمراعاة الفضائل . وهؤلاء البدو أنانيون جدا ، وليس لهم شغف بالعقائد كأهل المدن . ومع هذا فمتى جاء المساء اجتمع الزائرون جميعا وصلوا فى حظيرة مبنية بالأحجار الجافة ومتجهة نحو الكعبة .

« أما الطرق الصوفية المحترمة لديهم فأربع : القادرية ، والأحمدية ، والصالحية ، والرفاعية .

وتجد خيرة العلماء هنالك منتسبين للطريقة القادرية . أما الصالحية فهى طريقة أهل البادية ، ولها تأثير عليهم فى تأليف جماعات تشتغل بالشئون الزراعية .

« ويكثر المرابطون فى القبائل ، وهم من أحسن المروجين للسياسة الفرنسية . ولكنهم قليلون فى المدن ، منهم اثنان يتمتعان بشهرة عظيمة : الشيخ عمر الأزهرى فى جيبوتى ، والشيخ محمد تراب فى تادجورا .

« الأول صومالى من جنس أتيوبى لجأ الى جيبوتى منذ الاحتلال الإيطالى للحبشة ، والثانى من الدناكل .

« أما الوهابية فلم تصل الى مستعمرتنا على الرغم من قربها من البلاد المقدسة . وقد حاول شبان من العرب منذ عدة سنين إدخالها بالتفافهم حول رجل ضرير قدم من اليمن الى جيبوتى ، ولكن أئمة الدين كافحوا هذه الطريقة كفاحا شديدا حتى صدوها ، واضطر داعيتها الضرير للعودة الى بلاد العرب .

« الاسلام فى الصومال قد طبق على التقاليد الصومالية ، والعادات الأهلية ، ولذلك ترى مسلميهم يمارسون الاحتفال (بالسار ؟) وهو نوع من العبادة يصحبها رقص وذهول ، وباليوم الأول من السنة . وهم يعتقدون باستمرار الحياة المادية بعد الموت ، وبالسلطان السحرى لرئيس القبيلة وللعلماء من طريق الوراثة . أما من ناحية تمسكهم بعوائدهم فهم يقولون بجواز تزوج أخت الزوجة ، وبحلّية التزوج بالاختطاف ، وبثمن الدم ، وبحرمان المرأة من الميراث ووضعها خارج دائرة القانون » .

(مجلة الأزهر) : إن ما ترويه نشرة الأخبار الدولية عن أهل الشواطئ الصومالية من إيثار عاداتهم وتقاليدهم على أحكام الشريعة السماوية ، ليس خاصا بهم ، ولا بالمسلمين وحدهم ، ولكنه داء عم جميع الجماعات البشرية فى جميع الأجيال قديما وحديثا ، إما من طريق المعاصاة الصريحة ، وإما من طريق التأويل . فهل يرى الناقد لأحوال الأمم متمدنها ومتوحشها فى جميع البقاع الأرضية غير هذه الظاهرة النفسية المدهشة ؟

لو كانت هذه المعاصاة مقصورة على الشرائع السماوية ، بحجة قيام شبهات علمية ضد بعض أصولها ، كما يصرحون بذلك ويضعون فيه البحوث المستفيضة ، لعذرناهم ، ولكن هذه المعاصاة تمتد على أصول العلوم اليقينية نفسها التى لا يتأتى أن يتمارى فيها رجلان على الكرة الأرضية ، كاباحة الخمر والقمار والزنا وغير ذلك مما أصبح ضحاياه وويلاته عبرة لمن كان له نظر ، وذكرى لمن كان له قلب .

فالدناكل والحبشان والنيام نيام وأمثالهم ، يعذرون فى إيثارهم عاداتهم على الشرائع السماوية ، لجهالتهم وبعدهم عن مساقط الأنوار العلمية ، فما عذر الجماعات المتمدنة التى بلغت من العلم شأوا بعيدا فى معاصاة الأصول التى اعتبرتها معارف يقينية ، بل حقائق خالدة !؟

حرَّم على الأمم المتمدنة المشروبات الكحولية ، والمقامرة ، والزنا ، ثم انظر تجد عدد المجرمين والمنتحرين والمجانين قد نزل الى أقل من نصف ما كان عليه ، وبقى النصف الآخر موزعا على آثام أخرى تنص الشرائع الالهية على ضرورة إزالتها وحماية الناس من شرورها .

إنى لأخجل أن أوجه ملاما الى الدنا كل ومن يجرى مجراهم ، إذا كنا نحن والأمم العظيمة المتمدنة نرتكب هذا الشطط نفسه ، ونحن من العلم والفلسفة ومنطق الحوادث فى ثروة ليس لتلك الجماعات الساذجة ذَرْوٌ منها . فإذا كان ولا بد فدرهم الى هؤلاء وقنطار إلينا .

فان سألتنى بعد هذا : وما الدواء لهذه الحالة من إيثار الباطل على الحق ، والميل إلى سفاسف الأعمال دون معاليها ، والإصرار على ذلك إلى حدود الجهل المطبق ، والجمود المطلق ؟

قلنا : لادواء لهذا الداء العقام الا القوارع والمثلات ، ولا شىء غير القوارع والمثلات ! فلو كان الانسان يؤمن بما يقوله العلم نفسه: أن كل ما يفعله الناس من حسن أو قبيح ، من خير أو شر ، يعود عليهم أثره كنتيجة لمقدمة ، لبذلوا جهدا جهيدا فى تحرى الاحسان فى كل شىء ، ولكنهم يشكون فى هذا الأصل ، ويظنون أنهم يستطيعون أن يركبوا أهواءهم ثم يفلتون بحسن احتيالهم من نتائجها . وهيهات ! « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » .

محافظون لا متنطعون

نقلنا فى العدد الماضى ما نشره المسيو ميشيل رينو بجريدة (لا فرانس ميليتير) نقلا عن الكولونيل بيلاندو الحاكم على قسم من صحراء مراكش عن تشدد أهل موزاب (وصحتها ميزاب) فى الدين ، وعن إبائهم إدخال التيار الكهربائى الى قراهم ، فزارنا عالم جليل من علمائهم هاجر الى مصر منذ ست عشرة سنة ، وأفضى الينا بالأسباب الحقيقية لامتناع أهل ميزاب عن إيصال التيار الكهربائى الى بلادهم فقال :

« إن أهل وادى ميزاب أثارة من الدولة الرستمية التى حكمت المغرب من سنة ١٤٠ الى ٢٩٦ هجرية ، وهى دولة عربية بربرية فارسية ، وقد كانت مثلا يضرب فى عدالة الحكم ، وصيانة الأمن ، والعمل على الاصلاح والتعمير . فلما انقرضت تجمع بقاياها فى بعض الوديان ، وكان وادى ميزاب الذى يبعد عن البحر ٦٣٠ كيلو مترا مباءة لقسم منهم ، وهو الذى يتناولهم بالذكر كاتب لافرانس ميليتير اليوم . وما كان لهجرة هذه البقايا من الدولة الرستمية إلا غرض واحد وهو صيانة دينهم وقوميتهم من الفتن التى كانت افتكت من عُقَالها على عهد الدولة الفاطمية بالمغرب .

« على أن مهاجرة ميزاب لم يريدوا بهجرتهم أن يقبعوا فى دورهم كسالى خملين ، ولكنهم

طفقوا يفلحون الأرض ويستثمرونها ، ويزاولون التجارة بالأسفار البعيدة ، ويمارسون العلم والحكمة على مذهب خارجة بن زيد التابعي الجليل ، وقد نبغ فيهم أئمة يشار اليهم بالبنان ، منهم محمد يوسف أُطْفَيِّشْ المفسر الكبير فى العهد الحديث ، وقد توفى سنة ١٣٣٢ هجرية .

« وهم ليسوا يجهلون مزايا الفتوحات العلمية ، والمكتشفات الصناعية ، ولا ممن يرون أن الاستفادة منها إثم يعاقب عليه ، كما يتوهم كل من يقرأ ما نشره عنهم المسيو ميشيل رينو ، ولكن بشرط أن يجيئهم على أيديهم وتحت رقابتهم ، حتى لا يكون ذلك وسيلة لمن يريد التدخل فى شئونهم تحت هذا الستار من الاصلاح والتعمير . فرفضهم على الكولونيل بيلاندو إدخال التيار الكهربائى الى قراهم كان غرضهم منه قطع ذرائع التدخلات التى يجر اليها هذا العمل المدنى البرىء ، لا أنهم يرون فى الاستصباح بالكهربائية بدعة لا يجوز العمل بها ، أو عملا لا فائدة منه يمكن الاستغناء عنه . ولكنهم آثروا أن يعيشوا بعيدين عن زخرف المدنية ماداموا لا يُمَكَّنون من حماية جماعتهم مما تجر اليه من ضروب الافراطات والتفريطات فى آدابهم وأخلاقهم ودينهم ، كما حدث فى جميع الممالك الاسلامية » .

هذا ما حدثنى به ذلك العلامة الجليل ، وهو حديث يبرئ أهل ميزاب من وصمة التنطع فى الدين ، وينقلهم الى طائفة المحافظين .

ونحن نشكره ونرجو لقومه أن يعملوا جادِّين على تحلية جماعتهم بجميع الوسائل الصناعية ، والمستكشفات العلمية ، وأن يتدارسوا الى جانب علم الدين ، العلوم الحديثة التى أصبحت لامعدى عنها فى هذا العصر ، وأكسبت أهلها من قوى التسلط والاستيلاء ما لا سبيل الى دفعه إلا بها . ولسنا ممن يقول بأنه مع وجود تلك العلوم والوسائل الحيوية لا يستطاع صد تيار الفتن ، ولكنا نقول : إن الشعب الذى يصبر على حرمان نفسه منها يستطيع بقوة الإرادة أن يحمى نفسه شرور المدنية إذا صدقت عزيمته فى ذلك ، ولأهل وادى ميزاب وغيره من الوديان من مزية العزلة ، وشدة الشكيمة ، ما يجعلهم قادرين على ذلك . ودليلنا على ذلك أن كثيرا منهم ينزحون الى المدن الحافلة بضروب الفتن والمسولات فلا يتأثرون بها ويعودون الى بلادهم أطهارا من جراثيمها .

أقول هذا وألح عليهم فى قبوله ، فإن ثباتهم فيما هم فيه مع تجردهم من جميع وسائل المناعة المادية ، قد لايطول أمده ، فإن زحف المدنية عليهم متواصل من جميع الجهات ، وقد لاينقضى جيل حتى تتصل بهم فيضطرون الى قبولها كرها ، وفى وسعهم أن يجعلوا أنفسهم بحيث لو اتصلت بهم المدنية لم تجد فى وسائلها ما تفتنهم به .

فإلى أهل ميزاب تحيتنا مشفوعة بهذه النصيحة ، راجين الله لهم كرامة الدارين ، وشرف الحسنيين .

***

هل هناك ضرورة لاقامة مؤتمرات المسيح الملك

جاء فى جريدة (لا كروا) أى الصليب التى تصدر فى باريس تحت العنوان المتقدم مايأتى :

« كتبت إلينا (الى جريدة لا كروا) السكرتارية العامة لمؤتمر المسيح الملك نابليو بايا تقول :

« قد يظن أن مسألة : (هل هناك ضرورة لاقامة مؤتمرات المسيح الملك ؟) لا موجب لها ، ونرى أنه تجب الاجابة عليها .

« ماذا يراد من عبارة المسيح الملك ؟

« يراد بها أن المسيح ملك السماء والأرض ، ولكن هل العالم يعترف له بهذا الملك ؟

« معنى المسيح الملك أنه يجب أن يحكم ، وأن تعترف به ملكا جميع الممالك وجميع الشعوب ، لأنه يجب عليها له الطاعة والخضوع ، فقد قال هو : « اذهبوا وعلموا جميع الأمم وعمدوها وأدخلوها فى حظيرتى حتى لا يكون فى الأرض إلا راع واحد وقطيع واحد » .

« ولقد ولد المسيح منذ ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين سنة ، فالى أى حد فى مدى هذا الزمن نفذ أمر المسيح ؟

« يبلغ عدد سكان الأرض اليوم نحو ألفى مليون نسمة ، منهم مليون وأربعمائة ألف وثنيون ومسلمون ، ولا يعترف بالمسيح منهم إلا ستمائة مليون أى نحو ثلث سكان الأرض أجمعين ، ولا تنس أن مايقرب من نصف المسيحيين خوارج ومبتدعة منقسمين الى فرق شتى . فلا يوجد من الكاثوليك إلا ثلاثمائة وثمانون مليونا أى خمس مجموع البشر أى ١٩ فى المائة . ولكن لا يعتبرون عاملين بالكثلكة إلا نحو نصف هذا العدد . وسكان المدن الكبرى يعتبرون نصف وثنيين ، فلا يؤدى شعائر الدين منهم إلا نحو ٥٠ فى المئة . وهذه الوثنية الجديدة تنتشر بوقاحة ، والخروج من المسيحية والمادية المنحطة ينموان بدون انقطاع . وفى ممالك مختلفة تنشر دعاية مباشرة للاستكثار من عدد المرتدين . ففى مدينة (غراتز) (١) وحدها ، أعلن ثلاثون ألفا من أهلها خروجهم عن المسيحية . وعدد المواليد الذين لا يعمدهم آباؤهم يزداد يوما بعد يوم . وطوائف بروتستانية تنشر دعوة نشطة لمذهبها فى البلاد الكاثوليكية . والاسلام . . . (٢) ينتشر بسرعة توجب القلق .

« ولنضف الى هذا ، المذهب البلشفى ونشره الدعوة الالحادية الشنيعة . فما أجرأه على رفع رأسه عاليا وعلى محاولته فتح الأرض بأسرها ، وإنزال الإله من عرشه ، واستئصال شأفة الدين فى كل بلد يحله ! إن قوى الجحيم لم تهاجم قط مملكة الله على هذا النحو .

---

(١) بلدة نمساوية (٢) وصف الاسلام بالمبيد أو المهلك فلم نرد أن نثبت هذا الوصف الوقح !

« فلا يرميننا أحد بوصمة التشاؤم فإننا إنما نعتمد على الأرقام والحوادث التى لا يمكن النزاع فيها . وأى فائدة ترجى من كتمان الحق أو إنكار ما لا يجهله أحد ؟ فيجب علينا أن ننظر الى الحقيقة مواجهة ، لأن الحقيقة وحدها هى التى سوف تنجدنا .

« إننا نعلم أن المسيح كان وسيكون دائما موضعا للنزاع ، ونعلم أن أبواب الجحيم لن توصد أبدا ، وستهاجم مملكة الله بدون انقطاع .

« ونحن نعترف بأن فى الكنيسة الكاتوليكية خيرا وجمالا عظيمين ، وفيها عناصر إنشائية ومقوية ، كوحدة الاعتقاد والطاعة للبابوية ، مما لا تكثر أشباهه فى تاريخ الكنيسة ، ويوجد حب صادق للأب المقدس ، وتقوى وورع ، وميل للتضحية ، ونشاط قوى للبذل ، وروح ترابط اجتماعى . ونرى الناس يصلون كثيرا ويضحون كثيرا ، وفيهم نزوع للمتاب . وتوجد كتابات كثيرة وكلام كثير فى وجوب الاتحاد والنظام ، ونشاط لم ير مثله للكنيسة فى سائر المجالات .

« نحن نعترف بوجود ذلك كله ونسر به ، ولكننا لا نستطيع أن نخفى الأخطار التى تزداد تفاقما يوما بعد يوم مهددة المسيحية كلها ، كما لا نستطيع إخفاء الخسائر التى تكبدناها .

« فقد تألب أعداء مملكة الله عليها ، واتفقوا فى جميع البلدان على محاربتها . فالاشتراكية والشيوعية ، والماسونية ، والحرية الفكرية ، لا تعرف فيما بينها حدودا ، وليس لأشياع هذه المذاهب إلا فكرة واحدة تحييها ، وغرض واحد يجمع بينها ، وهو : الكفاح ضد مملكة الله .

« أما نحن الكاتوليك فلسنا بمتحدين فيما بيننا اتحادا وثيقا . نعم إننا منظمون تنظيما كنسيا ، ولكن العقول والقلوب يلوح أنها غير متفقة على ما ينبغى ، فهى تختلف باختلاف الأجناس واللغات . وقد أضعف الغلو فى القومية الديانة الكاتوليكية . .

« فيجب على جميع الكاتوليك أن يتفقوا يدا واحدة ، ويتعارفوا ويتحابوا ، ويتشاوروا فيما ينبغى عمله للدفاع ضد هجمات الظلام ، وفى زيادة احترام الكنيسة الخ الخ » .

(مجلة الأزهر) لا تحتاج هذه الى تعليق .

لدينا مؤلفات عديدة لم نستطع نقدها فى هذا العدد ، ونرجو أن ننظر فيها فى العدد المقبل إن شاء الله .

أحدث أبحاث الوراثة

تخيروا لنطفكم فان العرق دساس

معجزة علمية

ألـف رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت ضوء الوحي الإلهي أمة فاضلة استأهلت خلافة الله في الأرض ، ولم ين وهو يقيم صرحها يفضي الى آحادها من أسرار الحياة ما يجعل أخلاقهم يبنون على آساسهم ، فلم يدع أصلا يبني من وجودهم أو يكمل أخلاقهم إلا بثه في روعهم ، ونقشه في عقـولهم . ومن أروع ما وقفنا عليه من وصاياه ما يتعلق بفعـل ناموس الوراثة في تكوين الشخصية الانسانية : ألا وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ، فقد كشف بهذا الحديث عن حقيقة علمية خطيرة ظلت في طي النسيان أمدا طويلا من الدهر ، حتى آن لها أخيرا أن تكتشف وتعرف منذ أعوام قلائل .

لما كان التناسل هو الواسطة في تجدد الأجناس جيلا بعد جيل ، إذ أنه إذا ما اتحدت نطفة بخلية تناسلية أنثوية ، تكوّن من اتحادها كائن حي ينمو ويكبر ويخرج للحياة فردا مستقلا ، هذا الكائن الحي يستمد كل صفاته من أبيه وأمه كما سيتبين فيما بعد ؛ لهذا كان من أوجب الواجب العناية باختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح ، ذلك أن امرأة السوء أو رجل الشر لن يؤذي نفسه فحسب ، بل إنه جناية كبرى على خلفه من بعده ، أولئك الذين يرثون شروره وآثامه ، ويتطبعون بطباعه وينسجون على منـواله ، وهـؤلاء بدورهم ينقلون منكراتهم وخبائثهم الى الأحفاد وأحفاد الأحفاد ، سلسلة متصلة غير منقطعة ، وهكذا دواليك تستمر تلك الشجرة تروى بالماء الخبيث ، فتعطي ثمرا حنظلا مرا . هـذا ما يعنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « فإن العرق دساس » .

ولا يحسبن القارىء أني أتكلم جزافا ، أو ألقي القول على عواهنه ، فهذه النتيجة مستمدة من أحدث الأبحاث الوارثية ، وهي التي تظهر بجلاء معجزة النبي الـكريم ، وهاك بيانها :

لاحـظ كثير من العلماء المشتغلين بدراسة أسرار الوراثة في الانسان ، أن بعض الأسر تـكثر فيها نسبة المجرمين بشكل يلفت النظر ويوجب التأمل ، فتوفروا على دراسة تاريخ تلك الأسر دراسة مستفيضة ، وخرجوا بحقيقة هامة ، ألا وهي أن الصفات الإجرامية والشذوذ العقلي كلها صفات وراثية تنتقل من الآباء الى الأبناء الى الأحفاد . ولـكي تحكم بنفسك أيها

القارئ الكريم على صحة تلك النتيجة ، نذكر لك فيما يلى تاريخ إحدى تلك الأسر ، وهى أسرة شخص أمريكى يدعى « جول » :

افتتن ذلك الرجل بامرأة من البغايا ، فتزوج بها ، وأخلف أولادا نزعت نفوسهم الى الشر ، وسرت تلك الدماء الملوثة فى الأبناء والأحفاد ، فجاء النسل كله عريقا فى الإجرام ، فأحصى العلامة «دوجديل» أفراد تلك الأسرة فى مدينة نيويورك ، فعثر على ١٢٦٠ فردا بهذا الترتيب :

١١٨ شخصا من اللصوص
١٧٠ « من المتشردين
١٢٩ « عالة على غيرهم
١٨١ « من المدمنين على الخمور
٨٦ « يديرون بيوتا سيئة السمعة
١٩٨ « يشتغلون بالحرف الدنيئة (وقد تعلموها داخل السجن)
٣٧٨ امرأة من البغايا

ولقد حسبت الخسائر المالية التى تكبدتها حكومة نيويورك من جراء إفساد تلك الأسرة فوجدت ٠٠٠ ر ٢٥٠ ر ١ دولارا

فهذا رجل جرى وراء شهواته واتبع نزعات الشيطان ، فوقع فى مغبة عمله وسوء فعله ، وتردى فى هوة عميقة لا قرار لها ، وجنى على المجتمع الانسانى شر جناية ، فقد أخرج له فئة من الأشرار المجرمين يعيثون فى الأرض فسادا ، دون وازع من ضمير أو رادع من عقاب ، فقل لى بربك : أليست هذه الحقيقة الواقعة مصداقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يارسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » .

سبحانك ربى ! لقد أرسلت رسولك بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، فهاهى ذى كلماته الحكيمات باقيات على الدهر غرة ناصعة فى جبينه ، ونبراسا ينير لنا السبل ، ويهدينا الصراط المستقيم ، ودرة ساطعة نتاقى منها العلم والحكمة والخلق الى يوم الدين .

وقد يتملكك العجب وتأخذك الدهشة اذا ما علمت أن العلماء بذلوا الجهود الجبارة فى سبيل إصلاح نسل تلك الأسرة وإرجاعه الى الطريق القويم ففشلوا فى ذلك فشلا ذريعا ، فلقد كانوا يأخذون الطفل الرضيع من مهده ويعهدون بتربيته الى إحدى الأسر الشريفة لينشأ محبا للأخلاق الحميدة مطيعا للقانون ، ولكن :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

ما يكاد الطفل من هؤلاء يشب ويترعرع حتى تظهر عليه سيماء الشر ، وإذا به يحطم كل القيود التى تثنيه عن إدراك بغيته ، وينطلق هائما فى ساحة الجريمة .

من هذه التجارب يتضح لنا أن طبيعة البيئة ليست هى العامل الأساسى فى تكوين المجرم والشرير ، ولو أننا لا نستطيع أن نهمل تأثير البيئة ، إلا أنه يلزمنا معرفة أن الوراثة هى التى تلعب الدور الأول والأكبر فى تكييف الشخص وتوجيهه الوجهة التى سيسير على ضوئها فى الحياة ، فالمجرم الوراثى يشعر ويعتقد اعتقادا جازما بأن حياته الإجرامية إن هى إلا حياة عادية لا شائبة فيها ، بل إنه ليجد اللذة والسرور عند اقترافه لموبقاته ، فمثل هذا الشخص لا يمكن إرجاعه عن طبيعته لأن حب الجريمة قد سرى فيه مسرى الدم . وأما الشخص الذى دفعته البيئة دفعا الى سلوك سبيل الشر ، فيمكن إصلاحه بنقله الى بيئة طيبة ، وتعهده بالتربية الصحيحة والخلق القويم .

قلنا : إن ضعف العقل وشذوذه والميل الى الإجرام ، كلها صفات وراثية تنتقل من جيل الى جيل ، كذلك الصفات الممتازة كالذكاء والمقدرة العقلية الفائقة ، يرثها الأبناء عن الآباء ، فلقد درس العلماء تاريخ إحدى الأسر الشهيرة فى أمريكا وأحصوا أفرادها سنة ١٩٠٠ فوجدوا منهم ١٩٢٤ شخصا يملأون مراكزهم فى الحياة الاجتماعية ، فقد كان من رجالها :

١ وكيلا للجمهورية الأمريكية — ٦٠ طبيبا
٣ أعضاء لمجلس الشيوخ — ٣٠ قاضيا
١٣ عمداء كليات الجامعة — ٦٠ محاميا
٦٠ أستاذا فى الجامعة — ١٠٠ حاكم
٦٠ من مشاهير الكتاب

وغير هؤلاء عدد غفير من كبار رجال الدين ، ومن رؤساء المعاهد العلمية ، وأعضاء فى المؤتمرات الدولية ، الى غير ذلك من المراكز الممتازة .

إزاء كل هذه الحقائق ابتدأ العلماء يتعمقون فى دراسة أسرار الوراثة فى الانسان ، يبغون من ذلك استكمال تقدم النوع الانسانى فى مجال الرقى العقلى حتى يزداد بذلك إنتاجه ، نتيجة لزيادة قواه المفكرة . كذلك يرمى العلماء الى تركيز الأخلاق القويمة فى الانسان ، والقضاء على الصفات الوراثية الخاصة بالإجرام والجنون وضعف الشعور بالمسئولية ، وكذا الاحتفاظ بصحة الانسان بالقضاء على الصفات الوراثية التى تجلب لحامليها الاستعداد للإصابة بالأمراض . وكل هذه أبحاث حديثة شيقة ومفيدة ، وسنتكلم عليها بالتفصيل فى أعداد قادمة ، إن شاء الله

رضوان محمد رضوان
بكالوريوس فى العلوم الزراعية

المحاماة قديما وحديثا

فى عدد من أعداد هذه المجلة من بعض سنيها الماضية عرضنا للكلام لماما عن المحاماة قديما وحديثا ، وكيف تطورت اليوم حتى بلغت مستواها الذى بلغته ، وألمعنا فى ذلك البحث الى أن حق الدفاع قديم فى البشر . فهى ضرورة من ضرورات الاجتماع تدعو اليها نواميس هذا الوجود وتفرضها قضايا العمران بما فطر عليه الانسان من حب الغلبة والنصر .

ففى قصة موسى حين طلب الى الله سبحانه أن يرسل معه أخاه هارون الى قوم فرعون الذين كذبوه إذ قال : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فارسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » ، وإذ قال الله له : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ، وفى قوله سبحانه : « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » - آية الآيات على أن الدفاع فى البشرية قديم وجد منذ تمخضت الأقدار عن الخليقة ووطئت بقدمها تلك الرقعة السوداء . وألمعنا أيضا الى أن الدفاع فى الخصومات كان فى زمن موسى عليه السلام طليقا من كل قيد إلا من البساطة الساذجة .

فقد كان لليهود فى زمنه عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه نظام المحاماة اليوم . فمن أظهر مظاهر اشتغالهم بها حل المشكلات التى تظهر بين الأفراد من المسائل القانونية . ويروى الأستاذ جلاد بك أنهم كانوا فى عملهم هذا غير مأجورين ، لأنهم اختصوا بجعالة فى بيت المال يتقاضونها كتشجيع لهم على الاستمرار فى مهمتهم الانسانية الجليلة ، وكانوا يعتبرون كأنهم من رجال القضاء ، حتى إن القضاة لم يكونوا ينتخبون إلا من بين أفرادهم ، لأنهم مارسوا فنون الكلام وأساليب الدفاع عن أممهم ، وعرفوا كوامن العلل فى نفوس الأهلين ، فليس فى طبقة أخرى من يفضلهم فى فنون التقاضى ، لذلك أملت عليهم المصلحة ووضع الأشياء فى مواضعها أن تنتخب القضاة من بين المحامين وحدهم .

ولم يكن اليهود فى زمن موسى هم المستأثرين بتلك الخواص فحسب ، بل شاعت تلك الظاهرة أيضا فى الكلدانيين والمصريين والفرس وأهل بابل . فقد كان بين هؤلاء الأمم رجال اشتهروا بالعلم والذكاء ، يرجع الناس اليهم فى المشورة ، ويستعينون بهم فى خصوماتهم ، مما يشبه نظام المحاماة اليوم ، حتى إن هؤلاء الأفذاذ كانوا يجتمعون فيما يشبه الأندية العامة أو الخاصة فتأتى اليهم الناس تستشيرهم وتصدر عن رأيهم .

وقد ظل الأمر كذلك حتى اخترع المصريون فن الكتابة على ما يروى لنا المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ، فحظروا من ذلك العهد على المشتغلين بالقانون ألا يترافعوا إلا بالكتابة

وسر ذلك الحظر أنهم خشوا أن يخلب المترافع ألباب القضاة بانبساط لسانه واتساع بيانه وحدة جنانه وعذوبة منطقه .

وتطور هـذا الفن تطورا مطردا ، وكان أقدم الناس به عهدا المصريون والفرس والكلدانيون كما أسلفنا ، والمصريون فى الطليعة . وقد ظل هذا الفن يدرج فى حجور متواضعة حتى انتقل فجأة الى اليونانيين . فليس من بلد نبغ فيـه العدد العديد من الفلاسفة والحكماء والمشترعين والخطباء والكتاب والعلماء مما بلغه فى بلاد اليونان .

ويروى العلامة أحمد فتحى زغلول باشا أن المستبصرين فى ذلك العهد قد أعجبوا إيما إعجاب بما بلغه النضوج العقلى فى بلاد اليونان . وقد توارث هـذا الإعجاب علماء القانون والفكر فى كل عصر وجيل حتى العصور التى شـق الفرنسيون فيهـا الى التشريع لهم طريقا ، وإن كانوا مسبوقين فى نظرياتهم العامة بالفقه الاسلامى الذى يقرر فى نظرياته العامة أهدى قواعد الوجود وأرسخها قدما فى الفقه بشقيه ، وفى الفلسفة وفى القانون ، وفى كل ماله أوثق الصلات بخير البشرية وإسعادها .

لكن مما لا سبيل الى الجدل فيه أن تلك الشرائع كانت على قسط وفير من الكمال والعدل ، حتى إن حكومة الجمهورية الرومانية فى ذلك العهد ، ولها يومئذ سـعة سلطانها وقديم مجدها وباذخ عزها ، قد أرسلت الى بلاد اليونان بعوثا ليقتبسوا عنها تلك الشرائع لتستنير بأصولها فى تشريعاتها المختلفة وتنظيم روابطها المتنوعة .

ولقـد كانت الفصاحة مهملة عنـد الأمم فعنى بهـا اليونان وتدارسوها فى مدارسهم ، ووضعوا لها أصولا وقعدوا لهـا قواعد ، حتى صارت فنا من فنونهم القومية ، وجزءا غـير منفصل من حياتهم الثقافية .

وهنا يروى الأستاذ جلاد وصاحب العزة عبد الفتاح السيد بك المستشار بمحكمة النقض أن أول أمة أدخل على صناعة المحاماة فيها فن البلاغة هى الأمة اليونانية .

ومن ذلك العهد نبتت فـكرة شائعة بين السكان ، وهى أن يستعين أرباب القضايا بأحد هؤلاء الخطباء فى المرافعة أمام القضاء فى آثينا ذاتها وفى بعض البلاد الأخرى ليؤيدوا حججهم فى وجهة نظرهم وسبل اتجاهم . وقـد بدأ هؤلاء الخطباء بالقاء الخطب بأنفسهم نائبين عن أصحاب القضايا . ولهؤلاء العلماء خطب مشهورة كانوا يلقونها بأنفسهم أمام منصة القضاء .

ومن الرجال الأفذاذ الذين خدموا القانون والقضاء بل خدموا قضية العدالة والانتصاف ، الأستاذ (استين) ، فقـد خصص نفسه للدفاع عن المتهمين ظلما ، حتى إنه كان يكـتب دفاعه الى بعض هؤلاء المتهمين إذا تبين رقة حاله وتبلبل باله ، ليقرأه ذلك المتهم على القضاة .

ومن هؤلاء الرجال الأستاذان (دراكون) و (سيلون) اللذان وضعا القوانين لتنظيم حرفة الدفاع وتثبيت قواعده على سنن يكفل أن يأخذ العدل مجراه ، فاشترطا فى المحامى الذى يمارس حرفة المحاماة ويلقبونه يومئذ بالخطيب : أن يكون حرا ، وأن لا يكون مرذولا فاقد الشرف مثلوم العرض ، وأن لا يكون مأخوذا عليه عصيان والديه أو القعود عن تلبية داعى الوطن أو قبول وظيفة عمومية أو الاتجار بتجارة تخالف الآداب وتشين الاعتبار ، وكذلك من شاهده الناس فى أماكن الفحش والفجور ، ومن عاش عيشة التأنق والتبذل فبدد ما ورثه عن آبائه ، ومن كان أمينا على أموال الدولة فى عرفهم يومئذ .

كذلك منعت النساء من المحاماة لما ينبغى لذلك النوع من التوافر على الحشمة والدعة والوقار ، ولما تقرر فى قواعد الفلسفة القديمة أن المرأة وهى كثيرة الاضطراب فى الآراء سريعة السير مع الأهواء ، لا تعدل الرجل فى عقله وسلامة إدراكه وقوة استنتاجه .

وقد كانت حظيرة المحاماة التى تشبه نقابة المحامين اليوم ، معدودة من الأماكن المقدسة التى لا يجرى فى فنائها ولا أرجائها هجر ولا لغو ، لأنهم كانوا يرون فيها يومئذ أداة الانقاذ وكشف الحقيقة واسترداد الحقوق الضائعة ، وفى دوائر القضاء إنصاف المظلوم ، وإغاثة الملهوف وتشييد صروح العدالة على قواعد من الأدلة والبراهين التى أدلى بها المحامون ، فهم والقضاة سواسية فى تلك التجلة وذلك الاحترام . فاذا حان وقت إقامة المنصة ونصب ميزان العدل ، رش المكان بالماء المطهر رمزاً الى أنه مكان فوق مستوى الأمكنة العادية ، فلا يجرى فيه إلا ما له صلة بمصلحة الجمهور ، مما سنعود اليه بمزيد بسط ، وبيان فى أعداد تالية . فالى الغد القريب ؟

عباس طه

تصحيح

	ص	س	
وقع فى العدد السادس	٤٧١	٢١	خطأ هذا صوابه : إن فى ذلك لذكرى

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يتحدث عن واجب الشعب والعلماء وأبناء الأزهر فى الأحوال الحاضرة

قابل مندوب «الأهرام» حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، وسأله عما إذا كان هناك ماينصح به لحضرات علماء الأزهر وطلبة معاهده ليسترشدوا به فى تأدية واجبهم فى الظروف الحاضرة، فقال فضيلته:

«هناك نواح كثيرة للظروف المحيطة بنا الآن، ولكن أهم شيء فى نظرى أن تسير الحياة فى هدوء ونظام وأمن، وأن يعاون الشعب الحكومة فيما هى بسبيله من حياطة الوطن والذود عن حياضه والدفاع عنه، وأن يقوم بين الشعب تعاون وثيق وشعور رحمة وعطف، وأن يكون الجمهور غير شاعر بمضض الحياة وعدم القدرة على سد العوز ودفع ألم الجوع، وهذا يقتضى من الجمهور اقتصادا، ومن التجار قناعة.

«فأنا أطلب الى حضرات العلماء وأبناء الأزهر جميعهم فى المدن والقرى، أن يراعوا هذا، وأن يكونوا رسل رحمة، قوامين بما هو واجب عليهم من النصح.

«وأسأل الله أن يقى هذه البلاد شر عوادى الزمان، وأن ينقذ العالم مما هو فيه من شرور، ويرده الى الفضيلة عن طريق هداية الوحى ونور النبوة».

هذه كلمة من كلمات حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام، نضيفها الى مثيلاتها من كلماته الموجزة ذات الدلالات العالية. وهى تنحصر فى مطالبة الشعب بمعاونة الحكومة فيما ترمى اليه من إعداد الوطن للدفاع عن كيانه، من طريق تنظيم وجوهه، وتوفير معداته، وهذا التعاون الرئيسى يقتضى تعاون أفراد الشعب فيما بينهم حتى تكون الأمة كالجسد الحى فى ترابط أعضائه، وتكافل أجزائه.

ولما كان هذا المثل الأعلى من التضام والترافد يقتضى شعورا من الآحاد بالواجب يعده بالوجود، أهاب فضيلة الأستاذ الامام بهذه العاطفة فى النفوس لما يبتنى على التقصير من مضض الحياة، وأشار الى أن مصابرة هذه الأحوال تقتضى من المستهلكين اقتصادا، ومن التجار قنعانا.

وفى هذا الموطن يهيب الأستاذ بحضرات العلماء وأبناء الأزهر أن يجعلوا من أنفسهم رسل رحمة بين الناس، وأن يقوموا بما هو واجب عليهم من النصح.

فعلى الذين يقرءون هذه الكلمة القيمة أن يكرروها فإنها نعم البرنامج الأدبى لهم فى هذه الآونة الشديدة، حمى الله كنانته من كل شر، وألهمنا ما ألهم آباءنا من قبل، من روح الاستبسال فى الدفاع عن الوطن، وحقيقة الصبر فى مواقف الجد.



عزم المشركين على الجد فى وقف الدعوة الاسلامية

لم يترك الجاهليون وجها من وجوه الإيذاء والإيلام إلا عاملوا به النبى صلى الله عليه وسلم ومن آمنوا معه ، فلما عجزوا عن فتنتهم عن دينهم ، أجمعوا على معاملتهم بأقصى ضروب الشدة ، حتى يفرغوا من أمرهم ، ولكنهم قبل أن يقدموا على هذا الأمر رأوا أن ينذروا عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم ليتخلوا عن حمايته ، فاذا أبوا أعلنوهم الحرب وعاملوهم معاملة الأعداء . فمشى جماعة منهم الى أبى طالب بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له :

«يا أبا طالب ! إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا اليك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فان لم تكفه عنا نازلناه وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » !

فلما سمع أبو طالب ما قالوه عظم عليه مخالفة قومه وعداوتهم ، ولكنه لم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه ، وتعريضه لوحشيتهم ، فرأى أن يكلمه فى هذا الأمر فقال له :

« يا ابن أخى ! إن قومك جاءونى فقالوا لى كيت وكيت ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

فأجابه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

« ياعم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أنزل عن هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ! ثم بكى وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب ، فأقبل اليه فقال له : « اذهب يا ابن أخى وقل ما أحببت والله لا أسلمك اليهم » !

فلما رأت قريش أن مسعاهم لم يفلح اعتزموا أن يسلكوا لتحقيق غرضهم طريق الشدة ؛ ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب الى حماية محمد صلى الله عليه وسلم ، فأجابوه الى ذلك إلا عمه أبا لهب .

فتوالى الاضطهاد بشدة على المسلمين وعلى النبى صلى الله عليه وسلم . فمما روى من إيذائهم له ما حدث به عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وهو يصلى ، وقد نحر بعض الناس جزورا وبقى فرثه وكرشه . فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم الى هذا القذر يلقيه على محمد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فتضاحكوا وجعل بعضهم يميل الى بعض . قال ابن مسعود : نخفنا أن نلقيه عن ظهره ، حتى جاءت فاطمة ابنته بعد أن ذهب اليها إنسان وأخبرها الخبر ، واستمر النبى ساجدا حتى ألقته عنه .

وروى البخارى عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : بينا رسول الله يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكبه ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبيه ودفع عنه .

وروى أنهم اجتمعوا مرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجذبوا رأسه الشريف ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ولما بدا له صلى الله عليه وسلم أن يدعو أهل الطائف ، وهى قرية بقرب مكة ، شخص اليها فقابله أهلها بأقبح رد ، وتولاه سفلتهم بالرجم وهو راجع حتى أدموا رجله بحجر .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن أُمر باعلان الدعوة لاينى فى دعوة القبائل فى مواسم الحج ، فكان يتتبعهم بمنى والموقف يسأل عنهم وعن منازلهم ، ويأتى إليهم فى أسواق الموسم وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز . وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل الى سوق مجنة وتقيم به عشرين يوما ، ثم تزايله الى سوق ذى المجاز فتقيم به أيام الحج ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقصدهم فى هذه الأسواق ويعرض نفسه عليهم طالبا إليهم أن يحموه حتى يبلغ رسالة ربه ، فكان يلازمه رجل من المشركين يصد الناس عنه مدعيا لهم أن به جنة ، فيعرض الناس عنه ، ولا يقيمون لما يقوله وزنا ؛ استمر على ذلك نحو عشر سنين .

هجرة بعض المسلمين الى الحبشة :

إن ما كان يلحق النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى والاضطهاد كان يلحق مثله الذين آمنوا به ، حتى أن أبا بكر وهو سيد كبير من ساداتهم ضرب مرة حتى اختلط وجهه ، فلما طفح

الكيل ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، رأى بعضهم أن يهاجر الى الحبشة ، فارين الى الله بدينهم ، وتاركين لأموالهم وعشائرهم . فاتفق عشرة رجال وخمس نسوة على الشخوص الى الحبشة ، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وأم سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب ابن عمير ، وسهل ابن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وأكثرهم من أشراف قريش تحت قيادة عثمان بن مظعون ، ولكن لم يطب لهم المقام هنالك لأن الأحباش كانوا على النصرانية وذوى عصبية دينية لا تعرف التسامح ، فنبت بهم الديار ، فلم يلبثوا إلا ثلاثة أشهر ثم عادوا أدراجهم ، ولما رجعوا لم يتمكن من دخول مكة إلا من وجد له مجيرا ، فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة ، ثم رأى أن يرد عليه جواره عند ما بلغه ما صنعه من اضطهاد المسلمين وما لا يزال يصنعه معهم .

إسلام حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب :

كان من أكبر العوامل فى إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ما شعر به من الامتعاض الشديد من إيذاء المشركين لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم . فقد قيل إن مولاة لعبد الله بن جدعان كانت فى دارها ، فرأت بعينها وسمعت بأذنها أن أبا جهل وهو أبو الحكم بن هشام ، لقى رسول الله فشتمه ورماه بالتراب ووطئ برجله عاتقه ، ثم انصرف الى نادى قومه . فلم تلبث الأمة التى كانت قد تأثرت بما فعله أبو جهل أن مر بها حمزة عائدا من قنصه متوشحا بسيفه ، فقالت له الفتاة : يا أبا عمارة : لو رأيت ما فعل بابن أخيك الساعة أبو الحكم بن هشام ، تعنى أبا جهل ، وحكت له ما رأت . فقال لها حمزة : أنت رأيت هذا الذى تقولينه ؟ قالت : نعم .

فاستشاط حمزة غضبا وقصد المسجد فصادف أبا جهل جالسا ، فأقبل اليه ورفع قوسه وضرب بها رأسه فشجه قائلا له : أتشتم محمدا وأنا على دينه ؟ ! فقام رجال من بنى مخزوم ينصرون أبا جهل ، وقالوا لحمزة : ما نراك إلا قد صبأت الى دين محمد .

فصمد لهم حمزة ولم يبال بتألبهم عليه ، فتركوه . ولما كان اليوم التالى ذهب الى رسول الله وأسلم فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه ، لأنه كان أعز فتى فى قريش ، وأشدهم شكيمة على من يناوئه ، فخفف المشركون أذاهم عن رسول الله ، متحامين بطش حمزة ؛ وكان ذلك فى السنة السادسة من النبوة ، وقيل بل الخامسة منها .

أما عمر بن الخطاب فقد حدث عن سبب إسلامه فقال ما مؤداه : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقينى ذات يوم رجل من قريش ، وقال يا ابن الخطاب

تزعم أنك هذا ، أى أنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل هذا الأمر فى بيتك (أى الاسلام) ؟ فتملأت غضبا ثم قصدتُ دار أختى زوجة سعيد بن زيد وقابلتها بما تكره على أن تركت دين آبائها وصبأت الى دين محمد ، ثم نظرتُ فاذا صحيفة فى ناحية من البيت فأخذتها ، فإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله ما فى السموات والأرض » ، فتلوتها حتى بلغت قوله تعالى : «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . الى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » فعظمت فى قلبى وصممت على الاسلام ، وقلت لهم : دلونى على مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت اليه فى دار الأرقم وكان مختفيا فيها بمن معه ، وطرقت الباب فلم يجسر أحد أن يفتح لى ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : افتحوا له إن يشأ الله به خيرا يهده ، فأدخلونى بين رجلين آخذين بعضدىّ . فقال لهم النبى أرسلوه ، أى اتركوه ، فجلست بين يديه ، فقال لى : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقلت : يارسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . !

قال عمر : وكان الرجل إذا أسلم استخفى ، فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لايبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالايمان . قال عمر : وأحببت أن يصيبنى ما أصاب من أسلم من الضرر والإهانة .

روى عبد الله بن عمر قال : لما أسلم أبى قال : أى قرشى أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل ابن حبيب ، فغدا عليه وغدوت أتبع أثره وأنا غلام أعقل ما أرى ، حتى لقيه فقال له : أعلمت يا جميل أنى أسلمت ؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ! فأخذ الناس يضربونه ويضربهم حتى قال خالى ما هذا ؟ قالوا ابن الخطاب ، فقام على الحجر وأشار بكمه ألا إنى أجرت ابن أختى ، فانكشف الناس عنه . وخاله هذا هو أبو جهل وهو فى الحقيقة عمه وإنما دعى خاله مجازا .

وروى البخارى عن ابن عمر قال : بينا عمر فى الدار خائفا إذ جاء العاص بن وائل السهمى أبو عمرو بن العاص ، وعليه حلة حبرة ، وقميص مكفوف بحرير ، فقال له : ما بالك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى لأنى أسلمت . قال : لا سبيل إليك . فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى . فقال أين تريدون ؟ قالوا ابن الخطاب الذى قد صبأ . قال لا سبيل إليه ، فكر الناس وانصرفوا .

ثم رأى عمر أن يرد على العاص بن وائل جواره . قال : فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الاسلام .

إن إخلاص عمر فى إسلامه يستحق أن ينوه به ، فإنه بعد أن آمن وكان من أشد الناس

إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، لم ير ما يكفّر عنه سالف عدائه للحق إلا أن يعرض نفسه لضروب الإيذاء التي تعرض لها إخوانه الذين سبقوه الى الاسلام ، فأعلن إيمانه لينال من الاضطهاد مثل ما لقوه . وقد لقي منه الشيء الكثير .

مقاطعة المشركين للمسلمين :

لما رأى قادة الجاهلية أن جميع ضروب الاضطهاد لم تفت فى عضد المسلمين ، ولم تحل جماعتهم ، عمدوا الى سلاح من أشد الأسلحة على الأقليات العائشة مع أكثرية ساحقة ، وهو سلاح المقاطعة . فاجتمع صناديدهم وقرروا بعد التشاور أن يتفقوا كتابةً على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب ، فلا يصاهرونهم ، ولا يبايعونهم ، ولا يرحمونهم حتى يسلموا اليهم رسول الله يقتلونه . وأخذت كل جماعة نسخة من هذا العقد وعلقوا واحدة منها على جدار الكعبة . وكان ذلك سنة سبع من النبوة .

فلم يسع بنى هاشم وبنى المطلب إلا أن يجتمعوا تحت إمرة أبى طالب بن عبد المطلب ويلجأوا معه إلى شِعب بالجبل متحصنين فيه ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم من أسلم من غير بنى هاشم وبنى المطلب أن يهاجروا إلى الحبشة حتى لا يهلكوا جوعا . وبقى من دخل الشِعب منهم فى حالة يرثى لها من الجوع والعطش ، وكادوا يهلكون جميعا لولا أن الله سخر لهم رجلين كانا يعطفان عليهم ، ويأتيانهم بشىء من الطعام خفية ، أحدهما هشام بن عمرو العامرى ، كان من أشد الناس معارضة فى إبرام عقد المقاطعة ، وقد أسلم بعد ، فكان يأتيهم بما يقدر عليه من الأغذية ، فأدخل عليهم فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال من الأطعمة ، فبلغ قريشا ما صنع فكلموه فى ذلك ، فوعدهم بالاقلاع عن هذا الفعل ، ولكنه لم يف بوعده ، وعاود إمداد المقاطَعين بالأغذية ، وبلغ قريشا أيضا فأغلظت له القول وهمت بقتله .

وثانيهما حكيم بن حزام ، لقيه أبوجهل يوما وقد حمل غلامه قمحا الى من بالشعب ، فكلمه فى ذلك وشنع عليه ، فأخذ حكيم لحى بعير فضربه به فشجه ، وتدخل بينهما أبو البخترى فلم يتطور التنابذ الى ماهو أشد منه .

ولكن ماذا عسى أن تكون قيمة هذه المساعدات الفردية بازاء حاجة عشرات من الأنفس ؟ فلقد لقوا من الشدة مالا يصبر عليه إلا الكرام .

وقد روى أنهم جاعوا حتى أكلوا الخبط (ورق الشجر) . وكان بعضهم يحضر الحج ويحاول أن يشترى شيئا فلا يستطيع من الرقيب الذى يوكل به حتى يرجع للشعب .

لبث بنو هاشم وبنو المطلب على هذه الحال سنتين وقيل ثلاث سنين ، وهو الأرجح ، حتى بلغ بهم الجهد ، فاتفق خمسة من رجالات قريش ليلا على أن يعملوا فى غدهم على نقض عهد المقاطعة ، ... ام بن عمرو العامرى ، وهو أشدهم رغبة فى ذلك ومحاولة له ، وزهير بن أبى أمية ال...

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمطعم بن عدى النوفلى ، وأبو البخترى بن هشام الأسدى ، وزمعة بن الأسود الأسدى .

فلما كان الغد جاء زهير الى المسجد وعليه حلة ، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس وقال : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هـذه الصحيفة ! يريد صحيفة العقد المعلقـة بالـكعبة ، فعارض فى ذلك أبوجهل ، فرد عليه زمعة بن الأسود ، وعاونه أبو البخترى بن هشام الأسدى ، وانضم اليهما المطعم بن عدى ، وقام الى الصحيفة ومزقها .

فلمـا بلغ بنى هاشم والمطلب ما حدث خرجوا من الشعب .

هجرة المسلمين الثانية الى الحبشة :

قلنا إن النبى صلى الله عليه وسلم حين أوى هو وعشيرته الأقربون الى الشعب ، أمر من أسلم من الناس أن يهاجروا الى الحبشة ، فاجتمع نحو ثلاثة وثمانين رجلا منهم ، وثمانى عشرة امرأة وخرجوا مهاجرين اليها ، منهم جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وانضم اليهم الذين أسلموا باليمن وهم أبو موسى الأشعرى وبنو عمه .

فلمـا رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص (قبل أن يسلم) وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشى ليسلم المسلمين لقريش ، فأبى عليهما ذلك ، وقد بقى هؤلاء المسلمون بالحبشة حتى هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة فعادوا اليه بها .

محاولة الاستعانة ببنى ثقيف بالطائف :

لمـا آنس النبى صلى الله عليه وسلم أن قريشا قد تضافرت على معاكسته بكل وسيلة ، رأى أن يلجأ الى بنى ثقيف بالطائف ، وهى بلدة فى الجنوب الشرقى من مكة ، طالبا اليهم حمايته حتى يؤدى رسالة ربه ، فقابل رؤساءها وكلمهم فى هذا الشأن ، فأخشنوا له فى الرد ، وأرسلوا غلمانهم ليقطعوا عليه الطريق وهو قافل الى مكة ، فلمـا أقبل عليهم قابلوه بوابل من الحجارة حتى أدموا عقبه ، ولولا أن زيد بن حارثة كان يذودهم عنه للحقه منهم أذى كبير .

ولمـا قرب من مكة لم يستطع أن يدخلها لمـا علمه كفار قريش من ذهابه الى الطائف واستنصاره عليهم بأهلها . فأرسل صلى الله عليه وسلم الى المطعم بن عدى بن نوفل يخبره أنه يريد أن يدخل مكة فى جواره . فأجابه الى ذلك وحمل هو وبنوه أسلحتهم ، واستعدوا للقتال من يعترضهم ، وذهبوا الى رسول الله واستقبلوه خارج مكة وقدموا معه حتى بلغوا به المسجد .

عند ذلك سأل المشركون المطعم بن عدى قائلين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير . قالوا : إذا لا تخفر ذمتك .

وفاة خديجة رضى الله عنها :

بعد خروج بنى هاشم وبنى المطلب من الشعب بقليل توفيت خديجة بنت خويلد ، وهى تستحق صحيفة خالدة فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فليس لامرأة فى الاسلام من الفضل ما يعدل فضلها ، فقد كتب لها أن تكون لخاتم المرسلين زوجة ، فتولته وهو فى ميعة صباه بالعطف والرعاية ، حتى بلغ الثالثة والخمسين من عمره المبارك ، فلم تدع وجها من وجوه العناية به ، والاخلاص له ، إلا قامت به على أكمل وجه .

شاطرته الحياة وهو فى ريعان الشبيبة ، فكفته بمالها الكدّ المضنى ، فسهلت له التجرد للتفكير والتأمل ، وهما بابا الاهتداء الى الحق ، وطريقا التهيؤ للنبوة التى كتبها الله له ، وسوغت له الانقطاع عن العمل الدنيوى الأيام والليالى التى كان يقضيها فى غار حراء ، ولم تقف عقبة فى سبيله لقطع هذه المرحلة من حياته الاعتزالية .

ولما انبثق له النور الالهى ، وشافهه الملك بالوحى ، وأدركه ما أدركه من الهلع ، كانت أول من تولته بالتهدئة ، وحاطته من حنانها بما خفف عليه احتمال تلك المفاجأة .

ولما أدرك أن ما جاءه هو الوحى ، وأنه بعث بالدين الحق ، كانت هى أول من آمن به ، وفى إيمانها سكن لقلبه ، إذ لو كانت كأكثر النساء جامدة على عقائدها الوراثية ، لكانت بموقفها المخالف منه ، وهو بين روعة الوحى ولوعة الشعور بعظم التبعة ، أشد عليه من أكفر الناس به .

فلما شدد عليه قومه النكير ، وتقصدوه بالأذى والاضطهاد ، كانت هى أكبر المشجعين له على المضى فى أمره ، ولو أدركها الذعر ، وحاولت صرفه عن شأنه ، لسببت له من العنت ما لا يوصف بوصف .

كانت خديجة رضى الله عنها ذات مال ، ولذوات المال إدلال ، وملال من اضطراب الأحوال ، وخديجة كانت تعلم أن مضى زوجها فيما هو فيه ، مع عمله فى تجارتها ، يوجب لها الكساد ، فلم يُرْوَ أنها فاتحته مرة فى الاقلاع عما هو بسبيله ، محافظة على مكانتها المالية ، وهذا أندر ما يكون فى أصحاب الهيل والهيلمان .

وتبعته الى الشعب تاركة ثروتها بين يدى الجاهليين ، وصبرت معه صبر الأكرمين ، ثم أدركتها الوفاة بعد خروجها ، فكان حزن النبى عليها عظيما ، ناهيك أنه ما نسيها طول حياته ، فحيا الله أم المؤمنين فى عليين ، وآجرها أجر السابقين المقربين !

محمد فريد وجدى



تفسير سورة الاخلاص

« تكميل »

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا بمناسبة نشاط المبشرين فى هذه الأيام ببلادنا المصرية ، أن نناقشهم مناقشة منطقية فى معتقداتهم أولا ، ثم ندخل معهم فيما شاءوا من الأبحاث بعد ذلك ، ولم نر أنسب لذلك من تفسير سورة الاخلاص ، إذ هى سورة التوحيد التى ترد عليهم ردا صريحا يؤيده العقل والمنطق ، مبينة أنه تعالى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . أما المسيحيون فيقولون : إن ابن الله نزل جنينا الى بطن امرأة آدمية ، وجرت عليه الأحداث البشرية والكوارث الدنيوية ، ثم صلب أخيرا .

ولندع محاورتهم اليوم فى هذا وهو من البداهة بمكان ، ولكن نرد عليهم بما جاء فى الإنجيل نفسه من النصوص الصريحة التى تنطق بإنسانية المسيح ، حتى يعلموا أنهم خالفوا المعقول والمنقول ، فنقول وبالله التوفيق :

قد أوجبتم الأبوة الإلهية للمسيح لكونه لا أب له من البشر ، فلم لم توجبوها لآدم مع أنه ليس له أب ولا أم كما يصرح به التوراة والإنجيل ؟ أليس من الواضح عند ذوى العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابنا لله تعالى ، لزم بالأولى ألا يكون عيسى ابنا لله تعالى لعدم الأب فقط ؟ أليس هذا مصادمة للقياس الأولوى عند كل عاقل ؟

ولندع هذا الآن ولنقل : ألم يبلغكم ـ وهو فى إنجيل لوقا ـ أنه قال : « إنه لم يُقبل أحد من الأنبياء فى وطنه فكيف يقبلوننى » ؟ فصرح بأنه من الأنبياء عليهم السلام . وفى إنجيل متى :

أن رجلا أقبل على المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح : أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال المسيح : « لم قلت لى صالحا ؟ إنما الصالح هو الله وحده » . وإذا كان لم يرض أن يلقب صالحا فهل يسيغ المنطق أنه يرضى أن يلقب إلها مع تصريحه بأنه غيره ؟ وفى الإنجيل أيضا : أن اليهود لما أرادت القبض عليه رفع بصره الى السماء وقال : « قددنا الوقت يا إلهى فشرفنى اليك واجعل لى سبيلا » . وفى إنجيل لوقا أنه حين ما أحيا الميت بمدينة « نائم » عند ما رحم أمه لشدة حزنها عليه فقالوا : إن هـذا لنبى عظيم . وهو تصريح بنبوته لا يقبل الجدال . وفى إنجيل يوحنا : أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا لـكننى أحكم بما أسمع لأنى لست أنفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى » . فهل ترى أصرح من ذلك فى الاعتراف بأنه عبد مربوب قد بعث من قبل سـيده ؟ وفى إنجيل يوحنا : أنه أعلن صوته فى الهيكل وقال لليهود : « إننى لم آت من ذاتى ، ولـكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونه ، وأنا أعـلم أنى منه وقد بعثنى » . فها هو ذا قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود ، وقال إنه لم يأت من نفسه ولـكن الله بعثه ، فما زاد فى دعواه شيئا على ما ادعاه غيره من الأنبياء عليهم السـلام . وفى إنجيل يوحنا : أنه قال لليهود : « إن كنتم بنى ابراهيم فاقفوا أثره ولا تريدوا قتلى ، وما قلت لـكم إلا الحق الذى سمعته من الله » . قالوا : لسنا أولاد زنا إنما نحن أبناء الله ، فقال : « لو كنتم أبناء الله لحفظتمونى لأنى رسول منه خرجت مقبلا ولم أقبل من ذاتى ولـكن هـو بعثنى لـكـنكم لا تقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى ، إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته » . وفى إنجيل يوحنا : « أنه كان يمشى فى ديوان سليمان فأحاطت به اليهود وقالوا له : الى متى تخفى أمرك ؟ إن كنت المسيح الذى ننتظره فأعلمنا بذلك » . ولم يقولوا : إن كنت الله ، لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك . ولا اختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه هو إنسان نبى وليس بإله كما تزعمون . وفى إنجيل يوحنا : « أن اليهود قالوا لـكبير من أحبارهم (نقود مشى) : « اكشف الـكتاب تر أنه لا يجىء من الجليل نبى » . فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل لهم نفسه منزلة نبى فقط ، ولو علمت منه ادعاءه الألوهية لشنعوا عليه وهاجوا عليه العامة تقبيحا له وتحريضا على قتله . وفى إنجيل يوحنا الاصحاح ٨ العدد ٤٠ «ولـكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله » . فاعترف بأنه إنسان يسمع من الله ، ولم يقل إنه هو الله . ورسالة تيموثاوس الأولى الاصحاح الثانى العدد ٥ : «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الانسان يسوع المسيح » . وفى إنجيل يوحنا أيضا : « لو كنتم تحبوننى لـكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى الى الآب لأن أبى أعظم منى » . وفى انجيل متى : « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم وقال إيلى إيلى لم شبقتنى ؟ أى

إلهى إلهى لما تركتنى » . وفى صحيفة ٥٠ أيضا « صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح ». وفى انجيل لوقا ما نصه : « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال : يا أبتاه فى يدك أستودع روحى ».

وكثير من هـذا فى الأناجيل يطول ذكره . ولو تتبعنا كل ما جاء فى ذلك لطال المقال واتسع المجال . ولست تشك فى أن هذه النصوص تنفى ألوهية المسيح رأسا وتقتلع جذور تلك العقيدة اقتلاعا ، فإنه لا ريب أنك إن سمحت نفسك بالانقياد الى الحق وخلعت لباس الهوى أيها المسيحى المنصف ، علمت أن ذلك من أول البدهيات وأوضح الواضحات .

ويمكننا بعد هذا أن نناقشكم معشر النصارى فى عقيدة الصلب أيضا مستندين الى النقل من كتبكم ، محتكمين الى ما يقضى به الدليل الواضح والمنطق الصحيح ، فنقول :

جاء فى إنجيل لوقا : « أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا ، فبينما هو يصلى إذ تغير منظره عما كان عليه ، وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ، وإذا بموسى بن عمران وإليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم ، فوقع النوم على الذين معه » . فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود ، ولكن اختلفتم فى نقلها كما اختلفتم فى نقل غيرها ؟ وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ ، يكون حينئذ دليلا واضحا على الرفع إلى السماء وعدم الصلب ، وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات . وثانيها ما فى إنجيل متى : « أن المصلوب قد استسقى اليهود فأعطوه خلا ممزوجا بمر فذاقه ولم يشربه ، فنادى إلهى إلهى لم خذلتنى » ؟ مع أن الأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوما وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ : إن لى طعاما لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوما وأربعين ليلة ، لا يظهر الحاجة للماء بسبب عطش يوم واحد . وقد جاء فى التوراة أن الله خلق جميع ما للحية فى عصا موسى عليه السلام ، وذلك أعظم من إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر . وإنى أعجب لمن يصدق أن الله قلب العصا حية تسعى ، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، الى غير ذلك من خوارق العادات التى كانت للأنبياء ، كما فى التوراة والانجيل كقلب الماء خمرا مثلا ، كيف لا يصدق أن الله ألقى شبه عيسى على غيره بعد أن رفعه الى السماء ؟ ! ولا شك أن الالتباس الذى وقع لليهود عند أخذه حتى دلهم عليه أحد تلاميذه وقال لهم : الرجل الذى أقبله فامسكوه ، وقال له رئيس الكهنة : أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟ لا شك أن هذا الالتباس العظيم مع تلك الشهرة العظيمة نحو ثلاثين سنة فى المحاورات العظيمة والمجادلات العنيفة كلها تدل على وقوع الشبه قطعا ، خصوصا أن فى الانجيل أنه أخذ فى حندس من الليل مظلم من بستان ، فشوهت صورته ، وغيرت محاسنه ، بالضرب والسحب وأنواع النكال . ومثل هـذه الحالة توجب الالتباس قطعا ، فمن أين لكم أو لليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى عليه السلام ؟

والحق الذى لا مرية فيه هو أن الأمر على ما قال الله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وماقتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما » . وفى الانجيل أيضا أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فى صلبه فخرج إليهم عليه السلام وقال لهم : من تريدون ؟ قالوا : يسوع ، وقد خفى شخصه عنهم ، ففعل ذلك مرتين ، الى آخر ما لا نطيل به . ولنقف هنا اليوم وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

فضل الادب على صاحبه

قال أكثم بن صيفى حكيم العرب : الرجل بلا أدب شخص بغير آلة ، وجسد بلا روح .

وقال الأحنف بن قيس سيد بنى حنيفة ، ومن أخص أشياع على بن أبى طالب : لـكل شىء ذؤابة وذؤابة الشرف الأدب .

وقال أعرابى لولده : عليك بالأدب فانه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه فى مجالس الملوك .

وقال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لبنيه : تأدبوا ، فان كنتم ملوكا برزتم ، وإن كنتم أوساطا فقتم ، وإن أعوزكم المعاش عشتم . استفيدوا من الأدب ولو كلمـة واحدة .

وقال أعرابى : تعلموا الأدب فانه زيادة فى الفضل ، ودليل على العقل ، وصاحب فى الغربة ، وأنيس فى الوحدة ، وجمال فى المحافل ، وسبب الى درك الحاجة .

وقال أمير المؤمنين المأمون : والله لأن أموت طالبا للأدب ، خـير من أن أموت قانعا بالجهل .

وقال الخليل بن أحمد : من لم يكتسب بالأدب مالا ، اكتسب به جمالا .

وقال الشعبى : الأدب للفقير مال ، وللغنى جمال ، وللحكيم كمال .

وقال شاعر وأحسن :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب

السنة

شجاعة المسلمين الاولين

فى قتال الأعداء

عن أنس رضى الله عنه قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يارسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن اللهُ أشهدنى قتال المشركين ليرينّ اللهُ ما أصنع ! فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إنى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء ، يعنى أصحابه ، وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : ياسعد بن معاذ : الجنةَ ورب النضر ! إنى أجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يارسول الله ماصنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ؛ ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه . قال أنس : كنا نرى أونظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : « من المؤمنين رجال صدَقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قَضى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » . رواه البخارى .

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) معناه . (٢) حب التضحية وآثاره فى المسلمين الأولين . (٣) بيان أن التمسك بالسنن الطبيعية التى سنها الله تعالى أمر لازم لا بد منه .

(١) معنى الحديث : هو أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك راوى هذا الحديث ، لم يشهد قتال بدر ، وهو أول قتال وقع للنبى صلى الله عليه وسلم مع مشركى مكة ورءوسهم ، فكان أنس بن النضر يعد ذلك خسارة عظيمة أصابته فى حياته ، وكان يتمنى أن يهيئ الله له فرصة أخرى تمكنه من الجهاد فى سبيل الله ليستعيض بها عما فاته من حضور قتال بدر . وقد عبر عن هذا المعنى بقوله : « يارسول الله : غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع » . وهذه العبارة تنطوى على معنيين عظيمين : أحدهما : أن هذا الرجل العظيم قطع على نفسه عهدا لله ولرسوله أن يقوم بجهاد المشركين بكل مايستطيع من بأس وقوة عند أول فرصة يشهد فيها قتال المشركين . ثانيهما : أنه وقف فى عهده عند الحد الذى يستطيع أن يفعله بدون غرور أو تهور . ومع هذا فان عبارته تدل على عزم ثابت وإرادة جازمة لا تردد فيها ، فهو يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقيتُ

بالمشركين فى ميدان القتال فلا بد من أن أفعل كل ما فى وسعى من التنكيل بهم ، والقيام بما يجب على من نصرة الله ورسوله .

وقد استجاب الله له أمنيته ، فأشهده معركة أحد بعد ذلك ، ولكن من سوء الحظ أن المسلمين فى هذه المعركة قد انهزموا بعد أن انتصروا فى أول أمرهم ، لمخالفتهم أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كما سنبينه بعد . فلما رآهم أنس بن النضر وهم منهزمون لم تنثن عزيمته ، ولم ينكث بعهده الذى قطعه لرسول الله ، فعزم على منازلة الأعداء ، والنيل منهم بكل ما يستطيع من حول وطول ، وهو موقن بأنه صائر الى الفناء لا محالة ، وأنه سيلاقى حتفه بلا ريب ، ولكنه لم يبال بكل هذا ما دام فيه بر بعهده ومرضاة لربه ، ووفاء لأمته ونصرة لعقيدته ، بل قد تبدل فى نظره الحال فرأى فى إقدامه على الموت سعادة خالدة ، ولذة محسة ، ولذا قال لسعد بن معاذ وهو فى هزيمته : « ياسعد : الجنة ، إنى أجد ريحها من دون أحد » ، وأقسم له على ذلك برب النضر ، ويريد بالنضر أباه ، أو ابنه ، لأنه كان له ولد اسمه النضر . وهذه العبارة التى قالها أنس بن النضر لسعد بن معاذ تدل على إيمان أنس الجازم بأن الموت فى سبيل الله يفضى لا محالة الى رضوان الله عز وجل ، والتمتع بنعيم الجنة الخالد الذى لا يفنى ، كما وعد الله به الشهداء الذين يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون . على أن بعض الناظرين يقول : إن صدق إيمان أنس قد ذهب به الى الاحساس بنعيم الجنة فعلا ، فصار يشم رائحة نعيم الجنة حقيقة حال جهاده . وعلى كل حال فان هذا الرجل العظيم كان أحسن قدوة للمسلمين فى التضحية ، وبذل النفس فى سبيل الله ، والوفاء بالعهد ؛ بل هو مثل كامل لقوة اليقين ، والصبر على المكاره ، والجزم بأن نعيم الحياة الدنيا زائل مهما طال أمده ، فالمؤمن حقا هو الذى يعمل للحياة الباقية الدائمة ، والنعيم الخالد الذى لا يفنى .

ذلك هو اعتقاد أنس بن النضر رضى الله عنه ، وتلك حالته النفسية التى دفعته الى أن يخاطر بنفسه لينال من الأعداء بقدر ما يستطيع كى يفى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، وليس هو وحده الذى كانت تتجلى فيه هذه الروح العظيمة ، روح الاخلاص والتضحية ، بل كان معظم أصحاب الرسول على هذا الحال ، فكانوا لا يبالون بمفارقة الحياة ولذاتها ، بل كان كثير منهم يحتقرها ويهجرها عمدا ، وكان كثير منهم يتمنى الموت فى سبيل الله كى يظفر بما تشتاق اليه نفسه من مرضاة الله عز وجل ، والاستمتاع بالنعيم الخالد الذى لا تشوبه متاعب الحياة الدنيا وآلامها ، وكانوا يقولون : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » وها نحن أولاء قد بعنا أنفسنا لله تعالى بهذا الثمن الغالى ولم نقبضه بعد ، فمتى تهيئ لنا الفرص الاستمتاع بقبضه ؟ وهذه العقيدة الجليلة هى التى كانت تدفعهم الى منازلة الأعداء الأقوياء بدون مبالاة ، فكانوا لا يتهيبون عدوا ولا يخشون فناء ، ومن أجل ذلك كتب الله لهم الفوز على أعدائهم من المشركين وغيرهم من الأمم التى كانت أكثر منهم عددا ، وأقوى سلطانا ، بل كانوا لا يحسبون الى جانبها شيئا ما ، وذلك جزاء العاملين المخلصين

ومن لطيف ما نقل عن أنس بن النضر فى هـذا الحديث قوله : « اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى أصحابه ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المشركين » فإن هذه العبارة تدل على أن هذا الرجل العظيم ضابط لعاطفته ، حافظ لسانه فى كل مايقول ويفعل ، فلم يروعه هول الموقف ، ولم تستفزه هزيمة أصحابه الى الخروج عن التؤدة والبر ، فاعتذر الى الله تعالى عن هزيمة أصحابه المؤمنين لمخالفتهم أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، والخروج عن السنن الالهية التى أمر الله باتباعها ؛ وبرئ الى الله من صنيع المشركين واستمساكهم بالباطل ، وطغيانهم على الحق الواضح الذى فيه سعادتهم وسعادة المجتمع الانسانى ، فقال فى هذا الموقف الحرج الدقيق : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى أصحابه من المسلمين الذين انهزموا فى وقت كان يمـكنهم أن ينتصروا فيه نصرا مبينا لو لم يخالفوا أمر الرسول ؛ وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ، يعنى المشركين الذين يحاربون الله ورسوله ومن والاهما من المؤمنين .

فانظر الى هـذا الأدب الجم ، وهذه المـكارم العالية ، والغيرة على حقوق الصحبة فى الله حتى عند شذوذ الأصحاب وخروجهم عما هم مكلفون به من الثبات للأعداء والصبر على مقارعة الأهوال ، فإن هذا الرجل العظيم يعتذر الى الله عنهم فيما أتوه من مخالفة . وانظر الى عبارته التى قالها لأعدائه فى أحرج المواقف وأدقها ، فلم يسب ولم يقذف ، ولـكنه تبرأ منهم الى الله عز وجل خالقهم لإمعانهم فى محاربة الحق الذى هو فى الواقع سعادة لهم وللمجتمع الانسانى ، فقال : وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المشركين . ثم هجم على أعدائه وهو يضرب فيهم ذات اليمين وذات الشمال ، وسعد بن معاذ ينظر اليه ويعجب من تنكيله بالمشركين المنصورين ، حتى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فما استطعتُ يارسول الله أن أحصى ماصنع أنس بالمشركين .

وقد يقال : إن عمل أنس هذا مخاطرة قد لا يقرها الدين الاسلامى ، لأن الله تعالى قال : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلـكة » . والجواب أن معنى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلـكة » : لا تهملوا وسائل الدفاع عن دينـكم ووطنكم ، ولا تضنوا بالانفاق فى سبيل الله فيتمكن منكم العدو ويهلـكـكم بالتسلط عليـكم ماديا وأدبيا . ويؤيد هـذا المعنى قوله تعالى فى صدر هذه الآية : «وأنفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم الى التهلـكة » فإن الشح وعدم الانفاق على كل ما يلزم لقتال الأعداء موجب للتهلـكة لا محالة . ولذا فرض الدين الاسلامى على المسلمين الاستعداد لقتال الأعـداء بكل الوسائل الممكـنة ، قال تعالى : « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ومن هذا تعلم أن عمل أنس رضى الله عنه وأمثاله لا يتسبب عنه تهلـكة الأمم ، بل حياتها ، لأن العدو الذى يرى رجلا واحـدا يضرب فيه ذات اليمين وذات اليسار وقت هزيمة قومه ، لابد أن يشعر بوجل وخوف مما عساه أن يكون فى القوم كثير من أمثال هـذا ، وذلك هو

الواقع ، لأن المشركين كانوا يعلمون أن انتصارهم هذا مؤقت ، وأن المؤمنين لا بد أن تعود إليهم شجاعتهم ، ولا بد أن يرتبوا صفوفهم بعد هذا ، ثم يصمدون لهم ، ولهذا وقفوا عند هـذا الحد ولم يستطيعوا أن يتقدموا الى ديار القوم . ثم كانت للمسلمين الغلبة التامة عليهم بعد ذلك ، فأبادوا الشرك من شبه جزيرة العـرب جميعها ، وأصبحوا من أقوى الأمم بطشا ، وأعظمهم شأنا .

(٢) مما لا شك فيه أن قلوب المسلمين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانت تنطوى على الغيرة الشديدة على دينهم وكرامتهم ، فكانوا لا يدخرون وسعا فى الذود عن الواجب وتأييد الحق مهما كلفهم ذلك من التضحية فى الأموال والأنفس ، بل كانت الضحايا التى يبـذلونها فى ذلك السبيل لا تؤثر فى أنفسهم أدنى أثر ، فلم تهن لهم عزيمة فى أى موقف من المواقف ، ولم تضعف لهم إرادة ، ولم تفتر لهم قوة ؛ بل كانوا يستعذبون الموت وبذل الأموال فى سبيل الله . وذلك كان من أجل أمانيهم وأكبر لذاتهم . ولهذا لم تزلزلهم الـكوارث ، ولم تفزعهم العواصف ، فنصروا دين الله القويم المشتمل على الأمر بالمعروف والعدل والاحسان وصـلة الأرحام ، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؛ وحاربوا لاعلاء كلمته فأعلى الله قدرهم ، ودانت لهم رقاب أعدائهم ، وخضعت لشوكتهم الجبابرة ، وأصبحوا سادة أهل الدنيا ، ولهم فى الآخرة أحسن الجزاء .

ذلك كان شأن المسلمين الأولين ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول : « والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل » . رواه البخارى . ومعنى هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم يتمنى أمرين : أحدهما : أن يذهب مقاتلا مع كل جماعة سواء كانوا قليلين أو كثيرين ، لأن السرية من الجيش أكبر عددها أربعمائة . ثانيهما : أن يقتل فى سبيل الله شهيدا ثم يحيا بعد هـذا ويقاتل فى سبيل الله فيقتل شهيدا ، ثم يحيا فيقتل الخ . ولا يمنعه عن الذهاب مع كل جيش إلا ضرورة تخلفه مع قوم من أصحابه لا يستطيعون الغزو ولا تطيب أنفسهم بمفارقته ، وليس عنـده من معدات الحرب يومئـذ ما يكفى لحملهم وتجهيزهم ، فكان لا يخرج إلا فى المواقع الـكبيرة التى تستلزم خروجه .

ذلك كان شأن المسلمين الأولين فى مقارعة الأهوال ومصارعة المبطلين ، وما زالوا على هذه الحال حتى مكن الله لهم من عدوهم فبددوا شمله ، وقضوا عليه ، وأصبحت كلمة الله هى العليا .

ولقد كان الله عليما بما تكنه قلوبهم من الشجاعة ، وحب التضحية فى سبيل الحق ، ففرض عليهم يومئذ أن يقوم الواحد منهم بإزاء عشرة من المقاتلين المشركين ، بحيث لا يجوز له أن

ينهزم إلا إذا زاد العدد على ذلك ، قال تعالى : « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

ومعنى هذا أن الله تعالى العليم بأحوال خلقه وما يناسب كل حالة بحسب اختلاف الظروف والأحوال ، شرع لكل حالة ما يناسبها . فالمسلمون فى أول أمرهم كان عددهم قليلا لا يكاد يذكر بجانب أعدائهم الكثيرين الذين يصدون عن سبيل الله بكل ما لديهم من حول وقوة ، فكان المناسب لهذه الحالة أن يكون لدى المسلمين من القوة المعنوية ما يضاعف العزيمة والثبات ، وتحصيل جميع الوسائل الممكنة التى تجعل الواحد منهم مقام عشرة من أعدائهم . ولما كان هذا شاقا فى العادة ويكاد يكون غير ممكن ، هوّن الله عليهم الأمر فقال لهم : إن الكافرين قوم لايفقهون ، لأنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدركون معنى الفضائل الإنسانية ، فجدير بالمؤمنين ألا يخافوا بأسهم ، وأن يسوقوهم أمامهم كما تساق الحيوانات التى لا تعقل ، ومع هذا فقد وعدهم الله بأنهم إن امتثلوا وأطاعوا الله ورسوله فإنه ينصرهم على أعدائهم . ويؤخذ ذلك من قوله تعالى : (يغلبوا مائتين) فإن معنى هذا : إذا ثبت الواحد منهم لعشرة فان الله ينصره عليهم ، ويغلبهم .

هذا هو الذى كان يناسب المسلمين فى أول أمرهم ، وقد تلقوا ذلك الأمر بالطاعة وبذل أقصى ما يستطيعون بذله من تنفيذه ، فكان الله تعالى دائما معهم ينصرهم على أعدائهم كلما اشتبكوا معهم فى قتال ، فلما كثر المسلمون خفف الله عنهم ، وفرض عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنين من أعدائهم فقط ، فقال لهم : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » . ومعنى هذا أنكم وأنتم فى قلة كنتم أقوى منكم وأنتم فى كثرة ، لأنكم فى الحالة الأولى كنتم تعتمدون على القوة المعنوية وحدها فلا تهابون خصمكم مهما كان كثير العدد . أما فى الحالة الثانية فقد أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، فلهذا تغير تعلق علم الله بتغير أحوالكم ، وتعلق بحالة الضعف العارضة لكم ، فشرع لكم ما يناسبكم . على أنكم على أى حال تمتازون بميزة لن تفارقكم أبدا ، وهى الإيمان بالله ورسوله ، فلم تكونوا كغيركم مهما كان عددكم ، فليكن الواحد منكم كاثنين من الكافرين .

هذا كان حال المسلمين الأولين الذى مرنوا عليه ، فأصبح لازما لهم لايفارقهم فى معركة من المعارك ، ولا ينفك عنهم فى شأن من الشئون الحربية ، فأصبح حب التضحية ملكة لهم . وكان من آثار ذلك أن هزموا جميع أعدائهم ، وأصبحوا سادة الدنيا .

(٣) من يقرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى حروبهم مع المشركين والظالمين ،

لا يسعه إلا أن يجزم بأن الله تعالى كان يؤيدهم بجنود خارجة عن قوتهم ، كما وقع فى معركة بدر وفى معركة الأحزاب وغيرها ، وذلك لأن المسلمين يومئذ لم تكن لديهم القوة الكافية لمقاومة أعدائهم الذين يريدون القضاء عليهم بكل الوسائل . ومع هذا فان الله سبحانه أمر المسلمين بالتمسك بكل وسائل القوة الممكنة ، ليكونوا مثالا لمن يأتى بعدهم من المؤمنين ، لأن الله سبحانه وتعالى قد أقام هذا العالم على نظام دقيق محكم ، فجعل لكل شىء سببا لا يخرقه إلا عند الضرورة الملحة ، كما هو الحال فى معجزات المرسلين . أما ما وراء ذلك فان الله تعالى قد أمر عباده المؤمنين بأن يحتاطوا لجميع الطوارىء ، وأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوة .

وقد ضرب الله تعالى للامم الإسلامية مثلا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معركة أحد التى قتل فيها أنس بن النضر المذكور معنا فى الحديث . وملخص الحادثة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قاد الجيش يومئذ بنفسه وقسمه الى قسمين : قسم يحمى ظهور المحاربين المسلمين فلا يبرحون مكانهم ، وقسم يهاجم المشركين ويقاتلهم . وأمر القسم الأول بألا يترك موقفه حتى ولو انهزم المسلمون . فانتصر المسلمون على المشركين بالقسم المحارب ، وفر المشركون أمامهم ، فلما رآهم القسم الذى وقف ليحمى ظهور إخوانه المسلمين قد انهزموا ، ورأى إخوانه المسلمين منتصرين ، تغلب عليه حب المشاركة فى اقتسام الغنائم ، وترك موقفه الذى يحمى ظهور إخوانه ، فكر عليهم المشركون المنهزمون من وراء ظهورهم ، وأخذوا يضربونهم ، فانهزموا وفروا ، ولم يؤيدهم الله تعالى فى هذه الحالة ، لأنهم خالفوا أمر الله تعالى ، وخالفوا السنن الطبيعية التى ينبغى الاستمساك بها دائما . فكان ذلك درسا قاسيا لهم ولمن يأتى بعدهم من المسلمين الذين أهملوا سنن الله تعالى واستمسكوا بما لا يقره الدين ؟

عبد الرحمن الجزيرى

ماقيل فى انتهاز الفرص

قال سالم الأنبارى :

تمتع من الدنيا بساعتك التى ظفرت بها ما لم تعقك العوائق
فما يومك الماضى عليك بعائد ولا يومك الآتى به أنت واثق

ولكن هذا الأمر الذى يسوغ فى نظر سالم الأنبارى ، لا يسوغ فى نظر أبى الطيب المتنبي حيث يقول :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأى سرور لم يشبه هذا اليقين ، الصحيح ان الدنيا دار جد وعمل ، لا دار لهو ...

قادة الفكر فى تاريخ الاسلام

— ٩ —

على بن أبى طالب

ثاب الناس الى عقولهم بعد تلك النوبة الجنونية التى عصفت بهم فأضلت أحلامهم ، وأدركوا مغبة الفتنة وسقط فى أيديهم ، وأصبحوا وقد زلزل الجزع أفئدتهم ، وتلفتوا فاذا نظام الأمة قد انفرط ، وعقدها قد انحل ، وإذا أمرها صار الى الفوضى ، ولم يبق للقادة محيص من الأخذ بزمام الرأى لئلا يقبض عليه الثائرون من أوشاب الناس الذين تجمعوا من أطراف البلاد وأشعلوا نار الفتنة حتى انتهت الى شر غاية وأشأم نهاية .

أسرع بالناس الخوف مما صار اليه أمرهم الى التشاور ، فلم يجدوا فى الأمة كلها من يستقيم فى كفة ميزان مع ربيب النبوة ورضيع الاسلام وحضين الوحى « أبى الحسن » رضى الله عنه ، فأجمعوا على بيعته ، فأبى عليهم ، ورد الأمر لأهل الشورى وأهل بدر ، وهؤلاء هم قادة الأمة ورءوسها المفكرة الذين يبرمون أمر الامامة الكبرى والخلافة العظمى ؛ ولم يكن امتناعه كرم الله وجهه من قبول البيعة إلا لتقديره للأخطار التى يستهدف لها مستقبل الأمة فى ثنايا هذه الأعاصير ، ولكنهم أكثروا عليه وخاشنوه ، وكان أشدهم عليه صفيه « الأشتر النخعى » ، فلم تصادف شدتهم منه إلا صلابة وإباء ، وقال لهم : « دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميرا » .

أبى الناس عليه إلا قبول البيعة ، وألجأوه إلجاء وصفه بقوله : « وبسطتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم علىّ تداك الابل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء ، ووطئ الضعيف ، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج اليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت اليها الكعاب » . قبلها وهو يعلم ما تحمل فى طياتها من فتن مبيدة ، وعظائم مبيرة ، فتنبأ بها ، وشمر لها على مضض ينفثه فى قوله : « ذمتى بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم . إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ،

ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ! ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم فى النار ؛ ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة . حق وباطل ، ولكل أهل ، فلئن أمر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولقلما أدبر شىء فأقبل »

بركان من الفتن انفجر على الأمة الاسلامية ، على عهد خلافة أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فهذا معاوية وأهل الشام قد شقوا عصا الطاعة ، وامتشقوا السيف فى وجه الخلافة العلوية زاعمين أنهم يطلبون دم عثمان رضى الله عنه .

وهذه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تزور عن أمير المؤمنين لطبيعة ما يكون بين الأحماء ، وعن يمينها الزبير بن العوام ، وعن يسارها طلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما ، وبين أيديهم جميعا شباب من أبناء المهاجرين والأنصار ، يحف بهم أخلاط من الأعراب الذين يندفعون وراء كل ناعق ، كثرة لا يحصيها العد ، خرجوا يؤلبون الناس لحرب على وأصحابه ؛ وهؤلاء أهل العراق جند أمير المؤمنين وخاصته لأمر ما تخاذلوا عنه وعن الجهاد فى ظل رايته ، طوائف اعتصمت بالباطل فاجتمعت عليه ، وطائفة تبعثرت حول الحق مذعورة خائرة ، ضاق بها أمير المؤمنين ذرعا ، ورماهم بقارس القول وقاصمة الظهر ، فلم يربعوا عن حالهم حتى برم بهم ، وأعلن لهم عن ذات نفسه ، فخطبهم يوما قائلا : « أحمد الله على ما قضى من أمر ، وقدر من فعل ، وعلى ابتلائى بكم أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تجب ، إن أمهلتم خضتم ، وإن حوربتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن أجبتم الى مشاقة نكصتم ، لا أبا لغيركم ما تنتظرون بنصركم ربكم والجهاد على حقكم ، الموت أو الذل لكم ، فوالله لئن جاء يومى - وليأتينى - ليفرقن بينى وبينكم ، وأنا لكم قال ، وبكم غير كثير ، لله أنتم ! أما دين يجمعكم ، ولا حمية تشحذكم ؟ أوليس عجيبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء ، وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الاسلام وبقية الناس الى المعونة وطائفة من العطاء فتتفرقون عنى وتختلفون على ؟ إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه ، وإن أحب ما أنا لاق الى الموت ، قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم ، وسوغتكم ما مججتم ، لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ ؟ »

ومن وراء ذلك كله الخوارج ، وهم أشد الطوائف مراسا وحبا للموت ، خرجوا يعيثون فى الأرض فسادا ، يحاجون ويحتجون ، فكأنما الدنيا بأهلها وزخرفها ومطامعها فى كفة ، وأمير المؤمنين فى صراحته وزهادته وتقواه وخاصة أهله وأصحابه فى كفة ، حتى

مسلوب ، وباطل منصور ، ويأس قاتم ، وجند متخاذلون ، وعدو متكاثر ، وحروب يشيب لهولها الوليد ، ومع ذلك كله فقد كانت كفته راجحة فى حروبه لما رزقه الله من الصبر والحكمة ، وقد نفس عن صدره مرة فقال : « فنظرت فإذا ليس لى معين إلا أهل بيتى ، فضننت بهم عن الموت ، وأغضيت على القذى ، وشربت على الشجى ، وصبرت على أخذ الكظم ، وعلى أمر من طعم العلقم » .

كتب إليه أخوه عقيل بن أبى طالب كتابا يصف فيه ما ترامى إليه من حال الناس معه وتفرقهم عنه ، ويعرض عليه نفسه وولده وأهل بيته ، فرد عليه أمير المؤمنين بكتاب هو نفثة من الألم الممض يقول فيه : « ودع عنك قريشا وخلهم وتركاضهم فى الضلال ، وتجوالهم فى الشقاق ، ألا وإن العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العدواة ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كل الجهد ، وجروا إليه جيش الأحزاب ، اللهم فاجز قريشا عنى الجوازى ، فقد قطعت رحمى ، وتظاهرت على ، ودفعتنى عن حقى ، وسلبتنى سلطان ابن أمى ، وسلمت ذلك الى من ليس مثلى فى قرابتى من الرسول وسابقتى فى الاسلام ، إلا أن يدعى مدع ما لا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال » !

فى هذه الكلمات ما يلفت نظر الباحث الى بعض المهمات فى قضايا التاريخ الاسلامى ، فهى أولا صريحة فى أن العرب وفى طليعتها قريش لم تكن لتنطوى على الولاء والاخلاص لآل البيت عامة ، وعلى وأبنائه من فاطمة خاصة ، وقد نستطيع أن نجد تعليل ذلك فى الطبيعة العربية العيوفة عن التبعية والانقياد ، المجبولة على اعتبار الثأر أول شعائرها ، ولقد كانت تضطرب قريش فى جاهليتها بهذا المعنى بين بيتين من بيوتاتها ، فلما نفذ الله قضاءه بالنبوة فى خيرها نفخ الشيطان فى أسحار العبشميين فاستكبروا أن يستجيبوا لله ولرسوله الهاشمى ، حتى دارت الدائرة ، وظفر الله نبيه وحكمه فى رقابهم ، فمن عليهم بفضله ، فكانوا من الطلقاء يوم الفتح الأكبر؛ وهذه واحدة ؛ والثانية : أن دماء غطارفتهم إنما سالت على ظبا سيفى على وحمزة البطلين الهاشميين ، وقد أخذوا من حمزة رضى الله عنه ما شفى بعض غلتهم ، وظل على كرم الله وجهه سيدا مبجلا فى الاسلام لم يتمكنوا منه بشىء ، فلما جاءت الخلافة بعد النبوة ، وليس لها من حصانة الدين وقداسته ما للنبوة ، اهتبلوها فرصة ، وكاد بعض من تبرجت له الدنيا كيده لعلى وآله ؛ وهذا ما يكشف عنه كلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عباس فى حوارها : « لقد حسدكم قومكم أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة » .

وهى ثانيا تصور لنا نظرة الهاشميين للحكومة فى الاسلام ، فهى عندهم سلطان ورأى لا يصح أن يذهب لغيرهم ، وهذه نظرية دار عليها موقف الهاشميين فى جميع أدوار التاريخ ،

والاسلام لا يعرف الوراثة فى الحكم بتة ، وإنما ينظر الى صالح الأمة . وإذا كان قد ورد : « الأئمة من قريش » فهذا مقيد بصلاحيتهم لهذا الأمر ، فإذا اجتمعت الصلاحية والقرشية كانت نهاية ما يقصد الشارع من الحكومة الاسلامية . ونحن نلمح من كلام أمير المؤمنين هذا المعنى ، لأنه أضاف خصائصه وسوابقه الى قرابته .

ولقد كان على كرم الله وجهه من أنفذ الناس بصيرة ، وأعلمهم بمصادر الأمور ومواردها ، استشاره عمر بن الخطاب فى خلافته أن يشخص لقتال الفرس بنفسه فقال له : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعده وأمده ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فاذا انقطع تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالاسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب ، واصلهم دونك نار الحرب ، فانك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا اليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك »

فانظر الى قوله : ومكان القيم بالأمر الخ ، والى قوله : فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب الخ ، والى قوله : إن الأعاجم إن ينظروا اليك غدا الخ ، تجد نوعا من السياسة الحكيمة الصادقة ، فى غير مخادعة ولا مجانبة للحق ، وهذه هى دعائم سياسته فى حروبه وخلافته سنفصلها ونبين وجهها وما كان لها من أثر فى توجيه الأمة توجيها عادلا لو أخذت به لاستقامت على الجادة ؟

صادق ابراهيم عرجون

مذهب التشاؤم لدى الادباء

قال ابن الرومى :

أيست من دهرى ومن أهله	فليس فيهم أحد يرتضى
إن رمت مدحا لم أجد أهله	أو رمت هجوا لم أجد عرضا

وقال هو نفسه :

قيل لى لم ذممت كل البرايا	وهجوت الأنام هجوا قبيحا
قلت هب أننى كذبت عليهم	فأرونى من يستحق المديحا

ونحن نريهم إياه : هم الذين مدحهم وبالغ فى الاشادة بهم . . .

التجديد فى الاسلام

— ٨ —

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

حديث نبوى شريف

المجـــــددون فى الاسلام

فى القرن الثانى الهجرى

الامام أبو حنيفة ، الامام مالك ، الامام الشافعى ، الامام احمد بن حنبل

تمهيد — هل الشريعة الاسلامية أرستقراطية أو ديمقراطية ؟

ادعى بعض الباحثين أن الشريعة الاسلامية أرستقراطية ، واستدل على دعواه هذه بوجود أحكام فيها للرق والأرقاء . ومن حقق النظر فى هذه الدعوى وجدها غير صحيحة ، وما استدلوا به لا يصح ولا يصلح دليلا عليها . فان الشريعة الغراء ناطقة ، ونصوصها صريحة بأنها ديمقراطية بأتم معانى الديمقراطية وأوفاها . فان كانوا يريدون من الديمقراطية أنها هى : الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والعدالة ، فالشريعة الاسلامية لم تترك مطمعا لمستزيد فى هذه الأشياء الأربعة ، بل هى المثل الأعلى فى كل ذلك .

فأما الحرية فى الاسلام ، فلكل إنسان أن يفعل ما يشاء ، ويقول ما يريد ، فى حدود الشريعة ، بحيث لا يحدث عن هذه الحرية المطلقة أى ضرر ، إذ لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام . ولقد نوه بالحرية الاسلامية الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لوالى مصر عمرو بن العاص : ياعمرو ! متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ !

وأما الإخاء الاسلامى ، فهو الذى تنشد مثله الانسانية ولا تجد ، وحسبك الإخاء الذى عقده النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار عقب الهجرة النبوية ، فلقد بلغ بالمتآخين حدا لم تعرف الانسانية مثله ، وكان الأنصارى يؤثر أخاه المهاجر على نفسه ، ولو كان به خصاصة . وحسبك الإخاء الذى أوجده الاسلام بين قبائل العرب ؛ فبتآخيهم الاسلامى وجهوا قوتهم المتحدة الى أعدائهم ، فنالوا فى زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم . ولقد تجاوز الإخاء الاسلامى حواجز الجنسيات ، وحدود الممالك ، فصار المسلم أخا لأخيه المسلم بمجرد كونهما مسلمين ، مهما بعدت بينهما الديار ، واختلفت اللغات ، والألوان والجنسيات ، بل تجاوز هذا الإخاء نظام الرقيق ، فمنع الاسلام استرقاق

من يدخل فى هـذا الإخاء ، ثم فتح الباب على مصراعيه للتقرب الى الله تعالى بعتق الرقيق وتحريره ، واختلط رقيق الأسرة بها حتى كاد يكون واحدا منها . وقد آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين الأرقاء وساداتهم فقال : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم » .

ولما كان الاسلام دينا عاما للمجتمع الانسانى ، لا الاسلامى فحسب ، فقد عنى العناية كلها بالإخاء الانسانى العام ، وألمع الى هـذا شيخ الاسلام ، الأستاذ الامام المراغى ، شيخ الأزهر الشريف ، فقال : « عنى الاسلام بالأخوة الانسانية ، فقد نبه القرآن الكريم الى وحدة الأبوين الموجبة للتعاون والتعارف والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتخاذل ، ولم يقم وزنا لشرف المولد وكرم الجنس ، ووضع معياراً للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل : هو تقوى الله ، قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وطلب القرآن الكريم الى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب ، إلا فى حالة العدوان ، قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . وقد عمل الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه ، وخلفاؤه من بعده ، على وفق هذه المبادئ السامية حتى أبيح الإصهار الى أهل الكتاب مع ترك الحرية للزوجة ، وعدم منعها من تأدية شعائر دينها » . ومن هذا يظهر أن الاسلام بلغ بالإخاء الانسانى العام نهاية الكمال .

وأما العدالة والمساواة ، فالشريعة الاسلامية منبعهما ومجمعهما ، وكم فيها من نصوص آمرة بهما ، ناهية عن العمل بضدهما : خطب النبى صلى الله عليه وسلم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فانما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ! ولقد غرس الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الفضائل والمكارم فى نفوس المسلمين ، ومنها العدالة والمساواة ، فكان لها من الأثر فى نفوسهم خصوصا فى نفوس الصحابة ما تراه فيما يأتى :

١ — فى قول الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « العالم حديقة سياجها الشريعة ، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة ، والطاعة سياسة يقوم بها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلهم المال ، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية سواد يستعبدهم العدل ، والعدل أساس قوام العالم »

٢ — وفى قوله لما ضربه ابن ملجم ، فانه جمع أبناءه وقال لهم : « يا بنى عبد المطلب : لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا ، تقولون : قتل أمير المؤمنين ، ألا لا تقتلن بى

قاتلى ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هـذه فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ، فانى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالـكلب العقور » .

٣ — وما تراه فى قول أنس بن مالك : « بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد ، إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين ، هـذا مقام العائذ بك ! فقـال عمر : ما شأنك ؟ قال : سابقت على فرس ابناً لعمرو بن العـاص ، أمـير مصر ، فجعل يقنعنى بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمراً أباه ، فخشى أن آتيك ، فحبسنى فى السجن فانفلت منه وأتيتك . فكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابى هذا ، فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ؛ وقال المصرى : أقم حتى يأتيك ، فقدم عمرو فشهد الحج ، فلما قضى عمر الحج ، وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه الى جانبه ، قام المصرى ، فرمى عمرُ رضى الله عنه اليـه بالدرة . قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! قال المصرى : يا أمير المؤمنين : قد استوفيت واشتفيت . قال : ضعها على صلعة عمرو ! فقال المصرى : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت الذى ضربنى . قال : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تـكون أنت الذى تنزع ! ثم قال عمر بن الخطاب : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقـد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! فجعل عمرو بن العاص يعتذر عن هذا » .

٤ — وفيما رواه الثقات : من أنه جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن ، ففـرقها على المسلمين ، فحصل نصيب كل رجل من المسلمين برد واحد ، ثم حصل نصيب عمر كنصيب واحد من المسلمين ، ففصله عمر ثم لبسه ، وصعد المنـبر ، فأمر الناس بالجهاد ، فقـام اليه رجل من المسلمين وقال : لا سمعا ولا طاعة ! قال عمر : لم ذلك ؟ قال : لأنك استأثرت علينا . قال عمر : بأى شىء استأثرت ؟ قال : إن الأبراد اليمنية لما فرقتها حصل لـكل واحد من المسلمين برد منهـا ، وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد لا يكفيك ثوبا ، ونراك قد فصلته قميصا تاما ، وأنت رجل طويل ، فلو أنك لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قميص ! فالتفت عمر الى ابنه وقال : ياعبد الله أجبه . فقام عبد الله بن عمر وقال : إن أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه ، فناولته من بردى ما تممه به . فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

فانظر الى روح الديموقراطية فى الاسلام فى هذا الذى ذكرناه ، تر الشريعة الاسلامية لم تشرع إلا للعدل المطلق ، والمساواة التامة ، وقد كفل الشرع الاسلامى العدل والنصفة لـكل من نزل على حكمه مسلما كان أو غير مسلم .

أما ما قيل من إن الشريعة الاسلامية أرستقراطية بدليل أحـكام الرِّق والأرقاء فيها ، فخير ما نرد به على هذا ما يأتى :

١ — ما قاله الأستاذ رئيس تحرير هذه المجلة فى كتابه : دائرة المعارف للقرن العشرين ،

فانه قال ما يتضمن : « جاءت الشريعة فقررت مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فجعل التمايز بالمزايا لا بالاعتزاء الى الأمور الخارجة ؛ وقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح » . وإذا كان الاسلام قد أقر الرقيق على ما كان عليه ، إلا أنه قصره على أسرى الحروب المشروعة ، وعلقه على إرادة أمير المؤمنين ، وحاط الأرقاء بكل أنواع الرعاية والحماية ، حتى قرر القصاص للعبد من الحر . وإنما أقر الاسلام الرّق — فى بعض الحالات — لأن حالة العرب إذ ذاك كانت تستدعى هذا الشكل من الحياة الاجتماعية . وقد جرى المسلمون على مبدأ المساواة فى حكومتهم حتى خرجوا بها الى باحات الديمقراطية المحضة ؛ ويعرف ذلك من قصة جبلة بن الأيهم — ملك غسان — حين لطم أعرابيا ، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأن يقتص منه الأعرابي بلطمة مثلها ، فقال جبلة : أتساوى بين الملوك والصعاليك ؟ فأجابه عمر بأنه لا ميزة لأحد على أحد أمام الشرع الالهى . فهرب جبلة ، ولحق بالقسطنطينية ، وعاد الى دينه الأول . ويروى فى الخبر أن أبا ذرّ كان يجادل رجلا أسود بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمى عليه فقال له : يا ابن السوداء ! فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « طف الصاع ، طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح » . وقد أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحكام والأعمال الى ذوى الكفايات غير مراع أسود ولا أبيض ، ولا قرشيا ولا باهليا » .

٢ — وما قالته لجنة الفتاوى التى يرأسها العلامة الأستاذ وكيل الأزهر الشيخ الفحام ، فقد جاء فى بعض فتاويها : « جاء الاسلام فسوى بين الناس جميعا ، وأعلن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولكنه وجد نظام الاسترقاق قائما بين الأمم ، ومعتبرا فيها من النظم الاجتماعية المتغلغلة فى صميم الحياة إذ ذاك ، فلم ير من الحكمة فى التشريع أن يلغى هذا النظام إلغاء تاما ، بل عمد إلى تقرير المبادىء الآتية التى تخفف من آثار الرق ، وتنظيم العلاقة بين المالك والمملوك ، لا على أساس القوة والضعف ، كما كان فى الأمم السابقة ، بل على أساس المحبة والأخوة ، وتبادل المنافع والتعاون فى شئون الحياة ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن مبادئ الاسلام التى شرعها فى الاسترقاق تعتبر بمثابة إلغاء الرقيق ، واليك بعضا من هذه المبادىء :

« أولا — ضيق الاسلام فى أسباب الرق حتى حصرها فى سبب واحد : هو محاربة المشركين للاسلام ، وصدهم عن سبيل الله ، فأذن للمسلمين الذين يدافعون عن دينهم ، ويردون عنه عادية المشركين ، أن يضربوا الرق على من يقع فى أيديهم من أسرى هؤلاء المشركين المحاربين .

« ثانيا — لم يجعل هذا الاسترقاق ضربة لازب ، ولا نتيجة حتمية لمحاربة المشركين والظفر بهم ، بل جعل ذلك من قبيل النظم السياسية الحربية ، فخيّر الامام فى أن [illegible]

الى الاسترقاق إذا رآه وسيلة من وسائل الإعزاز لدين الله وكسر شوكة المعتدين ، وفى أن يمن على الأسرى فيطلق سراحهم بفداء ، أو بغير فداء .

« ثالثا — إذا رأى الامام أن فى الاسترقاق وسيلة حربية لإعزاز الدين ، ودفع اعتداء المعتدين ، فلجأ اليه ، فإن الاسلام لم يترك الحبل على الغارب ، ولا ترك الرقيق لمشيئة مالـكه ورحمته يحمله من عناء الأعمال ما شاء ، كما كان فى زمن الجاهلية ، ولا جعل الرق أبديا لا يتسنى للرقيق الخروج منه بحال ، بل عنى بأمر الرقيق ، وأوصى المسلمين به خيرا ، قال الله تعالى : « وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وماملـكت أيمانكم » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خولـكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كانت له جارية فعلمها فأحسن تعليمها ثم تزوجها كان له أجران » . ثم رغب فى العتق ، ودعا الى تحرير الرقاب ، وجعل لمن أعتق رقبة ثوابا عند الله يعدل ثواب كثير من الطاعات ، بل أوجب الاسلام ببعض المعاصى تحرير رقبة : كمن قتل نفسا خطأ ، أو أفسد صيامه عامدا ، أو حنث فى يمينه التى عقد قلبه عليها . وآيات القرآن العظيم ، وأقوال الرسول الكريم فى الرفق بالرقيق ، والاحسان اليه فى المعاملة كثيرة مشهورة .

« من هذا يتبين أن ليس للرق فى الاسلام إلا سبب واحد ، هو ما أسلفنا الاشارة إليه : من محاربة المشركين ، واعتدائهم على المسلمين . إن الاستيلاء على المشركين بأى وسيلة كانت زمن السلم ، ومن غير محاربة ، وخطف الأولاد من أهليهم كما كانوا يعملون فى الماضى ، كل ذلك لا يترتب عليه أن يكون المتولى عليهم أرقاء ، ولا يسوغ التصرف فيهم بحال . فبيع الرجل ولده يكون بيعا باطلا يجب منعه ، ويجب ردّ الثمن المشترى ، ورد الولد الى أبيه » .

٣ — وما قاله العلامة محمد بن الحسن الحجوى : من أن الزعم بأن الشريعة الاسلامية أرستقراطية ، بدليل أحكام الأرقاء فيها ، زعم غير صحيح ، بل هى ديمقراطية حقة ، بمعنى أنها بنيت على مبدأ العدل والمساواة فى الحقوق بين طبقات الناس . قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم من آدم ، وآدم من تراب » . ومن الأدلة على أنها ديمقراطية بناؤها على الشورى ، ونبذ الاستبداد ، والحرية الشخصية (الدكتاتورية) ، ودليل بنائها على المساواة فى الأحكام أن خطاباتها عامة للذكر والأنثى ، وأن كل خطاب فيها ، وأمر ونهى ، متناول للرسول صلى الله عليه وسلم فمن دونه .

من هذا يتبين أن الشريعة الاسلامية ليست أرستقراطية ، ولا دكتاتورية ، وإنما هى ديمقراطية . وقد انفردت فى ديمقراطيتها عن الأشباه ، وتنزهت عن النظائر .

السيد عفيفى

من عجائب الكون

النباتات آكلة اللحوم

أينما توجه بصرك فى هذا الكون الشاسع ، يطالعك آيات بينات فيها هدى وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

تأمل هذا النبت الصغير الذى تمر به فتحسبه جامدا وهو على أنشط ما يكون من الحركة والنمو ، فجذيراته الشعرية الدقيقة تنتقى الغذاء الصالح من الأرض وتوزعه على مختلف الأعضاء ، وأوراقه الخضراء الزاهية تستمد الطاقة من أشعة الشمس وتكون منها المواد السكرية اللازمة لها فى الحياة ، كل عضو من أعضائه قد خصص لعمل هيئ له ، فأداه حق أدائه .

وقد تتملكك الدهشة ويأخذك العجب حين تعلم أن ذلك النبت الضعيف لا يقتصر فى غذائه على مادة واحدة أو مادتين أو ثلاث ، بل لا بد له من عشر كاملة (١) لا تنقص واحدة ، فهو لا ينمو بحالته الطبيعية إذا لم يجد كل تلك المواد ، فيعتريه الهزال والضعف ، وينتابه الموت . ولقد شاءت حكمة ربك أن تكون الأرض العادية غنية بأغلب تلك العناصر الغذائية ، فيجد النبات فيها ما يقوم حياته ، ويحفظ كيانه .

غير أن بعض الأراضى لا تتوافر فيها كل تلك العناصر فينقصها عنصر أو عنصران ، وعلى الأخص عنصر الأزوت ، وهو أهم مادة ضرورية لنمو النبات ، إذ أنه يكون المواد الحية فى جسمه ، فكان حتما مقضيا على النباتات التى تعيش فى مثل تلك الأراضى أن تبحث لها عن مصدر جديد للأزوت . وهنا تتجلى القدرة الالهية بأوضح بيان ، فلقد هيأ الله سبحانه وتعالى تلك الكائنات الضعيفة بتحورات خاصة فى أعضائها جعلتها ملائمة لاقتناص الحشرات وصغار الحيوان والتغذى عليها ، وبذا تستمد من لحومها عنصر الأزوت .

من كان يخطر بباله أن نباتا يأكل اللحم ويمتص الدم ؟ إنه أمر بعيد عن التصديق ، ولكنها الحقيقة الواقعة والمشاهدة الملموسة . فهنالك فى جزر الملايو نبات النبنتس Nepenthes قد تحورت كل ورقة من أوراقه على شكل جرة ذات غطاء ، ليتحكم النبات فى فتحه وإغلاقه حسبما يريد . وإنك إذا شاهدت هذا النبات رأيت رحيقا حلو الطعم ، ذكى الرائحة ، يسيل على جوانب الجرة فيغرى الحشرات بطعمه ، ويجذبها برائحته ، حتى إذا ما استجابت

(١) هذه المواد هى : الكربون . الاكسيجين . الايدرجين . الازوت . الكبريت . الفسفور . الكالسيوم . الحديد . المغنسيوم .

إحداها لداعي الإغراء ، وأقدمت على التهامه بلذة ونهم ، لا تمكث طويلا فى تلك المتعة حتى يروعها قفل الباب وإحكام الرتاج ، فيحدثها القلب بما هنالك فتحاول الفكاك والخلاص والعودة من الغنيمة بالإياب ، ولكن أنى يكون لها ذلك ؟ لقد وقع القدر وحم القضاء . لم تدخل المصيدة إلا طائعة مختارة ، ولكنها لن تخرج منها إلا أشلاء متناثرة يذروها الريح ويعبث بها الهواء . وتجد النبات فى تلك الأثناء مشغولا بفريسته يفرز عليها العصارات لهضمها وامتصاصها ، حتى إذا ما استخلص بغيته منها فتح الباب ، واستعد لاستقبال القادم الجديد ، وهكذا دواليك .

وهناك نبات الدروزيرا (Drosera) ذو الأوراق الضخمة التى تنتشر عليها الزوائد الحساسة . ويفرز النبات مادة رحيقية لزجة تغمر سطح الأوراق وتجذب الحشرات ، فاذا ما سقطت إحداها على ورقة من تلك الأوراق التصقت بالمادة الرحيقية حالما تلامسها ، فتذهل الحشرة ، ويأخذ الرعب منها كل مأخذ ، فتضرب بجناحيها على غير هدى محاولة التخلص من تلك الورطة ، ولكن عبثا تحاول الفرار ، فكلما تحركت يمينا أو يسارا اشتبكت بزوائد أخرى من تلك الزوائد الحساسة ، وبذا تصبح داخل شبكة محكمة لا سبيل الى الخلاص منها ، ويكون خروجها ضربا من المحال . وعندئذ يفرز النبات مادة الببسين لهضم الحشرة وإذابة جسمها ، ثم يمتص المواد المذابة ، وحينئذ تعتدل الزوائد وتعود الورقة الى شكلها الطبيعى ، وتتهيأ لاقتناص فريسة أخرى .

وهذا نبات الديونيا (Dioneae) يحتال على اقتناص الحشرات بحيلة غريبة بسيطة ، فتجد أن الورقة تحتوى على مصراعين يتحركان على العرق الأوسط حركة مفصلية ، وتنتشر على السطح العلوى لكل منهما زوائد شوكية حادة ، فما إن تقف الحشرة التى يوقعها سوء حظها على ورقة من تلك الأوراق ، حتى يقفل المصراعان فجأة وبسرعة زائدة ، وسرعان ما تنغرز الأشواك الدقيقة فى جسم الحشرة فتمزقها شر ممزق ، وبذا تبدأ عملية الهضم والامتصاص ، ثم ينفتح المصراعان وتنفرج الورقة استعدادا لكل قادم .

***

تواترت الأخبار فى السنين الأخيرة بنبأ العثور على نوع من الأشجار يفترس الانسان ويتغذى بلحمه ؛ فقد روى العلامه الدكتور كارل ليش أحد مشاهير الرواد النمسويين ، ومن أقطاب العلماء : أنه قد اتفق له أثناء رحلته فى ارتياد مجاهل جزيرة مدغشقر أن رأى منظرا أخذ بلبه وملك عليه حواسه : ذلك أنه شاهد جماعة من الزنوج يدفعون فتاة عارية نحو شجرة هائلة تشبه شجر الأناناس ، ذات أوراق ضخمة وأشواك حادة ، ويسيل منها رحيق مسكر ، ولقد أصاب تلك الضحية الجريئة رعب وذهول ، رعب الموت ، وذهول الجنون ،

لحاولت المقاومة ، ولكن هل تجدى المقاومة مع أمثال أولئك الوحوش ؟ لقد دفعوها قسرا ، وأسنة حرابهم تمرق من لحمها وتسيل من دمائها ، حتى قاربت الشجرة فصاحوا فيها صيحة جنون مرعبة لتشرب الرحيق ، وما كانت لتتوانى عن شربه وهى مسلوبة الإرادة مهيضة الجناح ، وسرعان ما انتابها الإغماء وتلقفتها الشجرة بأوراقها الضخمة فغابت فى طياتها ، وإن هى إلا لحظة حتى سال دم الفتاة غزيرا مع رحيق الشجرة ، وأقبل الزنوج عليه يشربونه بشراهة وغلظة .

أيد تلك المشاهدات الكابتن هرست الانجليزى الذى قام على رأس بعثة علمية لاكتشاف مجاهل جزيرة مدغشقر ، فلقد وصف ما شاهده وقال : إن الشجرة تظل مطبقة الأوراق خمسة أيام أو ستة ، تنفرج بعدها عن أشلاء وهيا كل عظيمة تذروها الرياح .

أقول : إن هذه المشاهدات سواء أ كانت حقيقة واقعة أم محض خيال ، لا تخالف العلم ولا تعارض العقل ، فلقد رأينا كيف أن النبات يفترس الحيوان فى احتياجه الى الأزوت ، ولا يميز النبات بين حيوان أو إنسان إن استطاع الى هذا الأخير سبيلا . وأغلب الظن أن الشجرة المذكورة فى جزيرة مدغشقر تعتمد فى غذائها على الحيوانات التى تلجأ اليها لتشرب من رحيقها اللذيذ الطعم ، أو لتقضى ليلها بين أوراقها الضخمة ، أو لتهجع اليها فرارا من شدة القيظ أو هربا من عدو . ولقد عرف الأهالى فيها تلك الخاصية العجيبة التى لم تهضمها عقولهم ، فقدسوها ، وأخذوا يقدمون لها القرابين من بنى الانسان ، ويشربون من رحيقها المسكر المختلط بدم الضحايا ، وهم يعتقدون أنه شراب إلهى قدمته اليهم الآلهة تقبلا منها وكرما .

تلك كلمة موجزة عن نوع غريب من أنواع النباتات ، شابه فى معيشته الأنواع الضارية من الحيوان ، فسبحانه وتعالى خلق فسوى ، وقدر فهدى ؟

رضوان محمد رضوان
بكالوريوس فى العلوم الزراعية

ما قيل فى وصف الاجادة فى القول

قال أديب فى وصف كاتب بليغ : فلان إذا أنشأ انتثرت زهرات الآداب من عذوبة لسانه ، وإذا أنشد حرك ذا الوقار طربا بإحسانه .

وقال حسان بن ثابت الصحابى فى هذا المعنى :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما فى النفوس ولم يدع ... لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

— ٤ —

لئن طال النزاع ، واحتـدم الخصام ، واستمر الجلاد بين مناصرى الشعوبية ومناوئيها فى الاسـلام ، دين الوحدة والألفة والوئام ، لا دين الفرقة والتنابذ والخصام ـ فما كان ذاك بالبدع العجيب ، والمستحدث الغريب ، الذى لم تألفه الأجيال التى سبق بها الزمن ، ولم تدرج عليه ، من صرخة وضعها الى أتـه نزعها ، وإنما تراجع الأيام صفحة من تاريخها القديم الذى ملئ بالمفاخرة ، وفاض بالعصبية بين العرب والأعجام ، فى تلك الفترة التى كان فيها العجم يقبضون على زمام الحضارة ، ويتربعون على أريكة الجبروت والسلطان ، بينما العرب فى صحرائهم يهيمون بين وهج الشمس ولظاها ، يسترحمون الغيث ، ويستعطفون الـكلأ ، لا ملك يجمعهم ، ولا وحدة تؤلفهم ، ولا قانون يعصمهم ؛ فى ذلك الزمن السحيق الذى بلغ فيـه ملك الفرس مبلغا لا يبارى ، لم يقف النعمان بن المنذر أخرس اللسان ، ضعيف الجنان ، أمام مقالة كسرى التى أتت على العرب من أصول مكارمهم ، ولم تدع مفخرة من مفاخرهم إلا أبادتها وأهلـكتها ، بل تلطف فى الرد مفندا كل ما جاء به كسرى حتى أكبره وأعظمه ، وكساه من كسوته ، فرجع الى موضعه من الجزيرة متوجا بتيجان الشرف ، مكللا بأكاليل النصر ؛ ذلك موقف مشهود وقفه النعمان من كسرى وتناقلتـه كتب التاريخ . فلا لوم علينا إذا أتحفنا القارئ الـكريم بهاتين المقالتين غير منقوصتين ، لما فيهما من متاع أدبى يثلج الأفئـدة ويشرح الصدور ، ولما أخذناه على أنفسنا من توخى هذه الناحية دون سواها :

حدث ابن القطامى عن الـكلبى قال : « قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ما ذكروا ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارس ولا غيرها ، فقال كسرى ، وأخذته عـزة الملك : يا نعمان : لقد فـكرت فى أمر العـرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حال من يقدم على من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها دينا يبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ، ويقوم جاهلها ؛ ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ؛ وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملـكا يجمعها ؛ والترك والخزر ، على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقـلة الثمار والحصون ، وما هـو رأس عمارة الدنيا من المساكن

والملابس ، لهم ملوك تضم قواصيهم ، وتدبر أمرهم ، ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ، ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع ، لثقلها وسوء طعمها ، وخوف دائها ؛ وإنْ قرى أحدهم ضيفا عدها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك الى يومنا هذا ؛ وإن لها مع ذلك آثارا ولبوسا وقرى وحصونا وأمورا تشبه بعض أمور الناس — يعنى اليمن — ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة ، والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

فما إن سمع النعمان ذلك حتى غلت فى قلبه مراجل العزة والنخوة العربية ، فاندفع قائلا : أصلح الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم حظها ، وتعلو درجتها ؛ إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان أمننى من غضبه نطقت به .

قال كسرى : قل فأنت آمن .

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به ، من عقولها ، وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك ، وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ووفائها :

فأما عزها ومنعتها : فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين ، وجزائر البحار ؛

وأما حسن وجوهها وألوانها : فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة ؛

وأما أنسابها وأحسابها : فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دِنْياً ، فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى

آباءه أبا فأبا ؛ أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى الى غير أبيه ؛

وأما سخاؤها : فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله ، وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ، ويجتزئ بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ؛

وأما حكمة ألسنتهم : فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ، ورونق كلامهم وحسنه ، ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس ؛ ثم خيلهم أفضل الخيـل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجـزع ؛ ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر ؛

وأما دينها وشريعتها : فانهم متمسكون به ، وإن لهم أشهرا حرما ، وبلدا محرما ، وبيتا محجوجا ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهـو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رغمه منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى !

وأما وفاؤها : فان أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهى ولـث وعقدة (١) لا يحلها إلا خروج نفسه ؛ وإن أحـدهم ليبلغه أن رجلا استجار به ، وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته ، لما أخفر من جواره ؛

وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فانما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج ؛

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها : فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمدوا الى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لا شىء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه ؛

وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم : فانما يفعل ذلك من يفعـله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفا ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وأنه إنما يكون فى المملـكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم ؛

وأما العرب : فان ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج ، والوطف بالعسف ؛

(١) الولث : العهد غير المؤكد

وأما اليمن التى وصفها الملك : فلما أتى جدّ الملك اليها الذى أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا ، قد تقاصر عن إيوائه ، وصغر فى عينه ما شيد من بنائه ، ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال الى مجال ، ولو جد من يجيد الطعان ويغضب للاحرار ، من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ، ولما هو أفضل ! ثم كساه من كسوته ، وسرحه الى موضعه من الجزيرة » .

تلك محاورة تدل فى غير التواء على مبلغ ما للعصبية الجنسية من سلطان على النفوس ، مما يجعلنا نؤمن بأن الشعوبية وإن ولدت فى أحضان الاسلام فهى تستمد من معين لا ينضب، وجد منذ وجد الانسان ؟

أحمد ابراهيم موسى البارودى

من ممادح البلغاء

مدح خالد بن صفوان رجلا ببراعة المنطق فقال : كان والله جزل الألفاظ ، غزير مقال اللسان ، فصيح ماخذ البيان ، رقيق حواشى الكلام ، بليل الريق ، قليل الحركات ، ساكن الاشارات .

ومدح أعرابى رجلا فقال : فلان أخذ بزمام الكلام فقاده أسهل مقاد ، وساقه أجمل مساق ، فاسترجع به القلوب الجامحة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

ووصف ابن المقفع بليغا فقال : ما زالت ينابيع حكمه تترقرق فى مغابن الآذان حتى أعشبت بها القلوب عقولا (المغبن ، الابط ، وهو يريد بمغابن الآذان أحناءها) .

وقد ألم بهذا المعنى أبو الطيب المتنبى فقال :

نطق إذ ما القول حط لثامه   أعطى بمنطقه القلوب عقولا

يريد أبو الطيب من إعطائه القلوب عقولا ، أنه ينطق بالحكمة فيخلع عن القلوب غواشيها ويبصرها بالحق فتدركه وتتبعه . وهو وصف جميل للقدرة على صرف القلوب الى وجهة الحق .

أما الغاية التى ليس وراءها مطمح فى وصف البيان ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

الاسلام كما يراه الاوربيون

— ٨ —

أشرنا فى الكلمات السالفة الى ماحسبه « كازانوفا » براهين حاول أن يدلل بها على صحة دعواه ، وذلك كبراهين إغضاء النبي صلى الله عليه وسلم عن تعيين الامام السياسى ، وقوله : « بينى وبين الساعة كهاتين » ، ودعوته أحد معاصريه بالمسيخ الدجال ، وغير ذلك مما توهم هذا المستشرق أنه يثبت اعتقاد النبى بقيام الساعة قبل موته ، وأبنّا ما فى هذه البراهين من ضعف وتخاذل ، وأثبتنا أنها لا تستطيع أن تثبت لحظة واحدة أمام المنطق المستقيم . واليوم نريد أن نعرض لما بقى من هذه البراهين الهزيلة فننزلها المنزلة التى تستحقها من الهوان كما فعلنا بسوالفها :

يعتبر هذا البرهان الرابع أهم براهين « كازانوفا » وأخطرها فى نظره ونظر أشياعه ، لأنه حاول فيه أن يثبت أن فى القرآن ، كما فى السنة ، آثارا تشهد بأن الصلة بين بعثة النبى وبين الساعة متينة وثيقة ، وأن موت النبى سيكون ضمن الموت العام الذى هو نتيجة مباشرة للطامة الكبرى ، وهى قيام الساعة . وإليك كيف يسوق هذه الحجة :

أشار القرآن فى كثير من آياته الى نهاية العالم والموت العام فقال :

« و نفخ فى الصور فصَعِق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (١) » « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٢) » « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة (٣) » « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٤) » . « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون (٥) » .

مما لا ريب فيه أنه لا يمكن تطبيق الآيتين الأولى والثانية إلا على الفريق الأخير من الناس ، وهم المعاصرون لقيام الساعة ، أما الآيات الثلاث الباقيات فقد أتى بها لإثبات تعميم الموت وحلوله بكل حى ، ماضيا كان أو حاضرا ، ولكن ينبغى أن نعرف أن جميع الآيات التى تعرضت لفناء العالم أو لعمومية الموت ربطت بينهما وبين البعث ربطا محكما ، أى أن هذه الآيات أعلنت أن البعث لا بد أن يتلو الموت العام مباشرة . فلندرس الآن الآيات المتعلقة بموت النبى على ضوء هذه القاعدة :

---

(١) سورة الزمر . (٢) سورة النمل . (٣) سورة آل عمران . (٤) سورة الانبياء .

(٥) سورة العنكبوت .

قال القرآن : « إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (١) » « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مِتَّ فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٢) » .

فاذا نظرنا الى هذه الآيات ، ألفينا انها تصل البعث بموت محمد ، كما وصلت الآيات السابقة البعث بالموت العام وفناء العالم .

على أن أحقية اثنتين من هذه الآيات مشكوك فيها ، إذ لم تثبت نسبتهما الى النطق النبوى ، بل إن أبا بكر كان هو الوحيد الذى نطق بهما على أثر موت النبي فأقره المسلمون عليهما ، وهما قول القرآن : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، وقوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، أفليس لنا الحق فى أن نظن أن الآية الثانية على الأقل قد صنعها أبو بكر من أساسها بعد موت النبي ؟

ومهما يكن من شيء ، فان هاتين الآيتين ، حقيقتين كانتا أم مصنوعتين ، إذا فهمتا كما أراد أبو بكر أن يوجههما ، تنصان على أن النبي يجب ألا يشهد الساعة ، ومع ذلك فيمكن أن نفهم الآية الأولى على أنها خطابية تريد أن تقرر القاعدة المنطقية فى ذاتها ، أى تريد أن تتساءل نظريا قائلة : أفإن مات فرضا أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ وفى هذه الحالة لا تقرر أنه سيموت قبل نهاية العالم ، ويمكن أن نفهم الآية الثانية على أن الاختصام عند الله تابع مباشرة لموت النبي ومعاصريه . وفى هذه الحالة يكون شهوده الساعة أمراً محققا .

أما إذا فهمتا فهما حراً غير مقيد ألبتة ، لا بتوجيه أبى بكر ولا بتوجيهنا الذى أسلفناه آنفا ، بل أخذتا على ظاهرهما ، فانهما لا تثبتان ضرورة أن محمداً يجب أن يموت قبل قيام الساعة ، فاذا أضفنا الى غيبة ضرورة موت النبي قبل قيام الساعة نصوصا قرآنية أخرى تفيد إمكان بقائه حيا الى يوم الساعة ، ونصوصا أخرى محتوية على وعود تختلف تحجبا وانكشافا صدرت من الله الى نبيه بأنه سيشهد الساعة ، أقول : إذا أضفنا هذه النصوص الى ما تقدم ، فقد وجب أن تكون دعوانا صحيحة . وأهم هذه النصوص هى النصوص التى تقول مخاطبة النبي : « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٣) » « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤) » « فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون (٥) » .

فاذا اعترض بأن هذه النصوص ليست مشتملة على وعود صريحة بشهود النبي الساعة ، وإنما هى مشتملة على الامكان فحسب ، قلت : نعم ، هذا حق ، ولكنه ينتهى بنا الى الاقرار

(١) سورة الزمر . (٢) سورة الانبياء (٣) سورة يونس . (٤) سورة الرعد .
(٥) سورة المؤمن .

بأن الإله غير متأكد من الغاية ولم يستطع أن يحدد مصير نبيه . وأحسب أنه لا شيء يظهر لنا أكثر سخفا وبعدا عن التعقل من القول بأن هذا الإله — وهو سيد الأقدار — لم يستطع أن يصمم على أن يحدد مسألة بسيطة الى هذه الدرجة ، أو أنه يجهل ما إذا كان النبي سيموت أو سيعيش الى نهاية العالم ، فى حين أنه يقول : إنه يعلم بالساعة علما يقينيا ، ولكنه لا يريد أن ينبئ الناس بهذا العلم . وبناء على ذلك ، أفليس من المعقول أن نقرر أن هذه الآيات قد مدت اليها يد التبديل ، وأنها كانت قبل التبديل مثلا : سنريك بعض الذى نعدهم ، أى أنها كانت نصا صريحا فى شهود النبى الساعة ، ثم لما رأى أصحابه أن الساعة لم تقم وضعوا صورة الشك فى هذه الآيات موضع صورة اليقين ، وجعلوها : وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ؟

غير أن هذا التحوير الذى أوقعوه فى الآيات السالفة لم يكن من السهل عليهم إجراؤه فى بعض الآيات الأخرى ، لتأليفها كلا متماسكا أوله بآخره تماسكا محكما الى حد أنه لو وضعت فيه صورة التردد لا نقلب هذا الكل المنسجم مشوها مضحكا .

لهذا أبقوا تلك الآيات الأخرى على حالها ولم يحدثوا فيها أى تغيير ، فجاءت شاهدة على أن محمدا كان يعتقد بقاءه الى شهود الساعة من جهة ، وعلى أن الآيات الأخرى وقع فيها تبديل من جهة ثانية . وإليك تلك الآيات التى لم يمكن التبديل فيها :

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ، إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين . وقل إنى أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ، فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (١) » .

لا ريب فى أن اليقين هنا هو الساعة ، والمفسرون يوافقون على ذلك ، وإذاً فالقرآن صريح فى أن الساعة ستأتى النبى وسيشاهدها هو شخصيا ، ولذلك هو يأمره بأن يعبد ربه حتى تأتيه هذه الساعة . ومما يؤيد ذلك أن الفعل العربى الذى عبرت به الآية الخامسه والثمانون فى جانب الساعة ، وهو فعل أتى ، هو نفسه الفعل الذى عبرت به الآية الخامسة والتسعون فى جانب اليقين ، فقالت الأولى : إن الساعة آتية ، وقالت الثانية : حتى يأتيك اليقين .

ومن هذه الآيات التى لم يقع فيها التبديل ، وهى تنص على أن النبى سيشهد الساعة ، قول القرآن : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

---

(١) سورة الحجر .

« واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج » . « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (١) » .

أما استنتاجنا الخاص بعد كل ذلك فهو يتلخص فى أن القسم الأول من القرآن كان بكل بساطة إنباء صريحا بنهاية العالم وقرب الساعة : « عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا ، سيعلمون . ثم كلا سيعلمون (٢) » . وأن القسم الثانى منه عنى بأن يضعها موضع الأمر المجهول : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة (٣) » . وأن القسم الثالث الذى كان النبى أثناءه مشغولا بالتشريع والقيادة الحربية ، قد أهمل مسألة الساعة إهمالا تاما ، وكانت الأقسام الثلاثة متمايزا بعضها عن بعض فى وضوح ، فمزجها أصحاب النبى ببعضها لغايات فى نفوسهم ، وأن كل الآيات التى نصت على شهود النبى الساعة وأمكن تبديلها قد بدلت ، وما لم يمكن تبديله قد وجهوه التوجيه الذى أرادوه .

هذا هو موجز أهم براهين « كازانوفا » على هـذه الدعوى بعد الذى قدمناه ، فلنلخص أولا نقطه ثم نناقشها واحدة بعد الأخرى : (١) زعمه أن صـلة البعث بموت النبى كصلته بالموت العام . (٢) ارتيابه فى آيتى : « إنك ميت » و « أفإن مات أو قتل » . (٣) زعمه أن المقصود بقول القرآن « بعض الذى نعدهم » هو الساعة . (٤) ادعاؤه أن هذه الآيات كان نصها أولا : سنريك بعض الذى نعدهم ، ثم قلبت الى صورة التشكيك فأصبحت : فاما نرينك الخ . وقد علل لهذا الزعم بأن الله أعظم من أن يجهل المصير فيتحدث بلسان الشك . (٥) زعمه أنه وردت فى القرآن آيات صريحة فى وجوب شهود النبى الساعة كقول القرآن مثلا : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب » الخ . (٦) زعمه أن كلمة « اليقين » المذكورة فى القرآن معناها الساعة ، وبهذا يكون قوله : « حتى يأتيك اليقين » معناه : حتى تأتيك الساعة .

هذا هو موجز نقط أهم براهينه ، فلننظر الآن الى أى حد هى متفقة مع التعقل :

(١) ادعى الأستاذ « كازانوفا » أن البعث ورد فى القرآن متصلا بموت النبى اتصاله بالموت العام . وغايته من هذا هى محاولة إثبات أن البعث سيبدأ بعد وفاة النبى مباشرة . فاذا نظرنا الى الآيتين اللتين ساقهما فى موت النبى لم نجد فيهما ألبتة مايؤيد دعواه أقل تأييد ، وذلك لأن الآية الأولى وهى : « إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنـكم يوم القيامة عند ربـكم تختصمون » معناها : إنك فانٍ قابل للموت ، وهم كذلك فانون قابلون له ، وإنـكم ستموتون جميعا ، كل بأجله ، ثم إنـكم سوف تبعثون وتختصمون أمام ذى الجلال والاكرام . والآية نص صريح ببعد زمن الاختصام عن زمن الموت بدليل التعبير بثم . ولو أن الأستاذ كازانوفا كان يفهم الفرق بين حروف العطف فى اللغـة العربية لما جرؤ على أن يزعم هذا الزعم ، ولـكن

(١) سورة ق . (٢) سورة النبا . (٣) سورة الاعراف .

هذا ذنب الجهل لحاه الله ! وفوق ذلك ، فقد وضعت الآية يوم القيامة كظرف للاختصام ، ولما كان الاختصام معطوفا على الموت بحرف ثم ، وبالتالى بعيدا عنه ، فقد وجب أن يكون ظرف الحدث المتأخر متأخرا عن ظرف الحدث المتقدم بالمسافة التى تسمح بها ثم . وفى هذا برهان قاطع على أن البعث ليس متصلا بموت النبي اتصالا مباشرا كما زعم هذا المستشرق .

أما الآية الثانية وهى : « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فلا شأن لها بنهاية العالم ولا باتصال موت النبي بالبعث أو بانفصاله عنه ، و إنما هى وردت لتأنيب المقاتلين الذين تزعزعت نفوسهم حين أذاع أبو سفيان أن النبي قد قتل ، ولا أدرى ما هى الصلة التى تخيلها « كازانوفا » فى هذه الآية بين موت النبي ونهاية العالم إلا أن يكون من الحالمين !

(٢) على أنى لا أدرى كيف يستشهد بهاتين الآيتين على هذه الصلة ، وهو قد أعلن ارتيابه فيهما وعزا وضعهما الى أبى بكر ، وهنا تقودنا المناسبة الى مناقشة النقطة الثانية ، وهى أن أبا بكر هو الذى صنع هاتين الآيتين ، فنقول لهذا الأستاذ : ألم تعترف أنت شخصيا فى مقدمة كتابك بأن النبي كان أعظم أهل عصره إخلاصا ، وأطهرهم نفسا ، وأقواهم عبقرية ؟ ثم ألم تشهد بأنه هو الذى أطلق على أبى بكر اسم الصديق ؟ ثم أفلا يكون إطلاقه اسم الصديق على رجل جدير بالتضليل برهانا إما على الغباوة أو على النفاق ؟ وأنت أثبت له العبقرية والاخلاص وطهر النفس ؟ هذا خلف يا أستاذ !

وفوق ذلك ، فهل شارك كل أجلاء الصحابة أبا بكر فى هذا التزييف ، أو كانوا جميعا من الغفلة بحيث تنطلى عليهم هذه الحيلة ، ونحن نعلم أنه كانت بينهم عقليات تلتهب ذكاء وعبقرية ؟ ثم ألم يكن للاسلام خصوم طالما سمعوا من النبي أنه سيشهد الساعة ثم ألفوه قد فارق الحياة ولم تقم الساعة ؟ فهل تظن أن هؤلاء الخصوم كانوا يقابلون هذه الفرصة القاتلة صامتين دون أن يشنوا الغارة على الاسلام والمسلمين ؟

أضف الى هذا أنه إن كان أبو بكر قد وضع هاتين الآيتين ، فمن الذى وضع الآيات والأحاديث الكثيرة التى تنص على أن الساعة سر قد استأثر الله بعلمه ، وأن موت النبي سيكون حادثا بسيطا ضمن حوادث الكون العام كما كان موت من سبقوه من الأنبياء ، وأن الحياة ستظل من بعده زمنا لا يعلم مداه إلا الله ، وأن الساعة سيكون لها علامات ، وأن الذين سيشهدونها هم أقل الناس إيمانا ؟ وهل وضع أبو بكر أيضا كل هذا دون أن يتنبه اليه أحد ؟ اللهم اشهد أن المنطق ليس له فى هذه الدعوى عين ولا أثر !

(٣) أما زعمه أن « بعض الذى نعدهم » معناه الساعة ، فهو زعم سخيف ، لأن المقصود بهذا البعض هو مصارع المكابرين يوم غزوة بدر وماهددوا به من عذاب (١) ، وليس المراد هنا الساعة كما توهم الأستاذ كازانوفا . وإذاً فقد سقط هذا الزعم أيضا .

(١) راجع الكشاف

(٤) أما ادعاؤه أن هذه الآيات نفسها كانت أول الأمر : سنريك بعض الذى نعدهم ثم غيرت فجعلت : وإما نرينك الى آخره ، فهو تخرص ليس لدى صاحبه عليه من دليل إلا أن الله أعظم من أن يجهل المصير فيعبر بعبارة الارتياب . ولو أن هذا المستشرق كان قد فهم روح القرآن لما هوى فى تفكيره الى هذا الحد ، لأن هذه عبارات تشكيك لا شك ، والفرق بين الحالتين عظيم ، ولكن هذه أيضا سقطة الجهل والسطحية والتسرع ! أما حكمة استعمال هذا التشكيك ، فهى استئثار الله بعلم يوم وفاة النبى ، وهل هو سيجىء قبل مصارع أولئك المعاندين أو سيتأخر عنها ؟ وهو فى كلتا الحالتين يبشر نبيه قائلا : كن على يقين أنى سأريك مصارعهم إذا أبقيتك الى ذلك اليوم ، وإذا توفيتك قبله فسأريك فى الآخرة ما سأصنع بهم فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

على أنى لا أفهم أيضا كيف استساغ كازانوفا استئثار الله بعلم الساعة وإخفاءه إياها عن الناس جميعا ، ولم يستسغ إخفاءه عنهم مصير أولئك المعاندين ، وهل ستكون مصارعهم على مشهد من النبى أو سيتوفى قبل وقوعها فيرى مصيرهم الأخروى الذى هو أدهى وأمر ؟

(٥) أما ادعاؤه أن آية « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب » تدل على شهود النبى الساعة ، وأن المنادى سينادى يوم فناء العالم ، فهو ضرب من السخف المزرى ، لأن المنادى المذكور فى هذه الآية هو الذى سينادى يوم الحشر لا يوم فناء العالم ، بدليل ما أتى بعد هذه الآية من قول القرآن : « ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ، ذلك حشر علينا يسير » . ولكن يظهر أن الأستاذ كازانوفا لا يعرف كيف يفرق بين يوم فناء العالم ، وهو آخر أيام الدنيا ، وبين يوم البعث ، وهو أجنبى عن الأول أجنبية لا تخفى على ذى عقل .

أما شهود النبى يوم الحشر واستماعه نداء المنادى فهما أمران لا ينكرهما المسلمون ، بل يجب ألا ينازع فيهما أحد ، وإلا لكان جاحدا شهود النبى الحساب الذى لا يمكن أن يتخلف عنه أى إنسان كائنا من كان عظمة أو ضعة .

(٦) أما ادعاؤه أن كلمة « اليقين » الواردة فى القرآن معناها الساعة ، واستدلاله على ذلك باستعمال مادة الإتيان فى القرآن فى جانب الساعة حينا ، وفى جانب اليقين حينا آخر ، فهو أمر جدير بالاشفاق على هذا الأستاذ أكثر مما هو جدير بالنقد ، لأن اليقين معناه الموت ، وليس معناه الساعة ، ولا يصح أن يكون غير ذلك ، إذ أن اليقين الوحيد الذى يجب أن يمر بكل حى إنما هو الموت لا الساعة ، لأن الساعة لا تقوم إلا على معاصريها ، وبهذا لا يكون الأمر بالعبادة عاما ، بل يكون خاصا مقصورا على أولئك المعاصرين .

أما استشهاده بمادة أتى ، فحسبى أن أقول له بازائه : إنه يقال فى اللغة الفرنسية : أتت الكارثة وأتى « كازانوفا » ، فهل يصح لنا بناء على هذا أن نقول : إن كازانوفا هو الكارثة

بدليل صحة إسناد فعل أتى إليه وإلى الكارثة كما كان اليقين فى القرآن معناه الساعة بدليل صحة إسناد فعل أتى إلى اليقين وإلى الساعة ؟

أما بعد مناقشة هذه النقط الواردة فى براهين كازانوفا ، فاننا نحب أن نسأله سؤالا لا تتعذر الاجابة عليه حتى على عقلية السوقة والأميين ، وهو : إذا كان النبى يعتقد قيام الساعة قبل وفاته ، فلماذا نظر إلى الحياة الاجتماعية هذه النظرة التى تدل على إيمانه ببقائها زمنا طويلا ، فأتى لها بهذا الدستور الفخم ، وذلك التشريع القيم الذى تناول به جميع أفرع الحياة الشخصية والمعاملات الاجتماعية ، من زواج وطلاق ، وعدة ونفقة ورضاع وتوريث ووصية وهبة وبيع وقرض ومشاركة ، فهل كل ذلك قد شرع لمعاصرى النبى فقط ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فهل يوصف بالحكمة والعبقرية اللتين وصفت أنت بهما النبى من يتعب نفسه من أجل التشريع لهذا الزمن الضئيل ؟ ثم حدثنى بربك : كم وقع من المواريث فى تلك الأعوام التى مرت بعد تشريع الميراث الاسلامى وقبل موت النبى ؟ ولماذا لم يترك النبى قومه يتعاملون ويتوارثون حسب تشريعاتهم القديمة ما دامت الساعة ستقوم عليهم قبل انتقاله من بينهم ؟

هـذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول

هذا ، ونأمل أن نكون قد وفقنا للرد على أهم النقط الأساسية فى هذا الكتاب السخيف الذى أحدث رنينا هائلا فى البيئات العلمية فى أوربا ، لأنه كان الأول من نوعه ، ولأنه لم ينبر الى الآن أحد من المسلمين للرد عليه بحجج قيمة ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من أرتج عليه الكلام فأبدع

أراد خالد بن عبد الله القسرى أن يخطب يوما فأرتج عليه ، فقال للناس :

« إن هذا الكلام يجىء أحيانا ، وربما كوبر فأبى ، وعولج فنبا ، والتأنى لمجيئه خير من التعاطى لأبيّه ، وتركه عند تنكره ، أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يختلط من الجرىء جنانه ، وينقطع من الذرب لسانه ، وسأعود فأقول » .

نقول : لعل هذه العبارة على وجازتها خير من الخطبة التى كان يريد أن يدلى بها . ولو كان كل من أرتج عليه أتى فى اعتذاره بمثل هذا الابداع الخطابى لتمنينا أن يرتج على كل من يتصدى للقول رجاء سماع مثل هذا الاعتذار .

الامام فخر الدين الرازى

وتفسير القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم فى عصور الاسلام المختلفة :

نزل القرآن الكريم وفيه آيات تحتاج لتفصيل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يبينها للناس من تلقاء نفسه أو إجابة على سائليه عنها ، ووقف الأمر عند هذا الحد .

ولما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، كان كبار الصحابة يتولون تفسير القرآن ، وخاصة على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ، وشرحوا فى كثير من الأحيان أسباب نزول الآية وفيمن نزلت .

ولما جاء التابعون قرروا كل ما ذكره الصحابة من الشرح ، وكان من التابعين أنفسهم من فسر بعض آيات القرآن أو ذكر سببا لنزولها ، إما اجتهادا أو سماعا ، وجاءت الطبقة التى تليهم وروت عنهم ما قالوا .

وفى عصر التابعين تضخم تفسير القرآن بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم فى الاسلام حاملين معهم ما تلقوه من قصص الأنبياء ومن أنباء عالم الغيب ، ومن أشهرهم وهب بن منبه وعبد الله بن سلام وابن جريج ، فكانوا يروونها عن التوراة والانجيل وشروحها وحواشيها . فلم ير المسلمون بأسا من أن يرووها شرحا لآيات القرآن ، فكانت منبعا من منابع التضخم .

هذه التفسيرات لم تتخذ فى أول أمرها شكلا منظما ، بأن تذكر آيات القرآن مرتبة كترتيب المصحف ثم تتبع تفسيرها ، ذلك أن الحديث كان المادة التى تشمل جميع المعارف الدينية تقريبا ، فهو يشمل التفسير ، ويشمل التشريع ، ويشمل التاريخ ؛ وكانت كلها ممتزجة بعضها ببعض تمام الامتزاج . ثم أخذ المؤلفون فى آخر العصر الأموى وأول العصر العباسى يجمعون الأحاديث المتشابهة المتعلقة بموضوع واحد ويفصلونها عن غيرها ويرتبون أبوابها ، كما فعل مالك فى الموطأ ، فقد جمع أحاديث الأحكام ورتبها ، وكما فعل محمد بن اسحاق ، فقد جرّد الأحاديث المتعلقة بالسيرة وزاد عليها من أشعار قيلت ، وأخبار رويت ، وكوّن من ذلك السيرة النبوية ، وبذلك كان التفسير فرعا من فروع الحديث .

وجاءت الخطوة الثانية ، بأن اختص كل جماعة بتفسير عالم مصرهم ، فعنى المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس المكى ، كمجاهد وعِكرمة وسعيد بن جبير ، وعنى التابعون

من الكوفيين برواية ما ورد عن ابن مسعود الكوفى ، كعلقمة بن قيس والأسود بن يزيد ، وابراهيم النخعى والشعبى ، وهكذا .

وكانت الخطوة الثالثة انفصال التفسير من الحديث وعده علما قائما بنفسه .

ويتضح جليا أن تفسير القرآن كان فى كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه ، وصورة منعكسة لما فى العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية .

فلو تتبعنا عن الصحابة والتابعين ما صدر من تفسير ، وجدنا أنهم كانوا يقتصرون فى تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه من الآية بأخصر لفظ ، ولا نجد أثرا للاستنباط العلمى لحكم فقهى ، ولا انتصارا لمذهب دينى .

وعلى الجملة انقسمت كتب التفاسير فى أواخر العصر الأموى الى نوعين ، فمن العلماء من غلب عليه منهج المحدثين فاقتصر على ذكر المنقول ، ومنهم من غلب عليه منهج العقليين فشرح باجتهاده .

ولما دونت علوم اللغة والنحو والفقه ، وأثيرت مسائل الكلام ، وبحثت فى العصر العباسى ، أثرت فى علم التفسير أثرا كبيرا . فالنحويون أخذوا القرآن الكريم مادة من موادهم للتدليل على صحة قواعدهم ، فأعربوا القرآن إعرابا أعان على التفسير ، واللغويون وضعوا الكتب فى غريب القرآن كما فعل أبو عبيدة ، وعنى الفقهاء بآيات الأحكام يستنبطونها منه ، وألفوا فى ذلك الكتب . فكتاب أحكام القرآن (على مذهب مالك) ، وكتاب أحكام القرآن لأبى بكر الرازى (على مذهب أهل العراق) ، وكتاب أحكام القرآن للامام الشافعى ، وأحكام القرآن لداود بن على الظاهرى (الفهرست ص ٣٨)

وجاء المتكلمون ، وهم أظهر عنصر عقلى فى هذه الحركة العلمية ، وكانوا لا يميلون كثيرا الى المنقول ، وكانت لهم مذاهب فى التوحيد وصفات الله ، وأفعال العباد ، فتعرضوا لتأويل القرآن بهذه العقلية وهذه العقيدة . إلا أن هذه الطريقة التى سار على نهجها علماء الكلام لم ترض الذين يعتمدون فى التفسير على العقل ، ولم ترض فى الوقت نفسه أهل السنة ، فكان النزاع بين الطريقتين . فهاجمهم ابن قتيبة فى التفسير كما هاجمهم فى الحديث (انظر تأويل مختلف الحديث ص ٨٠) . وقد أدى النزاع الى أن المتكلمين قابلوا المعترضين على أسلوبهم فى التفسير بمثل هجومهم .

ويحدثنا الجاحظ فى كتابه الحيوان فى مواضع متفرقة مهاجمة اليهود والنصارى والملحدين آيات فى القرآن والاعتراض عليها من ناحية العقل ، ورد المعتزلة عليهم على طريقتهم . كما نرى فى كتابه ردودا واعتراضات وتشنيعات على بعض أقوال المفسرين الذين اكتفوا فى قولهم بالاعتماد على المنقول ولو خالف المعقول .

وهذا النوع من التأويل هو الذى نما بعد، فكان منه تفسير الكشاف للزمخشرى، والفخر الرازى فى كتابه مفاتيح الغيب، المشتهر بالتفسير الكبير.

هذا تمهيد نجعله بين كلامنا عن إمام المفسرين فخر الدين الرازى.

ترجمة فخر الدين الرازى :

قال ابن خلكان : « هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على، التيمى، البكرى، الطبرستانى، الرازى المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعى ».

وفى إخبار العلماء بأخبار الحكماء « ولد بمدينة الرى سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وقيل : ثلاث وأربعين، ونشأ فى بيت علم وأدب، فوالده الامام ضياء الدين عمر، خطيب الرى، كان على جانب عظيم من العلم، برع فى علم الأصول والمذهب، وأخذ عنه الكثيرون ».

درس الرازى من العلوم والفنون ماعرف فى عصره، واشتغل فى مبدأ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ضياء الدين صاحب محى السنة أبى محمد البغوى، ثم قصد الكمال السمعانى واختلف اليه مدة، ثم عاد الى الرى فألم بالطب، ونبغ فى الأدب، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما. وكان من أهل الدين والتصوف. ولما كانت نفس الرازى تواقة الى الاستزادة من العلم والمعرفة، دفعته الى طلب العلوم العقلية، ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة، فتردد على مجلس مجد الدين الجيلى وقرأ عليه علم الكلام والحكمة.

وفى أخبار الحكماء : أنه وقف على تصانيف أبى على بن سينا والفارابى واستمد من ذلك علما كثيرا. وفى وفيات الأعيان : أنه فاق أهل زمانه فى علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل. بدأ الرازى حياته العلمية فقيرا، فلما انتشر ذكره قصده الناس وهرعوا ليقتبسوا من علمه الغزير، فأثرى من هذا الباب. ويقص علينا صاحب شذرات الذهب : أن الرازى مات عن مال كثير. وجاء فى كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام الرازى، طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر : أن الامام كان ذا هيبة وجلال، عبل البدن، كبير اللحية، يتعاظم على الملوك فى عصر كان سلطان الملوك فيه عظيما، يسير وحوله إذا ركب نحو ثلاثمائة طالب، وكانوا أكثر الناس إجلالا له وتعظيما، فاذا جلس للتدريس أطاف به كبار تلاميذه : أمثال زين الدين الكشى والقطب المصرى وشهاب الدين النيسابورى، ثم يليهم بقية التلاميذ. فاذا سأل أحد شيئا أجابه كبار التلاميذ، فان استعصى الأمر، أجابه الامام نفسه. أما منطق الشيخ وقوة عارضته فى الجدل فقد وصفهما شرف الدين بن عنين :

ماتت به بدع تمادى عمرها ... دهرا، وكان ظلامها لا ينجلى
وعلا به الاسلام أرفع هضبة ... ورسا سواه فى الحضيض الأسفل
غلط امرؤ بأبى علىّ قاسه ... هيهات قصّر عن مداه أبو على

لو أن رسطاليس يسمع لفظة ... من لفظه لعرته هزة أفكل
ويحار بطليموس لو لاقاه من ... برهانه فى كل شكل مشكل
ولو انهم جمعوا لديه تيقنوا ... أن الفضيلة لم تكن للأول

حين نضجت مواهبه العلمية ، ترك الرى وذهب الى خوارزم ، وهناك ظهرت كفايته المنطقية فى جدال المعتزلة حتى عاد الكثيرون منهم الى مذهب أهل السنة والجماعة . وفى تلك الفترة أخرج الرازى كثيرا من الأسفار والرسائل فى علم الكلام والعقائد ، يناقش عقائد المخالفين ، ويتعرض لها فى أسلوب منطقى رائع ، بل نراه عارض الأئمة المتقدمين كالأشعرى وابن فورك والقاضى أبى بكر وإمام الحرمين فى بعض ما كانوا يعتقدون . إلا أن كثرة المجادلات الدينية استفزت مخالفيه ، فأخرج من خوارزم ، فقصد ما وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له فى خوارزم ، فعاد الى الرى . وفى شذرات الذهب : أنه توجه الى شهاب الدين الغورى سلطان غزنة فحصلت له منه أموال طائلة ، ثم اتصل بالسلطان خوارزم شاه محمود ابن تكش وحظى عنده بالمقام السامى ، وتزوج وزيره علاء الملك بابنة فخر الدين . استقر الامام بخراسان ثم سار الى مدينة هراة ، وهنالك لقب الرازى بشيخ الاسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكانت بينه وبين الكرامية أحاديث جدلية عنيفة يتهمهم بالالحاد ويتهمونه .

وفى الحادى والعشرين من المحرم سنة ست وستمائة ، أملى على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الاصفهانى وصيته التى تعتبر الغاية القصوى للمؤمنين الصادقين جاء فيها :

« اعلموا أنى كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب فى كل شىء شيئا لا أقف على كمية ولا كيفية سواء كان حقا أو باطلا أو غثا أو سمينا ، إلا أن الذى نظرته فى الكتب المعتبرة لى : أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ؛ ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن الكريم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ، ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته ، وبراءته عن الشركاء فى القدم ، والأزلية والتدبير والفاعلية ، فذاك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به ؛ وأما ما انتهى الأمر فيه الى الدقة والغموض ، فكل ما ورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو ؛ والذى لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، فكل ما مر به قلمى أو خطر ببالى

فأستشهد وأقول : إن علمت منى أنى ماسعيت إلا فى تقـديس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصـدق ، فلتكن رحمتك مع قصدى لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى زلة ، فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يامن لا يزيد ملـكه عرفان العارفين ، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين ؛ وأقول : دينى متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابى القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما » .

وفى آخر الوصية يوصى أولاده وتلاميذه أن يبالغوا فى إخفاء موته ولا يخبروا به أحدا . وفى يوم الاثنين أول شوال من تلك السنة ، يوم عيد الفطر ، أسلم الروح بمدينة هراة ، ودفن آخر النهار فى الجبل المصاقب لقرية مزداخان . ويروى القفطى أنه توفى فى ذى الحجـة سنة ست وستمائة — ١٢٠٩ م .

موقف الامام الرازى من التصوف الاسلامى :

ضمـّن الرازى رسالته فى الفرق على صغر حجمها أغلب الفرق الاسلامية ، وكثيرا من فرق اليهود والمجوس والنصارى ، وأفرد فصلا خاصا لأحـوال الفلاسفة ، وذكر فرق الصوفية ، وهو الوحيد كما قال هو نفسه الذى عد الصوفية فرقة ، حيث لم يهتم المؤلفون بتمييز مذهب الصوفية باعتباره مذهب فرقة مستقلة . هـذا النقص لاحظه الامام فخر الدين الرازى ، لأن الصوفية تمتاز بشىء فى الأصول تختلف فيه عن بقية الفرق الاسلامية . فأهل السنة والجماعة يرون أن الطريق لمعرفة الله هـو السمع ، وفرقة المعتزلة وبعض الفرق الأخرى ترى أن ذلك الطريق هو العقل ، أما الصوفية فترى أن الطريق لمعرفة الله هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية للوصول الى مرتبة الـكشف .

ولم يذكر من مؤرخى حياة الفخر الرازى هذه الرسالة فيما ذكروه من مصنفات الرازى سوى صاحب طبقات الأطباء ، وصاحب شذرات الذهب ، باسم الملل والنحل ، وذكرت فى أخبار الحكماء باسم : الرياض المونقة فى الملل والنحل . وذكرت فى كتاب كشف الظنون ، وذكرها بروكلمان بعنوان كتاب اعتقاد المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازى .

الذى يهمنا من هذه الرسالة ما أفرده الامام الرازى خاصا بالصوفية ننقله فيما يلى معتمدين على نسخة مكتبة تيمور باشا وعلى نسخة مكتبة برلين :

« اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية ، وذلك خطأ ، لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق الى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وهذا طريق حسن ، وهم فرق :

« الأولى : أصحاب العادات ، وهم قـوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر كلبس الخرقة وتسوية السجادة .

« الثانية : أصحاب العبادات ، وهم قوم يشتغلون بالزهد والعبادة مع ترك سائر الأشغال .

« الثالثة : أصحاب الحقيقة ، وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات ، بل بالفكر وتجريد النفس عن العلائق الجسمانية ، وهم يجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله ، وهؤلاء خير فرق الآدميين .

« الرابعة : النورية ، وهم طائفة يقولون : إن الحجاب حجابان : نورى ونارى ، أما النورى فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة ، كالتوكل والشوق والتسليم والمراقبة والأنس والوحدة والحالة ؛ وأما النارى فالاشتغال بالشهوة والغضب والحرص والأمل ، لأن هذه صفات نارية ، كما أن إبليس لما كان ناريا فلا جرم وقع فى الحسد .

« الخامسة : الحلولية ، وهم طائفة من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون فى أنفسهم أحوالا عجيبة ، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد ، فيدعون دعاوى عظيمة . وأول من أظهر هذه المقالة فى الاسلام الروافض ، فانهم ادعوا الحلول فى حق أئمتهم .

« السادسة : المباحية ، وهو قوم يحفظون طامات لا أصل لها ، وتلبيسات فى الحقيقة ، وهم يدعون محبة الله تعالى ، وليس لهم نصيب فى شىء من الحقائق ، بل يخالفون الشريعة ويقولون : إن الحبيب رفع عنا التكاليف . وهؤلاء شر الطوائف ، وهم على الحقيقة على دين مزدك .

وقد نظم فخر الدين الرازى أشعارا تغلب عليها النزعة الصوفية كقوله :

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال ، فزالوا ، والجبال جبال

وله أشعار فى هذا المعنى كثيرة يبدو فيها فى صورة المتصوف ، وقد زهد الحياة جميعها ، وعرف فناءها ، واستيقن انحلالها ، وتسامى إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا من مثل عليا .

وقال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام الذات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى التنزيه : « والله الغنى وأنتم الفقراء » وقوله تعالى : « ليس كمثله شىء » و « قل هو الله أحد » ، واقرأ فى الاثبات : « الرحمن على العرش استوى » « يخافون ربهم من فوقهم » و « إليه يصعد الكلم الطيب » ، واقرأ فى أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » . ثم أقول

وأقول من صميم القلب من داخل الروح : إنى مقر بأن كل ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل ، فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فانت منزه عنه » .

موقف الرازى من تفسير القرآن الكريم :

فى وصية الامام الرازى التى أملاها على تلميذه ابراهيم الأصفهانى : أن العقل الانسانى يضمحل أمام عظمة الله تعالى ، ولا سبيل الى معرفة القرآن الكريم والوقوف على تفسيره إلا عن طريق الالهام والكشف الصوفى .

فالامام الرازى ، رغم ما كان ينتابه من حالة تصوفيه وإلهام من الله ، كان يستخدم فطرته القوية التكوين بجانب تفكيره التحليلى فى شرح الآيات البينات ، ويستعرض أسباب نزولها استعراضا هادئا ، ويفحص جزئياتها من جميع وجوهها ، مستندا فى تأييد رأيه على السنة ، وأقوال الأئمة والسلف الصالح ، ثم يعزز كل ذلك برأى صحيح وقياس مستقيم .

العقل يخذلنا فى تأمل عظمة الكون وضخامة مظاهره ، ولا يسعفنا فى تفهم دقائقه وصغائره ، ويصرح العلماء اليوم أن العلوم المضبوطة مثل الفلك والكيمياء والطبيعيات تعجز قوى العقل إذا تغلغل فيها .

ولقد عبر عن هذه الحالة العلامة « أرنست ماخ » بقوله : « عندما نوفق الى فهم ظاهرة من الظواهر الطبيعية ، فغاية ما نعمله هو أننا نلحق شيئا غير مألوف ولا مفهوم بشىء مألوف غير مفهوم » .

ويقول هنرى بوانكاريه وهو من أساطين العلوم الرياضية :

« لو كان للانسان عينان لهما قوة الميكرسكوب لما أمكنه استكشاف قوانين الطبيعة ، لأن هذه القوانين تتعالى أن تخضع للفحص البالغ منتهى الدقة » .

والقوانين الطبيعية الآن ليست فى نظر العلماء سوى احتمالات . ولقد كانت الفلسفة سابقة للعلم فى ذلك . فقد وضع الفيلسوف كانت فى نقد العقل حدا لسلطان العقل فى كل شىء ، وفى مذاهب نخت وشوبنهاور وشلبخ : العقل جانب جزئى من جوانب الحياة . ويمثل هذه الفلسفة أقوى تمثيل فى العصر الحديث برجسون ، فليس العقل عنده هو المهيمن على الوجود الانسانى ، والمعلومات الهامة مصدرها عنده الوجدان لا العقل .

وهكذا يظهر لنا أن العلوم الصحيحة والفلسفة وعلم النفس قد اضطرت جميعها الى ترك فكرة أن كل شىء فى الدنيا يمكن أن يفسر تفسيرا عقليا .

ولما كانت الأديان قائمة على قوة اليقين والاعتقاد ، وأن طبيعة الدين الاسلامى وكتاب الله سبحانه وتعالى تقوم على الاعتقاد بالوحدانية مع اكتساب تأييد العقل ، نرى أن الامام

الرازى يعتمد الاعتماد كله فى هـذا الشأن فى تفسيره القرآن الـكريم على الالهام ، لأنه يخرج النفس من نطاق المـادة الى عالم الروح والصفاء .

أطلّ الرازى من شرفة عقله الـكبير على خضم الحياة ، فلم يجرفه التيار ، بل ظل واقفا على الشاطئ يتأمل من تدافع أوجـه الحيـاة وتجاذبها ، ومن تجافيها وتنافرها ، فاستنتج أن العقل ضعيف فى فهم كنه الحياة ، ودفعه هذا الاستنتاج الى الرد على المـاديين بهذا الـكلام .

لا زال الفلـكيون يقولون : إن العالم عبارة عن قانون الأجرام السماوية . ويقـول الـكيماويون : إن العالم هو الجوهر الفرد . ويقـول فلاسفة الطبيعة : إن الـكون عبارة عن سنن من القوة والطاقة . فهم مصيبون ولـكن بنسبة ما ، والى حد محدود . فإذا ما سألت هؤلاء: لماذا خصت المادة بسنن الجذب والدفع؟ ولماذا يكون لحركات الأجرام السماوية وتجاذب ماديتها يد فى نظام العالم؟ ولمـاذا تتكون المـادة من جواهر فردة؟ ما وجد هؤلاء من جواب أروح عليهم وأخرج بهم من هذا الضيق العقلى إلا القول بأنها كذلك سبقت فى إرادة الله .

بجانب نظريات النقد التى وضعها الرازى ، وبجانب النظر العلمى الذى امتاز به هذا الامام الاسلامى ، نراه يتساءل : فى أى ناحية من التجارب يكون هذا العالم ؟ أجاب بأن هذا العالم ما هو إلا عالم الالهام والوحى الباطن ، وأن الحياة الباطنية تثبت تفوقها على الحياة الظاهرية .

على هذا الأساس قامت فلسفة الامام الرازى فى تفسيره لـكلام الله ، حيث شرح الله صدره ويسر أمره .؟

عبد الحميد سامى بيومى

وصف قطاحل الكتاب

قال ابن المقفع : الملوك أحوج الى الـكتاب من الـكتاب الى الملوك .

وقال شاعر :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لا ينال بحـد المشرفيات

نقول : اغتر بعض الـكتاب بمثل هذا الـكلام فخيل إليهم أن منازلة أعاديهم تكون بقذفهم بحمم من هجر القول ، وساقط السباب ، وما دروا أن هذا السلاح يرتد إليهم فيرديهم ، فإنه متى اشتهر أن كاتبا يتذرع لقمع خصومه بهذه الوسيلة الخسيسة ، اعتبر هجاء مفحشا ، وسقطت الثقة به الى الحضيض ، وعد كلامه هراء يمده به طبع دنىء ، ونفس شريرة . وإنما يحمد قراع الخصوم بالـكتابة إن كانت تفنيدا لمذاهبهم بعلم ، أو نقدا لآرائهم بحكمة ، مع استشعار الرحمة بهم ، والحدب عليهم ، وجذبهم الى ناحيته بالتى هى أحسن .

رمضان شهر الصيام

نحن اليوم فى مستهل رمضان ، وهو الشهر الذى أُمرنا أن نقوم فيه بفريضة الصيام ، وهى أحد أركان الاسلام الخمسة .

والصيام ، كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الذين فرض عليهم : رياضة دينية ، لا متعة بدنية ، وهى كـكل العبادات الاسلامية ، قصد بها رفع الانسان عن حضيض الحيوانية ، الى المستوى الذى يليق بمواهبه الأدبية . فـكل ما يبطل هذه الثمرة المرجوة منه ، أو ينقص منها ، يعتبر عملا معاكسا للمرامى التى قصدت من إيجابه .

ونحن إذا رجعنا الى سيرة النبى صلى الله عليـه وسلم وسيرة أصحابه ، تحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب ، ومهلة تَـطَـهر وتنزه عن جميع الـكدور الجسدية والنفسية .

لعل قائلا يقول : ما للدين وأمر التغذى ، وهو وضع طبيعى ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج اليه من المواد التى تدثر فيه بسبب الجهود التى يبذلها فى المحاولات المختلفة ؟

نقول : إن حكمة تدخل الاسلام فى أمر التغذى ، أن الجسم والروح مترابطان فى هذه الحياة ، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض ، ولـكنه مودع فى هذا الغلاف المادى ، وهو الجثمان ، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التى جعلت فيه ، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المخية ، التى جعلت أداة للإدراك . ولما كان هذا الجثمان مخلوقا من التراب فهو عرضـة لـكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار ، وأشـد ما يصيبها منها ما ينصبّ عليها من ناحية الغذاء . لذلك كانت حاجة الانسان ماسة الى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات ، وليس منها ما هو أفعل فيه من الصيام ، وتدبير ما يحتاج اليه من الطعام .

نعم الصيام ، أما سمعت أنه قـد تقرر علميا أن الأجساد البشرية متى لم يراع فى تغـذيتها الاعتدال ، وتخيّر ما يناسبها من المواد ، فسدت أعضاؤها ، واستدت أوعيتها ، وتصلبت شرايينها ، وتضخمت أجهزتها ، باكتسائها بالمواد الشحمية ، وشحن دمها بالمواد الأجنبية عن البنية ، وترسبت على جدران خلاياها ، وسببت لها أعراضا ثقيلة من الألم ، والإعياء ، والترهل ، وضعف الذاكرة ، وضـلال المشاعر ، وعدم الاحتمال ؛ وتعدت هـذه المواطن المادية الى الصفات الأدبيـة فضيقت الخلق ، وولدت الضجر ، وسببت المالنخوليا والحمق ، وأغرقت فأحدثت اليأس ، وقد تسوق الى الانتحار ؟

رأى العلماء أن الانسان متى وصل الى هذه الحالة أو بعضها ، كان أحوج ما يكون اليه

الامساك عن الطعام أياما متوالية ، بل أسابيع ، لتزايل أعضاءه هذه المواد الدخيلة . لأنه إذا لم يعامل علله هذه بالامساك عن الطعام ، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه ، فلا يشفى مما يشعر به ، ولو تعاطى كل عقاقير العالم ، بل هى تزيده خبالا على ماليديه من الخبال (١)

نعم إن السواد الأعظم لا يصلون الى هـذه الدركة من الانحطاط البـدنى ، ولـكنهم لا يخلون قط من الأمراض والأعراض التى تسببها لهم الأغذية ، فهم فى حاجة ماسة الى الصيام وتدبير الغذاء .

وقد شرع الاسلام هذا الصيام لهذا الغرض ، فهو رياضة جسدية ، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية ، التى رانت على أعضائه الباطنة ، فسببت لها أعراضا ثقيلة يشعر بها ولا يعرف لها علة ، وتقوم حجابا بين روحه وما أُعدت له من الإشراقات العلوية ، وهذا أكبر حرمان تمنى به الحياة الانسانية ، التى خلقت لتحقق موعود الله من الترقيات الصورية والمعنوية .

الصيام فى الاسلام وإن لم يـكن إمساكا مطلقا عن الطعام أياما متوالية ، كما ينصح به العلم فى الأحوال الثقيلة ، فإنه يهيئ للبنية فترة طويلة من خلاء المعدة ، تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الضارة للأغذية ، وبتوالى هذا الامساك ثلاثين يوما متوالية ، يتخلص الجثمان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة .

هذا بشرط أن لا يُعـَقب هذا الامساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفتنّ فى تنويع ألوانها ، ما يشاؤه له النهم الذى اعتاده فى حياته العادية ، فيصبح الصيام عليه شرا وبيلا ، ولا يجنى منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية .

نعم إن الناس اعتادوا متى جاعوا أن يتشهوا ضروب الأطعمة ، من العجينيات والحلوى والبقول والمتبلات والمخللات ، وأن يندفعوا فى التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحسب لتبعات الأغذية حسابا ، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من الثقل ، وتراخى الأعضاء ، وخمود العـقل ما يدرك المفرطين ، وكان يجب أن يدركهم نقيض هـذه الأحوال ، من نشاط الجسم والعقل ، وانبساط النفس . وبالإدمان على هـذه الحالة ثلاثين يوما متوالية يخرج الصائمون وهم فى حاجة الى اللجوء الى المستشفيات ، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل .

ونحن لأجل أن نبين للقارئ ما يجره النهم ، والجهل بدستور التغذى على الصحة ، وما يجلبه من الويلات على الحياة ، نبين فى اختصار ما لا يسع إنسانا جهله من فلسفة التغذى فنقول :

المواد المائعة والجامدة التى يتناولها الانسان فى غذائه ، لا تخرج فى تركيبها عن كونها إما

---

(١) الخبال لغة : الفساد يكون فى الافعال والابدان والعقول . وهو أيضا : النقصان والهلاك والسم القاتل .

مركبة من ثلاثة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون) ، وإما من أربعة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون والأزوت) .

الطائفة الأولى من هذه الأغذية : تدعى المواد الاحتراقية ، ومهمتها أن تحترق فى خلايا الجسم فتؤتيه بالحرارة الغريزية وبالقوة الضرورية ، وهى كالمواد الدهنية والسكرية والنشا ومح البيض .

والطائفة الثانية من الأغذية : تدعى المواد الأزوتية أو الزلالية أو البروتينية ، وفائدتها إيتاء الجسم بخلايا جديدة بدل الخلايا التى تدثر منه بالجهود اليومية ، وهى مثل زلال البيض والجبن واللبن والفول والعدس وما اليها .

إذا علم الانسان ذلك ، وجب عليه أن يعلم بجانبه أن البنية الانسانية تحتاج الى مقدار (معين) من كل منها لا الى أكثر منه ، وأن كل زيادة عن الحد المقرر يلقى بها الانسان الى معدته تستحيل الى مادة سمية تتسرب الى الدم فتسمم الأعضاء وتفسدها .

هنا يصطدم علم التغذى وعقيدة العامة اصطداما مروعا ، يصرع فيه عدد لا يحصى من الناس كل يوم . ذلك أنهم يزعمون أن التغذى ما دام يؤتى الجسم بالمواد الضرورية له ، ويولد له القوة ، فالاكثار منه يزيد فى تلك القوة ؛ على حين أن العلم يقرر أن كل زيادة عن الحاجة فى التغذى تضعف الجسم وتوقعه فى شر عظيم .

ولكن للعلم هنا فى موضوع هذه الزيادة تفصيل : ذلك أنها لو كانت من المواد الثلاثية العناصر، لم تحدث تسمما ولكنها تحدث تشحما ، فيتضخم الجثمان ، وتكتسى أعضاؤه الباطنة بطبقات كثيفة من الدهن فلا تكاد تؤدى وظائفها إلا ببذل جهد كبير . وهذا الجهد يشعر به صاحبها فيتعب من أقل حركة ، ويعتريه البُهْر ، وخفقان القلب ، وضيق النفس ، ولا يعود الى راحة نسبية إلا بعد مرور وقت يمضيه فى الهدوء .

وأشد ما يصيب هذه الأعضاء يقع على القلب ، وهو أشرف عضو فى الانسان ، دائم الحركة لو وقف بطلت بوقوفه الحياة ؛ فتخيلْ عضوا هذه مكانته ، يضطر للحركة فى أغلفة متراكبة من الشحم أحاطت به من جميع الجهات ، فتراه يجاهد مجاهدة المستبسل ليؤدى وظيفته بكل مشقة ، وصاحبه غافل عن هذا الأمر الجلل ينظر الى بدانته فيفرح بها ، ويسجل بالفخر كل رطل يزيد على وزنه ، ويتجاهل أنه تحت إصر هذه البدانة أصبح عاجزا : لا يستطيع أن يقاوم عاديا ، ولا أن يرفع ثقلا ، ولا أن يصعد سلما عاليا ، ولا أن يسرع الخطى فى مهم ؛ فمثل هذه الحالة يجب أن تعتبر عجزا ، وهى فى الرجال أقبح منها فى النساء ، فمن بلى بها فليبادر بالتخلص منها بالصيام الصحيح ، والاقلال من المواد الثلاثية العناصر .

أما الزيادة من المواد الرباعية العناصر ، فهو يؤدى الى التسمم لا محالة ، لأن الزائد من هذه المواد يستحيل الى بولينا ، وهذه البولينا إذا أضيفت إليها ذرة واحدة من الأوكسيجين

استحالت الى حمض بوليك ، وهو سم قاتل لا يجوز أن يبقى فى الدم بحال . وهو يخرج بالمعالجة الحكيمة ، بشرط أن يقطع عن البنية المدد الوارد اليها من الخارج ، وذلك يكون بالاقتصار على ما هو ضرورى لها من تلك المواد .

وقد بحث العلماء فى المقدار الواجب تعاطيه منها ، فقدر أولا بنحو ١٥٠ غراما كل يوم ، ثم تبين أن هذا القدر كبير ، فأسقط الى ١٠٠ غرام ، ثم الى ٨٠ ، ثم رئى أخيرا أنه يكفى أن تكون ٢٥ غراما . وممن عنى بهذا التقدير من كبار العلماء الدكتور هند هيد الدانمركى ، وقد سلك فيه طريق التجربة ، فكان يختار رجالا من الذين يعملون بأجسادهم أعمالا عنيفة ، ويكيل لهم الأطعمة ويزنها بحيث لا يجاوز مقدار ما يستخرج منها من المواد الرباعية العناصر ٢٠ أو ٢٥ غراما ، فرأى أن هذا القدر قد كفاهم ، واستدل على ذلك ، بعد تجربة عام كامل ، بجودة صحتهم ، وقدرتهم على الاستمرار على العمل بدون كلل ، وانتهى من تجاربه بالنتائج الآتية :

(أولا) أن المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية النباتية أفضل من المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية الحيوانية .

(ثانيا) أن الأغذية التى تقل فيها المادة الزلالية تزيد فى قدرة الجسم على احتمال المشاق .

(ثالثا) أن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والأمعاء يبلغ بين سكان المدن نحو أربعة أضعاف ما يبلغه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والمواد الدهنية .

وقال : إن العرب الذين يكتفون فى طعامهم بالخبز والتمر فيهم من صلابة العود ، وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوربيين . وإن جراية جنود السخ من الهنود ، وهم من أشد جنود الدنيا ، لا يجاوز فى اليوم كأسين من اللبن و ٢٥ أوقية من الخبز (أى نحو نصف أقة) ، وأوقيتين من الزبد (وهما يساويان نحو ٢٥ درهما) ، وأربع أواق من الفاصولياء (أى نحو ٥٠ درهما) وخمس أواق ونصف من البطاطس (أى نحو ٦٢ درهما) ، وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثا فى الشهر .

وقد امتحن علماء آخرون النتائج التى وصل اليها العالم الدانمركى ، نخص بالذكر منهم الأستاذ تشتندن الانجليزى ، وأجرى هذه التجارب على نفسه وعلى غيره فاقتنع بصحة ما ذهب اليه الدكتور هند هيد .

هذا رأى العلم فى مقادير الأغذية الضرورية للانسان العادى .

وقد ذكرنا البدانة وضررها ، وعزوناها الى الاكثار من تعاطى المواد الثلاثية العناصر ،

ونستدرك هنا على ذلك بقولنا : إن من الناس من يفرط فى الأكل الى حد التخم ، وهو نحيل الجسم . وقال الدكتور جاستون دورفيل فى كتابه صناعة إطالة الحياة :

« إن جميع المفرطين فى الأكل ليسوا ممتلئين شحما ، فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ولكن القسمان يستويان فى الهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه اليه سم الأغذية من سوء المصير .

ثم قال :

« من الناس من يفرط فى الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ، ومحياه مشرقا ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكى أقل وجع ، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو فى عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش ، فإن هذا الأكول لم يكن فى جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط ، فتمادى فى شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة »

وبعد :

فنحن اليوم نؤدى فريضة الصيام ، وقد جعله الله وسيلة لتزكية أجسامنا وعقولنا وقلوبنا من طريق الامساك عن الأطعمة التى تهلكنا على النحو الذى بينته فى هذه المجالة . فان احتال محتال على الابقاء على العادة السيئة التى تسربت الى المسلمين ، فقلبت شهر الرياضة والنزاهة الى شهر نهم وقصف (١) ، فزعم أننا أمرنا بالامساك عن الطعام ساعات معينة ولم نؤمر بما يعدو ذلك من الاقلال منه . . . . قلنا له : إن الاعتدال فى الطعام ، وتحرى القدر الضرورى منه لحفظ الحياة ، وعدم تعدى ذلك الحد الى الاسراف ، أمر مأمور به فى الاسلام فى الشهور العادية ، فوجوبه فى شهرالعبادة ألزم . ألم يقل الله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ؟

أولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم : « حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه » ؟ أولم يقل أيضا : « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » ؟ أفكان الله ورسوله يأمراننا بالاعتدال فى الطعام فى الأيام العادية ، ويبيحان لنا الاسراف فيه فى شهر النسك والعبادة ؟

فلننتهز هذه الفرصة السانحة لنا فى هذا الشهر الكريم ونقفو أثر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأثر أصحابه ، لنصل الى بعض ما وصلوا اليه من كرامة الحياة ، وعزة الوجود ، وشرف البقاء ، والله ولى المحسنين ؟

محمد فريد وجدى

---

(١) القصف : اللهو واللعب والتوسع فى الطعام والشراب .

العدة

هل التشريع الاسلامى مأخوذ من التشريع الرومانى ؟

مما لا ريب فيه أن الزواج ضرورة من ضرورات الحياة كضرورة القوت والماء لبقاء النوع الانسانى ، فقد قضت حكمته جل وعلا ، أن يقسم النوع الانسانى الى جنسين : الذكر والأنثى ، وكذلك أن يقسم النوع الحيوانى بله النباتات . ولكن مهما طال أمد هذا الاقتران فإن هذه الروابط تضمحل وتتلاشى فى بعض الأحيان بصورة طبيعية « كالموت » ، أوقد تتطور الحياة وتتنافر الأمزجة والعادات فتقع الفرقة « كالطلاق » .

إذن منذ أن بدأت الخليقة فالزواج والطلاق يتكرران على كر الأيام . ولقد أدرك الانسان الأول ، والأقوام الابتدائية ، أن تفكك عرا الزواج فى لحظة واحدة ، واسترداد كل من الزوجين حرية كاملة غير منقوصة ، مخالف كل المخالفة لعواطف الانسان وطبيعته وجبلته ، وبذلك يمكننا أن نحكم بأن العدة كانت منذ بدء الخليقة معروفة عند الجميع .

ويمكن تعريف العدة لغة : « الاحصاء » ، وشرعا : « تربص يلزم المرأة عند زوال النكاح أو شبهه » . وهى تسمى عند الرومانيين "Le temps lugendi" Le temps de pleurer أى « مدة البكاء » ، وعند الافرنسيين "delai de viduité" « أى مدة الاستبراء » .

وبعد هذه المقدمة القصيرة سأحصر بحثى فى تطور العدة خلال القرون الغابرة ، ولذا سأطرق الأمور الآتية : (١) العدة فى التشريع الرومانى. (٢) العدة فى القرون الوسطى. (٣) العدة بعد الثورة الافرنسية وقبل سنة ١٩٢٢ (٤) العدة فى فرانسا بعد سنة ١٩٢٢ (٥) العدة فى التشريع الاسلامى . (٦) الخاتمة .

(١) العدة فى التشريع الرومانى :

إن التشريع الذى سنه « أوغست » كان يحبذ كثيرا زواج المرأة بعد تلاشى زواجها الأول ، ولا يوجد فى ذلك الحين إلا مانع واحد يحول دون زواج المرأة التى مات عنها زوجها : وهو أن تنتظر مدة عشرة أشهر بعد موت زوجها ، وكانوا يطلقون على هذه المدة كما قلت : مدة البكاء " Le temps de pleurer " وكانت هذه المدة لا تشمل بطبيعة الحال المرأة المطلقة ، فالمرأة بعد طلاقها عند الرومانيين يمكنها أن تتزوج عقب طلاقها مباشرة .

(٢) العدة فى القرون الوسطى :

أما فى القرون الوسطى فقد كان السائد فى أوربا فى هذه المدة القانون الكنسى ، وهو

يسمح بعقد عقود متتابعة دون تحديد ، ولكن الكنيسة كانت لا تنظر الى ذلك بعين الرضا لأنه يشف على عدم العفاف ، لكن المذهب المسمى كاثارس "Cathares" (١) الذى انتشر فى فرنسا فى القرن الحادى عشر — وأشياعه معتبرون كملحدين — ذهب الى أن كلا من المرأة والرجل الذى يتزوج بعد موت أحد الزوجين يرتكب جريمة الزنا أو جريمة « جمع المرأة بين زوجين أو الرجل بين زوجتين » .

ولقد حملهم على القول بهذا الرأى ما كانوا يعتقدونه من خلود النفس وعدم انتهاء الروابط الزوجية بعد الموت . فالتشريع الكنسى منذ نهاية الحكم فى الأمبراطورية الرومانية Bas Empire رفع مدة العدة الى اثنى عشر شهرا ، مع أنه من المقرر فى ذلك الزمن أن أقصى مدة الحمل كانت عشرة أشهر ، وأصبحت العدة منذ ذلك الوقت تشمل المرأة المطلقة وتشمل المرأة التى مات عنها زوجها . ويمكن تعليل ذلك بأنهم كانوا لا يودون تشجيع المرأة على الزواج عقب انتهاء زواجها الأول ، حتى إن جستنيان سن فى سنة ٥٣٦ م قانونا قرر به صحة الشرط الذى يوصى به رجل فى وصيته الى امرأة مطلقة مات عنها زوجها على شريطة أن لا تتزوج قط ، مع أن هذا الشرط قبل هذا التاريخ كان يعد باطلا ولا يعمل به .

(٣) العدة بعد الثورة الافرنسية وقبل سنة ١٩٢٢ :

إن المادة (٢٢٨) من القانون المدنى الافرنسى Code Civil تمنع المرأة عن عقد زواج جديد قبل مضى عشرة أشهر على موت الزوج الأول .

والمادة (٢٩٦) تقرر المنع نفسه ، والمدة على المرأة المطلقة . ويمكن أن يلحق بذلك بطريق القياس — لاتحاد العلة — حالة فسخ النكاح ، والنكاح المسمى عندهم « بالنكاح الموهوم » Mariage putatif .

أما الداعى لهذا المنع فهو ليس من نوع الحزن الجبرى Deuil obligatoire وإلا كان يجب أن يحال بين الرجل وبين زواجه قبل مضى عشرة أشهر عن موت زوجته أو طلاقها ، ولوجب أن تشمل العدة والحالة هذه الجنسين . ولكن الداعى لذلك هو تجنب اختلاط الأنساب "La Confusion de part" . فاذا تم الزواج دون أن تراعى المرأة مدة العدة فان الحاكم الافرنسى لا يحكم ببطلان العقد ، لأن الضرر الناجم عن ذلك كما قال مسيو « بلانيول » قد وقع ولا يمكن تلافيه أو إصلاحه ، فلا فائدة من بطلان العقد .

وإنما اختير مدة عشرة أشهر لأنه من المقرر فى القانون الافرنسى أن أقصى مدة الحمل هى عشرة أشهر ، ففى بحر هذه المدة يعلم بصورة يقينية هل المرأة حامل أولا .

[illegible] المدنى تاليف العلامة الافرنسى الشهير « بلانيول » الجزء الاول ص (٣٦٥)

أما مبدأ العشرة الأشهر فهي فى الطلاق بعـد تسجيل حكم الطلاق . فاذاً يجب على المرأة الافرنسية أن تتربص طوال مدة المحاكمة ، لأن الطلاق عنـدهم لا يكون إلا بواسطة حـكم المحـكمة ، وهو يتطلب مدة طويلة : عدة سنين على الأقل ، ثم بعد صدور الحـكم يجب أن تنتظر تسجيل الحـكم ، وبعد تسجيله عليها أن تنتظر عشرة أشهر .

(٤) العدة فى فرنسا بعد سنة ١٩٢٢ :

إن الحـكومة الافرنسية أدركت أن هذه المدة مجحفة ولا تتفق مع الحـكمة التى شرعت العدة لأجلها وهى عدم اختلاط الأنساب . ولما رأت أيضاً أن هذه المدة لا تتمشى مع سياستها التى ترمى الى تشجيع النكاح وإكثار النسل ، الذى تحتال على إكثاره جميع الدول بشتى الوسائل والقوانين ، لأنها تخيلت أن الحـق للقوة ، وأن القوة هى للـكثرة ، ولهذا كله رأت عليها لزاما أن تخفض هـذه المدة : فجعلت مدة العشرة الأشهر فى حالة الطـلاق تبتدئ من يوم حـكم الحاكم للزوجة – أى قبل الطلاق – بمغادرة منزل زوجها . وبذلك تنتهى عدتها يوم نطق المحـكمة للطلاق ، لأن المحاكمة تستغرق كما قلت وقتا طويلا ، وكذلك القانون الصادر فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٢ جعل عدة المرأة الحامل التى مات عنها زوجها تنتهى « كما فى الشريعة الاسلامية » بوضع الحمل .

وكذلك أعطى هذا القانون حقا لرئيس المحـكمة فى تقصير هذه المدة إذا ثبت له أن الزوج لم يقطن مع المرأة منذ (٣٠٠) يوم .

(٥) العدة فى الشريعة الاسلامية :

إن الحـكمة الموجبة للعـدة فى الشريعة الاسلامية هى كما فى القانون المدنى الافرنسى : عـدم اختلاط الأنساب ، ومعرفة استبراء الرحم . ولـكن ليس المعتبر عندنا فى تقدير مدتها مدة الحمـل – كما فى التشاريع السابقة – بل المعتبر عندنا فيها هـو الحيض لاستحالة اجتماع حمل وحيض . ولذلك يمـكننا أن نحـكم أن الشريعة الاسلامية لا تمنع زواج المرأة بعد انتهاء زواجها الأول ، على عكس أكثر الشرائع السابقة . والدليـل على ذلك تحديدها مدة قصيرة ومعقولة جداً ، ومتفقة كل الاتفاق مع الحـكمة الموضوعة لها .

(ا) فعدة الحرة المدخول بها التى تحيض ، للطلاق أو الفسخ أو الرفع : ثلاثة قروء أو حيض لقوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

(ب) وعدة التى لا تحيض لـكبر أو صغر أو بلغت بالسن ولم تحض : هى ثلاثة أشهر ، لقوله تعالى فى محكم كتابه : « واللائى يئسن من المحيض من نسائـكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن » .

(ج) وعدة الحرة للموت فى نكاح صحيح : أربعة أشهر وعشرة أيام ، لقوله تعالى : « يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » . وفى هذا دلالة على أن الأصل فى العدة الحيض ، وأن الشهور بدل عنها ، حيث جعل الأشهر عدة بشرط عدم الحيض ، على حد قوله : « فلم تجدوا ماء فتيمموا » . أما عدة الأمة فحيضتان ، وفى الموت وعدم الحيض فنصف ما للحرة (لأن الرق منصِّف) .

(د) وعدة الحامل وضع الحمل مطلقا ، حتى وإن كان الموضوع سقطا استبان بعض خلقه ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ، ولقول عمر رضى الله عنه : « لو وضعت وزوجها على سريره لانقضت عدتها وحل لها أن تتزوج » .

(هـ) وعدة من طلقت فى مرض موت رجعيا : كعدة الزوجة ، وأما إن كان طلاقها بائنا فانها تعتد بأبعد الأجلين . أما فى حالة الطلاق قبل الدخول فلا عدة أصلا ، لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » .

(و) وعدة الذمية أو الكتابية إذا طلقها أو مات عنها ذمى إذا اعتقدوا عدم وجوب الاعتداد وأراد أن يتزوجها مسلم فعدتها حيضة واحدة تستبرئ بها .

(٦) الخاتمة : لقد رأينا كيف تطورت مدة العدة ، وكيف تغيرت الحكمة الموجبة لها منذ آلاف السنين . ويمكننى أن أستنتج من هذا البحث وهذا التحليل أن التشريع الرومانى والتشريع الافرنسى هما من صنع الانسان ووضعه ، فالحاكم أو القاضى أو المجالس النيابية ومجالس الشيوخ يسنون القوانين التى تتطلبها الحالة الاجتماعية حسب مبادئ وعادات قد تتطور مع تطور الأجيال . أما التشريع الاسلامى فهو من صنيع الخالق عز وجل ، نزل مرة واحدة على محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان مثلا أعلى للتشريع Droit naturel لا تعتوره الأيدى ، ويصلح لكل زمان ومكان . وفى هذا البحث دليل قاطع ورد مفحم وحجة دامغة على من يدعى أن التشريع الاسلامى منقول ومأخوذ عن الرومانيين ، لأنه اتضح لك جليا من هذا المثال كالشمس فى رائعة النهار أن القانون الافرنسى بعد تعديله وتشذيبه وتنقيحه فى خلال هذه العصور ، لم يصل بعد الى مستوى شريعتنا ، كمسألة عدة الحامل والطلاق قبل الدخول وغيرها ، إلا منذ سبع عشرة سنة .

فهل من الصواب والرشاد أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن التشريع الرومانى ، مع أن الحكمة التى حملت على العدة عندهم هى حزن المرأة على الرجل فى حالة الموت ، مع أنها عندنا هى تجنب اختلاط الأنساب واستبراء الرحم ؟

أم هل من الصواب والرشاد أن يدس ذلك على شريعتنا ، والعـدة واجبة عنـدنا فى حالة الطلاق وحالة الموت ، مع أنها عندهم لا تجب إلا فى حالة الموت فقط ؟ !

أو هل يصح أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن التشريع الرومانى مع أن مدتها عندهم كانت عشرة أشهر ثم حولت فى نهاية الأمبراطورية الرومانية الى اثنى عشر شهرا ، مع أن مدتها عندنا تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة أشهر وعشرة أيام ؟

هل يقبل المنطق والعقل السليم أن يقال : إن العدة عندنا منقولة عن الرومانيين مع أنهم كانوا يقدرونها بأقصى مدة الحمل ـ وهذا يوافق التشريع الافرنسى الى يومنا هذا ـ مع أن شريعتنا نهجت منهجا آخر وهو طريق الحيض فى التعرف عن استبراء الرحم ؟

أم هل يجوز أن يقال ذلك مع أنهم يوجبون العدة بالموت أو بالطلاق بعد العقد مباشرة مع أننا لا نوجبها إلا بعد الدخول ؟

وقصارى القول يمكننى أن أقول : إن التشريع الرومانى والتشريع الافرنسى بعد مضى آلاف السنين وتحويلهما وتطورهما وتحويرهما فى خلال هذه العصور ، وبذل مجهود آلاف المشرعين وجهابذتهم وأساطينهم فى كل عصر من عصور التاريخ ، لم يصلا بعد قط الى المثل الأعلى الى شريعتنا التى نزلت على سيدنا محمد صـلى الله عليه وسلم فى مشكلة العدة . فـكيف يجوز أن يقال : إنه نقلها عنهم ؟

وما مسألة العدة إلا واحدة من ألف سنطرق منها ما يوفقنا الله اليه ، والله ولى التوفيق .

فخر الدين الصاحب
كلية الشريعة

كلمات فى ماهية البلاغة

قال على بن عيسى الرمانى : أبلغ الـكلام ما حسن إيجازه ، وكثر إعجازه ، وتساوت صدوره وأعجازه .

وقال غيره : البلاغة إيصال المعنى الى القلب ، فى أحسن صورة من اللفظ .

وقيل لبعض البلغاء : من البليغ ؟ فقـال : الذى إذا قال أسرع ، وإذا أسرع أبدع ، وإذا أبدع حرك كل نفس بما أودع .

هذا تقرير أئمة البلاغة ، فما بال قوم يتخيلونها فى الاكثار من الغريب ، وفى الاطالة المملة لغير سبب مقبول ؟

عمر بن عبد العزيز

— ٤ —

مناظرته غيلان الدمشقي وشوذب الخارجيين وإفحامه لهما :

كان عمر فصيح اللسان ، قوى البيان ، واسع الاطلاع ، يفحم خصمه بالدليل والبرهان ، يدفع حجته بأقوى منها ، كل ذلك كان سببا فى تغلبه على مناظريه .

فبعث ذات يوم غيلانُ الدمشقي بكتاب الى عمر يقول فيه : « أبصرت يا عمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الاسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فياميتا بين الأموات ، لا ترى أثرا فتتبع ، ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طغى على السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى الجاهل فيسأل ، وربما نجت الأمة بالامام ، وربما هلكت بالامام ، فانظر أى الامامين أنت فالله يقول : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » ، فهذا إمام هدى هو ومن اتبعه شريكان ، وأما الآخر فقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون » ، ولن تجد داعيا يقول : تعالوا الى النار ، إذ لا يتبعه أحد ، وإنما الدعاة الى النار هم الذين يدعون الى معاصى الله . وكفى ببيانى هذا بيانا ، وبالعمى عنه عمى » .

فناقشه عمر حتى كشف عن شبهته وأزال غمته ، وقطع حجته ، فاعترف بالحق قائلا : يا أمير المؤمنين : لقد كنت ضالا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى ، والله لا أتكلم شيئا فى هذا الأمر ! ولكنه عاد بعد موت عمر وأمعن فى دعايته الأولى ، وبالغ فيها حتى ولى هشام فقتله .

ودخل عليه شوذب الخارجى هو وآخر فقال لهما عمر : أخبرانى ما الذى أخرجكم عن حكمى هذا وما نقمتم ؟

فتكلم الأسود منهما فقال : « إنا والله ما نقمنا عليك فى سيرتك وتحريك العدل والاحسان الى من وليت ، ولكن بيننا وبينك أمر إن أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك » . فقال عمر : وما هو ؟ قال : « رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتها مظالم ، وسلكت غير طريقهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وابرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق » .

فقال له عمر : إنى قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها ، وإنى أسائلكم عن أمر فبالله أصدقانى فيه

مبلغ علمكما . قالا : نعم . قال : أخبرانى عن أبى بكر وعمر : أليس من أسلافكما ، ومن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك دماءهم ، وأخذ الأموال وسبى الذرارى ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبى بكر فرد تلك السبايا الى عشائرها ؟ قالا : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبى بكر أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا . ثم استطرد عمر يذكر لهم الواقعة تلو الواقعة الى أن قال لهما : لقد قال فرعون : أنا ربكم الأعلى ، وتكبر وطغى فى الأرض ، فهل لعنتموه أنتما ومن اتبعكما ؟ فقالا : لا . فقال لهما : كيف تستحلون لعن أهل بيتى ، ولم تستحلوا لعن من ادعى الألوهية وعاث فى الأرض فسادا ؟ عندئذ قال له الأسود : ما سمعت كاليوم أحدا أبين حجة ، ولا أقرب مأخذا منك ، أما أنا فأشهد بأنك على الحق ، وإنى برىء ممن برئ منك . ثم قال عمر لصاحبه : يا أخا بنى شيبان ماتقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما قلت ووصفت ، غير أنى لا أفتات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت وأنظر حجتهم . قال عمر : أنت وذاك . فأقام الحبشى مع عمر وأمر له بالعطاء ، فلم يلبث أن مات ، ولحق الشيبانى بأصحابه حتى قتل معهم بعد وفاة عمر .

ما قيل له من المواعظ :

لم يكن عمر بالمتكبر القاسى ، ولا بالشديد الجبار ، بل كان لين الجانب فى كل أموره ، يعامل الناس برفق وهوادة ، إلا ما كان منها متعلقا بحق لله أو لآدمى ، فكان يقتص ويثأر فى حدود كتاب الله ، وسنة رسوله ، متوخيا العدل فى أحكامه ، معتقدا أن الخلافة ابتلاء من الله لا مناص منه ، إلا بالسير فى الناس على نهج الشريعة الغراء ، وبسيرة الخلفاء الراشدين ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فبعث بكتاب الى أهل العلم والزهد والورع ، يسألهم موافاته بالموعظة الحسنة ، وبكتب عمر وقضائه فى أهل القبلة وأهل العهد ، فكتب اليه الحسن البصرى :

« أما بعد : فاعلم يا أمير المؤمنين أن الدنيا دار ظعن ، وليست بدار إقامة ، ولها فى كل حين صرعة ، وليست صرعة كصرعة ، هى تهين من أكرمها ، وتذل من أعزها ، وتصرع من آثرها ، ولها فى كل حين قتلى ، فهى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه ، فالزاد فيها تركها ، والغنى فيها فقرها ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه ، يصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ، فان أهل الفضائل كان منطقهم فيها بالصواب ، ومشيهم بالتواضع ، ومطعمهم الطيب من الرزق ، مغمضى أبصارهم عن المحارم ، فخوفهم فى البر ، كخوفهم فى البحر ، ودعاؤهم فى السراء ، كدعائهم فى الضراء ؛ فاحذر هذه الدنيا الصارعة ، الخاذلة القاتلة ، التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وخدعت بآمالها ، فالعيون اليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقى

بالماضى معتبر ، ولا الآخر لما رأى من أثرها على الأول مزدجر ، ولا العارف بالله المصدق له حين أخبره عنها مدكر ، قد أبت القلوب لها إلا حبا ، وأبت النفوس لها إلا عشقا ، ومن عشق شيئا لم يلهم غيره ولم يفعل سواه ، مات فى طلبه ، وكان آثر الأشياء عنده .

« احذرها يا أمير المؤمنين فان أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأنت منها على خطر ، فلو كان الخالق تبارك وتعالى ، لم يخبر عنها بخبر ، ولم يضرب لها مثلا ، ولم يأمر فيها بزهد ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء عن الله منها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عنده قدر ولا وزن من الصغر ، فلهى عنده أصغر من حصاة فى الحصى ، ومن نواة فى النوى ، ولو كانت عنده تزن جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ، ولو كان لك عمر نوح وملك سليمان ، ويقين ابراهيم ، وحكمة لقمان ، فان أمامك هول الموت ، ومن ورائه داران ، إن أخطأتك هذه صرت الى الأخرى » . فبكى عمر بكاء شديدا .

وكتب اليه طاوس :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين ، وبعد : فان الله عز وجل أنزل كتابا وأحل فيه حلالا وحرم فيه حراما ، وضرب فيه أمثالا ، وجعل بعضه محكما ، وبعضه متشابها ، فأحل حلال الله ، وحرم حرام الله ، وتفكر فى أمثال الله ، واعمل بمحكمه ، وآمن بمتشابهه » . فأعجب عمر بهذا الكتاب .

وكتب له سالم بن عبد الله :

« سلام عليك يا أمير المؤمنين . أما بعد : فإن الله خلق الدنيا لما أراد ، وجعل لها مدة قصيرة ، كأن بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضى عليها وعلى أهلها بالفناء . يا عمر : قد وليت أمرا عظيما ، فإن استطعت ألا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل ، وإن استطعت أن تجىء يوم القيامة لا يتبعنك أحد بمظلمة ، ويجىء من قبلك وهم غابطون لك فافعل ، وشدد العقوبة على عمالك ، وازجرهم زجرا عن أخذ الأموال ، وسفك الدماء إلا بحقها ، المال المال ياعمر ! الدم الدم ياعمر ! واعلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمل فى غير زمانك ، وبغير رجالك ، وليت فى زمن تعلم بعد ماعمل ، وأنا أرجو إن عملت على النحو الذى عمل به عمر بعد ما بلوت من الظلم أن تكون أفضل منه عند الله ، وقل كما قال العبد الصالح : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

وكتب اليه محمد بن كعب : « يا أمير المؤمنين : ثلاث من كن فيه استكمل الايمان :

من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له » .

وكتب اليه أبو حازم : « يا عمر : اتق أن تلقى محمدا عليه السلام وأنت بتبليغ الرسالة له مصدق ، وهو عليك لسوء الخلافة فى أمته شهيد » .

وقال له القاسم بن مخيمر : « إن من ولى على الناس سلطانا فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم ، احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه » .

وقال له ابن الأهتم : « إن الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، آمنا لمعصيتهم أن تنقصه ، فالناس يومئذ فى الحالات والمنازعات مختلفون ، فالعرب منهم بشر تلك الحال (أهل الوبر والشعر والحجر) لايتلون كتاب الله ولا يصلون جماعة ، ميتهم فى النار ، وحيهم أعمى بشر حال ، ولما أراد الله أن ينشر فيهم حكمته ، بعث فيهم رسولا من أنفسهم « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » فبلغ رسالته ، ونصح لأمته ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين » .

ثم ذكر له ما كان من أمر الخلفاء الراشدين وما قاسوه أيام حكمهم وتحريهم العدل والرشد الى أن قال له : « وأنت يا عمر بنى الدنيا غذتك بأطايبها وألقمتك ثديها ، تطلبها من مظانها ، تمادى فيها وترضى لها ، حتى إذا ما أفضت إليك بأركانها من غير طلب منك لها رفضتها ، ورميت بها حيث رمى الله بها ، فامض رحمك الله ولا تلتفت ، فالحمد لله الذى فرج بك كربنا ، ونفس بك غمنا ، فإنه لا يذل مع الحق حقير ، ولا يكبر مع الباطل عزيز ، وأنت يا عمر من أولاد الملوك ، وأبناء الدنيا ، ولدوا فى النعيم وغذوا به ، لا يعرفون غيره » .

عندئذ بكى عمر حتى غشى عليه .

ثم وعظه خالد بن صفوان وزياد وسالم مولى محمد بن كعب ورجال آخرون بما لا يشذ عن مواعظ السابقين .

ما قاله عمر من المواعظ :

كان عمر يأمر الناس بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويذكرهم بأيام الله ، ويحذرهم عقابه ، ويرشدهم الى ما فيه صلاح حالهم فى الدين والدنيا والآخرة ، فقال لهم :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا منافس ، وبها قرير العين إذ دعاه الله بقدره ، ورماه

بيوم حتفه ، فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، إنها تسر قليلا وتحزن طويلا » .

وقال فى موضع آخر : « أيها الناس ! من أحسن منكم فليحمد الله ، ومن أساء منكم فليستغفر الله ، فإنه لابد لأقوام أن يعملوا أعمالا وضعها الله فى رقابهم ، وكتبها عليهم » .

وقال : « أيها الناس ! من ألم بذنب فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هى خطايا مطوقة فى أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها ، وإن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم » .

وقال لأبى الجودى : « يا أبا الجودى : اغتنم الدمعة تسيلها على خدك لله ، لقد نغص الموت على أهل الدنيا ما هم فيه من نضارة وبهجة ، فبيناهم كذلك وعلى ذلك إذ أتاهم حاد من الموت فاخترمهم مما هم فيه ، فالويل والحسرة هنالك لمن لم يحذر الموت ويذكره فى الرخاء ، فيقدم لنفسه خيرا يجده بعد ما يفارق الدنيا وأهلها » .

وقال : « أيها الناس : إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به إنكم لحمقى (١) ، وإن كنتم تكذبون به إنكم لهلكى ، إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار الى دار تنقلون ، إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه » . ثم غلبه البكاء فسكت .

وقال : « من وعظ أخاه بنصيحة له فى دينه ، ونظر له فى صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى حقه ، فاتقوا الله فانها نصيحة لكم فى دينكم فاقبلوها ، وعظة منجية لكم من العواقب فالزموها ، فالرزق مقسوم ، فلن يعدو المرء ما قسم له ، فأجملوا فى الطلب فان فى القنوع سعة وبلغة وكفا عن كلفة ، لا يحل الموت فى أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى كأن لم يكن ، وكل ما هو آت قريب ، أو ما رأيتم حالات لميت وجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ، ولم يعمر الديار ، واتقوا يوما لا يخفى فيه مثقال ذرة فى الموازين » . وله غير هذا من المواعظ كثير .

ما كتبه الى عماله :

كتب الى بعضهم : « أما بعد : فكأن العباد قد عادوا الى الله ، ثم ينبئهم بما عملوا ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، فانه لا معقب لحكمه ، ولا منازع لأمره ، وإنى أوصيك بتقوى الله ، وأحثك على الشكر ، فيما اصطنع عندك من نعمه وآتاك من كرامته ، فإن نعمه يمدها شكره ، ويقطعها كفره ، وأكثر من ذكر الموت الذى لا تدرى

(١) معنى هذا الكلام : « إن كنتم تصدقون به مع تماديكم فيما أنتم عليه من التقصير إنكم لحمقى »

متى يغشاك فلا مناص ولا فوت ، وأكثر من ذكر يوم القيامة وشدته ، فإن ذلك يدعوك الى الزهادة فيما رغبت فيه ، والرغبة فيما زهدت فيه ، ثم كن مما أوتيت من الدنيا على وجل ، فان من لا يحذر ذلك ، ولا ينجو منه ، توشك الصرعة أن تدركه فى الغفلة ، وأكثر النظر فى عملك فى دنياك بالذى أمرت به ثم اقتصر عليه ، فان فيه لعمرى شغلا عن دنياك ، ولن تدرك العلم حتى تؤثره على الجهل ، ولا الحق حتى تذر الباطل ، نسأل الله لنا ولك حسن معونته ، وأن يدفع عنا وعنك بأحسن دفاعه برحمته » .

وكتب الى أمير الجزيرة .

« أما بعد : فإن ناسا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة الدنيا ، وإنما مصيرهم ومرجعهم الى الله بعد الموت ، وقد بلغنى أن ناسا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عِدْل ما يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءك كتابى هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة ، وليدَعوا ما سوى ذلك ، والسلام » .

ما كتبه بعض عماله اليه :

« يا أمير المؤمنين إنى بأرض قد كثرت فيها النعم حتى لقد أشفقت على من قبلى من أهلها ضعف الشكر » .

فكتب اليه عمر : إنى قد كنت أراك أعلم بالله ، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل فقد قال الله تعالى « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » ، وقال تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » . وأى نعمة أفضل من دخول الجنة ؟

محمد مصطفى شادى

الاشتراكية الغربية والتعاونية الاسلامية

التعاونية الاسلامية هى النظام الطبيعى لاقتصاد وسياسة الأمم

الاشتراكية الغربية :

يرجع تاريخ نهضة حرية الرأى وتطور الأفكار فى أوربا الى الثورة الفرنسية ، والانقلاب الصناعى ، فالأولى نشرت آراء الفلاسفة والكتاب فى المساواة والحرية والإخاء ، والثانى جمع شتات الفئات العاملة فى رباط واحد مما يجعلهم أقرب الى التضامن والاتحاد .

والانقلاب الصناعى نتيجة الاختراعات والحروب النابوليونية وما أدت اليه من نشر مبادئ الثورة الفرنسية ، وإيقاظ شعور الأمم ، وقيام الصناعة فى انجلترا بلا منافس لها ، واكتشاف الدنيا الجديدة ، واستعمار الأقطار الواسعة ، وفتح الأسواق لتصريف المنتجات ، وبالإجمال نهضة الصناعة فى كل أوربا ؛ وتجمع الثروة الناشئة عن ذلك فى أيدى نفر قليل هم أرباب العمل وأصحاب رءوس الأموال ، الذين بهرهم ذلك المال فتطلبوا من عمالهم كثرة الإنتاج بدوام العمل نظير أجر زهيد لزيادة الربح ؛ ومبدأ تقسيم العمل وأثره فى تكييف حالة العمال الذين أصبحوا كالآلة يؤدون نوعا واحدا من العمل ويكررونه ، مما يجعل الملل والسأم يتسرب الى نفوسهم ، فيصيب ذهنهم بالبلادة وقلة المعلومات ، وأصبحوا فى خطر التهديد بالطرد من المصنع ، والواحد منهم لا يحسن إلا جزءا واحدا من العمل ؛ وزيادة بطش رجال الأعمال وما خلفته العصور الوسطى فى الزراعة من أنواع الاستبداد والعبودية ، فالمالك يقيم بعيدا عن أرضه وله وكلاء يجمعون له المال من الفلاحين والمستأجرين ، سواء بيع المحصول أم كسد ، فهم مكلفون بدفع الأقساط والضرائب حتى ولو أدى ذلك الى بيع بهائمهم وأثاث منازلهم ؛ والسخرة من جانب الحكومة ، فالفلاحون والعمال مطالبون بالقيام بالمشروعات العامة التى تعود بالفائدة على الأغنياء وأصحاب رءوس الأموال ، يقومون بها بلا مقابل ، بل بالسياط تلهب ظهورهم .

كل هذه الظواهر جعلت الفئات العاملة تشعر بالضغط الواقع عليها ، وتتطلع فى خشية ووجل الى مستقبلهم المظلم ، ومستقبل أولادهم وأزواجهم المحفوف بالمخاطر ؛ ويطرد بهم البحث الى سوء نظام توزيع الثروة بين الفئات والطبقات المختلفة ، مما أوجد هذا التفاوت الكبير بين الطبقات الغنية الناعمة فى رغد العيش ، والمتمتعة بالسلطة والجاه والنفوذ والجبرية ، وطبقات العمال والفلاحين الفقيرة المستعبدة المستضعفة المستغلة . فرأى مفكروهم تغيير نظام ... أساسه ، ووضعوا أسس الاشتراكية على فكرة أن هناك أناسا

عن اللازم لهم لإشباع حاجاتهم ، وهؤلاء هم الأغنياء ، وأناسا وهم السواد الأعظم لا يجدون ما يكفون به حاجاتهم الضرورية ، وهم الفقراء ؛ وهؤلاء قد استقر فى عقولهم أن الثروة قد اغتصبها الأغنياء فيجب أن تسترد منهم ، إما بإبطال الملكية ، ويمنح أصحاب هذه الملكيات تعويضا بشرط أن يكون فى شكل سلع تنفد بالاستعمال ، ولا يبقى لدى هؤلاء الذين كانوا بالأمس أغنياء وسيلة للعيش غير العمل كباقى أفراد المجتمع ، إذ الاشتراكية لا تعترف بالدخل إلا إذا كان آتيا من أجر العمل ، وهؤلاء هم المتطرفون .

وإما بإبطالها بالتدريج ، مع السماح ببقاء الملكيات الصغيرة فى حوزة أصحابها ، وخصوصا الأراضى الزراعية ، إذ لا تجر تلك الملكيات الى عدم المساواة ، لأن دخلها صغير يكفى حاجة أصحابها المعيشية فقط ، وهؤلاء هم المعتدلون .

ويكون هذا التدريج بالكيفية الآتية :

١ — بفرض ضرائب تصاعدية على الدخل ورأس المال والميراث .

٢ — بتحديد قانون الميراث ومنع الوصية .

٣ — باستيلاء الدولة على كل أرض تصبح منبع ثروة كأراضى المناجم .

وتتفق المذاهب الاشتراكية على أنه يجب أن تنتقل ملكية وسائل الإنتاج من أصحابها الحاليين الى ملكية وإدارة الدولة ، فالأرض والمصانع والورش وسكك الحديد والآلات ووسائل النقل والمبادلة والتعليم والتدريب يجب أن تكون ملكية عامة .

ولكن ليس معنى هذا أن يختفى كل تملك ، لا ، فيمكن الانسان أن يملك أثاثه وكتبه وأدوات منزله ، ويدخر نقوده ، ويملك منزله ويورثه ، إلا أنه لا يسمح بملكية المساكن إذا أجرت ، لأن هذا يعنى عدم المساواة ، وإيجاد طبقة ممتازة ، ولذلك فانه لا يسمح بعقود الايجار ولا بدفع إيجار أو فائدة .

وتستمر المبادلة فى الدولة الاشتراكية ، إذ المبادلة وسيلة إنتاج ، ويكون هناك مخازن وحوانيت لعرض وبيع السلع ، إلا أن الوسطاء وأصحاب المحال يكونون رجال أعمال تحت إشراف ورقابة الدولة ، فهى التى تحدد لهم الأسعار ومقدار الربح الذى يحصلون عليه ، والباقى يعطونه للدولة .

ويضعون نظاما للأجور فى شكل تعويض للعمال الذين يقومون بصنع سلع لا يستهلكونها ، فيسلم لكل واحد منهم نصيب من السلع المستهلكة والخدمات ، إما فى شكل سلع أو فى شكل نقود .

ويكون توزيع الأجور بين طوائف العمال المختلفة تبعا للمبادئ الثلاثة الآتية :

١ — إما تبعا للحاجة : فذلك الذى يشتغل بعقله يحتاج الى أدوات معيشية أكثر من

ذلك الذى يشتغل بيده وجسمه . هـذا والدولة الاشتراكية لا تلتفت للفروق التى تنشأ بين الناس نتيجة الحاجة والتمتع المتسبب عن العادة والتعود ، فكون البعض أكثر حساسية ، والبعض أكثر خشونة ، يرجع الى أن الأول درج فى النعيم بينما ترب الآخر بين أحضان المسغبة .

٢ — وإما تبعا للتضحية : أى يكون الدفع بنسبة النصب الذى يلقاه العامل فى تأدية عمله ، وفى حالة ما تتساوى وطأة العمل وكرهه ، يوزع عليهم الأجر بنسبة وقت (ساعات وأيام) العمل .

٣ — وإما تبعا للكفاية : فكل عامل يعوض تبعا لما يضيفه على الدخل الاجتماعى ، فالذكى القوى يحصل على أكثر من الغبى الضعيف ، ولكن ذلك يكون مناقضا لمبدأ الحاجة حيث يحتاج الضعيف الى الأكثر والقوى الى الأقل .

هذا ويرى الاشتراكيون أن يكون التغيير السابق فى الأمور الاقتصادية فقط أو فى أية ناحية من نواحى المجتمع ، ناتجة من معاملات اقتصادية ، إلا أنهم يشترطون لتنفيذ برنامجهم أن تقوم حكومة منظمة ديمقراطية ، ويرتاح (رود برتس) الى نظام الحكومة الملكية ، وإن كان (كونت) الفيلسوف العظيم الذى وضع نظاما مثاليا للدولة الاشتراكية ، يرى أن يكون على رأس الدولة حاكم أوتوقراطى .

هذه هى مبادئ الاشتراكية الغربية ، وهى ، كما هو ظاهر ، لا تحتمل النقد فى كثير من مواطنها لأنها تبدو خيالية أكثر منها عملية ، قد أوحاها الحنق المتزايد ضد الطبقات الغنية .

فالقضاء على الملكية الخصوصية وجعلها ملكية عامة ، يحمل الدولة عبئا ثقيلا ، لأنه سيجعلها هى المنتج والصانع والزارع ، وهذا يعرقل كثيرا من نشاطها السياسى ويحشرها فى المعاملات الاقتصادية المعقدة ، ثم إن دافع المصلحة الذاتية ينعدم من بين الأفراد الذين سيصبحون عمالا وموظفين فى الدولة ينالون أجورهم ، ولا يهمهم اطراد الرقى والتقدم ، خصوصا أن من طبيعة العمل أنه متعب ومكروه ، يود الانسان أن لا يؤديه ما لم يكن وراءه رقيب أو دافع . ثم إن ذلك يقضى على المنافسة التى تعمل على تحسين الانتاج . ولندع الأستاذ توسيج مدرس الاقتصاد فى أمريكا يناقشهم حيث يقول :

« كيف يكون تملك المساكن وتوريثها ؟ وكيف تنتقل الملكيات بقيمة الى الدولة عندما يريد الأفراد السير فى طريق الاشتراكية ؟ وكيف تؤجر من الدولة كمالك عام ؟ وما هو المدى الذى يسمح به فى بيع وتأجير وشراء سلع المستهلكين كأثاث وسيارة ؟ ثم إنه لضمان تقدم الإنتاج لابد أن يسود النظام وإطاعة الأوامر والتنظيم ، وهذا يقتضى وجود قادة وزعماء ، فمن يختارهم ؟ وعلى أى أساس ؟ وكيف يتقاضون أجورهم ؟ ثم هل سيتوفر عدد من المخترعين [illegible]ئة العملية المحضة التى لا تعطى إلا أجر العمل ؟ »

ثم إن الواقع أن الدول الاشتراكية لم تتبع تلك المبادئ بتمامها ، إذ أنه فى ألمانيا لم تختف الطبقة المتوسطة ، ولا الملكيات الصغيرة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، ولذلك لم يسعهم إلا الاعتراف بها وتركها فى أيدى أصحابها . ثم إن عدد الأغنياء آخذ فى النمو كما أن عدد المؤسسات الكبيرة يزداد باستمرار ، فيتوقع أن يرجع هذا النظام بالدولة الى النظام الرأس مالى ، إذ الدولة تصبح هى صاحبة رءوس الأموال تتكدس فى خزائنها ، إذ أبطلوا أن يكون ذلك بواسطة الأفراد ، ولكن باحتجاز الدولة لجزء من ثروة المجتمع للمنشئات الجديدة ، ويصير بذلك جميع الأفراد عمالا لديها ، فينتهى بها الأمر الى إذلالهم وتقييد حرياتهم . وما هذه الدولة إلا مجموعة من الزعماء والقادة هيأتهم الظروف للوصول الى مراكز الحكم ، منهم من يعمل مخلصا للوطن ، ولكنهم يسكنون القصور ويقيمون الحفلات والزينات ، ويعيشون فى أبهة الملوك ، وهكذا تتكون منهم طبقة مترفة ممتازة ، عن بقية أفراد المجتمع الكادحة العاملة ، وتمر الأيام وترجع الى التفرقة وعدم المساواة بين الأفراد فى توزيع الثروة ، ثم يقوم فريق يدعو الى نظريات جديدة أو يبحث عن هدى يرسل فى الكون اطمئنانا وسلاما ، وهو لا شك واجده فى التعاونية الاسلامية كما سنبين ذلك هنا .

التعاونية الاسلامية :

التعاونية الاسلامية تحرم الدخل الناشئ من الربا ، ولا تبيح إيجاد طبقة غنية عاطلة تتجر بالمال فقط ، وقد فصلنا ذلك فى مقالنا المنشور فى العدد الماضى ، ولكنها تبيح الملكية والتوريث ، وفى مقابل ذلك فرضت الزكاة ، وهى ضرائب تجبى على أنواع مختلفة من الأغنياء . ثم إن المالك محاط بسياج من القيود والحدود ، فلا يطغى ولا يتجبر ، إذ هو مسئول عمن فى رعايته «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ، فهو مسئول عمن يشتغل فى ماله يفلح أرضه أو ينتج فى مصانعه يخشى أن يصيبهم عنت فيسأله الله ويؤاخذه القانون ، وهو مسئول عن تعليمهم وتوفية حاجاتهم وترقية مستواهم ، وتوفير وسائل الصحة لديهم . وقد أمر الأغنياء بالصدقة : « لينفق ذو سعة من سعته » . ثم إن هذه الملكية لم تدع مطلقا للتفرقة بين الأغنياء ، فكل المسلمين سواء أمام القانون .

وهذه المساواة لا تجعل للملكية آثارها الممقوتة ، فلا الغنى يبغى ويتجبر ، ولا الفقير يثور ويتبرم ، خصوصا أن التعاونية الاسلامية قد ولدت نظام الوقف الخيرى ، وهو عبارة عن نقل جزء من ملكية الأفراد تزيد عن حاجاتهم الى إدارة الدولة لتنفق من ريعه على الفقراء والمعوزين ، أو لاصلاح مرافق الدولة ليعود ذلك بالخير على الجميع .

والتعاونية الاسلامية لم تغفل فى الأمور الاقتصادية رعاية الطبقات الفقيرة العاملة ، ولذلك فهى تحرم على الأغنياء الاحتكار فى أى صورة كان سواء أكان فى شكل معادن أو منتجات

و محاصيل ، وتحرم إتلافها لترتفع أسعارها ، كما تفعل أمريكا فى القطن ، وكما تفعل البرازيل فى البن إذ تقذف بكميات هائلة منه فى قاع البحر . ويحرم الاسلام أيضا حجز المنتجات وتكديسها فى المصانع أو المحلات لمجرد الرغبة الجشعة فى رفع أثمانها ، أو المحافظة على مستواها لصالح أصحاب رءوس الأموال ، بينما تعانى الكثرة الساحقة من الأمة الحاجة والفاقة . ولا معنى كذلك لكنز سبائك الذهب فى أسواق الصياغة وفى خزائن الأغنياء ، بينما تشح الأموال لدى جمهور المستهلكين ، وتحتاج الحكومة الى المال فتقترض من الحكومات الأجنبية بفوائد باهظة .

ما ضر المنتجين لو باعوا كل ما أنتجوه بأسعار معتدلة ليقبل الناس جميعا على شرائها وإشباع حاجاتهم منها ؟ وإن من المذاهب الحديثة فى الاقتصاد من يقول بكثرة الربح عن طريق تخفيض الثمن وكثرة المبيعات ، وهذا ما تحض عليه التعاونية الاسلامية لتتلاشى المنازعات والخصومات القائمة بين الطبقات الفقيرة والغنية ، وهى التى جعلت المسيح عيسى بن مريم يغضب للفقراء ، ويقول كما ورد فى الإصحاح العاشر من إنجيل مرقص : « لأن يلج الجمل من سم الخياط لأيسر من أن يدخل غنى ملكوت السموات » ، والتى جعلت النبى الكريم يقول : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » . ألم تؤد هذه المنازعات الى ظهور الحركات الثورية فى أوربا والنظريات المتطرفة فيها ؟

والتعاونية الاسلامية تقوم على المبادئ الآتية :

١ — تفرض قيام حكومة رشيدة عادلة على أساس الشورى .

٢ — يقوم الحكم على أساس التعاون بين الجميع ، فكل واحد فى الدولة دولة فى نفسه .

٣ — تفرض الدولة العمل على كل فرد قادر سواء فى ذلك الغنى والفقير ، فهى تأبى التقاعد والتكاسل والتواكل .

٤ — الجميع متساوون فى الحقوق والمعاملات أمام القانون .

٥ — تحرم الربا والفائدة وتجمع الأموال العاطلة فى أيدى الأغنياء وتأمر باستثمارها فى نواحى الإنتاج المختلفة .

٦ — تحرم الاحتكار فى أشكاله كلها طلبا لرفاهية جميع الأفراد .

يتضح لنا مما تقدم أن الاشتراكية الغربية لم تكن موفقة ، لأنه يعوزها الطريقة العملية لتعيش وتزدهر ، بينما التعاونية الاسلامية عاشت وازدهرت ، وأقامت دولة فى سنين معدودة انتهت اليها زعامة الأرض ؟

ابراهيم زكى
خريج كلية التجارة العليا



جاء تحت هذا العنوان بجريدة البوبولير الفرنسية بقلم المسيو (بول تينو) ما يأتى :

« من بين جميع الحركات الاجتماعية الكبيرة التى حدثت أو تنبهت بعد الحرب ، ما يثير العالم الاسلامى منها الآن يستحق عناية خاصة . ولكن الذى يذكر الاسلام لا بد له من أن يذكر القرآن . فما هو القرآن الذى هو فى آن واحد دستور للحكم وكتاب للدين ؟

« عرّفه مستشرق عظيم بقوله : « هو وحى أنزل على العرب ، بلغة عربية ، بواسطة نبى عربى » . مؤدى هذا التعريف أن الذى يبدو للانسان لأول وهلة فى القرآن ، هو أنه قبل كل شىء كتاب ديانة عربية .

« لا مشاحة فى أن صدور إحدى الديانات العظيمة من صحراء جزيرة العرب يعتبر آية حقيقية . ولكن هذه الآية يمكن أن تعلل طبيعيا بالوضع الجغرافى لشبه الجزيرة العربية التى كانت إحدى الطرق الكبيرة للتجارة العالمية .

« ومن ناحية أخرى كانت حياة البدو الرحل فى تلك البيئة القاحلة حياة ساذجة من ناحية الأحوال المادية ، ولكنها كانت مهذبة إذا رجعنا الى ما نعرفه عنهم فى عالم الأدب .

« هذا التناقض يمكن تفسيره أيضا إذا اعتبرت قيمة تأثير التبادل التجارى فى نفسيات الجماعات . والمعروف أن البدويين كانت لهم علاقات ثابتة وودية بالبيزانطيين (أى أهل القسطنطينية) والسوريين والفرس وعدد عديد من النصارى واليهود . من هنا يستنتج أن نظرية الوحدة الإلهية لم تكن مجهولة عند العرب . فلهذا السبب صادفت ديانة محمد أرضا مناسبة لنموها افتتحتها ببساطة عقائدها ، وبمسايرة أوامرها للشئون الانسانية .

« فى هذه الناحية من الأرض انتشر القرآن فى أول ظهوره .

« إن العلم اللاهوتى المستمد من القرآن (يريد علم الكلام) موجز الى الحد الأقصى ، وهو ينحصر فيما يلى : « أن الله قد أوحى الدين لعدد كبير من الأنبياء فى عهود متعاقبة ،

أكبرهم شأنا ابراهيم وموسى وعيسى . ولكن اليهود والنصارى قد حرفوا التوراة والانجيل ، فأرسل الله محمدا لاعادة الدين الحق . والله وحده هو الحاكم المطلق لا معقب لحكمه . والانسان مسئول عن أعماله وسيعاقب أو يثاب عليها . وعلى المسلم أن يقوم بخمس عبادات : الايمان بالله ، والصلاة اليومية ، والصيام السنوى ، والزكاة المشروعة ، والحج الى مكة .

« أما تعاليم القرآن الواضحة كل الوضوح ، فتهب هذه العقائد الجديدة روحا من البساطة هى من أشهر صفات هذه الديانة .

« وأما أصول القرآن الأدبية فهى كثيرة وذات مرام هى غاية فى السمو . فلا نذكر على سبيل المثال إلا بعضا منها وهى : حب الناس ، والاحسان اليهم ، واحترام النفس ، وإنجاز الوعد ، والتسامح الدينى إزاء اليهود والنصارى .

« وفى مقابل هذا يقرر القرآن « الحرب المقدسة » ضد الوثنيين ، ويقرر الاسترقاق وتعديد الزوجات .

« ولا ننسى أن القرآن أصلح حال المرأة فى الحياة الاجتماعية إصلاحا عظيما .

« وقد استفاد النبى نفسه بتوسع من مبدأ تعديد الزوجات . فقد كان له ، بامتياز خاص ، عشر زوجات بينا القرآن لم يسمح إلا بأربع فقط .

« ولمناسبة ذكر مبدأ تعدد الزوجات الذى أخذ يقل العمل به تدريجيا ، يجب علينا أن ننبه أن فى الزواج على سنة الاسلام شرطا محكما جدا وهو مجهول على وجه عام ، يسمح لممثل الزوجة أن يطلب من الزوج تعهدا بعدم اتخاذ زوجة غيرها . فاذا لم يوف الزوج بهذا الشرط تحللت الزوجة من العقد الذى بينها وبينه وأصبحت حرة من علاقات الزوجية » .

ثم أخذ الكاتب يفصل قواعد الاسلام من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم قال :

« هذه هى الواجبات التى يفرضها القرآن ، ذلك الكتاب السامى الذى يدبر حياة ومحاولات مئات الملايين من الناس ، والذى يعتبر بهذا الوصف واحدا من الكتب السائدة على العالم . أما سلطانه على النفوس فعظيم جدا ، ويحسن الالمام بالأصول التى يدعو اليها ليمكن فهم رد الفعل الذى يسببه ، وموقف الاسلام حيال المسائل الراهنة » .

***

(مجلة الأزهر) : هذا ما كتبه المسيو (بول تيتو) فى جريدة البوبولير الفرنسية ، وهو يعتبر معتدلا فى الجملة ، ولكنه لا يخلو من خطأ فى التقدير .

ذلك أنه يقول : إن ظهور دين من صحراء جزيرة العرب يعتبر آية حقيقية ، فلو كان اقتصر على هذا لصادف قوله الحق من جميع الوجوه ، فان جزيرة العرب التى كانت تسكنها قبائل فى حالة

تناحر ، ومغمورة فى أمية مظلمة حتى صارت الأمية علما عليها ، وفى جاهلية لا حدود لها ، وسعت جميع صورها بأخص معانيها ، وأشنع مميزاتها ، مثل هـذه البيئة لا تسمح بصدور دين منها لا يمكن تعليله بالعلل الطبيعية ؛ ولـكن بسبب أن الـكاتب كأكثر الذين يكتبون فى الشئون الاجتماعية مادى لا يعتقد بوحى سماوى ، ولا بعـالم فوق هـذا العالم ، أسرع يلتمس عللا طبيعية يفسر بها صدور هذا الدين من جزيرة تسود فيها جهالة لا تسمح بصدور مثله ، فـكان غير موفق فى تلمس تلك العلل . ونحن نلمسك عدم التوفيق الذى صاحبه حتى تعجب كيف يستند الى مثل هذه الأعاليل الواهنة رجل يتقى مأثور القول :

إن قوله فى مقدمة تعليله إن موقع بلاد العرب الجغرافى جعلها واحدة من الطرق التجارية العظيمة ، من الأخطاء التى لا تغتفر فى عصر أصبح فيه العلم الجغرافى والطرق التجارية تدرس بتوسع فى المدارس الثانوية ، ولا تحتاج فى تفهمها لألمعية ممتازة . فالطريق الوحيدة التى كانت ولا تزال تصلح لنقل السلع هى التى تخترق العراق ، والعراق فى أقصى الشمال الشرقى من بلاد العرب ، وكان واقعا تحت نير الفرس ، وأهله هم الذين كانوا يترددون على فارس وسورية والقسطنطينية يبيعون ويشترون ، ولم يكن بينهم وبين أهل الحجاز الذين ظهر بين ظهرانيهم الاسلام علاقه مباشرة ، لما يفصل بين الأقليمين من الصحارى البعيـدة الأكناف . والـكاتب يعرف أن الاسلام ظهر فى الحجاز .

نعم كان للحجازيين علاقات تجارية بسورية ، فـكانوا يترددون عليهم لبيع ماينتج فى بلادهم من الصموغ والأعطار وغيرها ، ويستبضعون منها المنسوجات والأطعمة ، ولـكن ماذا عسى أن تجلبه لهم هـذه الرحلات التجارية من المعلومات ، أكثر مما تجلبه رحلات الأميين الى مختلف الأقطار ؟ لو كانت تجلب شيئا لأخذ العراقيون عن الفرس ديانتهم المجوسية ، ولأخذ الحجازيون عن السوريين ملتهم المسيحية ، أو عن الفلسطينيين نحلتهم اليهودية ، ولم يبقوا على وثنيتهم العربية طوال القرون .

ولـكن فيم هـذا التـكلف كله لتصيد أسباب النقل ، ألم يـكن فى بلاد العرب نفسها نصارى ويهود مجاورين للقبائل العربية ، حتى أن بعضها كبنى تغلب كانت تنصرت وبقيت على نصرانيتها حتى ظهر الاسلام ، وقـد تهوّد كثير من أهل اليمن محاكاة لليهود الذين كانوا بين أظهرهم ؟

فلا محل والحالة هذه لتلمس أسباب اتصال العرب بغيرهم من الأمم ذوات الأديان .

ومن الغـريب أن المسيو (بول تيتو) يرتكب هـذا التكلف كله لتعليل انتقال التوحيد الى العرب ، والتوحيد كان معروفا فى بلاد العرب من أقدم العهود لأنه دين أبيهم ابراهيم ، وكان فى بلاد العرب رجال كثيرون على دين ابراهيم أجيالا متعاقبة .

ولكن ألا يوجد شىء فى القرآن غير التوحيد يقتضى أن يتلمس له المسيو بول تيتو طرقا للانتقال الى العرب ؟

إن فى القرآن مبدأ التنزيه وهو لم يكن معروفا عند ملة من الملل قبل ظهور الاسلام ، والتنزيه كما لا يخفى هو نفى جميع الصفات البشرية ، والأعراض الجثمانية عن الخالق عز وجل ، بل نفى جميع ما يجول فى الخيال عنه سبحانه وتعالى ، والاعتراف بالعجز المطلق عن الالمام بشىء يتعلق بذاته . وقد وضع المسلمون قاعدة لذلك فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » . ولم يكن فى الأرض دين يمكن نقل هذا التجديد العظيم فى موقف العقل عنه . فالديانة الاسرائيلية تقول : إن الله خلق الانسان على صورته ، والاسلامية تقول : « ليس كمثله شىء » ؛ وفى تلك مايستدل منه على جثمانيته ، فقد جاء فيها أنه بكى تأثرا من بعض الأحوال البشرية حتى رمدت عيناه . والديانة المسيحية تذهب الى تَرَكّب ذات الخالق من ثلاثة أقانيم ، والاسلامية تنفى ذلك بكل قوة وتعد القول به أمرا إدا ، « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر له الجبال هدا » .

فاتصال العرب بتلك الممالك التى ذكرها المسيو (بول تيتو) لم تكن دياناتها لتعلم العرب هذا التنزيه الذى لم تصل اليه الفلسفة إلا بعد الاسلام ، وهو فى الاسلام على حال من السمو بحيث لا يعقل أن تكون فوقه درجة .

وإذا كان هذا حال التوحيد الذى يدعى المسيو (بول تيتو) أن العرب نقلوه عن الأمم التى كانوا يتجرون معها ، فما ظنك بكل ما فى الاسلام من أصول العدل الطبيعى ، والمساواة المطلقة ، والآداب العالية ، والأسلوب السامى فى تزكية النفس ، وترقية المجتمع ، والدعوة القوية لطلب العلم والحكمة ، والتوصية الصريحة بوجوب فك العقل من أغلاله ، وإعطائه كامل سلطانه ، والاستهداء به فى تمييز السليم من السقيم ، والحسن من القبيح ، والخير من الشر من المذاهب والآراء والتعاليم ، ومعاملة الناس بالإنصاف حتى فى مواطن القتال ، وتقرير مبدأ الشورى فى الحكم ، والاعتراف بسلطة الأمة المطلقة ولم تكن معروفة فى الأرض ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعين من يخلفه ، فترك للأمة حق انتخاب من يتولى أمرها ، وهذا يعتبر نهاية النهايات فى هذا الباب . ولما حضرت الخليفة الأول الوفاة ، لم يعين من يخلفه إلا بعد أن استأذن الناس فى ذلك فأذنوا له . ولما يئس المسلمون من شفاء عمر بن الخطاب طلبوا إليه أن ينتخب لهم من يخلفه ، كما فعل أبو بكر ، فأبى ولكنه حصر اختياره فى ستة رجال وأشار عليهم أن ينتخبوا أحدهم . وهذه نهايات لا تصل اليها الأمم إلا بعد أدوار شتى من الانقلابات .

كل هذا اقتبسه المسلمون الأولون من القرآن ، ولا يزال هذا القرآن يرينا من مكنوناته

عجبا ، فهل كل هـذا نقله العرب من الفرس والرومانيين والسوريين والهنود الذين كانوا من دينهم فى أمر مريج ، من تنازع السلطات ، وتنافس الطبقات ، وحيرة العامة بين المتنافسين حين كانوا يساقون الى المجازر على غير بصيرة منهم ، لا لنصرة مبدأ ولـكن للايقاع بزعيم يرى الثائر عليه أنه أحق بالسيطرة منه .

نناشد المسيو (بول تيتو) العلمَ أن يقول لنا : ماذا يرى فى الممالك التى ذكرها من الحـكمة العالية ، يحسن أن ينقله النبى عنهم ليستطيع أن يؤلف منه دينا كالاسلام يدبر أمر مئات الملايين من البشر ، وقد كانوا هم أنفسهم غرقى الى الأذقان فيما نعلم من المجادلات اللاهوتية ، والمظالم الحـكومية ، والفوضى الخلقية ؟ وإن من يقرأ القرآن حق قراءته يرى أنه قد ألم بذكر تلك الأمم ، فأوسعها لوما وتقريعا على مافرطت فى جنب عقولها ، وما استرسلت فى الخنوع لأهواء قادتها ، وما انقادت لاستهواء مضلليها ، ولم يستثن من ذلك اليهود والنصارى ، بل كان أكثر تشهيره بهم ، فـكيف يعقل أن ينتقدهم ويدحض أصولهم ثم ينقل دينه عنهم ؟

***

يقول المسيو (بول تيتو) : إن الاسلام أقر الاسترقاق وتمدد الزوجات ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم ميز نفسه فى عـدد الزوجات عن المسلمين بعد نزول آية تحديدهن بأربع . والاكتفاء بهذا الاجمال ظلم للاسلام .

نعم أقر الاسلام الاسترقاق ولـكن بعد أن ألغى جميع مصادره وحصره فى مصدر واحد وهو الحرب المشروعة . والأسر فى الحروب قائم الى اليوم .

ولـكن أما كان يجدر بالمسيو (بول تيتو) أن يذكر أن الاسلام كان أول من ألغى النخاسة فى الأرض ، أى قبل أن تلغيها المدنية بأكثر من اثنى عشر قرنا .

فان قال ولـكن الاسلام أقر ما كان قد حدث بسببها ، فلم يفعل كما فعلت انجلترة وفرنسا وجميع الأمم من تحرير الأرقاء جميعا حين انتدبت لإلغاء النخاسة من الأرض سنة (١٨٣٤)

نقول : إن الاسلام لم يفعل ما فعلته الدول فى العهد الأخير تفاديا من اختلال عظيم فى الحالة الاجتماعية اذ ذاك ، فان أولئك المحررين كانوا يبقون بلا عمل ولا مأوى بعد أن تنحل أواصر الولاية بينهم وبين ساداتهم . ألم يعـلم بأن انجلترة تبرعت بسبعة ملايين جنيه وفرنسا بثلاثة ملايين لتنفيذ هذا المشروع ، فـكيف كان يمكن الحصول ولو على جزء من مائة من مثل هذا المبلغ فى ذاك العهد من الاجتماع ولما يستوف مقوماته الاقتصادية ؟

ولـكن الأمر الذى يهم فى هـذا الموضوع هو أن الاسلام ألغى الاسترقاق الآتى من طريق النخاسة ، واعتبر مرتكب هذه المهنة مفسدا فى الأرض يستحق أشد العقوبات البدنية .

وبعد أن حصر الاسلام الاسترقاق فى الحروب المشروعة وكل الى الحكومة القائمة بالأمر أن تتصرف فى أسرى الحروب ، إما بقبول الفدية عنهم ، أو بالمن عليهم بالحرية . وقد اتفقت الأمم اليوم على المن على أسرى الحروب بالحرية ، بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ولامانع يمنع الحكومة الاسلامية من سلوك هذه الجادة وقد وكل الاسلام الأمر إليها فى ذلك .

على هذا الأسلوب يكون الاسلام بأحكامه القيمة قد مهد السبيل للوصول الى إبطال الاسترقاق قبل أن يفكر فى ذلك سواه باثنى عشر قرنا .

أما إقرار الاسلام لمبدأ تعدد الزوجات فلم يكن القصد منه مواتاة ميول الرجال فى الاستهتار فى الشهوات ، ولكن قصد به حماية المرأة من عسف الرجال .

ذلك أن المشاهد الى اليوم أن كثيرا من الرجال ، حتى فى المجتمعات التى بلغت شأوا بعيدا فى المدنية ، لايكتفون بزوجة واحدة ، فتراهم يتخذون الخدينات فيعايشونهن معايشة الزوجات ، ولكن دون أن يكون لهن أدنى حق شرعى على من احتازهن حين يبدو لهم الاستغناء عنهن ، فتخرج المرأة من هذا الارتباط الأثيم فاقدة كرامتها ، ومجردة من كل شىء يضمن حياتها ، وقد تكون قد أصابتها عاهة ، أو اعتراها الكبر ، فتنضم الى كتائب التعسات .

فهذه الحالة لا ترضى أية نفس كريمة ، لا سيما وكثير من هؤلاء الخدينات يكن قد رزقن بعدة بنين ، فيخرجن بهم ، ويعشن معهم فى الحرمان المطاق ، وإذا كانت هذه الحالة لا ترضى النفوس الكريمة فهى لا ترضى الدين الذى شرعه الله رحمة للعالمين .

وما دام لا توجد وسيلة لحمل الرجال على الاكتفاء بواحدة ، ولا على عدم اتخاذ الخدينات ، فالاسلام رأى ، صيانة لحقوق النساء ، أن يقر مبدأ تعدد الزوجات ، ويحرم الفسق واتخاذ الخدينات تحريما لا هوادة فيه ، ويعاقب عليهما بأشد العقوبات .

وما دام عدد لا يحصى من النساء يرضين أن يكن خدينات مجردات من الحقوق ، فيسرهن أن يرفعن الى درجة الزوجات الشرعيات ، ولا عيب على مجتمع أن يكون مسموحا فيه تعديد الزوجات ، ما دام هو لم ير من العيب أن يكون مسموحا فيه اتخاذ الخدينات .

ولكنا نرى العكس ، نرى أن المجتمعات العصرية تستنكر كل الاستنكار تعديد الزوجات ولا تستنكر اتخاذ الخدينات . وأنت إن كلفت نفسك تحليل هذين الشعورين المتناقضين رأيت أن السبب فى التقزز من مبدأ تعديد الزوجات ، وعدم التقزز من مبدأ اتخاذ الخدينات ، أن الزوجية تقتضى من الحقوق ما لا يقتضيه احتياز النسوة غير الشرعيات . والرجال هم الذين يعملون القوانين فلا يريدون أن يثقلوا كواهلهم بالتكاليف مع عدم وضع حد للشهوات .

ولكن العدل يأبى ذلك ، فإما أن يكتفى الرجال بزوجة واحدة مع عدم العدوان على أعراض النساء ، وإما أن يقبلوا مبدأ تعديد الزوجات ؛ أما التوسع فى إشباع الشهوات مع عدم التقيد إزاء ذلك بالحقوق التى تترتب عليها ، فلا .

لست بما أقرره استحسن شيوع مبدأ تعدد الزوجات ، وخاصة بدون قيد ولا شرط كما هى الحال الآن ، وأصرح بوجوب بذل عناية عظيمة لحصر مضاره ، ولكنى أعارض كل المعارضة فى حذفه مع إقرار مبدأ آخر أشد منه على الأخلاق ضررا ، وأقبح فى تشويه رونق المدنية أثرا ، ألا وهو إباحة الفسق ، فاذا عددتَ من سيئات تعدد الزوجات ما يقع فيه كثير من النسوة فى البؤس ، وما يلحق بأولادهن من الشقاء ، وما يصيب الأسر من التصدع والانهيار ، عددنا لك من شرور إباحة الفسق واتخاذ الخدينات ، ما تقشعر له الأبدان من شيوع الفحشاء ، واندساسها بقوة التعود بين الغرائز الشريفة للانسانية ، وتغلبها عليها بسلطان الشهوات ، وسوقها لها الى الوجهة البهيمية التى تنافى السمو الأدبى المقدر للانسان أن يبلغه . ولو وقفت الحال عند هذا الحد لرضى به الذين لا يؤمنون بالسمو المقدر لهذا النوع ، ولكنها تسوق النفوس لتعيش فى جو من الدنايا لم تخلق لتعيش فيه ، فيعتريها كرب الاختناق ، فتضطرب لتخلص منه ، وما اضطرابها إلا ما تراه من التدافع والتناحر وعدم الاستقرار ، ودوام توقع الانهيار العام .

إن قيل : فلم تعلق هـذا الشر المستطير على رذيلة واحـدة مغفلا سائر الرذائل المنتشرة بين الناس ؟

قلنا : لأن تلك الرذائل غير مباحة ، ومترتب عليها عقوبات مختلفة فى القوانين ، وجميع قوى الحكومات عاملة على مكافحتها أنى وجدت ، ولـكن رذيلة الفسق مباحة إن حدثت عن تراض من الطرفين ، والتراضى عليها من أيسر الأمور ، ولا تنس أن الفسق يجر الى ارتـكاب جميع الرذائل من الـكذب والخـداع والتغرير والـكيد والسرقة حتى القتل نفسه . وقد ثبت أن الشهوة الجنسية أشد الشهوات تحكما فى النفسية الانسانية ، فتركها بدون قمع ، تدفع صاحبها للعبث بالأعراض ، لا يجعل لما تجره من المفاسد حدا تقف عنده .

وإنى لأعجب كيف يشكو الناس من انتشار العزوبة وما تجر اليه من الأمراض الاجتماعية العضالة ، ويغفلون عن سببها الرئيسى وهو إباحة الفسق ، وتيسير سبيله الى حد بعيد ؟

وكيف يغفلون عن أن تحريم الفسق ، وسد الطريق على أهله ، يحفزهم الى الزواج ، ويكفهم عن جميع الشرور التى تدعوهم إليه الاباحة الحيوانية ؟

دعانا الى هذا الإسهاب ، التدليل على أن ما ينال الجماعات من الشرور بسبب إباحة الفسق ، يفوق أضعافا مضاعفة ما ينالها منها بسبب إباحة تعدد الزواج .

فإن صدقت نوايا المصلحين فى البحث عن المخرج من هذه الورطات ، سهل عليهم أن يجدوه فيما يحفظ للدين سلطانه ، وللانسانية كرامتها ، والله ولى المؤمنين ؟

محمد فريد وجدى

المحاماة قديما وحديثا

ألمعنا فى البحث السابق الى أن حق الدفاع فى الخصومة قديم فى البشر ، وأنه متوارث بين الناس من أول عهد الخليقة حتى تطورت البشرية تطورا حفز بالدفاع عن النفس وعن الغير الى مستوى تختلف قوة وضعفا باختلاف طرائقه ، وبما وصل إليه البشر من النضوج العقلى فى تكييف طرائق الدفاع والنبو به عن مزالق الضلال ومراتع البغى .

واليوم نحاول فى إيجاز أن نعرض لما كان عليه المحامون فى عهد الامبراطورية الرومانية وفى عهد اليونان ، وأن نساير القارئ حتى نبلغ به عصرنا الذى نعيش فيه :

كان خطباء المحامين فى العهد اليونانى يعتقدون أن عملهم منحصر فى خدمة العدالة والكشف عن الحقيقة فى ثوبها القشيب ، ولكن هذه العقيدة لم تكن حليفة الواقع ، فقد كان بعضهم يستخدم للفوز على خصمه حيلا تضلل القضاء وتزهق روح العدالة ، فاستشعر أولياء الكلمة فى اليونان ذلك الخطر الذى يحيط بالعدالة ويكتنفها من أطنابها ، فأصدروا قانونا حظر على المحامين أن لا يتخذوا المقدمات الأخاذة وسيلة فى دفاعهم الى الظفر بقلوب القضاة ، وأن يمتنعوا عن كل شيء يكون من شأنه استجلاب الرفق بالمتهمين ، أو استثارة مكامن الغضب ضد خصمائهم ، كما حظروا على القضاة أن لا ينظروا الى المتهم نظرة تأثير حين يحاول استعطافهم واستثارة كوامن الرحمة فى نفوسهم ، حتى لقد احتاطت السلطة التنفيذية فأمرت بأن يصيح صائح عند افتتاح كل جلسة بتذكير المحامين بتلك النصوص التى اشتمل عليها قانونهم الجديد ، ولفت نظرهم الى ما يترتب على تلك المخالفات من فوادح الجزاءات ، حتى تبقى تلك النصوص ماثلة فى قلوبهم ، وحتى لا يستخدم أحدهم الوسائل غير المشروعة للفوز فى خصومة باطلة . وكان من أثر إصدار هذا القانون فتور عزائم الخطباء فى المحامين وانحطاط فن الخطابة بينهم .

وقد استمر المهيمنون على الدولة اليونانية والامبراطورية الرومانية يتعقبون سير المحامين فى خصوماتهم ويتجسسون مواطن الضعف حين يرون أن العدالة تكاد تنتقص من أطرافها ، حتى لقد تبينوا أن بعض المحامين يطيل فى دفاعه إطالة قد تكون فى كثير من الأحايين سببا فى إملال القضاة ونسيان نقط الدفاع والغفلة عن مناص الاتهام ، فصدر قانون يحدد زمن كل محام ، وجعلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، واتخذت فى قاعة الجلسة ساعات مائية لملاحظة ذلك .

وقد صدرت تعليمات من السلطة التنفيذية فيما يشبه المنشورات الدورية ، حدت من فضول ... عن جادة الاعتدال ، ووقفتهم حيث تصان كرامة القضاء .

وكان جزاء من ارتكب مخالفة لتلك التعليمات التغريم .

أدرك الرومانيون أن العدالة كيان الأمم وعنوان مجدها وسبيل عظمتها ، وأن القضاء أهم أركان العمران فى الأمم ، فاختار (رومولوس) وهو أول ملوك الرومان على ما رواه العلامة أحمد فتحى زغلول باشا عددا من الأشراف وألف منهم مجلس الأعيان وجعل الباقين من أمثالهم فى العلم والاختبار قواما على مصالح الطبقة الثانية فى الأمة .

فانقسم الناس الى فريقين : فريق المتبرعين ومنهم أعضاء المجلس، وفريق التابعين ، وقد أرادوا بالتابع من نسميه نحن المحامين فى ذلك العصر وكيل المكتب ، وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والعبد سيده والعتيق معتقه .

وقد حددت واجبات كل فريق من الفريقين فلا تطغى إحداهما على الأخرى ، ولم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ماعليه الآن نسبة المحامى الى موكله ، بل كانت أوسع مجالا وأكثرهما ، فكان يجب على المتبوع أن يعين تابعه فى جميع أموره ، ويستخدم فى مساعدته ما أتيح له من العزة والجاه ، وما لديه من العلم والمال ، وهو الذى يرشده فى معاملاته عند الحاجة ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء إذا نابته نائبة أو نزلت به كارثة كان من أثرها توجيه المسئولية اليه .

ولقد بالغت تلك التقاليد يومئذ فى العلاقة بين المحامى ووكيله ، فذهبت أوضاع ذلك العصر الى أن الوكيل مقدم على أقرباء المحامى ، فاذا ما تقاضى الوكيل مع أحد أقرباء المحامى ، كان على المحامى أن يحضر عن وكيله وإن أدت مرافعته الى مخالفة أقربائه والخروج عليهم .

ولقد روى العلامة فتحى زغلول باشا أن محافظة المحامى على مصلحة وكيله فى عهد الأمبراطورية الرومانية لم يكن وصفا تقليديا فحسب ، بل كان تشريعا نافذا من السلطة التنفيذية ، وكان مخالفه يستهدف للعقاب ، مما سنحاول عند الفرص المواتية أن نوفيه حقه من البحث والتحليل ، إن شاء الله .

عباس طه

تصحيح

وقعت فى العدد السابق أخطاء هذا صوابها :

صفحة	سطر	
٦٢١	١٨	أنه لا يقال
٦٣٤	١٧	صحراء الجزائر
٦٣٥	٢	مذهب جابر بن زيد

علم الاقتصاد المصريين :

هذا اسم أحفل كتاب أنتجته قريحة مصرية فى علم الاقتصاد ، لم يدع لراغب فى التبحر فى هذا العلم بحثا مما يتعلق به من قريب أو بعيد إلا أتى به محكما مفصلا لا يحتاج بعده الى مزيد .

يقع هذا الكتاب الجليل فى نحو ٥٤٠ صفحة اشتملت على اللباب المحض من العلم ، لذلك وسعت من المباحث والنظريات والتطبيقات والشروح والتعليقات ما لا تسعه أضعافها ، فى عبارة سرية شائقة ، وبيان طلى جذاب ، وعرض مرتب متماسك تتطلع النفس الى استيعابه .

صدور مثل هذا الكتاب فى أوربا وأمريكا يعتبر حدثا ثقافيا خطيرا ، يتولاه العلماء الاخصائيون بالنقد والتقريظ ، ولا نشك فى أنه بالغ لدينا هذه المنزلة ، وإن قل المقدرون للفضل ، والمكبرون للجهود . وإنا مهما بالغنا فى الإشادة بذكره ، فلن نستطيع أن نوفيه حقه ، فنكتفى بما ذكرناه اليوم ، راجين أن نعود اليه بعد حين .

فنشكر لحضرة مؤلفه العلامة الجليل الاستاذ الدكتور محمد فهمى لهيطه المدرس بكلية التجارة ما أبرزه لأمته من عمل ضخم ، راجين له دوام التوفيق ، لإتحاف أمته بالكثير من أمثاله .

بلبان فى الأندلس :

هذه قصة طريفة ، بليغة العبارة ، حسنة الأسلوب ، جمة الحوادث المؤثرة ، وضعها حضرة الأستاذ الألمعى أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ، وكيل فرع بنك التسليف الزراعى ، فى نحو مائتى صفحة ، وطبعها طبعا متقنا ، على ورق ممتاز ، ومرماه منها إعطاء صورة صحيحة لما كانت عليه الحالة الاجتماعية فى إسبانيا قبل أن يفتحها المسلمون ، ثم ما آلت اليه بعد فتحهم لها من أزدهار المدنية ، وسيادة الحق ، وعموم العدل . وقد افْتَنَّ المؤلف اللبق ، ليصل الى هذه النتيجة ، فى تصوير الحوادث ، وتلوين الوقائع ، وتهيئة المناسبات ، ليعطى القارىء صورة حية ذات شخصية أدبية لما هو بصدده ، فأنجح إنجاحا باهرا .

الحق أن هذا الكتاب قطعة فنية جديرة بالاعجاب .

الدين والعقل — برهان القرآن :

هذا كتاب ضخم حصر فيه مؤلفه الأستاذ احمد حافظ هداية جميع مقاصد القرآن الكريم ، فأتى بطائفة من الآيات على كل مقصد ، واجتهد فى بيان مطابقتها لما هُدى الناس اليه من المنطق والعلم الكونى وسنن الوجود المقررة ، فجاء كتابا فريدا فى موضوعه يستحق أن يجد مكانه بين [illegible]ائف المؤلفات عند كل مسلم .

حضرة صاحب الجلالة الملك

يهنئ شعبه والشعوب الاسلامية كافة بشهر الصيام

شعبي العزيز :

أبعث إليك والى إخواننا المسلمين فى العالم الاسلامى بتحيتى ، وأهنئكم جميعا بشهر رمضان المبارك الذى كتب علينا صيامه ، لما فى الصوم من تهذيب النفوس ، وتطهير القلوب ، وجمال الصبر ، وبث الرحمة والخير .

لقد أقبل شهر رمضان هـذا العام ، والعالم يعانى محنة قاسية ، وتعركه حوادث دامية ، فاتجهوا الى الله تعالى لعل الله يكشف عن عباده الضر ، وادعوه مخلصين أن ينصر قضية الحق التى نؤيدها بقلوبنا ، حتى يخرج الناس من ظلمات الخوف ، وتتغلب روح العدل والحرية اللذين لابد منهما لكل سلام دائم .

شعبي العزيز :

إن بلادنا العزيزة تجتاز دورا دقيقا فى جو عالمى مفعم بالأخطار ، وإن الحالة لتستوجب تضافر القلوب والسواعد حتى نكون على تمام الاستعداد ، ولا سبيل الى ذلك بغير الوحدة الوطنية . فاتحاد الأمة وتعاونها أكبر عون لها على مواجهة المستقبل ، وإنكم لتشهدون المثل العليا تضربها بلاد العالم فى الاستعداد للذود عن حياضها ، وكيف يؤدى أبناؤها واجبهم فى غير ما جلبة ولا ضوضاء ، وكيف يؤيدون حكوماتهم فى غير ما تردد ولا إبطاء ، وكيف يضحون بكل مصلحة فى سبيل مصلحة البلاد العليا .

ومن حسن التوفيق أن يكون على رأس حكومتى فى هذا الوقت العصيب ، رجل ننزله من نفسنا منزلة الرضا والتقدير ، لصدق وطنيته ، ولسابق بلائه فى خدمة البلاد والعرش .

ومن دواعى غبطتى أن أرى الحكومة شاعرة بواجباتها ، ناهضة بتبعاتها ، فاعملوا معها تجمعكم فكرة واحدة ، وعاطفة واحدة ، لغاية واحدة ، هى مجد الوطن لا مجد الأشخاص .

شعبي العزيز :

هذه حاجات الساعة ومقتضياتها الملحة ، وإنها لتفرض علينا أن نحتفظ باتحادنا وهدوئنا لنكون أقوياء ، فإن قوة الأمة أقوى ضمان لها ، وليكن لنا من دروس الحوادث عظة وعبرة . فالسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من وعظ بنفسه .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

هذه الكلمة السامية التى تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بتوجيهها الى شعبه وسائر الشعوب الاسلامية بواسطة الأمواج الأثيرية ، فتلقتها بأسماعها وقلوبها ، وكان تأثيرها فيها أبلغ تأثير ، وأنفذه الى أعماق النفوس .

لقد اشتمل هذا الحديث الملكى السامى من عناصر استنهاض الهمم ، واستجاشة العزائم ، واستثارة الحفائظ ، على أبلغ ما يمكن أن يقال فى هذا المجال . وإذا أضيف الى التأثير الذى تحدثه ألفاظها الجزلة ، ومبانيها المحكمة ، ومعانيها السَّرية ، التأثير الذى يكسبها إياه سمو مصدرها ، عرف المدى الذى بلغه هذا الحديث الكريم من الفعل فى نفوس المسلمين ، والوقع الذى وقعه من أفئدتهم .

وإذا كان تأثير الموعظة الحسنة يكون مناسبا لدرجة الايمان الذى تصدر عنه ، فان قلب حضرة صاحب الجلالة الملك عامر بأرفع درجات الايمان ، فلا جرم أن يكون للحديث الذى يصدر عنه خاصة التغلب على الأهواء ، والاستيلاء على النزعات .

وما أجمل ما ختم به جلالته كلمته السنية من الدعوة الى تصافى القلوب ، وتآلف النفوس ، وهذه الدعوة يهيب بها المصلحون فى كل حين ، ولكنها من جلالة الملك أفعل فى العقول ، وأوقع فى الصدور . أعاد الله على جلالته هذا الشهر الكريم مدى عمر طويل ، حافل بعظائم الأمور ، وجلائل الشئون .

***

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فنشر كلمة فى الأهرام ، يهنىء بها العالم الاسلامى بشهر الصيام ، فجاءت من أجمع كلمات فضيلته لأصول الاصلاح ووسائله ، وأفعلها فى ألباب الناس وأفئدتهم ، وقد جاءت فى أثناء فقراتها فقرة لا أتصدى لتقريظها ، ولو فعلت لما وجدت من العبارات ما يفى بحقها ، ألا وهى قول فضيلته : « وأرى واجبا علىَّ تنبيه المسلمين الى أمور جديرة بالنظر والتنبه ، منها وجوب السعى الى الوحدة الاسلامية ليتم بينها التعاون والتناصر ، ولتكون أمة محترمة عزيزة الجناب ، صلبة القناة ، وينبغى أن تكون الوحدة شاملة للثقافة والمذاهب والآراء الخ » فهذه الحقيقة التى تولدت فى عقلية فضيلة الأستاذ الامام ، وتهيأت له الفرصة لابرازها ، هى علاج حاسم لما يتفق فى الشكوى منه أربعمائة مليون مسلم لا تغرب عنهم الشمس ، فعلى كل من يغار من هذه الشعوب على حياته أن يقف جهده على تحقيقها وكفى .

وإنا نقدم لقرائنا نص ما كتبه فضيلة الأستاذ الامام فى الصفحة التالية .

رمضان بين عامين

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

دار الفلك دورته ، وأعاد رمضان سيرته ، فللأمة المحمدية منى أصدق الاخلاص ، وأخلص التهانى ، وعظيم الرجاء فى أن يكون تجدد الشهور والسنين حاملا معه أحسن البشائر ، محققا لأعز الأمانى ، مجددا شباب الاسلام ومجده ، معيدا سيرته الأولى ، معينا على القرب الى الله ، ومعينا على رضا رسول الله ، حافزا همم المسلمين على التمسك بالحق ، والاستظلال براية القرآن ، وعلى الجهاد فى سبيل الحق ، وفى سبيل الله ، وفى سبيل إحياء الأخلاق الفاضلة ، والتشدد فى التمسك بها ، وفى سبيل إعانة المظلومين على الظالمين ، ورد طغيان المتجبرين .

قدم رمضان هـذا العام والأمم فى شغل شاغل ، وهم مقعد مقيم . ذلك أن الحرب وإن كانت لم تعد بقعة خاصة فى أوربا ، إلا أن اشتباك مصالح العالم ، ووسائل المواصلات ، وإذاعة الأخبار ، جعلت جميع البقاع بقعة ، وجميع الأمم أمة ، وأى حادث عظيم فى جهة ما ، يتردد صداه فى جميع أرجاء الـكون .

اتقدت نار الحرب بين ألمانيا وبولونيا ، وذهبت الأخيرة طعمة نارها فى بضعة أسابيع ، وهى أمة ذات عدد وعدة ، وشجاعة متوارثة معروفة ، ولها تاريخ فى الـكفاح والجلاد مشهور ، لـكن مخترعات العلوم وأدوات التدمير الحديثة لا ترحم شيخا ، ولا تشفق على طفل ، ولا ترعى حرمة ناسك ، ولا وقار عالم ، ولا تبالى شجاعة الشجعان . ولا تزال الحرب ناشبة بين دول عظيمة شديدة المراس ، قوية الشكيمة ، أعدت للحرب عدتها ، وافتنت فى وسائل الدمار والهلاك ، ولهذه الدول علاقات متشعبة فى جميع أطراف العالم ، والأفـكار تتبادل والآراء تتجاذب ، ولا يدرى إلا الله ما الذى تتمخض عنه الأيام ، ويجد من الأحداث ، وهل تندلع نار الحرب فيصلى بها من ليس من جناتها ، وتلتهم البعيد والقريب ، أو تبقى حيث هى الآن ؟

وليس من شأنى أن أعرض للسياسة وأدلى برأى فيها ، فلا أنا من رجالها ، ولا أنا ممن يحسن تناولها على الوجه الدقيق لإبداء رأى نافع .

غير أن رجال الدين يجب عليهم أن لا ينسوا عبر المـاضى والاتعاظ بالحاضر ، ويجب عليهم أن ينبهوا الى مواطن الداء وما يرجى من الدواء ، وقـد قص الله فى كتابه العزيز أخبار المـاضين وسير الغابرين ، وما أصابهم من سخط الله وعذابه ، فلم يترك قوم نوح ولا قوم هود ولا قوم صالح ، وذكر قصة موسى وغيره من إخوانه الأنبياء . والقرآن الـكريم ليس كتاب

سير وتاريخ ، بل هو كتاب هداية ، ولم يسق تلك القصص إلا للعبرة والعظة ، ليقارن الناس بين الماضى والحاضر ، وليحذروا الشرور والآثام ، ويبتعدوا عن غضب الرحمن .

وإن ما يحمله العالم الآن من الالحاد والتمرد على الكتب المنزلة ، وعلى الله وعلى أنبيائه ، والتمرد على ما قرره الحكماء والصالحون من الأخلاق الفاضلة ، والسير الحميدة ، وشق عصا الطاعة على المبادئ التى ارتكزت عند الناس وصلح حال البشر عليها ـ أشد هولا ، وأوخم عاقبة ، وأشد فتكا للانسانية ، من كل ما ارتكبته الأمم السابقة من قبل ، فليس عجيبا أن ينال العالم الآن من الخوف ، وسلب الطمأنينة ، ومن الشرور ، ما هو حاصل فيه . وقد سلب الله هناءة النفس من البشر ، وهناءة الطمأنينة الى القضاء والقدر ، بعد إلحادهم وطغيانهم ، واندفاعهم فى الشهوات ، وتقديسهم عبادة المادة ، وجعلهم هذه المدنية الفاسدة الحديثة بما فيها من شرور أصناما يقدمون لها الضحايا من الأنفس والأموال .

هذه عبر الماضى وعظات الحاضر ، وهذا كتاب الله حى ناطق شاهد عدل وصدق .

وإنى أناشد المسلمين أن يتدبروا ، وأن يفتحوا كتاب الله ويفهموا ما فيه ، فإنه دواء لأدواء البشرية ، وإنه علاج للأرواح وشفاء للصدور .

وأرى واجبا علىّ تنبيه المسلمين الى أمور جديرة بالنظر والتنبه ، منها وجوب السعى الى الوحدة الاسلامية ليتم بينها التعاون والتناصر ، ولتكون أمة محترمة عزيزة الجناب صلبة القناة . وينبغى أن تكون الوحدة شاملة للثقافة والمذاهب والآراء ، لتزول تلك الفوارق التى قطعت أواصر النسب ، وحبال المودة الاسلامية ، وكانت سببا للضعف الذى استغل واتخذ أداة تفريق وهدم . ومنها السعى للاستزادة من العلوم على اختلاف أنواعها ، أريد العلوم الحقيقية لا تلك التى كلها خيالات وضلال ومذاهب هادمة ، وأريد مع هذا كله تدبر كتاب الله وسير النبى الأكرم وصحابته .

وبعد : فإن الصوم رياضة ومران على ترك العادات وما تألفه النفس من الترف والنعيم ، ومنبه الى ارتباط النفس بالله ، وبالعالم العلوى البرىء من الشرور والآثام ، ومن حق المسلم فيه أن يحقق لأخيه المسلم معنى الأخوة من الرحمة والرفق .

وإنى أطلب الى المسلمين جميعا أن يذكروا دائما فى جميع عباداتهم فى شهر رمضان ، الالتجاء الى الله سبحانه ، والضراعة اليه : أن يعيد السلام الى العالم ، ويحفظهم جميعا من شر الطغيان ، ويقيهم من عوادى الزمان ، ويجعل أوطانهم فى أمن ، ويبعدهم من شرور المذاهب الضالة المضلة المبعدة عن الله ، ويحفظ عليهم نعمة الايمان والاسلام ، ونعمة الهداية بالقرآن .

واسأل الله سبحانه أن يهدينا جميعا سواء السبيل ، وينير لنا الطريق ، إنه ولى الإنعام ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

نظرة فى مناهضة المشركين للدعوة الاسلامية

وما تنم عنه من العوامل

إن ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم فى سبيل الدعوة الاسلامية ، وما لقيه أصحابه بسبب قبولهم لها يدل على أمور لا يجوز لكاتب السيرة المحمدية أن يغفلها ، وخاصة فى هذا العصر الذى ساورت أهله الشبهات فيه ، ليس على صحة الرسالة المحمدية فحسب ، ولكن على صحة جميع الرسالات ، فقد اشتدت وطأة المذهب المادى عليهم حتى أنكروا المحسوسات ، فإن لم يستطيعوا إنكارها أولوها تأويلات شتى ، وذهبوا يتلمسون لها عللا طبيعية ، للتوصل الى إثبات أنها أمور إنسانية بحتة ، لا أثر لعالم الروح فيها ، إذ ليس لهذا العالم وجود حقيقى فى نظرهم . ولكنهم على الرغم من موقفهم هذا لا يمكنهم أن يتخلصوا من الاعتراف بخمسة أمور وهى :

(أولا) شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الاسلامية ، دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم هذا الدين من أن العرب كانوا وقت البعثة المحمدية وقبلها بقليل فى دور نهوض اجتماعى وأدبى ودينى .

(ثانيها) تصلب الذين دخلوا فى الاسلام حديثا فى التمسك بعقيدتهم الى حد صبرهم على الاضطهادات العنيفة ، والاستشهاد فى سبيلها .

(ثالثها) حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الاسلام نفسه ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية بكل ما هى عليه من تجرد وسمو وعظمة .

(رابعها) انتصار الدعوة الاسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشر .

(خامسها) تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام التى قلبت خريطة العالم ، يدل على اتصاله بالعالم الروحانى الذى يصرف العالم المادى ويدبره ، وهو من أقوى الأدلة على نبوته .

ونحن نعالج كل هذه الأمور لإثبات صحتها ، وبذلك نقضى على أمهات الشبهات التى يكثر من ترديدها خصوم الاسلام للإدلال على أنه دين بشرى :

الأمر الأول :

١ — إن شدة مقاومة الجاهليين للدعوة الاسلامية دلت دلالة قاطعة على فساد ما زعمه خصوم الاسلام من أن العرب كانوا قبل البعثة المحمدية فى دور نهوض :

لا أتخيل أن من كانت عنده مسكة من المنطق يجسر ، مهما بلغت به الخصومة لمذهب ، أن يدعى أن نجاح الدعوة الاسلامية فى بلاد العرب كان سببها أن هؤلاء كانوا فى دور نهوض اجتماعى وأدبى . ألا يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث بين ظهرانى قريش ، وهى أنجب القبائل العربية ، ثلاث عشرة سنة يدعوها الى عقائد تشهد بصحتها أوليات العقل فلم ترفع بدعوته رأسا ، اللهم إلا أفرادا من أهل قرابته ، وآخرين من ذوى العقول الممتازة الذين لا يخلو من أمثالهم أى مجتمع ، مهما كان متغلغلا فى الجاهلية ، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع ضروب الاضطهادات ، فلما لم يجدوا منها مخرجا عمدوا الى المهاجرة الى الحبشة ، والهجرة الى مثلها فى تعصبها لمسيحيتها ، وإسفافها فى جاهليتها ، ليس بالأمر الهين .

فلو كان لدى القرشيين نزوع الى النهوض لوجدت هذه الدعوة إقبالا منهم ، فإن لم يكن إقبالا فتسامحا يهيئ النفوس للتطور الجديد المنتظر . ولكن الذى رأيناه أن ما قوبلت به هذه الدعوة من النفور والاستيحاش، يقتلع فكرة النهوض من جذورها ويرمى بها الى مكان سحيق . ألم تر أنهم « عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون ساحر كذاب » ؟ مم عجبوا ؟ ألم يسمعوا قط أن الله أرسل فى جميع العصور الى الأمم منذرين حذروهم مما تورطوا فيه من الآثام ، فأى عجيب فى أن يرسل الله اليهم منذرا منهم ؟ لا جرم أن التعجب من هذا الأمر يدل على أنهم كانوا مطمئنين الى حالتهم الى حد أنهم ما كانوا ينتظرون أن يسمعوا من جراء التمادى فيها نذيرا ، ومن جسر على ذلك منهم اعتبروه ساحرا كذابا !

وقد تمادوا فى وثنيتهم ، وجمدوا عليها الى حد أنهم حسبوا أن الاعتقاد بالتوحيد أمر يوجب الدهش ، ألم يقولوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشىء عجاب » ؟ فأى عجب فى التوحيد يمكن أن يشتد حتى يصير عجابا ؟ وهل هذه عقلية شعب فى حالة تطور أو على وشك التطور ؟

وما كفاهم أن يقتصروا على التعجب من التوحيد ، ولكنهم تآمروا على المقاومة ، وتحالفوا على نصرة الوثنية : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد » أى أن كبراءهم انطلقوا قائلين : امشوا أيها الناس واثبتوا على آلهتكم إن هذا لأمر هائل يراد بكم .

والأدل من ذلك على أنهم كانوا مجردين من بواعث النهوض ودواعيه الأولية ، قولهم كما حكاه الكتاب الكريم عنهم : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » ، يريد بالملة الآخرة الديانة التى كان عليها آباؤهم . وهذا يسجل عليهم أنهم كانوا شديدى المحافظة على تقاليدهم لا يبغون عنها حولا ، حتى إن كل ما جد من الأمور لا يقيمون له وزنا ما دام لم يرد اليهم من طريق ديانة آبائهم .

ويجرى هذا المجرى فى الدلالة على تجردهم من جميع الحوافز للنهوض قولهم كما حكاه القرآن الكريم عنهم : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . وسجل عليهم الذكر الحكيم هذه الحال فقال : « إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون »

الأمر الثانى :

٢ — رسوخ المسلمين فى عقائدهم الى حد صبرهم على الاضطهاد ، والاستشهاد فى سبيلها .

إن من يتأمل فى مدى الصبر الذى تحلى به المسلمون الأولون إزاء ضروب الاضطهادات الوحشية التى شنها عليهم المشركون ، فى مدى ثمن قرن ، يدهش من روح الاحتمال التى سهلت على أهلها مكابدة كل هذه المكاره .

إن تاريخ العالم حافل بصنوف الاضطهادات التى عومل بها المبتدعة والمخالفون ، وهى ، سواء أكان مثارها خلافات دينية أم سياسية ، تكشف لنا مبلغ ما تستطيع العقيدة أن تمد صاحبها به من الصبر والثبات ، حتى تصل به الى أقصى حدود البطولة ، ولكننا فى كل ما رأيناه لم نشهده فى طبقة العبدان والاماء ، كما شهدناه إبان الدعوة الاسلامية . فقد أتينا فى المقالين اللذين نشرا فى العددين الثامن والتاسع أن عددا لا يستهان به من الأرقاء ، ذكورا وإناثا ، دخلوا فى الاسلام ، فحمل ذلك ساداتهم على تعذيبهم بالحديد والنار ، فلم يرجع منهم واحد أو واحدة الى ملتها ، فكان أبو بكر رضى الله عنه يشترى ما يعثر عليه منهم ويعتقه ، فيلتحق بالنبى صلى الله عليه وسلم . ومنهم من صار من رجالات الاسلام حتى وصل الى درجة عالية كبلال ، وكان مملوكا حبشيا ، صادفه الصديق يعذب بالنار لاسلامه ، فاشتراه وأعتقه ، ووجدت مواهبه الروحية والعقلية مجالا رحبا فى الديموقراطية الاسلامية الكريمة فوصل الى دست الامارة .

وهذه الحالة من الاستهانة بالحياة فى سبيل العقيدة فى أمة كالأمة العربية التى لا يحفظ عنها تاريخها كبير عناية بالدين ، تعتبر ظاهرة عجيبة ، ويزيدها قيمة أنها وقعت فى شعب غير متطور فى الناحية الدينية كغيره من الشعوب الكبيرة ، فلم يسمع فى تاريخ العرب كله أن قبيلتين اقتتلتا لنصر وثن على وثن ، أو لتأييد فهم جديد لأمر من أمور الدين .

الأمر الثالث :

٣ — حدوث انقلاب لا نظير له فى النفسية العربية بسبب الاسلام وحده ، إذ أيقظ فيها العاطفة الدينية :

هذه علة للأمر السابق ، فلولا أن الاسلام أيقظ العاطفة الدينية فى نفس الأمة العربية ، لما كان يعقل أن يتعصب له ناس فيقيمونه فى وسط ملة معادية له ذات كثرة ونخوة جاهلية ، ويقفون به وقفة بطولة راضين بأن ينالهم أشد ضروب الايذاء فى سبيله .

نعم إن النفوس البشرية لا تتجرد من العاطفة الدينية ، وكان للعرب الجاهليين قسط منها ، بدليل ما ورد من أخبار أصنامهم وأساطيرهم ، ولكن هذه العاطفة عندهم كانت ضعيفة الى حد بعيد جدا . ناهيك بأنه لم يكن ببلاد العرب كلها رجال رسميون للقيام بالخدمة الدينية ، كما كان موجودا ولا يزال موجودا فى كل أمة ، حتى أحط القبائل الافريقية والاسترالية . ليس هذا لأن العرب كان لهم رأى فيما يجب أن يقوم عليه الدين من الحرية ، فحذفوا طبقة رجال الدين ليخلوا السبيل لهذه الحرية ، إذ لو كان الأمر كذلك لما أجمعت عليه جميع قبائلهم ولم يكن بينها ترابط من أية ناحية كانت ، ولكنا عثرنا فى تاريخهم على العهد الذى كانت فيه هذه الطبقة قبل أن تحذف ، ولكنا توصلنا الى معرفة الأسباب التى حملتهم على هذا الأمر الفذ الذى ليس عليه جماعة من الجماعات الانسانية . ولما لم يكن شىء من ذلك فالعلة فى عدم وجود هذه الطبقة فى الأمة العربية واضح كل الوضوح ، وتؤيده جميع الدلائل ، وهو ضعف العاطفة الدينية لديها .

ومما يصح أن يتخذ دليلا محسوسا على هذا الضعف فى العاطفة الدينية ، عدم وجود كتاب مقدس لدى عرب الجاهلية ، يجمع بين دفتيه ما كانت تدين به من العقائد ، وتتوجه اليه من المقاصد الأدبية والروحية ، بل عدم وجود صحف أو نقوش تجمع هذه العقائد ، ولا يوجد أمة على سطح الأرض أو قبيلة ، مهما انحطت ، تتجرد من هذا كله . فبعث هذه العاطفة القوية فى قلوب أمة هى من أعصى أمم الأرض قيادا ، وأشدها عنادا ، يعتبر من الأمور التى لا يعقل حدوثها فى سنين معدودة ، فأى عقل لا يحار عندما يلقى بنظرة على الأمة العربية قبل البعثة المحمدية فلا يجد فيها غير حروب تشب نيرانها ، وغارات يثور عجاجها ؛ وعندما يتسمع لما ينبعث من أصوات أهلها ، فلا يطرق أذنه إلا تصايح الأقران يناهد بعضهم بعضا ، وقعقعة

اللجم فى أفواه الجياد تجول فى ميادين القتال ، وصليل السيوف مصلتة فى أيدى فرسان يصاول بعضهم بعضا ، ونبآت ترتفع بالتهديد والوعيد ، والتمادى فى المشارّة والانتقام ، وتفاخر بالآباء ، وتكاثر بالضحايا والويلات ؟ فإذا ألقى عليها بنظرة بعد البعثة وجد فيها سلاما ضاربا سرادقه فوق الكافة ، وأخوّة محقت ما كان من آثار الجاهلية ، فأصبح فيها الناس ينعمون بنعمة المحبة والتكافل للنهوض بأعباء الحياة ؛ وإذا ألقى بسمعه تواردت اليه أصوات التالين والذاكرين ، والمستغفرين بالأسحار والمسبحين ، وتكبيرات المصلين والطائفين ، والمتوسمين فى ملكوت الله والمتأملين ؛ قلنا : أى عقل لا يحار إذا شهد هذا الانقلاب الذريع وتدبره ، وخاصة إذا أراد تعليله فرأى أن العلل الطبيعية لا تجازف فى محاولته ؟

هذا المنظر وحده يشهد برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد أن هذا الدين روح من أمر الله أنزلها على العرب ، كما أنزلها على غيرهم من الأمم ، فقامت تنفذ ما أراد الله أن يتم على يديها من الأحداث العالمية الخطيرة .

فإن قلتُ بعد هذا إن هذا انقلاب لا نظير له فى تاريخ البشرية فلا أعتبر مبالغا ، فقد أحفيت فى مطالعة تواريخ الجماعات ، وخاصة إبان الدعوات الدينية ، فلم أعثر على مثال مما أنا بصدده .

الأمر الرابع :

٤ — غلبة الدعوة الاسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهده الناس فى تاريخ وجودهم :

إن تغلب الدعوة الاسلامية ، بعد كل هذه الاضطهادات الشنيعة ، والمقاومات العنيفة ، على أمة برمتها ، تغلبا (إقناعيا) بدون إجبار ، يعتبر أمرا خارقا للعادة ، وليس له شبيه فى تاريخ أية أمة من الأمم ، ولا أية دعوة من الدعوات الدينية أو السياسية .

هنا يعترض علينا بعضهم فيقولون : كيف تقول لم يكن فيه إجبار ، أنسيت تلك الحروب الطاحنة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وبينه وبين القبائل فى مدى عشر سنين ؟ فلولا الاجبار لكان المسلمون فى جزيرة العرب قلة لا تبلغ نصف عشر مجموع أهلها .

نقول : أونسيت أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام وحيدا ، فأول من لباه زوجته ، ثم أفراد من أسرته ، ثم بعض معارفه ، وكلهم لم يبلغوا أن يحموا أنفسهم ، فسيموا الخسف ، وعوملوا بالعسف ، حتى اضطروا للهرب بدينهم الى بلاد ليس بينها وبينهم صلة ، تخيلوها أرحم بهم من قومهم ، ثم اضطر النبى نفسه الى الهجرة مستترا ؟

إن قلتَ لم أنس ذلك كله ، قلنا : فهل بلغك أن النبى صلى الله عليه وسلم هاجر الى قوم لبوا دعوته سرا فى بعض أيام الحج ، وعاهدوه على أن يحموا دعوته ضد الأبيض والأسود ولو فنوا على بكرة أبيهم فى هذه السبيل ؟

إن قلتَ بلغني ذلك ، سألتك فأين الاكراه بعد هذا ؟ إن كل دعوة فى الأرض متى تحصلت من طريق الاقناع على أنصار يكفون لحمايتها وإذاعتها ، أمنت أن تتهم أنها انتشرت بالاكراه وإن سلكت طريق الاكراه فى حمل بعض الجماعات على مشايعتها . فقد يكون فى بقاء تلك الجماعات مشاقةً لها خطر على كيانها ، فيكون من حقها الاستيثاق لوجودها . أرأيت إن كانت حكومة ملكية تقوم بازائها جماعة ترمى الى قلبها جمهورية ، وقامت هذه الحكومة تأمينا لسلامتها باجبار خصومها على الخضوع لها ، أيقال فى هذه الحالة إن هذه الحكومة بقيت ملكية بالاجبار ؟ أم يقال إنها عملت ما يجب على كل حكومة أن تعمله فى مثل هذه الحال ؟

إذ لم يكن هذا سائغا فلا يعقل أن تقوم جماعة منتظمة فى الأرض ، لأن الخلافات الدينية والسياسية لا يمكن ملاشاتها ، فيكون من الحق الطبيعى للكثرة التى تتولى الأمر أن تعمل ما يحفظ كيانها فى حدود العدل ، والحرية الشخصية .

وهذا ما فعله الاسلام فإنه بعد أن حصل من طريق الاقناع على جماعة تؤيده ، ودافع عن نفسه بها ضد الغارات التى تواترت عليه من خصومه ، رأى أن وجوده سالما ، وأداءه للرسالة التى شرع من أجلها لا يمكن أن يكون إلا بعد تطهير بيئة الاسلام من الوثنية التى لا تفتأ تهدد بالانتقاض عليه فى كل وقت ترجِّى فيه أن تتغلب عليه . وقد حدث ذلك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إذ ارتدت قبائل العرب ، وندت كما تند الإبل غفل عنها قائدها ، فأعاد أبو بكر رضى الله عنه الأمر الى نصابه ، وأجبر هذه العناصر الجاهلية على لزوم الطاعة .

والمعترض حين يفترض أن الأمة العربية برمتها خضعت لدعوة فرد واحد من طريق الاكراه يسجل عليها الذل والاستكانة الى حد لم يشاهد له شبيه فى تاريخ الجماعات الانسانية قاطبة .

فاذا حاول تخفيف هذا الحكم القاسى ، وقال إنه لولا الاكراه لما بلغ عدد الذين دانوا للاسلام نصف عشر الأمة العربية ، فانه لا يستفيد من هذه المحاولة كبير شىء ، ويتخلف من قوله أمر واحد يوجب الدهش ويسأل عن سببه ، وهو استطاعة نصف العشر التغلب على التسعة الأعشار والنصف ، فاذا صح هذا القول كان معناه أن الاسلام روح إلهية تقلب كيان الآخذ به وتنفث فيه قوة لا تمكن مغالبتها ، حتى أن الأمة لو أخذ به منها نصف عشرها استطاع أن يتغلب على مجموعها . وهذه النتيجة لا يحب أن يصير اليها المعترض ، وهى حقيقة ثابتة أيدتها الحوادث ، فماذا تبلغ قوة قبيلتى الأوس والخزرج إزاء قريش ، بله سائر القبائل العربية ؟ وقد رأيت أنهما تغلبتا على جميع القبائل بفضل الروح التى بثها فيها الاسلام لا بفضل شىء آخر ، فقد كانتا فى الجاهلية ليستا على شىء من التفوق ، ولم يعهد عنهما أعمال بطولة نادرة ، والمعروف عنهما أنهما كانتا فيما بينهما فى حروب مستمرة وهما ولدا عم .

لا جرم أن غلبة الدعوة الاسلامية على أمة برمتها فى حياة صاحبها حادث لم يعهد له نظير

في العالم أجمع ، في كل أدواره التاريخية . فلو كانت هذه الدعوة قوبلت في أول ظهورها باستحسان أو بفتور لا يتعدى حد القول والايماء ، لهان على المعترض تعليل غلبتها على جميع الدعوات . ولكنها قوبلت بعاصفة هوجاء من الاعتراضات ، لم تلبث أن استحالت الى اضطهادات قاسية توقعها نفوس عاتية ، ثم لم تلبث هذه الاضطهادات أن تطورت الى حروب طاحنة ، فمثل هذه الدعوة التي تقابل هذه المقابلة ، لا يعقل أن تستسيغها النفوس إلا بعد أدوار كثيرة من التطورات العقلية والنفسية ، أما حصولها بالسرعة التي حصلت بها وفي حياة صاحبها فتعتبر معجزة يقل لها أن تسمى معجزة .

ثم لو نظرت فرأيت أنها بقيت بعد موت صاحبها ، ونمت نموا عظيما ، وتفرعت شجرتها الى كل اتجاه ، وأثمرت ثمرات لفتت بها نظر العالم اليها ، ولم تزل تثمر حتى شهد بخصبها جميع أهل الأرض ، كل هذا يدل على أن هذه الدعوة روح إلهية من نوع الأرواح التي يرسلها الحق لإحداث الانقلابات الكبيرة في الأرض ، ولكنها في هذه المرة دعيت لإحداث أكبر حدث عرفه البشر تغير له وجه الأرض ، ولما تفرغ من مهمتها بعد .

الأمر الخامس :

٥ — تحقق كل ما أنبأ به صاحب الدعوة من الحوادث الجسام قبل حدوثها ، يدل على اتصاله بالعالم العلوي ، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته :

من أعجب ما لازم الدعوة الاسلامية من علامات النبوة ، والمسلمون واقعون تحت كلاكل الاضطهادات الغاشمة ، وبعضهم كان هاربا بدينه عَبْرَ البحر ، والبعض الآخر لا يكاد يخرج من بيته مخافة أن يتخطف ، تأكيدات الحق جل وعز بأن الله سينصر أهلها على أعدائهم ، ويجعل كلمتهم العليا وكلمة الجاهليين السفلى . فلا مشاحة في أن هذه التأكيدات تعتبر من أعلام النبوة .

ومما هو مدهش محير للعقل ، ولا يقبل التعليل إلا بالنبوة ، مجيء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للمتأمل فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، ذلك مثل تبشير المؤمنين بأنهم سيخوّلون خلافة الله في الأرض ، نزلت هذه الآية حين كانوا بعد هجرتهم يبيتون ويصبحون في سلاحهم قائلين : هل يأتي علينا حين من الدهر نؤدي فيه شعائرنا آمنين في سربنا ، مطمئنين على وجودنا ؟ وهو قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وقد تحقق مؤدى هذه الآية ، فآلت الى الأمة الاسلامية خلافة الله في الأرض . والمراد بالخلافة كما هي في الآية الكريمة زعامة العالم ، لا الخلافة في الحكم ، بدليل قوله تعالى في تلك الآية : « كما استخلف الذين من قبلهم » .

ومما ينتظم فى هذا الباب من التنبؤات الدالة على الانقلابات الجسيمة المقدرة للبلاد العربية قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . لما نزلت هذه الآية لم يكن حدث بين المسلمين والمشركين قتال ، إذ كان نزولها أول وجودهم بالمدينة ، فقال عمر رضى الله عنه لما سمعها : « لم أعلم ما هو ، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع » . وقد اعتبر مفسرو القرآن الكريم هذه الآية من أعلام النبوة ، وإنها لكذلك ، فقد كان عدد المسلمين فى هذه الموقعة الكبيرة لا يبلغ ثلث عدد الجيش المغير ، ولكنه هزم شر هزيمة بعد ما هلك من قادته من لا يمكن تعويضهم .

ومما ينسلك فى هذا السلك قوله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين »

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تطوع بعض أصحابه لحراسته من الجاهليين ، فلما نزلت هذه الآية أخرج رأسه من حجرته وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس . وهذه من أقوى دلائل النبوة كسابقتها . وإلا فمن يستطيع أن يؤكد أن رجلا يتصدى لأمة برمتها ، يطعن فى ديانتها ، ويحقر من آلهتها ، ويسلم بنفسه منها ، على كثرة ما كان يُتقصد بالأذى ، حتى أجمعوا أخيرا على محاصرته فى بيته ، واشتراك جميع القبائل فى قتله . وقد ُقصد بالقتل بعد ما هاجر الى المدينة ، وخاض غمرات الحروب بنفسه ، فسلمه الله من جميع أعدائه .

ومما يتفق وهذا الموضوع قوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

وقد تحقق هذا الوعد وانتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع أعدائه أعداء الله وأنفسهم ، وانتشر الاسلام وعم نوره الأرض كما قال تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » وهذه الآية الأخيرة أيضا من أدل دلائل النبوة ، وفى القرآن من هذا كثير .

ومما يعتبر غاية فى تحدى أعداء الاسلام قول الله تعالى : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع ، (أى فليمدد بحبل الى سقف بيته ثم ليختنق ، فإن قَطع بمعنى اختنق) ، فلينظر ، هل يذهبن كيده ما يغيظ » ؟

محمد فريد وجدى



تفسير سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا بعد تفسير سورة الإخلاص أن نشرع فى تفسير « والشمس وضحاها » لتكون هذه الآيات الكونية التى ذكرت فيها كالدليل لما ذكر فى سورة الإخلاص من كونه أحدا صمدا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، مع بيان ما اشتملت عليه من الفوائد الجليلة، من طلب تزكية النفوس، والتحذير من سلوك طريق المكذبين لرسلهم « كثمود »، الى آخر ما سنقف عليه إن شاء الله تعالى. ولنقدم قبل ذلك مقدمة ينتفع بها القارئ ويخضع لها السامع فنقول :

اعلم أن القرآن هو البحر المحيط الذى يتشعب منه علوم الأولين والآخرين، إلا أن سر القرآن الأصفى ومقصده الأسمى، هو دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السموات العلى والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى. وإذا نظرت بنور البصيرة التى لم تتراكم عليها الظلمات ولا أفسدتها الآفات، لم تر فى الوجود غير الله وأفعاله، التى تقرأ فيها حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، ورحمة ليس لها غاية، وأسرارا ليس لها نهاية.

وقد أكثر القرآن من لفت نظرك إلى تلك الآيات التى امتلأت بها الأرضون والسموات، وقد تفنن فيها القرآن تفننا يستولى على العقول ويأخذ بمجامع القلوب، فتارة يأمرك بالنظر فيها على سبيل الإجمال فيقول : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »، ويقول : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون ».

وليس يخفى عليك أن الآية الكريمة تشير إلى أن من لم يتفكر فى ذلك فليس من قوم يعقلون. وتارة يلفت الأنظار بالثناء على المتفكرين فيها، فيجعلهم من أولى الألباب الذين أثمر لهم ذلك التفكير ذكر الله فى جميع أحوالهم، فيقول : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون

فى خلق السموات والأرض » . وتارة يلفت الأنظار اليها بالإقسام بها فيقول : « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها » الى آخره . وتارة يبين بها ما لله تعالى من عظمة ورحمة وكرم وعناية بخلقه ، وفى الوقت نفسه هى دلائل واضحات وآيات بينات تقسر القلوب على الالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، والغرق فى توحيده وتمجيده .

ولا بأس أن نتلو عليك بعض ما جاء فى ذلك حتى تعرف الفرق بين تلك الأدلة المظلمة التى تعرفها فى كتب الفلاسفة والمتكلمين من المتقدمين والمتأخرين ، حتى تقول بلسان حالك ومقالك : هذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . فانظر إن شئت الى مثل قوله : « الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقوله : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » وقوله : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » .

واعلم أن القرآن من عادته زيادة التقرير والتكرير ، علما بما عليه الانسان من الجهل العميق والحجاب الغليظ « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » فتراه يكرر ما تقدم بأسلوب آخر مع زيادة بيان وتوسع فى البرهان فيقول : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضِرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجناتٍ من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » الى أن قال : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل » . ثم يقول فى السورة نفسها : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » الخ الخ . ويقول : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمسَ والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » . ويقول : « وهو الذى يرسل الرياح » الخ . ويقول : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » الى أن قال : « إن فى اختلاف الليل النهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » . ويقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم

الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » . ولما كانت هذه الدلائل واضحات يتعجب معها من كفر الكافرين وجحود الجاحدين ، أزال ذلك ببيان سره الراجع الى تقديره الذى لا يغالب فقال : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » .

ولنرجع الى ذكر آيات التوحيد ودلائله فنقول : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » ويقول : « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » . الى أن قال : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » الى أن قال : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » ويقول : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » . ويقول : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . « قال فمن ربكما ياموسى . قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » الى أن قال فى وصفه تعالى : « الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » . ويقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، إن الله لطيف خبير » . ويقول : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » . ويقول : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » . ويقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » الى أن قال : « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » . ويقول : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » . ويقول : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم

خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » . « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » . « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » . « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » . « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » . « والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان » . ويقول : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » . « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » . « أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » .

وقد ذكر فى سورة الروم عدة آيات واضحة فقال : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا » . ثم قال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » . « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا » . « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » . « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون » الخ الخ .

ولنقتصر على هذا وهو قليل من كثير . وقد قال بعض فلاسفة أوربا : يكفينى من آيات الله أنه خلق الأنثى بجانب الذكر ، ومتعها بخصائص ليست فيه ليتم ما أراد منها . « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فقارن بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان . عظم والله البرهان ، وامتلأ الوجدان ، ووصل الى حد العيان ، وليس بعد العيان بيان .

وقد رأينا أن من المناسب جدا لهذا المقام أن نذكر لك شيئا مما قاله الإخصائيون عن سعة العالم لنعرف بذلك شيئا من عظمة الله تعالى وتقول ما قاله صلى الله عليه وسلم : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولنسمعك بعض ما قال أساطين علم الطبيعة بأوربا فى ذلك الموضوع حتى تعرف أن الملحدين ببلادنا كذبوا على علم الطبيعة الذى لم يأخذوا منه إلا قشورا ، فتشدقوا بها وكانوا قوما بورا . ولنبدأ بقول باكون : « من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عبا أوصله الى الخالق » . وقول سبنسر : « ليس الغرض من علم الطبيعة أن نعرف تلك الظواهر التى يعرفها تلاميذ المدارس ، بل الغرض الأسمى أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه

ما وراء الطبيعة » . ولقد صدق ، فالأرض مملوءة بالآيات ، فانظر تر الأرض يابسة فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية ، وتفرش أنماطا ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون وتعطيكم ما به تتداوون ، ثم هى مهاد لكم عليها تنامون ، وجمال لكم فى رياضها تتنزهون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء به تستشفون ، وجعل السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ويزجى السحاب ، « فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد » « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

ولعمر الحق إن هذا النظام البديع ليدل على قدرة باهرة أوجدته ، وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

أما سعة العوالم فنقربها اليك ببيان سير النور وما يقطعه من المسافات بالنسبة الى الكواكب المختلفة ، فنقول : إن النور يسير فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، فاضربه فى الدقيقة ثم فى الساعة ثم فى السنة الى آخر ما ستسمع ، فهذا النور الذى عرفت سيره السريع يصل الينا من الشمس فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض الى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها فى أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة ، فماذا تقول إن قلنا لك : إن الشعرى العبور لا يصل ضوؤها الينا إلا فى ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر لا يصل ضوؤه الينا إلا فى ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع فى ٣٠ سنة ، والعيوق فى ٣٢ سنة ، والسماك الرامح فى ٥٠ سنة ، الى أن تصل الى خمسمائة سنة وألف سنة ، وأكثر من ذلك على ما يبنوه . ولذلك يذهب بعضهم الى أن العوالم لا نهاية لها ، وإن كان علماؤنا لا يقولون بذلك بناء على أدلتهم العقلية التى تراها فى كتب التوحيد الفلسفية . ومجموع الذى علمه نوع الانسان إلى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم على ما يقولون .

ولتعلم أن من النجوم ما هو أضوأ من شمسنا بكثير ، حتى قالوا إن الشعرى تفوقها بخمسين مرة ، وبنات نعش تفوقها بنحو ثلاثمائة مرة ، والسماكين يفوقانها بنحو ستمائة مرة ، وإنما يظهر نور هذه النجوم لنا ضئيلا لشدة بعدها عنا ، وقد عرفت ما يقطعه النور فى الثانية الواحدة فماذا عسى أن يكون ما يقطعه النور بسيره السريع فى تلك المدد المتطاولة التى يحتاج اليها فى وصوله الينا ؟ فسبحان الكبير المتعال الذى تقصر العقول عن درك كماله ، وتخضع السموات ومن فيهن لعظمة جلاله ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

السُّنَّة

الايمان والاسلام

عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أي العمل أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمور ، أحـدها : معنى الايمـان والاسلام وبيان اختلاف آراء العلماء في معناهما . ثانيها : شرح معنى قوله : الجهاد في سبيل الله . ثالثها : شرح قوله : حج مبرور .

(١) اختلف العلماء في معنى الايمـان والاسلام اختلافا كثيرا ، وسبب ذلك يرجع الى ما فهمته كل طائفة من ظواهر الأحاديث الصحيحة ، فان بعضها يدل على أن الأعمال البدنية من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وغـير ذلك داخلة في معنى الايمـان ، وبعضها يدل على اتحاد الاسلام والايمـان ، وبعضها يدل على تغايرهما ، وبعضها يدل على أن الايمان هو التصديق فقط بدون ذكر للأعمال ، الى غير ذلك مما سنبينه لك هنا .

فعلى الذين يريدون الوقوف على معنى الايمان والاسلام أن يفرقوا قبل كل شيء بين المعنى اللغوي ، والمعنى الشرعي الذي يوافق اصطلاح كل طائفة من الطوائف الآتي ذكرها . فمعنى الايمـان في اللغة التصديق مطلقا ، سواء كان بالله ورسله أو بغـير ذلك . فمن صدق بالله كان مؤمنا في اللغة كمن صدق بإله آخر أو بآلهة متعددة كما هو الحال في المشركين الذين يعبدون الأصنام . أما معناه في الاصطلاح فاليك بيانه على الترتيب الآتي :

الأول : اصطلاح جمهور المتكلمين الأشاعرة ، قالوا : الإيمان : هو التصديق بالقلب . فمن صدق بقلبه بأن الله إله واحد ، وأن محمدا عبده ورسوله الى الناس أجمعين ، كان مؤمنا لا يخلد في النار يوم القيامة . وقد اتفق معظمهم على أن من صدق بالله ورسوله ثم أدركه الموت قبل أن ينطق بلسانه أو يعمل بجوارحه ، فإنه يـكون مؤمنا بينه وبين الله تعالى . وحجتهم في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان

فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : « أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » الخ .

فهذا يدل على أن الذى يؤمن بالله ورسوله لا بد أن يخرج من النار وإن كان قد يعذب على ما كسبه من عمل سىء . ولا سبيل الى جعل الإيمان فى الحديث بمعنى العمل الزائد على التصديق كما هو رأى لبعض الأئمة ، لأن الحديث صريح فى أن المراد بالإيمان هو المتعلق بالقلب ، وهو التصديق فحسب .

ولا منافاة بين هذا الحديث وبين ما أخرجه البخارى عن أنس وهو : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير » . وفى بعض الروايات « وزن ذرة من إيمان » بدل وزن ذرة من خير .

وذلك لأن حديث أبى سعيد الخدرى الذى يحتج به الأشاعرة معناه أن التصديق كاف فى الخروج من النار بدون أى عمل ، وحديث أنس معناه أن التصديق (مهما كان وصفه) مع قول لا إله إلا الله يكفيان فى الخروج من النار . وهو كذلك ، فانه إذا صح أن يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ، وإن لم يقل لا إله إلا الله ، صح أن يخرج منها من آمن وقال لا إله إلا الله من باب أولى ، فلا تنافى بين الحديثين .

هذا حكم من آمن بالله ولم يتمكن من النطق بالشهادتين ثم مات . أما من آمن بقلبه وعاش مدة يستطيع أن ينطق فيها بالشهادتين وعلم بوجوب النطق بهما ، فحكمه عند جمهور الأشاعرة كحكم الأول فى كونه غير مخلد فى النار ، لأن المدار فى ذلك على الايمان بالله ورسوله . وقد أورد على هذين الوجهين أن فرعون موسى مؤمن ، لأنه أقر بلسانه ولا بد أن يكون فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فى هذه الحالة مع أن المسلمين مجمعون على أنه ليس بمؤمن . نعم قال صاحب الفتوحات المكية : إن فرعون مؤمن بهذا القول . ولكن رأى صاحب الفتوحات هذا لا يخرق الإجماع . والواقع أن سياق الآية لا يؤيد صاحب الفتوحات وأنصاره ، وذلك لأن الله سبحانه لو علم منه الايمان حقا لرد عليه ردا جميلا ، ولكنه رد عليه بما يفيد أن إيمانه فى هذا الوقت لا يجديه نفعا . وكيف يصنع بقوله تعالى : « آلآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين » ؟ فهذا يدل على أن إيمانه لم يكن فى الوقت الذى ينفع فيه الايمان ، كما قال تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تبت الآن » . والرأى السديد فى بيان هذا الوقت هو أن يتأكد الانسان من موته ولم يبق له أى أمل فى الحياة . وقد ورد أن فرعون قال ذلك حين ألجمه الغرق وأصبح هالكا لا محالة . على أن صاحب الفتوحات المكية

قرر أنه سيعذب بما كسبت يداه ، ولكنه لا يخلد فى النار الى ما لا نهاية . وهذا مذهبه فى فرعون وغيره من الكافرين . فالواقع أنه لم يأت بجديد فى مسألة فرعون ، وذلك لأنه يرى أن الخلود والتأبيد الواردين فى القرآن معناها طول المدة . وقد وافقه على هذا الرأى ابن تيمية وابن القيم ، واستدل ابن القيم على ذلك بأدلة كثيرة فى كتابه : حادى الأرواح ، فمن أراد أن يعرفها فليرجع اليه .

ومن هذا تعلم أن جمهور الأشاعرة الذين قرروا هذا لم يقولوا إن مرتكب الجرائم التى نهى الله عنها لا يعذب عليها إذا مات ولم يتب ، ولكنهم يقولون إنه سيعذب على ما كسبت يداه ، ولله أن يعفو عنه إذا شاء ذلك ، وما كان لأحد أن يقدم على جريمة من الجرائم وهو يعتقد أنه على خطر عظيم ، وأنه لا يدرى هل تغفر له هذه الجريمة ويكون داخلا فيمن يصح أن يشاء الله لهم من المغفرة أو لا . فليس فى هذا الرأى تساهل فى الحث على أداء الواجبات الدينية والخلقية التى كلفنا الله بها .

هذا وظاهر الأحاديث التى تقدمت يقتضى أن التصديق يزيد وينقص ، وهو كذلك ، ولكن التصديق يطلق على الاعتقاد الجازم الحاصل عن دليل يقينى لا شبهة فيه ، وهذا لا يحتمل الزيادة والنقص ، ويطلق على التصديق الحاصل بالتقليد ، ولا شبهة فى أن مثل هذا التصديق قابل للزيادة والنقص ، فان الواقع المحس هو أن المصدقين متفاوتون فى استمساكهم باعتقادهم وإن تساووا فى اتصافهم به ، فترى اثنين من العقلاء يعتقدان عقيدة واحدة سرت اليهم من آبائهم أو من البيئة التى نشأوا فيها ولكن يمكن تشكيك أحدهما دون الآخر ، ويرجع ذلك الى قوة اعتقاد أحدهما دون الآخر ، فدل ذلك على أن التصديق لا يلزم أن يكون على حالة واحدة ، فاعتقاد القلب الجازم الذى لا يرتكز الى دليل يقينى ، قابل للقوة والضعف . وهذا هو رأى كثير من السلف ، منهم الامام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، ولهم على ذلك أدلة ، منها حديث أبى سعيد الخدرى وحديث أنس المذكورين ، ومنها قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا » . أما الامام أبو حنيفة فقد نقل عنه أنه قال : الايمان لا يزيد ولا ينقص ، وإن كان قد يتفاوت بأمور زائدة عليه خارجة عنه ، فقد تكون أسباب الايمان أكثر جلاء عند بعض الأفراد دون بعض ، فاذا ظهر السبب بنسبة واحدة كان التصديق متساويا عند الجميع ، مثال ذلك الحكم بحدوث العالم ، فانه بعد معرفة أدلته ودفع الشبه الواردة عليها يصبح كالحكم بأن الواحد نصف الاثنين . والأمر فى ذلك هين ، فان الحنفية يسلمون بأن الايمان يقوى ويضعف لا بحسب ذاته ، بل بحسب الأدلة الخارجة عن ماهيته . ولكن هذا تكلف لا حاجة اليه ، فان الظاهر يؤيد جمهور الفقهاء والمحدثين الذين لا يشترطون فى الايمان أن يكون بمعنى التصديق الجازم الحاصل عن دليل يقينى لا يحتمل التشكيك . هذا هو اصطلاح جمهور المتكلمين الأشعريين .

الرأى الثانى : للمعتزلة ، وهؤلاء قالوا : إذا تعدى الايمان بالباء كما إذا قيل : آمن به ، فان معناه يكون منحصرا فى التصديق الجازم . أما إذا ورد الايمان بدون تعدية بالباء فان معناه يكون شاملا للاعتقاد والأعمال والاقرار باللسان ، وهل أعمال الجوارح والاقرار باللسان داخلان فى ماهية الايمان الشرعى أو هما شرطان فى صحته ؟ الظاهر أنهم يقولون إنهما جزء من حقيقة الايمان ، وإن كان بعض شراح الحديث نقل أنهم يقولون إنهما شرط لصحته .

وعلى كل حال فان المعتزلة يقولون لا يتحقق الايمان إلا إذا اشتمل على ثلاثة أمور : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والأعمال التى كلفنا الشارع بها . فاذا ترك شيئا من ذلك لم يكن مؤمنا . وهل الأعمال التكليفية تشمل المندوبات أو هى مقصورة على الواجبات ؟ خلاف فيما بينهم . والمحققون منهم على أن المندوبات لا تدخل فى الايمان . وعلى كل حال فهم مجمعون على أن مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمن ، ويخلد فى النار إذا مات وهو مصر عليها ، وهو قول لا يلتقى مع كثير من نصوص الكتاب والسنة ، وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقوله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ، فهل من العدل أن يعمل الانسان صالحا فى كل أدوار حياته ثم إذا ارتكب كبيرة مرة واحدة ومات حبط كل عمله ؟ إن هذا فاسد لا شك فيه . نعم يحبط الأعمال كلها الردة عن الدين ، فاذا ظل عاملا طول حياته ثم ارتد عن دينه ومات حبط عمله بنص القرآن . ومن الغريب أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة يقول : إن ترك المندوب يهدم الإيمان ، فمن فعل مكروها يخلد فى نار جهنم . ومعنى هذا أن معظم المسلمين يخلدون فى نار جهنم ، فإن المندوبات لا حد لها ، فإذا فرض وترك الانسان مندوبا ولم يفعل ما يكفره ثم مات يخلد فى النار . وهل يقول بهذا عاقل ؟

الرأى الثالث : للخوارج ، وهؤلاء على رأى واصل بن عطاء فى هذا الموضوع ، فانهم يقولون : إن الإيمان بالله معناه المعرفة بالله وبكل ما وضعه الله عليها دليلا عقليا أو نقليا من الكتاب والسنة ، ويتناول طاعة الله تعالى فى جميع ما أمر به من فعل وترك صغيرا كان أو كبيرا ، فمن ترك خصلة من هذه الخصال فإنه يكون من الكافرين . وقد عرفت أن هذا رأى فاسد لا يعبأ الله به .

الرأى الرابع : للمرجئة ، وهؤلاء كانوا مع المعتزلة على طرفى نقيض ، فالمعتزلة أفرطوا ، والمرجئة فرطوا وقالوا إن كل الذنوب كبيرة كانت أو صغيرة لا قيمة لها بعد الايمان ، فمن آمن بالله ورسوله فقد نجا ولو كان زانيا سارقا قاتلا . وهذا فساد فى الدين لا حد له . ولعله

قد سرى الى هؤلاء من أن عقيدة الإيمان بالمخلِّص تكفى فى النجاة . ولئن صح هذا كانت التكاليف الشرعية عبثا ، وكانت الأوامر الالهية التى وردت فى كتاب الله وسنة رسوله لعبا .

والرأى السديد الذى يقتضيه صريح الدين ويؤيده العقل : هو أن الناس مجزيون بأعمالهم من خير وشر ، فمن عمل صالحا وهو مؤمن كان له على الله أن يدخله جنات النعيم ، ومن عمل سوءا وهو مؤمن فإنه يجزى عليه بالعذاب بقدر هذا العمل ، والمؤمنون بالله ورسوله لا يخلدون فى نار جهنم وإن كانوا يعذبون بحسب أعمالهم كما ذكرنا ، والكتاب والسنة يؤيدان ذلك فى كثير من المواضع ، أبرزها قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذا أهم ما قيل فى الإيمان ، ولا يخفى أن الحديث الذى معنا يدل على أن الإيمان غير أعمال الجوارح ، لأن السائل سأل عن العمل مطلقا سواء كان عمل القلب أو عمل الجوارح ، فأجابه الرسول صلوات الله عليه : أفضل الأعمال عمل القلب وهو الإيمان ، فأطلق الإيمان على عمل القلب .

أما الجهاد والحج فهما من الأعمال الظاهرة . وهو دليل لمن يقول : إن الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان .

أما الاسلام فمعناه لغة : التسليم وترك الاعتراض فيما لا يلائم . أما فى الشرع فانه قد ورد على ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه مرادف للإيمان ، ثانيها : أنه مغاير للإيمان ، ثالثها : أنه جزء من الإيمان داخل فيه .

مثال الأول قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » . ومعنى الآية : فأخرجنا آل لوط المؤمنين من القرية التى كان يسكنها قومه فلم نجد فيها غيرهم ، إذ لم يكن بين قوم لوط مؤمن سوى آل لوط إلا امرأته ، فسماهم الله أولا مؤمنين ، وسماهم ثانيا مسلمين ، فدل ذلك على أن الايمان والاسلام متفقان فى المعنى .

ومثال الثانى قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » فان معنى أسلمنا : أظهرنا الاسلام والخضوع وقلوبنا غير مصدقة ، فالاسلام هنا مغاير للايمان .

ومثال الثالث : ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الاسلام ، فقيل له : أى الاسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الايمان . فدل ذلك على أن الايمان داخل فى الاسلام وجزء منه .

(٢) وأما الجهاد فى سبيل الله فهو فريضة من أهم الفرائض الدينية ، والعناية به ينبغى أن تكون فوق كل عناية ، وذلك لأنه يتوقف عليه عز الأمة وصيانة دينها وكرامتها . ولقد كان المسلمون الأولون لا يحرصون على شىء فى الحياة الدنيا إلا على العزة والكرامة والمحافظة

على دينهم بجميع الوسائل المشروعة ، وأولها الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة المغيرين الذين يريدون أن يستذلوهم ويسلبوهم مجدهم وكرامتهم ويعبثوا بأخلاقهم ودينهم . وإن لنا فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن حذا حذوهم من المؤمنين حقا أكبر العظات وأجمل العبر . ولعلنا نوفق الى أن نكتب للمسلمين المتفرقين الذين طغت عليهم الشهوات الفاسـدة من ذلك شيئا إن شاء الله .

(٣) وأما الحج المبرور : فهو من أجل وسائل التهذيب ، وأعظم قواعد الاسلام المبنية على ضرورة التعارف والاتحاد والتناصر والتواد . ففى الحج خضوع لله عز وجل ، وذكر لعظمته التى لا تحدها العقول ، وفيه منافع للناس من تعارف وتواد ، وفيه ذكر لليوم الآخر . وسنعود الى الـكلام عليه بعد لضيق المقام الآن ، والله الموفق المعين ؟

عبد الرحمن الجزيرى

فضيلة الحياء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لـكل شىء خلقا وخلق هذا الدين الحياء » .

قال علماء الأخلاق فى تحديد الحياء : إنه التوقى من فعل المساوئ خوف الذم . وهـذا ما عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله لأبىٍّ : عليك بالحياء والأنفة ، فإنك إن استحييت من الغضاصة تجنبت الخساسة .

قال حكيم : من المروءة أن لا تعمل شيئا فى السر يستحيا منه فى العلانية .

وقال عمر بن بحر الجاحظ : الحياء لباس سابغ ، وحجاب واق ، وستر من العيب ، وأخو العفاف ، وحليف الدين ، ورقيب من العصمة ، وعين كالئة تذود عن الفحشاء ، وتنهى عن ارتـكاب الأرجاس ، وسبب الى كل جميل .

وقال حـكيم : لا ترض قول امرئ حتى ترضى فعله ، ولا ترض فعله حتى ترضى عقله ، ولا ترض عقله حتى ترض حياءه ، فان ابن آدم مجبول على أشياء من كرم ولؤم ، فاذا قوى الحياء قوى الـكرم ، واذا ضعف الحياء قوى اللؤم .

وقال غيره : لا يزال الوجه كريما ما دام حياؤه ، ولم يرَق باللجاجة ماؤه .

وقال شاعر :

ورب قبيحة ما حال بينى وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولـكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

من هو الولى ؟

يتساءل كثير من الناس عن حقيقة الولى ومميزاته ، ويحارون فى معرفة ذلك حين يرون أو يسمعون أن بعض الأشخاص يلزم بيته ، فلا يخرج لصلاة ، ولا يؤدى عبادة ، ومع ذلك يجد من يعتقد فيه الولاية ، ويتبرك به ، ويستشفى بزيارته ، ويستنبئه عن المغيبات وما يجرى به القدر من الوقائع والحوادث ، ثم يتأول عدم صلاته بأن له أحوالا خاصة تسقط عنه الفرائض ، أو يزعم أنه يصلى عند البيت الحرام ثم يعود من غير أن يشعر به أحد .

ولقد يكثر الجدل عندنا فى مثل هذه المسائل ، ويشتد النزاع عليها ، ثم لا يصل المتنازعون الى نتيجة حاسمة ، أو غاية واضحة ، تقضى على أسباب النزاع ، وتزيل ما شجر من خلاف ؛ ولو أنهم إذ يتنازعون يرجعون الى قول الله ورسوله ، ويرضون به حكما ، لخلصوا أنفسهم من الحيرة ، واهتدوا بعد الضلال ، وظهر لهم الحق واضحا لا لبس فيه ولا إبهام : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وها نحن الآن نقرر المسألة التى نحن بصددها مستندين فيما نقرر الى ما نطق به الكتاب العزيز ، وما ورد عن الصادق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، وما روى عن بعض الصوفية ، ليعلم هؤلاء الأدعياء حظهم من الدين ، وإلى أى حد جنوا على صلتهم بأسلافهم ، وابتعدوا عن هديهم وطريقهم ، فنقول وبالله التوفيق :

قال الله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » . فمن هذه الآيات ، نتبين أن الولى هو الذى جمع الى الايمان الكامل التقوى الدائمة المتصلة ، ومن هنا قالوا : إنما سمى الولى وليا ، لأن الله قد تولاه بالمعونة والنصر ، والتأييد والحفظ ، أو لأنه قد والى بين طاعات الله ، وواصل بين أعمال البر والخير ، فلم يفعل من المعاصى والشرور ما يقطع تلك الحلقات المتصلة المتوالية . وإذا كانت الولاية الحقة تعتمد أمرين : الايمان الكامل ، والتقوى الدائمة ، فقد تكفل القرآن الكريم ببيانهما وشرحهما فى غير آية ، اقرأ قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . وقوله جل شأنه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى

ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . واتل إن شئت « إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » الى غير ذلك من الآيات ، وهى كثيرة ، وكلها ناطقة بأن الإيمان لا يتم ، والتقوى لا تتحقق — وهما حقيقة الولاية — إلا باقامة الفرائض ، والمحافظة على الشعائر ، والسبق الى الخيرات ، والتزام الحدود .

ويحدثنا البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الىّ عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » . فالحديث يبين أن أولياء الله هم الذين يتقربون اليه بما فرض من فرائض ، وشرع من واجبات ، ثم يرقون من ذلك الى الاستزادة من فعل النوافل والمندوبات ، لتصفو نفوسهم ، وتستنير قلوبهم ، فمن كان كذلك قربه الله اليه ، وأدناه من حضرته ، ورقاه الى درجة الاحسان ، فعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلىء قلبه بمعرفة الله ومحبته ، وتعظيمه وإجلاله ومهابته ، والأنس به والشوق اليه ، ومتى امتلأ القلب بذلك ، محا عنه كل ماسواه ، ولم يبق للعبد شىء من نفسه وهواه ، فلا إرادة له إلا ما يريده منه مولاه ، وحينئذ لا ينطق إلا بذكره ، ولا يتحرك إلا بأمره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سمع سمع بالله ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به ، فلا تنبعث الجوارح إلا بالطاعة ، ولا يصدر عنها إلا ما يرضى الله . والحديث يبين بعد أن من نتائج تلك المحبة أن العبد إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه ، وإذا استعاذ به من شىء أعاذه منه ، وإن دعا أجابه ، لمنزلته منه ، وكرامته عليه .

وفى مسند الامام أحمد من حديث عمر رضى الله عنه : « إن من عباد الله ناسا ما هم بأنبياء ولاشهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله تعالى ، قالوا : يارسول الله من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا هذه الآية « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » . والحديث يصف لنا الأولياء ببعض مميزاتهم وأوصافهم ، وأنهم يتحابون فى الله ، ويجتمعون على طاعة الله ، من غير أن تكون بينهم أرحام أو أنساب تربطهم ، ومن غير أن تكون لهم أغراض دنيوية تجمعهم .

وروى البزار من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رجل : يارسول الله من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رُءوا ذُكر الله » أى أن لهم من حسن السمت فى الطاعة وآثار الصلاح

ومظاهر التقـوى ، وعلامات الخضوع والإخبات والانابة ، ما يذكر الناس بربهم ، ويحملهم على التأسي بهم ، والاقتداء بأفعالهم .

فهذا بعض مما نطق به القرآن ، وجاءت به الأحاديث فى بيان الأولياء ، وشرح مميزاتهم وخصائصهم ، فمن تحقق بها وكمل بها نفسه ، فقد صار فى زمرتهم ، وليس بلازم أن يخرق الله له العادات ، أو يظهر على يديه من الكرامات ما هو غير معهود ومألوف (كالمشى فى الهواء ، والمشى على الماء ، والإخبار بالمغيبات) مما يرى بعض العامة أنه ضرورى للولاية . وحسبه كرامة عناية الله به ، ورعايته له ، ومحبته إياه ، ووقايته من الفتن والشهوات ، وحفظـه من المعاصى والمنكرات ، حسبه أن الله وليه وناصره ، ومعينه ومسدده ، وأنه سميـع لدعائه ، مجيب لندائه ، محارب من يعاديه ويؤذيه ، موال من يحبه ويواليه .

فأين مما ذكرنا أولئك الذين يدعون الولاية ويحترفون بها ؟ هل يعرف الدين أن الولاية حرفة وباب رزق يدر على الولى الأموال الطائلة من الجهلة والبسطاء ؟ وهـل تتفق الولاية مع هذا الجشع والاحتيال على الدهماء ؟ ولماذا لا تنفح النفحات ولا تمنح البركات إلا بالنقود يبذلها السفهاء ؟ وهل تبقى ولاية لمن يسأل الناس ويتكففهم بعد قول إمام الأنبياء وسيد الأولياء وصفوة الأتقياء صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة من لحم » ؟

لكن القوم — عافاهم الله — يدعون أن لهم أحوالا تغاير أحوال الشريعة ، وأن الشريعة شىء والحقيقـة شىء آخـر ، فعملهم خاضع للحقيقة وإن أنـكرته الشريعة ، لذلك يبيحون لأنفسهم أن يسألوا غير الله ، ويحتالوا على جمع المال بشتى الوسائل والأساليب ، فيجلس أحدهم فى بيته فيأتيه الأغرار للاستشفاء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، وتزويج الأيامى وتوظيف العاطلين الى آخره ، وليس عليهم بعـد ذلك من حرج إذا تركوا الصلاة والصوم ، وهجروا شعائر الدين ، واختلطوا بالنساء ، ما داموا قد تحللوا من قيود الشرع وصارت لهم أحكام خاصة بهم . ومن العجيب أن هذه الدعوى الفاسدة لا تزال تجد عقولا تصدقها وتخدع بها ، ولا تزال تجد من يروج لها من العامة وأشباه المتعلمين ، وهى تتصل الى حـد كبير بما أدخل على طرق المتصوفة فى زماننا من الأحداث والبدع المنافية للدين .

فقد كان الغرض الأسمى من التصوف عند السلف الصالح ، هو رياضة النفوس وتهذيبها ، ومعالجة أمراض القلوب وإصلاحها ، والأخـذ بعزائم الأمور ، والزهادة فى متاع الغرور ، كل ذلك على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ، كما يعلم ذلك من تتبع أحوالهم ، ودرس تراجمهم ، واطلع على مؤلفاتهم ، وقرأ مالهم من الحكم الجليلة والمواعظ المفيدة ، ورأى أنهم كانوا على علم

بالدين أضافوا اليه الاخلاص فى العمل به ، والسير على منهجه ، فكان لهم بذلك أثر طيب فى تهذيب النفوس وإرشادها ، وهدايتها من ضلالها ، وكانت لهم جولات صادقة فى الدعوة الى الله ، ومجتمعات حافلة للتذكير والإرشاد ، أنجبت كبار الوعاظ والزهاد .

أما اليوم فقد أصبحت الطرق — إلا ما عصم ربك — وسائل لكسب العيش ، وفرض الضرائب والأتاوات ، وأسندت شئونها لكثير ممن يجهل الضروريات من دينه ، ولا يعرف السنة من البدعة ، ولا يدرى متى تصح العبادة ومتى تبطل ، ولا يستطيع أن يعالج قلبه من مرض العجب والحسد وحب الشهرة والصيت . فلا الشريعة درسها ، ولا الحقيقة عرفها . أصبح التصدى لإرشاد الناس بدعوى التصوف ميسورا لكل أمى جاهل ، لا يعرف صفات ربه ، ولا سيرة نبيه ، فيبتدعون فى الأذكار ما تمليه أهواؤهم ، وتحسنه شهواتهم ، ولا تسل عن تحريف فى أسماء الله وتمايل ورقص ، وصفير وضرب بالدف ، وغير ذلك من كل ما يخالف الآداب ، ويبرأ منه سلفهم الأولون . وليس من شك فى أنه كان لهذا أثره السيئ فى قلب الأوضاع وانعكاس الأفهام ، وظهور بعض من رجال الطرق بمظهر الولاية الزائفة ، والصلاح المصطنع الذى لا يرتكز على أساس من الدين ، ولا يمت بسبب الى صفات المتقين .

قال العلامة الألوسى فى تفسيره نقلا عن بعض المحققين ما يأتى :

« الشريعة ثلاثة أجزاء : علم ، وعمل ، وإخلاص ، فالم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة ، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى ، وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية « ورضوان من الله أكبر » . فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ، ولم يبق مطلب وراء الشريعة ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة فى تكميل الجزء الثالث الذى هو الاخلاص ، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك » .
ثم نقل عنه أيضا ما يأتى : « فتقرر أن طريق الوصول الى درجات القرب الإلهى منحصر فى طريق الشريعة التى دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار مأمورا بها فى آية « قل هذه سبيلى أدعو الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى » . وآية « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » تدل على ذلك أيضا ، وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال ومنحرف عن المطلوب الحقيقى ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهى زندقة ، وشاهد ذلك آية « وأن هذا صراطى مستقيما » وآية « فماذا بعد الحق إلا الضلال » وآية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا » وحديث « خط لنا النبى صلى الله عليه وسلم » الخبر (١) ، وحديث « كل بدعة ضلالة » .

(١) يشير الى ما رواه الامام أحمد من حديث ابن مسعود قال : « خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقال سيد الطائفة الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا العلم ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو الحسين النورى : من رأيته يدعى مع الله حالا تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربه ، ومن رأيته يدعى مع الله حالة لا يشهد لها حفظ ظاهره فاتهمه على دينه .

والنتيجة إذاً أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد الولاية فى شخص لا توافق أعماله ما جاءت به الشريعة ، على نحو ما فصلناه . أما دعوى الصلاة فى مكة ، فهى دعوى لا يقام لها وزن ولا يلتفت اليها ، كما أن الدراويش والمجاذيب لا تثبت لهم الولاية من أجل (دروشتهم وانجذابهم) إذا كانوا فى ذهول حقيقى قد أثر على عقولهم ، فأصبحوا لا يدركون ما حولهم ، ولا يستطيعون تأدية واجبهم ، فكيف لو كان ذهولا ادعائيا ، كما هو الغالب الكثير ؟! ولكنهم اصطنعوه للتمويه على الناس ثقة منهم بأن هذا هو السبيل الذى به تعتقد ولايتهم ، لما وقر فى نفوس العامة من أن هذا المظهر من دلائل الولاية وعلامات البركة ، كأن الولاية وقف على كل أبله (عبيط) يلقى الكلام جزافا ، وينطق بالألغاز والعبارات التى لا يفهم لها معنى ، ولا يدرك لها مغزى ، ويلبس المرقعات ، ويمشى فى الأسواق حافى القدمين مكشوف الرأس عارى الجسم . اللهم إن الحق أبلج ، والطريق واضح ، والسبيل نير ، ولكن أكثر الناس يجهلون ، فهل آن لهم أن يسلكوا الطريق المستقيم ، وأن يعتمدوا فى آرائهم وأعمالهم على ما نزل به الذكر الحكيم ، وأن يستمدوا معلوماتهم من هدى الرسول الكريم ؟ « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

رزقنا الله محبته ومحبة أوليائه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب ؟

احمد قطب

الواعظ بالقاهرة

العفو من شيم الكرام

كان المأمون ممن أوتى العفو طبعا لا تكلفا ، حتى إنه قال : « إنى لأستملى العفو حتى أخاف أن لا أوجر عليه ؛ ولو علم الناس قدر محبتى للعفو لتقربوا الى بالذنوب » . وما أحسن ما قيل فى العفو شعرا :

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

الاخلاق والتصوف عند الغزالى

تمهيد :

كانت الأخلاق قبل الغزالى تستمد عناصرها من ثلاثة منابع مختلفة : الأول الكتاب والسنة وآثار السلف من صحابة وتابعين ومن والاهم من أتقياء المسلمين .

الثاني : الحكم والأمثال الشعبية من عربية وفارسية .

الثالث : مذاهب فلاسفة الاغريق التى ترجمها العرب وشرحوها وعلقوا عليها ، وانتصر كل فريق منهم لبعضها وألف فيه وبرهن على صحته كما فعل إخوان الصفاء وابن مسكويه وابن سينا . فلما جاء الغزالى ودرس كل هذه المنابع دراسة عميقة لم يسعه إلا أن يكون منها مزيجا صالحا يؤسس عليه مذهبه . غير أنه اعتبر الكتاب والسنة جوهرين أساسيين ، فاعتنق كل مالاءمهما ، ونبذ فى غير تردد كل ما كان معهما على خلاف . وإذاً فهو لم يتخذ لمذهبه أساساً حقيقياً من أخلاق الاغريق أو من الأخلاق الشعبية ، وإنما اتخذ من هذين العنصرين ناصرا لمذهبه ومعينا على إيضاحه ونشره .

نصيب الأخلاق من النظر عنده :

ليس علم الأخلاق عند الغزالى وحدة فلسفية لها أساس معين اتبع فيه واضعه نظرية خاصة من نظريات ما وراء الطبيعة كما هو الشأن عند جميع الفلاسفة الأخلاقيين . ولهذا لم يحاول معالجة المشاكل الأخلاقية من ناحية النظر العقلى البحت ، بل وصل الى تكوين بعض القواعد النظرية عن طريق استقراء جزئياتها العملية الوارد عليها النص فى الكتاب والسنة ، فبدل أن صرح الفلاسفة النظريون بأن الحكم المسموع القول فى مقاييس الخير والشر هو العقل أو هو الضمير أو البصيرة ، ثم وضعوا الخير والشر ومقاييسهما النظرية نصب أعينهم وأخذوا يطبقون كل ما يشاهدونه من جزئيات خارجية على هذه المقاييس ، صرح الغزالى بأن الحكم الأوحد فى الخير والشر والحسن والقبح ليس هو العقل ولا الضمير ولا البصيرة ، وإنما هو الشرع . ولما لم يكن الشرع قد وضع قواعد عامة فقد اضطر الغزالى الى أن يرجع الى الجزئيات الخارجية . فاذا سئل مثلا عن الخير فى ذاته لم يجب سائله إلا بعد أن يستوضحه عن الجزئيات التى يتكون منها هذا الخير ، فاذا أجابه محادثه بقوله مثلا : إنه يتكون من الصدق والأمانة والعدالة والحياء والاحسان ، طلب اليه أن ينظره الى أن يرى حكم الكتاب والسنة فى هذه الجزئيات ، ثم أخذ بعد ذلك يستعرض ما ورد فى الشرع بازائها ، حتى إذا استأكد

من أنه حث على التخلق بها ، ونهى عن أضدادها ، أعلن أن الكلية المؤلفة من هذه الجزئيات ومما يماثلها فى أمر الشرع بها هى الخير حقا .

وعند الغزالى أن الأخلاق ليست مقصودة لذاتها ، وإنما الغاية منها هى تطهير النفس من الأدران وجعلها صالحة للتصوف . ومن أجل هذا عنى عناية فائقة بألصق الأخلاق بالتنسك ، فسمى الخمول فضيلة ، وأثنى كثيرا على الإخلاص والصبر والاحتمال ، وهاجم الرياء والكبر والتكبر والعجب فى شىء من العنف ، وساق على قبحها من الآيات والأحاديث والآثار ما يصورها فى أبشع الصور وأفظعها . ولكن ليس معنى هذا كله أن الغزالى قعد عن وضع القواعد الأخلاقيه ، كلا ، بل إنه تصرف فى هذه النظريات تصرف الرجل العالم المثقف الذى له آراء خاصة وأفكار شخصية .

وفوق ذلك فإنه كان من أدق علماء النفس العالميين وأعمقهم فى اكتشاف خفايا النفوس ودقائق الفروق القائمة بين الأفعال والتى لا يقوى على إدراكها إلا كل ذى بصيرة نفاذة ، وقد أهلته هذه الدقة الى أن يكون أقدر أهل عصره كافة على تعيين الفوارق الأخلاقية الدقيقة وتنظيمها ، كما جعلت أكثر ملاحظاته الأخلاقية بحوثا دقيقة عميقة عن بسائط الفوارق ، وهذا هو السر فى شعور الباحثين بتعذر تلخيصها عليهم ، وفى اكتفائهم بذكر أمثلة قيمة منها .

تعريف الخلق وإمكان تغييره :

يعتبر التعريف النظرى الذى وضعه أبو حامد للخلق إفشاء من جانبه لذلك السر الذى كان دائما يحرص على كتمانه ، وهو تأثره بالاغريق ، وإن لم يكن هذا التعريف هو الوحيد الذى سبق به قائله فى البوح بهذا السر ، كما سنشير الى ذلك فى شىء من الإيجاز . وإليك هذا التعريف :

« الخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا » (١)

وعنده أن الخلق أو هذه الهيئة الراسخة فى النفس قد تكتسب من البيئة فتحسن بعد سوء ، وتسوء بعد حسن . ولذلك خطأ الذين قالوا بعدم إمكان تغير الأخلاق ، ورماهم بالقعود عن محاولة سلوك سبل الخير ، وهاجم رأيهم مهاجمة عنيفة ، وبرهن على صحة ما ذهب اليه بأنه ما دام أن طباع الحيوانات تتغير ، فطباع الانسان أحرى بذلك ، وأنه لو كان تغير الأخلاق مستحيلا لما كان للوعظ والإرشاد أية قيمة . وهو فى هذا يقول :

(١) انظر صفحة ٤٦ من الجزء الثالث من كتاب « إحياء علوم الدين » طبعة الحلبى .

« اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه ، استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، فان الطباع لا تتغير ، واستدل فيه بأمرين : أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر ، فالخلقة الظاهرة لايقدر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى ؛ والثانى أنهم قالوا : حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمى ، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة ، فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة ، وذلك محال وجوده ، فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم . وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، وتغيير خلق البهائم ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية ، والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق (١) » .

وعنده أن الأصل فى الفطرة الانسانية هو الخير ، أما الشر فهو عروض التشوه لهذه الفطرة السليمة . ولهذا يمكن إزالة هذا التشوه وإرجاع الفطرة الى سلامتها الأولى وجمالها الطبيعى . وهو فى هذا يقول : « وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح فكيف لا تستلذ الحق لوردت اليه والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل الى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب ، فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر ربانى ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض عن طبعه (٢) » .

وهو يرى أن أولئك الذين حادوا عن الفطرة ويراد إعادتهم الى الخير وترويضهم عليه ينقسمون الى أربعة أقسام :

القسم الأول : الانسان الغفل الذى يأتى المحظور وهو لايعرفه ، ويسمى جاهلا ، وصلاحه سهل .

القسم الثانى : الذى عرف الحسن من القبيح ، ولكنه قد تعود القبيح ، ويسمى فى نظر الغزالى جاهلا وضالا . أما نحن فلا نرى معنى لتسميته جاهلا إلا إذا وافقنا على رأى سقراط

(١) انظر صفحة ٤٨ من نفس المصدر . (٢) انظر صفحة ٥١ من الجزء المذكور .

القائل بأن العلم يستلزم الفضيلة ، والجهل يستلزم الرذيلة ، لأن العلم والفضيلة ، أو الجهل والرذيلة كالماء والثلج ، حقيقتهما واحدة ، وصورتاهما مختلفتان . ولا ريب أن هذا هو أحد آثار الفلسفة الأغريقية على أبى حامد ، ولكننا نميل الى تسمية هذا القسم ضالا فقط .

القسم الثالث : الذى يرى الشر خيرا ، والحسن قبحا ، ويسمى : جاهلا وضالا وفاسقا . ولا يرجى صلاحه فى نظر الغزالى إلا على الندرة .

القسم الرابع : من يفعل الشر ويتباهى به ويفخر ، وهو أصعب الأشخاص فى الرياضة ، ويسمى جاهلا وضالا وفاسقا وشريرا .

الارادة عنده :

يسمى أبو حامد الارادة بالنية ، ويعرفها بأنها هى المنبعثة عن المعرفة والباعثة للقدرة ، وهو يجعلها أساسا للعمل ويرفعها عليه ويعتبرها خيرا منه كما اعتبرها الحديث النبوى ، فقال : « إنما الأعمال بالنيات » و « نية المرء خير من عمله » . والارادة فى رأيه تضعف وتقوى بالرياضة والتمرين ، فكما أن فى إمكان الفرد أن يضعف إرادته بالاهمال ، يستطيع كذلك أن يقويها بالعناية . وإليك ما يقوله فى هذا الشأن :

« وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فان المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات ، فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفا ، فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع ؛ وإن خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله وانكسر ، وربما زال ، بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمحاورة ، تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ؛ ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعا فى وجهه حتى يضعف ، لأن بين الجوارح والقلب علاقة حتى إنه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر ، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه هو الأمير والراعى ، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع (١) »

التصوف عنده :

كان الغزالى شديد الميل الى القراءة ، واسع الاطلاع ، غزير الثقافة ، لم يدع مذهبا فى عصره إلا عرفه ، ولا رأيا إلا ألم به . ولهذا استطاع أن يهضم نظريات الفلاسفة هضما يمكنه من

(١) انظر صفحة ٣١٤ من الجزء الرابع من « إحياء علوم الدين » .

بسطها ومناضلتها ، واستطاع أن يتغلغل الى علم الـكلام فيعرف ما فيه من نفع وضر ، وما ينتج من الاشتغال به من خير وشر ، وأن يصدر بعد ذلك حكمه الفاصل الذى قسمه الى قسمين ، وحدد لـكل قسم منهما أهله الذين يجوز لهم الاشتغال به ، واستطاع كذلك أن يكوّن للأمة العربية فى الأخلاق والتربية وعلم النفس تراثا صالحا منظورا إليه من علماء أوروبا فى العصر الحديث بعين الاحترام والإجلال .

بهذا العلم الواسع ، وبذلك النشاط النادر اللذين أوصلا الغزالى الى معرفة كل ما فى عصره ، استطاع أن يدرس منتجات الصوفية دراسة عميقة دقيقة كما هو شأنه فى كل ما درس ، فأحاط بمخلفات : المحاسبى والمزنى والشافعى وحرملة والجنيـد والحـلاج وأبى طـالب المـكى ، والقشيرى والبسطامى وغـير هؤلاء ، إحاطة مكنته من معرفة مذاهبهم المختلفـة ، وآرائهم المتباينة ، ثم أخذ يفـكر فى هذه الآراء طويلا حتى انتهى به تفكيره الى أن المعرفة البصيرية التى لا تجىء عن طريق الحواس ممـكنة بدليلين ، الاول : أن الأنبياء عرفوا من طريق غير طريق الحواس ، وشاهد ذلك معجزاتهم الباهرة . والدليل الثانى : أن العالم قسمان : مرئى وغير مرئى ، وليس من الطبيعى أن يكون للمرئى أدوات يعرف بها دون الغير المرئى ، فإذا كانت أدوات المرئى هى الحواس ، فأدوات الغير المرئى هى البصيرة ، وعلى ذلك ثبتت المعرفة البصيرية ، وإذا ثبت إمكان هذه المعرفة ، وجب الاشتغال بالبحث عن وسيلتها التى ليست شيئا آخر إلا التصوف العملى الذى لا يكاد المرء يبدأ فيه بإخلاص حتى يشاهد طلائع نتائجه ، ثم يظل يرقى من درجة الى ما فوقها حتى يفوز بما شاء الله له به ، وهو يصف هذا فيقول :

« ومن أول الطريقة تبتدىء المـكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائـكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق (١) » .

غير أنه يلاحظ أن هذين الدليلين اللذين ساقهما أبو حامد لا يقنعان إلا المؤمنين بالأنبياء وبالعالم « اللامرئى » . ولعله كان يريد مناقشة المسلمين الذين آمنوا بالوحى من ناحية ، وأنـكروا الـكشف من ناحية أخرى ، وهو لذلك يقول : « وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء هى على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل الى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمدا عشق ربه (٢) » .

ومهما يكن من الأمر ، فقد اقتنع الغزالى بوجود المعرفة « اللاحسية » ولـكنه أيقن بأنها مستحيلة بدون التصوف العملى الذى يبدأ بقطع علائق الحياة الدنيا وهجر الأموال والمناصب

(١) انظر صفحة ٢٨ من كتاب المنقذ من الضلال للغزالى (٢) انظر صفحة ٢٩ من المنقـذ .

والشهرة والجاه واعتزال المجتمع كما أشرنا الى ذلك آنفا ، فجعل هـذا اليقين يعذبه ويشقيه ويصرفه عن كل ما حوله ، ويفزه من جميع مظاهر الحياة زهاء ستة أشهر . وبعـد هذه المدة اعتزل العالم وخلص لربه يناجيه ويصافيه ، ففتح له ـ كما يقول ـ الباب ، وزال من أمامه الحجاب ، فانغمس فى الغيبوبة وانسكب عليه الالهام وفاز بالمعرفة . وهو فى هذا يقول :

« وآثرت العزلة أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال ، وضروريات المعيشة تغير فى وجـه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لـكن مع ذلك لا أقطع الطمع منها فتدفعنى عنها العوائق وأعود إليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانـكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها (١) » .

غير أن هـذه المعرفة — فى رأيه — معرفة عجيبة لا يمكن التعبير عنها بلغة هذا العالم ، فإذا حاول من أوتيها التعبير عنها وقع فى الخطأ ، وإذا تمادى هوى فى الضلال ، لأنه لا يلبث أن ينطق بألفاظ توهم الحلول أو وحدة الوجود أو غير ذلك من المذاهب الضالة . وإذاً فمن الخير للمتصوف ألا يزيد على قوله : عرفت ولا أدرى ماذا عرفت . وإليك نصيحته فى هذا المقام :

« ولا يحاول المعبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه . وعلى الجملة : ينتهى الأمر الى قرب يكاد تتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب « المقصد الأقصى » بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر (٢) »

رأينا من كل ما تقدم أن أبا حامد يؤمن بالمعرفة البصيرية ، ويرى أن وسيلتها هى التصوف ، ويؤمن كذلك بأن حالة المتصوفين تشبه حالة الأنبياء قبل الرسالة ، ويعتقد أن الانسان قد يصل الى الـكمال الأخـلاقى إذا فصم عرا الصلات بينه وبين المـادة ، ورأينا كذلك أنه يسخر من المرتابين الذين لا يؤمنون إلا بالحواس ومعارفها الظاهرة ، ولاحظنا أيضا أنه لا يقر الحلولية ولا الوحدية اللتين فهمتا من تعبيرات بعض من سبقوه من الصوفية ، وأنه عد هذه التعبيرات منهم خطأ أوقعهم فى التهمة ، وأوقع الجماهير فى سوء الفهم .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر صفحة ٢٩ من نفس الـكتاب . (٢) انظر صفحة ٢٨ من الـكتاب المذكور .

حياة رجالات الإسلام

على بن أبى طالب

— ١٠ —

مرت حياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى طورين عظيمين ، اختلفت مظاهرها اختلافا كبيرا ، قد يجد الباحث فى أول وهلة شيئا من العناء فى سبيل توحيد أحداثهما التاريخية حتى تتألف منها شخصية تاريخية واحدة ، لما يخاله الناظر فى الحوادث من المفارقات التى تستتر أسبابها وعللها وراء حجاب من مسابقة الوقائع وتتابعها ، حتى إذا سبر غورها وحللها الى مناشئها ، وردها الى مصادرها ، تضامت والتأمت صورة واحدة تعبر عن طبيعة واحدة بألوان تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية وأطوارها ، ولم تكن ثمة بيئة اجتماعية أسرع تطورا ، وأرمى بالحوادث من البيئة التى عاش فيها أبو حسن كرم الله وجهه .

وقد كان لهذه البيئة الأثر الفعال فى تكوينه ، فهو ربيب النبوة وحضين الوحى ، لا يرى ولا يسمع إلا الحق والصدق ، ولا يعرف إلا الصراحة والاخلاص ورعاية العهد ، يقسو ويغضب لله ، ويرحم ويرضى لله ، لا يجد النكر والمداورة الى نفسه سبيلا ، لا يداهن ولا يخادع ، شديد التجافى عن الدنيا وزخارفها ، كيف لا وقد ضمه النبى صلى الله عليه وسلم الى كنفه قبل أن يشب عن الطوق ، يربيه ويرعاه ويحنو عليه ، ويأخذه بأدب الوحى غضا طريا ، حتى كان منه سابق الأمة الى الهدى والحق ، وفارسها المظفر فى ميادين الجهاد ، لم تنكس له راية ، ولم يسقط له لواء ، ظل طوال مرحلته الأولى يتنقل من نصر الى نصر مؤيدا من روح الله ، مجمعا على حبه وموالاته ، لم تهمل كلمته ، ولم يهدر رأيه ، عظيم معظم ، فخم مفخم ، سيد مبجل ، حبر الأمة وعيلمها فى حلبات الفكر وفنون العلم والمعارف ، وقاضيها الأعدل إذا حزبتها الأمور وغامت عليها الحقائق ، وفيصلها الملهم إذا تعقدت أمامها المعضلات ، وحكيمها إذا ادلهمت بوائق الأعاصير ، وخطيبها الذى لا يتملق بغباره اللسن المقاويل ، ووزير نبيها صلى الله عليه وسلم ، وأمير كتائبها ، صاحب القول الفصل والصوت المسموع .

هكذا كان فى طوره الأول من حياته منذ مس قلبه برد الحنان المحمدى وهو فى مهده ، الى أن ولى الخلافة فى جو من الأحداث بسطناه فى مقالاتنا السابقة بقدر ما اتسع له الزمن ووصل اليه جهد البحث .

أما الطور الثانى فهو الذى يبدأ بولايته الخلافة ، وإن شئنا الجنوح الى التدقيق رأينا هذا الطور يبدأ بولاية عثمان رضى الله عنه للخلافة ، فقد تكشفت بها طوايا قوم اتخذوا الاسلام رداء يستترون وراءه جاهلية حمقاء ، لا يكنون لعلى وآل بيته رضا ومحبة ، وكأنهم فى توائبهم عليهم كانوا يتربصون بهم الفرص ، وقد حال حزم الصديق وصرامة الفاروق فى خلافتهما دون ظهور أية شائبة لتلك الأحقاد الموروثة ، فلما تولى عثمان رضى الله عنه ، وكان دمث الأخلاق ، حييا ، لين العريكة سمح الطبيعة ، قريب الرضا ، بعيد الغضب ، وصولا لرحمه ، بارا بقومه ، ساس الأمة بطبيعته هذه ، ولم ينظر الى هؤلاء النفر من شباب أمية وجفاة الأعراب نظر حزم وصرامة حتى باعدوا بين الخليفة والأمة ، ووقعت الطامة ، وتبوأ على كرم الله وجهه أريكة الخلافة الاسلامية ، ولم يبايعه معاوية رحمه الله ومن ورائه أهل الشام ، ونقض بيعته طلحة والزبير رحمهما الله ، وأخرجا أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها تؤلب الناس عليه ، وانخذل عنه الخوارج ، وكانوا من أقوى أصحابه شكيمة فأصبحوا شوكة فى جسم إمامته ، كل هؤلاء ناصبوه كرم الله وجهه العداء وعالنوه الحرب ، وهو فى جند متخاذلين ، يدعوهم فلا يجيبون ، ويأمرهم فلا يطيعون ، حتى انتهى الى غدرة الخوارج به ، وما استقر له السلام يوما واحدا .

فكيف تم هذا وعلىّ هو من وصفنا فى عبقريته وفضله وعلمه وفقهه وشجاعته وبطولته ، ولم يكن فى منافسيه من يجرى فى شوطه ؟ هل كان ذلك لأن عليا رضى الله عنه لم يكن داهيا فى السياسة كمعاوية وعمرو رحمهما الله كما يزعم بعض من لم يسبر غور الرجال ولم يتعرف سياسة الدين والشريعة ومقاصدها ؟

يتولى الامام أبو عثمان الجاحظ الاجابة عن هذا التساؤل ، ونحن نلخص كلامه ، قال : « وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتميز ، وهو من العامة ويظن أنه من الخاصة ، يزعم أن معاوية كان أبعد غورا وأصح فكرا وأجود روية وأبعد غاية وأدق مسلكا ، وليس الأمر كذلك ، وسأومى اليك بجملة تعرف بها موضع غلطه ، والمكان الذى دخل عليه الخطأ من قبله :

« كان علىّ عليه السلام لا يستعمل فى حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، ويقول فى حربه : لا تبدءوهم حتى يبدءوكم ، ولا تتبعوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تفتحوا بابا مغلقا . وسيرته فى الرؤساء كسيرته فى الحاشية والحشود والاتباع والسفلة وأصحاب الحروب ، إن قدروا على البيات بيتوا ، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك فى طرفة عين لم يؤخروه الى ساعة ، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم [illegible] الغرق ، ولم يؤخروا الحرق الى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا [illegible]

ولم يدعوا أن ينصبوا المجانيق والعرادات والنقب والترتيب والدبابات والكمين ، ولم يدعوا دس السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب ، وطرح الكتب فى عساكرهم بالسعايات ، وتوهيم الأمور ، وإيحاش بعض من بعض وقتلهم بكل آلة وحيلة ، وكيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال ، فمن اقتصر من التدبير على ما فى الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكايد . . . . فعلىّ عليه السلام كان ملجما بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل نصا ، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ماهو لله رضا ، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه ، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والمكر والمكايد والآراء » .

وحسبنا هذا القدر من كلام الجاحظ ، فقد أطال أبو عثمان النفس حتى لم يبق لأحد مقالا .

ومن البدىهى أن عليا كرم الله وجهه لم تكن لتخفى عليه تلك القالة ، ولم يكن ليخفى عليه أمر نفسه ، فدافع بكلمة واحدة أقام صرح الحجة فقال : « لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب »

وهذه السياسة الشرعية التى كان أمير المؤمنين يتقيلها فى رعيته لم يتركها عملية فحسب ، ولكنه كان يحب أن يشعر بها الأمة لتتربى فيها العزة والنخوة وكرامة النفس والاعتداد بالشخصية ، فقد خطب الناس يوما فقال :

« أما بعد : فقد جعل الله سبحانه لى عليكم حقا بولاية أمركم ، ولكم علىّ من الحق مثل الذى لى عليكم ، والحق أوسع الأشياء فى التواصف ، وأضيقها فى التناصف ، لا يجرى لأحد إلا جرى عليه ، ولا يجرى عليه إلا جرى له ، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ فى وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا ، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالى على الرعية وحق الرعية على الوالى ، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، فجعلها نظاما لألفتهم وعزا لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية ؛ فإذا أدت الرعية الى الوالى حقه وأدى الوالى إليها حقها عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت أذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع فى بقاء الدولة ، ويئست مطامع الأعداء ، واذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالى برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال فى الدين ، وتركت محاج السنن ، فعمل الهوى وعطلت الأحكام ، وكثرت علل النفوس ، فلايستوحش لعظيم حق عطل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار ، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد ، فعليكم بالتناصح فى ذلك وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتد على رضا الله حرصه وطال فى العمل اجتهاده ، ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له ، ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم ، وليس امرؤ وإن عظمت فى الحق

منزلته وتقدمت فى الدين فضيلته بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه » .

هذه كلمة من أروع كلمات أمير المؤمنين رضوان الله عليه ، وهى من طراز كلمة الصديق الأكبر رضى الله عنه فى أول خطبة خطبها بعد ولايته فقال : « أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم الخ » ، ومن طراز كلمة الفاروق رضى الله عنه : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . لكن كلمة أبى تراب مفصلة ؛ وهذه الكلمات من أولئك العبقريين هى أساس دستور الحرية الفاضلة أو الديموقراطية العادلة ، كما يقول التعبير الحديث ، التى قام عليها نظام الدولة الاسلامية فى القرآن الكريم ، وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وسنته .

فليتأمل القارئ فى قوله كرم الله وجهه : « ولكم على من الحق مثل الذى لى عليكم » فانه تحديد للعلاقة بين الرعية والراعى ، وتوطيد لحق الأمة ونظام العدالة العامة ، وهذا الذى رتبه نفس أمير المؤمنين فى ثنايا كلامه حيث يقول : « فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية » .

أما مقامه كرم الله وجهه فى البلاغة والأدب فناهيك به ، مقام تجمعت له عناصر لم تتوافر لغيره من الناس : فمن من دوحة قريش أفصح العرب ، وغصن هاشمى ، وتربية نبوية ، ونشأة إسلامية ، وشباب حرب وجلاد ، ونضال وجهاد ، لحماية الدعوة وتبليغ الرسالة ، ورجولة أحداث عواصف ، وكهولة إمارة محسودة ، وأعداء متضافرون على باطلهم ، وأنصار كحميل السيل ، كثرة جوفاء متخاذلون على حقهم ، وفتن تمسى وتصبح كقطع الليل ، تذر الحليم سفيها والعقول حيرى . تلك هى بعض مقومات البلاغة العلوية التى تفرد بها أمير المؤمنين ، فكانت نفحة من العلم الالهى ، وعبقة من البيان النبوى ، وإعجازاً لقادة الأدب العربى ، من القرآن الحكيم منبعها ، ومن الفصاحة المحمدية مشرعها ، زويت لغة العرب فى نصاعة ألفاظها وجزالة أسلوبها ، وتجمعت له الأفكار على تباين مراميها اجتماع الغيث فى أخصب الأودية ، ففاضت على لسانه علما وحكمة وزجرا ووعيدا ، ووعدا وترغيبا ونصحا وتزهيدا ، حتى كان فى ذلك كله — كما قال الرضى — مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ .

وإذا أضفنا الى ذلك أنه هو واضع علم العربية ، وعلى قواعده أسس أبو الأسود الدؤلى علم النحو ، علمنا أن على بن أبى طالب كان واحدا من أفذاذ قادة الفكر الاسلامى فى جميع فنون الاسلام وعلومه ، والذى كتبناه عنه إشارات تفتح الباب للباحثين ، وترشد شباب الاسلام الى مواطن العظمة فى رجالاته . ولننقل الكلام الى غيره من قادة الفكر فى تاريخ الاسلام ؟

صادق ابراهيم عرجون

أبو حيان التوحيدى وفلسفته

اجتمعت فى بلاد الاسلام فى القرن الرابع الهجرى عوامل لحضارات مختلفة ، من فارسية ورومية وهندية ، نشأت منها آثار سياسية ودينية واجتماعية ، فكثر فى هذا العصر المترفون ، وشاعت فيه فنون الخلاعة والمجون ، ونوافل الشهوات ، ولم يكن للعلم منهج واحد فى ذلك العصر ولكنه كانت له مناهج كثيرة ، منها منهج أهل السنة ، ومنهج الفرق الاسلامية ، ومنهج العلوم الكونية من يونانية وفارسية وهندية وغيرها .

فالقرن الرابع الهجرى عصر أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق ، كما كان عصر الثقافة العامة ، حيث كثرت فيه المشاركة فى مسائل البحث والمطابقة .

والظاهر أن علم النجوم والرياضيات كان أروج العلوم الكونية وأكثرها طلابا ، لشيوع الحضارة اليونانية التى كان أهلها يؤلهون الكواكب وينسبون اليها التأثير فى الأرض .

وعلى الجملة كان القرن الرابع ، وهو العصر الذى ظهر فيه التوحيدى ، فيه التشيع بدرجاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الكونية بشعابها ، حيث تولد من كل ذلك كثرة الآراء وتعدد وجهات النظر ، فكان الإحساس بالعقيدة الدينية يحرك بواعث الغيرة عليها ، ويزعج النفوس الى المنافحة عنها .

ترجمة حياة أبو حيان التوحيدى :

هو على بن محمد بن العباس ، أبو حيان التوحيدى ، اختلف المؤرخون بين نسبته الى شيراز أو واسط ، ومهما يكن من خلاف فانه فارسي الأصل ، وأنه عاش فى القرن الرابع ، وشهد صدر القرن الخامس ؛ وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤ هجرية . وكما اختلف المؤرخون فى أصله اختلفوا فى نسبته ، فقال ابن قاضى شهبة : إن أباه كان يبيع نوعا من التمر العراقى فى بغداد يقال له : التوحيد ، وعليه اعتمد الزبيدى صاحب التاج . وقال ابن حجر : يحتمل أن يكون قد نسب الى التوحيد الذى هو الدين ، فان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . ولعل رأى ابن حجر هو الأرجح ، لأن أبا حيان كان يرى صحة أصول المعتزلة .

لم يقتصر أبو حيان فى تلقى علومه ومعارفه على شيوخ بغداد ، بل ذهب الى البصرة . وهنا يقول ابن السبكى : تفقه أبو حيان على القاضى أبى حامد المرورزوى ، وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى وأبى سعيد السيرافى وجعفر الخلدى . وكان أبو حيان فيما نقل ياقوت

متفننا فى جميع العلوم ، درس ما عرف فى عصره من الفلسفة والمنطق والأدب والطبيعيات والإلهيات والتصوف وعلوم الكلام ، وكان صوفى السمت والهيئة ، جاحظيا ، يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ .

ظهرت فى القرن الرابع خصومات كانت تشتد وتقوى ، نراها ممثلة فى الآثار العلمية لذلك العهد . ومن هذه الآثار مجادلات ورسائل تبين لنا طريقة الكتاب فى شرح حقائق الحياة ، وكان دفاع أولئك الكتاب يفيض حيوية وقوة ، ويحتوى على مباحث قيمة من النواحى النفسية والاجتماعية والأدبية التى تمتاز بها الأمم والشعوب . ويظهر أنهم كانوا يميلون الى إمتاع النفس بالصراحة المطعمة بما تمليه عليهم عقولهم وحواسهم جميعا . ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر خصومة الهمذانى والخوارزمى ، وخصومة التوحيدى والصاحب ابن عباد . فالهمذانى كان يريد من الخصومة الشهرة والاستعلاء على غريمه فى ميدان الجدل والنقاش ، أما التوحيدى فكان يرغب فى مال ابن عباد ، ولما ضاق عنه صدر هذا ، كتب التوحيدى كتاب « مثالب الوزيرين » كشف به نوايا ابن العميد وابن عباد ، ثم عاد اليهما بالتجريح مرة أخرى فى كتابه الامتاع والمؤانسة بأسلوب شديد .

حدثنا التوحيدى فى كتابه مثالب الوزيرين (انظر ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥) أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا الشيخ : انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار الى أنه توجه من العراق الى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد . ولما وصل ذلك الى الصاحب حقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر ، أو يراجع فى قول ، فكان ذلك من أسباب إهمال التوحيدى عند الصاحب ، فرحل عنه ، وكان يقول : « وما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل ، والظن الحسن ، حتى كأنى خصصت بخساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى » !

ولما ضاقت الدنيا أمام التوحيدى أتى على كتبه حرقا ، وقد أبان علة ذلك فى رسالة طويلة كتبها الى القاضى أبى سهل على بن محمد تنطق بالألم ، وتصور حياة البؤس والشقاء لمن رزقه الله دقة الحس وقوة الإدراك ، فنراه يصور بلواه للناس أصدق تصوير حين يقول :

« جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة الى أكل الخضر فى الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطى الرياء

بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل » .

ترك أبو حيان من آثاره الذهنية الكثير من المصنفات ، وقد وصفها فى مختلف العلوم والمعارف والآداب ، والتزم فى بسطها وإيضاحها طريقة التناظر والتجاور وأسلوب المحاضرة والمسامرة .

وإليك ما وقف عليه المؤرخون من مصنفاته :

(١) البصائر والمناظرات ، (٢) الامتاع والمؤانسة ، (٣) المقابسات ، (٤) الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى ، (٥) الزلفة ، (٦) تقريظ الجاحظ ، (٧) مثالب الوزيرين أبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد ، (٨) الاشارات الإلهية ، (٩) رياض العارفين ، (١٠) الحجج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحجج الشرعى ، (١١) رسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة ، (١٢) فى أخبار الصوفية ، (١٣) فى الحنين الى الأوطان ، (١٤) فى الصديق والصداقة ، (١٥) فى ثمرات العلوم ، ثم الرسالة البغدادية .

وقد زعم مرجليوث المستشرق الانجليزى أن كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء من ضمن مؤلفات التوحيدى .

كتاب المقابسات :

صورة حية لعقلية التوحيدى ، ونموذج شاخص لما كان عليه عصره من حياة الفكر والعقيدة ، يخيل للباحث أنه متاع قليل ، ولكنه فى الحقيقة مركز فى الكثير من العلم والفلسفة ، طبع الكتاب أولا فى الهند ، ثم طبع أخيرا فى مصر ، يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى ، ويترك السجع ويقبل على الازدواج . وكتاب المقابسات مشحون بالموضوعات الكثيرة بحثا وراء الطبيعة ، وفى الطبيعة وفى العقل ، وفى الفرق بين العقل والعمل ، وفى القضاء بين السلب والإيجاب ، وفى أن النفس ليست قائمة بذاتها .

وبالرغم من أن كتاب المقابسات عبارة عن ١٠٦ مقابسة إلا أنه يدور حول هذه الموضوعات الستة الآتية :

(أولا) تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية .

(ثانيا) الناموس الإلهى ووضعه بين الخلق .

(ثالثا) شرف الزمان والمكان .

(رابعا) الحركة والسكون وأيهما أقدم .

(خامسا) معرفة الله تعالى أضرورية أم استدلالية .

(سادسا) فى أننا نساق بالطبيعة الى الموت وبالعقل الى الحياة . تستهويك فى الكتاب الفكرة السانحة العابرة ، والنظرة الدقيقة الفاحصة ، تراه يتدرج فى بحثه من الطبيعى الى ماوراء الطبيعى ، ومن المحسوس الى المعقول ، ثم يعطيك البرهان الصحيح فى جدل مستقيم ، وتعبير فلسفى متزن ، أن الكون محدود بمقاييس ، وأن الإنسان محدود بهذه المقاييس ، جريا على سنة الطبيعة وانسجاما لقانونها الإلهى المطرد فى الكائنات . وكان شعار التوحيدى فى بحثه قوله :

« يجب على الفيلسوف أن يكون يقظ العقل ، وأن يصغى لكل رأى ، ولكن لا يكون مصدر الحكم إلا نفسه ، لا يخدع بالظواهر ، ولا يميل الى فرض فروض خاصة ، ليس تابعا لمذهب معين ، لا يخدم الأشخاص ولكن يحترم الحقائق ، غرضه الأسمى الوصول الى الحق ، فإن هو أضاف الى ذلك الجد فى السعى ، كان خليقا أن يخترق حجب الظواهر ، ويصل الى حقائق هذا العالم » . فالتوحيدى عالم قد حنكته السن ، وأيدته التجربة ، وأحكمته الأمور .

وكتاب المقابسات لايقرؤه من سئم المثل العليا ، وكذب بالأغراض الرفيعة ، وفترت فيه قوة العقيدة ، بل هو كتاب يستشعر فيه القارئ رؤية العقل ، وصفاء الإحساس ، وأن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه الانسان مخلوقا حيا عريق الأصول فى آباد لا نهاية لها . فالمقابسات وإن كانت مجموعة من الآراء والخواطر الفلسفية إلا أنها وحدة عامة يشيع فيها ما بين الفن والحياة من وشائج الصلة والقرابة . والتوحيدى فى كتابه المقابسات يحاول إثبات العلاقة بين الجواهر الروحانية وبين المواد الجسمانية عن طريق المعرفة ، فنراه يتعرض لجميع صور المعرفة من علم وأدب وفلسفة ودين ، يرسم لها مقاييس فى شريعة العقل ويحاول أن ينفذ الى صميم الأشياء ليستخلص الحقائق وينتزعها من أحضان المعارف الانسانية ، ويستوعب من مبادئ العلم ونظريات الفلاسفة القدماء من يونان وعرب ، كل ما تواضعوا عليه من حجج وأسانيد . كل هذا يجمعه التوحيدى ويبوبه فى كتابه المقابسات بطريقة جدلية تهذب التفكير وتستدعى التمحيص والاستقراء ، كل هذا رغبة فى الوصول الى ما بين الروح والجسد من تعارف .

والانسان منذ أبعد عصور التاريخ يحاول محاولة التوحيدى فى إيجاد تعليل يصح أن تقوم عليه شواهد العقل فى صلة الجسم بالروح . ففكرة التعليل هذه أخذت دورها عند الفرعون إخناتون ، وفى فكرة الانسان الكامل فى عقل سقراط ، وفى فكرة المنطق عند أرسطو ،

وفى فكرة الأسلوب والشك فى عقل ديكارت ، وفى فكرة المثاليات فى عقل اسبينوزا وكانت ، وفى فكرة التطور فى عقل دارون . والتوحيدى إزاء هذه القضية الروحانية أشبه بشيخ فى يده مصباح ينوء به وهناً وضعفا ، وعالم الروح بحر خضم ، والمصباح فى يد الشيخ غريق بين لجانه يلوح ويخفى .

شخصية التوحيدى :

هو رجل موهوب ، آمن بفكرة ، وأرصد خلاصة جهوده على تحقيقها ، ووطن النفس على السعى من أجلها بصرف النظر عما إذا كانت الظروف ستعاونه على تنفيذها فى يوم من الأيام أم ستخيب أمله وتغدر به وتخلف فى نفسه الحسرات .

والتوحيدى كان يفكر ويدرس ويضع الخطط وينظم برامج حياته . كان يتأمل فى أغراضه ويحددها ويعين اتجاهاتها ثم يتربص بالزمن ويسدد صفوة قواه كى ينقض عليه ويمتلكه ، ويطوعه لإرادته ، ويحوله الى خدمة مثله الأعلى ، فهو رجل يعلم ما يريد ، ثم يحدد فيما بينه وبين نفسه خلاصة ما يريد . فالتأهب الثقافى كان العامل الأول فى تكوين شخصية التوحيدى مضافا اليها إيمانه بالمثل الأعلى إيمانا صوفيا شبه دينى استغرق فكره ، واحتل عاطفته ، واستحوذ على مشاعره .

ومتى توافرت عناصر الايمان ، اقترن العمل وتنفيذه بإرادة جبارة . وهذه العناصر كانت متوفرة فى شخصية التوحيدى ، فارادته لم تكن فى يوم من الأيام رخوة ، ولم تنشد المستحيل ، ولم تصطدم بصخرة الأمل الخيالى الباطل ، بل كانت إرادة حكيمة عرفت كيف توفق بين مطامعها وبين مقتضيات الواقع ، وما يمكن أن تسمح به ظروف الحياة العملية .

والتوحيدى كان يعيش فى عصر كل ما فيه يدفع الى المتعة واللذة ، والاستهتار ، وعدم الاكتراث . فلو أنه أطلق لغرائزه العنان واستسلم لهذه الدوافع التى يساق اليها الانسان بالضعف وبالرغبة المتأصلة فى الاستمتاع ، لانحط شعور الرجل بالكرامة ، وهبطت قواه المعنوية ، وعجز عن تأدية الواجبات التى يفرضها عليه المجتمع ، وتفرضها عليه قوانين التطور وطبيعة الحياة نفسها .

والتوحيدى كانت إرادته مظهرا لسريرته ، وعقيدته فى الحياة صورة لشخصيته . ويكفيه هذا من متاع الدنيا ؟

عبد الحميد سامى بيومى

في عالم الأدب العربي

الشعوبية وأثرها في الادب العربي

— ٥ —

كان العربي لا ينام على الضيم ، ولا يستشعر المذلة ، ولا يستسيغ الهزيمة ، ولا يرضى من الغنيمة بالإياب . كذلك كان حال النعمان بن المنذر بعد المناظرة التي جرت بينه وبين كسرى ، فقد بات مسهد الجفن ، قضيض المضجع ، موغر الصدر ، ملتاع الفؤاد ، إذ أنه ما كان يحسب أن كسرى ينظر الى العرب بهذا المنظار القاتم الذي وارى عنه فضائلهم ، وقضى عليهم بأنهم أخف الأمم وزنا ، وأهونها شأنا ، وأحطها مكانا .

فلما قدم الى بلاده أسلم رأسه الى التفكير ، فخرج من هذا المأزق بأوفق ما يخرج به زعماء الأمم المحنكون ، وقادتها الموفقون ، إذ بعث الى أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة ، والى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود ، والى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر ابن الطفيل ، وعمرو بن الشريد السلمى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحارث بن ظالم المرى ، وكلهم من حكماء العرب ، أو أبطالها المغاوير ، الذين لهم الباع الطويل في اللسن ، وشدة المراس ، وقوة الحجاج ؛ فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات أخشى أن يكون لها غور ، ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج اليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ؛ فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه ؛ فقالوا : أيها الملك : وفقك الله ، ما أحسن ما رددت ، وأبلغ ما حججته به ! فمرنا بأمرك ، وادعنا الى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعززت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحب إلى مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزكم ؛ والرأى : أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتنطلقوا الى كسرى ، فإذا دخلتم عليه نطق كل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ماظن ، أو حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فانه ملك عظيم السلطان ، كثير الأعوان ، مترف معجب بنفسه ، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي لسني حاله ، ثم تتابعوا على هذا الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني الى التقدمة إليكم علمي بجميل كل رجل

منكم على التقدم قبل صاحبه . ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حلل الملوك ، وألبس كل رجل منهم حلة وعممه بعمامة ، وختمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية ، وفرس نجيبة ، وكتب معهم كتابا جاء فيه : « أما بعد : فإن الملك ألقى الى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها ، وحمت مايليها بفضل قوتها ، تبلغها فى شىء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة ، والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليغمض عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمنى بإكرامهم ، وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا الى عشائرهم » .

فخرج القوم فى أهبتهم ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم الى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم ، فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه ، وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم ، ثم أذن لهم فى الكلام ، فقام أكثم بن صيفى فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شر سماعه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفر ، ومن تراخى تألف » .

فتعجب كسرى من أكثم ثم قال : ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ! قال أكثم : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم : رب قول أنفذ من صول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال : « ورى زندك ، وعلت يدك ، وهيب سلطانك ! إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرتها ، ومنعت درتها ، وهى لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة مالاينتها ، سامعة ما سامحتها ، وهى العلقم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ،

والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة ، نحن وفودها اليك ، وألسنتها لديك ، ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم محمدتنا ، وإن نذم لم نخص بالذم دونها » .

قال كسرى : يا حاجب : ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ! قال حاجب : بل زئير الأسد بصولتها ، قال كسرى : وذلك .

ثم قام الحارث بن عباد البكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشاؤه كثر متحه ، ومن ذهب ماله قل منحه ، وهذا مقام سيوجف بما تنطق به الركب ، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير ربض ، وإن استطرقتنا فغير جهض ، وإن طلبتنا فغير غمض ، لا ننثنى لذعر ، ولا نتنكر لدهر ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار » .

قال كسرى : أنفس عزيزة والله ضعيفة ! قال الحارث : أيها الملك : وأنى يكون لضعيف عزة ، أو لصغير مرة ؟ قال كسرى : لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الحارث : أيها الملك : إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على الموت فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قدما وأحبسها ، وهى تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض ضحضاحها حتى أنغمس فى غمرات لججها ، وأكون فلكا لفرسانى الى بحبوحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم .

فقال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد !

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى ، ونطق بكلام لم يصادف هوى من نفس كسرى ، ولم يحز عنده إعجابا ، مما أحنقه عليه واضطره الى أن يقول له : ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس !

ثم نهض خالد بن جعفر الكلابى ، فدعا لكسرى بالإسعاد والرشاد ، وعبر عما فى نفس النعمان من إخلاص وولاء لكسرى .

فقال له كسرى : نطقت بعقل ، وسمرت بفضل ، وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامرى ، ونهج نهج أسلافه من ثناء على كسرى وإطراء ، وبيان ما للعرب من مزايا ومحامد ، فقال له كسرى : حسبك أبلغت وأحسنت !

وهكذا قام قيس بن مسعود الشيبانى ، وعامر بن الطفيل العامرى ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، وكل منهم لم يقصر فى الميدان عن جياد تقدموه .

وأخيرا قام الحارث بن ظالم المرى فقال : « إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرأى خفة الملك السلط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادنا لك عن تصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولَث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، مالم يأت من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم . قال : إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر .

قال الحارث : إن فى الحق مغضبة ، والسَّرْو التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجالسك . قال كسرى : هذا فتى القوم !

إلى هنا ينتهى حديث الوفد الذى بعث به النعمان الى كسرى ليعلمن له أن العرب ليسوا فى المكانة التى وضعهم بها ، بل هم فى منزلة أسمى وأرفع ، ينطق بذلك بيانهم ، وتعبر حلومهم ؛ وقد شاهد القارئ الكريم تعليق كسرى على كل مقالة صدرت من صاحبها بين يديه .

وفى نهاية المجلس علق كسرى تعليقا عاما فقال : « قد فهمت ما نطق به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ـ لم أجزلكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإنى لأكره أن أجبه وفودى ، أو أحنق صدورهم ، والذى أحب من إصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والإعذار الى الله فيما بينى وبينكم ، وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا الى ملككم فأحسنوا موازرته ، والتزموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم ، وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاح العامة » .

هـذا من كسرى نصح ممتع رائق ، ومنطق سديد راشد ، ومنهج فى النقد قويم محكم ، وأدب فى الخطاب والرد موثق الدعائم ثابت الأركان ، وكل أولئك يكشف لنا اللثام ، ويهتك الحجب عما بين الحضارة والبداوة من بون شاسع ، وفرق عظيم ، لا يزال ظاهر الأثر ما مرّ الملوان ، وتعاقب الجديدان ؟

احمد ابراهيم موسى البارودى
تخصص البلاغة والأدب

دفاع عن القرآن الكريم

القول فى إعجاز القرآن

وخلو القراءات الشاذة من الاعجاز

أوردنا فى المقالات السابقة أن القراءات الشاذة ليست قرآنا إجماعا ، والآن نريد أن نبحث الموضوع من ناحية البلاغة والاعجاز ، فهل القراءات الشاذة بليغة ، وهل تحتوى على سر الاعجاز ؟ فاذا ما أثبتنا خلوها من ذلك كنا قد لمسنا دليلا آخر قاطعا فى نفى قرآنيتها ، يضاف على ما تقدم من البراهين .

أما إذا كانت هذه الروايات ليس شأنها ما ذكر فلم يقع بها التحدى ، وجب أن يسلم الدكتور وأمثاله بأنها ليست من القرآن إطلاقا ، وأن الشأن فيها لا يعدو ما ذكره علماء الأصول فيما تقدم من إحدى الحالات الثلاث السابقة ، وأنهم غير صادقين فيما رموا به علماء المسلمين من التقصير .

وهذا المبحث فرضى جدلى تنزلى ، إذ قد ثبت مما تقدم بما لا مجال للشك فيه أنها ليست قرآنا .

ماهو السر فى إعجاز القرآن ؟ وهل كان العرب يعلمون هذا السر ؟

لاجدال فى أن العرب كانوا يعلمون السر الذى به عجزوا عن معارضة القرآن ، وإلا لبطل معنى التحدى ، إذ ليس معنى التحدى أن تطالب إنسانا بأن يعارض كلاما من غير أن يكون قد عرف الوصف الذى إذا أتى بكلام على هذا الوصف يكون قد أتى بمثله .

أما إذا وقع التحدى بالقرآن ولم يعلم المتحدى الوصف المخصوص فيه الذى يجب أن يكون من وصف كلام المعارضة ، ثم هو لم يعارض ، فليس من الإنصاف أن نصفه بالعجز .

وقد ضرب لذلك الامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه دلائل الاعجاز مثلا حسنا فقال ما نصه : « لا يقوم فى عقل عاقل أن يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلى ، وهو لا يشير له الى وصف يعلمه فى فعله ويراه قد وقع عليه . أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : إنى قد أحدثت فى خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها ، لم تتجه له عليه حجة ، ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه إلا من بعد أن يريه الخاتم ويشير له الى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ؟ لأنه لا يصح وصف الانسان بأنه قد عجز عن شىء حتى يريد ذلك الشىء ويقصد اليه ثم لايتأتى له ، وليس يتصور أن يقصد الى شىء لا يعلمه ، وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه فى جملة ولا تفصيل » اه

فهذا صريح من الامام بأن العجز بعد التحدى لا يثبت إلا إذا علم المتحدى الوصف الخاص فيما تحدى به .

لذلك صح قولنا فى صدر المبحث : لا جدال فى أن العرب كانوا يعلمون السر الذى به عجزوا عن معارضة القرآن . واذاً يقال : ما هو هذا السر ياترى ؟

لا يجوز أن نذهب الى ما ذهب اليه بعضهم من أن سر العجز عن الاتيان بمثل القرآن هو فى الكلم المفردة ، لأنه :

(أولا) أن هذه المفردات مقدور عليها للعرب ، فضلا عن أنها من أوضاعهم واصطلاحاتهم ، فلا يعجز عربى مطلقا عن أن يقول : موسى ، ابراهيم ، سنة ، نوم ، الله ، الحى ، القيوم ، الى غير ذلك ، وهذا بديهى .

و (ثانيا) أن الوصف الخاص فى كلام القرآن ، مع كونه يجب أن يكون معلوما لهم على ما سبق ، قد تجدد بالقرآن ، ضرورة أنه خاص به ، فلم يعرف قبل نزوله ، وحينئذ استحال أن يكون فى المفردات ، لسبق وضع المفردات ، ولأنه يلزم أن يكون فى حروف المفردات وهيئاتها أوصاف يجدها السامع لمفرد القرآن ، ويفقدها فى مفرد غيره . فبطل أن يكون السر فى الكلم المفردة .

ولا يجوز أن نذهب مذهب من يرى أن السر إنما هو فى معانى الكلم المفردة التى هى لها بوضع اللغة ، لاستحالة ذلك أيضا ، فان تقدير ذلك يؤدى الى أن يكون قد تجدد بنزول القرآن فى معنى (الطعام) و (كان) و (حلا) و (بنى إسرائيل) مثلا ، وصف لم يكن موجودا فى معانى هذه الكلمات قبل نزول القرآن ، وهو محال .

المقاطع والفواصل :

كذلك لا يجوز أن نذهب مذهب من يرى أن السر الذى كان سببا فى عجز العرب عن معارضة القرآن إنما هو فى المقاطع والفواصل ، على معنى أنهم كلفوا أن يأتوا بكلام له مقاطع وفواصل كالذى نراه فى القرآن . ذلك أيضا محال ، لأن الأمر إذ ذاك لا يعدو مراعاة الوزن ؛ والفواصل فى آى القرآن أشبه بالقوافى فى الشعر ، وكلنا يعلم بالضرورة اقتدارهم على القوافى ، فلو كان التحدى بأن يأتوا بفصول كلام يكون لها أواخر أشباه قوافى لما عجزوا عن ذلك مطلقا ، فبطل إذاً أن يكون السر فى الفواصل . على أن الأمر الذى بهر العرب من القرآن ، والروعة التى دخلت عليهم فأزعجتهم ، فوصفوا القرآن أجل وصف ، لا يمكن أن تكون تلك الروعة ، وهذا الجلال والاعظام لشىء راعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيب بينها وبين سكناته ، أو لفواصل فى آخر آياته ، بل لا بد وأن يكون هناك أمر أعلى من هذه الأمور كا

وسر رفيع لم يحم حوله أصحاب هذه الآراء المتقدمة . انظر الى قول الوليد بن المغيرة حين سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية : ما يقول هذا بشر . وانظر الى سيدنا عبد الله بن مسعود حين يقول فى وصف القرآن : « لا يتفه (١) ولا يتشان (٢) » ، وحين يقول : « إذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن » أى أتتبع محاسنهن .

هل يمكن أن يكون هذا القول وأشباهه من أجل أوزان الكلمات ، وفواصل الآيات ، أم من أجل مادة الكلم المفردة ، أم معانيها الوضعية ؟ لا ، بل الذى بهر هؤلاء الفطاحل من القرآن شيء آخر أرفع مكانا من هذا وأعظم شأنا ، وهو الذى سنبينه فيما يأتى إن شاء الله تعالى بعد أن نفرغ من استعراض بقية الآراء ، ونأتى على نقضها وبطلانها .

وأرى أن من المناسب أن أختم هذا المقال بكلمة وجيزة للجاحظ فى وصف القرآن ، فقد يستأنس بها لما ذهبنا اليه من وجوه بطلان الآراء السالفة ، قال : « لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه » . اهـ ؟

حسن حسين

من سقطات الأدباء

قال بشار بن برد ، وهو الذى نقل الشعر العربى من خشونة البداوة ، الى رقة الحضارة ، وهو من أهل القرن الثانى للهجرة : « لقد عشت فى زمان وأدركت أقواما لو اختلقت الدنيا ما تجملت إلا بهم ، وأنا الآن فى زمان ما أرى فيه عاقلا حصيفا ، ولا فاتكا ظريفا ، ولا ناسكا عفيفا ، ولا جوادا شريفا ، ولا خادما نظيفا ، ولا جليسا خفيفا ، ولا من يساوى على الخبرة رغيفا ، وأنشد :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

نقول : من أراد أن يدرك ما يجلبه الهرم أو اليأس من تضليل العقلية الانسانية ، اعتبر بما نقل عن بشار بن برد هنا ، فانه قد خيل اليه وهو فى عنفوان الدولة الاسلامية ، وفى ريِّق شبيبتها ، وفى الكثرة الحافلة بالأئمة الأعلام ، وبالقادة العظام ، وبكل ما يشرف المجتمعات ويعلى من أقدارها ، أنه فى بيئة ليس فيها من يساوى رغيفا !

---

(١) تفه الشيء : قل وخس .

(٢) تشان الجلد يبس وتشنج . وهما مجازان ظاهران .

باب الأسئلة والفتاوى

الاستشهاد للميت . الاستئجار للقراءة على الميت ، وثواب قراءة الأجير . قراءة الفاتحة فى تشييع الجنازة . ملازمة القبر سبعة أيام

جاء الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المفضال راج كانتن رئيس المجلس الدينى بعاصمة كوتابارو كانتن الأسئلة الآتى ملخصها :

(١) جرى العمل عندنا على أن يقول الامام بعد صلاته على الميت : ما تشهدون فيه ؟ فيجيب الحاضرون : « أهل خير » أو « أهل السعادة » . فهل هذا العمل مشروع ونافع للميت ؟ وهل ما صح فى البخارى ومسلم من أن الصحابة لما أثنوا بالخير على جنازة قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وجبت » يعنى الجنة ، ولما أثنوا على أخرى بالشر قال النبى صلى الله عليه وسلم : « وجبت » يعنى النار ، هل هذا الحديث وما صح فى الباب من أحاديث أخر أدلة لمشروعية العمل المذكور أم لا ؟

(٢) وجرى العمل أيضا أن أهل الميت يدعون حفظة القرآن عند قبر الميت أول ليلة من دفنه فيقرءون ألوفا من سورة الاخلاص ومن التسبيح والصلاة على النبى والاستغفار للميت ، فهل هذا موافق للسنة ؟ وهل ينفع الميت كما زعموا أم لا ؟

(٣) وجرى العمل أيضا أثناء تشييع الجنازة أن يقول أحد المشيعين : « الفاتحة » ، فيقرأ الجميع الفاتحة وقوفا ، ثم يتكرر ذلك مرات ، فهل لذلك أصل فى السنة ؟ وهل قراءة الفاتحة بهذه الكيفية تنفع الميت ؟

(٤) وجرت العادة أيضا أن يستأجر أهل الميت قارئاً يلازم القبر سبعة أيام بلياليها أو أربعين يوما بلياليها يقرأ القرآن ويسبح ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ويستغفر للميت ، فهل هذه الإجارة صحيحة ؟ وهل ثواب ما قرأ الأجير يصل الى الميت ؟ وهل هذا عمل موافق للسنة ؟ وهل ما رواه الامام أبو سعيد بن لب أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يتفرقوا عن الميت سبعة أيام صحيح يستدل به على عمل الناس الآن ؟

الجواب :

عن السؤال الأول :

أن الاستشهاد على الكيفية الواردة فى السؤال لم يؤثر عن السلف الصالح ، لا فى عهد رسول صلوات الله عليه ، ولا فى عهد الصحابة والتابعين ، فهو إذاً بدعة .

وشهادة الناس للميت بأنه من أهل الخير أو من أهل السعادة لا تعدو أن تكون إخبارا عما يعلمونه من حال الميت ، فإن كانوا صادقين في شهادتهم بالخير له كان ذلك دليلا لنا على أن الله تعالى سيقبل عمله ، ويتفضل عليه بدخول الجنة ؛ وهذا الذى قلنا هو معنى الأحاديث الواردة فى هذا الباب التى تتضمن أن من أثنى عليه عدد من المسلمين وجبت له الجنة .

(٢) عن السؤال الثانى :

أن الذين يقرءون سورة الإخلاص أو أى سورة من القرآن عند القبر إذا اتفقوا مع أهل الميت على أن يكون لهم أجرة على ذلك ، أو جرى العرف بإعطاء مثلهم أجرا على قراءته ، فإن عملهم هذا يكون من قبيل الاستئجار على الطاعات ، وللعلماء فى ذلك خلاف ، والجمهور منهم على كراهته ، وعلى أن القراءة بالأجرة لا ثواب فيها للقارىء ولا للميت . أما إذا كانوا متبرعين بالقراءة دون أن يكون لهم على ذلك أجر ، لا شرطا ولا عرفا ، فإن الامام أحمد رضى الله عنه وأكثر المتأخرين من علماء الفقه يرجون أن تكون هذه القراءة مقبولة ، وأن ثوابها يصل الى الميت . ونقل عن الامام الشافعى رحمه الله أن قراءة القرآن لا يصل ثوابها الميت لأنها ليست من عمله والله تعالى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . ويرى المتقدمون من علماء المالكية أن القراءة للميت مكروهة لا ثواب فيها له لأنها ليست من عمل السلف الصالح ، فقد كان عملهم التصدق والدعاء لا القراءة . وأما التبرع بالاستغفار للميت فإنه من الدعاء المطلوب شرعا وهو نافع للميت .

(٣) وعن السؤال الثالث :

أن طلب الفاتحة من المشيعين للجنازة ليس له أصل فى السنة ، وقراءة المشيعين الفاتحة للميت فيها الخلاف السابق .

(٤) وعن السؤال الرابع :

(١) أن الاستئجار لقراءة القرآن قد تقدم الكلام فيه ، وأن الجمهور يرون كراهته ، بل نص الحنفية على أن الإجارة على قراءة القرآن غير صحيحة ، وكذلك الإجارة على التسبيح والتهليل والتحميد والاستغفار للميت .

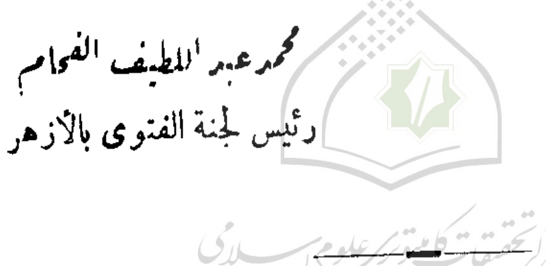
(٢) وأن قراءة الأجير لا ثواب فيها للقارئ ولا للميت كما هو رأى الجمهور من متقدمى العلماء .

(٣) وأن ملازمة قبر الميت سبعة أيام أو أربعين يوما لا أصل له فى السنة . وما رواه الامام أبو سعيد من أنهم كانوا يستحبون ألا يتفرقوا عن الميت سبعة أيام فلم نر تصحيحه فى الكتب المعتبرة ، بل الذى نعرفه أنهم كانوا لا يستحبون الاقامة على القبور ولا يستحبون المبيت فى المقابر . روى البخارى رضى الله عنه فى صحيحه أنه لما مات الحسن بن الحسن بن على

رضى الله عنهم ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت ، فسمعوا صائحا يقول : ألا هل وجدوا ما فقدوا ! فأجابه آخر : بل يئسوا فانقلبوا ! قال الحافظ ابن حجر فى شرحه على البخارى نقلا عن ابن المنير : إنما ضربت الخيمة هناك لتأنس بالقرب من الميت تعليلا للنفس وتخييلا باستصحاب المألوف من الأنس ، ومكابرة للحس ، كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البالية ، ومخاطبة المنازل الخالية ، فجاءتهم الموعظة على لسان الهاتفين بتقبيح ما صنعوا .

وقال النووى : وأما المبيت فى المقبرة فمكروه من غير ضرورة . نص عليه الشافعى ، واتفق عليه الأصحاب .

نعم وردت السنة الصحيحة بانتظار المشيعين بعد الدفن ساعة يستغفرون فيها للميت ويسألون له التثبيت : روى أبو داود عن عثمان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف على قبره وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت » . والله أعلم ؟



محمد عبد اللطيف الفحام
رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

التواضع مجلبة للشرف

قال عروة بن الزبير من كبار علماء التابعين : التواضع من مصايد الشرف ، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع .

وقال حكيم : التواضع فى الشرف ، أشرف من الشرف .

أما أخبار الكبار المتواضعين وخاصة من أهل هذه الملة فكثيرة ممتعة ، نذكر منها أن أبا هريرة لما استخلف على المدينة ، كان يذهب فيحتطب على ما كان عليه قبل الولاية ، ويأتى بالحزمة من الحطب على ظهره يشق بها السوق قائلا : جاء الأمير ، جاء الأمير ! ليعلم به الناس فينصرفوا إليه فى حوائجهم .

هذه غاية لم يسمع بها إلا عن صحابى ، ناهيك أنها أبانت عن نفسية ليس للمظاهر المادية سلطان عليها ، فاذا استطاع الانسان أن يحتفظ بمثل هذه النفسية نقية صافية على هذا النحو فلا تعجب إن انكشف له من أسرار الروح مالا ينكشف لغيره من الرازحين تحت آصار الأمراض النفسانية .

المواسم والاسواق

وآثارها فى نهضة الأمم الاقتصادية والعلمية

هذه وإن كانت فذلكة اقتصادية عن نشوء الحركة التجارية وتطورها ، فانها فى الوقت نفسه تكشف عن سنن الله فى ترقية البشر ، وعن الأصول التى يقوم عليها نظام التبادل الاقتصادى ، وتأثير ذلك فى تطور الأخلاق ، وتقريب عادات الأمم بعضها من بعض ، وفى هذا من النفع فى فهم حكمة الاسلام فى الحض على التجارة وعلى الأسفار لتعرف أحوال الأمم ما فيه . لذلك عنينا بايراده ليكون فاتحة لبحوث اقتصادية مستفيضة ، ولا يوجد اليوم من يجهل مكان الاقتصاد من ترقية الشعوب وتوجيهها الى الغايات البعيدة ، فأقول :

لقد درج الانسان الأول فى متسع رحب من الأرض يهيم فيه سعيا وراء فريسة يقتنصها ، أو رجاء فاكهة دانية يقتطفها . ولما تكاثر نسله وسئموا تلك الحياة المشردة المهددة ، انتظموا قبائل تفاوتت مواقعها ، فكان منهم من استقروا على مقربة من مسيل ماء فزرعوا ، ومنهم من أقاموا فى منابت العشب ، أو ضربوا فى الفيافى ، فرعوا .

ولما كانت الزراعة أسهل وسيلة للحصول على ضروريات الحياة اللازمة للناس والبهم ، من طعام وفىء ومأوى ، أقبل عليها الناس ، واجتمعوا فى الوديان ، وعلى مجارى الماء وشواطئ الأنهار ، يفلحون الأرض حتى إذا آتت أكلها وزاد الناتج عن الحاجة ، بدءوا يستبدلون تلك الزيادة بما توفر لدى الرعاة من الحيوانات والثمرات التى ليس لديهم منها ، فحصلت بينهم مقايضة ، وكان اجتماعهم على مقربة من المزارع نواة الأسواق . وإننا لنشاهد مثل تلك الحالة الأولية فى أعالى السودان ، إذ ما زالت تعيش قبائل على الفطرة يعطون العاج ومنتجات الغابات نظير أسلحة قديمة يدرءون بها عوادى الحيوانات المفترسة ، أو بعض أنواع اللحوم والملبوسات الساذجة . وكانت تتم عملية المقايضة بنسب غير معروفة ، وغير دقيقة لانعدام المقياس الذى تقوم به المبادلات ، فكان الرجل يعطى شاة ليأخذ غلالا . ثم كثر النسل فى الجهات الزراعية ، لتوفر دواعى الهدوء والاطمئنان الى الرزق ، وحاجة رب الأسرة الى أبناء يساعدونه فى مباشرة زراعته ، وانتشر بذلك العمران فى تلك الجهات ، وقامت بها مدنيات ، وتقدمت الزراعة فى مساحات واسعة ، وأدخل عليها تحسينات ، وتنوعت المحاصيل ، ووجد الناس أنه من الأجدى لهم أن يخصصوا جهودهم فى زراعة أو صناعة ما امتاز به وطنهم ، واستبدال منتجات البلاد الأخرى ، وبذلك لم يعد الانسان ينتج لمحض سد حاجاته الشخصية ، وإنما بدأ يزرع وينتج أشياء بقصد أن يقايض بها أشياء أخرى تجود بها الطبيعة ، فى أماكن أخرى تهيأت فيها الأسباب الطبيعية والاقليمية لإنباتها وإنتاجها .

فاذا ما تم الحصاد حمل الفلاحون محصولهم الى القرى أو المدن المجاورة ، فوق ظهور الابل أو على متون الحمير والبغال ، لبيعه واستبدال غيره به ، واجتمعوا فى مكان قريب وسط المدينة ليتمكنوا من عرض ما حملوا ، وبذلك تكونت السوق المحلية بطريقة أولية وهى مجرد عرض سلع فى انتظار المشترى . وبدأت تتكون لدى أهل الريف فكرة عن حياة المدن ، واختلطوا بسكانها وعرفوا عاداتهم وعلومهم وفنونهم ، فتهذبت أخلاقهم ، وحببت اليهم معيشة المدن ، فنزح بعضهم اليها ، ونقل الآخرون تلك المظاهر الى عشائرهم .

وقد خرج النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو فى شبابه الى أسواق الشام ، فى تجارة للسيدة خديجة .

وأصبحت القوافل التى تحمل حاصلات الريف والبوادى فى ذهابها ، وبضائع ومنتجات المدن فى إيابها ، مورد رزق لكثير من البلاد التى تحط بها رحالها لتستريح من وعثاء السفر . وقد ذكر الله تعالى وهو يعدد نعمه على أهل مكة رحلتى الشتاء والصيف : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » . وغدت تلك البلاد مراكز تجارية يلتقى فيها التجار من جميع الجهات فيتبادلون البضائع ويتعارفون ، واعتبر اجتماعهم سوقا محلية ، تفد اليها الناس من أطراف المدينة ، ومن القبائل الضاربة على مقربة منها ليتزودوا من سلعهم ، وبدءوا يتحدثون فى شئونهم ويروون أشعارهم ، ويتفاخرون ويمدحون ويهجون ، ممثلين مدنيات أقوامهم . فكان ذلك أصلا لنشأة الأسواق التى اشتهرت فى الحجاز : كسوق عكاظ ، وذى المجنة ، وغيرها .

واكتشف استعمال النقود فى تقدير قيم الأشياء المتبادلة ، فأدى ذلك الى تطور كبير فى الحياة الاقتصادية ، وأمكن تقويم السلع والملكيات والقيام بأعمال التسليف ، وبدأ الانسان يظهر كوحدة اجتماعية فى معترك الحياة فى مصر والعراق ووسط آسيا ، وارتقى مستوى معيشته وزاد إدراكه للأشياء ، وتهذبت لغته وأصبحت أكثر وضوحا ودقة .

وجرت السفن الشراعية تنقل حاصلات الشرق وبضائعه الى جنوب أوربا ، فظهرت فى المدن القريبة من الدولة الرومانية حركة تجارية كبيرة ، واشتهرت مدن فلورنسا وبيزا وجنوا وفينيسيا ، حيث كانت ترسو على موانئها السفن ، وتفرغ بها حمولتها ، لتوزيعها على أسواق أوربا ، فأثرت تلك المدن ، وبنت لها أساطيل تجارية تمخر عباب البحار ، والتقى فيها المسلمون بكنوزهم المادية والعلمية بالغربيين ، وكانوا ما زالوا فى جهل القرون الوسطى ، فأخذوا عنهم ونهلوا من مواردهم ، وتقدمت لديهم الفنون الجميلة والرسم والنحت والهندسة والشعر والفلسفة ، وكان ذلك بدء النهضة الأوربية الحديثة .

إلا أنه كثيرا ما كان يضار المنتجون والبائعون من تعرض بضائعهم ومنتجاتهم لأخطار

الطريق ، وللتلف من طول عرضها فى السوق لجهل المعروضة عليهم بها . وكان المستهلك نفسه يجد مشقة فى الحصول على حاجاته من تنقله بين العارضين ، وانتظاره مواسم المحاصيل . ولما كانت رغبة المنتج فى تصريف منتجاته لا تقل عن رغبة المستهلك فى الحصول على حاجاته ، وجدت طائفة الوسطاء والتجار ، ولهم من الخبرة والدراية والمران ما يجعلهم حلقة اتصال بين الطرفين ، فيشترون من المنتجين سلعهم وحاصلاتهم ويزيدون فى منافعها بوضعها فى متناول المستهلكين بالطرق التى يقتضيها فن البيع الذى يخلق الرغبة فى الشيء أو يهدى الى منافع الأشياء ، وبذلك لم يعد المنتجون فى حاجة الى الانتقال ببضائعهم الى الأسواق والانتظار ريثما يأتى المشترى ، وإنما تجمع حاصلاتهم ومنتجاتهم بالقرب من بيئة الانتاج فى أسواق مركزية ، ثم ينقلها تجار الجملة الى الأسواق المحلية ، ومن ثم توزع على تجار التجزئة لبيعها الى المستهلكين .

وارتقت وسائل الانتقال ، واستعملت عربات سريعة منظمة فى نقل البضائع ، وبذلك امتدت الأسواق الى أبعد من محيط المدينة الواحدة ، وأصبحت تعتمد فى تموينها على البلاد البعيدة ، وبذلك اتسع نطاقها واستقرت الأسواق المحلية داخل المدن ، ووجد لكل سلعة سوق على حدة .

تقدمت التجارة ، ونما عدد السكان فى العالم ، وتطورت الأفكار ، وجاء دور الانقلاب الصناعى فى أوربا بما أحدثه من ثورة هائلة فى وسائل النقل ، فاخترعت الآلة البخارية ، وانتشرت السكك الحديدية فى أنحاء العالم ، وأنشئت الجسور والأنفاق ، وتقدمت السكك الحديد نفسها فى ثقلها وقوتها ومقدرتها وسرعتها ، واخترعت السيارة تساعد وتنافس السكة الحديدية فى نقل الناس والبضائع ، وارتقت السفن البخارية فى الحجم والمتانة والسرعة ، وحفرت القنوات ، وأمكن لوسائل النقل البحرية أن تسير فى داخل مساحات أرضية ، فقضى ذلك كله على المسافات ، وربطت أجزاء العالم بعضها ببعض ، وأصبح فى مقدور البشر من جميع الأجناس واللغات أن يجتمعوا ويختلطوا ويتبادلوا ما تحمله سفنهم من المواد الخام والبضائع ، وقرب ذلك بين الأسواق ، وتعدت السوق المحلية الى أسواق خارجية ، وصار من السهل على المصانع والمستهلكين أن يعتمدوا على الخامات وموارد الاستهلاك من مصادر الانتاج البعيدة ، بل لقد أصبحت المعمورة كلها سوقا واحدة يتمتع كل قطر منها بخيرات الأقطار الأخرى عن طريق التجارة والمبادلة الحرة ، وبذلك تعدى الاتجار الخارجى المواد الكمالية الى المواد الضرورية .

غير أنه منذ أكثر من خمسين سنة كانت التجارة فى البهم واللحوم والسمك والفواكه والخضروات محدودة لتعرضها للتلف السريع ، فكانت تستهلك فى حدود دائرة لا يزيد محيطها على بضعة مئات الأميال من موطنها مع ضرورتها وشدة حاجة الشعوب البعيدة اليها ، ولكن العلم تغلب على بعض هذه الصعوبات وأمكن تمليح أنواع من هذه المأكولات ، فعاشت طويلا وأمكن تصديرها الى البلاد النائية .

وابتدأ من منتصف القرن الماضى استعمال طريقة حفظ اللحوم والخضر والفاكهة بوساطة تبريدها الى أقل من درجة الحرارة التى تتولد عندها ميكروبات التعفن ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الاهتداء الى طريقة استخدام الثلج واكتشاف مادة الامونيا فى سنة ١٨٦٠ فأمكن إرسال أول شحنة من لحم العجول من أمريكا الى انجلترا فى سنة ١٨٧٧ وأول شحنة من لحم الضأن من استراليا الى انجلترا فى سنة ١٨٨٠ ، وشاع استعمال طريقة التبريد ، واستخدمت فى حفظ الخضر والفاكهة وعصيرها والجبن والمأكولات المعبأة كالمربيات ، ثم تقدمت الفنون وحدد التحقيق العلمى درجات الحرارة التى تتم عندها عملية التبريد والحفظ الخاصة بكل نوع من أنواع الطعام ذات الأسواق البعيدة .

وانتشرت الأسواق المحلية فى المدن الكبيرة والقرى حيث تنعقد يوما فى الأسبوع تنشط فيه حركة البيع والشراء ، وخصوصا فى أيام المواسم والأعياد لما جرى عليه الناس من تمجيد تلك الأيام والاحتفال بها والخروج فيها عن مألوف عاداتهم فى حياتهم اليومية مادية كانت أو معنوية ، فينفقون عن سعة ، ويقدمون على تجديد ملابسهم وأثاثهم ، ويوسعون على أنفسهم وعيالهم ، فيزداد الاقبال على طلب السلع المعروضة فى السوق ، ويكون أغلبها أشياء جرت العادة أو التقاليد بطلبها فى تلك المناسبات كالسمك والكعك والملابس والأقمشة فى العيد ، وصنوف المأكولات وأنواع البندق واللوز وغيره فى رمضان ، وبذلك يرتفع ثمنها لأن المعروض منها يكون أقل من الطلب عليها إلا إذا أغرى التجار كثرة ما يعود عليهم من الربح فيعقدون صفقات أكبر من المنتجين ، وقد تنتهى موجة الموسم أو تطرأ ظروف كحالة حرب أو كساد أو فتك أوبئة وأمراض أو فيضان أو زلزال ، فتضعف القوة الشرائية لدى جمهور المستهلكين ، ويعجز التجار عن تصريف سلعهم ، لذلك يلزم الى جانب ما يجب أن يتحلى به التاجر من صفات الدراية بنفسية وميول المستهلكين ومواسمهم وأعيادهم بالدقة والحذر ، أن يتبع طريقة التخزين ، وذلك بحفظ سلعه فى مستودعات التخزين ، سواء أكانت عامة تملكها شركات وتؤجرها للتجار أم فى مستودعات يملكها التجار أنفسهم ، ليضمنوا بذلك ثبات الأثمان ، فلا تتعرض للهبوط الذريع إبان الموسم لزيادة المعروض وقتئذ ، ولا للصعود الفاحش بعد أن ينتهى الموسم .

هذا وتخزين السلع وحفظها بعد تبريدها جعل كثيرا من أنواع الطعام غير خاضعة للنظام الموسمى ، وأمكن بذلك تموين البلاد الصناعية الغاصة بالسكان .

ولكن قد يستغل التجار جهل المستهلكين بالكمية المخزونة لديهم ، ويعمدون الى رفع الأثمان ، فدرءاً لهذا الضرر تقوم الحكومات بعمل الاحصاءات اللازمة لحصر مقادير السلع المخزونة ومقدار الانتاج منها ليأخذ المستهلكون حذرهم من جشع المتجرين .

ولسهولة الانتقالات ورخصها فى القرن الحالى أمكنه الحصول على المواد الخام من أبعد

أنحاء العالم ، واستخدام العلم والفن فى تكييفها ، وخلق منافع كثيرة منها لم تكن فى الحسبان ، كالحرير الصناعى من الخشب وغيره ، وأصبح لزاما على المنتجين وتجار الجملة أن يقوموا تحت عبء المنافسة الحرة بحملات إعلانية واسعة النطاق يقدمون بها السلعة الجديدة الى العالم بأسره . وكان لتقدم فن الاعلان ، وتسهيل دفع أثمان المنتجات ، ومقدرة أرباب العمل الفنية والمالية ، أثر كبير فى تهيئة الرأى العام لقبول أنواع جديدة من السلع ، وتحوير العادات والتقاليد لتتفق وما تخرجه مصانعهم منها ، وبذلك تطورت عادات الشعوب ، وازدادت معلومات الجماهير ومعرفتهم ، وأحاطوا بكثير من أسرار الفنون والعلوم باطلاعهم على المعروضات النموذجية أو بقراءتهم ما ينشر فى الاعلانات فى كل مكان ، وارتفع مستوى المعيشة العالمى لأن حاجات كثيرة كانت تعتبر من الكماليات فى العصور الأولى لندرتها وارتفاع ثمنها وصعوبة الحصول عليها ، أصبحت الآن من الضروريات وفى مقدور جميع الناس الحصول عليها والاستمتاع بها ، بسبب انتشار وسائل النقل ورخصها ، واتباع نظم البيع الحديثة .

واقتضى التقدم فى جميع نواحى النشاط البشرى تنظيم الأسواق المحلية والعناية بها من جانب الحكومة بفرضها الرقابة عليها لمنع الغش والتلاعب بالأسعار ، وأدى اهتمام التجار بالاعلان والدعاية الى أن أصبح لكل سلعة شهرة عالمية ، خصوصا إذا كان الانتاج منها وفيرا والطلب عليها متزايدا كالقطن والحبوب والفواكه ، وأصبحت أسواقها أسواقا دولية ينطبق عليها التعريف الحديث للسوق ، فانه لم يعد يقصد بها مكان معين تباع فيه البضائع ، بل أصبحت تشمل الأقطار أو العالم بأجمعه ، وتطلق على جميع المتعاملين فى أية سلعة يكون نطاق المعاملات فيها واسعا ، ويكون المتعاملون أحرارا فى معاملاتهم وعلى اتصال دائم مهما اختلفت أماكنهم ، وذلك بوسائل الاتصالات الحديثة كالتلغراف والتليفون واللاسلكى . وعلى ذلك قد تحتوى المدينة التجارية على عدة أسواق بقدر ما يوجد بها من عروض التجارة ، أو قد تكون الدولة كلها سوقا واحدة إذا كان إنتاجها الكبير لا يتعدى نوعا واحدا من السلع .

ويجتمع كبار المتعاملين فى البورصات وقاعات المزادات العامة حيث تعقد الصفقات ، وتحدد الأسعار ، وتنشر على الملأ بسرعة بوساطة اللاسلكى والصحف السيارة ، وتعاق فى الحلقات والشون ، وبذلك تتجه أسعار السلع الواحدة نحو التساوى بسرعة وسهولة فى جميع جهات العالم ، وبذلك أيضا ازداد ترابط أجزاء العالم وأصبحت الكرة الأرضية وحدة لا تفرقها إلا الخصومات السياسية للاستيلاء على منابع الثروة والتسلط على موارد المادة الخام وضمان أسواق لتوزيع منتجاتها ، وكانت النتيجة أن اتبعت بعض الدول نظم الحماية والحصص الجمركية لتقييد الواردات ، رغبة منها فى زيادة صادراتها ، وحرصا منها على صناعاتها الناشئة أو القائمة على المنافسة الخارجية ، ولكن الدول الأخرى بطبيعة الحال تقابل تلك السياسات بالمثل ، فحال ذلك كله دون رواج

التجارة ، وحرية المبادلة اللازمة لرخاء ورفاهية العالم ، بل أدى ذلك الى تكديس البضائع فى المخازن لا تجد تصريفا ، فكسدت الأسواق وتهدد المنتجون بقلة الأرباح ، فقللوا الانتاج وأغلقوا بعض مصانعهم ، وخفضوا الأجور ، واستغنوا عن كثير من العمال ، فكثرت البطالة ، وانخفضت القوة الشرائية ، وهبطت كنتيجة لذلك مقطوعية ما يبيعه التجار ، فاضطر التجار لإبطال ماسبق أن تعاقدوا عليه ، فتأثر المنتجون ، وافتقر المنتجون وهكذا ، وتستحكم الأزمة وتشل الحركة التجارية ، وتزداد وطأة هذه الحالة فى زمن الحرب حيث يقف دولاب العمل تماما .

إلا أن الحرب تعتبر موسما مواتيا لمعامل السلاح والمواد المفرقعة ، فتدب فيها الحياة وتفتح أبوابها للعمال ، وتشترى أنواعا من المواد الخام ، وقد تحصل عليها بسهولة لأن الحكومات الموادة لها تعينها وتؤازرها ، فيثرى تجار السلاح ومنتجو مواده ، وتتسع رقعة أسواق السلاح والذخائر فى بعض البلاد المحايدة التى تورد أسلحة لكل من الطرفين المتحاربين ، وتجرى الفلك فى حراسة الأساطيل محملة بمواد وآلات الهلاك والتدمير بعد أن كانت تسير فى حراسة الله بسم الله مجراها ومرساها ، وهى تحمل مواد ضرورية للحياة والتعمير ، وتنقل رسل المعرفة والنور ؟

ابراهيم زكى

ما قيل فى ضروب اللباس

من الناس من يتأنق فى لباسه الى حد الخروج بذلك عن مالوف الناس ، فيحدجونه بأبصارهم ، ويزدرونه فى قلوبهم ، قال الشاعر :

قل للذى يخرج عن شكله ليرتقى أسباب أوعار
كيف ترجو أن تنال العلا ولم تبال الدهر من عار
من فارق المعهود من زيه فذاك لا كاس ولا عار

وقد عرف قديما وحديثا أن ليس هناك تلازم بين اللباس والألمعية ، فرب متبذل فى لباسه ملأ طباق الأرض علما ، ومتأنق فيها كان حشو إهابه جهلا فاضحا . وهذا لايعنى أن كل ألمعى يجب أن يسف فى ملبسه ، فقد ورد فى الكتاب الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح حث على التجمل .

قال مكحول من أعلام التابعين : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله ، ومن جمع بينهما ظهرت مروءته .

مختارات عن كبار علماء أوربا

الدور الذى قام به آحاد من النوع البشرى
فى التطور العقلى للانسانية

رأينا استكمالا لضروب التحسين فى تحرير هـذه المجلة أن ننشئ فيها بابا نودعـه أحسن وأنفع ما نقف عليه من البحوث العـالية ، فى أهم الشئون الانسانية ، لـكبار العلماء ، وأجلاء الباحثين الغربيين ، مترجما عن لغاتهم الأصلية ، لاعلى سبيل الاستشهاد بها فى إثبات شىء أو نفيه ، ولـكن على سبيل عرض آراء جبابرة العقول فى أعوص المسائل التى يعنى بها العالم فى حياته الراهنة .

فنبدأ بتعريب مقال للعلامة الدكتور (أوجين أوستى) مدير أقاذيميا البحوث النفسية فى فرنسا . قال تحت العنوان المتقدم :

« يبعد جـدا أن يـكون الآحاد المؤلفون لمجتمع متمدن فى عصرنا الراهن على درجة واحدة من الناحية العقلية ، بل هم من شدة التخالف بحيث يصعب ترتيبهم ترتيبا مرضيا . فلن ننظر اليهم هنا إلا من ناحية التطور التى تهمنا وحدها .

« ولننبـه بادئ ذى بدء أنه يجب لأجـل التعمق فى درس مزاجهم البسيـكولوجى أن نميز فيهم :

(أولا) ما هو أصلى أو فطرى لديهم ، أى الذخر العقلى الذى وإن احتجب عندهم خلف الصفات المـكتسبة ، فهو الى حـد ما يعتبر القوة المؤثرة فى تحـديد وجهة أعمال الشخص وأفـكاره .

(ثانيا) ما يكونون قد أضافوه الى هـذا الذخر العقلى من آثار التربية والعلم ، وهى آثار تؤثر فى ذلك الذخر العقلى ، وتعطى هؤلاء الأفراد مظهرا يوهم أنهم متشابهون ، على حين أنهم يكونون متخالفين كل التخالف .

« فإذا لوحظت الـكائنات الانسانية من هذه الناحية ، رئيت على حال من الترتيب تـكون فيه جميع درجات التطور العقلى ممثلة . فإذا حـكم عليهم بعد تقدير الذخر العقلى الذى لـكل منهم فيمكن أن ينقسموا الى ثلاث نماذج تضم جميع آحادهم ضما جمليا .

« فالنموذج الأول يجمع جميع الـكائنات الانسانية ذوى الذخر العقلى المجاور للحالة الأولية ، وهؤلاء يعملون ويفكرون متأثرين بالميول الجسدانيـة الطبيعية ، فهم يكونون تحت تأثير اندفاعات طبيعية ، شعورهم العقلى مظلم رغما عما يكونون قد حصلوه من المعلومات . فالحياة

بالنسبة لهم ليست غير ظاهرة بيولوجية من درجة منحطة (١) . وهؤلاء لا يكون حظهم من الأخلاق إلا مظهرا مفروضا عليهم بسلطان القوانين الاجتماعية ، أو القواعد الدينية ، أو بتأثير عادات لا تناقض تربيتهم البيتية إلا مناقضة ضعيفة .

« هذه الطائفة هي فى المجتمعات البشرية بكثرة لا يتوقعها الناظرون ، لأن أفرادها لا يجدون فرصة للظهور فى المجتمعات إلا فى الشئون الصغيرة للحياة الشخصية ، وهى لا تلفت النظر إلا قليلا . ولكن إذا طرأت أحوال تصلح لاظهارهم على ماهم عليه ، تحقق الناظرون من كثرة عددهم .

« هذه الطبقة ولّدت القتلة والسلابين فى جميع الأجيال البشرية من أول رؤساء الشعوب الشرهين المولعين بالغارات والحروب ، الى النماردة ومن دونهم من جميع الأقدار والأنواع ، الى القائمين بتعذيب الأجساد والعقول ، الى المتجسسين على أعمال الناس ومحاكمتهم على عقائدهم ، حتى ينتهى الأمر الى الطوائف المؤتلفة على النهب وسفك الدماء ، وفى أيامنا هذه تولد هذه الطبقة ، على حسب الأمكنة التى تضعهم فيها الظروف ، وعلى قدر معارفهم أو جهالاتهم ، الجماهير الصاخبة للوصوليين المجردين من الضمائر ، المستعبدين للرجال أمثالهم ، والقاهرين الذين لا يعنيهم إلا توفية شهواتهم وذواتهم . وتولد أيضا العدد الضخم من الحيوانات نصف الشاعرة التى تترامى على الافتراس والقتل متى لاحت لها أول فرصة .

« هذه هى الكائنات ذوات الميول الخشنة التى منحتهم العادات ، ومقتضيات الحياة الاجتماعية ، مظهرا يخفى تحته الاندفاعات البهيمية للأناسى الأولين فى كل حيويتها وقوتها .

« وفى مكان متوسط بين هذه العقليات الأولية ، وبين العقليات التى يمكن أن تعتبر فى نظر أهل عصرنا الراهن أنها بلغت منتهى الترقى ، يوجد نموذج إنسانى يحوم حوله السواد الأعظم من كل أمة عصرية متمدنة ، جعلهم الترقى التدريجى الذى أنتجهم كائنات أقل تعلقا بمبدأ الأثرة من سابقيهم ، وأكثر انقيادا لواجبات التبادل التى تقتضيها الحياة الاجتماعية ، ولكنهم مع هذا غرقون فى المادية ، لا تنصرف عقولهم الى ما هو خارج عن دائرة مطالبهم الحيوانية التى زادها الرقى المدنى تركبا ، إما مباشرة أو بواسطة . فهم كائنات مادية يعتبرون الحياة مرعى خصيبا لهم ، فيوفقون جهودهم عليها ، ويوجهون نشاطهم الى الحصول على أحسن مكان منها . فالحياة الأرضية على أكمل ما تكون هى فى نظرهم القطب الذى ينجذبون إليه مقهورين خلال أعمالهم الجزئية التى تشغلهم فى وجودهم . وعمل هؤلاء فى سبيل الانتفاع ينتج الرقى المادى العام ، ويسهل عيش الأفراد فى أحسن الأحوال .

« أهل هذه الطائفة يُظهرون ارتياحا للأوضاع الأدبية الراهنة ، وللأمور العلوية التى

(١) يريد بقوله : ظاهرة بيولوجية ، أى حادث حيوى أحدثته النواميس الطبيعية فيما أحدثته من الظواهر. ا.ه

تؤتيهم بها دياناتهم أيا كانت إذا كانوا متدينين . وهم يعتقدون أن مبدأ سيادة القوة من الضرورات التى لا محيص عنها ، وهذا المبدأ فى نظرهم من النواميس الطبيعية التى يجب الخضوع لها . فهذه الطبقة تمثل الانسانية التى بلغت الى منتصف الشعور ، وأقلعت عن خشونة اندفاعاتها الجاهلية ، طبقة يعمل فيها قانون التطور باستمرار ، وتتولد فيها التوثبات التى تحدث فى كل جيل لدفع عدد أكبر من الناس نحو ذروة الترقى .

***

« مما لا مشاحة فيه أن أوج التطور العقلى فى عصرنا الراهن نسبى ، وهو أرفع مستوى وصل إليه البشر من السمو النفسى ، ولكنه ليس بالحد النهائى لترقى القوة الفكرية .

« يندر من يرتفع الى هذا المستوى ببذل الجهد الشخصى ممن يكون الذخر العقلى لديهم فى درجة منحطة . فكل إنسان يولد وله تركيب نفسانى فيزيولوجى يؤهله لاكتمال القوة الفكرية فيه ، فتأتى التربية وتأتى المعلومات فتحقق هذا التطور التام المستعد له ، وتدفع الذين لم يستعدوا له الى ما يقرب منه .

« وعلى خلاف هذا يكون أصحاب الذخر العقلى المتطور من ناحية الاستفادة من استعدادهم الفطرى بالتربية ، أو لعدم الاستفادة منه بتركهم جهالا . فقد شوهد بين جماهير الكائنات المتأخرة فى الهيئات الاجتماعية أشخاص تركيبهم العقلى من أرقى طبقة ، ولكن لم تسعفهم الأحوال بالتربية . هذا إذا لم يكن قد أصابتهم مؤثرات رجعية ، فتجدهم رغما عن نشوء أصحابهم فى بيئة لا تصلح لظهور قابلياتهم ، وقد تكون معاكسة لها أيضا ، يتميزون عن بقية المحيطين بهم من أهل طبقتهم بسمو أفكارهم ، وبتعطش عقولهم لفهم كل ما يؤثر عليهم ، وبشدة إحساسهم بالجمال ، وباعجابهم بالأفكار العالية ، وبعدالة أحكامهم ، وبمنطقهم واستقامة أعمالهم ، وهم فى توازنهم النفسانى الكامل يجمعون كل القوى القابلة للظهور ، مما نصادفها مطلقة من كل قيد عند الرجل المتطور الذى أسعفته الأحوال بالتعلم .

« تأتى على رأس جميع الطبقات الشرذمة القليلة لطبقة المتنورين الذين أسعدهم الحظ بالتعلم . فهؤلاء كائنات ذوو شعور واضح تتغلب عليهم الوظيفة الفكرية ، وقد اجتازوا منطقة العمل لمجرد المنفعة المادية ، وسلكوا كل طريق يمكن أن يؤديهم الى مدى أبعد فى باحات العلم والمعرفة . وهم إذا نظروا الى شىء قاموا بذلك بتثبت ونزاهة ، متبصرون فى إثباتهم ونفيهم ، لا يبصرون الأشياء من خلال حجب مضللة تفسد عليهم أحكامهم ، ولا يخضعون لرأى ما ولا لافتراض ما خضوعا مطلقا ، ولا يستبد بهم الاتِّباع وإن كان شرطا فى الوصول الى العلم . ولكمال إدراكهم تفاهة المعلومات البشرية ، لا يسمحون لأنفسهم بحق الحكم على أى مجهول

اعتمادا على ذَرْوٍ لا قيمة له من المعلومات التى لديهم . فتجدهم يتألمون من ضيق المجال الذى سمح به لأفكارهم ، وهى متعطشة للإلمام بكل شىء فى الوجود .

« إن سمو الشعور الأدبى الذى لدى هؤلاء الرجال ، من ذوى التطور العالى الذين يمدون الانسانية بالمصابيح التى تتقدمها فى سيرها نحو الرقى غير المحدود ، ينتج من اتساع مدى الشعور العقلى . فان العقل يملى عليهم السيرة التى يتبعونها بدون أن يحتاجوا الى الايحاءات التى ترد من الخارج . ونظرا لأن وجودهم الشخصى لا يظهر لهم أنه مجرد مجموع أعمال ذات أغراض نفعية أملتها عليهم الأثرة ، ولأن النشاط العظيم الذى تتمتع به أفكارهم تقفهم بالتجربة على مبلغ القيمة النفسية للانسان ، فقد تأدوا تأديا ضروريا الى عاطفة احترام أنفسهم واحترام غيرهم ، وأخذوا يسيرون فى معاملاتهم على هذه الأصول : العدالة ، والحرية ، والتسامح ، والرحمة .

« وهم لاينظرون الى سواهم من الناس نظرهم الى أعداء أتت بهم المصادفات ، ولكن نظرهم الى زملاء مدفوعين فى حركة واحدة تحمل الانسانية جمعاء نحو غاية مجهولة . وهم على علمهم بأن هذا الدفع من الأمور التى لا تدخل تحت الاختيار البشرى ، تجدهم يحاولون تغيير تسلسل الأسباب الثانوية ، ليمكن أن تحوّل الأحوال الرديئة للحياة الى أحسن ما يمكن أن تكون عليه ، فتراهم يعيشون حياتهم ضحايا لصدق نظرهم الذى يريهم بوضوح تام أنها وهم باطل ، وضحايا لإحساسهم الحاد الذى تؤثر فيه على وجه الاستمرار الوحشيات المحيطة بهم .

« وهم مجردون من السلاح فى جماعات بشرية مقودة على الدوام بقانون وجوب الحرب لأجل الحياة ، لفقدهم غريزة الجرى وراء الفريسة .

« بفضل هؤلاء الأفراد المتطورين قد بلغت الانسانية دور الرشد . فإذا كانوا لايزالون قليلين إذا قوبلوا بعدد الدهماء ، فإنهم يزدادون عددا يوما بعد يوم بدون انقطاع ، وبسرعة آخذة فى الارتفاع ، وسيأتى على الناس عهد لا يمكن تخلفه ، تصبح فيه هذه الطائفة المنثورة الآن هنا وهناك السوادَ الأعظمَ من الناس . عند ذاك تنقشع عن الانسانية العوائد الخشنة التى تجعل حياة أكثر الأفراد توقيعات شتى للحن واحد : ألا وهو الألم .

« من ذروة الرقى النفسى هذا الى أحط الطبقات الجاهلة ، تأتى طبقات الشخصيات الحاصلة على درجات متباينة من التعلم ، ولكنها لم تبلغ منتهى التطور ، فى نظام يقوم على درجة قابلياتهم الفطرية ، وعلى مقدار تربيتهم العقلية .

« فهم أصحاب شعورات عقلية لم تبلغ كمالها ، ومدارك ذات مدى محدود ، وغير ناضجة فى بعض نواحيها ، وليس لها هذا التوازن ، ولا ذاك التلاؤم فى الوظائف النفسية التى تهب الفكرَ مداه ودقته ، ومنطقَه غير المشتق ، وخلوصه التام من ربقة التقاليد الرجعية .

« فإذا ألقينا مسبارنا هنا وهناك فى هذه البيئة من الاختمار العقلى ، نستطيع أن نقف على نموذجات من الخلاف الذريع الموجود بين الكائنات الانسانية وهى تحت تأثير العمل التطورى المتواصل .

« فقد يرينا هذا السبر عالما مشهورا فى كل مجال من مجالات فرع من فروع العلم ، ولكنه جامد كل الجمود ، ومنكر لكل ما يدخل فى دائرة الافتراضات التى يختارها ، والآراء التى بناها لنفسه .

« ويرينا عالما آخر يتتبع أبحاثه على أسلوب لا غبار عليه ، ولكنه يدع أحكامه الأخرى وسيرته تحت سلطان عواطفه .

« ويرينا فيلسوفا يؤكد أو ينفى وجود الروح والخالق ، ويحكم على نظام الوجود بعبارات تولد الأباطيل ، وتهب الوجود لما ليس بموجود .

« ويرينا رجلا باطنيا ، والباطنية قرارة الخزعبلات التى تولد فى الانسانية من لدن عهد طفولتها ، يُدخل — وهو فى غفلة عن ضخامة ما يعمل — البيولوجيا الانسانية فى علم اللاهوت الذى يتبنيه ، ويضبط اللانهاية ، ويكسو المجهول المبحوث عنه رداء من ضيق آرائه .

« ويرينا رئيس حكومة يظن أن من المهارة أن يدفع شعبه الى اقتناص فريسة أدسم مما لديها ، وبمقدار من المكر والخديعة والأهبة أكثر مما اتخذه من سبقه ، فيورطه فى المذابح البشرية وهو يتوهم أن الانسانية كلها محصورة فى الحزب الذى يمثله وخاصة فى شخصه هو ، وهو يخدعه نفسه وخدعه الناس ، ويجهله الى أية وجهة يتجه البشر ، يعمل على إيجاد حركة تناقض حركة التقدم .

« ويرينا موظفا يصلح لكل وظيفة ، قد خدع الناس باعلامهم أنه خادم أمين للجماعة ، فأساء استعمال السلطان القليل الذى منحه ، فأصبح نمروذا صغيرا ضد الذين كان يجب عليه أن يخدمهم .

« ويرينا جميع الذين يتخيلون أن مهمة الحياة الجرى وراء الدرهم ، ويرتبون طبقات الناس على قدر ما يملكون من حطام الدنيا .

« ويرينا الغنى الفخور بغنيمته التى يحتفظ بها ، والفقير الذى يحسده على ما فى يده .

« ويرينا الغرقى فى أعمالهم الذين لا يبرحون كدحهم لجر المنافع ، إلا للاستمتاع باللذات المادية .

« ويرينا جميع الذين هم فى الواقع بطون تتطلب أن تملأ ، أو أطفال يبحثون عن التسلية .

« كل هذا والمجموع المفطور على أن يعيش مجتمعا تتوالى أجياله ناظرة الى ما حولها من

خـلال جميع التقاليد والعادات التى نشأت فى ماض منحط ، مضافا اليها بتوسع وهم جـديد فى وجـود فيه العقل الراشد يميز بصعوبة عظيمة حقائقه النسبية ، من الوهم المطلق الذى يزيد هذه الحياة المنحطة حقارة على حقارتها . جماهير تموج فى كِسَف من الظلمة ، تتحرك فى طلب النور ، وهى متمادية فى أحلامها المؤلمة التى لا حد لها . طوائف من المتخلفين فى جميع مراحل السير نحو العقل المستنير أكثرهم فى غفلة عن التطور الضخم الذى يعمل فيهم وبهم لمصلحة سواهم .

« فى أسفل هذه الطبقات الخاضعة لناموس التطور ، يجد الباحث الطبقة الاجتماعية التى توصف بالمنحطة لأنها حرمت من التعليم .

« فهنالك تصادف الذخر الأدبى فى أولى درجاته ، لأن ما يضاف اليه من المعقولات المكتسبة لا يستطيع أن يحدث تغييرا يذكر فى الغرائز الفطرية . اللهم إلا ما يجىء من بعض الينابيع المهذِّبة من المدد الأدبى ، فانه يكون عاملا حقيقيا فى إحداث التطور .

« إن آحاد هذه الطبقة المندمجة فى كثرتها ، توزن أقدارهم عقليا على حسب الذخر الذى ورثوه عن آبائهم ، وأدبيا على حسب الانجاه الذى يوحَى اليهم ، متى كان ذلك الذخر الموروث ليس من درجة عالية . فيوحد فيهم الجيد والردىء متى عرضت مظاهرهم على ما هم عليه بدون تصنع منهم .

« فتصادف فيهم قابليات قـد أهمـل أمرها ، وأفـكارا بقيت فى حالة جنينية لنقص فى تركيبنا الاجتماعى .

« من هذا المستودع للاختمار العقلى البطىء ، ينبغ الى ارتفاعات مختلفة ، وربما طفرة من الحضيض الى الذروة ، أفراد أسعدتهم الأحوال بدفعهم الى مجال التطور .

« هذه الـكتلة البشرية الجامدة فى ظلامها العقلى ، متروكة عرضة لـكل الإيحاءات التى ترد عليها وتؤثر فيها . وما ترثه عن أسلافها يحسِّن من حالتها فى جميع أدوارها ، وينقلها درجة عما كانت عليه فى ماضيها » .

محمد فريد وجدى

لا يضيع المعروف

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها شـكور أو كفور
ففى شـكر الشكور لها جـزاء وعنـد الله ما جحد الـكفور

الحرية العلمية فى الاسلام

كيف طبقها ملوكه فى المشرق والأندلس

— ١ —

يرى المفكرون أن الحرية العلمية اعترض طريقها فى كل جيل أمران خطيران : الجهل ، والحكومة الظالمة . فالجهل يثور على العلم ويتخذه عدوا له ، وقد يطلب من الحكومة أن تعينه عليه وتثأر له منه ، لائذا بالدين مرة ، ومخوفا من الالحاد أخرى ؛ وقد تكون الحكومة ضعيفة فى حاجة الى معونة الجهل فتنصره ؛ وقد تكون جاهلة فتبالغ فى التنكيل بالعلم ؛ وقد تكون حكيمة فتعالج الأمر فى رفق وحكمة ، فتسترضى الجهل ولا تظلم العلم ؛ وكثيرا ما رأينا العوام يسوقون الحكومات فتبطش بالعلم بطشة كبرى كما سنبينه فى موضعه .

قد يضيف بعض الناس الى هذين الأمرين المعترضين طريق العلم وحريته ، أمرا آخر له شأن وخطر ، وهو الدين ، يشجعهم على ذلك استبداد الكنيسة فى القرون الوسطى بكل شىء ، ولكن الاسلام لم يقرر سلطة روحية . فدين هذا شأنه لا يعقل أن يشاق العلم ولا يضيق حريته ، ولكن يجرى معه جنبا الى جنب ، ويرى فيه ما يعزز قواعده ، ويثبت أركانه ، مما سنرى أثره بعد .

فلما مضى عهد الخلفاء الراشدين وجاء بنو أمية ، اشتغلوا بلغتهم ودينهم ، وقرأ بعضهم شيئا من الطب ، واستقدم خالد بن يزيد بن معاوية نفرا من مصر ترجموا له كتبا فى الكيمياء ، وانقضت دولتهم ولم يزيدوا على هذا شيئا . قال صاعد بن أحمد الأندلسى : « إن العرب فى صدر الاسلام لم تعن بشىء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشى صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس اليها . فهذه كانت حالة العرب فى الدولة الأموية » .

مضت هذه الدولة ولم تحدث فيها خلافات دينية ، غير أن الجعد بن درهم بذر بذور المحنة الشديدة التى كان لها أثرها وضحاياها فى الدولة العباسية ، وهى القول بخلق القرآن ، وأظهر فى ذلك مقالته ، فهاج الناس وغضب الخليفة ، وأرسله الى أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله ، فبلغ هشاما فشدد فى قتله ، فقتل . وكان ابن درهم يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلا .

وأخذ مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إخذ ابن درهم فى القول بخلق القرآن ، ولكن

تتابع الحوادث ، واستعار الحروب بين الأمويين والعباسيين ، وخوف العامة ، دفن هذه الفكرة مؤقتا حتى رفعت رأسها فى القرن الثالث كما سيجىء بعد .

نستعرض الآن حالة العلم فى عهد الدولة العباسية التى قامت على سواعد الفرس ، فنشط رجالهم لإمداد الأدب العربى بحاجاته ، فترجموا له عيون الكتب المؤلفة بلسانهم ، واستخدم الخلفاء المترجمين عن اليونانية والعبرية والسريانية ، فترجم يحي بن البطريق المجسطى فى الفلك ، وجورجيس بن جبريل كتبا فى الطب ، وكان المنصور مع تضلعه فى الفقه كلفا بالنظر فى علوم الأوائل . فلما جاء الرشيد كان للحرية العلمية فى عهده شأن عظيم ، فأطلق البرامكة للناس عقولهم وأقلامهم ، غير أن حرية العلم ونقل الكتب الى اللغة العربية لم يصلا الى غايتهما إلا فى عهد المأمون

كان المأمون قد نظر فيما ترجم من علوم المتقدمين ، وصادف ذلك هوى فى نفسه ، وملكت الفلسفة عليه كل حواسه ، فكان يذكرها قائما وقاعدا .

قال ابن أبى أصيبعة : حكى ابن عدى أن المأمون قال : « رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا على كرسى جالسا فى المجلس الذى أجلس فيه ، فتعاظمته وتهايبته وسألت عنه ، فقيل : هو أرسطوطاليس ، فقلت : أسأله عن شىء ، فسألته : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنته الشريعة . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنه الجمهور . فقلت : ثم ماذا ؟ فقال : ثم لا ثم » . وهذا يرينا الى أى حد تمكنت الفلسفة والعلوم من نفس المأمون . وكان يقدم أرسطو وفلسفته على من عداه ، وأعد دارا للحكمة حشد فيها من التراجمة والعلماء جمعا كبيرا . وأرسل الى حاكم صقلية فى أن يرسل اليه مكتبة صقلية الشهيرة ، ففعل . كما أرسل الى ملك الروم يستأذنه فى أن يوفد اليه من يختار له من كتب اليونان وعلومهم ، فأجابه الى ذلك ، فأنفذ اليه جماعة من بينهم سالم وابن البطريق والحجاج بن مطر ويوحنا بن ماسويه ، فاختاروا من كتب اليونان جمهرة عظيمة حملوها الى بيت الحكمة ، ونقلوها الى العربية .

لم يكن أمر الترغيب فى النقل والترجمة قاصرا على دار الخلافة ، وإنما جرى الناس فى هذا على مذهب مليكهم ، فكان كثير منهم ينفق الآلاف من الدنانير فى الشهر على النقل الى العربية .

نشط الناس الى النظر والتفكير على الأسلوب المقتبس من تلك الكتب ، فنشأت لهم آراء ومذاهب خالفت ما عليه العامة ؛ وشجع على ظهورها إطلاق المأمون حرية العلم ، وفتح باب الجدال على مصراعيه ، فلم يتهيب الناس مما كانوا يتهيبون منه من قبل ، وأدلوا بما عندهم ولو كان ضد الخليفة نفسه ، وكان المأمون يقبل ذلك ولا ينكره ؛ ويرحب بالآراء وتضاربها حتى تظهر الحقيقة ناصعة .

قال ميور المستشرق فى الكلام عن المأمون : « إنه كان واسع الحرية الى درجة مدهشة ، وقد أباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين أفضل : الاسلام أم المسيحية . وأحاط

المأمون نفسه بالعلماء من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة فى حضرته فى مسائل كان البحث ممنوعا فيها من قبل : كعلاقة الانسان بالله ، وطبيعة الألوهية » . وقد وجد بعض مرضى النفوس الجو صالحا فنالوا من العرب وحطوا من شأنهم ، وهم قوم الخليفة ، فلم ينكر عليهم ، وأطلق للأقلام حريتها ، وقد جاء الشعوبية وغيرهم من ذلك بالشىء الكثير .

لم يكن المأمون يكتفى بهذا فحسب ، وإنما كان يشترك معهم ، وقد يخالفونه فيرحب بهذا الخلاف ، لا يهمه شىء إلا الوصول الى الحق . وكثيرا ما كانت مخالفة العلماء له مصحوبة بشىء لا يليق ، وكان يترامى إليه أشياء ، وكانت تحز فى نفسه كثيرا ، كما حصل من تفضيله عليا ، واتهامه بتنقص الخلفاء الراشدين ، فكان يألم من ذلك ويقول : « والله ما أستحل أن أتنقص الحجاج فكيف السلف الطيب ؟ »

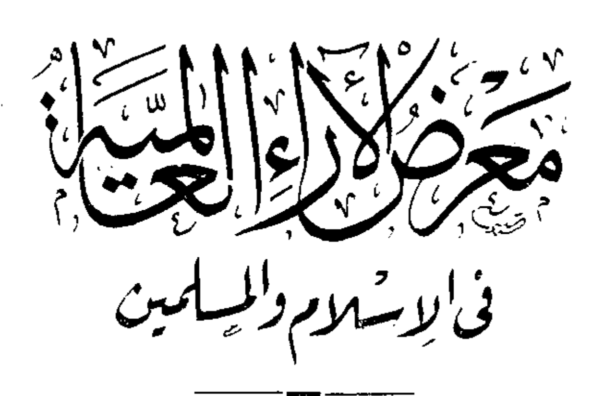
قال يحيي بن أكثم : « لما دخل المأمون بغداد أمرنى أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون : يا أبا محمد قد شغل الناس أهواؤهم . . » ولم يسترح لما جرى ولكن ذلك لم يفت فى عضده ، بل صبر على ذلك ، ورأى أن مداومة البحث والنظر قد تقوم المعوج وتصلح ما فسد من الأمور .

الى هذا الحد بلغ هوى المأمون فى حماية الحرية الفكرية والعلمية مما لم يكن له مثيل إلا فى هذه العصور ، ولكنه لم يلبث أن أتى على جل ما بناه من صرح نخم لهذه الحرية ، فأصدر أمره ، وهو يحارب الروم ، الى نائبه ببغداد أن يستدعى علماء الدين بدون استثناء ويلقى عليهم هذا السؤال ، وهو من مباحث المعتزلة : القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ وأمره أن يبطش بكل من يقول إنه غير مخلوق . فصدع نائبه إسحق بن ابراهيم بالأمر ، وضرب عددا لا يحصى من كبار العلماء .

فعجب المفكرون من هذا التناقض ، وزاد عجبهم أن يأمر بالتعذيب على القول بأمر ليس له أدنى علاقة باصلاح دين ولا دنيا ، فشاب بهذا العمل ما كان سيخلد له من الذكر فى إقامة صرح الحرية الفكرية والعقلية .

على أن هذه الحادثة لا يجوز أن تنسينا ما كان عليه المأمون من الخلال الكريمة ، وما خدم به العلم الكونى والفلسفة ، من ترجمة كتبها الى العربية ، الأمر الذى أثمر ثمراته فى الأجيال التالية لجيله ، وتولدت منه المدنية الاسلامية التى أصبحت مفخرة الانسانية الى اليوم ؟

محمد ناصف



الجنرال تشيانج كاى شيك زعيم الصين

يشهد لمسلميها بالبسالة والوطنية

جاء فى جريدة شنغاى التى تصدر فيها باللغة الفرنسية ما تعريبه :

« رفع الجنرال تشيانج كاى شيك صوته عاليا فى الاجتماع السنوى لاتحاد الجمعيات الاسلامية الخاصة بالدفاع عن السلامة الوطنية ، فقال : إن المساعدة الاختيارية التى يقدمها خمسون مليونا من مسلمى الصين من الرجال والمال وتحت أشكال أخرى ، وقد انضموا جميعا الى الجبهة المتحدة المقاومة ضد العدوان اليابانى ، لما يوجب لهم المدح والثناء العظيم . كان عدد المجتمعين فى هذا الاجتماع نحو مائتين من المسلمين . وقد حضره عدد من كبار الرجال الرسميين . منهم الجنرال باى تشونج سى من هيئة أركان الحرب العامة ، وهو رئيس هذا الاتحاد ، والجنرال هونيج شنج وزير الحربية ، وتشين لى فو وزير المعارف .

« وقد أثنى الجنرال تشيانج كاى شيك رئيس جمهورية الصين على حب المسلمين للحق ، وعلى شجاعتهم فى الدفاع عما يعتقدونه حقا . وقد استشهد على صحة قوله بحوادث استخرجها من تاريخ الصين تدل على بطولة مسلمى الصين وإخلاصهم لوطنهم ، وضرب لذلك مثلا بالجنرال تشانج يوتشو الذى اشتهر بالبطولة فى أسرة مينج الملكية .

« ونوه بعد ذلك بالحرية العظيمة الممنوحة للأديان فى الصين حيث يوجد فيها بوذيون وتاويون ونصارى ومسلمون .

« وقد افتتحت الجلسة بعمل دينى مؤثر جدا وهو قيام الرئيس الاسلامى الصينى الامام بقراءة آيات من القرآن ، وعقبه بدعاء رجا فيه من الله أن يجعل النصر النهائى من نصيب الصين » .

(مجلة الازهر) : هذه شهادة رئيس أكبر حكومة فى الأرض يبلغ عدد أتباعها نحو خمسمائة مليون نسمة ، فالمسلمون أينما كانوا ، ومن أى جنس كانوا ، لا تزايلهم ما أكسبتهم أصولهم الصحيحة ، وهو حبهم للحق والدفاع عنه ، والاخلاص للبلاد التى يعيشون فيها ، ولولا أنهم

على هذه الأخلاق السامية لبادوا فى وسط تلك الكثرة الساحقة ، ولما بلغ عددهم عدد أمة عظيمة تؤلف مملكة قوية ، لا سيما ولم تكن الصين فى جميع عهودها على مثل ما هى عليه اليوم من التسامح الدينى ، والحرية الاعتقادية .

فى سبيل الأرواح الاسلامية :

كتب العلامة جورج جويو من المجمع العلمى الفرنسى مقالا فى جريدة (لا كروا) أى الصليب ، تحت هذا العنوان ، ما يلى :

« ظهر العالم الاسلامى فى خلال العصور إزاء العالم المسيحى ككتلة مندمجة لا يمكن النفوذ الى باطنها . وإن طلب نشرة يوليو التبشيرية أن يدعو الناس لقبول المسلمين الاعتراف بالمسيح ، يقتضى وجود ثقة مطلقة فى أنه فى مستقبل قريب أو بعيد سنصبح قلوب المسلمين مفتوحة للدعوة المسيحية ، وأنها ستدخلها لا محالة .

« وقد أوضح الأب شارل فى نشرته المدعوة (دوسيهات الأعمال التبشيرية) موقف الاسلام ومعارضته فى كل العصور للديانة المسيحية . وهذا القس الذى لا ينخدع للألفاظ ولا للآراء المقررة ، والذى يجدد بصدق بحوثه مواقع الدفاع عن المسيحية ، بيّن أن الاسلام بين جميع الأديان العظيمة العالمية قد وجد بعد المسيحية ، وأنه من بينها هو الدين الوحيد الذى يقدم نفسه للناس تحت عنوان أنه الكمال النهائى للمسيحية ، وأنه بعد أن اجتاز حدود القومية التى نشأ فيها ، قد ارتقى ليس فى كثرة عدد أتباعه فحسب ولكن بسريانه فى مناطق جديدة . وقد حدث فى مدى القرون الماضية كلها أن هذين الدينين المسيحى والاسلامى قد تصادما وتقاتلا دون أن يتصل أحدهما بالآخر اتصالا وثيقا . وهنا قال الأب شارل حرفيا : « إن هذين الدينين قد عاشا جنبا الى جنب فاقتتلا مستهترين ، ولكنهما ظلا متجاهلين » . ولم تظهر أول ترجمة للقرآن مصحوبة بمقدمة فى تفنيده إلا على عهد البابا (اينوسان) الحادى عشر أى فى آخر القرن السابع عشر .

« هذا من ناحية المسيحية ، وأما من ناحية الاسلام فانه بوقوعه فى خطأ من العلم بعقيدة التثليث كسا نفسه برداء العظمة باعتبار أنه دين التوحيد الخالص ، وتصدى لاتهام العقيدة فى المسيح ، على ما هى عليه فى الكنيسة ، بأنها تخل بعقيدة التوحيد وتجحدها . وهذا الاسلام الذى لا يعرف إلا القليل من المسيحية ، ويحكم عليها هذا الحكم السيء ، قد اعتبره مسيحيو القرن السابع والثامن بدعة مسيحية مشبعة بالروح الاريانية والنسطورية (١) . والمسيحيون الذين ينظرون الى الموضوع من قرب يرون لدى المسلمين الاولين اعتقادا فى

(١) الاريانية والنسطورية من المذاهب المسيحية الموحدة .

قدسية المسيح ، وعظمة العذراء ، وفى وجود الكون من العدم . وقد اعتمد الاسلام على كل ما حوته الأساطير القديمة فى علم الكون والعالم الروحانى . ولكن هذا الحشو الرث لا يجوز أن يحجب ما بقى من الآراء المسيحية فى الأفكار الاسلامية . أما تعدد الزوجات فقد اعتبر زمانا طويلا هوة سحيقة بين الاسلام والمسيحية ، وهى فى الواقع هوة لا يمكن اجتيازها .

« ولكن الأب شارل ينبه فى كتابه الذى نحن بصدده على : أن تعدد الزوجات ليس باجبارى فى الاسلام ، ولكنه كان عادة قديمة عند القبائل العربية ، وأنه قد زال الآن من ممالك إسلامية عديدة ، وأنه ليس بأصيل فى الاسلام .

« وعليه فلا نقول إن وطأة الخلاف بين المسيحية والاسلام تخف ببيان هذا العالم التبشيرى ، ولكن تقل الحوائل التى تقوم بينهما ارتفاعا وعرضا .

« إن هذه الدراسة النيرة للأب شارل توافق الوقت الذى اتجهت فيه عزيمة رجال التبشير على اجتذاب المسلمين الى العقيدة المسيحية ، وحتى فى الأوقات التى كان الناس فيها لا يعرفون جيدا ما هية الاسلام ، كانت الكنيسة ليست واقفة جامدة حيال الانتشار السريع للاسلام وازدياد طغيان موجته فى العالم ، وهذه الموجة كانت لأجل أن تنتشر تعتمد على القوة ، فكانت الحروب الصليبية ردا على هذه القوة باسم الحق .

« ولكن فى الوقت نفسه كانت تتهيأ حركة فى النفوس ابتدأت فى القرن الثالث عشر ، وهى حركة سان لويز الذى قام بالاغارة على تونس محاولا بذلك أن يقود الى المسيح روح السلطان (١) وحركة ريمون لول الداعية المسيحى أمام جموع المسلمين ، وقد كاد يستشهد وهو يقوم بواجبه . وها نحن بعد مرور سبعة قرون نرى أنفسنا حيال رسولين للمسيح الى المسلمين ، وهما الأب فوكولد ، والأب شارل أندريه بواسونييه » .

« وقد نصبت لوحة تذكارية لهذا المبشر كتب فى السطر الثانى منها « سفير المسيح الى أرض الاسلام » . ولما كانت سنة ١٩١٥ وخطب الأب داسونفيل فى مدينة ليل ينصح بوقف حركة التبشير ، ألمّ بذكر الأب فوكولد والخمسين مليونا من غير المؤمنين الواجب على فرنسا تنصيرهم ، وكان حاضرا فى جملة الذى يشملهم القعود عن التبشير شاب هو الذى يرجى فيه أن يكون نديدا لفوكولد ألا وهو بواسونييه . وهذا قد أعمل فكره فيما هو بصدده من هذا العمل الخطير ، وقدر الصعوبات التى تحول دونه حق قدرها ، ثم اعتزم أن يسير فى تحقيق أغراضه متوخيا الجرى على الحكمة التى قالها وهى : « لنعمل كأن النجاح لا يتعلق إلا بجهوداتنا الانسانية وحدها ، وادع الله دعاء من يعتقد أن النجاح يستدعى إحداث آية » .

(١) لعله يريد روح سلطان تونس .

« ولما أصبح الأب بواسونييه قسيسا جعل من أغراضه تحقيق ثلاثة أمور :

(أولاها) العمل على إزالة الأوهام والسخائم التي يوحيها منظر كل أجنبي الى قلوب المسلمين ، وهذا لا يكون إلا بأن يجعل الأجنبي من نفسه عربيا عائشا بين العرب .

(ثانيها) كسب احترامهم بتقمص روح القداسة باطنا وظاهرا .

(ثالثها) اجتذاب قلوبهم بالقيام بالأعمال الخيرية ، مع تجنب إثارة الخلافات الدينية .

« هذا هو البرنامج الذي سنه وجرى عليه الأب شارل أندريه بواسونييه في مؤسسته بتازيرت . ولما ألمت به المنية في فبراير من سنة ١٩٣٨ صارت تازيت كنقطة مضيئة تتراءى بسببها شجرة الإيمان المسيحي خفية للأرواح المسلمة مشيرة الى ثمرتها اليانعة وهي الاحسان الى الغير .

« ألا إن أرواحا كروح الأب فوكولد وروح الأب بواسونييه تمهد الى الاسلام طرقا بواسطتها تستطيع المسيحية أن تقترب منه . وما تلقيناه هذا الشهر من الرجاء المنشور في النشرة التبشيرية سينال من الله تعالى قبولا ، فتتوسع هذه الطرق التي تتيح للمسيح أن يتجه منها الى الاسلام اتجاه الظافر المنتصر » .

(مجلة الأزهر) : إن رجال الدين في أوربا وأمريكا يدعون الى تناسي الأحقاد الدينية ، وتأسيس زمالة إنسانية بين الناس أجمعين ، بصرف النظر عن عقائدهم ومذاهبهم ، وهم يقيمون لإذاعة هذا التسامح المؤتمرات في أكبر عواصمهم ، ولكنهم لا يفتأون يحاولون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ليصبأوا الى ملتهم . وقد سلكوا لتحقيق أغراضهم طرقا شتى يعرفها جميع القارئين ، وليس يجمل هنا سردها . واليوم يبشرنا المسيو (جورج جويو) أن القس بواسونييه ارتأى أن يسلك في اجتذاب المسلمين طريق الإحسان اليهم ، وقد فصل وجوه ذلك الاحسان . وإنا نشكره على دعوته الى وجوب تحول الدعاة عن طريقتهم الموجبة لسوء الظن والسخائم الى طريقته من المسالمة والمصانعة ، وإن كانت لا تؤدي الى فتنة المسلمين عن دينهم كما يريد .

ونحن نعجب من هؤلاء الدعاة يبذلون أموالا طائلة في سبيل الدعوة التي يقومون بها ، ويتذرعون لترويجها بكل ما تتخيله عقولهم من الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، إلا وسيلة واحدة ، وهي (الاقناع) . فمهما بالغت في الدعوة لمذهب ، وتفننت في لفت النظر اليه ، وأشبعت في سبيله بطونا غرثى ، وكسوت أجسادا عريا ، وعالجت جسوما مرضى ، فلن تبلغ من المدعوين أكثر من الشكر على حسن صنيعك ، أما الانتقال اليه ، والتعويل في توفية حاجة العاطفة الدينية عليه ، فسبيله أمر آخر غير الاحسان المادي وهو الاقناع العقلي . وهذا الاقناع يغني عن كل الوسائل الأخرى كما ثبت ذلك عمليا . فقد ذكر الكاردينال الفرنسي المشهور (لافيجري) في تقاريره أن المسيحية والاسلامية تتنازعنا السلطان على عقول متوحشي أفريقا ، الأولى يمثلها رجال تساعدهم الحكومات ، وتحت أيديهم أموال طائلة ينفقونها

اجتذابا لأهواء أولئك المتوحشين ، والثانية يمثلها دراويش فقراء يعيشون عالة على المدعوين ، أو تجار لا يبذلون درهما واحدا فى سبيلها ، فكانت النتيجة أن دخل فى الاسلام نحو ستين مليونا فى القرن الأخير ، ولم تثمر الدعوة المقابلة لها شيئا يذكر .

وقد انتشر الاسلام فى أول ظهوره بهذه الوسيلة نفسها ، فقبلته النفوس مطمئنة اليه ، لموافقته لما فطرت عليه من حب التعقل لما تدين له ، وإذا كان قد كتب لهذا الدين أن ينتشر بين الناس كافة ، فلن يكون ذلك إلا بهذه الوسيلة لا غيرها .

فإذا عمل الدعاة بما يقوله الأب بواسو نييه فلبسوا لبوس العرب ، وتعلموا لغتهم ، وعاشوا بين ظهرانيهم ، وعاملوهم بالبر والاحسان ، فلا نشك فى أن هؤلاء الدعاة أنفسهم يصبأون الى الاسلام بعد أن يفهموه ، لأنه لا محيد لنفس بشرية عن سبيله إذا كانت تريد أن تستقيم على الجادة الصحيحة .

وقد قل أن تصادف من يذكر الاسلام ولا يذكر تعدد الزوجات ، والغرض من ذكره إشعار المخاطب بأنه بسبيل دين شهوانى يحلل التوسع فى اقتناء النسوة لزيادة الاستمتاع المادى . وقد ألممنا بهذا الموضوع فى العدد الماضى فى صفحتى ٧١٦ و ٧١٧ فليرجع اليه .

على أن فهم الحكمة فى إقرار الاسلام لمبدأ تعدد الزوجات وحصره سهل جدا ، ذلك أن النظم الاجتماعية التى قصرت الزواج على واحدة قد خابت كلها ، لأن الناس احتالوا على تعديد الزوجات باتخاذ الخدينات ، وقد كان ذلك شائعا فى أعظم عصور المسيحية ، ولا تزال هذه العادة معمولا بها فى جميع البلاد المتمدنة .

ولما كان مبدأ التعديد ناشبا فى بعض النفوس الى هذا الحد كما ترى ، رأى الاسلام أن لا يفلت من رعايته ملايين النسوة اللاتى يوقعهن الرجال فى حبائلهم ، فأبدل مبدأ السماح بتعديد الزوجات بمبدأ اتخاذ الخدينات (المتريسات) ، وغرضه من ذلك أن لا تحرم هؤلاء الملايين من النسوة والأولاد من حقوقهم المشروعة ، وأن لا ينتشر البغاء باسم القانون ويتغلغل فى النفوس .

فأى المذهبين أرقى علميا ، وأرحم اجتماعيا ، وأجمل أثرا أدبيا ؟

ليتخيل المسيو (جورج جويو) ما تؤول إليه حالة قبيلة يحرم فيها تعديد الزوجات ، ويباح فيها الفسق والمخادنة ، ألا يرى أن حالة المرأة فيها تسوء الى حد لا تمكن إطاقته ، وتتدهور فيها الأخلاق تدهورا لا قرار له ؟

الخلاصة : أن الاسلام قد نشأ يكتنفه المنطق والعلم ، وعاش وهما سلاحه طول حياته ، وسيعيش مصاحبا لهما فى جميع أدواره ، وما كان كذلك استحال أن يهجره ذووه إلا إذا هجروا العلم والمنطق ، وهذا محال أىّ محال ؟

محمد فريد وجدى

نظام الوقف في الاسلام

نحاول اليوم أن نعرض للكلام عن الشهادة بالوقف وما يتعلق بها ، بعد أن عرضنا لأصل الوقف فى أنواعه المختلفة :

نقل صاحب البحر جواز الشهادة على الوقف من الرجال والنساء ، وجواز الشهادة على الشهادة بشرائطها المبينة فى بابها مما تدعو الضرورة الى صردها ، والشهادة احتسابا ، فلا يشترط عند علماء الوقف أن تقترن الدعوى بالشهادة ابتداء ، بل يجوز فى أثناء نظر الدعوى أن يتقدم شهود الى القاضى فيشهدوا بواقعة معينة يعود إثباتها بالمنفعة على جهة الوقف ، كما حدث فى عدة محاكم كلية . والقدر المتفق عليه بين العلماء لتجويز ذلك : أن الوقف عمل من أعمال البر قصد به الترفيه عن جماعة من الانسان ابتغاء أن يدفعوا عنها عوارض الفقر وذل الفاقة ، فكان من الترخص فى هذا السبيل تيسير الاثبات للعين الموقوفة بالقدر المصحح لهذا الاثبات ، حتى تكثر أنواع البر ، وتتلاقى النوايا الطيبة فى ملتقى واحد .

من أجل ذلك أجاز علماء الفروع للقاضى أن يسمع الدعوى مقترنه بالشهادة على معين أو غير معين من الوقف ، وإن كان صاحب كتاب أنفع الوسائل يرى أن الشهادة على غير معين لا تثبت إلا أصل الوقف إذا كانت حسبة ، أما إذا كانت الشهادة على معين فيشترط فيه لصحتها تقدم الدعوى مقترنة بذكر الشهادة لتكون صحيحة الأركان من الناحية القضائية . وليس تقدم الدعوى صحيحة على شهادة الحسبة ضروريا ، لأن الوقف عمل من أعمال البر ، ونوع من التعاون بين الأغنياء والفقراء .

وكما لا يشترط تقدم هده الدعوى صحيحة فى الوقف ، أجاز الفقهاء الشهادة فيه بالتسامع . وقد عرف الفقهاء شهادة التسامع أن يشهد الشخص بما لم يعاينه بناء على إخبار جمع من الناس يؤمن تواطؤهم على الكذب أو شهادة عدلين عنده بذلك ، فالوقف إذا كان على جهة بر لا تنقطع تقبل فيه الشهادة بالتسامع ، فلو شهد جماعة مثلا بأن مكان كذا وقف على مسجد أو مدرسة أو ملجأ ، صحت شهادتهم ، وثبت كون المشهود عليه وقفا على الجهة التى سموها فى شهادتهم . لكنهم لو شهدوا فى حالة أخرى غير مماثلة لتلك الحالة ، كأن شهدوا على أن الواقف شرط فى وقفه ألا تصرف غلة الموقوف إلا الى ولده فلان دون فلان ، ففى هذه الحالة لا تسمع شهادة الحسبة .

ويشترط فى الشهادة بالتسامع فى الوقف تحديد الموقوف تحديدا تاما بحيث لا يلتبس بغيره إن لم يكن مشهورا متميزا بين الناس ، فان كان كذلك فشهرته تغنى عن تحديده ، ويكفى الاختصار منه بثلاثة حدود على الراجح ، كما يشترط أن لا يجر الشاهد بهذه الشهادة مغنما الى نفسه ، وأن

لا يدفع عنها مغرما ، وألا يكون موتورا ، وألا تعود شهادته ببعض المغانم الى ذوى قرباهم مما سوف يؤول اليهم استحقاقه فى العين المشهود عليها منهم . فلو شهد بأن الواقف وقف عليه أو على أولاده أو نسله أو من تجمعه به قرابة ، لم تصح الشهادة ، لأنها جرت مغنما للشاهد بالذات أو بالواسطة .

ومثل ذلك ما لو شهد بأن العين وقف على فقراء قرابته ، حتى لو كانوا أغنياء وقت الشهادة ، لاحتمال أن يعرض لهم الفقر مآلا ، غير أن العلماء قد استثنوا حالة أخرى قد تكون شبيهة بأهل قرابة الشاهد فى بعض الأحايين ، وهى أن يشهد الشاهد بوقف عين يستحق فيها جيرانه أو أحدهم ، لأن الجوار مما يتغير ، فقد يجاورك شخص ثم يبعد عنك يوما ما ، وهذا كاف فيه احتمال البعد ، وإلا فمن ذا الذى يسوى من الفقهاء بين جوار قد تتحول أحواله ويتغير مآله وبين قرابة لا تزول ولا تدول ؟ ولم يفرق بعض العلماء بين الجوار والقربى ، وطرد الباب على وتيرة واحدة ، واعتبر تغيير مكان الجوار وتنقل الجيران من مكان الى مكان ، عارضا من العوارض التى قد تطرأ وقد لا تطرأ ، والاعتبارات الشرعية لا يصح ابتناؤها على فروض مستقلة قد تقع وقد لا تقع ، إنما تقام على حالات راهنة تتخذ مقياسا لصلاحيتها أو عدم صلاحيتها .

ومما لا مشاحة فيه أن شهادة الحسبة معتبرة شرعا ، وأكثرها اعتبارا فى المسائل التى تعود على المجتمع بجدوى وفائدة . وقد أقام المشرع الاسلامى لشهادة الحسبة وزنا غير يسير ، فأدخلوا فى باب لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لسنة ١٩٣١ نظام الحسبة بعد الأذن بالخصومة ، ونظموا الإذن بالخصومة تنظيما يكفل سماع شهادة الحسبة على وجه قضائى يرفع الدعوى المشهودة الى درجة القبول أمام القاضى .

وللبحث تفصيلات أخرى نعود اليها إن شاء الله فى المستقبل القريب !

عباس ط.

لحضرات المشتركين

لما كان نظامنا المالى يقضى بعدم إرسال المجلة إلا لمن يدفع اشتراكها أو جزءا منه فنرجو حضرات القراء بأن يبادروا بالاكتتاب منذ اليوم .

بحوثنا فى السنة المقبلة

١ — العوامل الأدبية التى استخدمها الاسلام لتطوير الشخصية الانسانية .

٢ — صحف مختارة عن أقطاب العلم العصرى .

اعتزمنا بعون الله وتوفيقه أن نفتتح السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر ببحثين جديدين مع مباحثنا الأخرى :

(أولهما) دراسة العوامل الأدبية التى استخدمها الاسلام لتطوير الشخصية الانسانية . وهذه الدراسة ضرورية للشعوب الاسلامية الراهنة التى تود أن تنهض بالمبادئ الاسلامية ، الى حيث بلغ أسلافها الأولون فى سنين معدودة .

معلوم بالضرورة أن الأمة العربية الى عهد نزول القرآن كانت لا تزال على الحالة القبيلية ، حتى ما كان مضطرا منها للاحتكاك بالأمم المنظمة بقى على تلك الحالة الى أن جاء الاسلام فأنقذه منها ، وجعل من العرب أمة ذات مبادئ مقررة ، وأصول محررة ، وغاية مرجوة ، ثم دفع بها الى مزدحم الجماعات البشرية لتبتلى بجميع ما يتصور من المحللات الاجتماعية ، فلم ينفصم تماسكها ، ولم ينحل ترابطها ، ولكنها صمدت للأحداث تغالبها حتى بلغت أرقى ما تبلغه أمة فى مجالى العلم والعمل ، وأرفع ما تتوج به جهود شعب من السؤدد والغلب .

هذه حادثه فذة فى تاريخ الانسانية ، تقتضى عوامل من ضرب عال جدا تستخدم لاحداثها ، فما هى هذه العوامل ، وكيف أثرت طفرة فى شعب كان مجردا منها ؟

هذا موضوع ثرى لدراسات متوالية فى صميم الآيات القرآنية ، ولباب العلوم الاجتماعية والنفسية .

(ثانيهما) الصحف المختارة وقد سبق الكلام عنها فلا نكرره هنا .

أسرار البلاغة — فى علم البيان :

أصدرت دار المنار فى هذه الأيام هذا الكتاب النفيس لمؤلفه الإمام « عبد القاهر الجرجانى » مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد صقيل . والكتاب ومؤلفه غنيان عن التعريف . وقد وضع فى وقت تحكمت فيه دولة الألفاظ واستبدت على المعانى . وهو خير ما كتب فى موضوعه عبارة وأسلوبا ، وإيضاحا للمسائل وبسطا للدلائل . وقد امتاز بإرجاع الاصطلاحات الفنية الى علم النفس وتأثير الكلام البليغ فى العقل والقلب . وقد عنى بتصحيحه علامتنا

المعقول والمنقول المرحومان الشيخ « محمد عبده » والشيخ « محمد محمود الشنقيطى » ، وعلق حواشيه العلامة المرحوم « السيد محمد رشيد رضا » منشئ مجلة المنار .

ثمن النسخة ٢٥ قرشا .

سمو المعنى فى سمو الذات :

هـذا اسم كتاب فى سيرة الحسين بن على رضى الله عنهما ، وتاريخه كما يعلم القـراء جزء من حوادث جسام حدثت فى القرن الاسلامى الأول بسبب ولاية الحـكم ، المطلع عليها يشرف من قرب على الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين فى ذلك العهد ، والـكتاب الذى بين أيدينا يسرد تلك الحوادث ويحللها تحليلا دقيقا ، وفى الـكتاب بحوث بسيكولوجية ممتعة فى الاسلام والقرآن والشخصية والمبدأ والصراحة والبطولة الخ مكتوبة بلغة فصيحة وأسـلوب شائق ، فنشكر للمؤلف الفاضل الأستاذ الشيخ عبد الله العلايلى ، هديته ، ونرجو له التوفيق لابراز ما فى جعبته من المؤلفات ، وخاصة المعجم الجديد الذى وعد به .

الطبع والصنعة فى الشعر :

الأستاذ المفضال محمد الهبياوى كاتب بليغ وله فى الأدب جـولات ممتعة ، وفى تاريخه اطلاع واسع ، أتحفنا اليوم بكتاب قيم جميل الطبع والوضع بعنوان (الطبع والصنعة فى الشعر) أتى فيه على كل ما يتصل بهذا البحث ، فجاء كتابه تحفة فنية جعلتها عباراته العالية ، أطروفة علمية تقرأ وتكرر .

خواطرى :

هـذا اسم كتيب صغير وضـعه حضرة الأستاذ المفضال الشيخ محمود حسين مرعى من الجامعة الأزهرية ، يشن به حربا شعواء على الرذائل ، ويبنى به صرحا عاليا للفضائل . إن لمحاربة الرذائل ضروبا شتى ، ولـكن الضرب الذى ابتكره الأستاذ محمود حسين مرعى يعتبر طريفا ، لأنه يكافح الرذائل على طريقة الشعر المنثور المتشبع بعاطفة ملتهبة ، تضطر القارئ لقراءته وإعادته ، ولإسماعه لغيره ، على حين أن الـكتب التى تعالج هذا الموضوع لا تستهوى القارئ ، ولا تشوقه .

لا جرم أن هذه القوة الفنية التى تفيض من نفسية مؤلفنا الشاب تبشرنا بأنه سيجلى حين يستكمل آلات العمل فى ميدان الاجادة ، فيـكون فى الرعيل الاول من بناة الأخـلاق القيمة فى المستقبل .

الفهرس العام

السنة العاشرة (١٣٥٨ هـ) من مجلة الأزهر